مرکز القائمیة اصفهان للبحوث والتحریات الکمبیوتریة

السلام علیک یا صاحب الزمان

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

محمد بن علي بن محمد الشوكاني

(١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ)

طبعة جديدة منقحة ومصححة

الجزء الخامس

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

دار الكلم الطيب
دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحیم

فتح القدير: الجامع بين فنى الروايه والدرايه من علم التفسير

كاتب:

محمدبن على بن محمد الشوكانى

نشرت فى الطباعۀ:

بى جا

رقمى الناشر:

مركز القائميۀ باصفهان للتحريات الكمبيوتريۀ

الفهرس

الفهرس ---------- ۵

فتح القدير: الجامع بين فنى الروايه والدرايه من علم التفسير المجلد ۵ ---------- ۱۷

اشارة ---------- ۱۷

سورة الجاثية ---------- ۱۷

اشارة ---------- ۱۷

[سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۱ الى ۱۵] ---------- ۱۷

[سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۱۶ الى ۲۶] ---------- ۲۱

[سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۲۷ الى ۳۷] ---------- ۲۳

سورة الأحقاف ---------- ۲۶

اشارة ---------- ۲۶

[سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱ الى ۹] ---------- ۲۶

[سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱۰ الى ۱۶] ---------- ۳۰

[سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱۷ الى ۲۰] ---------- ۳۴

[سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۱ الى ۲۸] ---------- ۳۶

[سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۹ الى ۳۵] ---------- ۳۹

سورة محمّد ---------- ۴۲

اشارة ---------- ۴۲

[سورة محمد (۴۷): الآيات ۱ الى ۱۲] ---------- ۴۳

[سورة محمد (۴۷): الآيات ۱۳ الى ۱۹] ---------- ۴۷

[سورة محمد (۴۷): الآيات ۲۰ الى ۳۱] ---------- ۵۱

[سورة محمد (۴۷): الآيات ۳۲ الى ۳۸] ---------- ۵۵

سورة الفتح ---------- ۵۷

اشارة ---------- ۵۷

[سورة الفتح (۴۸): الآيات ۱ الى ۷] ---------- ۵۸

[سورة الفتح (۴۸): الآيات ۸ الى ۱۵] ---- ۶۱
[سورة الفتح (۴۸): الآيات ۱۶ الى ۲۴] ---- ۶۴
[سورة الفتح (۴۸): الآيات ۲۵ الى ۲۹] ---- ۶۷
سورة الحجرات ---- ۷۲
اشارة ---- ۷۲
[سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۱ الى ۸] ---- ۷۲
[سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۹ الى ۱۲] ---- ۷۶
[سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۱۳ الى ۱۸] ---- ۸۰
سورة ق ---- ۸۳
اشارة ---- ۸۳
[سورة ق (۵۰): الآيات ۱ الى ۱۵] ---- ۸۴
[سورة ق (۵۰): الآيات ۱۶ الى ۳۵] ---- ۸۸
[سورة ق (۵۰): الآيات ۳۶ الى ۴۵] ---- ۹۳
سورة الذّاريات ---- ۹۵
اشارة ---- ۹۵
[سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۱ الى ۲۳] ---- ۹۶
[سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۲۴ الى ۳۷] ---- ۱۰۱
[سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۳۸ الى ۶۰] ---- ۱۰۴
سورة الطّور ---- ۱۰۸
اشارة ---- ۱۰۸
[سورة الطور (۵۲): الآيات ۱ الى ۲۰] ---- ۱۰۸
[سورة الطور (۵۲): الآيات ۲۱ الى ۳۴] ---- ۱۱۲
[سورة الطور (۵۲): الآيات ۳۵ الى ۴۹] ---- ۱۱۵
سورة النجم ---- ۱۱۸
اشارة ---- ۱۱۸
[سورة النجم (۵۳): الآيات ۱ الى ۲۶] ---- ۱۱۸

[سورة النجم (۵۳): الآيات ۲۷ الى ۴۲] ۱۲۶
[سورة النجم (۵۳): الآيات ۴۳ الى ۶۲] ۱۳۱
سورة القمر ۱۳۴
اشارة ۱۳۴
[سورة القمر (۵۴): الآيات ۱ الى ۱۷] ۱۳۵
[سورة القمر (۵۴): الآيات ۱۸ الى ۴۰] ۱۴۰
[سورة القمر (۵۴): الآيات ۴۱ الى ۵۵] ۱۴۳
سورة الرّحمن ۱۴۵
اشارة ۱۴۵
[سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۱ الى ۲۵] ۱۴۶
[سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۲۶ الى ۴۵] ۱۵۰
[سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۴۶ الى ۷۸] ۱۵۵
سورة الواقعة ۱۶۲
اشارة ۱۶۲
[سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۱ الى ۲۶] ۱۶۲
[سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۲۷ الى ۵۶] ۱۶۸
[سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۵۷ الى ۷۴] ۱۷۲
[سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۷۵ الى ۹۶] ۱۷۵
سورة الحديد ۱۸۱
اشارة ۱۸۱
[سورة الحديد (۵۷): الآيات ۱ الى ۶] ۱۸۱
[سورة الحديد (۵۷): الآيات ۷ الى ۱۱] ۱۸۳
[سورة الحديد (۵۷): الآيات ۱۲ الى ۱۵] ۱۸۶
[سورة الحديد (۵۷): الآيات ۱۶ الى ۱۹] ۱۸۸
[سورة الحديد (۵۷): الآيات ۲۰ الى ۲۴] ۱۹۰
[سورة الحديد (۵۷): الآيات ۲۵ الى ۲۹] ۱۹۳

سورة المجادلة ---------- ۱۹۷
اشارة ---------- ۱۹۷
[سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۱ الى ۴] ---------- ۱۹۷
[سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۵ الى ۱۰] ---------- ۲۰۱
[سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۱۱ الى ۱۳] ---------- ۲۰۴
[سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۱۴ الى ۲۲] ---------- ۲۰۷
سورة الحشر ---------- ۲۱۰
اشارة ---------- ۲۱۰
[سورة الحشر (۵۹): الآيات ۱ الى ۷] ---------- ۲۱۰
[سورة الحشر (۵۹): الآيات ۸ الى ۱۰] ---------- ۲۱۵
[سورة الحشر (۵۹): الآيات ۱۱ الى ۲۰] ---------- ۲۱۹
[سورة الحشر (۵۹): الآيات ۲۱ الى ۲۴] ---------- ۲۲۲
سورة الممتحنة ---------- ۲۲۵
اشارة ---------- ۲۲۵
[سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۱ الى ۳] ---------- ۲۲۵
[سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۴ الى ۹] ---------- ۲۲۷
[سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۱۰ الى ۱۳] ---------- ۲۳۰
سورة الصفّ ---------- ۲۳۳
اشارة ---------- ۲۳۳
[سورة الصف (۶۱): الآيات ۱ الى ۹] ---------- ۲۳۴
[سورة الصف (۶۱): الآيات ۱۰ الى ۱۴] ---------- ۲۳۶
سورة الجمعة ---------- ۲۳۸
اشارة ---------- ۲۳۸
[سورة الجمعة (۶۲): الآيات ۱ الى ۸] ---------- ۲۳۹
[سورة الجمعة (۶۲): الآيات ۹ الى ۱۱] ---------- ۲۴۱
سورة المنافقون ---------- ۲۴۴

اشارة ----- ۲۴۴
[سورة المنافقون (۶۳): الآيات ۱ الی ۸] ----- ۲۴۴
[سورة المنافقون (۶۳): الآيات ۹ الی ۱۱] ----- ۲۴۷
سورة التغابن ----- ۲۴۹
اشارة ----- ۲۴۹
[سورة التغابن (۶۴): الآيات ۱ الی ۶] ----- ۲۴۹
[سورة التغابن (۶۴): الآيات ۷ الی ۱۳] ----- ۲۵۱
[سورة التغابن (۶۴): الآيات ۱۴ الی ۱۸] ----- ۲۵۳
سورة الطّلاق ----- ۲۵۴
اشارة ----- ۲۵۴
[سورة الطلاق (۶۵): الآيات ۱ الی ۵] ----- ۲۵۴
[سورة الطلاق (۶۵): الآيات ۶ الی ۷] ----- ۲۵۹
[سورة الطلاق (۶۵): الآيات ۸ الی ۱۲] ----- ۲۶۰
سورة التّحريم ----- ۲۶۳
اشارة ----- ۲۶۳
[سورة التحريم (۶۶): الآيات ۱ الی ۵] ----- ۲۶۳
[سورة التحريم (۶۶): الآيات ۶ الی ۸] ----- ۲۶۷
[سورة التحريم (۶۶): الآيات ۹ الی ۱۲] ----- ۲۶۹
سورة الملک ----- ۲۷۱
اشارة ----- ۲۷۱
[سورة الملک (۶۷): الآيات ۱ الی ۱۱] ----- ۲۷۱
[سورة الملک (۶۷): الآيات ۱۲ الی ۲۱] ----- ۲۷۵
[سورة الملک (۶۷): الآيات ۲۲ الی ۳۰] ----- ۲۷۷
سورة القلم ----- ۲۸۰
اشارة ----- ۲۸۰
[سورة القلم (۶۸): الآيات ۱ الی ۱۶] ----- ۲۸۰

[سورة القلم (٦٨): الآيات ١٧ الى ٣٣] ----- ٢٨٥
[سورة القلم (٦٨): الآيات ٣٤ الى ٥٢] ----- ٢٨٧
سورة الحاقّة ----- ٢٩٢
اشارة ----- ٢٩٢
[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١ الى ١٨] ----- ٢٩٢
[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١٩ الى ٥٢] ----- ٢٩٧
سورة المعارج ----- ٣٠٢
اشارة ----- ٣٠٢
[سورة المعارج (٧٠): الآيات ١ الى ١٨] ----- ٣٠٢
[سورة المعارج (٧٠): الآيات ١٩ الى ٣٩] ----- ٣٠٦
[سورة المعارج (٧٠): الآيات ٤٠ الى ٤٤] ----- ٣٠٩
سورة نوح ----- ٣١١
اشارة ----- ٣١١
[سورة نوح (٧١): الآيات ١ الى ٢٠] ----- ٣١١
[سورة نوح (٧١): الآيات ٢١ الى ٢٨] ----- ٣١٥
سورة الجنّ ----- ٣١٧
اشارة ----- ٣١٧
[سورة الجن (٧٢): الآيات ١ الى ١٣] ----- ٣١٧
[سورة الجن (٧٢): الآيات ١٤ الى ٢٨] ----- ٣٢٣
سورة المزّمّل ----- ٣٢٩
اشارة ----- ٣٢٩
[سورة المزمل (٧٣): الآيات ١ الى ١٨] ----- ٣٣٠
[سورة المزمل (٧٣): الآيات ١٩ الى ٢٠] ----- ٣٣٧
سورة المدّثّر ----- ٣٣٩
اشارة ----- ٣٣٩
[سورة المدثر (٧٤): الآيات ١ الى ٣٠] ----- ٣٣٩

[سورة المدثر (۷۴): الآيات ۳۱ الى ۳۷] ---- ۳۴۶
[سورة المدثر (۷۴): الآيات ۳۸ الى ۵۶] ---- ۳۴۸
سورة القيمة ---- ۳۵۱
اشارة ---- ۳۵۱
[سورة القيامة (۷۵): الآيات ۱ الى ۲۵] ---- ۳۵۱
[سورة القيامة (۷۵): الآيات ۲۶ الى ۴۰] ---- ۳۵۸
سورة الإنسان ---- ۳۶۰
اشارة ---- ۳۶۰
[سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۱ الى ۱۲] ---- ۳۶۱
[سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۱۳ الى ۲۲] ---- ۳۶۷
[سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۲۳ الى ۳۱] ---- ۳۷۱
سورة المرسلات ---- ۳۷۳
اشارة ---- ۳۷۳
[سورة المرسلات (۷۷): الآيات ۱ الى ۲۸] ---- ۳۷۳
[سورة المرسلات (۷۷): الآيات ۲۹ الى ۵۰] ---- ۳۷۷
سورة النّبأ ---- ۳۸۰
اشارة ---- ۳۸۰
[سورة النبإ (۷۸): الآيات ۱ الى ۳۰] ---- ۳۸۰
[سورة النبإ (۷۸): الآيات ۳۱ الى ۴۰] ---- ۳۸۷
سورة النّازعات ---- ۳۹۰
اشارة ---- ۳۹۰
[سورة النازعات (۷۹): الآيات ۱ الى ۲۶] ---- ۳۹۰
[سورة النازعات (۷۹): الآيات ۲۷ الى ۴۶] ---- ۳۹۷
سورة عبس ---- ۴۰۱
اشارة ---- ۴۰۱
[سورة عبس (۸۰): الآيات ۱ الى ۴۲] ---- ۴۰۲

سورة التّكوير ---------- ۴۰۷
اشارة ---------- ۴۰۷
[سورة التكوير (۸۱): الآيات ۱ الى ۲۹] ---------- ۴۰۸
سورة الانفطار ---------- ۴۱۵
اشارة ---------- ۴۱۵
[سورة الانفطار (۸۲): الآيات ۱ الى ۱۹] ---------- ۴۱۵
سورة المطفّفين ---------- ۴۱۸
اشارة ---------- ۴۱۸
[سورة المطففين (۸۳): الآيات ۱ الى ۱۷] ---------- ۴۱۸
[سورة المطففين (۸۳): الآيات ۱۸ الى ۳۶] ---------- ۴۲۲
سورة الانشقاق ---------- ۴۲۶
اشارة ---------- ۴۲۶
[سورة الانشقاق (۸۴): الآيات ۱ الى ۲۵] ---------- ۴۲۶
سورة البروج ---------- ۴۳۲
اشارة ---------- ۴۳۲
[سورة البروج (۸۵): الآيات ۱ الى ۲۲] ---------- ۴۳۲
سورة الطّارق ---------- ۴۴۰
اشارة ---------- ۴۴۰
[سورة الطارق (۸۶): الآيات ۱ الى ۱۷] ---------- ۴۴۰
سورة الأعلى ---------- ۴۴۴
اشارة ---------- ۴۴۴
[سورة الأعلى (۸۷): الآيات ۱ الى ۱۹] ---------- ۴۴۵
سورة الغاشية ---------- ۴۵۰
اشارة ---------- ۴۵۰
[سورة الغاشية (۸۸): الآيات ۱ الى ۲۶] ---------- ۴۵۱
سورة الفجر ---------- ۴۵۵

اشارة ----- ۴۵۵
[سورة الفجر (۸۹): الآيات ۱ الى ۱۴] ----- ۴۵۶
[سورة الفجر (۸۹): الآيات ۱۵ الى ۳۰] ----- ۴۶۲
سورة البلد ----- ۴۶۵
اشارة ----- ۴۶۵
[سورة البلد (۹۰): الآيات ۱ الى ۲۰] ----- ۴۶۵
سورة الشمس ----- ۴۷۱
اشارة ----- ۴۷۱
[سورة الشمس (۹۱): الآيات ۱ الى ۱۵] ----- ۴۷۱
سورة الليل ----- ۴۷۵
اشارة ----- ۴۷۵
[سورة الليل (۹۲): الآيات ۱ الى ۲۱] ----- ۴۷۵
سورة الضّحى ----- ۴۷۹
اشارة ----- ۴۸۰
[سورة الضحى (۹۳): الآيات ۱ الى ۱۱] ----- ۴۸۰
سورة الشرح ----- ۴۸۵
اشارة ----- ۴۸۵
[سورة الشرح (۹۴): الآيات ۱ الى ۸] ----- ۴۸۵
سورة التّين ----- ۴۸۸
اشارة ----- ۴۸۸
[سورة التين (۹۵): الآيات ۱ الى ۸] ----- ۴۸۸
سورة العلق ----- ۴۹۲
اشارة ----- ۴۹۲
[سورة العلق (۹۶): الآيات ۱ الى ۱۹] ----- ۴۹۲
سورة القدر ----- ۴۹۶
اشارة ----- ۴۹۶

[سورة القدر (۹۷): الآيات ۱ الى ۵] ---- ۴۹۶
سورة البيّنة ---- ۴۹۸
اشارة ---- ۴۹۹
[سورة البينة (۹۸): الآيات ۱ الى ۸] ---- ۴۹۹
سورة الزّلزلة ---- ۵۰۳
اشارة ---- ۵۰۳
[سورة الزلزلة (۹۹): الآيات ۱ الى ۸] ---- ۵۰۴
سورة العاديات ---- ۵۰۶
اشارة ---- ۵۰۶
[سورة العاديات (۱۰۰): الآيات ۱ الى ۱۱] ---- ۵۰۷
سورة القارعة ---- ۵۱۱
اشارة ---- ۵۱۱
[سورة القارعة (۱۰۱): الآيات ۱ الى ۱۱] ---- ۵۱۱
سورة التّكاثر ---- ۵۱۳
اشارة ---- ۵۱۳
[سورة التكاثر (۱۰۲): الآيات ۱ الى ۸] ---- ۵۱۴
سورة العصر ---- ۵۱۷
اشارة ---- ۵۱۷
[سورة العصر (۱۰۳): الآيات ۱ الى ۳] ---- ۵۱۷
سورة الهمزة ---- ۵۱۸
اشارة ---- ۵۱۸
[سورة الهمزة (۱۰۴): الآيات ۱ الى ۹] ---- ۵۱۸
سورة الفيل ---- ۵۲۰
اشارة ---- ۵۲۰
[سورة الفيل (۱۰۵): الآيات ۱ الى ۵] ---- ۵۲۱
سورة قريش ---- ۵۲۳

اشارة ----- ۵۲۳
[سورة قريش (۱۰۶): الآيات ۱ الى ۴] ----- ۵۲۳
سورة الماعون ----- ۵۲۵
اشارة ----- ۵۲۵
[سورة الماعون (۱۰۷): الآيات ۱ الى ۷] ----- ۵۲۵
سورة الكوثر ----- ۵۲۸
اشارة ----- ۵۲۸
[سورة الكوثر (۱۰۸): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۵۲۸
سورة الكافرون ----- ۵۳۱
اشارة ----- ۵۳۱
[سورة الكافرون (۱۰۹): الآيات ۱ الى ۶] ----- ۵۳۲
سورة النّصر ----- ۵۳۴
اشارة ----- ۵۳۵
[سورة النصر (۱۱۰): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۵۳۵
سورة المسد ----- ۵۳۷
اشارة ----- ۵۳۷
[سورة المسد (۱۱۱): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۳۷
سورة الإخلاص ----- ۵۴۰
اشارة ----- ۵۴۰
[سورة الإخلاص (۱۱۲): الآيات ۱ الى ۴] ----- ۵۴۲
سورة الفلق ----- ۵۴۴
اشارة ----- ۵۴۴
[سورة الفلق (۱۱۳): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۴۶
سورة النّاس ----- ۵۴۸
اشارة ----- ۵۴۹
[سورة الناس (۱۱۴): الآيات ۱ الى ۶] ----- ۵۴۹

فهرس الموضوعات ---------- ۵۵۱
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ---------- ۵۵۳

فتح القدیر: الجامع بین فنی الروایه والدرایه من علم التفسیر المجلد ۵

اشارة

سرشناسه : شوکانی، محمدبن علی، ق ۱۲۵۰ - ۱۱۷۳
عنوان و نام پدیدآور : فتح القدیر: الجامع بین فنی الروایه والدرایه من علم التفسیر/ تالیف محمدبن علی بن محمد الشوکانی؛ راجعه و علق علیه هشام النجاری خضر عکاری
مشخصات نشر : بیروت : المکتبه المصریه: [بی‌جا]: مکتبه العبیکان ، ۱۴۱۸ق. = ۱۹۹۷م = ۱۳۷۶.
مشخصات ظاهری : ج ۵
وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی
یادداشت : چاپ قبلی: مصطفی البابی الحلبی، ۱۳۵۱
یادداشت : کتابنامه
موضوع : تفاسیر
موضوع : تفاسیر اهل سنت
موضوع : تفاسیر شیعه
شناسه افزوده : نجاری، هشام ، محقق
شناسه افزوده : عکاری، خضر، محقق
رده بندی کنگره : BP۹۱/ش۹ف۲
شماره کتابشناسی ملی : م ۸۰-۳۴۶۰۹

سورة الجاثیة

اشارة

و هی مکیـة کلّها فی قول الحسن و جابر و عکرمـة. و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس و ابن الزبیر أنها نزلت بمکـة، و روی عن ابن عبـاس و قتـادة أنهمـا قالا: إلا آیـة منها، و هی قوله: لِلَّذِینَ آمَنُوا إلی أَیَّامَ اللَّهِ فإنها نزلت بالمدینـة فی عمر بن الخطاب؛ کما سیأتی.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة الجاثیة (۴۵): الآیات ۱ الی ۱۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
حم (۱) تَنْزِیلُ الْکِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِیزِ الْحَکِیمِ (۲) إِنَّ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِلْمُؤْمِنِینَ (۳) وَ فِی خَلْقِکُمْ وَ ما یَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آیاتٌ لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ (۴)
وَ اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْیا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ تَصْرِیفِ الرِّیاحِ آیاتٌ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۵)

تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ (۶) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (۷) يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۸) وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۹) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۰) هذا هُدىً وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (۱۱) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۲) وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۱۳) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۴)
مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (۱۵)

قوله: حم قد تقدّم الكلام فى هذه الفاتحة و فى إعرابها فى فاتحة سورة غافر و ما بعدها، فإن جعل اسما للسورة فمحلّه الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ، و إن جعل حروفا مسرودة على نمط التعديد فلا محلّ له، و قوله: تَنْزِيلُ الْكِتابِ على الوجه الأوّل خبر ثان، و على الوجه الثانى خبر المبتدأ، و على الوجه الثالث خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ و خبره مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ثم أخبر سبحانه بما يدلّ على قدرته الباهرة فقال: إِنَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ أى: فيها نفسها فإنها من فنون الآيات، أو فى خلقها. قال الزجّاج: و يدلّ على أن المعنى فى خلق السماوات و الأرض قوله: وَ فِي خَلْقِكُمْ أى:
فى خلقكم أنفسكم على أطوار مختلفة. قال مقاتل: من تراب ثم من نطفة إلى أن يصير إنسانا وَ ما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ أى: و فى خلق ما يبثّ من دابة، و ارتفاع آيات على أنها مبتدأ مؤخر و خبره الظرف قبله، و بالرفع قرأ الجمهور، و قرأ حمزة و الكسائى «آيات» بالنصب عطفا على اسم إنّ، و الخبر قوله: وَ فِي

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۶

خَلْقِكُمْ كأنه قيل: و إن فى خلقكم و ما يبثّ من دابة آيات، أو على أنها تأكيد لآيات الأولى. و قرأ الجمهور أيضا آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ بالرّفع، و قرأ حمزة و الكسائى بنصبها مع اتفاقهم على الجرّ فى «اختلاف»، أما جرّ «اختلاف» فهو على تقرير حرف الجرّ، أى: و فى اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ آيات، فمن رفع «آيات» فعلى أنها مبتدأ، و خبرها: «فى اختلاف»، و أما النصب فهو من باب العطف على معمولى عاملين مختلفين. قال الفرّاء: الرفع على الاستئناف بعد إنّ، تقول العرب: إنّ لى عليك مالا و على أخيك مال، ينصبون الثانى و يرفعونه و للنّحاة فى هذا الموضع كلام طويل. و البحث فى مسألة العطف على معمولى عاملين مختلفين؛ و حجج المجوّزين له و جوابات المانعين له مقرّر فى علم النّحو، مبسوط فى مطوّلاته. و معنى ما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ ما يفرّقه و ينشره وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ تعاقبهما أو تفارقهما فى الطول و القصر، و قوله: وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ معطوف على اختلاف، و الرزق: المطر؛ لأنه سبب لكل ما يرزق اللّه العباد به، و إحياء الأرض: إخراج نباتها، و مَوْتِها خلوّها عن النبات و معنى تَصْرِيفِ الرِّياحِ أنها تهب تارة من جهة، و تارة من أخرى، و تارة تكون حارّة، و تارة تكون باردة، و تارة نافعة، و تارة ضارّة تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ أى: هذه الآيات المذكورة هى حجج اللّه و براهينه، و محل: نتلوها عليك بالنصب على الحال، و يجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر اسم الإشارة، و آيات اللّه بيان له أو بدل منه، و قوله: بِالْحَقِّ حال من فاعل نتلو، أو من مفعوله، أى: محقّين، أو متلبسة بالحقّ، و يجوز أن تكون الباء للسببية، فتتعلّق بنفس الفعل فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ أى: بعد حديث اللّه و بعد الآيات، فيكون من باب: أعجبنى زيد و كرمه. و قيل: المراد بعد حديث اللّه، و هو القرآن كما فى قوله: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ و هو المراد بالآيات، و العطف لمجرّد التغاير العنوانى.
قرأ الجمهور «تؤمنون» بالفوقية، و قرأ حمزة و الكسائى بالتحتية. و المعنى: يؤمنون بأىّ حديث، و إنما قدّم عليه لأن الاستفهام له صدر الكلام وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ أى: لكل كذاب كثير الإثم مرتكب لما يوجبه، و الويل: واد فى جهنم. ثم وصف هذا الأفاك

بصفة أخرى فقال: يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ و قيل:

إن يسمع فى محل نصب على الحال، و قيل: استئناف، و الأوّل أولى، و قوله: تُتْلى عَلَيْهِ فى محل نصب على الحال ثُمَّ يُصِرُّ على كفره و يقيم على ما كان عليه حال كونه مُسْتَكْبِراً أى: يتمادى على كفره متعظّما فى نفسه عن الانقياد للحقّ، و الإصرار مأخوذ من إصرار الحمار على العانة «۱»، و هو أن ينحنى عليها صارّا أذنيه. قال مقاتل: إذا سمع من آيات القرآن شيئا اتخذها هزوا، و جملة كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فى محل نصب على الحال أو مستأنفة، و أن هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ هذا من باب التهكّم؛ أى: فبشره على إصراره و استكباره و عدم استماعه إلى الآيات بعذاب شديد الألم وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً قرأ الجمهور: «علم» بفتح العين و كسر اللام مخففة على البناء للفاعل. و قرأ قتادة

---

(۱). «العانة»: الأتان (الحمارة)

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۷

و مطر الورّاق على البناء للمفعول. و المعنى: أنه إذا وصل إليه علم شى‏ء من آيات اللّه اتَّخَذَها أى:

الآيات هُزُواً و قيل: الضمير فى «اتّخذها» عائد إلى «شيئا»؛ لأنه عبارة عن الآيات، و الأوّل أولى.

و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى كلّ أفّاك متّصف بتلك الصفات لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ بسبب ما فعلوا من الإصرار و الاستكبار عن سماع آيات اللّه و اتخاذها هزوا، و العذاب المهين هو المشتمل على الإذلال و الفضيحة مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ أى: من وراء ما هم فيه من التعزّز بالدنيا و التكبر عن الحقّ جهنّم، فإنها من قدّامهم لأنهم متوجهون إليها، و عبّر بالوراء عن القدّام، كقوله: مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ «۱» و قول الشاعر:

أليس ورائى إن تراخت منيّتى «۲» ....

و قيل: جعلها باعتبار إعراضهم عنها كأنها خلفهم وَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً أى: لا يدفع عنهم ما كسبوا من أموالهم و أولادهم شيئا من عذاب اللّه، و لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ معطوف على «ما كسبوا»، أى: و لا يغنى عنهم ما اتخذوا من دون اللّه أولياء من الأصنام، و «ما» فى الموضعين إما مصدرية أو موصولة، و زيادة لا فى الجملة الثانية للتأكيد وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ فى جهنم التى هى من ورائهم هذا هُدىً جملة مستأنفة من مبتدأ و خبر، يعنى هذا القرآن هدى للمهتدين به وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ القرآنية لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ الرجز: أشدّ العذاب.

قرأ الجمهور: «أليم» بالجرّ صفة للرّجز. و قرأ ابن كثير و حفص و ابن محيصن بالرفع صفة لعذاب اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ أى: جعله على صفة تتمكنون بها من الركوب عليه لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ أى: بإذنه و إقداره لكم وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بالتجارة تارة، و الغوص للدّر، و المعالجة للصيد و غير ذلك وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى: لكى تشكروا النعم التى تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ أى: سخّر لعباده جميع ما خلقه فى سماواته و أرضه ممّا تتعلّق به مصالحهم و تقوم به معايشهم، و ممّا سخره لهم من مخلوقات السموات؛ الشمس و القمر و النجوم النيّرات و المطر و السحاب و الرّياح، و انتصاب جميعا على الحال من ما فى السماوات و ما فى الأرض أو تأكيد له، و قوله «منه» يجوز أن يتعلّق بمحذوف هو صفة لجميعا، أى: كائنة منه، و يجوز أن يتعلّق بسخر، و يجوز أن يكون حالا من ما فى السماوات، أو خبر المبتدأ محذوف. و المعنى: أن كل ذلك رحمة منه لعباده إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور من التسخير لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ و خصّ المتفكّرين لأنه لا ينتفع بها إلا من تفكر فيها، فإنه ينتقل من التفكر إلى الاستدلال بها على التوحيد قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا أى: قل لهم: اغفروا يغفروا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ و قيل: هو على حذف اللام، و التقدير: قل لهم ليغفروا. و المعنى: قل لهم:

يتجاوزوا عن الذين لا يرجون وقائع اللّه بأعدائه، أى: لا يتوقعونها، و معنى الرجاء هنا الخوف، أى: هو على معناه الحقيقى. و المعنى: لا يرجون ثوابه فى الأوقات التى وقّتها اللّه لثواب المؤمنين، و الأوّل أولى. و الأيام

---

(١). إبراهيم: ١۶.

(٢). و عجزه: أدبّ مع الولدان أزحف كالنّسر.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ٨

يعبّر بها عن الوقائع، كما تقدم فى تفسير قوله: وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ «١» قال مقاتل: لا يخشون مثل عذاب اللّه للأمم الخالية، و ذلك أنهم لا يؤمنون به فلا يخافون عقابه. و قيل: المعنى: لا يأملون نصر اللّه لأوليائه و إيقاعه بأعدائه، و قيل: لا يخافون البعث. قيل: و الآية منسوخة بآية السيف لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائى «لنجزى» بالنون؛ أى: لنجزى نحن. و قرأ باقى السبعة بالتحتية مبنيا للفاعل، أى: ليجزى اللّه. و قرأ أبو جعفر و شيبة و عاصم بالتحتية مبنيا للمفعول مع نصب قوما، فقيل:

النائب عن الفاعل مصدر الفعل، أى: ليجزى الجزاء قوما، و قيل: إن النائب الجارّ و المجرور كما فى قول الشاعر «٢»:

و لو ولدت قفيرة «٣» جرو كلب لسبّ بذلك الجرو الكلابا

و قد أجاز ذلك الأخفش و الكوفيون، و منعه البصريون، و الجملة لتعليل الأمر بالمغفرة، و المراد بالقوم المؤمنون، أمروا بالمغفرة ليجزيهم اللّه يوم القيامة بما كسبوا فى الدنيا من الأعمال الحسنة التى من جملتها الصبر على أذية الكفار و الإغضاء عنهم بكظم الغيظ و احتمال المكروه. و قيل: المعنى: ليجزى الكفار بما عملوا من السيئات، كأنه قال: لا تكافئوهم أنتم لنكافئهم نحن، و الأوّل أولى. ثم ذكر المؤمنين و أعمالهم و المشركين و أعمالهم فقال: مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها و المعنى: أن عمل كل طائفة من إحسان أو إساءة لعامله لا يتجاوزه إلى غيره و فيه ترغيب و تهديد ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ فيجازى كلا بعمله إن كان خيرا فخير، و إن كان شرّا فشرّ.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله: جَمِيعاً مِنْهُ قال: منه النور و الشمس و القمر. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: كل شى‌ء هو من اللّه. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن طاوس قال: جاء رجل إلى عبد اللّه بن عمرو بن العاص فسأله: ممّ خلق الخلق؟

قال: من الماء و النور و الظلمة و الهواء و التراب، قال: فممّ خلق هؤلاء؟ قال: لا أدرى. ثم أتى الرجل عبد اللّه ابن الزبير، فسأله فقال مثل قول عبد اللّه بن عمرو، فأتى ابن عباس فسأله: ممّ خلق الخلق؟ فقال: من الماء و النور و الظلمة و الريح و التراب، قال: فممّ خلق هؤلاء؟ فقرأ ابن عباس: وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ فقال الرجل: ما كان ليأتى بهذا إلا رجل من أهل بيت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا الآية قال: كان نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعرض عن المشركين إذا آذوه، و كانوا يستهزئون به و يكذّبونه، فأمره اللّه أن يقاتل المشركين كافة، فكان هذا من المنسوخ.

---

(١). إبراهيم: ۵.

(٢). هو جرير.

(۳). «قفيرة»: أم الفرزدق.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۹

[سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۱۶ الى ۲۶]

وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (۱۶) وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۷) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۱۸) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (۱۹) هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۲۰)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۲۱) وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۲۲) أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۲۳) وَ قالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (۲۴) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۲۵)

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۲۶)

قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ المراد بالكتاب التوراة و بالحكم الفهم و الفقه الذی يكون بهما الحكم بين الناس و فصل خصوماتهم، و بالنبوّة من بعثه اللّه من الأنبياء فيهم وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أی: المستلذات التی أحلها اللّه لهم، و من ذلك المنّ و السلوى وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ من أهل زمانهم حيث آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من فلق البحر و نحوه، و قد تقدّم بيان هذا فی سورة الدخان وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ أی: شرائع واضحات فی الحلال و الحرام، أو معجزات ظاهرات، و قيل:

العلم بمبعث النبی صلّى اللّه عليه و سلّم و شواهد نبوّته، و تعيين مهاجره فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ أی:

فما وقع الاختلاف بينهم فی ذلك الأمر إلا بعد مجیء العلم إليهم ببيانه و إيضاح معناه، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا لثبوته، و قيل: المراد بالعلم يوشع بن نون، فإنه آمن به بعضهم و كفر بعضهم، و قيل: نبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، فاختلفوا فيها حسدا و بغيا، و قيل: بَغْياً من بعضهم على بعض بطلب الرئاسة إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من أمر الدين، فيجازی المحسن بإحسانه و المسیء بإساءته ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ الشريعة فی اللغة: المذهب، و الملة، و المنهاج، و يقال: لمشرعة الماء، و هی مورد شاربيه، شريعة، و منه الشارع لأنه طريق إلى المقصد، فالمراد بالشريعة هنا ما شرعه اللّه لعباده من الدين، و الجمع شرائع، و قيل: جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك إلى الحق فَاتَّبِعْها فاعمل بأحكامها فی أمتك وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ توحيد اللّه و شرائعه لعباده، و هم كفار قريش و من وافقهم إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أی: لا يدفعون عنك شيئا مما أراده اللّه بك إن اتبعت أهواءهم وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ أی: أنصار ينصر بعضهم بعضا. قال

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۰

ابن زيد: إن المنافقين أولياء اليهود وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ أی: ناصرهم، و المراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك و المعاصی، و الإشارة بقوله: هذا إلى القرآن أو إلى اتباع الشريعة، و هو مبتدأ و خبره بَصائِرُ لِلنَّاسِ أی: براهين و دلائل لهم فيما يحتاجون إليه من

أحكام الدين، جعل ذلك بمنزلة البصائر فى القلوب، و قرئ هذه بصائر أى: هذه الآيات؛ لأن القرآن بمعناها كما قال الشاعر:
.... سائل بنى أسد ما هذه الصّوت «١» لأن الصوت بمعنى الصيحة. وَ هُدىً أى: رشد، و طريق يؤدى إلى الجنة لمن عمل به وَ رَحْمَةٌ من اللّه فى الآخرة لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أى: من شأنهم الإيقان و عدم الشك و التزلزل بالشبه أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ «أم» هى المنقطعة المقدرة ببل و الهمزة و ما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأوّل إلى الثانى، و الهمزة لإنكار الحسبان، و الاجتراح: الاكتساب، و منه الجوارح، و قد تقدّم فى المائدة، و الجملة مستأنفة لبيان تباين حالى المسيئين و المحسنين، و هو معنى قوله: أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أى: نسوّى بينهم، مع اجتراحهم السيئات، و بين أهل الحسنات سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ فى دار الدنيا و فى الآخرة، كلا لا يستوون، فإن حال أهل السعادة فيهما غير حال أهل الشقاوة. و قيل:
المراد إنكار أو يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة. قرأ الجمهور «سواء» بالرفع على أنه خبر مقدّم، و المبتدأ:
محياهم و مماتهم، و المعنى: إنكار حسبانهم أن محياهم و مماتهم سواء. و قرأ حمزة و الكسائى و حفص «سواء» بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر فى الجار و المجرور فى قوله: كَالَّذِينَ آمَنُوا أو على أنه مفعول ثان لحسب، و اختار قراءة النصب أبو عبيد، و قال معناه: نجعلهم سواء، و قرأ الأعمش و عيسى بن عمر «مماتهم» بالنصب على معنى: سواء فى محياهم و مماتهم، فلما سقط الخافض انتصب، أو على البدل من مفعول نجعلهم بدل اشتمال ساءَ ما يَحْكُمُونَ أى: ساء حكمهم هذا الذى حكموا به وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ أى: بالحقّ المقتضى للعدل بين العباد، و محل بالحقّ النصب على الحال من الفاعل، أو من المفعول، أو الباء للسببية. و قوله: وَ لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ يجوز أن يكون على الحقّ؛ لأن كلا منهما سبب، فعطف السبب على السبب، و يجوز أن يكون معطوفا على محذوف، و التقدير: خلق اللّه السماوات و الأرض ليدلّ بهما على قدرته: «و لتجزى» يجوز أن تكون اللام للصيرورة وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ أى: النفوس المدلول عليها بكل نفس لا يظلمون بنقص ثواب أو زيادة عقاب. ثم عجب سبحانه من حال الكفار فقال: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ قال الحسن و قتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه؛ فلا يهوى شيئا إلا ركبه. و قال عكرمة: يعبد ما يهواه أو يستحسنه، فإذا استحسن شيئا و هويه اتخذه إلها. قال

---

(١). و صدره: يا أيّها الراكب المزجى مطيّته.
و البيت لرويشد بن كثير الطائى. (شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ٢٥٠) طبع دار ابن كثير.

سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به و عبد الآخر. وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ أى: على علم قد علمه، و قيل: المعنى: أضلّه عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه. و قال مقاتل: على علم منه أنه ضال لأنه يعلم أن الصنم لا ينفع و لا يضرّ. قال الزجاج: على سوء فى علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، و محل «على علم» النصب على الحال من الفاعل أو المفعول: وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ أى: طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ، و طبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى وَ جَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً أى: غطاء حتى لا يبصر الرشد. قرأ الجمهور: «غشاوة» بالألف مع كسر الغين. و قرأ حمزة و الكسائى «غشوة» بغير ألف مع فتح الغين، و منه قول الشاعر:
لئن كنت ألبستنى غشوةلقد كنت أصفيتك الودّ حينا
و قرأ ابن مسعود و الأعمش كقراءة الجمهور مع فتح الغين، و هى لغة ربيعة. و قرأ الحسن و عكرمة بضمها، و هى لغة عكل فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أى: من بعد إضلال اللّه له أَ فَلا تَذَكَّرُونَ تذكّر اعتبار حتى تعلموا حقيقة الحال. ثم بيّن سبحانه بعض جهالاتهم و ضلالاتهم فقال: وَ قالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا أى: ما الحياة إلا الحياة الدنيا التى نحن فيها نَمُوتُ وَ نَحْيا أى: يصيبنا

الموت و الحياة فيها، و ليس وراء ذلك حياة، و قيل: نموت نحن و يحيا فيها أولادنا، و قيل: نكون نطفا ميتة ثم نصير أحياء، و قيل:

فى الآية تقديم و تأخير، أى: نحيا و نموت، و كذا قرأ ابن مسعود، و على كل تقدير فمرادهم بهذه المقالة إنكار البعث و تكذيب الآخرة وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ أى: إلا مرور الأيام و الليالى. قال مجاهد: يعنى السنين و الأيام. و قال قتادة: إلا العمر، و المعنى واحد. و قال قطرب: المعنى و ما يهلكنا إلا الموت. و قال عكرمة:

و ما يهلكنا إلا اللّه وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ أى: ما قالوا هذه المقالة إلا شاكّين غير عالمين بالحقيقة.

ثم بيّن كون ذلك صادرا منهم لا عن علم، فقال: إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ أى: ما هم إلا قوم غاية ما عندهم الظنّ، فما يتكلمون إلا به، و لا يستندون إلا إليه وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ أى: إذا تليت آيات القرآن على المشركين حال كونها بينات واضحات ظاهرة المعنى و الدلالة على البعث ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أنا نبعث بعد الموت، أى: ما كان لهم حجّة و لا متمسك إلا هذا القول الباطل الذى ليس من الحجة فى شيء، و إنما سمّاه حجّة تهكّما بهم. قرأ الجمهور بنصب حُجَّتَهُمْ على أنه خبر كان، و اسمها إِلَّا أَنْ قالُوا و قرأ زيد بن علىّ و عمرو بن عبيد و عبيد بن عمرو برفع حجتهم على أنها اسم كان، ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يردّ عليهم فقال: قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ فى الدنيا ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عند انقضاء آجالكم ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ بالبعث و النشور لا رَيْبَ فِيهِ أى:

فى جمعكم؛ لأن من قدر على ابتداء الخلق قدر على إعادته وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ بذلك، فلهذا حصل معهم الشكّ فى البعث، و جاءوا فى دفعه بما هو أوهن من بيت العنكبوت، و لو نظروا حقّ النظر لحصلوا على العلم اليقين، و اندفع عنهم الرّيب، و أراحوا أنفسهم من ورطة الشكّ و الحيرة.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٢

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ يقول: على هدى من أمر دينه. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ قال: المؤمن فى الدنيا و الآخرة مؤمن، و الكافر فى الدنيا و الآخرة كافر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ قال: ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من اللّه و لا برهان وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ يقول: أضله فى سابق علمه. و أخرج النسائى و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عنه قال: كان الرّجل من العرب يعبد الحجر، فإذا وجد أحسن منه أخذه و ألقى الآخر، فأنزل اللّه: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل و النهار، فقال اللّه فى كتابه: وَ قالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ قال اللّه: يؤذينى ابن آدم يسبّ الدهر و أنا الدهر، بيدى الأمر أقلّب الليل و النهار. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما من حديث أبى هريرة: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «قال اللّه عزّ و جلّ: يؤذينى ابن آدم يسبّ الدهر و أنا الدهر، بيدى الأمر أقلّب اللّيل و النّهار».

[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٢٧ الى ٣٧]

وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ

كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (۳۱)
وَ إِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (۳۲) وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۳۳) وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۳۴) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۳۵) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۳۶)
وَ لَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳۷)
لما ذكر سبحانه ما احتجّ به المشركون و ما أجاب به عليهم ذكر اختصاصه بالملك، فقال: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: هو المتصرّف فيهما وحده، لا يشاركه أحد من عباده. ثم توعّد أهل الباطل فقال: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ أى: المكذّبون الكافرون المتعلّقون بالأباطيل، يظهر فى ذلك اليوم خسرانهم لأنهم يصيرون إلى النار، و العامل فى «يوم» هو «يخسر»، و «يومئذ» بدل منه، و التنوين للعوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه، فيكون التقدير: و يوم تقوم الساعة يوم تقوم الساعة، فيكون بدلا توكيديا، و الأولى أن يكون العامل فى يوم هو ملك، أى: و للّه ملك يوم تقوم الساعة، و يكون «يومئذ» معمولا ليخسر: وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً الخطاب لكلّ من يصلح له،
فتح القدير، ج۵، ص: ۱۳
أو للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و الأمة: الملة، و معنى جاثية: مستوفزة، و المستوفز: الذى لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه و أطراف أنامله، و ذلك عند الحساب. و قيل: معنى جاثية: مجتمعة، قال الفراء: المعنى و ترى أهل كلّ ذى دين مجتمعين. و قال عكرمة: متميّزة عن غيرها. و قال مؤرّج: معناه بلغة قريش: خاضعة. و قال الحسن:
باركة على الركب. و الجثو: الجلوس على الركب، تقول. جثا يجثو و يجثى جثوّا و جثيا؛ إذا جلس على ركبتيه، و الأوّل أولى. و لا ينافيه ورود هذا اللفظ لمعنى آخر فى لسان العرب. و قد ورد إطلاق الجثوة على الجماعة من كل شىء فى لغة العرب، و منه قول طرفة يصف قبرين:
ترى جثوتين من تراب عليهماصفائح صمّ من صفيح منضّد «۱»
و ظاهر الآية أنّ هذه الصفة تكون لكل أمة من الأمم من غير فرق بين أهل الأديان المتبعين للرسل و غيرهم من أهل الشرك. و قال يحيى بن سلام: هو خاصّ بالكفار، و الأوّل أولى. و يؤيده قوله: كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا و لقوله فيما سيأتى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا، و معنى «إِلى كِتابِهَا»: إلى الكتاب المنزّل عليها، و قيل: إلى صحيفة أعمالها، و قيل: إلى حسابها، و قيل: اللوح المحفوظ، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور «كلّ أمة» بالرفع على الابتداء، و خبره: تدعى. و قرأ يعقوب الحضرمى بالنصب على البدل من كل أمة. الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى: يقال لهم اليوم تجزون ما كنتم تعملون من خير و شرّ هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ هذا من تمام ما يقال لهم، و القائل بهذا هم الملائكة. و قيل: هو من قول اللّه سبحانه، أى: يشهد عليكم، و هو استعارة، يقال: نطق الكتاب بكذا، أى: بين، و قيل: إنهم يقرءونه فيذكرون ما عملوا، فكأنه ينطق عليهم بالحق الذى لا زيادة فيه و لا نقصان، و محل «ينطق» بالنصب على الحال، أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم الإشارة، و جملة إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ تعليل للنطق بالحقّ، أى: نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم، أى: بكتبها و تثبيتها عليكم. قال الواحدى: و أكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بنى آدم، فيجدون ذلك موافقا لما يعملونه. قالوا: لأن الاستنساخ لا يكون إلا من أصل. و قيل: المعنى: نأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون. و قيل: إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات و السيئات و تركوا المباحات. و قيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى اللّه

سبحانه أمر عزّ و جلّ أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب و عقاب، و يسقط منها ما لا ثواب فيه و لا عقاب فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ أى: الجنة، و هذا تفصيل لحال الفريقين، فالمؤمنون يدخلهم اللّه برحمته الجنة ذلِكَ أى: الإدخال فى رحمته هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ أى: الظاهر الواضح وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ أى: فيقال لهم ذلك، و هو استفهام توبيخ، لأن الرسل قد أتتهم و تلت عليهم آيات اللّه، فكذّبوها و لم يعملوا بها فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ أى: تكبرتم عن قبولها و عن الإيمان بها،

---

(١). «الصم»: الصلب. «المنضد»: الذى جعل بعضه على بعض.

فتح القدير، ج٥، ص: ١٤

و كنتم من أهل الإجرام، و هى الآثام، و الاجترام: الاكتساب، يقال: فلان جريمة أهله؛ إذا كان كاسبهم، فالمجرم: من كسب الآثام بفعل المعاصى وَ إِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أى: وعده بالبعث و الحساب، أو بجميع ما وعد به من الأمور المستقبلة، واقع لا محالة وَ السَّاعَةُ أى: القيامة لا رَيْبَ فِيها أى:

فى وقوعها. و قرأ الجمهور «و الساعة» بالرفع على الابتداء، أو العطف على موضع اسم إن، و قرأ حمزة بالنصب عطفا على اسم إن قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ أى: أىّ شىء هى؟ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا أى: نحدس حدسا، نتوهم توهّما. قال المبرّد: تقديره: إن نحن إلا نظنّ ظنا، و قيل: التقدير: إن نظنّ إلا أنكم تظنون ظنا، و قيل: إن نظنّ مضمن معنى نعتقد، أى: ما نعتقد إلا ظنا لا علما، و قيل: إن «ظنا» له صفة مقدّرة، أى: إلا ظنّا بيّنا، و قيل: إن الظنّ يكون بمعنى العلم و الشك، فكأنهم قالوا: ما لنا اعتقاد إلا الشك وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ أى: لم يكن لنا يقين بذلك، و لم يكن معنا إلا مجرّد الظنّ أن الساعة آتية وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا أى: ظهر لهم سيئات أعمالهم على الصورة التى هى عليها وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: أحاط بهم، و نزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا أى: نترككم فى النار كما تركتم العمل لهذا اليوم، و أضاف اللقاء إلى اليوم توسّعا، لأنه أضاف إلى الشىء ما هو واقع فيه وَ مَأْواكُمُ النَّارُ أى: مسكنكم و مستقرّكم الذى تأوون إليه وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً أى: ذلكم العذاب بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزوا و لعبا وَ غَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا أى: خدعتكم بزخارفها و أباطيلها، فظننتم أنه لا دار غيرها و لا بعث و لا نشور فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها أى: من النار. قرأ الجمهور «يخرجون» بضم الياء و فتح الراء مبنيا للمفعول، و قرأ حمزة و الكسائى بفتح الياء و ضمّ الرّاء مبنيا للفاعل، و الالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتحقيرهم وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ أى: لا يسترضون و يطلب منهم الرجوع إلى طاعة اللّه؛ لأنه يوم لا تقبل فيه توبة و لا تنفع فيه معذرة فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ لا يستحقّ الحمد سواه. قرأ الجمهور «رب» فى المواضع الثلاثة بالجرّ على الصفة للاسم الشريف. و قرأ مجاهد و حميد و ابن محيصن بالرفع فى الثلاثة على تقدير مبتدأ، أى: هو ربّ السماوات إلخ وَ لَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: الجلال و العظمة و السلطان، و خصّ السماوات و الأرض لظهور ذلك فيهما وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى: العزيز فى سلطانه. فلا يغالبه مغالب، الحكيم فى كل أفعاله و أقواله و جميع أقضيته.

و قد أخرج سعيد بن منصور، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن عبد اللّه بن باباه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «كأنى أراكم بالكوم دون جهنم جاثين، ثم قرأ سفيان وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً». و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله: وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً قال:

كل أمة مع نبيها حتى يجىء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على كوم، قد علا الخلائق، فذلك المقام المحمود. و أخرج ابن

جرير عن ابن عباس فى قوله: هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ قال: هو أمّ الكتاب، فيه أعمال بنى

فتح القدير، ج‏5، ص: 15

آدم إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ قال: هم الملائكة يستنسخون أعمال بنى آدم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه بمعناه مطوّلا، فقام الرجل فقال: يا ابن عباس، ما كنا نرى هذا تكتبه الملائكة فى كل يوم و ليلة، فقال ابن عباس: إنكم لستم قوما عربا إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هل يستنسخ الشيء إلا من كتاب؟. و أخرج ابن جرير عنه نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير عن عليّ أبى طالب: إن للّه ملائكة ينزلون فى كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بنى آدم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر نحو ما روى عن ابن عباس.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: يستنسخ الحفظة من أمّ الكتاب ما يعمل بنو آدم، فإنما يعمل الإنسان ما استنسخ الملك من أمّ الكتاب. و أخرج نحوه الحاكم عنه و صحّحه. و أخرج الطبرانى عنه أيضا فى الآية قال: إنّ اللّه وكّل ملائكته ينسخون من ذلك العام فى رمضان ليلة القدر ما يكون فى الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة، فيتعارضون به حفظة اللّه على العباد عشية كل خميس، فيجدون ما رفع الحفظة موافقا لما فى كتابهم ذلك، ليس فيه زيادة و لا نقصان. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قال: نترككم. و أخرج ابن أبى شيبة و مسلم و أبو داود و ابن ماجة و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«يقول اللّه تبارك و تعالى: الكبرياء ردائى، و العظمة إزارى، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النار».

فتح القدير، ج‏5، ص: 16

سورة الأحقاف

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى: فى قول جميعهم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير قالا: نزلت سورة حم الأحقاف مكة. و أخرج ابن الضريس، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود قال: أقرأنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سورة الأحقاف و أقرأها آخر، فخالف قراءته، فقلت: من أقرأكها؟ قال: رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و اللّه لقد أقرأنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم غير ذا، فأتينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقلت: يا رسول اللّه ألم تقرئنى كذا و كذا؟

قال: بلى، و قال الآخر: ألم تقرئنى كذا و كذا؟ قال بلى، فتمعّر «1» وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال: «ليقرأ كلّ واحد منكما ما سمع، فإنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأحقاف (46): الآيات 1 الى 9]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي

بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴)
وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ (۵) وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ (۶) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۸) قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ وَ ما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۹)

قوله: حم- تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ قد تقدّم الكلام على هذا فى سورة غافر و ما بعدها مستوفى، و ذكرنا وجه الإعراب، و بيان ما هو الحقّ؛ من أن فواتح السور من المتشابه الذى يجب أن يوكل علمه إلى من أنزله ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما من المخلوقات بأسرها إِلَّا بِالْحَقِ هو استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال، أى: إلا خلقا ملتبسا بالحقّ الذى تقتضيه المشيئة الإلهية، و قوله: وَ أَجَلٍ مُسَمًّى معطوف على الحقّ، أى: إلا بالحقّ، و بأجل مسمّى على تقدير مضاف محذوف، أى: و تقدير أجل مسمّى، و هذا الأجل هو يوم القيامة، فإنها تنتهى فيه السماوات و الأرض و ما بينهما، و تبدّل الأرض

---

(۱). «تمعّر الوجه»: تغيّر.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۷

غير الأرض و السماوات. و قيل: المراد بالأجل المسمّى هو انتهاء أجل كلّ فرد من أفراد المخلوقات، و الأوّل أولى. و هذا إشارة إلى قيام الساعة و انقضاء مدّة الدنيا، و أن اللّه لم يخلق خلقه باطلا و عبثا لغير شيء، بل خلقه للثواب و العقاب وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ أى: عمّا أنذروا و خوّفوا به فى القرآن من البعث و الحساب و الجزاء معرضون مولون، غير مستعدّين له، و الجملة فى محل نصب على الحال، أى:

و الحال أنهم معرضون عنه غير مؤمنين به، و «ما» فى قوله: ما أنذروا يجوز أن تكون الموصولة، و يجوز أن تكون المصدرية قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى: أخبرونى ما تعبدون من دون اللّه من الأصنام أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أى: أىّ شيء خلقوا منها، و قوله: «أرونى» يحتمل أن يكون تأكيدا لقوله أ رأيتم، أى: أخبرونى أرونى، و المفعول الثانى لأرأيتم: «ما ذا خلقوا»، و يحتمل أن لا يكون تأكيدا، بل يكون هذا من باب التنازع، لأنّ أرأيتم يطلب مفعولا ثانيا، و أرونى كذلك أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ «أم» هذه هى المنقطعة المقدّرة ببل و الهمزة، و المعنى: بل ألهم شركة مع اللّه فيها، و الاستفهام للتوبيخ و التقريع ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا هذا تبكيت لهم و إظهار لعجزهم و قصورهم عن الإتيان بذلك، و الإشارة بقوله هذا إلى القرآن، فإنه قد صرّح ببطلان الشرك، و أن اللّه واحد لا شريك له، و إن الساعة حقّ لا ريب فيها، فهل للمشركين من كتاب يخالف هذا الكتاب؟ أو حجّة تنافى هذه الحجة؟ أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ قال فى الصحاح: أو أثارة من علم: بقية منه، و كذا الأثرة بالتحريك. قال ابن قتيبة:

أى: بقية من علم الأوّلين. و قال الفرّاء و المبرّد: يعنى ما يؤثر عن كتب الأوّلين. قال الواحدى: و هو معنى قول المفسرين. قال عطاء: أو شيء تأثرونه عن نبى كان قبل محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. قال مقاتل: أو رواية من علم عن الأنبياء. و قال الزجاج: أو أثارة، أى: علامة، و الأثارة: مصدر كالسماحة و الشجاعة، و أصل الكلمة من الأثر، و هى الرواية، يقال: أثرت الحديث آثره أثرة و أثارة و أثرا؛ إذا ذكرته عن غيرك. قرأ الجمهور:

«أثارة» على المصدر كالسماحة و الغواية. و قرأ ابن عباس و زيد بن على و عكرمة و السلمى و الحسن و أبو رجاء بفتح الهمزة و الثاء من غير ألف. و قرأ الكسائى «أثرة» بضم الهمزة و سكون الثاء إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى دعواكم التى تدّعونها، و هى قولكم: إن

اللّه شريكا، و لم تأتوا بشىء من ذلك، فتبيّن بطلان قولهم لقيام البرهان العقلى و النقلى على خلافه. وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ أى: لا أحد أضلّ منه و لا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع، فكيف يطمع فى الإجابة، فضلا عن جلب نفع أو دفع ضرّ؟ فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين و أضلّ الضالين، و الاستفهام للتقريع و التوبيخ. و قوله: إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ غاية لعدم الاستجابة وَ هُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ الضمير الأوّل للأصنام، و الثانى لعابديها، و المعنى: و الأصنام التى يدعونها عن دعائهم إياها غافلون عن ذلك، لا يسمعون و لا يعقلون لكونهم جمادات، و الجمع فى الضميرين باعتبار معنى من، و أجرى على الأصنام ما هو للعقلاء لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً أى: إذا حشر الناس العابدين للأصنام كان الأصنام لهم أعداء، يتبرأ بعضهم من بعض، و يلعن بعضهم بعضا. و قد قيل: إن اللّه يخلق الحياة فى الأصنام فتكذّبهم. و قيل: المراد

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٨

أنّها تكذّبهم و تعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال. و أما الملائكة و المسيح و عزيز و الشياطين فإنهم يتبرّؤون ممّن عبدهم يوم القيامة؛ كما فى قوله تعالى: تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ «١». وَ كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ أى: كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم كافرين، أى: جاحدين مكذّبين. و قيل: الضمير فى «كانوا» للعابدين، كما فى قوله: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ «٢»، و الأوّل أولى. وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا أى: آيات القرآن حال كونهم بَيِّناتٍ واضحات المعانى ظاهرات الدلالات قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِ أى: لأجله و فى شأنه، و هو عبارة عن الآيات لَمَّا جاءَهُمْ أى: وقت أن جاءهم هذا سِحْرٌ مُبِينٌ أى: ظاهر السحرية أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ «أم» هى المنقطعة؛ أى: بل أ يقولون افتراه؟

و الاستفهام للإنكار و التعجب من صنيعهم، و بل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحرا إلى قولهم: إن رسول اللّه افترى ما جاء به، و فى ذلك من التوبيخ و التقريع ما لا يخفى. ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عنهم، فقال:

قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أى: قل إن افتريته على سبيل الفرض و التقدير: كما تدّعون، فلا تقدرون على أن تردّوا عنّى عقاب اللّه، فكيف أفترى على اللّه لأجلكم و أنتم لا تقدرون على دفع عقابه عنى هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ أى: تخوضون فيه من التكذيب و الإفاضة فى الشىء: الخوض فيه و الاندفاع فيه، يقال: أفاضوا فى الحديث، أى: اندفعوا فيه، و أفاض البعير: إذا دفع جرّته من كرشه، و المعنى:

اللّه أعلم بما تقولون فى القرآن و تخوضون فيه من التكذيب له و القول بأنه سحر و كهانة كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ فإنه يشهد لى بأن القرآن من عنده و أنى قد بلّغتكم، و يشهد عليكم بالتكذيب و الجحود، و فى هذا وعيد شديد وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ لمن تاب و آمن و صدّق بالقرآن و عمل بما فيه، أى: كثير المغفرة و الرحمة بليغهما قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ البدع من كلّ شىء المبدأ، أى: ما أنا بأوّل رسول، قد بعث اللّه قبلى كثيرا من الرسل. قيل: البدع بمعنى البديع كالخفّ و الخفيف، و البديع: ما لم ير له مثل، من الابتداع و هو الاختراع، و شىء بدع بالكسر، أى: مبتدع، و فلان بدع فى هذا الأمر، أى: بديع، كذا قال الأخفش، و أنشد قطرب:

فما أنا بدع من حوادث تعترى رجالا غدت من بعد بؤس بأسعد «٣»

و قرأ عكرمة و أبو حيوة و ابن أبى عبلة «بدعا» بفتح الدال على تقدير حذف المضاف، أى: ما كنت ذا بدع، و قرأ مجاهد بفتح الباء و كسر الدال على الوصف. وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ أى: ما يفعل بى فيما يستقبل من الزمان هل أبقى فى مكة أو أخرج منها؟ و هل أموت أو أقتل؟ و هل تعجل لكم العقوبة أم تمهلون؟ و هذا إنما هو فى الدنيا. و أما فى الآخرة فقد علم أنه و أمته فى الجنة و أن الكافرين فى النار. و قيل:

إن المعنى: ما أدرى ما يفعل بى و لا بكم يوم القيامة، و إنها لما نزلت فرح المشركون و قالوا: كيف نتبع نبيا لا يدرى ما يفعل به و لا بنا، و أنه لا فضل له علينا؟ فنزل قوله تعالى:

---

(١). القصص: ۶۳.

(٢). الأنعام: ٢٣.

(٣). البيت لعديّ بن زيد.

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ «١» و الأوّل أولى. إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَ قرأ الجمهور «يُوحَى مبنيا للمفعول، أى: ما أتبع إلا القرآن و لا أبتدع من عندى شيئا، و المعنى: قصر أفعاله صلّى اللّه عليه و سلّم على الوحى لا قصر اتّباعه على الوحى وَ ما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ أى أنذركم عقاب اللّه و أخوّفكم عذابه على وجه الإيضاح.

و قد أخرج أحمد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه من طريق أبى سلمة بن عبد الرحمن عن ابن عباس أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ قال: الخط. قال سفيان: لا أعلم إلا عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، يعنى أن الحديث مرفوع لا موقوف على ابن عباس. و أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «كان نبيّ من الأنبياء يخطّ، فمن صادف مثل خطّه علم» و معنى هذا ثابت فى الصحيح، و لأهل العلم فيه تفاسير مختلفة. و من أين لنا أن هذه الخطوط الرملية موافقة لذلك الخط؟ و أين السند الصحيح إلى ذلك النبيّ؟ أو إلى نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم أن هذا الخط هو على صورة كذا؟ فليس ما يفعله أهل الرمل إلا جهالات و ضلالات. و أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ قال: «حسن الخط». و أخرج الطبرانى فى الأوسط و الحاكم من طريق الشعبى عن ابن عباس أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ قال:

خط كان يخطه العرب فى الأرض. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ يقول: بيّنة من الأمر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله: قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ يقول: لست بأوّل الرسل وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ فأنزل اللّه بعد هذا:

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ «٢» و قوله: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ «٣» الآية، فأعلم سبحانه نبيه ما يفعل به و بالمؤمنين جميعا. و أخرج أبو داود فى ناسخه عنه أيضا أن هذه الآية منسوخة بقوله: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ و قد ثبت فى صحيح البخارى و غيره من حديث أمّ العلاء قالت: «لما مات عثمان بن مظعون قلت: رحمك اللّه أبا السائب شهادتى عليك لقد أكرمك اللّه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

و ما يدريك أن اللّه أكرمه؟ أمّا هو فقد جاءه اليقين من ربه و إنى لأرجو له الخير، و اللّه ما أدرى و أنا رسول اللّه ما يفعل بى و لا بكم، قالت أمّ العلاء: فو اللّه لا أزكّى بعده أحدا».

---

(١). الفتح: ٢.

(٢). الفتح: ٢.

(٣). الفتح: ۵.

[سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱۰ الى ۱۶]

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۰) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (۱۱) وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ (۱۲) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۱۳) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴)

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۱۵) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (۱۶)

قوله قُلْ أَ رَأَيْتُمْ أى: أخبرونى إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يعنى ما يوحى إليه من القرآن، و قيل:

المراد محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و المعنى: إن كان مرسلا من عند غير اللّه، و قوله: وَ كَفَرْتُمْ بِهِ فى محل نصب على الحال بتقدير قد، و كذلك قوله: وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ و المعنى: أخبرونى إن كان ذلك فى الحقيقة من عند اللّه، و الحال أنكم قد كفرتم به، و شهد شاهد من بنى إسرائيل العالمين بما أنزل اللّه فى التوراة على مثله، أى: القرآن من المعانى الموجودة فى التوراة المطابقة له من إثبات التوحيد و البعث و النشور و غير ذلك، و هذه المثلية هى باعتبار تطابق المعانى و إن اختلفت الألفاظ. و قال الجرجانى: مثل صلة: و المعنى:

و شهد شاهد عليه أنه من عند اللّه، و كذا قال الواحدى. فَآمَنَ الشاهد بالقرآن لما تبيّن له أنه من كلام اللّه و من جنس ما ينزله على رسله، و هذا الشاهد من بنى إسرائيل هو عبد اللّه بن سلام كما قال الحسن و مجاهد و قتادة و عكرمة و غيرهم، و فى هذا نظر فإن السورة مكية بالإجماع، و عبد اللّه بن سلام كان إسلامه بعد الهجرة، فيكون المراد بالشاهد رجلا من أهل الكتاب قد آمن بالقرآن فى مكة و صدّقه، و اختار هذا ابن جرير، و سيأتى فى آخر البحث ما يترجّح به أن عبد اللّه بن سلام، و أن هذه الآية مدنية لا مكية. و روى عن مسروق أن المراد بالرجل موسى عليه السلام. و قوله: وَ اسْتَكْبَرْتُمْ معطوف على شهد، أى: آمن الشاهد و استكبرتم أنتم عن الإيمان إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فحرمهم اللّه سبحانه الهداية لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجّة الظّاهرة على وجوب الإيمان، و من فقد هداية اللّه له ضلّ.

و قد اختلف فى جواب الشرط ماذا هو؟ فقال الزجّاج: محذوف تقديره أ تؤمنون، و قيل: قوله: فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ و قيل: محذوف بتقديره: فقد ظلمتم؛ لدلالة إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ عليه، أى: تقديره: فمن أضلّ منكم، كما فى قوله: أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ «۱» الآية.

و قال أبو على الفارسى: تقديره: أ تأمنون عقوبة اللّه، و قيل: التقدير: ألستم ظالمين. ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من أقاويلهم الباطلة فقال: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أى: لأجلهم، و يجوز أن تكون هذه اللام هى لام التبليغ لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ أى: لو كان ما جاء به محمد من القرآن و النبوّة خيرا ما سبقونا إليه لأنهم عند أنفسهم المستحقّون للسبق إلى كلّ مكرمة، و لم يعلموا أن اللّه سبحانه يختصّ برحمته من يشاء، و يعزّ من يشاء، و يذلّ من يشاء، و يصطفى لدينه من يشاء وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ

---

(۱). فصلت: ۵۲.

فتح القدير، ج‏5، ص: 21

أى: بالقرآن، و قيل: بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: بالإيمان فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ فجاوزوا نفى خيرية القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم، كما قالوا: أساطير الأوّلين، و العامل فى «إذ» مقدّر، أى: ظهر عنادهم، و لا يجوز أن يعمل فيه «فسيقولون» لتضادّ الزمانين، أعنى المضى و الاستقبال و لأجل الفاء أيضا، و قيل:

إن العامل فيه فعل مقدّر من جنس المذكور، أى: لم يهتدوا به، و إذ لم يهتدوا به فسيقولون. وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى قرأ الجمهور بكسر الميم من «من» على أنها حرف جرّ، و هى مع مجرورها خبر مقدّم، و كتاب موسى مبتدأ مؤخّر، و الجملة فى محل نصب على الحال، أو هى مستأنفة، و الكلام مسوق لردّ قولهم:

هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ فإن كونه قد تقدّم القرآن كتاب موسى، و هو التوراة، و توافقا فى أصول الشرائع، يدلّ على أنه حقّ و أنه من عند اللّه، و يقتضى بطلان قولهم. و قرئ بفتح ميم «من» على أنها موصولة و نصب كتاب، أى: و آتينا من قبله كتاب موسى، و رويت هذه القراءة عن الكلبى إِماماً وَ رَحْمَةً أى: يقتدى به فى الدّين و رحمة من اللّه لمن آمن به، و هما منتصبان على الحال. قاله الزجّاج و غيره. و قال الأخفش على القطع، و قال أبو عبيدة: أى: جعلناه إماما و رحمة وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ يعنى القرآن، فإنه مصدّق لكتاب موسى الّذى هو إمام و رحمة و لغيره من كتب اللّه، و قيل: مصدّق للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و انتصاب لِساناً عَرَبِيًّا على الحال الموطئة و صاحبها الضمير فى «مصدق» العائد إلى «كتاب»، و جوّز أبو البقاء أن يكون مفعولا لمصدّق، و الأوّل أولى، و قيل: هو على حذف مضاف، أى: ذا لسان عربىّ، و هو النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قرأ الجمهور: «لينذر» بالتحتية على أن فاعله ضمير يرجع إلى الكتاب، أى:

لينذر الكتاب الذين ظلموا، و قيل: الضمير راجع إلى اللّه، و قيل: إلى الرسول، و الأوّل أولى. و قرأ نافع و ابن عامر و البزّى بالفوقية على أن فاعله النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و اختار هذه القراءة أبو حاتم و أبو عبيد. و قوله: وَ بُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ فى محل نصب عطفا على محل «لينذر». و قال الزجّاج: الأجود أن يكون فى محل رفع، أى:

و هو بشرى، و قيل: على المصدرية لفعل محذوف، أى: و تبشر بشرى، و قوله: «للمحسنين» متعلّق ببشرى إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا أى: جمعوا بين التوحيد و الاستقامة على الشريعة، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة السجدة فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ الفاء زائدة فى الخبر الموصول لما فيه من معنى الشرط وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ المعنى: أنهم لا يخافون من وقوع مكروه بهم، و لا يحزنون من فوات محبوب، و أن ذلك مستمر دائم أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أى: أولئك الموصوفون بما ذكر أصحاب الجنة التى هى دار المؤمنين حال كونهم خالِدِينَ فِيها و فى هذه الآية من الترغيب أمر عظيم، فإن نفى الخوف و الحزن على الدوام و الاستقرار فى الجنة على الأبد مما لا تطلب الأنفس سواه، و لا تتشوّف إلى ما عداه جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أى: يجزون جزاء بسبب أعمالهم التى عملوها من الطاعات للّه و ترك معاصيه و وصينا الإنسان بوالديه حسنا قرأ الجمهور حسنا بضم الحاء و سكون السين. و قرأ علىّ و السلمى بفتحهما. و قرأ ابن عباس و الكوفيون «إِحْساناً» و قد تقدم فى سورة العنكبوت وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً من غير اختلاف بين القراء، و تقدّم فى سورة الأنعام و سورة بنى إسرائيل وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً فلعل هذا هو

فتح القدير، ج‏5، ص: 22

وجه اختلاف القراء فى هذه الآية، و على جميع هذه القراءات فانتصابه على المصدرية، أى: وصّيناه أن يحسن إليهما حسنا، أو إحسانا، و قيل: على أنه مفعول به بتضمين وصينا معنى ألزمنا، و قيل: على أنه مفعول له حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً قرأ الجمهور «كرها» فى الموضعين بضم الكاف. و قرأ أبو عمرو و أهل الحجاز بفتحهما. قال الكسائى: و هما لغتان بمعنى واحد. قال أبو حاتم: الكره بالفتح لا يحسن لأنه الغضب و الغلبة، و اختار أبو عبيدة قراءة الفتح قال: لأن لفظ الكره فى القرآن كله بالفتح

إلا التى فى سورة البقرة كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ «١» و قيل: إن الكره بالضم ما حمل الإنسان على نفسه، و بالفتح ما حمل على غيره. و إنما ذكر سبحانه حمل الأمّ و وضعها تأكيدا لوجوب الإحسان إليها الّذى وصّى اللّه به، و المعنى: أنها حملته ذات كره و وضعته ذات كره. ثم بيّن سبحانه مدّة حمله و فصاله فقال: وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً أى: مدتهما هذه المدّة من عند ابتداء حمله إلى أن يفصل من الرضاع، أى: يفطم عنه، و قد استدلّ بهذه الآية على أن أقلّ الحمل ستة أشهر؛ لأنّ مدة الرضاع سنتان، أى: مدّة الرضاع الكامل، كما فى قوله: حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ «٢» فذكر سبحانه فى هذه الآية أقل مدّة الحمل، و أكثر مدّة الرضاع. و فى هذه الآية إشارة إلى أنّ حقّ الأم آكد من حقّ الأب لأنها حملته بمشقة و وضعته بمشقة، و أرضعته هذه المدّة بتعب و نصب و لم يشاركها الأب فى شىء من ذلك. قرأ الجمهور «و فصاله» بالألف، و قرأ الحسن و يعقوب و قتادة و الجحدرى «و فصله» بفتح الفاء و سكون الصاد بغير ألف، و الفصل و الفصال بمعنى؛ كالفطم و الفطام و القطف و القطاف حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ أى: بلغ استحكام قوّته و عقله، و قد مضى تحقيق الأشدّ مستوفى. و لا بدّ من تقدير جملة تكون حتى غاية لها أى: عاش و استمرت حياته حتى بلغ أشدّه، قيل: بلغ عمره ثمانى عشرة سنة، و قيل: الأشدّ: الحلم، قاله الشعبى و ابن زيد. و قال الحسن:

هو بلوغ الأربعين، و الأوّل أولى لقوله: وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً فإن هذا يفيد أن بلوغ الأربعين هو شىء وراء بلوغ الأشد. قال المفسرون: لم يبعث اللّه نبيا قط إلا بعد أربعين سنة قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أى:

ألهمنى. قال الجوهرى: استوزعت اللّه فأوزعنى؛ أى: استلهمته فألهمنى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ أى: ألهمنى شكر ما أنعمت به علىّ من الهداية، و على والدىّ من التحنن علىّ منهما حين ربيانى صغيرا. و قيل: أنعمت علىّ بالصحة و العافية، و على والدىّ بالغنى و الثروة، و الأولى عدم تقييد النعمة عليه و على أبويه بنعمة مخصوصة وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ أى: و ألهمنى أن أعمل عملا صالحا ترضاه منى وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي أى: اجعل ذريتى صالحين راسخين فى الصلاح متمكّنين منه.

و فى هذه الآية دليل على أنه ينبغى لمن بلغ عمره أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات، و قد روى أنها نزلت فى أبى بكر كما سيأتى فى آخر البحث إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ من ذنوبى وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى: المستسلمين لك المنقادين لطاعتك المخلصين لتوحيدك، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الإنسان المذكور، و الجمع لأنه

---

(١). البقرة: ٢١٦.

(٢). البقرة: ٢٣٣.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢٣

يراد به الجنس و هو مبتدأ، و خبره: الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا من أعمال الخير فى الدنيا، و المراد بالأحسن الحسن، كقوله: وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ «١» و قيل: إن اسم التفضيل على معناه، و يراد به ما يثاب العبد عليه من الأعمال، لا ما لا يثاب عليه كالمباح فإنه حسن و ليس بأحسن وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فلا نعاقبهم عليها. قرأ الجمهور: «يتقبل و يتجاوز» على بناء الفعلين للمفعول. و قرأ حمزة و الكسائى بالنون فيهما على إسنادهما إلى اللّه سبحانه، و التجاوز: الغفران، و أصله من جزت الشىء؛ إذا لم تقف عليه، و معنى فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ أنهم كائنون فى عدادهم منتظمون فى سلكهم، فالجارّ و المجرور فى محل النصب على الحال، كقولك: أكرمنى الأمير فى أصحابه، أى: كائنا فى جملتهم، و قيل: إن فى بمعنى مع، أى: مع أصحاب الجنة، و قيل: إنهما خبر مبتدأ محذوف، أى: هم فى أصحاب الجنة وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ وعد الصدق مصدر مؤكد

لمضمون الجملة السابقة، لأن قوله: أَولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ إلخ فى معنى الوعد بالتقبل و التجاوز، و يجوز أن يكون مصدرا لفعل محذوف، أى:

وعدهم اللّه وعد الصدق الّذى كانوا يوعدون به على ألسن الرسل فى الدنيا.

و قد أخرج أبو يعلى و ابن جرير و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، عن عوف بن مالك الأشجعى قال: انطلق النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«يا معشر اليهود أرونى اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول اللّه يحطّ اللّه تعالى عن كل يهودىّ تحت أديم السماء الغضب الّذى عليه، فسكتوا؛ فما أجابه منهم أحد، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثا، فقال: أبيتم فو اللّه لأنا الحاشر، و أنا العاقب، و أنا المقفى آمنتم أو كذبتم»، ثم انصرف و أنا معه حتى كدنا أن نخرج، فإذا رجل من خلفه فقال: كما أنت يا محمد فأقبل، فقال ذلك الرجل: أىّ رجل تعلمونى فيكم يا معشر اليهود، فقالوا: و اللّه ما نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب اللّه و لا أفقه منك و لا من أبيك و لا من جدّك، قال: فإنى أشهد باللّه أنه النبىّ الّذى تجدونه مكتوبا فى التوراة و الإنجيل، قالوا: كذبت، ثم ردّوا عليه و قالوا شرا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «كذبتم لن يقبل منكم قولكم»، فخرجنا و نحن ثلاثة، رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أنا و ابن سلام، فأنزل اللّه: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إلى قوله: لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ و صحّحه السيوطى. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن سعد بن أبى وقاص قال: ما سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد اللّه بن سلام، و فيه نزلت:

وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ و أخرج الترمذى و ابن جرير و ابن مردويه عن عبد اللّه بن سلام قال: نزل فى آيات من كتاب اللّه نزلت فىّ: وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ و نزل فىّ: قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ «٢». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ قال: عبد اللّه بن سلام، و قد روى نحو هذا عن جماعة

---

(١). الزمر: ٥٥.

(٢). الرعد: ٤٣.

من التابعين. و فيه دليل على أن هذه الآية مدنية فيخصّص بها عموم قولهم إن سورة الأحقاف كلّها مكية.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة قال: قال ناس من المشركين نحن أعزّ و نحن و نحن، فلو كان خيرا ما سبقنا إليه فلان و فلان، فنزل وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ

و أخرج ابن المنذر عن عون بن أبى شداد قال: كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله: يقال لها زنّيرة، و كان عمر يضربها على الإسلام، و كان كفار قريش يقولون: لو كان خيرا ما سبقنا إليه زنيرة، فأنزل اللّه فى شأنها وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الآية. و أخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «بنو غفار و أسلم كانوا لكثير من الناس فتنة، يقولون لو كان خيرا ما جعلهم اللّه أوّل الناس فيه».

و أخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزل قوله: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ الآية إلى قوله: وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كانُوا يُوعَدُونَ فى أبى بكر الصديق. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن نافع بن جبير أن ابن عباس أخبره قال: إنى لصاحب المرأة التى أتى بها عمر التى وضعت لستة أشهر، فأنكر الناس ذلك. فقلت لعمر: لم تظلم؟ قال: كيف؟ قلت: اقرأ: وَ

حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ «۱» كم الحول؟ قال: سنة، قلت: كم السنة؟ قال: اثنا عشر شهرا، قلت: فأربعة و عشرون شهرا حولان كاملان، و يؤخّر اللّه من الحمل ما شاء و يقدّم ما شاء، فاستراح عمر إلى قولى. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد و عشرون شهرا، و إذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة و عشرون شهرا، و إذا وضعت لستة أشهر فحولان كاملان؛ لأن اللّه يقول: وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: أنزلت هذه الآية فى أبى بكر الصدّيق حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي الآية، فاستجاب اللّه له، فأسلم والده جميعا و إخوته و ولده كلّهم، و نزلت فيه أيضا: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى‌ وَ اتَّقى‌ «۲» إلى آخر السورة.

[سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱۷ الى ۲۰]

وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَ تَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَ هُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۱۷) أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (۱۸) وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۱۹) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (۲۰)

لما ذكر سبحانه من شكر نعمة اللّه سبحانه عليه و على والديه ذكر من قال لهما قولا يدلّ على التضجر

---

(۱). البقرة: ۲۳۳.

(۲). الليل: ۵.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۵

منهما عند دعوتهما له إلى الإيمان، فقال: وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما الموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول، و لهذا أخبر عنه بالجمع، و «أفّ» كلمة تصدر عن قائلها عند تضجّره من شى‌ء يرد عليه. قرأ نافع و حفص أُفٍّ بكسر الفاء مع التنوين. و قرأ ابن كثير و ابن عامر و ابن محيصن بفتحها من غير تنوين، و قرأ الباقون بكسر من غير تنوين، و هى لغات، و قد مضى بيان الكلام فى هذا فى سورة بنى إسرائيل، و اللام فى قوله: لَكُما لبيان التأفيف، أى: التأفيف لكما، كما فى قوله: هَيْتَ لَكَ «۱» قرأ الجمهور: أَ تَعِدانِنِي بنونين مخففتين، و فتح ياءه أهل المدينة و مكة و أسكنها الباقون. و قرأ أبو حيوة و المغيرة و هشام بإدغام إحدى النونين فى الأخرى، و رويت هذه القراءة عن نافع. و قرأ الحسن و شيبة و أبو جعفر و عبد الوارث عن أبى عمرو بفتح النون الأولى، كأنهم فرّوا من توالى مثلين مكسورين. و قرأ الجمهور:

أَنْ أُخْرَجَ بضم الهمزة و فتح الراء مبنيا للمفعول. و قرأ الحسن و نصر و أبو العالية و الأعمش و أبو معمر بفتح الهمزة و ضم الراء مبنيا للفاعل. و المعنى: أ تعداننى أن أبعث بعد الموت، و جملة: وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أن قد مضت القرون من قبلى فماتوا و لم يبعث منهم أحد، و هكذا جملة: وَ هُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أنهما يستغيثان اللّه له، و يطلبان منه التوفيق إلى الإيمان، و استغاث يتعدّى بنفسه و بالباء، يقال: استغاث اللّه و استغاث به. و قال الرازى:

معناه يستغيثان باللّه من كفره، فلما حذف الجار وصل الفعل، و قيل: الاستغاثة الدعاء، فلا حاجة إلى الباء.

قال الفرّاء: يقال أجاب اللّه دعاءه و غواثه، و قوله: وَيْلَكَ هو بتقدير القول، أى: يقولان له ويلك، و ليس المراد به الدعاء فيه، بل الحثّ له على الإيمان، و لهذا قالا له: آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أى: آمن بالبعث إن وعد اللّه حقّ لا خلف فيه فَيَقُولُ عند ذلك مكذّبا لما قالاه: ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى: ما هذا الّذى تقولانه من البعث إلا أحاديث الأوّلين و أباطيلهم التى سطّروها فى الكتاب. قرأ الجمهور:

«إن وعد اللّه» بكسر إن على الاستئناف أو التعليل، و قرأ عمر بن فائد و الأعرج بفتحها على أنها معمولة لآمن بتقدير الباء. أى: آمن بأن وعد اللّه بالبعث حقّ أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ أى: أولئك القائلون هذه المقالات هم الذين حقّ عليهم القول، أى: وجب عليهم العذاب بقوله سبحانه لإبليس: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ كما يفيده قوله: فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ و جملة إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ «٢» تعليل لما قبله، و هذا يدفع كون سبب نزول الآية عبد الرّحمن بن أبى بكر، و أنه الّذى قال لوالديه ما قال، فإنه من أفاضل المؤمنين، و ليس ممّن حقّت عليه كلمة العذاب، و سيأتى بيان سبب النزول فى آخر البحث إن شاء اللّه وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا أى: لكلّ فريق من الفريقين المؤمنين و الكافرين من الجنّ و الإنس مراتب عند اللّه يوم القيامة بأعمالهم. قال ابن زيد: درجات أهل النار فى هذه الآية تذهب سفلا، و درجات أهل الجنة تذهب علوّا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ أى: جزاء أعمالهم. قرأ

---

(١). يوسف: ٢٣.

(٢). ص: ٨٥.

الجمهور: لنوفيهم بالنون، و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و عاصم و أبو عمرو و يعقوب بالياء التحتية.

و اختار أبو عبيد القراءة الأولى، و اختار الثانية أبو حاتم وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ أى: لا يزاد مسيء و لا ينقص محسن، بل يوفّى كل فريق ما يستحقّه من خير و شرّ، و الجملة فى محلّ نصب على الحال، أو مستأنفة مقررة لما قبلها وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ الظرف متعلّق بمحذوف، أى: اذكر لهم يا محمد يوم ينكشف الغطاء فينظرون إلى النار و يقربون منها، و قيل: معنى يعرضون يعذبون، من قولهم: عرضه على السيف، و قيل: فى الكلام قلب. و المعنى: تعرض النار عليهم. أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا أى: يقال لهم ذلك، و قيل: و هذا المقدر هو الناصب للظرف، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور: أَذْهَبْتُمْ بهمزة واحدة، و قرأ الحسن و نصر أبو العالية و يعقوب و ابن كثير بهمزتين مخففتين، و معنى الاستفهام التقريع و التوبيخ. قال الفراء و الزّجاج: العرب توبّخ بالاستفهام و بغيره، فالتوبيخ كائن على القراءتين. قال الكلبى:

المراد بالطيبات اللذات و ما كانوا فيه من المعايش وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها أى: بالطيبات، و المعنى: أنهم اتبعوا الشهوات و اللذات التى فى معاصى اللّه سبحانه، و لم يبالوا بالذنب تكذيبا منهم لما جاءت به الرّسل من الوعد بالحساب و العقاب و الثواب فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ أى: العذاب الّذى فيه ذلّ لكم و خزى عليكم. قال مجاهد و قتادة: الهون الهوان بلغة قريش بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ أى:

بسبب تكبركم عن عبادة اللّه و الإيمان به و توحيده وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ أى: تخرجون عن طاعة اللّه و تعملون بمعاصيه، فجعل السبب فى عذابهم أمرين: التكبر عن اتّباع الحقّ، و العمل بمعاصى اللّه سبحانه و تعالى، و هذا شأن الكفرة فإنهم قد جمعوا بينهما.

و قد أخرج البخارى عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبى سفيان، فخطب فجعل يذكر

يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه، فقال عبد الرّحمن بن أبى بكر شيئا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا أنزل فيه وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما فقالت عائشة: ما أنزل اللّه فينا شيئا من القرآن؛ إلا أن اللّه أنزل عذرى.

و أخرج عبد بن حميد و النسائى و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن محمد بن زياد قال:

لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سنّة أبى بكر و عمر، فقال عبد الرّحمن: سنّة هرقل و قيصر، فقال مروان:

هذا الّذى قال اللّه فيه: وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان و اللّه ما هو به، و لو شئت أن أسمّى الّذى نزلت فيه لسمّيته، و لكنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعن أبا مروان و مروان فى صلبه، فمروان من لعنه اللّه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: هذا ابن لأبى بكر. و أخرج نحوه أبو حاتم عن السدّى، و لا يصحّ هذا كما قدّمنا.

فتح القدير، ج‏5، ص: 27

[سورة الأحقاف (46): الآيات 21 الى 28]

وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (26) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَ صَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (28)

قوله: وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ أى: و اذكر يا محمد لقومك أخا عاد، و هو هود بن عبد اللّه بن رباح، كان أخاهم فى النسب، لا فى الدّين، و قوله: إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بدل اشتمال منه، أى: وقت إنذاره إياهم بِالْأَحْقافِ و هى ديار عاد، جمع حقف، و هو الرمل العظيم المستطيل المعوج، قاله الخليل و غيره، و كانوا قهروا أهل الأرض بقوّتهم. و المعنى أن اللّه سبحانه أمره أن يذكر لقومه قصتهم ليتعظوا و يخافوا، و قيل: أمره بأن يتذكر فى نفسه قصّتهم مع هود ليقتدى به، و يهون عليه تكذيب قومه. قال عطاء: الأحقاف: رمال بلاد الشّحر. و قال مقاتل: هى باليمن فى حضر موت. و قال ابن زيد: هى رمال مبسوطة مستطيلة كهيئة الجبال، و لم تبلغ أن تكون جبالا وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أى: و قد مضت الرسل من قبله و من بعده، كذا قال الفراء و غيره. و فى قراءة ابن مسعود «من بين يديه و من بعده». و الجملة فى محل نصب على الحال، و يجوز أن تكون معترضة بين إنذار هود و بين قوله لقومه: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ و الأوّل أولى. و المعنى: أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله و الذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره، ثم رجع إلى كلام هود لقومه، فقال حاكيا عنه: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ و قيل: إن جعل تلك الجملة اعتراضية أولى بالمقام و أوفق بالمعنى قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا أى: لتصرفنا عن عبادتها، و قيل: لتزيلنا، و قيل: لتمنعنا، و المعنى متقارب، و منه قول عروة بن أذينة:

إن تلك عن أحسن الصنيعة «1» مأفوكا ففى آخرين قد أفكوا

يقول: إن لم توفق للإحسان فأنت فى قوم قد صرفوا عن ذلك فَأْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب العظيم إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى وعدك لنا به قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ أى: إنما العلم بوقت مجيئه عند

(۱). الّذى فى اللسان: المروءة.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۸

اللّه لا عندى وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إليكم من ربّكم من الإنذار و الإعذار، فأما العلم بوقت مجى‌ء العذاب فما أوحاه إلىّ وَ لكِنِّی أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ حيث بقيتم مصرّين على كفركم، و لم تهتدوا بما جئتكم به، بل اقترحتم علىّ ما ليس من وظائف الرسل فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً الضمير يرجع إلى «ما» فى قوله «بما تعدنا». و قال المبّرد و الزّجّاج: الضمير فى رَأَوْهُ يعود إلى غير مذكور، و بيّنه قوله: عارِضاً، فالضمير يعود إلى السحاب، أى: فلما رأوا السحاب عارضا، فعارضا نصب على التكرير، يعنى التفسير، و سمّى السحاب عارضا لأنه يبدو فى عرض السماء. قال الجوهرى: العارض: السحاب يعترض فى الأفق، و منه قوله: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا و انتصاب عارضا على الحال أو التمييز مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ أى:

متوجّها نحو أوديتهم. قال المفسرون: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياما، فساق اللّه إليهم سحابة سوداء، فخرجت عليهم من واد لهم يقال له: المعتب، فلما رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا، و قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا أى: غيم فيه مطر، و قوله: مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ صفة لعارض لأن إضافته لفظية لا معنوية، فصحّ وصف النكرة به، و هكذا ممطرنا، فلما قالوا ذلك أجاب عليهم هود، فقال: بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ يعنى من العذاب حيث قالوا: فَأْتِنا بِما تَعِدُنا و قوله: رِيحٌ بدل من ما، أو خبر مبتدأ محذوف، و جملة فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ صفة لريح، و الريح التى عذّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الّذى رأوه تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْ‌ءٍ بِأَمْرِ رَبِّها هذه الجملة صفة ثانية لريح، أى: تهلك كل شى‌ء مرّت به من نفوس عاد و أموالها، و التدمير: الإهلاك، و كذا الدمار، و قرئ يدمر بالتحتية مفتوحة و سكون الدال و ضم الميم و رفع كلّ على الفاعلية من دمر دمارا. و معنى بِأَمْرِ رَبِّها أن ذلك بقضائه و قدره فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم أى: لا ترى أنت يا محمد أو كل من يصلح للرؤية إلا مساكنهم بعد ذهاب أنفسهم و أموالهم. قرأ الجمهور لا تَرى بالفوقية على الخطاب، و نصب مساكنهم. و قرأ حمزة و عاصم بالتحتية مضمومة مبنيا للمفعول و رفع «مساكنهم». قال سيبويه: معناه لا يرى أشخاصهم إلا مساكنهم، و اختار أبو عبيد و أبو حاتم القراءة الثانية. قال الكسائى و الزجاج: معناها لا يرى شى‌ء إلا مساكنهم فهى محمولة على المعنى، كما تقول: ما قام إلا هند، و المعنى: ما قام أحد إلا هند، و فى الكلام حذف، و التقدير: فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كَذلِكَ نَجْزِی الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ أى: مثل ذلك الجزاء نجزى هؤلاء، و قد مرّ بيان هذه القصة فى سورة الأعراف وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ قال المبرّد:

«ما» فى قوله فيما بمنزلة الّذى و إن بمنزلة ما: يعنى النافية، و تقديره: و لقد مكنّاهم فى الّذى ما مكناكم فيه من المال و طول العمر و قوّة الأبدان، و قيل: إِنْ زائدة، و تقديره: و لقد مكناهم فيما مكناهم فيه، و به قال القتبى، و مثله قول الشاعر «۱»:

فما إن طبّنا «۲» جبن و لكن منايانا و دولة آخرينا

(۱). هو فروة بن مسيك المرادى.

(۲). «الطب»: الشأن و العادة و الشهوة و الإرادة.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۹

و الأوّل أولى، لأنه أبلغ فى التوبيخ لكفار قريش و أمثالهم وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً أى:

إنهم أعرضوا عن قبول الحجة و التذكر مع ما أعطاهم اللّه من الحواس التى تدرك بها الأدلة، و لهذا قال:

فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْ‌ءٍ أى: فما نفعهم ما أعطاهم اللّه من ذلك حيث لم يتوصّلوا به إلى التوحيد و صحّة الوعد و الوعيد، و قد قدّمنا من الكلام على وجه إفراد السمع و جمع البصر ما يغنى عن الإعادة، و «من» فى مِنْ

شَيْءٍ زائدة، و التقدير: فما أغنى عنهم شيئا من الإغناء و لا نفعهم بوجه من وجوه النفع إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ الظرف متعلّق بأغنى، و فيها معنى التعليل، أى: لأنهم كانوا يجحدون وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: أحاط بهم العذاب الّذى كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء حيث قالوا: فَأْتِنا بِما تَعِدُنا. وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى الخطاب لأهل مكة، و المراد بما حولهم من القرى قرى ثمود، و قرى لوط، و نحو هما مما كان مجاورا لبلاد الحجاز، و كانت أخبارهم متواترة عندهم وَ صَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى: بيّنّا الحجج و نوّعناها لكى يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا. ثم ذكر سبحانه أنه لم ينصرهم من عذاب اللّه ناصر فقال: فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً أى: فهلّا نصرهم آلهتهم التى تقرّبوا بها بزعمهم إلى اللّه لتشفع لهم، حيث قالوا: هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ و منعتهم من الهلاك الواقع بهم.

قال الكسائى: القربان: كلّ ما يتقرّب به إلى اللّه من طاعة و نسيكة، و الجمع قرابين، كالرّهبان و الرّهابين، و أحد مفعولى «اتخذوا» ضمير راجع إلى الموصول، و الثانى آلهة، و قربانا حال، و لا يصح أن يكون قربانا مفعولا ثانيا، و آلهة بدلا منه لفساد المعنى، و قيل: يصحّ ذلك و لا يفسد المعنى، و رجّحه ابن عطية و أبو البقاء و أبو حيّان، و أنكر أن يكون فى المعنى فساد على هذا الوجه بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ أى: غابوا عن نصرهم و لم يحضروا عند الحاجة إليهم، و قيل: بل هلكوا، و قيل: الضمير فى «ضلوا» راجع إلى الكفار، أى: تركوا الأصنام و تبرّؤوا منها، و الأوّل أولى، و الإشارة بقوله: وَ ذلِكَ إلى ضلال آلهتهم. و المعنى:

و ذلك الضلال و الضياع أثر إِفْكُهُمْ الّذى هو اتخاذهم إياها آلهة و زعمهم أنها تقرّبهم إلى اللّه.

قرأ الجمهور: إِفْكُهُمْ بكسر الهمزة و سكون الفاء مصدر أفك يأفك إفكا، أى: كذبهم. و قرأ ابن عباس و ابن الزبير و مجاهد بفتح الهمزة و الفاء و الكاف على أنه فعل، أى: ذلك القول صرفهم عن التوحيد.

و قرأ عكرمة بفتح الهمزة و تشديد الفاء، أى: صيّرهم آفكين. قال أبو حاتم: يعنى قلبهم عمّا كانوا عليه من النعيم، و روى عن ابن عباس أنه قرأ بالمدّ و كسر الفاء، بمعنى صارفهم وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ معطوف على إفكهم، أى: و أثر افترائهم أو أثر الّذى كانوا يفترونه. و المعنى: و ذلك إفكهم، أى: كذبهم الّذى كانوا يقولون إنها تقرّبهم إلى اللّه و تشفع لهم وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى: يكذبون أنها آلهة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الأحقاف: جبل بالشام. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عنه فى قوله: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا قال: هو السحاب. و أخرج البخارىّ و مسلم و غير هما عن عائشة قالت: ما رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان

فتح القدير، ج5، ص: 30

يتبسّم، و كان إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك فى وجهه، قلت: يا رسول اللّه، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر، و أراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية، قال: يا عائشة: و ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالرّيح و قد رأى قوم العذاب، فقالوا: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا».

و أخرج مسلم و الترمذى و النسائى و ابن ماجة عنها قالت: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا عصفت الريح قال: «اللهم إنى أسألك خيرها و خير ما فيها و خير ما أرسلت به، و أعوذ بك من شرّها و شرّ ما فيها و شرّ ما أرسلت به، فإذا تخيّلت السماء تغيّر لونه، و خرج و دخل، و أقبل و أدبر، فإذا مطرت سرّى عنه، فسألته فقال:

لا أدرى، لعله كما قال قوم عاد هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا». و أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب «السحاب»، و أبو الشيخ فى «العظمة»، عن ابن عباس فى قوله: فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالوا: غيم فيه مطر، فأوّل ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من رجالهم و مواشيهم تطير بين السماء و الأرض مثل الريش دخلوا بيوتهم و غلقوا أبوابهم، فجاءت الريح ففتحت أبوابهم و مالت

عليهم بالرمل، فكانوا تحت الرمل سبع ليال و ثمانية أيام حسوما لهم أنين، ثم أمر اللّه الريح فكشفت عنهم الرمل و طرحتهم فى البحر، فهو قوله:

فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: ما أرسل اللّه على عاد من الريح إلا قدر خاتمى هذا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ يقول: لم نمكّنكم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال:

عاد مكّنوا فى الأرض أفضل ممّا مكّنت فيه هذه الأمة، و كانوا أشدّ قوة و أكثر أموالا و أطول أعمارا.

[سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۹ الى ۳۵]

وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (۲۹) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (۳۰) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (۳۱) وَ مَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۳۲) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۳۳)

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۴) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (۳۵)

لمّا بيّن سبحانه أنّ فى الإنس من آمن، و فيهم من كفر، بيّن أيضا أن فى الجنّ كذلك، فقال: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِ العامل فى الظرف مقدّر، أى: و اذكر إذ صرفنا، أى: وجّهنا إليك نفرا من الجنّ و بعثناهم إليك، و قوله: يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فى محل نصب صفة ثانية لنفرا أو حال لأن النكرة قد تخصّصت بالصفة الأولى فَلَمَّا حَضَرُوهُ أى: حضروا القرآن عند تلاوته، و قيل: حضروا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم،

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۱

و يكون فى الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، و الأول أولى قالُوا أَنْصِتُوا أى: قال بعضهم لبعض اسكتوا، أمروا بعضهم بعضا بذلك لأجل أن يسمعوا فَلَمَّا قُضِيَ قرأ الجمهور قُضِيَ مبنيا للمفعول؛ أى: فرغ من تلاوته. و قرأ حبيب بن عبيد اللّه بن الزبير و لا حق بن حميد و أبو مجلز على البناء للفاعل، أى: فرغ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من تلاوته، و القراءة الأولى تؤيد أن الضمير فى حَضَرُوهُ للقرآن، و القراءة الثانية تؤيد أنه للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ أى: انصرفوا قاصدين إلى من وراءهم من قومهم منذرين لهم عن مخالفة القرآن و محذرين لهم، و انتصاب «مُنْذِرِينَ» على الحال المقدّرة، أى: مقدّرين الإنذار، و هذا يدل على أنهم آمنوا بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و سيأتى فى آخر البحث بيان ذلك. قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى يعنون القرآن؛ و فى الكلام حذف، و التقدير: فوصلوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا. قال عطاء: كانوا يهودا فأسلموا مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ أى: لما قبله من الكتب المنزلة يَهْدِي إِلَى الْحَقِ أى: إلى الدّين الحقّ وَ إِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ أى: إلى طريق اللّه القويم. قال مقاتل: لم يبعث اللّه نبيا إلى الجنّ و الإنس قبل محمد صلّى اللّه عليه و سلّم يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يعنون محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم أو القرآن يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ أى: بعضها، و هو ما عدا حقّ العباد، و قيل: إن من هنا لابتداء الغاية. و المعنى: أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب ثم ينتهى إلى غفران ترك ما هو الأولى، و قيل: هى زائدة و

يُجْزِكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ و هو عذاب النار، و فى هذه الآية دليل على أن حكم الجنّ حكم الإنس فى الثّواب و العقاب و التعبد بالأوامر و النواهى. و قال الحسن: ليس لمؤمنى الجنّ ثواب غير نجاتهم من النار، و به قال أبو حنيفة. و الأوّل أولى، و به قال مالك و الشافعى و ابن أبى ليلى. و على القول الأوّل، فقال القائلون به أنهم بعد نجاتهم من النار يقال لهم: كونوا ترابا، كما يقال للبهائم، و الثانى أرجح. و قد قال اللّه سبحانه فى مخاطبة الجنّ و الإنس: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ- فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ «١» فامتنّ سبحانه على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، و لا ينافى هذا الاقتصار ها هنا على ذكر إجارتهم من عذاب أليم، و ممّا يؤيّد هذا أن اللّه سبحانه قد جازى كافرهم بالنار و هو مقام عدل، فكيف لا يجازى محسنهم بالجنة و هو مقام فضل، و ممّا يؤيّد هذا أيضا ما فى القرآن الكريم فى غير موضع أن جزاء المؤمنين الجنة، و جزاء من عمل الصالحات الجنة؛ و جزاء من قال لا إله إلا اللّه الجنة، و غير ذلك ممّا هو كثير فى الكتاب و السّنّة.

و قد اختلف أهل العلم هل أرسل اللّه إلى الجن رسلا منهم أم لا، و ظاهر الآيات القرآنية أن الرسل من الإنس فقط كما فى قوله: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى «٢». و قال: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ «٣» و قال سبحانه فى إبراهيم الخليل:

وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ «۴»، فكل نبىّ بعثه اللّه بعد إبراهيم هو من ذرّيته، و أما قوله تعالى فى سورة

---

(١). الرّحمن: ۴۶ و ۴۷.

(٢). يوسف: ١٠٩.

(٣). الفرقان: ٢٠.

(۴). العنكبوت: ٢٧.

الأنعام: يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ «١» فقيل: المراد من مجموع الجنسين و صدق على أحدهما، و هم الإنس، كقوله: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ «٢» أى: من أحدهما وَ مَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ أى: لا يفوت اللّه، و لا يسبقه، و لا يقدر على الهرب منه؛ لأنه و إن هرب كل مهرب فهو فى الأرض لا سبيل له إلى الخروج منها، و فى هذا ترهيب شديد وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أى: أنصار يمنعونه من عذاب اللّه. بيّن سبحانه بعد استحالة نجاته بنفسه استحالة نجاته بواسطة غيره، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى من لا يجب داعى اللّه، و أخبر أنهم فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى: ظاهر واضح. ثم ذكر سبحانه دليلا على البعث، فقال: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ الرؤية هنا هى القلبية التى بمعنى العلم و الهمزة للإنكار، و الواو للعطف على مقدّر، أى: ألم يتفكّروا و لم يعلموا أن الّذى خلق هذه الأجرام العظام من السّموات و الأرض ابتداء وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ أى: لم يعجز عن ذلك و لا ضعف عنه، يقال: عىّ بالأمر و عيى؛ إذا لم يهتد لوجهه، و منه قول الشاعر «٣»:

عيّوا بأمرهم كماعيّت ببيضتها الحمامه

قرأ الجمهور: وَ لَمْ يَعْيَ بسكون العين و فتح الياء مضارع عيى. و قرأ الحسن بكسر العين و سكون الياء. بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى قال أبو عبيدة و الأخفش: الباء زائدة للتوكيد، كما فى قوله: وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً* «۴». قال الكسائى و الفراء و الزجاج: العرب تدخل الباء مع الجحد و الاستفهام، فتقول: ما أظنّك بقائم، و الجار و المجرور فى محل رفع على أنهما خبر لأن، و قرأ ابن مسعود و عيسى بن عمر و الأعرج و الجحدرى و ابن أبى إسحاق و يعقوب و زيد بن علىّ «يقدر» على صيغة المضارع، و اختار أبو عبيد القراءة الأولى، و اختار أبو حاتم القراءة الثانية، قال: لأن دخول الباء فى خبر أنّ قبيح. بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْ‌ءٍ قَدِيرٌ

لا- يعجزه شيء وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ الظرف متعلق بقول مقدّر، أى: يقال ذلك اليوم للذين كفروا أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِ و هذه الجملة هى المحكية بالقول، و الإشارة بهذا إلى ما هو مشاهد لهم يوم عرضهم على النار، و فى الاكتفاء بمجرّد الإشارة من التهويل للمشار إليه و التفخيم لشأنه ما لا يخفى، كأنه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدلّ عليه قالُوا بَلى وَ رَبِّنا اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف، و أكدوا هذا الاعتراف بالقسم؛ لأنّ المشاهدة هى حقّ اليقين الّذى لا يمكن جحده و لا إنكاره قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أى: بسبب كفركم بهذا فى الدنيا و إنكاركم له، و فى هذا الأمر لهم بذوق العذاب توبيخ بالغ و تهكّم عظيم. لما قرّر سبحانه الأدلة على النبوّة و التوحيد و المعاد أمر رسوله بالصبر، فقال: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و الفاء جواب شرط محذوف، أى: إذا عرفت ذلك و قامت عليه البراهين و لم ينجع فى الكافرين فاصبر كما صبر أولو العزم، أى: أرباب الثبات و الحزم فإنك منهم. قال مجاهد: أولو

---

(۱). الأنعام: ۱۳۰.

(۲). الرّحمن: ۲۲.

(۳). هو عبيد بن الأبرص.

(۴). النساء: ۷۹.

العزم من الرسل خمسة: نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و هم أصحاب الشرائع، و قال أبو العالية: هم نوح و هود و إبراهيم، فأمر اللّه رسوله أن يكون رابعهم. و قال السدّى: هم ستة إبراهيم و موسى و داود و سليمان و عيسى و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و قيل: نوح و هود و صالح و شعيب و لوط و موسى. و قال ابن جريج: إن منهم إسماعيل و يعقوب و أيوب و ليس منهم يونس. و قال الشعبى و الكلبى: هم الذين أمروا بالقتال، فأظهروا المكاشفة و جاهدوا الكفرة، و قيل: هم نجباء الرّسل المذكورون فى سورة الأنعام، و هم ثمانية عشر: إبراهيم و إسحاق و يعقوب و نوح و داود و سليمان و أيوب و يوسف و موسى و هارون و زكريا و يحيى و عيسى و إلياس و إسماعيل و اليسع و يونس و لوط. و اختار هذا الحسين بن الفضل لقوله بعد ذكرهم: أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ «۱» و قيل: إن الرسل كلهم أولو عزم، و قيل: هم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى نبى إسرائيل.

و قال الحسن: هم أربعة: إبراهيم و موسى و داود و عيسى وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ أى: لا تستعجل العذاب يا محمد للكفار. لما أمره سبحانه بالصبر و نهاه عن استعجال العذاب لقومه رجاء أن يؤمنوا قال: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ من العذاب لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ أى: كأنهم يوم يشاهدونه فى الآخرة لم يلبثوا فى الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام؛ لما يشاهدونه من الهول العظيم و البلاء المقيم. قرأ الجمهور بَلاغٌ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هذا الّذى وعظتهم به بلاغ، أو تلك الساعة بلاغ، أو هذا القرآن بلاغ، أو هو مبتدأ، و الخبر لهم الواقع بعد قوله: «و لا تستعجل» أى: لهم بلاغ، و قرأ الحسن و عيسى بن عمر و زيد بن علىّ بلاغا بالنصب على المصدر، أى: بلغ بلاغا، و قرأ أبو مجلز بلغ بصيغة الأمر. و قرئ بلغ بصيغة الماضى فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ قرأ الجمهور فَهَلْ يُهْلَكُ على البناء للمفعول. و قرأ ابن محيصن على البناء للفاعل، و المعنى: أنه لا يهلك بعذاب اللّه إلا القوم الخارجون عن الطاعة الواقعون فى معاصى اللّه. قال قتادة: لا يهلك على اللّه إلا هالك مشرك. قيل: و هذه الآية أقوى آية فى الرجاء. قال الزجّاج: تأويله لا يهلك مع رحمة اللّه و فضله إلا القوم الفاسقون.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن منيع، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و أبو نعيم و البيهقى كلا- هما فى الدلائل عن ابن

مسعود قال: هبطوا: يعنى الجن على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، قالوا: صه، و كانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل اللّه: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِ إلى قوله: ضَلالٍ مُبِينٍ و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن مردويه عن الزبير: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ قال: بنخلة، و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى العشاء الآخرة كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً.

و أخرج ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِ أى: الآية، قال: كانوا تسعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رسلا إلى قومهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم عنه نحوه قال: أتوه ببطن نخلة. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه عنه أيضا قال:

---

(١). الأنعام: ٩٠.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٤

صرفت الجنّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مرّتين، و كانوا أشراف الجنّ بنصيبين. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن مسروق قال: سألت ابن مسعود من آذن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بالجنّ ليلة استمعوا القرآن؟ قال: آذنته بهم شجرة.

و أخرج عبد بن حميد و أحمد و مسلم و الترمذى عن علقمة قال: قلت لابن مسعود: هل صحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم منكم أحد ليلة الجنّ؟ قال: ما صحبه منا أحد، و لكنا فقدناه ذات ليلة، فقلنا: اغتيل، استطير «١» ما فعل؟ قال: فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم، فلما كان فى وجه الصبح إذا نحن به يجي‏ء من قبل حراء، فأخبرناه، فقال: «إنه أتانى داعى الجنّ فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن» فانطلق فأرانا آثارهم و آثار نيرانهم. و أخرج أحمد عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة الجنّ. و قد روى نحو هذا من طرق. و الجمع بين الروايات بالحمل على قصتين وقعت منه صلّى اللّه عليه و سلّم مع الجنّ حضر إحداهما ابن مسعود و لم يحضر فى الأخرى. و قد وردت أحاديث كثيرة أن الجنّ بعد هذا وفدت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مرّة بعد مرّة و أخذوا عنه الشرائع. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و نوح و إبراهيم و موسى و عيسى. و أخرج ابن مردويه عنه قال: هم الذين أمروا بالقتال حتى مضوا على ذلك: نوح و هود و صالح و موسى و داود و سليمان. و أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: بلغنى أن أولى العزم من الرسل كانوا ثلاثمائة و ثلاثة عشر. و أخرج ابن أبى حاتم و الديلمى عن عائشة قالت: ظلّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صائما ثم طوى، ثم ظلّ صائما ثم طوى، ثم ظل صائما قال: يا عائشة إن الدّين لا ينبغى لمحمد و لا لآل محمد، يا عائشة إن اللّه لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها و الصبر عن محبوبها، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلّفهم، فقال: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و إنى و اللّه لأصبرنّ كما صبروا جهدى، و لا قوّة إلا باللّه».

---

(١). «استطير»: طارت به الجن.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٥

سورة محمّد

اشارة

و تسمّى سورة القتال، و سورة الذين كفروا. و هى تسع و ثلاثون آية، و قيل: ثمان و ثلاثون.

و هى مدنية. قال الماوردى: فى قول الجميع، إلا ابن عباس و قتادة فإنهما قالا: إلا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة و جعل ينظر إلى البيت و هو يبكى حزنا عليه، فنزل قوله تعالى: وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ و قال الثعلبى: إنها مكية. و حكاه ابن هبة اللّه عن الضحاك و سعيد بن جبير، و هو غلط من القول، فالسورة مدنية كما لا يخفى. و قد أخرج ابن الضّريس عن ابن عباس قال: نزلت سورة القتال بالمدينة. و أخرج النحاس و ابن مردويه، و البيهقى فى «الدلائل» عنه قال: نزلت سورة محمد بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا. و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ بهم فى المغرب: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة محمد (۴۷): الآيات ۱ الى ۱۲]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (۱) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ (۲) ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ (۳) فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (۴)

سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بالَهُمْ (۵) وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (۶) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (۷) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (۸) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (۹)

أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (۱۰) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (۱۱) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (۱۲)

قوله: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ هم كفّار قريش كفروا باللّه و صدّوا أنفسهم و غيرهم عن سبيل اللّه، و هو دين الإسلام، بنهيهم عن الدخول فيه، كذا قال مجاهد و السدّى. و قال الضحاك. معنى «عن سبيل اللّه»: عن بيت اللّه؛ بمنع قاصديه. و قيل: هم أهل الكتاب، و الموصول مبتدأ و خبره أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ أى: أبطلها و جعلها ضائعة. قال الضحاك: معنى «أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ»: أبطل كيدهم و مكرهم بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و جعل الدائرة عليهم فى كفرهم. و قيل: أبطل ما عملوه فى الكفر مما كانوا يسمّونه مكارم

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۶

أخلاق؛ من صلة الأرحام و فكّ الأسارى، و قرى الأضياف، و هذه و إن كانت باطلة من أصلها، لكن المعنى أنه سبحانه حكم ببطلانها. و لما ذكر فريق الكافرين أتبعهم بذكر فريق المؤمنين، فقال: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ ظاهر هذا العموم، فيدخل تحته كل مؤمن من المؤمنين الذين يعملون الصالحات، و لا يمنع من ذلك خصوص سببها؛ فقد قيل: إنها نزلت فى الأنصار، و قيل: فى ناس من قريش، و قيل: فى مؤمنى أهل الكتاب، و لكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و خصّ سبحانه الإيمان بما أنزل على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بالذكر مع اندراجه تحت مطلق الإيمان

المذكور قبله؛ تنبيها على شرفه و علوّ مكانه. و جملة وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ معترضة بين المبتدأ، و هو قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا، و بين خبره و هو قوله: كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ و معنى كونه الحق أنه الناسخ لما قبله، و قوله: مِنْ رَبِّهِمْ فى محل نصب على الحال، و معنى «كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ»، أى: السيئات التى عملوها فيما مضى، فإنه غفرها لهم بالإيمان و العمل الصالح وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ أى: شأنهم و حالهم. قال مجاهد: شأنهم، و قال قتادة:

حالهم، و قيل: أمرهم، و المعانى متقاربة. قال المبرّد: البال: الحال ها هنا. قيل: و المعنى: أنه عصمهم عن المعاصى فى حياتهم، و أرشدهم إلى أعمال الخير، و ليس المراد إصلاح حال دنياهم من إعطائهم المال، و نحو ذلك. و قال النقاش: إن المعنى أصلح نياتهم، و منه قول الشاعر:

فإنّ تقبلى بالودّ أقبل بمثلهو إن تدبرى أذهب إلى حال باليا

و الإشارة بقوله: ذلِكَ إشارة إلى ما مرّ مما أوعد به الكفار و وعد به المؤمنين، و هو مبتدأ خبره ما بعده، و قيل: إنه خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر ذلك بسبب أن الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ فالباطل: الشرك، و الحق: التوحيد و الإيمان، و المعنى: أن ذلك الإضلال لأعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك باللّه و العمل بمعاصيه، و ذلك التكفير لسيئات المؤمنين و إصلاح بالهم بسبب اتباعهم للحقّ الّذى أمر اللّه باتباعه من التوحيد و الإيمان و عمل الطاعات كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ أى: مثل ذلك الضرب يبين للناس أمثالهم، أى: أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال فى الغرابة. قال الزّجّاج: «كذلك يضرب» يبيّن اللّه للناس أمثال حسنات المؤمنين و إضلال أعمال الكافرين، يعنى أن من كان كافرا أضلّ اللّه عمله، و من كان مؤمنا كفّر اللّه سيئاته. فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ لمّا بيّن سبحانه حال الفريقين أمر بجهاد الكفار، و المراد بالذين كفروا المشركين و من لم يكن صاحب عهد من أهل الكتاب، و انتصاب «ضرب» على أنه مصدر لفعل محذوف. قال الزّجّاج: أى:

فاضربوا الرقاب ضربا، و خصّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بقطعها، و قيل: هو منصوب على الإغراء. قال أبو عبيدة: هو كقولهم: يا نفس صبرا، و قيل: التقدير: اقصدوا ضرب الرقاب. و قيل:

إنما خصّ ضرب الرقاب لأن فى التعبير عنه من الغلظة و الشدّة ما ليس فى نفس القتل، و هى حزّ العنق و إطارة العضو الّذى هو رأس البدن و علوّه و أحسن أعضائه حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ أى: بالغتم فى قتلهم و أكثرتم القتل فيهم، و هذه غاية للأمر بضرب الرقاب، لا لبيان غاية القتل، و هو مأخوذ من الشى‌ء الثخين، أى:

فتح القدير، ج‌5، ص: 37

الغليظ، و قد مضى تحقيق معناه فى سورة الأنفال فَشُدُّوا الْوَثاقَ الوثاق بالفتح و يجى‌ء بالكسر: اسم الشى‌ء الّذى يوثق به كالرباط. قال الجوهرى: و أوثقه فى الوثاق، أى: شدّه، قال: و الوثاق بكسر الواو لغة فيه. قرأ الجمهور فَشُدُّوا بضم الشين، و قرأ السّلمى بكسرها، و إنما أمر سبحانه بشدّ الوثاق لئلا ينفلتو، و المعنى: إذا بالغتم فى قتلهم فأسروهم و أحيطوهم بالوثاق فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً أى:

فإما أن تمنّوا عليهم بعد الأسر منا، أو تفدوا فداء، و المنّ: الإطلاق بغير عوض، و الفداء: ما يفدى به الأسير نفسه من الأسر، و لم يذكر القتل هنا اكتفاء بما تقدّم. قرأ الجمهور: فِداءً بالمد. و قرأ ابن كثير فدى بالقصر، و إنما قدّم المنّ على الفداء، لأنه من مكارم الأخلاق، و لهذا كانت العرب تفتخر به، كما قال شاعرهم:

و لا نقتل الأسرى و لكن نفكّهمإذا أثقل الأعناق حمل المغارم

ثم ذكر سبحانه الغاية لذلك قال: حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها أوزار الحرب: التى لا تقوم إلا بها من السلاح و الكراع، أسند

الوضع إليها و هو لأهلها على طريق المجاز، و المعنى: أنّ المسلمين مخيّرون بين تلك الأمور إلى غاية هى أن لا يكون حرب مع الكفار، قال مجاهد: المعنى حتى لا يكون دين غير دين الإسلام؛ و به قال الحسن و الكلبى. قال الكسائى: حتى يسلم الخلق. قال الفراء: حتى يؤمنوا و يذهب الكفر. و قيل:

المعنى: حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم، و هو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة. و روى عن الحسن و عطاء أنهما قالا: فى الآية تقديم و تأخير، و المعنى: فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها، فإذا أثختنموهم فشدّوا الوثاق.

و قد اختلف العلماء فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة؟ فقيل: إنها منسوخة فى أهل الأوثان، و أنه لا يجوز أن يفادوا و لا يمنّ عليهم، و الناسخ لها قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «١» و قوله:

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ «٢» و قوله: وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً «٣» و بهذا قال قتادة و الضحاك و السدّى و ابن جريج و كثير من الكوفيين: قالوا: و المائدة آخر ما نزل، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء و الصبيان و من تؤخذ منه الجزية، و هذا هو المشهور من مذهب أبى حنيفة. و قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ روى ذلك عن عطاء و غيره. و قال كثير من العلماء: إن الآية محكمة، و الإمام مخيّر بين القتل و الأسر، و بعد الأسر مخيّر بين المنّ و الفداء. و به قال مالك و الشافعى و الثورى و الأوزاعى و أبو عبيد و غيرهم. و هذا هو الراجح؛ لأن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و الخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك. و قال سعيد بن جبير: لا يكون فداء و لا أسر إلا بعد الإثخان و القتل بالسيف؛ لقوله: ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ «۴» فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره ذلِكَ وَ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ محل «ذلك» الرفع على أنه خبر مبتدأ

---

(١). التوبة: ۵.

(٢). الأنفال: ۵٧.

(٣). التوبة: ٣۶.

(۴). الأنفال: ۶٧.

فتح القدير، ج۵، ص: ٣٨

محذوف، أى: الأمر ذلك، و قيل: فى محل نصب على المفعولية بتقدير فعل، أى: افعلوا ذلك، و يجوز أن يكون مبتدأ و خبره محذوف يدلّ عليه ما تقدّم، أى: ذلك حكم الكفار، و معنى «لو يشاء اللّه لانتصر منهم» أى: قادر على الانتصار منهم بالانتقام منهم و إهلاكهم و تعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب وَ لكِنْ أمركم بحربهم لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ أى: ليختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين فى سبيله و الصابرين على ابتلائه و يجزل ثوابهم و يعذب الكفار بأيديهم وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قرأ الجمهور «قاتلوا» مبنيا للفاعل، و قرأ أبو عمرو و حفص قُتِلُوا مبنيا للمفعول، و قرأ الحسن بالتشديد مبنيا للمفعول أيضا. و قرأ الجحدرى و عيسى بن عمر و أبو حيوة «قتلوا» على البناء للفاعل مع التخفيف من غير ألف، و المعنى على القراءة الأولى.

و الرابعة: أن المجاهدين فى سبيل اللّه ثوابهم غير ضائع، و على القراءة الثانية و الثالثة: أن المقتولين فى سبيل اللّه كذلك لا يضيع اللّه سبحانه أجرهم. قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد. ثم ذكر سبحانه ما لهم عنده من جزيل الثواب فقال: سَيَهْدِيهِمْ أى: سيهديهم اللّه سبحانه إلى الرشد فى الدنيا، و يعطيهم الثواب فى الآخرة وَ يُصْلِحُ بالَهُمْ أى: حالهم و شأنهم و أمرهم. قال أبو العالية: قد ترد الهداية، و المراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان و الطريق المفضية إليها، و قال ابن زياد: يهديهم إلى محاجّة منكر و نكير وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ أى: بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال، و ذلك أنهم إذا دخلوا

الجنة تفرّقوا إلى منازلهم. قال الواحدى: هذا قول عامة المفسرين. و قال الحسن: وصف اللّه لهم الجنة فى الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها. و قيل: فيه حذف، أى: عرفوا طرقها و مساكنها و بيوتها. و قيل: هذا التعريف بدليل يدلّهم عليها، و هو الملك الموكل بالعبد يسير بين يديه حتى يدخله منزله، كذا قال مقاتل. و قيل: معنى «عرفها لهم»: طيبها بأنواع الملاذّ، مأخوذ من العرف، و هو الرائحة. ثم وعدهم سبحانه على نصر دينه بقوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ أى: إن تنصروا دين اللّه ينصركم على الكفار و يفتح لكم، و مثله قوله: وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ «١» قال قطرب: إن تنصروا نبىّ اللّه ينصركم وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ أى: عند القتال. و تثبيت الأقدام عبارة عن النصر و المعونة فى مواطن الحرب، و قيل: على الإسلام، و قيل: على الصراط وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ الموصول فى محل رفع على أنه مبتدأ، و خبره محذوف تقديره فتعسوا بدليل ما بعده، و دخلت الفاء تشبيها للمبتدأ بالشرط، و انتصاب تعسا على المصدر للفعل المقدّر خبرا. قال الفراء: مثل سقيا لهم و رعيا، و أصل التعس الانحطاط و العثار. قال ابن السّكّيت:

التعس: أن يجرّ على وجهه، و النكس: أن يجر على رأسه، قال: و التعس أيضا الهلاك. قال الجوهرى: و أصله الكبّ و هو ضد الانتعاش، و منه قول مجمّع بن هلال:

تقول و قد أفردتها من خليلهاتعست كما أتعستنى يا مجمّع

قال المبّرد: أى: فمكروها لهم، و قال ابن جريج: بعدا لهم، و قال السدّى: خزيا لهم. و قال ابن زيد:

---

(١). الحج: ٤٠.

شقاء لهم. و قال الحسن: شتما لهم. و قال ثعلب: هلاكا لهم، و قال الضحاك: خيبة لهم. و قيل: قبحا لهم، حكاه النقاش. و قال الضحاك: رغما لهم. و قال ثعلب أيضا: شرّا لهم. و قال أبو العالية: شقوة لهم. و اللام فى «لهم» للبيان كما فى قوله: هَيْتَ لَكَ «١». و قوله: وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ معطوف على ما قبله، داخل معه فى خبرية الموصول، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم ممّا ذكره اللّه من التعس و الإضلال، أى: الأمر ذلك، أو ذلك الأمر بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ على رسوله من القرآن، أو ما أنزل على رسله من كتبه لاشتمالها على ما فى القرآن من التوحيد و البعث فَأَحْبَطَ* اللّه أَعْمالَهُمْ بذلك السبب، و المراد بالأعمال ما كانوا عملوا من أعمال الخير فى الصورة و إن كانت باطلة من الأصل؛ لأنّ عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه. ثم خوّف سبحانه الكفار و أرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم، فقال: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ أى: ألم يسيروا فى أرض عاد و ثمود و قوم لوط و غيرهم ليعتبروا فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: آخر أمر «٢» الكافرين قبلهم، فإن آثار العذاب فى ديارهم باقية. ثم بيّن سبحانه ما صنع بمن قبلهم فقال: دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و التدمير:

الإهلاك، أى: أهلكهم و استأصلهم، يقال: دمّره و دمر عليه بمعنى. ثم توعّد مشركى مكة فقال:

وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها أى: لهؤلاء أمثال عاقبة من قبلهم من الأمم الكافرة. قال الزجاج و ابن جرير: الضمير فى «أَمْثالُها» يرجع إلى «عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، و إنما جمع لأن العواقب متعددة بحسب تعدّد الأمم المعذّبة، و قيل: أمثال العقوبة، و قيل: الهلكة، و قيل: التدمير، و الأوّل أولى لرجوع الضمير إلى ما هو مذكور قبله، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر من أن للكافرين أمثالها بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا أى: بسبب أنّ اللّه ناصرهم وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى‏ لَهُمْ أى: لا ناصر يدفع عنهم. و قرأ ابن مسعود: ذلك بأن اللّه ولىّ الذين آمنوا قال قتادة: نزلت يوم أحد إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ قد تقدّم تفسير الآية فى غير موضع، و تقدّم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات، و الجملة مسوقة لبيان ولاية اللّه للمؤمنين وَ الَّذِينَ

كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ أى: يتمتعون بمتاع الدنيا و ينتفعون به كأنهم أنعام ليس لهم همة إلا بطونهم و فروجهم، ساهون عن العاقبة، لاهون بما هم فيه وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ أى: مقام يقيمون به، و منزل ينزلونه و يستقرّون فيه، و الجملة فى محل نصب على الحال أو مستأنفة.

و قد أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قال: هم أهل مكة قريش نزلت فيهم وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ قال: هم أهل المدينة الأنصار وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ قال: أمرهم.

و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ قال: كانت لهم أعمال فاضلة، و لا يقبل اللّه مع الكفر

---

(۱). يوسف: ۲۳.

(۲). من تفسير القرطبى (۱۶/ ۲۳۵)

عملا. و أخرج النحّاس عنه أيضا فى قوله: فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً قال: فجعل اللّه النبيّ و المؤمنين بالخيار فى الأسارى، إن شاؤوا قتلوهم، و إن شاؤوا استعبدوهم، و إن شاؤوا فادوهم. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: هذا منسوخ، نسختها: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ «۱». و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن الحسن قال: أتى الحجاج بأسارى، فدفع إلى ابن عمر رجلا يقتله، فقال ابن عمر: ليس بهذا أمرنا، إنما قال اللّه حَتَّى إذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً. و أخرج عبد الرزاق فى المصنف و ابن المنذر و ابن مردويه عن ليث قال: قلت لمجاهد: بلغنى أن ابن عباس قال: لا يحلّ قتل الأسارى؛ لأن اللّه قال: فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً فقال مجاهد: لا تعبأ بهذا شيئا، أدركت أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و كلهم ينكر هذا، و يقول: هذه منسوخة، إنما كانت فى الهدنة التى كانت بين النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم و بين المشركين، فأما اليوم فلا، يقول اللّه: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «۲» و يقول: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ فإن كان من مشركى العرب لم يقبل شىء منهم إلا الإسلام، فإن لم يسلموا فالقتل، و أما من سواهم فإنهم إذا أسروا فالمسلمون فيهم بالخيار إن شاؤوا قتلوهم و إن شاؤوا استحيوهم، و إن شاؤوا فادوهم إذا لم يتحوّلوا عن دينهم، فإن أظهروا الإسلام لم يفادوا. و نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قتل الصغير و المرأة و الشيخ الفانى. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماما مهديا و حكما عادلا، فيكسر الصليب، و يقتل الخنزير، و توضع الجزية، و تضع الحرب أوزارها».

و أخرج ابن سعد و أحمد و النسائى و البغوى و الطبرانى و ابن مردويه عن سلمة بن نفيل عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم من حديث قال: «لا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج و مأجوج». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها قال: لكفار قومك يا محمد [مثل «۳» ما دمرت به القرى فأهلكوا بالسيف.

[سورة محمد (۴۷): الآيات ۱۳ الى ۱۹]

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (۱۳) أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (۱۴) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَ سُقُوا ماءً

حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (١٥) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (١٦) وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ (١٧)

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ (١٩)

---

(١). التوبة: ٥.

(٢). التوبة: ٥.

(٣). من الدر المنثور (٧/ ٤٦٣)

خوّف سبحانه الكفار بأنه قد أهلك من هو أشدّ منهم، فقال: وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ قد قدّمنا أن «كأين» مركبة من الكاف و أيّ، و أنها بمعنى كم الخبرية؛ أي: و كم من قرية، و أنشد الأخفش قول الوليد «١»:

و كأين رأينا من ملوك و سوقةو مفتاح قيد للأسير المكبل

و معنى الآية: و كم من أهل قرية هم أشدّ قوة من أهل قريتك التي أخرجوك منها أهلكناهم فَلا ناصِرَ لَهُمْ فبالأولى من هو أضعف منهم و هم قريش الذين هم أهل قرية النبي صلّى اللّه عليه و سلّم و هي مكة، فالكلام على حذف المضاف؛ كما في قوله: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ قال مقاتل: أي أهلكناهم بالعذاب حين كذّبوا رسولهم. ثم ذكر سبحانه الفرق بين حال المؤمن و حال الكافر فقال: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ و الهمزة للإنكار، و الفاء للعطف على مقدّر كنظائره، و من مبتدأ، و الخبر كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ و أفرد في هذا باعتبار لفظ من، و جمع في قوله: وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ باعتبار معناها، و المعنى: أنه لا يستوي من كان على يقين من ربّه و لا يكون كمن زيّن له سوء عمله، و هو عبادة الأوثان، و الإشراك باللّه، و العمل بمعاصي اللّه، و اتبعوا أهواءهم في عبادتها، و انهمكوا في أنواع الضلالات، بل شبهة توجب الشك فضلا عن حجّة نيّرة. ثم لمّا بيّن سبحانه الفرق بين الفريقين في الاهتداء و الضلال بيّن الفرق في مرجعهما و مآلهما، فقال: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ و الجملة مستأنفة لشرح محاسن الجنة و بيان ما فيها، و معنى «مَثَلُ الْجَنَّةِ» وصفها العجيب الشأن، و هو مبتدأ و خبره محذوف. قال النضر بن شميل: تقديره ما يسمعون، و قدّره سيبويه: فيما يتلى عليكم مثل الجنة، قال: و المثل هو الوصف، و معناه وصف الجنة، و جملة فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ إلخ، مفسرة للمثل. و قيل: إنّ «مثل» زائدة، و قيل: إن مثل الجنة مبتدأ، و الخبر فيها أنهار، و قيل: خبره كمن هو خالد، و الآسن: المتغير، يقال: أسن الماء يأسن أسونا؛ إذا تغيرت رائحته، و مثله الآجن، و منه قول زهير:

قد أترك القرن مصفرّا أناملهيميد في الرّمح ميد الماتح الآسن

قرأ الجمهور: آسِنٍ بالمدّ. و قرأ حميد و ابن كثير بالقصر، و هما لغتان كحاذر و حذر. و قال الأخفش: إن الممدود يراد به الاستقبال، و المقصور يراد به الحال وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ أي:

لم يحمض كما تغير ألبان الدنيا؛ لأنها لم تخرج من ضروع الإبل و الغنم و البقر وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ أي: لذيذة لهم، طيبة الشرب، لا يتكرهها الشاربون، يقال: شراب لذّ و لذيذ و فيه لذة بمعنى، و مثل هذه الآية قوله: بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ قرأ الجمهور لَذَّةٍ بالجرّ صفة لخمر، و قرئ بالنصب على أنه مصدر، أو مفعول له. و قرئ بالرفع صفة لأنهار وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى أي: مصفّى ممّا يخالطه

---

(١). فى تفسير القرطبى: لبيد.

من الشمع و القذى و العكر و الكدر وَ لَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ أى: لأهل الجنة فى الجنة مع ما ذكر من الأشربة من كل الثمرات، أى: من كلّ صنف من أصنافها، و مِنْ زائدة للتوكيد وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ لذنوبهم، و تنكير مغفرة للتعظيم، أى: و لهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ هو خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: أم من هو فى نعيم الجنة على هذه الصفة خالدا فيها كمن هو خالد فى النار، أو خبر لقوله: مثل الجنة كما تقدّم. و رجح الأوّل الفراء فقال: أراد أمن كان فى هذا النعيم كمن هو خالد فى النار. و قال الزجاج: أى أ فمن كان على بينة من ربه، و أعطى هذه الأشياء، كمن زيّن له سوء عمله و هو خالد فى النار؟ فقوله: كَمَنْ بدل من قوله: أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ و قال ابن كيسان: ليس مثل الجنة التى فيها الثمار و الأنهار كمثل النار التى فيها الحميم و الزقوم، و ليس مثل أهل الجنة فى النعيم كمثل أهل النار فى العذاب الأليم، و قوله: وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً عطف على الصلة عطف جملة فعلية على اسمية، لكنه راعى فى الأولى لفظ من، و فى الثانية معناها، و الحميم: الماء الحارّ الشديد الغليان، فإذا شربوه قطع أمعاءهم، و هو معنى قوله: فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ لفرط حرارته. و الأمعاء: جمع معى، و هى ما فى البطون من الحوايا. وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ أى: من هؤلاء الكفار الذين يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام من يستمع إليك، و هم المنافقون. أفرد الضمير باعتبار لفظ من، و جمع فى قوله: حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ باعتبار معناها، و المعنى: أن المنافقين كانوا يحضرون مواقف وعظ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و مواطن خطبه التى يمليها على المسلمين، حتى إذا خرجوا من عنده قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ و هم علماء الصحابة، و قيل: عبد اللّه بن عباس، و قيل: عبد اللّه بن مسعود، و قيل: أبو الدرداء، و الأوّل أولى، أى:

سألوا أهل العلم، فقالوا لهم: ما ذا قالَ آنِفاً أى: ماذا قال النبىّ الساعة على طريقة الاستهزاء، و المعنى:

أنا لم نلتفت إلى قوله، و آنفا يراد به الساعة التى هى أقرب الأوقات، و منه أمر أنف، أى: مستأنف، و روضة أنف، أى: لم يرعها أحد، و انتصابه على الظرفية، أى: وقتا مؤتنفا، أو حال من الضمير فى قال. قال الزجاج: هو من استأنفت الشى‌ء؛ إذا ابتدأته، و أصله مأخوذ من أنف الشى‌ء لما تقدّم منه، مستعار من الجارحة، و منه قول الشاعر «١»:

و يحرم سرّ جارتهم عليهمو يأكل جارهم أنف القصاع

و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المذكورين من المنافقين الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فلم يؤمنوا و لا توجهت قلوبهم إلى شى‌ء من الخير وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ أى: فى الكفر و العناد. ثم ذكر حال أضدادهم فقال وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً أى: و الذين اهتدوا إلى طريق الخير، فآمنوا باللّه و عملوا بما أمرهم به زادهم هدى بالتوفيق، و قيل: زادهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: زادهم القرآن. و قال الفراء: زادهم إعراض المنافقين و استهزاؤهم هدى. و قيل: زادهم نزول الناسخ هدى، و على كل تقدير فالمراد أنه زادهم إيمانا و علما

---

(١). هو الحطيئة.

و بصيرة فى الدين وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ أى: ألهمهم إياها و أعانهم عليها. و التقوى فى الربيع: هى الخشية.

و قال السدّى: هى ثواب الآخرة. و قال مقاتل: هى التوفيق للعمل الّذى يرضاه، و قيل: العمل بالناسخ و ترك المنسوخ، و قيل: ترك الرّخص و الأخذ بالعزائم فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أى: القيامة أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً أى: فجأة، و فى هذا وعيد للكفار شديد، و

قوله: أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً بدل من الساعة بدل اشتمال.

و قرأ أبو جعفر الرؤاسى: «إن تأتهم» بإن الشرطية فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها أى: أماراتها و علاماتها، و كانوا قد قرءوا فى كتبهم أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم آخر الأنبياء، فبعثته من أشراطها، قاله الحسن و الضحاك. و الأشراط:

جمع شرط بسكون الراء و فتحها. و قيل: المراد بأشراطها هنا: أسبابها التى هى دون معظمها. و قيل: أراد بعلامات الساعة انشقاق القمر و الدخان، كذا قال الحسن، و قال الكلبى: كثرة المال و التجارة و شهادة الزور و قطع الأرحام و قلة الكرام و كثرة اللئام، و منه قول أبى الأسود:

فإن كنت قد أزمعت بالصّرم بيننافقد جعلت أشراط أوّله تبدو

فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ ذكراهم مبتدأ و خبره فإنّى لهم، أى: أنّى لهم التذكّر إذا جاءتهم الساعة، كقوله: يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى «١» و «إذا جاءتهم» اعتراض بين المبتدأ و الخبر فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ أى: إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد و الطاعة، و مدار الشرّ هو الشرك و العمل بمعاصى اللّه فاعلم أنه لا إله غيره و لا ربّ سواه، و المعنى: اثبت على ذلك و استمر عليه، لأنه صلّى اللّه عليه و سلّم قد كان عالما بأنه لا إله إلا اللّه قبل هذا، و قيل: ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا. و قيل: المعنى: فاذكر أنه لا إله إلا اللّه، فعبر عن الذكر بالعلم وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ أى: استغفر اللّه أن يقع منك ذنب، أو استغفر اللّه ليعصمك، أو استغفره مما ربما يصدر منك من ترك الأولى. و قيل: الخطاب له، و المراد الأمة، و يأبى هذا قوله: وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ فإن المراد به استغفاره لذنوب أمته بالدعاء لهم بالمغفرة عمّا فرط من ذنوبهم وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ فى أعمالكم وَ مَثْواكُمْ فى الدار الآخرة، و قيل: متقلّبكم فى أعمالكم نهارا و مثواكم فى ليلكم نياما. و قيل: متقلبكم فى أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات و مثواكم فى الأرض، أى:

مقامكم فيها. قال ابن كيسان: متقلبكم من ظهر إلى بطن فى الدنيا، و مثواكم فى القبور.

و قد أخرج عبد بن حميد و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس: «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة و قال: أنت أحبّ بلاد اللّه إلىّ، و لو لا أن أهلك أخرجونى منك لم أخرج، فأعتى الأعداء من عتا على اللّه فى حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بدخول الجاهلية» فأنزل اللّه: وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ الآية. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ قال: غير متغير. و أخرج أحمد، و الترمذى و صحّحه، و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن معاوية بن حيدة سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «فى الجنة بحر اللبن و بحر الماء و بحر العسل و بحر

---

(١). الفجر: ٢٣.

الخمر، ثم تشقّق الأنهار منها». و أخرج الحارث بن أبى أسامة فى مسنده، و البيهقى عن كعب قال: نهر النيل نهر العسل فى الجنة، و نهر دجلة نهر اللبن فى الجنة، و نهر الفرات نهر الخمر فى الجنة، و نهر سيحان نهر الماء فى الجنة. و أخرج ابن جرير، و الحاكم و صححه، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله: حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً قال: كنت فيمن يسأل. و أخرج عبد بن حميد من وجه آخر عنه فى الآية قال: أنا منهم. و فى هذا منقبة لابن عباس جليلة لأنه كان إذ ذاك صبيا غير بالغ، فإن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم مات و هو فى سنّ البلوغ، فسؤال الناس له عن معانى القرآن فى حياة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و وصف اللّه سبحانه للمسئولين بأنهم الذين أوتوا العلم و هو منهم من أعظم الأدلة على سعة علمه و مزيد

فقهه فى كتاب اللّه و سنة رسوله، مع كون أترابه و أهل سنّه إذ ذاك يلعبون مع الصبيان. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: كانوا يدخلون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس: ماذا قال آنفا؟ فيقول: كذا و كذا، و كان ابن عباس أصغر القوم، فأنزل اللّه الآية، فكان ابن عباس من الذين أتوا العلم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن عساكر عن ابن بريدة فى الآية قال: هو عبد اللّه بن مسعود. و أخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: هو عبد اللّه بن مسعود. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ قال: لما أنزل القرآن آمنوا به، فكان هدى، فلما تبين الناسخ من المنسوخ زادهم هدى. و أخرج ابن المنذر عنه فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها قال: أوّل الساعات. و قد ثبت فى الصحيحين و غير هما من حديث أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «بعثت أنا و الساعة كهاتين، و أشار بالوسطى و السبابة» و مثله عند البخارى من حديث سهل بن سعد. و فى الباب أحاديث كثيرة فيها بيان أشراط الساعة و بيان ما قد وقع منها و ما لم يكن قد وقع، و هى تأتى فى مصنّف مستقل فلا نطيل بذكرها. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه و الديلمى عن عبد اللّه بن عمرو عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أفضل الذكر لا إله إلا اللّه، و أفضل الدعاء الاستغفار» ثم قرأ: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة فى قوله: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّى لأستغفر اللّه فى اليوم سبعين مرة». و أخرج أحمد و مسلم و الترمذى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عبد اللّه بن سرجس قال: «أتيت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فأكلت معه من طعام، فقلت: غفر اللّه لك يا رسول اللّه، قال: و لك، فقيل: أستغفر لك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؟ قال: نعم و لكم، و قرأ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ. و قد ورد أحاديث فى استغفاره صلّى اللّه عليه و سلّم لنفسه و لأمته و ترغيبه فى الاستغفار. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ فى الدنيا وَ مَثْواكُمْ فى الآخرة.

فتح القدير، ج‌5، ص: 45

[سورة محمد (47): الآيات 20 الى 31]

وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (20) طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (21) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (22) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ (23) أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (24)

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلى لَهُمْ (25) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ (27) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (28) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ (29)

وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (30) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ (31)

سأل المؤمنون ربهم عزّ و جلّ أن ينزل على رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم سورة يأمرهم فيها بقتال الكفار؛ حرصا منهم على الجهاد، و نيل ما أعدّ اللّه للمجاهدين من جزيل الثواب، فحكى اللّه عنهم ذلك بقوله: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ أى: هلا نزلت فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ أى: غير منسوخة وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ أى: فرض الجهاد. قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة، و هى أشدّ القرآن على المنافقين، و فى قراءة ابن مسعود «فإذا أنزلت سورة محدثة» أى: محدثة النزول. قرأ الجمهور: فَإِذا أُنْزِلَتْ و ذكر على بناء الفعلين للمفعول. و قرأ زيد بن علىّ و ابن عمير «نزلت» «و ذكر» على بناء الفعلين للفاعل و نصب القتال رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أى: شك، و هم المنافقون يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ أى: ينظرون إليك نظر من شخص بصره عند الموت لجبنهم عن القتال و ميلهم إلى الكفار. قال ابن قتيبة و الزجاج: يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم، و ينظرون إليك نظرا شديدا، كما ينظر الشاخص بصره عند الموت فَأَوْلى لَهُمْ قال الجوهرى: و قولهم: أولى لك، تهديد و وعيد، و كذا قال مقاتل و الكلبى و قتادة. قال الأصمعى: معنى قولهم فى التهديد: أولى لك، أى: وليك و قاربك ما تكره، و أنشد قول الشاعر:

فعادى بين هاديتين منهاو أولى أن يزيد على الثّلاث

أى: قارب أن يزيد. قال ثعلب: و لم يقل (أحد) «١» فى أولى أحسن ممّا قاله الأصمعى. و قال المبرّد: يقال لمن همّ بالعطب ثم أفلت: أولى لك؛ أى: قاربت العطب. و قال الجرجانى: هو مأخوذ من الويل؛

---

(١). من تفسير القرطبى (١۶/ ٢۴۴)

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۴۶

أى: فويل لهم، و كذا قال فى الكشاف. قال قتادة أيضا: كأنه قال: العقاب أولى لهم، و قوله: طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ كلام مستأنف، أى: أمرهم طاعة، أو طاعة و قول معروف خير لكم. قال الخليل و سيبويه: إن التقدير طاعة و قول معروف أحسن و أمثل لكم من غير هما. و قيل: إن طاعة خبر أولى، و قيل:

إن طاعة صفة لسورة، و قيل: إن لهم خبر مقدّم و طاعة مبتدأ مؤخر، و الأول أولى. فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ عزم الأمر: جدّ الأمر، أى: جدّ القتال و وجب و فرض، و أسند العزم إلى الأمر و هو لأصحابه مجازا، و جواب «إذا» قيل: هو فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ و قيل: محذوف تقديره كرهوه. قال المفسرون: معناه إذا جدّ الأمر و لزم فرض القتال خالفوا و تخلفوا فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ فى إظهار الإيمان و الطاعة لَكانَ خَيْراً لَهُمْ من المعصية و المخالفة فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ هذا خطاب للذين فى قلوبهم مرض بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ و التقريع. قال الكلبى: أى فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا فى الأرض بالظلم. و قال كعب: أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ أى: بقتل بعضكم بعضا، و قال قتادة: إن توليتم عن طاعة كتاب اللّه عز و جل أن تفسدوا فى الأرض بسفك الدماء و تقطعوا أرحامكم. و قال ابن جريج:

إن توليتم عن الطاعة، و قيل: أعرضتم عن القتال و فارقتم أحكامه. قرأ الجمهور: تَوَلَّيْتُمْ مبنيا للفاعل، و قرأ علىّ بن أبى طالب: بضم التاء و الواو و كسر اللام مبنيا للمفعول، و بها قرأ ابن أبى إسحاق و ورش عن يعقوب، و معناها: فهل عسيتم إن ولّى عليكم ولاة جائرين أن تخرجوا عليهم فى الفتنة و تحاربوهم و تقطعوا أرحامكم بالبغى و الظلم و القتل. و قرأ الجمهور: وَ تُقَطِّعُوا بالتشديد على التكثير، و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه و سلام و عيسى و يعقوب بالتخفيف من القطع، يقال: عسيت أن أفعل كذا، و عسيت، بالفتح و الكسر لغتان، ذكره الجوهرى و غيره، و خبر عسيتم هو أن تفسدوا، و الجملة الشرطية بينهما اعتراض، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المخاطبين بما تقدّم و هو مبتدأ و خبره الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ أى: أبعدهم من رحمته و طردهم عنها

فَأَصَمَّهُمْ عن استماع الحق وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ عن مشاهدة ما يستدلون به على التوحيد و البعث و حقّية سائر ما دعاهم إليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و الاستفهام فى قوله: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ للإنكار؛ و المعنى: أفلا يتفهمونه فيعلمون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة، و الحجج الظاهرة، و البراهين القاطعة؛ التى تكفى من له فهم و عقل، و تزجره عن الكفر باللّه و الإشراك به و العمل بمعاصيه أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها «أم» هى المنقطعة، أى: بل أعلى قلوب أقفالها فهم لا يفهمون و لا يعقلون. قال مقاتل: يعنى الطبع على القلوب، و الأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق، و إضافة الأقفال إلى القلوب للتنبيه على أن المراد بها ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب، و معنى الآية أنه لا يدخل فى قلوبهم الإيمان و لا يخرج منها الكفر و الشرك؛ لأنّ اللّه سبحانه قد طبع عليها، و المراد بهذه القلوب قلوب هؤلاء المخاطبين. قرأ الجمهور:

أَقْفالُها بالجمع، و قرئ: «إقفالها» بكسر الهمزة على أنه مصدر كالإقبال إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ أى: رجعوا كفارا كما كانوا. قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب كفروا بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بعد ما عرفوا نعته عندهم، و به قال ابن جرير. و قال الضحاك و السدّى: هم المنافقون قعدوا عن القتال، و هذا أولى؛

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤٧

لأن السياق فى المنافقين مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى بما جاءهم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من المعجزات الظاهرة و الدلائل الواضحة الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ أى: زيّن لهم خطاياهم و سهّل لهم الوقوع فيها، و هذه الجملة خبر إن، و معنى وَ أَمْلى لَهُمْ أن الشيطان مدّ لهم فى الأمل و وعدهم طول العمر، و قيل: إن الّذى أملى لهم هو اللّه عزّ و جلّ على معنى أنه لم يعاجلهم بالعقوبة. قرأ الجمهور أَمْلى مبنيا للفاعل، و قرأ أبو عمرو و ابن أبى إسحاق و عيسى بن عمر و أبو جعفر و شيبة على البناء للمفعول. قيل: و على هذه القراءة يكون الفاعل هو اللّه أو الشيطان كالقراءة الأولى، و قد اختار القول بأن الفاعل اللّه الفرّاء و المفضل، و الأولى اختيار أنه الشيطان لتقدّم ذكره قريبا، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من ارتدادهم، و هو مبتدأ و خبره بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ أى: بسبب أن هؤلاء المنافقين الذين ارتدّوا على أدبارهم قالوا للذين كرهوا ما نزل اللّه، و هم المشركون سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ و هذا البعض هو عداوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و مخافة ما جاء به. و قيل المعنى: إن المنافقين قالوا لليهود: سنطيعكم فى بعض الأمر، و قيل: إن القائلين اليهود و الذين كرهوا ما أنزل اللّه المنافقون، و قيل: إن الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الإملاء، و قيل: إن الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الإسلام، و قيل: إلى التسويل، و الأوّل أولى. و يؤيد كون القائلين المنافقين و الكارهين اليهود قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ «١» و لما كان قولهم المذكور للذين كرهوا ما أنزل اللّه بطريقة السرّ بينهم. قال اللّه سبحانه: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ قرأ الجمهور بفتح الهمزة، جمع سرّ، و اختار هذه القراءة أبو عبيدة و أبو حاتم. و قرأ الكوفيون و حمزة و الكسائى و حفص عن عاصم و ابن وثاب و الأعمش بكسر الهمزة على المصدر، أى: إخفاءهم فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و «كيف» فى محل رفع على أنها خبر مقدّم، و التقدير، فكيف علمه بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة، أو فى محل نصب بفعل محذوف: أى فكيف يصنعون، أو خبر لكان مقدّرة: أى فكيف يكونون، و الظرف معمول للمقدّر، قرأ الجمهور تَوَفَّتْهُمُ و قرأ الأعمش «توفاهم» و جملة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ فى محل نصب على الحال من فاعل توفتهم أو من مفعوله، أى: ضاربين وجوههم و ضاربين أدبارهم، و فى الكلام تخويف و تشديد، و المعنى: أنه إذا تأخر عنهم العذاب فسيكون حالهم هذا، و هو تصوير لتوفيهم على أقبح حال و أشنعه. و قيل: ذلك عند القتال نصرة من الملائكة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: ذلك يوم القيامة، و الأوّل أولى. و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى التوفى المذكور على الصفة المذكورة، و هو مبتدأ و خبره بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ أى: بسبب اتباعهم ما يسخط اللّه من

الكفر و المعاصى، و قيل:
كتمانهم ما فى التوراة من نعت نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم، و الأوّل أولى لما فى الصيغة من العموم وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ أى:
كرهوا ما يرضاه اللّه من الإيمان و التوحيد و الطاعة فَأَحْبَطَ اللّه أَعْمالَهُمْ بهذا السبب، و المراد

---

(١). الحشر: ١١.

بأعمالهم الأعمال التى صورتها صورة الطاعة؛ و إلا فلا عمل لكافر، أو ما كانوا قد عملوا من الخير قبل الردّة أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يعنى المنافقين المذكورين سابقا، و «أم» هى المنقطعة، أى: بل أحسب المنافقون أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ الإخراج بمعنى الإظهار، و الأضغان: جمع ضغن، و هو ما يضمر من المكروه. و اختلف فى معناه، فقيل: هو الغش، و قيل: الحسد، و قيل: قال الجوهرى: الضغن و الضغينة: الحقد، و قال قطرب: هو فى الآية العداوة، و أن هى المخففة من الثقيلة و اسمها ضمير شأن مقدّر وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ أى: لأعلمناكهم و عرّفناكهم بأعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية، تقول العرب:
سأريك ما أصنع، أى: سأعلمك فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ أى: بعلامتهم الخاصة بهم التى يتميزون بها. قال الزجّاج: المعنى لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة، و هى السيما فلعرفتهم بتلك العلامة، و الفاء لترتيب المعرفة على الإرادة، و ما بعدها معطوف على جواب لو، و كررت فى المعطوف للتأكيد، و أما اللام فى قوله:
وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ فهى جواب قسم محذوف. قال المفسرون: لحن القول: فحواه و مقصده و مغزاه و ما يعرّضون به من تهجين أمرك و أمر المسلمين، و كان بعد هذا لا يتكلم منافق عنده إلا عرفه. قال أبو زيد: لحنت له اللحن: إذا قلت له قولا يفقهه عنك و يخفى على غيره، و منه قول الشاعر «١»:
منطق صائب و تلحن أحيانا و خير الكلام ما كان لحنا
أى: أحسنه ما كان تعريضا يفهمه المخاطب و لا يفهمه غيره لفطنته و ذكائه، و أصل اللحن إمالة الكلام إلى نحو من الأنحاء لغرض من الأغراض وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ لا تخفى عليه منها خافية فيجازيكم بها، و فيه و عيد شديد وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ أى: لنعاملنكم معاملة المختبر، و ذلك بأن نأمركم بالجهاد حتى نعلم من امتثل الأمر بالجهاد و صبر على دينه و مشاقّ ما كلّف به. قرأ الجمهور الأفعال الثلاثة بالنون، و قرأ أبو بكر عن عاصم بالتحتية فيها كلها، و معنى وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ نظهرها و نكشفها امتحانا لكم ليظهر للناس من أطاع ما أمره اللّه به، و من عصى، و من لم يمتثل. و قرأ الجمهور وَ نَبْلُوَا بنصب الواو عطفا على قوله: حَتَّى نَعْلَمَ و روى ورش عن يعقوب إسكانها على القطع عمّا قبله.
و قد أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّ اللّه تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقو الرّحمن، فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم أما ترضى أن أصل من وصلك و أقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذلك لك؛ ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم اقرءوا إن شئتم فَهَلْ عَسَيْتُمْ الآية إلى قوله: أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها» و الأحاديث فى صلة الرحم كثيرة جدا. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ قال: هم أهل النفاق. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

---

(١). هو الفزارىّ.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ قال: أعمالهم خبثهم و الحسد الّذى فى قلوبهم، ثم دلّ اللّه تعالى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد على المنافقين، فكان يدعو باسم الرجل من أهل النفاق. و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى فى قوله: وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ قال: ببغضهم علىّ بن أبى طالب.

[سورة محمد (٤٧): الآيات ٣٢ الى ٣٨]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (٣٢) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (٣٦)

إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (٣٧) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ (٣٨)

قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ المراد بهؤلاء هم المنافقون، و قيل: أهل الكتاب، و قيل: هم المطعمون يوم بدر من المشركين، و معنى صدّهم عن سبيل اللّه: منعهم للناس عن الإسلام و اتّباع الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و معنى شَاقُّوا الرَّسُولَ عادوه و خالفوه مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى أى: علموا أنه صلّى اللّه عليه و سلّم نبى من عند اللّه بما شاهدوا من المعجزات الواضحة و الحجج القاطعة لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً بتركهم الإيمان و إصرارهم على الكفر و ما ضرّوا إلا أنفسهم وَ سَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ أى: يبطلها، و المراد بهذه الأعمال ما صورته صورة أعمال الخير كإطعام الطعام و صلة الأرحام و سائر ما كانوا يفعلونه من الخير و إن كانت باطلة من الأصل؛ لأن الكفر مانع، و قيل: المراد بالأعمال المكائد التى نصبوها لإبطال دين اللّه، و الغوائل التى كانوا يبغونها برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته و طاعة رسوله فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فيما أمرتم به من الشرائع المذكورة فى كتاب اللّه و سنّة رسوله، ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم كما أبطلت الكفار أعمالها بالإصرار على الكفر، فقال: وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ قال الحسن: أى لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصى. و قال الزهرى: بالكبائر. و قال الكلبى و ابن جريج: بالرياء و السمعة. و قال مقاتل: بالمنّ. و الظاهر النهى عن كل سبب من الأسباب التى توصل إلى بطلان الأعمال، كائنا ما كان، من غير تخصيص بنوع معين. ثم بيّن سبحانه أنه لا يغفر للمصرّين على الكفر و الصدّ عن سبيل اللّه، فقال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ فقيّد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر؛ لأن باب التوبة و طريق المغفرة لا يغلقان على من كان حيا، و ظاهر الآية العموم و إن كان السبب خاصا. ثم نهى سبحانه المؤمنين عن الوهن و الضعف فقال: فَلا تَهِنُوا أى: تضعفوا عن القتال، و الوهن: الضعف وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ أى: و لا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداء منكم،

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٠

فتح القدير ج‌٥ ٩٩

فإن ذلك لا يكون إلا عند الضعف. قال الزجاج: منع اللّه المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح و أمرهم بحربهم حتى يسلموا. و قرأ أبو عبد الرّحمن السّلمى وَ تَدَّعُوا بتشديد الدال، من ادّعى القوم و تداعوا.

قال قتادة: معنى الآية: لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها.

و اختلف أهل العلم فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة؟ فقيل: إنها محكمة، و إنها ناسخة لقوله:

وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها و قيل: منسوخة بهذه الآية. و لا يخفاك أنه لا مقتضى للقول بالنسخ، فإن اللّه سبحانه نهى المسلمين فى هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداء، و لم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون، فالآيتان محكمتان، و لم يتوارد على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص، و جملة: وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ فى محل نصب على الحال، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها من النهى، أى: و أنتم الغالبون بالسيف و الحجّة. قال الكلبى: أى آخر الأمر لكم و إن غلبوكم فى بعض الأوقات، و كذا جملة قوله:

وَ اللَّهُ مَعَكُمْ فى محل نصب على الحال، أى: معكم بالنصر و المعونة عليهم وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ أى: لن ينقصكم شيئا من ثواب أعمالكم، يقال: وتره يتره وترا؛ إذا نقصه حقه. و أصله من و ترت الرجل:

إذا قتلت له قريبا، أو نهبت له مالا، و يقال: فلان موتور: إذا قتل له قتيل و لم يؤخذ بدمه. قال الجوهرى:

أى لن ينقصكم فى أعمالكم، كما تقول: دخلت البيت؛ و أنت تريد فى البيت. قال الفراء: هو مشتق من الوتر و هو الذّحل «١»، و قيل: مشتق من الوتر و هو الفرد، فكأن المعنى: و لن يفردكم بغير ثواب إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ أى: باطل و غرور، لا أصل لشىء منها و لا ثبات له و لا اعتداد به وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ أى: إن تؤمنوا و تتقوا الكفر و المعاصى يؤتكم جزاء ذلك فى الآخرة، و الأجر:

الثواب على الطاعة وَ لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ أى: لا يأمركم بإخراجها جميعها فى الزكاة و سائر وجوه الطاعات، بل أمركم بإخراج القليل منها و هو الزكاة. و قيل المعنى: لا يسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله لأنه أملك لها، و هو المنعم عليكم بإعطائها. و قيل: لا يسألكم أموالكم أجرا على تبليغ الرسالة، كما فى قوله:

ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ* و الأوّل أولى إِنْ يَسْئَلْكُمُوها أى: أموالكم كلها فَيُحْفِكُمْ قال المفسرون: يجهدكم و يلحف عليكم بمسألة جميعها، يقال: أحفى بالمسألة و ألحف و ألحّ بمعنى واحد، و الحفى:

المستقصى فى السؤال، و الإحفاء: الاستقصاء فى الكلام، و منه إحفاء الشارب، أى: استئصاله، و جواب الشرط قوله: تَبْخَلُوا أى: إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم تبخلوا بها و تمتنعوا من الامتثال وَ يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ معطوف على جواب الشرط، و لهذا قرأ الجمهور يُخْرِجْ بالجزم، و روى عن أبى عمرو أنه قرأ بالرفع على الاستئناف، و روى عنه أنه قرأ بفتح الياء و ضم الراء و رفع أضغانكم، و روى عن يعقوب الحضرمى أنه قرأ بالنون، و قرأ ابن عباس و مجاهد و ابن محيصن و حميد بالفوقية المفتوحة مع ضم الراء. و على قراءة الجمهور فالفاعل ضمير يعود إلى اللّه سبحانه، أو إلى البخل المدلول عليه بتبخلوا. و الأضغان: الأحقاد،

---

(١). «الذّحل»: الحقد و العداوة و الثأر.

و المعنى: أنها تظهر عند ذلك. قال قتادة: قد علم اللّه أن فى سؤال المال خروج الأضغان ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أى ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون لتنفقوا فى الجهاد و فى طريق الخير فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ بما يطلب منه و يدعى إليه من الإنفاق فى سبيل اللّه، و إذا كان منكم من يبخل باليسير من المال، فكيف لا تبخلون بالكثير و هو جميع الأموال. ثم بيّن سبحانه أنّ ضرر البخل عائد على النفس، فقال:

وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ أى: يمنعها الأجر و الثواب ببخله، و بخل يتعدى بعلى تارة و بعن أخرى. و قيل: إن أصله أن يتعدى بعلى، و لا يتعدى بعن إلا إذا ضمن معنى الإمساك وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ المطلق، المتنزّه عن الحاجة إلى أموالكم وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إلى اللّه و إلى ما عنده من الخير و الرحمة، و جملة وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ معطوفة على الشرطية المتقدمة و هى «وَ إِنْ

تُؤْمِنُوا»، و المعنى: و إن تعرضوا عن الإيمان و التقوى يستبدل قوما آخرين يكونون مكانكم هم أطوع للّه منكم ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ فى التولى عن الإيمان و التقوى. قال عكرمة: هم فارس و الروم. و قال الحسن: هم العجم. و قال شريح بن عبيد: هم أهل اليمن، و قيل: الأنصار، و قيل: الملائكة، و قيل: التابعون. و قال مجاهد: هم من شاء اللّه من سائر الناس. قال ابن جرير: و المعنى ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ أى: فى البخل بالإنفاق فى سبيل اللّه.

و قد أخرج عبد بن حميد، و محمد بن نصر فى كتاب «الصلاة»، و ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال:

كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يرون أنه لا يضرّ مع لا إله إلا اللّه ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، حتى نزلت أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ فخافوا أن يبطل الذنب العمل، و لفظ عبد ابن حميد: فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم. و أخرج ابن نصر و ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عمر قال:

كنّا معشر أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم نرى أنه ليس شىء من الحسنات إلا مقبول، حتى نزلت أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما هذا الّذى يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات و الفواحش، فكنّا إذا رأينا من أصاب شيئا منها قلنا قد هلك، حتى نزلت هذه الآية إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* فلما نزلت كففنا عن القول فى ذلك، و كنا إذا رأينا أحدا أصاب منها شيئا خفنا عليه، و إن لم يصب منها شيئا رجوناه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله:

يَتِرَكُمْ قال: يظلمكم. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه قال: لما نزلت: وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ قالوا: من هؤلاء؟ و سلمان إلى جانب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال: «هم الفرس، هذا و قومه». و فى إسناده مسلم بن خالد الزنجى و قد تفرّد به، و فيه مقال معروف.

و أخرجه عنه عبد الرزاق و عبد بن حميد و الترمذى. و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى فى الدلائل، عن أبى هريرة قال: «تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ فقالوا: يا رسول اللّه من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على منكب سلمان ثم قال: هذا و قومه، و الّذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس» و فى إسناده أيضا مسلم بن خالد الزنجى. و أخرج ابن مردويه من حديث جابر نحوه.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۲

سورة الفتح

اشارة

و هى مدنية قال القرطبى: بالإجماع. و أخرج ابن الضّريس و النّحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال:

نزلت سورة الفتح بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج ابن إسحاق، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الدلائل، عن المسور بن مخرمة و مروان قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة و المدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها. و هذا لا ينافى الإجماع على كونها مدنية؛ لأنّ المراد بالسور المدنية النازلة بعد الهجرة من مكة. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن عبد اللّه بن مغفل قال: قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها. و فى الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يسير فى بعض أسفاره و عمر بن الخطاب يسير

معه ليلا، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم سأله فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر بن الخطاب: هلكت أمّ عمر، نزرت «١» رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، فقال عمر: فحرّكت بعيرى ثم تقدّمت أمام الناس و خشيت أن ينزل فيّ قرآن، فما نشبت «٢» أن سمعت صارخا يصرخ بى؛ فقلت: لقد خشيت أن يكون قد نزل فى قرآن، فجئت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسلّمت عليه، فقال: «لقد أنزلت عليّ سورة لهى أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس»، ثم قرأ:

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً و فى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدّثهم قال: لما نزلت إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً الآية إلى قوله: فَوْزاً عَظِيماً مرجعه من الحديبية، و هم يخالطهم الحزن و الكآبة، و قد نحر الهدى بالحديبية، فقال: «لقد أنزلت عليّ آية هى أحبّ إليّ من الدنيا جميعها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٤)

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (٥) وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً (٦) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (٧)

---

(١). «نزرت»: أى ألححت عليه و بالغت فى السؤال.

(٢). «ما نشبت»: أى ما لبثت.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٣

قوله: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً اختلف فى تعيين هذا الفتح، فقال الأكثر: هو صلح الحديبية، و الصلح قد يسمّى فتحا. قال الفرّاء: و الفتح قد يكون صلحا، و معنى الفتح فى اللغة: فتح المنغلق، و الصلح الّذى كان مع المشركين بالحديبية كان مسدودا متعذّرا حتى فتحه اللّه. قال الزهرى: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، و ذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام فى قلوبهم، و أسلم فى ثلاث سنين خلق كثير، و كثر بهم سواد الإسلام. قال الشعبى: لقد أصاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الحديبية ما لم يصب فى غزوة، غفر اللّه له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخر، و بويع بيعة الرّضوان، و أطعموا نخل خيبر، و بلغ الهدى محلّه، و ظهرت الروم على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. و قال قوم: إنه فتح مكة. و قال آخرون: إنه فتح خيبر. و الأوّل أرجح، و يؤيده ما ذكرناه قبل هذا من أن السورة أنزلت فى شأن الحديبية. و قيل: هو جميع ما فتح اللّه لرسوله من الفتوح، و قيل: هو ما فتح له من النبوّة و الدعوة إلى الإسلام، و قيل: فتح الروم، و قيل: المراد بالفتح فى هذه الآية الحكم و القضاء، كما فى قوله: افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِ فكأنه قال: إنا قضينا لك قضاء مبينا، أى: ظاهرا واضحا مكشوفا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ اللام متعلقة بفتحنا، و هى لام العلة. قال ابن الأنبارى: سألت أبا

العباس، يعنى المبرد، عن اللام فى قوله: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ فقال: هى لام كى، معناها: إنا فتحنا لك فتحا مبينا لكى يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة فى الفتح، فلما انضمّ إلى المغفرة شىء حادث واقع؛ حسن معنى كى، و غلط من قال ليس الفتح سبب المغفرة. و قال صاحب الكشاف: إن اللام لم تكن علّة للمغفرة، و لكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة و هى: المغفرة، و إتمام النعمة، و هداية الصراط المستقيم، و النصر العزيز، كأنه قيل: يسّرنا لك فتح مكة و نصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عزّ الدارين، و أعراض العاجل و الآجل. و هذا كلام غير جيد، فإن اللام داخلة على المغفرة فهى علة للفتح. فكيف يصح أن تكون معللة؟ و قال الرازى فى توجيه التعليل: إن المراد بقوله: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ التعريف بالمغفرة تقديره: إنا فتحنا لك لنعرف أنك مغفور لك معصوم. و قال ابن عطية: المراد أن اللّه فتح لك لكى يجعل الفتح علامة لغفرانه لك. فكأنها لام الصيرورة. و قال أبو حاتم: هى لام القسم و هو خطأ، فإن لام القسم لا تكسر و لا ينصب بها.

و اختلف فى معنى قوله: ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ فقيل: ما تقدّم من ذنبك قبل الرسالة، و ما تأخر بعدها، قاله مجاهد و سفيان الثورى و ابن جرير و الواحدى و غيرهم. و قال عطاء: ما تقدّم من ذنبك:

يعنى ذنب أبويك آدم و حوّاء، و ما تأخر من ذنوب أمتك. و ما أبعد هذا عن معنى القرآن! و قيل: ما تقدّم من ذنب أبيك أبيك إبراهيم، و ما تأخر من ذنوب النّبيين من بعده، و هذا كالذى قبله. و قيل: ما تقدّم من ذنب يوم بدر، و ما تأخر من ذنب يوم حنين، و هذا كالقولين الأولين فى البعد. و قيل: لو كان ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك، و قيل: غير ذلك مما لا وجه له، و الأوّل أولى. و يكون المراد بالذنب بعد الرسالة ترك ما هو الأولى، و سمّى ذنبا فى حقه لجلالة قدره و إن لم يكن ذنبا فى حق غيره وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ بإظهار دينك على الدين كله، و قيل: بالجنة، و قيل: بالنبوّة و الحكمة، و قيل: بفتح مكة و الطائف و خيبر، و الأولى أن

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۴

يكون المعنى؛ ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة و الهداية إلى صراط مستقيم، و هو الإسلام، و معنى «يهديك»: يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً أى: غالبا منيعا لا يتبعه ذلّ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ أى: السكون و الطمأنينة بما يسّره لهم من الفتح؛ لئلا تنزعج نفوسهم لما يرد عليهم لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ أى: ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيمانا منضمّا إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل. قال الكلبى: كلما نزلت آية من السماء فصدقوا بها ازدادوا تصديقا إلى تصديقهم، و قال الربيع بن أنس: خشية مع خشيتهم. و قال الضحاك: يقينا مع يقينهم وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يعنى الملائكة و الإنس و الجن و الشياطين يدبّر أمرهم كيف يشاء، و يسلّط بعضهم على بعض، و يحوط بعضهم ببعض وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً كثير العلم بليغه حَكِيماً فى أفعاله و أقواله.

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ هذه اللام متعلقة بمحذوف يدلّ عليه ما قبله، تقديره: يبتلى بتلك الجنود من يشاء، فيقبل الخير من أهله و الشرّ ممن قضى له به ليدخل و يعذب، و قيل:

متعلّقة بقوله: إِنَّا فَتَحْنا كأنه قال: إنا فتحنا لك ما فتحنا ليدخل و يعذب، و قيل: متعلقة بينصرك:

أى نصرك اللّه بالمؤمنين ليدخل و يعذب، و قيل: متعلقة بيزدادوا، أى: يزدادوا «ليدخل» و «يعذب»، و الأوّل أولى. وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أى: يسترها و لا يظهرها و لا يعذّبهم بها، و قدّم الإدخال على التكفير مع أن الأمر بالعكس؛ للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى، و المقصد الأسنى وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً أى: و كان ذلك الوعد بإدخالهم الجنة و تكفير سيئاتهم عند اللّه و فى حكمه فوزا عظيما، أى:

ظفرا بكل مطلوب و نجاة من كل غمّ، و جلبا لكل نفع، و دفعا لكل ضرّ، و قوله: عِنْدَ اللَّهِ متعلّق بمحذوف على أنه حال من فوزا؛

لأنه صفة فى الأصل، فلما قدم صار حالا، أى: كائنا عند اللّه، و الجملة معترضة بين جزاء المؤمنين و جزاء المنافقين و المشركين.
ثم لما فرغ ممّا وعد به صالحى عباده ذكر ما يستحقه غيرهم، فقال: وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ و هو معطوف على «يدخل»، أى: يعذّبهم فى الدنيا بما يصل إليهم من الهموم و الغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام و قهر المخالفين له، و بما يصابون به من القهر و القتل و الأسر، و فى الآخرة بعذاب جهنم، و فى تقديم المنافقين على المشركين دلالة على أنهم أشدّ منهم عذابا، و أحقّ منهم بما وعدهم اللّه به. ثم وصف الفريقين، فقال: الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ و هو ظنّهم أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يغلب؛ و أن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام.
و ممّا ظنّوه ما حكاه اللّه عنهم بقوله: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً.
عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ أى: ما يظنّونه و يتربّصونه بالمؤمنين دائر عليهم، حائق بهم، و المعنى: أن العذاب و الهلاك الّذى يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم. و قال الخليل و سيبويه: السوء هنا الفساد. قرأ الجمهور السَّوْءِ بفتح السين. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بضمها وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً لمّا بيّن سبحانه أن دائرة السوء عليهم فى الدنيا بيّن ما يستحقّونه مع ذلك من الغضب و اللعنة و عذاب جهنم وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ من الملائكة و الإنس و الجنّ و الشياطين
فتح القدير، ج‌5، ص: 55
وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً كرّر هذه الآية لقصد التأكيد. و قيل: المراد بالجنود هنا جنود العذاب كما يفيده التعبير بالعزة هنا مكان العلم هنا لك.
و قد أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن مجمّع بن جارية الأنصارى قال: شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا عنها حتى بلغنا كراع الغميم «1»، إذ الناس يهزّون الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ فقالوا: أوحى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فخرجنا مع الناس نوجف «2»، فإذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً، فقال رجل: أى رسول اللّه أو فتح هو؟ قال:
إى و الّذى نفس محمد بيده، إنه لفتح. فقسمت خيبر على أهل الحديبية، لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثمانية عشر سهما، و كان الجيش ألفا و خمسمائة، منهم ثلاثمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، و أعطى الراجل سهما. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد، و البخارى فى تاريخه، و أبو داود و النسائى و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن مسعود قال: أقبلنا من الحديبية مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فبينا نحن نسير إذا أتاه الوحى، و كان إذا أتاه اشتدّ عليه، فسرّى عنه و به من السرور ما شاء اللّه، فأخبرنا أنه أنزل عليه: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً. و أخرج البخارى و غيره عن أنس فى قوله: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً قال: الحديبية. و أخرج البخارى و غيره عن البراء قال: تعدّون أنتم الفتح فتح مكة، و قد كان فتح مكّة فتحا، و نحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً قال: «فتح مكة». و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن المغيرة بن شعبة قال: «كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر اللّه لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا» و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس فى قوله: هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ قال: السكينة هى الرحمة، و فى قوله: لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ قال: إن اللّه بعث نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بشهادة أن لا إله إلا اللّه، فلما صدّق بها المؤمنون زادهم الصلاة، فلما صدّقوا بها زادهم الصيام، فلما صدّقوا به زادهم الزكاة، فلما صدّقوا بها زادهم الحجّ، فلما صدّقوا به زادهم الجهاد.

ثم أكمل لهم دينهم فقال: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً «٣».
قال ابن عباس: فأوثق إيمان أهل السماء و أهل الأرض و أصدقه و أكمله شهادة أن لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ قال: تصديقا مع تصديقهم. و أخرج البخارى و مسلم

---

(١). «كراع الغميم»: موضع بناحية الحجاز بين مكة و المدينة.

(٢). «نوجف»: نسرع السير.

(٣). المائدة: ٣.

و غير هما عن أنس قال: لما أنزل على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ مرجعه من الحديبية. قال: «لقد أنزلت علىّ آية هى أحبّ إلىّ مما على الأرض، ثم قرأها عليهم. فقالوا: هنيئا مريئا يا رسول اللّه، قد بيّن اللّه لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا. فنزلت عليه لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ حتى بلغ فَوْزاً عَظِيماً».

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ٨ الى ١٥]

إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (١٢)
وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (١٣) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥)
قوله: إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً أى: على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم وَ مُبَشِّراً بالجنة للمطيعين وَ نَذِيراً لأهل المعصية لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ قرأ الجمهور: لِتُؤْمِنُوا بالفوقية. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بالتحتية، فعلى القراءة الأولى الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لأمته، و على القراءة الثانية المراد المبشرين و المنذرين، و انتصاب شاهدا و مبشرا و نذيرا على الحال المقدرة وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ الخلاف بين القرّاء فى هذه الثلاثة الأفعال كالخلاف فى لِتُؤْمِنُوا كما سلف، و معنى تعزّروه: تعظّموه و تفخّموه؛ قال الحسن و الكلبى، و العزيز: التعظيم و التوقير. و قال قتادة: تنصروه و تمنعوا منه. و قال عكرمة: تقاتلون معه بالسيف، و معنى توقروه: تعظموه. و قال السدّى: تسوّدوه، و قيل: و الضميران فى الفعلين للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و هنا وقف تام، ثم يبتدئ و تسبحوه، أى: تسبحوا اللّه عزّ و جلّ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا أى: غدوة و عشيه، و قيل: الضمائر كلها فى الأفعال الثلاثة للّه عزّ و جلّ، فيكون معنى تعزروه و توقروه: تثبتون له التوحيد و تنفون عنه الشركاء، و قيل: تنصروا دينه و تجاهدوا مع رسوله. و فى التسبيح وجهان، أحدهما التنزيه له سبحانه من كل قبيح، و الثانى الصلاة إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ يعنى بيعة الرضوان بالحديبية، فإنهم بايعوا تحت الشجرة على قتال قريش إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ أخبر سبحانه أن هذه البيعة لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم هى بيعة له،

كما قال: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ «۱» و ذلک لأنهم باعوا أنفسهم من اللّه بالجنة، و جملة: يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ مستأنفة لتقرير ما قبلها على طريق التّخييل، فى محل نصب على الحال، و المعنى: أن عقد الميثاق مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كعقده مع اللّه سبحانه من غير تفاوت. و قال الكلبى: المعنى: إن نعمة اللّه عليهم فى الهداية فوق ما صنعوا من البيعة. و قيل: يده فى الثواب فوق أيديهم فى الوفاء. و قال ابن كيسان: قوّة اللّه و نصرته فوق قوّتهم و نصرتهم فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ أى: فمن نقض ما عقد من البيعة فإنما ينقض على نفسه؛ لأن ضرر ذلک راجع إليه لا يجاوزه إلى غيره وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ أى:

ثبت على الوفاء بما عاهد عليه فى البيعة لرسوله. قرأ الجمهور: فَسَيُؤْتِيهِ بالتحتية، و قرأ نافع و ابن كثير و ابن عامر بالنون، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد و أبو حاتم، و اختار القراءة الثانية الفراء سَيَقُولُ لَکَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ هم الذين خلفهم اللّه عن صحبة رسوله حين خرج عام الحديبية. قال مجاهد و غيره: يعنى أعراب غفار و مزينة و جهينة و أسلم و أشجع و الدّئل، و هم الأعراب الذين كانوا حول المدينة.

و قيل: تخلّفوا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حين سافر إلى مكة عام الفتح بعد أن كان قد استنفرهم ليخرجوا معه، و المخلّف: المتروک شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا أى: منعنا عن الخروج معک ما لنا من الأموال و النّساء و الذّرارى، و ليس لنا من يقوم بهم و يخلفنا عليهم فَاسْتَغْفِرْ لَنا ليغفر اللّه لنا ما وقع منا من التخلف عنک بهذا السبب، و لما كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد بل على طريقة الاستهزاء، و كانت بواطنهم مخالفة لظواهرهم فضحهم اللّه سبحانه بقوله: يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ و هذا هو صنيع المنافقين.

و الجملة مستأنفة لبيان ما تنطوى عليه بواطنهم، و يجوز أن تكون بدلا من الجملة الأولى. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجيب عنهم، فقال: قُلْ فَمَنْ يَمْلِکُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أى: فمن يمنعكم ممّا أراده اللّه بكم من خير و شرّ، ثم بيّن ذلک فقال: إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أى: إنزال ما يضرّكم من ضياع الأموال و هلاک الأهل. قرأ الجمهور: ضَرًّا بفتح الضاد، و هو مصدر ضررته ضرّا. و قرأ حمزة و الكسائى بضمّها، و هو اسم ما يضرّ، و قيل: هما لغتان أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً أى: نصرا و غنيمة، و هذا ردّ عليهم حين ظنّوا أن التخلف عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يدفع عنه الضرّ، و يجلب لهم النفع، ثم أضرب سبحانه عن ذلک و قال: بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً أى: إن تخلفكم ليس لما زعمتم، بل كان اللّه خبيرا بجميع ما تعملونه من الأعمال التى من جملتها تخلفكم، و قد علم أن تخلفكم لم يكن لذلک، بل للشک و النفاق و ما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة باللّه، و لهذا قال: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً و هذه الجملة مفسرة لقوله: بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً لما فيها من الإبهام، أى:

بل ظننتم أن العدوّ يستأصل المؤمنين بالمرة فلا يرجع منهم أحد إلى أهله، فلأجل ذلک تخلفتم لا لما ذكرتم من

---

(۱). النساء: ۸۰.

المعاذير الباطلة وَ زُيِّنَ ذلِکَ فِي قُلُوبِكُمْ أى: و زيّن الشيطان ذلک الظن فى قلوبكم فقبلتموه. قرأ الجمهور وَ زُيِّنَ مبنيا للمفعول، و قرئ مبنيا للفاعل. وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ أن اللّه سبحانه لا ينصر رسوله، و هذا الظن إما هو الظن الأول، و التكرير للتأكيد و التوبيخ، و المراد به ما هو أعمّ من الأوّل، فيدخل الظنّ الأوّل تحته دخولا أوّليا وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً أى: هلكى. قال الزجاج: هالكين عند اللّه، و كذا قال مجاهد. قال الجوهرى: البور: الرجل الفاسد الهالک الّذى لا خير فيه. قال أبو عبيد قَوْماً بُوراً هلكى، و هو

جمع بائر، مثل حائل و حول، و قد بار فلان، أى: هلك، و أباره اللّه: أهلكه وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً هذا الكلام مستأنف من جهة اللّه سبحانه غير داخل تحت ما أمر اللّه سبحانه رسوله أن يقوله، أى: و من لم يؤمن بهما كما صنع هؤلاء المخلفون، فجزاؤهم ما أعدّه اللّه لهم من عذاب السعير وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يتصرّف فيه كيف يشاء لا يحتاج إلى أحد من خلقه، و إنّما تعبّدهم بما تعبّدهم ليثيب من أحسن و يعاقب من أساء، و لهذا قال: يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ أن يغفر له وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ أن يعذبه لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ «١». وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً أى: كثير المغفرة و الرحمة بليغها، يخصّ بمغفرته و رحمته من يشاء من عباده سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها المخلفون هؤلاء المذكورون سابقا، و الظرف متعلّق بقوله سَيَقُولُ و المعنى:

سيقولون عند انطلاقكم أيها المسلمون إِلى مَغانِمَ يعنى مغانم خيبر لِتَأْخُذُوها لتحوزوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ أى: اتركونا نتبعكم و نشهد معكم غزوة خيبر. و أصل القصة أنه لما انصرف النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و من معه من المسلمين من الحديبية وعدهم اللّه فتح خيبر، و خصّ بغنائمها من شهد الحديبية، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون: ذرونا نتبعكم، فقال اللّه سبحانه: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ أى: يغيروا كلام اللّه، و المراد بهذا الكلام الّذى أرادوا أن يبدّلوه هو مواعيد اللّه لأهل الحديبية خاصّة بغنيمة خيبر. و قال مقاتل:

يعنى أمر اللّه لرسوله أن لا يسير معه أحد منهم. و قال ابن زيد: هو قوله تعالى: فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا «٢» و اعترض على هذا ابن جرير و غيره بأن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر و بعد فتح مكة، و الأوّل أولى، و به قال مجاهد و قتادة، و رجّحه ابن جرير و غيره. قرأ الجمهور:

كَلامَ اللَّهِ و قرأ حمزة و الكسائى «كلم اللّه» قال الجوهرى: الكلام اسم جنس يقع على القليل و الكثير، و الكلام لا يكون أقلّ من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة، مثل نبقة و نبق. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يمنعهم من الخروج معه فقال: قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا هذا النفى هو فى معنى النهى، و المعنى: لا تتبعونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ أى: من قبل رجوعنا من الحديبية أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ليس لغيرهم فيها نصيب فَسَيَقُولُونَ يعنى المنافقين عند سماع هذا القول، و هو قوله: «لَنْ تَتَّبِعُونا» بَلْ تَحْسُدُونَنا أى: بل ما يمنعكم من خروجنا معكم إلا الحسد لئلا نشارككم فى الغنيمة، و ليس ذلك

---

(١). الأنبياء: ٢٣.

(٢). التوبة: ٨٣.

بقول اللّه كما تزعمون. ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا أى: لا يعلمون إلا علما قليلا، و هو علمهم بأمر الدنيا، و قيل: لا يفقهون من أمر الدين إلا فقها قليلا، و هو ما يصنعونه نفاقا بظواهرهم دون بواطنهم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ تُعَزِّرُوهُ يعنى الإجلال وَ تُوَقِّرُوهُ يعنى التعظيم، يعنى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عنه فى قوله: وَ تُعَزِّرُوهُ قال: تضربوا بين يديه بالسيف. و أخرج ابن عدى و ابن مردويه و الخطيب، و ابن عساكر فى تاريخه، عن جابر بن عبد اللّه قال: «لما أنزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية وَ تُعَزِّرُوهُ قال لأصحابه: ما ذاك؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: لتنصروه».

و أخرج أحمد و ابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على السمع و الطاعة فى النشاط و الكسل، و على النّفقة فى العسر و اليسر، و على الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و على أن نقول فى اللّه لا تأخذنا فيه لومة

لائم، و على أن ننصره إذا قدم علينا يثرب، فنمنعه ممّا نمنع منه أنفسنا و أزواجنا و أبناءنا و لنا الجنة، فمن وفّى وفّى اللّه له، و من نكث فإنما ينكث على نفسه». و فى الصحيحين من حديث جابر: «أنهم كانوا فى بيعة الرضوان خمس عشرة مائة» و فيهما عنه أنهم كانوا أربعة عشرة مائة، و فى البخارى من حديث قتادة عن سعيد بن المسيب أنه سأله كم كانوا فى بيعة الرضوان قال: خمس عشرة مائة، فقال له: إن جابرا قال:

كانوا أربع عشرة مائة، قال رحمه اللّه: و هم، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة.

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ١٦ الى ٢٤]

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (١٧) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (١٨) وَ مَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٢٠)

وَ أُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢١) وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣) وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٢٤)

قوله: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ هم المذكورون سابقا سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ قال عطاء بن أبى رباح و مجاهد و ابن أبى ليلى و عطاء الخراسانى: هم فارس. و قال كعب و الحسن: هم الروم.

و روى عن الحسن أيضا أنه قال: هم فارس و الروم. و قال سعيد بن جبير: هم هوازن و ثقيف. و قال عكرمة:

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦٠

هوازن. و قال قتادة: هوازن و غطفان يوم حنين. و قال الزهرى و مقاتل: هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة. و حكى هذا القول الواحدى عن أكثر المفسرين. تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ أى: يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة، أو الإسلام، لا ثالث لهما، و هذا حكم الكفار الّذين لا تؤخذ منهم الجزية. قال الزجّاج: التقدير: أو هم يسلمون، و فى قراءة أبيّ أو يسلموا أى: حتى يسلموا فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً و هو الغنيمة فى الدنيا و الجنة فى الآخرة وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا أى: تعرضوا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ و ذلك عام الحديبية يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً بالقتل و الأسر و القهر فى الدنيا و بعذاب النار فى الآخرة لتضاعف جرمكم. لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ أى: ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار حرج فى التخلف عن الغزو لعدم استطاعتهم. قال مقاتل: عذر اللّه أهل الزمانة الذين تخلّفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية، و الحرج: الإثم وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فيما أمراه به و نهياه عنه يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ قرأ الجمهور: يُدْخِلْهُ بالتحتية، و اختار هذه القراءة أبو حاتم و أبو عبيد، و قرأ نافع و ابن عامر بالنون. وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً أى: و من يعرض عن الطاعة يعذّبه اللّه عذابا شديد الألم.

ثم ذكر سبحانه الذين أخلصوا نياتهم و شهدوا بيعة الرضوان، فقال:

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أى: رضى اللّه عنهم وقت تلك البيعة، و هى بيعة الرضوان، و كانت بالحديبية، و العامل فى «تحت» إما يبايعونك، أو محذوف على أنه حال من المفعول، و هذه الشجرة المذكورة هى شجرة كانت

بالحديبية، و قيل: سدرة. و كانت البيعة على أن يقاتلوا قريشا و لا يفرّوا. و روى أنه بايعهم «۱» على الموت، و قد تقدّم ذكر عدد أهل هذه البيعة قريبا، و القصة مبسوطة فى كتب الحديث و السّير فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ معطوف على يبايعونك. قال الفراء: أى: علم ما فى قلوبهم من الصدق و الوفاء. و قال قتادة و ابن جريج: من الرضى بأمر البيعة على أن لا يفرّوا. و قال مقاتل: من كراهة البيعة على الموت فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ معطوف على رضى. و السكينة: الطمأنينة و سكون النفس كما تقدّم، و قيل: الصبر وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً هو فتح خيبر عند انصرافهم من الحديبية. قاله قتادة و ابن أبى ليلى و غير هما، و قيل: فتح مكة، و الأوّل أولى وَ مَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها أى: و أثابكم مغانم كثيرة، أو: و آتاكم، و هى غنائم خيبر، و الالتفات لتشريفهم بالخطاب وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً أى: غالبا مصدرا أفعاله و أقواله على أسلوب الحكمة وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فى هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة يأخذونها فى أوقاتها التى قدّر وقوعها فيها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ أى: غنائم خيبر، قاله مجاهد و غيره، و قيل: صلح الحديبية وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ أى: و كفّ أيدى قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح، و قيل: كفّ أيدى أهل خيبر و أنصارهم عن قتالكم، و قذف فى قلوبهم الرعب. و قال قتادة: كفّ أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الحديبية و خيبر،

---

(۱). فى مسند أحمد (۴/ ۵۱): فبايعوه.

و رجّح هذا ابن جرير، قال: لأن كفّ أيدى الناس بالحديبية مذكور فى قوله: وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ و قيل: كفّ أيدى الناس عنكم؛ يعنى عيينة بن حصن الفزارى، و عوف بن مالك النضرى، و من كان معهما، إذا جاءوا لينصروا أهل خيبر عند حصار النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم لهم وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ اللام يجوز أن تتعلّق بفعل محذوف يقدّر بعده، أى: فعل ما فعل من التعجيل و الكفّ لتكون آية، أو على علة محذوفة تقديرها: وعد فعجل و كفّ لتنتفعوا بذلك و لتكون آية. و قيل: إن الواو مزيدة و اللام لتعليل ما قبله؛ أى:

و كفّ لتكون؛ و المعنى: ذلك الكفّ آية يعلم بها صدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى جميع ما يعدكم به وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً أى: يزيدكم بتلك الآية هدى، أو يثبتكم على الهداية إلى طريق الحقّ وَ أُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها معطوف على «هذه»، أى: فعجّل لكم هذه المغانم، و مغانم أخرى لم تقدروا عليها، و هى الفتوح التى فتحها اللّه على المسلمين من بعد كفارس و الروم و نحوهما، كذا قال الحسن و مقاتل و ابن أبى ليلى. و قال الضحاك و ابن زيد و ابن أبى إسحاق: هى خيبر وعدها اللّه نبيّه قبل أن يفتحها و لم يكونوا يرجونها. و قال قتادة: فتح مكة. و قال عكرمة: حنين، و الأوّل أولى قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها صفة ثانية لأخرى. قال الفراء: أحاط اللّه بها لكم حتى تفتحوها و تأخذوها، و المعنى: أنه أعدّها لهم و جعلها كالشى‏ء الّذى قد أحيط به من جميع جوانبه، فهو محصور لا يفوت منه شى‏ء، فهم و إن لم يقدروا عليها فى الحال فهى محبوسة لهم لا تفوتهم، و قيل: معنى أحاط: علم أنها ستكون لهم وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيراً لا يعجزه شى‏ء، و لا تختص قدرته ببعض المقدورات دون بعض وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ قال قتادة:

يعنى كفار قريش بالحديبية، و قيل: أسد و غطفان الذين أرادوا نصر أهل خيبر، و الأول أولى ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا يواليهم على قتالكم وَ لا نَصِيراً ينصرهم عليكم سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ أى: طريقته و عادته التى قد مضت فى الأمم من نصر أوليائه على أعدائه، و انتصاب «سنة» على المصدرية بفعل محذوف، أى: بين اللّه سنة اللّه، أو هو مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدّمة وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا أى:

لن تجد لها تغييرا، بل هى مستمرّة ثابتة وَ هُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكَمْ وَ أَيْدِيَكَمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ أى: كفّ أيدى المشركين عن المسلمين و أيدى المسلمين عن المشركين لما جاءوا يصدون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و من معه عن البيت عام الحديبية، و هى: المراد ببطن مكة. و قيل: إن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من قبل جبل التنعيم متسلحين يريدون غرّة «١» النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأخذهم المسلمون ثم تركوهم. و فى رواية اختلاف سيأتى بيانه آخر البحث إن شاء اللّه وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً لا يخفى عليه من ذلك شىء.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس فى قوله: أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ يقول: فارس. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة، أنهم الأكراد. و أخرج ابن مردويه عن

---

(١). «الغرّة»: الغفلة.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦٢

ابن عباس قال: فارس و الروم. و أخرج الفريابى و ابن مردويه عنه قال: هوازن و بنى حنيفة. و أخرج الطبرانى- قال السيوطى- بسند حسن عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و إنى لواضع القلم على أذنى، إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى فقال: كيف لى و أنا ذاهب البصر؟ فنزلت لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ الآية. قال هذا فى الجهاد، و ليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال: «بينا نحن قائلون إذ نادى منادى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أيها الناس البيعة البيعة، نزل روح القدس، فسرنا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول اللّه تعالى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فبايع لعثمان إحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئا لابن عفان يطوف بالبيت و نحن ها هنا، فقال رسول اللّه: لو مكث كذا و كذا سنة ما طاف حتى أطواف».

و أخرج ابن أبى شيبة فى «المصنف» عن نافع قال: بلغ عمر بن الخطاب أن ناسا يأتون الشجرة التى بويع تحتها، فأمر بها. فقطعت. و أخرج البخارى عن سلمة بن الأكوع قال: بايعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تحت الشجرة، قيل: على أى شىء كنتم تبايعونه يومئذ؟ قال: على الموت. و أخرج مسلم و غيره عن جابر قال:

بايعناه على ألّا نفرّ، و لم نبايعه على الموت. و أخرج أحمد و أبو داود و الترمذى عن جابر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة». و أخرج مسلم من حديثه مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ قال: إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ يعنى الفتح. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ يعنى خيبر وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ يعنى أهل مكة أن يستحلوا حرم اللّه، و يستحلّ بكم و أنتم حرم وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ قال: سنة من بعدكم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عنه أيضا فى قوله: وَ أُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قال: هذه الفتوح التى تفتح إلى اليوم. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه أيضا وَ أُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قال: هى خيبر. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و مسلم و أبو داود و الترمذى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن أنس قال: لما كان يوم الحديبية، هبط على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح من قبل جبال التنعيم يريدون غرّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية: وَ هُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ

و فى صحيح مسلم و غيره: أنها نزلت فى نفر أسرهم سلمة بن الأكوع يوم الحديبية. و أخرج أحمد و النسائى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، فى سبب نزول الآية: «إن ثلاثين شابا من المشركين خرجوا يوم الحديبية على المسلمين فى السلاح، فثاروا فى وجوههم، فدعا عليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأخذ اللّه بأسماعهم- و لفظ الحاكم: بأبصارهم- فقام إليهم المسلمون فأخذوهم، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هل جئتم فى عهد أحد، أو هل جعل لكم أحد أمانا؟ فقالوا: لا، فخلّى سبيلهم، فنزلت هذه الآية».

فتح القدير، ج‏5، ص: 63

[سورة الفتح (48): الآيات 25 الى 29]

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (25) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى‏ وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيماً (26) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (27) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى‏ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً (28) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى‏ عَلى‏ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (29)

قوله: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ يعنى كفار مكة، و معنى صدّهم عن المسجد الحرام: أنهم منعوهم أن يطوفوا به و يحلّوا عن عمرتهم وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً قرأ الجمهور بنصب «الهدى» عطفا على الضمير المنصوب فى «صدّوكم»، و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه بالجرّ عطفا على «المسجد»، و لا بدّ من تقدير مضاف، أى: عن نحر الهدى. و قرئ بالرفع على تقدير: و صد الهدى، و قرأ الجمهور بفتح الهاء من الهدى و سكون الدال، و روى عن أبى عمرو و عاصم بكسر الدال و تشديد الياء. و انتصاب معكوفا على الحال من الهدى، أى: محبوسا. قال الجوهرى: عكفه، أى: حبسه و وقفه، و منه: وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً و منه الاعتكاف فى المسجد، و هو الاحتباس. و قال أبو عمرو بن العلاء: معكوفا: مجموعا، و قوله: أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ أى: عن أن يبلغ محله، أو هو مفعول لأجله، و المعنى: صدّوا الهدى كراهة أن يبلغ محله، أو هو بدل من الهدى بدل اشتمال، و محلّه: منحره، و هو حيث يحلّ نحره من الحرم، و كان الهدى سبعين بدنة، و رخّص اللّه سبحانه لهم بجعل ذلك الموضع الّذى وصلوا إليه و هو الحديبية محلا للنحر.

و للعلماء فى هذا كلام معروف فى كتب الفروع. وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ يعنى المستضعفين من المؤمنين بمكة، و معنى: «لم تعلموهم» لم تعرفوهم، و قيل: لم تعلموا أنهم مؤمنون أَنْ تَطَؤُهُمْ يجوز أن يكون بدلا من رجال و نساء، و لكنه غلب الذكور، و أن يكون بدلا من مفعول «تعلموهم»، و المعنى أن تطئوهم بالقتل و الإيقاع بهم، يقال: وطئت القوم، أى: أوقعت بهم، و ذلك أنهم لو كسبوا مكة و أخذوها عنوة بالسيف لم يتميز المؤمنون الذين هم فيها من الكفار، و عند ذلك لا يأمنوا أن يقتلوا المؤمنين فتلزمهم الكفّارة و تلحقهم سبّة، و هو معنى قوله: فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ أى: من جهتهم مَعَرَّةٌ أى: مشقة؛ بما يلزمهم فى قتلهم من كفّارة و عيب، و أصل المعرّة: العيب، مأخوذة من العرّ؛

و هو الجرب، و ذلك أن المشركين سيقولون: إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم. قال الزجاج: لو لا أن تقتلوا رجالا مؤمنين و نساء مؤمنات فتصيبكم منهم معرّة، أي: إثم، و كذا قال الجوهرى، و به قال ابن زيد. و قال الكلبى و مقاتل و غير هما: المعرّة: كفارة قتل الخطأ، كما فى قوله: فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ «۱» و قال ابن إسحاق: المعرّة: غرم الدية. و قال قطرب: المعرّة: الشدّة، و قيل: الغمّ، و بِغَيْرِ عِلْمٍ متعلّق بأن تطئوهم، أى: غير عالمين، و جواب لو لا محذوف، و التقدير: لأذن اللّه لكم أو لما كفّ أيديكم عنهم، و اللام فى لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ متعلّقة بما يدلّ عليه الجواب المقدّر، أى: و لكن لم يأذن لكم، أو كفّ أيديكم ليدخل اللّه فى رحمته بذلك من يشاء من عباده و هم المؤمنون و المؤمنات الذين كانوا فى مكة، فيتمّم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهرانى الكفار و يفكّ أسرهم، و يرفع ما كان ينزل بهم من العذاب. و قيل: اللام متعلّقة بمحذوف غير ما ذكر، و تقديره: لو قتلتموهم لأدخلهم اللّه فى رحمته، و الأوّل أولى. و قيل: إن «من يشاء» عباده ممّن رغب فى الإسلام من المشركين لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً التزيل: التميّز، أى: لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا منهم لعذبنا الذين كفروا، و قيل: التزيل: التفرق، أى: لو تفرّق هؤلاء من هؤلاء، و قيل: لو زال المؤمنون من بين أظهرهم، و المعانى متقاربة، و العذاب الأليم هو القتل و الأسر و القهر، و الظرف فى قوله: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا منصوب بفعل مقدّر، أى: اذكر وقت جعل الذين كفروا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ و قيل:

متعلّق بعذبنا، و الحمية: الأنفة، يقال: فلان ذو حمية، أى: ذو أنفة و غضب، أى: جعلوها ثابتة راسخة فى قلوبهم، و الجعل بمعنى الإلقاء، و حمية الجاهلية بدل من الحمية. قال مقاتل بن سليمان و مقاتل بن حيان:

قال أهل مكة: قد قتلوا أبناءنا و إخواننا و يدخلون علينا فى منازلنا، فتتحدّث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفنا، و اللات و العزّى لا يدخلونها علينا. فهذه الحمية هى حمية الجاهلية التى دخلت قلوبهم. و قال الزهرى: حميتهم: أنفتهم من الإقرار للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالرسالة. قرأ الجمهور: «لَوْ تَزَيَّلُوا» و قرأ ابن أبى عبلة و أبو حيوة و ابن عون لو تزايلوا و التزايل: التباين. فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أى: أنزل الطمأنينة و الوقار على رسوله و على المؤمنين؛ حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحميّة، و قيل: ثبّتهم على الرضى و التسليم وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى و هى «لا إله إلا اللّه» كذا قال الجمهور، و زاد بعضهم «محمد رسول اللّه» صلّى اللّه عليه و سلّم و زاد بعضهم «وحده لا شريك له». و قال الزهرى هى: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» و ذلك أن الكفار لم يقرّوا بها، و امتنعوا من كتابتها فى كتاب الصلح الّذى كان بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما ثبت ذلك فى كتب الحديث و السير، فخصّ اللّه بهذه الكلمة المؤمنين و ألزمهم بها، و الأوّل أولى؛ لأن كلمة التوحيد هى التى يتّقى بها الشرك باللّه، و قيل: كلمة التقوى هى الوفاء بالعهد و الثبات عليه وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها أى: و كان المؤمنون أحقّ بهذه الكلمة من الكفار و المستأهلين لها دونهم؛ لأن اللّه سبحانه أهّلهم لدينه و صحبة رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِ قال الواحدى: قال

---

(۱). النساء: ۹۲.

المفسرون: إن اللّه سبحانه أرى نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم فى المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو و أصحابه حلقوا و قصّروا، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا و حسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك، فلما رجعوا من الحديبية و لم يدخلوا مكة قال المنافقون: و اللّه ما حلقنا و لا قصّرنا و لا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل اللّه هذه الآية، و قيل: إن الرؤيا كانت بالحديبية. و قوله:

بالحقّ صفة لمصدر محذوف، أى: صدقا متلبسا بالحقّ، و جواب القسم المحذوف المدلول عليه باللام الموطئة هو قوله: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ أى: فى العام القابل، و قوله:
إِنْ شاءَ اللَّهُ تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه كما فى قوله: وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ «١» قال ثعلب: إن اللّه استثنى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون. و قيل:
كان اللّه سبحانه علم أنه يموت بعض هؤلاء الذين كانوا معه فى الحديبية، فوقع الاستثناء لهذا المعنى، قاله الحسن ابن الفضل. و قيل: معنى إن شاء اللّه: كما شاء اللّه. و قال أبو عبيدة: «أن» بمعنى إذ، يعنى إذ شاء اللّه حيث أرى رسوله ذلك، و انتصاب آمِنِينَ على الحال من فاعل لتدخلنّ، و كذا مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ أى: آمنين من العدوّ، و محلّقا بعضكم و مقصّرا بعضكم، و الحلق و التقصير خاصّ بالرجال، و الحلق أفضل من التقصير كما يدلّ على ذلك الحديث الصحيح فى استغفاره صلّى اللّه عليه و سلّم للمحلقين فى المرّة الأولى و الثانية، و القائل يقول له: و للمقصرين؟ فقال فى الثالثة: و للمقصرين، و قوله: لا تَخافُونَ فى محل نصب على الحال أو مستأنف، و فيه زيادة تأكيد لما قد فهم من قوله: آمِنِينَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا أى: ما لم تعلموا من المصلحة فى الصلح؛ لما فى دخولكم فى عام الحديبية من الضرّر على المستضعفين من المؤمنين، و هو معطوف على «صدق»، أى: صدق رسوله الرؤيا، فعلم ما لم تعلموا به فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً أى: فجعل من دون دخولكم مكة، كما أرى رسوله، فتحا قريبا. قال أكثر المفسرين:
هو صلح الحديبية. و قال ابن زيد و الضحاك: فتح خيبر. و قال الزهرى: لا فتح فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية، و لقد دخل فى تلك السنتين فى الإسلام مثل من كان قد دخل فيه قبل ذلك بل أكثر، فإن المسلمين كانوا فى سنة ست، و هى سنة الحديبية ألفا و أربعمائة، و كانوا فى سنة ثمان عشرة آلاف. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى أى: إرسالا متلبسا بالهدى وَ دِينِ الْحَقِ و هو الإسلام لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ أى: يعليه على كلّ الأديان كما يفيده تأكيد الجنس، و قيل: ليظهر رسوله، و الأوّل أولى. و قد كان ذلك بحمد اللّه، فإن دين الإسلام قد ظهر على جميع الأديان و انقهر له كلّ أهل الملل وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً الباء زائدة كما تقدّم فى غير موضع، أى: كفى اللّه شهيدا على هذا الإظهار الّذى وعد المسلمين به و على صحة نبوّة نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ محمد مبتدأ، و رسول اللّه خبره، أو هو خبر مبتدأ محذوف، و رَسُولُ اللَّهِ بدل منه، و قيل: محمد مبتدأ و رسول اللّه نعت له. وَ الَّذِينَ مَعَهُ معطوف على المبتدأ و ما بعده الخبر، و الأوّل أولى، و الجملة مبينة لما هو من جملة المشهود به وَ الَّذِينَ مَعَهُ قيل: هم أصحاب الحديبية، و الأولى

---

(١). الكهف: ٢٣ و ٢٤.

الحمل على العموم أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ أى: غلاظ عليهم كما يغلظ الأسد على فريسته، و هو جمع شديد رُحَماءُ بَيْنَهُمْ أى: متوادّون متعاطفون، و هو جمع رحيم، و المعنى: أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدّة و الصلابة، و لمن وافقه الرحمة و الرأفة. قرأ الجمهور برفع أَشِدَّاءُ و رُحَماءُ على أنه خبر للموصول، أو خبر لمحمد و ما عطف عليه كما تقدم. و قرأ الحسن بنصبهما على الحال أو المدح، و يكون الخبر على هذه القراءة تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً أى: تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين، و على قراءة الجمهور هو خبر آخر أو استئناف، أعنى قوله «تراهم». يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً أى: يطلبون ثواب اللّه لهم و رضاه عنهم، و هذه الجملة خبر ثالث على قراءة الجمهور، أو فى محل نصب على الحال من ضمير «تراهم»، و هكذا سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ السيما: العلامة، و فيها لغتان المدّ و القصر، أى: تظهر علامتهم فى جباههم من أثر السجود فى الصلاة و كثرة التعبّد

بالليل و النهار. و قال الضحّاک: إذا سهر الرجل أصبح مصفرا، فجعل هذا هو السيما. و قال الزهرى: مواضع السجود أشدّ وجوههم بياضا يوم القيامة. و قال مجاهد: هو الخشوع و التواضع، و بالأوّل: أعنى كونه ما يظهر فى الجباه من كثرة السجود، قال سعيد بن جبير و مالک. و قال ابن جرير: هو الوقار. و قال الحسن: إذا رأيتهم مرضى و ما هم بمرضى، و قيل: هو البهاء فى الوجه و ظهور الأنوار عليه، و به قال سفيان الثورى. و الإشارة بقوله: ذٰلِکَ إلى ما تقدّم من هذه الصفات الجليلة، و هو مبتدأ و خبره قوله: مَثَلُهُمْ فِی التَّوْراةِ أى: وصفهم الّذى وصفوا به فى التوراة و وصفهم الّذى وصفوا به فِی الْإِنْجِیلِ و تكرير ذكر المثل لزيادة تقريره و للتنبيه على غرابته و أنه جار مجرى الأمثال فى الغرابة كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ إلخ كلام مستأنف، أى: هم كزرع إلخ، و قيل: هو تفسير لذلک على أنه إشارة مبهمة لم يرد به ما تقدّم من الأوصاف، و قيل: هو خبر، لقوله: وَ مَثَلُهُمْ فِی الْإِنْجِیلِ أى: و مثلهم فى الإنجيل كزرع، قال الفراء: فيه و جهان: إن شئت قلت ذلک مثلهم فى التوراة و مثلهم فى الإنجيل، يعنى كمثلهم فى القرآن، فيكون الوقف على الإنجيل، و إن شئت قلت: ذلک مثلهم فى التوراة، ثم تبتدئ: و مثلهم فى الإنجيل كزرع، قرأ الجمهور شَطْأَهُ بسكون الطاء، و قرأ ابن كثير و ابن ذكوان بفتحها، و قرأ أنس و نصر بن عاصم و يحيى بن وثّاب «شطأه» كعصاه. و قرأه الجحدرى و ابن أبى إسحاق شطه بغير همزة، و كلها لغات. قال الأخفش و الكسائى: شطأه: أى طرفه. قال الفراء:

أشطأ الزرع فهو مشطئ إذا خرج. قال الزجاج: أَخْرَجَ شَطْأَهُ أى: نباته. و قال قطرب: الشطء:

شوک السّنبل. و روى عن الفراء أيضا أنه قال: هو السنبل. و قال الجوهرى: شطء الزرع و النبات:

[فراخه «۱»، و الجمع أشطاء. و قد أشطأ الزرع خرج شطؤه. فَآزَرَهُ أى: قواه و أعانه و شدّه، و قيل: المعنى: إن الشطء قوّى الزرع، و قيل: إن الزرع قوّى الشطء، و مما يدلّ على أن الشطء خروج النبات قول الشاعر:

أخرج الشّطء على وجه الثّرىو من الأشجار أفنان الثّمر

---

(۱). من تفسير القرطبى (۱۶/ ۲۹۴)

قرأ الجمهور فَآزَرَهُ بالمد. و قرأ ابن ذكوان و أبو حيوة و حميد بن قيس بالقصر، و على قراءة الجمهور قول امرئ القيس:

بمحنية «۱» قد آزر الضّال «۲» نبتهامجرّ جيوش غانمين و خيّب

قال الفراء: آزرت فلانا آزره أزرا؛ إذا قوّيته فَاسْتَغْلَظَ أى: صار ذلک الزرع غليظا بعد أن كان دقيقا فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ أى: فاستقام على أعواده، و السّوق: جمع ساق. و قرأ قنبل: سؤقه بالهمزة الساكنة يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ أى: يعجب هذا الزرع زارعه؛ لقوته و حسن منظره، و هذا مثل ضربه اللّه سبحانه لأصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أنهم يكونون فى الابتداء قليلا، ثم يزدادون و يكثرون و يقوون كالزرع، فإنه يكون فى الابتداء ضعيفا، ثم يقوى حالا بعد حال حتى يغلظ ساقه. قال قتادة: مثل أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فى الإنجيل أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر. ثم ذكر سبحانه علّة تكثيره لأصحاب نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم و تقويته لهم، فقال: لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ أى: كثّرهم و قوّاهم ليكونوا غيظا للكافرين، و اللام متعلقة بمحذوف، أى: فعل ذلک ليغيظ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً أى: وعد سبحانه هؤلاء الذين مع محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أن يغفر ذنوبهم، و يجزل أجرهم بإدخالهم الجنة؛ التى هى أكبر نعمة و أعظم منّة.

و قد أخرج أحمد، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: نحروا يوم الحديبية سبعين بدنة، فلما صدّت عن البيت حنّت كما تحنّ إلى أولادها. و أخرج الحسن بن سفيان و أبو يعلى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن قانع و الباوردى و الطبرانى و ابن

مردویه، قال السیوطی: بسند جید، عن أبی جمیعة جنید بن سبع قال: «قابلت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أوّل النهار کافرا، و قابلت معه آخر النهار مسلما، و فینا نزلت وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ و کنا تسعة نفر سبعة رجال و امرأتان» و فی روایة عند ابن أبی حاتم: «کنّا ثلاثة رجال و تسع نسوة». و أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ قال: حین ردّوا النبی صلّی اللّه علیه و سلّم أَنْ تَطَؤُهُمْ بقتلکم إیاهم لَوْ تَزَیَّلُوا یقول: لو تزیل الکفار من المؤمنین لعذّبهم اللّه عذابا ألیما بقتلکم إیاهم. و أخرج البخاری و مسلم و غیر هما عن سهل بن حنیف أنه قال: یوم صفّین: [أیها الناس «۳» اتهموا أنفسکم، فلقد رأیتنا یوم الحدیبیة، یعنی الصلح الّذی کان بین النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و بین المشرکین، و لو نری قتالا لقاتلنا، فجاء عمر إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فقال: یا رسول اللّه ألسنا علی الحق و هم علی الباطل؟ أ لیس قتلانا فی الجنة و قتلاهم فی النار؟ قال: بلی. قال: ففیم نعطی الدنیّة فی دیننا و نرجع و لمّا یحکم اللّه بیننا و بینهم؟ قال: «یا بن الخطاب إنی رسول اللّه و لن یضیعنی اللّه

---

(۱). «المحنیة»: معاطف الأودیة.

(۲). «الضال»: شجرة السدر.

(۳). من صحیح مسلم (۱۷۸۵)

أبدا». فرجع متغیّظا، فلم یصبر حتی جاء أبو بکر فقال: یا أبا بکر ألسنا علی الحق و هم علی الباطل؟

قال: بلی، قال: أ لیس قتلانا فی الجنة و قتلاهم فی النار؟ قال: بلی. قال: ففیم نعطی الدنیّة فی دیننا؟ قال:

یا بن الخطاب إنه رسول اللّه و لن یضیعه اللّه أبدا، فنزلت سورة الفتح، فأرسل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم إلی عمر فأقرأه إیاها، قال: یا رسول اللّه أفتح هو؟ قال: «نعم». و أخرج الترمذی، و عبد اللّه بن أحمد فی زوائد المسند، و ابن جریر، و الدار قطنی فی الأفراد، و ابن مردویه، و البیهقی فی الأسماء و الصفات، عن أبیّ بن کعب عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم وَ أَلْزَمَهُمْ کَلِمَةَ التَّقْوی قال: «لا إله إلا اللّه» و فی إسناده الحسن بن قزعة، قال الترمذی بعد إخراجه: حدیث غریب لا نعرفه إلا من حدیثه، و کذا قال أبو زرعة. و أخرج ابن مردویه عن سلمة ابن الأکوع مرفوعا مثله. و أخرج عبد الرزاق و الفریابی و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و الحاکم و صحّحه، و البیهقی فی الأسماء و الصفات، عن علیّ بن أبی طالب مثله فی قوله. و أخرج أحمد و ابن حبان و الحاکم من قول عمر بن الخطاب نحوه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه، و البیهقی فی الأسماء و الصفات، عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن أبی حاتم، و الدار قطنی فی الأفراد، عن المسور بن مخرمة و مروان نحوه. و روی عن جماعة من التابعین نحو ذلک. و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْیا بِالْحَقِ قال: هو دخول محمد البیت و المؤمنین محلّقین و مقصّرین، و قد ورد فی الدعاء للمحلّقین و المقصّرین فی الصحیحین و غیر هما أحادیث منها ما قدّمنا الإشارة إلیه، و هو فی الصحیحین من حدیث ابن عمر و فیهما من حدیث أبی هریرة أیضا. و أخرج ابن جریر عن ابن عباس فی قوله: سِیماهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ قال: أما إنه لیس الّذی یرونه، و لکنه سیما الإسلام و سمته و خشوعه. و أخرج محمد بن نصر فی کتاب «الصلاة» و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و البیهقی فی سننه، عن ابن عباس فی الآیة قال:

هو السمت الحسن. و أخرج الطبرانی فی الأوسط و الصغیر، و ابن مردویه، قال السیوطی: بسند حسن، عن أبیّ بن کعب قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فی قوله: سِیماهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ قال:

«النور يوم القيامة». و أخرج البخاری فی تاریخه، و ابن نصر عن ابن عباس فی الآية قال: بياض يغشى وجوههم يوم القيامة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ:
يعنى نعتهم مكتوب فی التوراة و الإنجيل قبل أن يخلق اللّه السماوات و الأرض. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن أنس كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ قال: نباته: فروخه.
فتح القدير، ج۵، ص: ۶۹

سورة الحجرات

اشارة

هی ثمانی عشرة آية و هی مدنية، قال القرطبی: بالإجماع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقی عن ابن عباس و ابن الزبير أنها نزلت بالمدينة.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۱ الى ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (۲) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۳) إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۴)
وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (۶) وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (۷) فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۸)
قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ قرأ الجمهور تُقَدِّمُوا بضم المثناة الفوقية و تشديد الدال مكسورة. و فيه وجهان: أحدهما: أنه متعدّ و حذف مفعوله لقصد التعميم، أو ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل، كقولهم: هو يعطی و يمنع. و الثانی: أنه لازم نحو وجه توجه، و يعضده قراءة ابن عباس و الضحاک و يعقوب «تقدّموا» بفتح التاء و القاف و الدال. قال الواحدی: قدم ها هنا بمعنى تقدّم، و هو لازم، قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا تقدّم بين يدی الإمام و بين يدی الأب، أی: لا تعجل بالأمر دونه و النهی؛ لأن المعنى: لا تقدّموا قبل أمر هما و نهيهما، و بين يدی الإمام عبارة عن الإمام لا ما بين يدی الإنسان، و معنى الآية: لا تقطعوا أمرا دون اللّه و رسوله و لا تعجلوا به. و قيل: المراد معنى بين يدی فلان: بحضرته؛ لأن ما يحضره الإنسان فهو بين يديه وَ اتَّقُوا اللَّهَ فی كلّ أموركم، و يدخل تحتها الترک للتقدّم بين يدی اللّه و رسوله دخولا أوّليا. ثم علّل ما أمر به من التقوى بقوله: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لكلّ مسموع عَلِيمٌ بكل معلوم يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ يحتمل أن المراد حقيقة رفع الصوت، لأن ذلک يدلّ على قلة الاحتشام و ترک الاحترام؛ لأن خفض الصوت و عدم رفعه

من لوازم التعظيم و التوقير. و يحتمل أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام و مزيد اللغط. و الأوّل أولى. و المعنى: لا ترفعوا
فتح القدير، ج‌٥، ص: ٧٠
أصواتكم إلى حدّ يكون فوق ما يبلغه صوت النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم. قال المفسرون: المراد من الآية تعظيم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و توقيره و أن لا ينادوه كما ينادى بعضهم بعضا وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أى: لا تجهروا بالقول إذا كلّمتموه، كما تعتادونه من الجهر بالقول إذا كلم بعضكم بعضا. قال الزجاج: أمرهم اللّه بتبجيل نبيه و أن يغضوا أصواتهم و يخاطبوه بالسكينة و الوقار، و قيل: المراد بقوله: وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ لا تقولوا: يا محمد، و يا أحمد، و لكن يا نبيّ اللّه، و يا رسول اللّه، توقيرا له، و الكاف فى محل نصب على أنها مصدر محذوف، أى: جهرا مثل جهر بعضكم لبعض، و ليس المراد برفع الصوت و بالجهر فى القول هو ما يقع على طريقة الاستخفاف فإن ذلك كفر، و إنما المراد أن يكون الصوت فى نفسه غير مناسب لما يقع فى مواقف من يجب تعظيمه و توقيره. و الحاصل: أن النهى هنا وقع عن أمور: الأوّل: عن التقدّم بين يديه بما لا يأذن به من الكلام. و الثانى: عن رفع الصوت البالغ إلى حدّ يكون فوق صوته، سواء كان فى خطابه أو فى خطاب غيره. و الثالث: ترك الجفاء فى مخاطبته و لزوم الأدب فى مجاورته؛ لأن المقاولة المجهورة إنما تكون بين الأكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزيّة توجب احترامه و توقيره. ثم علّل سبحانه ما ذكره بقوله:
أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ قال الزجّاج: «أن تحبط أعمالكم» التقدير لأن تحبط أعمالكم، أى: فتحبط، فاللام المقدرة لام الصيرورة كذا قال، و هذه العلّة يصحّ أن تكون للنهى، أى: نهاكم اللّه عن الجهر خشية أن تحبط، أو كراهة أن تحبط، أو علّة للمنهى، أى: لا تفعلوا الجهر فإنه يؤدّى إلى الحبوط، فكلام الزجاج ينظر إلى الوجه الثانى لا إلى الوجه الأوّل، و جملة: وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ فى محل نصب على الحال، و فيه تحذير شديد و وعيد عظيم. قال الزجاج: و ليس المراد و أنتم لا تشعرون يوجب أن يكفر الإنسان و هو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم. ثم رغّب سبحانه فى امتثال ما أمر به، فقال: إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أصل الغض النقص من كل شى‌ء، و منه نقص الصوت أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى قال الفراء:
أخلص قلوبهم للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار، فيخرج جيده من رديئه و يسقط خبيثه. و به قال مقاتل و مجاهد و قتادة. و قال الأخفش: اختصّها للتقوى، و قيل: طهّرها من كلّ قبيح، و قيل: وسّعها و سرّحها، من منحت الأديم؛ إذا أوسعته. و قال أبو عمرو: كلّ شى‌ء جهدته فقد محنته، و اللام فى «للتقوى» متعلّقة بمحذوف، أى: صالحة للتقوى، كقولك: أنت صالح لكذا، أو للتعليل الجارى مجرى بيان السبب، كقولك: جئتك لأداء الواجب، أى: ليكون مجيئى سببا لأداء الواجب لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ أى: أولئك لهم، فهو خبر آخر لاسم الإشارة، و يجوز أن يكون مستأنفا لبيان ما أعدّ اللّه لهم فى الآخرة إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ هم جفاة بنى تميم كما سيأتى بيانه، و وراء الحجرات.
خارجها و خلفها، و الحجرات: جمع حجرة، كالغرفات جمع غرفة، و الظّلمات: جمع ظلمة، و قيل:
الحجرات جمع حجر، و الحجر جمع حجرة، فهو جمع الجمع. و الحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها، و هى فعلة بمعنى مفعولة. قرأ الجمهور: الحجرات بضم الجيم. و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و شيبة
فتح القدير، ج‌٥، ص: ٧١
بفتحها تخفيفا، و قرأ ابن أبى عبلة: بإسكانها، و هى لغات، و مِنْ فى مِنْ وَراءِ لابتداء الغاية، و لا وجه للمنع من جعلها لهذا المعنى أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ لغلبة الجهل عليهم و كثرة الجفاء فى طباعهم وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ أى: لو انتظروا خروجك، و لم يعجلوا بالمناداة، لكان أصلح لهم فى دينهم و دنياهم، لما فى ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول

اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و رعاية جانبه الشريف و العمل بما يستحقّه من التعظيم و التبجيل. و قيل: إنهم جاءوا شفعاء فى أسارى، فأعتق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نصفهم و فادى نصفهم، و لو صبروا لأعتق الجميع، ذكر معناه مقاتل. وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ كثير المغفرة و الرحمة، بليغهما، لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا قرأ الجمهور: فَتَبَيَّنُوا من التبيّن، و قرأ حمزة و الكسائى: «فتثبتوا» من التثبت، و المراد من التبين التعرّف و التفحّص، و من التثبت: الأناة و عدم العجلة، و التبصّر فى الأمر الواقع، و الخبر الوارد حتى يتّضح و يظهر. قال المفسرون: إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط كما سيأتى بيانه إن شاء اللّه. و قوله أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ مفعول له، أى: كراهة أن تصيبوا، أو لئلا تصيبوا؛ لأن الخطأ ممّن لم يتبين الأمر و لم يتثبت فيه هو الغالب و هو جهالة، لأنه لم يصدر عن علم، و المعنى:

متلبسين بجهالة بحالهم فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ بهم من إصابتهم بالخطإ نادِمِينَ على ذلك مغتمين له مهتمين به. ثم وعظهم اللّه سبحانه فقال: وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ فلا تقولوا قولا باطلا و لا تتسرّعوا عند وصول الخبر إليكم من غير تبيّن، و «أن» و ما فى حيزها سادة مسدّ مفعولى «اعلموا»، و جملة لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ فى محل نصب على الحال من ضمير فيكم أو مستأنفة، و المعنى:

لو يطيعكم فى كثير مما تخبرونه به من الأخبار الباطلة، و تشيرون به عليه من الآراء التى ليست بصواب لوقعتم فى العنت؛ و هو التعب، و الجهد، و الإثم، و الهلاك، و لكنه لا يطيعكم فى غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له، و لا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ أى: جعله أحبّ الأشياء إليكم، أو محبوبا لديكم، فلا يقع منكم إلا ما يوافقه و يقتضيه من الأمور الصالحة، و ترك التسرع فى الأخبار، و عدم التثبت فيها، قيل: و المراد بهؤلاء من عدا الأوّلين لبيان براءتهم عن أوصاف الأوّلين، و الظاهر: أنه تذكير للكلّ بما يقتضيه الإيمان و توجبه محبته التى جعلها اللّه فى قلوبهم وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ أى: حسّنه بتوفيقه حتى جروا على ما يقتضيه فى الأقوال و الأفعال وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ أى:

جعل كل ما هو من جنس الفسوق و من جنس العصيان مكروها عندكم. و أصل الفسق الخروج على الطاعة، و العصيان جنس ما يعصى اللّه به، و قيل: أراد بذلك الكذب خاصة، و الأول أولى أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ أى: الموصوفون بما ذكرهم الراشدون. و الرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلّب، من الرّشادة: و هى الصخرة فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً أى: لأجل فضله و إنعامه، و المعنى: أنه حبّب إليكم ما حبّب، و كرّه لأجل فضله و إنعامه، أو جعلكم راشدين لأجل ذلك، و قيل: النصب بتقدير فعل: أى تبتغون فضلا و نعمة وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بكل معلوم حَكِيمٌ فى كل ما يقضى به بين عباده و يقدّره لهم.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٧٢

و قد أخرج البخارى و غيره عن عبد اللّه بن الزبير قال: «قدم ركب من بنى تميم على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال أبو بكر: أمّر القعقاع بن معبد، و قال عمر: بل أمّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافى، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ حتى انقضت الآية». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ قال: نهوا أن يتكلموا بين يدى كلامه. و أخرج عن عائشة فى الآية قالت: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم. و أخرج البخارى فى تاريخه عنها قالت: كان أناس يتقدّمون بين يدى رمضان بصيام؛ يعنى يوما أو يومين، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنها أيضا: أن ناسا كانوا يتقدّمون الشهر فيصومون قبل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الآية. و أخرج البزار و ابن عدى و الحاكم و ابن مردويه عن أبى بكر الصديق قال: أنزلت هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ قلت:

يا رسول اللّه: و اللّه لا أكلّمك إلا كأخى السّرار، و فى إسناده حصين بن عمر، و هو ضعيف، و لكنه يؤيده ما أخرجه عبد بن حميد، و الحاكم و صحّحه، من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة قال: لما نزلت إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ قال أبو بكر: و الّذى أنزل عليك الكتاب يا رسول اللّه لا أكلمك إلا كأخى السرار حتى ألقى اللّه. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أنس قال: «لما نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِ إلى قوله: وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ و كان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت، فقال: أنا الّذى كنت أرفع صوتى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، حبط عملى، أنا من أهل النار، و جلس فى بيته حزينا، ففقده رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا: فقدك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ما لك؟ قال: أنا الّذى أرفع صوتى فوق صوت النبىّ و أجهر له بالقول، حبط عملى، أنا من أهل النار، فأتوا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبروه بذلك، فقال: «لا، بل هو من أهل الجنة». فلما كان يوم اليمامة قتل. و فى الباب أحاديث بمعناه.

أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِ الآية: قال:

نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة فى قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى «منهم ثابت بن قيس بن شماس». و أخرج أحمد و ابن جرير و أبو القاسم البغوى و الطبرانى و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند صحيح، من طريق أبى سلمة بن عبد الرّحمن عن الأقرع بن حابس:

«أنه أتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا محمد اخرج إلينا، فلم يجبه، فقال: يا محمد إن حمدى زين و إن ذمى شين، فقال: ذاك اللّه، فأنزل اللّه: إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ قال ابن منيع: لا أعلم روى الأقرع مسندا غير هذا. و أخرج الترمذى و حسّنه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن البراء بن عازب فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ قال: جاء رجل فقال: يا محمد إن حمدى زين و إن ذمّى شين، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «ذاك اللّه». و أخرج ابن راهويه و مسدد و أبو يعلى و ابن

جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه، قال السيوطى: بإسناد حسن، عن زيد بن أرقم قال: اجتمع ناس من العرب فقالوا: انطلقوا إلى هذا الرجل فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به، و إن يك ملكا نعش بجناحه، فأتيت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبرته بما قالوا، فجاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه: يا محمد! فأنزل اللّه: إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ فأخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بأذنى و جعل يقول: «لقد صدّق اللّه قولك يا زيد، لقد صدق اللّه قولك يا زيد». و فى الباب أحاديث.

و أخرج أحمد و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مندة و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند جيد- عن الحارث بن ضرار الخزاعى قال: قدمت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فدعانى إلى الإسلام، فدخلت فيه و أقررت به، و دعانى إلى الزكاة فأقررت بها، و قلت: يا رسول اللّه أرجع إلى قومى فأدعوهم إلى الإسلام و أداء الزّكاة، فمن استجاب لى جمعت زكاته، و ترسل إلىّ يا رسول اللّه رسولا لإبّان كذا و كذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له و بلغ الإبان الّذى أراد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت، فظنّ الحارث أن قد حدث فيه سخط من اللّه و رسوله، فدعا سروات «1» قومه فقال لهم: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان وقت لى وقتا يرسل إلىّ رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة و ليس من رسول اللّه الخلف، و لا أرى حبس رسوله إلا من سخطه، فانطلقوا فنأتى رسول اللّه. و بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الوليد ابن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق «2» فرجع، فأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إن الحارث منعنى الزكاة و أراد قتلى، فضرب رسول اللّه صلّى

اللّه عليه و سلّم البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقلّ البعث و فصل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث؟ فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: و لم؟ قالوا: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة و أردت قتله، قال: لا و الّذى بعث محمدا بالحقّ ما رأيته و لا أتانى، فلما دخل الحارث على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «منعت الزكاة و أردت قتل رسولى؟» قال: لا و الّذى بعثك بالحقّ ما رأيته و لا رآنى، و ما أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خشيت أن تكون سخطة من اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم، فنزل: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ إلى قوله: حَكِيمٌ قال ابن كثير: هذا من أحسن ما روى فى سبب نزول الآية. و قد رويت روايات كثيرة متفقة على أنه سبب نزول الآية، و أنه المراد بها و إن اختلفت القصص.

[سورة الحجرات (٤٩): الآيات ٩ الى ١٢]

وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لا تَجَسَّسُوا وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)

---

(١). «سروات»: أى زعماء.

(٢). أى خاف.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٧٤

قوله: وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا قرأ الجمهور: اقْتَتَلُوا باعتبار كل فرد من أفراد الطائفتين كقوله: هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا «١» و الضمير فى قوله: بَيْنَهُما عائد إلى الطائفتين باعتبار اللفظ. و قرأ ابن أبى عبلة: «اقتتلتا» اعتبارا بلفظ طائفتان، و قرأ زيد بن علىّ و عبيد بن عمير: «اقتتلا» و تذكير الفعل فى هذه القراءة باعتبار الفريقين أو الرهطين. و البغى: التعدّى بغير حق و الامتناع من الصلح الموافق للصواب، و الفىء: الرجوع. و المعنى: أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم و يدعوهم إلى حكم اللّه، فإن حصل بعد ذلك التعدّى من إحدى الطائفتين على الأخرى، و لم تقبل الصلح، و لا دخلت فيه، كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر اللّه و حكمه، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها و أجابت الدعوة إلى كتاب اللّه و حكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين فى الحكم، و يتحرّوا الصواب المطابق لحكم اللّه، و يأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، و تؤدّى ما يجب عليها للأخرى. ثم أمر اللّه سبحانه المسلمين أن يعدلوا فى كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتتلتين فقال: وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ أى: و اعدلوا إن اللّه يحب العادلين، و محبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء. قال الحسن و قتادة و السدّى: فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بالدعاء إلى حكم كتاب اللّه، و الرضى بما فيه لهما و عليهما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما و طلبت ما ليس لها، و لم ترجع إلى الصلح فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حتى ترجع إلى طاعة اللّه و الصلح الّذى أمر اللّه به، و جملة: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من الأمر بالإصلاح، و المعنى: أنهم راجعون إلى أصل واحد و هو الإيمان. قال الزجّاج:

الـدّين يجمعهم، فهم إخوة إذا كانوا متفقين فى دينهم، فرجعوا بالاتفاق فى الدين إلى أصل النسب؛ لأنّهم لآدم و حواء فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ يعنى كل مسلمين تخاصما و تقاتلا، و تخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى. قرأ الجمهور: بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ على التثنية، و قرأ زيد بن ثابت و عبد اللّه بن مسعود و الحسن و حماد بن سلمة و ابن سيرين «إخوانكم» بالجمع، و روى عن أبى عمرو و نصر بن عاصم و أبى العالية و الجحدرى و يعقوب أنهم قرءوا: «بين إخوتكم» بالفوقية على الجمع أيضا.

قال أبو علىّ الفارسى فى توجيه قراءة الجمهور: أراد بالأخوين الطائفتين؛ لأن لفظ التثنية قد يرد و يراد به الكثرة. و قال أبو عبيدة: أى: أصلحوا بين كلّ أخوين وَ اتَّقُوا اللَّهَ فى كل أموركم لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

---

(۱). الحج: ۱۹.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۷۵

بسبب التقوى، و الترجى باعتبار المخاطبين، أى: راجين أن ترحموا، و فى هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرّر بغيها على الإمام، أو على أحد من المسلمين، و على فساد قول من قال بعدم الجواز مستدلّا بقوله صلّى اللّه عليه و سلّم:

«قتال المسلم كفر» فإن المراد بهذا الحديث و ما ورد فى معناه قتال المسلم الّذى لم يبغ. قال ابن جرير:

لو كان الواجب فى كلّ اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه و لزوم المنازل لما أقيم حقّ، و لا أبطل باطل و لوجد أهل النفاق و الفجور سببا إلى استحلال كل ما حرّم اللّه عليهم من أموال المسلمين، و سبى نسائهم، و سفك دمائهم بأن يتحزّبوا عليهم، و لكفّ المسلمين أيديهم عنهم، و ذلك مخالف لقوله صلّى اللّه عليه و سلّم:

«خذوا على أيدى سفهائكم». قال ابن العربى: هذه الآية أصل فى قتال المسلمين، و عمدة فى حرب المتأوّلين، و عليها عوّل الصحابة، و إليها لجأ الأعيان من أهل الملّة، و إياها عنى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بقوله: «تقتل عمارا الفئة الباغية»، و قوله صلّى اللّه عليه و سلّم فى شأن الخوارج: «يخرجون على حين فرقة من الناس، تقتلهم أولى الطائفتين بالحقّ». يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ السخرية: الاستهزاء.

و حكى أبو زيد: سخرت به و ضحكت به و هزأت به. و قال الأخفش: سخرت منه و سخرت به، و ضحكت منه و ضحكت به، و هزئت منه و هزئت به، كل ذلك يقال: و الاسم السخرية و السّخرى، و قرئ بهما فى: لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا «۱»، و معنى الآية: النهى للمؤمنين عن أن يستهزئ بعضهم ببعض، و علّل هذا النهى بقوله: عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ أى: أن يكون المسخور بهم عند اللّه خيرا من الساخرين بهم، و لما كان لفظ قوم مختصّا بالرجال، لأنهم القوّم على النساء أفرد النساء بالذكر فقال: وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ أى: و لا يسخر نساء من نساء عَسى أَنْ يَكُنَّ المسخور بهن خَيْراً مِنْهُنَّ يعنى خيرا من الساخرات منهنّ، و قيل: أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهنّ أكثر وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ اللمز: العيب، و قد مضى تحقيقه فى سورة براءة عند قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ «۲» قال ابن جرير: اللمز باليد و العين و اللسان و الإشارة، و الهمز لا يكون إلا باللسان، و معنى: لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ لا يلمز بعضكم بعضا، كما فى قوله: وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ «۳» و قوله: فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ «۴» قال مجاهد و قتادة و سعيد بن جبير: لا يطعن بعضكم على بعض. و قال الضحاك: لا يلعن بعضكم بعضا وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ التنابز: التفاعل من النّبز بالتسكين و هو المصدر، و النّبز بالتحريك اللقب، و الجمع أنباز، و الألقاب جمع لقب، و هو اسم غير الّذى سمّى به الإنسان، و المراد هنا لقب السوء، و التنابز بالألقاب بأن يلقب بعضهم بعضا. قال الواحدى: قال المفسرون: هو أن يقول لأخيه المسلم: يا فاسق، يا منافق. أو يقول لمن أسلم: يا يهودى، يا نصرانى، قال عطاء: هو كلّ شىء أخرجت به أخاك من الإسلام، كقولك يا

كلب، يا حمار، يا خنزير. قال الحسن و مجاهد: كان الرجل يعيّر بكفره، فيقال له: يا يهودى يا نصرانى، فنزلت، و به قال قتادة و أبو العالية و عكرمة بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ أى: بئس الاسم الّذى

---

(۱). الزخرف: ۳۲.

(۲). التوبة: ۵۸.

(۳). النساء: ۲۹.

(۴). النور: ۶۱.

فتح القدير، ج۵، ص: ۷۶

يذكر بالفسق بعد دخولهم فى الإيمان، و الاسم هنا بمعنى الذكر. قال ابن زيد: أى بئس أن يسمّى الرجل كافرا أو زانيا بعد إسلامه و توبته. و قيل: أن من فعل ما نهى عنه من السخرية و اللمز و النبذ فهو فاسق. قال القرطبى: إنه يستثنى من هذا من غلب عليه الاستعمال كالأعرج و الأحدب، و لم يكن له سبب يجد فى نفسه منه عليه، فجوّزته الأئمة و اتفق على قوله أهل اللغة اه. وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ عمّا نهى اللّه عنه فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ لارتكابهم ما نهى اللّه عنه و امتناعهم من التوبة، فظلموا من لقبوه، و ظلموا أنفسهم بما لزمها من الإثم. يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِ الظن هنا: هو مجرد التهمة التى لا سبب لها كمن يتّهم غيره بشىء من الفواحش و لم يظهر عليه ما يقتضى ذلك، و أمر سبحانه باجتناب الكثير ليفحص المؤمن عن كل ظنّ يظنه حتى يعلم وجهه؛ لأنّ من الظنّ ما يجب اتباعه، فإن أكثر الأحكام الشرعية مبنية على الظنّ، كالقياس، و خبر الواحد، و دلالة العموم، و لكن هذا الظنّ الّذى يجب العمل به قد قوى بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به؛ فارتفع عن الشكّ و التهمة. قال الزجاج: هو أن يظنّ بأهل الخير سوءا، فأما أهل السوء و الفسوق قلنا أن نظن بهم مثل الّذى ظهر منهم. قال مقاتل بن سليمان و مقاتل بن حيان: هو أن يظنّ بأخيه المسلم سوءا، و لا بأس به ما لم يتكلّم به، فإن تكلم بذلك الظن و أبداه أثم. و حكى القرطبى عن أكثر العلماء: أن الظنّ القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، و أنه لا حرج فى الظن القبيح بمن ظاهره القبيح، و جملة إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ تعليل لما قبلها من الأمر باجتناب كثير من الظن، و هذا البعض هو ظنّ السوء بأهل الخير، و الإثم: هو ما يستحقه الظانّ من العقوبة. و ممّا يدلّ على تقييد هذا الظنّ المأمور باجتنابه بظنّ السوء قوله تعالى: وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً «۱» فلا يدخل فى الظنّ المأمور باجتنابه شىء من الظنّ المأمور باتباعه فى مسائل الدين، فإن اللّه قد تعبّد عباده باتّباعه، و أوجب العمل به جمهور أهل العلم، و لم ينكر ذلك إلّا بعض طوائف المبتدعة كيادا للدين، و شذوذا عن جمهور المسلمين، و قد جاء التعبد بالظن فى كثير من الشريعة المطهرة بل فى أكثرها. ثم لما أمرهم اللّه سبحانه باجتناب كثير من الظنّ نهاهم عن التجسّس فقال: وَ لا تَجَسَّسُوا التجسس: البحث عما ينكتم عنك من عيوب المسلمين و عوراتهم، نهاهم اللّه سبحانه عن البحث عن معايب الناس و مثالبهم. قرأ الجمهور تَجَسَّسُوا بالجيم، و معناه ما ذكرنا. و قرأ الحسن و أبو رجاء و ابن سيرين بالحاء. قال الأخفش: ليس يبعد أحد هما من الآخر؛ لأن التجسس بالجيم: البحث عما يكتم عنك، و التحسس بالحاء: طلب الأخبار و البحث عنها. و قيل: إن التجسس بالجيم هو البحث، و منه قيل رجل جاسوس؛ إذا كان يبحث عن الأمور، و بالحاء ما أدركه الإنسان ببعض حواسه. و قيل: إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه، و بالجيم أن يكون رسولا لغيره، قاله ثعلب. وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أى: لا يتناول بعضكم بعضا بظهر الغيب بما يسوءه، و الغيبة: أن تذكر الرجل بما يكرهه، كما فى حديث أبى هريرة الثابت فى الصحيح أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أ تدرون ما الغيبة؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: ذكرك

(١). الفتح: ١٢.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٧٧

أخاك بما يكره، فقيل: أ فرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ فقال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، و إن لم يكن فيه فقد بهته» أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً مثّل سبحانه الغيبة بأكل الميتة، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحىّ لا يعلم بغيبة من اغتابه. ذكر معناه الزجاج. و فيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه، و أنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة فى عرضه «١»، و فى هذا من التنفير عن الغيبة و التوبيخ لها و التوبيخ لفاعلها و التشنيع عليه ما لا يخفى، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، و تستكرهه الجبلّة البشرية، فضلا عن كونه محرّما شرعا فَكَرِهْتُمُوهُ قال الفراء: تقديره فقد كرهتموه فلا تفعلوا، و المعنى: فكما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبا. قال الرازى: الفاء فى تقدير جواب كلام، كأنه قال: لا يحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه فكرهتموه إذا. و قال أبو البقاء: هو معطوف على محذوف تقديره:

عرض عليكم ذلك فكرهتموه وَ اتَّقُوا اللَّهَ بترك ما أمركم باجتنابه إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ لمن اتقاه و تاب عما فرط منه من الذنب و مخالفة الأمر.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أنس قال: قيل للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو أتيت عبد اللّه بن أبىّ، فانطلق إليه و ركب حمارا، و انطلق المسلمون يمشون و هى أرض سبخة «٢»، فلما انطلق إليه قال: إليك عنى، فو اللّه لقد آذانى ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: و اللّه لحمار رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أطيب ريحا منك، فغضب لعبد اللّه رجال من قومه، فغضب لكلّ منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد «٣» و الأيدى و النّعال، فنزلت فيهم: وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا الآية». و قد روى نحو هذا من وجوه أخر.

و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن ابن عمر قال: ما وجدت فى نفسى من شى‌ء ما وجدت فى نفسى من هذه الآية، إنى لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرنى اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: إن اللّه أمر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و المؤمنين إذا اقتتلت طائفة من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم اللّه و ينصف بعضهم من بعض، فإذا أجابوا حكم فيهم بحكم كتاب اللّه حتى ينصف المظلوم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، و حقّ على إمام المؤمنين و المؤمنين أن يقاتلوهم حتى يفيئوا إلى أمر اللّه، و يقرّوا بحكم اللّه.

و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا الآية. قال: كان قتال بالنعال و العصىّ، فأمرهم أن يصلحوا بينهما. و أخرج ابن مردويه و البيهقى عن عائشة قالت: ما رأيت مثل ما رغبت عنه هذه الأمة فى هذه الآية: وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ قال: نزلت فى قوم من بنى تميم استهزءوا من بلال و سلمان و عمّار و خبّاب و صهيب و ابن فهيرة و سالم مولى أبى حذيفة. و أخرج عبد

(١). «الاستطالة فى العرض»: أى استحقاره و الترفع عليه و الوقيعة فيه.

(٢). «أرض سبخة»: أى لا تنبت.

(٣). «الجريد»: سعف النخل، أى أغصانه.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٧٨

ابن حميد، و البخارى فى الأدب، و ابن أبى الدنيا فى ذم الغيبة، و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ قال: لا يطعن بعضكم على بعض.

و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و البخارى فى الأدب، و أهل السنن الأربع و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن حبان، و الشيرازى فى الألقاب، و الطبرانى، و ابن السّنى فى عمل يوم و ليلة، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب، عن أبى جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت فى بنى سلمة وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة و ليس فينا رجل إلا و له اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا واحدا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول اللّه إنه يكرهه، فنزلت: وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: التنابز بالألقاب: أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها و راجع الحقّ، فنهى اللّه أن يعيّر بما سلف من عمله. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى الآية قال: إذا كان الرجل يهوديا فأسلم فيقول: يا يهودى، يا نصرانى، يا مجوسى، و يقول للرجل المسلم: يا فاسق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن ابن عباس فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِ قال: نهى اللّه المؤمن أن يظنّ بالمؤمن سوءا.

و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إياكم و الظنّ فإن الظنّ أكذب الحديث، و لا تجسّسوا، و لا تحسّسوا، و لا تنافسوا، و لا تحاسدوا، و لا تباغضوا، و كونوا عباد اللّه إخوانا، و لا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَجَسَّسُوا قال: نهى اللّه المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و أبو داود و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن زيد بن وهب قال: أتى ابن مسعود فقيل: هذا فلان تقطر لحيته خمرا، فقال ابن مسعود:

إنا قد نهينا عن التجسس، و لكن إن يظهر لنا شىء نأخذه. و قد وردت أحاديث فى النهى عن تتبع عورات المسلمين و التجسس على عيوبهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً الآية قال: حرّم اللّه أن يغتاب المؤمن بشىء كما حرّم الميتة.

و الأحاديث فى تحريم الغيبة كثيرة جدا، معروفة فى كتب الحديث.

[سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۱۳ الى ۱۸]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۱۳) قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (۱۵) قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۶) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۷)

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۸)

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۷۹

قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى هما آدم و حوّاء، و المقصود أنهم متساوون لاتصالهم بنسب واحد، و كونه يجمعهم أب واحد و أمّ واحدة، و أنه لا موضع للتفاخر بينهم بالأنساب، و قيل: المعنى:

أن كل واحد منكم من أب و أمّ، فالكل سواء وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ الشعوب جمع شعب بفتح الشين، و هو الحيّ العظيم، مثل مضر و ربيعة، و القبائل دونها كبنى بكر من ربيعة، و بنى تميم من مضر. قال الواحدى:
هذا قول جماعة من المفسرين، سمّوا شعبا لتشعبهم و اجتماعهم كشعب أغصان الشجرة، و الشعب من أسماء الأضداد. يقال شعبته: إذا جمعته، و شعبته إذا فرّقته، و منه سمّيت المنية شعوبا لأنها مفرّقة، فأما الشّعب بالكسر فهو الطريق فى الجبل. قال الجوهرى: الشعب ما تشعب من قبائل العرب و العجم، و الجمع الشعوب.
و قال مجاهد: الشعوب: البعيد من النسب، و القبائل دون ذلك. و قال قتادة: الشعوب: النسب الأقرب.
و قيل: إن الشعوب: عرب اليمن من قحطان، و القبائل من ربيعة و مضر و سائر عدنان. و قيل: الشعوب بطون العجم، و القبائل بطون العرب. و حكى أبو عبيدة أن الشعب أكثر من القبيلة، ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة. و مما يؤيد ما قاله الجمهور من أن الشعب أكثر من القبيلة قول الشاعر:
قبائل من شعوب ليس فيهم كريم قد يعدّ و لا نجيب
قرأ الجمهور: لِتَعارَفُوا بتخفيف التاء، و أصله لتتعارفوا فحذفت إحدى التاءين. و قرأ البزّى بتشديدها على الإدغام. و قرأ الأعمش بتاءين، و اللام متعلقة بخلقناكم، أى: خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضا. و قرأ ابن عباس: «لتعرفوا» مضارع عرف. و الفائدة فى التعارف أن ينتسب كلّ واحد منهم إلى نسبه و لا يعترى إلى غيره. و المقصود من هذا أن اللّه سبحانه خلقهم كذلك لهذه الفائدة لا للتفاخر بأنسابهم، و دعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب، و هذه القبيلة أكرم من هذه القبيلة، و هذا البطن أشرف من هذا البطن. ثم علّل سبحانه ما يدلّ عليه الكلام من النهى عن التفاخر فقال: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ أى: إن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى، فمن تلبّس بها فهو المستحق لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها و أشرف و أفضل، فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالأنساب، فإن ذلك لا يوجب كرما و لا يثبت شرفا و لا يقتضى فضلا.
قرأ الجمهور: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ بكسر إن. و قرأ ابن عباس بفتحها، أى: لأن أكرمكم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بكل معلوم و من ذلك أعمالكم خَبِيرٌ بما تسرّون و ما تعلنون لا تخفى عليه من ذلك خافية. و لما ذكر سبحانه أن أكرم الناس عند اللّه أتقاهم له، و كان أصل التقوى الإيمان ذكر ما كانت تقوله العرب من دعوى الإيمان ليثبت لهم الشرف و الفضل، فقال: قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا و هم بنو أسد أظهروا الإسلام فى سنة مجدبة يريدون الصدقة، فأمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يردّ عليهم فقال: قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا أى: لم تصدقوا تصديقا صحيحا عن اعتقاد قلب و خلوص نية و طمأنينة وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا أى: استسلمنا خوف
فتح القدير، ج‌5، ص: 80
القتل و السبى أو للطمع فى الصدقة، و هذه صفة المنافقين لأنهم أسلموا فى ظاهر الأمر و لم تؤمن قلوبهم، و لهذا قال سبحانه: وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ أى: لم يكن ما أظهرتموه بألسنتكم عن مواطأة قلوبكم، بل مجرد قول باللسان من دون اعتقاد صحيح و لا نية خالصة، و الجملة إما مستأنفة لتقرير ما قبلها، أو فى محل نصب على الحال، و فى لَمَّا معنى التوقع. قال الزجاج: الإسلام: إظهار الخضوع و قبول ما أتى به النبيّ، و بذلك يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد و تصديق بالقلب فذلك الإيمان و صاحبه المؤمن.
و قد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله: وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ أى: لم تصدّقوا و إنما أسلمتم تعوّذا من القتل وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ طاعة صحيحة صادرة عن نيات خالصة، و قلوب مصدّقة غير منافقة لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً يقال: لات يلت: إذا نقص، ولاته يليته و يلوته؛ إذا نقصه، و المعنى:
لا ينقصكم من أعمالكم شيئا. قرأ الجمهور يَلِتْكُمْ من لاته يليته، كباع يبيعه. و قرأ أبو عمرو لا يألتكم بالهمز من ألته يألته بالفتح

فى الماضى و الكسر فى المضارع، و اختار قراءة أبى عمرو أبو حاتم لقوله:
وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ «۱» و عليها قول الشاعر:
أبلغ بنى أسد «۲» عنّى مغلغلةجهر الرّسالة لا ألتا و لا كذبا
و اختار أبو عبيدة قراءة الجمهور، و عليها قول رؤبة بن العجّاج:
و ليلة ذات ندى سريتو لم يلتنى عن سراها ليت
و هما لغتان فصيحتان إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ أى: بليغ المغفرة لمن فرط منه ذنب رَحِيمٌ بليغ الرحمة لهم. ثم لما ذكر سبحانه أن أولئك الذين قالوا آمنا لم يؤمنوا و لا دخل الإيمان فى قلوبهم بيّن المؤمنين المستحقّين لإطلاق اسم الإيمان عليهم، فقال إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ يعنى إيمانا صحيحا خالصا عن مواطأة القلب و اللسان ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا أى: لم يدخل قلوبهم شىء من الريب، و لا خالطهم شكّ من الشكوك وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أى: فى طاعته و ابتغاء مرضاته، و يدخل فى الجهاد الأعمال الصالحة التى أمر اللّه بها، فإنها من جملة ما يجاهد المرء به نفسه حتى يقوم به و يؤدّيه كما أمر اللّه سبحانه، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الجامعين بين الأمور المذكورة و هو مبتدأ، و خبره قوله: هُمُ الصَّادِقُونَ أى: الصادقون فى الاتصاف بصفة الإيمان و الدخول فى عداد أهله، لا من عداهم ممّن أظهر الإسلام بلسانه، و ادّعى أنه مؤمن، و لم يطمئن بالإيمان قلبه، و لا وصل إليه معناه، و لا عمل بأعمال أهله، و هم الأعراب الذين تقدّم ذكرهم و سائر أهل النفاق. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يقول لأولئك الأعراب و أمثالهم قولا آخر لما ادّعوا أنهم مؤمنون، فقال: قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ التعليم ها هنا بمعنى الإعلام، و لهذا دخلت الباء فى دينكم، أى: أ تخبرونه بذلك حيث قلتم آمنّا وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ

---

(۱). الطور: ۲۱.

(۲). فى تفسير القرطبى (۱۶/ ۳۴۹): ثعل.

فكيف يخفى عليه بطلان ما تدّعونه من الإيمان. و الجملة من محل النصب على الحال من مفعول تعلمون وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا تخفى عليه من ذلك خافية، و قد علم ما تبطنونه من الكفر و تظهرونه من الإسلام لخوف الضرّاء و رجاء النفع. ثم أخبر اللّه سبحانه رسوله بما يقوله لهم عند المنّ عليه منهم بما يدّعونه من الإسلام، فقال:
يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا أى: يعدّون إسلامهم منّة عليك، حيث قالوا: جئناك بالأثقال و العيال، و لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان و بنو فلان قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ أى: لا تعدّوه علىّ، فإن الإسلام هو المنّة التى لا يطلب موليها ثوابا لمن أنعم بها عليه، و لهذا قال: بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ أى: أرشدكم إليه و أراكم طريقه، سواء وصلتم إلى المطلوب أم لم تصلوا إليه، و انتصاب إسلامكم إما على أنه مفعول به على تضمين يمنون معنى يعدّون، أو بنزع الخافض، أى: لأن أسلموا، و هكذا قوله: أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ فإنه يحتمل الوجهين إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فيما تدّعونه، و الجواب محذوف يدلّ عليه ما قبله؛ أى:
إن كنتم صادقين فللّه المنّة عليكم، قرأ الجمهور: أَنْ هَداكُمْ بفتح أن، و قرأ عاصم بكسرها. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: ما غاب فيهما وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ لا يخفى عليه من ذلك شىء، فهو مجازيكم بالخير خيرا و بالشرّ شرّا. قرأ الجمهور تَعْمَلُونَ على الخطاب، و قرأ ابن كثير على الغيبة.
و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن أبى مليكة قال: لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذّن على الكعبة، فقال بعض الناس: أ هذا العبد الأسود يؤذّن على ظهر الكعبة؟! و قال بعضهم:

إن يسخط اللّه هذا يغيّره، فنزلت: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. و أخرج أبو داود فى مراسيله، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن الزهرى قال: أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بنى بياضة أن يزوّجوا أبا هند امرأة منهم فقالوا: يا رسول اللّه، أ نزوّج بناتنا موالينا؟ فنزلت هذه الآية. و أخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أن هذه الآية يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى هى مكية، و هى للعرب خاصة الموالى، أى قبيلة لهم، و أى شعاب، و قوله: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ قال: أتقاكم للشرك. و أخرج البخارى و ابن جرير عن ابن عباس قال: الشعوب: القبائل العظام، و القبائل: البطون. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: الشعوب: الجماع، و القبائل:

الأفخاذ التى يتعارفون بها. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عنه أيضا قال: القبائل الأفخاذ، و الشعوب:

الجمهور مثل مضر. و أخرج البخارى و غيره عن أبى هريرة قال: «سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أىّ الناس أكرم؟

قال: أكرمهم عند اللّه أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم الناس يوسف نبىّ اللّه ابن نبىّ اللّه ابن نبىّ اللّه ابن خليل اللّه. قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألونى؟

قالوا: نعم، قال: خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا» و قد وردت أحاديث فى الصحيح و غيره أن التقوى هى التى يتفاضل بها العباد.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قال: أعراب

فتح القدير، ج‏5، ص: 82

بنى أسد و خزيمة، و فى قوله: وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا استسلمنا «1» مخافة القتل و السبى. و أخرج ابن جرير عن قتادة: أنها نزلت فى بنى أسد. و أخرج ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند حسن، عن عبد اللّه بن أبى أوفى: أن ناسا من العرب قالوا: يا رسول اللّه أسلمنا و لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأنزل اللّه: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا. و أخرج النسائى و البزار و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه، و ذكر أنهم بنو أسد.

---

(1). من الدر المنثور (7/ 582)

فتح القدير، ج‏5، ص: 83

سورة ق

اشارة

و هى مكية كلها فى قول الحسن و عكرمة و عطاء و جابر. و روى عن ابن عباس و قتادة أنها مكية إلا آية، و هى قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ و هى أوّل المفصل على الصّحيح، و قيل: من الحجرات. و أخرج ابن الضّريس و النحّاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة ق بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و قد أخرج مسلم و غيره عن قطبة بن مالك قال: «كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى الفجر فى الركعة الأولى ق و القرآن المجيد» و أخرج أحمد و مسلم و أهل السنن عن أبى واقد الليثىّ قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى العيد بقاف و اقتربت». و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و ابن ماجة و البيهقى عن أم هشام ابنة حارثة قالت: ما أخذت ق و القرآن المجيد إلا من فىّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، كان يقرأ بها فى كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس. و هو فى

صحيح مسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة ق (٥٠): الآيات ١ الى ١٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ (٤)

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (٩)

وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ (١٢) وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوانُ لُوطٍ (١٣) وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)

أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)

قوله: ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الكلام فى إعراب هذا كالكلام الّذى قدّمنا فى قوله: ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. و فى قوله: حم وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ و اختلف فى ق، فقال الواقدى: قال المفسرون:

هو اسم جبل يحيط بالدنيا من زبرجد و السماء مقبيّة عليه، و هو وراء الحجاب الّذى تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة «١». قال الفراء: كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب فى ق لأنه اسم، و ليس بهجاء. قال:

---

(١). قال أبو حيان: (ق) حرف هجاء، و قد اختلف المفسرون فى مدلوله على أحد عشر قولا متعارضة، لا دليل على صحة شيء منها.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٨٤

و لعل القاف وحدها ذكرت من اسمه كقول القائل:

قلت لها قفى لنا قالت قاف أى: أنا واقفة. و حكى الفراء و الزجاج: أن قوما قالوا معنى ق: قضى الأمر و قضى ما هو كائن، كما قيل فى حم: حمّ الأمر. و قيل: هو اسم من أسماء اللّه أقسم به. و قال قتادة: هو اسم من أسماء القرآن.

و قال الشعبى: فاتحة السورة. و قال أبو بكر الورّاق معناه: قف عند أمرنا و نهينا و لا تتعداهما، و قيل غير ذلك ممّا هو أضعف منه. و الحق أنه من المتشابه الّذى استأثر اللّه بعلمه كما حققنا ذلك فى فاتحة سورة البقرة، و معنى المجيد: أنه ذو مجد و شرف على سائر الكتب المنزلة. و قال الحسن: الكريم، و قيل: الرفيع القدر، و قيل:

الكبير القدر، و جواب القسم قال الكوفيون هو قوله: بَلْ عَجِبُوا و قال الأخفش: جوابه محذوف، كأنه قال: ق و القرآن المجيد لتبعثن، يدلّ عليه أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً و قال ابن كيسان جوابه: ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ و قيل هو: قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ بتقدير اللام، أى: لقد علمنا، و قيل:

هو محذوف و تقديره أنزلناه إليك لتنذر، كأنه قيل ق و القرآن المجيد أنزلناه إليك لتنذر به الناس. قرأ الجمهور قاف بالسكون. و قرأ الحسن و ابن أبى إسحاق و نصر بن عاصم بكسر الفاء. و قرأ عيسى الثقفى بفتح الفاء.

و قرأ هارون و محمد بن السّميع بالضم بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ بل للإضراب عن الجواب على اختلاف الأقوال، و أن فى موضع نصب على تقدير: لأن جاءهم. و المعنى: بل عجب الكفار لأن جاءهم منذر منهم و هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و لم يكتفوا بمجرد الشك و الردّ، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، و قيل:

هو إضراب عن وصف القرآن بكونه مجيدا. و قد تقدم تفسير هذا فى سورة ص. ثم فسر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله: فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ و فيه زيادة تصريح و إيضاح. قال قتادة: عجبهم أن دعوا إلى إله واحد، و قيل: تعجبهم من البعث، فيكون لفظ هذا إشارة إلى مبهم يفسره ما بعده من قوله: أَ إِذا مِتْنا إلخ، و الأول أولى. قال الرازى: الظاهر أن قولهم هذا إشارة إلى مجىء المنذر، ثم قالوا: أَ إِذا مِتْنا و أيضا قد وجد ها هنا بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدّى معنى التعجّب، و هو قولهم: ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ فإنه استبعاد و هو كالتعجب، فلو كان التعجب بقولهم هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ عائدا إلى قولهم: «أ إذا» لكان كالتكرار، فإن قيل: التكرار الصريح يلزم من قولك: هذا شىء عجيب أنه يعود إلى مجىء المنذر، فإن تعجبهم منه علم من قوله: بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ فقولهم: هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ يكون تكرارا، فنقول: ذلك ليس بتكرار، بل هو تقرير؛ لأنه لما قال بل عجبوا بصيغة الفعل و جاز أن يتعجّب الإنسان ممّا لا يكون عجبا، كقوله: أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ و يقال فى العرف: لا وجه لتعجّبك مما ليس بعجب، فكأنهم لما عجبوا قيل لهم: لا معنى لتعجبكم، فقالوا: هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ فكيف لا نعجب منه، و يدلّ على ذلك قوله ها هنا: فَقالَ الْكافِرُونَ بالفاء، فإنها تدلّ على أنه مترتّب على ما قدّم، قرأ الجمهور أَ إِذا مِتْنا بالاستفهام. و قرأ ابن عامر فى رواية عنه و أبو جعفر و الأعمش و الأعرج بهمزة واحدة، فيحتمل الاستفهام كقراءة الجمهور، و همزة الاستفهام مقدّرة، و يحتمل أن معناه الإخبار،

فتح القدير، ج‏5، ص: 85

و العامل فى الظرف مقدّر، أى: أ يبعثنا، أو أ نرجع إذا متنا لدلالة ما بعده عليه، هذا على قراءة الجمهور، و أما على القراءة الثانية فجواب إذا محذوف، أى: رجعنا، و قيل: ذلك رجع، و المعنى: استنكارهم للبعث بعد موتهم و مصيرهم ترابا. ثم جزموا باستبعادهم للبعث فقالوا: ذلِكَ أى: البعث رَجْعٌ بَعِيدٌ أى: بعيد عن العقول أو الأفهام أو العادة أو الإمكان، يقال: رجعته أرجعه رجعا، و رجع هو يرجع رجوعا.

ثم ردّ سبحانه ما قالوه فقال: قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ أى: ما تأكل من أجسادهم فلا يضلّ عنّا شىء من ذلك، و من أحاط علمه بشىء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى فى القبور لا يصعب عليه البعث و لا يستبعد منه، و قال السدّى: النقص هنا الموت، يقول: قد علمنا من يموت منهم و من يبقى؛ لأنّ من مات دفن، فكأن الأرض تنقص من الأموات، و قيل: المعنى: من يدخل فى الإسلام من المشركين، و الأوّل أولى وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ أى: حافظ لعدّتهم و أسمائهم و لكلّ شىء من الأشياء، و هو اللوح المحفوظ، و قيل: المراد بالكتاب هنا العلم و الإحصاء، و الأوّل أولى. و قيل: حفيظ بمعنى محفوظ، أى:

محفوظ من الشياطين، أو محفوظ فيه كل شىء. ثم أضرب سبحانه عن كلامهم الأوّل، و انتقل إلى ما هو أشنع منه، فقال: بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِ فإنه تصريح منهم بالتكذيب بعد ما تقدّم عنهم من الاستبعاد، و المراد بالحق هنا القرآن. قال الماوردى: فى قول الجميع، و قيل: هو الإسلام، و قيل: محمد، و قيل: النبوّة الثابتة بالمعجزات لَمَّا جاءَهُمْ أى: وقت مجيئه إليهم من غير تدبّر و لا تفكّر و لا إمعان نظر، قرأ الجمهور:

بفتح اللام و تشديد الميم. و قرأ الجحدرى: بكسر اللام و تخفيف الميم فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ أى: مختلط مضطرب، يقولون مرة ساحر، و مرة شاعر، و مرة كاهن؛ قاله الزجاج و غيره. و قال قتادة: مختلف. و قال الحسن: ملتبس، و المعنى متقارب، و قيل:

فاسد، و المعانى متقاربة. و منه قولهم: مرجت أمانات الناس:

أى فسدت، و مرج الدين و الأمر اختلط أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ أى: الاستفهام للتقريع و التوبيخ: أى كيف غفلوا عن النظر إلى السماء فوقهم كَيْفَ بَنَيْناها و جعلناها على هذه الصفة مرفوعة بغير عماد تعتمد عليه وَ زَيَّنَّاها بما جعلنا فيها من المصابيح وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ أى: فتوق و شقوق و صدوع، و هو جمع فرج، و منه قول امرئ القيس:

تسدّ به فرجها من دبر «۱» قال الكسائى: ليس فيها تفاوت و لا اختلاف و لا فتوق وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها أى: بسطناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ أى: جبالا ثوابت، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة الرعد وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ أى: من كل صنف حسن. و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة الحج تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ هما علّتان لما تقدّم منتصبان بالفعل الأخير منها، أو بمقدّر، أى: فعلنا ما فعلنا للتبصير و التذكير، قاله الزجاج.

و قال أبو حاتم: انتصبا على المصدرية، أى: جعلنا ذلك تبصرة و ذكرى. و المنيب الراجع إلى اللّه بالتوبة،

---

(۱). و صدره: لها ذنب مثل ذيل العروس.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۸۶

المتدبر فى بديع صنعه و عجائب مخلوقاته. و فى سياق هذه الآيات تذكير لمنكرى البعث و إيقاظ لهم عن سنة الغفلة، و بيان لإمكان ذلك و عدم امتناعه، فإن القادر على مثل هذه الأمور يقدر عليه، و هكذا قوله:

وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً أى: نزّلنا من السحاب ماء كثير البركة لانتفاع الناس به فى غالب أمورهم فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ أى: أنبتنا بذلك الماء بساتين كثيرة وَ حَبَّ الْحَصِيدِ أى: ما يقتات و يحصد من الحبوب، و المعنى: و حبّ الزرع الحصيد، و خصّ الحبّ لأنه المقصود، كذا قال البصريون. و قال الكوفيون: هو من باب إضافة الشي‌ء إلى نفسه كمسجد الجامع، حكاه الفرّاء. قال الضحاك: حبّ الحصيد: البرّ و الشعير، و قيل: كل حبّ يحصد و يدّخر و يقتات وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ هو معطوف على جنات؛ أى: و أنبتنا به النخل، و تخصيصها بالذكر مع دخولها فى الجنات للدلالة على فضلها على سائر الأشجار، و انتصاب باسقات على الحال، و هى حال مقدّرة لأنها وقت الإنبات لم تكن باسقة.

قال مجاهد و عكرمة و قتادة: الباسقات: الطوال، و قال سعيد بن جبير: مستويات. و قال الحسن و عكرمة و الفراء: مواقير حوامل، يقال للشاة بسقت إذا ولدت، و الأشهر فى لغة العرب الأوّل، يقال: بسقت النخلة بسوقا؛ إذا طالت، و منه قول الشاعر:

لنا خمر و ليست خمر كرمو لكن من نتاج الباسقات

كرام فى السّماء ذهبن طولاو فات ثمارها أيدى الجناة

و جملة لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ فى محل نصب على الحال من النخل، و الطلع: هو أوّل ما يخرج من ثمر النخل، يقال: طلع الطّلع طلوعا. و النّضيد: المتراكب الّذى نضّد بعضه على بعض، و ذلك قبل أن ينفتح فهو نضيد فى أكمامه، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد رِزْقاً لِلْعِبادِ انتصابه على المصدرية، أى: رزقناهم رزقا، أو على العلّة، أى: أنبتنا هذه الأشياء للرزق وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً أى: أحيينا بذلك الماء بلدة مجدبة لا ثمار فيها و لا زرع، و جملة كَذلِكَ الْخُرُوجُ مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الّذى أحيا اللّه به الأرض الميتة، قرأ الجمهور مَيْتاً على التخفيف، و قرأ أبو جعفر و خالد بالتثقيل. ثم ذكر سبحانه الأمم المكذبة فقال: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحابُ الرَّسِّ هم قوم شعيب كما تقدّم بيانه، و قيل: هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى، و هم من قوم عيسى. و قيل: هم أصحاب الأخدود. و الرسّ: إما موضع نسبوا إليه، أو فعل، و هو حفر البئر، يقال: رس؛ إذا حفر بئرا وَ ثَمُودُ- وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ أى: فرعون و قومه وَ إِخْوانُ لُوطٍ جعلهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره، و قيل: هم

من قوم إبراهيم، و كانوا من معارف لوط وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ تقدّم الكلام على الأيكة، و اختلاف القراء فيها فى سورة الشعراء مستوفى، و نبيهم الّذى بعثه اللّه إليهم شعيب وَ قَوْمُ تُبَّعٍ هو تبّع الحميرى الّذى تقدّم ذكره فى قوله: أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ و اسمه سعد أبو كرب، و قيل: أسعد. قال قتادة: ذمّ اللّه قوم تبع، و لم يذمّه. كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ التنوين عوض عن المضاف إليه؛ أى: كل واحد من هؤلاء كذّب رسوله الّذى أرسله اللّه إليه، و كذب ما جاء به من الشرع، و اللام فى الرسل تكون للعهد،

فتح القدير، ج‏5، ص: 87

و يجوز أن تكون للجنس؛ أى: كل طائفة من هذه الطوائف كذبت جميع الرسل، و إفراد الضمير فى كذب باعتبار لفظ كل، و فى هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، كأنه قيل له: لا تحزن و لا تكثر غمّك لتكذيب هؤلاء لك، فهذا شأن من تقدّمك من الأنبياء، فإن قومهم كذّبوهم و لم يصدّقهم إلا القليل منهم فَحَقَّ وَعِيدِ أى: وجب عليهم وعيدى، و حقّت عليهم كلمة العذاب، و حلّ بهم ما قدّره اللّه عليهم من الخسف و المسخ و الإهلاك بالأنواع التى أنزلها اللّه بهم من عذابه أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و الجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث الّذى أنكرته الأمم؛ أى: أ فعجزنا بالخلق حين خلقناهم أوّلا و لم يكونوا شيئا، فكيف نعجز عن بعثهم، يقال: عييت بالأمر؛ إذا عجزت عنه و لم أعرف وجهه. قرأ الجمهور بكسر الياء الأولى بعدها ياء ساكنة. و قرأ ابن أبى عبلة بتشديد الياء من غير إشباع. ثم ذكر أنهم فى شكّ من البعث، فقال: بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ أى: فى شك و حيرة و اختلاط من خلق مستأنف، و هو بعث الأموات، و معنى الإضراب أنهم غير منكرين لقدرة اللّه على الخلق الأوّل بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ق قال: هو اسم من أسماء اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: خلق اللّه من وراء هذه الأرض بحرا محيطا، ثم خلق وراء ذلك جبلا يقال له: ق، السماء الدنيا مرفرفة عليه، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها، ثم خلق وراء ذلك جبلا، يقال له قاف، السماء الثانية مرفرفة عليه، حتى عدّ سبع أرضين و سبعة أبحر و سبعة أجبل و سبع سماوات، قال: و ذلك قوله: وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ «1» قال ابن كثير: لا يصحّ سنده عن ابن عباس. و قال أيضا: و فيه انقطاع. و أخرج ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ عنه أيضا قال: هو جبل، و عروقه إلى الصخرة التى عليها الأرض، فإذا أراد اللّه أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرّك ذلك العرق الّذى يلى تلك القرية فيزلزلها و يحرّكها، فمن ثم يحرّك القرية دون القرية «2». و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا: وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ قال: الكريم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: القرآن المجيد ليس شى‏ء أحسن منه و لا أفضل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ قال: أجسادهم و ما يذهب منها. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: ما تأكل من لحومهم و عظامهم و أشعارهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا قال: المريج:

الشى‏ء المتغير. و أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن قطبة قال: «سمعت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى الصبح ق، فلما أتى على هذه الآية وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ فجعلت أقول: ما بسوقها؟ قال: طولها». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ قال: الطول.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ قال: متراكم بعضه على بعض. و أخرج

---

(1). لقمان: 27.

(2). هذا الكلام لا يستند إلى أصل شرعى و يتنافى مع الحقائق العلمية فلا يعتد به.

فتح القدير، ج‏5، ص: 88

ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ يقول: لم يعينا الخلق الأوّل، و فى قوله: بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ فى شكّ من البعث.

[سورة ق (50): الآيات 16 الى 35]

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (17) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20)

وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَ قالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25)

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (26) قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَ لكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (27) قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَ ما أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (29) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30)

وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ (35)

قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر بعض القدرة الربانية. و المراد بالإنسان الجنس، و قيل: آدم. و الوسوسة هى فى الأصل: الصوت الخفىّ، و المراد بها هنا ما يختلج فى سرّه و قلبه و ضميره، أى: نعلم ما يخفى و يكنّ فى نفسه، و من استعمال الوسوسة فى الصوت الخفىّ قول الأعشى:

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت «1» فاستعمل لما خفى من حديث النفس وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ هو حبل العاتق، و هو ممتدّ من ناحية حلقه إلى عاتقه، و هما وريدان من عن يمين و شمال. و قال الحسن: الوريد الوتين، و هو عرق معلّق بالقلب. و هو تمثيل للقرب بقرب ذلك العرق من الإنسان، أى: نحن أقرب إليه من حبل وريده، و الإضافة بيانية، أى: حبل هو الوريد. و قيل: الحبل هو نفس الوريد، فهو من باب مسجد الجامع. ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به و كلّ به ملكين يكتبان و يحفظان عليه عمله إلزاما للحجة فقال: إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ الظرف منتصب بما فى أَقْرَبُ من معنى الفعل، و يجوز أن يكون منصوبا بمقدّر هو اذكر، و المعنى: أنه أقرب إليه من حيل وريده حين يتلقى المتلقيان، و هما الملكان الموكلان به ما يلفظ به و ما يعمل به، أى: يأخذان ذلك و يثبتانه، و التلقى: الأخذ، أى: نحن أعلم بأحواله غير محتاجين إلى الحفظة الموكّلين به، و إنما جعلنا

---

(1). و عجزه: كما استعان بريح عشرق زجل.

فتح القدير، ج‏5، ص: 89

ذلك إلزاما للحجة و توكيدا للأمر. قال الحسن و قتادة و مجاهد: المتلقيان: ملكان يتلقيان عملك أحد هما عن يمينك يكتب حسناتك، و الآخر عن شمالك يكتب سيئاتك. و قال مجاهد أيضا: و كل اللّه بالإنسان ملكين بالليل و ملكين بالنهار يحفظان عمله و يكتبان أثره عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ إنما قال قعيد و لم يقل قعيدان و هما اثنان، لأن المراد عن اليمين قعيد و عن الشمال قعيد. فحذف الأوّل لدلالة الثانى عليه، كذا قال سيبويه، كقول الشاعر «1»:

نحن بما عندنا و أنت بماعندك راض و الرّأى مختلف
و قول الفرزدق:
و أبى فكان و كنت غير غدور «٢» أى: و كان غير غدور و كنت غير غدور، و قال الأخفش و الفراء: إن لفظ قعيد يصلح للواحد و الاثنين و الجمع، و لا يحتاج إلى تقدير فى الأوّل. قال الجوهرى و غيره من أئمة اللغة و النحو: فعيل و فعول مما يستوى فيه الواحد و الاثنان و الجمع، و القعيد: المقاعد كالجليس بمعنى المجالس ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ أى: ما يتكلم من كلام، فيلفظه و يرميه من فيه إلّا لديه، أى: على ذلك اللافظ رقيب، أى:
ملك يرقب قوله و يكتبه، و الرقيب: الحافظ المتتبع لأمور الإنسان الّذى يكتب ما يقوله من خير و شرّ، فكاتب الخير هو ملك اليمين، و كاتب الشرّ ملك الشمال. و العتيد: الحاضر المهيّأ. قال الجوهرى: العتيد: الحاضر المهيأ، يقال: عتّده تعتيدا و أعتده إعتادا، أى: أعدّه، و منه: وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً «٣» و المراد هنا أنه معدّ للكتابة مهيّأ لها وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِ لما بين سبحانه أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة ذكر بعده ما ينزل بهم من الموت، و المراد بسكرة الموت شدّته و غمرته التى تغشى الإنسان و تغلب على عقله، و معنى بالحق: أنه عند الموت يتضح له الحق و يظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث و الوعد و الوعيد، و قيل: الحق هو الموت، و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: و جاءت سكرة الموت بالحق، و كذا قرأ أبو بكر الصديق و ابن مسعود. و السكرة: هى الحق، فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين، و قيل: الباء للملابسة كالتى فى قوله: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ «۴» أى: متلبسة بالحق، أى: بحقيقة الحال، و الإشارة بقوله:
ذلِكَ إلى الموت، و الحيد: الميل، أى: ذلك الموت الّذى كنت تميل عنه و تفرّ منه، يقال: حاد عن الشىء يحيد حيودا و حيدة و حيدودة؛ مال عنه و عدل، و منه قول طرفة:
أبا منذر رمت الوفاء فهبتهوحدت كما حاد البعير عن الدّحض

---

(١). هو قيس بن الخطيم.

(٢). و صدره: إنّى ضمنت لمن أتانى ما جنى.

(٣). يوسف: ٣١.

(۴). المؤمنون: ٢٠.

و قال الحسن: تحيد: تهرب وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ عبّر عنه بالماضى لتحقّق وقوعه، و هذه هى النفخة الآخرة للبعث ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ أى: ذلك الوقت الّذى يكون فيه النفخ فى الصور يوم الوعيد الّذى أوعد اللّه به الكفار. قال مقاتل: يعنى بالوعيد العذاب فى الآخرة، و خصص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد و الوعيد جميعا لتهويله وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ أى: جاءت كل نفس من النفوس معها من يسوقها و من يشهد لها أو عليها.
و اختلف فى السائق و الشهيد، فقال الضحاك: السائق من الملائكة، و الشهيد من أنفسهم: يعنى الأيدى و الأرجل. و قال الحسن و قتادة: سائق يسوقها و شاهد يشهد عليها بعملها. و قال ابن مسلم: السائق قرينها من الشياطين، سمّى سائقها لأنه يتبعها و إن لم يحثّها. و قال مجاهد: السائق و الشهيد ملكان. و قيل: السائق الملك، و الشهيد العمل، و قيل: السائق كاتب السيئات، و الشهيد كاتب الحسنات. و محل الجملة النصب على الحال. لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا أى: يقال له: لقد كنت فى غفلة من هذا، و الجملة فى محل نصب على الحال من نفس أو مستأنفة، كأنه قيل ما يقال له؟ قال الضحاك: و المراد بهذا المشركون لأنهم كانوا

فى غفلة من عواقب أمورهم. و قال ابن زيد: الخطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: لقد كنت يا محمد فى غفلة من الرسالة. و قال أكثر المفسرين: المراد به جميع الخلق برّهم و فاجرهم، و اختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور بفتح التاء من كُنْتَ و فتح الكاف فى غطاءك و بصرك، حملا على ما فى لفظ كل من التذكير. و قرأ الجحدرى و طلحة بن مصرّف بالكسر فى الجميع؛ على أن المراد النفس فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ الّذى كان فى الدنيا، يعنى: رفعنا الحجاب الّذى كان بينك و بين أمور الآخرة، و رفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ أى: نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك فى الدنيا. قال السدّى: المراد بالغطاء أنه كان فى بطن أمه فولد، و قيل: إنه كان فى القبر فنشر، و الأوّل أولى. و البصر قيل: هو بصر القلب، و قيل: بصر العين. و قال مجاهد: بصرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك و سيئاتك، و به قال الضحاك. وَ قالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ أى: قال الملك الموكّل به: هذا ما عندى من كتاب عملك عتيد حاضر قد هيأته، كذا قال الحسن و قتادة و الضحاك. و قال مجاهد: إن الملك يقول للربّ سبحانه: هذا الّذى وكّلتنى به من بنى آدم قد أحضرته و أحضرت ديوان عمله. و روى عنه أنه قال: إن قرينه من الشياطين، يقول ذلك، أى:

هذا ما قد هيّأته لك بإغوائى و إضلالى. و قال ابن زيد: إن المراد هنا قرينه من الإنس، و عتيد مرفوع على أنه صفة لما إن كانت موصوفة، و إن كانت موصولة فهو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف أَلْقِيا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ هذا خطاب من اللّه عزّ و جلّ للسائق و الشهيد. قال الزجاج: هذا أمر للملكين الموكلين به، و هما السائق و الشاهد. «كل كفّار» للنعم، «عنيد» مجانب للإيمان مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ لا يبذل خيرا مُعْتَدٍ ظالم لا يقرّ بتوحيد اللّه مُرِيبٍ شاكّ فى الحق، من قولهم: أراب الرجل؛ إذا صار ذا ريب. و قيل: هو خطاب للملكين من خزنة النار، و قيل: هو خطاب لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل و تكريره. قال الخليل و الأخفش: هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين

فتح القدير، ج۵، ص: ۹۱

يقولون: ارحلاها و ازجراها، و خذاه و أطلقاه للواحد. قال الفراء: العرب تقول للواحد: قوما عنا. و أصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل فى إبله و غنمه و رفقته فى سفره اثنان، فجرى كلام الرجل للواحد على ذلك، و منه قولهم للواحد فى الشعر: خليلىّ، كما قال امرؤ القيس:

خليلىّ مرّا بى على أمّ جندبنقضّ لبانات الفؤاد المعذّب

و قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب و منزلبسقط اللّوى بين الدّخول فحومل

و قول الآخر «۱»:

فإن تزجرانى يا ابن عفّان أنزجرو إن تدعانى أحم عرضا ممنّعا

قال المازنى: قوله: أَلْقِيا يدل على ألق ألق. قال المبرد: هى تثنية على التوكيد، فناب «ألقيا» مناب ألق ألق. قال مجاهد و عكرمة: العنيد: المعاند للحق، و قيل: المعرض عن الحق، يقال: عند يعند بالكسر عنودا؛ إذا خالف الحق الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ يجوز أن يكون بدلا من كلّ، أو منصوبا على الذم، أو بدلا من كفار، أو مرفوعا بالابتداء أو الخبر فَأَلْقِياهُ فِى الْعَذابِ الشَّدِيدِ تأكيدا للأمر الأول أو بدل منه قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ هذه الجملة مستأنفة لبيان ما يقوله القريب، و المراد بالقرين هنا الشيطان الّذى قيّض لهذا الكافر، أنكر أن يكون أطغاه، ثم قال: وَ لكِنْ كانَ فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ أى:

عن الحق فدعوته فاستجاب لى، و لو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه، و قيل: إن قرينه الملك الّذى كان يكتب سيئاته. و إن الكافر يقول: ربّ إنه أعجلنى فيجيبه بهذا، كذا قال مقاتل و سعيد بن جبير. و الأوّل أولى، و به قال الجمهور. قالَ لا

تَخْتَصِمُوا لَدَيَ هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل:
فماذا قال اللّه؟ فقيل: قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَ يعنى الكافرين و قرنائهم، نهاهم سبحانه عن الاختصام فى موقف الحساب، و جملة وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أن قد قدّمت إليكم بالوعيد بإرسال الرسل و إنزال الكتب، و الباء فى «بالوعيد» مزيدة للتأكيد، أو على تضمين قدّم معنى تقدّم ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَ أى: لا خلف لوعدى، بل هو كائن لا محالة، و قد قضيت عليكم بالعذاب فلا تبديل له، و قيل: هذا القول هو قوله: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها «٢» و قيل: هو قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ* «٣» و قال الفراء و ابن قتيبة: معنى الآية: أنه ما يكذب عندى بزيادة فى القول و لا ينقص منه لعلمى بالغيب، و هو قول الكلبى.
و اختاره الواحدى لأنه قال لَدَيَ و لم يقل: و ما يبدّل قولى، و الأوّل أولى. و قيل: إن مفعول قدّمت

---

(١). الشاعر هو سويد بن كراع، و البيت فى الأغانى (١١/ ١٢٣)، و شرح المعلقات السبع للزوزنى ص (٣٣)

(٢). الأنعام: ١٦٠.

(٣). هود: ١١٩.

إليكم هو ما يبدّل، أى: و قد قدّمت إليكم هو ما يبدّل، أى: و قد قدّمت إليكم هذا القول ملتبسا بالوعيد، و هذا بعيد جدا وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ أى: لا أعذّبهم ظلما بغير جرم اجترموه و لا ذنب أذنبوه. و لما كان نفى الظّلّام لا يستلزم نفى مجرّد الظلم قيل: إنه هنا بمعنى الظالم كالتمّار بمعنى الثامر. و قيل: إن صيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم. و قيل: صيغة المبالغة لرعاية جمعية العبيد، من قولهم: فلان ظالم لعبده و ظلّام لعبيده، و قيل: غير ذلك، و قد تقدّم الكلام على هذا فى سورة آل عمران و فى سورة الحج يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ قرأ الجمهور نَقُولُ بالنون. و قرأ نافع و أبو بكر بالياء. و قرأ الحسن «أقول». و قرأ الأعمش: «يقال» و العامل فى الظرف ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَ أو محذوف، أى: اذكر، أو أنذرهم، و هذا الكلام على طريقة التمثيل و التخييل، و لا سؤال و لا جواب، كذا قيل، و الأولى أنه على طريقة التحقيق، و لا يمنع من ذلك عقل و لا شرع. قال الواحدى: قال المفسرون: أراها اللّه تصديق قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ* فلما امتلأت قال لها:
هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ أى: قد امتلأت و لم يبق فىّ موضع لم يمتلئ، و بهذا قال عطاء و مجاهد و مقاتل بن سليمان. و قيل: إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة، أى: أنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها. و قيل: إن المعنى أنها طلبت أن يزاد فى سعتها لتضايقها بأهلها، و المزيد إما مصدر كالمجيد، أو اسم مفعول كالمنيع، فالأول بمعنى: هل من زيادة، و الثانى بمعنى: هل من شي‏ء تزيدونيه. ثم لما فرغ من بيان حال الكافرين شرع فى بيان حال المؤمنين فقال: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ أى: قرّبت للمتقين تقريبا غير بعيد أو مكان غير بعيد منهم، بحيث يشاهدونها فى الموقف، و ينظرون ما فيها مما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، و يجوز أن يكون انتصاب غَيْرَ بَعِيدٍ على الحال. و قيل: المعنى: أنها زينت قلوبهم فى الدنيا بالترغيب و الترهيب، فصارت قريبة من قلوبهم، و الأوّل أولى. و الإشارة بقوله: هذا ما تُوعَدُونَ إلى الجنة التى أزلفت لهم، على معنى: هذا الّذى ترونه من فنون نعيمها ما توعدون، و الجملة بتقدير القول، أى: يقال لهم هذا ما توعدون. قرأ الجمهور: تُوعَدُونَ بالفوقية. و قرأ ابن كثير بالتحتية. لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ هو بدل من «لِلْمُتَّقِينَ» بإعادة الخافض، أو متعلق بقول محذوف هو حال، أى: مقولا لهم لكل أواب، و الأواب: الرجّاع إلى اللّه تعالى بالتوبة عن المعصية، و قيل: هو المسبح، و قيل: هو الذاكر للّه فى الخلوة.

قال الشعبى و مجاهد: هو الّذى يذكر ذنوبه فى الخلوة فيستغفر اللّه منها.
و قال عبيد بن عمير: هو الّذى لا يجلس مجلسا حتى يستغفر اللّه فيه، و الحفيظ: هو الحافظ لذنوبه حتى يتوب منها. و قال قتادة: هو الحافظ لما استودعه اللّه من حقه و نعمته، قاله مجاهد. و قيل: هو الحافظ لأمر اللّه.
و قال الضحاك: هو الحافظ لوصية اللّه له بالقبول مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ الموصول فى محل جرّ بدلا أو بيانا لكل أوّاب، و قيل: يجوز أن يكون بدلا بعد بدل من المتقين، و فيه نظر لأنه لا يتكرر البدل، و المبدل منه واحد، و يجوز أن يكون فى محل رفع على الاستئناف، و الخبر «ادخلوها» بتقدير: يقال لهم: ادخلوها، و الخشية بالغيب أن يخاف اللّه و لم يكن رآه. و قال الضحاك و السدّى: يعنى فى الخلوة حيث لا يراه أحد.
فتح القدير، ج۵، ص: ۹۳
قال الحسن: إذا أرخى الستر و أغلق الباب، «و بالغيب» متعلق بمحذوف هو حال أو صفة لمصدر خشى وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ أى: راجع إلى اللّه مخلص لطاعته، و قيل: المنيب: المقبل على الطاعة، و قيل: السليم ادْخُلُوها هو بتقدير القول، أى: يقال لهم ادخلوها، و الجمع باعتبار معنى من، أى: ادخلوا الجنة بِسَلامٍ أى: بسلامة من العذاب، و قيل: بسلام من اللّه و ملائكته، و قيل: بسلامة من زوال النعم، و هو متعلق بمحذوف هو حال، أى: متلبسين بسلام، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى زمن ذلك اليوم كما قال أبو البقاء، و خبره يَوْمُ الْخُلُودِ و سماه يوم الخلود لأنه لا انتهاء له، بل هو دائم أبدا لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها أى: فى الجنة ما تشتهى أنفسهم و تلذ أعينهم من فنون النعم و أنواع الخير وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ من النعم التى لم تخطر لهم على بال، و لا مرّت لهم فى خيال.
و قد أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «نزل اللّه من ابن آدم أربع منازل: هو أقرب إليه من حبل الوريد، و هو يحول بين المرء و قلبه، و هو آخذ بناصية كل دابة، و هو معهم أينما كانوا».
و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ قال: عروق العنق. و أخرج ابن المنذر عنه قال: هو نياط القلب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا، فى قوله: ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شرّ حتى إنه ليكتب قوله: أكلت و شربت ذهبت جئت رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله و عمله فأقرّ منه ما كان من خير أو شرّ و ألقى سائره، فذلك قوله: يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس فى الآية قال: إنما يكتب الخير و الشرّ، لا يكتب: يا غلام أسرج الفرس، يا غلام اسقنى الماء. و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «إن اللّه غفر لهذه الأمة ما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم». و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و الحكيم و الترمذى و أبو نعيم، و البيهقى فى الشعب، عن عمرة بن ذرّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:
«إن اللّه عند لسان كل قائل، فليتق اللّه عبد، و لينظر ما يقول». و أخرج الحكيم الترمذى عن ابن عباس مرفوعا مثله. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم فى الكنى، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، و ابن عساكر عن عثمان بن عفان أنه قرأ: وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ قال: سائق يسوقها إلى أمر اللّه، و شهيد يشهد عليها بما عملت. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم فى الكنى، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن أبى هريرة فى الآية قال:
السائق: الملك، و الشهيد: العمل. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: السائق: من الملائكة، و الشهيد: شاهد عليه من نفسه.
و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا قال: هو الكافر.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ قال: الحياة بعد الموت. و أخرج ابن

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۹۴

جرير عنه أيضا، و قالَ قَرِينُهُ قال: شيطانه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى قوله: لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ قال: إنهم اعتذروا بغير عذر فأبطل اللّه حجّتهم و ردّ عليهم قولهم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ قال: ما أنا بمعذب من لم يجترم «۱». و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا، فى قوله: يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ قال: و هل فيّ من مكان يزاد فيّ؟ و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تزال جهنم يلقى فيها و تقول: هل من مزيد، حتى يضع ربّ العزّة فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض و تقول: قط قط، و عزّتك و كرمك. و لا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ اللّه لها خلقا آخر فيسكنهم فى فضول الجنة». و أخرجا أيضا من حديث أبى هريرة نحوه، و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن جرير، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ قال: حفظ ذنوبه حتى رجع عنها. و أخرج البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث و النشور، عن أنس، فى قوله: وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ قال: يتجلى لهم الربّ تبارك و تعالى فى كل جمعة. و أخرج البيهقى فى الرؤية، و الديلمى عن عليّ فى الآية قال: يتجلى لهم الرب عزّ و جلّ. و فى الباب أحاديث.

[سورة ق (۵۰): الآيات ۳۶ الى ۴۵]

وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (۳۶) إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (۳۷) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (۳۸) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ (۳۹) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبارَ السُّجُودِ (۴۰)

وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (۴۱) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (۴۲) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ (۴۳) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ (۴۴) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ (۴۵)

خوّف سبحانه أهل مكة بما اتفق للقرون الماضية قَبْلَهُمْ أى: قبل قريش و من وافقهم مِنْ قَرْنٍ أى: من أمة هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً أى: قوة كعاد و ثمود و غير هما فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ أى: ساروا و تقلّبوا فيها و طافوا بقاعها. و أصله من النقب، و هو الطريق. قال مجاهد: ضربوا و طافوا. و قال النضر بن شميل: دوّروا. و قال المؤرّج: تباعدوا. و الأوّل أولى. و منه قول امرئ القيس:

و قد نقّبت فى الآفاق حتّى‌رضيت من الغنيمة بالإياب

و مثله قول الحارث بن حلّزة:

نقّبوا فى البلاد من حذر المو* ت و جالوا فى الأرض كلّ مجال

---

(۱). «يجترم»: يرتكب الذّنب.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۹۵

و قرأ ابن عباس و الحسن و أبو العالية و أبو عمرو فى رواية: نقبوا بفتح القاف مخففة، و النقب: هو الخرق و الطريق فى الجبل و كذا المنقب و المنقبة، كذا قال ابن السّكّيت، و جمع النّقب نقوب. و قرأ السلمى و يحيى بن يعمر بكسر القاف مشدّدة على الأمر للتهديد، أى: طوّفوا فيها و سيروا فى جوانبها. و قرأ الباقون بفتح القاف مشدّدة على الماضى. هَلْ مِنْ مَحِيصٍ أى: هل لهم من

مهرب يهربون إليه، أو مخلص يتخلصون به من العذاب. قال الزجاج: لم يروا محيصا من الموت، و المحيص مصدر حاص عنه يحيص حيصا و حيوصا و محيصا و محاصا و حيصانا، أى: عدل و حاد، و الجملة مستأنفة لبيان أنه لا مهرب لهم، و فى هذا إنذار لأهل مكة أنهم مثل من قبلهم من القرون لا يجدون من الموت و العذاب مفرّا إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى أى:

فيما ذكر من قصتهم تذكرة و موعظة لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أى: عقل. قال الفراء: و هذا جائز فى العربية، تقول: ما لك قلب، و ما قلبك معك، أى: ما لك عقل، و ما عقلك معك، و قيل: المراد القلب نفسه، لأنه إذا كان سليما أدرك الحقائق و تفكّر كما ينبغى. و قيل: لمن كان له حياة و نفس مميزة، فعبّر عن ذلك بالقلب لأنه وطنها و معدن حياتها، و منه قول امرئ القيس:

أغرّك منّى أنّ حبّك قاتلىو أنّك مهما تأمرى النّفس «١» تفعل

أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ أى: استمع ما يقال له، يقال: ألق سمعك إلىّ، أى: استمع منى، و المعنى:

أنه ألقى السمع إلى ما يتلى عليه من الوحى الحاكى لما جرى على تلك الأمم. قرأ الجمهور: أَلْقَى مبنيا للفاعل. و قرأ السلمى و طلحة و السدّى على البناء للمفعول و رفع السمع وَ هُوَ شَهِيدٌ أى: حاضر الفهم أو حاضر القلب؛ لأن من لا يفهم فى حكم الغائب و إن حضر بجسمه فهو لم يحضر بفهمه. قال الزجاج:

أى: و قلبه حاضر فيما يسمع. قال سفيان: أى لا يكون حاضرا و قلبه غائب. قال مجاهد و قتادة: هذه الآية فى أهل الكتاب، و كذا قال الحسن. و قال محمد بن كعب و أبو صالح: إنها فى أهل القرآن خاصة وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ قد تقدّم تفسير هذه الآية فى سورة الأعراف و غيرها وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ اللغوب: التعب و الإعياء، تقول: لغب يلغب بالضم لغوبا. قال الواحدى: قال جماعة المفسرين: إن اليهود قالوا: خلق اللّه السماوات و الأرض و ما بينهما فى ستة أيام، أوّلها الأحد و آخرها الجمعة، و استراح يوم السبت، فكذّبهم اللّه تعالى بقوله: وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ- فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ هذه تسلية للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أمر لهم بالصبر على ما يقوله المشركون، أى: هوّن عليك، و لا تحزن لقولهم و تلقّ ما يرد عليك منه بالصبر وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ أى: نزّه اللّه عمّا لا يليق بجنابه العالى متلبسا بحمده وقت الفجر و وقت العصر، و قيل: المراد صلاة الفجر و صلاة العصر، و قيل: الصلوات الخمس، و قيل: صلّ ركعتين قبل طلوع الشمس و ركعتين قبل غروبها، و الأول أولى وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ من للتبعيض: أى سبحه بعض الليل، و قيل: هى صلاة الليل، و قيل: ركعتا الفجر، و قيل: صلاة العشاء،

---

(١). و فى رواية: القلب.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٩٦

و الأوّل أولى وَ أَدْبارَ السُّجُودِ أى: و سبحه أعقاب الصلوات. قرأ الجمهور: أَدْبارَ بفتح الهمزة جمع دبر. و قرأ نافع و ابن كثير و حمزة بكسرها على المصدر، من أدبر الشي‌ء إدبارا؛ إذا ولى. و قال جماعة من الصحابة و التابعين: إدبار السجود الركعتان بعد المغرب، و إدبار النجوم: الركعتان قبل الفجر. و قد اتفق القراء السبعة فى إدبار النجوم أنه بكسر الهمزة كما سيأتى وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ أى: استمع ما يوحى إليك من أحوال القيامة؛ يوم ينادى المناد، و هو إسرافيل أو جبريل، و قيل: استمع النداء أو الصوت أو الصيحة، و هى صيحة القيامة، أعنى النفخة الثانية فى الصور من إسرافيل، و قيل: إسرافيل ينفخ، و جبريل ينادى أهل المحشر، و يقول: هلمّوا للحساب، فالنداء على هذا فى المحشر. قال مقاتل: هو إسرافيل ينادى بالحشر فيقول: يا أيها الناس هلمّوا للحساب مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ بحيث يصل النداء إلى كل فرد من أفراد أهل المحشر. قال قتادة: كنا نحدّث أنه ينادى من صخرة بيت المقدس. قال الكلبى: و هى أقرب الأرض إلى السماء باثنى عشر ميلا. و قال كعب: بثمانية عشر ميلا يَوْمَ

يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ هو بدل من يوم ينادى، يعنى صيحة البعث، و «بالحق» متعلق بالصيحة ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ أى:
يوم الخروج من القبور. قال الكلبى: معنى بالحق: بالبعث. و قال مقاتل: يعنى أنها كائنة حقا إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ أى: نحيى فى الآخرة و نميت فى الدنيا، لا يشاركنا فى ذلك مشارك، و الجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ فنجازى كل عامل بعمله يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ قرأ الجمهور بإدغام التاء فى الشين. و قرأ الكوفيون بتخفيف الشين على حذف إحدى التاءين تخفيفا. و قرأ زيد بن علىّ: تشقق بإثبات التاءين على الأصل، و قرئ على البناء للمفعول، و انتصاب سِراعاً على أنه حال من الضمير فى عنهم، و العامل فى الحال تشقق، و قيل: العامل فى الحال هو العامل فى يوم، أى: مسرعين إلى المنادى الّذى ناداهم ذلِكَ حَشْرٌ أى: بعث و جمع عَلَيْنا يَسِيرٌ هين. ثم عزّى اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال:
نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ يعنى من تكذيبك فيما جئت به و من إنكار البعث و التوحيد وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ أى: بمسلّط يجبرهم و يقهرهم على الإيمان، و الآية منسوخة بآية السيف فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ أى: من يخاف وعيدى لعصاتى بالعذاب، و أما من عداهم فلا تشتغل بهم. ثم أمره اللّه سبحانه بعد ذلك بالقتال.
و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ قال: من نصب. و أخرج الطبرانى فى الأوسط و ابن عساكر عن جرير بن عبد اللّه عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ «صلاة الصبح» وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ «صلاة العصر». و أخرج الترمذى و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «بتّ عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فصلّى ركعتين خفيفتين قبل صلاة الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال: يا ابن عباس ركعتان قبل صلاة الفجر إدبار النجوم و ركعتان بعد المغرب إدبار السجود». و أخرج مسدّد فى مسنده، و ابن المنذر و ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن إدبار النجوم و إدبار السجود، فقال: إدبار السجود ركعتان

فتح القدير، ج۵، ص: ۹۷

بعد المغرب، و إدبار النجوم ركعتان قبل الغداة». و أخرج محمد بن نصر فى الصلاة، و ابن المنذر عن عمر ابن الخطاب: إدبار السجود ركعتان بعد المغرب، و إدبار النجوم ركعتان قبل الفجر. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن نصر و ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن علىّ بن أبى طالب مثله.
و أخرج ابن أبى شيبة و ابن نصر و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى هريرة مثله. و أخرج البخارى و غيره عن مجاهد قال: قال ابن عباس: أمره أن يسبح فى أدبار الصلوات كلها. و أخرج ابن جرير عنه وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ قال: هى الصيحة. و أخرج الواسطى عنه أيضا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ قال:
من صخرة بيت المقدس. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن المنذر عنه أيضا ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ قال: يوم يخرجون إلى البعث من القبور. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: قالوا: يا رسول اللّه لو خوّفتنا، فنزلت:
فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ.

فتح القدير، ج۵، ص: ۹۸

سورة الذّاريات

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى: فى قول الجميع.

و أخرج ابن الضّريس و النحّاس و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت سورة الذاريات بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۱ الى ۲۳]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الذَّارِياتِ ذَرْواً (۱) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (۲) فَالْجارِياتِ يُسْراً (۳) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (۴)

إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (۵) وَ إِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ (۶) وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ (۷) إِنَّكُمْ لَفِی قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (۸) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (۹)

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (۱۰) الَّذِينَ هُمْ فِی غَمْرَةٍ ساهُونَ (۱۱) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (۱۲) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (۱۳) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِی كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۱۴)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِی جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۵) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (۱۶) كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (۱۷) وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۱۸) وَ فِی أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (۱۹)

وَ فِی الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ (۲۰) وَ فِی أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۲۱) وَ فِی السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ (۲۲) فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (۲۳)

قوله: وَ الذَّارِياتِ ذَرْواً يقال: ذرت الرّيح التراب تذروه ذروا؛ و أذرته تذريه ذريا. أقسم سبحانه بالرياح التى تذرى التراب، و انتصاب ذروا على المصدرية، و العامل فيها اسم الفاعل، و المفعول محذوف.

قرأ أبو عمرو و حمزة بإدغام تاء الذاريات فى ذال ذروا، و قرأ الباقون بدون إدغام. و قيل: المقسم به مقدّر و هو ربّ الذاريات و ما بعدها، و الأوّل أولى فَالْحامِلاتِ وِقْراً هى السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر، و انتصاب «وِقْراً» على أنه مفعول به، كما يقال: حمل فلان عدلا ثقيلا. قرأ الجمهور: وِقْراً بكسر الواو اسم ما يوقر، أى: يحمل، و قرئ بفتحها على أنه مصدر و العامل فيه اسم الفاعل، أو على تسمية المحمول بالمصدر مبالغة فَالْجارِياتِ يُسْراً هى السفن الجارية فى البحر بالرّياح جريا سهلا، و انتصاب «يسرا» على المصدرية، أو صفة لمصدر محذوف، أو على الحال، أى: جريا ذا يسر. و قيل: هى الرّياح، و قيل: السحاب، و الأوّل أولى، و اليسر: السهل فى كل شىء فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً هى الملائكة التى تقسم الأمور. قال الفرّاء: تأتى بأمر مختلف، جبريل بالغلظة، و ميكائيل صاحب الرحمة، و ملك الموت يأتى بالموت، و قيل: تأتى بأمر مختلف من الجدب و الخصب و المطر و الموت و الحوادث. و قيل: هى السحب التى يقسم اللّه بها أمر العباد، و قيل: إن المراد بالذاريات و الحاملات و الجاريات و المقسمات: الرياح، فإنها توصف بجميع ذلك لأنها تذرو التراب، و تحمل السحاب، و تجرى فى الهواء، و تقسم الأمطار، و هو ضعيف جدّا.

فتح القدير، ج۵، ص: ۹۹

و انتصاب «أمرا» على المفعول به، و قيل: على الحال، أى: مأمورة، و الأوّل أولى إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ هذا جواب القسم، أى: إنما توعدون من الثواب و العقاب لكائن لا محالة. و ما يجوز أن تكون موصولة و العائد محذوف، و أن تكون مصدرية. و وجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها كونها أمورا بديعة مخالفة لمقتضى العادة، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود به وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ قرأ الجمهور: الْحُبُكِ بضم الحاء و الباء، و قرئ بضم الحاء و سكون الباء و بكسر الحاء و فتح الباء، و بكسر الحاء و ضم الباء. قال ابن عطية: هى لغات، و المراد بالسماء هنا هى المعروفة، و قيل: المراد بها السحاب، و الأوّل أولى.

و اختلف المفسرون فی تفسیر الحبک؛ فقال مجاهد و قتادة و الربیع و غیرهم: المعنی ذات الخلق المستوی الحسن. قال ابن الأعرابی: کل شیء أحکمته و أحسنت عمله فقد حبکته و احتبکته. و قال الحسن و سعید ابن جبیر: ذات الزینة. و روی عن الحسن أیضا أنه قال: ذات النجوم. و قال الضحاک: ذات الطرائق، و به قال الفراء، یقال لما تراه من الماء و الرمل إذا أصابته الریح: حبک. قال الفراء: الحبک تکسّر کل شیء کالرمل إذا مرّت به الریح الساکنة، و الماء إذا مرّت به الرّیح، و یقال لدرع الحدید: حبک، و منه قول الشاعر:

کأنّما جلّلها الحوّاکطنفسة فی وشیها حباک

أی: طرق، و قیل: الحبک الشدّة، و المعنی: و السماء ذات الشدّة، و المحبوک: الشدید الخلق من فرس أو غیره، و منه قول الشاعر:

قد غدا یحملنی فی أنفهلاحق الإطلین «۱» محبوک ممر

و قول الآخر «۲»:

مرج الدّین فأعددت لهمشرف الحارک محبوک الکتد «۳»

قال الواحدی بعد حکایة القول الأوّل: هذا قول الأکثرین إِنَّکُمْ لَفِی قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ هذا جواب القسم بالسماء ذات الحبک. أی: إنکم یا أهل مکة لفی قول مختلف متناقض فی محمد صلّی اللّه علیه و سلّم. بعضکم یقول:

إنه شاعر. و بعضکم یقول: إنه ساحر، و بعضکم یقول: إنه مجنون. و وجه تخصیص القسم بالسماء المتّصفة بتلک الصفة تشبیه أقوالهم فی اختلافها باختلاف طرائق السماء، و استعمال الحبک فی الطرائق هو الّذی علیه أهل اللغة، و إن کان الأکثر من المفسرین علی خلافه. علی أنه یمکن أن ترجع تلک الأقوال فی تفسیر الحبک إلی هذا، و ذلک بأن یقال: إن ما فی السماء من الطرائق یصحّ أن یکون سببا لمزید حسنها و استواء خلقها

---

(۱). «الإطل»: الخاصرة.

(۲). هو أبو دؤاد.

(۳). «الکتد»: هو مجتمع الکتفین من الإنسان و الفرس.

فتح القدیر، ج‌۵، ص: ۱۰۰

فتح القدیر ج‌۵ ۱۴۹

و حصول الزینة فیها و مزید القوّة لها. و قیل: إن المراد بکونهم فی قول مختلف أن بعضهم ینفی الحشر و بعضهم یشکّ فیه، و قیل: کونهم یقرّون أن اللّه خالقهم و یعبدون الأصنام یُؤْفَکُ عَنْهُ مَنْ أُفِکَ أی: یصرف عن الإیمان برسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و بما جاء به، أو عن الحقّ، و هو البعث و التوحید من صرف. و قیل: یصرف عن ذلک الاختلاف من صرفه اللّه عنه بالعصمة و التوفیق، یقال: أفکه یأفکه أفکا، أی: قلبه عن الشیء، و صرفه عنه، و منه قوله تعالی: قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِکَنا «۱» و قال مجاهد: یؤفن عنه من أفن، و الأفن: فساد العقل، و قیل: یحرمه من حرم. و قال قطرب: یخدع عنه من خدع. و قال الیزیدی: یدفع عنه من دفع قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ هذا دعاء علیهم. و حکی الواحدی عن المفسرین جمیعا أن المعنی: لعن الکذابون.

قال ابن الأنباری: و القتل إذا أخبر به عن اللّه کان بمعنی اللعن؛ لأن من لعنه اللّه فهو بمنزلة المقتول الهالک.

قال الفرّاء: معنی «قتل»: لعن. و الخرّاصون: الکذابون الذین یتخرّصون فیما لا یعلمون، فیقولون:

إن محمدا مجنون، کذّاب، شاعر، ساحر. قال الزجاج: الخرّاصون: هم الکذابون، و الخرص: حزر ما علی النخل من الرّطب تمرا،

و الخرّاص: الّذى يخرصها، و ليس هو المراد هنا. ثم قال: الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ أى: فى غفلة و عمى و جهالة عن أمور الآخرة. و معنى ساهون: لاهون غافلون، و السهو: الغفلة عن الشىء و ذهابه عن القلب، و أصل الغمرة ما ستر الشىء و غطّاه، و منها غمرات الموت يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ أى: يقولون متى يوم الجزاء تكذيبا منهم و استهزاء. ثم أخبر سبحانه عن ذلك اليوم فقال: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ أى: يحرقون و يعذّبون، يقال: فتنت الذهب؛ إذا أحرقته لتختبره؛ و أصل الفتنة: الاختبار. قال عكرمة: أ لم تر أن الذهب إذا أدخل النار قيل: فتن. و انتصاب يوم بمضمر: أى الجزاء: يوم هم على النار، و يجوز أن يكون بدلا من يوم الدين، و الفتح للبناء لكونه مضافا إلى الجملة، و قيل: هو منصوب بتقدير أعنى. و قرأ ابن أبى عبلة برفع يَوْمَ على البدل من يوم الدين، و جملة: ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هى بتقدير القول، أى: يقال لهم ذوقوا عذابكم، قاله ابن زيد. و قال مجاهد:
حريقكم، و رجح الأوّل الفرّاء، و جملة هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ من جملة ما هو محكيّ بالقول، أى: هذا ما كنتم تطلبون تعجيله استهزاء منكم، و قيل: هى بدل من فتنتكم إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ لما ذكر سبحانه حال أهل النار ذكر حال أهل الجنة، أى: هم فى بساتين فيها عيون جارية لا يبلغ وصفها الواصفون آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ أى: قابلين ما أعطاهم ربّهم من الخير و الكرامة، و جملة إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ تعليل لما قبلها، أى: لأنهم كانوا فى الدنيا محسنين فى أعمالهم الصالحة من فعل ما أمروا به، و ترك ما نهوا عنه. ثم بيّن إحسانهم الّذى وصفهم به فقال: كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ الهجوع: النوم بالليل دون النهار، و المعنى: كانوا قليلا ما ينامون من الليل، و «ما» زائدة، و يجوز أن تكون مصدرية أو موصولة، أى: كانوا قليلا من الليل هجوعهم أو ما يهجعون فيه، و من ذلك قول أبى قيس بن الأسلت:

---

(١). الأحقاف: ٢٢.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٠١ قد حصّت البيضة رأسى فماأطعم نوما غير تهجاع

و التهجاع: القليل من النوم، و فى ذلك قول عمرو بن معدى كرب:

أمن ريحانة الدّاعى السّميع‏يهيّجنى و أصحابى هجوع «١»

و قيل: «ما» نافية، أى: ما كانوا ينامون قليلا من الليل، فكيف بالكثير منه؟! و هذا ضعيف جدّا.

و هذا قول من قال: إن المعنى كان عددهم قليلا. ثم ابتدأ فقال: ما يَهْجَعُونَ و به قال ابن الأنبارى، و هو أضعف ممّا قبله. و قال قتادة فى تفسير هذه الآية: كانوا يصلون بين العشاءين، و به قال أبو العالية و ابن وهب وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ أى: يطلبون فى أوقات السحر من اللّه سبحانه أن يغفر ذنوبهم.

قال الحسن: مدّوا الصلاة إلى الأسحار، ثم أخذوا بالأسحار الاستغفار. و قال الكلبى و مقاتل و مجاهد: هم بالأسحار يصلون، و ذلك أن صلاتهم طلب منهم للمغفرة. و قال الضحاك: هى صلاة الفجر. ثم ذكر سبحانه صدقاتهم فقال: وَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ أى: يجعلون فى أموالهم على أنفسهم حقا للسائل و المحروم تقرّبا إلى اللّه عزّ و جلّ. و قال محمد بن سيرين و قتادة: الحق هنا الزكاة المفروضة، و الأوّل أولى، فيحمل على صدقة النفل وصلة الرحم و قرى الضيف؛ لأن السورة مكية، و الزكاة لم تفرض إلا بالمدينة، و سيأتى فى سورة: سأل سائل وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ- لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ «٢» بزيادة معلوم، و السائل:

هو الّذى يسأل الناس لفاقته.

و اختلف فى تفسير المحروم، فقيل: هو الّذى يتعفّف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنيا فلا يتصدّقون عليه، و به قال قتادة و الزهرى. و قال الحسن و محمد بن الحنفية: هو الّذى لا سهم له فى الغنيمة و لا يجرى عليه من الفىء شىء. و قال زيد بن أسلم:

هو الّذى أصيب ثمره أو زرعه أو ماشيته. قال القرطبى: هو الّذى أصابته الجائحة، و قيل: الّذى لا يكتسب، و قيل: هو الّذى لا يجد غنى يغنيه، و قيل: هو الّذى يطلب الدنيا و تدبر عنه، و قيل: هو الملوك، و قيل: الكلب، و قيل: غير ذلك. قال الشعبى: لى اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم، فما أنا اليوم بأعلم منى فيه يومئذ. و الّذى ينبغى التعويل عليه ما يدلّ عليه المعنى اللغوى، و المحروم فى اللغة: الممنوع، من الحرمان و هو المنع، فيدخل تحته من حرم الرزق من الأصل، و من أصيب ماله بجائحة أذهبته، و من حرم العطاء، و من حرم الصدقة لتعفّفه. ثم ذكر سبحانه ما نصبه من الدلائل على توحيده و صدق وعده و وعيده فقال: وَ فِی الْأَرْضِ آیاتٌ لِلْمُوقِنِینَ أى: دلائل واضحة و علامات ظاهرة من الجبال و البرّ و البحر و الأشجار و الأنهار و الثمار، و فيها آثار الهلاك للأمم الكافرة المكذّبة لما جاءت به رسل اللّه و دعتهم إليه، و خصّ الموقنين باللّه لأنهم الذين يعترفون بذلك و يتدبرون فيه فينتفعون

---

(١). هذا البيت قاله عمرو بن معدى كرب يتشوّق أخته، و كان قد أسرها الصّمّة أبو دريد بن الصّمّة.

(٢). المعارج: ٢٤- ٢٥.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٠٢

به وَ فِی أَنْفُسِکُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ أى: و فى أنفسكم آيات تدلّ على توحيد اللّه و صدق ما جاءت به الرّسل، فإنه خلقهم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما إلى أن ينفخ فيه الروح، ثم تختلف بعد ذلك صورهم و ألوانهم و طبائعهم و ألسنتهم، ثم نقش خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن من لحم و دم و عظم و أعضاء و حواس و مجارى و منافس. و معنى أَ فَلا تُبْصِرُونَ أفلا تنظرون بعين البصيرة، فتستدلون بذلك على الخالق الرزّاق المتفرّد بالألوهية، و أنه لا شريك له و لا ضدّ و لا ندّ، و أن وعده الحقّ، و قوله الحقّ و أن ما جاءت إليكم به رسله هو الحقّ الّذى لا شك فيه و لا شبهة تعتريه، و قيل: المراد بالأنفس الأرواح، أى: و فى نفوسكم التى بها حياتكم آيات وَ فِی السَّماءِ رِزْقُکُمْ أى: سبب رزقكم، و هو المطر فإنه سبب الأرزاق. قال سعيد ابن جبير و الضحاك: الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر و ثلج. و قيل: المراد بالسماء السحاب، أى:

و فى السحاب رزقكم، و قيل: المراد بالسماء المطر، و سمّاه سماء لأنه ينزل من جهتها، و منه قول الشاعر «١»:

إذا نزل السّماء بأرض قومرعيناه و إن كانوا غضابا

و قال ابن كيسان: يعنى و على ربّ السماء رزقكم، قال: و نظيره: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ إِلَّا عَلَی اللَّهِ رِزْقُها «٢» و هو بعيد. و قال سفيان الثورى: أى عند اللّه فى السماء رزقكم. و قيل: المعنى: و فى السماء تقدير رزقكم. قرأ الجمهور رِزْقُکُمْ بالإفراد، و قرأ يعقوب و ابن محيصن و مجاهد «و أرزاقكم» «٣» بالجمع. وَ ما تُوعَدُونَ من الجنة و النار، قاله مجاهد. قال عطاء: من الثواب و العقاب، و قال الكلبى:

من الخير و الشرّ، قال ابن سيرين: ما توعدون من أمر الساعة، و به قال الربيع. و الأولى الحمل على ما هو أعمّ من هذه الأقوال، فإن جزاء الأعمال مكتوب فى السماء، و القضاء و القدر ينزل منها، و الجنة و النار فيها.

ثم أقسم سبحانه بنفسه فقال: فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ أى: ما أخبركم به فى هذه الآيات.

قال الزجاج: هو ما ذكر من أمر الرزق و الآيات. قال الكلبى: يعنى ما قصّ فى الكتاب. و قال مقاتل:

يعنى من أمر الساعة. و قيل: إن ما فى قوله: وَ ما تُوعَدُونَ مبتدأ و خبره «فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ»، فيكون الضمير ل «ما».

ثم قال سبحانه: مِثْلَ ما أَنَّکُمْ تَنْطِقُونَ قرأ الجمهور بنصب مِثْلَ على تقدير: كمثل نطقكم، و «ما» زائدة، كذا قال بعض الكوفيين إنه منصوب بنزع الخافض.

و قال الزجاج و الفراء: يجوز أن ينتصب على التوكيد، أى: لحقّ حقا مثل نطقكم. و قال المازنى: إن مِثْلَ مع ما بمنزلة شيء واحد فبنى على الفتح. و قال سيبويه: هو مبنيّ لإضافته إلى غير متمكّن، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم. و قرأ حمزة و الكسائى و أبو بكر و الأعمش مثل بالرفع على أنه

---

(۱). هو معوّد الحكماء معاوية بن مالك.

(۲). هود: ۶.

(۳). فى تفسير القرطبى (۱۷/ ۴۱): رازقكم.

صفة لحقّ؛ لأن مثل نكرة و إن أضيفت فهى لا تتعرّف بالإضافة كغير. و رجّح قول المازنى أبو علىّ الفارسى، قال: و مثله قول حميد:

....

و ويحا لمن لم يدر ما هنّ ويحما فبنى ويح مع ما و لم يلحقه التنوين، و معنى الآية تشبيه تحقيق ما أخبر اللّه عنه بتحقيق نطق الآدمى و وجوده، و هذا كما تقول: إنه لحق كما أنك ها هنا، و إنه لحق كما أنك تتكلّم، و المعنى: أنه فى صدقه و وجوده كالذى تعرفه ضرورة.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى، و الدار قطنى فى الأفراد، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، من طرق عن على بن أبى طالب فى قوله:

وَ الذَّارِياتِ ذَرْواً قال: الرياح: فَالْحامِلاتِ وِقْراً قال: السحاب: فَالْجارِياتِ يُسْراً قال: السفن فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً قال: الملائكة، و أخرج البزار، و الدار قطنى فى الأفراد، و ابن مردويه و ابن عساكر عن عمر بن الخطاب مثله و رفعه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و فى إسناده أبو بكر بن أبى سبرة و هو ليّن الحديث، و سعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث، كذا قال البزار. قال ابن كثير: فهذا الحديث ضعيف رفعه، و أقرب ما فيه أنه موقوف على عمر. و أخرج الفريابى و ابن مردويه عن ابن عباس مثل قول علىّ. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عباس وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ قال: حسنها و استواؤها. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عنه فى الآية قال: ذات البهاء و الجمال و إن بنيانها كالبرد المسلسل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: ذات الخلق الحسن. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عمر مثله.

و أخرج ابن منيع عن علىّ قال: هى السماء السابعة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ قال: يضلّ عنه من ضلّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ قال: لعن المرتابون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: هم الكهنة الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ قال: فى غفلة لاهون. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الغمرة: الكفر و الشك.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: فى ضلالتهم يتمادون، و فى قوله: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ قال: يعذّبون. و أخرج هؤلاء عنه أيضا فى قوله: آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ قال: الفرائض إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ قال: قبل أن تنزل الفرائض يعملون.

و أخرج هؤلاء أيضا و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عنه أيضا كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما

يَهْجَعُونَ قال: ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلّون فيها. و أخرج ابن نصر و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا فى الآية يقول: قليلا ما كانوا ينامون. و أخرج أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن أنس فى الآية قال:

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۰۴

كانوا يصلّون بين المغرب و العشاء. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عمر وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ قال: يصلّون. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ قال: سوى الزكاة، يصل بها رحما، أو يقرى بها ضيفا، أو يعين بها محروما. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: السائل الّذى يسأل الناس، و المحروم الّذى ليس له سهم فى فىء المسلمين. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: المحروم هو المحارف الّذى يطلب الدنيا و تدبر عنه و لا يسأل الناس، فأمر اللّه المؤمنين برفده. و أخرج ابن أبى حاتم عن عائشة فى الآية: قالت:

هو المحارف الّذى لا يكاد يتيسّر له مكسبه. و أخرج الترمذى، و البيهقى فى سننه، عن فاطمة بنت قيس أنها سألت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن هذه الآية قال: «إن فى المال حقا سوى الزكاة» و تلا هذه الآية لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ إلى قوله: وَ فِي الرِّقابِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عن عبد اللّه بن الزبير فى قوله: وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ قال: سبيل الغائط و البول.

[سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۲۴ الى ۳۷]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (۲۴) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (۲۵) فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (۲۶) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (۲۷) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (۲۸)

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (۲۹) قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (۳۰) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۳۱) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۳۲) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (۳۳)

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (۳۴) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۳۵) فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۳۶) وَ تَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (۳۷)

قوله: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ذكر سبحانه قصة إبراهيم ليبيّن أنه أهلك بسبب التكذيب من أهلك. و فى الاستفهام تنبيه على أن هذا الحديث ليس مما قد علم به رسول اللّه، و أنه إنما علمه بطريق الوحى. و قيل: إن «هل» بمعنى قد، كما فى قوله: هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ «۱» و الضيف مصدر يطلق على الواحد و الاثنين و الجماعة، و قد تقدم الكلام على قصة ضيف إبراهيم فى سورة هود و سورة الحجر، و المراد بكونهم مكرمين: أنهم مكرمون عند اللّه سبحانه لأنهم ملائكة جاءوا إليه فى صورة بنى آدم، كما قال تعالى فى وصفهم فى آية أخرى: بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ «۲» و قيل: هم جبريل و ميكائيل و إسرافيل.

و قال مقاتل و مجاهد: أكرمهم إبراهيم و أحسن إليهم و قام على رؤوسهم، و كان لا يقوم على رؤوس الضيف، و أمر امرأته أن تخدمهم. و قال الكلبى: أكرمهم بالعجل إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ العامل فى الظرف «حديث»، أى: هل أتاك حديثهم الواقع فى وقت دخولهم عليه، أو العامل فيه ضيف لأنه مصدر، أو العامل فيه

(١). الإنسان: ١.

(٢). الأنبياء: ٢۶.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ١٠۵

المكرمين، أو العامل فيه فعل مضمر، أى: اذكر فَقالُوا سَلاماً أى: نسلّم عليك سلاما قالَ سَلامٌ أى: قال إبراهيم سلام. قرأ الجمهور بنصب سَلاماً الأول و رفع الثانى، فنصب الأول على المصدرية بتقدير الفعل كما ذكرنا، و المراد به التحية، و يحتمل أن يكون المعنى: فقالوا كلاما حسنا لأنه كلام سلم به المتكلم من أن يلغو، فيكون على هذا مفعولا به. و أما الثانى فرفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر، أى:

عليكم سلام، و لهذا قال أهل المعانى: إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة. و قرئ بالرفع فى الموضعين، و قرئ بالنصب فيهما. و قرأ أهل الكوفة إلا عاصما بكسر السين، و قرئ «سلم» فيهما. قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ارتفاع قوم على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: أنتم قوم منكرون. قيل: إنه قال هذا فى نفسه و لم يخاطبهم به؛ لأن ذلك يخالف الإكرام. قيل: إنه أنكرهم لكونهم ابتدءوا بالسلام و لم يكن ذلك معهودا عند قومه، و قيل: لأنه رأى فيهم ما يخالف بعض الصور البشرية، و قيل: لأنه رآهم على غير صورة الملائكة الذين يعرفهم، و قيل: غير ذلك فَراغَ إِلى أَهْلِهِ قال الزّجّاج: أى عدل إلى أهله، و قيل: ذهب إليهم فى خفية من ضيوفه، و المعنى متقارب، و قد تقدّم تفسيره فى سورة الصافات. يقال: راغ و ارتاغ بمعنى طلب، و ماذا يريغ: أى يرصد و يطلب، و أراغ إلى كذا: مال إليه سرّا و حاد فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ أى: فجاء ضيفه بعجل قد شواه لهم، كما فى سورة هود بِعِجْلٍ حَنِيذٍ و فى الكلام حذف تدل عليه الفاء الفصيحة، أى: فذبح عجلا فحنذه فجاء به فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ أى: قرّب العجل إليهم و وضعه بين أيديهم ف قالَ أَ لا تَأْكُلُونَ الاستفهام للإنكار، و ذلك أنه لما قربه إليهم لم يأكلوا منه. قال فى الصّحاح: العجل ولد البقر، و العجول مثله، و الجمع العجاجيل و الأنثى عجلة، و قيل: العجل فى بعض اللغات الشاة فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً أى: أحسّ فى نفسه خوفا منهم لما لم يأكلوا ممّا قرّبه إليهم. و قيل: معنى أوجس أضمر، و إنما وقع له ذلك لما لم يتحرموا بطعامه، و من أخلاق الناس أنّ من أكل من طعام إنسان صار آمنا منه، فظن إبراهيم أنهم جاءوا للشرّ و لم يأتوا للخير. و قيل: إنه وقع فى قلبه أنهم ملائكة، فلما رأوا ما ظهر عليه من أمارات الخوف قالُوا لا تَخَفْ و أعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه من جهة اللّه سبحانه وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ أى: بشروه بغلام يولد له كثير العلم عند ما يبلغ مبالغ الرجال، و المبشّر به عند الجمهور هو إسحاق. و قال مجاهد وحده: إنه إسماعيل، و هو مردود بقوله: وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ و قد قدّمنا تحقيق هذا المقام بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ لم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان، و إنما هو كقولك: أقبل يشتمنى، أى: أخذ فى شتمى، كذا قال الفراء و غيره. و الصرة: الصيحة و الضجّة، و قيل:

الجماعة من الناس. قال الجوهرى: الصرّة: الضجّة و الصيحة، و الصرّة: الجماعة، و الصرّة، الشدّة من كرب أو غيره، و المعنى: أنها أقبلت فى صيحة، أو فى ضجّة، أو فى جماعة من الناس يستمعون كلام الملائكة، و من هذا قول امرئ القيس:

فألحقه بالهاديات و دونهجواحرها فى صرّة لم تزيّل «١»

---

(١). «الهاديات»: أوائل بقر الوحش. «جواحرها»: متخلفاتها. «لم تزيل»: لم تتفرق.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ١٠۶

و قوله: فِي صَرَّةٍ فى محل نصب على الحال فَصَكَّتْ وَجْهَها أى: ضربت بيدها على وجهها؛ كما جرت بذلك عادة النساء عند التعجب. قال مقاتل و الكلبى: جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجّبا، و معنى الصكّ: ضرب الشىء بالشىء العريض، يقال صكّه،

أى: ضربه وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ أى: كيف ألد و أنا عجوز عقيم؟ استبعدت ذلك لكبر سنها، و لكونها عقيما لا تلد قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ أى:

كما قلنا لك و أخبرناك قال: ربك فلا تشكّى فى ذلك و لا تعجبى منه، فإن ما أراده اللّه كائن لا محالة و لم نقل ذلك من جهة أنفسنا، و قد كانت إذ ذاك بنت تسع و تسعين سنة، و إبراهيم ابن مائة سنة، و قد سبق بيان هذا مستوفى، و جملة إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ تعليل لما قبلها، أى: حكيم فى أفعاله و أقواله، عليم بكل شىء، و جملة قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ مستأنفة جوابا عن سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال إبراهيم بعد هذا القول من الملائكة، و الخطب: الشأن و القصة، و المعنى: فما شأنكم و ما قصّتكم أيها المرسلون من جهة اللّه، و ما ذاك الأمر الّذى لأجله أرسلكم سوى هذه البشارة قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ يريدون قوم لوط لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ أى: لنرجمهم بحجارة من طين متحجّر، و انتصاب مُسَوَّمَةً على الصفة لحجارة، أو على الحال فى الضمير المستكن فى الجار و المجرور، أو من الحجارة لكونها قد وصفت بالجار و المجرور، و معنى: مُسَوَّمَةً معلّمة بعلامات تعرف بها، و قيل: كانت مخطّطة بسواد و بياض، و قيل: بسواد و حمرة، و قيل: معروفة بأنها حجارة العذاب، و قيل: مكتوب على كل حجر من يهلك بها، و قوله: عِنْدَ رَبِّكَ ظرف لمسومة، أى: معلمة عنده لِلْمُسْرِفِينَ المتمادين فى الضلالة المجاوزين الحدّ فى الفجور. و قال مقاتل: للمشركين، و الشرك أسرف الذنوب و أعظمها فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ هذا كلام من جهة اللّه سبحانه، أى: لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان فى قرى قوم لوط من قومه المؤمنين به فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى:

غير أهل بيت. يقال: بيت شريف و يراد به أهله، و قيل: و هم أهل بيت لوط، و الإسلام: الانقياد و الاستسلام لأمر اللّه سبحانه، فكل مؤمن مسلم، و من ذلك قوله: قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا «١» و قد أوضح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الفرق بين الإسلام و الإيمان فى الحديث فى الصحيحين و غير هما، الثابت من طرق، أنه سئل عن الإسلام فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا اللّه، و تقيم الصلاة.

و تؤتى الزكاة، و تحجّ البيت، و تصوم رمضان»، و سئل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن باللّه و ملائكته و كتبه و رسله، و القدر خيره و شره» «٢» فالمرجع فى الفرق بينهما هو هذا الّذى قاله الصادق المصدوق، و لا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم فى رسم كل واحد منهما برسوم مضطربة مختلفة متناقضة، و أما ما فى الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام و الإيمان فذلك باعتبار المعانى اللغوية و الاستعمالات العربية، و الواجب

---

(١). الحجرات: ١٤.

(٢). سقط من الحديث: و اليوم الآخر.

تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية، و الحقيقة الشرعية هى هذه التى أخبرنا بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و إجابة سؤال السائل له عن ذلك بها وَ تَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ أى: و تركنا فى تلك القرى علامة و دلالة تدلّ على ما أصابهم من العذاب، كلّ من يخاف عذاب اللّه و يخشاه من أهل ذلك الزمان و من بعدهم، و هذه الآية هى آثار العذاب فى تلك القرى، فإنها ظاهرة بيّنة، و قيل: هى الحجارة التى رجموا بها، و إنما خصّ الذين يخافون العذاب الأليم لأنهم الذين يتّعظون بالمواعظ و يتفكّرون فى الآيات دون غيرهم ممّن لا يخاف ذلك، و هم المشركون المكذّبون بالبعث و الوعد و الوعيد.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عباس فى قوله: فِي صَرَّةٍ قال: فى صيحة فَصَكَّتْ وَجْهَها قال: لطمت. و

أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قال: لوط و ابنتيه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: كانوا ثلاثة عشر.

[سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۳۸ الى ۶۰]

وَ فِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۳۸) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۳۹) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ (۴۰) وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (۴۱) ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (۴۲)

وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (۴۳) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (۴۴) فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَ ما كانُوا مُنْتَصِرِينَ (۴۵) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۴۶) وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ (۴۷)

وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ (۴۸) وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۴۹) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۰) وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۱) كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۵۲)

أَ تَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (۵۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ (۵۴) وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (۵۵) وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (۵۶) ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (۵۷)

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (۵۸) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (۵۹) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (۶۰)

قوله: وَ فِي مُوسى معطوف على قوله «فيها» بإعادة الخافض، و التقدير: و تركنا فى قصة موسى آية، أو معطوف على وَ فِي الْأَرْضِ و التقدير: و فى الأرض و فى موسى آيات، قاله الفراء و ابن عطية و الزمخشرى. قال أبو حيان: و هو بعيد جدا ينزّه القرآن عن مثله. و يجوز أن يكون متعلقا بجعلنا مقدّر لدلالة وَ تَرَكْنا عليه قيل: و يجوز أن يعطف على «وَ تَرَكْنا» على طريقة قول القائل: علفتها تبنا و ماء باردا و التقدير: و تركنا فيها آية، و جعلنا فى موسى آية. قال أبو حيان: و لا حاجة إلى إضمار و جعلنا؛ لأنه قد أمكن أن يكون العامل فى المجرور: و تركنا. و الوجه الأوّل هو الأولى، و ما عداه متكلّف متعسّف لم تلجئ

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۰۸

إليه حاجة، و لا دعت إليه ضرورة إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ الظرف متعلق بمحذوف هو نعت لآية، أى: كائنة وقت أرسلناه، أو بآية نفسها، و الأوّل أولى. و السلطان المبين: الحجّة الظاهرة الواضحة، و هى العصى و ما معه من الآيات فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ التولى: الإعراض، و الركن: الجانب.

قاله الأخفش. و المعنى: أعرض بجانبه كما فى قوله: أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ «۱» قال الجوهرى: ركن الشىء جانبه الأقوى، و هو يأوى إلى ركن شديد، أى: عزّ و منعة. و قال ابن زيد و مجاهد و غير هما: الركن جمعه و جنوده الذين كان يتقوّى بهم، و منه قوله تعالى: أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ «۲» أى: عشيرة و منعة، و قيل:

الركن: نفس القوّة، و به قال قتادة و غيره، و منه قول عنترة:

فما أوهى مراس الحرب ركنيو لكن ما تقادم من زمانى

وَ قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أى: قال فرعون فى حقّ موسى: هو ساحر أو مجنون، فردّد فيما رآه من أحوال موسى بين كونه ساحرا أو مجنونا، و هذا من اللعين مغالطة و إيهام لقومه، فإنه يعلم أن ما رآه من الخوارق لا يتيسّر على يد ساحر، و لا يفعله من به جنون. و قيل: إنّ «أو» بمعنى واو، لأنه قد قال ذلك جميعا و لم يتردّد، قاله المؤرّج و الفرّاء، كقوله: وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً «۳»

فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِ أي: طرحناهم في البحر، و جملة وَ هُوَ مُلِيمٌ في محل نصب على الحال، أي: آت بما يلام عليه حين ادّعى الربوبية، و كفر باللّه، و طغى في عصيانه وَ فِي عادٍ أي: و تركنا في قصة عاد آية إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ و هي التي لا خير فيها و لا بركة، لا تلقح شجرا و لا تحمل مطرا، إنما هي ريح الإهلاك و العذاب، ثم وصف سبحانه هذه الريح فقال: ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‌ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ أي: ما تذر من شي‌ء مرّت عليه من أنفسهم و أنعامهم و أموالهم إلا جعلته كالشي‌ء الهالك البالي. قال الشاعر «4»:

تركتني حين كفّ الدهر من بصري و إذ بقيت كعظم الرّمّة البالي

و قال قتادة: إنه الّذي ديس من يابس النبات، و قال السدّي و أبو العالية: إنه التراب المدقوق، و قال قطرب: إنه الرماد، و أصل الكلمة من رمّ العظم: إذا بلي فهو رميم، و الرّمة: العظام البالية وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ أي: و تركنا في قصة ثمود آية وقت قلنا لهم: عيشوا بالدنيا إلى حين وقت الهلاك، و هو ثلاثة أيام، كما في قوله: تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ «5» فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ أي: تكبروا عن امتثال أمر اللّه فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ و هي كل عذاب مهلك. قرأ الجمهور: الصَّاعِقَةُ و قرأ عمر

---

(1). الإسراء: 83.

(2). هود: 80.

(3). هو جرير.

(4). الإنسان: 24.

(5). هود: 65.

ابن الخطاب و حميد و ابن محيصن و مجاهد و الكسائي «الصّعقة». و قد مرّ الكلام على الصاعقة في البقرة، و في مواضع وَ هُمْ يَنْظُرُونَ أي: يرونها عيانا، و الجملة في محل نصب على الحال، و قيل: إن المعنى:

ينتظرون ما وعدوه من العذاب، و الأوّل أولى فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ أي: لم يقدروا على القيام. قال قتادة: من نهوض، يعني لم ينهضوا من تلك الصرعة، و المعنى: أنهم عجزوا عن القيام فضلا عن الهرب، و مثله قوله: فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ* «1». وَ ما كانُوا مُنْتَصِرِينَ أي: ممتنعين من عذاب اللّه بغيرهم وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ أي: من قبل هؤلاء المهلكين، فإن زمانهم متقدّم على زمن فرعون و عاد و ثمود إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ أي: خارجين عن طاعة اللّه. قرأ حمزة و الكسائي و أبو عمرو بخفض قوم أي: و في قوم نوح آية، و قرأ الباقون بالنصب، أي: و أهلكنا قوم نوح، أو هو معطوف على مفعول أخذتهم الصاعقة، أو على مفعول نبذناهم، أي: نبذناهم و نبذنا قوم نوح، أو يكون العامل فيه اذكر وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ أي: بقوّة و قدرة، قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال، و التقدير: و بنينا السماء بنيناها. و قرأ أبو السمال و ابن مقسم برفعها على الابتداء وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ الموسع: ذو الوسع و السعة، و المعنى: إنا لذو سعة بخلقها و خلق غيرها لا نعجز عن ذلك، و قيل: لقادرون، من الوسع بمعنى الطاقة و القدرة، و قيل: إنا لموسعون الرزق بالمطر. قال الجوهري: و أوسع الرجل: صار ذا سعة و غنى وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها قرأ الجمهور بنصب الْأَرْضَ على الاشتغال. و قرأ أبو السمال و ابن مقسم برفعها، كما تقدّم في قوله: وَ السَّماءَ بَنَيْناها و معنى فرشناها: بسطناها كالفراش فَنِعْمَ الْماهِدُونَ أي: نحن، يقال: مهدت الفراش: بسطته و وطّأته، و تمهيد الأمور: تسويتها و إصلاحها وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‌ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ أي: صنفين و نوعين من ذكر و أنثى، و برّ و بحر، و شمس و قمر، و حلو و مرّ، و سماء و أرض، و ليل و نهار، و نور و ظلمة، و جنّ و إنس، و خير و شر لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أي: خلقنا ذلك هكذا لتتذكروا فتعرفوا أنه خالق كل شي‌ء، و تستدلوا

بذلك على توحيده و صدق وعده و وعيده فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّی لَكَمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ أی: قل لهم يا محمد: ففرّوا إلى اللّه بالتوبة من ذنوبكم عن الكفر و المعاصی، و جملة إِنِّی لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ تعليل للأمر بالفرار، و قيل: معنى: فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ اخرجوا من مكة. و قال الحسين بن الفضل: احترزوا من كل شیء غير اللّه، فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه. و قيل: فرّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرّحمن، و قيل: فرّوا من الجهل إلى العلم، و معنى إِنِّی لَكُمْ مِنْهُ أی: من جهته منذر بيّن الإنذار وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ نهاهم عن الشرک باللّه بعد أمرهم بالفرار إلى اللّه، و جملة:

إِنِّی لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ تعليل للنهی كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ فی هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ببيان أن هذا شأن الأمم المتقدمة، و أن ما وقع من العرب من التكذيب لرسول اللّه، و وصفه بالسحر و الجنون، قد كان ممّن قبلهم لرسلهم، و كَذلِكَ فی محل رفع على أنه

---

(١). الأعراف: ٧٨.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١١٠

خبر محذوف، أی: الأمر كذلک. ثم فسّر ما أجمله بقوله: ما أَتَى إلخ، أو فی محل نصب نعتا لمصدر محذوف، أی: أنذركم إنذارا كإنذار من تقدّمنی من الرسل الذين أنذروا قومهم، و الأوّل أولى أَ تَواصَوْا بِهِ الاستفهام للتقريع و التوبيخ و التعجيب من حالهم، أی: هل أوصى أوّلهم آخرهم بالتكذيب و تواطؤوا عليه بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ إضراب على التّواصی إلى ما جمعهم من الطغيان، أی: لم يتواصوا بذلک، بل جمعهم الطغيان و هو مجاوزة الحدّ فی الكفر. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بالإعراض عنهم فقال: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ أی: أعرض عنهم، و كفّ عن جدالهم و دعائهم إلى الحق، فقد فعلت ما أمرک اللّه به و بلّغت رسالته فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ عند اللّه بعد هذا لأنک قد أدّيت ما عليک، و هذا منسوخ بآية السيف. ثم لما أمره بالإعراض عنهم أمره بأن لا يترک التذكير و الموعظة بالتی هی أحسن، فقال: وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ قال الكلبی: المعنى عظ بالقرآن من آمن من قومک فإن الذكرى تنفعهم. و قال مقاتل: عظ كفار مكة فإن الذكرى تنفع من كان فی علم اللّه أنه يؤمن. و قيل: ذكّرهم بالعقوبة و أيام اللّه، و خصّ المؤمنين بالتذكير لأنهم المنتفعون به، و جملة وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مستأنفة مقرّرة لما قبلها؛ لأن كون خلقهم لمجرّد العبادة مما ينشط رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للتذكير، و ينشطهم للإجابة. قيل: هذا خاصّ فی من سبق فی علم اللّه سبحانه أنه يعبده، فهو عموم مراد به الخصوص. قال الواحدی: قال المفسرون: هذا خاصّ لأهل طاعته، يعنی من أهّل من الفريقين. قال: و هذا قول الكلبی و الضحاک و اختيار الفرّاء و ابن قتيبة.

قال القشيری: و الآية دخلها التخصيص بالقطع، لأن المجانين لم يؤمروا بالعبادة و لا أرادها منهم، و قد قال:

وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ «١» و من خلق لجهنم لا يكون ممّن خلق للعبادة. فالآية محمولة على المؤمنين منهم، و يدل عليه قراءة ابن مسعود و أبیّ بن كعب: «و ما خلقت الجنّ و الإنس من المؤمنين إلا ليعبدون. و قال مجاهد: إن المعنى: إلا ليعرفونی. قال الثعلبی: و هذا قول حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده و توحيده. و روى عن مجاهد أنه قال: المعنى إلا لآمرهم و أنهاهم، و يدلّ عليه قوله: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ «٢» و اختار هذا الزجاج. و قال زيد بن أسلم:

هو ما جبلوا عليه من السعادة و الشقاوة، فخلق السعداء من الجن و الإنس للعبادة، و خلق الأشقياء للمعصية.

و قال الكلبی: المعنى إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحّده فی الشدّة و الرخاء، و أما الكافر فيوحّده فی الشدّة دون النعمة، كما فی قوله: وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ «٣» و قال جماعة: إلا ليخضعوا لی و يتذلّلوا، و معنى العبادة فی اللغة:

الذل و الخضوع و الانقياد، و كل مخلوق من الإنس و الجنّ خاضع لقضاء اللّه، متذلل لمشيئته، منقاد لما قدّره عليه. خلقهم على ما أراد، و رزقهم كما قضى، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعا و لا ضرا. و وجه تقديم الجن على الإنس ها هنا تقدم وجودهم ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ هذه الجملة فيها بيان استغنائه سبحانه عن عباده، و أنه لا يريد منهم منفعة كما تريده السادة

---

(١). الأعراف: ١٧٩.

(٢). التوبة: ٣١.

(٣). لقمان: ٣٢.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١١١

من عبيدهم، بل هو الغنيّ المطلق الرازق المعطى. و قيل: المعنى: ما أريد منهم أن يرزقوا أحدا من خلقى و لا أن يرزقوا أنفسهم، و لا يطعموا أحدا من خلقى و لا يطعموا أنفسهم، و إنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عيال اللّه، فمن أطعم عيال اللّه فهو كمن أطعمه. و هذا كما ورد فى قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «يقول اللّه عبدى استطعمتك فلم تطعمنى» أى: لم تطعم عبادى، و «من» فى قوله: مِنْ رِزْقٍ زائدة لتأكيد العموم.

ثم بيّن سبحانه أنه هو الرزاق لا غيره، فقال: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ لا رزّاق سواه و لا معطى غيره، فهو الّذى يرزق مخلوقاته، و يقوم بما يصلحهم، فلا يشتغلوا بغير ما خلقوا له من العبادة ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ارتفاع المتين على أنه وصف للرزاق، أو لذو، أو خبر مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر. قرأ الجمهور:

الرَّزَّاقُ و قرأ ابن محيصن: «الرزاق» و قرأ الجمهور: الْمَتِينُ بالرفع، و قرأ يحيى بن وثّاب و الأعمش بالجرّ صفة للقوة، و التذكير لكون تأنيثها غير حقيقى. قال الفراء: كان حقه المتينة، فذكّرها لأنه ذهب بها إلى الشي‌ء المبرم المحكم الفتل، يقال: حبل متين، أى: محكم الفتل، و معنى المتين: الشديد القوة هنا فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ أى: ظلموا أنفسهم بالكفر و المعاصى، فإن لهم ذنوبا، أى: نصيبا من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السابقة. قال ابن الأعرابى: يقال يوم ذنوب، أى: طويل الشرّ لا ينقضى، و أصل الذّنوب فى اللغة الدلو العظيمة، و من استعمال الذنوب فى النصب من الشي‌ء قول الشاعر «١»:

لعمرك و المنايا طارقاتلكلّ بنى أب منها ذنوب

و ما فى الآية مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالدلو الكبير، فهو تمثيل، جعل الذنوب مكان الحظ و النصيب، قاله ابن قتيبة فَلا يَسْتَعْجِلُونِ أى: لا يطلبوا منى أن أعجل لهم العذاب، كما فى قولهم: فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* «٢». فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ قيل: هو يوم القيامة، و قيل: يوم بدر، و الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر فى قوله: فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ عن ابن عباس قال: بقومه. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عنه فى قوله: الرِّيحَ الْعَقِيمَ قال: الشديدة التى لا تلقح شيئا. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: لا تلقح الشجر و لا تثير السحاب، و فى قوله: إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ قال: كالشي‌ء الهالك. و أخرج الفريابى و ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال: الريح:

العقيم النكباء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ قال: بقوة. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن المنذر فى قوله: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ قال: أمره اللّه أن يتولّى عنهم ليعذبهم، و عذر محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم قال: وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ فنسختها. و أخرج ابن جرير

و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

---

(١). هو أبو ذؤيب.

(٢). الأعراف: ٧٠.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١١٢

قال: ليقرّوا بالعبودية طوعا أو كرها. و أخرج ابن المنذر عنه فى الآية قال: على ما خلقتهم عليه من طاعتى و معصيتى و شقوتى و سعادتى. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عنه أيضا فى قوله: الْمَتِينُ يقول: الشديد. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله:

ذَنُوباً قال: دلوا.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١١٣

سورة الطّور

اشارة

و هى مكية، قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت الطور بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى المغرب بالطور. و أخرج البخارى و غيره عن أمّ سلمة:

«أنها سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى إلى جنب البيت بالطور و كتاب مسطور».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الطور (٥٢): الآيات ١ الى ٢٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الطُّورِ (١) وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤)

وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (٧) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (٩)

وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (١٤)

أَ فَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ (١٧) فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩)

مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)

قوله: وَ الطُّورِ قال الجوهرى: هو الجبل الّذى كلّم اللّه عليه موسى. قال مجاهد: الطور بالسريانية الجبل، و المراد به طور سيناء. قال مقاتل بن حيان: هما طوران: يقال لأحد هما طور سينا، و للآخر طور زيتا، لأنهما ينبتان التين و الزيتون. و قيل: هو جبل مدين، و قيل: إن الطور كل جبل ينبت، و ما لا ينبت فليس بطور، أقسم اللّه سبحانه بهذا الجبل تشريفا له و تكريما. وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ

المسطور: المكتوب، و المراد بالكتاب: القرآن، و قيل: هو اللوح المحفوظ، و قيل: جميع الكتب المنزلة، و قيل: ألواح موسى، و قيل: ما تكتبه الحفظة، قاله الفراء و غيره، و مثله: وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً «١» و قوله:
وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ «٢» فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ متعلّق بمسطور، أى: مكتوب فى رقّ. قرأ الجمهور:
فِي رَقٍ بفتح الراء، و قرأ أبو السمال بكسرها. قال الجوهرى: الرّقّ بالفتح ما يكتب فيه، و هو جلد رقيق، و منه قوله تعالى: فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ قال المبرد: الرقّ: ما رقّ من الجلد ليكتب فيه، و المنشور:
المبسوط. قال أبو عبيدة: و جمعه رقوق، و من هذا قول المتلمّس:

(١). الإسراء: ١٣.
(٢). التكوير: ١٠.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١١٤ فكأنّما هى من تقادم عهدهارقّ أتيح كتابها مسطور
و أما الرّقّ بالكسر فهو المملوك، يقال عبد رقّ و عبد مرقوق وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ فى السماء السابعة.
و قيل: فى سماء الدنيا، و قيل: هو الكعبة، فعلى القولين الأوّلين كون وصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة و يعبد اللّه فيه. و على القول الثالث يكون وصفه بالعمارة حقيقة أو مجازا؛ باعتبار كثرة من يتعبّد فيه من بنى آدم وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ يعنى السماء، سمّاها سقفا لكونها كالسقف للأرض، و منه قوله:
وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً «١» و قيل: هو العرش وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ أى: الموقد، من السجر:
و هو إيقاد النار فى التنور، و منه قوله: وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ «٢» و قد روى أن البحار تسجر يوم القيامة فتكون نارا، و قيل: المسجور: المملوء، و قيل: إنه من أسماء الأضداد، يقال: بحر مسجور، أى: مملوء، و بحر مسجور، أى: فارغ، و قيل: المسجور: الممسوك، و منه ساجور الكلب، لأنه يمسكه. و قال أبو العالية: المسجور الّذى ذهب ماؤه، و قيل: المسجور المفجور، و منه: وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ «٣» و قال الربيع ابن أنس: هو الّذى يختلط فيه العذب بالمالح. و الأوّل أولى، و به قال مجاهد و الضحاك و محمد بن كعب و الأخفش و غيرهم إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ هذا جواب القسم، أى: كائن لا محالة لمن يستحقه ما لَهُ مِنْ دافِعٍ يدفعه و يردّه عن أهل النار، و هذه الجملة خبر ثان لأن، أو صفة لواقع، و «من» مزيدة للتأكيد. و وجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها أنها عظيمة دالّة على كمال القدرة الربانية يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً العامل فى الظرف «لواقع» أى: إنه لواقع فى هذا اليوم، و يجوز أن يكون العامل فيه دافع. و المور:
الاضطراب و الحركة. قال أهل اللغة: مار الشي‏ء يمور مورا؛ إذا تحرك و جاء و ذهب، قاله الأخفش و أبو عبيدة، و أنشد بيت الأعشى:
كأنّ مشيتها من بيت جارتهامشى «٤» السّحابة لا ريث و لا عجل
و ليس فى البيت ما يدلّ على ما قالاه إلا إذا كانت هذه المشية المذكورة فى البيت يطلق المور عليها لغة.
و قال الضحاك: يموج بعضها فى بعض، و قال مجاهد: تدور دورا، و قيل: تجرى جريا، و منه قول الشاعر «٥»:
و ما زالت القتلى تمور دماؤهابدجلة حتّى ماء دجلة أشكل «٦»
و يطلق المور على الموج، و منه ناقة موّارة اليد، أى: سريعة تموج فى مشيها موجا، و معنى الآية أن العذاب

(١). الأنبياء: ٣٢.

(۲). التكوير: ۶.

(۳). الانفطار: ۳.

(۴). فى تفسير القرطبى: مور.

(۵). هو جرير.

(۶). «الأشكل»: ما فيه بياض و حمرة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۱۵

يقع بالعصاة و لا يدفعه عنهم دافع فى هذا اليوم الّذى تكون فيه السماء هكذا، و هو يوم القيامة. و قيل: إن السماء ها هنا الفلك، و موره: اضطراب نظمه و اختلاف سيره وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً أى: تزول عن أماكنها، و تسير عن مواضعها كسير السحاب، و تكون هباء منبثّا، و قيل: و وجه تأكيد الفعلين بالمصدر الدالة على غرابتهما و خروجهما عن المعهود، و قد تقدّم تفسير مثل هذا فى سورة الكهف فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ويل: كلمة تقال للهالك، و اسم واد فى جهنم، و إنما دخلت الفاء لأن فى الكلام معنى المجازاة، أى: إذا وقع ما ذكر من مور السماء و سير الجبال فويل لهم. ثم وصف المكذّبين بقوله: الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ أى: فى تردّد فى الباطل و اندفاع فيه يلهون لا يذكرون حسابا و لا يخافون عقابا. و المعنى:

أنهم يخوضون فى أمر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بالتكذيب و الاستهزاء، و قيل: يخوضون فى أسباب الدنيا و يعرضون عن الآخرة يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا الدعّ: الدفع بعنف و جفوة، يقال: دعّته أدعّه دعّا، أى: دفعته، و المعنى: أنهم يدفعون إلى النار دفعا عنيفا شديدا. قال مقاتل: تغلّ أيديهم إلى أعناقهم، و تجمع نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعون إلى جهنم دفعا على وجوههم. قرأ الجمهور: بفتح الدال و تشديد العين. و قرأ علىّ و السلمى و أبو رجاء و زيد بن علىّ و ابن السّميقع بسكون الدال و تخفيف العين مفتوحة، أى: يدعون إلى النار من الدعاء. و «يوم» إما بدل من يوم تمور، أو متعلق بالقول المقدر فى الجملة التى بعد هذه، و هى هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ أى: يقال لهم ذلك يوم يدعون إلى نار جهنم دعا، أى: هذه النار التى تشاهدونها هى النار التى كنتم تكذّبون بها فى الدنيا، و القائل لهم بهذه المقالة هم خزنة النار، ثم وبّخهم سبحانه أو أمر ملائكته بتوبيخهم، فقال: أَ فَسِحْرٌ هذا الّذى ترون و تشاهدون كما كنتم تقولون لرسل اللّه المرسلة و لكتبه المنزلة، و قدّم الخبر هنا على المبتدأ لأنه الّذى وقع الاستفهام عنه و توجه التوبيخ إليه أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ أى: أم أنتم عمى عن هذا كما كنتم عميا عن الحقّ فى الدنيا اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا أى: إذا لم يمكنكم إنكارها، و تحققتم أن ذلك ليس بسحر، و لم يكن فى أبصاركم خلل، فالآن ادخلوها و قاسوا شدّتها، فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا، و افعلوا ما شئتم، فالأمران سَواءٌ عَلَيْكُمْ فى عدم النفع، و قيل: أيضا تقول لهم الملائكة هذا القول، و سواء خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمران سواء، و يجوز أن يكون مبتدأ و الخبر محذوف، أى: سواء عليكم الصبر و عدمه، و جملة: إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ تعليل للاستواء، فإن الجزاء بالعمل إذا كان واقعا حتما كان الصبر و عدمه سواء إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ لما فرغ سبحانه من ذكر حال المجرمين ذكر حال المتقين، و هذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة، و يجوز أن تكون من جملة ما يقال للكفار زيادة فى غمّهم و حسرتهم، و التنوين فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ للتفخيم فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ يقال رجل فاكه، أى: ذو فاكهة، كما قيل: لابن، و تامر. و المعنى: أنهم ذوو فاكهة من فواكه الجنة، و قيل: ذوو نعمة و تلذّذ بما صاروا فيه ممّا أعطاهم اللّه عزّ و جلّ مما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، و قد تقدّم بيان معنى هذا. قرأ الجمهور: فاكِهِينَ بالألف و النصب على الحال. و قرأ خالد: «فاكهون» بالرفع على أنه خبر بعد خبر. و قرأ ابن عباس: «فكهين»

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۱۶

بغير ألف، و الفكه: طيب النفس، كما تقدم فى الدخان، و يقال للأشر و البطر، و لا يناسب التفسير به هنا وَ وَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ معطوف على آتاهم، أو على خبر إنّ، أو الجملة فى محل نصب على الحال بإضمار قد كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً أى: يقال لهم ذلك، و الهنىء: ما لا تنغيص فيه و لا نكد و لا كدر.

قال الزجاج: أى ليهنئكم ما صرتم إليه هنيئا و المعنى: كلوا طعاما هنيئا، و اشربوا شرابا هنيئا، و قد تقدم تفسير هنيئا فى سورة النساء، و قيل: معنى هنيئا: أنكم لا تموتون مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ انتصابه على الحال من فاعل كلوا، أو من مفعول آتاهم، أو من مفعول وقاهم، أو من الضمير المستكنّ فى الظرف، أو من الضمير فى فاكهين. قرأ الجمهور: عَلى سُرُرٍ بضم الراء الأولى. و قرأ أبو السمال: بفتحها، و السّرر: جمع سرير. و المصفوفة: المتصل بعضها ببعض حتى تصير صفا وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ أى: قرنّاهم بها. قال يونس بن حبيب: تقول العرب زوّجته امرأة و تزوّجت بامرأة، و ليس من كلام العرب زوّجته بامرأة. قال: و قول اللّه تعالى: وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ أى: قرناهم بهنّ. و قال الفرّاء: زوّجته بامرأة لغة أزد شنوءة، و قد تقدم تفسير الحور العين فى سورة الدخان. قرأ الجمهور: بِحُورٍ عِينٍ من غير إضافة. و قرأ عكرمة بإضافة الحور إلى العين.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن ابن عباس وَ الطُّورِ قال: جبل. و أخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد اللّه بن عوف عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الطور: جبل من جبال الجنة» و كثير: ضعيف جدا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ قال: فى الكتاب. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «البيت المعمور فى السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة»، و فى الصحيحين و غير هما: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال فى حديث الإسراء بعد مجاوزه إلى السماء السابعة: «ثم رفع إلىّ البيت المعمور، و إذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه». و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن أبى الطفيل أن ابن الكوّاء سأل عليا عن البيت المعمور فقال: ذلك الضراح بيت فوق سبع سماوات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه أبدا إلى يوم القيامة. و أخرج ابن جرير نحوه عن ابن عباس. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن عمر و رفعه. قال: إن البيت المعمور لبحيال الكعبة، لو سقط منه شىء لسقط عليها، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا، ثم لا يعودون إليه. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه، و ضعّف إسناده السيوطى. و أخرج ابن راهويه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ قال:

السماء. و أخرج عبد الرّزّاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله:

وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ قال: بحر فى السماء تحت العرش. و أخرج ابن جرير عن ابن عمر مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: المسجور: المحبوس. و أخرج ابن المنذر عنه قال: المسجور:

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۱۷

المرسل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً قال: تحرك، و فى قوله: يَوْمَ يُدَعُّونَ قال: يدفعون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا: يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا قال: يدفع فى أعناقهم حتى يردوا النار. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً أى: لا تموتون فيها، فعندها قالوا: أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ- إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ «۱».

[سورة الطور (٥٢): الآيات ٢١ الى ٣٤]

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَ أَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٢٥)

قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَ وَقانا عَذابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَ لا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (٣٤)

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة على العموم ذكر حال طائفة منهم على الخصوص، فقال: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ و الموصول مبتدأ، و خبره أَلْحَقْنا بِهِمْ و يجوز أن يكون منصوبا بفعل مقدّر، أي: و أكرمنا الذين آمنوا، و يكون «ألحقنا» مفسرا لهذا الفعل المقدّر. قرأ الجمهور:

وَ اتَّبَعَتْهُمْ بإسناد الفعل إلى الذرّية. و قرأ أبو عمرو: «أتبعناهم» بإسناد الفعل إلى المتكلم، كقوله:

ألحقنا. و قرأ الجمهور: ذُرِّيَّتُهُمْ بالإفراد. و قرأ نافع و ابن عامر و أبو عمرو و يعقوب على الجمع، و جملة:

وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ معطوف على آمنوا، أو معترضة، و «بِإِيمانٍ» متعلّق بالاتباع، و معنى هذه الآية:

أن اللّه سبحانه يرفع ذرّية المؤمن إليه و إن كانوا دونه في العمل؛ لتقر عينه، و تطيب نفسه، بشرط أن يكونوا مؤمنين، فيختصّ ذلك بمن يتّصف بالإيمان من الذرية و هم البالغون دون الصغار، فإنهم و إن كانوا لاحقين بآبائهم فبدليل آخر غير هذه الآية. و قيل: إن الذرّية تطلق على الكبار و الصغار كما هو المعنى اللغوى، فيلحق بالآباء المؤمنين صغار ذرّيتهم و كبارهم، و يكون قوله: بِإِيمانٍ في محل نصب على الحال، أي: بإيمان من الآباء. و قيل: إن الضمير في «بهم» راجع إلى الذرّية المذكورة أوّلا، أي: ألحقنا بالذرّية المتبعة لآبائهم بإيمان ذرّيتهم. و قيل: المراد بالذين آمنوا المهاجرون و الأنصار فقط، و ظاهر الآية العموم، و لا يوجب تخصيصها بالمهاجرين و الأنصار كونهم السبب في نزولها إن صحّ ذلك، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ قرأ الجمهور بفتح اللام من أَلَتْناهُمْ و قرأ ابن كثير بكسرها،

---

(١). الصافات: ٥٨- ٥٩.

أي: و ما نقصنا الآباء بإلحاق ذرّيتهم بهم من ثواب أعمالهم شيئا، فضمير المفعول عائد إلى الذين آمنوا. و قيل:

المعنى: و ما نقصنا الذرية من أعمالهم لقصر أعمارهم، و الأول أولى، و قد قدّمنا تحقيق معنى لاته و ألاته في سورة الحجرات. و قرأ ابن هرمز «١» آلتناهم بالمدّ، و هو لغة. قال في الصحاح: يقال: ما ألته من عمله شيئا، أي: ما نقصه كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ رهين بمعنى مرهون، و الظاهر أنه عامّ، و أن كل إنسان مرتهن بعمله، فإن قام به على الوجه الّذى أمره اللّه به فكّه و إلا أهلكه. و قيل: هو بمعنى راهن، كلّ امرئ بما كسب دائم ثابت. و قيل: هذا خاصّ بالكفار لقوله:؛ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ- إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ «٢» ثم ذكر سبحانه ما أمدّهم به من الخير فقال: وَ أَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ أي: زدناهم على ما كان لهم من النعيم بفاكهة متنوّعة، و لحم من أنواع اللحمان مما تشتهيه أنفسهم و يستطيبونه يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً أي: يتعاطون و

يتناولون كأسا، و الكأس: إناء الخمر، و يطلق على كل إناء مملوء من خمر أو غيره، فإذا فرغ لم يسمّ كأسا لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ قال الزجاج: لا يجرى بينهم ما يلغى و لا ما فيه إثم يجرى بين من يشرب الخمر فى الدنيا، و التأثيم: تفعيل من الإثم، و الضمير فى فِيها راجع إلى الكأس، و قيل: «لا لَغْوٌ فِيها» أى: فى الجنة و لا يجرى فيها ما فيها إثم، و الأوّل أولى. قال ابن قتيبة:
لا تذهب بعقولهم فيلغوا كما يكون من خمر الدنيا، و لا يكون منهم ما يؤثمهم. و قال الضحاك: «لا تَأْثِيمٌ» أى: لا كذب. قرأ الجمهور: لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ بالرفع و التنوين فيهما. و قرأ ابن كثير و ابن محيصن بفتحهما من غير تنوين. قال قتادة: اللغو: الباطل. و قال مقاتل بن حيان: لا فضول فيها. و قال سعيد ابن المسيب: لا رفث فيها. و قال ابن زيد: لا سباب و لا تخاصم فيها. و الجملة فى محل نصب على الحال صفة لكأسا وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ أى: يطوف عليهم بالكأس و الفواكه و الطعام و غير ذلك مماليك لهم، و قيل: أولادهم كَأَنَّهُمْ فى الحسن و البهاء لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ أى: مستور مصون فى الصّدف لم تمسّه الأيدى. قال الكسائى: كننت الشيء: سترته و صنته من الشمس، و أكننته: جعلته فى الكنّ، و منه: كننت الجارية، و أكننتها، فهى مكنونة وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ أى: يسأل بعضهم بعضا فى الجنة عن حاله، و ما كان فيه من تعب الدنيا و خوف العاقبة، فيحمدون اللّه الّذى أذهب عنهم الحزن و الخوف و الهمّ، و ما كانوا فيه من الكدّ و النكد بطلب المعاش و تحصيل ما لا بدّ منه من الرزق. و قيل: يقول بعضهم لبعض:
بم صرتم فى هذه المنزلة الرفيعة؟ و قيل: إن التساؤل بينهم عند البعث من القبور. و الأوّل أولى لدلالة السياق على أنهم قد صاروا فى الجنة، و جملة قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ماذا قال بعضهم لبعض عند التساؤل؟ فقيل: قالوا إنّا كنّا قبل، أى: قبل الآخرة، و ذلك فى الدنيا فى أهلنا خائفين وجلين من عذاب اللّه، أو كنا خائفين من عصيان اللّه فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا بالمغفرة و الرحمة أو بالتوفيق لطاعته وَ وَقانا عَذابَ السَّمُومِ يعنى عذاب جهنم، و السّموم من أسماء جهنم، كذا قال

---

(١). فى تفسير القرطبى (١٧/ ٦٧): أبو هريرة.

(٢). المدثر: ٣٨- ٣٩.

الحسن و مقاتل. و قال الكلبى و أبو عبيدة: هو عذاب النار. و قال الزّجّاج: سموم جهنم ما يوجد من حرّها.
قال أبو عبيدة: السّموم بالنهار، و قد يكون بالليل، و الحرور بالليل، و قد يكون بالنهار، و قد يستعمل السموم فى لفح البرد، و فى لفح الشمس و الحرّ أكثر، و منه قول الشاعر:
اليوم يوم بارد سمومهمن جزع اليوم فلا ألومه
و قيل: سميت الريح سموما لأنها تدخل المسامّ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ أى: نوحّد اللّه و نعبده، أو نسأله أن يمنّ علينا بالمغفرة و الرّحمة إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ قرأ الجمهور بكسر الهمزة على الاستئناف، و قرأ نافع و الكسائى بفتحها، أى لأنه، و البرّ: كثير الإحسان، و قيل، اللطيف، و الرّحيم: كثير الرحمة لعباده فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَ لا مَجْنُونٍ أى: اثبت على ما أنت عليه من الوعظ و التذكير، و الباء متعلّقة بمحذوف هو حال، أى: ما أنت متلبسا بنعمة ربك التى أنعم بها عليك من رجاحة العقل و النبوّة بكاهن و لا مجنون، و قيل: بمحذوف يدل عليه الكلام، أى: ما أنت فى حال إذكارك بنعمة ربّك بكاهن و لا مجنون، و قيل: الباء سببية متعلّقة بمضمون الجملة المنفية، و المعنى: انتفى عنك الكهانة و الجنون بسبب نعمة اللّه عليك، كما تقول: ما أنا بمعسر بحمد اللّه. و قيل: الباء للقسم متوسطة بين اسم ما و خبرها، و التقدير:
ما أنت و نعمة اللّه بكاهن و لا مجنون، و الكاهن: هو الّذى يوهم أنه يعلم الغيب من دون وحى، أى: ليس ما تقوله كهانة، فإنك

إنما تنطق بالوحى الّذى أمرك اللّه بإبلاغه. و المقصود من الآية ردّ ما كان يقوله المشركون: إنه كاهن أو مجنون أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ «أم» هى المنقطعة، و قد تقدّم الخلاف هل هى مقدّرة ببل و الهمزة، أو ببل وحدها. قال الخليل: هى هنا للاستفهام. قال سيبويه:

خوطب العباد بما جرى فى كلامهم. قال النحاس: يريد سيبويه أنّ «أم» فى كلام العرب للخروج من حديث إلى حديث، و «نتربص» فى محل رفع صفة لشاعر، و «ريب المنون»: صروف الدهر، و المعنى: ننتظر به حوادث الأيام فيموت كما مات غيره، أو يهلك كما هلك من قبله، و المنون يكون بمعنى الدهر، و يكون بمعنى المنية. قال الأخفش: المعنى نتربّص إلى ريب المنون، فحذف حرف الجرّ، كما تقول: قصدت زيدا، و قصدت إلى زيد، و من هذا قول الشاعر:

تربّص بها ريب المنون لعلّهاتطلّق يوما أو يموت حليلها

و قول أبى ذؤيب الهذلى:

أمن المنون و ريبه تتوجعو الدّهر ليس بمعتب من يجزع

قال الأصمعى: المنون واحد لا جمع له. قال الفرّاء: يكون واحدا و جمعا. و قال الأخفش: هو جمع لا واحد له. ثم أمره سبحانه أن يجيب عنهم، فقال: قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أى:

انتظروا موتى أو هلاكى، فإنى معكم من المتربّصين لموتكم أو هلاككم. قرأ الجمهور «نتربص» بإسناد الفعل إلى جماعة المتكلمين. و قرأ زيد بن علىّ على البناء للمفعول. أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أى: بل

فتح القدير، ج‏5، ص: 120

أ تأمرهم عقولهم بهذا الكلام المتناقض، فإن الكاهن هو المفرط فى الفطنة و الذكاء، و المجنون: هو ذاهب العقل فضلا عن أن يكون له فطنة و ذكاء. قال الواحدى: قال المفسرون: كانت عظماء قريش توصف بالأحلام، و جاوزوا الحدّ فى العناد، فقالوا ما قالوا، و هذه الاضطرابات من شى‏ء إلى شى‏ء مع الاستفهام كما هو مدلول «أم» المنقطعة تدل على أن ما تعقبها أشنع ممّا تقدّمها، و أكثر جرأة و عنادا أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ أى: اختلق القرآن من جهة نفسه و افتعله، و التقوّل لا يستعمل إلا فى الكذب فى الغالب، و إن كان أصله تكلّف القول، و منه اقتال عليه، و يقال اقتال عليه: بمعنى تحكّم، و منه قول الشاعر «1»:

و منزلة فى دار صدق و غبطةو ما اقتال فى حكم علىّ طبيب

ثم أضرب سبحانه عن قولهم: تَقَوَّلَهُ و انتقل إلى ما هو أشدّ شناعة عليهم فقال: بَلْ لا يُؤْمِنُونَ أى: سبب صدور هذه الأقوال. المتناقضة عنهم كونهم كفارا لا يؤمنون باللّه، و لا يصدقون ما جاء به رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم. ثم تحدّاهم سبحانه و ألزمهم الحجّة فقال: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ أى: مثل القرآن فى نظمه، و حسن بيانه، و بديع أسلوبه إِنْ كانُوا صادِقِينَ فيما زعموا من قولهم: إن محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم تقوّله و جاء به من جهة نفسه مع أنه كلام عربىّ، و هم رؤوس العرب و فصحاؤهم و الممارسون لجميع الأوضاع العربية من نظم و نثر.

و قد أخرج سعيد بن منصور و هناد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و البيهقى عن ابن عباس قال: «إن اللّه ليرفع ذرّية المؤمن معه فى درجته فى الجنة و إن كانوا دونه فى العمل لتقرّ بهم عينه. ثم قرأ:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ الآية. و أخرجه البزار و ابن مردويه عنه مرفوعا. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه أيضا أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه و زوجته و ولده، فيقال:

إنهم لم يبلغوا درجتك و عملك، فيقول: يا ربّ قد عملت لى و لهم، فيؤمر بإلحاقهم به» و قرأ ابن عباس وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ الآية. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند عن على بن أبى طالب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و

سلّم: «إن المؤمنين و أولادهم فى الجنة، و إن المشركين و أولادهم فى النار» ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وَ الَّذِينَ آمَنُوا الآية. و إسناده هكذا. قال عبد اللّه بن أحمد: حدّثنا عثمان بن أبى شيبة، حدّثنا محمد بن فضيل، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن علىّ بن أبى طالب قال: «سألت خديجة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن ولدين ماتا لها فى الجاهلية، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هما فى النار، فلما رأى الكراهة فى وجهها قال: لو رأيت مكانهما لأبغضتهما، قالت: يا رسول اللّه فولدىّ منك. قال: فى الجنة، قال: ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إن المؤمنين و أولادهم فى الجنة، و إن المشركين و أولادهم فى النار، ثم قرأ: وَ الَّذِينَ آمَنُوا» الآية. و قال الإمام أحمد فى المسند: حدّثنا يزيد، حدّثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبى النّجود، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة، فيقول: يا ربّ

---

(۱). هو كعب بن سعد الغنوى.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۱۲۱

من أين لى هذا، فيقول: باستغفار ولدك لك». و إسناده صحيح. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم عن ابن عباس وَ ما أَلَتْناهُمْ قال: ما نقصناهم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه لا لَغْوٌ فِيها يقول:

باطل وَ لا تَأْثِيمٌ يقول: كذب. و أخرج البزار عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجى‏ء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا، فيتحدّثان فيتكئ ذا و يتكئ ذا فيتحدّثان بما كانوا فى الدنيا، فيقول أحد هما: يا فلان تدرى أى يوم غفر اللّه لنا؟ يوم كنا فى موضع كذا و كذا، فدعونا اللّه فغفر لنا». و أخرج ابن المنذر عن عائشة قالت: لو فتح اللّه على أهل الأرض من عذاب السموم قد الأنملة لأحرقت الأرض و من عليها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ قال: اللطيف. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عنه: أن قريشا لما اجتمعوا إلى دار الندوة فى أمر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال قائل منهم: احبسوه فى وثاق، تربّصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير و النابغة، إنما هو كأحدهم، فأنزل اللّه فى ذلك أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: رَيْبَ الْمَنُونِ قال: الموت.

[سورة الطور (۵۲): الآيات ۳۵ الى ۴۹]

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْ‏ءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (۳۵) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (۳۶) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (۳۷) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۳۸) أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ (۳۹)

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴۰) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (۴۱) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (۴۲) أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۴۳) وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ (۴۴)

فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (۴۵) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۶) وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۴۷) وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (۴۸) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبارَ النُّجُومِ (۴۹)

قوله: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْ‏ءٍ «أم» هذه هى المنقطعة كما تقدّم فيما قبلها، و كما سيأتى فيما بعدها، أى: بل أخلقوا على هذه الكيفية البديعة و الصنعة العجيبة من غير خالق لهم. قال الزجاج: أى: أخلقوا باطلا لغير شى‏ء لا يحاسبون و لا يؤمرون و لا ينهون؟! و جعل مِنْ بمعنى اللام. قال ابن كيسان: أم خلقوا عبثا و تركوا سدى لا يؤمرون و لا ينهون. و قيل: المعنى: أم خلقوا من

غير أب و لا- أمّ، فهم كالجماد لا- يفهمون و لا- تقوم عليهم حجّة أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ أى: بل أ يقولون هم الخالقون لأنفسهم، فلا يؤمرون و لا ينهون مع أنهم يقرّون أن اللّه خالقهم، و إذا أقرّوا لزمتهم الحجّة أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ و هم لا يدّعون ذلك فلزمتهم الحجّة، و لهذا أضرب عن هذا و قال: بَلْ لا يُوقِنُونَ أى: ليسوا على يقين من الأمر، بل يخبطون فى ظلمات الشك فى وعد اللّه و وعيده أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أى: خزائن أرزاق العباد، و قيل: مفاتيح الرحمة. قال مقاتل: يقول: أ بأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة فيضعونها حيث شاؤوا؟

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۲۲

و كذا قال عكرمة. و قال الكلبى: خزائن المطر و الرزق أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ أى: المسلّطون الجبّارون.

قال فى الصّحاح: المسيطر: المسلّط على الشى‌ء ليشرف عليه، و يتعهد أحواله، و يكتب عمله، و أصله من السّطر لأن الكتاب يسطّر. و قال أبو عبيدة: تسيطرت علىّ: اتّخذتنى خولا لك. قرأ الجمهور «المصيطرون» بالصاد الخالصة، و قرأ ابن محيصن و حميد و مجاهد و قنبل و هشام بالسين الخالصة، و رويت هذه القراءة عن حفص، و قرأ خلاد «۱» بصاد مشمّة زايا أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ أى: بل أ يقولون إن لهم سلما منصوبا إلى السماء يصعدون به، و يستمعون فيه كلام الملائكة و ما يوحى إليهم، و يصلون به إلى علم الغيب كما يصل إليه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بطريق الوحى. و قوله: فِيهِ صفة لسلم، و هى للظرفية على بابها، و قيل: هى بمعنى على، أى: يستمعون عليه كقوله: وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ «۲» قاله الأخفش. و قال أبو عبيدة: يستمعون به. و قال الزجاج: المعنى: أنهم كجبريل الّذى يأتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بالوحى، و قيل: هى فى محلّ نصب على الحال، أى: صاعدين فيه فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ إن ادّعى ذلك بِسُلْطانٍ مُبِينٍ أى: بحجّة واضحة ظاهرة أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ أى: بل أ تقولون للّه البنات و لكم البنون. سفّه سبحانه أحلامهم، و ضلّل عقولهم و وبّخهم، أى: أ يضيفون إلى اللّه البنات و هى أضعف الصّنفين، و يجعلون لأنفسهم البنين و هم أعلاهما، و فيه إشعار بأن من كان هذا رأيه فهو بمحلّ سافل فى الفهم و العقل، فلا يستبعد منه إنكار البعث و جحد التوحيد. ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً أى: بل أ تسألهم أجرا يدفعونه إليك على تبليغ الرسالة فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أى: من التزام غرامة تطلبها منهم مثقلون، أى: مجهودون بحملهم ذلك المغرم الثقيل. قال قتادة: يقول: هل سألت هؤلاء القوم أجرا يجهدهم فلا يستطيعون الإسلام أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أى: بل أ يدّعون أن عندهم علم الغيب، و هو ما فى اللوح المحفوظ فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب. قال قتادة: هذا جواب لقولهم: نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ يقول اللّه: أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ حتى علموا أن محمدا يموت قبلهم فهم يكتبون. قال ابن قتيبة: معنى يكتبون يحاكمون بما يقولون أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً أى: مكرا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فيهلكونه بذلك المكر فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أى: الممكور بهم، المجزيون بكيدهم، فضرر كيدهم يعود عليهم وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ و قد قتلهم اللّه فى يوم بدر، و أذلهم فى غير موطن، و مكر سبحانه بهم: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ «۳» أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ أى:

بل أ يدّعون أنّ لهم إلها غير اللّه يحفظهم و يرزقهم و ينصرهم. ثم نزّه سبحانه نفسه عن هذه المقالة الشنعاء فقال:

سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: عن شركهم به، أو عن الذين يجعلونهم شركاء له. ثم ذكر سبحانه بعض جهالاتهم، فقال: وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ الكسف جمع

---

(۱). فى تفسير القرطبى (۱۷/ ۷۵): حمزة.

(۲). طه: ۷۱.

(٣). آل عمران: ٥٤.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٢٣

كسفة، و هى القطعة من الشى‌ء، و انتصاب ساقطا على الحال، أو على أنه المفعول الثانى، و المركوم: المجعول بعضه على بعض. و المعنى: أنهم إن يروا كسفا من السماء ساقطا عليهم لعذابهم لم ينتهوا عن كفرهم، بل يقولون: هو سحاب متراكم بعضه على بعض، و قد تقدّم اختلاف القراء فى «كسفا». قال الأخفش: من قرأ كسفا، يعنى بكسر الكاف و سكون السين جعله واحدا، و من قرأ كسافا، يعنى بكسر الكاف و فتح السين جعله جمعا. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يتركهم، فقال: فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ أى: اتركهم و خلّ عنهم حتى يلاقوا يوم موتهم، أو يوم قتلهم ببدر، أو يوم القيامة. قرأ الجمهور: يُلاقُوا و قرأ أبو حيوة «يلقوا» و قرأ الجمهور: «يصعقون» على البناء للفاعل. و قرأ ابن عامر و عاصم على البناء للمفعول، و الصعقة: الهلاك على ما تقدّم بيانه يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً هو بدل من يومهم، أى: لا ينفعهم فى ذلك اليوم كيدهم الّذى كادوا به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الدنيا وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ أى: و لا يمنع عنهم العذاب النازل بهم مانع، بل هو واقع بهم لا محالة وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ أى: لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و المعاصى عذابا فى الدنيا دون عذاب يوم القيامة، أى: قبله، و هو قتلهم يوم بدر. و قال ابن زيد: هو مصائب الدنيا من الأوجاع و الأسقام و البلايا، و ذهاب الأموال و الأولاد. و قال مجاهد: هو الجوع و الجهد سبع سنين، و قيل: عذاب القبر، و قيل: المراد بالعذاب هو القحط، و بالعذاب الّذى يأتى بعده هو قتلهم يوم بدر وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ما يصيرون إليه من عذاب اللّه، و ما أعدّه لهم فى الدنيا و الآخرة وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إلى أن يقع لهم العذاب الّذى وعدناهم به فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا أى: بمرأى و منظر منّا، و فى حفظنا و حمايتنا، فلا تبال بهم. قال الزجاج: إنك بحيث نراك و نحفظك و نرعاك فلا يصلون إليك وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ أى: نزّه ربك عمّا لا يليق به، متلبسا بحمد ربك على إنعامه عليك حين تقوم من مجلسك. قال عطاء و سعيد بن جبير و سفيان الثورى و أبو الأحوص: يسبح اللّه حين يقوم من مجلسه فيقول: سبحان اللّه و بحمده، أو سبحانك اللهمّ و بحمدك؛ عند قيامه من كلّ مجلس يجلسه. و قال محمد بن كعب و الضحاك و الربيع بن أنس: حين تقول إلى الصلاة. قال الضحاك يقول: اللّه أكبر كبيرا، و الحمد للّه كثيرا، و سبحان اللّه بكرة و أصيلا. و فيه نظر لأن التكبير يكون بعد القيام لا حال القيام، و يكون التسبيح بعد التكبير، و هذا غير معنى الآية، فالأوّل أولى. و قيل: المعنى:

صلّ للّه حين تقوم من منامك، و به قال أبو الجوزاء و حسان بن عطية. و قال الكلبى: و اذكر اللّه باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة، و هى صلاة الفجر وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ أمره اللّه سبحانه أن يسبّحه فى بعض الليل. قال مقاتل: أى صلّ المغرب و العشاء، و قيل: ركعتى الفجر وَ إِدْبارَ النُّجُومِ أى: وقت إدبارها من آخر الليل، و قيل: صلاة الفجر، و اختاره ابن جرير، و قيل: هو التسبيح فى إدبار الصلوات، و قرأ الجمهور إِدْبارَ بكسر الهمزة على أنه مصدر، و قرأ سالم بن أبى الجعد و محمد بن السّميقع و يعقوب و المنهال بن عمر بفتحها على الجمع، أى: أعقاب النجوم، و أدبارها: إذا غربت، و دبر الأمر:

آخره، و قد تقدم الكلام على هذا فى سورة «ق».

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٢٤

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ قال:

المسلّطون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: أم هم المنزلون. و أخرجا عنه أيضا عَذاباً دُونَ ذلِكَ قال: عذاب القبر قبل يوم القيامة. و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و النسائى و الحاكم و بان مردويه عن أبى برزة الأسلمى قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بآخرة إذا قام من المجلس يقول: سبحانك اللهمّ و بحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك و أتوب إليك،

فقال رجل: يا رسول اللّه؛ إنك لتقول قولا- ما كنت تقوله فيما مضى، قال كفّارة لما يكون فى المجلس». و أخرجه النسائى و الحاكم من حديث الربيع بن أنس عن أبى العالية عن رافع بن خديج عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج الترمذى و ابن جرير عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال:

«من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهمّ و بحمدك، أشهد أن لا- إله إلا- أنت، أستغفرك و أتوب إليك، إلا غفر له ما كان فى مجلسه». قال الترمذى: حسن صحيح.

و فى الباب أحاديث مسندة و مرسلة.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ قال: حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل فى الصلاة. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ قال: الركعتان قبل صلاة الصبح. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ إِدْبارَ النُّجُومِ قال: ركعتى الفجر.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۲۵

سورة النجم

اشارة

هى إحدى و ستون آية، و قيل ثنتان و ستون آية و هى مكية جميعها فى قول الجمهور. و روى عن ابن عباس و عكرمة أنها مكية إلا آية منها. و هى قوله: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ الآية. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة النجم بمكة. و أخرج أيضا عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة و النجم، فسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و سجد الناس كلهم، إلّا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافرا، و هو أمية بن خلف. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: أوّل سورة استعان بها النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقرؤها و النجم. و أخرج ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عمر قال: «صلّى بنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقرأ النجم، فسجد بنا فأطال السجود». و أخرج ابن مردويه عن عائشة: «أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ النجم، فلما بلغ السجدة سجد فيها». و أخرج الطيالسى و ابن أبى شيبة و أحمد و البخارى و مسلم و أبو داود و الترمذى و النسائى و الطبرانى و ابن مردويه عن زيد بن ثابت قال: قرأت النجم عند النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فلم يسجد فيها. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يسجد فى النجم بمكة، فلمّا هاجر إلى المدينة تركها. و أخرج أيضا عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لم يسجد فى شىء من المفصّل منذ تحوّل إلى المدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النجم (۵۳): الآيات ۱ الى ۲۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ النَّجْمِ إِذا هَوى (۱) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى (۲) وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (۳) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى (۴)
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى (۵) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى (۶) وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى (۷) ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (۸) فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى (۹)
فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى (۱۰) ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (۱۱) أَ فَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى (۱۲) وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى (۱۳) عِنْدَ

سِدْرَةِ الْمُنْتَهى (۱۴)
عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى (۱۵) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى (۱۶) ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى (۱۷) لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى (۱۸) أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى (۱۹)
وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى (۲۰) أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى (۲۱) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى (۲۲) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى (۲۳) أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى (۲۴) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى (۲۵) وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَرْضى (۲۶)
قوله: وَ النَّجْمِ إِذا هَوى التعريف للجنس، و المراد به جنس النجوم، و به قال جماعة من المفسرين،
فتح القدير، ج۵، ص: ۱۲۶
و منه قول عمر بن أبى ربيعة:
أحسن النّجم فى السّماء الثّريّاو الثّريّا فى الأرض زين النّساء
و قيل: المراد به الثريا، و هو اسم غلب فيها، تقول العرب: النجم و تريد به الثريا، و به قال مجاهد و غيره.
و قال السدّى: النجم هنا هو الزهرة؛ لأن قوما من العرب كانوا يعبدونها، و قيل: النجم هنا النبت الّذى لا ساق له، كما فى قوله: وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ «۱» قاله الأخفش. و قيل: النجم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل:
النجم القرآن، و سمّى نجما لكونه نزل منجّما مفرّقا، و العرب تسمّى التفريق تنجيما، و المفرّق: المنجم، و به قال مجاهد و الفراء و غير هما، و الأوّل أولى. قال الحسن: المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة.
و قيل: المراد بها النجوم التى ترجم بها الشياطين، و معنى هويه: سقوطه من علو، يقال: هوى النجم يهوى هويّا؛ إذا سقط من علو إلى سفل، و قيل: غروبه، و قيل: طلوعه، و الأوّل أولى، و به قال الأصمعى و غيره، و منه قال زهير:
فشجّ بها الأماعز و هى تهوىهوىّ الدّلو أسلمها الرّشاء
و يقال: هوى فى السير؛ إذا مضى؛ و منه قول الشاعر:
بينما نحن بالبلاكث فالقاع سراعا و العيس تهوى هويّا
خطرت خطرة على القلب من ذكراك و هنا فما استطعت مضيّا
و معنى الهوىّ على قول من فسّر النجم بالقرآن؛ أنه نزل من أعلى إلى أسفل، و أما على قول من قال إنه الشجر الّذى لا ساق له، أو أنه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، فلا يظهر للهوىّ معنى صحيح، و العامل فى الظرف فعل القسم المقدّر، و جواب القسم قوله: ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى أى: ما ضلّ محمد صلّى اللّه عليه و سلّم عن الحق و الهدى و لا عدل عنه، و الغىّ: ضدّ الرشد، أى: ما صار غاويا، و لا تكلّم بالباطل، و قيل: ما خاب فيما طلب، و الغىّ: الخيبة، و منه قول الشاعر:
فمن يلق خيرا يحمد النّاس أمرهو من يغو لا يعدم على الغىّ لائما
و فى قوله: صاحِبُكُمْ إشارة بأنهم المطلعون على حقيقة حاله، و الخطاب لقريش وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى أى: ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن و لا بغيره، فعن على بابها. و قال أبو عبيدة: إنّ عن بمعنى الباء، أى: بالهوى. قال قتادة: أى: ما ينطق بالقراءة عن هواه إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى أى:
ما هو الّذى ينطق به إلا وحى من اللّه يوحيه إليه. و قوله: يُوحى صفة لوحى تفيد الاستمرار التجدّدى، و تفيد نفى المجاز، أى: هو وحى حقيقة لا لمجرد التسمية عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى القوى: جمع قوّة، و المعنى: أنه علمه جبريل الّذى هو شديد قواه، هكذا قال أكثر المفسرين إن المراد جبريل. و قال الحسن:

(١). الرّحمن: ۶.

فتح القدير، ج۵، ص: ١٢٧

هو اللّه عزّ و جلّ، و الأوّل أولى، و هو من باب إضافة الصفة إلى الموصوف. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى المرّة:

القوّة و الشدّة فى الخلق، و قيل: ذو صحة جسم و سلامة من الآفات، و منه قول النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تحلّ الصدقة لغنىّ، و لا لذى مرّة سوىّ «١»». و قيل: ذو حصافة عقل و متانة رأى. قال قطرب: العرب تقول لكلّ من هو جزل الرأى حصيف العقل: ذو مرّة، و منه قول الشاعر:

قد كنت قبل لقاكم ذا مرّةعندى لكلّ مخاصم ميزانه

و التفسير للمرّة بهذا أولى؛ لأن القوّة و الشدّة قد أفادها قوله: شَدِيدُ الْقُوى قال الجوهرى: المرّة:

إحدى الطبائع الأربع، و المرّة: القوّة و شدّة العقل، و الفاء فى قوله: فَاسْتَوى للعطف على علّمه، يعنى جبريل، أى: ارتفع و علا إلى مكانه فى السماء بعد أن علم محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم، قاله سعيد بن المسيّب و سعيد بن جبير. و قيل: معنى استوى قام فى صورته التى خلقه اللّه عليها؛ لأنه كان يأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى صورة الآدميين، و قيل: المعنى: فاستوى القرآن فى صدره صلّى اللّه عليه و سلّم. و قال الحسن: فاستوى: يعنى اللّه عزّ و جلّ على العرش وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى هذه الجملة فى محل نصب على الحال، أى: فاستوى جبريل حال كونه بالأفق الأعلى، و المراد بالأفق الأعلى: جانب المشرق، و هو فوق جانب المغرب، و قيل: المعنى: فاستوى عاليا، و الأفق:

ناحية السماء، و جمعه آفاق. قال قتادة و مجاهد: هو الموضع الّذى تطلع منه الشمس، و قيل: هو يعنى جبريل و النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بالأفق الأعلى ليلة المعراج، و يجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة. ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى أى: دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى، أى: قرب من الأرض، فتدلّى، فنزل على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بالوحى، و قيل:

فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: ثم تدلّى فدنا، قاله ابن الأنبارى و غيره، قال الزجّاج: معنى دنا فتدلى واحد، أى: قرب و زاد فى القرب، كما تقول: فدنا منى فلان و قرب، و لو قلت: قرب منى و دنا جاز.

قال الفراء: الفاء فى «فتدلى» بمعنى الواو، و التقدير: ثم تدلّى جبريل و دنا، و لكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحدا أن تقدّم أيهما شئت. قال الجمهور: و الّذى دنا فتدلى هو جبريل؛ و قيل: هو النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و المعنى:

دنا منه أمره و حكمه، و الأوّل أولى، و قيل: و من قال: إن الّذى استوى هو جبريل و محمد، فالمعنى عنده:

ثم دنا محمد من ربه دنوّ كرامة فتدلى، أى: هوى للسجود، و به قال الضحّاك. فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى أى: فكان مقدار ما بين جبريل و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أو ما بين محمد و ربه قاب قوسين، أى: قدر قوسين عربيين. و القاب و القيب، و القاد و القيد: المقدار، ذكر معناه فى الصّحاح. قال الزجاج: أى: فيما تقدّرون أنتم، و اللّه سبحانه عالم بمقادير الأشياء، و لكنه يخاطبنا على ما جرت به عادة المخاطبة فيما بيننا. و قيل «أو» بمعنى الواو، أى: و أدنى، و قيل: بمعنى بل، أى: بل أدنى. و قال سعيد بن جبير و عطاء و أبو إسحاق الهمدانى و أبو وائل شقيق بن سلمة فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ قدر ذراعين، و القوس: الذّراع يقاس بها كل شىء، و هى لغة بعض الحجازيين، و قيل: هى لغة أزد شنوءة. و قال الكسائى: «فكان قاب قوسين» أراد قوسا

(١). «السوى»: صحيح الأعضاء.

فتح القدير، ج۵، ص: ١٢٨

واحدة فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى أى: فأوحى جبريل إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم ما أوحى، و فيه تفخيم للوحى الّذى أوحى إليه، و الوحى: إلقاء الشىء بسرعة، و منه الوحاء و هو السرعة، و الضمير فى عبده يرجع إلى اللّه، كما فى قوله: ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ «١» و قيل: المعنى: فأوحى اللّه إلى عبده جبريل ما أوحى، و بالأوّل قال الربيع و الحسن و ابن زيد و قتادة. و قيل: فأوحى اللّه إلى عبده محمد. قيل: و قد أبهم اللّه سبحانه ما أوحاه جبريل إلى محمد، أو ما أوحاه اللّه إلى عبده جبريل، أو إلى محمد، و لم يبينه لنا، فليس لنا أن نتعرّض لتفسيره. و قال سعيد بن جبير: الّذى أوحى إليه هو أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ إلخ «٢»، و أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى إلخ «٣». و قيل: أوحى اللّه إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها [يا محمد] «۴»، و على الأمم حتى تدخلها أمتك. و قيل: إن «ما» للعموم لا للإبهام، و المراد كل ما أوحى به إليه، و الحمل على الإبهام أولى لما فيه من التعظيم ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى أى: ما كذب فؤاد محمد صلّى اللّه عليه و سلّم ما رآه بصره ليلة المعراج، يقال: كذبه؛ إذا قال له الكذب و لم يصدقه. قال المبرد: معنى الآية أنه رأى شيئا فصدق فيه. قال الجمهور ما كَذَبَ مخففا، و قرأ هشام و أبو جعفر بالتشديد؛ و «ما» فى ما رَأى موصولة أو مصدرية، فى محل نصب بكذب، مخففا و مشدّدا أَ فَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى قرأ الجمهور: أَ فَتُمارُونَهُ بالألف من المماراة، و هى المجادلة و الملاحاة، و قرأ حمزة و الكسائى: «أ فتمرونه» بفتح التاء و سكون الميم، أى:

أ فتجحدونه، و اختار أبو عبيد القراءة الثانية: قال: لأنهم لم يماروه و إنما جحدوه، يقال: مراه حقه، أى:

جحده، و مريته أنا: جحدته. قال: و منه قول الشاعر:

لئن هجوت أخا صدق و مكرمةلقد مريت أخا ما كان يمريكا

أى: جحدته. قال المبرد: يقال مراه عن حقه و على حقه: إذا منعه منه و دفعه عنه «۵». و قيل: على بمعنى عن. و قرأ ابن مسعود و الشعبى و مجاهد و الأعرج «أ فتمرونه» بضم التاء من أمريت، أى: أ تريبونه و تشكّون فيه. قال جماعة من المفسرين: المعنى على قراءة الجمهور: أ فتجادلونه، و ذلك أنهم جادلوه حين أسرى به، فقالوا: صف لنا مسجد بيت المقدس، أى: أ فتجادلونه جدالا ترمون به دفعه عمّا شاهده و علمه، و اللام فى قوله: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى هى الموطئة للقسم، أى: و اللّه لقد رآه نزلة أخرى، و النزلة: المرة من النزول، فانتصابها على الظرفية، أو منتصبة على المصدر الواقع موقع الحال، أى: رأى جبريل نازلا نزلة أخرى؛ أو على أنه صفة مصدر مؤكد محذوف، أى: رآه رؤية أخرى. قال جمهور المفسرين:

المعنى أنه رأى محمد جبريل مرّة أخرى، و قيل: رأى محمد ربّه مرّة أخرى بفؤاده عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى الظرف منتصب برآه، و السّدر: هو شجر النّبق، و هذه السدرة هى فى السماء السادسة كما فى الصحيح،

---

(١). فاطر: ۴۵.

(٢). الشرح: ١- ٨.

(٣). الضحى: آية ۶ إلى آخر السورة.

(۴). من تفسير القرطبى (١٧/ ٩٢)

(۵). من تفسير القرطبى (١٧/ ٩٣)

و روى أنها فى السماء السابعة. و «الْمُنْتَهى : مكان الانتهاء، أو هو مصدر ميمى، و المراد به الانتهاء نفسه، و قيل: تنتهى إليها أرواح الشهداء، و قيل: غير ذلك. و إضافة الشجرة إلى المنتهى من إضافة الشىء إلى مكانه.

عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى أى: عند تلك السدرة جنّة تعرف بجنة المأوى، و سمّيت جنة المأوى لأنه أوى إليها آدم، و قيل: إن أرواح

المؤمنين تأوى إليها. قرأ الجمهور جَنَّةُ برفع جنة على أنها مبتدأ و خبرها الظرف المتقدّم. و قرأ علىّ و أبو الدرداء و أبو هريرة و ابن الزبير و أنس و زرّ بن حبيش و محمد بن كعب و مجاهد و أبو سبرة الجهنى «جنّة» فعلا ماضيا من جنّ يجن، أى: ضمّه المبيت، أو ستره إيواء اللّه له. قال الأخفش:

أدركه كما تقول جنّة الليل، أى: ستره و أدركه، و الجملة فى محل نصب على الحال إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى العامل فى الظرف رآه أيضا، و هو ظرف زمان، و الّذى قبله ظرف مكان، و الغشيان بمعنى التغطية و السرّ، و بمعنى الإتيان، يقال: فلان يغشانى كل حين، أى: يأتينى، و فى الإبهام فى قوله: ما يَغْشى

من التفخيم ما لا يخفى، و قيل: يغشاها جراد من ذهب، و قيل: طوائف الملائكة. و قال مجاهد: رفرف أخضر، و قيل: رفرف من طيور خضر، و قيل: غشيها أمر اللّه، و المجىء بالمضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا للصورة البديعة، أو للدلالة على الاستمرار التجددى ما زاغَ الْبَصَرُ أى: ما مال بصر النبى عما رآه وَ ما طَغى أى: ما جاوز ما رأى، و فى هذا وصف أدب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى ذلك المقام حيث لم يلتفت، و لم يمل بصره، و لم يمدّه إلى غير ما رأى، و قيل: ما جاوز ما أمر به لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى أى: و اللّه لقد رأى تلك الليلة من آيات ربه العظام ما لا يحيط به الوصف، و قيل: رأى رفرفا سدّ الأفق، و قيل: رأى جبريل فى حلّة خضراء، قد ملأ ما بين السماء و الأرض، له ستّمائة جناح، كذا فى صحيح مسلم و غيره، و قال الضحاك: رأى سدرة المنتهى، و قيل: هو كل ما رآه تلك الليلة فى مسراه و عوده، و «من» للتبعيض، و مفعول «رأى»: «الكبرى»، و يجوز أن يكون المفعول محذوفا، أى رأى شيئا عظيما من آيات ربه، و يجوز أن تكون «من» زائدة أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى- وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى لما قصّ اللّه سبحانه هذه الأقاصيص قال للمشركين موبخا و مقرّعا: أَ فَرَأَيْتُمُ أى: أخبرونى عن الآلهة التى تعبدونها من دون اللّه هل لها قدرة توصف بها؟ و هل أوحت إليكم شيئا كما أوحى اللّه إلى محمد؟ أم هى جمادات لا تعقل و لا تنفع؟ ثم ذكر هذه الأصنام الثلاثة التى اشتهرت فى العرب و عظم اعتقادهم فيها. قال الواحدى و غيره: و كانوا يشتقون لها اسما من أسماء اللّه تعالى، فقالوا من اللّه اللات، و من العزيز العزّى، و هى تأنيث الأعز بمعنى العزيزة، و مناة من منى اللّه الشىء إذا قدّره. قرأ الجمهور: اللَّاتَ بتخفيف التاء، فقيل:

هو مأخوذ من اسم اللّه سبحانه كما تقدّم، و قيل: أصله لات يليت، فالتاء أصلية، و قيل: هى زائدة، و أصله لوى يلوى؛ لأنهم كانوا يلوون أعناقهم إليها، أو يلتوون عليها، و يطوفون بها. و اختلف القراء هل يوقف عليها بالتاء أو بالهاء؟ فوقف عليها الجمهور بالتاء و وقف عليها الكسائى بالهاء، و اختار الزجاج و الفراء الوقف بالتاء لاتباع رسم المصحف فإنها تكتب بالتاء، و قرأ ابن عباس و ابن الزبير و مجاهد و منصور بن المعتمر و أبو الجوزاء و أبو صالح و حميد اللَّاتَ بتشديد التاء، و رويت القراءة عن ابن كثير، فقيل: هو اسم رجل كان

يلتّ السّويق و يطعمه الحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، فهو اسم فاعل فى الأصل غلب على هذا الرجل. قال مجاهد: كان رجلا فى رأس جبل [له غنيمة يسلى «١» منها السمن، و] «٢» يتخذ من لبنها و سمنها حيسا «٣»، و يطعم الحاج، و كان ببطن نخلة، فلما مات عبدوه. و قال الكلبى: كان رجلا من ثقيف له صرمة غنم، و قيل: إنه عامر بن الظّرب العدوانى، و كان هذا الصنم لثقيف، و فيه يقول الشاعر «٤»:

لا تنصروا اللّات إنّ اللّه مهلكهاو كيف ينصركم من ليس ينتصر

قال فى الصحاح: و اللات اسم صنم لثقيف، و كان بالطائف، و بعض العرب يقف عليها بالتاء، و بعضهم بالهاء. وَ الْعُزَّى صنم قريش و بنى كنانة. قال مجاهد: هى شجرة كانت بغطفان، و كانوا يعبدونها، فبعث إليها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خالد بن

الوليد فقطعها، و قيل: كانت شيطانة تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة. و قال سعيد بن جبير: العزى: حجر أبيض كانوا يعبدونه. و قال قتادة: هى بيت كان ببطن نخلة وَ مَناةَ صنم بنى هلال. و قال ابن هشام: صنم هذيل و خزاعة. و قال قتادة: كانت للأنصار. قرأ الجمهور مَناةَ بألف من دون همزة، و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و حميد و مجاهد و السلمى بالمدّ و الهمز «۵». فأما قراءة الجمهور فاشتقاقها من منى يمنى، أى صبّ؛ لأن دماء النسائک كانت تصب عندها يتقرّبون بذلک إليها.

و أما على القراءة الثانية فاشتقاقها من النوء، و هو المطر لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء، و قيل: هما لغتان للعرب، و مما جاء على القراءة الأولى قول جرير:

أزيد مناة توعّد يا ابن تيمتأمّل أين تاه بک الوعيد

و مما جاء على القراءة الأخرى قول الحارثى:

ألا هل أتى التّيم بن عبد مناءةعلى الشّنء فيما بيننا ابن تميم

وقف جمهور القراء عليها بالتاء اتباعا لرسم المصحف، و وقف ابن كثير و ابن محيصن عليها بالهاء. قال فى الصحاح: و مناة اسم صنم كان بين مكة و المدينة، و الهاء للتأنيث و يسكت عليها بالتاء، و هى لغة. قوله:

الثَّالِثَةَ الْأُخْرى هذا وصف لمناة، وصفها بأنها ثالثة و بأنها أخرى، و الثالثة لا تكون إلا أخرى. قال أبو البقاء: فالوصف بالأخرى للتأكيد، و قد استشكل وصف الثالثة بالأخرى، و العرب إنما تصف به الثانية، فقال الخليل: إنما قال ذلک لوفاق رؤوس الآى كقوله: مَآرِبُ أُخْرى «۶» و قال الحسين بن الفضل:

---

(۱). «يسلى»: يجمع.

(۲). من تفسير القرطبى (۱۷/ ۱۰۰)

(۳). «الحيس»: الطعام المتّخذ من التمر و الأقط و السمن.

(۴). هو شداد بن عارض الجشمى.

(۵). أى: مناءة.

(۶). طه: ۱۸.

فيه تقديم و تأخير، و التقدير: أ فرأيتم اللات و العزّى الأخرى و مناة الثالثة. و قيل: إن وصفها بالأخرى لقصد التعظيم لأنها كانت عند المشركين عظيمة، و قيل: إن ذلک للتحقير و الذم، و إن المراد المتأخرة الوضيعة كما فى قوله: قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ «۱» أى: وضعاؤهم لرؤسائهم. ثم كرّر سبحانه توبيخهم و تقريعهم بمقالة شنعاء قالوها فقال: أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى أى: كيف تجعلون للّه ما تكرهون من الإناث، و تجعلون لأنفسكم ما تحبّون من الذكور، قيل: و ذلک قولهم إن الملائكة بنات اللّه، و قيل: المراد كيف تجعلون اللات و العزّى و مناة، و هى إناث، فى زعمكم شركاء للّه، و من شأنهم أن يحتقروا الإناث. ثم ذكر سبحانه أن هذه التسمية و القسمة المفهومة من الاستفهام قسمة جائرة، فقال: تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى قرأ الجمهور:

ضِيزى بياء ساكنة بغير همزة، و قرأ ابن كثير بهمزة ساكنة، و المعنى: أنها قسمة خارجة عن الصواب جائرة عن العدل مائلة عن الحق. قال الأخفش: يقال: ضاز فى الحكم، أى: جار، و ضاز حقه يضيزه ضيزا، أى: نقصه و بخسه، قال: و قد يهمز، و أنشد:

فإن تنأ عنّا ننتقصک و إن تغب «۲»فحقّک «۳» مضئوز و أنفک راغم

و قال الكسائى: ضاز يضيز ضيزا، و ضاز يضوز ضوزا؛ إذا تعدّى و ظلم و بخس و انتقص، و منه قول الشاعر «۴»:

ضازت بنو أسد بحكمهمإذ يجعلون الرّأس كالذّنب

قال الفراء: و بعض العرب يقول: ضئزى بالهمز، و حكى أبو حاتم عن أبى زيد أنه سمع العرب تهمز «ضيزى». قال البغوى: ليس فى كلام العرب فعلى بكسر الفاء فى النعوت، إنما تكون فى الأسماء مثل ذكرى.

قال المؤرّج: كرهوا ضم الضاد فى ضيزى، و خافوا انقلاب الياء واوا، و هى من بنات الواو، فكسروا الضاد لهذه العلّة، كما قالوا فى جمع أبيض بيض، و كذا قال الزجاج: و قيل: هى مصدر كذكرى، فيكون المعنى:

قسمة ذات جور و ظلم. ثم ردّ سبحانه عليهم بقوله: إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ أى:

ما الأوثان أو الأصنام باعتبار ما تدعونه من كونها آلهة إلا أسماء محضة، ليس فيها شيء من معنى الألوهية التى تدعونها؛ لأنها لا تبصر و لا تسمع، و لا تعقل و لا تفهم، و لا تضرّ و لا تنفع، فليست إلا مجرّد أسماء سمّيتموها أنتم و آباؤكم، قلّد الآخر فيها الأوّل، و تبع فى ذلك الأبناء الآباء. و فى هذا من التحقير لشأنها ما لا يخفى، كما تقول فى تحقير رجل: ما هو إلا اسم، إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة، و مثل هذه الآية قوله تعالى:

ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها «٥» يقال: سميته زيدا و سميته بزيد، فقوله «سمّيتموها» صفة

---

(١). الأعراف: ٣٨.

(٢). فى تفسير القرطبى: تقم.

(٣). فى تفسير القرطبى: فقسمك.

(٤). هو امرؤ القيس.

(٥). يوسف: ٤٠.

لأصنام، و الضمير يرجع إلى الأسماء لا إلى الأصنام، أى: جعلتموها أسماء لا جعلتم لها اسما. و قيل: إن قوله:

هِيَ راجع إلى الأسماء الثلاثة المذكورة، و الأوّل أولى. ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ أى: ما أنزل بها من حجّة و لا برهان. قال مقاتل: لم ينزل لنا كتابا لكم فيه حجة كما تقولون إنها آلهة، ثم أخبر عنهم بقوله:

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ أى: ما يتبعون فيما ذكر من التسمية و العمل بموجبها إلا الظنّ الّذى لا يغنى من الحق شيئا، و التفت من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم و تحقيرا لشأنهم، فقال: وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ أى: تميل إليه و تشتهيه؛ من غير التفات إلى ما هو الحق الّذى يجب الاتباع له. قرأ الجمهور: يَتَّبِعُونَ بالتحتية على الغيبة، و قرأ عيسى بن عمر و أيوب و ابن السّميقع بالفوقية على الخطاب، و رويت هذه القراءة عن ابن مسعود و ابن عباس و طلحة و ابن وثّاب. وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى أى: البيان الواضح الظاهر بأنها ليست بآلهة، و الجملة فى محل نصب على الحال من فاعل يتبعون، و يجوز أن يكون اعتراضا، و الأوّل أولى. و المعنى: كيف يتبعون ذلك و الحال أن قد جاءهم ما فيه هدى لهم من عند اللّه؛ على لسان رسوله الّذى بعثه اللّه بين ظهرانيهم، و جعله من أنفسهم أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى «أم» هى المنقطعة المقدرة ببل و الهمزة التى للإنكار، فأضرب عن اتباعهم الظنّ الّذى هو مجرد التوهم، و عن اتباعهم هوى الأنفس و ما تميل إليه، و انتقل إلى إنكار أن يكون لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم و تشفع لهم. ثم علّل انتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى بقوله: فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى أى: أن أمور الآخرة و الدنيا بأسرها للّه عزّ و جلّ، فليس لهم معه أمر من الأمور، و من جملة ذلك أمنياتهم الباطلة و أطماعهم الفارغة، ثم أكّد ذلك و زاد فى إبطال ما يتمنونه فقال: وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً و «كم» هنا هى الخبرية المفيدة للتكثير، و محلها الرفع على الابتداء، و

الجملة بعدها خبرها، و لما فی كم من معنى التكثير جمع الضمير فی شفاعتهم مع إفراد الملك، و المعنى: التوبيخ لهم بما يتمنون و يطمعون فيه من شفاعة الأصنام مع كون الملائكة مع كثرة عبادتها و كرامتها على اللّه لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له، فكيف هذه الجمادات الفاقدة للعقل و الفهم، و هو معنى قوله: إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لهم بالشفاعة لِمَنْ يَشاءُ أن يشفعوا له وَ يَرْضى بالشفاعة له لكونه من أهل التوحيد، و ليس للمشركين فی ذلك حظّ، و لا يأذن اللّه بالشفاعة لهم، و لا يرضاها؛ لكونهم ليسوا من المستحقّين لها.

و قد أخرج ابن جرير و عن ابن عباس وَ النَّجْمِ إِذا هَوى قال: إذا انصبّ. و أخرج ابن المنذر عنه قال: هو الثريا إذا تدلت. و أخرج عنه أيضا قال: أقسم اللّه أنه ما ضلّ محمد و لا غوى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أيضا فی قوله: ذُو مِرَّةٍ قال: ذو خلق حسن. و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن أبی حاتم و الطبرانی، و أبو الشيخ فی العظمة، عن ابن مسعود «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لم ير جبريل فی صورته إلا مرّتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه فی صورته فأراه صوته فسدّ الأفق، و أما الثانية فإنه كان معه حيث صعد فذلك قوله: وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى قال: خلق جبريل.

و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عنه أن النبیّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «رأيت جبريل عند سدرة المنتهى له ستّمائة جناح»

فتح القدير، ج‏5، ص: 133

و أخرجه أحمد عنه أيضا. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى قال: مطلع الشمس.

و أخرج البخاری و مسلم و غير هما عن ابن مسعود فی قوله: فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى قال: «رأى النبیّ صلّى اللّه عليه و سلّم جبريل له ستّمائة جناح». و أخرج الفريابی و عبد بن حميد، و الترمذی و صحّحه، و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانی، و أبو الشيخ فی العظمة، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقی فی قوله:

ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى قال: «رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جبريل عليه حلّتا رفرف أخضر، قد ملأ ما بين السماء و الأرض». و أخرج ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردويه عنه قال: دنا ربه فتدلى. و أخرج قال: هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم دنا فتدلى إلى ربه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه قال: دنا ربه فتدلى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن مسعود فی قوله: فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ قال: دنا جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين. و أخرج الطبرانی و ابن مردويه، و الضياء فی المختارة، عن ابن عباس قال: القاب: القيد، و القوسين: الذراعين. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن أبی سعيد الخدری قال: لما أسری بالنبیّ صلّى اللّه عليه و سلّم اقترب من ربه، فكان قاب قوسين أو أدنى، ألم تر إلى القوس ما أقربها من الوتر. و أخرج النسائی و ابن المنذر و ابن جرير و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى قال: عبده محمد صلّى اللّه عليه و سلّم.

و أخرج مسلم و الطبرانی و ابن مردويه، و البيهقی فی الأسماء و الصفات، عنه فی قوله: ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى قال: رأى محمد ربه بقلبه مرّتين. و أخرج نحوه عنه عبد بن حميد، و الترمذی و حسّنه، و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانی و ابن مردويه. و أخرج ابن مردويه عن أنس قال: رأى محمد ربه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبیّ صلّى اللّه عليه و سلّم رأى ربه بعينه. و أخرج الطبرانی و ابن مردويه عنه قال: رأى محمد ربه مرّتين، مرّة ببصره و مرّة بفؤاده. و أخرج الترمذی و حسّنه، و الطبرانی و ابن مردويه و البيهقی عنه أيضا قال: لقد رأى النبیّ صلّى اللّه عليه و سلّم ربه عزّ و جلّ. و أخرج النسائی، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عنه أيضا قال: أ تعجبون أن تكون الخلّة لإبراهيم، و الكلام لموسى، و الرؤية لمحمد؟ و قد روی نحو هذا عنه من طرق. و أخرج مسلم و الترمذی و ابن مردويه عن أبی ذرّ قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هل رأيت ربك؟» قال: نور أنّى أراه؟». و أخرج مسلم و ابن مردويه عنه «أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

هل رأيت ربك؟ قال: رأيت نورا». و أخرج عبد بن حميد و النسائی و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أيضا قال: رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ربه بقلبه و لم يره ببصره. و أخرج مسلم عن أبی هريرة فی قوله: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى قال جبريل. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و مسلم و الترمذی و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقی عن ابن مسعود:

«لما أسرى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم انتهى إلى سدرة المنتهى، و هی فی السماء السادسة، إليها ينتهی ما يصعد من الأرواح فيقبض منها، و إليها ينتهی ما يهبط به من فوقها فيقبض منها» إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى قال: فراش من ذهب. و أخرج أبو الشيخ فی العظمة، عن ابن مسعود قال: «الجنة فی السماء السابعة العليا، و النار فی الأرض السابعة السفلى». و أخرج البخاری و غيره عن ابن عباس قال: كان اللات رجالا يلتّ السّويق للحاجّ. و أخرج الطبرانی و ابن مردويه عنه: أن العزى كانت ببطن نخلة، و أن اللات كانت بالطائف، و أن

مناة كانت بقديد. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس ضِيزى قال: جائرة، لا حقّ لها.

[سورة النجم (53): الآيات 27 الى 42]

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى (27) وَ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (28) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا (29) ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى (30) وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31)

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِی بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى (32) أَ فَرَأَيْتَ الَّذِی تَوَلَّى (33) وَ أَعْطى قَلِيلاً وَ أَكْدى (34) أَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِی صُحُفِ مُوسى (36)

وَ إِبْراهِيمَ الَّذِی وَفَّى (37) أَلاَّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى (38) وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعى (39) وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى (40) ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى (41)

وَ أَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى (42)

قوله: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى أی: أن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث و ما بعده من الدار الآخرة، و هم الكفار، يضمون إلى كفرهم مقالة شنعاء و جهالة جهلاء، و هی أنهم يسمّون الملائكة المنزّهين عن كلّ نقص تسمية الأنثى، و ذلك أنهم زعموا أنها بنات اللّه، فجعلوهم إناثا، و سمّوهم بنات وَ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ جملة فی محل نصب على الحال، أی: يسمونهم هذه التسمية و الحال أنهم غير عالمين بما يقولون، فإنهم لم يعرفوهم، و لا شاهدوهم، و لا بلّغ إليهم ذلك من طريق من الطرق التی يخبر المخبرون عنها، بل قالوا ذلك جهلا و ضلالة و جرأة. و قرئ «ما لهم بها» أی: بالملائكة أو التسمية إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ أی: ما يتبعون فی هذه المقالة إلا مجرّد الظنّ و التوهم. ثم أخبر سبحانه عن الظنّ و حكمه فقال: وَ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً أی: إن جنس الظنّ لا يغنی من الحق شيئا من الإغناء، و الحقّ هنا العلم. و فيه دليل على أن مجرّد الظن لا يقوم قيام العلم، و أن الظانّ غير عالم. و هذا فی الأمور التی يحتاج فيها إلى العلم و هی المسائل العلمية، لا فيما يكتفى فيه بالظنّ، و هی الحقائق العملية، و قد قدّمنا تحقيق هذا. و لا بدّ من هذا التخصيص، فإن دلالة العموم و القياس و خبر الواحد و نحو ذلك ظنية، فالعمل بها عمل بالظن، و قد وجب علينا العمل به فی مثل هذه الأمور، فكانت أدلة وجوبه العمل بما فيها

مخصصة لهذا العموم، و ما ورد فى معناه من الذمّ لمن عمل بالظنّ و النهى عن اتباعه فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا أى: أعرض عمّن أعرض عن ذكرنا، و المراد بالذكر هنا القرآن، أو ذكر الآخرة، أو ذكر اللّه على العموم، و قيل: المراد بالذكر هنا الإيمان، و المعنى: اتركـ مجادلتهم فقد بلّغت إليهم ما أمرت به، و ليس عليكـ إلا البلاغ، و هذا منسوخ بآية السيف وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا أى: لم يرد سواها، و لا طلب غيرها، بل قصر نظره عليها؛ فإنه غير متأهّل للخير، و لا مستحقّ للاعتناء بشأنه. ثم صغّر سبحانه شأنهم، و حقّر أمرهم فقال: ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أى: إن ذلكـ التولى و قصر الإرادة على الحياة الدنيا هو مبلغهم من العلم، ليس لهم غيره،

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۳۵

و لا يلتفتون إلى سواه من أمر الدين. قال الفرّاء: أى: ذلكـ قدر عقولهم و نهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة، و قيل: الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى جعلهم للملائكة بنات اللّه، و تسميتهم لهم تسمية الأنثى، و الأوّل أولى. و المراد بالعلم هنا مطلق الإدراكـ الّذى يندرج تحته الظنّ الفاسد، و الجملة مستأنفة لتقرير جهلهم و اتباعهم مجرّد الظن. و قيل: معترضة بين المعلّل و العلّة، و هى قوله: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى فإن هذا تعليل للأمر بالإعراض، و المعنى: أنه سبحانه أعلم بمن حاد عن الحق، و أعرض عنه، و لم يهتد إليه، و أعلم بمن اهتدى فقبل الحق و أقبل إليه و عمل به، فهو مجاز كلّ عامل بعمله، إن خيرا فخير، و إن شرّا فشرّ. و فيه تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و إرشاد له بأنه لا يتعب نفسه فى دعوة من أصرّ على الضلالة و سبقت له الشقاوة، فإن اللّه قد علم حال هذا الفريق الضال كما علم حال الفريق الراشد. ثم أخبر سبحانه عن سعة قدرته و عظيم ملكه، فقال: وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أى: هو المالكـ لذلكـ و المتصرّف فيه لا يشاركه فيه أحد، و اللام فى لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا متعلّقة بما دلّ عليه الكلام، كأنه قال: هو مالكـ ذلكـ، يضل من يشاء، و يهدى من يشاء؛ ليجزى المسىء بإساءته و المحسن بإحسانه. و قيل: إن قوله: وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ معترضة، و المعنى: إن ربكـ هو أعلم بمن ضل عن سبيله، و هو أعلم بمن اهتدى؛ ليجزى. و قيل: هى لام العاقبة، أى: و عاقبة أمر الخلق الذين فيهم المحسن و المسىء أن يجزى اللّه كلا منهما بعمله. و قال مكى: إن اللام متعلقة بقوله: لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ و هو بعيد من حيث اللفظ و من حيث المعنى. قرأ الجمهور لِيَجْزِيَ بالتحتية. و قرأ زيد ابن علىّ بالنون، و معنى بِالْحُسْنَى أى: بالمثوبة الحسنى و هى الجنة، أو بسبب أعمالهم الحسنى، ثم وصف هؤلاء المحسنين فقال: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ فهذا الموصول فى محل نصب على أنه نعت للموصول الأول فى قوله: الَّذِينَ أَحْسَنُوا و قيل بدل منه، و قيل بيان له، و قيل منصوب على المدح بإضمار أعنى، أو فى رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هم الذين يجتنبون كبائر الإثم. قرأ الجمهور:

كَبائِرَ على الجمع. و قرأ حمزة و الكسائى و الأعمش و يحيى بن وثّاب كبير على الإفراد، و الكبائر:

كل ذنب توعّد اللّه عليه بالنار، أو ذمّ فاعله ذمّا شديدا، و لأهل العلم فى تحقيق الكبائر كلام طويل. و كما اختلفوا فى تحقيق معناها و ماهيتها اختلفوا فى عددها، و الفواحش: جمع فاحشة، و هى ما فحش من كبائر الذنوب كالزنا و نحوه. و قال مقاتل: كبائر الإثم كل ذنب ختم بالنار، و الفواحش: كلّ ذنب فيه الحد. و قيل:

الكبائر: الشركـ، و الفواحش: الزنا، و قد قدّمنا فى سورة النساء ما هو أبسط من هذا و أكثر فائدة، و الاستثناء بقوله: إِلَّا اللَّمَمَ منقطع «۱». و أصل اللمم فى اللغة ما قلّ و صغر، منه: ألمّ بالمكان قلّ لبثه فيه، و ألمّ بالطعام قلّ أكله منه، قال المبرد: أصل اللمم أن تلمّ بالشىء من غير أن تركبه. يقال: ألم بكذا إذا قاربه و لم يخالطه. قال الأزهرى: العرب تستعمل الإلمام فى معنى الدنوّ و القرب، و منه قول جرير:

---

(۱). فى تفسير القرطبى (۱۷/ ۱۰۸): متصل.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۳۶ بنفسى من تجنّبه عزيزعلىّ و من زيارته لمام

و قول الآخر:

متى تأتنا تلمّم بنا فى ديارناتجد حطبا جزلا «۱» و نارا تأجّجا

قال الزجاج: أصل اللمم و الإلمام ما يعمله الإنسان المرّة بعد المرّة، و لا يتعمق فيه، و لا يقيم عليه، يقال:

ألممت به؛ إذا زرته و انصرفت عنه، و يقال: ما فعلته إلا لمما و إلماما، أى: الحين بعد الحين، و منه إلمام الخيال. قال الأعشى:

ألمّ خيال من قتيلة بعد ماهى حبلها من حبلنا فتصرّما

قال فى الصحاح: ألمّ الرجل من اللمم و هو صغائر الذنوب، و يقال: هو مقاربة المعصية من غير مواقعة، و أنشد غيره:

بزينب ألمم قبل أن يرحل الرّكبو قل إن تملّينا فما ملّك القلب

و قد اختلفت أقوال أهل العلم فى تفسير هذا اللمم المذكور فى الآية، فالجمهور على أنه صغائر الذنوب، و قيل: هو ما كان دون الزنا من القبلة و الغمزة و النظرة، و قيل: هو الرجل يلم بذنب ثم يتوب، و به قال مجاهد و الحسن و الزهرى و غيرهم، و منه:

إن تغفر اللّهم تغفر جمّاو أىّ عبد لك لا ألمّا؟

اختار هذا القول الزجاج و النحاس. و قيل: هو ذنوب الجاهلية، فإن اللّه لا يؤاخذ بها فى الإسلام، و قال نفطويه: هو أن يأتى بذنب لم يكن له بعبادة. قال: و العرب تقول: ما تأتينا إلا إلماما، أى: فى الحين بعد الحين. قال: و لا يكون أن يلمّ و لا يفعل؛ لأن العرب لا- تقول ألمّ بنا إلا- إذا فعل، لا- إذا همّ و لم يفعل، و الراجح الأول، و جملة: إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ تعليل لما تضمنه الاستثناء، أى: إن ذلك و إن خرج عن حكم المؤاخذة فليس يخلو عن كونه ذنبا يفتقر إلى مغفرة اللّه و يحتاج إلى رحمته، و قيل: إنه سبحانه يغفر لمن تاب عن ذنبه. ثم ذكر سبحانه إحاطة علمه بأحوال عباده فقال: هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ أى: خلقكم منها فى ضمن خلق أبيكم آدم. و قيل: المراد آدم فإنه خلقه من طين وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ أى: هو أعلم بأحوالكم وقت كونكم أجنّة، و الأجنّة: جمع جنين هو الولد ما دام فى البطن، سمّى بذلك لاجتنانه، أى: استتاره، و لهذا قال: فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فلا يسمّى من خرج عن البطن جنينا، و الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ أى لا تمدحوها و لا تبرئوها عن الآثام و لا تثنوا عليها، فإن ترك تزكية النفس أبعد من الرياء و أقرب إلى الخشوع، و جملة: هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى مستأنفة مقررة

---

(۱). «الجزل»: الكثير العظيم.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۳۷

للنهى، أى: هو أعلم بمن أتقى عقوبة اللّه و أخلص العمل له. قال الحسن: و قد علم سبحانه من كلّ نفس ما هى عاملة، و ما هى صانعة، و إلى ما هى صائرة. ثم لمّا بيّن سبحانه جهالة المشركين على العموم خصّ بالذمّ بعضهم، فقال: أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى أى: تولى عن الخير، و أعرض عن اتباع الحق وَ أَعْطى قَلِيلًا وَ أَكْدى أى: أعطى عطاء قليلا، و أعطى شيئا قليلا، و قطع ذلك و أمسك عنه، و أصل أكدى من الكدية و هى الصّلابة، يقال: لمن حفر بئرا ثم بلغ فيها إلى حجر لا- يتهيأ له فيه حفر: قد أكدى، ثم استعملته العرب لمن أعطى فلم يتمّ، و لمن طلب شيئا فلم يبلغ آخره، و منه قول الحطيئة:

فأعطى قليلا ثم أكدى عطاءهو من يبذل المعروف فى النّاس يحمد

قال الكسائى و أبو زيد: [أكدى الحافر و أجبل: إذا بلغ فى حفره كدية أو جبلا، فلا يمكنه أن يحفر.

و حفر فأكدى: إذا بلغ إلى الصّلب «۱». و يقال: كديت أصابعه: إذا محلت «۲» من الحفر، و كديت يده: إذا كلّت فلم تعمل شيئا،

و كدت الأرض: إذا قلّ نباتها، و أكديت الرجل عن الشيء رددته، و أكدى الرجل: إذا قلّ خيره. قال الفراء: معنى الآية: أمسك من العطية و قطع. و قال المبرد: منعه منعا شديدا.

قال مجاهد و ابن زيد و مقاتل: نزلت فى الوليد بن المغيرة، و كان قد اتبع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على دينه، فعيّره بعض المشركين فترك و رجع إلى شركه. قال مقاتل: كان الوليد مدح القرآن، ثم أمسك عنه فأعطى قليلا من لسانه من الخير ثم قطعه. و قال الضحاك: نزلت فى النضر بن الحارث. و قال محمد بن كعب القرظى: نزلت فى أبى جهل. أَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و المعنى: أعند هذا المكدى علم ما غاب عنه أمر العذاب، فهو يعلم ذلك أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى أى: أ لم يخبر و لم يحدّث بما فى صحف موسى؟ يعنى أسفاره، و هى التوراة، و بما فى صحف إبراهيم الّذى و فى، أى: تمّم و أكمل ما أمر به. قال المفسرون: أى: بلّغ قومه ما أمر به و أدّاه إليهم، و قيل: بالغ فى الوفاء بما عاهد اللّه عليه. ثم بيّن سبحانه ما فى صحفهما فقال: أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أى: لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى، و معناه: لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، و «أن» هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن مقدّر، و خبرها الجملة بعدها، و محل الجملة الجرّ على أنها بدل من صحف موسى و صحف إبراهيم، أو الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، و قد مضى تفسير هذه الآية فى سورة الأنعام وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى عطف على قوله: أَلَّا تَزِرُ و هذا أيضا ممّا فى صحف موسى، و المعنى: ليس له إلا أجر سعيه و جزاء عمله، و لا ينفع أحدا عمل أحد، و هذا العموم مخصوص بمثل قوله سبحانه: أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ «٣»، و بمثل ما ورد فى شفاعة الأنبياء و الملائكة للعباد و مشروعية دعاء الأحياء للأموات و نحو ذلك،

---

(١). من تفسير القرطبى (١١/ ١١٢)

(٢). فى تفسير القرطبى: كلّت.

(٣). الطور: ٢١.

و لم يصب من قال: إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور، فإن الخاصّ لا ينسخ العام، بل يخصصه، فكل ما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به و هو من غير سعيه كان مخصصا لما فى هذه الآية من العموم. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى أى: يعرض عليه و يكشف له يوم القيامة ثُمَّ يُجْزاهُ أى: يجزى الإنسان سعيه، يقال: جزاه اللّه بعمله و جزاه على عمله، فالضمير المرفوع عائد إلى الإنسان و المنصوب إلى سعيه. و قيل:

إن الضمير المنصوب راجع إلى الجزاء المتأخر و هو قوله: الْجَزاءَ الْأَوْفى فيكون الضمير راجعا إلى متأخّر عنه هو مفسر له، و يجوز أن يكون الضمير المنصوب راجعا إلى الجزاء الّذى هو مصدر يجزاه، و يجعل الجزاء الأوفى تفسيرا للجزاء المدلول عليه بالفعل، كما فى قوله: اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ «١» قال الأخفش: يقال: جزيته الجزاء «٢» و جزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما وَ أَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى أى: المرجع و المصير إليه سبحانه لا إلى غيره فيجازيهم بأعمالهم.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ قال: الكبائر:

ما سمّى اللّه فيه النار، و الفواحش: ما كان فيه حدّ الدنيا. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن اللّه كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، و النفس تتمنّى و تشتهى، و الفرج يصدّق ذلك أو يكذبه». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى، فى الشعب، عن ابن مسعود فى قوله: إِلَّا اللَّمَمَ قال: زنا

العينين: النظر، وزنا الشفتين:

التقبيل، وزنا اليدين: البطش، وزنا الرجلين: المشى، و يصدّق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانيا، و إلا فهو اللمم.

و أخرج مسدد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة أنه سئل عن قوله: إِلَّا اللَّمَمَ قال: هى النظرة و الغمزة و القبلة و المباشرة، فإذا مسّ الختان الختان فقد وجب الغسل، و هو الزنا.

و أخرج سعيد بن منصور، و الترمذى و صحّحه، و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس قال فى قوله: إِلَّا اللَّمَمَ هو الرجل يلمّ بالفاحشة ثم يتوب منها. قال: و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

إن تغفر اللّهمّ تغفر جمّاو أىّ عبد لك لا ألمّا؟

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: إِلَّا اللَّمَمَ يقول: إلا ما قد سلف. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة فى قوله: إِلَّا اللَّمَمَ قال:

اللمة: من الزنا ثم يتوب و لا يعود، و اللمة: من شرب الخمر ثم يتوب و لا يعود، فذلك الإلمام. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن ابن عباس قال: اللمم كل شىء بين الحدّين حدّ الدنيا و حدّ الآخرة يكفّره الصلاة، و هو دون كلّ موجب، فأما حدّ الدنيا فكلّ حدّ فرض اللّه عقوبته فى الدنيا؛ و أما حدّ الآخرة فكلّ شىء

---

(۱). المائدة: ۸.

(۲). من تفسير القرطبى (۱۷/ ۱۱۵)

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۳۹

ختمه اللّه بالنار و أخّر عقوبته إلى الآخرة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه، و أبو نعيم فى المعرفة، عن ثابت بن الحارث الأنصارى قال: كانت اليهود إذا هلك لهم صبىّ صغير قالوا: هو صدّيق، فبلغ ذلك النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «كذبت يهود ما من نسمة يخلقها فى بطن أمها إلا أنه شقىّ أو سعيد، فأنزل اللّه عند ذلك هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ الآية كلها». و أخرج أحمد و مسلم و أبو داود عن زينب بنت أبى سلمة أنها سميت برّة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تزكوا أنفسكم اللّه أعلم بأهل البرّ منكم، سمّوها زينب». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ أَعْطى قَلِيلًا وَ أَكْدى قال: قطع، نزلت فى العاص بن وائل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: أطاع قليلا ثم انقطع. و أخرج سعيد ابن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و الشيرازى فى الألقاب، و الديلمى، قال السيوطى: بسند ضعيف، عن أبى أمامة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أ تدرون ما قوله: وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: و فى عمل يومه بأربع ركعات كان يصليهنّ، و زعم أنها صلاة الضحى» و فى إسناده جعفر بن الزبير، و هو ضعيف. و أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: سهام الإسلام ثلاثون سهما لم يتمّمها أحد قبل إبراهيم عليه السلام قال اللّه: وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: يقول إبراهيم الّذى استكمل الطاعة فيما فعل بابنه حين رأى الرؤيا، و الّذى فى صحف موسى. أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى إلى آخر الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن سهل بن معاذ ابن أنس عن أبيه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «ألا أخبركم لم سمّى اللّه إبراهيم خليله الّذى وفّى؟ إنه كان يقول كلما أصبح و أمسى: فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ إلى آخر الآية» و فى إسناده ابن لهيعة. و أخرج عبد بن حميد، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس. قال: لما نزلت: وَ النَّجْمِ فبلغ وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى قال: و فى أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى إلى قوله: مِنَ

النُّذُرِ الْأَولى

و أخرج أبو داود و النحاس كلاهما فى الناسخ، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عنه قال: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى فأنزل اللّه بعد ذلك وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ «١»، فأدخل اللّه الأبناء الجنة بصلاح الآباء. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا قرأ:

وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى استرجع و استكان.

و أخرج الدار قطنى فى الأفراد، و البغوى فى تفسيره، عن أبيّ بن كعب عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ أَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى قال: «لا فكرة فى الرب» «٢».

[سورة النجم (٥٣): الآيات ٤٣ الى ٦٢]

وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكى (٤٣) وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْيا (٤٤) وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى (٤٦) وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى (٤٧)

وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَ أَقْنى (٤٨) وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى (٤٩) وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى (٥٠) وَ ثَمُودَ فَما أَبْقى (٥١) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغى (٥٢)

وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى (٥٣) فَغَشَّاها ما غَشَّى (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى (٥٥) هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ (٥٨) أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَ تَضْحَكُونَ وَ لا تَبْكُونَ (٦٠) وَ أَنْتُمْ سامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا (٦٢)

---

(١). الطور: ٢١.

(٢). أى لا تحيط به الفكرة. [تفسير البغوى: ٤/ ٢٥٥].

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٤٠

قوله: وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكى أى: هو الخالق لذلك و القاضى بسببه. قال الحسن و الكلبى:

أضحك أهل الجنة فى الجنة، و أبكى أهل النار فى النار. و قال الضحاك: أضحك الأرض بالنبات، و أبكى السماء بالمطر، و قيل: أضحك من شاء فى الدنيا بأن سرّه، و أبكى من شاء بأن غمّه. و قال سهل بن عبد اللّه:

أضحك المطيعين بالرحمة، و أبكى العاصين بالسخط وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْيا أى: قضى أسباب الموت و الحياة، و لا يقدر على ذلك غيره، و قيل: خلق نفس الموت و الحياة، كما فى قوله: خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ «١» و قيل: أمات الآباء و أحيا الأبناء، و قيل: أمات فى الدنيا و أحيا للبعث و قيل: المراد بهما النوم و اليقظة. و قال عطاء: أمات بعدله و أحيا بفضله، و قيل: أمات الكافر و أحياء المؤمن، كما فى قوله: أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ «٢» وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى المراد بالزوجين الذكر و الأنثى من كل حيوان، و لا يدخل فى ذلك آدم و حوّاء فإنهما لم يخلقا من النطفة، و النطفة: الماء القليل، و معنى: إِذا تُمْنى إذا تصبّ فى الرحم و تدفق فيه، كذا قال الكلبى و الضحاك و عطاء بن أبى رباح و غيرهم، يقال: منى الرجل و أمنى، أى: صب المنيّ. و قال أبو عبيدة إِذا تُمْنى إذا تقدّر، يقال:

منيت الشي‏ء: إذا قدّرته، و منى له أى: قدّر له، و منه قول الشاعر «٣»:

حتّى تلاقى ما يمنى لك المانى «٤» و المعنى: أنه يقدّر منها الولد. وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى أى: إعادة الأرواح إلى الأجسام عند

البعث وفاء بوعده. قرأ الجمهور: النَّشْأَةَ بالقصر بوزن الضربة، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بالمدّ بوزن الكفالة، و هما على القراءتين مصدران وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَ أَقْنى أى: أغنى من شاء و أفقر من شاء، و مثله قوله: يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ* «٥» و قوله: يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ «٦» قاله ابن زيد، و اختاره ابن جرير، و قال مجاهد و قتادة و الحسن: أغنى: موّل، و أقنى: أخدم، و قيل: معنى أقنى: أعطى القنية، و هى ما يتأثل من الأموال. و قيل: معنى أقنى: أرضى بما أعطى، أى: أغناه، ثم رضّاه بما أعطاه. قال الجوهرى: قنى الرجل قنى، مثل غنى غنى، أى: أعطاه ما يقتنى، و أقناه: أرضاه، و القنى: الرضا. قال أبو زيد: تقول

---

(١). الملك: ٢.

(٢). الأنعام: ١٢٢.

(٣). هو أبو قلابة الهذلى.

(۴). و صدره: و لا تقولن لشىء سوف أفعله.

(۵). الرعد: ٢۶.

(۶). البقرة: ٢۴۵.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ١۴١

العرب من أعطى مائة من البقر فقد أعطى القنى، و من أعطى مائة من الضأن فقد أعطى الغنى، و من أعطى مائة من الإبل فقد أعطى المنى. قال الأخفش و ابن كيسان: أقنى: أفقر، و هو يؤيد القول الأوّل وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى هى كوكب خلف الجوزاء كانت خزاعة تعبدها، و المراد بها الشّعرى التى يقال لها العبور، و هى أشدّ ضياء من الشعرى التى يقال لها الغميصاء. و إنما ذكر سبحانه أنه ربّ الشعرى مع كونه ربا لكلّ الأشياء للردّ على من كان يعبدها، و أوّل من عبدها أبو كبشة، و كان من أشراف العرب، و كانت قريش تقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ابن أبى كبشة تشبيها له به لمخالفته دينهم كما خالفهم أبو كبشة، و من ذلك قول أبى سفيان يوم الفتح: لقد أمر أمر ابن أبى كبشة: وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى وصف عادا بالأولى لكونهم كانوا من قبل ثمود. قال ابن زيد: قيل لها عادا الأولى، لأنهم أوّل أمة أهلكت بعد نوح. و قال ابن إسحاق: هما عادان، فالأولى أهلكت بالصّرصر، و الأخرى أهلكت بالصيحة. و قيل: عاد الأولى قوم هود و عاد الأخرى إرم.

قرأ الجمهور: عاداً الْأُولى بالتنوين و الهمز، و قرأ نافع و ابن كثير و ابن محيصن بنقل حركة الهمزة على اللام و إدغام التنوين فيها وَ ثَمُودَ فَما أَبْقى أى: و أهلك ثمودا كما أهلك عادا، فما أبقى من الفريقين، و ثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة، و قد تقدّم الكلام على عاد و ثمود فى غير موضع وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ أى:

و أهلك قوم نوح من قبل إهلاك عاد و ثمود إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغى أى: أظلم من عاد و ثمود و أطغى منهم، أو أظلم و أطغى من جميع الفرق الكفرية، أو أظلم و أطغى من مشركى العرب، و إنما كانوا كذلك لأنهم عتوا على اللّه بالمعاصى مع طول مدة دعوة نوح لهم، كما فى قوله: فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً «١» وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى الائتفاك: الانقلاب، و المؤتفكة: مدائن قوم لوط، و سميت المؤتفكة.

لأنها انقلبت بهم و صار عاليها سافلها، تقول: أفكته إذا قلبته، و معنى أهوى: أسقط، أى: أهواها جبريل بعد أن رفعها. قال المبرد: جعلها تهوى فَغَشَّاها ما غَشَّى أى: ألبسها ما ألبسها من الحجارة التى وقعت عليها، كما فى قوله: فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ «٢» و فى هذه العبارة تهويل للأمر الّذى غشّاها به و تعظيم له، و قيل: إن الضمير راجع إلى جميع الأمم المذكورة، أى: فغشّاها من العذاب ما غشّى على اختلاف أنواعه فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى هذا خطاب للإنسان المكذب، أى:

فبأى نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكّك و تمترى، و قيل: الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تعريضا لغيره، و قيل: لكلّ من يصلح له، و إسناد فعل التمارى إلى الواحد باعتبار تعدّده بحسب تعدد متعلقه، و سمّى هذه الأمور المذكورة آلاء، أى: نعما مع كون بعضها نقما لا نعما، لأنها مشتملة على العبر و المواعظ، و لكون فيها انتقام من العصاة، و فى ذلك نصرة للأنبياء و الصالحين. قرأ الجمهور: تَتَمارى من غير إدغام، و قرأ يعقوب و ابن محيصن بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى أى: هذا محمد رسول إليكم من الرسل المتقدّمين قبله فإنه أنذركم كما أنذروا قومهم، كذا قال ابن جريج و محمد بن كعب و غير هما. و قال

---

(۱). العنكبوت: ۱۴.

(۲). الحجر: ۷۴.

قتادة: يريد القرآن، و أنه أنذر بما أنذرت به الكتب الأولى، و قيل: هذا الّذى أخبرنا به عن أخبار الأمم تخويف لهذه الأمة أن ينزل بهم ما نزل بأولئك، كذا قال أبو مالك. و قال أبو صالح: إن الإشارة بقوله: هذا إلى ما فى صحف موسى و إبراهيم، و الأوّل أولى أَزِفَتِ الْآزِفَةُ أى: قربت الساعة و دنت، سمّاها آزفة لقرب قيامها، و قيل: لدنوّها من الناس، كما فى قوله: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ «۱» أخبرهم بذلك ليستعدّوا لها.

قال فى الصحاح: أزفت الآزفة: يعنى القيامة، و أزف الرجل عجل، و منه قول الشاعر:

أزف التّرحّل غير أنّ ركابنالمّا تزل برحالنا و كأن قد

و لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ أى: ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها إلا اللّه سبحانه، و قيل: كاشفة بمعنى انكشاف، و الهاء فيها كالهاء فى العاقبة و الداهية، و قيل: كاشفة بمعنى كاشف، و الهاء للمبالغة كرواية، و الأوّل أولى، و كاشفة صفة لموصوف محذوف كما ذكرنا، و المعنى: أنه لا يقدر على كشفها إذا غشت الخلق بشدائدها و أهوالها أحد غير اللّه، كذا قال عطاء و الضحاك و قتادة و غيرهم. ثم وبّخهم سبحانه فقال: أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ المراد بالحديث القرآن، أى: كيف تعجبون منه تكذيبا وَ تَضْحَكُونَ منه استهزاء مع كونه غير محلّ للتكذيب و لا موضع للاستهزاء وَ لا تَبْكُونَ خوفا و انزجارا لما فيه من الوعيد الشديد، و جملة: وَ أَنْتُمْ سامِدُونَ فى محل نصب على الحال، و يجوز أن تكون مستأنفة لتقرير ما فيها، و السمود: الغفلة و السهو عن الشي‌ء. و قال فى الصّحاح: سمد سمودا رفع رأسه تكبرا، فهو سامد، قال الشاعر «۲»:

سوامد اللّيل خفاف الأزواد و قال ابن الأعرابى: السّمود: اللهو، و السّامد: اللاهى، يقال للقينة: أسمدينا، أى: ألهينا بالغناء، و قال المبرد: سامدون: خامدون. قال الشاعر:

رمى الحدثان نسوة آل عمروبمقدار سمدن له سمودا

فردّ شعورهنّ السّود بيضاو ردّ وجوههنّ البيض سودا

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا لمّا وبّخ سبحانه المشركين على الاستهزاء بالقرآن و الضحك منه و السخرية به و عدم الانتفاع بمواعظه و زواجره؛ أمر عباده المؤمنين بالسّجود للّه و العبادة له، و الفاء جواب شرط محذوف، أى: إذا كان الأمر من الكفار كذلك، فاسجدوا للّه و اعبدوا، فإنه المستحقّ لذلك منكم، و قد تقدم فى فاتحة السورة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سجد عند تلاوة هذه الآية، و سجد معه الكفار، فيكون المراد بها سجود التلاوة، و قيل: سجود الفرض.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَ أَقْنى قال: أعطى

---

(١). القمر: ١.

(٢). هو رؤبة بن العجاج.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٤٣

و أرضى. و أخرج ابن جرير عنه وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى قال: هو الكوكب الّذى يدعى الشعرى.

و أخرج الفاكهى عنه أيضا قال: نزلت هذه الآية فى خزاعة، و كانوا يعبدون الشّعرى، و هو الكوكب الّذى يتبع الجوزاء. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى قال: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم.

و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الآزفة من أسماء القيامة. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و هناد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن صالح أبى الخليل قال: لما نزلت هذه الآية أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ- وَ تَضْحَكُونَ وَ لا تَبْكُونَ فما ضحك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد ذلك إلا أن يتبسم. و لفظ عبد بن حميد:

فما رؤى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم ضاحكا و لا متبسّما حتى ذهب من الدنيا. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: سامِدُونَ قال:

لاهون معرضون عنه. و أخرج الفريابى، و أبو عبيد فى فضائله، و عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى، و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه، عنه: وَ أَنْتُمْ سامِدُونَ قال: الغناء باليمانية، كانوا إذا سمعوا القرآن تغنّوا و لعبوا. و أخرج الفريابى و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: سامِدُونَ قال: كانوا يمرّون على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم شامخين، ألم تر إلى البعير كيف يخطر شامخا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير عن أبى خالد الوالبى قال: خرج علىّ بن أبى طالب علينا و قد أقيمت الصلاة و نحن قيام ننتظره ليتقدّم، فقال: مالكم سامدون؟ لا أنتم فى صلاة، و لا أنتم فى جلوس تنتظرون؟

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٤٤

سورة القمر

اشارة

و يقال سورة اقتربت، و هى خمس و خمسون آية و هى مكية كلها فى قول الجمهور. و قال مقاتل: هى مكية إلا ثلاث آيات من قوله: أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ إلى قوله: وَ السَّاعَةُ أَدْهى وَ أَمَرُّ قال القرطبى: و لا يصحّ. و أخرج ابن الضريس و ابن مردويه و النحاس، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس:

أنها نزلت بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس قال:

«اقتربت» تدعى فى التوراة المبيضة؛ تبيض وجه صاحبها يوم تبيض الوجوه. قال البيهقى: منكر. و أخرج ابن الضريس عن إسحاق بن عبد اللّه بن أبى فروة، رفعه: «من قرأ اقتربت السّاعة فى كلّ ليلتين بعثه اللّه يوم القيامة و وجهه كالقمر ليلة البدر». و أخرج ابن الضريس نحوه عن ليث بن معن عن شيخ من همدان رفعه، و قد تقدم أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ بقاف و اقتربت الساعة فى الأضحى و الفطر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القمر (۵۴): الآيات ۱ الى ۱۷]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ (۱) وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (۲) وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (۳)
وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ (۴)
حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ (۵) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ (۶) خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ
مُنْتَشِرٌ (۷) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ (۸) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ (۹)
فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (۱۰) فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (۱۱) وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (۱۲)
وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ (۱۳) تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ (۱۴)
وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۱۵) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (۱۶) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۱۷)

قوله: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ أى: قربت و لا شك أنها قد صارت، فاعتبار نسبة ما بقى بعد قيام النبوّة المحمدية إلى ما مضى من الدنيا قريبة. و يمكن أن يقال: إنها لما كانت متحققة الوقوع لا محالة كانت قريبة، فكلّ آت قريب وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ أى: و قد انشقّ القمر، و كذا قرأ حذيفة بزيادة قد، و المراد:

الانشقاق الواقع فى أيام النبوّة معجزة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و إلى هذا ذهب الجمهور من السلف و الخلف. قال الواحدى: و جماعة المفسرين على هذا إلا ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: المعنى سينشقّ القمر، و العلماء كلهم على خلافه. قال: و إنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر؛ لأن انشقاقه من علامات نبوّة محمد

صلّى اللّه عليه و سلّم و نبوّته و زمانه من أشراط اقتراب الساعة. قال ابن كيسان: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: انشقّ القمر و اقتربت الساعة. و حكى القرطبى عن الحسن مثل قول عطاء: أنه الانشقاق الكائن يوم القيامة. و قيل: معنى و انشقّ القمر: وضح الأمر و ظهر، و العرب تضرب بالقمر المثل فيما وضح. و قيل: انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه، و طلوعه فى أثنائها، كما يسمّى الصبح فلقا لانفلاق الظلمة عنه. قال ابن كثير: قد كان الانشقاق فى زمان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما ثبت ذلك فى الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. قال: و هذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و أنه كان إحدى المعجزات الباهرات. قال الزجّاج، زعم قوم عندوا عن القصد و ما عليه أهل العلم أن تأويله: أن القمر ينشقّ يوم القيامة، و الأمر بيّن فى اللفظ و إجماع أهل العلم، لأن قوله: وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ يدلّ على أن هذا كان فى الدنيا لا فى القيامة. انتهى. و لم يأت من خالف الجمهور و قال: إن الانشقاق سيكون يوم القيامة؛ إلا بمجرد استبعاد، فقال: لأنه لو انشق فى زمن النبوّة لم يبق أحد إلا رآه لأنه آية، و الناس فى الآيات سواء. و يجاب عنه بأنه لا يلزم أن يراه كل أحد لا عقلا و لا شرعا و لا عادة، و مع هذا فقد نقل إلينا بطريق التواتر، و هذا بمجرده يدفع الاستبعاد و يضرب به فى وجه قائله.

و الحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب اللّه، فقد أخبرنا بأنه انشقّ، و لم يخبرنا بأنه سينشق، و إن نظرنا إلى سنّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقد ثبت فى الصحيح و غيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك فى أيام النبوّة، و إن نظرنا إلى أقوال أهل العلم فقد اتفقوا على هذا، و لا يلتفت إلى شذوذ من شذّ، و استبعاد من استبعد، و سيأتى ذكر بعض ما ورد فى ذلك إن شاء اللّه وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ قال الواحدى: قال المفسرون: لما انشقّ القمر قال المشركون: سحرنا محمد، فقال اللّه: وَ إِنْ

يَرَوْا آيَةً يعنى انشقاق القمر يعرضوا عن التصديق و الإيمان بها، و يقولوا: سحر قوىّ شديد يعلو كل سحر، من قولهم: استمرّ الشىء؛ إذا قوى و استحكم، و قد قال بأن معنى مستمرّ: قوى شديد؛ جماعة من أهل العلم. قال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل، و هو شدّة فتله، و به قال أبو العالية و الضحاك، و اختاره النحّاس، و منه قول لقيط:

حتّى استمرّت على شزر مريرته‌صدق العزيمة لا رتّا و لا ضرعا «١»

و قال الفراء و الكسائى و أبو عبيدة سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ أى: ذاهب، من قولهم: مرّ الشىء و استمر؛ إذا ذهب، و به قال قتادة و مجاهد و غير هما، و اختاره النحاس. و قيل: معنى مستمرّ: دائم مطرد، و منه قول الشاعر «٢»:

ألا إنّما الدّنيا ليال و أعصرو ليس على شىء قويم بمستمر

(١). «الرتة»: ردّة قبيحة فى اللسان من العيب. «الضّرع» اللين الذليل.

(٢). هو امرؤ القيس.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١۴۶

أى: بدائم باق، و قيل: مستمرّ: باطل، روى هذا عن أبى عبيدة أيضا. و قيل: يشبه بعضه بعضا، و قيل: قد مرّ من الأرض إلى السماء، و قيل: هو من المرارة، يقال: مرّ الشىء صار مرّا، أى: مستبشع عندهم. و فى هذه الآية أعظم دليل على أن الانشقاق قد كان كما قرّرناه سابقا. ثم ذكر سبحانه تكذيبهم فقال:

وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ أى: و كذبوا رسول اللّه، و ما عاينوا من قدرة اللّه، و اتبعوا أهواءهم و ما زيّنه لهم الشيطان الرجيم، و جملة وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ مستأنفة لتقرير بطلان ما قالوه من التكذيب و اتباع الأهواء، أى: و كلّ أمر من الأمور منته إلى غاية، فالخير يستقرّ بأهل الخير، و الشرّ يستقر بأهل الشرّ. قال الفراء: يقول: يستقرّ قرار تكذيبهم و قرار قول المصدّقين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب و العقاب. قال الكلبى:

المعنى لكل أمر حقيقة ما كان منه فى الدنيا فسيظهر، و ما كان منه فى الآخرة فسيعرف. قرأ الجمهور:

مُسْتَقِرٌّ بكسر القاف، و هو مرتفع على أنه خبر المبتدأ و هو «كلّ». و قرأ أبو جعفر و زيد بن على بجرّ مستقر على أنه صفة لأمر، و قرأ شيبة بفتح القاف، و رويت هذه القراءة عن نافع. قال أبو حاتم:

و لا وجه لها، و قيل: لها وجه بتقدير مضاف محذوف، أى: و كلّ أمر ذو استقرار، أو زمان استقرار، أو مكان استقرار، على أنه مصدر، أو ظرف زمان، أو ظرف مكان وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ أى: و لقد جاء كفار مكة، أو الكفار على العموم من الأنباء، و هى أخبار الأمم المكذّبة المقصوصة علينا فى القرآن ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ أى: ازدجار على أنه مصدر ميمىّ، يقال: زجرته؛ إذا نهيته عن السوء و وعظته، و يجوز أن يكون اسم مكان، و المعنى: جاءهم ما فيه موضع ازدجار، أى: إنه فى نفسه موضع لذلك، و أصله مزتجر، و تاء الافتعال تقلب دالا مع الزاى و الدال و الذال كما تقرّر فى موضعه، و قرأ زيد بن علىّ مزّجر بقلب تاء الافتعال زايا و إدغام الزاى فى الزاى، و «من» فى قوله: مِنَ الْأَنْباءِ للتبعيض، و هى و ما دخلت عليه فى محل نصب على الحال، و ارتفاع حِكْمَةٌ بالِغَةٌ على أنها خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من «ما»، بدل كل من كل، أو بدل اشتمال، و المعنى: إن القرآن حكمة قد بلغت الغاية، ليس فيها نقص و لا خلل، و قرئ بالنصب على أنها حال من «ما»، أى: حال كون ما فيه مزدجر حكمة بالغة فَما تُغْنِ النُّذُرُ «ما» يجوز أن تكون استفهامية و أن تكون نافية، أى: أىّ شىء تغنى النذر؟ أو: لم تغن النذر شيئا، و الفاء لترتيب عدم الإغناء على مجى‌ء الحكمة البالغة، و النذر جمع نذير بمعنى المنذر، أو بمعنى الإنذار على أنه مصدر. ثم أمره اللّه سبحانه بالإعراض عنهم فقال: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ أى: أعرض عنهم حيث لم يؤثر فيهم الإنذار، و هى منسوخة بآية السيف يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ

إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ انتصاب الظرف إما بفعل مقدّر، أى: اذكر، و إما بيخرجون المذكور بعده، و إما بقوله: فَما تُغْنِ و يكون قوله: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ اعتراض، أو بقوله: يَقُولُ الْكافِرُونَ أو بقوله: خُشَّعاً و سقطت الواو من يدع اتباعا للفظ، و قد وقعت فى الرسم هكذا و حذفت الياء من الداع للتخفيف و اكتفاء بالكسرة، و الداع هو إسرافيل، و الشىء النكر: الأمر الفظيع الّذى ينكرونه استعظاما له لعدم تقدّم العهد لهم بمثله. قرأ الجمهور بضم الكاف.

و قرأ ابن كثير بسكونها تخفيفا. و قرأ مجاهد و قتادة بكسر الكاف و فتح الراء على صيغة الفعل المجهول

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٤٧

خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ قرأ الجمهور: خُشَّعاً جمع خاشع. و قرأ حمزة و الكسائى و أبو عمرو خاشعا على الإفراد، و منه قول الشاعر «١»:

و شباب حسن أوجههم من‌إياد بن نزار بن معدّ

و قرأ ابن مسعود خاشعة قال الفراء: الصفة إذا تقدّمت على الجماعة جاز فيها التذكير و التأنيث و الجمع، يعنى جمع التكسير لا جمع السلامة؛ لأنه يكون من الجمع بين فاعلين، و مثل قراءة الجمهور قول امرئ القيس «٢»:

وقوفا بها صحبى علىّ مطيّهم‌يقولون لا تهلك أسى و تجلّد

و انتصاب «خشّعا» على الحال من فاعل «يخرجون»، أو من الضمير فى «عنهم»، و الخشوع فى البصر الخضوع و الذلة، و أضاف الخشوع إلى الأبصار لأن العزّ و الذلّ يتبيّن فيها يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ أى: يخرجون من القبور، و واحد الأجداث: جدث، و هو القبر، كأنهم لكثرتهم و اختلاط بعضهم ببعض جراد منتشر، أى: منبثّ فى الأقطار، مختلط بعضه ببعض مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ الإهطاع:

الإسراع، أى: قال كونهم مسرعين إلى الداعى، و هو إسرافيل، و منه قول الشاعر:

بدجلة دارهم و لقد أراهم‌بدجلة مهطعين إلى السّماع

أى: مسرعين إليه. و قال الضحاك: مقبلين. و قال قتادة: عامدين. و قال عكرمة: فاتحين آذانهم إلى الصوت، و الأوّل أولى، و به قال أبو عبيدة و غيره، و جملة يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ فى محل نصب على الحال من ضمير «مهطعين»، و الرابط مقدر أو مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا يكون حينئذ؟ و العسر: الصعب الشديد، و فى إسناد هذا القول إلى الكفار دليل على أن اليوم ليس بشديد على المؤمنين. ثم ذكر سبحانه تفصيل بعض ما تقدّم من الأنباء المجملة فقال: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ أى: كذّبوا نبيّهم، و فى هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قوله: فَكَذَّبُوا عَبْدَنا تفسير لما قبله من التكذيب المبهم، و فيه مزيد تقرير و تأكيد، أى: فكذّبوا عبدنا نوحا، و قيل: المعنى: كذّبت قوم نوح الرسل، فكذبوا عبدنا نوحا بتكذيبهم للرسل؛ فإنه منهم. ثم بيّن سبحانه أنهم لم يقتصروا على مجرّد التكذيب فقال: وَ قالُوا مَجْنُونٌ أى: نسبوا نوحا إلى الجنون، و قوله: وَ ازْدُجِرَ معطوف على قالوا، أى: و زجر عن دعوى النبوّة و عن تبليغ ما أرسل به بأنواع الزجر، و الدال بدل من تاء الافتعال كما تقدّم قريبا، و قيل: إنه معطوف على مجنون، أى: و قالوا إنه ازدجر، أى: ازدجرته الجنّ و ذهبت بلبّه، و الأوّل أولى. قال مجاهد: هو من كلام اللّه سبحانه أخبر عنه بأنه انتهر و زجر بالسبّ و أنواع الأذى. قال الرازى: و هذا أصح؛ لأن المقصود

---

(١). هو الحرث بن دوس الإيادى، و يروى لأبى دؤاد الإيادى.

(٢). البيت لطرفة بن العبد. انظر: شرح المعلقات السبع للزوزنى ص (٨٨)

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٤٨

تقوية قلب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بذكر من تقدّمه فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ أى: دعا نوح ربّه على قومه بأنى مغلوب من

جهة قومى لتمرّدهم عن الطاعة و زجرهم لى عن تبليغ الرسالة، فانتصر لى، أى: انتقم لى منهم.
طلب من ربه سبحانه النصرة عليهم لمّا أيس من إجابتهم، و علم تمرّدهم و عتوّهم و إصرارهم على ضلالتهم.
قرأ الجمهور أَنِّي بفتح الهمزة، أى: بأنى. و قرأ ابن أبى إسحاق و الأعمش بكسر الهمزة، و رويت هذه القراءة عن عاصم على تقدير إضمار القول، أى: فقال. ثم ذكر سبحانه ما عاقبهم به فقال: فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ أى: منصبّ انصبابا شديدا، و الهمر: الصبّ بكثرة؛ يقال: همر الماء و الدمع يهمر همرا و همورا؛ إذا كثر، و منه قول الشاعر:
أ عينيّ جودا بالدّموع الهوامرعلى خير باد من معدّ و حاضر
و منه قول امرئ القيس يصف غيثا:
راح تمريه الصّبا ثم انتحىفيه شؤبوب جنوب منهمر «١»
قرأ الجمهور: فَفَتَحْنا مخففا. و قرأ ابن عامر و يعقوب بالتشديد وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً أى:
جعلنا الأرض كلها عيونا متفجرة، و الأصل: فجرنا عيون الأرض. قرأ الجمهور: فَجَّرْنَا بالتشديد، و قرأ ابن مسعود و أبو حيوة و عاصم فى رواية عنه بالتخفيف. قال عبيد بن عمير: أوحى اللّه إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجّرت بالعيون فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ أى: التقى ماء السماء و ماء الأرض على أمر قد قضى عليهم، أى: كائنا على حال قدّرها اللّه و قضى بها. و حكى ابن قتيبة أن المعنى على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر، بل كان ماء السماء و ماء الأرض على سواء. قال قتادة: قدّر لهم إذ كفروا أن يغرقوا.
و قرأ الجحدرى: فالتقى الماءان و قرأ الحسن فالتقى الماوان و رويت هذه القراءة عن علىّ بن أبى طالب و محمد بن كعب. وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ أى: و حملنا نوحا على سفينة ذات ألواح، و هى الأخشاب العريضة وَ دُسُرٍ قال الزجاج: هى المسامير التى تشدّ بها الألواح، واحدها دسار، و كل شىء أدخل فى شىء يشدّه فهو الدسر، و كذا قال قتادة و محمد بن كعب و ابن زيد و سعيد بن جبير و غيرهم.
و قال الحسن و شهر بن حوشب و عكرمة: الدسر: ظهر السفينة التى يضربها الموج، سمّيت بذلك لأنها تدسر الماء، أى: تدفعه، و الدّسر: الدفع، و قال الليث: الدّسار: خيط تشدّ به ألواح السفينة. قال فى الصحاح:
الدّسار واحد الدسر، و هى خيوط تشدّ بها ألواح السفينة، و يقال: هى المسامير تَجْرِي بِأَعْيُنِنا أى:
بمنظر و مرأى منا و حفظ لها، كما فى قوله: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا «٢» و قيل: بأمرنا، و قيل: بوحينا، و قيل:
بالأعين النابعة من الأرض، و قيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ قال الفراء: فعلنا به و بهم ما فعلنا من إنجائه و إغراقهم ثوابا لمن كفر به و جحد أمره، و هو نوح عليه السلام،

---

(١). «راح» عاد فى الرواح. «تمريه»: تستدرّه. «الشؤبوب» الدفعة من المطر.
(٢). هود: ٣٧.

فإنه كان لهم نعمة كفروها، فانتصاب «جزاء» على العلّة، و قيل: على المصدرية بفعل مقدّر، أى: جازيناهم جزاء. قرأ الجمهور: كُفِرَ مبنيا للمفعول، و المراد به نوح. و قيل: هو اللّه سبحانه، فإنهم كفروا به و جحدوا نعمته. و قرأ يزيد بن رومان و قتادة و مجاهد و حميد و عيسى «كفر» بفتح الكاف و الفاء مبنيا للفاعل، أى: جزاء و عقابا لمن كفر باللّه وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً أى: السفينة تركها اللّه عبرة للمعتبرين، و قيل: المعنى: و لقد تركنا هذه الفعلة التى فعلناها بهم عبرة و موعظة فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ أصله مذتكر،

فأبدلت التاء دالا مهملة، ثم أبدلت المعجمة مهملة لتقاربهما، و أدغمت الدال فى الذال و المعنى: هل من متّعظ و معتبر يتّعظ بهذه الآية و يعتبر بها فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ أى: إنذارى. قال الفراء: الإنذار و النذر مصدران، و الاستفهام للتهويل و التعجيب، أى: كانا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بها الوصف، و قيل:
نذر جمع نذير، و نذير بمعنى الإنذار، كنكير بمعنى الإنكار وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ أى: سهّلناه للحفظ، و أعنّا عليه من أراد حفظه، و قيل: هيّأناه للتذكّر و الاتعاظ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ أى: متّعظ بمواعظه و معتبر بعبره. و فى الآية الحث على درس القرآن، و الاستكثار من تلاوته، و المسارعة فى تعلمه. و مدكر أصله مذتكر كما تقدّم قريبا.
و قد أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أنس: «أن أهل مكة سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما». و روى عنه من طريق أخرى عند مسلم و الترمذى و غيرهم قال:
فنزلت اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن ابن مسعود قال: «انشقّ القمر على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فرقتين، فرقة فوق الجبل، و فرقة دونه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: اشهدوا» و أخرج عبد بن حميد، و الحاكم، و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عنه قال: رأيت القمر منشقا شقتين مرّتين، مرّة بمكة قبل أن يخرج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم؛ شقة على أبى قبيس، و شقة على السويداء ... و ذكر أن هذا سبب نزول الآية. و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و أبو نعيم عنه أيضا قال: رأيت القمر و قد انشقّ، و أبصرت الجبل بين فرجتى القمر. و له طرق عنه. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن ابن عباس قال: انشقّ القمر فى زمن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و له طرق عنه. و أخرج مسلم و الترمذى و غير هما عن ابن عمر فى قوله: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ قال: كان ذلك على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم انشقّ فرقتين: فرقة من دون الجبل، و فرقة خلفه، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، اللهم أشد، و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن جبير بن مطعم عن أبيه فى قوله:
وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ قال: انشقّ القمر و نحن بمكة على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى صار فرقة على هذا الجبل و فرقة على هذا الجبل، فقال الناس: سحرنا محمد، فقال رجل: إن كان سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن مردويه و أبو نعيم عن أبى عبد الرّحمن السلمى قال: «خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن، فحمد اللّه و أثنى عليه، ثم قال: اقتربت الساعة و انشقّ القمر، ألا و إن الساعة قد اقتربت، ألا و إن القمر قد انشقّ على عهد رسول

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۵۰

فتح القدير ج۵ ۱۹۹

اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ألا و إن الدنيا قد آذنت بفراق، اليوم المضمار و غدا السباق» و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مُهْطِعِينَ قال: ناظرين. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ قال: كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم و لا بعده إلا من السحاب، و فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ قال: الألواح: ألواح السفينة، و الدسر: معاريضها التى تشد بها السفينة.
و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: وَ دُسُرٍ قال: المسامير. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: الدسر: كلكل السفينة. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عنه أيضا فى قوله: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ قال: لولا أن اللّه

يسّره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلّموا بكلام اللّه. و أخرج الديلمى عن أنس مرفوعا مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ قال: هل من متذكّر.

[سورة القمر (۵۴): الآيات ۱۸ الى ۴۰]

كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (۱۸) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (۱۹) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (۲۰) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (۲۱) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۲۲)

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (۲۳) فَقالُوا أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ (۲۴) أَ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (۲۵) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (۲۶) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ (۲۷)

وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (۲۸) فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ (۲۹) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (۳۰) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (۳۱) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۳۲)

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (۳۳) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ (۳۴) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (۳۵) وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (۳۶) وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ (۳۷)

وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (۳۸) فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ (۳۹) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۴۰)

قوله: كَذَّبَتْ عادٌ هم قوم عاد فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ أى: فاسمعوا كيف كان عذابى لهم و إنذارى إياهم، و «نذر» مصدر بمعنى إنذار كما تقدم تحقيقه، و الاستفهام للتهويل و التعظيم إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً هذه الجملة مبينة لما أجمله سابقا من العذاب، و الصرصر: شدة البرد، أى: ريح شديدة البرد، و قيل: الصرصر: شدّة الصوت، و قد تقدّم بيانه فى سورة حم السجدة فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ أى: دائم الشؤم استمرّ عليهم بنحوسه، و قد كانوا يتشاءمون بذلك اليوم. قال الزجاج: قيل: فى يوم الأربعاء فى آخر الشهر. قرأ الجمهور: «فى يوم نحس» بإضافة يوم إلى نحس مع سكون الحاء، و هو من إضافة الموصوف إلى الصفة، أو على تقدير مضاف، أى: فى يوم عذاب نحس. و قرأ الحسن بتنوين يوم على أن نحس صفة له. و قرأ هارون بكسر الحاء. قال الضحاك: كان ذلك اليوم مرّا عليهم. و كذا

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۵۱

حكى الكسائى عن قوم أنهم قالوا: هو من المرارة، و قيل: هو من المرّة بمعنى القوّة، أى: فى يوم قوىّ الشؤم مستحكمه؛ كالشىء المحكم الفتل الّذى لا يطاق نقضه، و الظاهر أنه من الاستمرار، لا من المرارة و لا من المرّة، أى: دام عليهم العذاب فيه حتى أهلكهم، و شمل بهلاكه كبيرهم و صغيرهم، و جملة تَنْزِعُ النَّاسَ فى محل نصب على أنها صفة لريحا أو حال منها و يجوز أن يكون استئنافا، أى: تقلعهم من الأرض من تحت أقدامهم اقتلاع النّخلة من أصلها. قال مجاهد: كانت تقلعهم من الأرض فترمى بهم على رؤوسهم، فتدقّ أعناقهم، و تبين رؤوسهم من أجسادهم، و قيل: الناس من البيوت، و قيل: من قبورهم؛ لأنّهم حفروا حفائر و دخلوها كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ الأعجاز: جمع عجز، و هو مؤخر الشىء، و المنقعر: المنقطع المنقلع من أصله، يقال: قعرت النخلة؛ إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط. شبّههم فى طول قاماتهم حين صرعتهم الريح و طرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التى ليست لها رؤوس، و ذلك أن الرّيح قلعت رؤوسهم أولا، ثم كبّتهم على وجوههم. و تذكير منقعر مع كونه صفة لأعجاز نخل و هى مؤنثة اعتبارا باللفظ، و يجوز تأنيثه اعتبارا بالمعنى كما قال: أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ «۱» قال المبرد: كل ما ورد عليك من هذا الباب إن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرا، أو إلى المعنى تأنيثا. و قيل: إن النخل و النخيل يذكر و يؤنث فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ قد تقدّم تفسيره قريبا، و كذلك قوله: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ. ثم لما ذكر سبحانه

تكذيب عاد أتبعه بتكذيب ثمود فقال: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ يجوز أن يكون جمع نذير، أى: كذبت بالرّسل المرسلين إليهم، و يجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإنذار، أى: كذبت بالإنذار الّذى أنذروا به، و إنما كان تكذيبهم لرسولهم و هو صالح تكذيبا للرسل؛ لأن من كذّب واحدا من الأنبياء فقد كذب سائرهم لاتفاقهم فى الدعوة إلى كليات الشرائع فَقالُوا أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ الاستفهام للإنكار، أى: كيف نتبع بشرا كائنا من جنسنا منفردا وحده لا متابع له على ما يدعو إليه؟ قرأ الجمهور بنصب «بشرا» على الاشتغال، أى: أ نتبع بشرا واحدا؟ و قرأ أبو السّمال أنه قرأ برفع: «بشرا» و نصب بالرفع على الابتداء، و واحدا صفته، و نتبعه خبره. و روى عن أبى السّمال أنه قرأ برفع: «بشرا» و نصب «واحدا» على الحال. إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ أى: إنّا إذا اتبعناه لفى خطأ و ذهاب عن الحق وَ سُعُرٍ أى: عذاب و عناء و شدّة، كذا قال الفراء و غيره. و قال أبو عبيدة: هو جمع سعير، و هو لهب النار، و السّعر:

الجنون يذهب كذا و كذا لما يلتهب به من الحدّة. و قال مجاهد: «و سعر» و بعد عن الحق. و قال السدى:

فى احتراق، و قيل: المراد به هنا الجنون، من قولهم: ناقة مسعورة، أى: كأنها من شدّة نشاطها مجنونة، و منه قول الشاعر يصف ناقة:

تخال بها سعرا إذ السّفر هزّهاذميل و إيقاع من السّير متعب

ثم كرّروا الإنكار و الاستبعاد، فقالوا: أَ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا أى: كيف خصّ من بيننا بالوحى

---

(١). الحاقة: ٧.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٥٢

و النبوّة، و فينا من هو أحقّ بذلك منه؟ ثم أضربوا عن الاستنكار و انتقلوا إلى الجزم بكونه كذابا أشرا، فقالوا:

بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ و الأشر: المرح و النشاط، أو البطر و التكبر، و تفسيره بالبطر و التكبر أنسب بالمقام، و منه قول الشاعر:

أشرتم بلبس الخزّ لمّا لبستمو من قبل لا تدرون من فتح القرى

قرأ الجمهور «أشر» كفرح. و قرأ أبو قلابة و أبو جعفر بفتح الشين و تشديد الرّاء على أنه أفعل تفضيل.

و نقل الكسائى عن مجاهد أنه قرأ بضم الشين مع فتح الهمزة. ثم أجاب سبحانه عليهم بقوله: سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ و المراد بقوله: «غدا» وقت نزول العذاب بهم فى الدنيا، أو فى يوم القيامة جريا على عادة الناس فى التعبير بالغد عن المستقبل من الأمر و إن بعد، كما فى قولهم: إن مع اليوم غدا، و كما فى قول الحطيئة:

للموت فيها سهام غير مخطئةمن لم يكن ميّتا فى اليوم مات غدا

و منه قول الطّرمّاح:

ألا علّلانى قبل نوح النّوائحو قبل اضطراب النّفس بين الجوانح

و قبل غد يا لهف نفسى على غدإذا راح أصحابى و لست برائح

قرأ الجمهور: «سيعلمون» بالتحتية، إخبار من اللّه سبحانه لصالح عن وقوع العذاب عليهم بعد مدة. و قرأ أبو عمرو و ابن عامر و حمزة بالفوقية على أنه خطاب من صالح لقومه، و جملة: إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ مستأنفة لبيان ما تقدّم إجماله من الوعيد، أى: إنّا مخرجوها من الصخرة على حسب ما اقترحوه فِتْنَةً لَهُمْ أى: ابتلاء و امتحانا، و انتصاب فتنة على العلّة فَارْتَقِبْهُمْ أى: انتظر ما يصنعون وَ اصْطَبِرْ على ما يصيبك من الأذى منهم وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ أى: بين ثمود و بين الناقة، لها يوم و لهم يوم، كما فى قوله: لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ «١» و قال: نَبِّئْهُمْ بضمير العقلاء تغليبا كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ الشّرب: بكسر الشين:

الحظ من الماء. و معنى محتضر: أنه يحضره من هو له، فالناقة تحضره يوما و هم يحضرونه يوما. قال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم، فيشربون، و يحضرون يوم نوبتها فيحتلبون. قرأ الجمهور: «قسمة» بكسر القاف بمعنى مقسوم، و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه بفتحها فَنادَوْا صاحِبَهُمْ أى: نادى ثمود صاحبهم و هو قدار بن سالف عاقر الناقة يحضّونه على عقرها فَتَعاطى فَعَقَرَ أى: تناول الناقة بالعقر فعقرها، أو اجترأ على تعاطى أسباب العقر فعقر.

قال محمد بن إسحاق: كمن لها فى أصل شجرة على طريقها، فرماها بسهم فانتظم به ساقها، ثم شدّ عليها بالسيف فكسر عرقوبها ثم نحرها، و التعاطى: تناول الشيء بتكلّف فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ قد تقدّم

---

(١). الشعراء: ١٥٥.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٥٣

تفسيره فى هذه السورة. ثم بيّن ما أجمله من العذاب فقال: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً قال عطاء:

يريد صيحة جبريل، و قد مضى بيان هذا فى سورة هود و فى الأعراف فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ قرأ الجمهور بكسر الظاء، و الهشيم: حطام الشجر و يابسه، و المحتظر: صاحب الحظيرة، و هو الّذى يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الرّيح، يقال: احتظر على غنمه؛ إذا جمع الشجر و وضع بعضه فوق بعض. قال فى الصحاح: و المحتظر: الّذى يعمل الحظيرة. و قرأ الحسن و قتادة و أبو العالية بفتح الظاء، أى: كهشيم الحظيرة، فمن قرأ بالكسر أراد الفاعل للاحتظار، و من قرأ بالفتح أراد الحظيرة، و هى فعلية بمعنى مفعولة، و معنى الآية أنهم صاروا كالشجر إذا يبس فى الحظيرة و داسته الغنم بعد سقوطه، و منه قول الشاعر:

أثرن عجاجة كدخان نارتشبّ بغرقد بال هشيم

و قال قتادة: هو العظام النّخرة المحترقة. و قال سعيد بن جبير: هو التراب المتناثر من الحيطان فى يوم ريح.

و قال سفيان الثورى: هو ما يتناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصى. قال ابن زيد: العرب تسمى كل شيء كان رطبا فيبس هشيما و منه قول الشاعر:

ترى جيف المطيّ بجانبيه كأنّ عظامها خشب الهشيم

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ قد تقدّم تفسير هذا فى هذه السورة. ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط بأنهم كذبوا رسل اللّه كما كذبهم غيرهم فقال: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ و قد تقدّم تفسير النذر قريبا. ثم بيّن سبحانه ما عذّبهم به فقال: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً أى: ريحا ترميهم بالحصباء، و هى الحصى. قال أبو عبيدة و النّضر بن شميل: الحاصب: الحجارة فى الريح. قال فى الصحاح: الحاصب: الريح الشديدة التى تثير الحصباء، و منه قول الفرزدق:

مستقبلين شمال الشّام يضربهابحاصب كنديف القطن منثور

إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ يعنى لوطا و من تبعه، و السحر: آخر الليل، و قيل: هو فى كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أوّل النهار، و انصرف سحر لأنه نكرة لم يقصد به سحر ليلة معينة و لو قصد معينا لامتنع. كذا قال الزجاج و الأخفش و غير هما، و انتصاب نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا على العلّة، أو على المصدرية، أى: إنعاما منا على لوط و من تبعه كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ أى: مثل ذلك الجزاء نجزى من شكر نعمتنا و لم يكفرها وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا أى: أنذر لوط قومه بطشة اللّه بهم، و هى عذابه الشديد و عقوبته البالغة فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ أى: شكّوا فى الإنذار و لم يصدّقوه، و هو تفاعل من المرية، و هى الشك وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ أى: أرادوا منه تمكينهم ممّن أتاه من الملائكة ليفجروا بهم كما هو دأبهم، يقال:

راودته عن كذا مراودة و روادا، أى: أردته، وراد الكلام يروده رودا: أى طلبه، و قد تقدّم تفسير المراودة مستوفى فى سورة هود

فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ أى: صيرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شقّ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب. و قيل: أذهب اللّه نور أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها. قال

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۵۴

الضّحاك: طمس اللّه على أبصارهم فلم يروا الرسل فرجعوا فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ قد تقدّم تفسيره فى هذه السورة وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ أى: أتاهم صباحا عذاب مستقرّ بهم نازل عليهم لا يفارقهم و لا ينفكّ عنهم. قال مقاتل: استقرّ بهم العذاب بكرة، و انصراف بكرة لكونه لم يرد بها وقتا بعينه كما سبق فى «بسحر» فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ- وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ قد تقدّم تفسير هذا فى هذه السورة، و لعل وجه تكرير تيسير القرآن للذكر فى هذه السورة الإشعار بأنه منّة عظيمة، لا ينبغى لأحد أن يغفل عن شكرها.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً قال: باردة فِي يَوْمِ نَحْسٍ قال: أيام شداد. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يوم الأربعاء يوم نحس مستمر». و أخرجه عنه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا. و أخرجه ابن مردويه عن عليّ مرفوعا. و أخرج ابن مردويه أيضا عن أنس مرفوعا، و فيه «قيل: و كيف ذاك يا رسول اللّه؟

قال: أغرق اللّه فيه فرعون و قومه، و أهلك فيه عادا و ثمودا». و أخرج ابن مردويه و الخطيب بسند، قال السيوطى: ضعيف، عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «آخر أربعاء فى الشهر يوم نحس مستمر». و أخرج ابن المنذر عنه كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ قال: أصول النخل مُنْقَعِرٍ قال: منقلع.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: أعجاز سواد النخل. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا وَ سُعُرٍ قال: شقاء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا قال: كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ قال: كحظائر من الشجر محترقة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: كالعظام المحترقة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه قال: كالحشيش تأكله الغنم.

[سورة القمر (۵۴): الآيات ۴۱ الى ۵۵]

وَ لَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (۴۱) كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (۴۲) أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ (۴۳) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (۴۴) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ (۴۵)

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهى وَ أَمَرُّ (۴۶) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ (۴۷) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (۴۸) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ (۴۹) وَ ما أَمْرُنا إِلاَّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (۵۰)

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۵۱) وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (۵۲) وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (۵۳) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ (۵۴) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (۵۵)

النُّذُرُ يجوز أن يكون جمع نذير، و يجوز أن يكون مصدرا كما تقدّم، و هى الآيات التى أنذرهم بها موسى، و هذا أولى لقوله: كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فإنه بيان لذلك، و المراد بها الآيات التسع التى تقدم ذكرها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ أى: أخذناهم بالعذاب أخذ غالب فى انتقامه، قادر على إهلاكهم، لا يعجزه شىء. ثم خوّف سبحانه كفار مكة فقال: أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ و الاستفهام للإنكار،

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۵۵

و المعنى النفى، أى: ليس كفاركم يا أهل مكة، أو يا معشر العرب، خير من كفار من تقدّمكم من الأمم الذين أهلكوا بسبب

كفرهم، فكيف تطمعون فى السلامة من العذاب و أنتم شرّ منهم. ثم أضرب سبحانه عن ذلك و انتقل إلى تبكيتهم بوجه آخر هو أشد من التبكيت بالوجه الأول، فقال: أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ و الزبر: هى الكتب المنزّلة على الأنبياء، و المعنى: إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب اللّه فى شىء من كتب الأنبياء. ثم أضرب عن هذا التبكيت، و انتقل إلى التبكيت لهم بوجه آخر، فقال: أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ أى: جماعة لا تطاق لكثرة عددنا و قوتنا، أو أمرنا مجتمع لا نغلب، و أفرد منتصرا اعتبارا بلفظ «جميع». قال الكلبى: المعنى: نحن جميع أمرنا، ننتصر من أعدائنا، فردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ أى: جمع كفار مكة، أو كفار العرب على العموم. قرأ الجمهور «سيهزم» بالتحتية مبنيا للمفعول. و قرأ ورش عن يعقوب «سنهزم» بالنون و كسر الزاى و نصب الجمع. و قرأ أبو حيوة و ابن أبى عبلة بالتحتية مبنيا للفاعل، و قرئ بالفوقية مبنيا للفاعل وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ قرأ الجمهور: «يولون» بالتحتية، و قرأ عيسى و ابن أبى إسحاق و ورش عن يعقوب بالفوقية على الخطاب، و المراد بالدبر: الجنس، و هو فى معنى الإدبار، و قد هزمهم اللّه يوم بدر و ولّوا الأدبار، و قتل رؤساء الشرك و أساطين الكفر، فللّه الحمد بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ أى: موعد عذابهم الأخروىّ، و ليس هذا العذاب الكائن فى الدنيا بالقتل و الأسر و القهر هو تمام ما وعدوا به من العذاب، و إنما هو مقدّمة من مقدماته، و طليعة من طلائعه، و لهذا قال: وَ السَّاعَةُ أَدْهى وَ أَمَرُّ أى: و عذاب الساعة أعظم فى الضرّ و أفظع، مأخوذ من الدهاء، و هو النكر و الفظاعة، و معنى أمرّ: أشد مرارة من عذاب الدنيا، يقال: دهاه أمر كذا، أى: أصابه دهوا و دهيا إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ أى: فى ذهاب عن الحق و بعد عنه، و قد تقدّم فى هذه السورة تفسير «و سعر» فلا نعيده يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ و الظرف منتصب بما قبله، أى: كائنون فى ضلال و سعر يوم يسحبون، أو بقول مقدّر بعده، أى: يوم يسحبون يقال لهم: ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ أى: قاسوا حرّها و شدّة عذابها، و سقر: علم لجهنم. و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه بإدغام سين «مس» فى سين «سقر» إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ قرأ الجمهور بنصب كل على الاشتغال. و قرأ أبو السّمال بالرفع، و المعنى: أن كل شىء من الأشياء خلقه اللّه سبحانه متلبسا بقدر قدّره و قضاء قضاه سبق فى علمه، مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه. و القدر: التقدير، و قد قدّمنا الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى.

وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ أى: إلا مرة واحدة، أو كلمة كلمح بالبصر فى سرعته، و اللمح:

النظر على العجلة و السرعة. و فى الصحاح: لمحه و ألمحه؛ إذا أبصره بنظر خفيف، و الاسم اللمحة. قال الكلبى: و ما أمرنا بمجىء الساعة فى السرعة إلا كطرف البصر وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ أى: أشباهكم و نظراءكم فى الكفر من الأمم، و قيل: أتباعكم و أعوانكم فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ يتذكّر و يتّعظ بالمواعظ و يعلم أن ذلك حق، فيخاف العقوبة و أن يحل به ما حلّ بالأمم السالفة وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ أى: جميع ما فعلته الأمم من خير أو شرّ مكتوب فى اللوح المحفوظ، و قيل: فى كتب الحفظة وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ

فتح القدير، ج‏5، ص: 156

مُسْتَطَرٌ أى: كل شىء من أعمال الخلق و أقوالهم و أفعالهم مسطور فى اللوح المحفوظ، صغيره و كبيره، و جليله و حقيره. يقال: سطر يسطر سطرا: كتب، و استطر مثله. ثم لما فرغ سبحانه من ذكر حال الأشقياء ذكر حال السعداء فقال: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ أى: فى بساتين مختلفة و جنان متنوعة و أنهار متدفقة.

قرأ الجمهور «و نهر» بفتح الهاء على الإفراد، و هو جنس يشمل أنهار الجنة و قرأ مجاهد و الأعرج و أبو السمال بسكون الهاء و هما لغتان، و قرأ أبو مجلز و أبو نهشل و الأعرج و طلحة بن مصرّف و قتادة «نهر» بضم النون و الهاء على الجمع فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ أى: فى مجلس حقّ لا لغو فيه و لا تأثيم، و هو الجنة عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ أى: قادر على ما يشاء لا يعجزه شىء، و عند هاهنا كناية عن الكرامة و شرف المنزلة، و قرأ عثمان البتّى «فى مقاعد صدق».

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولٰئِكُمْ يقول: ليس كفاركم خير من قوم نوح و قوم لوط. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن منيع و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عنه فى قوله: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ قال: كان ذلك يوم بدر قالوا: نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ فنزلت هذه الآية. و فى البخارى و غيره عنه أيضا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال و هو فى قبّة له يوم بدر: «أنشدك عهدك و وعدك، اللهمّ إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا، فأخذ أبو بكر بيده و قال: حسبك يا رسول اللّه ألححت على ربك، فخرج و هو يثب فى الدرع و يقول: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ- بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهى وَ أَمَرُّ.

و أخرج أحمد و عبد بن حميد و مسلم و الترمذى و ابن ماجة و غيرهم عن أبى هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يخاصمونه فى القدر، فنزلت: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ و أخرج مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه: «كل شىء بقدر حتى العجز و الكيس». و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ قال: مسطور فى الكتاب.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۵۷

سورة الرّحمن

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى: كلها فى قول الحسن و عروة بن الزبير و عكرمة و عطاء و جابر قال: قال ابن عباس: إلا آية منها، و هى قوله: يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الآية. و قال ابن مسعود و مقاتل:

هى مدينة كلها، و الأوّل أصح، و يدلّ عليه ما أخرجه النحّاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الرّحمن بمكة.

و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير قال: أنزل بمكة سورة الرّحمن. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت:

نزلت سورة الرَّحْمنُ- عَلَّمَ الْقُرْآنَ بمكة. و أخرج أحمد و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند حسن، عن أسماء بنت أبى بكر قالت: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ و هو يصلّى نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر و المشركون يسمعون: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ و يؤيد القول الثانى ما أخرجه ابن الضريس و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت سورة الرّحمن بالمدينة، و يمكن الجمع بين القولين بأنه نزل بعضها بمكة و بعضها بالمدينة. و أخرج الترمذى و ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقىّ فى الدلائل، عن جابر بن عبد اللّه قال: «خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على أصحابه. فقرأ عليهم سورة الرّحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: ما لى أراكم سكوتا لقد قرأتها على الجنّ ليلة الجنّ، فكانوا أحسن مردودا منكم، كلما أتيت على قوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ* قالوا:

و لا بشىء من نعمك ربنا نكذّب، فلك الحمد» قال الترمذى بعد إخراجه: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد. و حكى عن الإمام أحمد أنه كان يستنكر روايته عن زهير.

و قال البزار: لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه. و أخرجه البزار و ابن جرير و ابن المنذر، و الدار قطنى فى الأفراد، و ابن مردويه، و الخطيب فى تاريخه، من حديث ابن عمر، و صحّح السيوطى إسناده، و قال البزار: لا نعلمه يروى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. و أخرج البيهقى فى الشعب، عن علىّ، سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «لكل شىء عروس، و عروس القرآن الرّحمن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۱ الى ۲۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الرَّحْمنُ (۱) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (۲) خَلَقَ الْإِنْسانَ (۳) عَلَّمَهُ الْبَيانَ (۴)
الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (۵) وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ (۶) وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ (۷) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (۸) وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (۹)
وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ (۱۰) فِيها فاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ (۱۱) وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّيْحانُ (۱۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۱۳) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ (۱۴)
وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (۱۵) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۱۶) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (۱۷) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۱۸) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (۱۹)
بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ (۲۰) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۲۱) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ (۲۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۲۳) وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (۲۴)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۲۵)

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۵۸

قوله: الرَّحْمنُ- عَلَّمَ الْقُرْآنَ ارتفاع الرّحمن على أنه مبتدأ و ما بعده من الأفعال أخبار له، و يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: اللّه الرّحمن. قال الزّجّاج: معنى عَلَّمَ الْقُرْآنَ يسّره. قال الكلبي:

علّم القرآن محمدا و علّمه محمد أمته، و قيل: جعله علامة لما يعبد الناس به، قيل: نزلت هذه الآية جوابا لأهل مكة حين قالوا: إنما يعلمه بشر، و قيل: جوابا لقولهم: و ما الرّحمن؟ و لما كانت هذه السورة لتعداد نعمه التي أنعم بها على عباده قدّم النعمة التي هي أجلّها قدرا، و أكثرها نفعا، و أتمّها فائدة، و أعظمها عائدة، و هي نعمة تعليم القرآن، فإنها مدار سعادة الدارين، و قطب رحى الخيرين، و عماد الأمرين. ثم امتنّ بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التي هي مناط كل الأمور و مرجع جميع الأشياء فقال: خَلَقَ الْإِنْسانَ ثم امتنّ ثالثا بتعليمه البيان الّذي يكون به التفاهم، و يدور عليه التّخاطب، و تتوقف عليه مصالح المعاش و المعاد؛ لأنه لا يمكن إبراز ما في الضمائر و لا إظهار ما يدور في الخلد إلا به. قال قتادة و الحسن: المراد بالإنسان آدم، و المراد بالبيان أسماء كلّ شي‌ء، و قيل: المراد به اللغات. و قال ابن كيسان: المراد بالإنسان هاهنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و بالبيان بيان الحلال من الحرام، و الهدى من الضلال، و هو بعيد. و قال الضحاك: البيان: الخير و الشرّ. و قال الربيع بن أنس:

هو ما ينفعه ممّا يضره، و قيل: البيان: الكتابة بالقلم. و الأولى حمل الإنسان على الجنس، و حمل البيان على تعليم كلّ قوم لسانهم الّذي يتكلمون به الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ أي: يجريان بحساب و منازل لا يعدوانها، و يدلان بذلك على عدد الشهور و السنين. قال قتادة و أبو مالك: يجريان بحسبان في منازل لا يعدوانها و لا يحيدان عنها. و قال ابن زيد و ابن كيسان: يعني أن بهما تحسب الأوقات و الآجال و الأعمار، و لو لا الليل و النهار و الشمس و القمر لم يدر أحد كيف يحسب؛ لأن الدهر يكون كله ليلا أو نهارا. و قال الضحاك:

معنى بحسبان: بقدر. و قال مجاهد: بحسبان كحسبان الرحى، يعني قطبهما الّذي يدوران عليه. قال الأخفش: الحسبان جماعة الحساب، مثل شهب و شهبان. و أما الحسبان بالضمّ فهو العذاب؛ كما مضى في سورة الكهف وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ النجم: ما لا ساق له من النبات، و الشجر: ما له ساق.

قال الشاعر «١»:

لقد أنجم القاع الكبير عضاههو تمّ به حيّا تميم و وائل

و قال زهير:

مكلّل بأصول النّجم تنسجهريح الجنوب لضاحى مائه حبك

---

(١). هو صفوان بن أسد التميمى.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٥٩

و المراد بسجودهما انقياد هما للّه تعالى انقياد الساجدين من المكلفين. و قال الفراء: سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت، ثم يميلان معها حين ينكسر الفيء. و قال الزجاج: سجودهما دوران الظل معهما، كما فى قوله: يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ «١» و قال الحسن و مجاهد: المراد بالنجم نجم السماء و سجوده طلوعه، و رجّح هذا ابن جرير. و قيل: سجوده أفوله، و سجود الشجر: تمكينها من الاجتناء لثمارها. قال النحاس: أصل السجود الاستسلام و الانقياد للّه، و هذه الجملة و التى قبلها خبران آخران للرحمن، و ترك الرابط فيهما لظهوره، كأنه قيل: الشمس و القمر بحسبانه، و النجم و الشجر يسجدان له وَ السَّماءَ رَفَعَها قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال. و قرأ أبو السمال بالرفع على الابتداء، و المعنى: أنه جعل السماء مرفوعة فوق الأرض وَ وَضَعَ الْمِيزانَ المراد بالميزان العدل، أى: وضع فى الأرض العدل الّذى أمر به، كذا قال مجاهد و قتادة و السدى و غيرهم. قال الزجاج: المعنى أنه أمرنا بالعدل، و يدل عليه قوله: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ أى: لا تجاوزوا العدل. و قال الحسن و الضحاك: المراد به آلة الوزن ليتوصل بها إلى الإنصاف و الانتصاف. و قيل: الميزان القرآن لأن فيه بيان ما يحتاج إليه، و به قال الحسين بن الفضل، و الأوّل أولى. ثم أمر سبحانه بإقامة العدل بعد إخباره للعباد بأنه وضعه لهم، فقال: وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ أى: قوّموا وزنكم بالعدل، و قيل:

المعنى: أقيموا لسان الميزان بالعدل، و قيل: المعنى: أنه وضع الميزان فى الآخرة لوزن الأعمال، و «أن» فى قوله: أَلَّا تَطْغَوْا مصدرية، أى: لئلا تطغوا، و «لا» نافية، أى: وضع الميزان لئلا تطغوا، و قيل:

هى مفسرة، لأن فى الوضع معنى القول، و الطغيان: مجاوزة الحد، فمن قال: الميزان العدل، قال: طغيانه الجور، و من قال: الميزان الآلة التى يوزن بها، قال: البخس وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ أى: لا تنقصوه، أمر سبحانه أولا بالتسوية، ثم نهى عن الطغيان الّذى هو المجاوزة للحد بالزيادة، ثم نهى عن الخسران الّذى هو النقص و البخس. قرأ الجمهور: «تخسروا» بضم التاء و كسر السين من أخسر، و قرأ بلال بن أبى بردة و أبان بن عثمان و زيد بن على بفتح التاء و السين بن خسر، و هما لغتان. يقال أخسرت الميزان و خسرته. ثم لما ذكر سبحانه أنه رفع السماء ذكر أنه وضع الأرض فقال: وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ أى: بسطها على الماء لجميع الخلق ممّا له روح و حياة، و لا وجه لتخصيص الأنام بالإنس و الجنّ. قرأ الجمهور: بنصب الأرض على الاشتغال، و قرأ أبو السمال بالرفع على الابتداء، و جملة فِيها فاكِهَةٌ فى محل نصب على أنها حال من الأرض مقدّرة، و قيل: مستأنفة لتقرير مضمون الجملة التى قبلها، و المراد بها كلّ ما يتفكّه به من أنواع الثمار. ثم أفرد سبحانه النخل بالذكر لشرفه و مزيد فائدته على سائر الفواكه، فقال: وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ الأكمام: جمع كمّ بالكسر، و هو وعاء التمر. قال الجوهرى: و الكمّ بالكسر و الكمامة وعاء الطلع و غطاء النّور، و الجمع كمام و أكمّة و أكمام. قال الحسن: ذات الأكمام، أى: ذات الليف، فإن النخلة تكمّم بالليف و كمامها ليفها، و قال ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتق. و قال عكرمة: ذات الأحمال. وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّيْحانُ الحبّ: هو جميع ما يقتات من الحبوب و العصف. قال السدىّ و الفراء: هو بقل الزرع،

(۱). النحل: ۴۷.

و هو أوّل ما ينبت به. قال ابن كيسان: يبدو أولا ورقا، و هو العصف، ثم يبدو له ساق، ثم يحدث اللّه فيه أكماما، ثم يحدث فى الأكمام الحبّ. قال الفراء: و العرب تقول خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك، و كذا قال الصحاح. و قال الحسن: العصف: التبن، و قال مجاهد: هو ورق الشجر و الزرع.

و قيل: هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رأسه و يبس، و منه قوله: كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ «۱»، و قيل: هو الزرع الكثير، يقال: قد أعصف الزرع، و مكان معصف، أى: كثير الزرع، و منه قول أبى قيس بن الأسلت:

إذا جمادى منعت قطرهازان جنابى عطن معصّف

و الريحان: الورق فى قول الأكثر. و قال الحسن و قتادة و الضحاك و ابن زيد: إنه الريحان الّذى يشم.

و قال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق. و قال الكلبى: إن العصف: هو الورق الّذى لا يؤكل، و الريحان:

هو الحب المأكول. و قال الفراء أيضا: العصف: المأكول من الزرع، و الريحان: ما لا يؤكل، و قيل: الريحان كل بقلة طيبة الريح.

قال ابن الأعرابى: يقال شىء ريحانى و روحانى. و قال فى الصحاح: الريحان نبت معروف، و الريحان: الرزق، تقول: خرجت أبتغى ريحان اللّه. قال النّمر بن تولب:

سلام الإله و ريحانهو رحمته و سماء درر

و قيل: العصف: رزق البهائم، و الريحان: رزق الناس. قرأ الجمهور: وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّيْحانُ برفع الثلاثة عطفا على فاكهة. و قرأ ابن عامر و أبو حيوة و المغيرة بنصبهما عطفا على الأرض، أو على إضمار فعل، أى: و خلق الحبّ ذا العصف و الريحان. و قرأ حمزة و الكسائى و الريحان بالجرّ عطفا على العصف. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ الخطاب للجنّ و الإنس؛ لأن لفظ الأنام يعمّهما و غير هما، ثم خصّص بهذا الخطاب من يعقل. و بهذا قال الجمهور من المفسرين، و يدلّ عليه قوله فيما سيأتى: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ و يدلّ على هذا ما قدّمنا فى فاتحة هذه السورة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قرأها على الجنّ و الإنس، و قيل: الخطاب للإنس، و ثناه على قاعدة العرب فى خطاب الواحد بلفظ التثنية كما قدّمنا فى قوله: أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ «۲» و الآلاء: النعم. قال القرطبى: و هو قول جميع المفسرين، واحدها إلى مثل معى و عصا. و قال ابن زيد: إنها القدرة، أى: فبأىّ قدرة ربكما تكذّبان، و به قال الكلبى. و كرّر سبحانه هذه الآية فى هذه السورة تقريرا للنعمة و تأكيدا للتذكير بها على عادة العرب فى الاتساع. قال القتبى: إن اللّه عدّد فى هذه السورة نعماءه، و ذكّر خلقه آلاءه، ثم أتبع كلّ خلّة وضعها بهذه الآية، و جعلها فاصلة بين كلّ نعمتين لينبههم على النعم و يقرّرهم بها كما تقول لمن تتابع له إحسانك، و هو يكفره: ألم تكن فقيرا فأغنيتك؟ أ فتنكر هذا؟ ألم تكن راجلا فحملتك؟ أ فتنكر هذا؟ و التكرير حسن فى مثل هذا، و منه قول الشاعر:

لا تقتلى رجلا إن كنت مسلمةإيّاك من دمه إيّاك إيّاك

قال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة، و تأكيد للحجة. خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ

(۱). الفيل: ۵.

(۲). ق: ۲۴.

لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير، و هو السماء و الأرض و ما فيهما، ذكر خلق العالم الصغير، و المراد بالإنسان هنا آدم. قال القرطبى: باتفاق من أهل التأويل، و لا يبعد أن يراد الجنس لأن بنى آدم مخلوقون فى ضمن خلق أبيهم آدم، و الصّلصال: الطين اليابس الّذى يسمع له صلصلة، و قيل: هو طين خلط برمل، و قيل: هو الطين المنتن، يقال: صلّ اللحم و أصلّ إذا أنتن، و قد تقدّم بيانه فى سورة الحجر، و الفخار:

الخزف الّذى طبخ بالنار، و المعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبه فى يبسه الخزف. وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ يعنى خلق أبا الجنّ أو جنس الجن من مارج من نار، و المارج: اللهب الصافى من النار، و قيل: الخالص منها، و قيل: لسانها الّذى يكون فى طرفها إذا التهبت، و قال الليث: المارج: الشّعلة الساطعة ذات اللهب الشديد. و قال المبرد: المارج: النار المرسلة التى لا تمنع، و قال أبو عبيدة: المارج: خلط النار، من مرج إذا اختلط و اضطرب. قال الجوهرى: «مارِجٍ مِنْ نارٍ»: نار لا دخان لها، خلق منها الجان.

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإنه أنعم عليكما فى تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ قرأ الجمهور: «ربّ» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو ربّ المشرقين و المغربين، و قيل: مبتدأ و خبره مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ و ما بينهما اعتراض، و الأوّل أولى، و المراد بالمشرقين مشرقا الشتاء و الصيف، و بالمغربين مغرباهما فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن فى ذلك من النعم ما لا يحصى و لا يتيسر لمن أنصف من نفسه تكذيب فرد من أفراده مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ المرج: التخلية و الإرسال، يقال: مرجت الدابة؛ إذا أرسلتها، و أصله الإهمال كما تمرج الدّابة فى المرعى، و المعنى: أنه أرسل كل واحد منهما، يلتقيان: أى يتجاوران لا فصل بينهما فى مرأى العين، و مع ذلك فلم يختلطا، و لهذا قال: بَيْنَهُما بَرْزَخٌ أى: حاجز يحجز بينهما لا يَبْغِيانِ أى: لا يبغى أحدهما على الآخر بأن يدخل فيه و يختلط به. قال الحسن و قتادة: هما بحر فارس و الروم. و قال ابن جريج: هما البحر المالح و الأنهار العذبة، و قيل:

بحر المشرق و المغرب، و قيل: بحر اللؤلؤ و المرجان، و قيل: بحر السماء و بحر الأرض. قال سعيد بن جبير:

يلتقيان فى كل عام، و قيل: يلتقى طرفاهما. و قوله: يَلْتَقِيانِ فى محلّ نصب على الحال من البحرين، و جملة بَيْنَهُما بَرْزَخٌ يجوز أن تكون مستأنفة، و أن تكون حالا فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن هذه الآية و أمثالها لا يتيسّر تكذيبها بحال يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ قرأ الجمهور: «يَخْرُجُ» بفتح الياء و ضم الراء مبنيا للفاعل، و قرأ نافع و أبو عمرو بضم الياء و فتح الراء مبنيا للمفعول، و اللؤلؤ: الدرّ، و المرجان: الخرز الأحمر المعروف. و قال الفراء: اللؤلؤ: العظام، و المرجان ما صغر. قال الواحدى: و هو قول جميع أهل اللغة. و قال مقاتل و السدى و مجاهد: اللؤلؤ صغاره، و المرجان كباره، و قال: يَخْرُجُ مِنْهُمَا و إنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب، لأنه إذا خرج من أحد هما فقد خرج منهما، كذا قال الزجاج و غيره. و قال أبو على الفارسى: هو من باب حذف المضاف، أى: من أحدهما، كقوله: عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «١». و قال الأخفش: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب، و قيل: هما بحران يخرج من

---

(١). الزخرف: ٣١.

أحدهما اللؤلؤ، و من الآخر المرجان، و قيل: هما بحر السماء و بحر الأرض، فإذا وقع ماء السماء فى صدف البحر انعقد لؤلؤا فصار خارجا منهما فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن فى ذلك من الآيات ما لا يستطيع أحد تكذيبه و لا يقدر على إنكاره وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ المراد بالجوار: السفن الجارية فى البحر، و المنشآت: المرفوعات التى رفع بعض خشبها على

بضع و ركب، حتى ارتفعت و طالت، حتى صارت فى البحر كالأعلام، و هى الجبال، و العلم: الجبل الطويل. و قال قتادة: المنشآت: المخلوقات للجرى. و قال الأخفش: المنشآت: المجريات. و قد مضى بيان الكلام فى هذا فى سورة الشورى. قرأ الجمهور: «الْجَوارِ» بكسر الراء و حذف الياء لالتقاء الساكنين، و قرأ ابن مسعود و الحسن و أبو عمرو فى رواية عنه رفع الراء تناسبا للحذف، و قرأ يعقوب: بإثبات الياء، و قرأ الجمهور: الْمُنْشَآتُ بفتح الشين، و قرأ حمزة و أبو بكر فى رواية عنه: بكسر الشين فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن ذلك من الوضوح و الظهور بحيث لا يمكن تكذيبه و لا إنكاره.

و قد أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فى قوله: الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ قال: بحساب و منازل يرسلان. و أخرج الفريابى و ابن أبى حاتم عنه وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ قال: للناس. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: للخلق. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: كل شىء فيه روح. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ قال: أوعية الطلع. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله:

وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ قال: التبن وَ الرَّيْحانُ قال: خضرة الزرع. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الْعَصْفِ ورق الزرع إذا يبس وَ الرَّيْحانُ ما أنبتت الأرض من الريحان الّذى يشمّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الْعَصْفِ الزرع أوّل ما يخرج بقلا- وَ الرَّيْحانُ حتى يستوى على سوقه و لم يسنبل. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: كلّ ريحان فى القرآن فهو رزق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ* قال: يعنى بأىّ نعمة اللّه.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: يعنى الجنّ و الإنس. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ قال: من لهب النار. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: خالص النار. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ قال: للشمس مطلع فى الشتاء، و مغرب فى الشتاء، و مطلع فى الصيف، و مغرب فى الصيف، غير مطلعها فى الشتاء و غير مغربها فى الشتاء. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: مشرق الفجر و مشرق الشفق. و مغرب الشمس و مغرب الشفق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ قال: أرسل البحرين بَيْنَهُما بَرْزَخٌ قال: حاجز لا- يَبْغِيانِ لا يختلطان. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: بحر السماء و بحر الأرض، و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ قال: بينهما من البعد ما لا يبغى

فتح القدير، ج‏5، ص: 163

كل واحد منهما على صاحبه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ قال: إذا مطرت السماء فتحت الأصداف فى البحر أفواهها، فما وقع فيها من قطر السماء فهو اللؤلؤ. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن علىّ بن أبى طالب قال: المرجان: عظام اللؤلؤ. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: اللؤلؤ: ما عظم منه، و المرجان: اللؤلؤ الصغار. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى عن ابن مسعود قال: المرجان: الخرز الأحمر.

[سورة الرحمن (55): الآيات 26 الى 45]

كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (26) وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ (27) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (28) يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (30)

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٣٢) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٣۴) يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَ نُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (٣۵)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٣۶) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴٠)

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ (۴١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴٢) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (۴٣) يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (۴۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۵)

قوله: كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ أى: كلّ من على الأرض من الحيوانات هالك، و غلّب العقلاء على غيرهم، فعبّر عن الجميع بلفظ من، و قيل: أراد من عليها من الجنّ و الإنس وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ الوجه عبارة عن ذاته سبحانه و وجوده، و قد تقدّم فى سورة البقرة بيان معنى هذا، و قيل: معنى يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ تبقى حجّته التى يتقرّب بها إليه، و الجلال: العظمة و الكبرياء، و استحقاق صفات المدح، يقال: جلّ الشيء، أى: عظم، و أجللته، أى: أعظمته، و هو اسم من جلّ. و معنى ذو الإكرام:

إنه يكرم عن كل شيء لا يليق به، و قيل: إنه ذو الإكرام لأوليائه، و الخطاب فى قوله: ربك، للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكل من يصلح له. قرأ الجمهور: ذُو الْجَلالِ على أنه صفة لوجه، و قرأ أبيّ و ابن مسعود: «ذى الجلال» على أنه صفة لربّ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ وجه النعمة فى فناء الخلق أن الموت سبب النقلة إلى دار الجزاء و الثواب. و قال مقاتل: وجه النعمة فى فناء الخلق التسوية بينهم فى الموت، و مع الموت تستوى الأقدام يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: يسألونه جميعا لأنهم محتاجون إليه لا يستغنى عنه أحد منهم. قال أبو صالح: يسأله أهل السّماوات المغفرة و لا يسألونه الرزق، و أهل الأرض يسألونه الأمرين جميعا. و قال مقاتل: يسأله أهل الأرض الرزق و المغفرة، و تسأل لهم الملائكة أيضا الرزق و المغفرة، و كذا قال ابن جريج. و قيل: يسألونه الرحمة. قال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السماء و لا أهل الأرض. و الحاصل أنه يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال أو لسان الحال، من خيرى الدارين أو من خيرى إحداهما

فتح القدير، ج۵، ص: ١۶۴

كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ انتصاب «كلّ» بالاستقرار الّذى تضمنه الخبر، و التقدير: استقرّ سبحانه فى شأنه كل وقت من الأوقات، و اليوم عبارة عن الوقت، و الشأن هو الأمر، و من جملة شؤونه سبحانه إعطاء أهل السماوات و الأرض ما يطلبونه منه على اختلاف حاجاتهم و تباين أغراضهم. قال المفسرون: من شأنه أنه يحيى و يميت، و يرزق و يفقر، و يعزّ و يذلّ، و يمرض و يشفى، و يعطى و يمنع، و يغفر و يعاقب، إلى غير ذلك مما لا يحصى.

و قيل: المراد باليوم المذكور هو يوم الدنيا و يوم الآخرة. قال ابن بحر: الدّهر كله يومان: أحدهما مدّة أيام الدنيا، و الآخر يوم القيامة. و قيل: المراد كل يوم من أيام الدنيا فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن اختلاف شؤونه سبحانه فى تدبير عباده نعمة لا يمكن جحدها، و لا يتيسر لمكذّب تكذيبها سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ هذا وعيد شديد من اللّه سبحانه للجنّ و الإنس. قال الزجاج و الكسائى و ابن الأعرابى و أبو على الفارسى:

إن الفراغ هاهنا ليس هو الفراغ من شغل، و لكن تأويله القصد، أى: سنقصد لحسابكم. قال الواحدى حاكيا عن المفسرين: إن هذا تهديد منه سبحانه لعباده، و من هذا قول القائل لمن يريد تهديده: إذن أتفرغ لك، أى: أقصد قصدك، و فرغ يجيء بمعنى قصد، و أنشد ابن الأنبارى قول الشاعر «١»:

ألان و قد فرغت إلى نميرفهذا حين كنت لها عذابا

يريد: و قد قصدت، و أنشد النحاس قول الشاعر «٢»:

...

فرغت إلى القين المقيّد فى الحجل «٣» أى: قصدت. و قيل: إن اللّه سبحانه وعد على التقوى و أوعد على المعصية، ثم قال: سنفرغ لكم مما وعدناكم و نوصل كلا إلى ما وعدناه، و به قال الحسن و مقاتل و ابن زيد، و يكون الكلام على طريق التمثيل.

قرأ الجمهور: سَنَفْرُغُ بالنون و ضمّ الراء، و قرأ حمزة و الكسائى بالتحتية مفتوحة مع ضم الرّاء، أى:

سيفرغ اللّه، و قرأ الأعرج بالنون مع فتح الراء. قال الكسائى: هى لغة تميم، و قرأ عيسى الثقفى بكسر النون و فتح الراء، و قرأ الأعمش و إبراهيم بضمّ الياء و فتح الراء على البناء للمفعول. و سمّى الجنّ و الإنس ثقلين لعظم شأنهما بالنسبة إلى غير هما من حيوانات الأرض، و قيل: سمّوا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء و أمواتا، كما فى قوله: وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها «٤» و قال جعفر الصادق: سيما ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب، و جمع فى قوله: لَكُمْ ثم قال: أَيُّهَ الثَّقَلانِ لأنهما فريقان، و كل فريق جمع. قرأ الجمهور: بفتح الهاء، و قرأ أهل الشام بضمها فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها ما فى هذا التهديد من النعم، فمن ذلك أنه ينزجر به المسىء عن إساءته، و يزداد به المحسن إحسانا فيكون ذلك سببا للفوز بنعيم الدار الآخرة الّذى

---

(١). هو جرير.

(٢). هو جرير أيضا.

(٣). و صدره: و لمّا اتّقى القين العراقى باسته.

(٤). الزلزلة: ٢.

هو النعيم فى الحقيقة يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ قدّم الجنّ هنا لكون خلق أبيهم متقدّما على خلق آدم، و لوجود جنسهم قبل جنس الإنس إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات و الأرض و نواحيهما هربا من قضاء اللّه و قدره فَانْفُذُوا منها و خلصوا أنفسكم، يقال: نفذ الشى‏ء من الشى‏ء؛ إذا خلص منه كما يخلص السهم لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ أى: لا تقدرون على النفوذ إلا بقوّة و قهر، و لا قوّة لكم على ذلك و لا قدرة، و السلطان: القوّة التى يتسلّط بها صاحبها على الأمر، و الأمر بالنفوذ أمر تعجيز. قال الضحاك: بينما الناس فى أسواقهم إذ انفتحت السماء و نزلت الملائكة فهرب الجنّ و الإنس فتحدق بهم الملائكة، فذلك قوله: لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ قال ابن المبارك:

إن ذلك يكون فى الآخرة. و قال الضحاك أيضا: معنى الآية: إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا.

و قيل: إن استطعتم أن تعلموا ما فى السماوات و الأرض فاعلموه، و لن تعلموه إلا بسلطان، أى: ببينة من اللّه. و قال قتادة: معناها لا تنفذوا إلا بملك و ليس لكم ملك. و قيل الباء بمعنى إلى، أى: لا تنفذون إلا إلى سلطان فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ و من جملتها هذه النعمة الحاصلة بالتحذير و التهديد، فإنها تزيد المحسن إحسانا، و تكفّ المسى‏ء عن إساءته، مع أن من حذّركم و أنذركم قادر على الإيقاع بكم من دون مهلة يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ قرأ الجمهور: يُرْسَلُ بالتحتية مبنيا للمفعول، و قرأ زيد بن علىّ بالنون و نصب شُواظٌ. و الشواظ: اللهب الّذى لا دخان معه. و قال مجاهد: الشواظ اللهب الأخضر المتقطع من النار. و قال الضحاك: هو الدخان الّذى يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب. و قال الأخفش و أبو عمرو: هو النار و الدخان جميعا. قرأ الجمهور: شُواظٌ بضم الشين، و قرأ ابن كثير بكسرها و هما لغتان، و قرأ الجمهور وَ نُحاسٌ بالرفع عطفا على شواظ، و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و مجاهد و أبو عمرو بخفضه عطفا على نار، و قرأ الجمهور: نُحاسٌ بضمّ النون، و قرأ مجاهد و عكرمة و

حميد و أبو العالية بكسرها. و قرأ مسلم بن جندب و الحسن

«و نحس» . و النحاس: الصّفر المذاب يصبّ على رؤوسهم، قاله مجاهد و قتادة و غير هما. و قال سعيد بن جبير: هو الدخان الّذى لا لهب له، و به قال الخليل.

و قال الضحاك: هو درديّ الزيت المغلى. و قال الكسائى: هو النار التى لها ريح شديدة، و قيل: هو المهل فَلا تَنْتَصِرانِ أى: لا تقدران على الامتناع من عذاب الله فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها هذا الوعيد الّذى يكون به الانزجار عن الشرّ و الرغوب فى الخير فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ أى: انصدعت بنزول الملائكة يوم القيامة فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ أى: كوردة حمراء. قال سعيد بن جبير و قتادة:

المعنى: فكانت حمراء، و قيل: فكانت كلون الفرس الورد، و هو الأبيض الّذى يضرب إلى الحمرة أو الصّفرة.

قال الفراء و أبو عبيدة: تصير السماء كالأديم لشدّة حرّ النار. و قال الفراء أيضا: شبّه تلوّن السماء بتلوّن الورد من الخيل، و شبّه الورد فى ألوانها بالدهن و اختلاف ألوانه. و الدهان: جمع دهن، و قيل: المعنى تصير السماء فى حمرة الورد، و جريان الدهن، أى: تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، و تصير مثل الدهن لذوبانها، و قيل: الدهان: الجلد الأحمر. و قال الحسن: «كَالدِّهانِ» أى: كصبيب

فتح القدير، ج‏5، ص: 166

الدهن، فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانا. و قال زيد بن أسلم: إنها تصير كعكر الزيت. قال الزجاج: إنها اليوم خضراء و سيكون لها لون أحمر. قال الماوردى: و زعم «1» المتقدّمون أن أصل لون السماء الحمرة، و أنها لكثرة الحوائل و بعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها ما فى هذا التهديد و التخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير و الإعراض عن الشرّ فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ أى: يوم تنشق السماء لا يسأل أحد من الإنس و لا من الجنّ عن ذنبه، لأنهم يعرفون بسيماهم عند خروجهم من قبورهم، و الجمع بين هذه الآية و بين مثل قوله: فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ «2» أن ما هنا يكون فى موقف و السؤال فى موقف آخر من مواقف القيامة. و قيل: إنهم لا يسألون هنا سؤال استفهام عن ذنوبهم، لأن اللّه سبحانه قد أحصى الأعمال و حفظها على العباد، و لكن يسألون سؤال توبيخ و تقريع، و مثل هذه الآية قوله: وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ «3» قال أبو العالية: المعنى لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم. و قيل: إن عدم السؤال هو عند البعث، و السؤال هو فى موقف الحساب فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها هذا الوعيد الشديد لكثرة ما يترتّب عليه من الفوائد يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ هذه الجملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال. السيما: العلامة. قال الحسن: سيماهم: سواد الوجوه و زرقة الأعين، كما فى قوله: وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً «4» و قال: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ «5» و قيل: سيماهم ما يعلوهم من الحزن و الكآبة فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ و الجار و المجرور فى محل رفع على أنه النائب، و النواصى: شعور مقدم الرؤوس، و المعنى: أنها تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصى، و تلقيهم الملائكة فى النار. قال الضّحّاك: يجمع بين ناصيته و قدمه فى سلسلة من وراء ظهره. و قيل: تسحبهم الملائكة إلى النار، تارة تأخذ بنواصيهم و تجرّهم على وجوههم، و تارة تأخذ بأقدامهم و تجرّهم على رؤوسهم فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها هذا الترهيب الشديد و الوعيد البالغ الّذى ترجف له القلوب و تضطرب لهوله الأحشاء هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ أى: يقال لهم عند ذلك هذه جهنم التى تشاهدونها و تنظرون إليها، مع أنكم كنتم تكذبون بها و تقولون إنها لا تكون، و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصى و الأقدام؟ فقيل: يقال لهم: هذه جهنم، تقريعا لهم و توبيخا يَطُوفُونَ بَيْنَها أى: بين جهنم فتحرقهم وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ فتصبّ على وجوههم، و الحميم: الماء الحارّ، و الآن: الّذى قد انتهى حرّه و بلغ غايته. كذا قال الفراء. قال الزجاج:

أنى يأنى أنّى فهو آن: إذا انتهى فى النضج و الحرارة، و منه قول النابغة الذّبيانى:

و تخضب لحيةٌ غدرت و خانت بأحمر من نجيع الجوف آن

و قيل: هو واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار، فيغمسون فيه. قال قتادة: يطوفون مرّة بين

---

(۱). الزّعم: القول يشكّ فيه.

(۲). الحجر: ۹۲.

(۳). القصص: ۷۸.

(۴). طه: ۱۰۲.

(۵). آل عمران: ۱۰۶.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۶۷

الحميم و مرّة بين الجحيم فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها النعمة الحاصلة بهذا التخويف و ما يحصل به من الترغيب فى الخير و الترهيب عن الشرّ.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ قال: ذو الكبرياء و العظمة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ قال: مسألة عباده إياه الرزق و الموت و الحياة كل يوم هو فى ذلك. و أخرج الحسن بن سفيان فى مسنده و البزار و ابن جرير و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مندة و ابن مردويه و أبو نعيم و ابن عساكر عن عبد اللّه بن منيب قال: «تلا علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فقلنا: يا رسول اللّه و ما ذلك الشأن؟ قال: أن يغفر ذنبا، و يفرّج كربا، و يرفع قوما و يضع آخرين». و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن ماجة و ابن أبى عاصم و البزار و ابن جرير و ابن المنده و ابن أبى حاتم و ابن حبان و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه و ابن عساكر، و البيهقى فى الشعب، عن أبى الدرداء عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية قال: «من شأنه أن يغفر ذنبا، و يفرج كربا، و يرفع قوما، و يضع آخرين». زاد البزار «و يجيب داعيا»، و قد رواه البخارى تعليقا، و جعله من كلام أبى الدرداء. و أخرج البزار عن ابن عمر عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية قال: «يغفر ذنبا و يفرج كربا». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ قال: هذا وعيد من اللّه لعباده، و ليس باللّه شغل، و فى قوله: لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ يقول: لا تخرجون من سلطانى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ قال: لهب النار وَ نُحاسٌ قال: دخان النار. و أخرج ابن جرير عنه أيضا وَ نُحاسٌ

قال: الصفر يعذبون به. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فَكانَتْ وَرْدَةً يقول: حمراء كَالدِّهانِ قال: هو الأديم الأحمر. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ قال: مثل لون الفرس الورد. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ قال: لا يسألهم هل عملتم كذا و كذا، لأنه أعلم بذلك منهم، و لكن يقول لهم: لم عملتم كذا و كذا. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى البعث و النشور عنه أيضا فى قوله: فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ قال: تأخذ الزبانية بناصيته و قدميه و يجمع فيكسر كما يكسر الحطب فى التنور. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ قال: هو الّذى انتهى حرّه.

[سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۴۶ الى ۷۸]

وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ (۴۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۷) ذَواتا أَفْنانٍ (۴۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۹) فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (۵۰)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۱) فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ (۵۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۳) مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (۵۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۵)
فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (۵۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۷) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ (۵۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۹) هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ (۶۰)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۱) وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (۶۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۳) مُدْهامَّتانِ (۶۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۵)
فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ (۶۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۷) فِيهِما فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ (۶۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۹) فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ (۷۰)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۱) حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ (۷۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۳) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (۷۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۵)
مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِسانٍ (۷۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۷) تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ (۷۸)

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۶۸

لما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين ذكر نعمه الأخروية التى أنعم بها عليهم، فقال:

وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ مقامه سبحانه: هو الموقف الّذى يقف فيه العباد للحساب، كما فى قوله:

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ «۱» فالمقام مصدر بمعنى القيام، و قيل: المعنى: خاف قيام ربه عليه، و هو إشرافه على أحواله و اطلاعه على أفعاله و أقواله، كما فى قوله: أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ «۲» قال مجاهد و النّخعى: هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر اللّه فيدعها من خوفه.

و اختلف فى الجنتين، فقال مقاتل: يعنى جنة عدن و جنة النعيم، و قيل: إحداهما التى خلقت له و الأخرى ورثها. و قيل: إحداهما منزله و الأخرى منزل أزواجه. و قيل: إحداهما أسافل القصور و الأخرى أعاليها.

و قيل: جنة للخائف الإنسى، و جنة للخائف الجنّى. و قيل: جنة لفعل الطاعة و أخرى لترك المعصية، و قيل:

جنة للعقيدة التى يعتقدها، و أخرى للعمل الّذى يعمله، و قيل: جنة بالعمل و جنة بالتفضّل، و قيل: جنة روحانية و جنة جسمانية، و قيل: جنة لخوفه من ربه و جنة لتركه شهوته، و قال الفرّاء: إنما هى جنة واحدة، و التثنية لأجل موافقة رؤوس الآى. قال النحاس: و هذا القول من أعظم الغلط على كتاب اللّه، فإن اللّه يقول:

«جنتان» و يصفهما بقوله فيهما إلخ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها هذه النعمة العظيمة، و هى إعطاء الخائف من مقام ربّه جنتين متصفتين بالصفات الجليلة العظيمة ذَواتا أَفْنانٍ هذه صفة للجنتين، و ما بينهما اعتراض، و الأفنان: الأغصان، واحدها فنن، و هو الغصن المستقيم طولا، و بهذا قال مجاهد و عكرمة و عطية و غيرهم. و قال الزجاج: الأفنان: الألوان، واحدها فنّ، و هو الضرب من كل شى‌ء، و به قال عطاء و سعيد بن جبير، و جمع عطاء بين القولين، فقال: فى كلّ غصن فنون من الفاكهة، و من إطلاق الفنن على الغصن قول النابغة:

دعاء حمامة تدعو هديلامفجّعة على فنن تغنّى

و قول الآخر:

(١). المطففين: ۶.

(٢). الرعد: ٣٣.

فتح القدير، ج۵، ص: ١۶٩ ما هاج شوقك من هديل حمامةتدعو على فنن الغصون حماما

و قيل: معنى ذَواتا أَفْنانٍ ذواتا فضل وسعة على ما سواهما، قاله قتادة، و قيل: الأفنان: ظلّ الأغصان على الحيطان، روى هذا عن مجاهد و عكرمة فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن كل واحد منها ليس بمحل للتكذيب و لا بموضع للإنكار فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ هذا أيضا صفة أخرى ل «جنتان»، أي: فى كل واحدة منهما عين جارية. قال الحسن: إحداهما السلسبيل و الأخرى التسنيم. و قال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، و الأخرى من خمر لذة للشاربين، قيل: كلّ واحدة منهما مثل الدنيا أضعافا مضاعفة فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها هذه النعمة الكائنة فى الجنة لأهل السعادة فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ هذا صفة ثالثة لجنتان، و الزوجان: الصنفان و النوعان، و المعنى: أن فى الجنتين من كلّ نوع يتفكّه به ضربين يستلذ بكلّ نوع من أنواعه، قيل: أحد الصنفين رطب و الآخر يابس، لا يقصر أحدهما عن الآخر فى الفضل و الطيب فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن فى مجرّد تعداد هذه النعم و وصفها فى هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير و الترهيب عن فعل الشرّ ما لا يخفى على من يفهم، و ذلك نعمة عظمى و منّة كبرى، فكيف بالتنعّم به عند الوصول إليه مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ انتصاب متكئين على الحال من فاعل قوله: وَ لِمَنْ خافَ و إنما جمع حملا على معنى من، و قيل: عاملها محذوف، و التقدير:

يتنعمون متكئين. و قيل: منصوب على المدح، و الفرش: جمع فراش، و البطائن: هى التى تحت الظهائر، و هى جمع بطانة. قال الزجاج: هى ما يلى الأرض، و الإستبرق: ما غلظ من الديباج، و إذا كانت البطائن من إستبرق فكيف تكون الظهائر؟ قيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال اللّه فيه: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ «١» قيل: إنما اقتصر على ذكر البطائن؛ لأنه لم يكن أحد فى الأرض يعرف ما فى الظهائر. و قال الحسن: بطائنها من إستبرق من نور جامد. و قال الحسن:

البطائن هى الظهائر، و به قال الفراء: و قال: قد تكون البطانة الظهارة و الظهارة البطانة؛ لأن كلّ واحد منهما يكون وجها، و العرب تقول: هذا ظهر السماء، و هذا بطن السماء لظاهرها الّذى نراه، و أنكر ابن قتيبة هذا، و قال: لا يكون هذا إلا فى الوجهين المتساويين وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ مبتدأ و خبر، و الجنى:

ما يجتنى من الثمار، قيل: إن الشجرة تدنو حتى يجنيها من يريد جناها. و منه قول الشاعر «٢»:

هذا جناى و خياره فيهإذ كلّ جان يده إلى فيه

قرأ الجمهور: فُرُشٍ بضمتين، و قرأ أبو حيوة بضمة و سكون، و قرأ الجمهور: جَنَى بفتح الجيم، و قرأ عيسى بن عمر بكسرها، و قرأ عيسى أيضا بكسر النون على الإمالة فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإنها كلها بموضع لا يتيسّر لمكذّب أن يكذب بشىء منها؛ لما تشتمل عليه من الفوائد العاجلة

(١). السجدة: ١٧.

(٢). هو عمرو بن عدى اللخمى.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٧٠

و الآجلة فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ أى: فى الجنتين المذكورتين. قال الزجاج: و إنما قال فيهنّ؛ لأنه عنى الجنتين و ما أعدّ لصاحبهما فيهما من النعيم، و قيل فيهنّ: أى فى الفرش التى بطائنها من إستبرق. و معنى قاصِراتُ الطَّرْفِ أنهنّ يقصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ لا ينظرن إلى غيرهم، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة الصافات لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ قال الفراء: الطمث: الافتضاض، و هو النكاح بالتّدمية، يقال: طمث الجارية: إذا افترعها. قال الواحدى: قال المفسرون: لم يطأهن و لم يغشهنّ و لم يجامعهنّ قبلهم أحد. قال مقاتل: لأنّهن خلقن فى الجنة، و الضمير فى «قبلهم» يعود إلى الأزواج المدلول عليه بقاصرات الطرف، و قيل: يعود إلى متكئين، و الجملة فى محل رفع صفة لقاصرات؛ لأن إضافتها لفظية، و قيل: الطمث: المسّ، أى: لم يمسسهنّ، قاله أبو عمرو. و قال المبرد: أى: لم يذللهنّ، و الطمث:

التذليل، و من استعمال الطمث فيما ذكره الفراء قول الفرزدق:

وقعن إلىّ لم يطمثن قبلى و هنّ أصحّ من بيض النّعام

قرأ الجمهور: يَطْمِثْهُنَ بكسر الميم، و قرأ الكسائى بضمها، و قرأ الجحدرى و طلحة بن مصرّف بفتحها، و فى هذه الآية بل فى كثير من آيات هذه السورة دليل أن الجنّ يدخلون الجنة إذا آمنوا باللّه سبحانه و عملوا بفرائضه و انتهوا عن مناهيه فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن فى مجرّد هذا الترغيب فى هذه النعم نعمة جليلة و منّة عظيمة، لأن به يحصل الحرص على الأعمال الصالحة و الفرار من الأعمال الطالحة، فكيف بالوصول إلى هذه النعم و التنعم بها فى جنات النعيم بلا انقطاع و لا زوال كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ هذا صفة لقاصرات، أو حال منهنّ، شبههنّ سبحانه فى صفاء اللون مع حمرته بالياقوت و المرجان، و الياقوت:

هو الحجر المعروف، و المرجان قد قدّمنا الكلام فيه فى هذه السورة على الخلاف فى كونه صغار الدرّ، أو الأحمر المعروف. قال الحسن: هنّ فى صفاء الياقوت و بياض المرجان، و إنما خصّ المرجان على القول بأنه صغار الدرّ؛ لأن صفاءها أشدّ من صفاء كبار الدرّ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن نعمه كلها لا يتيسر تكذيب شى‏ء منها كائنة ما كانت، فكيف بهذه النعم الجليلة و المنن الجزيلة؟ هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها، و المعنى ما جزاء من أحسن العمل فى الدنيا إلا الإحسان إليه فى الآخرة، كذا قال ابن زيد و غيره. قال عكرمة: هل جزاء من قال لا إله إلا اللّه إلا الجنة، و قال الصادق: هل جزاء من أحسنت عليه فى الأزل إلا حفظ الإحسان عليه فى الأبد. قال الرازى: فى هذه الآية وجوه كثيرة، حتى قيل: إن فى القرآن ثلاث آيات فى كل واحدة منها مائة قول، إحداها قوله تعالى: فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ «١» و ثانيها وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا «٢» و ثالثها هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ قال محمد بن الحنفية: هى للبرّ و الفاجر، البرّ فى الآخرة، و الفاجر فى الدنيا فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها الإحسان إليكم فى الدنيا و الآخرة بالخلق و الرزق، و الإرشاد إلى العمل الصالح، و الزّجر عن العمل الّذى لا يرضاه

---

(١). البقرة: ١٥٢.

(٢). الإسراء: ٨.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٧١

وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ أى: و من دون تينك الجنتين الموصوفتين بالصفات المتقدّمة جنتان أخريان لمن دون أصحاب الجنتين السابقتين من أهل الجنة، و معنى «من دونهما» أى: من أمامهما و من قبلهما، أى: هما أقرب منهما و أدنى إلى العرش، و قيل: الجنتان الأوليان جنة عدن و جنة النعيم، و الأخريان جنة الفردوس و جنة المأوى. قال ابن جريج: هى أربع جنات: جنتان منهما

للسابقين المقرّبين فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ و «عينان تجريان»، و جنتان لأصحاب اليمين فِيهِما فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمّانٌ و فِيهِما عَيْنانِ نَضّاخَتانِ قال ابن زيد: إن الأولين من ذهب للمقرّبين، و الأخريين من ورق «١» لأصحاب اليمين فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإنها كلها حقّ و نعم لا يمكن جحدها. ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الأخريين فقال: مُدْهامَّتانِ و ما بينهما اعتراض. قال أبو عبيدة و الزجاج: من خضرتهما قد اسودّتا من الرّيّ، و كل ما علاه السواد ريا فهو مدهم. قال مجاهد: مسودتان، و الدّهمة فى اللغة: السواد، يقال فرس أدهم و بعير أدهم؛ إذا اشتدّت زرقته حتى ذهب البياض الّذى فيه فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن جميعها نعم ظاهرة واضحة لا تجحد و لا تنكر فِيهِما عَيْنانِ نَضّاخَتانِ النضخ: فوران الماء من العين، و المعنى:

أن فى الجنتين المذكورتين عينين فوّارتين. قال أهل اللغة: و النضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضح بالحاء المهملة.

قال الحسن و مجاهد: تنضخ على أولياء اللّه بالمسك و العنبر و الكافور فى دور أهل الجنة كما ينضخ رشّ المطر.

و قال سعيد بن جبير: إنها تنضخ بأنواع الفواكه و الماء فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإنها ليست بموضع للتكذيب و لا بمكان للجحد فِيهِما فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمّانٌ هذا من صفات الجنتين المذكورتين قريبا، و النخل و الرمان و إن كانا من الفاكهة لكنهما خصّصا بالذكر لمزيد حسنهما و كثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه؛ كما حكاه الزجاج و الأزهرى و غير هما. و قيل: إنّما خصّهما لكثرتهما فى أرض العرب، و قيل: خصّهما لأن النخل فاكهة و طعام، و الرمان فاكهة و دواء. و قد ذهب إلى أنهما من جملة الفاكهة جمهور أهل العلم، و لم يخالف فى ذلك إلا أبو حنيفة، و قد خالفه صاحباه أبو يوسف و محمد فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها هذه النعم التى فى جنات النعيم، و مجرّد الحكاية لها أثر فى نفوس السامعين و تجذبهم إلى طاعة ربّ العالمين فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ قرأ الجمهور: خَيْراتٌ بالتخفيف، و قرأ قتادة و ابن السّميقع و أبو رجاء العطاردى و بكر بن حبيب السهمى و ابن مقسم و النهدى بالتشديد، فعلى القراءة الأولى هى جمع خيرة بزنة فعلة بسكون العين، يقال: امرأة خيرة و أخرى شرّة، أو جمع خيرة مخفّف خيّرة، و على القراءة الثانية جمع خيّرة بالتشديد. قال الواحدى: قال المفسرون: الخيرات: النساء خيرات الأخلاق و حسان الوجوه.

قيل: و هذه الصفة عائدة إلى الجنان الأربع، و لا وجه لهذا، فإنه قد وصف نساء الجنتين الأوليين بأنهنّ قاصرات الطرف كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ و بين الصفتين بون بعيد فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن شيئا منها كائنا ما كان لا يقبل التكذيب حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ أى: محبوسات، و منه القصر، لأنه يحبس من فيه، و الحور جمع حوراء، و هى شديدة بياض العين شديدة سوادها، و قد تقدّم بيان معنى الحوراء

---

(١). «ورق»: فضة.

و الخلاف فيه. و قيل معنى «مَقْصُوراتٌ»: أنهنّ قصرن على أزواجهنّ فلا يردن غيرهم، و حكاه الواحدى عن المفسرين. و الأوّل أولى، و به قال أبو عبيدة و مقاتل و غير هما. قال فى الصّحاح: قصرت الشى‌ء أقصره قصرا: حبسته، و المعنى: أنهنّ خدّرن فى الخيام. و الخيام جمع خيمة، و قيل: جمع خيم، و الخيم: جمع خيمة، و هى أعواد تنصب و تظلّل بالثياب، فتكون أبرد من الأخبية.

قيل: الخيمة من خيام الجنة درّة مجوّفة فرسخ فى فرسخ. و ارتفاع «حور» على البدلية من خيرات لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ قد تقدّم تفسيره فى صفة الجنتين الأوليين فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإنها كلها نعم لا تكفر و منن لا تجحد مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ انتصاب «مُتَّكِئِينَ» على الحال أو المدح كما سبق، قال أبو عبيدة: الرفارف: البسط، و به قال الحسن و مقاتل و الضحاك و غيرهم. و قال ابن عيينة: هى الزرابى. و قال ابن كيسان: هى المرافق.

و روى عن أبى عبيدة أنه قال: هى حاشية الثوب. و قال الليث: ضرب من الثياب الخضر. و قيل: الفرش المرتفعة، و قيل: كل ثوب عريض. قال فى الصحاح: و الرّفرف: ثياب خضر تتّخذ منها المحابس، الواحدة رفرفة. و قال الزجاج: قالوا الرّفرف هنا رياض الجنة، و قالوا: الرّفرف: الوسائد، و قالوا: الرّفرف:

المحابس ا ه. و من القائلين بأنها رياض الجنة سعيد بن جبير، و اشتقاق الرّفرف من رفّ يرفّ؛ إذا ارتفع، و منه رفرفة الطائر، و هى تحريك جناحيه فى الهواء. قرأ الجمهور: رَفْرَفٍ على الإفراد. و قرأ عثمان بن عفان و الحسن و الجحدرى رفارف على الجمع وَ عَبْقَرِيٍّ حِسانٍ العبقرى: الزرابى و الطنافس الموشية. قال أبو عبيدة: كلّ و شى من البسط عبقرىّ، و هو منسوب إلى أرض يعمل فيه الوشى. قال الفرّاء:

العبقرىّ: الطنافس الثخان. و قيل: الزرابى، و قيل: البسط، و قيل: الديباج. قال ابن الأنبارى: الأصل فيه أن عبقر قرية تسكنها الجنّ ينسب إليها كل فائق، قال الخليل: العبقرىّ عند العرب كل جليل فاضل فاخر من الرجال و النساء، و منه قول زهير:

بخيل عليها جنّة عبقريّةجديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا

قال الجوهرىّ: العبقرىّ موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن. قال لبيد:

كهول و شبّان كجنّة عبقر «١» ثم نسبوا إليه كل شىء تعجبوا من حذقه وجودة صنعته و قوّته فقالوا: عبقرى، و هو واحد و جمع. قرأ الجمهور: عَبْقَرِيٍ و قرأ عثمان بن عفان و الحسن و الجحدرى «عباقرىّ» و قرئ «عباقر» و هما نسبة إلى عباقر اسم بلد. و قال قطرب: ليس بمنسوب، و هو مثل كرسىّ و بختىّ و بخاتى. قرأ الجمهور خُضْرٍ بضم الخاء و سكون الضاد، و قرئ بضمهما و هى لغة قليلة. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن كل واحد منها أجلّ من أن يتطرق إليه التكذيب، و أعظم من أن يجحده جاحد أو ينكره منكر، و قد

---

(١). و صدره: و من فاد من إخوانهم و بنيهم.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٧٣

قدّمنا فى أوّل هذه السورة وجه تكرير هذه الآية فلا نعيده تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ تبارك:

تفاعل، من البركة، قال الرّازى: و أصل التبارك من التبرّك، و هو الدوام و الثبات، و منه برك البعير و بركة الماء فإن الماء يكون دائما، و المعنى: دام اسمه و ثبت أو دام الخير عنده، لأن البركة و إن كانت من الثبات لكنها تستعمل فى الخير، أو يكون معناه علا و ارتفع شأنه. و قيل معناه: تنزيه اللّه سبحانه و تقديسه، و إذا كان هذا التبارك منسوبا إلى اسمه عزّ و جلّ، فما ظنك بذاته سبحانه، و قيل: الاسم بمعنى الصفة، و قيل:

هو مقحم كما فى قول الشاعر:

إلى الحول ثمّ اسم السّلام عليكماو من يبك حولا كاملا فقد اعتذر

و قد تقدّم تفسير ذى الجلال و الإكرام فى هذه السورة. قرأ الجمهور: «ذِي الْجَلالِ» على أنه صفة للربّ سبحانه. و قرأ ابن عامر ذو الجلال على أنه صفة لاسم.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ قال: وعد اللّه المؤمنين الذين خافوا مقامه فأدّوا فرائضه الجنة. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية يقول: خاف ثم اتقى، و الخائف:

من ركب طاعة اللّه و ترك معصيته. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن عطاء: أنها نزلت فى أبى بكر. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شوذب مثله. و أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود فى الآية قال: لمن خافه فى الدنيا. و أخرج ابن أبى

شيبة و أحمد و ابن منيع و الحاكم و الترمذى و النسائى و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى الدّرداء: «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ هذه الآية وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ فقلت: و إن زنى و إن سرق يا رسول اللّه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الثانية: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ فقلت: و إن زنى و إن سرق يا رسول اللّه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الثانية: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ فقلت: و إن زنى و إن سرق، فقال الثالثة: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ فقلت:

و إن زنى و إن سرق، قال نعم: و إن رغم أنف أبى الدّرداء». و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ فقال أبو الدرداء: و إن زنى و إن سرق يا رسول اللّه؟

قال: و إن زنى و إن سرق، و إن رغم أنف أبى الدّرداء». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبىّ الدّرداء فى قوله: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ قال: قيل لأبى الدّرداء: و إن زنى و إن سرق؟ قال: من خاف مقام ربه و لم يزن و لم يسرق. و أخرج ابن مردويه عن ابن شهاب قال:

كنت عند هشام بن عبد الملك، فقال قال أبو هريرة: «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ قال أبو هريرة: و إن زنى و إن سرق؟ فقلت: إنما كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض، فلما نزلت الفرائض ذهب هذا». و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أبى موسى الأشعرى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «جنان الفردوس أربع جنات: جنتان من ذهب حليتهما و أبنيتهما و ما فيهما، و جنتان من فضة حليتهما و أبنيتهما و ما فيهما، و ما بين القوم و بين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى موسى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ و فى قوله:

فتح القدير، ج‌5، ص: 174

وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ قال: «جنتان من ذهب للمقرّبين، و جنتان من ورق لأصحاب اليمين». و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن أبى موسى فى قوله: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ قال: جنتان من ذهب للسابقين، و جنتان من فضة للتابعين.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ذَواتا أَفْنانٍ قال: ذواتا ألوان.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ذَواتا أَفْنانٍ قال: ذواتا ألوان.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: فنّ غصونهما يمسّ بعضها بعضا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا قال: الفنّ: الغصن. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن ابن مسعود فى قوله:

مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ قال: أخبرتم بالبطائن، فكيف الظهائر؟ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس أنه قيل له: بطائنها من إستبرق، فما الظواهر؟ قال: ذلك مما قال اللّه:

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عنه فى قوله: وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ قال: جناها: ثمرها، و الدانى: القريب منك يناله القائم و القاعد. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عنه أيضا فى قوله:

فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ يقول: عن غير أزواجهنّ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ يقول: لم يدن منهنّ أو لم يدمهنّ.

و أخرج أحمد و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى البعث، عن أبى سعيد الخدرىّ عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى

قوله: كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ قال: تنظر إلى وجهها فى خدرها أصفى من المرآة، و إن أدنى لؤلؤة عليها لتضىء ما بين المشرق و المغرب، و إنه يكون عليها سبعون ثوبا، و ينفذها بصره حتى يرى مخّ ساقها من وراء ذلك». و أخرج ابن أبى شيبة و هناد بن السرىّ و الترمذىّ، و ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلّة، حتى يرى مخّها، و ذلك أن اللّه يقول: كأنهنّ الياقوت و المرجان، فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه» و قد رواه الترمذى موقوفا، و قال: هو أصحّ. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، و ضعّفه، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى «قوله: هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ قال: ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة». و أخرج الحكيم الترمذىّ فى نوادر الأصول، و البغوىّ فى تفسيره، و الديلمى فى مسند الفردوس، و ابن النجار فى تاريخه، عن أنس مرفوعا مثله، و أخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا فى الآية قال: «هل جزاء من أنعمت عليه بالإسلام إلا أن أدخله الجنة». و أخرج ابن النجار فى تاريخه، عن علىّ بن أبى طالب مرفوعا مثل حديث ابن عمر. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ قال: هل جزاء من قال لا إله إلا اللّه فى الدنيا إلا الجنة فى الآخرة. و أخرج ابن عدىّ و أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى، و البيهقىّ فى الشعب، و ضعّفه، عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أنزل اللّه علىّ هذه الآية فى

فتح القدير، ج‏5، ص: 175

سورة الرّحمن للكافر و المسلم: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان». و أخرجه ابن مردويه مرفوعا على ابن عباس. و أخرج هناد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: مُدْهامَّتانِ قال: هما خضراوان. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: قد اسودّتا من الخضرة من الرىّ من الماء.

و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير عن ابن عبد اللّه بن الزبير نحوه. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى قال: سألت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن قوله: مُدْهامَّتانِ قال: خضراوان.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس نَضَّاخَتانِ قال: فائضتان. و أخرج عبد بن حميد عنه قال: ينضخان بالماء. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: خَيْراتٌ حِسانٌ قال: لكل مسلم خيرة، و لكل خيرة خيمة و لكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها من اللّه كل يوم تحفة و كرامة و هدية لم تكن قبل ذلك، لا مراحات، و لا طمّاحات، و لا بخرات «1»، و لا دفرات «2»، حور عين كأنهن بيض مكنون. و أخرجه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعا. و أخرج عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: حُورٌ قال: بيض مَقْصُوراتٌ قال: محبوسات فِي الْخِيامِ قال: فى بيوت اللؤلؤ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم قال:

الحور: سود الحدق. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الخيام درّ مجوّف». و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أبى موسى الأشعرى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم «الخيمة درّة مجوّفة طولها فى السماء ستون ميلا، فى كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن». و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: مُتَّكِئِينَ عَلى‏ رَفْرَفٍ قال: فضول المحابس و الفرش و البسط. و أخرج عبد بن حميد عن على بن أبى طالب قال: هى فضول المحابس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، من طرق عن ابن عباس رَفْرَفٍ خُضْرٍ قال:

المحابس وَ عَبْقَرِيٍّ حِسانٍ قال: الزرابى. و أخرج عبد بن حميد عنه فى الآية قال: الرّفرف: الرّياض، و العبقرىّ: الزرابى.

---

(۱). بخر الفم: أنتنت رائحته.

(۲). دفر الشيء: خبثت رائحته. و الأدفر: من فاح ريح صنانه. و الدّفار: المنتنة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۷۶

سورة الواقعة

اشارة

هى سبع و تسعون، أو ست و تسعون آية و هى مكية فى قول الحسن و عكرمة و جابر و عطاء. و قال ابن عباس و قتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة و هى قوله تعالى: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ «۱» و قال الكلبى: إنها مكية إلا أربع آيات منها، و هى أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ- وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ «۲» و قوله: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ- وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ «۳». و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت سورة الواقعة بمكة. و أخرج عن ابن الزبير مثله.

و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و ابن الضريس و الحارث بن أبى أسامة و أبو يعلى و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا». و أخرج ابن عساكر عن ابن عباس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «سورة الواقعة سورة الغنى، فاقرؤوها، و علّموها أولادكم». و أخرج الديلمى عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «علموا نساءكم سورة الواقعة فإنها سورة الغنى» و قد تقدّم قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «شيّبتنى هود و الواقعة» ا ه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۱ الى ۲۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (۱) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (۲) خافِضَةٌ رافِعَةٌ (۳) إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (۴)
وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا (۵) فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (۶) وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً (۷) فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (۸) وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ (۹)
وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (۱۰) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (۱۱) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۱۲) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (۱۳) وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (۱۴)
عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (۱۵) مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ (۱۶) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (۱۷) بِأَكْوابٍ وَ أَبارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۱۸)
لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ (۱۹)
وَ فاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (۲۰) وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (۲۱) وَ حُورٌ عِينٌ (۲۲) كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (۲۳) جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۴)
لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً (۲۵) إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً (۲۶)

قوله: إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ الواقعة: اسم للقيامة كالآزفة و غيرها، و سمّيت واقعة لأنها كائنة لا محالة، أو لقرب وقوعها، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد، و انتصاب «إذا» بمضمر، أى: اذكر وقت وقوع الواقعة، أو بالنفى المفهوم من قوله: لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ أى: لا يكون عند وقوعها تكذيب، و الكاذبة مصدر كالعاقبة، أى: ليس لمجيئها و ظهورها كذب أصلا، و قيل: «إذا» شرطية و جوابها مقدّر،

---

(١). الواقعة: ٨٢.

(٢). الواقعة: ٨١- ٨٢.

(٣). الواقعة: ١٣- ١٤.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٧٧

أى: إذا وقعت كان كيت و كيت، و الجواب هذا هو العامل فيها، و قيل: إنها شرطية، و العامل فيها الفعل الّذى بعدها، و اختار هذا أبو حيان، و قد سبقه إلى هذا مكىّ فقال: و العامل وقعت. قال المفسرون: و الواقعة هنا هى النفخة الآخرة، و معنى الآية: أنها إذا وقعت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب بها أصلا، أو لا يكون هناك نفس تكذيب على اللّه و تكذيب بما أخبر عنه من أمور الآخرة. قال الزجاج: «ليس لوقعتها كاذبة» أى: لا يردّها شى‌ء، و به قال الحسن و قتادة. و قال الثورى: ليس لوقعتها أحد يكذب بها.

و قال الكسائى: ليس لها تكذيب، أى: لا ينبغى أن يكذب بها أحد خافِضَةٌ رافِعَةٌ قرأ الجمهور برفعهما على إضمار مبتدأ، أى: هى خافضة رافعة. و قرأ الحسن و عيسى الثقفى بنصبهما على الحال. قال عكرمة و السدّى و مقاتل: خفضت الصوت فأسمعت من دنا، و رفعت الصوت فأسمعت من نأى، أى: أسمعت القريب و البعيد. و قال قتادة: خفضت أقواما فى عذاب اللّه، و رفعت أقواما إلى طاعة اللّه. و قال محمد بن كعب: خفضت أقواما كانوا فى الدنيا مرفوعين، و رفعت أقواما كانوا فى الدنيا مخفوضين. و العرب تستعمل الخفض و الرفع فى المكان و المكانة و العزّ و الإهانة، و نسبة الخفض و الرفع إليها على طريق المجاز، و الخافض و الرّافع فى الحقيقة هو اللّه سبحانه. إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا أى: إذا حرّكت حركة شديدة، يقال: رجّه يرجّه رجّا إذا حرّكه، و الرّجة: الاضطراب، و ارتجّ البحر: اضطرب. قال المفسرون: ترتجّ كما يرتجّ الصبىّ فى المهد حتى ينهدم كل ما عليها، و ينكسر كل شى‌ء من الجبال و غيرها. قال قتادة و مقاتل و مجاهد: معنى رجّت:

زلزلت، و الظرف متعلق بقوله: خافِضَةٌ رافِعَةٌ أى: تخفض و ترفع وقت رجّ الأرض و بس الجبال؛ لأنه عند ذلك يرتفع ما هو منخفض و ينخفض ما هو مرتفع. و قيل: إنه بدل من الظرف الأوّل ذكره الزجاج، فيكون معنى وقوع الواقعة هو رجّ الأرض، و بس الجبال. وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا البس: الفتّ، يقال: بسّ الشى‌ء إذا فتّه حتى يصير فتاتا، و يقال: بسّ السويق: إذابته بالسمن أو بالزيت. قال مجاهد و مقاتل: المعنى أن الجبال فتت فتا. و قال السدّى: كسرت كسرا. و قال الحسن: قلعت من أصلها. و قال مجاهد أيضا.

بست كما يبس الدقيق بالسمن أو بالزيت، و المعنى: أنها خلطت فصارت كالدقيق الملتوت. و قال أبو زيد:

البسّ السوق، و المعنى على هذا: سيقت الجبال سوقا. قال أبو عبيد: بسّ الإبل و أبسّها لغتان؛ إذا زجرها.

و قال عكرمة: المعنى هدّت هدّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا أى: غبارا متفرّقا منتشرا. قال مجاهد: الهباء الشعاع الّذى يكون فى الكوّة كهيئة الغبار، و قيل: هو الرّهج الّذى يسطع من حوافر الدّواب ثم يذهب، و قيل:

ما تطاير من النار إذا اضطرمت على سورة الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئا، و قد تقدم بيانه فى الفرقان عند تفسير قوله: فَجَعَلْناهُ هَباءً

مَنْثُوراً «۱» قرأ الجمهور مُنْبَثًّا بالمثلثة. و قرأ مسروق و النخعى و أبو حيوة بالتاء المثناة من فوق. أى: منقطعا، من قولهم: بتّه اللّه، أى: قطعه. ثم ذكر سبحانه أحوال الناس و اختلافهم فقال: وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً و الخطاب لجميع الناس أو للأمة الحاضرة، و الأزواج:

الأصناف، و المعنى: و كنتم فى ذلك اليوم أصنافا ثلاثة. ثم فسّر سبحانه هذه الأصناف فقال:

---

(۱). الفرقان: ۲۳.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۷۸

فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ أى: أصحاب اليمين، و هم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، أو الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، و أصحاب الميمنة مبتدأ، و خبره: ما أصحاب الميمنة، أى: أىّ شىء هم فى حالهم و صفتهم، و الاستفهام للتعظيم و التفخيم، و تكرير المبتدأ هنا بلفظه مغن عن الضمير الرّابط، كما فى قوله:

الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ «۱» و الْقارِعَةُ مَا الْقارِعَةُ «۲» و لا يجوز مثل هذا إلا فى مواضع التفخيم و التعظيم، و الكلام فى أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ كالكلام فى أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، و المراد الّذى يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، أو يأخذون صحائف أعمالهم بشمالهم، و المراد تعجيب السامع من حال الفريقين فى الفخامة و الفظاعة، كأنه قيل: فأصحاب الميمنة فى نهاية السعادة و حسن الحال، و أصحاب المشأمة فى نهاية الشقاوة و سوء الحال. و قال السدّى: أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه، و أصحاب المشأمة هم الذين كانوا عن شماله. و قال زيد بن أسلم:

أصحاب الميمنة هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن، و أصحاب المشأمة هم الذين أخذوا من شقه الأيسر. و قال ابن جريج:

أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات، و أصحاب المشأمة هم أهل السيئات. و قال الحسن و الربيع: أصحاب الميمنة هم الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة، و أصحاب المشأمة هم المشائيم على أنفسهم بالأعمال القبيحة. و قال المبرد: أصحاب الميمنة أصحاب التقدّم، و أصحاب المشأمة أصحاب التأخر، و العرب تقول:

اجعلنى فى يمينك و لا تجعلنى فى شمالك، أى: اجعلنى من المتقدّمين و لا تجعلنى من المتأخرين، و منه قول ابن الدّمينة:

أ بتّى أفى يمنى يديك جعلتنىفأفرح أم صيّرتنى فى شمالك

ثم ذكر سبحانه الصنف الثالث فقال: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ و التكرير فيه للتفخيم و التعظيم كما مرّ فى القسمين الأوّلين، كما تقول أنت أنت و زيد زيد، و السابقون مبتدأ، و خبره السابقون. و فيه تأويلان:

أحد هما أنه بمعنى السابقون هم الذين اشتهرت حالهم بذلك. و الثانى: أن متعلق السابقين مختلف، و التقدير:

و السابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة. و الأوّل أولى لما فيه من الدلالة على التفخيم و التعظيم. قال الحسن و قتادة: هم السابقون إلى الإيمان من كل أمة. و قال محمد بن كعب: إنهم الأنبياء. و قال ابن سيرين:

هم الذين صلّوا إلى القبلتين. و قال مجاهد: هم الذين سبقوا إلى الجهاد، و به قال الضحاک. و قال سعيد بن جبير: هم السابقون إلى التوبة و أعمال البرّ. و قال الزجاج: المعنى و السابقون إلى طاعة اللّه هم السابقون إلى رحمة اللّه. و قيل: و وجه تأخير هذا الصنف الثالث مع كونه أشرف من الصنفين الأوّلين هو أن يقترن به ما بعده، و هو قوله: أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ فالإشارة هى إليهم، أى: المقرّبون إلى جزيل ثواب اللّه و عظيم كرامته، أو الذين قربت درجاتهم و أعليت مراتبهم عند اللّه. و قوله: فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ متعلق بالمقربون، أى مقرّبون عند اللّه فى جنات النعيم. و يجوز أن يكون خبرا ثانيا لأولئك، و أن يكون حالا من

(١). الحاقة: ١- ٢.

(٢). القارعة: ١- ٢.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٧٩

الضمير فى المقرّبون، أى: كائنين فيها. قرأ الجمهور: فِي جَنَّاتِ بالجمع، و قرأ طلحة بن مصرّف «فى جنة» بالإفراد، و إضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه كما يقال: دار الضيافة و دار الدعوة و دار العدل، و ارتفاع ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هم ثلة، و الثلة الجماعة التى لا يحصر عددها. قال الزجاج: معنى ثلة معنى فرقة، من ثللت الشى‏ء؛ إذا قطعته، و المراد بالأوّلين هم الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ أى: من هذه الأمّة، و سمّوا قليلا بالنسبة إلى من كان قبلهم، و هم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم و كثرة من أجابهم. قال الحسن: سابقوا من مضى أكثر من سابقينا. قال الزجاج: الذين عاينوا جميع الأنبياء و صدّقوا بهم أكثر ممّن عاين النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا يخالف هذا ما ثبت فى الصحيح من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. ثم قال: ثلث أهل الجنة، ثم قال: نصف أهل الجنة» لأن قوله: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ* وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ إنما هو تفصيل للسابقين فقط كما سيأتى فى ذكر أصحاب اليمين أنهم ثلة من الأولين و ثلة من الآخرين، فلا يمتنع أن يكون فى أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم، فيجتمع من قليل سابقى هذه الأمة و من ثلة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة، و المقابلة بين الثلثين فى أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما لجواز أن يقال: هذه الثلة أكثر من هذه الثلة، كما يقال: هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة و هذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة، و هذه القطعة أكثر من هذه القطعة. و بهذا تعرف أنه لم يصب من قال إن هذه الآية منسوخة بالحديث المذكور. ثم ذكر سبحانه حالة أخرى للسابقين المقربين فقال: عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ قرأ الجمهور سُرُرٍ بضم السين و الراء الأولى، و قرأ أبو السّمّال و زيد بن علىّ بفتح الراء، و هى لغة كما تقدّم، و الموضونة: المنسوجة: و الوضن: النسج المضاعف. قال الواحدى: قال المفسرون: منسوجة بقضبان الذهب، و قيل: مشبكة بالدرّ و الياقوت و الزبرجد، و قيل: إنّ الموضونة: المصفوفة. و قال مجاهد:

الموضونة: المرمولة «١» بالذهب، و انتصاب مُتَّكِئِينَ عَلَيْها على الحال، و كذا انتصاب مُتَقابِلِينَ و المعنى: مستقرّين على سرر متكئين عليها متقابلين لا ينظر بعضهم قفا بعض يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ الجملة فى محل نصب على الحال من المقرّبين، أو مستأنفة لبيان بعض ما أعدّ اللّه لهم من النعيم، و المعنى يدور حولهم للخدمة غلمان لا يهرمون و لا يتغيّرون، بل شكلهم شكل الولدان دائما. قال مجاهد: المعنى لا يموتون.

و قال الحسن و الكلبى: لا يهرمون و لا يتغيّرون. قال الفراء: و العرب تقول للرجل إذا كبر و لم يشمط إنه لمخلد. و قال سعيد بن جبير: مخلدون مقرّطون. قال الفراء: و يقال مخلدون: مقرّطون، يقال: خلد جاريته؛ إذا حلاها بالخلدة، و هى القرط. و قال عكرمة: مخلدون: منعّمون، و منه قول امرئ القيس:

و هل ينعمن إلا سعيد مخلّدقليل الهموم ما يبيت بأوجال

و قيل: مستورون بالحلية، و روى نحوه عن الفراء، و منه قول الشاعر:

(١). «مرمولة»: منسوجة.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٨٠ و مخلّدات باللّجين كأنّماأعجازهنّ أقاوز «١» الكثبان

و قيل: مخلدون: منطقون، قيل: و هم ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا و لا حسنة لهم و لا سيئة، و قيل: هم أطفال المشركين، و لا يبعد أن يكونوا مخلوقين فى الجنة للقيام بهذه الخدمة، و الأكواب: هى الأقداح المستديرة الأفواه التى لا آذان لها و لا عرى، و قد مضى بيان معناها فى سورة الزخرف، و الأباريق: هى ذات العرا و الخراطيم، واحدها إبريق، و هو الّذى يبرق لونه من صفائه وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ أى: من خمر جارية أو من ماء جار، و المراد به هاهنا الخمر الجارية من العيون، و قد تقدّم بيان معنى الكأس فى سورة الصافات لا يُصَدَّعُونَ عَنْها أى: لا تتصدّع رؤوسهم من شربها كما تتصدّع من شرب خمر الدنيا. و الصداع:

هو الداء المعروف الّذى يلحق الإنسان فى رأسه، و قيل: لا يصدعون لا يتفرقون كما يتفرق الشّراب، و يقوّى هذا المعنى قراءة مجاهد يصدعون بفتح الياء و تشديد الصاد، و الأصل يتصدعون، أى: يتفرقون، و الجملة مستأنفة لبيان ما أعد اللّه لهم من النعيم، أو فى محل نصب على الحال، و جملة وَ لا يُنْزِفُونَ معطوفة على الجملة التى قبلها، و قد تقدم اختلاف القراء فى هذا الحرف فى سورة الصافات، و كذلك تقدّم تفسيره، أى: لا يسكرون فتذهب عقولهم، من أنزف الشارب؛ إذا نفد عقله أو شرابه، و منه قول الشاعر «٢»:

لعمرى لئن أنزفتم أو صحوتم لبئس النّدامى كنتم آل أبجرا

وَ فاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ أى: يختارونه، يقال: تخيرت الشيء: إذا أخذت خيره. قرأ الجمهور وَ فاكِهَةٍ بالجر وَ كذا لَحْمِ عطفا على أكواب، أى: يطوفون عليهم بهذه الأشياء المأكول و المشروب و المتفكّه به. و قرأ زيد بن على و أبو عبد الرّحمن برفعهما على الابتداء، و الخبر مقدّر، أى: و لهم فاكهة و لحم، و معنى مِمَّا يَشْتَهُونَ ممّا يتمنّونه و تشتهيه أنفسهم وَ حُورٌ عِينٌ- كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ قرأ الجمهور: وَ حُورٌ عِينٌ برفعهما عطفا على ولدان، أو على تقدير مبتدأ، أى: نساؤهم حور عين، أو على تقدير خبر، أى: و لهم حور عين، و قرأ حمزة و الكسائى بجرهما عطفا على أكواب. قال الزجاج: و جائز أن يكون معطوفا على جنات، أى: هم فى جنات و فى حور على تقدير مضاف محذوف، أى: و فى معاشرة حور. قال الفراء: فى توجيه العطف على أكواب إنه يجوز الجرّ على الاتباع فى اللفظ و إن اختلفا فى المعنى؛ لأن الحور لا يطاف بهنّ، كما فى قول الشاعر:

إذا ما الغانيات برزن يوما و زجّجن الحواجب و العيونا

و العين لا تزجج و إنما تكحل. و من هذا قول الشاعر:

علفتها تبنا و ماء باردا

---

(١). «الأقاوز»: جمع قوز: و هو كثيب من الرمل صغير؛ شبه به أرداف النساء.

(٢). هو الحطيئة.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٨١

و قول الآخر:

متقلّدا سيفا و رمحا «١» قال قطرب: هو معطوف على الأكواب و الأباريق من غير حمل على المعنى. قال: و لا ينكر أن يطاف عليهم بالحور، و يكون لهم فى ذلك لذة. و قرأ الأشهب العقيلى و النّخعى و عيسى بن عمر بنصبهما على تقدير إضمار فعل، كأنه قيل: و يزوّجون حورا عينا، أو و يعطون، و رجّح أبو عبيد و أبو حاتم قراءة الجمهور.

ثم شبههنّ سبحانه باللؤلؤ المكنون، و هو الّذى لم تمسّه الأيدى و لا وقع عليه الغبار، فهو أشد ما يكون صفاء، و انتصاب جزاء فى قوله: جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ على أنه مفعول له، أى: يفعل بهم ذلك كله للجزاء بأعمالهم. و يجوز أن يكون مصدرا مؤكدا لفعل محذوف، أى: يجزون جزاء، و قد تقدّم تفسير الحور العين فى سورة الطور و غيرها لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً اللغو:

الباطل من الكلام، و التأثيم النسبة إلى الإثم. قال محمد بن كعب: لا يؤثّم بعضهم بعضا، و قال مجاهد: لا يسمعون شتما و لا مأثما، و المعنى:

أنه لا يقول بعضهم لبعض أثمت لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً القيل: القول، و الاستثناء منقطع، أى: لكن يقولون قيلا أو يسمعون قيلا و انتصاب سلاما سلاما على أنه بدل من «قيلا»، أو صفة له، أو هو مفعول به لقيلا، أى: إلا أن يقولوا سلاما سلاما، و اختار هذا الزجاج، أو على أنه منصوب بفعل هو محكى بقيلا، أى: إلا قيلا سلموا سلاما سلاما، و المعنى فى الآية: أنهم لا يسمعون إلا تحية بعضهم لبعض. قال عطاء: يحيى بعضهم بعضا بالسلام، و قيل: إن الاستثناء متصل و هو بعيد، لأن التحية ليست ممّا يندرج تحت اللغو و التأثيم، و قرئ سلام سلام بالرفع. قال مكى: و يجوز الرفع على معنى سلام عليكم مبتدأ و خبر.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ قال: يوم القيامة لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ قال: ليس لها مرد يرد خافِضَةٌ رافِعَةٌ قال: تخفض ناسا و ترفع آخرين. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه خافِضَةٌ رافِعَةٌ قال: أسمعت القريب و البعيد. و أخرج ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب خافِضَةٌ رافِعَةٌ قال: الساعة خفضت أعداء اللّه إلى النار، و رفعت أولياء اللّه إلى الجنة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا قال: زلزلت وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا قال: فتتت فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا قال: شعاع الشمس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا قال: الهباء الّذى يطير من النار إذا أضرمت يطير منها الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئا. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: الهباء: ما يثور مع شعاع الشمس، و انبثاثه تفرقه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال: الهباء المنبث: رهج الدواب، و الهباء المنثور: غبار الشمس الّذى تراه فى شعاع الكوة. و أخرج ابن

---

(١). و صدره: و رأيت زوجك فى الوغى.

أبى حاتم عن ابن عباس وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً قال: أصنافا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً قال: هى التى فى سورة الملائكة: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ «١». و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ قال: يوشع بن نون سبق إلى موسى، و مؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى، و علىّ بن أبى طالب سبق إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: نزلت فى حزقيل مؤمن آل فرعون، و حبيب النجار الّذى ذكر فى يس، و علىّ بن أبى طالب، و كل رجل منهم سابق أمته، و علىّ أفضلهم سبقا. و أخرج أحمد عن معاذ بن جبل «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تلا هذه الآية وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ وَ أَصْحابُ الشِّمالِ فقبض بيديه قبضتين فقال: هذه فى الجنة و لا أبالى، و هذه فى النار و لا أبالى». و أخرج أحمد أيضا عن عائشة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «أ تدرون من السابقون إلى ظلّ اللّه يوم القيامة؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، و إذا سئلوا بذلوا، و حكموا للناس كحكمهم لأنفسهم». و أخرج أحمد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: لما نزلت: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ- وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ شق على أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فنزلت: ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة و تقاسمونهم النصف الثانى». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس: عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ قال: مصفوفة.

و أخرج سعيد بن منصور و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عنه قال: مرمولة بالذهب. و أخرج ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة، و البزار، و ابن مردويه فى البعث، عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنك لتنظر إلى الطّير فى الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويا». و أخرج أحمد و الترمذى و الضياء عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى فى شجر الجنة، فقال أبو بكر: يا رسول اللّه إن هذه الطير لناعمة، قال: آكلها أنعم منها، و إنى لأرجو أن تكون ممّن يأكل منها» و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله:

كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ قال: الّذى فى الصّدف. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً قال: باطلا وَ لا تَأْثِيماً قال: كذبا.

[سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۲۷ الى ۵۶]

وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ (۲۷) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (۲۸) وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ (۲۹) وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ (۳۰) وَ ماءٍ مَسْكُوبٍ (۳۱)
وَ فاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (۳۲) لا مَقْطُوعَةٍ وَ لا مَمْنُوعَةٍ (۳۳) وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (۳۴) إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً (۳۵) فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً (۳۶)
عُرُباً أَتْراباً (۳۷) لِأَصْحابِ الْيَمِينِ (۳۸) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (۳۹) وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (۴۰) وَ أَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ (۴۱)
فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ (۴۲) وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (۴۳) لا بارِدٍ وَ لا كَرِيمٍ (۴۴) إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ (۴۵) وَ كانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (۴۶)
وَ كانُوا يَقُولُونَ أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (۴۷) أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (۴۸) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ (۴۹)
لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (۵۰) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (۵۱)
لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (۵۲) فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (۵۳) فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (۵۴) فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (۵۵) هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (۵۶)

---

(۱). فاطر: ۳۲.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۸۳

لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال السابقين و ما أعدّه لهم من النعيم المقيم، ذكر أحوال أصحاب اليمين فقال:

وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ قد قدّمنا وجه إعراب هذا الكلام، و ما فى هذه الجملة الاستفهامية من التفخيم و التعظيم، و هى خبر المبتدأ. و هو أصحاب اليمين، و قوله: فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف، أى: هم فى سدر مخضود، و السدر: نوع من الشجر، و المخضود: الّذى خضد شوكه، أى: قطع فلا شوك فيه. قال أمية بن أبى الصّلت يصف الجنة:

إنّ الحدائق فى الجنان ظليلةفيها الكواعب سدرها مخضود

و قال الضحاك و مجاهد و مقاتل بن حيان: إن السدر المخضود: الموقر حملا وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ قال أكثر المفسرين: إن الطلح فى الآية هو شجر الموز. و قال جماعة: ليس هو شجر الموز، و لكنه الطلح المعروف، و هو أعظم أشجار العرب. قال الفراء و أبو عبيدة: هو شجر عظام لها شوك. قال الزجاج: الطلح هو أمّ غيلان. و لها نور طيّب، فخوطبوا و وعدوا بما يحبون، إلا أن فضله على ما فى الدنيا كفضل سائر ما فى الجنة على ما فى الدنيا. قال: و يجوز أن يكون فى الجنة و قد أزيل شوكه. قال السدى: طلح الجنة يشبه طلح الدنيا، لكن له ثمر أحلى من العسل، و المنضود: المتراكب الّذى قد نضد أوله و آخره بالحمل ليس له سوق

بارزة.

قال مسروق: أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيد، ثمر كله، كلما أخذت ثمرة عاد مكانها أحسن منها وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ أى: دائم باق لا يزول و لا تنسخه الشمس. قال أبو عبيدة: و العرب تقول لكل شىء طويل لا ينقطع ممدود، و منه قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَ «١» و الجنة كلها ظلّ لا شمس معه.

قال الربيع بن أنس: يعنى ظلّ العرش، و من استعمال العرب للممدود فى الدائم الّذى لا ينقطع قول لبيد:

غلب العزاء و كنت غير مغلّب دهر طويل دائم ممدود

وَ ماءٍ مَسْكُوبٍ أى: منصبّ يجرى بالليل و النهار أينما شاؤوا لا ينقطع عنهم، فهو مسكوب يسكبه اللّه فى مجاريه، و أصل السكب: الصبّ، يقال سكبه سكبا، أى: صبّه وَ فاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ أى: ألوان متنوعة متكثرة لا مَقْطُوعَةٍ فى وقت من الأوقات كما تنقطع فواكه الدنيا فى بعض الأوقات وَ لا مَمْنُوعَةٍ أى: لا تمتنع على من أرادها فى أى وقت على أىّ صفة، بل هى معدّة لمن أرادها لا يحول بينه

---

(١). الفرقان: ٤٥.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٨٤

و بينها حائل. قال ابن قتيبة: يعنى أنها غير محظورة عليها كما يحظر على بساتين الدنيا وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ أى:

مرفوع بعضها فوق بعض، أو مرفوعة على الأسرّة. و قيل: إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتى فى الجنة، و ارتفاعها كونها على الأرائك، أو كونها مرتفعات الأقدار فى الحسن و الكمال إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً أى:

خلقناهنّ خلقا جديدا من غير توالد، و قيل: المراد نساء بنى آدم، و المعنى: أن اللّه سبحانه أعادهنّ بعد الموت إلى حال الشباب، و النساء و إن لم يتقدّم لهنّ ذكر لكنهن قد دخلن فى أصحاب اليمين، و أما على قول من قال:

إن الفرش المرفوعة عين النساء فمرجع الضمير ظاهر فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً. لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ* «١». عُرُباً أَتْراباً العرب: جمع عروب، و هى المتحبّبة إلى زوجها، قال المبرد: هى العاشقة لزوجها، و منه قول لبيد:

و فى الخباء عروب غير فاحشة ريّا الرّوادف يعشى ضوؤها البصرا «٢»

و قال زيد بن أسلم: هى الحسنة الكلام. قرأ الجمهور بضم العين و الراء. و قرأ حمزة و أبو بكر عن عاصم بإسكان الراء و هما لغتان فى جمع فعول، و الأتراب: هنّ اللواتى على ميلاد واحد و سنّ واحد. و قال مجاهد:

أترابا: أمثالا و أشكالا. و قال السدّى: أترابا فى الأخلاق لا تباغض بينهن و لا تحاسد. قوله: لِأَصْحابِ الْيَمِينِ متعلّق بأنشأناهن، أو بجعلنا، أو بأترابا، و المعنى: أن اللّه أنشأهنّ لأجلهم، أو خلقهنّ لأجلهم، أو هنّ مساويات لأصحاب اليمين فى السنّ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف، أى: هنّ لأصحاب اليمين ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ- وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ هذا راجع إلى قوله: وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ أى: هم ثلة من الأوّلين و ثلة من الآخرين، و قد تقدّم تفسير الثلة عند ذكر السابقين، و المعنى: أنهم جماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الأوّلين، و هم من لدن آدم إلى نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم و جماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الآخرين و هم أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و قال أبو العالية و مجاهد و عطاء بن أبى رباح و الضحاك: «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ» يعنى: من سابقى هذه الأمة، «وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ»: من هذه الأمة من آخرها. ثم لمّا فرغ سبحانه مما أعدّه لأصحاب اليمين شرع فى ذكر أصحاب الشمال و ما أعدّه لهم فقال: وَ أَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ الكلام فى إعراب هذا و ما فيه من التفخيم كما سبق فى أصحاب اليمين، و قوله: فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ إما خبر ثان لأصحاب الشمال أو خبر مبتدأ محذوف، و السموم: حرّ النار، و الحميم:

الماء الحارّ الشديد الحرارة، و قد سبق بيان معناه. و قيل: السموم: الريح الحارة التى تدخل فى مسامّ البدن وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ اليحموم يفعول من الأحم، و هو الأسود؛ و العرب تقول: أسود يحموم؛ إذا كان شديد السواد، و المعنى: أنهم يفزعون إلى الظلّ فيجدونه ظلا من دخان جهنم شديد السواد. و قيل: و هو مأخوذ من الحم و هو الشّحم المسودّ باحتراق النار. و قيل: مأخوذ من الحمم و هو الفحم. قال الضحاك: النار سوداء، و أهلها سود،

---

(١). الرّحمن: ٥٦ و ٧٤.

(٢). فى تفسير القرطبى: يغشى دونها البصر.

و كل ما فيها أسود. ثم وصف هذا الظلّ بقوله: لا بارِدٍ وَ لا كَرِيمٍ أى: ليس كغيره من الظلال التى تكون باردة، بل هو حار لأنه من دخان نار جهنم. قال سعيد بن المسيب: «وَ لا كَرِيمٍ»، أى: ليس فيه حسن منظر و كل ما لا خبر فيه فليس بكريم. قال الضحاك: و لا كريم و لا عذب. قال الفراء: العرب تجعل الكريم تابعا لكلّ شى‌ء نفت عنه وصفا تنوى به الذم، تقول: ما هو بسمين و لا بكريم، و ما هذه الدار بواسعة و لا كريمة. ثم ذكر سبحانه أعمالهم التى استحقّوا بها هذا العذاب فقال: إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ و هذه الجملة تعليل لما قبلها، أى: إنهم كانوا قبل هذا العذاب النازل مترفين فى الدنيا، أى: منعّمين بما لا يحلّ لهم، و المترف: المتنعم. و قال السدى: مشركين، و قيل: متكبرين، و الأوّل أولى وَ كانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ الحنث: الذنب، أى: يصرون على الذنب العظيم. قال الواحدى: قال أهل التفسير:

عنى به الشرك، أى: كانوا لا يتوبون عن الشرك. و به قال الحسن و الضحاك و ابن زيد. و قال قتادة و مجاهد:

هو الذنب العظيم الّذى لا يتوبون عنه. و قال الشعبى: هو اليمين الغموس، وَ كانُوا يَقُولُونَ أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ الهمزة فى الموضعين للإنكار و الاستبعاد، و قد تقدّم الكلام على هذا فى الصافات، و فى سورة الرعد، و المعنى: أنهم أنكروا و استبعدوا أن يبعثوا بعد الموت، و قد صاروا عظاما و ترابا، و المراد أنه صار لحمهم و جلودهم ترابا، و صارت عظامهم نخرة بالية، و العامل فى الظرف ما يدلّ عليه مبعوثون، لأن ما بعد الاستفهام لا يعمل فيما قبله، أى: أ نبعث إذا متنا؟ إلخ أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ معطوف على الضمير فى لمبعوثون لوقوع الفصل بينهما بالهمزة، و المعنى: أن بعث آبائهم الأوّلين أبعد لتقدّم موتهم، و قرئ و آباؤنا. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يجيب عليهم و يردّ استبعادهم فقال: قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ أى: قل لهم يا محمد إن الأوّلين من الأمم و الآخرين منهم الذين أنتم من جملتهم لمجموعون بعد البعث إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ و هو يوم القيامة ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ هذا و ما بعده من جملة ما هو داخل تحت القول، و هو معطوف على إِنَّ الْأَوَّلِينَ و وصفهم سبحانه بوصفين قبيحين، و هما الضلال عن الحقّ و التكذيب له لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ أى: لآكلون فى الآخرة من شجر كريه المنظر كريه الطعم، و قد تقدّم تفسيره فى سورة الصافات، و من الأولى لابتداء الغاية، و الثانية بيانية، و يجوز أن تكون الأولى مزيدة، و الثانية بيانية، و أن تكون الثانية مزيدة، و الأولى للابتداء فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ أى: مالئون من شجر الزقوم بطونكم لما يلحقكم من شدّة الجوع فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ الضمير فى عليه إلى الزقوم، و الحميم: الماء الّذى قد بلغ حرّه إلى الغاية، و المعنى: فشاربون على الزقوم عقب أكله من الماء الحارّ، و يجوز أن يعود الضمير إلى شجر لأنه يذكّر و يؤنّث. و يجوز أن يعود إلى الأكل المدلول عليه بقوله: لَآكِلُونَ و قرئ «من شجرة» بالإفراد فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ قرأ الجمهور:

شُرْبَ الْهِيمِ بفتح الشين، و قرأ نافع و عاصم و حمزة بضمها، و قرأ مجاهد و أبو عثمان النهدى بكسرها، و هى لغات. قال أبو زيد: سمعت العرب تقول بضم السين و فتحها و كسرها. قال المبرد: الفتح على أصل المصدر و الضم اسم المصدر، و الهيم:

الإبل العطاش التى لا تروى لداء يصيبها، و هذه الجملة بيان لما قبلها:

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۸۶

أى: لا يكون شربكم شربا معتادا بل يكون مثل شرب الهيم التى تعطش و لا تروى بشرب الماء، و مفرد الهيم:

أهيم، و الأنثى هيماء. قال قيس بن الملوح:

يقال به داء الهيام أصابه‌و قد علمت نفسى مكان شفائها

و قال الضحاك و ابن عيينة و الأخفش و ابن كيسان: الهيم: الأرض السهلة ذات الرمل، و المعنى: أنهم يشربون كما تشرب هذه الأرض الماء و لا يظهر له فيها أثر. قال فى الصحاح: الهيام بالضم: أشد العطش، و الهيام كالجنون من العشق، و الهيام: داء يأخذ الإبل تهيم فى الأرض لا ترعى، يقال: ناقة هيماء، و الهيماء أيضا: المفازة لا ماء بها، و الهيام بالفتح: الرمل الّذى لا يتماسك فى اليد للينه، و الجمع هيم، مثل قذال و قذل، و الهيام بالكسر الإبل العطاش. هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ قرأ الجمهور: نُزُلُهُمْ بضمتين، و روى عن أبى عمرو و ابن محيصن بضمة و سكون، و قد تقدم أن النزل ما يعدّ للضيف، و يكون أوّل ما يأكله، و يوم الدين يوم الجزاء و هو يوم القيامة، و المعنى: أن ما ذكر من شجر الزقوم و شراب الحميم هو الّذى يعدّ لهم و يأكلونه يوم القيامة، و فى هذا تهكّم بهم؛ لأن النزل هو ما يعدّ للأضياف تكرمة لهم، و مثل هذا قوله:

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ* «۱».

و قد أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن أبى أمامة قال: «كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقولون:

إن اللّه ينفعنا بالأعراب و مسائلهم، أقبل أعرابى يوما فقال: يا رسول اللّه ذكر فى القرآن شجرة مؤذية، و ما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها. قال: و ما هى؟ قال: السدر فإن لها شوكا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أ ليس اللّه يقول: فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ؟ يخضد اللّه شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها تنبت ثمرا يتفتق الثمر منها عن اثنين و سبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر». و أخرج ابن أبى داود و الطبرانى، و أبو نعيم فى الحلية، و ابن مردويه عن عيينة بن عبد السلمى قال: «كنت جالسا مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فجاء أعرابى فقال: يا رسول اللّه أسمعك تذكر فى الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكا منها: يعنى الطلح، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصية التيس الملبود- يعنى: الخصىّ منها- فيها سبعون لونا من الطعام لا يشبه لون آخر» و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: سِدْرٍ مَخْضُودٍ قال: خضده: وقره من الحمل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر من طرق عنه قال: المخضود: الّذى لا شوك فيه. و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال: المخضود:

الموقر الّذى لا شوك فيه. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ قال: هو الموز. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر من طرق عن ابن عباس مثله. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن

---

(۱). آل عمران: ۲۱ و التوبة: ۳۴ و الانشقاق: ۲۴.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۸۷

أبى هريرة مثله. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب أنه قرأ: و طلع منضود و أخرج ابن جرير، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن قيس بن عباد قال: قرأت على علىّ بن أبى طالب وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ فقال علىّ: ما بال الطلح، أما تقرأ: و طلع؟ ثم قال: «و طلع نضيد» فقيل له: يا أمير

المؤمنين أ نحكّها فى المصحف؟ قال: لا يهاج القرآن اليوم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: مَنْضُودٍ قال: بعضه على بعض. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما من حديث أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرءوا إن شئتم: وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ». و أخرج البخارى و غيره نحوه من حديث أنس. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما نحوه من حديث أبى سعيد. و أخرج أحمد، و الترمذى و حسّنه، و النسائى و غيرهم عن أبى سعيد الخدرى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ قال:

ارتفاعها كما بين السماء و الأرض، و مسيرة ما بينهما خمسمائة عام. قال الترمذى بعد إخراجه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد انتهى، و رشدين ضعيف. و أخرج الفريابى و هناد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً قال: «إن المنشآت اللاتى كنّ فى الدنيا عجائز عمشا رمصا» قال الترمذى بعد إخراجه: غريب، و موسى و يزيد ضعيفان. و أخرج الطيالسى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه و ابن قانع، و البيهقى فى البعث، عن سلمة بن يزيد الجعفى سمعت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقول فى قوله: إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً قال: «الثيبات و الأبكار اللاتى كنّ فى الدنيا». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال: خلقهنّ الأوّل. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أَبْكاراً قال: عذارى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: عُرُباً قال: عواشق أَتْراباً يقول: مستويات. و أخرج ابن أبى حاتم عنه عُرُباً قال: عواشق لأزواجهنّ، و أزواجهنّ لهنّ عاشقون أَتْراباً قال: فى سنّ واحد ثلاثا و ثلاثين سنة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: العروب الملقة لزوجها. و أخرج مسدّد فى مسنده و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه بسند حسن عن أبى بكرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ قال:

«جميعهما من هذه الأمة». و أخرج أبو داود الطيالسى و مسدّد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى بكرة فى قوله: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ- وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ قال: هما جميعا من هذه الأمة. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن عدى و ابن مردويه. قال السيوطى بسند ضعيف عن ابن عباس «فى قوله: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هما جميعا من أمتى».

و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: الثلتان جميعا من هذه الأمة. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس

فتح القدير، ج‏5، ص: 188

فى قوله: وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ قال: من دخان أسود، و فى لفظ: من دخان جهنم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: شُرْبَ الْهِيمِ قال: الإبل العطاش.

[سورة الواقعة (56): الآيات 57 الى 74]

نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ (57) أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ (58) أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (61)

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ (62) أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ (63) أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66)

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَ فَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً

فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ (۷۰) أَ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (۷۱)

أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ (۷۲) نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ (۷۳) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (۷۴)

قوله: نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ التفت سبحانه إلى خطاب الكفرة تبكيتا لهم و إلزاما للحجة، أى: فهلا تصدّقون بالبعث أو بالخلق. قال مقاتل: خلقناكم و لم تكونوا شيئا و أنتم تعلمون ذلك فهلا تصدقون بالبعث؟ أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ أى: ما تقذفون و تصبّون فى أرحام النساء من النطف، و معنى أ فرأيتم:

أخبرونى، و مفعولها الأول ما تمنون، و الثانى: الجملة الاستفهامية، و هى أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ أى: تقدّرونه و تصوّرونه بشرا أم نحن المقدرون المصوّرون له، و «أم» هى المتصلة، و قيل: هى المنقطعة، و الأول أولى. قرأ الجمهور: «تُمْنُونَ» بضم الفوقية من أمنى يمنى. و قرأ ابن عباس و أبو السمّال و محمد ابن السميقع و الأشهب العقيلى بفتحها من منى يمنى، و هما لغتان، و قيل: معناهما مختلف، يقال: أمنى إذا أنزل عن جماع، و منى إذا أنزل عن احتلام، و سمى المنىّ منيا لأنه يمنى، أى: يراق، نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ قرأ الجمهور قَدَّرْنا بالتشديد، و قرأ مجاهد و حميد و ابن محيصن و ابن كثير بالتخفيف، و هما لغتان، يقال: قدرت الشى‏ء و قدّرته، أى: قسمناه عليكم و وقّتناه لكل فرد من أفرادكم، و قيل: قضينا، و قيل: كتبنا، و المعنى متقارب. قال مقاتل: فمنكم من يموت كبيرا و منكم من يموت صغيرا. و قال الضّحّاك: معناه أنه جعل أهل السماء و أهل الأرض فيه سواء، وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ بمغلوبين، بل قادرين عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ أى: نأتى بخلق مثلكم. قال الزجاج: إن أردنا أن نخلق خلقا غيركم لم يسبقنا سابق و لا يفوتنا. قال ابن جرير: المعنى نحن قدّرنا بينكم الموت على أن نبدّل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم و ما نحن بمسبوقين فى آجالكم، أى: لا يتقدّم متأخّر و لا يتأخر متقدّم وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ من الصّور و الهيئات. قال الحسن: أى نجعلكم قردة و خنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم، و قيل: المعنى: ننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا. و قال سعيد بن المسيب: «فيما لا تعلمون»: يعنى فى حواصل طيور سود تكون ببرهوت كأنها الخطاطيف. و برهوت واد باليمن. و قال مجاهد:

فِي ما لا تَعْلَمُونَ يعنى فى أىّ خلق شئنا، و من كان قادرا على هذا فهو قادر على البعث

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۱۸۹

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى و هى ابتداء الخلق من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة و لم تكونوا قبل ذلك شيئا. و قال قتادة و الضحّاك: يعنى خلق آدم من تراب فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ أى: فهلّا تذكرون قدرة اللّه سبحانه على النشأة الأخيرة و تقيسونها على النشأة الأولى. قرأ الجمهور: النَّشْأَةَ بالقصر، و قرأ مجاهد و الحسن و ابن كثير و أبو عمرو بالمدّ، و قد مضى تفسير هذا فى سورة العنكبوت أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أى: أخبرونى ما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيه البذر أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أى: تنبتونه و تجعلونه زرعا فيكون فيه السّنبل و الحبّ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ أى: المنبتون له الجاعلون له زرعا لا أنتم. قال المبرد: يقال زرعه اللّه، أى: أنماه؛ فإذا أقررتم بهذا فكيف تنكرون البعث لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً أى: لو نشاء جعلناه ما تحرثون حطاما، أى: متحطما متكسّرا، و الحطام: الهشيم الّذى لا ينتفع به و لا يحصل منه حبّ و لا شى‏ء ممّا يطلب من الحرث فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ أى: صرتم تعجبون. قال الفرّاء: تفكهون تتعجبون فيما نزل بكم فى زرعكم. قال فى الصحاح: و تفكّه: تعجّب، و يقال: تندّم. قال الحسن و قتادة و غيرهما: معنى الآية:

تعجبون من ذهابها و تندمون ممّا حلّ بكم. و قال عكرمة: تلاومون و تندمون على ما سلف منكم من معصية اللّه. و قال أبو عمرو و الكسائى: هو التلهف على ما فات. قرأ الجمهور: فَظَلْتُمْ بفتح الظاء مع لام واحدة. و قرأ أبو حيوة و أبو بكر فى رواية عنه بكسر الظاء. و قرأ ابن عباس و الجحدرى «فظللتم» بلامين، أولاهما مكسورة على الأصل، و روى عن الجحدرى فتحها، و هى

لغة. و قرأ الجمهور: تَفَكَّهُونَ و قرأ أبو حزام العكلى تفكّنون بالنون مكان الهاء، أى: تندمون. قال ابن خالويه: تفكّه: تعجب. و تفكّن: تندم. و فى الصحاح: التفكن: التندم إِنَّا لَمُغْرَمُونَ قرأ الجمهور بهمزة واحدة على الخبر، و قرأ أبو بكر و المفضل و زرّ بن حبيش بهمزتين على الاستفهام، و الجملة بتقدير القول، أى: تقولون إنا لمغرمون، أى: ملزمون غرما بما هلك من زرعنا، و المغرم الّذى ذهب ماله بغير عوض، قال الضحاك و ابن كيسان. و قيل: إنا لمعذبون، قال قتادة و غيره. و قال مجاهد و عكرمة: لمولع بنا، و منه قول النّمر بن تولب:

سلا عن تذكّره تكتماو كان رهينا بها مغرما

يقال: أغرم فلان بفلانة، أى: أولع. و قال مقاتل: مهلكون. قال النحاس: مأخوذ من الغرام، و هو الهلاك، و منه قول الشاعر «١»:

يوم النّسار و يوم الجفاركانا عليكم عذابا مقيما «٢»

و الظاهر من السياق المعنى الأول، أى: إنا لمغرمون بذهاب ما حرثناه و مصيره حطاما، ثم أضربوا عن قولهم هذا و انتقلوا، فقالوا: بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أى: حرمنا رزقنا بهلاك زرعنا، و المحروم: الممنوع

---

(١). هو بشر بن أبى حازم.

(٢). فى تفسير القرطبى. و كان عذابا و كان غراما.

من الرزق الّذى لا حظّ له فيه، و هو المحارف. أَ فَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ فتسكنون به ما يلحقكم من العطش، و تدفعون به ما ينزل بكم من الظمأ. و اقتصر سبحانه على ذكر الشرب مع كثرة فوائد الماء و منافعه، لأنه أعظم فوائده و أجلّ منافعه أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أى: السحاب: قال فى الصحاح:

قال أبو زيد: المزنة: السحابة البيضاء. و الجمع مزن. و المزنة: المطرة. قال الشاعر «١»:

ألم تر أنّ اللّه أنزل مزنةو عفر الظّباء فى الكناس تقمّع

و ممّا يدلّ على أنه السحاب قول الشاعر:

فنحن كماء المزن ما فى نصابناكهام و لا فينا يعدّ بخيل «٢»

و قول الآخر:

فلا مزنة و دقت و دقهاو لا أرض أبقل إبقالها

أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ له بقدرتنا دون غيرنا، فإذا عرفتم ذلك، فكيف لا تقرّون بالتوحيد و تصدقون بالبعث. ثم بين لهم سبحانه أنه لو يشاء لسلبهم هذه النعمة فقال: لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً الأجاج:

الماء الشديد الملوحة الّذى لا يمكن شربه، و قال الحسن: هو الماء المرّ الّذى لا ينتفعون به فى شرب و لا زرع و لا غير هما فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ أى: فهلّا تشكرون نعمة اللّه الّذى خلق لكم ماء عذبا تشربون منه و تنتفعون به أَ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أى: أخبرونى عنها، و معنى تورون: تستخرجونها بالقدح من الشجر الرطب، يقال: أوريت النار إذا قدحتها أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها التى يكون منها الزّناد، و هى المرخ و العفار، تقول العرب: فى كل شجر نار، و استمجد المرخ و العفار أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ لها بقدرتنا دونكم. و معنى الإنشاء الخلق، و عبّر عنه بالإنشاء للدلالة على ما فى ذلك من بديع الصنعة و عجيب القدرة نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً أى: جعلنا هذه النار التى فى الدنيا تذكرة لنار جهنم الكبرى. قال مجاهد و قتادة:

تبصرة للناس فى الظلام، و قال عطاء: موعظة ليتّعظ به المؤمن وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ أى: منفعة للذين ينزلون بالقواء، و هى الأرض

القفر كالمسافرين و أهل البوادى النازلين فى الأراضى المقفرة، يقال: أرض قواء بالمد و القصر، أى: مقفرة، و منه قول النابغة:

يا دارمية بالعلياء فالسّندأقوت و طال عليها سالف الأمد

و قال عنترة:

حيّيت من طلل تقادم عهده‌أقوى و أقفر بعد أمّ الهيثم

---

(١). هو أوس بن حجر.

(٢). «نصاب» أصل. «كهام»: ثقيل، لا غناء عنده.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٩١

و قول الآخر «١»:

ألم تسأل الرّبع القواء فينطق؟و هل تخبرنّك اليوم بيداء سملق؟ «٢»

و يقال: أقوى إذا سافر، أى: نزل القوى. و قال مجاهد: المقوين: المستمتعين بها من الناس أجمعين فى الطبخ و الخبز و الاصطلاء و الاستضاءة، و تذكّر نار جهنم. و قال ابن زيد: للجائعين فى إصلاح طعامهم، يقال: أقويت منذ كذا و كذا، أى: ما أكلت شيئا، و بات فلان القوى، أى: بات جائعا، و منه قول الشاعر «٣»:

و إنّى لأختار القوى طاوى الحشى‌محافظة من أن يقال لئيم

و قال قطرب: المقوى من الأضداد يكون بمعنى الفقر، و يكون بمعنى الغنى؛ يقال: أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد، و أقوى إذا قويت دوابه و كثر ماله. و حكى الثعلبى عن أكثر المفسرين القول الأوّل، و هو الظاهر فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ الفاء لترتيب ما بعدها من ذكر اللّه سبحانه، و تنزيه على ما قبلها مما عدّده من النعم التى أنعم بها على عباده و جحوده المشركين لها و تكذيبهم بها.

و قد أخرج البزار و ابن جرير و ابن مردويه و أبو نعيم، و البيهقى فى الشعب، و ضعّفه، عن أبى هريرة.

قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يقولنّ أحدكم زرعت، و لكن يقول: حرثت». قال أبو هريرة: ألم تسمعوا اللّه يقول: أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ و أخرج ابن جرير عن ابن عباس تَفَكَّهُونَ قال: تعجبون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس. قال:

الْمُزْنِ السحاب. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً قال: تذكرة للنار الكبرى وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ قال: للمسافرين.

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٧٥ الى ٩٦]

فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٨٠) أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤)

وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لكِنْ لا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩)

وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (۹۰) فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (۹۱) وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (۹۲) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (۹۳) وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (۹۴)
إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (۹۵) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (۹۶)

---

(۱). هو جميل.

(۲). «سملق»: هى الأرض المستوية.

(۳). هو حاتم الطائى.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۹۲

قوله: فَلا أُقْسِمُ ذهب جمهور المفسرين إلا أن «لا» مزيدة للتوكيد، و المعنى: فأقسم، و يؤيد هذا قوله بعد وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ و قال جماعة من المفسرين: إنها للنفى، و إن المنفىّ بها محذوف، و هو كلام الكفار الجاحدين. قال الفراء: هى نفى، و المعنى: ليس الأمر كما تقولون. ثم استأنف فقال: أقسم، و ضعف هذا بأن حذف اسم لا و خبرها غير جائز، كما قال أبو حيان و غيره. و قيل: إنها لام الابتداء، و الأصل:

فلأقسم فأشبعت الفتحة فتولد منها ألف، كقول الشاعر:

أعوذ باللّه من العقراب «۱» و قد قرأ هكذا فلأقسم بدون ألف الحسن و حميد و عيسى بن عمر، و على هذا القول، و هذه القراءة؛ يقدّر مبتدأ محذوف، و التقدير: فلأنا أقسم بذلك. و قيل: إن «لا» هنا بمعنى ألا التى للتنبيه، و هو بعيد. و قيل: «لا» هنا على ظاهرها، و إنها لنفى القسم، أى: فلا أقسم على هذا لأن الأمر أوضح من ذلك، و هذا مدفوع بقوله: وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ مع تعيين المقسم به و المقسم عليه، و معنى قوله: بِمَواقِعِ النُّجُومِ مساقطها، و هى مغاربها، كذا قال قتادة و غيره. و قال عطاء بن أبى رباح:

منازلها. و قال الحسن: انكدارها و انتثارها يوم القيامة، و قال الضحاك: هى الأنواء التى كان أهل الجاهلية يقولون: مطرنا بنوء كذا. و قيل: المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما من اللوح المحفوظ، و به قال السدّى و غيره، و حكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن. قرأ الجمهور: بِمَواقِعِ على الجمع، و قرأ ابن مسعود و النخعى و حمزة و الكسائى و ابن محيصن و ورش «۲» عن يعقوب «بموقع» على الإفراد. قال المبرد: «موقع» هاهنا مصدر، فهو يصلح للواحد و الجمع. ثم أخبر سبحانه عن تعظيم هذا القسم و تفخيمه فقال: وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ هذه الجملة معترضة بين المقسم به و المقسم عليه، و قوله: لَوْ تَعْلَمُونَ جملة معترضة بين جزأى الجملة المعترضة، فهو اعتراض فى اعتراض. قال الفراء و الزجاج: هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن، و الضمير فى «إنه» على القسم الّذى يدل عليه أقسم، و المعنى أن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون. ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ أى: كرّمه اللّه و أعزّه و رفع قدره على جميع الكتب، و كرّمه عن أن يكون سحرا أو كهانة أو كذبا، و قيل: إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق و معالى الأمور، و قيل: لأنه يكرم حافظه و يعظم قارئه.

و حكى الواحدى عن أهل المعانى أن وصف القرآن بالكريم، لأن من شأنه أن يعطى الخير الكثير بالدلائل التى تؤدّى إلى الحق فى الدّين. قال الأزهرى: الكريم اسم جامع لما يحمد، و القرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى و البيان و العلم و الحكمة فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ أى: مستور مصون، و قيل: محفوظ عن الباطل، و هو اللوح

---

(١). و تتمته فى تاج العروس:
الشّائلات عقد الأذناب و الشاهد فى قوله: «عقراب» حيث أشبعت الراء المفتوحة فصارت عقراب. و الأصل: عقرب.
(٢). فى تفسير القرطبى: رويس بدل ورش.

المحفوظ، قاله جماعة. و قيل: هو كتاب. و قال عكرمة: هو التوراة و الإنجيل فيهما ذكر القرآن و من ينزل عليه، و قال السدّى: هو الزبور. و قال مجاهد و قتادة: هو المصحف الّذى فى أيدينا لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ قال الواحدى: أكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الكتاب المكنون، أى: لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون، و هم الملائكة، و قيل: هم الملائكة و الرسل من بنى آدم، و معنى «لا يَمَسُّهُ» المسّ الحقيقى، و قيل: معناه: لا ينزل به إلا المطهرون، و قيل: معناه: لا يقرؤه، و على كون المراد الكتاب المكنون هو القرآن، فقيل لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ من الأحداث و الأنجاس. كذا قال قتادة و غيره: و قال الكلبى:
المطهرون من الشرك. و قال الربيع بن أنس: المطهرون من الذنوب و الخطايا. و قال محمد بن الفضل و غيره:
معنى لا يمسه: لا يقرؤه، إلا المطهرون أى: إلا الموحّدون. و قال الفراء: لا يجد نفعه و بركته إلا المطهرون، أى: المؤمنون. و قال الحسين بن الفضل: لا يعرف تفسيره و تأويله إلّا من طهّره اللّه من الشرك و النفاق.
و قد ذهب الجمهور إلى منع المحدث من مسّ المصحف، و به قال علىّ و ابن مسعود و سعد بن أبى وقاص و سعيد ابن زيد و عطاء و الزهرى و النخعى و الحكم و حماد و جماعة من الفقهاء منهم مالك و الشافعى. و روى عن ابن عباس و الشعبى و جماعة منهم أبو حنيفة، أنه يجوز للمحدث مسّه، و قد أوضحنا ما هو الحق فى هذا فى شرحنا للمنتقى فليرجع إليه. قرأ الجمهور: الْمُطَهَّرُونَ بتخفيف الطاء و تشديد الهاء مفتوحة اسم مفعول. و قرأ سلمان الفارسى بكسر الهاء على أنه اسم فاعل، أى: المطهرون أنفسهم. و قرأ نافع و ابن عمر، و فى رواية عنهما عيسى بن عمر، بسكون الطاء و فتح الهاء خفيفة، اسم مفعول من أطهر، و قرأ الحسن و زيد بن علىّ و عبد اللّه بن عوف بتشديد الطاء و كسر الهاء، و أصله المتطهرون. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ قرأ الجمهور بالرفع، و قرئ بالنصب، فالرفع على أنه صفة أخرى للقرآن، أو خبر مبتدأ محذوف، و النصب على الحال أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ الإشارة إلى القرآن المنعوت بالنعوت السابقة، و المدهن و المداهن المنافق.
كذا قال الزجاج و غيره و قال عطاء و غيره: هو الكذاب. و قال مقاتل بن سليمان و قتادة: «مدهنون»:
كافرون، كما فى قوله: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ و قال الضحاك: «مدهنون»: معرضون، و قال مجاهد: ممالئون للكفار على الكفر، و قال أبو كيسان: المدهن: الّذى لا يعقل حق اللّه عليه و يدفعه بالعلل.
و الأوّل أولى؛ لأن أصل المدهن الّذى ظاهره خلاف باطنه كأنه يشبه الدهن فى سهولته. قال المؤرّج: المدهن:
المنافق الّذى يلين جانبه ليخفى كفره، و الإدهان و المداهنة: التكذيب و الكفر و النفاق، و أصله اللين، و أن يسرّ خلاف ما يظهر، و قال فى الكشاف: «مدهنون» أى: متهاونون به، كمن يدهن فى الأمر، أى:
يلين جانبه و لا- يتصلب فيه تهاونا به، انتهى. قال الراغب: و الإدهان فى الأصل مثل التدهين لكن جعل عبارة عن المدارة و الملاينة، و ترك الجدّ: كما جعل التقريد، و هو نزع القراد عبارة عن ذلك، و يؤيد ما ذكره قول أبى قيس بن الأسلت:
الحزم و القوّة خير من الإدهان و الفهّة و الهاع «١»

(١). «الفهة»: العى. «الهاع»: سوء الحرص مع ضعف.

وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ فى الكلام مضاف محذوف، كما حكاه الواحدى عن المفسرين، أى: تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون بنعمة اللّه فتضعون التكذيب موضع الشكر. و قال الهيثم: إن أزد شنوءة يقولون: ما رزق فلان؟ أى: ما شكره. و على هذه اللغة لا يكون فى الآية مضاف محذوف بل معنى الرزق و الشكر. و وجه التعبير بالرزق عن الشكر أن الشكر يفيض زيادة الرزق فيكون الشكر رزقا تعبيرا بالسبب عن المسبب، و مما يدخل تحت هذه الآية قول الكفار إذا سقاهم اللّه، و أنزل عليهم المطر: سقينا بنوء كذا، و مطرنا بنوء كذا. قال الأزهرى: معنى الآية و تجعلون بدل شكركم رزقكم الّذى رزقكم اللّه التكذيب بأنه من عند اللّه الرّزاق. و قرأ علىّ و ابن عباس «و تجعلون شكركم» و قرأ الجمهور أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ بالتشديد من التكذيب، و قرأ علىّ و عاصم فى رواية عنه بالتخفيف من الكذب. فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ أى: فهلا إذا بلغت الروح، أو النفس، الحلقوم عند الموت، و لم يتقدّم لها ذكر؛ لأن المعنى مفهوم عندهم إذا جاءوا بمثل هذه العبارة، و منه قول حاتم طيء:

أماوىّ ما يغنى الثّراء عن الفتىإذا حشرجت يوما و ضاق بها الصّدر

وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ إلى ما هو فيه ذلك الّذى بلغت نفسه أو روحه الحلقوم. قال الزجاج: و أنتم يا أهل الميت فى تلك الحال ترون الميت قد صار إلى أن تخرج نفسه، و المعنى أنهم فى تلك الحال لا يمكنهم الدفع عنه، و لا يستطيعون شيئا ينفعه أو يخفف عنه ما هو فيه وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ أى: بالعلم و القدرة و الرؤية، و قيل: أراد و رسلنا الذين يتولون قبضه أقرب إليه منكم وَ لكِنْ لا تُبْصِرُونَ أى: لا تدركون ذلك لجهلكم بأن اللّه أقرب إلى عبده من حبل الوريد، أو لا تبصرون ملائكة الموت الذين يحضرون الميت و يتولون قبضه فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ- تَرْجِعُونَها يقال: دان السلطان رعيته؛ إذا ساسهم و استعبدهم. قال الفراء: دنته ملكته، و أنشد للحطيئة:

لقد ديّنت أمر بنيك حتّى تركتهم أدقّ من الطّحين

أى: ملّكت، و يقال دانه؛ إذا أذله و استعبده، و قيل: معنى مدينين محاسبين، و قيل: مجزيين، و منه قول الشاعر:

و لم يبق سوى العدوان دنّاهم كما دانوا

و المعنى الأوّل ألصق بمعنى الآية، أى: فهلّا إن كنتم غير مربوبين و مملوكين ترجعونها، أى: النفس التى قد بلغت الحلقوم إلى مقرّها الّذى كانت فيه إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ و لن ترجعوها، فبطل زعمكم إنكم غير مربوبين و لا مملوكين، و العامل فى قوله: إذا بلغت هو قوله: ترجعونها، و لو لا الثانية تأكيد للأولى. قال الفراء: و ربما أعادت العرب الحرفين و معناهما واحد. ثم ذكر سبحانه طبقات الخلق عند الموت و بعده فقال:

فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ أى: السابقين من الثلاثة الأصناف المتقدّم تفصيل أحوالهم فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ قرأ الجمهور فَرَوْحٌ بفتح الراء، و معناه الراحة من الدنيا و الاستراحة من أحوالها. و قال

فتح القدير، ج‌5، ص: 195

الحسن: الروح: الرحمة. و قال مجاهد: الروح: الفرح. و قرأ ابن عباس و عائشة و الحسن و قتادة و نصر بن عاصم و الجحدرى فَرُوْحٌ بضم الراء، و رويت هذه القراءة عن يعقوب، قيل: و معنى هذه القراءة الرحمة لأنها كالحياة للمرحوم، و الريحان: الرزق فى الجنة، قاله مجاهد و سعيد بن جبير و مقاتل. هو الرزق بلغة حمير، يقال خرجت أطلب ريحان اللّه: أى رزقه، و منه قول النّمر بن تولب:

سلام الإله و ريحانهو رحمته و سماء درر

و قال قتادة: إنه الجنة. و قال الضحاك: هو الرحمة. و قال الحسن: هو الريحان المعروف الّذى يشم.

قال قتادة و الربيع بن خثيم: هذا عن الموت، و الجنة مخبوءة له إلى أن يبعث، و كذا قال أبو الجوزاء و أبو العالية، و معنى «و جنة

نعیم»: أنها ذات تنعم، و ارتفاع روح و ما بعده على الابتداء، و الخبر محذوف، أى: فله روح. وَ أَمَّا إِنْ كانَ ذلك المتوفى مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ و قد تقدّم ذكرهم و تفصيل أحوالهم و ما أعدّه اللّه لهم من الجزاء فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ أى: لست ترى فيهم إلا ما تحب من السلامة، فلا تهتم بهم، فإنهم يسلمون من عذاب اللّه، و قيل: المعنى: سلام لك منهم، أى: أنت سالم من الاغتمام بهم، و قيل المعنى: إنهم يدعون لك و يسلمون عليك، و قيل: إنه صلّى اللّه عليه و سلّم يحين بالسلام إكراما، و قيل: هو إخبار من اللّه سبحانه بتسليم بعضهم على بعض، و قيل: المعنى: سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين، وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ أى: المكذبين بالبعث الضالين عن الهدى، و هم أصحاب الشمال المتقدّم ذكرهم، و تفصيل أحوالهم فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ أى: فله نزل يعدّ لنزوله من حميم، و هو الماء الّذى قد تناهت حرارته، و ذلك بعد أن يأكل من الزقوم كما تقدم بيانه وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ يقال: أصلاه النار و صلاه، أى: إذا جعله فى النار، و هو من إضافة المصدر إلى المفعول، أو إلى المكان. قال المبرد: و جواب الشرط فى هذه المواضع الثلاثة محذوف، و التقدير: مهما يكن من شىء فروح إلخ. و قال الأخفش: إن الفاء فى المواضع الثلاثة هى جواب أما، و جواب حرف الشرط. قرأ الجمهور: وَ تَصْلِيَةُ بالرفع عطفا على فنزل. و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه بالجر عطفا على حميم، أى: فنزل من حميم و من تصلية جحيم. إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ الإشارة إلى ما ذكر فى هذه السورة، أو إلى المذكور قريبا من أحوال المتفرقين له حق اليقين، الإشارة إلى ما ذكر فى هذه السورة، أو إلى المذكور قريبا من أحوال المتفرقين له حق اليقين، أى:

محض اليقين و خالصه، و إضافة حق إلى اليقين من باب إضافة الشىء إلى نفسه. قال المبرّد: هو كقولك عين اليقين و محض اليقين، هذا عند الكوفيين و جوّزوا ذلك لاختلاف اللفظ؛ و أما البصريون فيجعلون المضاف إليه محذوفا، و التقدير: حق الأمر اليقين أو الخبر اليقين، و الفاء فى فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى: نزّهه عمّا لا يليق بشأنه، و الباء متعلقة بمحذوف، أى: فسبح متلبسا باسم ربك للتبرك به. و قيل: المعنى: فصلّ بذكر ربك: و قيل: الباء زائدة، و الاسم بمعنى الذات. و قيل: هى للتعدية لأن سبح يتعدّى بنفسه تارة و يتعدّى بالحرف أخرى، و الأوّل أولى.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۹۶

و قد أخرج النسائى و ابن جرير و محمد بن نصر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن فى ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فرّق فى السنين، و فى لفظ: ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوما. ثم قرأ فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و محمد بن نصر و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عنه فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ قال القرآن وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ قال: القرآن. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: نجوم القرآن حين ينزل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى المعرفة، من طرق عن ابن عباس أيضا لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ قال الكتاب المنزل فى السماء لا يمسّه إلا الملائكة.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن أنس لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ قال: الملائكة. و أخرج عبد الرّزاق و ابن المنذر عن علقمة قال: أتينا سلمان الفارسى فخرج علينا من كنيف، فقلنا له: لو توضأت يا أبا عبد اللّه ثم قرأت علينا سورة كذا و كذا، قال: إنما قال اللّه: فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ- لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ و هو الّذى فى السماء لا يمسّه إلا الملائكة، ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا. و أخرج عبد الرّزاق و ابن أبى داود و ابن المنذر عن عبد اللّه بن أبى بكر بن عمرو بن حزم عن أبيه قال فى كتاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لعمرو بن حزم: «لا تمس القرآن إلا على طهر». و أخرجه مالك فى الموطأ، عن عبد اللّه بن أبى بكر، و أخرجه أبو داود فى المراسيل، من حديث الزهرى قال: قرأت فى صحيفة عبد اللّه بن أبى بكر بن عمرو بن حزم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «و لا يمس القرآن إلا طاهر» و قد أسنده الدار قطنى عن عمرو بن حزم و عبد اللّه بن عمر و عثمان ابن

أبى العاص، و فى أسانيدها نظر. و أخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان لا يمس المصحف إلا متوضئا.
و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة فى المصنف و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، عن عبد الرّحمن بن زيد قال: كنا مع سلمان فانطلق إلى حاجة، فتوارى عنا ثم خرج إلينا، فقلنا: لو توضأت فسألناك عن أشياء من القرآن، فقال: سلونى، فإنى لست أمسّه، إنما يمسه المطهرون، ثم تلا: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ
و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يمسّ القرآن إلّا طاهر». و أخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل: «أنّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لما بعثه إلى اليمن كتب له فى عهده: أن لا يمسّ القرآن إلّا طاهر». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عباس فى قوله: أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ قال: مكذبون. و أخرج مسلم و ابن المنذر و ابن مردويه عن عباس قال: «مطر الناس على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:
أصبح من الناس شاكر و منهم كافر، قالوا: هذه رحمة وضعها اللّه. و قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا و كذا، فنزلت هذه الآية فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ حتى بلغ وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ . و أصل الحديث بدون ذكر أنه سبب نزول الآية ثابت فى الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهنى، و من حديث أبى سعيد الخدرى، و فى الباب أحاديث. و أخرج أحمد و ابن منيع و عبد بن حميد، و الترمذى و حسّنه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عن علىّ عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله:
وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ قال: «شكركم، تقولون مطرنا بنوء كذا و كذا و بنجم كذا و كذا».
فتح القدير، ج۵، ص: ۱۹۷
و أخرج ابن عساكر فى تاريخه، عن عائشة قالت: ما فسّر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من القرآن إلا آيات يسيرة، قوله:
وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ قال: «شكركم». و أخرج ابن مردويه عن علىّ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ: «و تجعلون شكركم». و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «و تجعلون شكركم» قال: يعنى الأنواء، و ما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافرا كانوا يقولون مطرنا بنوء كذا و كذا، فأنزل اللّه: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ و أخرج ابن مردويه عن أبى عبد الرّحمن السلمى عن علىّ أنه قرأ: «و تجعلون شكركم» و قال:
سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرؤها كذلك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: غَيْرَ مَدِينِينَ قال: غير محاسبين. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد و ابن المنذر عن الربيع بن خثيم فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ الآية قال: هذا له عند الموت وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ تخبأ له الجنة إلى يوم يبعث وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ- فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ قال: هذا عند الموت وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ قال:
تخبأ له الجحيم إلى يوم يبعث. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَرَوْحٌ قال:
رائحة وَ رَيْحانٌ قال: استراحة. و أخرج ابن جرير عنه قال: يعنى بالريحان: المستريح من الدنيا وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ يقول: مغفرة و رحمة. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: الريحان: الرزق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ قال: تأتيه الملائكة بالسلام من قبل اللّه تسلم عليه و تخبره أنه من أصحاب اليمين. و أخرج ابن أبى حاتم حاتم عنه أيضا إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ قال:
ما قصصنا عليك فى هذه السورة. و أخرج عنه أيضا: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ قال: فصلّ لربك.
و أخرج سعيد بن منصور و أحمد و أبو داود و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن عقبة بن

عامر الجهنی قال: «لما نزلت علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِیمِ قال: اجعلوها فی رکوعکم، فلما نزلت: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَی قال: اجعلوها فی سجودکم».

فتح القدیر، ج۵، ص: ۱۹۸

سورة الحدید

اشارة

و هی مدنیة. قال القرطبی: فی قول الجمیع. و أخرج ابن الضریس و النحاس و ابن مردویه و البیهقی عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحدید بالمدینة. و أخرج ابن مردویه عن ابن الزبیر مثله. و أخرج الطبرانی و ابن مردویه، قال السیوطی: بسند ضعیف، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «نزلت سورة الحدید یوم الثلاثاء، و خلق اللّه الحدید یوم الثلاثاء، و قتل ابن آدم أخاه یوم الثلاثاء، و نهی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم عن الحجامة یوم الثلاثاء». و أخرج الدیلمی عن جابر مرفوعا: «لا تحتجموا یوم الثلاثاء، فإن سورة الحدید أنزلت علیّ یوم الثلاثاء». و أخرج أحمد، و الترمذی و حسّنه، و النسائی و ابن مردویه، و البیهقی فی الشعب، عن العرباض بن ساریة: «أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم کان یقرأ المسبحات قبل أن یرقد و قال: إن فیهنّ آیة أفضل من ألف آیة». و فی إسناده بقیة بن الولید، و فیه مقال معروف. و قد أخرجه النسائی عن خالد بن معدان قال: کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و لم یذکر العرباض بن ساریة، فهو مرسل. و أخرج ابن الضریس عن یحیی ابن أبی کثیر قال: «کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم لا ینام حتی یقرأ المسبحات، و کان یقول: إن فیهنّ آیة أفضل من ألف آیة» قال یحیی: فنراها الآیة التی فی آخر الحشر. و قال ابن کثیر فی تفسیره: و الآیة المشار إلیها و اللّه أعلم هی قوله: هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ الآیة. و المسبّحات المذکورة هی: الحدید، و الحشر، و الصفّ، و الجمعة، و التغابن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة الحدید (۵۷): الآیات ۱ الی ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۱) لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ یُحْیِی وَ یُمِیتُ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْ‌ءٍ قَدِیرٌ (۲) هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِکُلِّ شَیْ‌ءٍ عَلِیمٌ (۳) هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ یَعْلَمُ ما یَلِجُ فِی الْأَرْضِ وَ ما یَخْرُجُ مِنْها وَ ما یَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما یَعْرُجُ فِیها وَ هُوَ مَعَکُمْ أَیْنَ ما کُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۴)

لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۵) یُولِجُ اللَّیْلَ فِی النَّهارِ وَ یُولِجُ النَّهارَ فِی اللَّیْلِ وَ هُوَ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۶)

قوله: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أی: نزّهه و مجّده. قال المقاتلان: یعنی کل شی‌ء من ذی روح و غیره، و قد تقدّم الکلام فی تسبیح الجمادات عند تفسیر قوله: وَ إِنْ مِنْ شَیْ‌ءٍ إِلَّا یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لکِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِیحَهُمْ «۱» و المراد بالتسبیح المسند إلی ما فی السّماوات و الأرض من العقلاء و غیرهم

(١). الإسراء: ۴۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۹۹

و الحيوانات و الجمادات: هو ما يعمّ التسبيح بلسان المقال؛ كتسبيح الملائكة و الإنس و الجنّ، و بلسان الحال كتسبيح غيرهم، فإنّ كل موجود يدل على الصانع. و قد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة، و قال: لو كان هذا تسبيح الدلالة و ظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة، فلم قال: وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ و إنما هو تسبيح مقال. و استدل بقوله: وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ «١» فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة. و فعل التسبيح قد يتعدّى بنفسه تارة، كما فى قوله: وَ سَبِّحُوهُ و باللام أخرى كهذه الآية، و أصله أن يكون متعديا بنفسه؛ لأن معنى سبّحته:

بعّدته عن السّوء، فإذا استعمل باللام فهى إما مزيدة للتأكيد كما فى شكرته و شكرت له، أو هى للتعليل، أى: افعل التسبيح لأجل اللّه سبحانه خالصا له، و جاء هذا الفعل فى بعض الفواتح ماضيا كهذه الفاتحة، و فى بعضها مضارعا، و فى بعضها أمرا للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبّحة فى كل الأوقات، لا يختصّ تسبيحها بوقت دون وقت، بل هى مسبحة أبدا فى الماضى، و ستكون مسبحة أبدا فى المستقبل وَ هُوَ الْعَزِيزُ أى:

القادر الغالب الّذى لا ينازعه أحد و لا يمانعه ممانع كائنا ما كان الْحَكِيمُ الّذى يفعل أفعال الحكمة و الصواب لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يتصرف فيه وحده و لا ينفذ غير تصرّفه و أمره، و قيل: أراد خزائن المطر و النبات و سائر الأرزاق يُحْيِي وَ يُمِيتُ الفعلان فى محل رفع على أنهما خبر لمبتدأ محذوف، أو فى محل نصب على الحال من ضمير له، أو كلام مستأنف لبيان بعض أحكام الملك، و المعنى: أنه يحيى فى الدنيا و يميت الأحياء، و قيل: يحيى النطف و هى موات و يميت الأحياء، و قيل: يحيى الأموات للبعث وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شيء كائنا ما كان هُوَ الْأَوَّلُ قبل كل شيء وَ الْآخِرُ بعد كل شيء، أى: الباقى بعد فناء خلقه وَ الظَّاهِرُ العالى الغالب على كل شيء، أو الظاهر وجوده بالأدلة الواضحة وَ الْباطِنُ أى: العالم بما بطن، من قولهم فلان يبطن أمر فلان، أى: يعلم داخلة أمره، و يجوز أن يكون المعنى المحتجب عن الأبصار و العقول، و قد فسّر هذه الأسماء الأربعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما سيأتى، فيتعين المصير إلى ذلك وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا يعزب عن علمه شيء من المعلومات هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ هذا بيان لبعض ملكه للسماوات و الأرض. و قد تقدّم تفسيره فى سورة الأعراف و فى غيرها مستوفى يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ أى: يدخل فيها من مطر و غيره وَ ما يَخْرُجُ مِنْها من نبات و غيره وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ من مطر و غيره وَ ما يَعْرُجُ فِيها أى: يصعد إليها من الملائكة و أعمال العباد، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة سبأ وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ أى: بقدرته و سلطانه و علمه، و هذا تمثيل للإحاطة بما يصدر منهم أينما داروا فى الأرض من برّ و بحر وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا يخفى عليه من أعمالكم شيء لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ هذا التكرير للتأكيد وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ لا إلى غيره. قرأ الجمهور: «ترجع» مبنيا للمفعول. و قرأ حمزة و الكسائى و ابن عامر على البناء للفاعل يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ قد تقدّم تفسير هذا فى سورة آل عمران، و فى مواضع

---

(١). الأنبياء: ۷۹.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۰۰

فتح القدير ج۵ ۲۴۹

وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أى: بضمائر الصدور و مكنوناتها، لا يخفى عليه من ذلك خافية.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و مسلم و الترمذى و البيهقى عن أبى هريرة قال: جاءت فاطمة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

تسأله خادما، فقال قولی: «اللهم ربّ السموات السبع و رب العرش العظيم، و ربنا و رب كل شیء، منزل التوراة و الإنجيل و الفرقان، فالق الحب و النوى، أعوذ بک من شرّ كل شیء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلک شیء، و أنت الآخر فليس بعدک شیء، و أنت الظاهر فليس فوقک شیء، و أنت الباطن فليس دونک شیء، اقض عنا الدّين، و أغننا من الفقر». و أخرج أحمد و مسلم و غير هما من حديث أبی هريرة من وجه آخر مرفوعا مثل هذا فی الأربعة الأسماء المذكورة و تفسيرها. و أخرج أبو الشيخ فی العظمة، عن ابن عمر و أبی سعيد عن النبی صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا يزال الناس يسألون عن كل شیء حتى يقولوا: هذا اللّه كان قبل كل شیء، فماذا كان قبل اللّه؟ فإن قالوا لكم ذلک فقولوا: هو الأول قبل كل شیء، و الآخر فليس بعده شیء، و هو الظاهر فوق كل شیء، و هو الباطن دون كل شیء، و هو بكل شیء عليم». و أخرج أبو داود عن أبی زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شیء أجده فی صدری، قال: ما هو؟ قلت:

و اللّه لا أتكلّم به، قال: فقال لی: أ شیء من شک؟ قال: و ضحک، قال: ما نجا من ذلک أحد، قال:

حتى أنزل اللّه: فَإِنْ كُنْتَ فِی شَکٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْکَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِکَ «١» الآية قال: و قال لی: إذا وجدت فی نفسک شيئا فقل: هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكل شیء عليم.

و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ قال: عالم بكم أينما كنتم.

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ٧ الى ١١]

آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَ ما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَ قَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِی يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٩) وَ ما لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِی سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا يَسْتَوِی مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قاتَلَ أُولئِکَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا وَ كُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِی يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)

قوله: آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ أی: صدّقوا بالتوحيد و بصحة الرسالة، و هذا خطاب لكفار العرب، و يجوز أن يكون خطابا للجميع، و يكون المراد بالأمر بالإيمان فی حق المسلمين الاستمرار عليه، أو الازدياد منه. ثم لما أمرهم بالإيمان أمرهم بالإنفاق فی سبيل اللّه فقال: وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ أی:

جعلكم خلفاء فی التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة، فإن المال مال اللّه و العباد خلفاء اللّه فی أمواله، فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه. و قيل: جعلكم خلفاء من كان قبلكم ممّن ترثونه، و سينتقل إلى غيركم ممن يرثكم،

---

(١). يونس: ٩۴.

فلا تبخلوا به. كذا قال الحسن و غيره. و فيه الترغيب إلى الإنفاق فی سبيل الخير قبل أن ينتقل عنهم و يصير إلى غيرهم. و الظاهر أن معنى الآية الترغيب فی الإنفاق فی الخير، و ما يرضاه اللّه على العموم، و قيل: هو خاص بالزكاة المفروضة، و لا وجه لهذا التخصيص. ثم ذكر سبحانه ثواب من أنفق فی سبيل اللّه، فقال:

فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ أی: الذين جمعوا بين الإيمان باللّه و رسوله، و بين الإنفاق فی سبيل اللّه لهم أجر كبير، و هو الجنة وَ ما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ هذا الاستفهام للتوبيخ و التقريع، أی:

أىّ عـذر لكم، و أىّ مـانع من الإيمـان، و قـد أزيحت عنكم العلـل؟ و «ما» مبتـدأ و «لكم» خبره و لا تؤمنون فى محل نصب على الحال من الضمير فى «لكم»، و العامل «ما» فيه من معنى الاستقرار، و قيل: المعنى:

أىّ شـىء لكم من الثواب فى الآخرة إذا لم تؤمنوا؟ و جملـة: وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ فى محل نصب على الحـال من ضمير لا تؤمنون على التـداخل، و «لتؤمنوا» متعلق بيـدعوكم، أى: يـدعوكم للإيمان، و المعنى: أىّ عذر لكم فى ترك الإيمان و الرسول يـدعوكم إليه و ينبّهكم عليه؟ و جملـة: وَ قَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ فى محل نصب على الحال من فاعل يـدعوكم على التداخل أيضا، أى: و الحال أن قـد أخـذ اللّه ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم، أو بما نصب لكم من الأدلـة الدالة على التوحيد وجوب الإيمـان. قرأ الجمهور: «و قـد أخـذ» مبنيـا للفاعـل، و هو اللّه سبحانه لتقـدّم ذكره. و قرأ أبو عمرو على البناء للمفعول إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بما أخذ عليكم من الميثاق، أو بالحجج و الدلائل، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب، فهذا من أعظم أسبابه و أوضح موجباته هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ أى: واضـحات ظاهرات، و هى الآيات القرآنية، و قيل: المعجزات و القرآن أعظمها لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ أى: ليخرجكم اللّه بتلـك الآيـات من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، أو ليخرجكم الرسول بتلك الآيات، أو بالـدعوة وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ أى: لكثير الرأفـة و الرحمـة بليغهما، حيث أنزل كتبه و بعث رسله لهداية عباده، فلا رأفة و لا رحمة أبلغ من هذه، و الاستفهام فى قوله: وَ ما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ للتقريع و التوبيخ، و الكلام فى إعراب هـذا كالكلام فى إعراب قوله: وَ مـا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ و فى هـذه الآيـة دليل على أن الإنفاق المأمور به فى قوله: وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ هو الإنفاق فى سبيل كما بيّنّا ذلك، و المعنى: أىّ عذر لكم و أىّ شىء يمنعكم من الإنفاق فى ذلك الوجه؟ و الأصـل: فى أن لا تنفقوا، و قيـل: إنّ أن زائـدة، و جملـة وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فى محل نصب على الحـال من فاعـل «ألا تنفقوا» أو من مفعوله، و المعنى: أىّ شـىء يمنعكم من الإنفـاق فى ذلـك الوجه؟ و الحـال أن كـلّ مـا فى السّماوات و الأرض راجع إلى اللّه سبحانه بانقراض العالم؛ كرجوع الميراث إلى الوارث، و لا يبقى لهم منه شىء، و هذا أدخل فى التوبيـخ و أكمل فى التقريع، فإن كون تلك الأموال تخرج عن أهلها، و تصير للّه سبحانه، و لا يبقى أحـد من مالكيها أقوى فى إيجاب الإنفاق عليهم من كونها للّه فى الحقيقـة، و هم خلفاؤه فى التصرّف فيها. ثم بيّن سبحانه فضل من سبق بالإنفاق فى سبيل اللّه فقال: لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ قيل: المراد بالفتـح فتـح مكة، و به قال أكثر المفسرين. و قال الشعبى و الزهرى: فتح الحديبية. قال قتادة: كان قتالان أحدهما أفضل

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۰۲

من الآخر، و نفقتان إحـداهما أفضل من الأخرى، كان القتال و النفقـة قبل فتـح مكـة أفضل من القتال و النفقـة بعد ذلك، و كذا قـال مقاتل و غيره، و فى الكلام حـذف، و التقـدير: لا يستوى من أنفق من قبل الفتـح و قاتل و من أنفق من بعـد الفتـح و قاتل، فحذف لظهوره و لدلالة ما سيأتى عليه، و إنما كانت النفقة و القتال بعد الفتح؛ لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر، و هم أقل و أضـعف، و تقـديم الإنفـاق على القتال للإيـذان بفضـيلة الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجـة، فإنهم كانوا يجودون بأنفسهم و لا يجدون ما يجدون به من الأموال:

و الجود بالنفس أقصـى غايـة الجود «۱» و الإشـارة بقوله: أُولئِكَ إلى «من» باعتبـار معناها، و هو مبتـدأ و خبره أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا أى: أرفع منزلـة و أعلى رتبة من الذين أنفقوا أموالهم فى سبيل اللّه من بعد الفتح و قاتلوا مع رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم. قال عطاء: درجات الجنة تتفاضل؛ فالذين أنفقوا من قبل الفتح فى أفضلها. قال الزجاج: لأن المتقدمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، و كانت بصائرهم أيضا أنفذ.

و قـد أرشـد صلّى اللّه عليه و سلّم إلى هـذه الفضيلة بقوله فيما صحّ عنه: لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم و لا

نصيفه» و هذا خطاب منه صلّى اللّه عليه و سلّم للمتأخرين و صحبه كما يرشد إلى ذلك السبب الّذى ورد فيه هذا الحديث وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى أى: و كلّ واحد من الفريقين وعد اللّه المثوبة الحسنى، و هى الجنة مع تفاوت درجاتهم فيها. قرأ الجمهور: «و كلا» بالنصب على أنه مفعول به للفعل المتأخر. و قرأ ابن عامر بالرفع على الابتداء، و الجملة بعده خبره و العائد محذوف، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، و مثل هذا قول الشاعر «٢»:

قد أصبحت أمّ الخيار تدّعىعلىّ ذنبا كلّه لم أصنع

وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لا يخفى عليه من ذلك شىء. ثم رغّب سبحانه فى الصدقة فقال: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً أى: من ذا الّذى ينفق ماله فى سبيل اللّه، فإنه كمن يقرضه، و العرب تقول لكل من فعل فعلا حسنا قد أقرض، و منه قول الشاعر «٣».

و إذا جوزيت قرضا فاجزهإنّما يجزى الفتى ليس الجمل

قال الكلبى قَرْضاً أى: صدقة حَسَناً أى: محتسبا من قلبه بلا منّ و لا أذى. قال مقاتل:

حسنا طيبة به نفسه، و قد تقدم تفسير الآية فى سورة البقرة فَيُضاعِفَهُ لَهُ قرأ ابن عامر و ابن كثير «فيضعّفه» بإسقاط الألف، إلا أن ابن عامر و يعقوب نصبوا الفاء. و قرأ نافع و أهل الكوفة و البصرة «فيضاعفه» بالألف و تخفيف العين، إلا أن عاصما نصب الفاء و رفع الباقون. قال ابن عطية: الرّفع على العطف على يقرض، أو الاستئناف و النصب لكون الفاء فى جواب الاستفهام. و ضعف النصب أبو على

---

(١). و صدره: تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها. و البيت لمسلم بن الوليد.

(٢). هو لبيد.

(٣). هو لبيد.

الفارسى، قال: لأن السؤال لم يقع على القرض، و إنما وقع عن فاعل القرض، و إنما تنصب الفاء فعلا مردودا على فعل مستفهم عنه، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى، كأن قوله: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ بمنزلة قوله: أ يقرض اللّه أحد وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ و هو الجنة، و المضاعفة هنا هى كون الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف؛ على اختلاف الأحوال و الأشخاص و الأوقات.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال: «خرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عام الحديبية حتى إذا كان بعسفان؛ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: يوشك أن يأتى قوم يحقرون أعمالكم مع أعمالهم، قلنا: من هم يا رسول اللّه؟

أ قريش؟ قال: لا، و لكنهم أهل اليمن هم أرق أفئدة و ألين قلوبا، فقلنا: أهم خير منّا يا رسول اللّه؟

قال: لو كان لأحدهم جبل من ذهب ما أدرك مدّ أحدكم و لا نصيفه، إلا أن هذا فصل ما بيننا و بين الناس لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قاتَلَ الآية» و هذا الحديث قال ابن كثير: هو غريب بهذا الإسناد، و قد رواه ابن جرير و لم يذكر فيه الحديبية. و أخرج أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد و بين عبد الرّحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرّحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «دعوا لى أصحابى، فو الّذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم».

و الّذى فى الصحيح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بلفظ: «لا تسبّوا أصحابى، فو الّذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مدّ أحدهم و لا نصيفه»، و فى لفظ: «ما بلغ مدّ أحدهم و لا نصيفه» أخرج هذا الحديث البخارى و مسلم و

غير هما من حديث أبى سعيد الخدرى. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال: لا تسبّوا أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره.

[سورة الحديد (۵۷): الآيات ۱۲ الى ۱۵]

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۲) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ (۱۳) يُنادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۱۴) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۵)

قوله: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ العامل فى الظرف مضمر و هو اذكر، أو «كريم»، أو «فيضاعفه»، أو العامل فى لهم و هو الاستقرار، و الخطاب لكل من يصلح له، و قوله: يَسْعى نُورُهُمْ فى محل نصب على الحال من مفعول ترى، و النور: هو الضياء الّذى يرى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ و ذلك على الصراط يوم القيامة، و هو دليلهم إلى الجنة. قال قتادة: إن المؤمن يضىء له نور كما بين عدن إلى صنعاء، حتى إنّ من المؤمنين من لا يضىء له نوره إلا موضع قدميه. و قال الضحاك و مقاتل: و بأيمانهم كتبهم التى

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۰۴

أعطوها، فكتبهم بأيمانهم، و نورهم بين أيديهم. قال الفراء: الباء بمعنى فى، أى: فى أيمانهم، أو بمعنى عن.

قال الضحاك أيضا: نورهم هداهم، و بأيمانهم كتبهم، و اختار هذا ابن جرير الطبرى، أى: يسعى إيمانهم و عملهم الصالح بين أيديهم، و فى أيمانهم كتب أعمالهم، قرأ الجمهور: «بأيمانهم» جمع يمين. و قرأ سهل ابن سعد الساعدى و أبو حيوة «بإيمانهم» بكسر الهمزة على أن المراد بالإيمان ضد الكفر، و قيل: هو القرآن، و الجار و المجرور فى الموضعين فى محل نصب على الحال من نورهم، أى: كائنا بين أيديهم و بأيمانهم بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها «بشراكم» مبتدأ، و خبره «جنات» على تقدير مضاف، أى: دخول جنات، و الجملة مقول قول مقدر، أى: يقال لهم هذا، و القائل لهم هم الملائكة. قال مكّى:

و أجاز الفراء نصب جنات على الحال، و يكون «اليوم» خبر «بشراكم»، و هذا بعيد جدا. «خالدين فيها» حال مقدرة، و الإشارة بقوله ذلِكَ إلى النور و البشرى، و هو مبتدأ و خبره هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أى:

لا يقادر قدره حتى كأنه لا فوز غيره، و لا اعتداد بما سواه يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ «يوم» بدل من «يوم» الأول، و يجوز أن يكون العامل فيه هو الفوز العظيم، و يجوز أن يكون منصوبا بفعل مقدّر، أى: اذكر لِلَّذِينَ آمَنُوا اللام للتبليغ كنظائرها. قرأ الجمهور: انْظُرُونا أمرا بوصل الهمزة و ضم الظاء من النظر بمعنى الانتظار، أى: انتظرونا، يقولون ذلك لما رأوا المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة. و قرأ الأعمش و حمزة و يحيى بن وثّاب بقطع الهمزة و كسر الظاء من الإنظار، أى: أمهلونا و أخّرونا، يقال: أنظرته و استنظرته، أى: أمهلته و استمهلته، قال الفراء: تقول العرب أنظرنى، أى: انتظرنى، و أنشد قول عمرو ابن كلثوم:

أبا هند فلا تعجل عليناو أنظرنا نخبّرك اليقينا

و قيل: معنى انظرونا: انظروا إلينا؛ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنورهم نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ أى: نستضىء منه، و القبس: الشعلة من النار و السراج، فلما قالوا ذلك قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ أى: قال لهم المؤمنون أو الملائكة زجرا لهم و

تهكّما بهم، أى: ارجعوا وراءكم إلى الموضع الّذى أخذنا منه النور فَالْتَمِسُوا نُوراً أى: اطلبوا هنالك نورا لأنفسكم، فإنه من هنالك يقتبس، و قيل:
المعنى: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بما التمسناه به من الإيمان و الأعمال الصالحة، و قيل: أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة تهكما بهم فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ السور: هو الحاجز بين الشيئين، و المراد به هنا الحاجز بين الجنة و النار، أو بين أهل الجنة و أهل النار. قال الكسائى: و الباء فى بِسُورٍ زائدة: ثم وصف سبحانه السور المذكور فقال: لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ أى: باطن ذلك السور. و هو الجانب الّذى يلى أهل الجنة فيه الرحمة و هى الجنة وَ ظاهِرُهُ و هو الجانب الّذى يلى أهل النار مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ أى: من جهته عذاب جهنم، و قيل: إن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة، و المنافقون يجعلون فى العذاب و بينهم السور، و قيل: إن الرحمة التى فى باطنه نور المؤمنين، و العذاب الّذى فى ظاهره ظلمة المنافقين، و لما ضرب بالسور بين المؤمنين و المنافقين أخبر اللّه سبحانه عما قاله المنافقون إذ ذاك، فقال: يُنادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ
فتح القدير، ج‏5، ص: 205
أى: موافقين لكم فى الظاهر، نصلى بصلاتكم فى مساجدكم، و نعمل بأعمال الإسلام مثلكم، و الجملة مستأنفة كأنه قيل: فماذا قال المنافقون بعد ضرب السور بينهم و بين المؤمنين؟ فقال: يُنادُونَهُمْ ثم أخبر سبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال: قالُوا بَلى أى: كنتم معنا فى الظاهر وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بالنفاق و إبطان الكفر. قال مجاهد: أهلكتموها بالنفاق، و قيل: بالشّهوات و اللذّات وَ تَرَبَّصْتُمْ بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و بمن معه من المؤمنين حوادث الدهر، و قيل: تربّصتم بالتوبة، و الأول أولى.
وَ ارْتَبْتُمْ أى: شككتم فى أمر الدّين، و لم تصدقوا بما نزل من القرآن و لا بالمعجزات الظاهرة وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ الباطلة التى من جملتها ما كنتم فيه من التربّص، و قيل: هو طول الأمل، و قيل: ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين. و قال قتادة: الأمانى هنا غرور الشيطان، و قيل: الدنيا، و قيل: هو طمعهم فى المغفرة، و كل هذه الأشياء تدخل فى مسمّى الأمانى حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ و هو الموت، و قيل: نصره سبحانه لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم. و قال قتادة: هو إلقاؤهم فى النار وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ قرأ الجمهور: «الغرور» بفتح الغين، و هو صفة على فعول، و المراد به الشيطان، أى: خدعكم بحلم اللّه و إمهاله الشيطان. و قرأ أبو حيوة و محمد ابن السّميقع و سماك بن حرب بضمّها و هو مصدر فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ تفدون بها أنفسكم من النار أيها المنافقون وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا باللّه ظاهرا و باطنا مَأْواكُمُ النَّارُ أى: منزلكم الّذى تأوون إليه النار هِيَ مَوْلاكُمْ أى: هى أولى بكم، و المولى فى الأصل من يتولى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن يلازمه، و قيل: معنى مولاكم: مكانكم عن قرب، من الولى و هو القرب.
و قيل: إن اللّه يركّب فى النار الحياة و العقل، فهى تتميّز غيظا على الكفار، و قيل: المعنى: هى ناصركم، على طريقة قول الشاعر:
تحيّة بينهم ضرب وجيع وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ الّذى تصيرون إليه هو النار.
و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، يمرّون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، و منهم من نوره مثل النخلة، و أدناهم نورا من نوره على إبهامه يطفأ مرّة و يوقد أخرى. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس قال: بينما الناس فى ظلمة إذ بعث اللّه نورا، فلما رأى المؤمنون النور توجّهوا نحوه، و كان النور دليلهم من اللّه إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور تبعوهم، فأظلم اللّه على المنافقين، فقالوا حينئذ: انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ فإنّا كنّا معكم فى الدنيا، قال المؤمنون: ارْجِعُوا وَراءَكُمْ من حيث جئتم من الظلمة فَالْتَمِسُوا هنالك النور. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم سترا منه على عباده، و أما عند الصراط فإن اللّه يعطى كل مؤمن نورا و كل منافق نورا، فإذا استووا على الصراط سلب اللّه نور المنافقين و المنافقات، فقال المنافقون:

انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ و قال المؤمنون:

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۰۶

رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا «۱» فلا يذكر عند ذلك أحد أحدا» و في الباب أحاديث و آثار. و أخرج عبد بن حميد عن عبادة بن الصامت: أنه كان على سور بيت المقدس فبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: هاهنا أخبرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه رأى جهنم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن عساكر عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال: إن السور الّذى ذكره اللّه فى القرآن فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ هو السور الّذى ببيت المقدس الشرقى باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ المسجد وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ يعنى وادى جهنم و ما يليه.

و لا يخفاك أن تفسير السّور المذكور فى القرآن فى هذه الآية بهذا السور الكائن ببيت المقدس فيه من الإشكال ما لا يدفعه مقال، و لا سيما بعد زيادة قوله: «باطنه فيه الرحمة»: المسجد، فإن هذا غير ما سيقت له الآية و غير ما دلّت عليه، و أين يقع بيت المقدس أو سوره بالنسبة إلى السور الحاجز بين فريقى المؤمنين و المنافقين؟ و أىّ معنى لذكر مسجد بيت المقدس هاهنا؟ فإن كان المراد أن اللّه سبحانه ينزع سور بيت المقدس، و يجعله فى الدار الآخرة سورا مضروبا بين المؤمنين و المنافقين، فما معنى تفسير باطن السور و ما فيه من الرحمة بالمسجد، و إن كان المراد أن اللّه يسوق فريقى المؤمنين و المنافقين إلى بيت المقدس فيجعل المؤمنين داخل السور فى المسجد، و يجعل المنافقين خارجه، فهم إذ ذاك على الصراط و فى طريق الجنة و ليسوا ببيت المقدس، فإن كان مثل هذا التفسير ثابتا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قبلناه و آمنّا به، و إلا فلا كرامة و لا قبول. و أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ قال: بالشهوات و اللذات وَ تَرَبَّصْتُمْ قال: بالتوبة وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قال: الموت وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ قال: الشيطان.

[سورة الحديد (۵۷): الآيات ۱۶ الى ۱۹]

أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (۱۶) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۱۷) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (۱۸) وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (۱۹)

قوله: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا يقال: أنى لك يأنى إنى؛ إذا حان، قرأ الجمهور: «ألم يأن» و قرأ الحسن و أبو السّمّال «ألمّا يأن» و أنشد ابن السكيت:

ألمّا يئن لى أن تجلّى عمايتى و أقصر عن ليلى بلى قد أنى ليا

و أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ فاعل يأن، أى: ألم يحضر خشوع قلوبهم و يجيء وقته، و منه قول الشاعر:

---

(۱). التحريم: ۸.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۰۷ أ لم يأن لى يا قلب أن أترك الجهلاو أن يحدث الشّيب المنير لنا عقلا

هذه الآية نزلت فى المؤمنين. قال الحسن: يستبطئهم و هم أحب خلقه إليه. و قيل: إن الخطاب لمن آمن بموسى و عيسى دون محمد. قال الزّجّاج: نزلت فى طائفة من المؤمنين، حثّوا على الرقة و الخشوع، فأما من وصفهم اللّه بالرقة و الخشوع فطبقة فوق هؤلاء. و قال السدى و غيره: المعنى أ لم يأن للذين آمنوا فى الظاهر و أسرّوا الكفر أن تخشع قلوبهم لِذِكْرِ اللَّهِ و سيأتى فى آخر

البحث ما يقوّى قول من قال: إنها نزلت فى المسلمين، و الخشوع: لين القلب و رقته. و المعنى: أنه ينبغى أن يورثهم الذكر خشوعا و رقة، و لا يكونوا كمن لا يلين قلبه للذكر و لا يخشع له وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِ معطوف على ذكر اللّه، و المراد بما نزل من الحق القرآن، فيحمل الذكر المعطوف عليه ما عداه مما فيه ذكر اللّه سبحانه باللسان، أو خطور بالقلب، و قيل: المراد بالذكر هو القرآن، فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير، أو باعتبار تغاير المفهومين.

قرأ الجمهور: «نزّل» مشددا مبنيا للفاعل. و قرأ نافع و حفص بالتخفيف مبنيا للفاعل. و قرأ الجحدرى و أبو جعفر و الأعمش و أبو عمرو و فى رواية عنه مشدّد مبنيا للمفعول. و قرأ ابن مسعود «أنزل» مبنيا للفاعل وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ قرأ الجمهور بالتحتية على الغيبة جريا على ما تقدم. و قرأ أبو حيوة و ابن أبى عبلة بالفوقية على الحساب التفاتا، و بها قرأ عيسى و ابن إسحاق، و الجملة معطوفة على «تخشع» أى: ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم و لا يكونوا، و المعنى: النهى لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود و النصارى الذين أوتوا التوراة و الإنجيل من قبل نزول القرآن فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ أى: طال عليهم الزمان بينهم و بين أنبيائهم. قرأ الجمهور: «الأمد» بتخفيف الدال، و قرأ ابن كثير فى رواية عنه بتشديدها، أى:

الزمن الطويل، و قيل: المراد بالأمد على القراءة الأولى الأجل و الغاية، يقال: أمد فلان كذا، أى: غايته فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ بذلك السبب، فلذلك حرّفوا و بدّلوا، فنهى اللّه سبحانه أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أن يكونوا مثلهم وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ أى: خارجون عن طاعة اللّه لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم، و حرّفوا و بدّلوا و لم يؤمنوا بما نزل على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: هم الذين تركوا الإيمان بعيسى و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: هم الذين ابتدعوا الرهبانية، و هم أصحاب الصوامع اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها فهو قادر على أن يبعث الأجسام بعد موتها، و يلين القلوب بعد قسوتها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ التى من جملتها هذه الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أى: كى تعقلوا ما تضمنته من المواعظ و تعملوا بموجب ذلك إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقاتِ قرأ الجمهور بتشديد الصاد فى الموضعين من الصدقة، و أصله المتصدقين و المتصدقات، فأدغمت التاء فى الصاد. و قرأ أبيّ: «المتصدّقين و المتصدّقات» بإثبات التاء على الأصل. و قرأ ابن كثير بتخفيف الصاد فيهما من التصديق، أى: صدقوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيما جاء به وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً معطوف على اسم الفاعل فى المصدقين؛ لأنه لما وقع صلة للألف و اللام الموصولة حلّ محلّ الفعل، فكأنه قال:

إن الذين تصدقوا و أقرضوا، كذا قال أبو على الفارسى و غيره. و قيل: جملة و أقرضوا معترضة بين اسم إن و خبرها، و هو يُضاعَفُ و قيل: هى صلة لموصول محذوف، أى: و الذين أقرضوا، و القرض

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٠٨

الحسن: عبارة عن التصدق و الإنفاق فى سبيل اللّه مع خلوص نية، و صحة قصد، و احتساب أجر. قرأ الجمهور: يُضاعَفُ لَهُمْ بفتح العين على البناء للمفعول، و القائم مقام الفاعل إما الجار و المجرور، أو ضمير يرجع إلى المصدقين على حذف مضاف، أى: ثوابهم، و قرأ الأعمش: «يضاعفه» بكسر العين و زيادة الهاء.

و قرأ ابن كثير و ابن عامر و يعقوب «يضعّف» بتشديد العين و فتحها وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ و هو الجنة، و المضاعفة هنا أن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ جميعا، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الموصول، و خبره قوله: هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ و الجملة خبر الموصول.

قال مجاهد: كل من آمن باللّه و رسله فهو صدّيق. قال المقاتلان: هم الذين لم يشكّوا فى الرسل حين أخبروهم و لم يكذّبوهم. و قال مجاهد: هذه الآية للشهداء خاصة، و هم الأنبياء الذين يشهدون للأمم و عليهم، و اختار هذا الفراء و الزجاج. و قال مقاتل بن سليمان: هم الذين استشهدوا فى سبيل اللّه، و كذا قال ابن جرير، و قيل: هم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ،

و الظاهر أن معنى الآية: إن الذين آمنوا باللّه و رسله جميعا بمنزلة الصديقين و الشهداء المشهورين بعلوّ الدرجة عند اللّه، و قيل: إن الصديقين هم المبالغون فى الصدق حيث آمنوا باللّه و صدّقوا جميع رسله، و القائمون للّه سبحانه بالتوحيد. ثم بيّن سبحانه ما لهم من الخير بسبب ما اتّصفوا به من الإيمان باللّه و رسله فقال: لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ و الضمير الأول راجع إلى الموصول، و الضميران الأخيران راجعان إلى الصديقين و الشهداء، أى: لهم مثل أجرهم و نورهم، و أما على قول من قال: إن الذين آمنوا باللّه و رسله هم نفس الصديقين و الشهداء، فالضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى شىء واحد، و المعنى: لهم الأجر و النور الموعودان لهم. ثم لما ذكر حال المؤمنين و ثوابهم ذكر حال الكافرين و عقابهم فقال: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أى: جمعوا بين الكفر و تكذيب الآيات، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الموصول باعتبار ما فى صلته من اتصافهم بالكفر و التكذيب، و هذا مبتدأ و خبره أَصْحابُ الْجَحِيمِ يعذّبون بها، و لا أجر لهم و لا نور، بل عذاب مقيم و ظلمة دائمة.

و قد أخرج ابن مردويه عن أنس عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «استبطأ اللّه قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن، فأنزل اللّه: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا الآية». و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت:

«خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على نفر من أصحابه فى المسجد و هم يضحكون، فسحب رداءه محمّرا وجهه فقال: أ تضحكون و لم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم؟! و لقد أنزل علىّ فى ضحككم آية: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ قالوا: يا رسول اللّه فما كفارة ذلك؟ قال: تبكون بقدر ما ضحكتم». و أخرج مسلم و النسائى و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا و بين أن عاتبنا اللّه بهذه الآية أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا إلا أربع سنين. و أخرج نحوه عنه ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه من طريق أخرى. و أخرج أبو يعلى و ابن مردويه عنه أيضا قال:

لما نزلت هذه الآية أقبل بعضنا على بعض: أى شىء أحدثنا؟ أىّ شىء صنعنا؟. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: إن اللّه استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن

فتح القدير، ج‏5، ص: 209

أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا الآية.

و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، عن عبد العزيز بن أبى روّاد أن أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ظهر فيهم المزاح و الضحك، فنزلت هذه الآية: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا. و أخرج ابن المبارك عن ابن عباس اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قال: يعنى أنه يلين القلوب بعد قسوتها. و أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب:

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «مؤمنو أمتى شهداء، ثم تلا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ . و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال: كل مؤمن صديق و شهيد.

و أخرج الحاكم و صحّحه عن ابن مسعود قال: «إن الرجل ليموت على فراشه و هو شهيد، ثم تلا هذه الآية» و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ قال: هذه مفصولة: وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ و أخرج ابن حبان عن عمرو بن مرة الجهنى: قال: «جاء رجل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه أ رأيت إن شهدت أن لا إله إلا اللّه و أنك رسول اللّه و صليت الصلوات الخمس و أديت الزكاة و صمت رمضان و قمته، فممن أنا؟ قال: من الصّدّيقين و الشهداء».

[سورة الحديد (57): الآيات 20 الى 24]

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكَمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ (۲۰) سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۲۱) ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۲۲) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (۲۳) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۲۴)

قوله: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ لما ذكر سبحانه حال الفريق الثانى و ما وقع منهم من الكفر و التكذيب، و ذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا و تأثيرها، بيّن لهم حقارتها، و أنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة، و اللعب: هو الباطل، و اللهو: كل شىء يتلهى به ثم يذهب. قال قتادة: «لعب و لهو»:

أكل و شرب. قال مجاهد: كلّ لعب لهو، و قيل: اللعب: ما رغّب فى الدنيا، و اللهو: ما ألهى عن الآخرة و شغل عنها، و قيل: اللعب: الاقتناء، و اللهو: النساء، و قد تقدّم تحقيق هذا فى سورة الأنعام، و الزينة:

التزيّن بمتاع الدنيا من دون عمل للآخرة وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ قرأ الجمهور بتنوين «تفاخر» و الظرف صفة له، و قرأ السلمى بالإضافة، أى: يفتخر به بعضكم على بعض، و قيل: يتفاخرون بالخلقة و القوّة، و قيل:

بالأنساب و الأحساب كما كانت عليه العرب وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ أى: يتكاثرون بأموالهم

فتح القدير، ج‏5، ص: 210

و أولادهم، و يتطاولون بذلك على الفقراء. ثم بيّن سبحانه لهذه الحياة شبها، و ضرب لها مثلا، فقال:

كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ أى: كمثل مطر أعجب الزراع نباته، و المراد بالكفار هنا الزّرّاع لأنهم يكفرون البذر، أى: يغطونه بالتراب، و معنى نباته: النبات الحاصل به ثُمَّ يَهِيجُ أى: يجفّ بعد خضرته و ييبس فَتَراهُ مُصْفَرًّا أى: متغيّرا عما كان عليه من الخضرة و الرّونق إلى لون الصفرة و الذبول ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً أى: فتاتا هشيما متكسرا متحطما بعد يبسه، و قد تقدّم تفسير هذا المثل فى سورة يونس و الكهف. و المعنى: أن الحياة كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته و كثرة نضارته، ثم لا يلبث أن يصير هشيما تبنا كأن لم يكن. و قرئ «مصفارّا» و الكاف فى محل نصب على الحال، أو فى محل رفع على أنها خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف. ثم لما ذكر سبحانه حقارة الدنيا و سرعة زوالها؛ ذكر ما أعدّه للعصاة فى الدار الآخرة فقال: وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ و أتبعه ما أعدّه لأهل الطاعة فقال: وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ و التنكير فيها للتعظيم. قال قتادة: عذاب شديد لأعداء اللّه، و مغفرة من اللّه و رضوان لأوليائه و أهل طاعته. قال الفراء: التقدير فى الآية إما عذاب شديد، و إما مغفرة، فلا يوقف على «شديد».

ثم ذكر سبحانه بعد الترهيب و الترغيب حقارة الدنيا فقال: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ لمن اغترّ بها و لم يعمل لآخرته. قال سعيد بن جبير: متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة. و من اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه. و هذه الجملة مقرّرة للمثل المتقدّم و مؤكدة له. ثم ندب عباده إلى المسابقة إلى ما يوجب المغفرة من التوبة و العمل الصالح؛ فإن ذلك سبب إلى الجنة، فقال: سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أى: سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة التى توجب المغفرة لكم من ربكم، و توبوا ممّا وقع منكم من المعاصى، و قيل: المراد بالآية التكبيرة الأولى مع الإمام، قاله مكحول، و قيل: المراد الصف الأوّل، و لا وجه لتخصيص ما فى الآية بمثل هذا، بل هو من جملة ما تصدق عليه صدقا شموليا أو بدليا وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أى: كعرضهما، و إذا كان هذا قدر عرضها فما ظنّك بطولها. قال الحسن:

يعنى جميع السماوات و الأرضين مبسوطات كل واحدة إلى صاحبتها، و قيل: المراد بالجنة التى عرضها هذا العرض هى جنة كل

واحد من أهل الجنة. و قال ابن كيسان: عنى به جنة واحدة من الجنات، و العرض أقل من الطول، و من عادة العرب أنها تعبر عن [سعة] «۱» الشيء بعرضه دون طوله، و من ذلك قول الشاعر:

كأنّ بلاد اللّه و هى عريضةعلى الخائف المطلوب كفّة حابل

و قد مضى تفسير هذا فى سورة آل عمران. ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة أخرى فقال: أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ و يجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة. و فى هذا دليل على أن استحقاق الجنة يكون بمجرّد الإيمان باللّه و رسله، و لكن هذا مقيّد بالأدلة الدالة على أنه لا يستحقها إلّا من عمل بما فرض اللّه عليه، و اجتنب ما نهاه اللّه عنه، و هى أدلة كثيرة فى الكتاب و السنة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما وعد به

---

(۱). من تفسير القرطبى (۱۷/ ۲۵۶)

سبحانه من المغفرة و الجنة، و هو مبتدأ و خبره فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ أى: يعطيه من يشاء إعطاءه إياه تفضّلا و إحسانا وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ فهو يتفضّل على من يشاء، لا مانع لما أعطى و لا معطى لما منع، و الخير كله بيده، و هو الكريم المطلق و الجواد الّذى لا يبخل. ثم بيّن سبحانه أن ما يصاب به العباد من المصائب قد سبق بذلك قضاؤه و قدره، و ثبت فى أمّ الكتاب، فقال: ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ من قحط مطر، و ضعف نبات، و نقص ثمار. قال مقاتل: القحط و قلة النبات و الثمار، و قيل: الجوائح فى الزرع وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ قال قتادة: بالأوصاب و الأسقام. و قال مقاتل: إقامة الحدود. و قال ابن جريج:

ضيق المعاش إِلَّا فِي كِتابٍ فى محل نصب على الحال من «مصيبة»، أى: إلا حال كونها مكتوبة فى كتاب، و هو اللوح المحفوظ، و جملة مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها فى محل جر صفة لكتاب، و الضمير فى نبرأها عائد إلى المصيبة، أو إلى الأنفس، أو إلى الأرض، أو إلى جميع ذلك، و معنى نَبْرَأَها نخلقها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أى: إن إثباتها فى الكتاب على كثرته على اللّه يسير غير عسير، لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ أى: اختبرناكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ منها، أى: أعطاكم منها، فإن ذلك يزول عن قريب، و كل زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله، و لا يحزن على فواته، و مع أن الكل بقضاء اللّه و قدره، فلن يعدو أمر ما كتب له، و ما كان حصوله كائنا لا محالة فليس بمستحقّ للفرح بحصوله و لا للحزن على فوته، قيل: و الحزن و الفرح المنهيّ عنهما هما اللذان يتعدّى فيهما إلى ما لا يجوز، و إلا فليس من أحد إلا و هو يحزن و يفرح. قرأ الجمهور: بِما آتاكُمْ بالمدّ، أى: أعطاكم، و قرأ أبو العالية و نصر بن عاصم و أبو عمرة بالقصر، أى: جاءكم، و اختار القراءة الأولى أبو حاتم، و اختار القراءة الثانية أبو عبيد وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ أى: لا يحبّ من اتصف بهاتين الصفتين و هما الاختيال و الافتخار، قيل: هو ذمّ للفرح الّذى يختال فيه صاحبه و يبطر، و قيل: إن من فرح بالحظوظ الدنيوية، و عظمت فى نفسه، اختال و افتخر بها، و قيل: المختال: الّذى ينظر إلى نفسه، و الفخور: الّذى ينظر إلى نفسه، و الفخور: الّذى ينظر إلى الناس بعين الاستحقار. و الأولى تفسير هاتين الصفتين بمعناهما الشرعى ثم اللغوى، فمن حصلتا فيه فهو الّذى لا يحبه اللّه الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ الموصول فى محل رفع بالابتداء، و هو كلام مستأنف لا تعلّق له بما قبله، و الخبر مقدّر، أى: الذين يبخلون فاللّه غنّى عنهم، و يدل على ذلك قوله: وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ و قيل: الموصول فى محل جرّ بدل من «مختال»، و هو بعيد، فإن هذا البخل بما فى اليد، و أمر الناس بالبخل، ليس هو معنى المختال الفخور، لا لغة و لا شرعا. و قيل: هو فى محل جرّ نعت له، و هو أيضا بعيد. قال سعيد بن جبير: الذين يبخلون بالعلم و يأمرون الناس بالبخل به لئلا يعلّموا الناس شيئا. و قال زيد بن أسلم: إنه البخل بأداء حق اللّه، و قيل: إنه البخل بالصدقة، و قال طاوس:

إنه البخل بما فى يديه، و قيل: أراد رؤساء اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فى كتبهم لئلا يؤمن به الناس فتذهب مآكلهم، قاله السدّى و الكلبى. قرأ الجمهور: بِالْبُخْلِ بضم و سكون الخاء. و قرأ أنس و عبيد بن عمير و يحيى بن يعمر و مجاهد و حميد و ابن محيصن و حمزة و الكسائى بفتحتين، و هى لغة الأنصار.

فتح القدير، ج‏5، ص: 212

و قرأ أبو العالية و ابن السّميقع بفتح الباء و إسكان الخاء. و قرأ نصر بن عاصم بضمّهما، و كلها لغات وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ أى: و من يعرض عن الإنفاق فإن اللّه غنىّ محمود عند خلقه لا يضره ذلك.

قرأ الجمهور هو الغنى بإثبات ضمير الفصل. قرأ نافع و ابن عامر فإن اللّه الغنى الحميد بحذف الضمير.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ يقول فى الدين و الدنيا إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها قال: نخلقها لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُم من الدنيا وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ منها. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: هو شى‏ء قد فرغ منه من قبل أن تبرأ الأنفس. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب عنه أيضا فى قوله: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ الآية قال: ليس أحد إلا و هو يحزن و يفرح، و لكن من أصابته مصيبة جعلها صبرا، و من أصابه خير جعله شكرا. و أخرج ابن المنذر عنه فى الآية قال: يريد مصائب المعاش، و لا يريد مصائب الدين، إنه قال: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ و ليس هذا من مصائب الدين، أمرهم أن يأسوا على السيئة و يفرحوا بالحسنة.

[سورة الحديد (57): الآيات 25 الى 29]

لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَ إِبْراهِيمَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (26) ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَ قَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَ جَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (27) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28) لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلى شَيْ‏ءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

قوله: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ أى: بالمعجزات البينة و الشرائع الظاهرة وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ المراد الجنس، فيدخل فيه كتاب كلّ رسول وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ قال قتادة و مقاتل ابن حيان: الميزان: العدل، و المعنى: أمرناهم بالعدل، كما فى قوله: وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ «1» و قوله: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزانَ «2» و قال ابن زيد: هو ما يوزن به و يتعامل به، و معنى لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ليتبعوا ما أمروا به من العدل فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة، و القسط: العدل، و هو يدل على أن المراد بالميزان العدل، و معنى إنزاله: إنزال أسبابه و موجباته. و على القول

---

(1). الرّحمن: 7.

(2). الشورى: 17.

فتح القدير، ج‏5، ص: 213

بأن المراد به الآلة التى يوزن بها فيكون إنزاله بمعنى إرشاد الناس إليه و إلهامهم الوزن به، و يكون الكلام من باب:
علفتها تبنا و ماء باردا ....
و أنزلنا الحديد أى خلقناه كما فى قوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ «۱» و المعنى: أنه خلقه من المعادن و علّم الناس صنعته، و قيل: إنه نزل مع آدم فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ لأنه تتّخذ منه آلات الحرب.
قال الزّجّاج: يمتنع به و يحارب، و المعنى: أنه تتخذ منه آلة للدفع و آلة للضرب. قال مجاهد: فيه جنّة و سلاح، و معنى وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ أنهم ينتفعون به فى كثير مما يحتاجون إليه مثل السكين و الفأس و الإبرة و آلات الزراعة و النجارة و العمارة وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ معطوف على قوله: «ليقوم الناس» أى:
لقد أرسلنا رسلنا و فعلنا كيت و كيت ليقوم الناس و ليعلم، و قيل: معطوف على علة مقدّرة، كأنه قيل:
ليستعلموه و ليعلم اللّه، و الأوّل أولى. و المعنى: أن اللّه أمر فى الكتاب الّذى أنزل بنصره دينه و رسله فمن نصر دينه و رسله علمه ناصرا، و من عصى علمه بخلاف ذلك و بالغيب فى محلّ نصب على الحال من فاعل ينصره أو من مفعوله، أى: غائبا عنهم أو غائبين عنه إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ أى: قادر على كل شىء غالب لكل شىء، و ليس له حاجة فى أن ينصره أحد من عباده و ينصر رسله، بل كلّفهم بذلك لينتفعوا به إذا امتثلوا، و يحصل له ما وعد به عباده المطيعين وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَ إِبْراهِيمَ لما ذكر سبحانه إرسال الرسل إجمالا أشار هنا إلى نوع تفصيل، فذكر رسالته لنوح و إبراهيم، و كرّر القسم للتوكيد وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ أى: جعلنا فيهم النبوّة و الكتب المنزلة على الأنبياء منهم، و قيل: جعل بعضهم أنبياء و بعضهم يتلون الكتاب فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ أى: فمن الذرية من اهتدى بهدى نوح و إبراهيم، و قيل: المعنى: فمن الرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ خارجون عن الطاعة ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا أى: أتبعنا على آثار الذرية أو على آثار نوح و إبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى و إلياس و داود و سليمان و غيرهم وَ قَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أى: أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم، و هو من ذرية إبراهيم من جهة أمه وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ و هو الكتاب الّذى أنزله اللّه عليه، و قد تقدّم ذكر اشتقاقه فى سورة آل عمران. قرأ الجمهور: الْإِنْجِيلَ بكسر الهمزة، و قرأ الحسن بفتحها وَ جَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً الذين اتبعوه هم الحواريون جعل اللّه فى قلوبهم مودّة لبعضهم البعض، و رحمة يتراحمون بها، بخلاف اليهود فإنهم ليسوا كذلك، و أصل الرأفة:
اللين، و الرحمة: الشفقة، و قيل: الرأفة أشد الرحمة وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها انتصاب رهبانية على الاشتغال، أى: و ابتدعوا رهبانية ابتدعوها، و ليس بمعطوفة على ما قبلها، أى: و جعلنا فى قلوبهم رأفة و رحمة و رهبانية مبتدعة من عند أنفسهم. و الأوّل أولى، و رجّحه أبو على الفارسى غيره، و جملة ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ صفة ثانية لرهبانية، أو مستأنفة مقرّرة لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم، و المعنى: ما فرضناها عليهم،

---

(۱). الزمر: ۶.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۲۱۴

و الرهبانية بفتح الراء و ضمها، و قد قرئ بهما. و هى بالفتح الخوف من الرهب، و بالضم منسوبة إلى الرهبان، و ذلك لأنهم غلوا فى العبادة، و حملوا على أنفسهم المشتقات فى الامتناع من المطعم و المشرب و المنكح، و تعلّقوا بالكهوف و الصوامع؛ لأن ملوكهم غيروا و بدلوا و بقى منهم نفر قليل فترهبوا و تبتّلوا، ذكر معناه الضحاك و قتادة و غيرهما إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ بدلا من الهاء و الألف فى كتبناها، و المعنى: ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان اللّه فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها أى: لم يرعوا هذه الرهبانية التى

ابتدعوها من جهة أنفسهم، بل صنعوها و كفروا بدين عيسى، و دخلوا فى دين الملوك الذين غيروا و بدّلوا و تركوا الترهب؛ و لم يبق على دين عيسى إلا قليل منهم، و هم المرادون بقوله: فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ الّذى يستحقونه بالإيمان، و ذلك لأنهم آمنوا بعيسى و ثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم لما بعثه اللّه وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به، و وجه الذمّ لهم على تقدير أن الاستثناء منقطع أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة و أن اللّه يرضاها، فكان تركها و عدم رعايتها حق الرعاية يدلّ على عدم مبالاتهم بما يعتقدونه دينا. و أما على القول بأن الاستثناء متصل، و أن التقدير: ما كتبناها عليهم لشىء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان اللّه بعد أن وفّقناهم لابتداعها فوجه الذم ظاهر. ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسل المتقدمين بالتقوى و الإيمان بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ بترك ما نهاكم عنه وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ محمد صلّى اللّه عليه و سلّم يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ أى: نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل، و أصل الكفل: الحظ و النصيب، و قد تقدّم الكلام على تفسيره فى سورة النساء وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ يعنى على الصراط كما قال: نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ «١» و قيل:

المعنى: و يجعل لكم سبيلا واضحا فى الدين تهتدون به وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ما سلف من ذنوبكم وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: بليغ المغفرة و الرحمة لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ اللام متعلقة بما تقدّم من الأمر بالإيمان و التقوى، و التقدير: اتقوا و آمنوا يؤتكم كذا و كذا ليعلم الذين لم يتقوا و لا آمنوا من أهل الكتاب أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ و «لا» فى قوله: لِئَلَّا زائدة للتوكيد، قاله الفراء و الأخفش و غير هما، و أن فى قوله: أَلَّا يَقْدِرُونَ هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف، و خبرها ما بعدها، و الجملة فى محل نصب على أنها مفعول يعلم، و المعنى: ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على أن ينالوا شيئا من فضل اللّه الّذى تفضّل به على من آمن بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا يقدرون على دفع ذلك الفضل الّذى تفضل اللّه به على المستحقين له، و جملة وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ معطوفة على الجملة التى قبلها، أى:

ليعلموا أنهم لا يقدرون و ليعلموا أن الفضل بيد اللّه سبحانه، و قوله: يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ خبر ثان لأنّ، أو هو الخبر، و الجارّ و المجرور فى محل نصب على الحال وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، و المراد بالفضل هنا ما تفضّل به على الذين اتقوا و آمنوا برسوله من الأجر المضاعف. و قال الكلبى:

---

(١). التحريم: ٨.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢١٥

هو رزق اللّه، و قيل: نعم اللّه التى لا تحصى، و قيل: هو الإسلام، و قد قيل: إن «لا» فى «لئلا» غير مزيدة، و ضمير «لا يقدرون» للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه. و المعنى: لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبىّ و المؤمنون على شىء من فضل اللّه الّذى هو عبارة عما أوتوه، و الأوّل أولى. و قرأ ابن مسعود «لكيلا يعلم» و قرأ حطّان بن عبد اللّه: «لأن يعلم» و قرأ عكرمة: «ليعلم» و قرئ: «ليلا» بقلب الهمزة ياء، و قرئ بفتح اللام.

و قد أخرج عبد بن حميد، و الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، من طرق عن ابن مسعود قال: «قال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: يا عبد اللّه، قلت: لبيك يا رسول اللّه ثلاث مرات، قال: هل تدرى أى عرى الإسلام أوثق؟

قلت: اللّه و رسوله أعلم، قال: أفضل الناس أفضلهم عملا إذا فقهوا فى دينهم؛ يا عبد اللّه هل تدرى أىّ الناس أعلم؟ قلت: اللّه و رسوله أعلم، قال: فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس و إن كان مقصرا بالعمل و إن كان يزحف على استه، و

اختلف من كان قبلنا على اثنتين و سبعين فرقة نجا منها ثلاث و هلك سائرها، فرقة وازت الملوك و قاتلتهم على دين اللّه و عيسى ابن مريم، و فرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك فأقاموا بين ظهرانى قومهم فدعوهم إلى دين اللّه و دين عيسى فقتلهم الملوك و نشرتهم بالمناشير، و فرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك و لا بالمقام معهم فساحوا فى الجبال و ترهبوا فيها و هم الذين قال اللّه:

وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ هم الذين آمنوا بى و صدّقونى وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ الذين جحدونى و كفروا بى». و أخرج النسائى، و الحكيم و الترمذى فى نوادر الأصول، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

«كانت ملوك بعد عيسى بدلت التوراة و الإنجيل، فكان منهم مؤمنون يقرءون التوراة و الإنجيل، فقيل لملوكهم: ما نجد شيئا أشدّ من شتم يشتمنا هؤلاء، إنهم يقرءون: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ «۱» وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ «۲» فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ* «۳» مع ما يعيبوننا به من أعمالنا فى قراءتهم، فادعوهم فليقرءوا كما نقرأ و ليؤمنوا كما آمنا، فدعاهم فجمعهم و عرض عليهم القتل، أو ليتركوا التوراة و الإنجيل إلا ما بدلوا منهما، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟

دعونا، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئا نرفع به طعامنا و شرابنا و لا نرد عليكم، و قالت طائفة: دعونا نسيح فى الأرض و نهيم و نأكل مما تأكل منه الوحوش و نشرب مما تشرب، فإن قدرتم علينا فى أرضكم فاقتلونا، و قالت طائفة: ابنوا لنا دورا فى الفيافى و نحتفر الآبار و نحرث البقول فلا نرد عليكم و لا نمرّ بكم، و ليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ففعلوا ذلك، فأنزل اللّه: رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها و قال الآخرون ممن تعبّد من أهل الشرك

---

(۱). المائدة: ۴۴.

(۲). المائدة: ۴۵.

(۳). المائدة: ۴۷.

و فنى من فنى منهم قالوا: نتعبد كما تعبد فلان و نسيح كما ساح فلان و نتخذ دورا كما اتخذ فلان و هم على شركهم، لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم، فلما بعث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و لم يبق منهم إلا القليل انحطّ صاحب الصومعة من صومعته و جاء السائح من سياحته و صاحب الدّير من ديره، فآمنوا به و صدّقوه، فقال اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ أجرين بإيمانهم بعيسى و نصب أنفسهم و التوراة و الإنجيل، و بإيمانهم بمحمد و تصديقهم وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ القرآن و اتباعهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم.

و أخرج أحمد و الحكيم الترمذى و أبو يعلى، و البيهقى فى الشعب، عن أنس أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن لكل أمة رهبانية و رهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل اللّه». و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى فى قوله: كِفْلَيْنِ قال: ضعفين، و هى بلسان الحبشة. و أخرج الفريابى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله: يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ قال:

الكفل ثلاثمائة جزء و خمسون جزءا من رحمة اللّه.

فتح القدير، ج‏5، ص: 217

سورة المجادلة

اشارة

و هى مدنية. قال القرطبى: فى قول الجميع، إلا رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدنى. و باقيها مكى. و قال الكلبى: نزلت جميعها بالمدينة غير قوله: ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى‏ ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ نزلت بمكة. و أخرج ابن الضريس و النحاس، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة المجادلة بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المجادلة (58): الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1) الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2) وَ الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (4)

قوله: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قرأ أبو عمرو و حمزة و الكسائى بإدغام الدال فى السين، و قرأ الباقون بالإظهار.

قال الكسائى: من بيّن الدال عند السين فلسانه أعجمى و ليس بعربى قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها أى: تراجعك الكلام فى شأنه وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ معطوف على «تجادلك». و المجادلة هذه الكائنة منها مع رسول اللّه أنه كان كلما قال لها: قد حرمت عليه، قالت: و اللّه ما ذكر طلاقا، ثم تقول: أشكو إلى اللّه فاقتى و وحدتى، و إن لى صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا، و إن ضممتهم إلىّ جاعوا، و جعلت ترفع رأسها إلى السماء و تقول: اللهم إنى أشكوا إليك، فهذا معنى قوله: وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ قال الواحدى:

قال المفسرون: نزلت هذه الآية فى خولة بنت ثعلبة و زوجها أوس بن الصامت و كان به لمم «1»، فاشتد به لممه ذات يوم فظاهر منها، ثم ندم على ذلك، و كان الظهار طلاقا فى الجاهلية. و قيل: هى خولة بنت حكيم، و قيل: اسمها جميلة، و الأول أصح، و قيل: هى بنت خويلد. و قال الماوردى: إنها نسبت تارة إلى أبيها، و تارة إلى جدّها و أحدهما أبوها و الآخر جدها، فهى خولة بنت ثعلبة بن خويلد، و جملة وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما فى محل نصب على الحال، أو مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها، أى: و اللّه يعلم تراجعكما

---

(1). «اللمم»: طرف من الجنون يلمّ بالإنسان، أى يعتريه.

فتح القدير، ج‏5، ص: 218

فى الكلام إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يسمع كل مسموع، و يبصر كل مبصر، و من جملة ذلك ما جادلتك به هذه المرأة. ثم بيّن سبحانه

شأن الظهار فی نفسه، و ذكر حكمه، فقال: الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ قرأ الجمهور «يظّهّرون» بالتشديد مع فتح حرف المضارعة. و قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائى «يظّاهرون» بفتح الياء و تشديد الظاء و زيادة ألف، و قرأ أبو العالية و عاصم و زرّ بن حبيش «يظاهرون» بضم الياء و تخفيف الظاء و كسر الهاء. و قد تقدم مثل هذا فی سورة الأحزاب. و قرأ أبیّ «يتظاهرون» بفك الإدغام. و معنى الظهار أن يقول لامرأته: أنت علی كظهر أمی، أی: و لا خلاف فی كون هذا ظهارا.

و اختلفوا إذا قال: أنت علی كظهر ابنتی أو أختی أو غير ذلك من ذوات المحارم؛ فذهب جماعة منهم أبو حنيفة و مالك إلى أنه ظهار، و به قال الحسن و النخعی و الزهری و الأوزاعی و الثوری. و قال جماعة منهم قتادة و الشعبی: إنه لا يكون ظهارا، بل يختصّ الظهار بالأم وحدها. و اختلفت الرواية عن الشافعی، فروى عنه كالقول الأول، و روى عنه كالقول الثانی، و أصل الظهار مشتق من الظهر.

و اختلفوا إذا قال لامرأته: أنت علی كرأس أمی أو يدها أو رجلها أو نحو ذلك، هل يكون ظهارا أم لا، و هكذا إذا قال: أنت علی كأمی، و لم يذكر الظهر، و الظاهر أنه إذا قصد بذلك الظهار كان ظهارا. و روى عن أبی حنيفة أنه إذا شبهها بعضو من أمه يحلّ له النظر إليه لم يكن ظهارا. و روى عن الشافعی أنه لا يكون الظهار إلا فی الظهر وحده.

و اختلفوا إذا شبه امرأته بأجنبية؛ فقيل: يكون ظهارا، و قيل: لا، و الكلام فی هذا مبسوط فی كتب الفروع، و جملة ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ فی محل رفع على أنها خبر الموصول. أی: ما نساؤهم بأمهاتهم، فذلك كذب منهم، و فی هذا توبيخ للمظاهرين و تبكيت لهم. قرأ الجمهور: «أمهاتهم» بالنصب على اللغة الحجازية فی إعمال «ما» عمل ليس، و قرأ أبو عمرو و السلمی بالرفع على عدم الإعمال، و هی لغة نجد و بنی أسد.

ثم بيّن سبحانه لهم أمهاتهم على الحقيقة فقال: إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِی وَلَدْنَهُمْ أی: ما أمهاتهم إلا النساء اللائی ولدنهم. ثم زاد سبحانه فی توبيخهم و تقريعهم فقال: وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً أی: و إن المظاهرين ليقولون بقولهم هذا منكرا من القول، أی: فظيعا من القول ينكره الشرع، و الزور:

الكذب، و انتصاب منكرا و زورا على أنهما صفة لمصدر محذوف، أی: قولا منكرا و زورا وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ أی: بليغ العفو و المغفرة، إذ جعل الكفارة عليهم مخلّصة لهم من هذا القول المنكر. وَ الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا لما ذكر سبحانه الظهار إجمالا و وبّخ فاعليه؛ شرع فی تفصيل أحكامه، و المعنى: و الذين يقولون ذلك القول المنكر الزور، ثم يعودون لما قالوا، أی: ما قالوا بالتدارك و التلافی، كما فی قوله: أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ «۱» أی: إلى مثله. قال الأخفش لِما قالُوا و «إلى ما

---

(۱). النور: ۱۷.

قالوا» [واحد، و اللام و إلى «۱» يتعاقبان. قال: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی هَدانا لِهذا «۲» و قال:

فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ «۳» و قال: بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها «۴» و قال: وَ أُوحِیَ إِلى نُوحٍ «۵» و قال الفراء: اللام بمعنى عن، و المعنى: ثم يرجعون عما قالوا و يريدون الوطء. و قال الزجاج:

المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا. قال الأخفش أيضا: الآية فيها تقديم و تأخير، و المعنى:

و الذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما كانوا عليه من الجماع فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ لما قالوا، أی: فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا، فالجار فی قوله: لِما قالُوا متعلق بالمحذوف الّذی هو خبر المبتدأ و هو:

فعليهم.

و اختلف أهل العلم فى تفسير العود المذكور على أقوال: الأول: أنه العزم على الوطء، و به قال العراقيون أبو حنيفة و أصحابه، و روى عن مالك. و قيل: هو الوطء نفسه، و به قال الحسن، و روى أيضا عن مالك.
و قيل: هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق، و به قال الشافعى. و قيل: هو الكفارة، و المعنى: أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة، و به قال الليث بن سعد، و روى عن أبى حنيفة. و قيل: هو تكرير الظهار بلفظه، و به قال أهل الظاهر. و روى عن بكير بن الأشج و أبى العالية و الفراء. و المعنى. ثم يعودون إلى قول ما قالوا. و الموصول مبتدأ و خبره فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ على تقدير: فعليهم تحرير رقبة كما تقدم، أو فالواجب عليهم إعتاق رقبة، يقال: حررته، أى: جعلته حرا، و الظاهر أنها تجزئ أىّ رقبة كانت، و قيل:
يشترط أن تكون مؤمنة كالرقبة فى كفارة القتل؛ و بالأول قال أبو حنيفة و أصحابه و بالثانى قال مالك و الشافعى، و اشترطا أيضا سلامتها من كل عيب مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا المراد الاستمتاع بالجماع أو اللمس أو النظر إلى الفرج بشهوة، و به قال مالك، و هو أحد قولى الشافعى، و الإشارة بقوله: ذٰلِكُمْ إلى الحكم المذكور و هو مبتدأ و خبره تُوعَظُونَ بِهِ أى: تؤمرون به، أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار، و فيه بيان لما هو المقصود من شرع الكفّارة. قال الزجاج: معنى الآية: ذلكم التغليظ فى الكفارة توعظون به، أى:
إن غلظ الكفّارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار وَ اللّٰهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لا يخفى عليه شىء من أعمالكم، فهو مجازيكم عليها. ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة فقال: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا أى: فمن لم يجد الرقبة فى ملكه، و لا تمكّن من قيمتها، فعليه صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما، فإن أفطر استأنف إن كان الإفطار لغير عذر، و إن كان لعذر من سفر أو مرض فقال سعيد بن المسيب و الحسن و عطاء بن أبى رباح و عمرو بن دينار و الشعبى و الشافعى و مالك: إنه يبنى و لا يستأنف. و قال أبو حنيفة: إنه يستأنف، و هو مروى عن الشافعى؛ و معنى مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا هو ما تقدم قريبا، فلو وطئ ليلا أو نهارا عمدا أو خطأ استأنف، و به قال أبو حنيفة و مالك. و قال الشافعى:

---

(١). من تفسير القرطبى (١٧/ ٢٨٢)

(٢). الأعراف: ٤٣.

(٣). الصافات: ٢٣.

(٤). الزلزلة: ٥.

(٥). هود: ٣٦.

لا يستأنف إذا وطئ ليلا لأنه ليس محلا للصوم، و الأول أولى فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ يعنى صيام شهرين متتابعين فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً أى: فعليه أن يطعم ستين مسكينا، لكل مسكين مدّان، و هما نصف صاع، و به قال أبو حنيفة و أصحابه. و قال الشافعى و غيره: لكل مسكين مدّ واحد، و الظاهر من الآية أن يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحدة، أو يدفع إليهم ما يشبعهم، و لا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين فى يوم، و بعضهم فى يوم آخر، و الإشارة بقوله: ذٰلِكَ إلى ما تقدم ذكره من الأحكام، و هو مبتدأ و خبره مقدّر، أى: ذلك واقع لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ و يجوز أن يكون اسم الإشارة فى محل نصب، و التقدير: فعلنا ذلك لتؤمنوا، أى: لتصدّقوا أن اللّه أمر به و شرعه، أو لتطيعوا اللّه و رسوله فى الأوامر و النواهى، و تقفوا عند حدود الشرع و لا تتعدوها، و لا تعودوا إلى الظهار الّذى هو منكر من القول و زور، و الإشارة بقوله: وَ تِلْكَ إلى الأحكام المذكورة و

هو مبتدأ، و خبره حُدُودُ اللّٰهِ فلا تجاوزوا حدوده التى حدّها لكم، فإنه قد بيّن لكم أن الظهار معصية، و أن كفّارته المذكورة توجب العفو و المغفرة وَ لِلْكافِرِينَ الذين لا يقفون عند حدود اللّه و لا يعملون بما حدّه اللّه لعباده عَذابٌ أَلِيمٌ و هو عذاب جهنم، و سمّاه كفرا تغليظا و تشديدا.

و قد أخرج ابن ماجة و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن عائشة قالت: تبارك الّذى وسع سمعه كل شىء، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة و يخفى على بعضه، و هى تشتكى زوجها إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و هى تقول: يا رسول اللّه أكل شبابى، و نثرت له بطنى، حتى إذا كبر سنى و انقطع ولدى ظاهر منى، اللهم إنى أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات قَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّتِى تُجادِلُكَ فِى زَوْجِها و هو أوس بن الصامت. و أخرج النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال:

كان أول من ظاهر فى الإسلام أوس، و كانت تحته ابنة عم له يقال لها خولة بنت خويلد، فظاهر منها فأسقط فى يده و قال: ما أراك إلا و قد حرمت على، فانطلقى إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فاسأليه، فأتت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فأخبرته، فقال: يا خولة ما أمرنا فى أمرك بشىء، فأنزل اللّه على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال:

يا خولة أبشرى. قالت: خيرا. قال: خيرا، فقرأ عليها: قَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّتِى تُجادِلُكَ فِى زَوْجِها الآيات. و أخرج أحمد و أبو داود و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى من طريق يوسف بن عبد اللّه ابن سلام قال: «حدثتنى خولة بنت ثعلبة قالت: فىّ و اللّه و فى أوس بن الصامت أنزل اللّه صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، و كان شيخا قد ساء خلقه، فدخل علىّ يوما فراجعته بشىء، فغضب، فقال: أنت علىّ كظهر أمى، ثم رجع فجلس فى نادى قومه ساعة، ثم دخل علىّ فإذا هو يريدنى عن نفسى، قلت:

كلا و الّذى نفس خوله بيده، لا تصل إلىّ، و قد قلت ما قلت، حتى يحكم اللّه و رسوله فينا، ثم جئت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكرت ذلك له، فما برحت حتى نزل القرآن، فتغشّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما كان يغشاه ثم سرّى عنه، فقال لى: يا خولة قد أنزل اللّه فيك و فى صاحبك، ثم قرأ علىّ قَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّتِى تُجادِلُكَ إلى قوله: عَذابٌ أَلِيمٌ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: مريه فليعتق رقبة قلت: يا رسول اللّه ما عنده ما يعتق،

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۲۱

قال: فليصم شهرين متتابعين، قلت: و اللّه إنه لشيخ كبير ما به من صيام، قال: فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر، قلت: و اللّه ما ذاك عنده، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فأنا سأعينه بعرق من تمر، فقلت: و أنا يا رسول اللّه سأعينه بعرق آخر، فقال: قد أصبت و أحسنت فاذهبى فتصدقى به عنه ثم استوصى بابن عمك خيرا، قالت: ففعلت» و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن المنذر، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس فى قوله:

ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا قال: هو الرجل لامرأته: أنت على كظهر أمى، فإذا قال ذلك فليس يحلّ له أن يقربها بنكاح و لا غيره حتى يكفر بعتق رقبة فَمَنْ فإن لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا و المسّ النكاح فَمَنْ فإن لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً و إن هو قال لها: أنت على كظهر أمى إن فعلت كذا فليس يقع فى ذلك ظهار حتى يحنث، فإن حنث فلا يقربها حتى يكفّر، و لا يقع فى الظهار طلاق. و أخرج ابن المنذر عن أبى هريرة قال: ثلاث فيه مدّ: كفارة اليمين، و كفارة الظهار، و كفارة الصيام.

و أخرج البزار و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: «أتى رجل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إنى ظاهرت من امرأتى، فرأيت بياض خلخالها فى ضوء القمر، فوقعت عليها قبل أن أكفّر، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

ألم يقل اللّه: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا قال: قد فعلت يا رسول اللّه، قال: أمسك عنها حتى تكفر». و أخرج عبد الرزاق و أبو داود و الترمذى و النسائى و ابن ماجة و الحاكم و البيهقى عن ابن عباس «أن رجلا قال: يا رسول اللّه إنى ظاهرت من امرأتى فوقعت عليها قبل أن أكفّر، فقال: و ما حملك على ذلك؟ قال: رأيت خلخالها فى ضوء القمر، قال: فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك اللّه» و أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و أبو داود، و الترمذى و حسّنه، و ابن ماجة و الطبرانى و البغوى فى معجمه، و الحاكم و صحّحه، عن سلمة بن صخر الأنصارى قال: كنت رجلا قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيرى، فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتى حتى ينسلخ رمضان فرقا من أن أصيب منها فى ليلى فأتتابع فى ذلك و لا أستطيع أن أنزع حتى يدركنى الصبح، فبينما هى تخدمنى ذات ليلة إذ انكشف لى منها شيء فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومى فأخبرتهم خبرى، فقلت: انطلقوا معى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبره بأمرى، فقالوا: لا، و اللّه لا نفعل نتخوّف أن ينزل فينا القرآن، أو يقول فينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مقالة يبقى علينا عارها، و لكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك، قال: فخرجت فأتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبرته خبرى، فقال: أنت بذاك «١»؟ قلت: أنا بذاك، قال: أنت بذاك؟ قلت: أنا بذاك، قال: أنت بذاك؟ قلت: أنا بذاك و ها أنا ذا فامض فى حكم اللّه فإنى صابر لذلك، قال: أعتق رقبة، فضربت عنقى بيدى فقلت: لا و الّذى بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها، قال: فصم شهرين متتابعين، فقلت: هل أصابنى إلا فى الصيام؟ قال: فأطعم ستين مسكينا، قلت: و الّذى بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشين «٢» ما لنا عشاء، قال: اذهب إلى صاحب صدقة بنى زريق، فقل له فليدفعها إليك فأطعم عنك منها وسقا ستين مسكينا، ثم استعن بسائرها عليك و على

---

(١). «أنت بذاك»: أى أنت متلبّس بذلك الفعل؟

(٢). «وحشين»: رجل وحش، أى جائع لا طعام له.

عيالك. فرجعت إلى قومى فقلت: وجدت عندكم الضيق و سوء الرأى، و وجدت عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم السعة و البركة، أمر لى بصدقتكم فادفعوها إلى، فدفعوها إليه».

[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ٥ الى ١٠]

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَ لا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَ لا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩)
إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)

قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لما ذكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين، و المحادة: المشاقة و المعاداة و المخالفة، و مثله قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ قال الزجّاج: المحادة:

أن تكون فى حدّ يخالف صاحبك، و أصلها الممانعة، و منه الحديد، و منه الحدّاد للبوّاب كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: أذلوا و أخزوا، يقال: كبت اللّه فلانا إذا أذله، و المردود بالذل يقال له مكبوت.

قال المقاتلان: أخزوا كما أخزى الّذى من قبلهم من أهل الشرك، و كذا قال قتادة. و قال أبو عبيدة و الأخفش:

أهلكوا. و قال ابن زيد، عذبوا. و قال السدى: لعنوا. و قال الفراء: أغيظوا، و المراد بمن قبلهم: كفار الأمم الماضية المعادين لرسل اللّه، و عبّر عن المستقبل بلفظ الماضى تنبيها على تحقّق وقوعه، و قيل: المعنى: على المضى، و ذلك ما وقع للمشركين يوم بدر، فإن اللّه كبتهم بالقتل و الأسر و القهر، و جملة وَ قَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ فى محل نصب على الحال من الواو فى كبتوا، أى: و الحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حادّ اللّه و رسله من الأمم المتقدمة، و قيل: المراد الفرائض التى أنزلها اللّه سبحانه، و قيل: هى المعجزات وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ أى: للكافرين بكل ما يجب الإيمان به، فتدخل الآيات المذكورة هنا دخولا أوّليا، و العذاب المهين: الّذى يهين صاحبه و يذلّه و يذهب بعزّه يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً الظرف منتصب بإضمار اذكر، أو بمهين، أو بما تعلّق به اللام من الاستقرار، أو بأحصاه المذكور بعده، و انتصاب جميعا على الحال، أى: مجتمعين فى حالة واحدة، أو يبعثهم كلهم لا يبقى منهم أحد غير مبعوث فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أى: يخبرهم بما عملوه فى الدنيا من الأعمال القبيحة توبيخا لهم و تبكيتا و لتكميل الحجّة عليهم، و جملة أَحْصاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: كيف ينبئهم بذلك على كثرته

فتح القدير، ج‏5، ص: 223

و اختلاف أنواعه، فقيل: أحصاه اللّه جميعا و لم يفته منه شى‏ء، و الحال أنهم قد نسوه و لم يحفظوه، بل وجدوه حاضرا مكتوبا فى صحائفهم وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ لا يخفى عليه شى‏ء من الأشياء، بل هو مطّلع و ناظر. ثم أكّد سبحانه بيان كونه عالما بكل شى‏ء، فقال: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أى: ألم تعلم أن علمه محيط بما فيهما بحيث لا يخفى عليه شى‏ء مما فيهما، و جملة ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إلخ مستأنفة لتقرير شمول علمه و إحاطته بكل المعلومات. قرأ الجمهور «يكون» بالتحتية.

و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و الأعرج و أبو حيوة بالفوقية، و «كان» على القراءتين تامة، و «من» مزيدة للتأكيد، و «نجوى» فاعل كان، و النجوى: السرار، يقال: قوم نجوى، أى: ذوو نجوى، و هى مصدر.

و المعنى: ما يوجد من تناجى ثلاثة أو من ذوى نجوى، و يجوز أن تطلق النجوى على الأشخاص المتناجين؛ فعلى الوجه الأول انخفاض ثلاثة بإضافة نجوى إليه، و على الوجهين الآخرين يكون انخفاضها على البدل من نجوى أو الصفة لها. قال الفراء: ثلاثة نعت للنجوى فانخفضت، و إن شئت أضفت نجوى إليها، و لو نصبت على إضمار فعل جاز، و هى قراءة ابن أبى عبلة، و يجوز رفع ثلاثة على البدل من موضع نجوى إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ هذه الجملة فى موضع نصب على الحال، و كذا قوله: إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أى: ما يوجد شى‏ء من هذه الأشياء إلا فى حال من هذه الأحوال، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، و معنى رابعهم جاعلهم أربعة، و كذا سادسهم جاعلهم ستة من حيث إنه يشاركهم فى الاطلاع على تلك النجوى وَ لا خَمْسَةٍ أى: و لا نجوى خمسة، و تخصيص العددين بالذكر؛ لأن أغلب عادات المتناجين أن يكونوا ثلاثة أو خمسة؛ أو كانت الواقعة التى هى سبب النزول فى متناجين كانوا ثلاثة فى موضع و خمسة فى موضع.

قال الفراء: العدد غير مقصود لأنه سبحانه مع كل عدد قل أو كثر يعلم السر و الجهر، لا تخفى عليه خافية وَ لا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أى: و لا أقلّ من العدد المذكور: كالواحد، و الاثنين، و لا أكثر منه: كالستة و السبعة؛ إلا هو يعلم ما يتناجون به لا يخفى عليه من شى‏ء، قرأ الجمهور: «و لا أكثر» بالجرّ بالفتحة عطفا على لفظ نجوى. و قرأ الحسن و الأعمش و ابن إسحاق و أبو حيوة و يعقوب و أبو العالية و نصر و عيسى بن عمر و سلام بالرفع عطفا على محل نجوى. و قرأ الجمهور: «و لا

أكثر» بالمثلثة.

و قرأ الزهرى و عكرمة بالموحدة. قال الواحدى: قال المفسرون: إن المنافقين و اليهود كانوا يتناجون فيما بينهم و يوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوؤهم، فيحزنون لذلك، فلما طال ذلك و كثر شكوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك و عادوا إلى مناجاتهم، فأنزل اللّه هذه الآيات، و معنى أَيْنَ ما كانُوا إحاطة علمه بكل تناج يكون منهم فى أى مكان من الأمكنة ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ أى:

يخبرهم بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ توبيخا و تبكيتا و إلزاما للحجة إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا يخفى عليه شىء كائنا ما كان أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ هؤلاء الذين نهوا، ثم عادوا لما نهوا عنه هم من تقدم ذكره من المنافقين و اليهود. قال مقاتل: كان بين النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و بين اليهود مواعدة، فإذا مرّ بهم الرجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرّا فنهاهم اللّه فلم ينتهوا، فنزلت. و قال ابن

فتح القدير، ج‏5، ص: 224

زيد: كان الرجل يأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيسأله الحاجة و يناجيه و الأرض يومئذ حرب، فيتوهمون أنه يناجيه فى حرب أو بلية أو أمر مهمّ؛ فيفزعون لذلك وَ يَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ قرأ الجمهور:

«يتناجون» بوزن يتفاعلون، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم لقوله فيما بعد: إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا و قرأ حمزة و خلف و ورش عن يعقوب «و ينتجون» بوزن يفتعلون، و هى قراءة ابن مسعود و أصحابه، و حكى سيبويه أن تفاعلوا و افتعلوا يأتيان بمعنى واحد، نحو: تخاصموا و اختصموا، و تقاتلوا و اقتتلوا، و معنى الإثم ما هو إثم فى نفسه كالكذب و الظلم، و العدوان ما فيه عدوان على المؤمنين و معصية الرسول مخالفته. قرأ الجمهور: «و معصية» بالإفراد. و قرأ الضحاك و حميد و مجاهد «و معصيات» بالجمع. وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ قال القرطبى: إن المراد بها اليهود، كانوا يأتون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيقولون:

السام عليك، يريدون ذلك السلام ظاهرا، و هم يعنون الموت باطنا، فيقول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «عليكم». و فى رواية أخرى: «و عليكم». وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أى: فيما بينهم لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ أى: هلّا يعذّبنا بذلك، و لو كان محمد نبيا لعذبنا بما يتضمّنه قولنا من الاستخفاف به، و قيل: المعنى: لو كان نبيا لاستجيب له فينا حيث يقول: و عليكم، و وقع علينا الموت عند ذلك. حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ عذابا يَصْلَوْنَها يدخلونها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ أى: المرجع، و هو جهنم، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ لما فرغ سبحانه عن نهى اليهود و المنافقين عن النجوى؛ أرشد المؤمنين إذا تناجوا فيما بينهم أن لا يتناجوا بما فيه إثم و عدوان و معصية لرسول اللّه كما يفعله اليهود و المنافقون.

ثم بيّن لهم ما يتناجون به فى أنديتهم و خلواتهم، فقال: وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوى أى: بالطاعة و ترك المعصية، و قيل: الخطاب للمنافقين، و المعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى، و الأول أولى، ثم خوّفهم سبحانه فقال: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فيجزيكم بأعمالكم. ثم بيّن سبحانه أن ما يفعله اليهود و المنافقون من التناجى هو من جهة الشيطان، فقال: إِنَّمَا النَّجْوى يعنى بالإثم و العدوان و معصية الرسول مِنَ الشَّيْطانِ لا من غيره، أى: من تزيينه و تسويله لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا أى: لأجل أن يوقعهم فى الحزن بما يحصل لهم من التوهم أنها فى مكيدة يكادون بها وَ لَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً أو: و ليس الشيطان أو التناجى الّذى يزيّنه الشيطان بضار المؤمنين شيئا من الضرر إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أى: بمشيئته، و قيل: بعلمه وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أى: يكلون أمرهم إليه، و يفوّضونه فى جميع شؤونهم، و يستعيذون باللّه من الشيطان، و لا يبالون بما يزيّنه من النّجوى.

و قد أخرج أحمد و عبد بن حميد و البزار و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، قال السيوطى: بسند

جيد، عن ابن عمر: إن اليهود كانوا يقولون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: السام عليك، يريدون بذلك شتمه، ثم يقولون فى أنفسهم: لولا يعذّبنا اللّه بما نقول، فنزلت هذه الآية: وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ و أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخارى، و الترمذى و صحّحه، عن أنس: «أن يهوديا أتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه فقال: السام عليكم، فردّ عليه القوم، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: هل تدرون ما قال

فتح القدير، ج‏5، ص: 225

هذا؟ قالوا: اللّه أعلم، سلّم يا نبى اللّه، قال: لا، و لكنه قال كذا و كذا، ردّوه علىّ، فردّوه، قال:

قلت السام عليكم؟ قال: نعم، قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عند ذلك: إذا سلّم عليكم أحد من أهل الكتاب، فقولوا: عليك، قال: عليك ما قلت. قال: وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ . و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن عائشة قالت: «دخل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم؟ فقالت عائشة: عليكم السام و اللعنة، فقال: يا عائشة إن اللّه لا يحب الفحش و لا المفتحش، قلت: ألا تسمعهم يقولون السام؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أو ما سمعتنى أقول و عليكم؟ فأنزل اللّه:

وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ . و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى هذه الآية قال: كان المنافقون يقولون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا حيّوه: سام عليك، فنزلت. و أخرج ابن مردويه عنه قال: «كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إذا بعث سرية و أغزاها التقى المنافقون فأنغضوا رؤوسهم إلى المسلمين و يقولون: قتل القوم، و إذا رأوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تناجوا و أظهروا الحزن، فبلغ ذلك من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و من المسلمين، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ الآية». و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه». و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى سعيد قال: كنا نتناوب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، يطرقه أمر، أو يأمر بشىء، فكثر أهل النّوب و المحتسبون ليلة حتى إذا كنا أندية نتحدّث، فخرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الليل فقال: ما هذه النجوى؟ ألم تنهوا عن النجوى؟ قلنا: يا رسول اللّه إنا كنا فى ذكر المسيح فرقا منه، فقال: ألا أخبركم مما هو أخوف عليكم عندى منه؟ قلنا: بلى يا رسول اللّه. قال: الشرك الخفى أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل». قال ابن كثير: هذا إسناد غريب، و فيه بعض الضعفاء.

[سورة المجادلة (58): الآيات 11 الى 13]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (13)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ يقال: فسح له يفسح فسحا، أى:

وسع له، و منه قولهم: بلد فسيح. أمر اللّه سبحانه بحسن الأدب مع بعضهم بعضا بالتوسعة فى المجلس و عدم التضايق فيه. قال قتادة و مجاهد و الضحاك: كانوا يتنافسون فى مجلس النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض. و قال الحسن و يزيد بن أبى حبيب: هو مجلس القتال إذا اصطفوا للحرب كانوا يتشاحّون على الصف الأول، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة فى القتال لتحصيل الشهادة فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ أى: فوسّعوا

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۲۶

يوسّع اللّه لكم فى الجنة، أو فى كلّ ما تريدون التفسح فيه من المكان و الرزق و غير هما، قرأ الجمهور: «تفسّحوا فى المجلس» و قرأ السلمى و زرّ بن حبيش و عاصم فِي الْمَجالِسِ على الجمع؛ لأنّ لكلّ واحد منهم مجلسا، و قرأ قتادة و الحسن و داود بن أبى هند و عيسى بن عمر «تفاسحوا». قال الواحدى: و الوجه التوحيد فى المجلس، لأنه يعنى به مجلس النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و قال القرطبى: الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير و الأجر؛ سواء كان مجلس حرب، أو ذكر، أو يوم الجمعة، فإن كل واحد أحق بمكانه الّذى سبق إليه، و لكن يوسع لأخيه ما لم يتأذّ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه، و يؤيد هذا: حديث ابن عمر عند البخارى و مسلم و غير هما عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه»، [و عنه عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه و يجلس فيه آخر] «۱» و لكن تفسّحوا و توسّعوا».

وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا قرأ الجمهور بكسر الشين فيها، و قرأ نافع و ابن عامر و عاصم بضمّها فيهما، و هما لغتان بمعنى واحد، يقال: نشز، أى: ارتفع، ينشز و ينشز، كعكف يعكف و يعكف، و المعنى:

إذا قيل لكم انهضوا فانهضوا. قال جمهور المفسرين: أى: انهضوا إلى الصلاة و الجهاد و عمل الخير. و قال مجاهد و الضحاك و عكرمة: كان رجال يتثاقلون عن الصلاة، فقيل لهم: إذا نودى للصلاة فانهضوا. و قال الحسن: انهضوا إلى الحرب. و قال ابن زيد: هذا فى بيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال اللّه تعالى: وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فَانْشُزُوا فإن له حوائج فلا تمكثوا. و قال قتادة: المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف، و الظاهر حمل الآية على العموم؛ و المعنى:

إذا قيل لكم: انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية فانهضوا و لا تتثاقلوا و لا يمنع من حملها على العموم كون السبب خاصا، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق، و يندرج ما هو سبب النزول فيها اندراجا أوّليا، و هكذا يندرج ما فيه السياق و هو التفسيح فى المجلس اندراجا أوّليا، و قد قدّمنا أن معنى نشر ارتفع، و هكذا يقال نشز ينشز؛ إذا تنحى عن موضعه، و منه امرأة ناشز، أى: متنحية عن زوجها، و أصله مأخوذ من النشز، و هو ما ارتفع من الأرض و تنحى، ذكر معناه النحاس يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ فى الدنيا و الآخرة بتوفير نصيبهم فيهما وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ أى: و يرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات عالية فى الكرامة فى الدنيا و الثواب فى الآخرة، و معنى الآية أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات و يرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان و العلم رفعه اللّه بإيمانه درجات ثم رفعه بعلمه درجات، و قيل: المراد بالذين آمنوا من الصحابة و كذلك الذين أوتوا العلم، و قيل: المراد بالذين أوتوا العلم الذين قرءوا القرآن. و الأولى حمل الآية على العموم فى كل مؤمن و كل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملّة، و لا دليل يدلّ على تخصيص الآية بالبعض دون البعض، و فى هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم و أهله، و قد دلّ على فضله و فضلهم آيات قرآنية و أحاديث نبوية وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

---

(۱). من تفسير القرطبى (۱۷/ ۲۹۸)

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۲۷

لا يخفى عليه شى‌ء من أعمالكم من خير و شرّ، فهو مجازيكم بالخير خيرا و بالشر شرّا يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً المناجاة: المسارة، و المعنى: إذا أردتم مسارة الرسول فى أمر من أموركم فقدّموا بين يدى

مساررتكم له صدقة. قال الحسن: نزلت بسبب أن قوما من المسلمين كانوا يستخلون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يناجونه، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم فى النجوى، فشقّ عليهم ذلك، فأمرهم اللّه بالصدقة عند النجوى لتقطعهم عن استخلائه. و قال زيد بن أسلم: نزلت بسبب أن المنافقين و اليهود كانوا يناجون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و يقولون: إنه أذن يسمع كل ما قيل له، و كان لا يمنع أحدا من مناجاته، و كان ذلك يشقّ على المسلمين؛ لأنّ الشيطان كان يلقى فى أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعا اجتمعت لقتاله، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ «۱» فلم ينتهوا، فأنزل اللّه هذه الآية فانتهى أهل الباطل عن النجوى لأنهم لم يقدموا بين يدى نجواهم صدقة، و شقّ ذلك على أهل الإيمان، و امتنعوا عن النجوى، لضعف كثير منهم عن الصدقة فخّفف اللّه عنهم بالآية التى بعد هذه، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدم من تقديم الصدقة بين يدى النجوى، و هو مبتدأ و خبره خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ لما فيه من طاعة اللّه، و تقييد الأمر يكون امتثاله خيرا لهم من عدم الامتثال و أطهر لنفوسهم يدل على أنه أمر ندب لا أمر وجوب فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يعنى من كان منهم لا يجد تلك الصدقة المأمور بها بين يدى النجوى، فلا حرج عليه فى النجوى بدون صدقة أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ أى: أخفتم الفقر و العيلة لأن تقدموا ذلك، و الإشفاق: الخوف من المكروه و الاستفهام للتقرير. و قيل المعنى: أ بخلتم، و جمع الصدقات هنا باعتبار المخاطبين. قال مقاتل بن حيان: إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ. و قال الكلبى: ما كان ذلك إلا ليلة واحدة. و قال قتادة: ما كان إلا ساعة من النهار فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ما أمرتم به من الصدقة بين يدى النجوى، و هذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به و لم يفعل، و أما من لم يجد فقد تقدم الترخيص له بقوله: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَ تابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بأن رخص لكم فى الترك، «و إذ» على بابها فى الدلالة على المضى، و قيل: هى بمعنى إن، و تاب معطوف على لم تفعلوا، أى: و إذا لم تفعلوا و إذ تاب عليكم فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ و المعنى: إذا وقع منكم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدى النجوى فاثبتوا على إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و طاعة اللّه و رسوله؛ فيما تؤمرون به و تنهون عنه وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ لا يخفى عليه من ذلك شىء فهو مجازيكم، و ليس فى الآية ما يدلّ على تقصير المؤمنين فى امتثال هذا الأمر، أما الفقراء منهم فالأمر واضح، و أما من عداهم من المؤمنين فإنهم لم يكلّفوا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصدقة بل أمروا بالصدقة إذا أرادوا المناجاة، فمن ترك المناجاة فلا يكون مقصرا فى امتثال الأمر بالصدقة، على أن فى الآية ما يدل على أن الأمر للندب كما قدمنا. و قد استدل بهذه الآية من قال بأنه يجوز النسخ قبل إمكان الفعل، و ليس هذا

---

(۱). المجادلة: ۹.

الاستدلال بصحيح، فإن النسخ لم يقع إلا بعد إمكان الفعل، و أيضا قد فعل ذلك البعض، فتصدّق بين يدى نجواه كما سيأتى.
و قد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال: أنزلت هذه الآية إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ يوم جمعة و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يومئذ فى الصفّة، و فى المكان ضيق و كان يكرم أهل بدر من المهاجرين و الأنصار، فجاء ناس من أهل بدر و قد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: السلام عليك أيها النبى و رحمة اللّه و بركاته، فردّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عليهم، ثم سلّموا على القوم بعد ذلك فردّوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ما يحملهم على القيام، فلم يفسح لهم، فشقّ ذلك عليه، فقال لمن حوله من المهاجرين و الأنصار من غير أهل بدر: قم يا فلان و أنت يا فلان، فلم يزل يقيمهم بعدّة النفر الذين هم قيام من أهل بدر، فشقّ ذلك على من أقيم من مجلسه، فنزلت هذه الآية. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: ذلك فى مجلس القتال وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا قال:

إلى الخير و الصلاة. و أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى المدخل، عن ابن عباس فى قوله: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ قال: يرفع اللّه الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤمنوا درجات. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى تفسير هذه الآية قال: يرفع اللّه الذين آمنوا و أوتوا العلم على الذين آمنوا و لم يؤتوا العلم درجات. و أخرج ابن المنذر عنه قال: ما خصّ اللّه العلماء فى شىء من القرآن ما خصّهم فى هذه الآية، فضّل اللّه الذين آمنوا و أوتوا العلم على الذين آمنوا و لم يؤتوا العلم.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ الآية قال:

إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى شقّوا عليه، فأراد اللّه أن يخفف عن نبيه، فلما قال ذلك ضنّ كثير من الناس و كفوا عن المسألة؛ فأنزل اللّه بعد هذا أَ أَشْفَقْتُمْ الآية، فوسع اللّه عليهم و لم يضيق. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد، و الترمذى و حسّنه، و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و النحاس و ابن مردويه عن على بن أبى طالب قال: لما نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً قال لى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما ترى دينارا؟ قلت: لا يطيقونه. قال: فنصف دينار؟ قلت لا يطيقونه، قال: فكم؟ قلت: شعيرة، قال: إنك لزهيد، قال: فنزلت: أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ الآية، فبى خفّف اللّه عن هذه الأمة» و المراد بالشعيرة هنا وزن شعيرة من ذهب، و ليس المراد واحدة من حب الشعير. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه قال: ما عمل بها أحد غيرى حتى نسخت، و ما كانت إلا ساعة: يعنى آية النجوى. و أخرج سعيد ابن منصور و ابن راهويه و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه عنه أيضا قال: إن فى كتاب اللّه لآية ما عمل بها أحد قبلى و لا يعمل بها أحد بعدى آية النجوى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً كان عندى دينار فبعته بعشرة دراهم، فكنت كلما ناجيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قدمت بين يدى نجواى درهما، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد، فنزلت:

فتح القدير، ج‏5، ص: 229

أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ الآية. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه، قال السيوطى:

بسند ضعيف، عن سعد بن أبى وقاص قال: «نزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً فقدمت شعيرة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنك لزهيد»، فنزلت الآية الأخرى:

أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ .

[سورة المجادلة (58): الآيات 14 الى 22]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لا مِنْهُمْ وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (16) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ (18)

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ (19) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21) لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ

بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها رَضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِکَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۲۲)

قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ تَوَلَّوْا قَوْماً أی: والوهم. قال قتادة: هم المنافقون تولوا الیهود. و قال السدی و مقاتل: هم الیهود تولوا المنافقین، و یدل علی الأول قوله: غَضِبَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ* فإن المغضوب علیهم هم الیهود، و یدلّ علی الثانی قوله: ما هُمْ مِنْکُمْ وَ لا مِنْهُمْ فإن هذه صفة المنافقین، کما قال اللّه فیهم: مُذَبْذَبِینَ بَیْنَ ذلِکَ لا إِلی هؤُلاءِ وَ لا إِلی هؤُلاءِ «۱» و جملة ما هُمْ مِنْکُمْ وَ لا مِنْهُمْ فی محل نصب علی الحال، أو هی مستأنفة وَ یَحْلِفُونَ عَلَی الْکَذِبِ أی: یحلفون أنهم مسلمون، أو یحلفون أنهم ما نقلوا الأخبار إلی الیهود، و الجملة عطف علی تولوا داخلة فی حکم التعجب من فعلهم، و جملة وَ هُمْ یَعْلَمُونَ فی محل نصب علی الحال، أی: و الحال أنهم یعلمون بطلان ما حلفوا علیه، و أنه کذب لا حقیقة له أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِیداً بسبب هذا التولّی و الحلف علی الباطل إِنَّهُمْ ساءَ ما کانُوا یَعْمَلُونَ من الأعمال القبیحة اتَّخَذُوا أَیْمانَهُمْ جُنَّةً قرأ الجمهور: «أیمانهم» بفتح الهمزة، جمع یمین، و هی ما کانوا یحلفون علیه من الکذب بأنهم من المسلمین توقّیا من القتل، فجعلوا هذه الأیمان وقایة و سترة دون دمائهم، کما یجعل المقاتل الجنّة وقایة له من أن یصاب بسیف أو رمح أو سهم. و قرأ الحسن و أبو العالیة: «إیمانهم» بکسر الهمزة، أی: جعلوا تصدیقهم جنّة من القتل، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل و لم تؤمن قلوبهم فَصَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ أی: منعوا الناس عن الإسلام بسبب ما یصدر عنهم من التّثبیط، و تهوین أمر المسلمین، و تضعیف

---

(۱). النساء ۱۴۳.

شوکتهم، و قیل: المعنی: فصدّوا المسلمین عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِینٌ أی: یهینهم و یخزیهم، قیل: هو تکریر لقوله: أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِیداً للتأکید، و قیل: الأول عذاب القبر، و هذا عذاب الآخرة، و لا وجه للقول بالتکرار، فإن العذاب الموصوف بالشدة غیر العذاب الموصوف بالإهانة لَنْ تُغْنِیَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَیْئاً أی: لن تغنی عنهم من عذابه شیئا من الإغناء.

قال مقاتل: قال المنافقون: إن محمدا یزعم أنه ینصر یوم القیامة؛ لقد شقینا إذا! فو اللّه لننصرنّ یوم القیامة بأنفسنا و أموالنا و أولادنا إن کانت قیامة، فنزلت الآیة أُولئِکَ الموصوف بما ذکر أَصْحابُ النَّارِ لا یفارقونها هُمْ فِیها خالِدُونَ لا یخرجون منها یَوْمَ یَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِیعاً الظرف منصوب بقوله: مهین، أو بمقدر، أی: اذکر فَیَحْلِفُونَ لَهُ کَما یَحْلِفُونَ لَکُمْ أی: یحلفون اللّه یوم القیامة علی الکذب کما یحلفون لکم فی الدنیا، و هذا من شدة شقاوتهم و مزید الطبع علی قلوبهم، فإن یوم القیامة قد انکشفت الحقائق و صارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة، فکیف یجترءون علی أن یکذبوا فی ذلک الموقف، و یحلفون علی الکذب وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلی شَیْ‌ءٍ أی: یحسبون فی الآخرة أنهم بتلک الأیمان الکاذبة علی شی‌ء مما یجلب نفعا، أو یدفع ضررا، کما کانوا یحسبون ذلک فی الدنیا أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْکاذِبُونَ أی: الکاملون فی الکذب، المتهالکون علیه، البالغون فیه إلی حدّ لم یبلغ غیرهم إلیه؛ بإقدامهم علیه و علی الأیمان الفاجرة فی موقف القیامة بین یدی الرّحمن اسْتَحْوَذَ عَلَیْهِمُ الشَّیْطانُ أی: غلب علیهم و استعلی و استولی. قال المبرّد: استحوذ علی الشی‌ء: حواه و أحاط به، و قیل: قوی علیهم، و قیل: جمعهم، یقال: أحوذ الشی‌ء، أی: جمعه و ضمّ بعضه إلی بعض، و المعانی متقاربة؛ لأنه إذا جمعهم فقد قوی علیهم و غلبهم و استعلی علیهم و استولی و أحاط بهم فَأَنْساهُمْ ذِکْرَ اللَّهِ أی: أوامره و العمل بطاعته، فلم یذکروا شیئا من ذلک. و قیل: زواجره فی النهی عن معاصیه، و قیل: لم یذکروه بقلوبهم و لا بألسنتهم، و الإشارة بقوله: أُولئِکَ إلی المذکورین الموصوفین بتلک الصفات، و هو مبتدأ و خبره حِزْبُ

الشَّيْطانِ أى: جنوده و أتباعه و رهطه أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ أى: الكاملون فى الخسران، حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران؛ لأنهم باعوا الجنة و الهدى بالضلالة، و كذبوا على اللّه و على نبيه، و حلفوا الأيمان الفاجرة فى الدنيا و الآخرة. إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ تقدم معنى المحادّة للّه و لرسوله فى أول هذه السورة، و الجملة تعليل لما قبلها أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ أى: أولئك المحادّون للّه و رسوله، المتّصفون بتلك الصفات المتقدمة، من جملة من أذلّه اللّه من الأمم السابقة و اللاحقة؛ لأنهم لما حادّوا اللّه و رسوله صاروا من الذلّ بهذا المكان.

قال عطاء: يريد الذلّ فى الدنيا و الخزى فى الآخرة كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها مع كونهم فى الأذلين، أى: كتب فى اللوح المحفوظ، و قضى فى سابق علمه: لأغلبن أنا و رسلى بالحجّة و السيف. قال الزجّاج: معنى غلبة الرسل على نوعين: من بعث منهم بالحرب فهو غالب فى الحرب، و من بعث منهم بغير الحرب فهو غالب بالحجة. قال الفراء: كتب بمعنى قال، و قوله: «أنا» توكيد، ثم ذكر مثل قول الزجاج. إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ فهو قوى على نصر أوليائه، غالب لأعدائه، لا يغلبه أحد

فتح القدير، ج‌5، ص: 231

لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكل من يصلح له، أى: يحبون و يوالون من عادى اللّه و رسوله و شاقّهما، و جملة «يوادون» فى محل نصب على أنها المفعول الثانى لتجد إن كان متعديا إلى مفعولين، أو فى محل نصب على الحال إن كان متعديا إلى مفعول واحد، أو صفة أخرى ل «قوما»، أى: جامعون بين الإيمان و الموادة لمن حادّ اللّه و رسوله وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أى: و لو كان المحادّون للّه و رسوله آباء الموادّين إلخ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك و يمنع منه، و رعايته أقوى من رعاية الأبوّة و البنوّة و الأخوّة و العشيرة أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ يعنى الّذى لا يوادون من حاد اللّه و رسوله، و معنى كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ خلقه، و قيل:

أثبته، و قيل: جعله، و قيل: جمعه، و المعانى متقاربة وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ أى: قوّاهم بنصر منه على عدوهم فى الدنيا، و سمّى نصره لهم روحا لأن به يحيا أمرهم، و قيل: هو نور القلب. و قال الربيع بن أنس:

بالقرآن و الحجة، و قيل: بجبريل، و قيل: بالإيمان، و قيل: برحمة. قرأ الجمهور «كتب» مبنيا للفاعل و نصب الإيمان على المفعولية. و قرأ زرّ بن حبيش و المفضّل عن عاصم على البناء للمفعول و رفع الإيمان على النيابة. و قرأ زرّ بن حبيش: «عشيراتهم» بالجمع، و رويت هذه القراءة عن عاصم وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها على الأبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أى: قبل أعمالهم، و أفاض عليهم آثار رحمته العاجلة و الآجلة وَ رَضُوا عَنْهُ أى: فرحوا بما أعطاهم عاجلا و آجلا أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أى: جنده الذين يمتثلون أوامره و يقاتلون أعداءه و ينصرون أولياءه، و فى إضافتهم إلى اللّه سبحانه تشريف لهم عظيم و تكريم فخيم أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أى: الفائزون بسعادة الدنيا و الآخرة، الكاملون فى الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل، حتى كان فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم ك: لا فلاح.

و قد أخرج أحمد و البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جالسا فى ظل حجرة من حجره، و عنده نفر من المسلمين، فقال: إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعين شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلّموه، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق، فقال حين رآه: علام تشتمنى أنت و أصحابك؟ فقال: ذرنى آتيك بهم، فحلفوا و اعتذروا، فأنزل اللّه: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ الآية و التى بعدها». و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى سننه، عن عبد اللّه بن شوذب قال:

جعل والد أبی عبیدة بن الجراح یتقصّاه، لأبی عبیدة، یوم بدر، و جعل أبو عبیدة یحید عنه، فلما أکثر قصده أبو عبیدة فقتله، فنزلت: لا تَجِدُ قَوْماً یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الآیة.

فتح القدیر، ج‌۵، ص: ۲۳۲

سورة الحشر

اشارة

و هی مدنیة. قال القرطبی: فی قول الجمیع. و أخرج ابن الضریس و النحاس و ابن مردویه و البیهقی عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحشر بالمدینة. و أخرج ابن مردویه عن ابن الزبیر مثله. و أخرج البخاری و مسلم و غیر هما عن سعید بن جبیر قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: سورة النضیر؛ یعنی أنها نزلت فی بنی النضیر کما صرّح بذلک فی بعض الروایات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة الحشر (۵۹): الآیات ۱ الی ۷]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۱) هُوَ الَّذِی أَخْرَجَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ مِنْ دِیارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ یَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَیْثُ لَمْ یَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِی قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ یُخْرِبُونَ بُیُوتَهُمْ بِأَیْدِیهِمْ وَ أَیْدِی الْمُؤْمِنِینَ فَاعْتَبِرُوا یا أُولِی الْأَبْصارِ (۲) وَ لَوْ لا أَنْ کَتَبَ اللَّهُ عَلَیْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِی الدُّنْیا وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ (۳) ذلِکَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ یُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ (۴)

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِینَةٍ أَوْ تَرَکْتُمُوها قائِمَةً عَلی أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِیُخْزِیَ الْفاسِقِینَ (۵) وَ ما أَفاءَ اللَّهُ عَلی رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَیْهِ مِنْ خَیْلٍ وَ لا رِکابٍ وَ لکِنَّ اللَّهَ یُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلی مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۶) ما أَفاءَ اللَّهُ عَلی رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُری فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ کَیْ لا یَکُونَ دُولَةً بَیْنَ الْأَغْنِیاءِ مِنْکُمْ وَ ما آتاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ (۷)

قوله: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ قد تقدّم تفسیر هذا فی سورة الحدید هُوَ الَّذِی أَخْرَجَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ مِنْ دِیارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ هم بنو النضیر، و هم رهط من الیهود من ذریة هارون، نزلوا المدینة فی فتن بنی إسرائیل انتظارا منهم لمحمد صلّی اللّه علیه و سلّم، فغدروا بالنبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم بعد أن عاهدوه، و صاروا علیه مع المشرکین، فحاصرهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم حتی رضوا بالجلاء. قال الکلبی: کانوا أوّل من أجلی من أهل الذمّة من جزیرة العرب، ثم أجلی آخرهم فی زمن عمر بن الخطاب، فکان جلاؤهم أوّل حشر من المدینة، و آخر حشر إجلاء عمر لهم. و قیل: إن أوّل الحشر إخراجهم من حصونهم إلی خیبر، و آخر الحشر إخراجهم من خیبر إلی الشام. و قیل: آخر الحشر هو حشر جمیع الناس إلی أرض المحشر، و هی الشام. قال عکرمة: من شکّ أن المحشر یوم القیامة فی الشام فلیقرأ هذه الآیة، و أن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم قال لهم: اخرجوا، قالوا: إلی أین؟ قال: إلی أرض المحشر. قال ابن العربی: الحشر أوّل و أوسط

فتح القدیر، ج‌۵، ص: ۲۳۳

و آخر، فالأوّل إجلاء بنی النضیر، و الأوسط إجلاء أهل خیبر، و الآخر یوم القیامة.

و قد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين فى الآية هم بنو النضير، و لم يخالف فى ذلك إلا الحسن البصرى فقال: هم بنو قريظة، و هو غلط. فإن بنى قريظة ما حشروا، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه، فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم، و تسبى ذراريهم، و تغنم أموالهم، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لسعد: لقد حكمت بحكم اللّه من فوق سبعة أرقعة. و اللام فى «لأوّل الحشر» متعلقة ب «أخرج»، و هى لام التوقيت، كقوله:
لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا هذا خطاب للمسلمين، أى: ما ظننتم أيها المسلمون أن بنى النضير يخرجون من ديارهم لعزّتهم و منعتهم، و ذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة و عقار و نخيل واسعة، و أهل عدد و عدّة وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللّهِ أى: و ظنّ بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس اللّه، و قوله «ما نعتهم» خبر مقدّم، و «حصونهم» مبتدأ مؤخر، و الجملة خبر «أنهم»، و يجوز أن يكون «ما نعتهم» خبر «أنهم»، و «حصونهم» فاعل «ما نعتهم». و رجّح الثانى أبو حيان، و الأوّل أولى فَأَتاهُمُ اللّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا أى: أتاهم أمر اللّه من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة، و هو أنه سبحانه أمر نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بقتالهم و إجلائهم و كانوا لا يظنون ذلك، و قيل: هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف، قاله ابن جريج و السدّى و أبو صالح، فإنّ قتله أضعف شوكتهم. و قيل: إن الضمير فى «أتاهم» و «لم يحتسبوا» للمؤمنين، أى: فأتاهم نصر اللّه من حيث لم يحتسبوا، و الأوّل أولى؛ لقوله:
وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فإن قذف الرعب كان فى قلوب بنى النضير، لا فى قلوب المسلمين. قال أهل اللغة: الرعب: الخوف الّذى يرعب الصدر، أى: يملؤه، و قذفه: إثباته فيه. و قيل: كان قذف الرعب فى قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، و الأولى عدم تقييده بذلك و تفسيره به، بل المراد بالرعب الّذى قذفه اللّه فى قلوبهم هو الّذى ثبت فى الصحيح من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «نصرت بالرّعب مسيرة شهر». يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ و ذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم، فجعلوا يخربونها من داخل، و المسلمون من خارج. قال قتادة و الضحاك: كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا، و اليهود من داخل ليبنوا به ما خرّب من حصنهم. قال الزجاج: معنى تخريبها بأيدى المؤمنين أنهم عرّضوها لذلك. قرأ الجمهور: يُخْرِبُونَ بالتخفيف، و قرأ الحسن و السلمى و نصر بن عاصم و أبو العالية و أبو عمرو بالتشديد. قال أبو عمرو: إنما اخترت القراءة بالتشديد، لأن الإخراب ترك الشىء خرابا، و إنما خربوها بالهدم. و ليس ما قاله بمسلّم، فإن التخريب و الإخراب عند أهل اللغة بمعنى واحد. قال سيبويه: إن معنى فعلت و أفعلت يتعاقبان، نحو: أخبرته و خبّرته، و أفرحته و فرّحته، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد و أبو حاتم.
قال الزهرى و ابن زيد و عروة بن الزبير: لما صالحهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم على أن لهم ما أقلّت الإبل؛ كانوا يستحسنون الخشبة أو العمود فيهدمون بيوتهم، و يحملون ذلك على إبلهم، و يخرب المؤمنون باقيها. و قال الزهرى أيضا:
يخربون بيوتهم بنقض المعاهدة، و أيدى المؤمنين بالمقاتلة. و قال أبو عمرو: بأيديهم فى تركهم لها، و بأيدى المؤمنين فى إجلائهم عنها، و الجملة إما مستأنفة لبيان ما فعلوه، أو فى محل نصب على الحال فَاعْتَبِرُوا يا

فتح القدير، ج‏5، ص: 234

أُولِي الْأَبْصارِ أى: اتّعظوا و تدبروا و انظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول و البصائر. قال الواحدى: و معنى الاعتبار: النظر فى الأمور ليعرف بها شىء آخر من جنسها وَ لَوْ لا أَنْ كَتَبَ اللّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا أى: لو لا أن كتب اللّه عليهم الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه و قضى به عليهم لعذبهم بالقتل و السبى فى الدنيا كما فعل ببنى قريظة. و الجلاء: مفارقة الوطن، يقال: جلا بنفسه جلاء، و أجلاه غيره إجلاء.

و الفرق بين الجلاء و الإخراج، و إن كان معناهما فى الإبعاد واحدا، من جهتين: إحداهما: أن الجلاء ما كان مع الأهل و الولد، و

الإخراج قد يكون مع بقاء الأهل و الولد. الثانى: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، و الإخراج يكون لجماعة و لواحد، كذا قال الماوردى. وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ هذه الجملة مستأنفة، غير متعلّقة بجواب لولا، متضمنة لبيان ما يحصل لهم فى الآخرة من العذاب؛ و إن نجوا من عذاب الدنيا، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره من الجلاء فى الدنيا و العذاب فى الآخرة بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أى: بسبب المشاقة منهم للّه و لرسوله؛ بعدم الطاعة، و الميل مع الكفار، و نقض العهد وَ مَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ اقتصرها هنا على مشاقة اللّه، لأن مشاقته مشاقة لرسوله. قرأ الجمهور: يُشَاقِ بالإدغام، و قرأ طلحة بن مصرّف و محمد بن السّميقع يشاقق بالفكّ ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ قال مجاهد: إن بعض المهاجرين وقعوا فى قطع النخل فنهاهم بعضهم، و قالوا: إنما هى مغانم للمسلمين، و قال الذين قطعوا: بل هو غيظ للعدوّ، فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطع النخل و تحليل من قطعه من الإثم، فقال: ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ قال قتادة و الضحاك: إنهم قطعوا من نخيلهم و أحرقوا ست نخلات. و قال محمد بن إسحاق: قطعوا نخلة و أحرقوا نخلة، فقال بنو النضير و هم أهل كتاب: يا محمد أ لست تزعم أنك نبىّ تريد الصلاح، أ فمن الصلاح قطع النخل و حرق الشجر؟ و هل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد فى الأرض، فشقّ ذلك على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و وجد المسلمون فى أنفسهم فنزلت الآية، و معنى الآية: أىّ شىء قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن اللّه، و الضمير فى تَرَكْتُمُوها عائد إلى ما لتفسيرها باللينة، و كذا فى قوله: قائِمَةً عَلى أُصُولِها و معنى على أصولها:

أنها باقية على ما هى عليه.

و اختلف المفسرون فى تفسير اللينة، فقال الزهرى و مالك و سعيد بن جبير و عكرمة و الخليل: إنها النخل كله إلا العجوة. و قال مجاهد: إنها النخل كله، و لم يستثن عجوة و لا غيرها. و قال الثورى: هى كرام النخل.

و قال أبو عبيدة: إنها جميع أنواع التمر سوى العجوة و البرنى. و قال جعفر بن محمد: إنها العجوة خاصة، و قيل: هى ضرب من النخل، يقال لتمره: اللّون، تمره أجود التمر. و قال الأصمعى: هى الدّقل، و أصل اللينة لونة، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، و جمع اللينة: لين، و قيل: ليان. و قرأ ابن مسعود «ما قطعتم من لينة و لا تركتم قوما على أصولها» أى: قائمة على سوقها، و قرئ: «على أصلها» و قرئ: «قائما على أصوله». وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ أى: ليذلّ الخارجين عن الطاعة، و هم اليهود، و يغيظهم فى قطعها و تركها؛ لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون فى أموالهم كيف شاؤوا من القطع و الترك ازدادوا غيظا. قال الزجاج:

فتح القدير، ج‏5، ص: 235

و ليخزى الفاسقين بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا من قطع و ترك، و التقدير: و ليخزى الفاسقين أذن فى ذلك، يدل على المحذوف قوله: فَبِإِذْنِ اللَّهِ و قد استدلّ بهذه الآية على جواز الاجتهاد و على تصويب المجتهدين، و البحث مستوفى فى كتب الأصول وَ ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ أى: ما ردّه عليه من أموال الكفار، يقال: فاء يفىء إذا رجع، و الضمير فى «منهم» عائد إلى بنى النضير فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا رِكابٍ يقال: وجف الفرس و البعير يجف و جفا: و هو سرعة السير، و أوجفه صاحبه: إذا حمله على السير السريع، و منه قول تميم بن مقبل:

مذاويد بالبيض الحديث صقالهاعن الرّكب أحيانا إذا الرّكب أوجفوا

و قال نصيب:

ألا ربّ ركب قد قطعت و جيفهمإليك و لو لا أنت لم يوجف الرّكب

و ما فى فَما أَوْجَفْتُمْ نافية، و الفاء جواب الشرط إن كانت ما فى قوله: ما أَفاءَ اللَّهُ شرطية، و إن كانت موصولة فالفاء زائدة. و مِنْ فى قوله: مِنْ خَيْلٍ زائدة للتأكيد، و الركاب: ما يركب من الإبل خاصة، و المعنى: أن ما ردّ اللّه على رسوله من أموال بنى النضير

لم تركبوا لتحصيله خيلا و لا إبلا، و لا تجشّمتم لها شقة، و لا لقيتم بها حربا و لا مشقّة، و إنما كانت من المدينة على ميلين، فجعل اللّه سبحانه أموال بنى النضير لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة لهذا السبب، فإنه افتتحها صلحا و أخذ أموالها، و قد كان سأله المسلمون أن يقسم لهم فنزلت الآية وَ لكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ من أعدائه، و فى هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم دون أصحابه؛ لكونهم لم يوجفوا عليها بخيل و لا ركاب، بل مشوا إليها مشيا، و لم يقاسوا فيها شيئا من شدائد الحروب وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يسلّط من يشاء على من أراد، و يعطى من يشاء و يمنع من يشاء لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ «١» و ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى هذا بيان لمصارف الفيء بعد بيان أنه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة، و التكرير لقصد التقرير و التأكيد، و وضع أهل القرى موضع قوله: منهم أى: من بنى النضير للإشعار بأن هذا الحكم لا يختصّ ببنى النضير وحدهم، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صلحا، و لم يوجف عليها المسلمون بخيل و لا ركاب. قيل: و المراد بالقرى: بنو النضير و قريظة و فدك و خيبر. و قد تكلم أهل العلم فى هذه الآية و التى قبلها؟ هل معناهما متفق أو مختلف، فقيل: معناهما متفق كما ذكرنا، و قيل:

مختلف، و فى ذلك كلام لأهل العلم طويل. قال ابن العربى: لا إشكال أنها ثلاثة معان فى ثلاث آيات. أما الآية الأولى، و هى قوله: وَ ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فهى خاصّة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خالصة له، و هى أموال بنى النضير و ما كان مثلها. و أما الآية الثانية، و هى قوله: ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فهذا كلام مبتدأ غير الأوّل بمستحق غير الأول، و إن اشتركت هى و الأولى فى أن كل واحدة منهما تضمنت

---

(١). الأنبياء: ٢٣.

شيئا أفاءه اللّه على رسوله، و اقتضت الآية أنه حاصل بغير قتال، و اقتضت آية الأنفال، و هى الآية الثالثة، أنه حاصل بقتال، و عريت الآية الثانية، و هى قوله: ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى عن ذكر حصوله بقتال أو بغير قتال، فنشأ الخلاف من ها هنا؛ فطائفة قالت: هى ملحقة بالأولى، و هى مال الصلح، و طائفة قالت: هى ملحقة بالثالثة و هى آية الأنفال. و الذين قالوا إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا هل هى منسوخة أو محكمة، هذا معنى حاصل كلامه. و قال مالك: إن الآية الأولى من هذه السورة خاصّة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و الآية الثانية هى فى بنى قريظة، و يعنى أن معناها يعود إلى آية الأنفال. و مذهب الشافعى أن سبيل خمس الفيء سبيل خمس الغنيمة، و أن أربعة أخماسه كانت للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم و هى بعده لمصالح المسلمين فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ المراد بقوله: للّه أنه يحكم فيه بما يشاء وَ لِلرَّسُولِ يكون ملكا له وَ لِذِي الْقُرْبى و هم بنو هاشم و بنو المطلب، لأنهم قد منعوا من الصدقة، فجعل لهم حقا فى الفيء. قيل: تكون القسمة فى هذا المال على أن يكون أربعة أخماسه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و خمسه يقسم أخماسا: للرسول خمس، و لكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس، و قيل: يقسم أسداسا. السادس: سهم اللّه سبحانه، و يصرف إلى وجوه القرب؛ كعمارة المساجد و نحو ذلك كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ أى: كيلا يكون الفيء دولة بين الأغنياء دون الفقراء، و الدولة: اسم للشيء يتداوله القوم بينهم، يكون لهذا مرّة، و لهذا مرّة. قال مقاتل: المعنى أنه يغلب الأغنياء الفقراء فيقسمونه بينهم. قرأ الجمهور: يَكُونَ بالتحتية دولة بالنصب، أى: كيلا يكون الفيء دولة.

و قرأ أبو جعفر و الأعرج و هشام و أبو حيوة تكون بالفوقية دولة بالرفع، أى: كيلا تقع أو توجد دولة، و كان تامة. و قرأ الجمهور دُولَةً بضم الدال. و قرأ أبو حيوة و السّلمى بفتحها. قال عيسى بن عمر و يونس و الأصمعى: هما لغتان بمعنى واحد. و قال أبو

عمرو بن العلاء: الدّولة بالفتح الّذى يتداول من الأموال، و بالضم الفعل. و كذا قال أبو عبيدة. ثم لما بيّن لهم سبحانه مصارف هذا المال أمرهم بالاقتداء برسوله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا أى: ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه، و ما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه و لا تأخذوه. قال الحسن و السدّى: ما أعطاكم من مال الفىء فاقبلوه، و ما منعكم منه فلا تطلبوه. و قال ابن جريج: ما آتاكم من طاعتى فافعلوا، و ما نهاكم عنه من معصيتى فاجتنبوه.

و الحقّ أن هذه الآية عامة فى كل شىء يأتى به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من أمر أو نهى أو قول أو فعل، و إن كان السبب خاصا فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و كل شىء أتانا به من الشرع فقد أعطانا إياه و أوصله إلينا، و ما أنفع هذه الآية و أكثر فائدتها. ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرّسول، و ترك ما نهاهم عنه، أمرهم بتقواه، و خوفهم شدّة عقوبته، فقال: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ فهو معاقب من لم يأخذ ما آتاه الرّسول و لم يترك ما نهاه عنه.

و قد أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن عائشة قالت: كانت غزوة بنى النضير، و هم طائفة من اليهود، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، و كان منزلهم و نخلهم فى ناحية المدينة.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢٣٧

فحاصرهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى نزلوا على الجلاء، و على أن لهم ما أقلّت الإبل من الأمتعة و الأموال إلا الحلقة، يعنى السلاح، فأنزل اللّه فيهم: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ إلى قوله: لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فقاتلهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم حتى صالحهم على الإجلاء و جلاهم إلى الشام، و كانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، و كان اللّه قد كتب عليهم ذلك، و لو لا ذلك لعذّبهم فى الدنيا بالقتل و السبى، و أمّا قوله: لِأَوَّلِ الْحَشْرِ فكان إجلاؤهم ذلك أوّل حشر فى الدنيا إلى الشام. و أخرج البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس قال: «من شكّ أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ قال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يومئذ:

«اخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر». و أخرج ابن جرير و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، و ابن عساكر عن ابن عباس قال: كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، و أن يخرجهم من أرضهم و أوطانهم، و أن يسيروا إلى أذرعات الشام، و جعل لكل ثلاثة منهم بعيرا و سقاء. و فى البخارى و مسلم و غير هما عن ابن عمر: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حرق نخل بنى النضير و قطع، و هى البويرة «١»، و لها يقول حسان:

فهان على سراة بنى لؤىّحريق بالبويرة مستطير

فأنزل اللّه: ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ

و أخرج الترمذى و حسّنه، و النسائى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: اللينة النخلة وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ قال: استنزلوهم من حصونهم، و أمروا بقطع النخل، فحكّ فى صدورهم «٢»، فقال المسلمون: قد قطعنا بعضا و تركنا بعضا، فلنسألنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ و هل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل اللّه: ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ الآية، و فى الباب أحاديث، و الكلام فى صلح بنى النضير مبسوط فى كتب السير. و أخرج البخارىّ و مسلم و غير هما عن عمر بن الخطاب قال: كانت أموال بنى النضير مما أفاء اللّه على رسوله، و ممّا لم يوجف المسلمون عليه بخيل و لا ركاب، و كانت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقى فى السلاح و الكراع عدّة فى سبيل اللّه.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا رِكابٍ فجعل ما أصاب رسوله اللّه يحكم فيه ما أراد، و لم يكن يومئذ خيل و لا ركاب يوجف بها. قال: و الإيجاف: أن يوضعوا السير، و هى لرسول اللّه، فكان من ذلك خيبر و فدك و قرى عرينة «٣». و أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يعمد لينبع،

(١). هى مكان بين المدينة و تيماء، من جهة مسجد قباء إلى جهة الغرب.

(٢). حكّ الشيء فى النفس: إذا لم يكن الإنسان منشرح الصّدر به، و كان فى قلبه منه شيء من الشك و الريب، و أوهم أنه ذنب و خطيئة.

(٣). فى الدر المنثور (٨/ ١٠٠): عربية.

فأتاها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فاحتواها كلها، فقال ناس: هلّا قسمها اللّه، فأنزل اللّه عذره فقال: ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى الآية. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: كان ما أفاء اللّه على رسوله من خيبر نصف للّه و رسوله، و النصف الآخر للمسلمين، فكان الّذى للّه و رسوله من ذلك الكثيبة و الوطيح و سلالم و وخدة، و كان الّذى للمسلمين الشقّ، و الشقّ ثلاثة عشر سهما، و نطاة «١» خمسة أسهم، و لم يقسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من خيبر لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية. و لم يأذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأحد من المسلمين تخلّف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهد معه خيبر إلا جابر بن عبد اللّه بن عمرو بن حرام الأنصارىّ.

و أخرج أبو داود و ابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صفايا «٢» فى النضير و خيبر و فدك؛ فأما بنو النضير فكانت حبسا لنوائبه، و أما فدك فكانت لابن السبيل، و أما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء:

قسم منها جزءين بين المسلمين، و حبس جزءا لنفسه و لنفقة أهله، فما فضل عن نفقة أهله ردها على فقراء المهاجرين. و أخرج عبد الرزاق و ابن سعد و ابن أبى شيبة، و ابن زنجويه فى الأموال، و عبد بن حميد و ابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال: ما على وجه الأرض مسلم إلا و له فى هذا الفيء حقّ إلا ما ملكت أيمانكم.

و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن ابن مسعود قال: «لعن اللّه الواشمات و المستوشمات و المتنمصات و المتفلجات للحسن المغيرات لخلق اللّه» فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أمّ يعقوب، فجاءت ابن مسعود، فقالت: بلغنى أنك لعنت كيت و كيت، قال: و ما لى لا ألعن من لعن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو فى كتاب اللّه؟

قالت: لقد قرأت الدّفتين فما وجدت فيه شيئا من هذا، قال: لئن كنت قرأته لقد وجدته، أما قرأت وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه».

[سورة الحشر (٥٩): الآيات ٨ الى ١٠]

لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٠)

قوله: لِلْفُقَراءِ قيل: هو بدل من لِذِي الْقُرْبى و ما عطف عليه، و لا يصحّ أن يكون بدلا من الرسول و ما بعده؛ لئلا يستلزم وصف

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالفقر، و قيل: التقدير كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً و لكن يكون للفقراء، و قيل: التقدير: اعجبوا للفقراء، و قيل: التقدير: و اللّه شديد العقاب للفقراء، أى:

(١). «النّطاة»: علم لخيبر، أو حصن بها.

(٢). «الصفايا»: جمع صفى، و هو ما يصطفيه صلّى اللّه عليه و سلّم من عرض الغنيمة من شىء قبل أن يخمس: عبد أو جارية أو فرس أو سيف أو غيرها- و كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مخصوصا بذلك مع الخمس الّذى كان له خاصة.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٣٩

شديد العقاب للكفار بسبب الفقراء، و قيل: هو عطف على ما مضى بتقدير الواو، كما تقول: المال لزيد لعمرو لبكر، و المراد ب الْمُهاجِرِينَ الذين هاجروا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رغبة فى الدين و نصرة له. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار و الأموال و الأهلين، و معنى أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ أن كفار مكة أخرجوهم منها و اضطروهم إلى الخروج، و كانوا مائة رجل يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً أى: يطلبون منه أن يتفضّل عليهم بالرزق فى الدنيا، و بالرضوان فى الآخرة وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ بالجهاد للكفار، و هذه الجملة معطوفة على «يبتغون»، و محل الجملتين النصب على الحال، الأولى مقارنة، و الثانية مقدّرة، أى: ناوين لذلك، و يجوز أن تكون حالا مقارنة لأن خروجهم على تلك الصفة نصرة للّه و رسوله، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إليهم من حيث اتصافهم بتلك الصفات، و هو مبتدأ و خبره هُمُ الصَّادِقُونَ أى: الكاملون فى الصدق، الراسخون فيه. ثم لما فرغ من مدح المهاجرين مدح الأنصار فقال:

وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ المراد بالدار المدينة، و هى دار الهجرة، و معنى تبوّئهم الدار و الإيمان أنهم اتخذوها مباءة، أى: تمكّنوا منهما تمكّنا شديدا، و التبوّء فى الأصل إنما يكون للمكان، و لكنه جعل الإيمان مثله لتمكنهم فيه تنزيلا للحال منزلة المحل، و قيل: إن الإيمان منصوب بفعل غير الفعل المذكور، و التقدير: و اعتقدوا الإيمان، أو و أخلصوا الإيمان، كذا قال أبو على الفارسى. و يجوز أن يكون على حذف مضاف، أى: تبوّءوا مضمّنا لمعنى لزموا، و التقدير: لزموا الدار و الإيمان. و معنى «من قبلهم»: من قبل هجرة المهاجرين، فلا بدّ من تقدير مضاف؛ لأن الأنصار إنما آمنوا بعد إيمان المهاجرين، و الموصول مبتدأ و خبره يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ و ذلك لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين و أشركوهم فى أموالهم و مساكنهم وَ لا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً أى: لا يجد الأنصار فى صدورهم حسدا و غيظا و حزازة مِمَّا أُوتُوا أى:

ممّا أوتى المهاجرون دونهم من الفىء، بل طابت أنفسهم بذلك، و فى الكلام مضاف محذوف، أى: لا يجدون فى صدورهم مسّ حاجة أو أثر حاجة، و كلّ ما يجده الإنسان فى صدره مما يحتاج إليه فهو حاجة. و كان المهاجرون فى دور الأنصار، فلما غنم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بنى النضير دعا الأنصار و شكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من إنزالهم إياهم فى منازلهم، و إشراكهم فى أموالهم، ثم قال: «إن أحببتم قسمت ما أفاء اللّه علىّ من بنى النضير بينكم و بين المهاجرين» و كان المهاجرون على ما هم عليه من السّكنى فى مساكنكم و المشاركة لكم فى أموالكم، و إن أحببتم أعطيتهم ذلك و خرجوا من دياركم، فرضوا بقسمة ذلك فى المهاجرين و طابت أنفسهم وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ الإيثار: تقديم الغير على النفس فى حظوظ الدنيا رغبة فى حظوظ الآخرة، يقال: آثرته بكذا، أى: خصصته به، و المعنى: و يقدّمون المهاجرين على أنفسهم فى حظوظ الدنيا وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ أى: حاجة و فقر، و الخصاصة مأخوذة من خصاص البيت، و هى الفرج التى تكون فيه، و جملة «و لو كان بهم خصاصة» فى محل نصب على الحال؛ و قيل: إن الخصاصة مأخوذة من الاختصاص، و هو الانفراد بالأمر، فالخصاصة: الانفراد بالحاجة، و منه قول الشاعر:

أمّا الرّبيع إذا تكون خصاصۀعاش السقيم به و أثرى المقتر

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۴۰

وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قرأ الجمهور: يُوقَ بسكون الواو و تخفيف القاف من الوقاية. و قرأ ابن أبى عبلة و أبو حيوة بفتح الواو و تشديد القاف. و قرأ الجمهور: شُحَّ نَفْسِهِ بضم الشين. و قرأ ابن عمر و ابن أبى عبلة بكسرها. و الشحّ: البخل مع حرص، كذا فى الصحاح، و قيل:

الشحّ أشدّ من البخل. قال مقاتل: شحّ نفسه: حرص نفسه. قال سعيد بن جبير: شحّ النفس هو أخذ الحرام و منع الزكاة. قال ابن زيد: من لم يأخذ شيئا نهاه اللّه عنه، و لم يمنع شيئا أمره اللّه بأدائه، فقد وقى شحّ نفسه. قال طاوس: البخيل: أن يبخل الإنسان بما فى يده، و الشحّ: أن يشحّ بما فى أيدى الناس، يحبّ أن يكون له ما فى أيديهم بالحلال و الحرام، لا يقنع. و قال ابن عيينة: الشحّ: الظلم. و قال الليث:

ترك الفرائض و انتهاك المحارم. و الظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شحّ النفس بشىء من الأشياء التى يقبح الشحّ بها شرعا من زكاة أو صدقة أو صلة رحم أو نحو ذلك، كما تفيده إضافة الشحّ إلى النفس. و الإشارة بقوله: فَأُولئِكَ إلى مِنْ باعتبار معناها، و هو مبتدأ و خبره هُمُ الْمُفْلِحُونَ و الفلاح: الفوز و الظفر بكل مطلوب. ثم لما فرغ سبحانه من الثناء على المهاجرين و الأنصار، ذكر ما ينبغى أن يقوله من جاء بعدهم، فقال: وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ و هم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة، و قيل: هم الذين هاجروا بعد ما قوى الإسلام، و الظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم فى عصر النبوّة، و من تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوّة إلى يوم القيامة؛ لأنه يصدق على الكلّ أنهم جاءوا بعد المهاجرين الأوّلين و الأنصار، و الموصول مبتدأ و خبره: يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ و يجوز أن يكون الموصول معطوفا على قوله: وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ فيكون «يقولون» فى محل نصب على الحال، أو مستأنف لا محل له، و المراد بالأخوة هنا أخوة الدّين، أمرهم اللّه أن يستغفروا لأنفسهم و لمن تقدّمهم من المهاجرين و الأنصار وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا أى:

غشّا و بغضا و حسدا. أمرهم اللّه سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين و الأنصار أن يطلبوا من اللّه سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغلّ للذين آمنوا على الإطلاق، فيدخل فى ذلك الصحابة دخولا أوّليا لكونهم أشرف المؤمنين، و لكون السياق فيهم، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم و يطلب رضوان اللّه لهم فقد خالف ما أمره اللّه به فى هذه الآية، فإن وجد فى قلبه غلا لهم فقد أصابه نزغ من الشيطان، و حلّ به نصيب وافر من عصيان اللّه؛ بعداوة أوليائه و خير أمة نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم، و انفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم؛ إن لم يتدارك نفسه باللجوء إلى اللّه سبحانه و الاستغاثة به؛ بأن ينزع عن قلبه ما طرقه من الغلّ لخير القرون و أشرف هذه الأمة، فإن جاوز ما يجده من الغلّ إلى شتم أحد منهم، فقد انقاد للشيطان بزمام و وقع فى غضب اللّه و سخطه، و هذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلى بمعلّم من الرافضة، أو صاحب من أعداء خير الأمة؛ الذين تلاعب بهم الشيطان، و زيّن لهم الأكاذيب المختلفة و الأقاصيص المفتراة و الخرافات الموضوعة، و صرفهم عن كتاب اللّه الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و عن سنّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المنقولة إلينا بروايات الأئمة الأكابر فى كل عصر من العصور، فاشتروا الضلالة بالهدى، و استبدلوا الخسران العظيم بالربح الوافر، و ما

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۴۱

زال الشيطان الرجيم ينقلهم من منزلة إلى منزلة، و من رتبة إلى رتبة، حتى صاروا أعداء كتاب اللّه، و سنّة رسوله، و خير أمته، و صالحى عباده، و سائر المؤمنين، و أهملوا فرائض اللّه، و هجروا شعائر الدين، وسعوا فى كيد الإسلام و أهله كل السعى، و رموا

الدين و أهله بكلّ حجر و مدر، و اللّه من ورائهم محيط رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ أى: كثير الرأفة و الرحمة، بلّغهما لمن يستحق ذلك من عبادك.

و قد أخرج البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال: أوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأوّلين أن يعرف لهم حقهم، و يحفظ لهم حرمتهم، و أوصيه بالأنصار الذين تبوءوا الدار و الإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم و يتجاوز من مسيئهم. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أبى هريرة قال: أتى رجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال:

يا رسول اللّه؟ أصابنى الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهنّ شيئا فقال: ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمه اللّه، فقال رجل من الأنصار، و فى رواية فقال أبو طلحة الأنصارى: أنا يا رسول اللّه، فذهب به إلى أهله، فقال لامرأته: أكرمى ضيف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لا تدّخريه شيئا، قالت: و اللّه ما عندى إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوّميهم و تعالى فأطفئى السراج؛ و نطوى بطوننا الليل لضيف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ففعلت، ثم غدا الضيف على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «لقد عجب اللّه الليلة من فلان و فلانة»، و أنزل فيهما:

وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ. و أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عمر قال: أهدى إلى رجل من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رأس شاة فقال: إن أخى فلانا و عياله أحوج إلى هذا منّا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأوّل، فنزلت فيهم وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ. و أخرج الفريابى و سعيد ابن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود أن رجلا قال: إنى أخاف أن أكون قد هلكت، قال:

و ما ذاك؟ قال: إنى سمعت اللّه يقول: وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ و أنا رجل شحيح لا يكاد يخرج منى شىء، فقال له ابن مسعود: ليس ذاك بالشحّ، و لكنه البخل، و لا خير فى البخل. و إن الشحّ الّذى ذكره اللّه فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلما. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال: ليس الشحّ أن يمنع الرجل ماله، و لكنه البخل و إنه لشرّ، إنما الشحّ أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له. و أخرج ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال: من أدّى زكاة ماله فقد و قى شحّ نفسه. و أخرج الحكيم الترمذى و أبو يعلى و ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما محق الإسلام محق الشحّ شىء قط». و أخرج أحمد، و البخارى فى الأدب، و مسلم و البيهقى عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، و اتقوا الشحّ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، و استحلّوا محارمهم». و قد وردت أحاديث كثيرة فى ذمّ الشحّ.

و أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال: الناس على ثلاث منازل، قد مضت منزلتان و بقيت منزلة، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت، ثم قرأ:

فتح القدير، ج‌5، ص: 242

وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ الآية. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و ابن مردويه عن عائشة قالت: أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فسبّوهم، ثم قرأت هذه الآية وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سمع رجلا و هو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه: لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الآية، ثم قال: هؤلاء المهاجرون أ فمنهم أنت؟ قال: لا، ثم قرأ عليه:

وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ الآية. ثم قال: هؤلاء الأنصار أ فأنت منهم؟ قال: لا، ثم قرأ عليه:

وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ الآية، ثم قال: أ فمن هؤلاء أنت؟ قال: أرجو، قال: ليس من هؤلاء من سبّ هؤلاء.

[سورة الحشر (۵۹): الآيات ۱۱ الى ۲۰]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۱۱) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (۱۲) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (۱۳) لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (۱۴) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۵)

كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (۱۶) فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (۱۷) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۸) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۱۹) لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (۲۰)

لما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاث من المؤمنين، ذكر ما جرى بين المنافقين و اليهود من المقاولة لتعجيب المؤمنين من حالهم، فقال: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا و الخطاب لرسول اللّه، أو لكلّ من يصلح له، و الذين نافقوا هم: عبد اللّه بن أبيّ و أصحابه، و جملة: يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مستأنفة لبيان المتعجب منه، و التعبير بالمضارع لاستحضار الصورة، أو للدلالة على الاستمرار، و جعلهم إخوانا لهم لكون الكفر قد جمعهم، و إن اختلف نوع كفرهم فهم إخوان فى الكفر، و اللام فى «لإخوانهم» هى لام التبليغ، و قيل: هو من قول بنى النضير لبنى قريظة، و الأوّل أولى؛ لأن بنى النضير و بنى قريظة هم يهود، و المنافقون غيرهم، و اللام فى قوله: لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ هى الموطئة للقسم، أى:

و اللّه لئن أخرجتم من دياركم لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ هذا جواب القسم، أى: لنخرجن من ديارنا فى صحبتكم وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أى: فى شأنكم، و من أجلكم أَحَداً ممّن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم و إن طال الزمان، و هو معنى قوله: أَبَداً. ثم لما و عدوهم بالخروج معهم و عدوهم بالنصرة لهم، فقالوا:

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۲۴۳

وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ على عدوّكم. ثم كذّبهم سبحانه فقال: وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما و عدوهم به من الخروج معهم و النصرة لهم. ثم لمّا أجمل كذبهم فيما و عدوا به فصّل ما كذبوا فيه فقال:

لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ و قد كان الأمر كذلك، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود و هم بنو النضير و من معهم، و لم ينصروا من قوتل من اليهود و هم بنو قريظة و أهل خيبر وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ أى: لو قدّر وجود نصرهم إياهم؛ لأن ما نفاه اللّه لا يجوز وجوده، قال الزجاج:

معناه لو قصدوا نصر اليهود لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ منهزمين ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ يعنى اليهود لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم، و هم المنافقون، و قيل: يعنى لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك، بل يذلّهم اللّه، و لا ينفعهم نفاقهم، و قيل: معنى الآية: لا ينصرونهم طائعين، و لئن نصروهم مكرهين ليولنّ الأدبار، و قيل:

معنى «لا ينصرونهم»: لا يدومون على نصرهم، و الأوّل أولى، و يكون من باب قوله: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ «۱» لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ أى: لأنتم يا معاشر المسلمين أشدّ خوفا و خشية فى صدور المنافقين، أو صدور اليهود، أو صدور

الجميع من اللّه، أى: من رهبة اللّه، و الرهبة هنا بمعنى المرهوبية، لأنها مصدر من المبنى للمفعول، و انتصابها على التميز ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ أى:

ما ذكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم لشىء من الأشياء، و لو كان لهم فقه لعلموا أن اللّه سبحانه هو الّذى سلطكم عليهم، فهو أحقّ بالرهبة منه دونكم، ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم و ضعف نكايتهم، فقال:

لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً يعنى لا يبرز اليهود و المنافقون مجتمعين لقتالكم، و لا يقدرون على ذلك إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ بالدروب و الدور، أو من وراء جدر، أى: من خلف الحيطان التى يستترون بها لجبنهم و رهبتهم. قرأ الجمهور جُدُرٍ بالجمع، و قرأ ابن عباس و مجاهد و ابن محيصن و ابن كثير و أبو عمرو جدار بالإفراد. و اختار القراءة الأولى أبو عبيد و أبو حاتم لأنها موافقة لقوله «قرى محصنة». و قرأ بعض المكّيين جُدُرٍ بفتح الجيم و إسكان الدال، و هى لغة فى الجدار. بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ أى:

بعضهم غليظ فظّ على بعض، و قلوبهم مختلفة، و نباتهم متباينة. قال السدّى: المراد اختلاف قلوبهم حيث لا يتفقون على أمر واحد. و قال مجاهد: بأسهم بينهم شديد بالكلام و الوعيد: ليفعلن كذا، و المعنى: أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم إلى الشدّة و البأس، و إذا لاقوا عدوّا ذلّوا و خضعوا و انهزموا، و قيل: المعنى أن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد، و إنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف اللّه فى قلوبهم من الرعب، و الأوّل أولى لقوله:

تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى فإنه يدلّ على أن اجتماعهم إنما هو فى الظاهر مع تخالف قلوبهم فى الباطن، و هذا التخالف هو البأس الّذى بينهم الموصوف بالشدّة، و معنى شتّى: متفرّقة، قال مجاهد: يعنى اليهود و المنافقين تحسبهم جميعا و قلوبهم شتّى. و روى عنه أيضا أنه قال: المراد المنافقون. و قال الثورى: هم المشركون و أهل الكتاب. قال قتادة: «تحسبهم جميعا» أى: مجتمعين على أمر و رأى، و قلوبهم شتى متفرقة، فأهل

---

(۱). الأنعام: ۲۸.

الباطن مختلفة آراؤهم، مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، و هم مجتمعون فى عداوة أهل الحقّ. و قرأ ابن مسعود: «و قلوبهم أشتّ» أى: أشدّ اختلافا ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ أى: ذلك الاختلاف و التشتّت بسبب أنهم قوم لا يعقلون شيئا، و لو عقلوا لعرفوا الحقّ و اتبعوه كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى:

مثلهم كمثل الذين من قبلهم، و المعنى: أن مثل المنافقين و اليهود كمثل الذين من قبلهم من كفار المشركين قَرِيباً يعنى فى زمان قريب، و انتصاب قريبا على الظرفية، أى: يشبهونهم فى زمن قريب، و قيل: العامل فيه ذاقوا، أى: ذاقوا فى زمن قريب، و معنى ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ أى: سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا بقتلهم يوم بدر، و كان ذلك قبل غزوة بنى النضير بستة أشهر، قاله مجاهد و غيره، و قيل: المراد بنو النضير حيث أمكن اللّه منهم، قاله قتادة. و قيل: قتل بنى قريظة، قاله الضحاك. و قيل: هو عامّ فى كل من انتقم اللّه منه بسبب كفره، و الأوّل أولى وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أى: فى الآخرة. ثم ضرب لليهود و المنافقين مثلا آخر فقال: كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ أى: مثلهم فى تخاذلهم و عدم تناصرهم، فهو إما خبر مبتدأ محذوف، أو خبر آخر للمبتدأ المقدّر قبل قوله: كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ على تقدير حذف حرف العطف، كما تقول: أنت عاقل، أنت عالم، أنت كريم. و قيل: المثل الأوّل خاص باليهود، و الثانى خاص بالمنافقين، و قيل: المثل الثانى بيان للمثل الأوّل. ثم بيّن سبحانه وجه الشبه فقال: إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ أى: أغراه بالكفر، و زيّنه له، و حمله عليه، و المراد بالإنسان هنا جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان، و قيل: هو عابد كان فى بنى إسرائيل حمله الشيطان على الكفر فأطاعه فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ أى: فلما كفر

الإنسان مطاوعة للشيطان، و قبولا لتزيينه، قال الشيطان: إنى بريء منك. و هذا يكون منه يوم القيامة. و جملة إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ تعليل لبراءته من الإنسان بعد كفره، و قيل:

المراد بالإنسان هنا أبو جهل، و الأوّل أولى. قال مجاهد: المراد بالإنسان هنا جميع الناس فى غرور الشيطان إياهم، قيل: و ليس قول الشيطان إِنِّي أَخافُ اللَّهَ على حقيقته، إنما هو على وجه التبرّى من الإنسان، فهو تأكيد لقوله: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ قرأ الجمهور: إِنِّي بإسكان الياء. و قرأ نافع و ابن كثير و أبو عمرو بفتحها فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ قرأ الجمهور: عاقِبَتَهُما بالنصب على أنه خبر كان، و اسمها «أنهما فى النار». و قرأ الحسن و عمرو بن عبيد بالرفع على أنها اسم كان، و الخبر ما بعده؛ و المعنى:

فكان عاقبة الشيطان و ذلك الإنسان الّذى كفر أنهما صائران إلى النار خالِدَيْنِ فِيها قرأ الجمهور خالِدَيْنِ بالنصب على الحال، و قرأ ابن مسعود و الأعمش و زيد بن علىّ و ابن أبى عبلة «خالدان» على أنه خبر أنّ و الظرف متعلق به وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ أى: الخلود فى النار جزاء الظالمين، و يدخل هؤلاء فيهم دخولا أوليا. ثم رجع سبحانه إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ أى: اتّقوا عقابه بفعل ما أمركم به و ترك ما نهاكم عنه وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ أى: لتنظر أىّ شيء قدّمت من الأعمال ليوم القيامة، و العرب تكنى عن المستقبل بالغد، و قيل: ذكر الغد تنبيها على قرب الساعة وَ اتَّقُوا اللَّهَ كرّر الأمر بالتقوى للتأكيد إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ لا تخفى عليه من

فتح القدير، ج‏5، ص: 245

ذلك خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير، و إن شرّا فشرّ وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ أى:

تركوا أمره، أو ما قدروه حقّ قدره، أو لم يخافوه، أو جميع ذلك فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أى: جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له، فلم يشتغلوا بالأعمال التى تنجيهم من العذاب، و لم يكفّوا عن المعاصى التى توقعهم فيه، ففى الكلام مضاف محذوف، أى: أنساهم حظوظ أنفسهم. قال سفيان: نسوا حقّ اللّه فأنساهم حق أنفسهم، و قيل: نسوا للّه فى الرخاء فأنساهم أنفسهم فى الشدائد أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ أى: الكاملون فى الخروج عن طاعة اللّه لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ فى الفضل و الرتبة، و المراد الفريقان على العموم، فيدخل فى فريق أهل النار من نسى اللّه منهم دخولا أوّليا، و يدخل فى فريق أهل الجنة الذين اتقوا دخولا أوّليا لأن السياق فيهم، و قد تقدم الكلام فى معنى مثل هذه الآية فى سورة المائدة، و فى سورة السجدة، و فى سورة ص. ثم أخبر سبحانه و تعالى عن أصحاب الجنة بعد نفى التساوى بينهم و بين أهل النار فقال:

أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ أى: الظافرون بكلّ مطلوب، الناجون من كلّ مكروه.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا قال: عبد اللّه بن أبىّ ابن سلول، و رفاعة بن تابوت، و عبد اللّه بن نبتل، و أوس بن قيظى، و إخوانهم بنو النضير. و أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر، و أبو نعيم فى الدلائل، عنه: أن رهطا من بنى عوف بن الحارث منهم عبد اللّه بن أبىّ ابن سلول، و وديعة بن مالك، و سويد و داعس بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا و تمنعوا فإننا لا نسلمكم، و إن قوتلتم قاتلنا معكم، و إن أخرجتم خرجنا معكم، فتربّصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، و قذف اللّه فى قلوبهم الرعب، فسألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجليهم و يكفّ عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة «1»، فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر، و منهم من سار إلى الشام.

و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى قال: هم المشركون. و أخرج عبد الرزاق و ابن راهويه، و أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد، و البخارى فى تاريخه، و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن علىّ بن أبى طالب أن رجلا كان يتعبد فى صومعة، و أن امرأة كان لها إخوة، فعرض لها شيء فأتوه بها فزينت له نفسه فوقع عليها فحملت، فجاءه الشيطان فقال:

اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت فقتلها و دفنها، فجاؤوه فأخذوه فذهبوا به، فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال: إنى أنا الّذى زينت لك فاسجد لى سجدة أنجيك، فسجد له، فذلك قوله: كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ الآية. قلت: و هذا لا يدلّ على أن هذا الإنسان هو المقصود بالآية، بل يدلّ على أنه من جملة من تصدق عليه. و قد أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس بأطول من هذا، و ليس فيه ما يدلّ على أنه المقصود بالآية. و أخرجوه بنحوه ابن جرير عن ابن مسعود. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود

---

(١). «الحلقة»: السلاح، و قيل: الدروع خاصة.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢۴۶

فى قوله: كَمَثَلِ الشَّيْطانِ قال: ضرب اللّه مثل الكفار و المنافقين الذين كانوا على عهد النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر.

[سورة الحشر (۵٩): الآيات ٢١ الى ٢۴]

لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢۴)

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة و أهل النار، و بيّن عدم استوائهم فى شى‌ء من الأشياء، ذكر تعظيم كتابه الكريم، و أخبر عن جلالته، و أنه حقيق بأن تخشع له القلوب، و ترقّ له الأفئدة، فقال: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ أى: من شأنه، و عظمته، وجودة ألفاظه، و قوّة مبانيه، و بلاغته، و اشتماله على المواعظ التى تلين لها القلوب؛ أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة فى الأرض لرأيته مع كونه فى غاية القسوة و شدّة الصلابة و ضخامة الجرم خاشعا متصدعا، أى: متشققا من خشية اللّه سبحانه؛ حذرا من عقابه، و خوفا من أن لا يؤدى ما يجب عليه من تعظيم كلام اللّه، و هذا تمثيل و تخييل يقتضى علوّ شأن القرآن و قوّة تأثيره فى القلوب، و يدلّ على هذا قوله: وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ و ينزجروا بالزواجر، و فيه توبيخ و تقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن، و لا اتعظوا بمواعظه، و لا انزجروا بزواجره، و الخاشع: الذليل المتواضع.

و قيل: الخطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت و لتصدّع من نزوله عليه، و قد أنزلناه عليك و ثبتناك له و قوّيناك عليه، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم؛ لأن اللّه سبحانه ثبّته لما لا تثبت له الجبال الرواسى. ثم أخبر سبحانه بربوبيته و عظمته، فقال: هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ و فى هذا تقرير للتوحيد و دفع للشرك عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أى: عالم ما غاب من الإحساس و ما حضر، و قيل: عالم السرّ و العلانية، و قيل: ما كان و ما يكون، و قيل: الآخرة و الدنيا، و قدّم الغيب على الشهادة لكونه متقدّما وجودا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ قد تقدّم تفسير هذين الاسمين هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كرّره للتأكيد و التقرير لكون التوحيد حقيقا بذلك الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ أى: الطاهر من كل عيب، المنزّه عن كل نقص، و القدس: بالتحريك فى لغة أهل الحجاز السّطل؛ لأنه يتطهر به، و منه القادوس لواحد الأوانى التى يستخرج بها الماء. قرأ الجمهور: الْقُدُّوسُ بضم القاف. و قرأ أبو ذرّ و أبو السّمّال بفتحها، و كان سيبويه يقول: سبوح قدّوس بفتح أوّلهما، و حكى أبو

حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائى أعرابيا فصيحا يقرأ: الْقُدُّوسُ بفتح القاف. قال ثعلب: كل اسم على فعول فهو مفتوح الأوّل إلا السبوح و القدّوس،

فتح القدير، ج‏5، ص: 247

فإن الضم فيهما أكثر، و قد يفتحان. السَّلامُ أى: الّذى سلم من كل نقص و عيب، و قيل: المسلّم على عباده فى الجنة، كما قال: سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ «1» و قيل: الّذى سلم الخلق من ظلمه، و به قال الأكثر، و قيل: المسلم لعباده، و هو مصدر وصف به للمبالغة. الْمُؤْمِنُ أى: الّذى وهب لعباده الأمن من عذابه، و قيل: المصدّق لرسله بإظهار المعجزات، و قيل: المصدّق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، و المصدق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب، يقال: أمنه من الأمن و هو ضدّ الخوف، و منه قول النابغة:

و المؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكّة بين الغيل و السّند «2»

و قال مجاهد: المؤمن الّذى وحّد نفسه بقوله: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ. قرأ الجمهور:

الْمُؤْمِنُ بكسر الميم اسم فاعل من آمن بمعنى أمن. و قرأ أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بفتحها بمعنى المؤمن به على الحذف كقوله: وَ اخْتارَ مُوسى‏ قَوْمَهُ «3» و قال أبو حاتم: لا تجوز هذه القراءة لأن معناه أنه كان خائفا فأمنه غيره. الْمُهَيْمِنُ أى: الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم. كذا قال مجاهد و قتادة و مقاتل: يقال: همين يهيمن فهو مهيمن؛ إذا كان رقيبا على الشى‏ء. قال الواحدى: و ذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن، فيكون بمعنى المؤمن، و الأوّل أولى، و قد قدّمنا الكلام على المهيمن فى سورة المائدة، الْعَزِيزُ الّذى لا يوجد له نظير، و قيل: القاهر، و قيل: الغالب غير المغلوب، و قيل: القوىّ، الْجَبَّارُ جبروت اللّه: عظمته، و العرب تسمّى الملك الجبار، و يجوز أن يكون من جبر:

إذا أغنى الفقير، و أصلح الكسير، و يجوز أن يكون من جبره على كذا إذا أكرهه على ما أراد، فهو الّذى جبر خلقه على ما أراد منهم، و به قال السدّى و مقاتل، و اختاره الزجاج و الفراء، قال: هو من أجبره على الأمر، أى: قهره. قال: و لم أسمع فعّالا من أفعل إلا فى جبّار من أجبر، و درّاك من أدرك، و قيل: الجبار الّذى لا تطاق سطوته. الْمُتَكَبِّرُ أى: الّذى تكبّر عن كل نقص، و تعظّم عمّا لا يليق به، و أصل التكبر الامتناع و عدم الانقياد، و منه قول حميد بن ثور:

عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت بها كبرياء الصّعب و هى ذلول

و الكبر فى صفات اللّه مدح، و فى صفات المخلوقين ذمّ. قال قتادة: هو الّذى تكبر عن كل سوء. قال ابن الأنبارى: المتكبر: ذو الكبرياء، و هو الملك، ثم نزّه سبحانه نفسه عن شرك المشركين، فقال:

---

(1). يس: 58.

(2). «العائذات»: ما عاذ بالبيت من الطير.

«الغيل»: الشجر الكثيف الملتف.

«السند»: ما قابلك من الجبل و علا عن السفح.

(3). الأعراف: 155.

فتح القدير، ج‏5، ص: 248

سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: عمّا يشركونه أو عن إشراكهم به هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ أى: المقدّر للأشياء على مقتضى إرادته و مشيئته الْبارِئُ أى: المنشئ، المخترع للأشياء، الموجد لها. و قيل: المميّز لبعضها من بعض.

الْمُصَوِّرُ أی: الموجد للصور، المركّب لها علی هيئات مختلفة، فالتصوير مترتب علی الخلق و البراية و تابع لهما، و معنی التصوير التخطيط و التشكيل، قال النابغة:

الخالق البارئ المصوّر فی الأرحام ماء حتّی يصير دما

و قرأ حاطب بن أبی بلتعة الصحابی: «المصوّر» بفتح الواو و نصب الراء علی أنه مفعول له للبارئ، أی: الّذی برأ المصوّر، أی: ميّزه. لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنی قد تقدّم بيانها و الكلام فيها عند تفسير قوله:

وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنی فَادْعُوهُ بِها «۱» يُسَبِّحُ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أی: ينطق بتنزيهه بلسان الحال، أو المقال كل ما فيهما وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أی: الغالب لغيره الّذی لا يغالبه مغالب، الحكيم فی كل الأمور التی يقضی بها.

و قد أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس، فی قوله: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلی جَبَلٍ قال:

يقول لو أنی أنزلت هذا القرآن علی جبل، حمّلته إياه، تصدّع و خشع من ثقله و من خشية اللّه، فأمر اللّه الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة و التخشّع. قال: وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ و أخرج الديلمی عن ابن مسعود و علیّ مرفوعا فی قوله: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلی جَبَلٍ إلی آخر السورة قال: هی رقية الصداع. رواه الديلمی بإسنادين لا ندری كيف حال رجالهما.

و أخرج الخطيب فی تاريخه، بإسناده إلی إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرأت علی خلف، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدک علی رأسک، فإنی قرأت علی حمزة، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدک علی رأسک، فإنی قرأت علی الأعمش ثم ساق الإسناد مسلسلا هكذا إلی ابن مسعود فقال: فإنی قرأت علی النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم، فلما بلغت هذه الآية قال لی: «ضع يدک علی رأسک، فإن جبريل لما نزل بها قال لی: ضع يدک علی رأسک، فإنها شفاء من كل داء إلا السام، و السام الموت». قال الذهبی: هو باطل. و أخرجه ابن السنی فی عمل اليوم و الليلة، و ابن مردويه عن أنس أن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم أمر رجلا إذا آوی إلی فراشه أن يقرأ آخر سور الحشر و قال: «إن متّ متّ شهيدا». و أخرج ابن مردويه عن أبی أمامة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم: «من تعوّذ باللّه من الشيطان ثلاث مرات، ثم قرأ آخر سورة الحشر بعث اللّه سبعين ملكا يطردون عنه شياطين الإنس و الجنّ، إن كان ليلا حتی يصبح، و إن كان نهارا حتی يمسی» و أخرج أحمد و الدارمی، و الترمذی و حسّنه، و الطبرانی و ابن الضريس، و البيهقی فی الشعب، عن معقل بن يسار عن النبی صلّی اللّه عليه و سلّم قال:

«من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر، و كلّ اللّه به سبعين ألف ملک يصلّون عليه حتی يمسی، و إن مات ذلک اليوم مات

---

(۱). الأعراف: ۱۸۰.

شهيدا، و من قالها حين يمسی كان بتلک المنزلة». قال الترمذی بعد إخراجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. و أخرج ابن عدی و ابن مردويه و الخطيب، و البيهقی فی الشعب، عن أبی أمامة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم: «من قرأ خواتيم الحشر فی ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته أوجب اللّه له الجنة». و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ قال: السرّ و العلانية. و فی قوله:

الْمُؤْمِنُ قال: المؤمّن خلقه من أن يظلمهم، و فی قوله: الْمُهَيْمِنُ قال: الشاهد.

سورة الممتحنة

اشارة

و هى مدنية، قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الممتحنة بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و الممتحنة، بكسر الحاء، اسم فاعل أضيف الفعل إليها مجازا؛ كما سميت سورة براءة الفاضحة؛ لكشفها عن عيوب المنافقين، و قيل: الممتحنة بفتح الحاء اسم مفعول أضافه إلى المرأة التى نزلت فيها، و هى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، لقوله سبحانه: فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ «١».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ١ الى ٣]

فتح القدير ج‌٥ ٢٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَ ما أَعْلَنْتُمْ وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)

قال المفسرون: نزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ فى حاطب بن أبى بلتعة؛ حين كتب إلى مشركى قريش يخبرهم بمسير النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إليهم، و سيأتى ذكر القصة آخر البحث إن شاء اللّه، و قوله: عَدُوِّي هو المفعول الأوّل وَ عَدُوَّكُمْ معطوف عليه، و المفعول الثانى «أولياء»، و أضاف سبحانه العدوّ إلى نفسه تعظيما لجرمهم، و العدوّ مصدر يطلق على الواحد و الاثنين و الجماعة، و الآية تدلّ على النهى عن موالاة الكفار بوجه من الوجوه. تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ أى: توصلون إليهم المودّة، على أن الباء زائدة، أو هى سببية. و المعنى: تلقون إليهم أخبار النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بسبب المودّة التى بينكم و بينهم.

قال الزجاج: تلقون إليهم أخبار النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و سرّه بالمودّة التى بينكم و بينهم، و الجملة فى محل نصب على الحال من ضمير «تتخذوا»، و يجوز أن تكون مستأنفة لقصد الإخبار بما تضمنته أو لتفسير موالاتهم إياهم، و يجوز أن تكون فى محل نصب صفة لأولياء، و جملة: وَ قَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِ فى محل نصب على الحال من فاعل تلقون، أو من فاعل «لا تتخذوا»، و يجوز أن تكون مستأنفة لبيان حال الكفار. قرأ الجمهور:

بِما جاءَكُمْ بالباء الموحدة. و قرأ الجحدرى و عاصم فى رواية عنه: لما جاءكم باللام، أى: لأجل

---

(١). الممتحنة: ١٠.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٥١

ما جاءكم من الحق على حذف المكفور به، أي: كفروا باللّه و الرسول لأجل ما جاءكم من الحق، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سببا للكفر توبيخا لهم يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ الجملة مستأنفة لبيان كفرهم، أو فى محل نصب على الحال، و قوله: أَنْ

تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ تعليل للإخراج، أى: يخرجونكم لأجل إيمانكم، أو كراهة أن تؤمنوا إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِى سَبِيلِى وَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِى جواب الشرط محذوف:

إن كنتم كذلك فلا تلقوا إليهم بالمودّة، أو إن كنتم كذلك فلا تتخذوا عدوّى و عدوّكم أولياء، و انتصاب جهادا و ابتغاء على العلة: أى إن كنتم خرجتم لأجل الجهاد فى سبيلى و لأجل ابتغاء مرضاتى، و جملة: تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ مستأنفة للتقريع و التوبيخ، أى: تسرّون إليهم الأخبار بسبب المودّة، و قيل: هى بدل من قوله:

«تلقون». ثم أخبر بأنه لا يخفى عليه من أحوالهم شىء، فقال: وَ أَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَ ما أَعْلَنْتُمْ و الجملة فى محل نصب على الحال، أى: بما أضمرتم و ما أظهرتم، و الباء فى «بما» زائدة. يقال: علمت كذا و علمت بكذا، هذا على أن «أعلم» مضارع، و قيل: هو أفعل تفضيل، أى: أعلم من كل أحد بما تخفون و ما تعلنون وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ أى: من يفعل ذلك الاتّخاذ لعدوّى و عدوّكم أولياء، و يلقى إليهم بالمودّة، فقد أخطأ طريق الحق و الصواب، و ضلّ عن قصد السبيل إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً أى: إن يلقوكم و يصادفوكم يظهروا لكم ما فى قلوبهم من العداوة، و منه المثاقفة: و هى طلب مصادفة الغرّة فى المسايفة، و قيل: المعنى: إن يظفروا بكم و يتمكّنوا منكم، و المعنيان متقاربان وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ أى: يبسطوا إليكم أيديهم بالضرب و نحوه، و ألسنتهم بالشتم و نحوه وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ هذا معطوف على جواب الشرط، أو على جملة الشرط و الجزاء، و رجّح هذا أبو حيان. و المعنى:

أنهم تمنّوا ارتدادهم و ودّوا رجوعهم إلى الكفر «١» لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ أى: لا تنفعكم القرابات على عمومها و لا الأولاد، و خصّهم بالذّكر مع دخولهم فى الأرحام لمزيد المحبة لهم و الحنوّ عليهم، و المعنى: أن هؤلاء لا ينفعونكم حين توالوا الكفار لأجلهم؛ كما وقع فى قصة حاطب بن أبى بلتعة، بل الّذى ينفعكم هو ما أمركم اللّه به من معاداة الكفار و ترك موالاتهم. و جملة يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام و الأولاد فى ذلك اليوم، و معنى يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ يفرّق بينكم، فيدخل أهل طاعته الجنة، و أهل معصيته النار. و قيل: المراد بالفصل بينهم أنه يفرّ كلّ منهم من الآخر من شدّة الهول، كما فى قوله: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ «٢» الآية. قيل: و يجوز أن يتعلق يوم القيامة بما قبله، أى: لن تنفعكم أرحامكم و لا أولادكم يوم القيامة فيوقف عليه، و يبتدأ بقوله: يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ و الأولى أن يتعلق بما بعده كما ذكرنا وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا يخفى عليه شىء من أقوالكم و أفعالكم، فهو مجازيكم على ذلك.

قرأ الجمهور: يَفْصِلُ بضم الياء و تخفيف الفاء و فتح الصاد مبنيا للمفعول، و اختار هذه القراءة أبو عبيد.

---

(١). المقصود أن الكافرين تمنوا ارتداد المؤمنين عن الحق و رجوعهم إلى الكفر.

(٢). عبس: ٣٤.

و قرأ عاصم بفتح الياء و كسر الصاد مبنيا للفاعل. و قرأ حمزة و الكسائى بضم الياء و فتح الفاء و كسر الصاد مشدّدة. و قرأ علقمة بالنون. و قرأ قتادة و أبو حيوة بضم الياء و كسر الصاد مخففة.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن علىّ بن أبى طالب قال: «بعثنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنا و الزبير و المقداد، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ «١» فإن بها ظعينة «٢» معها كتاب فخذوه منها فأتونى به، فخرجنا حتى أتينا الرّوضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجى الكتاب، قالت: ما معى من كتاب، فقلنا: لتخرجنّ الكتاب أو لتلقينّ الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فإذا فيه: من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين

بمكة يخبرهم ببعض أمر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم:

ما هـذا يا حاطب؟ قال: لا تعجل علىّ يا رسول اللّه، إنى كنت امرأ ملصـقا فى قريش و لم أكن من أنفسـها، و كان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم و أموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يدا يحمون بها قرابتى، و ما فعلت ذلك كفرا و لا ارتدادا عن دينى، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم:

صـدق، فقال عمر: دعنى أضـرب عنقه، فقال: إنه شـهد بدرا، و ما يدريك لعل اللّه اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شـئتم فقد غفرت لكم. و نزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ. و فى الباب أحاديث مسندة و مرسلة متضمّنة لبيان هذه القصة، و أن هذه الآيات إلى قوله: قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ «۳» نازلة فى ذلك.

[سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۴ الى ۹]

قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ (۴) رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۵) لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۶) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷) لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (۸)

إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۹)

لما فرغ سبحانه من النهى عن موالاة المشركين، و الذمّ لمن وقع منه ذلك، ضرب لهم إبراهيم مثلا حين

---

(۱). «روضة خاخ»: موضع بين مكة و المدينة، على اثنى عشر ميلا من المدينة.

(۲). «الظعينة»: هى المرأة فى الهودج.

(۳). الممتحنة: ۴.

تبرّأ من قومه، فقال: قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، أى: خصـلة حميـدة تقتـدون بها، يقال: لى به أسوة فى هـذا الأمر، أى: اقتـداء، فأرشـدهم سبحانه إلى الاقتـداء به فى ذلـك إلا فى اسـتغفاره لأبيه. قرأ الجمهور إسوة بكسـر الهمزة، و قرأ عاصم بضـمها و هما لغتان، و أصل الأسوة بالضم و الكسر: القدوة، و يقال:

هو أسوتـك، أى: مثلـك و أنت مثله، و قوله: «فى إبراهيم و الـذين معه» متعلّق بأسوة، أو بحسـنة، أو هو نعت لأسوة، أو حال من الضـمير المستتر فى «حسـنة»، أو خبر كان، «و لكم» للبيان، «و الـذين معه» هم أصـحابه المؤمنون. و قال ابن زيد: هم الأنبياء. قال الفرّاء: يقول أفلاـ تأسيت يـا حـاطب بـإبراهيم، فتتبرأ من أهلـك كمـا تبرأ إبراهيم من أبيه و قومه؟! و الظرف فى قوله: إِذْ قـالُوا لِقَوْمِهِمْ هو خبر كان، أو متعلّق به، أى: وقت قولهم لقومهم الكفار إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ جمع برىء، مثل: شـركاء و شـريك، و ظرفاء و ظريف. قرأ الجمهور: بُرَآؤُا بضم الباء و فتح الراء و ألف بين همزتين، ككرماء فى كريم. و قرأ عيسى ابن عمر و ابن أبى إسحاق بكسـر الباء و همزة واحـدة بعـد ألف، ككرام فى جمع كريم. و قرأ أبو جعفر بضم الباء و همزة بعـد ألف وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ

اللّهِ و هى الأصنام كَفَرْنا بِكُمْ أى: بما آمنتم به من الأوثان، أو بدينكم، أو بأفعالكم وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً أى: هذا دأبنا معكم ما دمتم على كفركم حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ و تتركوا ما أنتم عليه من الشرك، فإذا فعلتم ذلك صارت تلك العداوة موالاة و البغضاء محبة إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ هو استثناء متصل من قوله «فِي إِبْراهِيمَ» بتقدير مضاف محذوف ليصح الاستثناء، أى: قد كانت لكم أسوة حسنة فى مقالات إبراهيم إلا قوله لأبيه، أو من «أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»، و صحّ ذلك لأن القول من جملة الأسوة، كأنه قيل: قد كانت أسوة حسنة فى إبراهيم فى جميع أقواله و أفعاله إلا قوله لأبيه، أو من التبرى و القطيعة التى ذكرت، أى: لم يواصله إلا قوله، ذكر هذا ابن عطية، أو هو منقطع، أى: لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك، فلا تأتسوا به، فتستغفرون للمشركين، فإنه كان عن موعدة وعدها إياه، أو أن ذلك إنما وقع منه لأنه ظنّ أنه قد أسلم، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ و قد تقدّم تحقيق هذا فى سورة براءة وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ هذا من تمام القول المستثنى، يعنى ما أغنى عنك، و ما أدفع عنك، من عذاب اللّه شيئا، و الجملة فى محل نصب على الحال من فاعل «لَأَسْتَغْفِرَنَّ»، فالاستثناء متوجّه إلى الاستغفار لا إلى هذا القيد، فإنه إظهار للعجز و تفويض للأمر إلى اللّه، و ذلك من خصال الخير. رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ هذا من دعاء إبراهيم و أصحابه و ممّا فيه أسوة حسنة يقتدى به فيها، و قيل: هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القول، و التوكل: هو تفويض الأمور إلى اللّه، و الإنابة: الرجوع، و المصير: المرجع، و تقديم الجارّ و المجرور لقصر التوكل و الإنابة و المصير على اللّه رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا قال الزجاج: لا تظهرهم علينا فيظنّوا أنهم على حقّ؛ فيفتنوا بذلك. و قال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم و لا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حقّ ما أصابهم هذا وَ اغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ أى: الغالب الّذى لا يغالب الْحَكِيمُ ذو الحكمة البالغة لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ أى: لقد كان لكم فى إبراهيم و الذين معه قدوة حسنة،

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۵۴

و كرّر هذا للمبالغة و التأكيد، و قيل: إن هذا نزل بعد الأوّل بمدّة لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ بدل من قوله «لكم» بدل بعض من كلّ، و المعنى: أن هذه الأسوة إنما تكون لمن يخاف اللّه و يخاف عقاب الآخرة، أو يطمع فى الخير من اللّه فى الدنيا و فى الآخرة وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ أى:

يعرض عن ذلك، فإن اللّه هو الغنىّ عن خلقه، الحميد إلى أوليائه عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً و ذلك بأن يسلموا فيصيروا من أهل دينكم، و قد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة، و حسن إسلامهم، و وقعت بينهم و بين من تقدّمهم فى الإسلام مودّة، و جاهدوا، و فعلوا الأفعال المقرّبة إلى اللّه، و قيل:

المراد بالمودّة هنا تزويج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بأمّ حبيبة بنت أبى سفيان. و لا وجه لهذا التخصيص، و إن كان من جملة ما صار سببا إلى المودّة، فإن أبا سفيان بعد ذلك ترك ما كان عليه من العداوة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و لكنها لم تحصل المودّة إلا بإسلامه يوم الفتح و ما بعده، وَ اللَّهُ قَدِيرٌ أى: بليغ القدرة كثيرها، وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: بليغهما، كثيرهما. ثم لما ذكر سبحانه ما ينبغى للمؤمنين من معاداة الكفار و ترك موادّتهم فصّل القول فيمن يجوز برّه منهم و من لا يجوز، فقال: لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أى: لا ينهاكم عن هؤلاء أَنْ تَبَرُّوهُمْ هذا بدل من الموصول بدل اشتمال، و كذا قوله: وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ يقال: أقسطت إلى الرجل؛ إذا عاملته بالعدل. قال الزجاج:

المعنى: و تعدلوا فيما بينكم و بينهم من الوفاء بالعهد إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ أى: العادلين؛ و معنى الآية: أن اللّه سبحانه لا ينهى عن برّ أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، و على أن لا يظاهروا الكفّار عليهم، و لا ينهى عن معاملتهم بالعدل. قال ابن زيد: كان هذا فى أوّل الإسلام عند الموادعة و ترك الأمر بالقتال، ثم نسخ. قال قتادة: نسختها: فَاقْتُلُوا

الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «١» و قيل:
هذا الحكم كان ثابتا فى الصلح بين النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و بين قريش، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم. و قيل: هى خاصة فى حلفاء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و من بينه و بينه عهد، قاله الحسن. و قال الكلبى: هم خزاعة و بنو الحارث ابن عبد مناف. و قال مجاهد: هى خاصة فى الذين آمنوا و لم يهاجروا، و قيل: هى خاصة بالنساء و الصبيان.
و حكى القرطبى عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة. ثم بيّن سبحانه من لا يحلّ برّه و لا العدل فى معاملته فقال:
إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ و هم صناديد الكفر من قريش وَ ظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أى: عاونوا الذين قاتلوكم على ذلك، و هم سائر أهل مكة من دخل معهم فى عهدهم، و قوله: أَنْ تَوَلَّوْهُمْ بدل اشتمال من الموصول كما سلف وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ أى: الكاملون فى الظلم؛ لأنهم تولوا من يستحق العداوة لكونه عدوّا للّه و لرسوله و لكتابه، و جعلوهم أولياء لهم.
و قد أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ قال: نهوا أن يتأسوا

---

(١). التوبة: ٥.

باستغفار إبراهيم لأبيه، و قوله: رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لا تعذبنا بأيديهم، و لا بعذاب من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحقّ ما أصابهم هذا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عنه لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ قال: فى صنيع إبراهيم كله إلا فى الاستغفار لأبيه، و هو مشرك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا قال: لا تسلّطهم علينا فيفتنونا. و أخرج ابن مردويه عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرّحمن عن أبى هريرة قال: أوّل من قاتل أهل الردّة على إقامة دين اللّه أبو سفيان بن حرب، و فيه نزلت هذه الآية: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً. و أخرج ابن أبى حاتم عن الزهرى: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن، فلما قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أقبل فلقى ذا الخمار مرتدّا، فكان أوّل من قاتل فى الردّة و جاهد عن الدّين. قال: و هو فيمن قال اللّه فيه: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن عدىّ و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، و ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى الآية قال: كانت المودة التى جعل بينهم تزويج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أمّ حبيبة بنت أبى سفيان، فصارت أمّ المؤمنين، فصار معاوية خال المؤمنين. و فى صحيح مسلم عن ابن عباس أن أبا سفيان قال: «يا رسول اللّه ثلاث أعطنيهن، قال: نعم، قال: تؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين، قال: نعم، قال: و معاوية تجعله كاتبا بين يديك، قال: نعم، قال:
و عندى أحسن العرب و أجمله أمّ حبيبة بنت أبى سفيان أزوّجكها» الحديث. و أخرج الطيالسى و أحمد و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و النحاس فى ناسخه، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير قال: قدمت قتيلة بنت عبد العزّى على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا: ضباب و أقط «١» و سمن و هى مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها، أو تدخلها بيتها؛ حتى أرسلت إلى عائشة أن سلى عن هذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسألته، فأنزل اللّه: لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ الآية، فأمرها أن تقبل هديتها و تدخلها بيتها. و زاد ابن أبى حاتم: فى المدّة التى كانت بين قريش و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و فى البخارى و غيره عن أسماء بنت أبى بكر قالت: «أتتنى أمى راغبة و هى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فسألت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: أ أصلها؟ فأنزل اللّه: لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ

الآية: فقال: نعم صلى أمك».

---

(١). «ضباب»: جمع ضبّة، و هى جلد الضّبّ يدبغ ليوضع فيه السّمن.

«أقط»: لبن مجفف يابس متحجّر يطبخ به.

فتح القدير، ج۵، ص: ٢۵۶

[سورة الممتحنة (۶٠): الآيات ١٠ الى ١٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَ آتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَ سْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَ لْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَ إِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَ لا يَسْرِقْنَ وَ لا يَزْنِينَ وَ لا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ (١٣)

لما ذكر سبحانه حكم فريقى الكافرين فى جواز البرّ و الإقساط للفريق الأوّل دون الفريق الثانى؛ ذكر حكم من يظهر الإيمان، فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ من بين الكفار، و ذلك أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم لما صالح قريشا يوم الحديبية على أن يردّ عليهم من جاءهم من المسلمين، فلما هاجر إليه النساء أبى اللّه أن يرددن إلى المشركين، و أمر بامتحانهنّ فقال: فَامْتَحِنُوهُنَّ أى: فاختبروهنّ. و قد اختلف فيما كان يمتحنّ به، فقيل: كنّ يستحلفن باللّه ما خرجن من بغض زوج، و لا رغبة من أرض إلى أرض، و لا لالتماس دنيا، بل حبا للّه و لرسوله و رغبة فى دينه، فإذا حلفت كذلك أعطى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم زوجها مهرها، و ما أنفق عليها، و لم يردّها إليه. و قيل: الامتحان هو أن تشهد أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول اللّه، و قيل:

ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الآية، و هى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ إلى آخرها.

و اختلف أهل العلم هل دخل النساء فى عهد الهدنة أم لا؟ على قولين، فعلى القول بالدخول: تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد، و به قال الأكثر. و على القول بعدمه: لا نسخ و لا تخصيص، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ هذه الجملة معترضة لبيان أن حقيقة حالهنّ لا يعلمها إلا اللّه سبحانه، و لم يتعبّدكم بذلك، و إنما تعبّدكم بامتحانهنّ حتى يظهر لكم ما يدلّ على صدق دعواهنّ فى الرغوب فى الإسلام فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ أى: علمتم ذلك بحسب الظاهر بعد الامتحان الّذى أمرتم به فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ أى:

إلى أزواجهنّ الكافرين، و جملة لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ تعليل للنهى عن إرجاعهنّ. و فيه دليل على أن المؤمنة لا تحلّ لكافر، و أن إسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها، لا مجرّد هجرتها، و التكرير لتأكيد الحرمة، أو الأوّل: لبيان زوال النكاح، و الثانى: لامتناع النكاح الجديد وَ آتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا أى: و أعطوا أزواج هؤلاء اللاتى هاجرون و أسلمن مثل ما أنفقوا عليهنّ من المهور. قال الشافعى: و إذا طلبها غير الزوج من قراباتها منع منها بلا عوض وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ لأنهنّ قد صرن من أهل دينكم إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ أى: مهورهنّ، و ذلك بعد انقضاء عدتهن كما تدل عليه أدلة وجوب العدة، وَ لا تُمْسِكُوا

بِعِصَمِ الْكَوافِرِ قرأ الجمهور تُمْسِكَوا بالتخفيف من الإمساك، و اختار هـذه القراءة أبو عبيد، لقوله: فَأَمْسِكَوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ* «۱» و قرأ الحسن و أبو العالية و أبو عمرو بالتشديد من التمسّك،

---

(۱). البقرة: ۲۳۱ و الطلاق: ۲.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۵۷

و العصم: جمع عصمة، و هى مـا يعتصم به، و المراد هنـا عصـمة عقـد النكـاح، و المعنى أنّ من كـانت له امرأة كافرة فليست له بامرأة لانقطاع عصـمتها باختلاف الدّين. قال النخعى: هى المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر، و كان الكفار يتزوجون المسلمات، و المسلمون يتزوجون المشركات، ثم نسخ ذلك بهذه الآية، و هذا خاصّ بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب. و قيل: عامة فى جميع الكوافر مخصّصة بإخراج الكتابيات منها. و قد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم و ثنى أو كتابىّ لا يفرق بينهمـا إلاـ بعد انقضاء العدّة. و قـال بعض أهـل العلم: يفرق بينهما بمجرّد إسلام الزوج، و هـذا إنما هو إذا كانت المرأة مدخولا بها، و أما إذا كانت غير مدخول بها فلا خلاف بين أهل العلم فى انقطاع العصمة بينهما بالإسلام إذ لا عدة عليها وَ سْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ أى: اطلبوا مهور نسائكم اللاحقات بالكفار وَ لْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدّة إلى الكفـار من أهـل العهـد يقـال للكفار: هاتوا مهرها، و يقال للمسلمين إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين و أسلمت: ردّوا مهرها على زوجها الكافر ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ أى: ذلكم المذكور من إرجاع المهور من الجهتين حكم اللّه، و قوله: يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فى محل نصب على الحال. أو مستأنفة وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ أى: بليغ العلم لاـ تخفى عليه خافيـة، بليغ الحكمـة فى أقواله و أفعاله. قال القرطبى: و كـان هـذا مخصوصا بـذلك الزمان فى تلك النازلـة خاصّـة بإجماع المسلمين وَ إِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ لما نزلت الآية المتقدّمة قال المسلمون: رضينا بحكم اللّه و كتبوا إلى المشركين فامتنعوا، فنزل قوله: وَ إِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ مما دفعتم إليهم من مهور النساء المسلمات، و قيل: المعنى: و إن انفلت منكم أحد من نسائكم إلى الكفار بأن ارتـدت المسلمة فَعاقَبْتُمْ قال الواحـدى: قال المفسـرون: فعاقبتم فغنمتم. قال الزجاج: تأويله: و كانت العقبى لكم، أى: كانت الغنيمـة لكم حتى غنمتم فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ مـا أَنْفَقُوا من مهر المهـاجرة التى تزوّجوهـا و دفعوه إلى الكفـار، و لا تؤتوه زوجهـا الكـافر. قال قتادة و مجاهـد: إنما أمروا أن يعطوا الـذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفىء و الغنيمـة، و هـذه الآيـة منسوخـة قـد انقطع حكمها بعد الفتح. و حاصل معناها أن مِنْ أَزْواجِكُمْ يجوز أن يتعلّق بفاتكم، أى: من جهة أزواجكم، و يراد بالشـىء المهر الّذى غرمه الزوج، و يجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صـفة لشـىء. ثم يجوز فى شـىء أن يراد به المهر، و لكن لا بـدّ على هذا من مضاف محذوف، أى: من مهر أزواجكم ليتطابق الموصوف و صـفته، و يجوز أن يراد بشـىء النساء: أىّ نوع و صـنف منهنّ، و هو ظـاهر قوله: مِنْ أَزْواجِكُمْ و قوله: فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ و المعنى: أنهم يعطون من ذهبت زوجته إلى المشـركين فكفرت، و لم يردّ عليه المشركون مهرها، كما حكم اللّه مثل ذلك المهر الّذى أنفقه عليها من الغنيمة وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ أى: احـذروا أن تتعرّضوا لشـىء ممّا يوجب العقوبة عليكم، فإن الإيمان الّذى أنتم متصـفون به يوجب على صاحبه ذلك يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ أى: قاصـدات لمبايعتك على الإسـلام، و عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً من الأشياء كائنا ما كان، هذا كان يوم فتح مكة، فإن نساء أهل مكة أتين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يبايعنه، فأمره اللّه

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۵۸

أن يأخذ عليهنّ أن لا يشـركن وَ لا يَسْرِقْنَ وَ لا يَزْنِينَ وَ لا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَ و هو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَ أى: لا يلحقن بأزواجهنّ ولدا ليس منهم.

قال الفراء: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدى منك، فذلك البهتان المفترى بين أيديهنّ و أرجلهنّ، و ذلك أن الولد إذا وضعته الأمّ سقط بين يديها و رجليها، و ليس المراد هنا أنها تنسب ولدها من الزنا إلى زوجها، لأن ذلك قد دخل تحت النهى عن الزنا وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ أى: فى كل أمر هو طاعة للّه. قال عطاء: فى كل برّ و تقوى، و قال المقاتلان: عنى بالمعروف النهى عن النوح، و تمزيق الثياب، و جزّ الشعر، و شقّ الجيب، و خمش الوجوه، و الدعاء بالويل، و كذا قال قتادة و سعيد بن المسيب و محمد ابن السائب و زيد بن أسلم، و معنى القرآن أوسع مما قالوه. قيل: و وجه التقييد بالمعروف، مع كونه صلّى اللّه عليه و سلّم لا يأمر إلا به التنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق فَبايِعْهُنَ هذا جواب إذا، و المعنى: إذا بايعنك على هذه الأمور فبايعهنّ، و لم يذكر فى بيعتهن الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج؛ لوضوح كون هذه الأمور و نحوها من أركان الدين و شعائر الإسلام. و إنما خصّ الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ أى: اطلب من اللّه المغفرة لهنّ بعد هذه المبايعة لهنّ منك إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: بليغ المغفرة و الرحمة لعباده يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هم جميع طوائف الكفر، و قيل: اليهود خاصة، و قيل: المنافقون خاصة. و قال الحسن: اليهود و النصارى. و الأوّل أولى؛ لأن جميع طوائف الكفر تتّصف بأن اللّه سبحانه غضب عليها قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ «من» لابتداء الغاية، أى: إنهم لا يوقنون بالآخرة البتة بسبب كفرهم كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ أى: كيأسهم من بعث موتاهم لاعتقادهم عدم البعث، و قيل: كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من الآخرة؛ لأنهم قد وقفوا على الحقيقة، و علموا أنه لا نصيب لهم فى الآخرة، فتكون مِنَ على الوجه الأوّل ابتدائية، و على الثانى بيانية، و الأوّل أولى.

و قد أخرج البخارى عن المسور بن مخرمة و مروان بن الحكم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ حتى بلغ: وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ فطلّق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك. و أخرجه أيضا من حديثهما بأطول من هذا، و فيه و كانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ممّن خرج إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و هى عاتق «1»، فجاء أهلها يسألون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يرجعها إليهم حتى أنزل اللّه فى المؤمنات ما أنزل. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَامْتَحِنُوهُنَ قال: كان امتحانهنّ أن يشهدن أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا عبده و رسوله، فإذا علموا أن ذلك حقا منهنّ لم يرجعن إلى الكفار، و أعطى بعلها فى الكفار الذين عقد لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صداقها الّذى أصدقها و أحلهنّ للمؤمنين إذا آتوهنّ أجورهنّ. و أخرج ابن مردويه

---

(1). «العاتق»: الشابة أول ما تدرك (النهاية 3/ 178)

عنه قال: نزلت سورة الممتحنة بعد ذلك الصلح، فكان من أسلم من نسائهم، فسئلت: ما أخرجك؟ فإن كانت خرجت فرارا من زوجها و رغبة عنه ردت، و إن كانت خرجت رغبة فى الإسلام أمسك و ردّ على زوجها مثل ما أنفق. و أخرج ابن أبى أسامة و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الكبير، و ابن مردويه، بسند حسن كما قال السيوطى، عن ابن عباس فى قوله: إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَ قال: كان إذا جاءت المرأة النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم حلفها عمر بن الخطاب باللّه ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، و باللّه ما خرجت من بغض زوج، و باللّه ما خرجت التماس دنيا، و باللّه ما خرجت إلا حبا للّه و رسوله. و أخرج ابن منيع من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: أسلم عمر بن الخطاب و تأخرت امرأته فى المشركين، فأنزل اللّه: وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و البخارى و الترمذى

و ابن المنذر و ابن مردويه عن عائشة: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ إلى قوله: غَفُورٌ رَحِيمٌ فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: قد بايعتك- كلاما-، و اللّه ما مسّت يده يد امرأة قط من المبايعات ما بايعهنّ إلا بقوله: قد بايعتك على ذلك. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن سعد و أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن أميمة بنت رقيقة قالت: «أتيت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما فى القرآن أن لا نشرك باللّه شيئا حتى بلغ: وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فقال: فيما استطعتن و أطقتن، فقلنا: اللّه و رسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول اللّه ألا تصافحنا؟ قال: إنى لا أصافح النساء، إنما قولى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة» و فى الباب أحاديث. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال:

«بايعونى على أن لا تشركوا باللّه شيئا، و لا تسرقوا، و لا تزنوا، و قرأ آية النساء، فمن وفى منكم فأجره على اللّه، و من أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له، و من أصاب من ذلك شيئا فستره اللّه فهو إلى اللّه، إن شاء عذبه و إن شاء غفر له». و أخرج ابن المنذر من طريق ابن جريح عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ قال: كانت الحرة تولد لها الجارية فتجعل مكانها غلاما. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى الآية. قال لا يلحقن بأزواجهنّ غير أولادهم وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ قال: إنما هو شرط شرطه اللّه للنساء. و أخرج ابن سعد و ابن أبى شيبة و أحمد و عبد ابن حميد، و الترمذى و حسّنه، و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أم سلمة الأنصارية قالت: قالت امرأة من النسوة ما هذا المعروف الّذى لا ينبغى لنا أن نعصيك فيه؟ قال: «لا تنحن، قلت: يا رسول اللّه إن بنى فلان أسعدونى على عمى لا بدّ لى من قضائهن. فأبى على فعاودته مرارا فأذن لى فى قضائهنّ، فلم أنح بعد، و لم يبق من النسوة امرأة إلا و قد ناحت غيرى». و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أمّ عطية قالت: «بايعنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقرأ علينا أن لا نشرك باللّه شيئا و نهانا عن النياحة، فقبضت امرأة منا يدها فقالت: يا رسول اللّه إن فلانة أسعدتنى و أنا أريد أن أجزيها، فلم يقل لها شيئا. فذهبت

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۶۰

ثم رجعت فقالت: ما وفت منا امرأة إلا- أمّ سليم و أمّ العلاء و بنت أبى سبرة امرأة معاذ أو بنت أبى سبرة و امرأة معاذ». و قد وردت أحاديث كثيرة فى النهى عن النوح. و أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر عن ابن عباس قال:

كان عبد اللّه بن عمرو و زيد بن الحارث يودّان رجلا من اليهود، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الآية. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن ابن مسعود فى قوله:

قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ قال: فلا يؤمنون بها و لا يرجونها كما يئس الكافر إذا مات و عاين ثوابه و اطلع عليه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال: هم الكفار أصحاب القبور الذين يئسوا من الآخرة. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم، أو يبعثهم اللّه.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۶۱

سورة الصّفّ

اشارة

و هى مدنية. قال الماوردى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة

الصف بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الصفّ بمكة، و لعل هذا لا يصحّ عنه. و يؤيد كونها مدنية ما أخرجه أحمد عن عبد اللّه ابن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيسأله: أىّ الأعمال أحبّ إلى اللّه؟ فلم يقم أحد منا، فأرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلينا رجلا رجلا فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة يعنى سورة الصف كلها، و أخرجه ابن أبى حاتم، و قال فى آخره: فنزلت فيهم هذه السورة. و أخرجه أيضا الترمذى و ابن حبان و الحاكم و قال:

صحيح على شرط الشيخين، و البيهقى فى الشعب و السنن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الصف (٦١): الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ (٤)

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (٥) وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)

قوله: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ قد تقدّم الكلام على هذا، و وجه التعبير فى بعض السور بلفظ الماضى كهذه السورة، و فى بعضها بلفظ المضارع، و فى بعضها بلفظ الأمر: الإرشاد إلى مشروعية التسبيح فى كل الأوقات ماضيها و مستقبلها و حالها، و قد قدّمنا نحو هذا فى أوّل سورة الحديد وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى: الغالب الّذى لا يغالب، الحكيم فى أفعاله و أقواله، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ هذا الاستفهام للتقريع و التوبيخ، أى: لم تقولون من الخير ما لا تفعلونه، و «لم» مركبة من اللام الجارّة، و ما الاستفهامية، و حذفت ألفها تخفيفا لكثرة استعمالها كما فى نظائرها، ثم ذمّهم سبحانه على ذلك فقال: كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ أى: عظم ذلك فى المقت، و هو البغض، و المقت

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢٦٢

و المقاتة مصدران، يقال: رجل مقيت و ممقوت؛ إذا لم يحبه الناس. قال الكسائى: أَنْ تَقُولُوا فى موضع رفع، لأن «كبر» فعل بمعنى بئس، و «مقتا» منتصب على التميز، و على هذا فيكون فى كبر ضمير مبهم مفسّر بالنكرة، و أن «تقولوا» هو المخصوص بالذم، و يجيء فيه الخلاف هل رفعه بالابتداء، و خبره الجملة المتقدمة عليه، أو خبره محذوف أو هو خبر مبتدأ محذوف. و قيل: إنه قصد بقوله كبر التعجب، و قد عدّه ابن عصفور من أفعال التعجب. و قيل: إنه ليس من أفعال الذم و لا من أفعال التعجب، بل هو مسند إلى «أن تقولوا»، و «مقتا» تمييز محوّل عن الفاعل. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا قال المفسرون: إن المؤمنين قالوا: وددنا أن اللّه يخبرنا بأحبّ الأعمال إليه حتى نعمله و لو ذهبت فيه أموالنا و أنفسنا.

فأنزل اللّه: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ الآية، و انتصاب «صفا» على المصدرية، و المفعول محذوف، أى: يصفون أنفسهم صفا، و قيل: هو مصدر فى موضع الحال، أى: صافّين أو مصفوفين. قرأ الجمهور:

يُقاتِلُونَ على البناء للفاعل. و قرأ زيد بن عليّ على البناء للمفعول، و قرئ «يقتلون» بالتشديد، و جملة كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ فى محل نصب على الحال من فاعل يقاتلون، أو من الضمير فى «صفا» على تقدير أنه مؤوّل بصافين أو مصفوفين، و معنى مرصوص: ملتصق بعضه ببعض، يقال: رصصت البناء أرصّه رصّا؛ إذا ضممت بعضه إلى بعض. قال الفرّاء: مرصوص بالرصاص. قال المبرد: هو مأخوذ من رصصت البناء؛ إذا لاءمت بينه و قاربت حتى يصير كقطعة واحدة، و قيل: هو من الرّصيص، و هو ضمّ الأشياء بعضها إلى بعض، و التراصّ: التلاصق. وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ لما ذكر سبحانه أنه يحبّ المقاتلين فى سبيله بين أن موسى و عيسى أمرا بالتوحيد، و جاهدا فى سبيل اللّه، و حلّ العقاب بمن خالفهما، و الظرف متعلّق بمحذوف هو اذكر، و أى: اذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين وقت قول موسى، و يجوز أن يكون وجه ذكر قصة موسى و عيسى بعد محبة المجاهدين فى سبيل اللّه التحذير لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أن يفعلوا مع نبيهم ما فعله قوم موسى و عيسى معهما يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي هذا مقول القول، أى: لم تؤذوننى بمخالفة ما آمركم به من الشرائع التى افترضها اللّه عليكم، أو لم تؤذوننى بالشتم و الانتقاص، و من ذلك رميه بالأدرة، و قد تقدّم بيان هذا فى سورة الأحزاب، و جملة وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فى محل نصب على الحال، و (قد) لتحقّق العلم أو لتأكيده، و صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، و المعنى: كيف تؤذوننى مع علمكم بأنى رسول اللّه، و الرسول يحترم و يعظم، و لم يبق معكم شك فى الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التى توجب عليكم الاعتراف برسالتى، و تفيدكم العلم بها علما يقينيا فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ أى: لما أصرّوا على الزيغ، و استمرّوا عليه، أزاغ اللّه قلوبهم عن الهدى؛ و صرفها عن قبول الحقّ، و قيل: فلما زاغوا عن الإيمان أزاغ اللّه قلوبهم عن الثواب. قال مقاتل: لما عدلوا عن الحق أمال اللّه قلوبهم عنه، يعنى أنهم لما تركوا الحقّ بإيذاء نبيهم أمال اللّه قلوبهم عن الحق جزاء بما ارتكبوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها. قال الزجاج: لا يهدى من سبق فى علمه أنه فاسق، و المعنى: أنه لا يهدى كل متّصف بالفسق و هؤلاء من جملتهم وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ معطوف على وَ إِذْ قالَ مُوسى معمول لعامله، أو

معمول لعامل مقدّر معطوف على عامل الظرف الأوّل يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ أى: إنى رسول اللّه إليكم بالإنجيل مصدّقا لما بين يدىّ من التوراة لأنى لم آتكم بشى‏ء يخالف التوراة، بل هى مشتملة على التبشير بى، فكيف تنفرون عنى و تخالفوننى، و انتصاب مصدّقا على الحال، وَ كذا مُبَشِّراً، و العامل فيهما ما فى الرسول من معنى الإرسال، و المعنى: أنى أرسلت إليكم حال كونى مصدّقا لما بين يدى من التوراة و مبشرا بمن يأتى بعدى، و إذا كنت كذلك فى التصديق و التبشير فلا مقتضى لتكذيبى، و أحمد اسم نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم و هو علم منقول من الصفة، و هى تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل، فيكون معناها أنه أكثر حمدا للّه من غيره، أو من المفعول فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره، قرأ نافع و ابن كثير و أبو عمرو و السلمى و زرّ بن حبيش و أبو بكر عن عاصم مِنْ بَعْدِي بفتح الياء. و قرأ الباقون بإسكانها فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ أى: لما جاءهم عيسى بالمعجزات قالوا هذا الّذى جاءنا به سحر واضح ظاهر، و قيل: المراد محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أى لما جاءهم بذلك قالوا هذه المقالة، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور: سِحْرٌ و قرأ حمزة و الكسائى: «ساحر». وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ أى: لا أحد أكثر ظلما منه حيث يفترى على اللّه الكذب، و الحال أنه يدعى إلى دين الإسلام الّذى هو خير الأديان و أشرفها؛ لأن من كان كذلك فحقّه أن لا يفترى على غيره الكذب، فكيف يفتريه على ربّه. قرأ الجمهور: وَ هُوَ يُدْعى من الدعاء مبنيا للمفعول. و قرأ طلحة ابن مصرّف يُدّعى بفتح الياء و تشديد الدال من الادّعاء مبنيا للفاعل، و إنما عدّى بإلى لأنه ضمّن معنى الانتماء و الانتساب وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها. و المعنى: لا يهدى من اتصف بالظلم، و المذكورون من جملتهم

يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ الإطفاء: الإخماد، و أصله فى النار، و استعير لما يجرى مجراها من الظهور. و المراد بنور اللّه القرآن، أى: يريدون إبطاله و تكذيبه بالقول، أو الإسلام، أو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أو الحجج و الدلائل، أو جميع ما ذكر، و معنى بأفواههم: بأقوالهم الخارجة من أفواههم المتضمنة للطعن وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ بإظهاره فى الآفاق و إعلائه على غيره. قرأ ابن كثير و حمزة و الكسائى و حفص عن عاصم مُتِمُّ نُورِهِ بالإضافة و الباقون بتنوين متمّ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ ذلك فإنه كائن لا محالة، و الجملة فى محل نصب على الحال. قال ابن عطية: و اللام فى «ليطفئوا» لام مؤكّدة دخلت على المفعول؛ لأن التقدير: يريدون أن يطفئوا، و أكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدّم، كقولك:

لزيد ضربت، و لرؤيتك قصدت، و قيل: هى لام العلة، و المفعول محذوف، أى: يريدون إبطال القرآن أو دفع الإسلام أو هلاك الرسول ليطفئوا، و قيل: إنها بمعنى أن الناصبة و أنها ناصبة بنفسها. قال الفراء:

العرب تجعل لام كى فى موضع أن فى أراد و أمر، و إليه ذهب الكسائى، و مثل هذا قوله: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ «١» و جملة: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ مستأنفة مقرّرة لما قبلها، و الهدى: القرآن أو المعجزات، و معنى دين الحق: الملّة الحقة، و هى

---

(١). النساء: ٢۶.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ٢۶۴

ملّة الإسلام؛ و معنى ليظهره: ليجعله ظاهرا على جميع الأديان، عاليا عليها غالبا لها، و لو كره المشركون ذلك فإنه كائن لا محالة.

قال مجاهد: ذلك إذا نزل عيسى لم يكن فى الأرض دين إلا دين الإسلام، و الدّين مصدر يعبّر به عن الأديان المتعدّدة، و جواب «لو» فى الموضعين محذوف، و التقدير: أتمه و أظهره.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: وددنا لو أن اللّه أخبرنا بأحبّ الأعمال فنعمل به، فأخبر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن أحبّ الأعمال إيمان باللّه لا شك فيه، و جهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان و لم يقرّوا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين و شقّ عليهم أمره، فقال اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله: كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ قال: هذه الآية فى القتال وحده، و هم قوم كانوا يأتون النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فيقول الرجل: قاتلت و ضربت بسيفى و لم يفعلوا، فنزلت.

و أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه عنه أيضا قال: قالوا لو نعلم أحبّ الأعمال إلى اللّه لفعلناه، فأخبرهم اللّه فقال: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ فكرهوا ذلك، فأنزل اللّه:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ قال: مثبت لا يزول ملصق بعضه على بعض. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن جبير بن مطعم قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن لى أسماء: أنا محمد، و أنا أحمد، و أنا الحاشر الّذى يحشر اللّه الناس على قدمى، و أنا الماحى الّذى يمحو اللّه بى الكفر، و أنا العاقب:

و العاقب الّذى ليس بعده نبىّ».

[سورة الصف (۶١): الآيات ١٠ الى ١۴]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكَمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكَمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (۱۰) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكَمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۱) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۲) وَ أُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۳) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ (۱۴)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها، و ذلك بدخولهم الجنة و نجاتهم من النار. قرأ الجمهور: تُنْجِيكُمْ بالتخفيف من الإنجاء. و قرأ الحسن و ابن عامر و أبو حيوة بالتشديد من التنجية. ثم بيّن سبحانه هذه التجارة التى دلّ عليها فقال: تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ و هو خبر فى معنى الأمر للإيذان بوجوب الامتثال، فكأنه قد وقع فأخبر بوقوعه، و قدّم ذكر الأموال على الأنفس لأنها

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۶۵

هى التى يبدأ بها فى الإنفاق و التجهّز إلى الجهاد. قرأ الجمهور: تُؤْمِنُونَ و قرأ ابن مسعود: «آمنوا و جاهدوا» على الأمر. قال الأخفش: تؤمنون عطف بيان لتجارة، و الأولى أن تكون الجملة مستأنفة مبينة لما قبلها، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى ما ذكر من الإيمان و الجهاد، و هو مبتدأ و خبره خَيْرٌ لَكُمْ أى: هذا الفعل خير لكم من أموالكم و أنفسكم إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى: إن كنتم ممن يعلم فإنكم تعلمون أنه خير لكم، لا إذا كنتم من أهل الجهل فإنكم لا تعلمون ذلك يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ هذا جواب الأمر المدلول عليه بلفظ الخبر، و لهذا جزم. قال الزجاج و المبرد: قوله: تُؤْمِنُونَ فى معنى آمنوا، و لذلك جاء يغفر لكم مجزوما. و قال الفرّاء: يغفر لكم جواب الاستفهام فجعله مجزوما لكونه جواب الاستفهام، و قد غلّطه بعض أهل العلم. قال الزجاج: ليسوا إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم إنما يغفر لهم إذا آمنوا و جاهدوا.

و قال الرازى فى توجيه قول الفراء: إن «هل أدلكم» فى معنى الأمر عنده، يقال: هل أنت ساكت؟ أى:

اسكت، و بيانه أن هل بمعنى الاستفهام، ثم يتدرّج إلى أن يصير عرضا و حثا، و الحثّ كالإغراء، و الإغراء أمر. و قرأ زيد بن علىّ: «تؤمنوا، و تجاهدوا» على إضمار لام الأمر. و قيل: إن يَغْفِرْ لَكُمْ مجزوم بشرط مقدّر، أى: إن تؤمنوا يغفر لكم، و قرأ بعضهم بالإدغام فى يغفر لكم، و الأولى ترك الإدغام لأن الراء حرف متكرّر فلا يحسن إدغامه فى اللام وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ قد تقدّم بيان كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ أى: فى جنات إقامة ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أى: ذلك المذكور من المغفرة، و إدخال الجنات الموصوفة بما ذكر هو الفوز الّذى لا فوز بعده، و الظفر الّذى لا ظفر يماثله وَ أُخْرى تُحِبُّونَها، قال الأخفش و الفرّاء: «أخرى» معطوفة على «تجارة» فهى فى محل خفض، أى: و هل أدلّكم على خصلة أخرى تحبونها فى العاجل مع ثواب الآخرة، و قيل: هى فى محل رفع، أى: و لكم خصلة أخرى، و قيل: فى محل نصب، أى: و يعطيكم خصلة أخرى. ثم بيّن سبحانه هذه الأخرى فقال: نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ أى: هى نصر من اللّه لكم، و فتح قريب يفتحه عليكم، و قيل: نصر بدل من أخرى على تقدير كونها فى محلّ رفع، و قيل: التقدير: و لكم نصر و فتح قريب.

قال الكلبى: يعنى النصر على قريش و فتح مكة. و قال عطاء: يريد فتح فارس و الروم وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ معطوف على محذوف، أى: قل يا أيها الذين آمنوا و بشر، أو على تؤمنون لأنه فى معنى الأمر، و المعنى:

و بشر يا محمد المؤمنين بالنصر و الفتح، أو بشرهم بالنصر فى الدنيا و الفتح، و بالجنة فى الآخرة، أو و بشرهم بالجنة فى الآخرة.

ثم حضّ سبحانه المؤمنين على نصرة دينه فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ أى: دوموا على ما أنتم عليه من نصرة الدين. قرأ ابن كثير و أبو عمرو و نافع أَنْصاراً لِلَّهِ بالتنوين و ترك الإضافة. و قرأ الباقون بالإضافة، و الرسم يحتمل القراءتين معا، و اختار أبو عبيد قراءة الإضافة لقوله: نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ بالإضافة كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ أى انصروا دين اللّه مثل نصرة الحواريين لما قال لهم عيسى مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ فقالوا: نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ و الكاف فى كَما قالَ نعت مصدر محذوف تقديره: كونوا كونا كما قال، و قيل: الكاف فى محل نصب على إضمار الفعل،

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۶۶

و قيل: هو كلام محمول على معناه دون لفظه، و المعنى: كونوا أنصار اللّه كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم من أنصارى إلى اللّه و قوله: إِلَى اللَّهِ قيل: إلى بمعنى مع، أى من أنصارى مع اللّه، و قيل التقدير: من أنصارى فيما يقرّب إلى اللّه. و قيل: التقدير: من أنصارى متوجّها إلى نصرة اللّه، و قد تقدّم الكلام على هذا فى سورة آل عمران. و الحواريون: هم أنصار المسيح و خلّص أصحابه، و أوّل من آمن به، و قد تقدّم بيانهم فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ أى آمنت طائفة بعيسى و كفرت به طائفة، و ذلك لأنهم لما اختلفوا بعد رفعه تفرّقوا و تقاتلوا فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ أى: قوينا المحقين منهم على المبطلين فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ أى: عالين غالبين، و قيل المعنى: فأيدنا الآن المسلمين على الفرقتين جميعا.
و قد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قالوا: لو كنّا نعلم أىّ الأعمال أحبّ إلى اللّه؟ فنزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ فكرهوا فنزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ إلى قوله: بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ «۱». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ قال: قد كان ذلك بحمد اللّه جاءه سبعون رجلا فبايعوه عند العقبة و آووه و نصروه حتى أظهر اللّه دينه. و أخرج ابن إسحاق و ابن سعد عن عبد اللّه ابن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للنفر الذين لقوه بالعقبة: «أخرجوا إلىّ اثنى عشر منكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم». و أخرج ابن سعد عن محمود بن لبيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للنقباء: «إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، و أنا كفيل قومى، قالوا: نعم». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا قال:
فقوينا الذين آمنوا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه: فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و أمته على عدوّهم فَأَصْبَحُوا اليوم ظاهِرِينَ

---

(۱). الصف: ۲- ۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۶۷

سورة الجمعة

اشارة

و هى مدنية. قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت سورة الجمعة بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير مثله.
و أخرج مسلم و أهل السنن عن أبى هريرة: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى الجمعة سورة الجمعة و إِذا جاءَكَ

الْمُنافِقُونَ و أخرج مسلم و أهل السنن عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن حبان، و البيهقى فى سننه، عن جابر بن سمرة قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة ب قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ و قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، و كان يقرأ فى صلاة العشاء الآخرة، ليلة الجمعة، سورة الجمعة و المنافقون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الجمعة (۶۲): الآيات ۱ الى ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۱) هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلالٍ مُبِينٍ (۲) وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳) ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۴)

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۵) قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۶) وَ لا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (۷) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِی تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸)

قوله: يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ قد تقدم تفسير هذا فى أوّل سورة الحديد، و ما بعدها من المسبّحات الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ قرأ الجمهور بالجرّ فى هذه الصفات الأربع على أنها نعت للّه، و قيل: على البدل، و الأوّل أولى. و قرأ أبو وائل بن محارب و أبو العالية و نصر بن عاصم و رؤبة بالرفع على إضمار مبتدأ. و قرأ الجمهور: الْقُدُّوسِ بضم القاف، و قرأ زيد بن على بفتحها، و قد تقدم تفسيره. هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ المراد بالأميين العرب، من كان يحسن الكتابة منهم و من لا يحسنها، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب، و الأمىّ فى الأصل الّذى لا يكتب و لا يقرأ المكتوب، و كان غالب العرب كذلك، و قد مضى بيان معنى الأمىّ فى سورة البقرة، و معنى مِنْهُمْ من أنفسهم و من جنسهم و من جملتهم، و ما كان حىّ من أحياء العرب إلا و لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيهم قرابة، و وجه الامتنان بكونه

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۶۸

منهم أن ذلك أقرب إلى الموافقة، لأن الجنس أميل إلى جنسه و أقرب إليه يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ يعنى القرآن مع كونه أميا لا يقرأ و لا يكتب و لا تعلّم ذلك من أحد، و الجملة صفة ل «رسولا»، و كذا قوله: وَ يُزَكِّيهِمْ قال ابن جريج و مقاتل: أى يطهرهم من دنس الكفر و الذنوب، و قال السدّى: يأخذ زكاة أموالهم، و قيل:

يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ هذه صفة ثالثة ل «رسولا»، و المراد بالكتاب:

القرآن، و بالحكمة: السّنّة، كذا قال الحسن. و قيل: الكتاب: الخط بالقلم، و الحكمة: الفقه فى الدين، كذا قال مالك بن أنس «۱» وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلالٍ مُبِينٍ أى: و إن كانوا من قبل بعثته فيهم فى شرك و ذهاب عن الحق وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ معطوف على الأميين، أى: بعث فى الأميين، و بعث فى آخرين منهم لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ذلك الوقت، و سيلحقون بهم من بعد، أو هو معطوف على المفعول الأوّل فى «يعلمهم»، أى: و يعلم آخرين، أو على مفعول «يزكيهم» أى: يزكّيهم و يزكّى آخرين منهم، و المراد بالآخرين من جاء بعد الصحابة إلى يوم القيامة، و قيل: المراد بهم من أسلم من غير العرب. و قال عكرمة:

هم التابعون. و قال مجاهد: هم الناس كلهم، و كذا قال ابن زيد و السدّى. و جملة: لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ صفة لآخرين، و الضمير فى

«منهم» و «بهم» راجع إلى الأميين، و هذا يؤيد أن المراد بالآخرين هم من يأتى بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة، و هو صلّى اللّه عليه و سلّم و إن كان مرسلا إلى جميع الثقلين، فتخصيص العرب ها هنا لقصد الامتنان عليهم، و ذلك لا ينافى عموم الرسالة، و يجوز أن يراد بالآخرين العجم؛ لأنهم و إن لم يكونوا من العرب، فقد صاروا بالإسلام منهم و المسلمون كلهم أمة واحدة، و إن اختلفت أجناسهم وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى: بليغ العزة و الحكمة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره. و قال الكلبى: يعنى الإسلام. و قال قتادة: يعنى الوحى و النبوّة. و قيل: إلحاق العجم بالعرب، و هو مبتدأ و خبره فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ أى: يعطيه من يشاء من عباده وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ الّذى لا يساويه فضل و لا يدانيه مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها ضرب سبحانه لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلا فقال: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ أى: كلّفوا القيام بها و العمل بها فيها ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها أى:

لم يعملوا بموجبها، و لا أطاعوا ما أمروا به فيها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً هى جمع سفر، و هو الكتاب الكبير، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ. قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدرى أسفر على ظهره أم زبيل «٢»؛ فهكذا اليهود. و قال الجرجانى: هو يعنى حملوا من الحمالة بمعنى الكفالة، أى: ضمّنوا أحكام التوراة، و قوله: يحمل فى محل نصب على الحال، أو صفة للحمار إذ ليس المراد به حمارا معينا، فهو فى حكم النكرة، كما فى قول الشاعر:

و لقد أمرّ على اللّئيم يسبّنىفمضيت ثمّ قلت: لا يعنينى

---

(١). فى تفسير القرطبى (١٨/ ٩٢): أن تفسير الكتاب بالخط بالقلم هو قول ابن عباس، و أن تفسير الحكمة بالفقه فى الدّين من قول مالك بن أنس.

(٢). «الزبيل»: الزّبل و القفّة.

بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ أى: بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات اللّه، على أن التمييز محذوف، و الفاعل المفسّر به مضمر، و مثل القوم هو المخصوص بالذّمّ، أو مثل القوم فاعل بئس، و المخصوص بالذمّ الموصول بعده على حذف مضاف، أى: مثل الذين كذبوا، و يجوز أن يكون الموصول صفة للقوم، فيكون فى محل جرّ، و المخصوص بالذمّ محذوف، و التقدير بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يعنى على العموم، فيدخل فيهم اليهود دخولا أوّليا قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ المراد بالذين هادوا الذين تهوّدوا، و ذلك أن اليهود ادّعوا الفضيلة على الناس، و أنهم أولياء اللّه من دون الناس، كما فى قولهم: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ «١» و قولهم:

لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى «٢» فأمر اللّه سبحانه رسوله أن يقول لهم لما ادّعوا هذه الدعوى الباطلة: فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ لتصيروا إلى ما تصيرون إليه من الكرامة فى زعمكم إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى هذا الزعم، فإن من علم أنه من أهل الجنة أحبّ الخلوص من هذه الدار. قرأ الجمهور:

فَتَمَنَّوُا بضم الواو، و قرأ ابن السميقع بفتحها تخفيفا، و حكى الكسائى إبدال الواو همزة. ثم أخبر اللّه سبحانه أنهم لا يفعلون ذلك أبدا بسبب ذنوبهم، فقال: وَ لا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ أى: بسبب ما عملوا من الكفر و المعاصى و التحريف و التبديل وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ يعنى على العموم، و هؤلاء اليهود داخلون فيهم دخولا أوّليا. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يقول لهم بأن الفرار من الموت لا ينجيهم و أنه نازل بهم، فقال: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ لا محالة، و نازل بكم بلا شك، و الفاء فى قوله: فَإِنَّهُ داخلة لتضمن الاسم معنى الشرط، قال الزجاج: لا يقال إن زيدا فمنطلق، و ها هنا قال: «فإنه ملاقيكم»

لما فى معنى «الّذى» من الشرط و الجزاء، أى: إن فررتم منه فإنه ملاقيكم، و يكون مبالغة فى الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه. و قيل: إنها مزيدة، و قيل: إن الكلام قد تم عند قوله: تَفِرُّونَ مِنْهُ ثم ابتدأ فقال: فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ و ذلك يوم القيامة فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من الأعمال القبيحة و يجازيكم عليها.

و قد أخرج ابن المنذر و الحاكم، و البيهقى فى الشعب، عن عطاء بن السائب عن ميسرة أن هذه الآية مكتوبة فى التوراة بسبعمائة آية يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ أوّل سورة الجمعة. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عمر عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنا أمة أمية لا نكتب و لا نحسب». و أخرج البخارى و غيره عن أبى هريرة قال: «كنا جلوسا عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حين نزلت سورة الجمعة فتلاها، فلما بلغ: وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ قال له رجل: يا رسول اللّه من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فوضع يده على سلمان الفارسى و قال: و الّذى نفسى بيده لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء». و أخرجه أيضا مسلم من حديثه مرفوعا بلفظ: «لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجال

---

(١). المائدة: ١٨.

(٢). البقرة: ١١١.

من فارس، أو قال من أبناء فارس». و أخرج سعيد بن منصور و ابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لو كان الإيمان بالثريا لناله ناس من أهل فارس». و أخرج الطبرانى و ابن مردويه و الضياء عن سهل بن سعد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن فى أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابى رجالا و نساء من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ: وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ قال: الدّين.

و أخرج عبد بن حميد من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها قال: اليهود. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: أَسْفاراً قال: كتبا.

[سورة الجمعة (٦٢): الآيات ٩ الى ١١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ أى: وقع النداء لها، و المراد به الأذان إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة، لأنه لم يكن على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نداء سواه، و قوله: مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ بيان لإذا و تفسير لها. و قال أبو البقاء: إن «من» بمعنى «فى»، كما فى قوله: أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ* «١» أى فى الأرض. قرأ الجمهور: «الجمعة» بضم الميم. و قرأ عبد اللّه بن الزبير و الأعمش بإسكانها تخفيفا. و هما لغتان، و جمعها جمع و جمعات. قال الفراء: يقال الجمعة بسكون الميم و بفتحها و بضمها. و هى صفة لليوم، أى: يوم يجمع الناس، قال الفراء أيضا و أبو عبيد: و التخفيف أخفّ و أقيس، نحو: غرفة و غرف، و طرفة و طرف، و حجرة و حجر. و فتح الميم لغة عقيل. و قيل: إنما سميت جمعة لأن اللّه جمع فيها خلق آدم، و قيل: لأن اللّه فرغ فيها من خلق كل شى‏ء فاجتمعت فيها جميع المخلوقات، و قيل:

لاجتماع الناس فيها للصلاة فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ قال عطاء: يعنى الذهاب و المشى إلى الصلاة. و قال الفراء: المضى و السعى و الذهاب فى معنى واحد، و يدلّ على ذلك قراءة عمر بن الخطاب و ابن مسعود فامضوا إلى ذكر اللّه و قيل: المراد القصد. قال الحسن: و اللّه ما هو بسعى على الأقدام، و لكنه قصد بالقلوب و النيات، و قيل: هو العمل كقوله: مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ «٢» و قوله:

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى «٣» و قوله: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى «۴» قال القرطبى: و هذا قول

---

(١). فاطر: ۴٠ و الأحقاف: ۴.

(٢). الإسراء: ١٩.

(٣). الليل: ٨۴.

(۴). النجم: ٣٩.

 سعى بعدهم قوم لكى يدركوهم «١» و قال أيضا:

سعى ساعيا غيظ بن مرّة بعد ماتبزّل ما بين العشيرة بالدّم «٢»

أى فاعملوا على المضى إلى ذكر اللّه، و اشتغلوا بأسبابه من الغسل و الوضوء و التوجه إليه، و يؤيد هذا القول قول الشاعر:

أسعى على جلّ بنى مالك كلّ امرئ فى شأنه ساعى

وَ ذَرُوا الْبَيْعَ أى: اتركوا المعاملة به و يلحق به سائر المعاملات. قال الحسن: إذا أذّن المؤذن يوم الجمعة لم يحلّ الشراء و البيع، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى السعى إلى ذكر اللّه و ترك البيع، و هو مبتدأ و خبره خَيْرٌ لَكُمْ أى: خير لكم من فعل البيع و ترك السعى، لما فى الامتثال من الأجر و الجزاء. و فى عدمه من عدم ذلك إذا لم يكن موجبا للعقوبة إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى: إن كنتم من أهل العلم، فإنه لا يخفى عليكم أن ذلكم خير لكم فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ أى: إذا فعلتم الصلاة و أدّيتموها و فرغتم منها فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ للتجارة و التصرف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أى: من رزقه الّذى يتفضّل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح فى المعاملات و المكاسب، و قيل: المراد به ابتغاء ما عند اللّه من الأجر بعمل الطاعات و اجتناب ما لا يحلّ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً أى: ذكرا كثيرا بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخروى و الدنيوىّ، و كذا اذكروه بما يقرّبكم إليه من الأذكار، كالحمد و التسبيح و التكبير و الاستغفار و نحو ذلك لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى: كى تفوزوا بخير الدارين و تظفروا به وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً سبب نزول هذه الآية أنه كان بأهل المدينة فاقة و حاجة، فأقبلت عير «٣» من الشام و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يخطب يوم الجمعة، فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا فى المسجد. و معنى: «انفضّوا إليها» تفرّقوا خارجين إليها. و قال المبرد: مالوا إليها، و الضمير للتجارة، و خصت بإرجاع الضمير إليها دون اللهو لأنها كانت أهمّ عندهم، و قيل: التقدير: و إذا رأوا تجارة انفضّوا إليها، أو لهوا انفضوا إليه، فحذف الثانى لدلالة الأول عليه كما فى قول الشاعر:

نحن بما عندنا و أنت بماعندك راض و الرّأى مختلف

و قيل: إنه اقتصر على ضمير التجارة؛ لأن الانفضاض إليها إذا كان مذموما مع الحاجة إليها فكيف

---

(١). و عجزه: فلم يفعلوا و لم يلاموا و لم يألوا.

(٢). «غيظ بن مرة»: حيّ من غطفان بن سعد. «تبزّل بالدم»: أى تشقّق.

(٣). «العير»: الإبل تحمل الطعام، ثم غلب على كل قافلة.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢٧٢

بالانفضاض إلى اللهو، و قيل غير ذلك: وَ تَرَكُوكَ قائِماً أى: على المنبر، ثم أمره اللّه سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للآخرة خير من العمل للدنيا، فقال: قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ يعنى من الجزاء العظيم و هو الجنة خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ اللذين ذهبتم إليهما و تركتم البقاء فى المسجد و سماع خطبة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأجلها وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ فمنه اطلبوا الرزق، و إليه توسّلوا بعمل الطاعة، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق و أعظم ما يجلبه.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: «قلت: يا رسول اللّه لأىّ شى‏ء سمى يوم الجمعة؟ قال: لأن فيه جمعت طينة أبيكم آدم، و فيه الصعقة و البعثة، و فى آخره ثلاث ساعات منها ساعة من دعا اللّه فيها بدعوة استجاب له». و أخرج سعيد بن منصور و أحمد و النسائى و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن سلمان قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أ تدرى ما يوم الجمعة؟ قلت: اللّه و رسوله أعلم، قالها ثلاث مرات، ثم قال فى الثالثة: هو اليوم الّذى جمع اللّه فيه أباكم آدم، أفلا أحدّثكم عن يوم الجمعة» الحديث. و أخرج أحمد و مسلم و الترمذى و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم و فيه أدخل الجنة، و فيه أخرج منها، و لا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة» و فى الباب أحاديث مصرحة بأنه خلق فيه آدم.

و ورد فى فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة، و كذلك فى فضل صلاة الجمعة و عظيم أجرها، و فى الساعة التى فيها، و أنه يستجاب الدعاء فيها، و قد أوضحت ذلك فى شرحى للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره.

و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن المنذر، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن خرشة بن الحرّ قال: رأى معى عمر بن الخطاب لوحا مكتوبا فيه: إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ فقال: من أملى عليك هذا؟ قلت: أبىّ بن كعب، قال: إنّ أبيّا أقرأنا للمنسوخ اقرأها:

«فامضوا إلى ذكر اللّه» و روى هؤلاء ما عدا أبا عبيد عن ابن عمر قال: لقد توفى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و ما نقرأ هذه الآية التى فى سورة الجمعة إلا «فامضوا إلى ذكر اللّه»، و أخرجه عنه أيضا الشافعى فى الأمّ، و عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم. و أخرجوا كلهم أيضا عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «فامضوا إلى ذكر اللّه» قال: و لو كان فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائى. و أخرج عبد بن حميد عن أبىّ بن كعب أنه قرأ كذلك. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فَاسْعَوْا إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ قال: فامضوا. و أخرج عبد ابن حميد عنه أن السعى: العمل. و أخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب: أن رجلين من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كانا يختلفان فى تجارتهما إلى الشام، فربما قدما يوم الجمعة و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يخطب فيدعونه و يقومون، فنزلت الآية: وَ ذَرُوا الْبَيْعَ فحرم عليهم ما كان قبل ذلك. و أخرج ابن جرير عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ قال: ليس لطلب دنيا، و لكن عيادة مريض، و حضور جنازة، و زيارة أخ فى اللّه». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: لم تؤمروا بشى‏ء من طلب الدنيا إنما هو عيادة مريض و حضور جنازة و زيارة أخ فى اللّه. و أخرج

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢٧٣

البخارى و مسلم و غيرهما عن جابر بن عبد اللّه قال: بينما النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يخطب يوم الجمعة قائما إذ قدمت عير المدينة، فابتدرها أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا أنا فيهم و أبو بكر و عمر، فأنزل اللّه: وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها إلى آخر السورة. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى الآية قال: جاءت عير عبد

الرّحمن بن عوف تحمل الطعام، فخرجوا من الجمعة بعضهم يريد أن يشتري، و بعضهم يريد أن ينظر إلى دحية، و تركوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قائما على المنبر، و بقى فى المسجد اثنا عشر رجلا و سبع نسوة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم نارا. و فى الباب روايات متضمنة لهذا المعنى عن جماعة من الصحابة و غيرهم.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۷۴

سورة المنافقون

اشارة

و هى مدنية. قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة المنافقين بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج سعيد بن منصور و الطبرانى فى الأوسط، قال السيوطى: بسند حسن، عن أبى هريرة قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرّض بها المؤمنين، و فى الثانية بسورة المنافقين فيقرع بها المنافقين. و أخرج البزار و الطبرانى عن أبى عنبة الخولانى مرفوعا نحوه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المنافقون (۶۳): الآيات ۱ الى ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَکَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّکَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّکَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (۱) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲) ذلِکَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (۳) وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُکَ أَجْسامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (۴)

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (۵) سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۶) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (۷) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (۸)

قوله: إِذا جاءَکَ الْمُنافِقُونَ أى: إذا وصلوا إليك و حضروا مجلسك، و جواب الشرط قالوا، و قيل:

محذوف، و قالوا: حال، و التقدير: جاءوك قائلين كيت و كيت فلا تقبل منهم، و قيل: الجواب: اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً و هو بعيد قالُوا نَشْهَدُ إِنَّکَ لَرَسُولُ اللَّهِ أكدوا شهادتهم بإنّ، و اللام للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم مع خلوص اعتقادهم، و المراد بالمنافقين عبد اللّه بن أبيّ و أصحابه، و معنى نشهد: نحلف، فهو يجرى مجرى القسم، و لذلك يتلقى بما يتلقى به القسم، و من هذا قول قيس بن ذريح:

و أشهد عند اللّه أنّى أحبّهافهذا لها عندى فما عندها ليا

و مثل نشهد نعلم، فإنه يجرى مجرى القسم، كما فى قول الشاعر:

و لقد علمت لتأتينّ منيّتىإنّ المنايا لا تطيش سهامها

فتح القدير، ج‏5، ص: 275
و جملة وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ معترضة مقرّرة لمضمون ما قبلها، و هو ما أظهروه من الشهادة، و إن كانت بواطنهم على خلاف ذلك وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ أى فى شهادتهم التى زعموا أنها من صميم القلب و خلوص الاعتقاد؛ لا إلى منطوق كلامهم، و هو الشهادة بالرسالة، فإنه حق، و المعنى:
و اللّه يشهد إنهم لكاذبون فيما تضمّنه كلامهم من التأكيد الدالّ على أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد و طمأنينة قلب و موافقة باطن لظاهر اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً أى: جعلوا حلفهم الّذى حلفوا لكم به إنهم لمنكم و إن محمدا لرسول اللّه وقاية تقيهم منكم، و سترة يستترون بها من القتل و الأسر، و الجملة مستأنفة لبيان كذبهم و حلفهم عليه، و قد تقدّم قول من قال إنها جواب الشرط. قرأ الجمهور: «أيمانهم» بفتح الهمزة، و قرأ الحسن بكسرها، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة المجادلة فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى: منعوا الناس عن الإيمان و الجهاد و أعمال الطاعة بسبب ما يصدر منهم من التشكيك و القدح فى النبوّة. هذا معنى الصدّ الّذى بمعنى الصّرف، و يجوز أن يكون من الصدود، أى: أعرضوا عن الدخول فى سبيل اللّه و إقامة أحكامه إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ من النفاق و الصدّ، و فى ساء معنى التعجب و الإشارة بقوله:
ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره من الكذب و الصدّ و قبح الأعمال، و هو مبتدأ و خبره بِأَنَّهُمْ آمَنُوا أى:
بسبب أنهم آمنوا فى الظاهر نفاقا ثُمَّ كَفَرُوا فى الباطن، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين و أظهروا الكفر للكافرين، و هذا صريح فى كفر المنافقين، و قيل: نزلت الآية فى قوم آمنوا ثم ارتدّوا. و الأوّل أولى كما يفيده السياق فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ أى: ختم عليها بسبب كفرهم. قرأ الجمهور: «فطبع «» على البناء للمفعول، و القائم مقام الفاعل الجار و المجرور بعده، و قرأ زيد بن علىّ على البناء للفاعل، و الفاعل ضمير يعود إلى اللّه سبحانه، و يدل على هذه قراءة الأعمش «فطبع اللّه على قلوبهم» فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ما فيه من صلاحهم و رشادهم و هو الإيمان وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ أى: هيئاتهم و مناظرهم، يعنى أن لهم أجساما تعجب من يراها لما فيها من النضارة و الرونق وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ فتحسب أن قولهم حقّ و صدق لفصاحتهم و ذلاقة ألسنتهم، و قد كان عبد اللّه بن أبىّ رأس المنافقين فصيحا جسيما جميلا، و كان يحضر مجلس النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فإذا قال سمع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مقالته. قال الكلبى: المراد عبد اللّه بن أبىّ، و جدّ بن قيس، و معتّب ابن قشير، كانت لهم أجسام و منظر و فصاحة، و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: لكلّ من يصلح له، و يدل عليه قراءة من قرأ «يسمع» على البناء للمفعول، و جملة: كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ مستأنفة لتقرير ما تقدّم من أن أجسامهم تعجب الرائى و تروق الناظر، و يجوز أن تكون فى محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، شبهوا فى جلوسهم فى مجالس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التى لا تفهم و لا تعلم، و هم كذلك لخلوّهم عن الفهم النافع و العلم الّذى ينتفع به صاحبه، قال الزجاج: وصفهم بتمام الصور، ثم أعلم أنهم فى ترك الفهم و الاستبصار بمنزلة الخشب. قرأ الجمهور: «خشب» بضمتين، و قرأ أبو عمرو و الكسائى و قنبل بإسكان الشين، و بها قرأ البراء بن عازب، و اختارها أبو عبيد؛ لأن واحدتها خشبة كبدنة و بدن، و اختار القراءة الأولى أبو حاتم. و قرأ سعيد بن جبير و سعيد بن المسيب بفتحتين، و معنى مسندة
فتح القدير، ج‏5، ص: 276
أنها أسندت إلى غيرها، من قولهم: أسندت كذا إلى كذا، و التشديد للتكثير. ثم عابهم اللّه سبحانه بالجبن فقال: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ أى: يحسبون كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم، نازلة بهم، لفرط جبنهم و رعب قلوبهم، و فى المفعول الثانى للحسبان وجهان: أحدهما أنه عليهم، و يكون قوله: هُمُ الْعَدُوُّ جملة مستأنفة لبيان أنهم الكاملون فى العداوة لكونهم يظهرون غير ما يبطنون، و الوجه الثانى أن المفعول الثانى للحسبان هو قوله: هُمُ الْعَدُوُّ، و يكون قوله: عَلَيْهِمْ متعلقا بصيحة، و إنما جاء بضمير

الجماعة باعتبار الخبر، و كان حقه أن يقال: هو العدوّ، و الوجه الأوّل أولى. قال مقاتل و السدّى: أى:
إذا نادى مناد فى العسكر، أو انفلتت دابة، أو أنشدت ضالّة، ظنوا أنهم المرادون لما فى قلوبهم من الرعب، و من هذا قول الشاعر «١»:

ما زلت تحسب كلّ شىء بعدهمخيلا تكرّ عليهم و رجالا

و قيل: كان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم، و يبيح دماءهم و أموالهم. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله بأن يأخذ حذره منهم فقال: فَاحْذَرْهُمْ أن يتمكنوا من فرصة منك، أو يطلعوا على شىء من أسرارك لأنهم عيون لأعدائك من الكفار. ثم دعا عليهم بقوله: قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ أى: لعنهم اللّه، و قد تقول العرب هذه الكلمة على طريقة التعجب، كقولهم: قاتله اللّه من شاعر، أو ما أشعره، و ليس بمراد هنا، بل المراد ذمهم و توبيخهم، و هو طلب من اللّه سبحانه طلبه من ذاته عزّ و جلّ أن يلعنهم و يخزيهم، أو هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا ذلك؛ و معنى أَنَّى يُؤْفَكُونَ كيف يصرفون عن الحق و يميلون عنه إلى الكفر. قال قتادة: معناه يعدلون عن الحق. و قال الحسن: معناه يصرفون عن الرشد وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ أى: إذا قال لهم القائل من المؤمنين: قد نزل فيكم ما نزل من القرآن، فتوبوا إلى اللّه و رسوله، و تعالوا يستغفر لكم رسول اللّه لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ أى: حرّكوها استهزاء بذلك. قال مقاتل: عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار. قرأ الجمهور: «لوّوا» بالتشديد. و قرأ نافع بالتخفيف، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ أى: يعرضون عن قول من قال لهم: تعالوا يستغفر لكم رسول اللّه، أو يعرضون عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و جملة: وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ فى محل نصب على الحال من فاعل الحال الأولى، ويه يصدّون؛ لأن الرؤية بصرية فيصدّون فى محل نصب على الحال، و المعنى:
و رأيتهم صادّين مستكبرين سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أى: الاستغفار و عدمه سواء لا ينفعهم ذلك؛ لإصرارهم على النفاق و استمرارهم على الكفر. قرأ الجمهور: «أستغفرت» بهمزة مفتوحة من غير مدّ، و حذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة أم عليها. و قرأ يزيد بن القعقاع بهمزة ثم ألف لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ أى: ما داموا على النفاق إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ أى: الكاملين فى الخروج عن الطاعة و الانهماك فى معاصى اللّه، و يدخل فيهم المنافقون دخولا أوّليا. ثم ذكر سبحانه بعض قبائحهم فقال:

---

(١). هو الأخطل.

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا أى: حتّى يتفرّقوا عنه، يعنون بذلك فقراء المهاجرين، و الجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل لفسقهم، أو لعدم مغفرة اللّه لهم. قرأ الجمهور:
«ينفضوا» من الانفضاض، و هو التفرّق، و قرأ الفضل بن عيسى الرقاشى «ينفضوا» من أنفض القوم؛ إذا فنيت أزوادهم، يقال: نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفضّ. ثم أخبر سبحانه بسعة ملكه فقال: وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: إنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين؛ لأن خزائن الرزق له فيعطى من شاء ما شاء و يمنع من شاء ما شاء وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ذلك و لا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد اللّه عزّ و جلّ و أنه الباسط القابض المعطى المانع. ثم ذكر سبحانه مقالة شنعاء قالوها فقال: يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ القائل لهذه المقالة هو عبد اللّه بن أبىّ رأس المنافقين، و عنى بالأعزّ نفسه و من معه، و بالأذلّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و من معه، و مراده بالرجوع رجوعهم من تلك الغزوة، و إنما أسند القول إلى المنافقين مع كون القائل هو فرد من أفرادهم، و هو عبد اللّه بن أبىّ، لكونه كان رئيسهم و صاحب أمرهم، و هم راضون بما يقوله سامعون

له مطيعون. ثم ردّ اللّه سبحانه على قائل تلك المقالة فقال: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ أى: القوّة و الغلبة للّه وحده و لمن أفاضها عليه من رسله و صالحى عباده لا لغيرهم.

اللهم كما جعلت العزّة للمؤمنين على المنافقين فاجعل العزّة للعادلين من عبادك، و أنزل الذلة على الجائرين الظالمين وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ بما فيه النفع فيفعلونه، و بما فيه الضرّ فيجتنبونه، بل هم كالأنعام لفرط جهلهم و مزيد حيرتهم و الطبع على قلوبهم.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن زيد بن أرقم قال: «خرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى سفر فأصاب الناس شدّة، فقال عبد اللّه بن أبىّ لأصحابه: لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا من حوله، و قال: لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ فأتيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد اللّه بن أبىّ فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل، فقالوا: كذب زيد رسول اللّه، فوقع فى نفسى مما قالوا شدّة، حتى أنزل اللّه تصديقى فى إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ فدعاهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليستغفر لهم فلوّوا رؤوسهم، و هو قوله: كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ قال: كانوا رجالا أجمل شىء. و أخرجه عنه بأطول من هذا ابن سعد و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إنما سمّاهم اللّه منافقين لأنهم كتموا الشرك و أظهروا الإيمان. و أخرج ابن المنذر عنه اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً قال: حلفهم باللّه إنهم لمنكم اجتنوا بأيمانهم من القتل و الحرب.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ قال: نخل قيام. و أخرج ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عنه أيضا، قال: نزلت هذه الآية هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا فى عسيف «١» لعمر بن الخطاب. و أخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم و ابن مسعود أنهما قرءا:

---

(١). «العسيف»: الأجير المستهان به.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٧٨

لا تنفقوا على من عند رسول اللّه حتّى ينفضّوا من حوله. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن جابر ابن عبد اللّه قال: «كنا مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى غزاة، قال سفيان: يرون أنها غزوة بنى المصطلق فكسع «١» رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال المهاجرى: يا للمهاجرين، و قال الأنصارىّ: يا للأنصار، فسمع ذلك النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «ما بال دعوى الجاهلية»؟ قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «دعوها فإنها منتنة»، فسمع ذلك عبد اللّه بن أبىّ فقال: و قد فعلوها، و اللّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، فبلغ ذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقام عمر فقال: يا رسول اللّه دعنى أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «دعه، لا يتحدّث الناس أن محمدا يقتل أصحابه» زاد الترمذى:

«فقال له ابنه عبد اللّه، و اللّه لا تنفلت «٢» حتى تقرّ أنك الذليل، و رسول اللّه العزيز، ففعل».

[سورة المنافقون (٦٣): الآيات ٩ الى ١١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٩) وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَ لَنْ

يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١١)

لما ذكر سبحانه قبائح المنافقين رجع إلى خطاب المؤمنين مرغّبا لهم فى ذكره فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فحذرهم عن أخلاق المنافقين الذين ألهتهم أموالهم و أولادهم عن ذكر اللّه، و معنى لا تلهكم: لا تشغلكم، و المراد بالذكر فرائض الإسلام، قاله الحسن. و قال الضحاك:

الصلوات الخمس. و قيل: قراءة القرآن، و قيل: هو خطاب للمنافقين، و وصفهم بالإيمان لكونهم آمنوا ظاهرا، و الأوّل أولى وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ أى: يلتهى بالدنيا عن الدين فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ أى:

الكاملون فى الخسران وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ الظاهر أن المراد الإنفاق فى الخير على عمومه، و من للتبعيض، أى: أنفقوا بعض ما رزقناكم فى سبيل الخير، و قيل: المراد الزكاة المفروضة مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ بأن تنزل به أسبابه و يشاهد حضور علاماته، و قدّم المفعول على الفاعل للاهتمام فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ أى: يقول عند نزول ما نزل به مناديا لربه هلا أمهلتنى و أخّرت موتى إلى أجل قريب، أى: أمدّ قصير فَأَصَّدَّقَ أى: فأتصدّق بمالى وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ قرأ الجمهور: «فأصّدّق» بإدغام التاء فى الصاد، و انتصابه على أنه جواب التمنى، و قيل: إن «لا» فى لو لا زائدة، و الأصل: لو أخرتنى.

و قرأ أبىّ و ابن مسعود و سعيد بن جبير «فأتصدق» بدون إدغام على الأصل. و قرأ الجمهور: «و أكن» بالجزم على محل فأتصدّق، كأنه قيل: إن أخّرتنى أتصدّق و أكن. قال الزجاج: معناه هلا أخّرتنى، و جزم

---

(١). «كسع»: ضرب عجيزته و دبره، بيد أو رجل أو سيف، أو غيره.

(٢). «تنفلت»: أى لا ترجع.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢٧٩

«أكن» على موضع فأصدق لأنه على معنى إن أخرتنى أصدّق و أكن. و كذا قال أبو علىّ الفارسى و ابن عطية و غيرهم. و قال سيبويه حاكيا عن الخليل: إنه جزم على توهم الشرط الّذى يدلّ عليه التمنى، و جعل سيبويه هذا نظير قول زهير:

بدا لى أنّى لست مدرك ما مضى‏و لا سابق شيئا «١» إذا كان جائيا

فخفض «و لا سابق» عطفا على «مدرك» الّذى هو خبر ليس على توهم زيادة الباء فيه. و قرأ أبو عمرو و ابن محيصن و مجاهد «و أكون» بالنصب عطفا على «فأصدق»، و وجهها واضح. و لكن قال أبو عبيد:

رأيت فى مصحف عثمان «و أكن» بغير واو، و قرأ عبيد بن عمير: «و أكون» بالرفع على الاستئناف، أى:

و أنا أكون. قال الضحاك: لا ينزل بأحد الموت لم يحج و لم يؤدّ زكاة إلا سأل الرجعة، و قرأ هذه الآية؛ ثم أجاب اللّه سبحانه عن هذا المتمنى فقال: وَ لَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها أى: إذا حضر أجلها و انقضى عمرها وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ لا يخفى عليه شى‏ء منه، فهو مجازيكم بأعمالكم. قرأ الجمهور:

«تَعْمَلُونَ» بالفوقية على الخطاب، و قرأ أبو بكر عن عاصم و السلمى بالتحتية على الخبر.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ الآية قال: هم عباد من أمتى الصالحون منهم لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر اللّه، و عن الصلوات الخمس المفروضة.

و أخرج عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من كان له مال يبلغه حجّ بيت اللّه، أو تجب عليه فيه الزكاة، فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس اتق اللّه، فإنما يسأل الرجعة الكافر، فقال: سأتلوا عليكم بذلك قرآنا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إلى

آخر السورة». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصّالِحِينَ قال: أحجّ.

---

(١). فى الديوان ص (٢٨٧): و لا سابقى شىء.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ٢٨٠

سورة التغابن

اشارة

و هى مدنية فى قول الأكثر. و قال الضحاك: هى مكية. و قال الكلبى: هى مدنية و مكية. و أخرج ابن الضريس و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، و أخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلن بالمدينة فى عوف بن مالك الأشجعيّ، شكا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جفاء أهله و ولده، فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ إلى آخر السورة «١». و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عن عطاء بن يسار نحوه. و أخرج ابن حبان فى «الضعفاء»، و الطبرانى و ابن مردويه و ابن عساكر عن عبد اللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما من مولود يولد إلّا مكتوب فى تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن» قال ابن كثير: و هو غريب جدّا، بل منكر. و أخرج البخارى فى تاريخه عن عبد اللّه بن عمرو قال: ما من مولود يولد إلّا مكتوب فى تشبيك رأسه خمس آيات من أوّل سورة التغابن.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التغابن (۶۴): الآيات ١ الى ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۴)
أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۵) ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۶)
قوله: يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أى: ينزّه سبحانه جميع مخلوقاته التى فى سماواته و أرضه عن كل نقص و عيب لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ يختصّان به ليس لغيره منهما شىء، و ما كان لعباده منهما فهو من فيضه و راجع إليه وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شىء هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ أى: فبعضكم كافر و بعضكم مؤمن. قال الضحاك: فمنكم كافر فى السرّ مؤمن فى العلانية كالمنافق، و منكم مؤمن فى السرّ كافر فى العلانية كعمار بن ياسر و نحوه ممن أكره على الكفر. و قال عطاء: فمنكم كافر باللّه مؤمن بالكواكب، و منكم مؤمن باللّه كافر بالكواكب. قال الزجاج: إن اللّه خلق الكافر، و كفره فعل له و كسب، مع أن اللّه خالق الكفر. و خلق المؤمن و إيمانه فعل له و كسب، مع أن

---

(۱). التغابن: ۱۴- ۱۸.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۸۱

اللّه خالق الإيمان. و الكافر يكفر و يختار الكفر بعد خلق اللّه إياه؛ لأن اللّه تعالى قدّر ذلك عليه و علمه منه؛ لأن وجود خلاف المقدور عجز، و وجود خلاف المعلوم جهل. قال القرطبي: و هذا أحسن الأقوال و هو الّذي عليه جمهور الأمة، و قدّم الكافر على المؤمن لأنه الأغلب عند نزول القرآن وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم.

ثم لما ذكر سبحانه خلق العالم الصغير أتبعه بخلق العالم الكبير فقال: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ أي: بالحكمة البالغة. و قيل: خلق ذلك خلقا يقينا لا ريب فيه، و قيل: الباء بمعنى اللام، أي: خلق ذلك لإظهار الحق، و هو أن يجزي المحسن بإحسانه و المسي‌ء بإساءته. ثم رجع سبحانه إلى خلق العالم الصغير فقال:

وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ قيل: المراد آدم، خلقه بيده كرامة له، كذا قال مقاتل، و قيل: المراد جميع الخلائق، و هو الظاهر، أي: أنه سبحانه خلقهم في أكمل صورة و أحسن تقويم و أجمل شكل.

و التصوير: التخطيط و التشكيل. قرأ الجمهور: فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ بضمّ الصاد، و قرأ زيد بن عليّ و الأعمش و أبو زيد بكسرها. وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ في الدار الآخرة، لا إلى غيره. يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تخفى عليه من ذلك خافية وَ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ أي: ما تخفونه و ما تظهرونه، و التصريح به مع اندراجه فيما قبله لمزيد التأكيد في الوعد و الوعيد وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم، و هي تذييلية أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ و هم كفار الأمم الماضية كقوم نوح و عاد و ثمود، و الخطاب لكفار العرب فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ بسبب كفرهم، و الوبال: الثقل و الشدّة، و المراد بأمرهم هنا ما وقع منهم من الكفر و المعاصي، و بالوبال ما أصيبوا به من عذاب الدنيا وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ و ذلك في الآخرة و هو عذاب النار؛ و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر من العذاب في الدارين، و هو مبتدأ و خبره بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أي: بسبب أنها كانت تأتيهم الرسل المرسلة إليهم بالمعجزات الظاهرة فَقالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا أي: قال كل قوم منهم لرسولهم هذا القول منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر، متعجبين من ذلك، و أراد بالبشر الجنس، و لهذا قال يهدوننا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا أي: كفروا بالرسل و بما جاءوا به، و أعرضوا عنهم، و لم يتدبروا فيما جاءوا به، و قيل:

كفروا بهذا القول الّذي قالوه للرسل وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ عن إيمانهم و عبادتهم. و قال مقاتل: استغنى اللّه بما أظهره لهم من البرهان، و أوضحه من المعجزات، و قيل: استغنى بسلطانه عن طاعة عباده وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ أي: غير محتاج إلى العالم و لا إلى عبادتهم له، محمود من كلّ مخلوقاته بلسان المقال و الحال.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي ذرّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا مكث المنيّ في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس، فعرج به إلى الربّ فيقول: يا ربّ أذكر أم أنثى؟ فيقضي اللّه ما هو قاض، فيقول: أشقي أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاق، و قرأ أبو ذرّ من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ». و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «العبد يولد مؤمنا و يعيش مؤمنا و يموت مؤمنا، و العبد يولد كافرا

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۸۲

و يعيش كافرا و يموت كافرا، و إن العبد يعمل برهة من دهره بالسعادة ثم يدركه ما كتب له فيموت شقيا، و إن العبد يعمل برهة من دهره بالشقاء ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيدا».

[سورة التغابن (٦٤): الآيات ٧ الى ١٣]

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنا وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١)

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣)

قوله: زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا الزّعم: هو القول بالظن، و يطلق على الكذب. قال شريح: لكل شيء كنية، و كنية الكذب زعموا، و أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قائم مقام مفعول زعم، و «أن» هى المخففة من الثقيلة لا المصدرية لئلا يدخل ناصب على ناصب، و المراد بالكفار كفار العرب؛ و المعنى:

زعم كفار العرب أن الشأن لن يبعثوا أبدا. ثم أمر سبحانه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يردّ عليهم و يبطل زعمهم فقال: قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَ «بل» هى التى لإيجاب النفى، فالمعنى: بل تبعثون. ثم أقسم على ذلك، و جواب القسم لتبعثنّ، أى: لتخرجن من قبوركم لتنبؤن بِما عَمِلْتُمْ أى: لتخبرنّ بذلك إقامة للحجّة عليكم، ثم تجزون به وَ ذلِكَ البعث و الجزاء عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ إذ الإعادة أيسر من الابتداء فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ الفاء هى الفصيحة الدالة على شرط مقدّر، أى: إذا كان الأمر هكذا فصدّقوا باللّه و رسوله محمد صلّى اللّه عليه و سلّم وَ النُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنا و هو القرآن؛ لأنه نور يهتدى به من ظلمة الضلال. وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم و أفعالكم، فهو مجازيكم على ذلك يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ العامل فى الظرف «لتنبؤن»، قاله النحاس. و قال غيره: العامل فيه خبير، و قيل: العامل فيه محذوف هو اذكر. و قال أبو البقاء: العامل فيه ما دلّ عليه الكلام، أى: تتفاوتون يوم يجمعكم. قرأ الجمهور «يَجْمَعُكُمْ» بفتح الياء و ضم العين، و روى عن أبى عمرو إسكانها، و لا وجه لذلك إلا التخفيف و إن لم يكن هذا موضعا له، كما قرئ فى وَ ما يُشْعِرُكُمْ «١» بسكون الراء، و كقول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما «٢» من اللّه و لا واغل «٣»

---

(١). الأنعام: ١٠٩.

(٢). «استحقب الإثم»: ارتكبه.

(٣). «و اغل»: و غل فى الشيء: أمعن فيه و ذهب و أبعد.

بإسكان باء أشرب، و قرأ زيد بن على و الشعبى و يعقوب و نصر و ابن أبى إسحاق و الجحدرىّ:

«نجمعكم» بالنون، و معنى لِيَوْمِ الْجَمْعِ ليوم القيامة؛ فإنه يجمع فيه أهل المحشر للجزاء، و يجمع فيه بين كل عامل و عمله، و بين كل نبىّ و أمته، و بين كل مظلوم و ظالمه ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ يعنى أن يوم القيامة هو يوم التغابن، و ذلك أنه يغبن فيه بعض أهل المحشر بعضا، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، و يغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر، و أهل الطاعة أهل المعصية، و لا غبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة و هؤلاء النار، فنزلوا منازلهم التى كانوا سينزلونها لو لم يفعلوا ما يوجب

النار، فكان أهل النار استبدلوا الخير بالشرّ، و الجيد بالردىء، و النعيم بالعذاب، و أهل الجنة على العكس من ذلك. يقال: غبنت فلانا؛ إذا بايعته أو شاريته فكان النقص عليه و الغلبة، كذا قال المفسرون، فالمغبون من غبن أهله و منازله فى الجنة وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ أى: من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئاته، قرأ الجمهور: «يُكَفِّرْ» «وَ يُدْخِلْهُ» بالتحتية، و قرأ نافع و ابن عامر بالنون فيهما، و انتصاب خالِدِينَ فِيها أَبَداً على أنها حال مقدرة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر من التكفير و الإدخال، و هو مبتدأ و خبره الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أى: الظفر الّذى لا يساويه ظفر. وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ المراد بالآيات إما التنزيلية أو ما هو أعمّ منها. ذكر سبحانه حال السعداء و حال الأشقياء ها هنا لبيان ما تقدم من التّغابن، و أنه سيكون بسبب التكفير و إدخال الجنة للطائفة الأولى، و بسبب إدخال الطائفة الثانية النار و خلودهم فيها ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أى: ما أصاب كل أحد من مصيبة من المصائب إلا بإذن اللّه، أى: بقضائه و قدره، قال الفراء:

إلا بإذن اللّه، أى: بأمر اللّه، و قيل: إلا بعلم اللّه. قيل: و سبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم اللّه عن المصائب فى الدنيا وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ أى: من يصدق و يعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدره اللّه عليه يهد قلبه للصبر و الرضا بالقضاء. قال مقاتل بن حيان: يهد قلبه عند المصيبة فيعلم أنها من اللّه فيسلم لقضائه و يسترجع. و قال سعيد بن جبير: يهد قلبه عند المصيبة فيقول: إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ «۱» و قال الكلبى: هو إذا ابتلى صبر، و إذا أنعم عليه شكر، و إذا ظلم غفر. قرأ الجمهور: «يهد» بفتح الياء و كسر الدال، أى: يهده اللّه، و قرأ قتادة و السلمى و الضحاك و أبو عبد الرّحمن بضم الياء و فتح الدال على البناء للمفعول، و قرأ طلحة بن مصرّف و الأعرج و سعيد بن جبير و ابن هرمز و الأزرق «نهد» بالنون، و قرأ مالك بن دينار و عمرو بن دينار و عكرمة «يهدأ» بهمزة ساكنة، و رفع قلبه، أى:

يطمئن و يسكن وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أى: بليغ العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ أى: هوّنوا على أنفسكم المصائب، و اشتغلوا بطاعة اللّه و طاعة رسوله فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أى:

أعرضتم عن الطاعة فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ليس عليه غير ذلك و قد فعل، و جواب الشرط

---

(۱). البقرة: ۱۵۶.

محذوف و التقدير فلا بأس على الرسول، و جملة فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا تعليل للجواب المحذوف، ثم أرشد إلى التوحيد و التوكل فقال: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أى: هو المستحق للعبودية دون غيره، فوحّده و لا تشركوا به وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أى: يفوّضوا أمورهم إليه و يعتمدوا عليه، لا على غيره.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و البيهقى و ابن مردويه عن ابن مسعود أنه قيل له: ما سمعت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول فى زعموا؟ قال: سمعته يقول: «بئس مطية الرجل». و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عنه: أنه كره زعموا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: يوم التغابن من أسماء يوم القيامة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه فى قوله: ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ قال: غبن أهل الجنة أهل النار. و أخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود فى قوله: ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ قال: هى المصيبات تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند اللّه، فيسلم لها و يرضى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: يَهْدِ قَلْبَهُ قال: يعنى يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، و ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

[سورة التغابن (٦٤): الآيات ١٤ الى ١٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ يعنى أنهم يعادونكم و يشغلونكم عن الخير، و يدخل فى ذلك سبب النزول دخولا- أوّليا، و هو أن رجالا- من مكة أسلموا و أرادوا أن يهاجروا، فلم يدعهم أزواجهم و لا- أولادهم، فأمر اللّه سبحانه بأن يحذروهم فلا يطيعوهم فى شىء ممّا يريدونه منهم؛ مما فيه مخالفة لما يريده اللّه، و الضمير فى فَاحْذَرُوهُمْ يعود إلى العدوّ، أو إلى الأزواج و الأولاد، لكن لا- على العموم، بل إلى المتصفين بالعداوة منهم، و إنما جاز جمع الضمير على الوجه الأول، لأن العدوّ يطلق على الواحد و الاثنين و الجماعة. ثم أرشدهم اللّه إلى التجاوز فقال: وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا أى: تعفوا عن ذنوبهم التى ارتكبوها، و تتركوا التثريب عليها، و تستروها فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ بالغ المغفرة و الرحمة لكم و لهم، قيل: كان الرجل الّذى ثبطه أزواجه و أولاده عن الهجرة إذا رأى الناس قد سبقوه إليها، و فقهوا فى الدين، همّ أن يعاقب أزواجه و أولاده، فأنزل اللّه: وَ إِنْ تَعْفُوا الآية، و الآية تعمّ و إن كان السبب خاصا كما عرّفناك غير مرة. قال مجاهد: و اللّه ما عادوهم فى الدنيا، و لكن حملتهم مودتهم على أن أخذوا لهم الحرام فأعطوهم إياه.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢٨٥

ثم أخبر اللّه سبحانه بأن الأموال و الأولاد فتنة فقال: إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ أى: بلاء و اختبار و محنة، يحملونكم على كسب الحرام و منع حق اللّه، فلا تطيعوهم فى معصية اللّه وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ لمن آثر طاعة اللّه و ترك معصيته فى محبة ماله و ولده. ثم أمرهم سبحانه بالتقوى و الطاعة فقال: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ أى: ما أطقتم، و بلغ إليه جهدكم. و قد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله سبحانه: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ «١» و منهم قتادة و الربيع بن أنس و السدى و ابن زيد، و قد أوضحنا الكلام فى قوله: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَ «٢» و معنى وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا أى: اسمعوا ما تؤمرون به، و أطيعوا الأوامر. قال مقاتل: «اسمعوا» أى: اصغوا إلى ما ينزل عليكم و أطيعوا لرسوله فيما يأمركم و ينهاكم.

و قيل: معنى «اسمعوا»: اقبلوا ما تسمعون؛ لأنه لا فائدة فى مجرد السماع وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ أى: أنفقوا من أموالكم التى رزقكم اللّه إياها فى وجوه الخير، و لا تبخلوا بها، و قوله: خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ منتصب بفعل دلّ عليه أنفقوا، كأنه قال: ائتوا فى الإنفاق خيرا لأنفسكم، أو قدّموا خيرا لها، كذا قال سيبويه. و قال الكسائى و الفراء: هو نعت لمصدر محذوف، أى: إنفاقا خيرا. و قال أبو عبيدة: هو خبر لكان المقدرة، أى: يكن الإنفاق خيرا لكم. و قال الكوفيون: هو منتصب على الحال، و قيل: هو مفعول به لأنفقوا، أى: فأنفقوا، أى: فأنفقوا خيرا. و الظاهر فى الآية الإنفاق مطلقا من غير تقييد بالزكاة الواجبة، و قيل: المراد زكاة الفريضة، و قيل: النافلة، و قيل: النفقة فى الجهاد وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أى: و من يوق شحّ نفسه، فيفعل ما أمر به من الإنفاق، و لا يمنعه ذلك منه، فأولئك هم الظافرون بكل خير، الفائزون بكل مطلب، و قد تقدم تفسير هذه الآية إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فتصرفون أموالكم فى وجوه الخير بإخلاص نية و طيب نفس يُضاعِفْهُ لَكُمْ فيجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، و قد تقدم تفسير هذه الآية و اختلاف القراء فى قراءتها فى سورة البقرة و سورة الحديد وَ يَغْفِرْ لَكُمْ أى: يضمّ لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة، و لا يعاجل من عصاه بالعقوبة عالِمُ الْغَيْبِ

وَ الشَّهادَةِ أی: ما غاب و ما حضر لا تخفی علیه منه خافیة، و هو الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ أی: الغالب القاهر، ذو الحکمة الباهرة. و قال ابن الأنباری: الحکیم: هو المحکم لخلق الأشیاء.

و قد أخرج الفریابی و عبد بن حمید، و الترمذی و صحّحه، و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی، و الحاکم و صحّحه، و ابن مردویه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآیة یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِکُمْ وَ أَوْلادِکُمْ عَدُوًّا لَکُمْ فَاحْذَرُوهُمْ فی قوم من أهل مکة أسلموا و أرادوا أن یأتوا النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، فأبی أزواجهم و أولادهم أن یدعوهم، فلما أتوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فرأوا الناس قد فقهوا فی الدین هموا أن یعاقبوهم، فنزلت إلی قوله: فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ و أخرج ابن أبی شیبة و أحمد و أبو داود و الترمذی و النسائی و ابن ماجة،

---

(۱). آل عمران: ۱۰۲.

(۲). آل عمران: ۱۰۲.

فتح القدیر، ج‌۵، ص: ۲۸۶

و الحاکم و صحّحه، و ابن مردویه عن بریدة قال: کان النبی صلّی اللّه علیه و سلّم یخطب، فأقبل الحسن و الحسین علیهما قمیصان أحمران یمشیان و یعثران، فنزل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم من المنبر فحملهما واحدا من ذا الشقّ و واحدا من ذا الشقّ، ثم صعد المنبر فقال: «صدق اللّه: إِنَّما أَمْوالُکُمْ وَ أَوْلادُکُمْ فِتْنَةٌ، إنی لما نظرت إلی هذین الغلامین یمشیان و یعثران لم أصبر أن قطعت کلامی و نزلت إلیهما». و أخرج ابن جریر، و الحاکم و صحّحه، عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «یقول اللّه: استقرضت عبدی، فأبی أن یقرضنی، و شتمنی عبدی و هو لا یدری، یقول: وا دهراه وا دهراه و أنا الدهر، ثم تلا أبو هریرة: إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً یُضاعِفْهُ لَکُمْ .

فتح القدیر، ج‌۵، ص: ۲۸۷

سورة الطّلاق

اشارة

و هی مدنیة. قال القرطبی: فی قول الجمیع. و أخرج ابن الضریس و ابن النحاس و ابن مردویه و البیهقی عن ابن عباس قال: نزلت سورة الطلاق بالمدینة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة الطلاق (۶۵): الآیات ۱ الی ۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّکُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُیُوتِهِنَّ وَ لا یَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ یَأْتِینَ بِفاحِشَةٍ مُبَیِّنَةٍ وَ تِلْکَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ یَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِی لَعَلَّ اللَّهَ یُحْدِثُ بَعْدَ ذلِکَ أَمْراً (۱) فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِکُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ أَشْهِدُوا ذَوَیْ عَدْلٍ مِنْکُمْ وَ أَقِیمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِکُمْ یُوعَظُ بِهِ مَنْ کانَ یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ یَتَّقِ اللَّهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (۲) وَ یَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لا یَحْتَسِبُ وَ مَنْ یَتَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ

أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (٣) وَ اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (۴)

ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (۵)

قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ نادى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أولا تشريفا له، ثم خاطبه مع أمته، أو الخطاب له خاصة، و الجمع للتعظيم، و أمته أسوته فى ذلك، و المعنى: إذا أردتم تطليقهن و عزمتم عليه فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ أى: مستقبلات لعدتهن، أو فى قبل عدتهن، أو لقبل عدتهن. و قال الجرجانى: إن اللام فى «لعدتهن» بمعنى فى، أى: فى عدتهن. و قال أبو حيان: هو على حذف مضاف، أى: لاستقبال عدتهن، و اللام للتوقيت، نحو: لقيته لليلة بقيت من شهر كذا. و المراد أن يطلقوهن فى طهر لم يقع فيه جماع ثم يتركن حتى تنقضى عدتهن، فإذا طلقوهن هكذا فقد طلقوهنّ لعدتهنّ، و سيأتى بيان هذا من السنة فى آخر البحث إن شاء اللّه وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ أى: احفظوها، و احفظوا الوقت الّذى وقع فيه الطلاق حتى تتم العدة، و هى ثلاثة قروء، و الخطاب للأزواج، و قيل: للزوجات، و قيل: للمسلمين على العموم، و الأول أولى لأن الضمائر كلها لهم وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ فلا تعصوه فيما أمركم و لا تضاروهن لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ أى: التى كنّ فيها عند الطلاق ما دمن فى العدة، و أضاف البيوت إليهنّ و هى لأزواجهنّ لتأكيد النهى، و بيان

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۸۸

كمال استحقاقهنّ للسكنى فى مدّة العدّة، و مثله قوله: وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ «۱» و قوله:

وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ «۲» ثم لما نهى الأزواج عن إخراجهن من البيوت التى وقع الطلاق و هنّ فيها نهى الزوجات عن الخروج أيضا، فقال: وَ لا يَخْرُجْنَ أى: لا يخرجن من تلك البيوت ما دمن فى العدّة؛ إلا لأمر ضرورى كما سيأتى بيان ذلك، و قيل: المراد لا يخرجن من أنفسهن إلا إذا أذن لهنّ الأزواج فلا بأس، و الأول أولى إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ هذا الاستثناء هو من الجملة الأولى، أى: لا تخرجوهن من بيوتهن، لا من الجملة الثانية. قال الواحدى: أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا الزنا، و ذلك أن تزنى فتخرج لإقامة الحدّ عليها. و قال الشافعى و غيره: هى البذاء فى اللسان و الاستطالة بها على من هو ساكن معها فى ذلك البيت، و يؤيد هذا ما قال عكرمة: إن فى مصحف أبيّ «إلا أن يفحشن عليكم» و قيل: المعنى:

إلا أن يخرجن تعديا، فإنّ خروجهن على هذا الوجه فاحشة، و هو بعيد، و الإشارة بقوله: وَ تِلْكَ إلى ما ذكر من الأحكام، و هو مبتدأ، و خبره حُدُودُ اللَّهِ و المعنى: إن هذه الأحكام التى بيّنها لعباده هى حدوده التى حدّها لهم، لا يحل لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ أى: يتجاوزها إلى غيرها، أو يخلّ بشى‌ء منها فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بإيرادها مورد الهلاك، و أوقعها فى مواقع الضرر بعقوبة اللّه له على مجاوزته لحدوده و تعديه لرسمه، و جملة: لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها و تعليله. قال القرطبى: قال جميع المفسرين: أراد بالأمر هنا الرغبة فى الرجعة؛ و المعنى:

التحريض على طلاق الواحدة و النهى عن الثلاث، فإنه إذا طلق ثلاثا أضرّ بنفسه عند الندم على الفراق و الرغبة فى الارتجاع، فلا يجد إلى المراجعة سبيلا. و قال مقاتل بعد ذلك: أى بعد طلقة أو طلقتين أمرا بالمراجعة.

قال الواحدى: الأمر الّذى يحدث أن يوقع فى قلب الرجل المحبة لرجعتها بعد الطلقة و الطلقتين. قال الزجاج:

و إذا طلّقها ثلاثا فى وقت واحد فلا معنى لقوله: لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً. فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ أى: قاربن انقضاء أجل العدة، و شارفن آخرها فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أى: راجعوهنّ بحسن معاشرة و رغبة فيهنّ من غير قصد إلى مضارة لهنّ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أى: اتركوهن حتى تنقضى عدتهنّ، فيملكن نفوسهن مع إيفائهنّ بما هو لهنّ عليكم من الحقوق و ترك المضارة لهنّ وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ على الرجعة، و قيل: على الطلاق، و قيل: عليهما قطعا للتنازع و حسما لمادة الخصومة، و الأمر للندب

كما فى قوله: وَ أَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ و قيل: إنه للوجوب، و إليه ذهب الشافعى، قال: الإشهاد واجب فى الرجعة، مندوب إليه فى الفرقة، و إليه ذهب أحمد بن حنبل. و فى قول للشافعى: إن الرجعة لا تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق، و روى نحو هذا عن أبى حنيفة و أحمد وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ هذا أمر للشهود بأن يأتوا بما شاهدوا به تقرّبا إلى اللّه، و قد تقدم تفسير هذا فى سورة البقرة. و قيل: الأمر للأزواج بأن يقيموا الشهادة، أى: الشهود عند الرجعة، فيكون قوله: وَ أَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ أمرا بنفس الإشهاد، و يكون قوله: وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ أمرا بأن تكون خالصة للّه، و الإشارة بقوله: ذٰلِكُمْ

---

(۱). الأحزاب: ۳۳.

(۲). الأحزاب: ۳۴.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۸۹

إلى ما تقدم من الأمر بالإشهاد و إقامة الشهادة للّه، و هو مبتدأ و خبره يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ و خصّ المؤمن باللّه و اليوم الآخر؛ لأنه المنتفع بذلك دون غيره وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً أى: من يتّق عذاب اللّه بامتثال أوامره و اجتناب نواهيه و الوقوف على حدوده التى حدّها لعباده و عدم مجاوزتها يجعل له مخرجا مما وقع فيه من الشدائد و المحن وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ أى: من وجه لا يخطر بباله و لا يكون فى حسابه. قال الشعبى و الضحاك: هذا فى الطلاق خاصة، أى: من طلّق كما أمره اللّه يكن له مخرج فى الرجعة فى العدة، و أنه يكون كأحد الخطّاب بعد العدة. و قال الكلبى: و من يتق اللّه بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجا من النار إلى الجنة. و قال الحسن: مخرجا ممّا نهى اللّه عنه. و قال أبو العالية: مخرجا من كل شى‌ء ضاق على الناس. و قال الحسين بن الفضل: و من يتق اللّه فى أداء الفرائض يجعل له مخرجا من العقوبة و يرزقه الثواب من حيث لا يحتسب، أى: يبارك له فيما آتاه. و قال سهل بن عبد اللّه: و من يتق اللّه فى اتباع السنة يجعل له مخرجا من عقوبة أهل البدع و يرزقه الجنة من حيث لا يحتسب، و قيل غير ذلك.

و ظاهر الآية العموم، و لا وجه للتخصيص بنوع خاص و يدخل ما فيه السياق دخولا أوليا وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ أى: و من وثق باللّه فيما نابه كفاه ما أهمّه إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قرأ الجمهور: «بالغ أمره» بتنوين بالغ و نصب أمره، و قرأ حفص بالإضافة، و قرأ ابن أبى عبلة و داود بن أبى هند و أبو عمرو فى رواية عنه بتنوين بالغ و رفع أمره على أنه فاعل بالغ، أو على أن أمره مبتدأ مؤخر، و بالغ خبر مقدم. قال الفراء فى توجيه هذه القراءة: أى أمره بالغ؛ و المعنى على القراءة الأولى و الثانية: أن اللّه سبحانه بالغ ما يريده من الأمر، لا يفوته شى‌ء، و لا يعجزه مطلوب، و على القراءة الثالثة: أن اللّه نافذ أمره لا يردّه شى‌ء. و قرأ المفضّل: «بالغا» بالنصب على الحال، و يكون خبر إن قوله: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْ‌ءٍ قَدْراً أى: تقديرا و توقيتا، أو مقدارا. فقد جعل سبحانه للشدة أجلا تنتهى إليه، و للرخاء أجلا ينتهى إليه. و قال السدى: هو قدر الحيض و العدة وَ اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ و هنّ الكبار اللاتى قد انقطع حيضهن و أيسن منه إِنِ ارْتَبْتُمْ أى: شككتم و جهلتم كيف عدتهن فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ لصغرهن و عدم بلوغهن سن المحيض، أى: فعدتهنّ ثلاثة أشهر، و حذف هذا لدلالة ما قبله عليه وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ أى: انتهاء عدتهن وضع الحمل، و ظاهر الآية أن عدة الحوامل بالوضع، سواء كن مطلقات أو متوفّى عنهن، و قد تقدم الكلام فى هذا فى سورة البقرة مستوفى، و حقّقنا البحث فى هذه الآية، و فى الآية الأخرى وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً «۱» و قيل: معنى إِنِ ارْتَبْتُمْ إن تيقنتم، و رجّح ابن جرير أنه بمعنى الشك و هو الظاهر. قال الزجاج: إن ارتبتم فى حيضها و قد انقطع عنها الحيض و كانت ممّن يحيض مثلها. و قال مجاهد: إِنِ ارْتَبْتُمْ يعنى لم تعلموا عدة الآيسة و التى لم تحض فالعدة هذه. و قيل: المعنى: إن ارتبتم فى الدم الّذى يظهر منها هل هو حيض

أم لا بل استحاضة؛ فالعدة ثلاثة أشهر وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً أی: من يتّقه فی امتثال

---

(۱). البقرة: ۲۳۴.

أوامره و اجتناب نواهيه يسهل عليه أمره فی الدنيا و الآخرة. و قال الضحاك: من يتّق اللّه فليطلق للسّنّة يجعل له من أمره يسرا فی الرجعة. و قال مقاتل: من يتق اللّه فی اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرا فی توفيقه للطاعة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر من الأحكام، أی: ذلك المذكور من الأحكام أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ أی: حكمه الّذی حكم به بين عباده و شرعه الّذی شرعه لهم، و معنى أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ أنزله فی كتابه على رسوله و بيّنه لكم و فصل أحكامه و أوضح حلاله و حرامه وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ بترك ما لا يرضاه يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ التی اقترفها، لأن التقوى من أسباب المغفرة للذنوب وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً أی: يعطه من الأجر فی الآخرة أجرا عظيما و هو الجنة.

و قد أخرج ابن أبی حاتم عن أنس قال: طلّق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حفصة فأتت أهلها، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ فقيل له: راجعها فإنها صوّامة قوامة، و هی من أزواجك فی الجنة. و أخرجه ابن جرير عن قتادة مرسلا. و أخرج الحاكم عن ابن عباس قال: طلّق عبد يزيد أبو ركانة أمّ ركانة، ثم نكح امرأة من مزينة، فجاءت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالت: يا رسول اللّه ما يغنی عنی إلا ما تغنی عنی هذه الشعرة، لشعرة أخذتها من رأسها، فأخذت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حميّة عند ذلك، فدعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ركانة و إخوته، ثم قال لجلسائه: أ ترون كذا من كذا؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعبد يزيد: طلّقها، ففعل، فقال لأبی ركانة: ارتجعها، فقال: يا رسول اللّه إنی طلقتها، قال: قد علمت ذلك فارتجعها، فنزلت:

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ قال الذهبی: إسناده واه، و الخبر خطأ، فإن عبد يزيد لم يدرك الإسلام. و أخرج البخاری و مسلم و غيرهما عن ابن عمر: «أنه طلق امرأته و هی حائض، فذكر ذلك عمر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فتغيّظ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثم قال: ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض و تطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها، فتلك العدة التی أمر اللّه أن يطلق لها النساء، و قرأ النبی صلّى اللّه عليه و سلّم «يا أيها النّبی إذا طلّقتم النساء فطلقوهن فی قبل عدتهن»». و أخرج عبد الرزاق فی المصنف، و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عمر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ: «فطلّقوهن فی قبل عدتهن». و أخرج ابن الأنباری عن ابن عمر أنه قرأ: «فطلّقوهن لقبل عدتهن». و أخرج ابن الأنباری و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و البيهقی عن مجاهد أنه قرأ كذلك. و أخرج عبد الرزاق، و أبو عبيد فی فضائله، و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن مردويه و البيهقی عن ابن عباس أنه قرأ كذلك. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: من أراد أن يطلق للسنة كما أمره اللّه، فليطلقها طاهرا فی غير جماع. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس فی قوله: فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ قال: طاهرا من غير جماع. و فی الباب أحاديث. و أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ قال: الطلاق طاهرا فی غير جماع.

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقی فی سننه عن ابن عمر فی قوله: وَ لا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ قال: خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها هی

الفاحشة المبينة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ قال: الزنا.
و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن راهويه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه و البيهقى من طرق عن ابن عباس قال: الفاحشة المبينة أن تبذو «۱» المرأة على أهل الرجل، فإذا بذت عليهم بلسانها فقد حلّ لهم إخراجها. و أخرج ابن أبى حاتم عن فاطمة بنت قيس فى قوله: لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً قالت: هى الرجعة. و أخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين أن رجلا سأل عمران بن حصين: أن رجلا طلق و لم يشهد، و أرجع و لم يشهد. قال: بئس ما صنع، طلق فى بدعة، و ارتجع فى غير سنّة، فليشهد على طلاقه و على مراجعته و يستغفر اللّه. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً قال: مخرجه أن يعلم أنه قبل أمر اللّه، و أن اللّه هو الّذى يعطيه و هو يمنعه، و هو يبتليه و هو يعافيه، و هو يدفع عنه، و فى قوله: وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ قال: من حيث لا يدرى. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:
وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً قال: ينجيه من كل كرب فى الدنيا و الآخرة. و أخرج الحاكم و صحّحه، و ضعّفه الذهبى، من طريق سالم بن أبى الجعد عن جابر قال: نزلت هذه الآية وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً فى رجل من أشجع كان فقيرا، خفيف ذات اليد، كثير العيال، فأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال:
اتق اللّه و اصبر، فلم يلبث إلا يسيرا حتى جاء ابن له بغنم كان العدوّ أصابوه، فأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فسأله عنها و أخبره خبرها، فقال: كلها، فنزلت وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ الآية. و أخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: «جاء عوف بن مالك الأشجعى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه إن ابنى أسره العدو و جزعت أمه، فما تأمرنى؟ قال: آمرك و إياها أن تستكثرا من قول: لا حول و لا قوة إلا باللّه، فقالت المرأة: نعم ما أمرك، فجعلا يكثران منها، فتغفّل عنه العدو، فاستاق غنمهم، فجاء بها إلى أبيه، فنزلت: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» الآية. و فى الباب روايات تشهد لهذا.
و أخرج ابن أبى حاتم عن عائشة فى الآية قالت: يكفيه همّ الدنيا و غمّها. و أخرج أحمد و صحّحه، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى المعرفة، و البيهقى عن أبى ذرّ قال: «جعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يتلو هذه الآية: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ فجعل يردّدها حتى نعست، ثم قال: يا أبا ذرّ لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم» و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ قال: ليس المتوكّل الّذى يقول: تقضى حاجتى، و ليس كل من يتوكل على اللّه كفاه ما أهمّه، و دفع عنه ما يكره، و قضى حاجته، و لكن اللّه جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفّر عنه سيئاته، و يعظم له أجرا، و فى قوله: إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قال: يقول قاضى أمره على من توكل و على من لم يتوكل، و لكن المتوكل يكفر عنه سيئاته و يعظم له أجرا، و فى قوله: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً قال: يعنى أجلا و منتهى ينتهى إليه. و أخرج ابن المبارك و الطيالسى و أحمد و عبد بن حميد

---

(۱). تبذو: تفحش فى القول.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۹۲

و الترمذى و النسائى و ابن ماجة و أبو يعلى و الحاكم، و صحّحه، و البيهقى عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو أنكم توكلتم على اللّه حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصا و تروح بطانا».
و أخرج إسحاق بن راهويه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن أبىّ بن كعب: أن ناسا من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية فى البقرة فى عدة النساء قالوا: لقد بقى من عدة النساء عددا لم تذكر فى القرآن: الصغار و الكبار اللاتى قد انقطع حيضهن و ذوات الحمل، فأنزل اللّه: وَ اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ الآية. و أخرج عبد

اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و أبو يعلى، و الضياء فى المختارة، و ابن مردويه عن أبى بن كعب قال: «قلت للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ أهى المطلقة ثلاثا، أو المتوفّى عنها؟ قال: هى المطلقة ثلاثا و المتوفى عنها». و أخرج نحوه عنه مرفوعا ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و الدار قطنى من وجه آخر. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و أبو داود و النسائى و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه من طرق عن ابن مسعود أنه بلغه أن عليا قال: تعتدّ آخر الأجلين، فقال: من شاء لاعنته، إن الآية التى فى سورة النساء القصرى «١» نزلت بعد سورة البقرة وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ بكذا و كذا أشهرا، و كل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها. و روى نحو هذا عنه من طرق و بعضها فى صحيح البخارى. و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما من حديث أم سلمة: أن سبيعة الأسلمية توفى عنها زوجها و هى حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و فى الباب أحاديث.

[سورة الطلاق (٦٥): الآيات ٦ الى ٧]

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَ لا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَ إِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ ما آتاها سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (٧)

قوله: أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ هذا كلام مبتدأ يتضمّن بيان ما يجب للنساء من السكنى، و من للتبعيض، أى: بعض مكان سكناكم، و قيل: زائدة مِنْ وُجْدِكُمْ أى: من سعتكم و طاقتكم، و الوجد: القدرة. قال الفراء: يقول: على ما يجد، فإن كان موسعا عليه وسع عليها فى المسكن و النفقة، و إن كان فقيرا فعلى قدر ذلك. قال قتادة: إن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه.

و قد اختلف أهل العلم فى المطلقة ثلاثا، هل لها سكنى و نفقة أم لا؟ فذهب مالك و الشافعى أن لها السكنى و لا نفقة لها. و ذهب أبو حنيفة و أصحابه أن لها السكنى و النفقة. و ذهب أحمد و إسحاق و أبو ثور أنه لا نفقة

---

(١). أى سورة الطلاق.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٩٣

لها و لا سكنى، و هذا هو الحق، و قد قررته فى شرحى للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره. وَ لا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَ نهى سبحانه عن مضارتهن بالتضييق عليهن فى المسكن و النفقة. و قال مجاهد: فى المسكن.

و قال مقاتل: فى النفقة. و قال أبو الضحى: هو أن يطلّقها، فإذا بقى يومان من عدّتها راجعها، ثم طلّقها.

وَ إِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ أى: إلى غاية هى وضعهن للحمل. و لا خلاف بين العلماء فى وجوب النفقة و السكنى للحامل المطلقة؛ فأما الحامل المتوفى عنها زوجها، فقال على و ابن عمر و ابن مسعود و شريح و النخعى و الشعبى و حماد و ابن أبى ليلى و سفيان و أصحابه: ينفق عليها من جميع المال حتى تضع. و قال ابن عباس و ابن الزبير و جابر بن عبد اللّه و مالك و الشافعى و أبو حنيفة و أصحابه: لا ينفق عليها إلا من نصيبها، و هذا هو الحق للأدلة الواردة فى ذلك من السنة فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ أولادكم بعد ذلك فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَ أى: أجور إرضاعهن، و المعنى: أن المطلقات إذا أرضعن أولاد الأزواج المطلقين لهن منهن فلهن أجورهن على ذلك وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ هو خطاب للأزواج و الزوجات، أى: تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر، و ليقبل بعضكم من بعض [ما أمره به «١» من المعروف الجميل، و أصل معناه ليأمر بعضكم

بعضا بما هو متعارف بين الناس غير منكر عندهم. قال مقاتل: المعنى ليتراض الأب و الأم على أجر مسمّى، قيل: و المعروف الجميل من الزوج أن يوفّر لها الأجر، و المعروف الجميل منها أن لا تطلب ما يتعاسره الزوج من الأجر وَ إِنْ تَعاسَرْتُمْ أى: فى أجر الرضاع فأبى الزوج أن يعطى الأم الأجر، و أبت الأم أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى أى: يستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده، و لا يجب عليه أن يسلم ما تطلبه الزوجة، و لا يجوز له أن يكرهها على الإرضاع بما يريد من الأجر. قال الضحاك: إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ أى: كان رزقه بمقدار القوت، أو مضيق ليس بموسع فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ أى: ممّا أعطاه من الرزق ليس عليه غير ذلك لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها أى: ما أعطاها من الرزق، فلا يكلّف الفقير بأن ينفق ما ليس فى وسعه، بل عليه ما يقدر عليه و تبلغ إليه طاقته مما أعطاه اللّه من الرزق سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً أى: بعد ضيق و شدة سعة و غنى.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: مِنْ وُجْدِكُمْ قال: من سعتكم وَ لا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَ قال: فى المسكن. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: وَ إِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ الآية، قال: فهذه فى المرأة يطلّقها زوجها و هى حامل، فأمره اللّه أن يسكنها و ينفق عليها حتى تضع، و إن أرضعت حتى تفطم، فإن أبان طلاقها و ليس بها حمل فلها السكنى حتى تنقضى عدتها و لا نفقة لها. و أخرج عبد بن حميد عن أبى سنان قال: سأل عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة، فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب و يأكل

---

(١). من تفسير القرطبى (١٨/ ١٦٩)

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢٩٤

أخشن الطعام، فبعث إليه بألف دينار، و قال للرسول: انظر ماذا يصنع بها إذا أخذها؟ فما لبث أن لبس ألين الثياب، و أكل أطيب الطعام، فجاء الرسول فأخبره، فقال: رحمه اللّه، تأوّل هذه الآية لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ

[سورة الطلاق (٦٥): الآيات ٨ الى ١٢]

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَ رُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً (٨) فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَ كانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (١٠) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢)

لما ذكر سبحانه ما تقدم من الأحكام، حذّر من مخالفتها، و ذكر عتوّ قوم خالفوا أوامره، فحلّ بهم عذابه، فقال: وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَ رُسُلِهِ يعنى عصت، و المراد أهلها، و المعنى: و كم من أهل قرية عصوا أمر اللّه و رسله، أو أعرضوا عن أمر اللّه و رسله؛ على تضمين عتت معنى أعرضت، و قد قدّمنا الكلام فى كأين فى سورة آل عمران و غيرها فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً أى: شددنا على أهلها فى الحساب بما عملوا. قال مقاتل: حاسبها اللّه بعملها فى الدنيا فجازاها بالعذاب، و هو معنى قوله: وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً أى: عذّبنا أهلها عذابا عظيما منكرا فى الآخرة، و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: عذّبنا أهلها عذابا نكرا فى الدنيا بالجوع و القحط و السيف و الخسف و المسخ، و حاسبناهم فى الآخرة حسابا شديدا. و النكر المنكر فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها

أی: عاقبة کفرها وَ کانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً أی: هلاکا فی الدنیا و عذابا فی الآخرة أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِیداً فی الآخرة، و هو عذاب النار، و التکریر للتأکید فَاتَّقُوا اللَّهَ یا أُولِی الْأَلْبابِ أی: یا أولی العقول الراجحة، و قوله: الَّذِینَ آمَنُوا فی محل نصب بتقدیر، أعنی بیانا للمنادی بقوله: یا أُولِی الْأَلْبابِ أو عطف بیان له، أو نعت قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَیْکُمْ ذِکْراً- رَسُولًا قال الزجاج: إنزال الذکر دلیل علی إضمار أرسل، أی: أنزل إلیکم قرآنا، و أرسل إلیکم رسولا. و قال أبو علی الفارسی: إن رسولا منصوب بالمصدر، و هو ذکرا؛ لأن المصدر المنوّن یعمل. و المعنی: أنزل إلیکم ذکر الرسول. و قیل: إن رسولا بدل من ذکرا، و کأنه جعل الرسول نفس الذکر مبالغة. و قیل: إنه بدل منه علی حذف مضاف من الأول تقدیره: أنزل ذا ذکر رسولا، أو صاحب ذکر رسولا. و قیل: إن رسولا نعت علی حذف مضاف، أی: ذکرا ذا رسول، فذا رسول نعت للذکر.

و قیل: إن «رسولا» بمعنی رسالة، فیکون «رسولا» بدلا صریحا من غیر تأویل، أو بیانا.

و قیل: إن رسولا منتصب علی الإغراء، کأنه قال: الزموا رسولا. و قیل: إن الذکر ها هنا بمعنی الشرف

فتح القدیر، ج‌5، ص: 295

کقوله: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَیْکُمْ کِتاباً فِیهِ ذِکْرُکُمْ «1» و قوله: وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ «2». ثم بیّن هذا الشرف فقال: رَسُولًا و قد ذهب الأکثر إلی أن المراد بالرسول هنا محمد صلّی اللّه علیه و سلّم. و قال الکلبی: هو جبریل، و المراد بالذکر القرآن، و یختلف المعنی باختلاف وجوه الإعراب السابقة کما لا یخفی. ثم نعت سبحانه الرسول المذکور بقوله: یَتْلُوا عَلَیْکُمْ آیاتِ اللَّهِ مُبَیِّناتٍ أی: حال کونها مبینات، قرأ الجمهور:

«مبینات» علی صیغة اسم المفعول، أی: بینها اللّه و أوضحها، و قرأ ابن عامر و حفص و حمزة و الکسائی علی صیغة اسم الفاعل، أی: الآیات تبین للناس ما یحتاجون إلیه من الأحکام. و رجّح القراءة الأولی أبو حاتم و أبو عبید لقوله: قَدْ بَیَّنَّا لَکُمُ الْآیاتِ* لِیُخْرِجَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ اللام متعلقة بیتلو، أی: لیخرج الرسول الّذی یتلو الآیات الذین آمنوا و عملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلی نور الهدایة، و یجوز أن تتعلق اللام بأنزل، فیکون المخرج هو اللّه سبحانه وَ مَنْ یُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ یَعْمَلْ صالِحاً أی: یجمع بین التصدیق، و العمل بما فرضه اللّه علیه، مع اجتناب ما نهاه عنه یُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ قرأ الجمهور: «یُدْخِلْهُ» بالتحتیة، و قرأ نافع و ابن عامر بالنون، و جمع الضمیر فی خالِدِینَ فِیها أَبَداً باعتبار معنی من، و وحّده فی «یُدْخِلْهُ»* باعتبار لفظها، و جملة قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً فی محل نصب علی الحال من الضمیر فی خالدین علی التدخل، أو من مفعول یدخله علی الترادف؛ و معنی قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً أی: وسّع له رزقه فی الجنة اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ الاسم الشریف مبتدأ و خبره الموصول مع صلته وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ أی: و خلق من الأرض مثلهن یعنی سبعا.

و اختلف فی کیفیة طبقات الأرض. قال القرطبی فی تفسیره: و اختلف فیهنّ علی قولین: أحدهما: و هو قول الجمهور أنها سبع أرضین طباقا بعضها فوق بعض، بین کل أرض و أرض مسافة کما بین السماء و السماء، و فی کل أرض سکان من خلق اللّه. و قال الضحاک: إنها مطبقة بعضها علی بعض من غیر فتوق بخلاف السموات. و الأول أصح «3»؛ لأن الأخبار دالة علیه فی الترمذی و النسائی و غیرهما، و قد مضی ذلک مبینا فی البقرة قال: و فی صحیح مسلم عن سعید بن زید قال: سمعت النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم یقول: «من أخذ شبرا من الأرض ظلما فإنه یطوّقه یوم القیامة من سبع أرضین» إلی آخر کلامه، و سیأتی فی آخر البحث ما یقوی قول الجمهور. قرأ الجمهور: «مثلهنّ» بالنصب عطفا علی «سبع سموات» أو علی تقدیر فعل، أی: و خلق من الأرض مثلهنّ. و قرأ عاصم فی روایة عنه بالرفع علی الابتداء، و الجار و المجرور قبله خبره یَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَیْنَهُنَ الجملة مستأنفة، و یجوز أن تکون صفة لما قبلها، و الأمر الوحی. قال مجاهد: یتنزل الأمر من السموات السبع إلی الأرضین السبع. و قال الحسن: بین کل سماءین أرض و أمر. و قال قتادة: فی کل أرض من أرضه و سماء من سمائه خلق من خلقه، و أمر من أمره، و قضاء من

قضائه، و قيل: بينهنّ إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التى هى أدناها، و بين السماء السابعة التى هى أعلاها، و قيل: هو ما يدبّر فيهن

---

(١). الأنبياء: ١٠.

(٢). الزخرف: ۴۴.

(٣). هذا الكلام لا يعتمد على قرآن أو سنّة، و قد أثبت العلم خلافه.

فتح القدير، ج۵، ص: ٢٩۶

من عجيب تدبيره، فينزل المطر و يخرج النبات، و يأتى بالليل و النهار، و الصيف و الشتاء، و يخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها و هيئاتها فينقلهم من حال إلى حال. قال ابن كيسان: و هذا هو مجال اللغة و اتساعها، كما يقال للموت: أمر اللّه، و للريح و السحاب و نحوها. قرأ الجمهور: «يتنزل الأمر» من التنزل و رفع الأمر على الفاعلية، و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه «ينزل» من الإنزال، و نصب الأمر على المفعولية و الفاعل اللّه سبحانه، و اللام فى لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ متعلق بخلق، أو بيتنزل أو بمقدر، أى: فعل ذلك لتعلموا كمال قدرته و إحاطته بالأشياء، و هو معنى وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً فلا يخرج عن علمه شىء منها كائنا ما كان، و انتصاب علما على المصدرية، لأن أحاط بمعنى علم، أو هو صفة لمصدر محذوف، أى: أحاط إحاطة علما، و يجوز أن يكون تمييزا.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً يقول: لم ترحم وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً يقول: عظيما منكرا. و أخرج ابن مردويه قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً- رَسُولًا قال: محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال له رجل: اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَ إلى آخر السورة، فقال ابن عباس:

ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر؟. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، من طريق أبى الضحى عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَ قال: سبع أرضين فى كلّ أرض نبى كنبيكم، و آدم كآدم، و نوح كنوح، و إبراهيم كإبراهيم، و عيسى كعيسى. قال البيهقى: هذا إسناده صحيح، و هو شاذ بمرة، لا أعلم لأبى الضحى عليه متابعا. و أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عمرو قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن الأرضين بين كل أرض و التى تليها مسيرة خمسمائة عام، و العليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه فى السماء، و الحوت على صخرة، و الصخرة بيد ملك. و الثانية مسخر الريح، فلما أراد اللّه أن يهلك عادا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا يهلك عادا، فقال: يا رب أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور؟ فقال له الجبار: إذن تكفأ «١» الأرض و من عليها، و لكن أرسل عليهم بقدر خاتم، فهى التى قال اللّه فى كتابه: ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ «٢». و الثالثة فيها حجارة جهنم، و الرابعة فيها كبريت جهنم، فقالوا: يا رسول اللّه أ للنار كبريت؟ قال: نعم، و الّذى نفسى بيده؛ إن فيها لأودية من كبريت، لو أرسل فيها الجبال الرواسى لماعت» إلى آخر الحديث. قال الذهبى متعقبا للحاكم: هو حديث منكر. و أخرج عثمان بن سعيد الدارمى عن ابن عباس قال: سيد السموات السماء التى فيها العرش، و سيد الأرضين الأرض التى نحن فيها.

---

(١). فى المستدرك للحاكم: تكفى.

(٢). الذاريات: ۴٢.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۲۹۷

سورة التّحريم

اشارة

و هى مدنية. قال القرطبى: فى قول الجميع، و تسمى سورة النبى. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة التحريم بالمدينة، و لفظ ابن مردويه سورة المحرم. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت بالمدينة سورة النساء يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التحريم (۶۶): الآيات ۱ الى ۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۲) وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (۳) إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ (۴)
عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً (۵)

قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ اختلف فى سبب نزول الآية على أقوال: الأول قول أكثر المفسرين. قال الواحدى: قال المفسرون: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى بيت حفصة فزارت أباها، فلما رجعت أبصرت مارية فى بيتها مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت، فلما رأى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى وجه حفصة الغيرة و الكآبة قال لها: لا تخبرى عائشة و لك على أن لا أقربها أبدا، فأخبرت حفصة عائشة و كانتا متصافيتين، فغضبت عائشة و لم تزل بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم حتى حلف أن لا يقرب مارية، فأنزل اللّه هذه السورة.

قال القرطبى: أكثر المفسرين على أن الآية نزلت فى حفصة، و ذكر القصة. و قيل: السبب أنه كان صلّى اللّه عليه و سلّم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة و حفصة أن تقولا له إذا دخل عليهما: إنا نجد منك ريح مغافير. و قيل: السبب المرأة التى وهبت نفسها للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و سيأتى دليل هذه الأقوال آخر البحث إن شاء اللّه، و ستعرف كيفية الجمع بينهما، و جملة تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ مستأنفة، أو مفسرة لقوله:

«تحرّم»، أو فى محل نصب على الحال من فاعل تحرم، أى: مبتغيا به مرضاة أزواجك، و مرضاة اسم مصدر، و هو الرضى، و أصله مرضوة، و هو مضاف إلى المفعول، أى: أن ترضى أزواجك، أو إلى الفاعل، أى:

أن يرضين هن وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: بليغ المغفرة و الرحمة لما فرط منك من تحريم ما أحلّ اللّه لك،

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۲۹۸

قيل: و كان لك ذنبا من الصغائر، فلذا عاتبه اللّه عليه، و قيل: إنها معاتبة على ترك الأولى «۱» قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ أى: شرع لكم تحليل أيمانكم، و بيّن لكم ذلك، و تحلة أصلها تحللة، فأدغمت.

و هى من مصادر التفعيل كالتوصية و التسمية، فكأن اليمين عقد، و الكفّارة حلّ، لأنها تحلّ للحالف ما حرّمه على نفسه. قال مقاتل: المعنى قد بيّن اللّه كفّارة أيمانكم فى سورة المائدة. أمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يكفر يمينه و يراجع وليدته فأعتق رقبة. قال الزجاج: و ليس لأحد أن يحرم ما أحلّ اللّه.

قلت: و هذا هو الحق أن تحريم ما أحل اللّه لا ينعقد و لا يلزم صاحبه. فالتحليل و التحريم هو إلى اللّه سبحانه لا إلى غيره، و معاتبته لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم فى هذه السورة أبلغ دليل على ذلك، و البحث طويل و المذاهب فيه كثيرة و المقالات فيه طويلة، و قد حققناه فى مؤلفاتنا بما يشفى.

و اختلف العلماء هل مجرد التحريم يمين يوجب الكفارة أم لا؟ و فى ذلك خلاف، و ليس فى الآية ما يدل على أنه يمين؛ لأن اللّه سبحانه عاتبه على تحريم ما أحلّه له، ثم قال: قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ و قد ورد فى القصة التى ذهب أكثر المفسرين إلى أنها سبب نزول الآية أنه حرم أولا ثم حلف ثانيا كما قدمنا وَ اللَّهُ مَوْلاكُمْ أى: وليّكم و ناصركم و المتولّى لأموركم وَ هُوَ الْعَلِيمُ بما فيه صلاحكم و فلاحكم الْحَكِيمُ فى أفعاله و أقواله.

وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً قال أكثر المفسرين: هى حفصة كما سبق، و الحديث هو تحريم مارية، أو العسل، أو تحريم التى وهبت نفسها له، و العامل فى الظرف فعل مقدر، أى: و اذكر إذ أسرّ. و قال الكلبى: أسرّ إليها أن أباك و أبا عائشة يكونان خليفتى على أمتى من بعدى فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ أى أخبرت به غيرها وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ أى: أطلع اللّه نبيه على ذلك الواقع منها من الإخبار لغيرها عَرَّفَ بَعْضَهُ أى: عرّف حفصة بعض ما أخبرت به. قرأ الجمهور: «عرف» مشددا من التعريف، و قرأ على و طلحة بن مصرّف و أبو عبد الرّحمن السّلمى و الحسن و قتادة و الكسائى بالتخفيف. و اختار أبو عبيد و أبو حاتم القراءة الأولى لقوله: وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ أى: لم يعرفها إياه، و لو كان مخففا لقال فى ضده: و أنكر بعضا وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ أى و أعرض عن تعريف بعض ذلك كراهة أن ينتشر فى الناس، و قيل: الّذى أعرض عنه هو حديث مارية. و للمفسرين ها هنا خبط و خلط، و كل جماعة منهم ذهبوا إلى تفسير التعريف و الإعراض بما يطابق بعض ما ورد فى سبب النزول، و سنوضح لك ذلك إن شاء اللّه فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ أى:

أخبرها بما أفشت من الحديث قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا أى: من أخبرك به قالَ: نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ أى: أخبرنى الّذى لا تخفى عليه خافية. إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما الخطاب لعائشة و حفصة، أى: إن تتوبا إلى اللّه فقد وجد منكما ما يوجب التوبة، و معنى صَغَتْ عدلت و مالت عن الحق، و هو

---

(١). قال القرطبى (١٨/ ١٨٤): و الصحيح أنه معاتبة على ترك الأولى، و أنّه لم تكن له صغيرة و لا كبيرة.

أنهما أحبتا ما كره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو إفشاء الحديث. و قيل: المعنى: إن تتوبا إلى اللّه فقد مالت قلوبكما إلى التوبة، و قال قلوبكما و لم يقل قلبا كما لأن العرب تستكره الجمع بين تثنيتين فى لفظ واحد وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ أى: تتظاهروا، قرأ الجمهور: «تظاهرا» بحذف إحدى التاءين تخفيفا. و قرأ عكرمة «تتظاهرا» على الأصل. و قرأ الحسن و أبو رجاء و نافع و عاصم فى رواية عنهم «تظّهّرا» بتشديد الظاء و الهاء بدون ألف، و المراد بالتظاهر: التعاضد و التعاون، و المعنى: و إن تعاضدا و تعاونا فى الغيرة عليه منكما و إفشاء سرّه فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ أى: فإن اللّه يتولّى نصره، و كذلك جبريل و من صلح من عباده المؤمنين، فلن يعدم ناصرا ينصره وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ أى: بعد نصر اللّه و نصر جبريل و صالح المؤمنين ظَهِيرٌ أى: أعوان يظاهرونه، و الملائكة مبتدأ، و خبره ظهير. قال أبو على الفارسى: قد جاء فعيل للكثرة، كقوله: وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً

«۱» قال الواحدى: و هذا من الواحد الّذى يؤدى عن الجمع كقوله: وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً «۲» و قد تقرر فى علم النحو أن مثل جريح و صبور و ظهير يوصف به الواحد و المثنى و الجمع. و قيل: كان التّظاهر بين عائشة و حفصة فى التحكم على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى النفقة عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَ أى: يعطيه بدلكن أزواجا أفضل منكن، و قد علم اللّه سبحانه أنه لا يطلقهن، و لكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبدله خيرا منهن تخويفا لهن، و هو كقوله:

وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ «۳» فإنه إخبار عن القدرة و تخويف لهم. ثم نعت سبحانه الأزواج بقوله: مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ أى: قائمات بفرائض الإسلام، مصدّقات باللّه و ملائكته و كتبه و رسله و القدر خيره و شره. و قال سعيد بن جبير: مُسْلِماتٍ أى: مخلصات. و قيل معناه: مسلمات لأمر اللّه و رسوله قانِتاتٍ مطيعات للّه. و القنوت: الطاعة، و قيل: مصلّيات تائِباتٍ يعنى من الذنوب عابِداتٍ للّه متذللات له. قال الحسن و سعيد بن جبير: كثيرات العبادة. سائِحاتٍ أى:

صائمات. و قال زيد بن أسلم: مهاجرات، و ليس فى أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم سياحة إلا الهجرة. قال ابن قتيبة و الفراء و غيرهما: و سمى الصيام سياحة لأن السائح لا زاد معه. و قيل المعنى: ذاهبات فى طاعة اللّه، من ساح الماء إذا ذهب، و أصل السياحة: الجولان فى الأرض، و قد مضى الكلام على السياحة فى سورة براءة. ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً وسط بينهما العاطف لتنافيهما، و الثيبات: جمع ثيب، و هى المرأة التى قد تزوجت ثم ثابت عن زوجها فعادت كما كانت غير ذات زوج. و الأبكار: جمع بكر، و هى العذراء، سميت بذلك لأنها على أول حالها التى خلقت عليه.

و قد أخرج البخارى و غيره عن عائشة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يمكث عند زينب بنت جحش و يشرب عندها لبنا أو عسلا، فتواصيت أنا و حفصة أنّ أيّتنا دخل عليها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فلتقل: إنى أجد منك ريح مغافير، فدخل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش، و لن أعود، فنزلت:

---

(۱). المعارج: ۱۰.

(۲). النساء: ۶۹.

(۳). محمد: ۳۸.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۳۰۰

فتح القدير ج‏۵ ۳۴۹

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ إلى قوله: إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ لعائشة و حفصة وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً لقوله: بل شربت عسلا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند صحيح، عن ابن عباس قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم شرب من شراب عند سودة من العسل، فدخل على عائشة فقالت: إنى أجد منك ريحا، فدخل على حفصة فقالت: إنى أجد منك ريحا، فقال: أراه من شراب شربته عند سودة، و اللّه لا أشربه أبدا، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ الآية». و أخرج ابن سعد عن عبد اللّه بن رافع قال: سألت أم سلمة عن هذه الآية يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ قالت: كانت عندى عكّة «۱» من عسل أبيض، فكان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يلعق منها و كان يحبه، فقالت له عائشة:

نحلها تجرس عرفطا «۲»، فحرّمها، فنزلت الآية. و أخرج النسائى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أنس: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كانت له أمة يطؤها، فلم تزل عائشة و حفصة حتى جعلها على نفسه حراما، فأنزل اللّه هذه الآية يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ و أخرج البزار و الطبرانى، قال السيوطى: بسند صحيح، عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ قال: عائشة و حفصة، و كان بدوّ الحديث فى شأن مارية القبطية أم إبراهيم أصابها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى بيت

حفصة فی یومها، فوجدت حفصة فقالت: یا رسول اللّه لقد جئت إلیّ بشیء ما جئته إلی أحد من أزواجک فی یومی و فی دوری علی فراشی، قال: ألا ترضین أن أحرّمها فلا أقربها أبدا؟ قالت: بلی، فحرّمها و قال: لا تذکری ذلک لأحد، فذکرته لعائشة فأظهره اللّه علیه، فأنزل اللّه: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ لِمَ تُحَرِّمُ الآیات کلها، فبلغنا أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم کفّر عن یمینه، و أصاب ماریة. و أخرجه ابن سعد و ابن مردویه عنه بأطول من هذا. و أخرجه ابن مردویه أیضا من وجه آخر عنه بأخصر منه، و أخرجه ابن المنذر و الطبرانی و ابن مردویه عنه مختصرا بلفظ قال: حرّم سریته، و جعل ذلک سبب النزول فی جمیع ما روی عنه من هذه الطرق، و أخرج الهیثم بن کلیب فی مسنده، و الضیاء المقدسی فی المختارة، من طریق نافع عن ابن عمر قال: قال النبی صلّی اللّه علیه و سلّم لحفصة: لا تحدثی أحدا، و إن أم إبراهیم علیّ حرام، فقالت: أ تحرم ما أحل اللّه لک؟ قال: فو اللّه لا أقربها. فلم یقربها حتی أخبرت عائشة، فأنزل اللّه:

قَدْ فَرَضَ اللّٰهُ لَکُمْ تَحِلَّةَ أَیْمٰانِکُمْ و أخرج الطبرانی فی الأوسط و ابن مردویه عن أبی هریرة أن سبب نزول الآیة تحریم ماریة کما سلف، و سنده ضعیف. فهذان سببان صحیحان لنزول الآیة، و الجمع ممکن بوقوع القصتین: قصة العسل، و قصة ماریة، و أن القرآن نزل فیهما جمیعا، و فی کل واحد منهما أنه أسر الحدیث إلی بعض أزواجه، و أما ما قیل من أن السبب هو تحریم المرأة التی وهبت نفسها، فلیس فی ذلک إلا ما روی ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآیة: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللّٰهُ لَکَ فی المرأة التی وهبت نفسها للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم. قال السیوطی: و سنده ضعیف. و یردّ هذا أیضا أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم لم

---

(۱). «العکة»: زقّ صغیر للسمن.

(۲). «تجرس»: تأکل. و «العرفط»: شجر.

یقبل تلک الواهبة لنفسها، فکیف یصحّ أن یقال إنه نزل فی شأنها: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللّٰهُ لَکَ فإن من ردّ ما وهب له لم یصح أن یقال إنه حرمه علی نفسه، و أیضا لا ینطبق علی هذا السبب قوله: وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِیُّ إِلیٰ بَعْضِ أَزْوٰاجِهِ حَدِیثاً إلی آخر ما حکاه اللّه. و أما ما ثبت فی الصحیحین و غیرهما: أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب عن المرأتین اللتین تظاهرتا علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، فأخبره أنهما عائشة و حفصة، ثم ذکر قصة الإیلاء کما فی الحدیث الطویل، فلیس فی هذا نفی لکون السبب هو ما قدمنا من قصة العسل و قصة السریة، لأنه إنما أخبره بالمتظاهرتین، و ذکر فیه أن أزواج النبی صلّی اللّه علیه و سلّم یراجعنه و تهجره إحداهن الیوم إلی اللیل، و أن ذلک سبب الاعتزال لا سبب نزول: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللّٰهُ لَکَ و یؤید هذا ما قدّمنا عن ابن عباس أنه قال لعمر: من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ فأخبره بأنهما حفصة و عائشة، و بیّن له أن السبب قصة ماریة. هذا ما تیسّر من تلخیص سبب نزول الآیة، و دفع الاختلاف فی شأنه، فاشدد علیه یدیک لتنجو به من الخبط و الخلط الّذی وقع للمفسرین. و أخرج عبد الرزاق و البخاری و ابن مردویه عن ابن عباس قال: فی الحرام یکفر، و قال: لَقَدْ کٰانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللّٰهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ «۱». و أخرج ابن المنذر و الطبرانی و الحاکم و ابن مردویه عنه أنه جاءه رجل فقال: إنی جعلت امرأتی علیّ حراما، فقال: کذبت لیست علیک بحرام، ثم تلا: لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللّٰهُ لَکَ قال: علیک أغلظ الکفّارات عتق رقبة. و أخرج الحارث ابن أبی أسامة عن عائشة قالت: «لما حلف أبو بکر أن لا ینفق علی مسطح، فأنزل اللّه: قَدْ فَرَضَ اللّٰهُ لَکُمْ تَحِلَّةَ أَیْمٰانِکُمْ فأحلّ یمینه و أنفق علیه». و أخرج ابن عدی و ابن عساکر عن عائشة فی قوله: وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِیُّ إِلیٰ بَعْضِ أَزْوٰاجِهِ حَدِیثاً قالت: أسرّ إلیها أن أبا بکر خلیفتی من بعدی. و أخرج ابن عدی، و أبو نعیم فی الصحابة، و العشاری فی فضائل الصدیق، و ابن مردویه و

ابن عساكر من طرق عن عليّ و ابن عباس قال: و اللّه إن إمارة أبى بكر و عمر لفى الكتاب: وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً قال لحفصة: «أبوك و أبو عائشة و اليا الناس بعدى، فإياك أن تخبرى أحدا بهذا». قلت: و هذا ليس فيه أنه سبب نزول قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللّهُ لَكَ بل فيه أن الحديث الّذى أسره صلّى اللّه عليه و سلّم هو هذا، فعلى فرض أن له إسنادا يصلح للاعتبار هو معارض بما سبق من تلك الروايات الصحيحة، و هى مقدّمة عليه و مرجّحة بالنسبة إليه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما قال: زاغت و أثمت. و أخرج ابن المنذر عنه قال: مالت. و أخرج ابن عساكر من طريق عبد اللّه بن بريدة عن أبيه فى قوله: وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ قال: أبو بكر و عمر. و أخرج ابن عساكر عن ابن مسعود مثله.

و أخرج الطبرانى و ابن مردويه، و أبو نعيم فى فضائل الصحابة، من وجه آخر عنه مثله. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر و ابن عباس مثله. و أخرج الحاكم عن أبى أمامة مرفوعا مثله. و أخرج ابن أبى حاتم، قال السيوطى:

بسند ضعيف، عن علىّ مرفوعا قال: «هو علىّ بن أبى طالب». و أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ علىّ بن أبى طالب». و أخرج ابن مردويه و ابن

---

(١). الأحزاب: ٢١.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٠٢

عساكر عن ابن عباس فى قوله: وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ قال: هو علىّ بن أبى طالب. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن بريدة فى قوله: ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً قال: وعد اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم فى هذه أن يزوّجه بالثيب آسية امرأة فرعون، و بالبكر مريم بنت عمران.

[سورة التحريم (٦٦): الآيات ٦ الى ٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النّاسُ وَ الْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِى اللّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَ اغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ بفعل ما أمركم به و ترك ما نهاكم عنه وَ أَهْلِيكُمْ بأمرهم بطاعة اللّه، و نهيهم عن معاصيه ناراً وَقُودُهَا النّاسُ وَ الْحِجارَةُ أى: نارا عظيمة تتوقد بالناس و بالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب، و قد تقدم بيان هذا فى سورة البقرة. قال مقاتل بن سليمان: المعنى: قوا أنفسكم و أهليكم، بالأدب الصالح، النار فى الآخرة. و قال قتادة و مجاهد: قوا أنفسكم بأفعالكم، و قوا أهليكم بوصيتكم. قال ابن جرير: فعلينا أن نعلّم أولادنا الدّين و الخير و ما لا يستغنى عنه من الأدب، و من هذا قوله:

وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها «١» و قوله: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ «٢». عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ أى: على النار خزنة من الملائكة يلون أمرها و تعذيب أهلها، غلاظ على أهل النار، شداد عليهم، لا يرحمونهم إذا استرحموهم؛ لأن اللّه سبحانه خلقهم من غضبه، و حبّب إليهم تعذيب خلقه، و قيل:

المراد غلاظ القلوب شداد الأبدان، و قيل: غلاظ الأقوال شداد الأفعال، و قيل: الغلاظ ضخام الأجسام، و الشداد: الأقوياء لا يَعْصُونَ اللّهَ ما أَمَرَهُمْ أى: لا يخالفونه فى أمره، و «ما» فى ما أَمَرَهُمْ يجوز أن تكون موصولة و العائد محذوف، أى: لا يعصون

اللّه الّذى أمرهم به، و يجوز أن تكون مصدرية، أى: لا يعصون اللّه أمره، على أن يكون ما أمرهم بدل اشتمال من الاسم الشريف، أو على تقدير نزع الخافض، أى: لا يعصون اللّه فى أمره وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ أى: يؤدّونه فى وقته من غير تراخ، لا يؤخّرونه عنه و لا يقدّمونه يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ أى: يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأييسا لهم و قطعا لأطماعهم إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من الأعمال فى الدنيا، و مثل هذا قوله: فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ «٣» يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً أى: تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب عنه، و صفت بذلك على الإسناد المجازى، و هو فى الأصل وصف للتائبين أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم بالعزم على الترك للذنب و ترك المعاودة له.

---

(١). طه: ١٣٢.

(٢). الشعراء: ٢١٤.

(٣). الروم: ٥٧.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٠٣

و التوبة فرض على الأعيان. قال قتادة: التوبة النصوح: الصادقة، و قيل: الخالصة. و قال الحسن: التوبة النصوح: أن يبغض الذنب الّذى أحبه و يستغفر منه إذا ذكره. و قال الكلبى: التوبة النصوح الندم بالقلب، و الاستغفار باللسان، و الإقلاع بالبدن، و الاطمئنان على أن لا يعود. و قال سعيد بن جبير: هى التوبة المقبولة.

قرأ الجمهور: «نصوحا» بفتح النون على الوصف للتوبة، أى: توبة بالغة فى النصح، و قرأ الحسن و خارجة و أبو بكر عن عاصم بضمها، أى: توبة نصح لأنفسكم، و يجوز أن يكون جمع ناصح، و أن يكون مصدرا، يقال: نصح نصاحة و نصوحا. قال المبرّد: أراد توبة ذات نصح. عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ بسبب تلك التوبة، و عسى و إن كان أصلها للإطماع فهى من اللّه واجبة، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، و يدخلكم معطوف على يكفر منصوب بناصبه و بالنصب قرأ الجمهور، و قرئ بالجزم عطفا على محل عيسى، كأنه قال: توبوا يوجب تكفير سيئاتكم و يدخلكم يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَ الظرف متعلق بيدخلكم، أى: يدخلكم يوم لا يخزى اللّه النبى وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ و الموصول معطوف على النبى، و قيل: الموصول مبتدأ، و خبره: نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ و الأول أولى، و تكون جملة نُورُهُمْ يَسْعى فى محل نصب على الحال أو مستأنفة لبيان حالهم، و قد تقدّم فى سورة الحديد أن النور يكون معهم حال مشيهم على الصّراط، و جملة يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَ اغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ فى محل نصب على الحال أيضا، و على الوجه الآخر تكون خبرا آخر، و هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ اللّه نور المنافقين، كما تقدّم بيانه و تفصيله.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً قال: علّموا أنفسكم و أهليكم الخير و أدّبوهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال: اعملوا بطاعة اللّه و اتقوا معاصى اللّه، و أمروا أهلكم بالذكر ينجكم اللّه من النار. و أخرج عبد بن حميد عنه فى الآية قال: أدّبوا أهليكم.

و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، عن أبى عمران الجونى قال: بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر، ما بين منكبى أحدهم مسيرة مائة خريف، ليس فى قلوبهم رحمة، إنّما خلقوا للعذاب، يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحنا من لدن قرنه إلى قدمه. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و هناد و ابن منيع و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن النعمان بن بشير أن عمر بن

الخطاب سئل عن التوبة النصوح، فقال:

أن يتوب الرجل من العمل السّيّئ ثم لا يعود إليه أبدا. و أخرج أحمد و ابن مردويه و البيهقى عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «التوبة من الذنب أن يتوب منه، ثم لا يعود إليه أبدا» و فى إسناده إبراهيم ابن مسلم الهجرى، و هو ضعيف، و الصحيح الموقوف. كما أخرجه موقوفا عنه ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى. و أخرج الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود قال: التوبة النصوح تكفر كلّ سيئة، و هو فى القرآن، ثم قرأ هذه الآية. و أخرج الحاكم، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس فى قوله: يَوْمَ

فتح القدير، ج‏5، ص: 304

لا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى الآية قال: ليس أحد من الموحّدين إلا يعطى نورا يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ نوره، و المؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق، فهو يقول: رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا.

[سورة التحريم (66): الآيات 9 الى 12]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (9) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَ كُتُبِهِ وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ (12)

قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ أى: بالسيف و الحجة، و قد تقدّم الكلام على هذه الآية فى سورة براءة وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ أى: شدّد عليهم فى الدعوة، و استعمل الخشونة فى أمرهم بالشرائع.

قال الحسن: أى: جاهدهم بإقامة الحدود عليهم، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ أى: مصيرهم إليها، يعنى الكفّار و المنافقين وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ أى: المرجع الّذى يرجعون إليه ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قد تقدّم غير مرّة أن المثل قد يراد به إيراد حالة غريبة يعرف بها حالة أخرى مماثلة لها فى الغرابة، أى: جعل اللّه مثلا لحال هؤلاء الكفرة، و أنه لا يغنى أحد عن أحد امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ هذا هو المفعول الأوّل، و «مثلا» المفعول الثانى حسبما قدّمنا تحقيقه، و إنما أخّر ليتصل به ما هو تفسير له و إيضاح لمعناه كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ و هما نوح و لوط، أى: كانتا فى عصمة نكاحهما فَخانَتاهُما أى: فوقعت منهما الخيانة لهما. قال عكرمة و الضحاك: بالكفر، و قيل:

كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون، و كانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه، و قد وقع الإجماع على أنه ما زنت امرأة نبيّ قطّ. و قيل: كانت خيانتهما النفاق، و قيل: خانتاهما بالنميمة فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أى: فلم ينفعهما نوح و لوط بسبب كونهما زوجتين لهما شيئا من النفع، و لا دفعا عنهما من عذاب اللّه مع كرامتهما على اللّه شيئا من الدفع وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ أى: و قيل لهما فى الآخرة، أو عند موتهما ادخلا النار مع الداخلين لها من أهل الكفر و المعاصى. و قال يحيى بن سلام: ضرب اللّه مثلا للذين كفروا يحذّر به عائشة و حفصة من المخالفة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حين تظاهرتا عليه. و ما أحسن ما قال؛ فإن ذكر امرأتى النبيين بعد ذكر قصتهما و مظاهرتهما على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يرشد أتمّ إرشاد، و يلوّح أبلغ تلويح، إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين، و بيان أنهما و إن كانتا تحت عصمة خير خلق اللّه و خاتم رسله، فإن ذلك لا يغنى عنهما من اللّه شيئا، و قد عصمهما اللّه عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۰۵

الخالصة وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ الكلام فى هذا كالكلام فى المثل الّذى قبله، أى: جعل اللّه حال امرأة فرعون مثلا لحال المؤمنين ترغيبا لهم فى الثبات على الطاعة، و التمسّك بالدين، و الصبر فى الشدّة، و أن صولة الكفر لا تضرّهم، كما لم تضر امرأة فرعون، و قد كانت تحت أكفر الكافرين، و صارت بإيمانها باللّه فى جنات النعيم إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ الظرف متعلق بضرب أو بمثلا، أى: ابن لى بيتا قريبا من رحمتك، أو فى أعلى درجات المقربين منك، أو فى مكان لا يتصرّف فيه إلا بإذنك و هو الجنة وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ أى: من ذاته، و ما يصدر عنه من أعمال الشرّ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قال الكلبى: هم أهل مصر. و قال مقاتل: هم القبط. قال الحسن و ابن كيسان: نجّاها اللّه أكرم نجاة، و رفعها إلى الجنة فهى تأكل و تشرب وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها معطوف على امرأة فرعون، أى: و ضرب اللّه مثلا للذين آمنوا مريم ابنة عمران، أى: حالها وصفتها، و قيل: إن الناصب لمريم فعل مقدّر، أى: و اذكر مريم، و المقصود من ذكرها أن اللّه سبحانه جمع لها بين كرامة الدنيا و الآخرة، و اصطفاها على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها أى: عن الفواحش، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة النساء. قال المفسرون: المراد بالفرج هنا الجيب؛ لقوله: فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا «۱» و ذلك أن جبريل نفخ فى جيب درعها فحبلت بعيسى وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها يعنى شرائعه التى شرعها لعباده، و قيل: المراد بالكلمات هنا هو قول جبريل لها: إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ «۲» الآية. و قال مقاتل: يعنى بالكلمات عيسى. قرأ الجمهور: «و صدقت» بالتشديد، و قرأ حميد و الأموى و يعقوب و قتادة و أبو مجلز و عاصم فى رواية عنه بالتخفيف. و قرأ الجمهور: «بكلمات» بالجمع، و قرأ الحسن و مجاهد و الجحدرى «بكلمة» بالإفراد. و قرأ الجمهور: «و كتابه» بالإفراد، و قرأ أهل البصرة و حفص «كتبه» بالجمع، و المراد على قراءة الجمهور الجنس فيكون فى معنى الجمع، و هى الكتب المنزلة على الأنبياء وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ قال قتادة: من القوم المطيعين لربهم. و قال عطاء: من المصلّين، كانت تصلى بين المغرب و العشاء، و يجوز أن يراد بالقانتين رهطها و عشيرتها الذين كانت منهم، و كانوا مطيعين أهل بيت صلاح و طاعة، و قال: من القانتين، و لم يقل من القانتات؛ لتغليب الذكور على الإناث.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، من طرق عن ابن عباس فى قوله: فَخانَتاهُما قال: ما زنتا، أما خيانة امرأة نوح فكانت تقول للناس: إنه مجنون؛ و أما خيانة امرأة لوط فكانت تدلّ على الضيف، فتلك خيانتهما. و أخرج ابن المنذر عنه قال: ما بغت امرأة نبيّ قط، و قد رواه ابن عساكر مرفوعا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عن سلمان قال:

كانت امرأة فرعون تعذّب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلّتها الملائكة بأجنحتها، و كانت ترى بيتها فى الجنة.

---

(۱). الأنبياء: ۹۱.

(۲). مريم: ۱۹.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۰۶

و أخرج عبد بن حميد عن أبى هريرة: إنّ فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد، و أضجعها على صدرها «۱»، و جعل على صدرها رحى و استقبل بها عين الشمس، فرفعت رأسها إلى السماء، ف قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ إلى قوله: مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ففرج اللّه لها عن بيتها فى الجنة فرأته. و أخرج أحمد و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: قال رسول

اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمد، و مريم بنت عمران، و آسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قصّ اللّه علينا من خبرها فى القرآن قالت رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً» الآية. و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كمل من الرجال كثير، و لم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون و مريم بنت عمران و خديجة بنت خويلد، و إن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». و أخرج وكيع فى «الغرر»، عن ابن عباس فى قوله: وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ قال: من جماعته.

---

(١). لعلّه: على ظهرها؛ بدليل قوله بعد: و جعل على صدرها.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۰۷

سورة الملك

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة تبارك الملك. و أخرج أحمد و أبو داود و الترمذى و النسائى و ابن ماجة و ابن الضريس، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«إن سورة من كتاب اللّه ما هى إلّا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ قال الترمذى: هذا حديث حسن. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «سورة فى القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ . و أخرج الترمذى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و ابن نصر، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: «ضرب بعض أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خباءه على قبر، و هو لا- يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبره، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هى المانعة، هى المنجية، تنجيه من عذاب القبر». قال الترمذى بعد إخراجه: هذا حديث غريب من هذا الوجه. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «تبارك هى المانعة من عذاب القبر»، و أخرجه أيضا النسائى و صحّحه، و الحاكم. و أخرج ابن مردويه عن رافع بن خديج و أبى هريرة أنهما سمعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول:

«أنزلت علىّ سورة تبارك، و هى ثلاثون آية جملة واحدة، و هى المانعة فى القبور». و أخرج عبد بن حميد فى مسنده، و الطبرانى، و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا أتحفك بحديث تفرح به؟ قال بلى: قال: اقرأ: تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ و علّمها أهلك و جميع ولدك و صبيان بيتك و جيرانك، فإنها المنجية، و المجادلة تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها، و تطلب له أن ينجيه اللّه من عذاب النار، و ينجو بها صاحبها من عذاب القبر. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الملك (۶۷): الآيات ۱ الى ۱۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ (٤)
وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (٥) وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَ هِيَ تَفُورُ (٧) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (٩)
وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ (١١)
فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٠٨
قوله: تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ تبارك: تفاعل من البركة، و البركة: النماء و الزيادة، و قيل: تعالى و تعاظم عن صفات المخلوقين، و قيل: دام فهو الدائم الّذى لا أوّل لوجوده و لا آخر لدوامه. و قال الحسن:
تبارك: تقدّس، و صيغة التفاعل للمبالغة، و اليد مجاز عن القدرة و الاستيلاء، و الملك: هو ملك السّماوات و الأرض فى الدنيا و الآخرة، فهو يعزّ من يشاء و يذلّ من يشاء، و يرفع من يشاء و يضع من يشاء، و قيل:
المراد بالملك ملك النبوّة، و الأوّل أولى؛ لأنّ الحمل على العموم أكثر مدحا و أبلغ ثناء، و لا وجه للتخصيص وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أى: بليغ القدرة، لا يعجزه شىء من الأشياء، يتصرّف فى ملكه كيف يريد من إنعام و انتقام، و رفع و وضع، و إعطاء و منع الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ الموت: انقطاع تعلّق الروح بالبدن و مفارقته له، و الحياة: تعلّق الروح بالبدن و اتصاله به، و قيل: هى ما يصحّ بوجوده الإحساس، و قيل:
ما يوجب كون الشى‏ء حيا، و قيل: المراد الموت فى الدنيا و الحياة فى الآخرة. و قدّم الموت على الحياة؛ لأن أصل الأشياء عدم الحياة، و الحياة عارضة لها، و قيل: لأن الموت أقرب إلى القهر. و قال مقاتل: خَلَقَ الْمَوْتَ يعنى النطفة و المضغة و العلقة، وَ الْحَياةَ يعنى خلقه إنسانا و خلق الروح فيه، و قيل: خلق الموت على صورة كبش لا يمرّ على شى‏ء إلا مات، و خلق الحياة على صورة فرس لا تمر بشى‏ء إلا حيى، قاله مقاتل و الكلبى. و قد ورد فى التنزيل: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ «١» و قوله: وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ «٢» و قوله: تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا «٣» و قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها «٤» و غير ذلك من الآيات. لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا اللام متعلقة بخلق، أى: خلق الموت و الحياة ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن عملا، فيجازيكم على ذلك، و قيل: المعنى: ليبلوكم أيكم أكثر للموت ذكرا و أشدّ منه خوفا، و قيل: أيكم أسرع إلى طاعة اللّه، و أورع عن محارم اللّه. و قال الزجاج:
اللام متعلق بخلق الحياة، لا بخلق الموت، و قال الزجاج أيضا و الفراء: أن قوله: «ليبلوكم» لم يقع على أىّ؛ لأن فيما بين البلوى و أىّ إضمار فعل، كما تقول: بلوتكم لأنظر أيكم أطوع، و مثله قوله: سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ «٥» أى: سلهم ثم انظر أيهم، فأيكم فى الآية مبتدأ و خبره أحسن، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، و إيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن و القبيح لا إلى الحسن و الأحسن فقط للإيذان بأن المراد بالذات و المقصد الأصلى من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين وَ هُوَ الْعَزِيزُ أى: الغالب الّذى لا يغالب الْغَفُورُ لمن تاب و أناب الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً الموصول يجوز أن يكون تابعا للعزيز الغفور نعتا أو بيانا أو بدلا، و أن يكون منقطعا عنه على أنه خبر مبتدأ

(۱). السجدة: ۱۱.

(۲). الأنفال: ۵۰.

(۳). الأنعام: ۶۱.

(۴). الزمر: ۴۲.

(۵). القلم: ۴۰.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۰۹

محذوف، أو منصوب على المدح، و طباقا صفة لسبع سماوات، أى: بعضها فوق بعض، و هو جمع طبق، نحو جبل و جبال، أو جمع طبقة، نحو رحبة و رحاب، أو مصدر طابق، يقال: طابق مطابقة و طباقا، و يكون على هذا الوجه الوصف بالمصدر للمبالغة أو على حذف مضاف، أى: ذات طباق، و يجوز أن يكون منتصبا على المصدرية بفعل محذوف، أى: طوبقت طباقا ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ هذه الجملة صفة ثانية لسبع سماوات، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها، و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكل من يصلح له، و من مزيدة لتأكيد النفى. قرأ الجمهور: «من تفاوت»، و قرأ ابن مسعود و أصحابه و الكسائى «تفوّت» مشدّدا بدون ألف، و هما لغتان، كالتعاهد و التعهّد، و التحامل و التحمّل؛ و المعنى على القراءتين: ما ترى فى خلق الرّحمن من تناقض و لا- تباين و لا- اعوجاج و لا تخالف، بل هى مستوية مستقيمة دالّة على خالقها، و إن اختلفت صورها و صفاتها فقد اتفقت من هذه الحيثية فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ الفطور:

الشقوق و الصدوع و الخروق، أى: اردد طرفك حتى يتّضح لك ذلك بالمعاينة. أخبر أوّلا بأنه لا تفاوت فى خلقه، ثم أمر ثانيا بترديد البصر فى ذلك لزيادة التأكيد و حصول الطمأنينة. قال مجاهد و الضحاك: الفطور و الشقوق جمع فطر، و هو الشق. و قال قتادة: هل ترى من خلل. و قال السدى: هل ترى من خروق، و أصله من التفطر و الانفطار، و هو التشقق و الانشقاق، و منه قول الشاعر:

بنى لكم بلا عمد سماءو زيّنها فما فيها فطور

و قول الآخر

شققت القلب ثم ذررت فيه‌هواك فليم فالتأم الفطور

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ أى: رجعتين مرّة بعد مرّة، و انتصابه على المصدر، و المراد بالتثنية التكثير، كما فى لبيك و سعديك، أى: رجعة بعد رجعة و إن كثرت. و وجه الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب فى النظرة الأولى و لا فى الثانية. و لهذا قال أوّلا- ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ ثم قال ثانيا: فَارْجِعِ الْبَصَرَ ثم قال ثالثا: ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ فيكون ذلك أبلغ فى إقامة الحجة و أقطع للمعذرة يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً أى: يرجع إليك البصر ذليلا صاغرا عن أن يرى شيئا من ذلك، و قيل: معنى خاسئا: مبعدا مطرودا عن أن يبصر ما التمسه من العيب، يقال:

خسأت الكلب، أى: أبعدته و طردته. قرأ الجمهور: «ينقلب» بالجزم جوابا للأمر. و قرأ الكسائى فى رواية بالرفع على الاستئناف وَ هُوَ حَسِيرٌ أى: كليل منقطع. قال الزجاج: أى: و قد أعيا من قبل أن يرى فى السماء خللا، و هو فعيل بمعنى فاعل من الحسور، و هو الإعياء، يقال: حسر بصره يحسر حسورا، أى: كلّ و انقطع، و منه قول الشاعر:

نظرت إليها بالمحصّب من منى‌فعاد إلىّ الطّرف و هو حسير

وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ بيّن سبحانه بعد خلق السماوات، و خلوّها من العيب و الخلل؛

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۱۰

أنه زيّنها بهذه الزينة، فصارت فى أحسن خلق، و أكمل صورة، و أبهج شكل، و المجىء بالقسم لإبراز كمال العناية، و المصابيح: جمع مصباح، و هو السراج، و سميت الكواكب مصابيح لأنها تضىء كإضاءة السراج و بعض الكواكب و إن كان فى غير سماء الدنيا من السماوات التى فوقها، فهى تتراءى كأنها كلها فى سماء الدنيا؛ لأن أجرام السماوات لا تمنع من رؤية ما فوقها مما له إضاءة؛ لكونها أجراما صقيلة شفافة وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ أى: و جعلنا المصابيح رجوما يرجم بها الشياطين، و هذه فائدة أخرى غير الفائدة الأولى و هى كونها زينة للسماء الدنيا؛ و المعنى أنها يرجم بها الشياطين الذين يسترقون السمع، و الرّجوم: جمع رجم بالفتح، و هو فى الأصل مصدر أطلق على المرجوم به، كما فى قولهم: الدرهم ضرب الأمير، أى: مضروبه، و يجوز أن يكون باقيا على مصدريته، و يقدر مضاف محذوف، أى: ذات رجم، و جمع المصدر باعتبار أنواعه.

و قيل: إن الضمير فى قوله: وَ جَعَلْناها راجع إلى المصابيح على حذف مضاف، أى: شهبها، و هى نارها المقتبسة منها، لا هى أنفسها؛ لقوله: إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ «١» و وجه هذا أن المصابيح التى زيّن اللّه بها السماء الدنيا لا تزول و لا يرجم بها، كذا قال أبو علىّ الفارسى جوابا لمن سأله:

كيف تكون المصابيح زينة و هى رجوم؟ قال القشيرى: و أمثل من قوله هذا أن نقول: هى زينة قبل أن يرجم بها الشياطين. قال قتادة: خلق اللّه النجوم لثلاث: زينة للسماء، و رجوما للشياطين، و علامات يهتدى بها فى البرّ و البحر، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلم فيما لا يعلم و تعدّى و ظلم؛ و قيل: معنى الآية:

و جعلناها ظنونا لشياطين الإنس، و هم المنجمون. وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ أى: و أعتدنا للشياطين فى الآخرة بعد الإحراق فى الدنيا بالشهب عذاب السعير، أى: عذاب النار، و السعير: أشدّ الحريق، يقال:

سعرت النار فهى مسعورة. وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ من كفار بنى آدم، أو من كفار الفريقين عَذابُ جَهَنَّمَ قرأ الجمهور برفع «عذاب» على أنه مبتدأ و خبره «للذين كفروا». و قرأ الحسن و الضحاك و الأعرج بنصبه عطفا على «عذاب السعير» وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ ما يصيرون إليه، و هو جهنم إِذا أُلْقُوا فِيها أى: طرحوا فيها كما يطرح الحطب فى النار سَمِعُوا لَها شَهِيقاً أى: صوتا كصوت الحمير عند أوّل نهيقها، و هو أقبح الأصوات، و قوله: لَها فى محل نصب على الحال، أى: كائنا لها؛ لأنه فى الأصل صفة، فلما قدّمت صارت حالا- و قال عطاء: الشهيق هو من الكفار عند إلقائهم فى النار، و جملة وَ هِيَ تَفُورُ فى محل نصب على الحال: أى و الحال أنها تغلى بهم غليان المرجل، و منه قول حسان:

تركتم قدركم لا شىء فيها* و قدر الغير «٢» حامية تفور تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ أى: تكاد تتقطع و ينفصل بعضها من بعض من تغيّظها عليهم. قال ابن قتيبة:

تكاد تنشقّ غيظا على الكفّار. قرأ الجمهور: «تميز» بتاء واحدة مخفّفة، و الأصل تتميز بتاءين. و قرأ طلحة بتاءين على الأصل. و قرأ البزى عن ابن كثير بتشديدها بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى. و قرأ الضحاك:

---

(١). الصافات: ١٠.

(٢). فى تفسير القرطبى: القوم.

«تمايز» بالألف و تاء واحدة، و الأصل تتمايز، و قرأ زيد بن علىّ «تميز» من ماز يميز، و الجملة فى محل نصب على الحال، أو فى محل رفع على أنها خبر آخر لمبتدأ، و جملة كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها مستأنفة لبيان حال أهلها، أو فى محل نصب على الحال من فاعل تميز، و الفوج: الجماعة من الناس، أى: كلما ألقى فى جهنم جماعة من الكفار سألهم خزنتها من الملائكة سؤال

توبيخ و تقريع أَ لَمْ يَأْتِكُمْ فى الدنيا نَذِيرٌ ينذركم هذا اليوم و يحذركم منه؟ و جملة قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قالوا بعد هذا السؤال؟ فقال: قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فأنذرنا و خوّفنا و أخبرنا بهذا اليوم فَكَذَّبْنا ذلك النذير وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ من الأشياء على ألسنتكم إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ أى: فى ذهاب عن الحق و بعد عن الصواب، و المعنى أنه: قال كلّ فوج من تلك الأفواج حاكيا لخزنة جهنم ما قاله لمن أرسل إليه: ما أنتم أيها الرسل فيم تدّعون أن اللّه نزل عليكم آيات تنذروننا بها إلا فى ذهاب عن الحق و بعد عن الصواب كبير لا يقادر قدره. ثم حكى عنهم مقالة أخرى قالوها بعد تلك المقالة فقال: وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ أى: لو كنا نسمع ما خاطبنا به الرسل، أو نعقل شيئا من ذلك ما كنّا فى عداد أهل النار، و من جملة من يعذّب بالسعير، و هم الشياطين كما سلف.

قال الزجاج: لو كنا نسمع سمع من يعى، أو نعقل عقل من يميز، و ينظر، ما كنّا من أهل النار، فلما اعترفوا هذا الاعتراف قال اللّه سبحانه: فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ الّذى استحقوا به عذاب النار، و هو الكفر و تكذيب الأنبياء فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ أى: فبعدا لهم من اللّه و من رحمته. و قال سعيد بن جبير و أبو صالح:

هو واد فى جهنم يقال له السّحق. قرأ الجمهور: «فسحقا» بإسكان الحاء. و قرأ الكسائى و أبو جعفر بضمها، و هما لغتان، مثل السّحت و الرّعب. قال الزجاج و أبو علىّ الفارسى: فسحقا منصوب على المصدر، أى: أسحقهم اللّه سحقا. قال أبو علىّ الفارسى: و كان القياس إسحاقا فجاء المصدر على الحذف، و اللام فى لِأَصْحابِ السَّعِيرِ للبيان كما فى: هَيْتَ لَكَ «١».

و قد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله: سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً قال: بعضها فوق بعض.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ قال: ما تفوت بعضه بعضا تفاوتا مفرقا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: مِنْ تَفاوُتٍ قال:

من تشقق، و فى قوله: هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ قال: شقوق، و فى قوله: خاسِئاً قال: ذليلا وَ هُوَ حَسِيرٌ كليل. و أخرج ابن جرير عنه أيضا. قال: الفطور: الوهى. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا: مِنْ فُطُورٍ قال: من تشقّق أو خلل، و فى قوله: يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ قال: يرجع إليك خاسئا صاغرا وَ هُوَ حَسِيرٌ قال: يعيي و لا يرى شيئا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا خاسِئاً قال: ذليلا وَ هُوَ حَسِيرٌ قال: عييّ مرتجع. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس

---

(١). يوسف: ٢٣.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣١٢

تَكادُ تَمَيَّزُ قال: تتفرّق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا تَكادُ تَمَيَّزُ قال: يفارق بعضها بعضا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: فَسُحْقاً قال: بعدا.

[سورة الملك (٦٧): الآيات ١٢ الى ٢١]

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ (١٦)

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (١٨) أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ

يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ (٢١)
قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال أهل النار ذكر أهل الجنة، و «بالغيب» حال من الفاعل أو المفعول، أي: غائبين عنه، أو غائبا عنهم، و المعنى: أنهم يخشون عذابه و لم يروه فيؤمنون به خوفا من عذابه، و يجوز أن يكون المعنى: يخشون ربهم حال كونهم غائبين عن أعين الناس و ذلك فى خلواتهم، أو المراد بالغيب كون العذاب غائبا عنهم لأنهم فى الدنيا، و هو إنما يكون يوم القيامة فتكون الباء على هذا سببية لَهُمْ مَغْفِرَةٌ عظيمة يغفر اللّه بها ذنوبهم وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ و هو الجنة، و مثل هذه الآية قوله: مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ «١». ثم عاد سبحانه إلى خطاب الكفار فقال: وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان تساوى الإسرار و الجهر بالنسبة إلى علم اللّه سبحانه، و المعنى: إن أخفيتم كلامكم أو جهرتم به فى أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فكلّ ذلك يعلمه اللّه، لا تخفى عليه منه خافية، و جملة: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ تعليل للاستواء المذكور، و ذات الصدور هى مضمرات القلوب، و الاستفهام فى قوله: أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ للإنكار، و المعنى: ألا يعلم السرّ و مضمرات القلوب من خلق ذلك و أوجده، فالموصول عبارة عن الخالق، و يجوز أن يكون عبارة عن المخلوق، و فى «يعلم» ضمير يعود إلى اللّه، أى: ألا يعلم اللّه المخلوق الّذى هو من جملة خلقه، فإن الإسرار و الجهر و مضمرات القلوب من جملة خلقه، و جملة وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ فى محل نصب على الحال من فاعل يعلم، أى: الّذى لطف علمه بما فى القلوب، الخبير بما تسرّه و تضمره من الأمور، لا تخفى عليه من ذلك خافية. ثم امتنّ سبحانه على عباده فقال: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا أى: سهلة لينة تستقرّون عليها، و لم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكون فيها و المشى عليها، و الذلول فى الأصل: هو المنقاد الّذى يذلّ لك و لا يستصعب عليك، و المصدر الذّل، و الفاء فى قوله: فَامْشُوا فِي مَناكِبِها لترتيب الأمر بالمشى على الجعل المذكور، و الأمر للإباحة. قال مجاهد و الكلبى و مقاتل: مناكبها: طرقها و أطرافها و جوانبها. و قال قتادة و شهر بن

---

(١). ق: ٣٣.

حوشب: مناكبها: جبالها، و أصل المنكب الجانب، و منه منكب الرجل، و منه الريح النّكباء، لأنها تأتى من جانب دون جانب وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ أى: ممّا رزقكم و خلقه لكم فى الأرض وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ أى: و إليه البعث من قبوركم، لا إلى غيره، و فى هذا وعيد شديد. ثم خوّف سبحانه الكفار. فقال: أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ قال الواحدى: قال المفسرون: يعنى عقوبة من فى السماء، و قيل «من فى السماء»: قدرته و سلطانه و عرشه و ملائكته، و قيل: من فى السماء من الملائكة، و قيل: المراد جبريل، و معنى أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ يقلعها ملتبسة بكم كما فعل بقارون بعد ما جعلها لكم ذلولا تمشون فى مناكبها، و قوله: أَنْ يَخْسِفَ بدل اشتمال من الموصول، أى: أ أمنتم خسفه، أو على حذف من، أى: من أن يخسف فَإِذا هِيَ تَمُورُ أى: تضطرب و تتحرك على خلاف ما كانت عليه من السكون. قرأ الجمهور: «ء أمنتم» بهمزتين، و قرأ البصريون و الكوفيون بالتخفيف، و قرأ ابن كثير بقلب الأولى واوا. ثم كرّر سبحانه التهديد لهم بوجه آخر فقال: أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً أى: حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط و أصحاب الفيل، و قيل: سحاب فيه حجارة، و قيل:
ريح فيها حجارة فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ أى: إنذارى إذا عاينتم العذاب و لا ينفعكم هذا العلم، و قيل:
النذير هنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، قاله عطاء و الضحاك. و المعنى: ستعلمون رسولى و صدقه، و الأوّل أولى. و الكلام فى أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً كالكلام فى أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فهو إما بدل اشتمال، أو بتقدير من. وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: الذين قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية؛ كقوم نوح و عاد و ثمود و قوم لوط و أصحاب الأيكة و أصحاب الرس و قوم

فرعون فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ أي: فكيف كان إنكارى عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ الهمزة للاستفهام و الواو للعطف على مقدّر، أي: أغفلوا و لم ينظروا، و معنى صافَّاتٍ أنها صافة لأجنحتها فى الهواء و تبسيطها عند طيرانها وَ يَقْبِضْنَ أى: يضممن أجنحتهنّ. قال النحاس: يقال للطائر إذا بسط جناحيه:

صافّ، و إذا ضمّهما: قابض؛ لأنه يقبضهما، و هذا معنى الطيران، و هو بسط الجناح و قبضه بعد البسط، و منه قول أبى خراش:

يبادر جنح اللّيل فهو موائل «۱»يحث الجناح بالتّبسّط و القبض

و إنما قال: وَ يَقْبِضْنَ و لم يقل قابضات كما قال صافات، لأن القبض يتجدد تارة فتارة، و أما البسط فهو الأصل، كذا قيل. و قيل: إن معنى وَ يَقْبِضْنَ قبضهنّ لأجنحتهنّ عند الوقوف من الطيران، لا قبضها فى حال الطيران، و جملة ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ فى محل نصب على الحال من فاعل يقبضن، أو مستأنفة لبيان كمال قدرة اللّه سبحانه، و المعنى: أنه ما يمسكهنّ فى الهواء عند الطيران إلا الرّحمن القادر على كلّ شىء إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ لا يخفى عليه شىء كائنا ما كان أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ

---

(۱). «واءل الطير»: لجأ. و فى اللسان: مهابذ، و المهابذة: الإسراع.

الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و المعنى أنه لا جند لكم يمنعكم من عذاب اللّه، و الجند: الحزب و المنعة. قرأ الجمهور: «أمّن» هذا بتشديد الميم على إدغام ميم أم فى ميم من، و أم بمعنى بل، و لا سبيل إلى تقدير الهمزة بعدها كما هو الغالب فى تقدير أم المنقطعة ببل و الهمزة، لأن بعدها هنا من الاستفهامية فأغنت عن ذلك التقدير، و من الاستفهامية مبتدأ، و اسم الإشارة خبره، و الموصول مع صلته صفة اسم الإشارة، و ينصركم صفة لجند، و من دون الرّحمن فى محل نصب على الحال من فاعل ينصركم، و المعنى: بل من هذا الحقير الّذى هو فى زعمكم جند لكم متجاوزا نصر الرّحمن. و قرأ طلحة بن مصرّف بتخفيف الأولى و تثقيل الثانية، و جملة إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ معترضة مقرّرة لما قبلها، ناعية عليهم ما هم فيه من الضلال، و المعنى: ما الكافرون إلا فى غرور عظيم من جهة الشيطان يغرّهم به أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ الكلام فى هذا كالكلام فى الّذى قبله قراءة و إعرابا، أى: من الّذى يدرّ عليكم الأرزاق من المطر و غيره إن أمسك اللّه ذلك عنكم و منعه عليكم بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ أى: لم يتأثروا لذلك، بل تمادوا فى عناد و استكبار عن الحقّ و نفور عنه، و لم يعتبروا، و لا تفكروا، و جواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، أى: إن أمسك رزقه فمن يرزقكم غيره، و العتوّ: العناد و الطغيان، و النفور: الشرود.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ قال: أبو بكر و عمر و علىّ و أبو عبيدة بن الجراح. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله: فِي مَناكِبِها قال: جبالها. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: أطرافها. و أخرج الطبرانى و ابن عدى، و البيهقى فى الشعب، و الحكيم الترمذى عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه يحبّ العبد المؤمن المحترف». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ قال: فى ضلال.

[سورة الملك (۶۷): الآيات ۲۲ الى ۳۰]

أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۲۲) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ (۲۳) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۴) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۲۵) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲۶)

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ قِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ (٣٠)

ضرب سبحانه مثلا للمشرك و الموحد لإيضاح حالهما و بيان مآلهما، فقال: أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى و المكبّ و المنكبّ: الساقط على وجهه، يقال: كببته فأكبّ و انكبّ، و قيل: هو الّذى يكب رأسه فلا ينظر يمينا و لا شمالا و لا أماما، فهو لا يأمن العثور و الانكباب على وجهه. و قيل: أراد به الأعمى الّذى لا يهتدى إلى الطريق فلا يزال مشيه ينكسه على وجهه. قال قتادة: هو الكافر يكبّ على معاصى

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣١٥

اللّه فى الدنيا فيحشره اللّه يوم القيامة على وجهه. و الهمزة للاستفهام الإنكارى، أى: هل هذا الّذى يمشى على وجهه أهدى إلى المقصد الّذى يريده أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا معتدلا ناظرا إلى ما بين يديه عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أى: على طريق مستو لا اعوجاج به و لا انحراف فيه، و خبر «من» محذوف لدلالة خبر «من» الأولى و هو «أهدى» عليه، و قيل: لا حاجة إلى ذلك، لأن «من» الثانية معطوفة على «من» الأولى عطف المفرد، كقولك: أزيد قائم أم عمرو؟ و قيل: أراد بمن يمشى مكبّا على وجهه من يحشر على وجهه إلى النار، و من يمشى سويا من يحشر على قدميه إلى الجنة، و هو كقول قتادة الّذى ذكرناه، و مثله قوله: وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ «١». قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ أمر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يخبرهم بأن اللّه هو الّذى أنشأهم النشأة الأولى وَ جَعَلَ لهم السَّمْعَ ليسمعوا به وَ الْأَبْصارَ ليبصروا بها، و وجه إفراد السمع مع جمع الأبصار أنه مصدر يطلق على القليل و الكثير، و قد قدّمنا بيان هذا فى مواضع مع زيادة فى البيان وَ الْأَفْئِدَةَ القلوب التى يتفكرون بها فى مخلوقات اللّه، فذكر سبحانه ها هنا أنه قد جعل لهم ما يدركون به المسموعات و المبصرات و المعقولات إيضاحا للحجّة، و قطعا للمعذرة، و ذمّا لهم على عدم شكر نعم اللّه، و لهذا قال: قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ و انتصاب قليلا على أنه نعت مصدر محذوف، و «ما» مزيدة للتأكيد، أى: شكرا قليلا أو زمانا قليلا، و قيل: أراد بقلّة الشكر عدم وجوده منهم. قال مقاتل:

يعنى أنكم لا تشكرون ربّ هذه النعم فتوحّدونه قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يخبرهم أن اللّه هو الّذى خلقهم فى الأرض و نشرهم فيها، و فرقهم على ظهرها، و أن حشرهم للجزاء إليه لا إلى غيره. ثم ذكر سبحانه أنهم يستعجلون العذاب فقال: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أى: متى هذا الوعد الّذى تذكرونه لنا من الحشر و القيامة و النار و العذاب إن كنتم صادقين فى ذلك، و الخطاب منهم للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و لمن معه من المؤمنين، و جواب الشرط محذوف، و التقدير: إن كنتم صادقين فأخبرونا به أو فبيّنوه لنا، و هذا منهم استهزاء و سخرية. ثم لما قالوا هذا القول أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجيب عليهم، فقال: قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ أى: إن وقت قيام الساعة علمه عند اللّه لا يعلمه غيره، و مثله قوله: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي ثم أخبرهم أنه مبعوث للإنذار لا للإخبار بالغيب، فقال: وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أنذركم و أخوّفكم عاقبة كفركم، و أبيّن لكم ما أمرنى اللّه ببيانه. ثم ذكر اللّه سبحانه حالهم عند معاينة العذاب فقال: فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً يعنى رأوا العذاب قريبا، و زلفة مصدر بمعنى الفاعل، أى:

مزدلفا، أو حال من مفعول رأوا بتقدير مضاف، أى: ذا زلفة و قرب، أو ظرف، أى: رأوه فى مكان ذى زلفة. قال مجاهد: أى قريبا. و قال الحسن: عيانا. قال أكثر المفسرين: المراد عذاب يوم القيامة، و قال مجاهد: المراد عذاب بدر، و قيل: رأوا ما وعدوا به من الحشر قريبا منهم، كما يدلّ عليه قوله: وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ و قيل: لما رأوا عملهم السيّئ قريبا سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أى: اسودّت، و علتها

---

(۱). الإسراء: ۹۷.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۱۶

الكآبة، و غشيتها الذّلّة، يقال: ساء الشي‌ء يسوء فهم سيّئ؛ إذا قبح. قال الزجاج: المعنى تبيّن فيها السوء، أى: ساءهم ذلك العذاب فظهر عليهم بسببه فى وجوههم ما يدلّ على كفرهم كقوله: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ «۱». قرأ الجمهور بكسر السين بدون إشمام، و قرأ نافع و ابن عامر و الكسائى و ابن محيصن بالإشمام وَ قِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ أى: قيل لهم توبيخا و تقريعا هذا المشاهد الحاضر من العذاب هو العذاب الّذى كنتم به تدّعون فى الدنيا: أى تطلبونه و تستعجلون به استهزاء، على أن معنى تدّعون الدعاء.

قال الفراء: تفتعلون من الدعاء، أى: تتمنون و تسألون، و بهذا قال الأكثر من المفسرين. و قال الزجاج:

هذا الّذى كنتم به تدّعون الأباطيل و الأحاديث. و قيل: معنى تدّعون: تكذبون، و هذا على قراءة الجمهور:

«تدّعون» بالتشديد، فهو إما من الدعاء كما قال الأكثر، أو من الدعوى كما قال الزجاج و من وافقه، و المعنى:

أنهم كانوا يدّعون أنه لا بعث و لا حشر و لا جنة و لا نار. و قرأ قتادة و ابن أبى إسحاق و يعقوب و الضحاك:

تدعون مخففا، و معناها ظاهر. و قال قتادة: هو قولهم: رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا «۲» و قال الضحاك: هو قولهم: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ «۳» الآية. قال النحاس: تدّعون تدعون بمعنى واحد، كما تقول: قدر و اقتدر، و عدى و اعتدى، إلا أنّ افتعل معناه مضى شيئا بعد شى‌ء، و فعل يقع على القليل و الكثير قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أى: أخبرونى إن أهلكنى اللّه بموت أو قتل، و من معى من المؤمنين أَوْ رَحِمَنا بتأخير ذلك إلى أجل، و قيل المعنى: إن أهلكنى اللّه و من معى بالعذاب، أو رحمنا، فلم يعذبنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ أى: فمن يمنعهم و يؤمنهم من العذاب. و المعنى: أنه لا ينجيهم من ذلك أحد سواء أهلك اللّه الرسول و المؤمنين معه كما كان الكفار يتمنونه، أو أمهلهم. و قيل: المعنى؛ إنا مع إيماننا بين الخوف و الرجاء، فمن يجيركم مع كفركم من العذاب، و وضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر، و بيان أنه السبب فى عدم نجاتهم قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وحده، لا نشرك به شيئا وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنا لا على غيره، و التوكّل: تفويض الأمور إليه عزّ و جلّ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ منا و منكم، و فى هذا تهديد شديد مع إخراج الكلام مخرج الإنصاف. قرأ الجمهور: «ستعلمون» بالفوقية على الخطاب. و قرأ الكسائى بالتحتية على الخبر، ثم احتجّ سبحانه عليهم ببعض نعمه، و خوّفهم بسلب تلك النعمة عنهم فقال: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً أى: أخبرونى إن صار ماؤكم غائرا فى الأرض بحيث لا يبقى له وجود فيها أصلا، أو صار ذاهبا فى الأرض إلى مكان بعيد بحيث لا تناله الدّلاء. يقال: غار الماء غورا، أى: نضب، و الغور: الغائر، وصف بالمصدر للمبالغة، كما يقال رجل عدل، و قد تقدم مثل هذا فى سورة الكهف فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ أى: ظاهر تراه العيون، و تناله الدّلاء، و قيل: هو من معن الماء، أى: كثر. و قال قتادة و الضحاك: أى جار، و قد تقدم معنى المعين فى سورة المؤمن. و قرأ ابن عباس: «فمن يأتيكم بماء عذب».

---

(۱). آل عمران: ۱۰۶.

(۲). ص: ۱۶.

(۳). الأنفال: ۳۲.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۱۷

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا قال: فى الضلالة أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا قال: مهتديا. و أخرج الخطيب فى تاريخه، و ابن النجار عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من اشتكى ضرسه فليضع إصبعه عليه، و ليقرأ هذه الآية هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ . و أخرج الدار قطنى فى الأفراد، عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«من اشتكى ضرسه فليضع إصبعه عليه، و ليقرأ هاتين الآيتين سبع مرات وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ إلى يَفْقَهُونَ «١» و هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ فإنه يبرأ بإذن اللّه». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً قال: داخلا فى الأرض فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ قال: الجارى. و أخرج ابن المنذر عنه إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً قال: يرجع فى الأرض. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا بِماءٍ مَعِينٍ قال: ظاهر. و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا بِماءٍ مَعِينٍ قال: عذب.

---

(١). الأنعام: ٩٨.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣١٨

سورة القلم

اشارة

و هى مكية فى قول الحسن و عكرمة و عطاء و جابر. و روى عن ابن عباس و قتادة أن من أوّلها إلى قوله:

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ مكىّ، و من بعد ذلك إلى قوله: مِنَ الصَّالِحِينَ مدنىّ، و باقيها مكى، كذا قال الماوردى، و أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد اللّه فيها ما يشاء، و كان أوّل ما نزل من القرآن اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ثم نون، ثم المزمل، ثم المدثر.

و أخرج النحاس و ابن مردويه و البيهقى عنه قال: نزلت سورة ن بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عائشة مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القلم (٦٨): الآيات ١ الى ١٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ن وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ (١) ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)
فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ
(٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)
وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كانَ ذا مالٍ وَ
بَنِينَ (١٤)
إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)

قوله: ن قرأ أبو بكر و ورش و ابن عامر و الكسائى و ابن محيصن و هبيرة بإدغام النون الثانية من هجائها فى الواو، و قرأ الباقون

بالإظهار. و قرأ أبو عمرو و عيسى بن عمر بالفتح على إضمار فعل. و قرأ ابن عامر «۱» و نصر و ابن أبى إسحاق بكسرها على إضمار القسم، أو لأجل التقاء الساكنين، و قرأ محمد بن السّميقع و هارون بضمها على البناء. قال مجاهد و مقاتل و السدّى: هو الحوت الّذى يحمل الأرض، و به قال مرّة الهمدانى و عطاء الخراسانى و الكلبى. و قيل: إن نون آخر حرف من حروف الرّحمن. و قال ابن زيد:

هو قسم أقسم اللّه به. و قال ابن كيسان: هو فاتحة السورة. و قال عطاء و أبو العالية: هى النون من نصير و ناصر. قال محمد بن كعب: أقسم اللّه تعالى بنصره للمؤمنين، و قيل: هو حرف من حروف الهجاء، كالفواتح الواقعة فى أوائل السور المفتتحة بذلك، و قد عرّفناك ما هو الحق فى مثل هذه الفواتح فى أوّل سورة البقرة، و الواو فى قوله: وَ الْقَلَمِ واو القسم، أقسم اللّه بالقلم لما فيه من البيان و هو واقع على كل قلم يكتب به، و قال جماعة من المفسرين: المراد به القلم الّذى كتب به اللوح المحفوظ، أقسم اللّه به تعظيما له.

---

(۱). فى تفسير القرطبى: ابن عباس.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۱۹

قال قتادة: القلم من نعمة اللّه على عباده وَ ما يَسْطُرُونَ «ما» موصولة، أى: و الّذى يسطرون، و الضمير عائد إلى أصحاب القلم المدلول عليهم بذكره؛ لأن ذكر آلة الكتابة تدلّ على الكاتب. و المعنى:

و الّذى يسطرون، أى: يكتبون كل ما يكتب، أو الحفظة على ما تقدّم. و يجوز أن تكون ما مصدرية، أى:

و سطرهم، و قيل: الضمير راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة و إجرائها مجرى العقلاء، و جواب القسم قوله: ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ما نافية، و أنت اسمها، و بمجنون خبرها. قال الزجاج: أنت هو اسم ما، و بمجنون خبرها، و قوله: بِنِعْمَةِ رَبِّكَ كلام وقع فى الوسط، أى: انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، كما يقال: أنت بحمد اللّه عاقل، قيل: الباء متعلقة بمضمر هو حال، كأنه قيل:

أنت برىء من الجنون متلبسا بنعمة اللّه التى هى النبوة و الرياسة العامة. و قيل: الباء للقسم، أى: و ما أنت و نعمة ربك بمجنون. و قيل: النعمة هنا الرحمة، و الآية ردّ على الكفار حيث قالوا: يا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ «۱» وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْراً أى: ثوابا على ما تحملت من أثقال النبوّة، و قاسيت من أنواع الشدائد غَيْرَ مَمْنُونٍ أى: غير مقطوع، يقال: مننت الحبل إذا قطعته. و قال مجاهد: غَيْرَ مَمْنُونٍ غير محسوب، و قال الحسن: غَيْرَ مَمْنُونٍ غير مكدّر بالمنّ. و قال الضحاك: أجرا بغير عمل. و قيل: غير مقدّر، و قيل: غير ممنون به عليك من جهة الناس وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ قيل:

هو الإسلام و الدين، حكى هذا الواحدى عن الأكثرين. و قيل: هو القرآن، روى هذا عن الحسن و العوفى.

و قال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر اللّه و ينتهى عنه من نهى اللّه. قال الزجاج: المعنى إنك على الخلق الّذى أمرك اللّه به فى القرآن، و قيل: هو رفقه بأمته و إكرامه إيّاهم، و قيل: المعنى: إنك على طبع كريم. قال الماوردى: و هذا هو الظاهر، و حقيقة الخلق فى اللغة ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب. و قد ثبت فى الصحيح عن عائشة أنها سئلت عن خلق النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقالت: كان خلقه القرآن. و هذه الجملة و التى قبلها معطوفتان على جملة جواب القسم. فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ أى: ستبصر يا محمد و يبصر الكفار إذا تبين الحق و انكشف الغطاء، و ذلك يوم القيامة بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ الباء زائدة للتأكيد، أى: أيكم المفتون بالجنون، كذا قال الأخفش و أبو عبيدة و غيرهما، و مثله قول الشاعر:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالسّيف و نرجو بالفرج

و قيل: ليست الباء زائدة، و المفتون مصدر جاء على مفعول، كالمعقول و الميسور، و التقدير: بأيكم الفتون أو الفتنة، و منه قول الشاعر الراعى:

حتّى إذا لم يتركوا لعظامهلحما و لا لفؤاده معقولا

أى: عقلا- و قال الفراء: إن الباء بمعنى فى، أى: فى الفريق الآخر. و يؤيد هذا قراءة ابن أبى عبلة «فى أيكم المفتون» و قيل: الكلام على حذف مضاف، أى: بأيكم فتن المفتون، فحذف المضاف و أقيم المضاف

---

(١). الحجر: ۶.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۲۰

إليه مقامه، روى هذا عن الأخفش أيضا. و قيل: المفتون: المعذّب، من قول العرب فتنت الذهب بالنار إذا أحميته، و منه قوله: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ «١» و قيل: المفتون هو الشيطان؛ لأنه مفتون فى دينه، و المعنى: بأيكم الشيطان. و قال قتادة: هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر، و المعنى: سترى و يرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر بأيكم المفتون، و جملة إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ تعليل للجملة التى قبلها، فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم فى العاجل و الآجل، و اختيارهم ما فيه ضرهم فيهما، و المعنى: هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله الموصل إلى سعادة الدارين وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ إلى سبيله الموصل إلى تلك السعادة الآجلة و العاجلة، فهو مجاز كلّ عامل بعمله، إن خيرا فخير، و إن شرّا فشر فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ نهاه سبحانه عن ممايلة «٢» المشركين، و هم رؤساء كفار مكة، لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه، فنهاه عن طاعتهم؛ أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفار، أو المراد بالطاعة مجرد المداراة بإظهار خلاف ما فى الضمير، فنهاه اللّه عن ذلك، كما يدل عليه قوله: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ فإن الادّهان: هو الملاينة و المسامحة و المداراة. قال الفرّاء: المعنى لو تلين فيلينوا لك، و كذا قال الكلبى.

و قال الضحاك و السدّى: ودّوا لو تكفر فيتمادوا على الكفر. و قال الربيع بن أنس: ودّوا لو تكذب فيكذبون.

و قال قتادة: ودّوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك. و قال الحسن: ودّوا لو تصانعهم فى دينك فيصانعونك. و قال مجاهد: ودّوا لو تركن إليهم و تترك ما أنت عليه من الحق فيما يلونك. قال ابن قتيبة:

كانوا أرادوه على أن يعبد آلهتهم مدّة، و يعبدوا اللّه مدّة. و قوله: فَيُدْهِنُونَ عطف على تدهن، داخل فى حيز «لو»، أو هو خبر مبتدأ محذوف، أى: فهم يدهنون. قال سيبويه: و زعم قالون أنها فى بعض المصاحف «ودّوا لو تدهن فيدهنوا» بدون نون، و النصب على جواب التمنى المفهوم من ودّوا، و الظاهر من اللغة فى معنى الادهان هو ما ذكرناه أوّلا- وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ أى: كثير الحلف بالباطل مَهِينٍ فعيل من المهانة، و هى القلة فى الرأى و التميز. و قال مجاهد: هو الكذاب. و قال قتادة: المكثار فى الشرّ، و كذا قال الحسن. و قيل: هو الفاجر العاجز، و قيل: هو الحقير عند اللّه، و قيل: هو الذليل، و قيل: هو الوضيع هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ الهماز المغتاب للناس. قال ابن زيد: هو الّذى يهمز بأخيه، و قيل: الهمّاز:

الّذى يذكر الناس فى وجوههم، و اللمّاز: الّذى يذكرهم فى مغيبهم، كذا قال أبو العالية و الحسن و عطاء ابن أبى رباح، و قال مقاتل عكس هذا. و المشاء بنميم: الّذى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم، يقال:

نمّ ينمّ؛ إذا سعى بالفساد بين الناس، و منه قول الشاعر:

و مولى كبيت النّمل لا خير عندهلمولاه إلّا سعيه بنميم

و قيل: النميم: جمع نميمة مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ أى: بخيل بالمال لا ينفقه فى وجهه، و قيل: هو الّذى يمنع أهله و عشيرته عن الإسلام. قال الحسن: يقول لهم من دخل منكم فى دين محمد لا أنفعه بشىء أبدا مُعْتَدٍ أَثِيمٍ

(۱). الذاريات: ۱۳.

(۲). «مايله»: مالأه.

أی: متجاوز الحدّ فی الظلم، كثير الإثم عُتُلٍّ قال الواحدی: المفسرون يقولون هو الشديد الخلق الفاحش الخلق. و قال الفراء: هو الشديد الخصومة فی الباطل. و قال الزجّاج: هو الغليظ الجافی. و قال الليث: هو الأكول المنوع، يقال: عتلت الرجل أعتله؛ إذا جذبته جذبا عنيفا، و منه قول الشاعر «۱»:

نفرعه فرعا و لسنا نعتله بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ أی: هو بعد ما عدّ من معايبه زنيم، و الزنيم و الدّعیّ: الملصق بالقوم و ليس هو منهم؛ مأخوذ من الزّنمة المتدلية فی حلق الشاة، أو الماعز، و منه قول حسان:

زنيم تداعاه الرّجال زيادةكما زيد فی عرض الأديم الأكارع

و قال سعيد بن جبير: الزنيم: المعروف بالشرّ، و قيل: هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة، و قيل: هو الظلوم. أَنْ كانَ ذا مالٍ وَ بَنِينَ متعلق بقوله: لا تُطِعْ أی: لا تطع من هذه مثالبه لكونه ذا مال و بنين. قال الفراء و الزجاج: أی لأن كان، و المعنى: لا تطعه لماله و بنيه. قرأ ابن عامر و أبو جعفر و المغيرة و أبو حيوة أَنْ كانَ بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام. و قرأ حمزة و أبو بكر و المفضّل أ أن كان بهمزتين مخففتين، و قرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر، و على قراءة الاستفهام يكون المراد به التوبيخ و التقريع حيث جعل مجازاة النعم التی خوّله اللّه من المال و البنين أن كفر به و برسوله. و قرأ نافع فی رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط، و جملة إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهی، و قد تقدّم معنى أساطير الأوّلين فی غير موضع سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ أی: سنسمه بالكیّ على خرطومه. قال أبو عبيدة و أبو زيد و المبرد: الخرطوم: الأنف. قال مقاتل: سنسمه بالسواد على الأنف، و ذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار. قال الفراء: و الخرطوم و إن كان قد خصّ بالسّمة فإنه فی مذهب «۲» الوجه، لأن بعض الوجه يؤدی عن بعض. قال الزجاج: سيجعل له فی الآخرة العلم الّذی يعرف به أهل النار من اسوداد وجوههم. و قال قتادة: سنلحق به شيئا لا يفارقه، و اختار هذا ابن قتيبة، قال:

و العرب تقول: قد و سمه ميسم سوء؛ يريدون ألصق به عارا لا يفارقه، فالمعنى: أن اللّه ألحق به عارا لا يفارقه، كالوسم على الخرطوم، و قيل: معنى سنسمه: سنحطمه بالسيف. و قال النضر بن شميل: المعنى سنحدّه على شرب الخمر، و قد يسمى الخمر بالخرطوم، و منه قول الشاعر:

تظلّ يومك فی لهو و فی طربو أنت باللّيل شرّاب الخراطيم

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابی و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و أبو الشيخ فی العظمة، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقی فی الأسماء و الصفات، و الخطيب فی

(۱). هو أبو النجم الرّاجز.

(۲). فی تفسير القرطبی: معنى.

تاريخه، و الضياء فی المختارة، عن ابن عباس قال: إن أوّل شی‏ء خلقه اللّه القلم، فقال له: اكتب، فقال:

يا ربّ و ما أكتب؟ قال: اكتب القدر، فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، ثم طوى الكتاب و رفع القلم، و

كان عرشه على الماء، فارتفع بخار الماء ففتقت منه السماوات، ثم خلق النون فبسطت الأرض عليه، و الأرض على ظهر النون «١»، فاضطرب النون فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة، ثم قرأ ابن عباس ن وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و ابن مردويه عن عبادة بن الصامت سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول:

«إن أوّل ما خلق اللّه القلم، فقال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى الأبد». و أخرج ابن جرير من حديث معاوية بن قرّة عن أبيه مرفوعا نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: إن اللّه خلق النون، و هى الدواة، و خلق القلم، فقال: اكتب، قال: و ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. و أخرج الحكيم الترمذى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس قال: ن الدواة. و أخرج ابن مردويه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «النون: السمكة التى عليها قرار الأرضين، و القلم الّذى خطّ به ربنا عزّ و جلّ القدر خيره و شرّه و ضرّه و نفعه، وَ ما يَسْطُرُونَ قال: الكرام الكاتبون». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ ما يَسْطُرُونَ قال: ما يكتبون. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه وَ ما يَسْطُرُونَ قال: و ما يعلمون. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و مسلم و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه عن سعد بن هشام قال: أتيت عائشة فقلت: يا أمّ المؤمنين أخبرينى بخلق رسول اللّه، قالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ و أخرج ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، و الواحدى عنها قالت: «ما كان أحد أحسن خلقا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ما دعاه أحد من أصحابه و لا من أهل بيته إلا قال: لبيك، فلذلك أنزل اللّه: وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ . و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه؛ و البيهقى فى الدلائل، عن أبى الدرداء قال: «سئلت عائشة عن خلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالت:

كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه و يسخط لسخطه». و أخرج ابن أبى شيبة، و الترمذى و صحّحه، و ابن مردويه عن أبى عبد اللّه الجدلىّ قال: «قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؟ قالت: لم يكن فاحشا و لا متفاحشا، و لا صخّابا فى الأسواق، و لا يجزى بالسيئة السيئة، و لكن يعفو و يصفح». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ قال: تعلم و يعلمون يوم القيامة بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ قال: الشيطان، كانوا يقولون: إنه شيطان و إنه مجنون. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال:

بأيكم المجنون. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ يقول:

لو ترخص لهم فيرخصون. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ الآية قال: يعنى الأسود بن عبد يغوث. و أخرج ابن مردويه عن أبى عثمان النهدى قال: «قال مروان لما بايع الناس ليزيد:

---

(١). «النون»: الحوت.

سنّة أبى بكر و عمر، فقال عبد الرّحمن بن أبى بكر: إنها ليست بسنّة أبى بكر و عمر، و لكنها سنّة هرقل، فقال مروان: هذا الّذى أنزل فيه: وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما «١» الآية، قال: فسمعت ذلك عائشة فقالت: إنها لم تنزل فى عبد الرّحمن، و لكن نزل فى أبيك: وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ- هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ . و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «نزل على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ- هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ فلم نعرفه حتى نزل عليه بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: العتلّ: هو الدعىّ، و الزنيم: هو المريب الّذى

يعرف بالشرّ. و أخرج عبد بن حميد و ابن عساكر عنه قال: الزنيم: هو الدعىّ. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، عنه أيضا قال: الزنيم: الّذى يعرف بالشرّ كما تعرف الشاة بزنمتها.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: هو الرجل يمرّ على القوم، فيقولون: رجل سوء. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: زَنِيمٍ قال: ظلوم، و قد قيل: إن هذه الآيات نزلت فى الأخنس بن شريق، و قيل: فى الوليد بن المغيرة.

[سورة القلم (٦٨): الآيات ١٧ الى ٣٣]

إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ (١٧) وَ لا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١)

أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخافَتُونَ (٢٣) أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَ غَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦)

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ (٣١)

عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ (٣٢) كَذلِكَ الْعَذابُ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)

قوله: إِنَّا بَلَوْناهُمْ يعنى كفار مكة، فإن اللّه ابتلاهم بالجوع و القحط بدعوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عليهم، و الابتلاء: الاختبار، و المعنى: أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع و القحط كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ المعروف خبرهم عندهم، و ذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدّى حق اللّه منها، فمات و صارت إلى أولاده، فمنعوا الناس خيرها، و بخلوا بحقّ اللّه فيها.

قال الواحدى: هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين، ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات و زرع و نخيل، و كان أبوهم يجعل ممّا فيها من كل شيء حظا للمساكين عند الحصاد و الصرام، فقالت بنوه: المال قليل، و العيال كثير، و لا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا، و عزموا على حرمان المساكين، فصارت عاقبتهم إلى ما قصّ اللّه فى كتابه. قال الكلبى: كان بينهم و بين صنعاء فرسخان ابتلاهم اللّه بأن حرق جنتهم. و قيل: هى جنة كانت بضوران، و ضوران على فراسخ من صنعاء، و كان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بيسير إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ أى: حلفوا ليقطعنها داخلين فى وقت الصباح، و الصرم: القطع للثمر

---

(١). الأحقاف: ١٧.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٢٤

و الزرع، و انتصاب مُصْبِحِينَ على الحال من فاعل ليصرمنها، و الكاف فى كَما بَلَوْنا نعت مصدر محذوف، أى: بلوناهم ابتلاء كما بلونا، و ما مصدرية، أو بمعنى الّذى، و «إذ» ظرف لبلونا منتصب به، و ليصرمنها جواب القسم وَ لا يَسْتَثْنُونَ يعنى: و لا يقولون إن شاء اللّه، و هذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم، أو حال. و قيل: المعنى: و لا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الّذى كان يدفعه أبوهم إليهم، قاله عكرمة: فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ أى: طاف على تلك الجنة طائف من جهة اللّه سبحانه، و الطائف قيل: هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء، كذا قال مقاتل. و قيل: الطائف جبريل اقتلعها، و جملة وَ هُمْ نائِمُونَ فى محل نصب على الحال فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ أى: كالشيء الّذى صرمت ثماره، أى: قطعت، فعيل بمعنى مفعول، و قال الفرّاء: كالصريم المظلم، و منه قول الشاعر:

تطاول ليلك الجون الصّريمفما ينجاب عن صبح بهيم
و المعنى: أنها حرقت فصارت كالليل الأسود، قال: و الصريم: الرماد الأسود بلغة خزيمة. و قال الأخفش: أى كالصبح انصرم من الليل، يعنى أنها يبست و ابيضت. و قال المبرد: الصريم: الليل، و الصريم:
النهار، أى: ينصرم هذا عن هذا، و ذاك عن هذا، و قيل: سمّى الليل صريما لأنه يقطع بظلمته عن التصرّف.
و قال المؤرج: الصريم: الرملة لأنها لا يثبت عليها شىء ينتفع به. و قال الحسن: صرم منها الخير، أى: قطع فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ أى: نادى بعضهم بعضا داخلين فى الصباح. قال مقاتل: لما أصبحوا قال بعضهم لبعض أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ و أَنِ فى قوله: أَنِ اغْدُوا هى المفسرة؛ لأنّ فى التنادى معنى القول، أو هى المصدرية، أى: بأن اغدوا، و المراد اخرجوا غدوة، و المراد بالحرث: الثمار و الزرع إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ أى: قاصدين للصرم، و الغدوّ يتعدّى بإلى و على، فلا حاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل: و جواب الشرط محذوف، أى: إن كنتم صارمين فاغدوا، و قيل، معنى صارمين ماضين فى العزم، من قولك سيف صارم فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخافَتُونَ أى: ذهبوا إلى جنّتهم و هم يسرّون الكلام بينهم لئلا يعلم أحد بهم، يقال: خفت يخفت؛ إذا سكن و لم يبين، و منه قول دريد بن الصّمّة:
و إنّى لم أهلك سلالا و لم أمتخفاتا و كلّا ظنّه بى عوّدى
و قيل: المعنى: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم، فيقصدوهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد، و الأوّل أولى لقوله: أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ فإنّ «أن» هى المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول. و المعنى: يسرّ بعضهم إلى بعض هذا القول، و هو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين، فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم وَ غَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ الحرد يكون بمعنى المنع و القصد. قال قتادة و مقاتل و الكلبى و الحسن و مجاهد: الحرد هنا بمعنى القصد؛ لأن القاصد إلى الشىء حارد، يقال: حرد يحرد إذا قصد، تقول: حردت حردك، أى: قصدت قصدك، و منه قول الراجز:
فتح القدير، ج‏5، ص: 325 أقبل سيل جاء من عند اللّهيحرد حرد الجنّة المغلّة
و قال أبو عبيد و المبرد و القتيبى: على حرد على منع، من قولهم حاردت الإبل حردا؛ إذا قلّت ألبانها، و الحرود من النوق هى القليلة اللبن. و قال السدّى و سفيان و الشعبى عَلى حَرْدٍ على غضب، و منه قول الشاعر:
إذا جياد الخيل جاءت تردىمملوءة من غضب و حرد
و قول الآخر:
تساقوا على حرد دماء الأساود و منه قيل: أسد حارد. و روى عن قتادة و مجاهد أيضا أنهما قالا: عَلى حَرْدٍ أى: على حسد.
و قال الحسن أيضا: على حاجة و فاقة. و قيل: عَلى حَرْدٍ: على انفراد، يقال: حرد يحرد حردا أو حرودا؛ إذا تنحى عن قومه و نزل منفردا عنهم و لم يخالطهم، و به قال الأصمعى و غيره. و قال الأزهرى:
حرد اسم قريتهم، و قال السدّى: اسم جنتهم. قرأ الجمهور حَرْدٍ بسكون الراء. و قرأ أبو العالية و ابن السّميقع بفتحها، و انتصاب قادِرِينَ على الحال. قال الفراء: و معنى قادرين: قد قدّروا أمرهم و بنوا عليه، و قال قتادة: قادرين على جنتهم عند أنفسهم. و قال الشعبى: يعنى قادرين على المساكين فَلَمَّا رَأَوْها أى: لما رأوا جنتهم و شاهدوا ما قد حلّ بها من الآفة التى أذهبت ما فيها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ أى: قال بعضهم لبعض: قد ضللنا جنتنا و ليست هذه، ثم لما تأملوا و علموا أنها جنتهم، و أن اللّه سبحانه قد عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر و الزرع قالوا: بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أى حرمنا جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها، فأضربوا عن قولهم الأوّل إلى هذا القول، و قيل: معنى قولهم:
إِنَّا لَضَالُّونَ أنهم ضلوا عن الصواب بما وقع منهم قالَ أَوْسَطُهُمْ أى: أمثلهم و أعقلهم و خيرهم أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ أى:

هلّا تسبحون، يعنى تستثنون، و سمّى الاستثناء تسبيحا؛ لأنه تعظيم للّه و إقرار به، و هذا يدلّ على أن أوسطهم كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه، و قال مجاهد و أبو صالح و غير هما:

كان استثناؤهم تسبيحا. قال النحاس: أصل التسبيح التنزيه للّه عزّ و جلّ، فجعل التسبيح فى موضع إن شاء اللّه. و قيل: المعنى: هلا تستغفرون اللّه من فعلكم و تتوبون إليه من هذه النيئة التى عزمتم عليها، و كان أوسطهم قد قال لهم ذلك بعد مشاهدتهم للجنة على تلك الصفة قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ أى: تنزيها له عن أن يكون ظالما فيما صنع بجنتنا، فإن ذلك بسبب ذنبنا الّذى فعلناه، و قيل: معنى تسبيحهم الاستغفار، أى نستغفر ربنا من ذنبنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا فى منعنا للمساكين فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ أى: يلوم بعضهم بعضا فى منعهم للمساكين و عزمهم على ذلك، ثم نادوا على أنفسهم بالويل حيث قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ أى: عاصين متجاوزين حدود اللّه بمنع الفقراء و ترك الاستثناء. قال ابن كيسان:

أى: طغينا نعم اللّه فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل، ثم رجعوا إلى اللّه و سألوه أن يعوضهم بخير منها،

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۲۶

فقالوا: عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها لما اعترفوا بالخطيئة رجوا من اللّه عزّ و جلّ أن يبدلهم جنة خيرا من جنتهم، قيل: إنهم تعاقدوا فيما بينهم، و قالوا: إن أبدلنا اللّه خيرا منها لنصنعنّ كما صنع أبونا، فدعوا اللّه و تضرّعوا فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها. قرأ الجمهور: يُبْدِلَنا بالتخفيف، و قرأ أبو عمرو و أهل المدينة بالتشديد، و هما لغتان، و التبديل: تغيير ذات الشىء، أو تغيير صفته، و الإبدال: رفع الشىء جملة و وضع آخر مكانه، كما مضى فى سورة سبأ إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ أى: طالبون منه الخير، راجون لعفوه، راجعون إليه. و عدّى بإلى و هو إنما يتعدّى بعن أو فى لتضمينه معنى الرجوع كَذلِكَ الْعَذابُ أى:

مثل ذلك العذاب الّذى بلوناهم به و بلونا أهل مكة بعذاب الدنيا، و العذاب مبتدأ مؤخر، و كذلك خبره وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ أى: أشدّ و أعظم لو كان المشركون يعلمون أنه كذلك، و لكنهم لا يعلمون.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ قال: هم ناس من الحبشة كان لأبيهم جنة و كان يطعم منها المساكين، فمات أبوهم، فقال بنوه: إن كان أبونا لأحمق، كان يطعم المساكين أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ و أن لا يطعموا مسكينا. و أخرج ابن جرير عنه فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ قال: أمر من اللّه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«إياكم و المعصية، فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم، و إن العبد ليذنب فيحرم به قيام الليل، و إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا قد كان هيّئ له. ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ قد حرموا خير جنّتهم بذنبهم». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كَالصَّرِيمِ قال:

مثل الليل الأسود. و أخرج ابن المنذر عنه وَ هُمْ يَتَخافَتُونَ قال: الإسرار و الكلام الخفىّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ يقول: ذوى قدرة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: إِنَّا لَضَالُّونَ قال: أضللنا مكان جنتنا. و أخرجا عنه أيضا قالَ أَوْسَطُهُمْ قال:

أعدلهم.

[سورة القلم (۶۸): الآيات ۳۴ الى ۵۲]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۳۴) أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (۳۵) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۶) أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ

تَدْرُسُونَ (۳۷) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (۳۸)
أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (۳۹) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ (۴۰) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (۴۱) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (۴۲) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ (۴۳)
فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (۴۴) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (۴۵) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴۶) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (۴۷) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَ هُوَ مَكْظُومٌ (۴۸)
لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ (۴۹) فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (۵۰) وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (۵۱) وَ ما هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۵۲)

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۲۷

لما فرغ سبحانه من ذكر حال الكفار، و تشبيه ابتلائهم بابتلاء أصحاب الجنة المذكورة ذكر حال المتقين، و ما أعدّه لهم من الخير، فقال: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ أى: للمتقين ما يوجب سخطه- من الكفر و المعاصى- عنده عزّ و جلّ فى الدار الآخرة جنات النعيم الخالص؛ الّذى لا يشوبه كدر و لا ينغصه خوف زوال أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ الاستفهام للإنكار. و كان صناديد كفار قريش يرون و فور حظّهم فى الدنيا، و قلّة حظوظ المسلمين فيها، فلما سمعوا بذكر الآخرة، و ما يعطى اللّه المسلمين فيها قالوا: إن صح ما يزعمه محمد لم يكن حالنا و حالهم إلا مثل ما هى فى الدنيا، فقال اللّه مكذبا لهم رادّا عليهم: أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ الآية، و الفاء للعطف على مقدر كنظائره. ثم وبّخهم اللّه، فقال: ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ هذا الحكم الأعوج؛ كأنّ أمر الجزاء مفوّض إليكم تحكمون فيه بما شئتم أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ أى: تقرؤون فيه فتجدون المطيع كالعاصى، و مثل هذا قوله تعالى: أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ- فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ «۱»، ثم قال سبحانه:
إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ قرأ الجمهور بكسر إن على أنها معمولة لتدرسون، أى: تدرسون فى الكتاب إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ فلما دخلت اللام كسرت الهمزة، كقوله: علمت إنك لعاقل بالكسر، أو على الحكاية للمدروس، كما فى قوله: وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ- سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ «۲» و قيل:
قد تمّ الكلام عند قوله: تَدْرُسُونَ ثم ابتدأ فقال: إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ أى: ليس لكم ذلك، و قرأ طلحة بن مصرّف و الضحاك إِنَّ لَكُمْ بفتح الهمزة على أن العامل فيه تدرسون مع زيادة لام التأكيد، و معنى تَخَيَّرُونَ تختارون و تشتهون. ثم زاد سبحانه فى التوبيخ فقال: أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ أى: عهود مؤكّدة موثقة متناهية، و المعنى: أم لكم أيمان على اللّه استوثقتم بها فى أن يدخلكم الجنة، و قوله:
إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ متعلق بالمقدر فى لكم، ثابتة لكم إلى يوم القيامة، لا نخرج عن عهدتها حتى يحكمكم يومئذ، و جواب القسم قوله: إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ لأن معنى أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ أى: أم أقسمنا لكم.
قال الرازى: و المعنى أم ضمنا لكم، و أقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية فى التوكيد. و قيل: قد تمّ الكلام عند قوله: إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثم ابتدأ فقال: إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ أى: ليس الأمر كذلك. قرأ الجمهور: بالِغَةٌ بالرفع على النعت لأيمان، و قرأ الحسن و زيد بن علىّ بنصبها على الحال من أيمان؛ لأنها قد تخصّصت بالوصف، أو من الضمير فى لكم أو من الضمير فى علينا سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ أى:
سل يا محمد الكفار، موبّخا لهم و مقرّعا، أيّهم بذلك الحكم الخارج عن الصواب، كفيل لهم بأن لهم فى الآخرة ما للمسلمين

فيها. و قال ابن كيسان: الزعيم هنا القائم بالحجّة و الدعوى. و قال الحسن: الزعيم: الرسول أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ يشاركونهم فى هذا القول و يوافقونهم فيه فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ

(١). الصافات: ١٥٦- ١٥٧.

(٢). الصافات: ٧٨- ٧٩.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٢٨

فيما يقولون، و هو أمر تعجيز. و قيل: المعنى أم لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين فى الآخرة يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ يوم ظرف، لقوله فليأتوا، أى: فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق، و يجوز أن يكون ظرفا لفعل مقدّر، أى: اذكر يوم يكشف. قال الواحدى: قال المفسرون فى قوله: عَنْ ساقٍ عن شدّة من الأمر. قال ابن قتيبة: أصل هذا أن الرجل إذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى الجدّ فيه شمّر عن ساقه، فيستعار الكشف عن الساق فى موضع الشدّة، و أنشد لدريد بن الصّمّة:

كميش الإزار خارج نصف ساقهصبور على الجلاء طلّاع أنجد

و قال: و تأويل الآية يوم يشتدّ الأمر كما يشتدّ ما يحتاج فيه إلى أن يكشف عن ساق. قال أبو عبيدة:

إذا اشتدّ الحرب و الأمر قيل: كشف الأمر عن ساقه، و الأصل فيه: من وقع فى شى‌ء يحتاج فيه إلى الجدّ شمر عن ساقه، فاستعير الساق و الكشف عن موضع الشدّة، و هكذا قال غيره من أهل اللغة، و قد استعملت ذلك العرب فى أشعارها، و من ذلك قول الشاعر «١»:

أخو الحرب إن عضّت به الحرب عضّهاو إن شمرت عن ساقها الحرب شمّرا

و قول آخر:

و الخيل تعدو عند وقت الإشراقو قامت الحرب بنا على ساق

و قول آخر أيضا:

قد كشفت عن ساقها فشدّواو جدّت الحرب بكم فجدّوا

و قول آخر أيضا:

فى سنة قد كشفت عن ساقهاحمراء تبرى اللّحم عن عراقها «٢».

و قيل: ساق الشى‌ء: أصله و قوامه كساق الشجرة، و ساق الإنسان، أى: يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه، و قيل: يكشف عن ساق جهنم، و قيل: عن ساق العرش، و قيل: هو عبارة عن القرب، و قيل: يكشف الربّ سبحانه عن نوره، و سيأتى فى آخر البحث ما هو الحق، و إذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل.

قرأ الجمهور يُكْشَفُ بالتحتية مبنيا للمفعول، و قرأ ابن مسعود و ابن عباس و ابن أبى عبلة تكشف بالفوقية مبنيا للفاعل، أى: الشدّة أو الساعة، و قرئ بالفوقية مبنيا للمفعول، و قرئ بالنون، و قرئ بالفوقية المضمومة و كسر الشين من أكشف الأمر، أى: دخل فى الكشف وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ قال الواحدى: قال المفسرون: يسجد الخلق كلهم للّه سجدة واحدة، و يبقى الكفار و المنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون؛ لأن أصلابهم تيبس فلا تلين للسجود. قال الربيع بن أنس: يكشف

(١). هو حاتم الطائى.

(٢). «العراق»: العظم بغير لحم.

فتح القدير، ج‏5، ص: 329

عن الغطاء فيقع من كان آمن باللّه فى الدنيا فيسجدون له، و يدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون؛ لأنهم لم يكونوا آمنوا باللّه فى الدنيا، و انتصاب خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ على الحال من ضمير «يدعون»، و «أبصارهم» مرتفع به على الفاعلية، و نسبة الخشوع إلى الأبصار، و هو الخضوع و الذلة لظهور أثره فيها تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ أى: تغشاهم ذلّة شديدة و حسرة و ندامة وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ أى:

فى الدنيا وَ هُمْ سالِمُونَ أى: معافون عن العلل متمكّنون من الفعل. قال إبراهيم التّيمى: يدعون بالأذان و الإقامة فيأبون. و قال سعيد بن جبير: يسمعون حىّ على الفلاح فلا يجيبون. قال كعب الأحبار: و اللّه ما نزلت هذه الآية إلا فى الذين يتخلّفون عن الجماعات. و قيل: يدعون بالتكليف المتوجّه عليهم بالشرع فلا يجيبون، و جملة وَ هُمْ سالِمُونَ فى محل نصب على الحال من ضمير يدعون فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ أى: حل بينى و بينه و كل أمره إلىّ فأنا أكفيكه. قال الزجاج: معناه لا يشتغل به قلبك، كله إلىّ أكفك أمره. و الفاء لترتيب ما بعدها من الأمر على ما قبلها، و مَنْ منصوب بالعطف على ضمير المتكلم أو على أنه مفعول معه، و المراد بهذا الحديث القرآن، قاله السدّى. و قيل: يوم القيامة، و فى هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و جملة سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ مستأنفة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله: فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ و الضمير عائد إلى «من» باعتبار معناها، و المعنى: سنأخذهم بالعذاب على غفلة، و نسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه؛ من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج؛ لأنهم يظنّونه إنعاما و لا يفكرون فى عاقبته و ما سيلقون فى نهايته. قال سفيان الثورى: يسبغ عليهم النعم و ينسيهم الشكر. و قال الحسن: كم من مستدرج بالإحسان إليه! و كم من مفتون بالثناء عليه! و كم من مغرور بالستر عليه! و الاستدراج: ترك المعاجلة، و أصله النقل من حال إلى حال، و يقال: استدرج فلان فلانا، أى: استخرج ما عنده قليلا قليلا، و يقال: درّجه إلى كذا و استدرجه، بمعنى، أى «1» أدناه إلى التدريج فتدرّج هو. ثم ذكر سبحانه أنه يمهل الظالمين، فقال: وَ أُمْلِي لَهُمْ أى: أمهلهم ليزدادوا إثما.

و قد مضى تفسير هذا فى سورة الأعراف و الطور، و أصل الملاوة: المدّة من الدهر، يقال: أملى اللّه له، أى: أطال له المدّة، و الملا، مقصور: الأرض الواسعة، سمّيت به لامتدادها إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أى: قوىّ شديد فلا يفوتنى شى‏ء، و سمّى سبحانه إحسانه كيدا، كما سمّاه استدراجا؛ لكونه فى صورة الكيد باعتبار عاقبته و وصفه بالمتانة لقوّة أثره فى التسبب للهلاك أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً أعاد سبحانه الكلام إلى ما تقدّم من قوله: أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ أى: أم تلتمس منهم ثوابا على ما تدعوهم إليه من الإيمان باللّه فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ المغرم: الغرامة، أى: فهم من غرامة ذلك الأجر، و «مثقلون» أى: يثقل عليهم حمله لشحّهم ببذل المال، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب، و الاستفهام للتوبيخ لهم، و المعنى: أنك لم تسألهم ذلك و لم تطلبه منهم أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أى: اللوح المحفوظ، أو كلّ ما غاب عنهم، فهم

---

(1). من تفسير القرطبى (18/ 252)

فتح القدير، ج‏5، ص: 330

من ذلك الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التى يزعمون أنها تدلّ على قولهم، و يخاصمونك بما يكتبونه من ذلك و يحكمون لأنفسهم بما يريدون و يستغنون بذلك عن الإجابة لك و الامتثال لما تقوله: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ أى: لقضائه الّذى قد قضاه فى سابق علمه، قيل: و الحكم هنا هو إمهالهم و تأخير نصرة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عليهم، و قيل: هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة، قيل: و هذا منسوخ بآية السيف وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ يعنى يونس عليه السلام، أى: لا تكن مثله فى

الغضب و الضجر و العجلة. و الظرف فى قوله: إِذْ نادى منصوب بمضاف محذوف، أى: لا تكن حالك كحاله وقت ندائه، و جملة وَ هُوَ مَكْظُومٌ فى محل نصب على الحال من فاعل نادى، و المكظوم: المملوء غيظا و كربا. قال قتادة: إن اللّه يعزّى نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم و يأمره بالصبر و لا يعجل كما عجل صاحب الحوت، و قد تقدّم بيان قصته فى سورة الأنبياء و يونس و الصّافّات، و كان النداء منه بقوله: لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّی كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ «١» و قيل:

إن المكظوم: المأخوذ بكظمه و هو مجرى النفس. قاله المبرّد، و قيل: هو المحبوس، و الأوّل أولى، و منه قول ذى الرّمة:

و أنت من حبّ ميّ مضمر حزناعانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ أى: لو لا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من اللّه و هى توفيقه للتوبة فتاب اللّه عليه لَنُبِذَ بِالْعَراءِ أى: لألقى من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات وَ هُوَ مَذْمُومٌ أى: يذمّ و يلام بالذنب الّذى أذنبه و يطرد من الرحمة، و الجملة فى محل نصب على الحال من ضمير نبذ. قال الضحاك: النعمة هنا للنبوّة. و قال سعيد بن جبير: عبادته التى سلفت. و قال ابن زيد: هى نداؤه بقوله: لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّی كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ و قيل: مذموم: مبعد. و قيل: مذنب. قرأ الجمهور: تَدارَكَهُ على صيغة الماضى، و قرأ الحسن و ابن هرمز و الأعمش بتشديد الدال، و الأصل تتداركه بتاءين مضارعا فأدغم، و تكون هذه القراءة على حكاية الحال الماضية، و قرأ أبيّ و ابن مسعود و ابن عباس تداركته بتاء التأنيث فَاجْتَباهُ رَبُّهُ أى: استخلصه و اصطفاه و اختاره للنبوّة فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ أى: الكاملين فى الصلاح و عصمه من الذنب، و قيل: ردّ إليه النبوّة و شفعه فى نفسه و فى قومه، و أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون كما تقدّم وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ إن هى المخففة من الثقيلة. قرأ الجمهور: لَيُزْلِقُونَكَ بضم الياء من أزلقه، أى: أزلّ رجله، يقال: أزلقه عن موضعه إذا نحّاه، و قرأ نافع و أهل المدينة بفتحها من زلق عن موضعه؛ و إذا تنحّى. قال الهروى: أى: فيغتالونك بعيونهم فيزلقونك عن مقامك الّذى أقامك اللّه فيه عداوة لك، و قرأ ابن عباس و ابن مسعود و الأعمش و مجاهد و أبو وائل ليرهقونك أى: يهلكونك. و قال الكلبى: لَيُزْلِقُونَكَ أى: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة، و كذا قال السدّى و سعيد بن جبير. و قال النضر بن شميل و الأخفش: يفتنونك. و قال

---

(١). الأنبياء: ٨٧.

الحسن و ابن كيسان: ليقتلونك. قال الزجاج فى الآية: مذهب أهل اللغة و التأويل أنهم من شدّة إبغاضهم و عداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك، و هذا مستعمل فى الكلام، يقول القائل نظر إليّ نظرا يكاد يصرعنى، و نظرا يكاد يأكلنى. قال ابن قتيبة: ليس يريد اللّه أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، و إنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرا شديدا بالعداوة و البغضاء يكاد يسقطك، كما قال الشاعر:

يتقارضون إذا التقوا فى مجلس نظرا يزيل مواطئ الأقدام

لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ أى: وقت سماعهم للقرآن لكراهتهم لذلك أشدّ كراهة، و لما: ظرفية منصوبة بيزلقونك، و قيل: هى حرف، و جوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه أى لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ أى: ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن، فردّ اللّه عليهم بقوله: وَ ما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ و الجملة مستأنفة، أو فى محل نصب على الحال من فاعل يقولون، أى: و الحال أنه تذكير و بيان لجميع ما يحتاجون إليه، أو شرف لهم كما قال سبحانه: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ و قيل: الضمير لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و إنه مذكر للعالمين أو شرف لهم.

و قد أخرج البخارى و غيره عن أبى سعيد قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن و مؤمنة، و يبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء و سمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا» و هذا الحديث ثابت من طرق فى الصحيحين و غيرهما، و له ألفاظ فى بعضها طول، و هو حديث مشهور معروف. و أخرج ابن مندة عن أبى هريرة فى الآية قال: يكشف اللّه عزّ و جلّ عن ساقه. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن مندة عن ابن مسعود فى الآية قال: يكشف عن ساقه تبارك و تعالى. و أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن مردويه فى الأسماء و الصفات، و ضعّفه و ابن عساكر عن أبى موسى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية قال: «عن نور عظيم فيخرّون له سجدا». و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن مندة و البيهقى عن إبراهيم النّخعى عن ابن عباس فى الآية قال: يكشف عن أمر عظيم، ثم قال: قد قامت الحرب على ساق. قال: و قال ابن مسعود: يكشف عن ساقه فيسجد كلّ مؤمن، و يقسو ظهر الكافر فيصير عظما واحدا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ قال: إذا خفى عليكم شىء من القرآن فابتغوه فى الشعر فإنه ديوان العرب، أما سمعتم قول الشاعر:
و قامت الحرب بنا على ساق «۱» قال ابن عباس: هذ يوم كرب شديد، روى عنه نحو هذا من طرق أخرى، و قد أغنانا اللّه سبحانه فى

---

(۱). جاء هذا القول على المثل. كما فى اللسان (مادة سوق)، و تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص (۴۸۱)

تفسير هذه الآية بما صح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما عرفت، و ذلك لا يستلزم تجسيما و لا تشبيها فليس كمثله شىء.

دعوا كلّ قول عند قول محمّدفما آمن فى دينه كمخاطر

و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ قال:
هم الكفار يدعون فى الدنيا و هم آمنون فاليوم يدعون و هم خائفون. و أخرج البيهقى فى الشعب عنه فى الآية قال: الرجل يسمع الأذان فلا يجيب الصلاة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا فى قوله:
لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ قال: ينفذونك بأبصارهم.

سورة الحاقّة

اشارة

هى إحدى و خمسون آية، و قيل: اثنتان و خمسون و هى مكية. قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحاقة بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج الطبرانى عن أبى برزة قال: «إنّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ فى الفجر بالحاقة و نحوها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۱ الى ۱۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عادٌ بِالْقارِعَةِ (٤)
فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ (٨) وَ جاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ (٩)
فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ (١٢) فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ (١٣) وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (١٤)
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (١٥) وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ (١٦) وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ (١٨)

قوله: الْحَاقَّةُ هى القيامة؛ لأن الأمر يحقّ فيها، و هى تحقّ فى نفسها من غير شك. قال الأزهرى:
يقال: حاققته فحققته أحقّه: غالبته فغلبته أغلبه، فالقيامة حاقة لأنها تحقّ كلّ محاقّ فى دين اللّه بالباطل و تخصم كل مخاصم. و قال فى الصحاح: حاقّه أى خاصمه فى صغار الأشياء، و يقال: ما له فيها حقّ و لا حقاق، أى: خصومة، و التحاقّ: التخاصم، و الحاقة و الحقّة و الحقّ ثلاث لغات بمعنى. قال الواحدى: هى القيامة فى قول كل المفسرين، و سمّيت بذلك لأنها ذات الحواقّ من الأمور، و هى الصادقة الواجبة الصدق، و جميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع و الوجود. قال الكسائى و المؤرّج: الحاقة يوم الحق، و قيل: سمّيت بذلك لأنّ كلّ إنسان فيها حقيق بأن يجزى بعمله، و قيل: سميت بذلك لأنها أحقّت لقوم النار، و أحقّت لقوم الجنّة، و هى مبتدأ و خبرها قوله: مَا الْحَاقَّةُ على أن «ما» الاستفهامية مبتدأ ثان و خبره «الحاقة»، و الجملة خبر للمبتدأ الأول، و المعنى: أىّ شىء هى فى حالها أو صفاتها، و قيل: إن «ما» الاستفهامية خبر لما بعدها، و هذه الجملة و إن كان لفظها لفظ الاستفهام فمعناها التعظيم و التفخيم لشأنها، كما تقول: زيد ما زيد، و قد قدّمنا تحقيق هذا المعنى فى سورة الواقعة. ثم زاد سبحانه فى تفخيم أمرها و تفظيع شأنها و تهويل حالها فقال: وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ أى: أىّ شىء أعلمك ما هى؟ أى: كأنك لست تعلمها إذ لم

تعاينها و تشاهد ما فيها من الأهوال فكأنها خارجة عن دائرة علم المخلوقين. قال يحيى بن سلام: بلغنى أن كل شى‏ء فى القرآن وَ ما أَدْراكَ* فقد أدراه إياه و علمه، و كلّ شى‏ء قال فيه: وَ ما يُدْرِيكَ* [فهو مما لم يعلمه. و قال سفيان بن عيينة: كل شى‏ء قال فيه: وَ ما أَدْراكَ*] «١» فإنه أخبره به، و «ما» مبتدأ، و خبره «أدراك»، و «ما الحاقة» جملة من مبتدأ و خبر محلها النصب بإسقاط الخافض؛ لأن أدرى يتعدّى إلى المفعول الثانى بالباء كما فى قوله: وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت فى موضع المفعول الثانى، و بدون الهمزة يتعدى إلى مفعول واحد بالباء نحو: دريت بكذا، و إن كان بمعنى العلم تعدّى إلى مفعولين، و جملة «و ما أدراك» معطوفة على جملة «ما الحاقة». كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عادٌ بِالْقارِعَةِ أى:
بالقيامة، و سمّيت بذلك لأنها تقرع الناس بأهوالها. و قال المبرّد: عنى بالقارعة القرآن الّذى نزل فى الدنيا على أنبيائهم، و كانوا يخوّفونهم بذلك فيكذبونهم، و قيل: القارعة مأخوذة من القرعة لأنها ترفع أقواما و تحطّ آخرين، و الأوّل أولى، و يكون وضع القارعة موضع ضمير الحاقة للدلالة على عظيم هولها و فظاعة حالها، و الجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقة فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ثمود: هم قوم صالح، و قد تقدّم بيان هذا فى غير موضع و بيان منازلهم و أين كانت، و الطاغية الصيحة التى جاوزت الحدّ، و قيل: بطغيانهم و كفرهم، و أصل الطغيان: مجاوزة الحدّ وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاد: هم قوم هود، و قد تقدّم بيان هذا، و ذكر منازلهم و أين كانت فى غير موضع، و الريح الصرصر: هى الشديدة البرد، مأخوذ من الصرّ و هو البرد، و

قيل: هى الشديدة الصوت. و قال مجاهد: الشديدة السموم، و العاتية: التى عتت عن الطاعة؛ فكأنها عتت على خزّانها فلم تطعهم، و لم يقدروا على ردّها لشدّة هبوبها، أو عتت على عاد؛ فلم يقدروا على ردّها، بل أهلكتهم سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ هذه الجملة مستأنفة لبيان كيفية إهلاكهم، و معنى سخّرها: سلّطها، كذا قال مقاتل، و قيل: أرسلها. و قال الزجاج: أقامها عليهم كما شاء، و التسخير: استعمال الشيء بالاقتدار، و يجوز أن تكون هذه الجملة صفة لريح، و أن تكون حالا منها لتخصيصها بالصفة، أو من الضمير فى عاتية، وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ معطوف على سبع ليال، و انتصاب حُسُوماً على الحال، أى: ذات حسوم، أو على المصدر بفعل مقدّر، أى: تحسمهم حسوما، أو على أنه مفعول به، و الحسوم: التتابع، فإذا تتابع الشيء و لم ينقطع أوّله عن آخره قيل له: الحسوم. قال الزجاج:

الّذى توجبه اللغة فى معنى قوله حسوما، أى: تحسمهم حسوما: تفنيهم و تذهبهم. قال النضر بن شميل:

حسمتهم: قطعتهم و أهلكتهم. و قال الفراء: الحسوم: التّباع، من حسم الداء و هو الكيّ، لأن صاحبه يكوى بالمكواة، ثم يتابع ذلك عليه، و منه قول أبى داود «٢»:

يفرّق بينهم زمن طويلتتابع فيه أعواما حسوما «٣»

---

(١). من تفسير القرطبى (١٨/ ٢٥٧)

(٢). فى تفسير القرطبى: عبد العزيز بن زرارة الكلابى.

(٣). فى تفسير القرطبى: ففرّق بين بينهم زمانتتابع فيه أعوام حسوم فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٣٥

و قال المبرّد: هو من قولك: حسمت الشيء؛ إذا قطعته و فصلته عن غيره، و قيل: الحسم:

الاستئصال، و يقال للسيف حسام؛ لأنه يحسم العدوّ عما يريده من بلوغ عداوته، و المعنى: أنها حسمتهم، أى: قطعتهم و أذهبتهم، و منه قول الشاعر:

فأرسلت ريحا دبورا عقيمافدارت عليهم فكانت حسوما

قال ابن زيد: أى حسمتهم فلم تبق منهم أحدا. و روى عنه أنه قال: حسمت الأيام و الليالى حتى استوفتها، لأنها بدأت بطلوع الشمس من أوّل يوم و انقطعت بغروب الشمس من آخر يوم. و قال الليث: الحسوم هى الشؤم، أى: تحسم الخير عن أهلها، كقوله: فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ «١».

و اختلف فى أوّلها، فقيل: غداة الأحد، و قيل: غداة الجمعة، و قيل: غداة الأربعاء. قال وهب: و هذه الأيام هى التى تسميها العرب أيام العجوز، كان فيها برد شديد و ريح شديدة، و كان أوّلها يوم الأربعاء، و آخرها يوم الأربعاء. فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى الخطاب لكلّ من يصلح له على تقدير أنه لو كان حاضرا حينئذ لرأى ذلك، و الضمير فى فيها يعود إلى الليالى و الأيام، و قيل: إلى مهاب الريح، و الأوّل أولى. و صرعى:

جمع صريع، يعنى: موتى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ أى: أصول نخل ساقطة، أو بالية، و قيل: خالية لا جوف فيها، و النخل يذكّر و يؤنّث، و مثله قوله: كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ «٢» و قد تقدّم تفسيره، و هو إخبار عن عظم أجسامهم. قال يحيى بن سلام: إنما قال خاوية لأن أبدانهم خوت من أرواحهم مثل النخل الخاوية فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ أى: من فرقة باقية، أو من نفس باقية، أو من بقيّة، على أن باقية مصدر كالعاقبة و العافية. قال ابن جريج: أقاموا سبع ليال و ثمانية أيام أحياء فى عذاب الريح، فلما أمسوا فى اليوم الثامن ماتوا، فاحتملتهم الريح فألقتهم فى البحر وَ جاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ أى: من الأمم الكافرة.

قرأ الجمهور قبله بفتح القاف و سكون الباء، أى: و من تقدّمه من القرون الماضية و الأمم الخالية، و قرأ أبو عمرو و الكسائى

بكسر القاف و فتح الباء، أى: و من هو فى جهته من أتباعه، و اختار أبو حاتم و أبو عبيد القراءة الثانية لقراءة ابن مسعود و أبىّ «و من معه»، و لقراءة أبى موسى «و من تلقاه» وَ الْمُؤْتَفِكاتُ قرأ الجمهور: الْمُؤْتَفِكاتُ بالجمع و هى قرى قوم لوط، و قرأ الحسن و الجحدرى: المؤتفكة بالإفراد، و اللام للجنس، فهى فى معنى الجمع، و المعنى: و جاءت المؤتفكات بِالْخاطِئَةِ أى: بالفعلة الخاطئة، أو الخطأ على أنها مصدر. و المراد أنها جاءت بالشرك و المعاصى. قال مجاهد: بالخطايا. و قال الجرجانىّ: بالخطإ العظيم فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ أى: فعصت كلّ أمة رسولها المرسل إليها. قال الكلبى:

هو موسى: و قيل: لوط لأنه أقرب، و قيل: و رسول هنا بمعنى رسالة، و منه قول الشاعر «٣»:

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسرّ و لا أرسلتهم برسول

---

(١). فصلت: ١۶.

(٢). القمر: ٢٠.

(٣). هو كثير عزّة.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ٣٣۶

أى: برسالة. فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً أى: أخذهم اللّه أخذة نامية زائدة على أخذات الأمم، و المعنى:

أنها بالغة فى الشدّة إلى الغاية، يقال: ربا الشى‌ء يربو؛ إذا زاد و تضاعف. قال الزجاج: تزيد على الأخذات.

قال مجاهد: شديدة إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ أى: تجاوز فى الارتفاع و العلوّ، و ذلك فى زمن نوح لما أصرّ قومه على الكفر و كذبوه، و قيل: طغى على خزّانه من الملائكة غضبا لربه فلم يقدروا على حبسه. قال قتادة:

زاد على كل شى‌ء خمسة عشر ذراعا حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ أى: فى أصلاب آبائكم، أو حملناهم و حملناكم فى أصلابهم تغليبا للمخاطبين على الغائبين. و الجارية: سفينة نوح، و سمّيت جارية لأنها تجرى فى الماء، و محل «فى الجارية» النصب على الحال، أى: رفعناكم فوق الماء حال كونكم فى السفينة، و لما كان المقصود من ذكر قصص هذه الأمم، و ذكر ما حلّ بهم من العذاب، زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم فى معصية الرسول، قال: لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً أى: لنجعل هذه الأمور المذكورة لكم، يا أمة محمّد، عبرة و موعظة؛ تستدلون بها على عظيم قدرة اللّه و بديع صنعه، أو لنجعل هذه الفعلة التى هى عبارة عن إنجاء المؤمنين و إغراق الكافرين لكم تذكرة، وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ أى: تحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت. قال الزجاج:

يقال وعيت كذا، أى: حفظته فى نفسى، أعيه وعيا، و وعيت العلم، و وعيت ما قلته؛ كلّه بمعنى، و أوعيت المتاع فى الوعاء، و يقال لكل ما وعيته فى غير نفسك: أوعيته بالألف، و لما حفظته فى نفسك: وعيته بغير ألف.

قال قتادة فى تفسير الآية: أذن سمعت و عقلت ما سمعت. قال الفراء: المعنى لتحفظها كل أذن؛ عظة لمن يأتى بعد. قرأ الجمهور تَعِيَها بكسر العين. و قرأ طلحة بن مصرّف و حميد الأعرج و أبو عمرو فى رواية عنه بإسكان العين، تشبيها لهذه الكلمة برحم و شهد، و إن لم تكن من ذلك. قال الرازى: و روى عن ابن كثير إسكان العين، جعل حرف المضارعة مع ما بعده بمنزلة كلمة واحدة، فخفف و أسكن، كما أسكن الحرف المتوسط من فخذ و كبد و كتف انتهى. و الأولى أن يكون هذا من باب إجراء الوصل مجرى الوقف، كما فى قراءة من قرأ وَ ما يُشْعِرُكُمْ «١» بسكون الراء، قال القرطبى: و اختلفت القراءة فيها عن عاصم و ابن كثير، يعنى تعيها فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ هذا شروع فى بيان الحاقة، و كيف وقوعها، بعد بيان شأنها بإهلاك المكذبين.

قال عطاء: يريد النفخة الأولى. و قال الكلبى و مقاتل: يريد النفخة الأخيرة.

قرأ الجمهور: نَفْخَةٌ واحِدَةٌ بالرفع فيهما على أن نفخة مرتفعة على النيابة، و واحدة تأكيد لها، و حسن تذكير الفعل لوقوع الفصل،

و قرأ أبو السّمّال بنصبهما على أن النائب هو الجار و المجرور. قال الزجاج: قوله:
فِي الصُّورِ يقوم مقام ما لم يسمّ فاعله وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ أى: رفعت من أماكنها و قلعت عن مقارّها بالقدرة الإلهية. قرأ الجمهور: حُمِلَتِ بتخفيف الميم. و قرأ الأعمش و ابن أبى عبلة و ابن مقسم و ابن عامر فى رواية عنه بتشديدها للتكثير أو للتعدية فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً أى: فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها، أو ضربتا ضربة واحدة بعضهما ببعض حتى صارتا كثيبا مهيلا و هباء منبثا. قال الفراء: و لم

---

(۱). الأنعام: ۱۰۹.

يقل فدككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة، و مثله قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما «۱» و قيل: دكّتا: بسطتا بسطة واحدة، و منه اندك سنام البعير؛ إذا انفرش على ظهره فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ أى: قامت القيامة وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ أى: انشقت بنزول ما فيها من الملائكة، فهى فى ذلك اليوم ضعيفة مسترخية. قال الزجاج: يقال: لكل ما ضعف جدّا قد و هى فهو واه، و قال الفرّاء: وهيها: تشقّقها وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها أى: جنس الملك على أطرافها و جوانبها، و هى جمع رجا مقصور، و تثنيته رجوان، مثل قفا و قفوان، و المعنى: أنها لما تشقّقت السماء، و هى مساكنهم، لجئوا إلى أطرافها. قال الضحاك: إذا كان يوم القيامة أمر اللّه السماء الدنيا فتشقّقت، و تكون الملائكة على حافاتها حيث يأمرهم الربّ فينزلون إلى الأرض، و يحيطون بالأرض و من عليها. و قال سعيد بن جبير: المعنى: و الملك على حافات الدنيا، أى: ينزلون إلى الأرض، و قيل: إذا صارت السماء قطعا يقف الملائكة على تلك القطع التى ليست متشقّقة فى أنفسها وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ أى: يحمله فوق رؤوسهم يوم القيامة ثمانية أملاك، و قيل: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا اللّه عزّ و جلّ، و قيل: ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة، قاله الكلبى و غيره يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ أى: تعرض العباد على اللّه لحسابهم، و مثله: وَ عُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا «۲»، و ليس ذلك العرض عليه سبحانه ليعلم به ما لم يكن عالما به. و إنما هو عرض الاختبار و التوبيخ بالأعمال، و جملة لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ فى محل نصب على الحال من ضمير تعرضون، أى: تعرضون حال كونه لا يخفى على اللّه سبحانه من ذواتكم أو أقوالكم و أفعالكم خافية كائنة ما كانت، و التقدير: أىّ نفس خافية، أو فعلة خافية.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الْحَاقَّةُ من أسماء القيامة. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير عنه قال: ما أرسل اللّه شيئا من ريح إلا بمكيال، و لا قطرة من ماء إلا بمكيال؛ إلا يوم نوح و يوم عاد. فأما يوم نوح فإن الماء طغى على خزانه فلم يكن لهم عليه سبيل، ثم قرأ: إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ و أما يوم عاد فإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ: بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ. و أخرج ابن جرير عن علىّ بن أبى طالب نحوه. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عباس عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «نصرت بالصبا، و أهلكت عاد بالدّبور». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر مرفوعا:

«قال ما أمر الخزّان أن يرسلوا على عاد إلا مثل موضع الخاتم من الريح، فعتت على الخزان فخرجت من نواحى الأبواب» فذلك قوله: بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ قال: عتوّها: عتت على الخزّان. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ قال: الغالبة. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد ابن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود فى قوله:

حُسُوماً قال: متتابعات. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير من طرق عن ابن عباس فى قوله:

---

(۱). الأنبياء: ۳۰.

(۲). الكهف: ۴۸.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۳۸

حُسُوماً قال: تباعا، و فى لفظ: متتابعات. و أخرج ابن المنذر عنه كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ قال:

هى أصولها، و فى قوله: خاوِيَةٍ قال: خربة. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عنه أيضا فى قوله:

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ قال: طغى على خزانه فنزل، و لم ينزل من السماء ماء إلا بمكيال أو ميزان إلا زمن نوح فإنه طغى على خزانه فنزل بغير كيل و لا وزن. و أخرج سعيد بن منصور و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، من طريق مكحول عن عليّ بن أبى طالب فى قوله: وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«سألت اللّه أن يجعلها أذنك يا عليّ» فقال علي: ما سمعت من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم شيئا فنسيته. قال ابن كثير:

و هو حديث مرسل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الواحدى و ابن مردويه و ابن عساكر و ابن النجار عن بريدة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعليّ: «إن اللّه أمرنى أن أدنيك و لا أقصيك، و أن أعلمك، و أن تعى، و حقّ لك أن تعى، فنزلت هذه الآية وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ فأنت أذن واعية، لعليّ» قال ابن كثير:

و لا يصح. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عمر فى قوله: أُذُنٌ واعِيَةٌ قال: أذن عقلت عن اللّه. و أخرج الحاكم، و البيهقى فى البعث، عن أبيّ بن كعب فى قوله: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً قال: تصيران غبرة على وجوه الكافرين لا على وجوه المؤمنين، و ذلك قوله: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ- تَرْهَقُها قَتَرَةٌ «۱». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ قال:

متخرقة. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها قال:

على حافاتها على ما لم يهيئ منها. و أخرج عبد بن حميد، و عثمان بن سعيد الدّارمى فى الردّ على الجهمية، و أبو يعلى و ابن المنذر و ابن خزيمة، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و الخطيب فى تالى التلخيص، عنه أيضا فى قوله: وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ قال: ثمانية أملاك على صورة الأوعال. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا من طرق فى الآية قال: يقال ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلّا اللّه، و يقال: ثمانية أملاك رؤوسهم عند العرش فى السماء السابعة و أقدامهم فى الأرض السفلى، و لهم قرون كقرون الوعلة، ما بين أصل قرن أحدهم إلى منتهاه خمسمائة عام. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن ماجة و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى موسى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال و معاذير، و أما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف فى الأيدى؛ فآخذ بيمينه و آخذ بشماله». و أخرج ابن جرير، و البيهقى فى البعث، عن ابن مسعود نحوه.

[سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۱۹ الى ۵۲]

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ (۱۹) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (۲۰) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (۲۱) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (۲۲) قُطُوفُها دانِيَةٌ (۲۳)

كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ (۲۴) وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ (۲۵) وَ لَمْ أَدْرِ ما

حِسابِيَهْ (۲۶) يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ (۲۷) ما أَغْنى عَنِّى مالِيَهْ (۲۸)
هَلَكَ عَنِّى سُلْطانِيَهْ (۲۹) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (۳۰) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (۳۱) ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ (۳۲) إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (۳۳)
وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (۳۴) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (۳۵) وَ لا طَعامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (۳۶) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخاطِؤُنَ (۳۷) فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (۳۸)
وَ ما لا تُبْصِرُونَ (۳۹) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (۴۰) وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ (۴۱) وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (۴۲) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۴۳)
وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (۴۴) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (۴۵) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (۴۶) فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (۴۷) وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (۴۸)
وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (۴۹) وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ (۵۰) وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (۵۱) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (۵۲)

---

(۱). عبس: ۴۰- ۴۱.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۳۹

لما ذكر سبحانه العرض ذكر ما يكون فيه، فقال: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ أى: أعطى كتابه الّذى كتبته الحفظة عليه من أعماله فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ يقول ذلك سرورا و ابتهاجا. قال ابن السكيت و الكسائى: العرب تقول: هاء يا رجل، و للاثنين هاؤما يا رجلان، و للجمع هاؤم يا رجال، و قيل:

و الأصل هاكم، فأبدلت الهمزة من الكاف، قال ابن زيد: و معنى هاؤم: تعالوا. و قال مقاتل: هلم، و قيل:

خذوا، فهى اسم فعل، و قد يكون فعلا صريحا لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها، و فيها ثلاث لغات كما هو معروف فى علم الإعراب، و قوله: كِتابِيَهْ معمول لقوله: اقْرَؤُا لأنه أقرب الفعلين، و معمول هاؤُمُ محذوف يدل عليه معمول اقْرَؤُا و التقدير: هاؤم كتابيه اقرءوا كتابيه، و الهاء فى كتابيه و حسابيه و سلطانيه و ماليه هى هاء السكت. قرأ الجمهور فى هذه بإثبات الهاء وقفا و وصلا مطابقة لرسم المصحف، و لو لا ذلك لحذفت فى الوصل كما هو شأن هاء السكت، و اختار أبو عبيد أن يتعمّد الوقف عليها ليوافق اللغة فى إلحاق الهاء فى السكت و يوافق الخط، يعنى خط المصحف. و قرأ ابن محيصن و ابن أبى إسحاق و حميد و مجاهد و الأعمش و يعقوب بحذفها وصلا و إثباتها وقفا فى جميع هذه الألفاظ. و رويت هذه القراءة عن حمزة، و اختار أبو حاتم هذه القراءة اتباعا للغة. و روى عن ابن محيصن أنه قرأ بحذفها وصلا و وقفا.

إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلاقٍ حِسابِيَهْ أى: علمت و أيقنت فى الدنيا أنى أحاسب فى الآخرة، و قيل: المعنى:

إنى ظننت أن يأخذنى اللّه بسيئاتى فقد تفضّل علىّ بعفوه و لم يؤاخذنى. قال الضحاك: كل ظنّ فى القرآن من المؤمن فهو يقين، و من الكافر فهو شك. قال مجاهد: ظن الآخرة يقين، و ظن الدنيا شك. قال الحسن فى هذه الآية: إن المؤمن أحسن الظنّ بربه، فأحسن العمل للآخرة، و إن الكافر أساء الظنّ بربه فأساء العمل.

قيل: و التعبير بالظنّ هنا للإشعار بأنه لا يقدح فى الاعتقاد ما يهجس فى النفس من الخطرات التى لا تنفك عنها العلوم النظرية غالبا فَهُوَ فِى عِيشَةٍ راضِيَةٍ أى: فى عيشة مرضية لا مكروهة، أو ذات رضى، أى:

يرضى بها صاحبها. قال أبو عبيدة و الفرّاء: راضية أى مرضية، كقوله: ماءٍ دافِقٍ «۱» أى: مدفوق، فقد أسند إلى العيشة ما هو لصاحبها، فكان ذلك من المجاز فى الإسناد فِى جَنَّةٍ عالِيَةٍ أى: مرتفعة المكان لأنها فى السماء، أو مرتفعة المنازل، أو عظيمة فى

النفوس قُطُوفُها دانِيَةٌ القطوف: جمع قطف بكسر

(١). الطارق: ۶.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۴۰

ما يقطف من الثمار، و القطف بالفتح المصدر، و القطاف بالفتح و الكسر وقت القطف، و المعنى: أن ثمارها قريبة ممن يتناولها من قائم أو قاعد أو مضطجع كُلُوا وَ اشْرَبُوا أى: يقال لهم كلوا و اشربوا فى الجنة هَنِيئاً أى: أكلا و شربا هنيئا لا تكدير فيه و لا تنغيص بِما أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ أى: بسبب ما قدّمتم من الأعمال الصالحة فى الدنيا. و قال مجاهد: هى أيام الصيام وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ حزنا و كربا لما رأى فيه من سيئاته: يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ أى: لم أعط كتابيه وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ أى: لم أدر أىّ شىء حسابى؛ لأن كلّه عليه يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ أى: ليت الموتة التى متّها كانت القاضية و لم أحى بعدها، و معنى: القاضية: القاطعة للحياة، و المعنى: أنه تمنى دوام الموت و عدم البعث لما شاهد من سوء عمله و ما يصير إليه من العذاب، فالضمير فى ليتها يعود إلى الموتة التى قد كان ماتها و إن لم تكن مذكورة؛ لأنها لظهورها كانت كالمذكورة. قال قتادة: تمنى الموت و لم يكن فى الدنيا شىء عنده أكره منه، و شر من الموت ما يطلب منه الموت. و قيل: الضمير يعود إلى الحالة التى شاهدها عند مطالعة الكتاب، و المعنى: يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضيت علىّ ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ أى: لم يدفع عنى من عذاب اللّه شيئا، على أن ما نافية أو استفهامية، و المعنى: أىّ شىء أغنى عنى مالى هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ أى: هلكت عنى حجّتى و ضلّت عنى، كذا قال مجاهد و عكرمة و السدّى و الضحاك. و قال ابن زيد: يعنى سلطانى الّذى فى الدنيا، و هو الملك، و قيل: تسلّطى على جوارحى. قال مقاتل: يعنى حين شهدت عليه الجوارح بالشرك، و حينئذ يقول اللّه عزّ و جلّ: خُذُوهُ فَغُلُّوهُ أى: اجمعوا يده إلى عنقه بالأغلال ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ أى: أدخلوه الجحيم، و المعنى: لا تصلوه إلا الجحيم، و هى النار العظيمة ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ السلسلة: حلق منتظمة، و ذرعها: طولها. قال الحسن:

اللّه أعلم بأىّ ذراع هو. قال نوف الشامى: كل ذراع سبعون باعا أبعد مما بينك و بين مكة، و كان نوف فى رحبة الكوفة. قال مقاتل: لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص، و معنى فَاسْلُكُوهُ فاجعلوه فيها، يقال: سلكته الطريق إذا أدخلته فيه. قال سفيان: بلغنا أنها تدخل فى دبره حتى تخرج من فيه. قال الكلبى: تسلك سلك الخيط فى اللؤلؤ. و قال سويد بن أبى نجيح: بلغنى أن جميع أهل النار فى تلك السلسلة. و تقديم السلسلة للدلالة على الاختصاص كتقديم الجحيم، و جملة إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ تعليل لما قبلها وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ أى: لا يحث على إطعام المسكين من ماله، أو لا يحثّ الغير على إطعامه، و وضع الطعام موضع الإطعام كما يوضع العطاء موضع الإعطاء، كما قال الشاعر «۱»:

أ كفرا بعد ردّ موتى عنّىو بعد عطائك المائة الرّتاعا «۲»

(١). هو القطامى.

(٢). «الرتاع»: التى ترتع.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۴۱

أى: بعد إعطائك، و يجوز أن يكون الطعام على معناه غير موضوع موضع المصدر، و المعنى: أنه لا يحثّ نفسه أو غيره على بذل نفس طعام المسكين، و فى جعل هذا قرينا لترك الإيمان باللّه من الترغيب فى التصدّق على المساكين و سدّ فاقتهم، و حثّ النفس و الناس على ذلك؛ ما يدلّ أبلغ دلالة، و يفيد أكمل فائدة، على أن منعهم من أعظم الجرائم و أشدّ المآثم فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ

هاهُنا حَمِيمٌ أی: ليس له يوم القيامة فی الآخرة قريب ينفعه، أو يشفع له؛ لأنه يوم يفرّ فيه القريب من قريبه، و يهرب عنده الحبيب من حبيبه وَ لا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ أی: و ليس له طعام يأكله إلا من صديد أهل النار، و ما ينغسل من أبدانهم من القيح و الصديد، و غسلين: فعلين، من الغسل. و قال الضحاك و الربيع بن أنس: هو شجر يأكله أهل النار. و قال قتادة: هو شرّ الطعام. و قال ابن زيد: لا يعلم ما هو و لا ما الزقوم إلّا اللّه تعالى. و قال سبحانه فی موضع آخر لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ فيجوز أن يكون الضريع هو الغسلين، و قيل: فی الكلام تقديم و تأخير، و المعنى فليس له اليوم ها هنا حميم من غسلين على أن الحميم هو الماء الحار وَ لا طَعامٌ أی: ليس لهم طعام يأكلونه. و لا ملجئ لهذا التقديم و التأخير، و جملة لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ صفة لغسلين، و المراد أصحاب الخطايا و أرباب الذنوب. قال الكلبی: المراد: الشرك. قرأ الجمهور: الْخاطِؤُنَ مهموزا، و هو اسم فاعل من خطىء إذا فعل غير الصواب متعمدا، و المخطئ: من يفعله غير متعمد. و قرأ الزهری و طلحة بن مصرّف و الحسن «الخاطيون» بياء مضمومة بدل الهمزة. و قرأ نافع فی رواية عنه بضم الطاء بدون همزة. فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ- وَ ما لا تُبْصِرُونَ هذا ردّ لكلام المشركين كأنه قال: ليس الأمر كما تقولون، و «لا» زائدة، و التقدير: فأقسم بما تشاهدونه و ما لا تشاهدونه. قال قتادة: أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها و ما لا يبصر، فيدخل فی هذا جميع المخلوقات، و قيل: إن «لا» ليست زائدة، بل هی لنفی القسم، أی: لا أحتاج إلى قسم لوضوح الحقّ فی ذلك، و الأوّل أولى إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ أی: إن القرآن لتلاوة رسول كريم، على أن المراد بالرسول محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أو إنه لقول يبلغه رسول كريم.

قال الحسن و الكلبی و مقاتل: يريد به جبريل، دليله قوله: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ- ذِی قُوَّةٍ عِنْدَ ذِی الْعَرْشِ مَكِينٍ «۱» و على كل حال فالقرآن ليس من قول محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا من قول جبريل عليه السلام؛ بل هو قول اللّه، فلا بدّ من تقدير التلاوة أو التبليغ وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ كما تزعمون؛ لأنه ليس من أصناف الشعر و لا مشابه لها قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ أی: إيمانا قليلا تؤمنون، و تصديقا يسيرا تصدقون، و «ما» زائدة وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ كما تزعمون، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها و بين هذا قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ أی: تذكّرا قليلا أو زمانا قليلا تتذكرون، و «ما» زائدة، و القلّة فی الموضعين بمعنى النفی، أی: لا تؤمنون و لا تتذكرون أصلا تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أی: هو تنزيل. و قرأ أبو السّمّال بالنصب على المصدرية بإضمار فعل، أی: نزل تنزيلا،

---

(۱). التكوير: ۱۹- ۲۰.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۴۲

و المعنى: إنه لقول رسول كريم، و هو تنزيل من ربّ العالمين على لسانه وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ أی: و لو تقوّل ذلك الرسول، و هو محمد، أو جبريل على ما تقدّم، و التقوّل: تكلف القول، و المعنى:

لو تكلّف ذلك و جاء به من جهة نفسه، و سمّى الافتراء تقوّلا لأنه قول متكلّف، و كلّ كاذب يتكلّف ما يكذب به. قرأ الجمهور: تَقَوَّلَ مبنيا للفاعل. و قرئ مبنيا للمفعول مع رفع بعض. و قرأ ابن ذكوان و لو يقول على صيغة المضارع، و الأقاويل: جمع أقوال، و الأقوال: جمع قول لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ أی: بيده اليمين، قال ابن جرير: إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس فی الأخذ بيد من يعاقب.

و قال الفراء و المبرد و الزجاج و ابن قتيبة: لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ أی: بالقوّة و القدرة. قال ابن قتيبة: و إنما أقام اليمين مقام القوّة؛ لأن قوّة كلّ شی‌ء فی ميامنه، و من هذا قول الشاعر «۱»:

إذا ما راية نصبت لمجدتلقّاها عرابة «۲» باليمين

و قول الآخر:

و لمّا رأيت الشّمس أشرق نورهاتناولت منها حاجتى بيمينى

ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ الوتين: عرق يجرى فى الظهر حتى يتّصل بالقلب، و هو تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه. قال الواحدى: و المفسرون يقولون: إنه نياط القلب انتهى. و من هذا قول الشاعر:

إذا بلّغتنى و حملت رحلىعرابة فاشرقى «٣» بدم الوتين

فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ أى: ليس منكم أحد يحجزنا عنه و يدفعنا منه، فكيف يتكلّف الكذب على اللّه لأجلكم؛ مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه، و لا تقدرون على الدّفع منه، و الحجز: المنع، و حاجِزِينَ صفة لأحد، أو خبر لما الحجازية وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ أى: إن القرآن لتذكرة لأهل التقوى لأنهم المنتفعون به وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ أى: أن بعضكم يكذب بالقرآن فنحن نجازيهم على ذلك، و فى هذا وعيد شديد وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ أى: و إن القرآن لحسرة و ندامة على الكافرين يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين، و قيل: هى حسرتهم فى الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ أى: و إن القرآن لكونه من عند اللّه حقّ فلا يحوم حوله ريب، و لا يتطرّق إليه شك فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ أى: نزّهه عمّا لا يليق به، و قيل: فصلّ لربك، و الأوّل أولى.

---

(١). هو الشّماخ.

(٢). هو عرابة بن أوس الأوسى الأنصارى، من سادات المدينة الأجواد، أدرك حياة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و أسلم، و توفى بالمدينة.

(٣). «شرق»: غصّ.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٤٣

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِنِّي ظَنَنْتُ قال: أيقنت. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى حاتم عن البراء بن عازب قُطُوفُها دانِيَةٌ قال: قريبة. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن البراء فى الآية قال: يتناول الرجل من فواكهها و هو قائم. و أخرج ابن أبى حاتم و البيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله: فَاسْلُكُوهُ قال: السلسلة تدخل فى استه ثم تخرج من فيه، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد فى العود، ثم يشوى. و أخرج أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن المنذر عن أبى الدرداء قال: إن للّه سلسلة لم تزل تغلى منها مراجل النار منذ خلق اللّه جهنم إلى يوم تلقى فى أعناق الناس، و قد نجّانا اللّه من نصفها بإيماننا باللّه العظيم، فحضّى على طعام المسكين يا أمّ الدرداء. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: الغسلين: الدّم و الماء و الصديد الّذى يسيل من لحومهم. و أخرج الحاكم و صحّحه، عن أبى سعيد الخدرى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لو أن دلوا من غسلين يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: الغسلين: اسم طعام من أطعمة أهل النار. و أخرج ابن جرير عنه فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ- وَ ما لا تُبْصِرُونَ يقول: بما ترون و ما لا ترون. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ قال: بقدرة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه قال الْوَتِينَ عرق القلب. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم عنه أيضا قال: الْوَتِينَ نياط القلب. و أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، عنه أيضا قال: قال: هو حبل القلب الّذى فى الظهر.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٤٤

سورة المعارج

اشارة

و هی مکیة. قال القرطبی: باتفاق. و أخرج ابن الضریس و النحاس و ابن مردویه عن ابن عباس قال: نزلت سورة سأل بمکة. و أخرج ابن مردویه عن ابن الزبیر مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة المعارج (٧٠): الآیات ١ الی ١٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (١) لِلْکافِرینَ لَیْسَ لَهُ دافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِی الْمَعارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلائِکَةُ وَ الرُّوحُ إِلَیْهِ فِی یَوْمٍ کانَ مِقْدارُهُ خَمْسِینَ أَلْفَ سَنَةٍ (۴)

فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِیلًا (۵) إِنَّهُمْ یَرَوْنَهُ بَعِیداً (۶) وَ نَراهُ قَرِیباً (٧) یَوْمَ تَکُونُ السَّماءُ کَالْمُهْلِ (٨) وَ تَکُونُ الْجِبالُ کَالْعِهْنِ (٩)

وَ لا یَسْئَلُ حَمِیمٌ حَمِیماً (١٠) یُبَصَّرُونَهُمْ یَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ یَفْتَدِی مِنْ عَذابِ یَوْمِئِذٍ بِبَنِیهِ (١١) وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِیهِ (١٢) وَ فَصِیلَتِهِ الَّتِی تُؤْوِیهِ (١٣) وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً ثُمَّ یُنْجِیهِ (١۴)

کَلَّا إِنَّها لَظی (١۵) نَزَّاعَةً لِلشَّوی (١۶) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّی (١٧) وَ جَمَعَ فَأَوْعی (١٨)

قوله: سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ قرأ الجمهور: سَأَلَ بالهمزة، و قرأ نافع و ابن عامر بغیر همزة، فمن همز فهو من السؤال، و هی اللغة الفاشیة، و هو إما مضمّن معنی الدعاء، فلذلک عدّی بالباء، کما تقول: دعوت لکذا، و المعنی: دعا داع علی نفسه بعذاب واقع، و یجوز أن یکون علی أصله، و الباء بمعنی عن، کقوله: فَسْئَلْ بِهِ خَبِیراً «١» و من لم یهمز، فهو إما من باب التخفیف بقلب الهمزة ألفا، فیکون معناها معنی قراءة من همز، أو یکون من السیلان، و المعنی: سال: واد فی جهنم یقال له سائل، کما قال زید بن ثابت. و یؤیده قراءة ابن عباس: سأل سیل و قیل: إن سال بمعنی التمس، و المعنی: التمس ملتمس عذابا للکفار، فتکون الباء زائدة، کقوله: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ و الوجه الأوّل هو الظاهر. و قال الأخفش:

یقال خرجنا نسأل عن فلان و بفلان. قال أبو علیّ الفارسی: و إذا کان من السؤال فأصله أن یتعدّی إلی مفعولین، و یجوز الاقتصار علی أحدهما و یتعدّی إلیه بحرف الجر، و هذا السّائل هو النضر بن الحارث حین قال: اللَّهُمَّ إِنْ کانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ فَأَمْطِرْ عَلَیْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِیمٍ «٢» و هو ممّن قتل یوم بدر صبرا، و قیل: هو أبو جهل، و قیل: هو الحارث بن النعمان الفهری. و الأوّل أولی لما سیأتی. و قرأ أبیّ و ابن مسعود سال سال مثل مال مال علی أن الأصل سائل، فحذفت العین تخفیفا، کما قیل: شاک فی: شائک السلاح. و قیل: السائل هو نوح علیه السلام، سأل العذاب للکافرین، و قیل:

---

(١). الفرقان: ۵٩.

(٢). الأنفال: ٣٢.

فتح القدیر، ج‌۵، ص: ٣۴۵

هو رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم دعا بالعقاب علیهم، و قوله: بِعَذابٍ واقِعٍ یعنی إما فی الدنیا کیوم بدر، أو فی الآخرة، و قوله: لِلْکافِرینَ صفة أخری لعذاب، أی: کائن للکافرین، أو متعلّق بواقع، و اللام للعلّة، أو بسأل علی تضمینه معنی دعا، أو فی محل

رفع على تقدير: هو للكافرين، أو تكون اللام بمعنى على: و يؤيده قراءة أبىّ بعذاب واقع على الكافرين. قال الفرّاء: التقدير بعذاب للكافرين واقع بهم، فالواقع من نعت العذاب، و جملة لَيْسَ لَهُ دافِعٌ صفة أخرى لعذاب، أو حال منه، أو مستأنفة، و المعنى: أنه لا يدفع ذلك العذاب الواقع به أحد، و قوله: مِنَ اللَّهِ متعلّق بواقع، أى: واقع من جهته سبحانه، أو بدافع، أى: ليس له دافع من جهته تعالى ذِي الْمَعارِجِ أى: ذى الدرجات التى تصعد فيها الملائكة، و قال الكلبى: هى السّماوات، و سمّاها معارج لأن الملائكة تعرج فيها، و قيل: المعارج مراتب نعم اللّه سبحانه على الخلق، و قيل: المعارج: العظمة، و قيل: هى الغرف. و قرأ ابن مسعود: «ذى المعاريج» بزيادة الياء، يقال: معارج و معاريج مثل مفاتح و مفاتيح تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ أى: تصعد فى تلك المعارج التى جعلها اللّه لهم، و قرأ الجمهور: تَعْرُجُ بالفوقية، و قرأ ابن مسعود و أصحابه و الكسائى و السلمى بالتحتية، و الروح: جبريل، أفراد بالذكر بعد الملائكة لشرفه، و يؤيد هذا قوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ و قيل: الروح هنا ملك آخر عظيم غير جبريل. و قال أبو صالح: إنّه خلق من خلق اللّه سبحانه كهيئة الناس و ليسوا من الناس. و قال قبيصة بن ذؤيب: إنه روح الميت حين تقبض، و الأول أولى. و معنى إِلَيْهِ أى: إلى المكان الّذى ينتهون إليه، و قيل: إلى عرشه، و قيل: هو كقول إبراهيم: إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي أى: حيث أمرنى ربى فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قال ابن إسحاق و الكلبى و وهب ابن منبه: أى: عروج الملائكة إلى المكان الّذى هو محلها فى وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة، و به قال مجاهد. و قال عكرمة، و روى عن مجاهد: أن مدة عمر الدنيا هذا المقدار لا يدرى أحد كم مضى و لا كم بقى، و لا يعلم ذلك إلا اللّه. و قال قتادة و الكلبى و محمد بن كعب: إن المراد يوم القيامة، يعنى أن مقدار الأمر فيه لو تولاه غيره سبحانه خمسون ألف سنة، و هو سبحانه يفرغ منه فى ساعة، و قيل: إن مدّة موقف العباد للحساب هى هذا المقدار، ثم يستقرّ بعد ذلك أهل الجنة فى الجنة و أهل النار فى النار. و قيل:

إن مقدار يوم القيامة على الكافرين خمسون ألف سنة، و على المؤمنين مقدار ما بين الظهر و العصر، و قيل:

ذكر هذا المقدار لمجرد التمثيل و التخييل لغاية ارتفاع تلك المعارج و بعد مداها، أو لطول يوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد و المكاره، كما تصف العرب أيام الشدّة بالطول و أيام الفرح بالقصر، و يشبهون اليوم القصير بإبهام القطاة، و الطويل بظل الرمح، و منه قول الشاعر «١»:

و يوم كظلّ الرّمح قصّر طولهدم الزّقّ عنّا و اصطفاق المزاهر «٢»

---

(١). هو شبرمة بن الطفيل.

(٢). «الزق»: وعاء من جلد. و دم الزق: الخمر. «المزاهر»: العيدان. و اصطفاق المزاهر: تجاوب بعضها بعضا.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣۴۶

و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: ليس له دافع من اللّه ذى المعارج فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة و الروح إليه، و قد قدّمنا الجمع بين هذه الآية و بين قوله فى سورة السجدة: فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ «١» فارجع إليه. و قد قيل فى الجمع: إن من أسفل العالم إلى العرش خمسين ألف سنة، و من أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة، لأن غلظ كل سماء خمسمائة عام، و ما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة عام، فالمعنى: أن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسين ألف سنة، و إن عرجوا من هذه الأرض التى نحن فيها إلى باطن هذه السماء التى هى سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة، و سيأتى فى آخر البحث ما يؤيد هذا عن ابن عباس. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بالصبر فقال: فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا أى: اصبر يا محمد على تكذيبهم لك و كفرهم بما جئت به صبرا جميلا، لا جزع فيه و لا

شكوى إلى غير اللّه، و هذا معنى الصبر الجميل، و قيل: هو أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يدرى بأنه مصاب. قال ابن زيد و غيره: هى منسوخة بآية السيف إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً أى:

يرون العذاب الواقع بهم، أو يرون يوم القيامة بعيدا، أى: غير كائن لأنهم لا يؤمنون به، فمعنى بَعِيداً أى: مستبعدا محالا، و ليس المراد أنهم يرونه بعيدا غير قريب. قال الأعمش: يرون البعث بعيدا لأنهم لا يؤمنون به، كأنهم يستبعدونه على جهة الاستحالة، كما تقول لمن تناظره: هذا بعيد، أى: لا يكون وَ نَراهُ قَرِيباً أى: نعلمه كائنا قريبا؛ لأن ما هو آت قريب. و قيل: المعنى: و نراه هينا فى قدرتنا غير متعسّر و لا متعذّر، و الجملة تعليل للأمر بالصبر. ثم أخبر سبحانه متى يقع بهم العذاب، فقال: يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ و الظرف متعلّق بمضمر دلّ عليه واقع، أو بدل من قوله: فِي يَوْمٍ على تقدير تعلّقه بواقع، أو متعلّق بقريبا، أو مقدّر بعده: أى يوم تكون إلخ كان كيت و كيت، أو بدل من الضمير فى نراه و الأوّل أولى. و التقدير يقع بهم العذاب يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ و المهل: ما أذيب من النحاس و الرصاص و الفضة. و قال مجاهد: هو القيح من الصديد و الدم. و قال عكرمة و غيره: هو درديّ الزيت، و قد تقدّم تفسيره فى سورة الكهف و الدخان وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ أى: كالصوف المصبوغ، و لا يقال للصوف عهن إلا إذا كان مصبوغا. قال الحسن: تكون الجبال كالعهن، و هو الصوف الأحمر، و هو أضعف الصوف، و قيل: العهن: الصوف ذو الألوان، فشبّه الجبال به فى تكوّنها ألوانا كما فى قوله: جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ وَ غَرابِيبُ سُودٌ «٢» فإذا بست و طيرت فى الهواء أشبهت العهن المنقوض إذا طيّرته الريح. وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً أى: لا يسأل قريب قريبه عن شأنه فى ذلك اليوم لما نزل بهم من شدّة الأهوال التى أذهلت القريب عن قريبه، و الخليل عن خليله، كما قال سبحانه: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ و قيل: المعنى:

لا يسأل حميم عن حميم، فحذف الحرف و وصل الفعل. قرأ الجمهور: لا يَسْئَلُ مبنيا للفاعل، قيل:

و المفعول الثانى محذوف، و التقدير: لا يسأله نصره و لا شفاعته، و قرأ أبو جعفر و أبو حيوة و شيبة و ابن كثير

---

(١). السجدة: ۵.

(٢). فاطر: ٢٧.

فى رواية عنه على البناء للمفعول. و روى هذه القراءة البزىّ عن عاصم. و المعنى: لا يسأل حميم إحضار حميمه، و قيل: هذه القراءة على إسقاط حرف الجرّ، أى: لا يسأل حميم عن حميم، بل كلّ إنسان يسأل عن نفسه و عن عمله، و جملة يُبَصَّرُونَهُمْ مستأنفة، أو صفة لقوله: حَمِيماً أى: يبصر كلّ حميم حميمه، لا يخفى منهم أحد عن أحد. و ليس فى القيامة مخلوق إلا و هو نصب عين صاحبه، و لا يتساءلون و لا يكلّم بعضهم بعضا؛ لاشتغال كل أحد منهم بنفسه، و قال ابن زيد: يبصر اللّه الكفار فى النار الذين أضلّوهم فى الدنيا، و هم الرؤساء المتبوعون. و قيل: إن قوله: يُبَصَّرُونَهُمْ يرجع إلى الملائكة، أى: يعرفون أحوال الناس لا يخفون عليهم، و إنما جمع الضمير فى يبصرونهم، و هما للحميمين، حملا على معنى العموم؛ لأنهما نكرتان فى سياق النفى، قرأ الجمهور: يُبَصَّرُونَهُمْ بالتشديد، و قرأ قتادة بالتخفيف. ثم ابتدأ سبحانه الكلام فقال: يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ المراد بالمجرم الكافر، أو كلّ مذنب ذنبا يستحق به النار، لو يفتدى من عذاب يوم القيامة الّذى نزل به بِبَنِيهِ- وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ فإن هؤلاء أعزّ الناس عليه و أكرمهم لديه، فلو قبل منه الفداء لفدى بهم نفسه، و خلص مما نزل به من العذاب، و الجملة مستأنفة لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حدّ يود الافتداء من العذاب بمن ذكر. قرأ الجمهور: مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بإضافة عذاب إلى يومئذ. و قرأ أبو حيوة بتنوين عذاب و قطع الإضافة. و قرأ الجمهور:

يَوْمِئِذٍ بكسر الميم، و قرأ نافع و الكسائى و الأعرج و أبو حيوة بفتحها وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ أى:
عشيرته الأقربين الذين يضمّونه فى النّسب أو عند الشدائد و يأوى إليهم. قال أبو عبيد: الفصيلة: دون القبيلة.
و قال ثعلب: هم آباؤهم الأدنون. قال المبرد: الفصيلة: القطعة من أعضاء الجسد. و سمّيت عشيرة الرجل فصيلة تشبيها لها بالبعض منه. و قال مالك: إن الفصيلة هى التى تربيه وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً أى: و يودّ المجرم لو افتدى بمن فى الأرض جميعا من الثقلين و غيرهما من الخلائق. و قوله: ثُمَّ يُنْجِيهِ معطوف على يفتدى، أى: يودّ لو يفتدى ثم ينجيه الافتداء، و كان العطف بثم لدلالتها على استبعاد النجاة، و قيل: إن يودّ تقتضى جوابا كما فى قوله: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ و الجواب «ثُمَّ يُنْجِيهِ»، و الأوّل أولى. و قوله:
كَلَّا ردع للمجرم عن تلك الودادة، و بيان امتناع ما ودّه من الافتداء، و كَلَّا يأتى بمعنى حقا، و بمعنى لا مع تضمّنها لمعنى الزجر و الرّدع، و الضمير فى قوله: إِنَّها لَظى عائد إلى النار المدلول عليها لذكر العذاب، أو هو ضمير مبهم يفسره ما بعده، و «لظى» علم لجهنم، و اشتقاقها من التلظّى فى النار و هو التلهّب، و قيل: أصله لظظ بمعنى دوام العذاب، فقلبت إحدى الظاءين ألفا، و قيل: لظى: هى الدركة الثانية من طباق جهنم نَزَّاعَةً لِلشَّوى قرأ الجمهور نَزَّاعَةً بالرفع على أنه خبر ثان لإنّ، أو خبر مبتدأ محذوف، أو تكون «لظى» بدلا من الضمير المنصوب، و «نزاعة» خبر إنّ، أو على أن «نزاعة» صفة للظى على تقدير عدم كونها علما، أو يكون الضمير فى إنها للقصة، و يكون «لظى» مبتدأ، و «نزاعة» خبره، و الجملة خبر إنّ، و قرأ حفص عن عاصم و أبو عمرو فى رواية عنه و أبو حيوة و الزعفرانى و الترمذى و ابن مقسم «نزاعة» بالنصب على الحال. و قال أبو على الفارسى: حمله على الحال بعيد ليس فى الكلام ما

فتح القدير، ج‌5، ص: 348

يعمل فى الحال، و قيل: العامل فيها ما دلّ عليه الكلام من معنى التلظى، أو النصب على الاختصاص، و الشوى: الأطراف، أو جمع شواة، و هى جلدة الرأس، و منه قول الأعشى:

قالت قتيلة ماله‌قد جلّلت شيبا شواته

و قال الحسن و ثابت البنانى: نَزَّاعَةً لِلشَّوى أى: لمكارم الوجه و حسنه، و كذا قال أبو العالية و قتادة. و قال قتادة: تبرى اللحم و الجلد عن العظم؛ حتى لا تترك فيه شيئا. و قال الكسائى: هى المفاصل.
و قال أبو صالح: هى أطراف اليدين و الرجلين تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ أى: تدعو لظى من أدبر عن الحقّ فى الدنيا وَ تَوَلَّى أى: أعرض عنه وَ جَمَعَ فَأَوْعى أى: جمع المال فجعله فى وعاء، و قيل: إنها تقول إلىّ يا مشرك، إلىّ يا منافق، و قيل: معنى تدعو: تهلك، تقول العرب: دعاك اللّه، أى: أهلكك، و قيل:
ليس هو الدعاء باللسان، و لكن دعاؤها إياهم تمكّنها من عذابهم، و قيل: المراد أن خزنة جهنم تدعو الكافرين و المنافقين، فأسند الدعاء إلى النار؛ من باب إسناد ما هو للحال إلى المحلّ، و قيل: هو تمثيل و تخييل، و لا دعاء فى الحقيقة، و المعنى: أن مصيرهم إليها، كما قال الشاعر:

و لقد هبطنا الواديين فواديايدعو الأنيس به العضيض الأبكم

و العضيض الأبكم: الذباب، و هو لا يدعو «1».
و فى هذا ذمّ لمن جمع المال فأوعاه، و كنزه و لم ينفقه فى سبل الخير، أو لم يؤدّ زكاته.
و قد أخرج الفريابى و عبد بن حميد و النسائى و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: سَأَلَ سائِلٌ قال: هو النضر بن الحارث قال: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ «2» و فى قوله: بِعَذابٍ

واقعٍ قال: كائن لِلْكافِرينَ لَيسَ لَهُ دافِعٌ- مِنَ اللَّهِ ذِی الْمَعارِجِ قال: ذی الدرجات. و أخرج عبد بن حمید و ابن المنذر عنه فی قوله:

سَأَلَ سائِلٌ قال: سال: واد فی جهنم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أیضا فی قوله: ذِی الْمَعارِجِ قال: ذی العلوّ و الفواضل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أیضا فی قوله: فِی یَوْمٍ کانَ مِقْدارُهُ خَمْسِینَ أَلْفَ سَنَةٍ قال: منتهی أمره من أسفل الأرضین إلی منتهی أمره من فوق سبع سموات مقدار خمسین ألف سنة، و «یوم کان مقداره ألف سنة» قال: یعنی بذلک ینزل الأمر من السماء إلی الأرض و من الأرض إلی السماء فی یوم واحد، فذلک مقدار ألف سنة؛ لأن ما بین السماء و الأرض مسیرة خمسمائة عام.

و أخرج ابن أبی حاتم عنه أیضا قال: غلظ کل أرض خمسمائة عام، و غلظ کل سماء خمسمائة عام، و بین کل أرض إلی أرض خمسمائة عام، و من السماء إلی السماء خمسمائة عام، فذلک أربعة عشر ألف عام، و بین السماء

---

(۱). فی القرطبی (۱۸/ ۲۸۹): و إنما طنینه نبّه علیه فدعا إلیه.

(۲). الأنفال: ۳۲.

السابعة و بین العرش مسیرة ستة و ثلاثین ألف عام، فذلک قوله: فِی یَوْمٍ کانَ مِقْدارُهُ خَمْسِینَ أَلْفَ سَنَةٍ و أخرج ابن جریر و ابن المنذر، و البیهقی فی البعث، عنه أیضا فی قوله: فِی یَوْمٍ کانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ «۱» قال: هذا فی الدنیا تعرج الملائکة فی یوم کان مقداره ألف سنة مما تعدّون، و فی قوله: فِی یَوْمٍ کانَ مِقْدارُهُ خَمْسِینَ أَلْفَ سَنَةٍ فهذا یوم القیامة جعله اللّه علی الکافر مقدار خمسین ألف سنة. و أخرج ابن أبی حاتم و البیهقی عنه أیضا فی قوله: فِی یَوْمٍ کانَ مِقْدارُهُ خَمْسِینَ أَلْفَ سَنَةٍ قال: لو قدّرتموه لکان خمسین ألف سنة من أیامکم. قال: یعنی یوم القیامة. و قد قدّمنا عن ابن عباس الوقف فی الجمع بین الآیتین فی سورة السجدة. و أخرج أحمد و أبو یعلی و ابن جریر و ابن أبی حاتم، و البیهقی فی البعث، عن أبی سعید الخدری قال: «سئل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم عن یَوْمٍ کانَ مِقْدارُهُ خَمْسِینَ أَلْفَ سَنَةٍ ما أطول هذا الیوم! فقال: و الّذی نفسی بیده إنه لیخفّف عن المؤمن حتی یکون أهون علیه من صلاة مکتوبة یصلیها فی الدنیا».

و فی إسناده دراج عن أبی الهیثم، و هما ضعیفان. و أخرج ابن أبی حاتم و الحاکم، و البیهقی فی البعث، عن أبی هریرة مرفوعا قال: «ما قدر طول یوم القیامة علی المؤمنین إلا کقدر ما بین الظهر و العصر». و أخرج الحکیم الترمذی فی «نوادر الأصول» عن ابن عباس فی قوله: فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِیلًا قال: لا تشکُ إلی أحد غیری. و أخرج أحمد و عبد بن حمید و ابن المنذر، و الخطیب فی المتفق و المفترق، و الضیاء فی المختارة، عن ابن عباس فی قوله: یَوْمَ تَکُونُ السَّماءُ کَالْمُهْلِ قال: کدردیّ الزیت. و أخرج ابن جریر عنه قال:

یُبَصَّرُونَهُمْ یعرف بعضهم بعضا و یتعارفون، ثم یفرّ بعضهم من بعض. و أخرج ابن جریر عنه أیضا فی قوله: نَزَّاعَةً لِلشَّوی قال: تنزع أمّ الرأس.

[سورة المعارج (۷۰): الآیات ۱۹ الی ۳۹]

إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (۱۹) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (۲۰) وَ إِذا مَسَّهُ الْخَیْرُ مَنُوعاً (۲۱) إِلَّا الْمُصَلِّینَ (۲۲) الَّذِینَ هُمْ عَلی صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (۲۳)

وَ الَّذِينَ فِى أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (۲۴) لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (۲۵) وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (۲۶) وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (۲۷) إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (۲۸)
وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (۲۹) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (۳۰) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (۳۱) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ (۳۲) وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ (۳۳)
وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (۳۴) أُولئِكَ فِى جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (۳۵) فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (۳۶) عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (۳۷) أَ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (۳۸)
كَلاَّ إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (۳۹)

قوله: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً قال فى الصحاح: الهلع فى اللغة: أشدّ الحرص و أسوأ الجزع و أفحشه، يقال: هلع بالكسر فهو هلع و هلوع، على التكثير. و قال عكرمة: هو الضّجور. قال الواحدى:

و المفسرون يقولون تفسير الهلع ما بعده يعنى قوله: إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً- وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً

---

(۱). السجدة: ۵.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۵۰

فتح القدير ج۵ ۳۹۹

أى: إذا أصابه الفقر و الحاجة أو المرض أو نحو ذلك فهو جزوع، أى: كثير الجزع، و إذا أصابه الخير من الغنى و الخصب و السعة و نحو ذلك فهو كثير المنع و الإمساك. و قال أبو عبيدة: الهلوع: هو الّذى إذا مسّه الخير لم يشكر، و إذا مسّه الشرّ لم يصبر. قال ثعلب: قد فسّر اللّه الهلوع؛ هو الّذى إذا أصابه الشرّ أظهر شدّة الجزع، و إذا أصابه الخير بخل به و منعه الناس، و العرب تقول: ناقة هلواعة و هلواع؛ إذا كانت سريعة السير خفيفته، و منه قول الشاعر «۱»:

صكّاء «۲» ذعلبة إذا استدبرتهاحرج إذا استقبلتها هلواع

و الذعلبة: الناقة السريعة، و انتصاب هلوعا و جزوعا و منوعا على أنها أحوال مقدّرة، أو محققة؛ لكونها طبائع جبل الإنسان عليها، و الظرفان معمولان لجزوعا و منوعا إِلَّا الْمُصَلِّينَ أى: المقيمين للصلاة، و قيل: المراد بهم أهل التوحيد، يعنى أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع، و الجزع، و المنع، و أنهم على صفات محمودة و خلال مرضية؛ لأن إيمانهم و ما تمسّكوا به من التوحيد و دين الحق يزجرهم عن الاتصاف بتلك الصفات، و يحملهم على الاتصاف بصفات الخير. ثم بيّنهم سبحانه، فقال: الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ أى: لا يشغلهم عنها شاغل، و لا يصرفهم عنها صارف، و ليس المراد بالدوام أنهم يصلون أبدا.

قال الزجاج: هم الذين لا يزيلون وجوههم عن سمت القبلة. و قال الحسن و ابن جريج: هو التطوع منها.

قال النّخعى: المراد بالمصلين الذين يؤدّون الصلاة المكتوبة، و قيل: الذين يصلونها لوقتها، و المراد بالآية جميع المؤمنين، و قيل: الصحابة خاصة، و لا وجه لهذا التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين وَ الَّذِينَ فِى أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ قال قتادة و محمد بن سيرين: المراد الزكاة المفروضة. و قال مجاهد: سوى الزكاة، و قيل: صلة الرحم، و الظاهر أنه الزكاة لوصفه بكونه معلوما و لجعله قرينا للصلاة، و قد تقدّم تفسير السائل و المحروم فى سورة الذاريات مستوفى وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ أى: بيوم الجزاء، و هو يوم القيامة لا يشكّون فيه و لا يجحدونه، و قيل: يصدّقونه بأعمالهم فيتعبون أنفسهم فى الطاعات وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ أى: خائفون وجلون؛ مع ما لهم من أعمال الطاعة استحقارا لأعمالهم، و اعترافا بما يجب للّه سبحانه عليهم. و جملة إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ مقرّرة لمضمون ما قبلها، مبينة أن ذلك ممّا لا ينبغى أن يأمنه أحد، و أن حق كلّ أحد أن

يخافه وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ إلى قوله: فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ قد تقدم تفسيره فى سورة المؤمنين مستوفى وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ أى:

لا يخلّون بشيء من الأمانات التى يؤتمنون عليها، و لا ينقضون شيئا من العهود التى يعقدونها على أنفسهم.

قرأ الجمهور: لِأَماناتِهِمْ بالجمع، و قرأ ابن كثير و ابن محيصن لأمانتهم بالإفراد، و المراد الجنس وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ أى: يقيمونها على من كانت عليه من قريب أو بعيد، أو رفيع أو وضيع، و لا يكتمونها و لا يغيّرونها، و قد تقدّم القول فى الشهادة فى سورة البقرة، قرأ الجمهور: بشهادتهم

---

(۱). هو المسيب بن علس.

(۲). «صكاء»: شبيهة بالنعامة.

بالإفراد، و قرأ حفص و يعقوب و هى رواية عن ابن كثير بالجمع. قال الواحدى: و الإفراد أولى لأنه مصدر، و من جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات. قال الفرّاء: و يدل على قراءة التوحيد قوله تعالى: وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ «۱». وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ أى: على أذكارها و أركانها و شرائطها لا يخلّون بشيء من ذلك. قال قتادة: على وضوئها و ركوعها و سجودها. و قال ابن جريج: المراد التطوّع، و كرّر ذكر الصلاة لاختلاف ما وصفهم به أوّلا و ما وصفهم به ثانيا، فإن معنى الدوام: هو أن لا يشتغل عنها بشيء من الشّواغل كما سلف؛ و معنى المحافظة: أن يراعى الأمور التى لا تكون صلاة بدونها، و قيل: المراد يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها و يبطل ثوابها، و كرّر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحق أن يستقلّ بموصوف منفرد، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الموصوفين بتلك الصفات فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ أى: مستقرّون فيها مكرمون بأنواع الكرامات، و خبر المبتدأ قوله: فِي جَنَّاتٍ و قوله: مُكْرَمُونَ خبر آخر، و يجوز أن يكون الخبر مكرمون، و فى جنات متعلق به فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ أى: أىّ شيء لهم حواليك مسرعين. قال الأخفش: مهطعين: مسرعين، و منه قول الشاعر:

بمكّة أهلها و لقد أراهمإليه مهطعين إلى السّماع

و قيل: المعنى: ما بالهم يسرعون إليك يجلسون حواليك و لا يعملون بما تأمرهم، و قيل: ما بالهم مسرعين إلى التكذيب، و قيل: ما بال الذين كفروا يسرعون إلى السماع إليك فيكذبونك و يستهزئون بك. و قال الكلبى: إن معنى: مهطعين ناظرين إليك. و قال قتادة: عامدين، و قيل: مسرعين إليك، مادّى أعناقهم، مديمى النظر إليك عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ أى: عن يمين النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و عن شماله جماعات متفرقة، و عزين: جمع عزة، و هى العصبة من الناس، و منه قول الشاعر:

ترانا عنده و اللّيل داجعلى أبوابه حلقا عزينا

و قال الراعى:

أ خليفة الرّحمن إنّ عشيرتىأمسى سراتهم إليك عزينا

و قول عنترة:

و قرن قد تركت لدى ولىّعليه الطّير كالعصب العزين

و قيل: أصلها عزوة من العزو، كأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى. قال فى الصحاح:

و العزة: الفرقة من الناس، و الهاء عوض من التاء، و الجمع عزى و عزون، و قوله: عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ متعلّق بعزين، أو

بمهطعين. أَ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ قال المفسرون:

---

(۱). الطلاق: ۲.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۵۲

كان المشركون يقولون لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنّ قبلهم، فنزلت الآية، قرأ الجمهور: أَنْ يُدْخَلَ مبنيا للمفعول، و قرأ الحسن و زيد بن علىّ و طلحة بن مصرّف و الأعرج و يحيى بن يعمر و أبو رجاء و عاصم فى رواية عنه على البناء للفاعل. ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم فقال: كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ أى:

من القذر الذين يعلمون به فلا ينبغى لهم هذا التكبر، و قيل المعنى: إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون، و هو امتثال الأمر و النهى و تعرّضهم للثواب و العقاب كما فى قوله: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «۱» و منه قول الأعشى:

أ أزمعت من آل ليلى ابتكاراو شطّت على ذى هوى أن تزارا

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن الهلوع فقال: هو كما قال اللّه: إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً- وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً. و أخرج ابن المنذر عنه هَلُوعاً قال: الشره. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن ابن مسعود الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ قال: على مواقيتها. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن عمران بن حصين الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ قال: الّذى لا يلتفت فى صلاته. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن عقبة بن عامر الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ قال: هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا.

و أخرج ابن المنذر من طريق أخرى عنه نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ قال: ينظرون عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ قال: [العزين «۲»: العصب من الناس، عن يمين و شمال، معرضين، يستهزئون به. و أخرج مسلم و غيره عن جابر قال: دخل علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المسجد و نحن حلق متفرقون فقال: «مالى أراكم عزين». و أخرج أحمد و ابن ماجة و ابن سعد و ابن أبى عاصم و الباوردى و ابن قانع و الحاكم، و البيهقى فى الشعب، و الضياء عن بسر بن جحاش قال: قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ إلى قوله: كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ثم بزق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على كفه و وضع عليها إصبعه و قال: «يقول اللّه: ابن آدم أنّى تعجزنى و قد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سوّيتك و عدّلتك مشيت بين بردين، و للأرض منك وئيد، فجمعت و منعت، حتى إذا بلغت التّراقى قلت: [أتصدّق «۳»، و أنّى أوان الصدقة».

[سورة المعارج (۷۰): الآيات ۴۰ الى ۴۴]

فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ (۴۰) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (۴۱) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (۴۲) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (۴۳) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كانُوا يُوعَدُونَ (۴۴)

---

(۱). الذاريات: ۵۶.

(۲). من تفسير الطبرى (۲۹/ ۸۵)

(۳). من سنن ابن ماجة (۲۷۰۷)

فتح القدير، ج‏5، ص: 353

قوله: فَلا أُقْسِمُ «لا» زائدة كما تقدّم قريبا، و المعنى: فأقسم بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ يعنى: مشرق كل يوم من أيام السنة و مغربه. قرأ الجمهور: الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ بالجمع و قرأ أبو حيوة و ابن محيصن و حميد بالإفراد إِنَّا لَقادِرُونَ عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ أى: على أن نخلق أمثل منهم، و أطوع للّه، حين عصوه، و نهلك هؤلاء وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ أى: بمغلوبين إن أردنا ذلك، بل نفعل ما أردنا لا يفوتنا شي‏ء و لا يعجزنا أمر، و لكن مشيئتنا و سابق علمنا اقتضيا تأخير عقوبة هؤلاء، و عدم تبديلهم بخلق آخر فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا أى: اتركهم يخوضوا فى باطلهم، و يلعبوا فى دنياهم، و اشتغل بما أمرت به، و لا يعظمنّ عليك ما هم فيه، فليس عليك إلا البلاغ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ و هو يوم القيامة، و هذه الآية منسوخة بآية السيف. قرأ الجمهور: «يلاقوا»، و قرأ أبو جعفر و ابن محيصن و حميد و مجاهد «حتى يلقوا» يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً «يوم» بدل من «يومهم»، و «سراعا» منتصب على الحال من ضمير «يخرجون»، قرأ الجمهور: يخرجون على البناء للفاعل، و قرأ السّلمى و الأعمش و المغيرة و عاصم فى رواية على البناء للمفعول، و الأجداث: جمع جدث، و هو القبر كَأَنَّهُمْ إِلى‏ نُصُبٍ يُوفِضُونَ قرأ الجمهور: نصب بفتح النون و سكون الصاد. و قرأ ابن عامر و حفص: بضم النون و الصاد، و قرأ عمرو بن ميمون و أبو رجاء بضم النون و إسكان الصاد. قال فى الصحاح: و النّصب: ما نصب فعبد من دون اللّه، و كذا النّصب بالضم، و قد يحرّك. قال الأعشى:

و ذا النّصب المنصوب لا تعبدنّه‏و لا تعبد الشّيطان و اللّه فاعبدا «1»

و الجمع: الأنصاب، و قال الأخفش و الفراء: النّصب جمع النّصب، مثل رهن و رهن، و الأنصاب: جمع النّصب، فهو جمع الجمع، و قيل: النّصب جمع نصاب، و هو حجر أو صنم يذبح عليه، و منه قوله: وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ و قال النحاس: نصب و نصب [و نصب «2» بمعنى واحد، و قيل: معنى إِلى‏ نُصُبٍ إلى غاية، و هى التى تنصب إليها بصرك، و قال الكلبى: إلى شي‏ء منصوب علم أو راية، أى:

كأنّهم إلى علم يدعون إليه، أو راية تنصب لهم يوفضون، قال الحسن: كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التى كانوا يعبدونها من دون اللّه لا يلوى أوّلهم على آخرهم. و قال أبو عمرو: النصب: شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها مخافة انفلاته. و معنى يُوفِضُونَ يسرعون، و الإيفاض:

الإسراع. يقال: أوفض إيفاضا: أى أسرع إسراعا، و منه قول الشاعر:

فوارس ذبيان تحت الحديد كالجنّ يوفضن من عبقر

(1). الّذى فى تفسير القرطبى (18/ 296): و ذا النّصب المنصوب لا تنسكنّه‏لعافية و اللّه ربّك فاعبدا

(2). من تفسير القرطبى (18/ 297)

فتح القدير، ج‏5، ص: 354

و عبقر: قرية من قرى الجن كما تزعم العرب. و منه قول لبيد:

كهول و شبّان كجنّة عبقر «1» و انتصاب خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ على الحال من ضمير يوفضون، و أبصارهم مرتفعة به، و الخشوع: الذلة و الخضوع، أى: لا يرفعونها لما يتوقّعونه من العذاب تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ أى: تغشاهم ذلة شديدة.

قال قتادة: هى سواد الوجوه، و منه غلام مراهق؛ إذا غشيه الاحتلام، يقال: رهقه بالكسر يرهقه رهقا، أى: غشيه، و مثل هذا قوله: وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ «2» و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره. و هو مبتدأ و خبره: الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ أى: الّذى كانوا يوعدونه فى الدنيا على ألسنة الرسل قد حاق بهم و حضر، و وقع بهم من عذابه ما وعدهم اللّه به، و إن كان مستقبلا،

فهو فى حكم الّذى قد وقع لتحقّق وقوعه.

و قد أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ قال: للشمس كل يوم مطلع تطلع فيه، و مغرب تغرب فيه؛ غير مطلعها بالأمس و غير مغربها بالأمس. و أخرج ابن جرير عنه إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ قال: إلى علم يستبقون «٣».

---

(١). و صدره: و من فاد من إخوانهم و بنيهم.

(٢). يونس: ٢۶.

(٣). الّذى فى تفسير الطبرى و الدر المنثور: يسعون.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ٣۵۵

سورة نوح

اشارة

هى تسع و عشرون آية، أو ثمان و عشرون آية و هى مكية، و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير قال: نزلت سورة إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة نوح (٧١): الآيات ١ الى ٢٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١) قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴)

قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَ نَهاراً (۵) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلاَّ فِراراً (۶) وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (٩)

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (١١) وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (١٢) ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (١٣) وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (١۴)

أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (١۵) وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (١۶) وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً (١٨) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (١٩)

لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً (٢٠)

قوله: إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ قد تقدّم أن نوحا أوّل رسول أرسله اللّه، و هو نوح بن لامك ابن متوشلخ بن أخنوخ «١» بن قينان بن شيث بن آدم، و قد تقدّم مدّة لبثه فى قومه، و بيان جميع عمره، و بيان السنّ التى أرسل و هو فيها فى سورة العنكبوت أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ أى: بأن أنذر، على أنها مصدرية، و يجوز أن تكون هى المفسّرة؛ لأن فى الإرسال معنى القول. و قرأ ابن مسعود

أَنْذِرْ بـدون أن، و ذلك على تقـدير القول، أى: فقلنا له أنذر مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أى: عذاب شديد الألم، و هو عذاب النـار. و قال الكلبى: هو ما نزل بهم من الطوفان، و جملـة قالَ يا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَـذِيرٌ مُبِينٌ مستأنفة استئنافا بيانيا على تقـدير سؤال، كأنه قيل: فماذا قال نوح؟ فقال: قال لهم ... إلـخ. و المعنى: إنى لكم منـذر من عقاب اللّه، و مخوّف لكم، و مبين لما فيه نجاتكم أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ «أن» هى التفسـيرية لنـذير، أو هى المصدريـة، أى: بأن اعبدوا اللّه و لا تشركوا به غيره و اتقوه، أى: اجتنبوا ما يوقعكم فى عذابه،

---

(١). فى تفسير القرطبى: و هو إدريس بن يردين مهلايل بن أنوش.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٥۶

و أطيعون فيمـا آمركم به؛ فـإنى رسول إليكم من عنـد اللّه يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ هـذا جواب الأمر، و «من» للتبعيض، أى: بعض ذنوبكم، و هو ما سلف منها قبل طاعـة الرسول و إجابـة دعوته. و قال السـدّى: المعنى يغفر لكم ذنوبكم، فتكون «من» على هـذا زائدة، و قيل: المراد بالبعض ما لا يتعلّق بحقوق العباد، و قيل: هى لبيان الجنس، و قيل: يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَـمًّى أى: يؤخّر موتكم إلى الأمد الأقصى الّذى قدّره اللّه لكم بشرط الإيمان و الطاعة فوق ما قدّره لكم، على تقـدير بقائكم على الكفر و العصيان، و قيل: التأخير بمعنى البركـة فى أعمارهم إن آمنوا، و عـدم البركـة فيها إن لم يؤمنوا. قال مقاتل: يؤخركم إلى منتهى آجالكم. و قال الزجاج: أى يؤخّركم عن العـذاب فتموتوا غير ميتـة المستأصلين بالعـذاب. و قال الفراء: المعنى لا يميتكم غرقـا و لا حرقا و لا قتلا إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ أى: ما قـدّره لكم على تقـدير بقائكم على الكفر من العـذاب إذا جـاء، و أنتم باقون على الكفر، لا يؤخر، بل يقع لا محالـة، فبادروا إلى الإيمان و الطاعـة. و قيل: المعنى: إنّ أجل اللّه و هو الموت إذا جـاء لا يمكنكم الإيمـان، و قيل: المعنى: إذا جاء الموت لا يؤخّر سواء كان بعـذاب أو بغير عـذاب لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى: شـيئا من العلم لسارعتم إلى مـا أمرتكم به، أو لعلمتم أنّ أجـل اللّه إذا جاء لا يؤخّر قالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَ نَهاراً أى: قال نوح مناديا لربه و حاكيا له ما جرى بينه و بين قومه، و هو أعلم به منه: إنى دعوت قومى إلى ما أمرتنى بأن أدعوهم إليه من الإيمـان دعـاء دائما فى الليل و النهار من غير تقصـير فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِى إِلَّا فِراراً عمّا دعوتهم إليه و بعـدا عنه. قال مقاتل: يعنى تباعدا من الإيمان، و إسناد الزيادة إلى الدعاء لكونه سببها، كما فى قوله: زادَتْهُمْ إِيماناً*. قرأ الجمهور: دعائى بفتح الياء، و قرأ الكوفيون و يعقوب و الدّورى عن أبى عمرو بإسكانها، و الاستثناء مفرّغ وَ إِنِّى كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ أى: كلّما دعوتهم إلى سبب المغفرة، و هو الإيمـان بك، و الطاعـة لك جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِى آذانِهِمْ لئلا يسـمعوا صوتى وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ أى: غطّوا بها وجوههم لئلا يرونى، و قيـل: جعلوا ثيـابهم على رؤوسـهم لئلا يسـمعوا كلامى، فيكون اسـتغشاء الثياب على هـذا زيادة فى سـدّ الآذان، و قيل: هو كنايـة عن العـداوة، يقال: لبس فلان ثياب العـداوة، و قيل: استغشوا ثيابهم لئلا يعرفهم فيدعوهم وَ أَصَرُّوا أى: استمروا على الكفر، و لم يقلعوا عنه، و لا تابوا منه وَ اسْتَكْبَرُوا عن قبول الحق، و عن امتثال ما أمرهم به اسْتِكْباراً شديدا ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهاراً أى: مظهرا لهم الـدعوة، مجاهرا لهم بها ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ أى: دعوتهم معلنا لهم بالـدعاء وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً أى: و أسررت لهم الـدعوة إسـرارا كثيرا، قيـل: المعنى: أن يـدعو الرجـل بعـد الرجل يكلّمه سرا فيما بينه و بينه، و المقصود أنه دعـاهم على وجوه متخالفـة و أساليب متفاوتـة، فلم ينجع ذلك فيهم. قال مجاهـد: معنى أعلنت: صحت، و قيل: معنى أسررت: أتيتهم فى منازلهم فـدعوتهم فيها. و انتصاب جهارا على المصدرية؛ لأن الدعاء يكون جهارا و يكون غير جهار، فالجهار نوع من الـدعاء، كقولهم: قعد القرفصاء، و يجوز أن يكون نعت مصدر محذوف، أى: دعاء جهارا، و أن يكون مصدرا فى موضع الحال، أى: مجاهرا، و معنى ثُمَ الدلالة

فتح القدير، ج‏5، ص: 357
على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، و الجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما. قرأ الجمهور إِنِّي بسكون الياء، و قرأ أبو عمرو و الحرميون بفتحها فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً أي:
سلوه المغفرة من ذنوبكم السابقة بإخلاص النية، إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً أي: كثير المغفرة للمذنبين، و قيل:
معنى استغفروا: توبوا عن الكفر إنه كان غفارا للتائبين، يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً أي: يرسل ماء السماء عليكم، ففيه إضمار، و قيل: المراد بالسماء المطر، كما في قول الشاعر «1»:
إذا نزل السّماء بأرض قوم‏رعيناه و إن كانوا غضابا
و المدرارا: الدرور، و هو التحلّب بالمطر، و انتصابه إما على الحال من السماء، و لم يؤنث لأن مفعالا لا يؤنث؛ تقول: امرأة مئناث و مذكار، أو على أنه نعت لمصدر محذوف، أي: إرسالا مدرارا، و قد تقدّم الكلام عليه في سورة الأنعام، و جزم يرسل لكونه جواب الأمر. و في هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر و حصول أنواع الأرزاق، و لهذا قال: وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ يعني بساتين وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً جارية. قال عطاء: المعنى يكثر أموالكم و أولادكم. أعلمهم نوح عليه السلام أن إيمانهم باللّه يجمع لهم مع الحظّ الوافر في الآخرة الخصب و الغنى في الدنيا. ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً أي: أيّ عذر لكم في ترك الرجاء، و الرجاء هنا بمعنى الخوف، أي: مالكم لا تخافون اللّه، و الوقار: العظمة من التوقير و هو التعظيم، و المعنى لا تخافون حقّ عظمته فتوحّدونه و تطيعونه، و لا تَرْجُونَ في محل نصب على الحال من ضمير المخاطبين، و العامل فيه معنى الاستقرار في «لكم»، و من إطلاق الرجاء على الخوف قول الهذلي:
إذا لسعته النّحل لم يرج لسعها و قال سعيد بن جبير و أبو العالية و عطاء بن أبي رباح: ما لكم لا ترجون للّه ثوابا، و لا تخافون منه عقابا.
و قال مجاهد و الضحاك: ما لكم لا تبالون للّه عظمته. قال قطرب: هذه لغة حجازية، و هذيل و خزاعة و مضر يقولون: لم أرج: لم أبال. و قال قتادة: ما لكم لا ترجون للّه عاقبة الإيمان. و قال ابن كيسان: ما لكم لا ترجون في عبادة اللّه و طاعته أن يثيبكم على توقيركم خيرا. و قال ابن زيد: ما لكم لا تؤدّون للّه طاعة.
و قال الحسن: ما لكم لا تعرفون للّه حقا و لا تشكرون له نعمة. و جملة وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً في محل نصب على الحال، أي: و الحال أنه سبحانه قد خلقكم على أطوار مختلفة: نطفة، ثم مضغة، ثم علقة إلى تمام الخلق، كما تقدّم بيانه في سورة المؤمنين. و الطّور في اللغة: المرّة، و قال ابن الأنباري: الطور الحال، و جمعه أطوار، و قيل: أطوارا صبيانا ثم شبانا ثم شيوخا، و قيل: الأطوار اختلافهم في الأفعال و الأقوال و الأخلاق، و المعنى: كيف تقصّرون في توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً الخطاب لمن يصلح له، و المراد الاستدلال بخلق السماوات على كمال قدرته و بديع

____

(1). هو معاوية بن مالك، معوّد الحكماء.

فتح القدير، ج‏5، ص: 358
صنعه، و أنه الحقيق بالعبادة. و الطّباق: المتطابقة بعضها فوق بعض، كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب.
قال الحسن: خلق اللّه سبع سماوات على سبع أرضين، بين كل سماء و سماء، و أرض و أرض، خلق و أمر، و قد تقدّم تحقيق هذا في قوله: وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَ «1» و انتصاب طباقا على المصدرية، تقول طابقه مطابقة و طباقا، أو حال بمعنى ذات طباق، فحذف ذات و أقام طباقا مقامه، و أجاز الفراء في غير القرآن جرّ «طباقا» على النعت. وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً أي: منوّرا لوجه الأرض، و

جعل القمر فى السماوات على كونها فى سماء الدنيا؛ لأنها إذا كانت فى إحداهنّ، فهى فيهنّ، كذا قال ابن كيسان. قال الأخفش: كما تقول أتانى بنو تميم، و المراد بعضهم. و قال قطرب: فيهنّ بمعنى معهنّ، أى: خلق القمر و الشمس مع خلق السماوات و الأرض، كما فى قول امرئ القيس:

و هل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال

أى: مع ثلاثة أحوال. وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً أى: كالمصباح لأهل الأرض ليتوصلوا بذلك إلى التصرّف فيما يحتاجون إليه من المعاش وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً يعنى آدم خلقه اللّه من أديم الأرض، و المعنى: أنشأكم منها إنشاء، فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث و التكوين، و «نباتا» إما مصدر لأنبت على حذف الزوائد، أو مصدر لفعل محذوف، أى: أنبتكم من الأرض فنبتّم نباتا. و قال الخليل و الزجاج: هو مصدر محمول على المعنى؛ لأن معنى أنبتكم: جعلكم تنبتون نباتا. و قيل: المعنى: و اللّه أنبت لكم من الأرض النبات، فنباتا على هذا مفعول به. قال ابن بحر: أنبتهم فى الأرض بالكبر بعد الصغر و بالطول بعد القصر. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها أى فى الأرض وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً يعنى يخرجكم منها بالبعث يوم القيامة وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً أى: فرشها و بسطها لكم، تتقلبون عليها تقلّبكم على بسطكم فى بيوتكم لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً أى: طرقا واسعة، و الفجاج: جمع فجّ، و هو الطريق الواسع، كذا قال الفراء و غيره، و قيل: الفجّ: المسلك بين الجبلين، و قد مضى تحقيق هذا فى سورة الأنبياء و فى سورة الحج مستوفى.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ قال: لئلا يسمعوا ما يقول وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ قال: ليتنكّروا فلا يعرفهم وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً قال: تركوا التوبة.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عنه وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ قال: غطّوا وجوههم لئلا يروا نوحا و لا يسمعوا كلامه. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد، و البيهقى فى الشعب، عنه أيضا فى قوله: ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً قال: لا تعلمون للّه عظمة. و أخرج ابن جرير و البيهقى عنه أيضا وَقاراً قال عظمة. و فى قوله: وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً قال: نطفة ثم علقة ثم مضغة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: لا تخافون للّه عظمة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: لا

---

(۱). الطلاق: ۱۲.

تخشون له عقابا و لا ترجون له ثوابا. و أخرج عبد الرزاق فى المصنف، عن علىّ بن أبى طالب: «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم رأى ناسا يغتسلون عراة ليس عليهم أزر، فوقف فنادى بأعلى صوته: ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً».

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، عن عبد اللّه بن عمرو قال: الشمس و القمر وجوههما قبل السماء و أقفيتهما قبل الأرض، و أنا أقرأ بذلك عليكم آية من كتاب اللّه وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، عن عبد اللّه ابن عمر قال: تضىء لأهل السماوات كما تضىء لأهل الأرض. و أخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال: اجتمع عبد اللّه بن عمرو بن العاص و كعب الأحبار و قد كان بينهما بعض العتب فتعاتبا فذهب ذلك، فقال عبد اللّه بن عمرة لكعب: سلنى عمّا شئت، فلا تسألنى عن شىء إلا أخبرتك بتصديق قولى من القرآن، فقال له: أ رأيت ضوء الشمس و القمر أهو فى السماوات السبع كما هو فى الأرض؟ قال: نعم، ألم تروا إلى قول اللّه: خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً، وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً. و أخرج عبد ابن حميد، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً قال:

وجهه فى السماء إلى العرش و قفاه إلى الأرض. و أخرج عبد بن حميد من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً قال: خلق فيهنّ خلقهنّ ضياء لأهل الأرض، و ليس فى السماء من ضوئه شيء.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا سُبُلًا فِجاجاً قال: طرقا مختلفة.

[سورة نوح (٧١): الآيات ٢١ الى ٢٨]

قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلَّا خَساراً (٢١) وَ مَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (٢٢) وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْراً (٢٣) وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالاً (٢٤) مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً (٢٥)

وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِى وَ لِوالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً (٢٨)

قوله: قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى أى: استمرّوا على عصيانى و لم يجيبوا دعوتى، شكاهم إلى اللّه عزّ و جلّ، و أخبره بأنهم عصوه و لم يتبعوه، و هو أعلم بذلك وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلَّا خَساراً أى: اتبع الأصاغر رؤساءهم، و أهل الثروة منهم؛ الذين لم يزدهم كثرة المال و الولد إلا ضلالا فى الدنيا و عقوبة فى الآخرة. قرأ أهل المدينة و الشام و عاصم «و ولده» بفتح الواو و اللام. و قرأ الباقون بسكون اللام، و هى لغة فى الولد، و يجوز أن يكون جمعا، و قد تقدّم تحقيقه، و معنى «و اتبعوا»: أنهم استمرّوا على اتباعهم لا أنهم أحدثوا الاتباع وَ مَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً أى: مكرا كبيرا عظيما، يقال: كبير و كبار و كبّار، مثل عجيب و عجاب و عجّاب، و جميل و جمال و جمّال. قال المبرد: كبارا بالتشديد للمبالغة، و مثل كبارا:

قرّاء؛ لكثير القراءة، و أنشد ابن السّكّيت:

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٦٠ بيضاء تصطاد القلوب و تستبى بالحسن قلب المسلم القرّاء

قرأ الجمهور: كُبَّاراً بالتشديد. و قرأ ابن محيصن و حميد و مجاهد بالتخفيف. قال أبو بكر: هو جمع كبير؛ كأنه جعل مكرا مكان ذنوب أو أفاعيل، فلذلك وصفه بالجمع. و قال عيسى بن عمر: هى لغة يمانية.

و اختلف فى مكرهم هذا ما هو؟ فقيل: هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح، و قيل: هو تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال و الولد، حتى قال الضعفة: لو لا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم. و قال الكلبى:

هو ما جعلوه للّه من الصاحبة و الولد. و قال مقاتل: هو قول كبرائهم لأتباعهم: لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ و قيل:

مكرهم: كفرهم وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ أى: لا تتركوا عبادة آلهتكم، و هى الأصنام و الصور التى كانت لهم، ثم عبدتها العرب من بعدهم، و بهذا قال الجمهور: وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْراً أى: لا تتركوا عبادة هذه. قال محمد بن كعب: هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم و نوح، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم فى العبادة، فقال لهم إبليس: لو صوّرتم صورهم كان أنشط لكم و أسوق إلى العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت، و سمّيت هذه الصور بهذه الأسماء؛ لأنهم صوّروها على صورة أولئك القوم. و قال عروة بن الزبير و غيره: إن هذه كانت أسماء لأولاد آدم، و كان ودّ أكبرهم. قال الماوردى:

فأما ودّ فهو أوّل صنم معبود، سمى ودّا لودّهم له، و كان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل فى قول ابن عباس و عطاء و مقاتل، و فيه يقول شاعرهم:

حيّاك ودّ فإنّا لا يحلّ لنالهو النّساء و إنّ الدّين قد عزما

و أما سواع فكان لهذيل بساحل البحر، و أما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجوف من سبأ، فى قول قتادة. و قال المهدوى: لمراد ثم لغطفان؛ و أما يعوق فكان لهمدان، فى قول قتادة و عكرمة و عطاء. و قال الثعلبى: كان لكهلان بن سبأ، ثم توارثوه حتى صار فى همدان، و فيه يقول مالك بن نمط الهمدانى:

يريش اللّه فى الدّنيا و يبرىو لا يبرى يعوق و لا يريش

و أما نسر فكان لذى الكلاع من حمير، فى قول قتادة و مقاتل. قرأ الجمهور: وَدًّا بفتح الواو.

و قرأ نافع بضمها. قال الليث: ودّ بضم الواو صنم لقريش، و بفتحها صنم كان لقوم نوح، و به سمى عمور ابن ودّ. قال فى الصحاح، و الودّ بالفتح: الوتد فى لغة أهل نجد، كأنّهم سكّنوا التاء و أدغموها فى الدال.

و قرأ الجمهور: وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ بغير تنوين، فإن كانا عربيين فالمنع من الصرف للعلمية و وزن الفعل، و إن كانا أعجميين فللعجمة و العلمية. و قرأ الأعمش: و لا يغوثا و يعوقا بالصرف. قال ابن عطية:

و ذلك و هم. و وجه تخصيص هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الآلهة؛ لأنها كانت أكبر أصنامهم و أعظمها وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً أى: أضلّ كبراؤهم و رؤساؤهم كثيرا من الناس، و قيل: الضمير راجع إلى الأصنام،

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۶۱

أى: ضلّ بسببها كثير من الناس كقول إبراهيم رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ «۱» و أجرى عليهم ضمير من يعقل؛ لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها تعقل وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالًا معطوف على رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي و وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالظلم. و قال أبو حيان: إنه معطوف على «قد أضلّوا»، و معنى «إلا ضلالا»: إلا عذابا، كذا قال ابن بحر، و استدلّ على ذلك بقوله: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ «۲»، و قيل: إلا خسرانا، و قيل: إلا فتنة بالمال و الولد، و قيل: الضياع، و قيل: ضلالا فى مكرهم. مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا «ما» مزيدة للتأكيد، و المعنى: من خطيئاتهم، أى: من أجلها و بسببها أغرقوا بالطوفان فَأُدْخِلُوا ناراً عقب ذلك، و هى نار الآخرة، و قيل: عذاب القبر. قرأ الجمهور: خَطِيئاتِهِمْ على جمع السلامة، و قرأ أبو عمرو: خَطاياهُمْ على جمع التكسير، و قرأ الجحدرى و عمرو بن عبيد و الأعمش و أبو حيوة و أشهب العقيلى «خطيئتهم» على الإفراد. قال الضحاك: عذّبوا بالنار فى الدنيا مع الغرق فى حالة واحدة، كانوا يغرقون فى جانب و يحترقون فى جانب.

قرأ الجمهور: أُغْرِقُوا من أغرق، و قرأ زيد بن علىّ غرقوا بالتشديد فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً أى: لم يجدوا أحدا يمنعهم من عذاب اللّه و يدفعه عنهم وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً معطوف على قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي لما أيس نوح عليه السلام من إيمانهم و إقلاعهم عن الكفر دعا عليهم بالهلاك. قال قتادة: دعا عليهم بعد أن أوحى إليه أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فأجاب اللّه دعوته و أغرقهم. و قال محمد بن كعب و مقاتل و الربيع بن أنس و ابن زيد و عطية:

إنما قال هذا حين أخرج اللّه كلّ مؤمن من أصلابهم و أرحام نسائهم، و أعقم أرحام النساء و أصلاب الآباء قبل العذاب بسبعين سنة، و قيل: بأربعين. قال قتادة: لم يكن فيهم صبىّ وقت العذاب. و قال الحسن و أبو العالية: لو أهلك اللّه أطفالهم معهم كان عذابا من اللّه لهم و عدلا فيهم، و لكن أهلك ذرّيتهم و أطفالهم بغير عذاب، ثم أهلكهم بالعذاب، و معنى «ديّارا»: من يسكن الديار، و أصله ديوار على فيعال، من دار يدور، فقلبت الواو ياء، و أدغمت إحداهما فى الأخرى، مثل القيّام؛ أصله قيوام، و قال القتبىّ: أصله من الدار؛ أى نازل بالدار، يقال: ما بالدار ديّار، أى: أحد، و قيل: الديّار: صاحب الديار، و المعنى: لا تدع أحدا منهم إلا أهلكته إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ إن تتركهم على الأرض يضلوا عبادك عن طريق الحقّ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً أى: إلا فاجرا بترك طاعتك كفارا لنعمتك، أى: كثير الكفران لها، و المعنى: إلا من سيفجر و يكفر. ثم لما دعا على الكافرين

أتبعه بالدعاء لنفسه و والديه و المؤمنين، فقال: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَ و كانا مؤمنين، و أبوه: لامك بن متوشلخ كما تقدّم، و أمه شمخى بنت أنوش، و قيل:

أراد آدم و حواء. و قال سعيد بن جبير: أراد بوالديه أباه و جدّه. و قرأ سعيد بن جبير: وَ لِوالِدَيَ بكسر الدال على الإفراد. وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ قال الضحاك و الكلبى: يعنى مسجده، و قيل: منزله الّذى هو

---

(١). إبراهيم: ٣٦.

(٢). القمر: ٤٧.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٦٢

ساكن فيه، و قيل: سفينته، و قيل: لمن دخل فى دينه، و انتصاب مُؤْمِناً على الحال، أى: لمن دخل بيتى متصفا بصفة الإيمان، فيخرج من دخله غير متصف بهذه الصفة كامرأته و ولده الّذى قال: سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ. ثم عمّم الدعوة، فقال: وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ أى: و اغفر لكل متّصف بالإيمان من الذكور و الإناث. ثم عاد إلى الدعاء على الكافرين، فقال: وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً أى:

لا تزد المتصفين بالظلم إلا هلاكا و خسرانا و دمارا، و قد شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة، كما شمل دعاؤه للمؤمنين و المؤمنات كل مؤمن و مؤمنة إلى يوم القيامة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْراً قال: هذه الأصنام كانت تعبد فى زمن نوح. و أخرج البخارى و ابن المنذر و ابن مردويه عنه قال:

صارت الأوثان التى كانت تعبد فى قوم نوح فى العرب. أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل، و أما سواع فكانت لهذيل، و أما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف، و أما يعوق فكانت لهمدان، و أما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجلسهم الّذى كانوا يجلسون فيه أنصابا، و سمّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى هلك أولئك، و نسخ العلم؛ فعبدت.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٦٣

سورة الجنّ

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الجن بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عائشة و ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الجن (٧٢): الآيات ١ الى ١٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً (٢) وَ أَنَّهُ

تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً (٣) وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (۴)
وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (۵) وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (۶) وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (٧) وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً (٨) وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (٩)
وَ أَنَّا لا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (١٠) وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً (١١) وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (١٢) وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً (١٣)

قوله: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَ قرأ الجمهور: أُوحِيَ رباعيا. و قرأ ابن أبى عبلة و أبو إياس و العتكى عن أبى عمرو أحى ثلاثيا، و هما لغتان. و اختلف هل رآهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أم لم يرهم؟ فظاهر القرآن أنه لم يرهم؛ لأن المعنى: قل يا محمد لأمتك أوحى إلىّ على لسان جبريل أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ و مثله قوله: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ «١» و يؤيّد هذا ما ثبت فى الصحيح عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على الجنّ، و ما رآهم. قال عكرمة: و السورة التى كان يقرؤها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ «٢» و قد تقدّم فى سورة الأحقاف ذكر ما يفيد زيادة فى هذا. قوله: أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ هذا هو القائم مقام الفاعل، و لهذا فتحت أنّ، و الضمير للشأن.
و عند الكوفيين و الأخفش يجوز أن يكون القائم مقام الفاعل الجارّ و المجرور، و النفر: اسم للجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة. قال الضحاك: و الجنّ ولد الجانّ و ليسوا شياطين. و قال الحسن: إنهم ولد إبليس. قيل: هم أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم النارية و الهوائية، و قيل: نوع من الأرواح المجرّدة، و قيل: هى النفوس البشرية المفارقة لأبدانها.

---

(١). الأحقاف: ٢٩.

(٢). العلق: ١.

فتح القدير، ج۵، ص: ٣۶۴

و قد اختلف أهل العلم فى دخول مؤمنى الجنّ الجنة كما يدخل عصاتهم النار؛ لقوله فى سورة تبارك:
وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ «١» و قول الجنّ فيما سيأتى فى هذه السورة:
وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً و غير ذلك من الآيات، فقال الحسن: يدخلون الجنة، و قال مجاهد: لا يدخلونها و إن صرفوا عن النار. و الأوّل أولى؛ لقوله فى سورة الرّحمن: لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ «٢» و فى سورة الرّحمن آيات غير هذه تدلّ على ذلك، فراجعها، و قد قدّمنا أن الحق أنه لم يرسل اللّه إليهم رسلا منهم، بل الرسل جميعا من الإنس، و إن أشعر قوله: أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ* بخلاف هذا، فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة فى الكتاب العزيز؛ دالة على أن اللّه سبحانه لم يرسل الرسل إلا من بنى آدم، و هذه الأبحاث الكلام فيها يطول، و المراد الإشارة بأخصر عبارة. فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً أى:
قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم، أى: سمعنا كلاما مقروءا عجبا فى فصاحته و بلاغته، و قيل: عجبا فى مواعظه، و قيل: فى بركته، و عجبا مصدر وصف به للمبالغة، أو على حذف المضاف، أى: ذا عجب، أو المصدر بمعنى اسم الفاعل، أى: معجبا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ أى: إلى مراشد الأمور، و هى الحقّ و الصواب، و قيل: إلى معرفة اللّه، و الجملة صفة أخرى للقرآن فَآمَنَّا بِهِ أى: صدّقنا به بأنه من عند اللّه وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً من خلقه، و لا نتخذ معه إلها آخر؛ لأنه المتفرّد بالربوبية، و فى هذا توبيخ للكفّار من بنى آدم؛ حيث آمنت الجنّ بسماع القرآن مرّة واحدة، و انتفعوا بسماع آيات يسيرة منه، و أدركوا بعقولهم أنه كلام اللّه، و آمنوا به،

و لم ينتفع كفّار الإنس؛ لا سيما رؤساؤهم و عظماؤهم بسماعه مرّات متعدّدة و تلاوته عليهم فى أوقات مختلفة؛ مع كون الرسول منهم يتلوه عليهم بلسانهم، لا جرم صرعهم اللّه أذلّ مصرع، و قتلهم أقبح مقتل، و لعذاب الآخرة أشدّ لو كانوا يعلمون وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا قرأ حمزة و الكسائى و ابن عامر و حفص و علقمة و يحيى بن وثّاب و الأعمش و خلف و السّلمى وَ أَنَّهُ تَعالى بفتح أنّ، و كذا قرءوا فيما بعدها ممّا هو معطوف عليها، و ذلك أحد عشر موضعا إلى قوله: وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ و قرأ الباقون بالكسر فى هذه المواضع كلها إلا فى قوله: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فإنهم اتفقوا على الفتح، أما من قرأ بالفتح فى هذه المواضع، فعلى العطف على محل الجار و المجرور فى فَآمَنَّا بِهِ كأنه قيل: فصدّقناه و صدّقنا أنه تعالى جدّ ربنا إلخ، و أما من قرأ بالكسر فى هذه المواضع فعلى العطف على إنا سمعنا، أى: فقالوا: إنا سمعنا قرآنا، و قالوا: إنه تعالى جدّ ربنا إلى آخره. و اختار أبو حاتم و أبو عبيد قراءة الكسر؛ لأنه كلّه من كلام الجنّ، و ممّا هو محكىّ عنهم بقوله: «فقالوا إنا سمعنا». و قرأ أبو جعفر و شعبة بالفتح فى ثلاثة مواضع، و هى:

وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ قالا: لأنه من الوحى، و كسرا ما بقى لأنه من كلام الجن. و قرأ الجمهور: وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ بالفتح لأنه معطوف على قوله: «أنه استمع». و قرأ نافع و ابن عامر و شيبة و زرّ بن حبيش و أبو بكر و المفضّل عن عاصم بالكسر

---

(۱). الملک: ۵.

(۲). الرّحمن: ۵۶.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۶۵

فى هذا الموضع عطفا على «فآمنا به» بذلك التقدير السابق، و اتفقوا على الفتح فى أَنَّهُ اسْتَمَعَ كما اتفقوا على الفتح فى أَنَّ الْمَساجِدَ و فى وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا و اتفقوا على الكسر فى فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا و قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّى و قُلْ إِنْ أَدْرِى و قُلْ إِنِّى لا أَمْلِكُ لَكُمْ و الجدّ عند أهل اللغة:

العظمة و الجلال، يقال: جدّ فى عينى: أى عظم، فالمعنى: ارتفعت عظمة ربنا و جلاله، و به قال عكرمة و مجاهد. و قال الحسن: المراد تعالى غناه، و منه قيل للحظ: جدّ، و رجل مجدود، أى: محظوظ، و فى الحديث: «و لا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ»، قال أبو عبيد و الخليل: أى لا ينفع ذا الغنى منك الغنى، أى:

إنما تنفعه الطاعة، و قال القرظىّ و الضحاک: جدّه: آلاؤه و نعمه على خلقه. و قال أبو عبيدة و الأخفش:

ملكه و سلطانه. و قال السدّى: أمره. و قال سعيد بن جبير: وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا أى: تعالى ربنا، و قيل: جدّه قدرته. و قال محمد بن علىّ بن الحسين و ابنه جعفر الصادق و الربيع بن أنس: ليس للّه جدّ، و إنما قالته الجنّ للجهالة. قرأ الجمهور: جَدُّ بفتح الجيم، و قرأ عكرمة و أبو حيوة و محمد بن السّميقع بكسر الجيم، و هو ضدّ الهزل، و قرأ أبو الأشهب: جدا ربّنا أى: جدواه و منفعته. و روى عن عكرمة أيضا أنه قرأ بتنوين جد و رفع ربنا على أنه بدل من جدّ. مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً هذا بيان لتعالى جدّه سبحانه. قال الزجاج: تعالى جلال ربنا و عظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولدا، و كأن الجن نبهوا بهذا على خطأ الكفار الذين ينسبون إلى اللّه الصاحبة و الولد، و نزّهوا اللّه سبحانه عنهما وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً الضمير فى أنه للحديث أو الأمر، و «سفيهنا» يجوز أن يكون اسم كان، و «يقول» الخبر، و يجوز أن يكون «سفيهنا» فاعل يقول: و الجملة خبر كان، و اسمها ضمير يرجع إلى الحديث أو الأمر. و يجوز أن تكون كان زائدة، و مرادهم بسفيههم: عصاتهم و مشركوهم. و قال مجاهد و ابن جريج و قتادة: أرادوا به إبليس، و الشطط: الغلوّ فى الكفر. و قال أبو مالک: الجور، و قال الكلبى: الكذب، و أصله البعد عن القصد و

مجاوزة الحدّ، و منه قول الشاعر:

بأيّة حال حكّموا فيك فاشتطّوا و ما ذاك إلّا حيث يمّمك الوخط «۱»

وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أى: إنا حسبنا أن الإنس و الجنّ كانوا لا يكذبون على اللّه بأن له شريكا و صاحبة و ولدا، فلذلك صدّقناهم فى ذلك حتى سمعنا القرآن؛ فعلمنا بطلان قولهم، و بطلان ما كنّا نظنّه بهم من الصدق، و انتصاب كذبا على أنه مصدر مؤكد ليقول؛ لأنّ الكذب نوع من القول، أو صفة لمصدر محذوف، أى: قولا كذبا. و قرأ يعقوب و الجحدرى و ابن أبى إسحاق أَنْ لَنْ تَقُولَ من التقوّل، فيكون على هذه القراءة كذبا مفعول به وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِ قال الحسن و ابن زيد و غيرهما: كان العرب إذا نزل الرجل بواد قال: أعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ سفهاء قومه، فيبيت فى جواره حتى يصبح، فنزلت هذه الآية. قال مقاتل: كان أوّل من تعوّذ بالجنّ

---

(۱). «يممك»: قصدك. «الوخط»: الطعن بالرمح، و الشيب.

قوم من أهل اليمن، ثم من بنى حنيفة، ثم فشا ذلك فى العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا باللّه و تركوهم فَزادُوهُمْ رَهَقاً أى: زاد رجال الجنّ من تعوذ بهم من رجال الإنس رهقا، أى: سفها و طغيانا، أو تكبرا و عتوّا، أو: زاد المستعيذون من رجال الإنس من استعاذوا بهم من رجال الجنّ رهقا؛ لأن المستعاذ بهم كانوا يقولون: سدنا الجنّ و الإنس. و بالأوّل قال مجاهد و قتادة، و بالثانى قال أبو العالية و قتادة و الربيع ابن أنس و ابن زيد. و الرهق فى كلام العرب: الإثم و غشيان المحارم، و رجل رهق؛ إذا كان كذلك، و منه قوله: تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ* «۱» أى: تغشاهم، و منه قول الأعشى:

لا شى‌ء ينفعنى من دون رؤيتهاهل يشتفى عاشق ما لم يصب رهقا

يعنى إثما. و قيل الرهق: الخوف، أى: أن الجنّ زادت الإنس بهذا التعوّذ بهم خوفا منهم، و قيل: كان الرجل من الإنس يقول: أعوذ بفلان من سادات العرب من جنّ هذا الوادى، و يؤيد هذا ما قيل من أن لفظ رجال لا يطلق على الجنّ، فيكون قوله «برجال» وصفا لمن يستعيذون به من رجال الإنس، أى: يعوذون بهم من شرّ الجن، و هذا فيه بعد، و إطلاق لفظ رجال على الجنّ، على تسليم عدم صحته لغة، لا مانع من إطلاقه عليهم هنا من باب المشاكلة وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً هذا من قول الجنّ للإنس، أى: و إن الجنّ ظنوا كما ظننتم أيها الإنس أنه لا بعث. و قيل: المعنى: و إن الإنس ظنّوا كما ظننتم أيها الجنّ، و المعنى: أنهم لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ هذا من قول الجنّ أيضا، أى:

طلبنا خبرها كما به جرت عادتنا فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع، و الحرس: جمع حارس، و شَدِيداً صفة لحرسا، أى: قويا وَ شُهُباً جمع: شهاب، و هو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب، كما تقدّم بيانه فى تفسير قوله: وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ و محل قوله:

مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً النصب على أنه ثانى مفعولى وجدنا؛ لأنه يتعدّى إلى مفعولين، و يجوز أن يكون متعدّيا إلى مفعول واحد، فيكون محل الجملة النصب على الحال بتقدير قد، و حرسا منصوب على التميز، و وصفه بالمفرد اعتبارا باللفظ، كما يقال السلف الصالح، أى: الصالحين وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ أى: و إنا كنا معشر الجنّ قبل هذا نقعد من السماء مقاعد للسمع، أى: مواضع نقعد فى مثلها لاستماع الأخبار من السماء، و «للسمع» متعلق بنقعد، أى: لأجل السمع، أو بمضمر هو صفة لمقاعد، أى: مقاعد كائنة للسمع، و المقاعد: جمع مقعد، اسم كان، و ذلك أن مردة الجنّ كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء فيلقونها إلى الكهنة، فحرسها اللّه سبحانه ببعثة رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بالشّهب المحرقة، و هو معنى قوله:

فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً أی: أرصد له لیرمی به، أو لأجله لمنعه من السماع، و قوله:
الْآنَ هو ظرف للحال، و استعیر للاستقبال، و انتصاب «رصدا» علی أنه صفة ل «شهابا»، أو مفعول له، و هو مفرد و یجوز أن یکون اسم جمع کالحرس.

---

(۱). یونس: ۲۷.

فتح القدیر، ج‌۵، ص: ۳۶۷

و قد اختلفوا هل کانت الشیاطین ترمی بالشهب قبل المبعث أم لا؟ فقال قوم: لم یکن ذلک. و حکی الواحدی عن معمر قال: قلت للزهری: أ کان یرمی بالنجوم فی الجاهلیة؟ قال: نعم، قلت: أ فرأیت قوله:
وَ أَنَّا کُنَّا نَقْعُدُ مِنْها الآیة، قال: غلظت و شدّد أمرها حین بعث محمد صلّی اللّه علیه و سلّم. قال ابن قتیبة: إن الرجم قد کان قبل مبعثه، و لکنه لم یکن مثله فی شدّة الحراسة بعد مبعثه، و کانوا یسترقون فی بعض الأحوال، فلما بعث منعوا من ذلک أصلا. و قال عبد الملک بن سابور: لم تکن السماء تحرس فی الفترة بین عیسی و محمد، فلما بعث محمد صلّی اللّه علیه و سلّم حرست السماء، و رمیت الشیاطین بالشّهب، و منعت من الدنوّ إلی السماء. و قال نافع بن جبیر: کانت الشیاطین فی الفترة تسمع فلا ترمی، فلما بعث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم رمیت بالشّهب، و قد تقدّم البحث عن هذا وَ أَنَّا لا نَدْرِی أَ شَرٌّ أُرِیدَ بِمَنْ فِی الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً أی: لا ندری أشرّ أرید بأهل الأرض بسبب هذه الحراسة للسماء، أم أراد بهم ربهم رشدا، أی: خیرا. قال ابن زید:
قال إبلیس: لا ندری أراد اللّه بهذا المنع أن ینزل علی أهل الأرض عذابا، أو یرسل إلیهم رسولا، و ارتفاع أَ شَرٌّ علی الاشتغال، أو علی الابتداء، و خبره ما بعده، و الأوّل أولی، و الجملة سادّة مسدّ مفعولی ندری، و الأولی أن هذا من قول الجنّ فیما بینهم، و لیس من قول إبلیس کما قال ابن زید وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ أی: قال بعض لبعض لما دعوا أصحابهم إلی الإیمان بمحمد صلّی اللّه علیه و سلّم: و أنا کنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بالصلاح، وَ مِنَّا دُونَ ذلِکَ أی: قوم دون ذلک، أی: دون الموصوفین بالصلاح، و قیل: أراد ب «الصالحون» المؤمنین، و بمن هم دون ذلک الکافرین، و الأوّل أولی، و معنی کُنَّا طَرائِقَ قِدَداً أی:
جماعات متفرّقة و أصنافا مختلفة، و القدّة: القطعة من الشیء، و صار القوم قددا؛ إذا تفرقت أحوالهم، و منه قول الشاعر:
القابض الباسط الهادی لطاعته‌فی فتنة النّاس إذ أهواؤهم قدد
و المعنی: کنا ذوی طرائق قددا، أو کانت طرائقنا طرائق قددا، أو کنا مثل طرائق قددا، و من هذا قول لبید:
لم تبلغ العین کلّ نهمتهایوم تمشی الجیاد بالقدد
و قوله أیضا:
و لقد قلت و زید حاسریوم ولّت خیل عمرو قددا
قال السدّی و الضحاک: أدیانا مختلفة، و قال قتادة: أهواء متباینة. و قال سعید بن المسیب: کانوا مسلمین و یهود و نصاری و مجوس، و کذا قال مجاهد. قال الحسن: الجنّ أمثالکم قدریة و مرجئة و رافضة و شیعة، و کذا قال السدّی: وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِی الْأَرْضِ الظنّ هنا بمعنی العلم و الیقین، أی: و إنا علمنا أن الشأن لن نعجز اللّه فی الأرض أینما کنّا فیها، و لن نفوته إن أراد بنا أمرا وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً أی: هاربین منها، فهو مصدر فی موضع الحال وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدی یعنون القرآن آمَنَّا بِهِ و صدّقنا أنه من

فتح القدیر، ج‌۵، ص: ۳۶۸

عند اللّه، و لم نكذب به؛ كما كذبت به كفرة الإنس فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً أى:
لا يخاف نقصا فى عمله و ثوابه، و لا ظلما و مكروها يغشاه، و البخس: النقصان، و الرهق: العدوان و الطغيان، و المعنى: لا يخاف أن ينقص من حسناته و لا أن يزاد فى سيئاته، و قد تقدّم تحقيق الرهق قريبا.
قرأ الجمهور: بَخْساً بسكون الخاء، و قرأ يحيى بن وثّاب بفتحها. و قرأ يحيى بن وثّاب و الأعمش فلا يخف جزما على جواب الشرط، و لا وجه لهذا بعد دخول الفاء، و التقدير: فهو لا يخاف، و الأمر ظاهر.
و قد أخرج أحمد و البخارى و مسلم و الترمذى و غيرهم عن ابن عباس قال: انطلق النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، و قد حيل بين الشياطين و بين خبر السماء، و أرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا و بين خبر السماء و أرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم و بين خبر السماء إلا شى‏ء حدث، فاضربوا مشارق الأرض و مغاربها؛ لتعرفوا ما هذا الأمر الّذى حال بينكم و بين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و هو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، و هو يصلّى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا و اللّه الّذى حال بينكم و بين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فَقالُوا يا قومنا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً فأنزل اللّه على نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ و إنما أوحى إليه قول الجنّ.
و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ قال: كانوا من جنّ نصيبين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أَنَّهُ تَعالى‏ جَدُّ رَبِّنا قال: آلاؤه و عظمته.
و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: أمره و قدرته. و أخرج ابن مردويه و الديلمى، قال السيوطى: بسند واه، عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا فى قوله: وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا قال: إبليس.
و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و العقيلى فى الضعفاء، و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه و ابن عساكر عن كردم بن أبى السائب الأنصارى قال: خرجت مع أبى إلى المدينة فى حاجة، و ذلك أوّل ما ذكر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة، فآوانا المبيت إلى راعى غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم، فوثب الراعى فقال: يا عامر الوادى أنا جارك، فنادى مناد: يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشتدّ حتى دخل فى الغنم، و أنزل اللّه على رسوله بمكة: وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِ الآية. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَزادُوهُمْ رَهَقاً قال: إثما. و أخرج ابن مردويه عنه قال: كان القوم فى الجاهلية إذا نزلوا بالوادى قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ ما فيه، فلا يكون بشى‏ء أشدّ ولعا منهم بهم، فذلك قوله: فَزادُوهُمْ رَهَقاً. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد ابن حميد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس قال: كانت الشياطين لهم مقاعد فى السماء يسمعون فيها الوحى، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا، فأما

الكلمة فتكون حقا، و أما ما زادوا فيكون باطلا. فلما بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، و لم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم: ما هذا إلا من أمر قد حدث فى الأرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قائما يصلى بين جبلين بمكة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الّذى حدث فى الأرض. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ يقول:
منّا المسلم، و منّا المشرك، و كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً أهواء شتى. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فَلا يَخافُ بَخْساً وَ لا

رَهَقاً قال: لا يخاف نقصا من حسناته، و لا زيادة فى سيئاته.

[سورة الجن (٧٢): الآيات ١۴ الى ٢٨]

وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (١۴) وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (١۵) وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً (١۶) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً (١٧) وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (١٨)

وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (١٩) قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّى وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (٢٠) قُلْ إِنِّى لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢) إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (٢٣)

حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً (٢۴) قُلْ إِنْ أَدْرِى أَ قَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً (٢۵) عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً (٢۶) إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (٢٨)

قوله: وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ هم الذين آمنوا بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ أى: الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق، و مالوا إلى طريق الباطل، يقال: قسط؛ إذا جار، و أقسط؛ إذا عدل فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً أى: قصدوا طريق الحق. قال الفراء: أمّوا الهدى وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً أى: وقودا للنار توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ هذا ليس من قول الجنّ بل هو معطوف على أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ و المعنى: و أوحى إلىّ أن الشأن لو استقام الجنّ أو الإنس أو كلاهما على الطريقة، و هى طريقة الإسلام، و قد قدّمنا أن القراء اتفقوا على فتح «أن» هاهنا. قال ابن الأنبارى: و الفتح هنا على إضمار يمين تأويلها: و اللّه أن لو استقاموا على الطريقة كما يقال فى الكلام: و اللّه أن قمت لقمت، و و اللّه لو قمت لقمت، كما فى قول الشاعر:

أما و اللّه أن لو كنت حرّا و ما بالحرّ أنت و لا العتيق

قال: أو على «أوحى إلىّ أنه استمع»، «و أن لو استقاموا»، أو على «آمنا به»: أى آمنا به، و بأن لو استقاموا. قرأ الجمهور بكسر الواو من «لو» لالتقاء الساكنين. و قرأ ابن وثّاب و الأعمش بضمها

فتح القدير، ج‌۵، ص: ٣٧٠

لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً أى: كثيرا واسعا. قال مقاتل: ماء كثيرا من السماء، و ذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين. و قال ابن قتيبة: المعنى لو آمنوا جميعا لوسعنا عليهم فى الدنيا، و ضرب الماء الغدق مثلا؛ لأن الخير كله و الرزق بالمطر، و هذا كقوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا «١» الآية، و قوله:

وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً- وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ «٢» و قوله: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً- يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً- وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ «٣» الآية. و قيل المعنى: و أن لو استقام أبوهم على عبادته، و سجد لآدم، و لم يكفر، و تبعه ولده على الإسلام؛ لأنعمنا عليهم، و اختار هذا الزجاج. و الماء الغدق: هو الكثير فى لغة العرب لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ أى: لنختبرهم؛ فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم.

و قال الكلبى: المعنى و أن لو استقاموا على الطريقة التى هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفارا؛ لأوسعنا أرزاقهم مكرا بهم و استدراجا؛ حتى يفتنوا بها؛ فنعذّبهم فى الدّنيا و الآخرة. و به قال الربيع بن أنس و زيد بن أسلم و ابنه عبد الرّحمن و الثّمالى و

يمان بن رباب و ابن كيسان و أبو مجلز، و استدلوا بقوله: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ «۴» و قوله: وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ «۵» الآية، و الأوّل أولى. وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً أى: و من يعرض عن القرآن، أو عن العبادة، أو عن الموعظة، أو عن جميع ذلك يسلكه، أى:

يدخله عذابا صعدا، أى: شاقا صعبا. قرأ الجمهور نَسْلُكْهُ بالنون مفتوحة. و قرأ الكوفيون و أبو عمرو فى رواية عنه بالياء التحتية، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم لقوله: عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ و لم يقل عن ذكرنا. و قرأ مسلم بن جندب و طلحة بن مصرّف و الأعرج بضم النون و كسر اللام، من أسلكه، و قراءة الجمهور من سلكه. و الصعد فى اللغة: المشقة، تقول: تصعّدنى الأمر: إذا شقّ عليك، و هو مصدر صعد، يقال: صعد صعدا و صعودا، فوصف به العذاب مبالغة؛ لأنه يتصعّد المعذّب، أى: يعلوه و يغلبه فلا يطيقه.

قال أبو عبيد: الصّعد مصدر، أى: عذابا ذا صعد. و قال عكرمة: الصّعد: هو صخرة ملساء فى جهنم يكلّف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم، كما فى قوله: سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً «۶» و الصعود:

العقبة الكؤود وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ قد قدّمنا اتفاق القراء هنا على الفتح فهو معطوف على أنه استمع، أى:

و أوحى إلىّ أن المساجد مختصّة باللّه. و قال الخليل: التقدير و لأن المساجد. و المساجد: المواضع التى بنيت للصّلاة فيها. قال سعيد بن جبير: قالت الجنّ: كيف لنا أن نأتى المساجد، و نشهد معك الصلاة، و نحن ناؤون عنك؟ فنزلت. و قال الحسن: أراد بها كل البقاع لأن الأرض كلها مسجد. و قال سعيد بن المسيب و طلق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التى يسجد عليها العبد، و هى القدمان و الركبتان و اليدان و الجبهة،

---

(۱). المائدة: ۶۵.

(۲). الطلاق: ۲- ۳.

(۳). نوح: ۱۰- ۱۲.

(۴). الأنعام: ۴۴.

(۵). الزخرف: ۳۳.

(۶). المدثر: ۱۷.

و يقول: هذه أعضاء أنعم اللّه بها عليك فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة اللّه، و كذا قال عطاء. و قيل: المساجد هى الصلاة؛ لأن السجود من جملة أركانها، قاله الحسن فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً من خلقه كائنا ما كان وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ قد قدّمنا أن الجمهور قرءوا هنا بفتح أن، عطفا على أنه استمع: أى و أوحى إلىّ أنّ الشأن لما قام عبد اللّه، و هو النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يَدْعُوهُ أى: يدعو اللّه و يعبده، و ذلك ببطن نخلة «۱» كما تقدّم حين قام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى و يتلو القرآن، و قد قدّمنا أيضا قراءة من قرأ بكسر «إن» هناك، و فيها غموض و بعد عن المعنى المراد كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً أى: كاد الجنّ يكونون على رسول اللّه لبدا، أى: متراكمين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه. قال الزجاج: و معنى لبدا: يركب بعضهم بعضا، و من هذا اشتقاق هذه اللبود التى تفرش. قرأ الجمهور لِبَداً بكسر اللام و فتح الباء. و قرأ مجاهد و ابن محيصن و هشام بضم اللام و فتح الباء، و قرأ أبو حيوة و محمد بن السّميقع و العقيلى و الجحدرى بضم الباء و اللام. و قرأ الحسن و أبو العالية و الأعرج بضم اللام و تشديد الباء مفتوحة. فعلى القراءة الأولى المعنى ما ذكرناه، و على قراءة اللام يكون المعنى كثيرا، كما فى قوله: أَهْلَكْتُ

مالًا لُبَداً «٢» و قيل المعنى: كاد المشركون يركب بعضهم بعضا حردا على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و قال الحسن و قتادة و ابن زيد: لما قام عبد اللّه محمد بالدعوة، تلبدت الإنس و الجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى اللّه إلا أن ينصره، و يتم نوره. و اختار هذا ابن جرير. قال مجاهد: لِبَداً أى: جماعات، و هو من تلبد الشىء على الشىء، أى: اجتمع، و منه اللبد:
الّذى يفرش لتراكم صوفه، و كل شىء ألصقته إلصاقا شديدا فقد لبّدته، و يقال للشّعر الّذى على ظهر الأسد:
لبدة، و جمعها لبد، و يقال للجراد الكثير: لبد؛ و يطلق اللّبد بضم اللام و فتح الباء على الشىء الدائم، و منه قيل لنسر لقمان لبد لطول بقائه، و هو المقصود بقول النابغة:
أخنى عليها الّذى أخنى على لبد «٣» قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي أى: قال عبد اللّه إنما أدعو ربى و أعبده وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً من خلقه.
قرأ الجمهور: قال و قرأ عاصم و حمزة «قل» على الأمر. و سبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: إنك جئت بأمر عظيم، و قد عاديت الناس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نجيرك قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً أى: لا أقدر أن أدفع عنكم ضرّا، و لا أسوق إليكم خيرا، و قيل: الضرّ: الكفر، و الرشد: الهدى، و الأوّل أولى لوقوع النكرتين فى سياق النفى، فهما يعمّان كل ضرر و كل رشد فى الدنيا و الدين قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ أى: لا يدفع عنى أحد عذابه إن أنزله بى وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً أى: ملجأ و معدلا و حرزا، و الملتحد معناه فى اللغة: الممال؛ أى: موضعا أميل إليه. قال قتادة:
مولى. و قال السدّى: حرزا، و قال الكلبى: مدخلا فى الأرض مثل السّرب، و قيل: مذهبا و مسلكا،

---

(١). «بطن نخلة»: موضع بين مكة و الطائف.

(٢). البلد: ۶.

(٣). و صدره: أضحت خلاء و أضحى أهلها احتملوا.

و المعنى متقارب، و منه قول الشاعر:
يا لهف نفسى و لهفى غير مجدية عنّى و ما من قضاء اللّه ملتحد
و الاستثناء فى قوله: إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ هو من قوله لا أملك، أى: لا أملك ضرّا و لا رشدا إلا التبليغ من اللّه، فإن فيه أعظم الرشد، أو من ملتحدا، أى: لن أجد من دونه إلا التبليغ. قال مقاتل: ذلك الّذى يجيرنى من عذابه. و قال قتادة: إلا بلاغا من اللّه، فذلك الّذى أملكه بتوفيق اللّه، فأما الكفر و الإيمان فلا أملكهما. قال الفراء: لكن أبلغكم ما أرسلت به، فهو على هذا منقطع. و قال الزجاج: هو منصوب على البدل من قوله: مُلْتَحَداً أى: و لن أجد من دونه ملتحدا؛ إلا أن أبلغ ما يأتى من اللّه، و قوله:
وَ رِسالاتِهِ معطوف على بلاغا، أى: إلا بلاغا من اللّه و إلا رسالاته التى أرسلنى بها إليكم، أو إلا أن أبلغ عن اللّه و أعمل برسالاته، فآخذ نفسى بما آمر به غيرى. و قيل: الرسالات معطوفة على الاسم الشريف، أى: إلا بلاغا عن اللّه و عن رسالاته، كذا قال أبو حيان و رجّحه وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فى الأمر بالتوحيد لأنّ السياق فيه فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ قرأ الجمهور بكسر إن؛ على أنها جملة مستأنفة. و قرئ بفتح الهمزة؛ لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء، و التقدير: فجزاؤه أن له نار جهنم، أو: فحكمه أن له نار جهنم، و انتصاب خالِدِينَ فِيها على الحال، أى: فى النار أو فى جهنم، و الجمع باعتبار معنى من كما أن التوحيد فى قوله: فَإِنَّ لَهُ باعتبار لفظها، و قوله: أَبَداً تأكيد لمعنى الخلود، أى: خالدين فيها بلا نهاية حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ يعنى من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة. و المعنى: لا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر و عداوة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و المؤمنين؛ حتى إذا رأوا الّذى يوعدون به فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً أى: من هو أضعف جندا ينتصر به و أقلّ عددا، أهم أم

المؤمنون؟ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ ما تُوعَـدُونَ أى: ما أدرى أ قريب حصول ما توعدون من العذاب أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً أى: غاية و مـدّة، أمره اللّه سبحانه أن يقول لهم هـذا القول لما قالوا له: متى يكون هـذا الّذى توعدنا به؟ قال عطاء: يريد أنه لا يعرف يوم القيامة إلا اللّه وحده، و المعنى أن علم وقت العذاب علم غيب لا يعلمه إلا اللّه. قرأ الجمهور رَبِّى بإسكان الياء. و قرأ الحرميان و أبو عمرو بفتحها.

و مَنْ فى مَنْ أَضْعَفُ موصولـة، و أضعف خبر مبتدأ محذوف، أى: هو أضعف، و الجملـة صلـة الموصول، و يجوز أن تكون استفهامية مرتفعة على الابتداء، و أضعف: خبرها. و الجملة فى محل نصب سادة مسدّ مفعولى «أدرى»، و قوله: أَ قَرِيبٌ خبر مقدّم وَ ما تُوعَـدُونَ مبتدأ مؤخر عالِمُ الْغَيْبِ قرأ الجمهور بالرفع على أنه بـدل من «ربى»، أو بيان له، أو خبر مبتـدأ محذوف، و الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من عـدم الدراية. و قرئ بالنصب على المدح. و قرأ السرىّ «علم الغيب» بصيغة الفعل و نصب الغيب، و الفاء فى فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَـداً لترتيب عدم الإظهار على تفرّده بعلم الغيب، أى: لا يطلع على الغيب الّذى يعلمه، و هو ما غاب عن العباد، أحـدا منهم، ثم استثنى فقـال: إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ أى: إلا من اصطفاه من الرسل، أو من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه؛ ليكون ذلك دالّا

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٧٣

على نبوّته. قال القرطبى: قال العلماء: لمّا تمـدّح سبحانه بعلم الغيب، و استأثر به دون خلقه، كان فيه دليل أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضـى من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحى إليهم، و جعله معجزة لهم، و دلالـة صادقـة على نبوّتهم، و ليس المنجم و من ضاهاه ممّن يضرب بالحصى، و ينظر فى الكتب، و يزجر بالطير، ممّن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه، فهو كافر باللّه، مفتر عليه بحدسه و تخمينه و كذبه. و قال سعيد بن جبير: إلا من ارتضى من رسول هو جبريل، و فيه بعد. و قيل:

المراد بقوله: إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فإنه يطلعه على بعض غيبه، و هو مـا يتعلّق برسالته كـالمعجزة و أحكام التكاليف و جزاء الأعمال و ما يبينه من أحوال الآخرة، لا ما لا يتعلّق برسالته من الغيوب، كوقت قيام الساعـة و نحوه. قال الواحدى: و فى هذا دليل على أنّ مـن ادّعى أن النجوم تـدلّه على مـا يكـون مـن حـادث فقـد كفر بمـا فى القرآن. قـال فى الكشاف: و فى هـذا إبطـال للكرامـات؛ لأن الـذين تضاف إليهم و إن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل، و قـد خصّ اللّه الرسل من بين المرتضـين بالاطلاع على الغيب، و إبطـال للكهانـة و التنجيم؛ لأن أصـحابهما أبعـد شىء من الارتضاء، و أدخله فى السّخط. قال الرازى: و عنـدى لا دلالـة فى الآيـة على شـىء مما قالوه؛ إذ لا صيغة عموم فى غيبه، فتحمل على غيب واحد و هو وقت القيامة لأنه واقع بعد قوله: أَ قَرِيبٌ ما تُوعَـدُونَ الآيـة. فإن قيل: فما معنى الاستثناء حينئـذ؟ قلنا: لعلّه إذا قربت القيامة يظهره، و كيف لا؟ و قد قال: يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا «١» فتعلم الملائكة حينئذ قيام القيامة، أو هو استثناء منقطع، أى: من ارتضاه من رسول يجعل من بين يديه، و من خلفه حفظة؛ يحفظونه من شرّ مردة الجنّ و الإنس. و يدلّ على أنه ليس المراد به لا يطلع أحدا على شىء من المغيبات أنه ثبت كما يقارب التواتر أن شقّا و سطيحا كانا كاهنين، و قد عرفا بحديث النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قبل ظهوره، و كانا مشهورين بهذا العلم عند العرب حتى رجع إليهما كسرى. فثبت أن اللّه تعالى قد يطلع غير الرسل على شىء من المغيبات، و أيضا أطبق أهل الملل على أن معبر الرؤيا يخبر عن أمور مستقبلة، و يكون صادقا فيها، و أيضا قـد نقل السلطان سنجر بن ملك شاه كاهنة من بغداد إلى خراسان، و سألها عن أمور مستقبلة، فأخبرته بها، فوقعت على وفق كلامها. قال: و أخبرنى ناس محققون فى علم الكلام و الحكمـة أنها أخبرت عن أمور غائبـة بالتفصيل، فكانت على وفق خبرها. و بالغ أبو البركات فى كتاب «التعبير» فى شـرح حالهـا و قـال: فحصت عن حالهـا ثلاثين سنة، فتحققت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخبارا مطابقا. و أيضا فإنا نشاهد

ذلک فی أصحاب الإلهامات الصادقة، و قد یوجد ذلک فی السحرة أیضا، و قد نری الأحکام النجومیة مطابقة و إن کانت قد تتخلف، و لو قلنا:

إن القرآن یدل علی خلاف هذه الأمور المحسوسة؛ لتطرّق الطعن إلی القرآن، فیکون التأویل ما ذکرنا، انتهی کلامه.

قلت: أما قوله: إذ لا صیغة عموم فی غیبه، فباطل، فإن إضافة المصدر و اسم الجنس من صیغ العموم

---

(۱). الفرقان: ۲۵.

فتح القدیر، ج۵، ص: ۳۷۴

کما صرّح به أئمة الأصول و غیرهم. و أما قوله: أو هو استثناء منقطع فمجرّد دعوی یأباه النظم القرآنی.

و أما قوله: إن شقّا و سطیحا إلخ، فقد کانا فی زمن تسترق فیه الشیاطین السمع، و یلقون ما یسمعونه إلی الکهان، فیخلطون الصّدق بالکذب، کما ثبت فی الحدیث الصحیح. و فی قوله: إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ «۱» و نحوها من الآیات، فباب الکهانة قد ورد بیانه فی هذه الشریعة، و أنه کان طریقا لبعض الغیب بواسطة استراق الشیاطین؛ حتی منعوا ذلک بالبعثة المحمدیة. و قالوا: أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِیداً وَ شُهُباً- وَ أَنَّا کُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ یَسْتَمِعِ الْآنَ یَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً «۲» فباب الکهانة فی الوقت الّذی کانت فیه مخصوص بأدلته، فهو من جملة ما یخصص به هذا العموم، فلا یرد ما زعمه من إیراد الکهانة علی هذه الآیة. و أما حدیث المرأة الّذی أورده فحدیث خرافة، و لو سلّم وقوع شیء مما حکاه عنها من الأخبار لکان من باب ما ورد فی الحدیث: «إن فی هذه الأمة محدّثین و إن منهم عمر»، فیکون کالتخصیص لعموم هذه الآیة لا انقضاء لها، و أما ما اجترأ به علی اللّه و علی کتابه من قوله فی آخر کلامه؛ فلو قلنا: إن القرآن یدلّ علی خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلی القرآن، فیقال له:

ما هذه بأوّل زلّة من زلاتک، و سقطة من سقطاتک، و کم لها لدیک من أشباه و نظائر، نبض بها عرق فلسفتک، و رکض بها الشیطان الّذی صار یتخبطک فی مباحث تفسیرک، یا عجبا لک أ یکون ما بلغک من خبر هذه المرأة و نحوه موجبا لتطرّق الطعن إلی القرآن؟! و ما أحسن ما قاله بعض أدباء عصرنا:

و إذا رامت الذبابة للشّمس غطاء مدّت علیها جناحا

و قلت من أبیات:

مهبّ ریاح سدّه بجناحو قابل بالمصباح ضوء صباح

فإن قلت: إذن قد تقرّر بهذا الدلیل القرآنی أن اللّه یظهر من ارتضی من رسله علی ما شاء من غیبه، فهل للرسول الّذی أظهره اللّه علی ما شاء من غیبه أن یخبر به بعض أمته؟ قلت: نعم و لا مانع من ذلک.

و قد ثبت عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم من هذا ما لا یخفی علی عارف بالسّنّة المطهرة، فمن ذلک ما صحّ أنه قام مقاما أخبر فیه بما سیکون إلی یوم القیامة، و ما ترک شیئا ممّا یتعلّق بالفتن و نحوها، حفظ ذلک من حفظه، و نسیه من نسیه، و کذلک ما ثبت من أن حذیفة بن الیمان کان قد أخبره رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم بما یحدث من الفتن بعده، حتی سأله عن ذلک أکابر الصحابة و رجعوا إلیه. و ثبت فی الصحیح و غیره «أن عمر بن الخطاب سأله عن الفتنة التی تموج کموج البحر، فقال: إن بینک و بینها بابا، فقال عمر: هل یفتح أو یکسر؟ فقال: بل یکسر، فعلم عمر أنه الباب، و أن کسره قتله» کما فی الحدیث الصحیح المعروف؛ أنه قیل لحذیفة: هل کان عمر یعلم ذلک؟ فقال: نعم کان یعلم أن دون غد اللیلة. و کذلک ما ثبت من إخباره لأبی ذرّ بما یحدث

(۱). الصافات: ۱۰.

(۲). الجن: ۸- ۹.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۷۵

له، و إخباره لعلىّ بن أبى طالب بخبر ذى الثدية، و نحو هذا مما يكثر تعدده، و لو جمع لجاء منه مصنف مستقلّ.

و إذا تقرّر هذا فلا مانع من أن يختصّ بعض صلحاء هذه الأمة بشىء من أخبار الغيب التى أظهرها اللّه لرسوله، و أظهرها رسوله لبعض أمته؛ و أظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم، فتكون كرامات الصالحين من هذا القبيل، و الكل من الفيض الرّبانى بواسطة الجناب النبوىّ.

ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الّذى يطلع عليه الرسول فقال: فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً و الجملة تقرير للإظهار المستفاد من الاستثناء، و المعنى: أنه يجعل سبحانه بين يدى الرسول و من خلفه حرسا من الملائكة يحرسونه من تعرّض الشياطين لما أظهره عليه من الغيب، أو يجعل بين يدى الوحى و خلفه حرسا من الملائكة يحوطونه من أن تسترقه الشياطين، فتلقيه إلى الكهنة، و المراد من جميع الجوانب.

قال الضحاك: ما بعث اللّه نبيا إلا و معه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك، فإذا جاءه شيطان فى صورة الملك قالوا: هذا شيطان فاحذره، و إن جاءه الملك قالوا: هذا رسول ربك. قال ابن زيد:

رَصَداً أى: حفظة يحفظون النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من أمامه و ورائه من الجنّ و الشياطين. قال قتادة و سعيد بن المسيب: هم أربعة من الملائكة حفظة. و قال الفراء: المراد جبريل. قال فى الصحاح: الرّصد: القوم يرصدون كالحرس، يستوى فيه الواحد و الجمع و المذكر و المؤنث، و الرصد للشىء: الراقب له، يقال: رصده يرصده رصدا و رصدا و الترصّد: الترقّب، و المرصد: موضع الرّصد لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ اللام متعلق بيسلك، و المراد به العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل، و أن هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن، و الخبر الجملة، و الرسالات: عبارة عن الغيب الّذى أريد إظهاره لمن ارتضاه اللّه من رسول، و ضمير «أبلغوا» يعود إلى الرصد. و قال قتادة و مقاتل: ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلّغ هو الرسالة، و فيه حذف تتعلق به اللام، أى: أخبرناه بحفظنا الوحى ليعلم أن الرسل قبله كانوا على حالته من التبليغ. و قيل: ليعلم محمد أن جبريل و من معه قد أبلغوا إليه رسالات ربه، قاله سعيد بن جبير. و قيل:

ليعلم الرسل أن الملائكة قد بلّغوا رسالات ربهم. و قيل: ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم من غير تخليط. و قال ابن قتيبة: أى ليعلم الجنّ أن الرسل قد أبلغوا ما أنزل إليهم، و لم يكونوا هم المبلغين باستراق السّمع عليهم. و قال مجاهد: ليعلم من كذب الرسل أن الرسل قد بلّغوا رسالات ربهم. قرأ الجمهور «ليعلم» بفتح التحتية على البناء للفاعل. و قرأ ابن عباس و مجاهد و حميد و يعقوب و زيد بن على بضمها على البناء للمفعول، أى: ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا. و قال الزجاج: ليعلم اللّه أن رسله قد أبلغوا رسالاته، أى: ليعلم ذلك عن مشاهدة كما علمه غيبا. و قرأ ابن أبى عبلة و الزهرى بضم الياء و كسر اللام وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ أى: بما عنده الرصد من الملائكة، أو بما عند الرسل المبلّغين لرسالاته، و الجملة فى محل نصب على الحال من فاعل يسلك بإضمار قد، أى: و الحال أنه تعالى قد أحاط بما لديهم من الأحوال. قال سعيد ابن جبير: ليعلم أن ربهم قد أحاط بما لديهم فبلغوا رسالاته وَ أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً من جميع الأشياء التى كانت و التى ستكون، و هو معطوف على أحاط، و عددا يجوز أن يكون منتصبا على التمييز محوّلا من المفعول

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۷۶

به، أی: و أحصی عدد کل شیء، کما فی قوله: وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً و يجوز أن يکون منصوبا علی المصدرية، أو فی موضع الحال: معدودا، و المعنی: أن علمه سبحانه بالأشياء ليس علی وجه الإجمال، بل علی وجه التفصيل، أی: أحصی کلّ فرد من مخلوقاته علی حدة.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الْقاسِطُونَ العادلون عن الحقّ. و أخرج ابن جرير عنه فی قوله: وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ قال: أقاموا ما أمروا به لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً قال: معينا.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن السدّی قال: قال عمر: وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ قال: حيثما کان الماء کان المال، و حيثما کان المال کانت الفتنة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ قال: لنبتليهم به. و فی قوله: وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً قال: مشقّة من العذاب يصعد فيها. و أخرج هناد و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاکم و صحّحه، عنه فی قوله: يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً قال: جبلا فی جهنم. و أخرج ابن جرير عنه أيضا عَذاباً صَعَداً قال: لا راحة فيه. و أخرج ابن أبی حاتم عنه أيضا فی قوله: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ قال: لم يکن يوم نزلت هذه الآية فی الأرض مسجد إلا مسجد الحرام، و مسجد إيلياء ببيت المقدس. و أخرج ابن مردويه، و أبو نعيم فی الدلائل، عن ابن مسعود قال: «خرج رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم قبل الهجرة إلی نواحی مکة فخطّ لی خطا، و قال: لا تحدثن شيئا حتی آتيک» ثم قال: «لا يهولنک شیء تراه» فتقدم شيئا؛ ثم جلس فإذا رجال سود کأنهم رجال الزطّ، و کانوا کما قال اللّه تعالی: كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فی الآية قال: «لما سمعوا النبی صلّی اللّه عليه و سلّم يتلو القرآن کادوا يرکبونه من الحرص لما سمعوه، و دنوا منه فلم يعلم بهم حتی أتاه الرسول، فجعل يقرئه: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ و أخرج عبد بن حميد و الترمذی و ابن جرير، و الحاکم و صحّحه، و ابن مردويه، و الضياء فی المختارة، عنه أيضا فی الآية قال: «لما أتی الجنّ إلی رسول اللّه و هو يصلی بأصحابه يرکعون برکوعه و يسجدون بسجوده، فعجبوا من طواعية أصحابه، فقالوا لقومهم لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ أی: يدعو اللّه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً قال: أعوانا. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عنه أيضا فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً- إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ قال: أعلم اللّه الرسل من الغيب الوحی، و أظهرهم عليه، ممّا أوحی إليهم من غيبه، و ما يحکم اللّه، فإنه لا يعلم ذلک غيره. و أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردويه عنه أيضا رَصَداً قال: هی معقبات من الملائکة يحفظون رسول اللّه من الشياطين حتی يبيّن الّذی أرسل إليهم به، و ذلک حتی يقول أهل الشرک قد أبلغوا رسالات ربهم. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: ما أنزل اللّه علی نبيه آية من القرآن إلا و معها أربعة من الملائکة يحفظونها؛ حتی يؤدّوها إلی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم، ثم قرأ: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً- إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً يعنی الملائکة الأربعة لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۷۷

سورة المزّمّل

اشارة

هی تسع عشرة آية، و قيل عشرون آية و هی مکية. قال الماوردی: کلها فی قول الحسن و عکرمة و جابر، قال: و قال ابن عباس و قتادة: إلا آيتين منها وَ اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ «۱» و التی تليها. و قال الثعلبی: إلا قوله: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ «۲» إلی آخر

السورة، فإنه نزل بالمدينة. و أخرج ابن الضريس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة المزّمل بمكة إلا آيتين «٣» إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى «۴». و أخرج البزار، و الطبرانى فى الأوسط، و أبو نعيم فى الدلائل، عن جابر قال: اجتمعت قريش فى دار الندوة، فقالوا: سمّوا هذا الرجل اسما تصدّون الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن؛ قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون؛ قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، فتفرّق المشركون على ذلك، فبلغ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فتزمّل فى ثيابه و تدثر فيها، فأتاه جبريل، فقال: يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ «۵» يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ «۶» قال البزار: بعد إخراجه من طريق معلى بن عبد الرّحمن: إن معلى قد حدّث عنه جماعة من أهل العلم و احتملوا حديثه، لكنه إذا تفرّد بالأحاديث لا يتابع عليها. و أخرج أبو داود، و البيهقى فى السنن، عن ابن عباس قال: «بتّ عند خالتى ميمونة، فقام النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى من الليل، فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر، فحزرت قيامه فى كل ركعة بقدر يا أيها المزّمّل».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المزمل (٧٣): الآيات ١ الى ١٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (۴)

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (۵) إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلاً (۶) إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً (٧) وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (٩)

وَ اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (١٠) وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَ جَحِيماً (١٢) وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ وَ عَذاباً أَلِيماً (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً (١۴)

إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١۵) فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلاً (١۶) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (١٧) السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (١٨)

---

(١). المزمل: ١٠.

(٢). المزمل: ٢٠.

(٣). كذا فى الأصل، و الصواب: آية.

(۴). المزمل: ٢٠.

(۵). المزمل: ١.

(۶). المدثر: ١.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ٣٧٨

قوله: يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ أصله المتزمل؛ فأدغمت التاء فى الزاى، و التزمّل: التلفّف فى الثوب. قرأ الجمهور: «المزمل» بالإدغام. و قرأ أبى: «المتزمّل» على الأصل. و قرأ عكرمة بتخفيف الزاى، و مثل هذه القراءة قول امرئ القيس:

كأن ثبيرا فى أفانين و بله كبير أناس فى بجاد مزمّل

و هذا الخطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و قد اختلف فى معناه، فقال جماعة: إنه كان يتزمل صلّى اللّه عليه و سلّم بثيابه فى

أوّل ما جاءه جبريل بالوحى فرقا منه حتى أنس به، و قيل: المعنى: يا أيها المزمل بالنبوّة و الملتزم للرسالة. و بهذا قال عكرمة و كان يقرأ يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ بتخفيف الزاى و فتح الميم مشدّدة اسم مفعول. و قيل المعنى: يا أيها المزمل بالقرآن. و قال الضحاك: تزمل بثيابه لمنامه، و قيل: بلغه من المشركين سوء قول، فتزمّل فى ثيابه و تدثر، فنزلت يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ و يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. و قد ثبت أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم لما سمع صوت الملك و نظر إليه أخذته الرّعدة، فأتى أهله و قال: زملونى دثرونى، و كان خطابه صلّى اللّه عليه و سلّم بهذا الخطاب فى أول نزول الوحى.

ثم بعد ذلك خوطب بالنبوّة و الرسالة. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا أى: قم للصلاة فى الليل. قرأ الجمهور:

قُمِ بكسر الميم لالتقاء الساكنين. و قرأ أبو السّمّال بضمها اتباعا لضمة القاف. قال عثمان بن جنّى:

الغرض بهذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين، فبأىّ حركة تحرك فقد وقع الغرض. و انتصاب الليل على الظرفية. و قيل: إن معنى قم: صلّ، عبّر به عنه و استعير له. و اختلف: هل كان هذا القيام الّذى أمر به فرضا عليه أو نفلا؟ و سيأتى إن شاء اللّه ما روى فى ذلك. و قوله: إِلَّا قَلِيلًا استثناء من الليل، أى:

صلّ الليل كلّه إلا يسيرا منه، و القليل من الشىء: هو ما دون النصف، و قيل: ما دون السدس. و قيل:

ما دون العشر. و قال مقاتل و الكلبى: المراد بالقليل هنا الثلث، و قد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله:

نِصْفَهُ إلخ، و انتصاب «نصفه» على أنه بدل من الليل. قال الزجاج: «نصفه» بدل من الليل، و «إلا قليلا» استثناء من النصف، و الضمير فى «منه» و «عليه» عائد إلى النصف. و المعنى: قم نصف الليل، أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث، أو زد عليه قليلا إلى الثلثين، فكأنه قال: قم ثلثى الليل، أو نصفه، أو ثلثه. و قيل: إن «نصفه» بدل من قوله «قليلا»، فيكون المعنى: قم الليل إلا نصفه، أو أقلّ من نصفه، أو أكثر من نصفه، قال الأخفش: نِصْفَهُ أى: أو نصفه، كما يقال: أعطه درهما، درهمين، ثلاثة، يريد أو درهمين أو ثلاثة. قال الواحدى: قال المفسرون: أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث، أو زد على النصف إلى الثلثين، جعل له سعة فى مدة قيامه فى الليل، و خيّره فى هذه الساعات للقيام، فكان النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم و طائفة معه يقومون على هذه المقادير، و شقّ ذلك عليهم، فكان الرجل لا يدرى كم صلّى، أو كم بقى من الليل، فكان يقوم الليل كلّه حتى خفّف اللّه عنهم، و قيل: الضميران فى «منه» و «عليه» راجعان للأقل من النصف، كأنه قال: قم أقل من نصفه، أو قم أنقص من ذلك الأقلّ، أو أزيد منه قليلا، و هو بعيد جدّا، و الظاهر أن «نصفه» بدل من «قليلا»، و الضميران راجعان إلى النصف المبدل من «قليلا».

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۷۹

و اختلف فى الناسخ لهذا الأمر، فقيل: هو قوله: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ «۱» إلى آخر السورة، و قيل: هو قوله: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ «۲» و قيل: هو قوله: عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى «۳» و قيل: هو منسوخ بالصلوات الخمس، و بهذا قال مقاتل و الشافعى و ابن كيسان، و قيل: هو قوله: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ «۴» و ذهب الحسن و ابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم و لو قدر حلب شاة وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا أى: اقرأه على مهل مع تدبّر. قال الضحاك: اقرأه حرفا حرفا. قال الزجاج: هو أن يبيّن جميع الحروف، و يوفى حقها من الإشباع. و أصل الترتيل: التنضيد و التنسيق و حسن النظام، و تأكيد الفعل بالمصدر يدلّ على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض، و لا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم من استيفاء حركته المعتبرة إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا أى: سنوحى إليك القرآن، و هو قول ثقيل. قال قتادة: ثقيل و اللّه فرائضه و حدوده.

قال مجاهد: حلاله و حرامه. قال الحسن: العمل به. قال أبو العالية: ثقيلا بالوعد و الوعيد، و الحلال و الحرام. و قال محمد بن كعب: ثقيل على المنافقين و الكفار؛ لما فيه من الاحتجاج عليهم، و البيان لضلالهم، و سبّ آلهتهم. و قال السدّى: ثقيل بمعنى:

كريم، و من قولهم: فلان ثقيل عليّ، أى: يكرم عليّ، قال الفراء:
ثقيلا: رزينا ليس بالخفيف السّفساف؛ لأنه كلام ربّنا. و قال الحسين بن الفضل: ثقيلا لا يحمله إلا قلب مؤيّد بالتوفيق، و نفس مزيّنة بالتوحيد. و قيل: وصفه بكونه ثقيلا حقيقة لما ثبت أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا أوحى إليه و هو على ناقته وضعت جرانها «٥» على الأرض، فما تستطيع أن تتحرّك حتى يسرّى «٦» عنه إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ أى: ساعاته و أوقاته، لأنها تنشأ أوّلا فأولا، يقال: نشأ الشىء ينشأ؛ إذا ابتدأ و أقبل شيئا بعد شىء فهو ناشئ، و أنشأه اللّه فنشأ، و منه نشأت السحاب؛ إذا بدأت، فناشئة فاعلة من نشأت تنشأ فهى ناشئة. قال الزجاج: ناشئة الليل كل ما نشأ منه؛ أى حدث، فهو ناشئة. قال الواحدى: قال المفسرون: الليل كله ناشئة، و المراد أن ساعات الليل الناشئة، فاكتفى بالوصف عن الاسم الموصوف. و قيل:
إن ناشئة الليل هى النفس التى تنشأ من مضجعها للعبادة: أى تنهض، من نشأ من مكانه: إذا نهض. و قيل:
الناشئة بالحبشية قيام الليل، و قيل: إنما يقال لقيام الليل ناشئة إذا كان بعد نوم. قال ابن الأعرابى: إذا نمت من أوّل الليل ثم قمت فتلك المنشأة و النشأة، و منه: ناشئة الليل. قيل: و ناشئة الليل هى: ما بين المغرب و العشاء، لأن معنى نشأ ابتدأ، و منه قول نصيب:
و لو لا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسى النّشأ الصّغار
قال عكرمة و عطاء: إن ناشئة الليل: بدوّ الليل. و قال مجاهد و غيره: هى فى الليل كلّه؛ لأنه ينشأ بعد النهار، و اختار هذا مالك. و قال ابن كيسان: هى القيام من آخر الليل. قال فى الصحاح: ناشئة الليل أوّل

---

(١). المزمل: ٢٠.

(٢). المزمل: ٢٠.

(٣). المزمل: ٢٠.

(٤). المزمل: ٢٠.

(٥). «جرانها»: أى صدرها.

(٦). أى الوحى.

ساعاته. و قال الحسن: هى ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح. هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً قرأ الجمهور: وَطْئاً بفتح الواو و سكون الطاء، مقصورة، و اختار هذه القراءة أبو حاتم. و قرأ أبو العالية و ابن أبى إسحاق و مجاهد و أبو عمرو و ابن عامر و حميد و ابن محيصن و المغيرة و أبو حيوة بكسر الواو و فتح الطاء ممدودة، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، فالمعنى على القراءة الأولى: أن الصلاة فى ناشئة الليل أثقل على المصلى من صلاة النهار؛ لأن الليل للنوم. قال ابن قتيبة: المعنى أنها أثقل على المصلى من ساعات النهار، من قول العرب: اشتدّت على القوم وطأة السلطان؛ إذا ثقل عليهم ما يلزمهم منه، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «اللهمّ اشدد وطأتك على مضر». و المعنى على القراءة الثانية أنها أشدّ مواطأة، أى: موافقة، من قولهم: واطأت فلانا على كذا مواطأة و وطاء؛ إذا وافقته عليه. قال مجاهد و ابن أبى مليكة: أى أشد موافقة بين السمع و البصر و القلب و اللسان؛ لانقطاع الأصوات و الحركات فيها، و منه: لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ «١» أى: ليوافقوا. و قال الأخفش:
أشدّ قياما. و قال الفرّاء: أى أثبت للعمل، و أدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة، و الليل وقت الفراغ عن الاشتغال بالمعاش، فعبادته تدوم و لا تنقطع. و قال الكلبى: أشدّ نشاطا. وَ أَقْوَمُ قِيلًا أى: و أشدّ مقالا و أثبت قراءة؛ لحضور القلب فيها و هدوء الأصوات، و أشدّ استقامة و استمرارا على الصواب؛ لأن الأصوات فيها هادئة، و الدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلّى ما يقرؤه.

قال قتادة و مجاهد: أى أصوب للقراءة و أثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم. قال أبو علىّ الفارسى: أَقْوَمُ قِيلًا أى: أشدّ استقامة لفراغ البال بالليل.

قال الكلبى: أى: أبين قولا بالقرآن. و قال عكرمة: أى: أتمّ نشاطا و إخلاصا، و أكثر بركة. و قال ابن زيد: أجدر أن يتفقّه فى القرآن، و قيل: أعجل إجابة للدعاء. إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا قرأ الجمهور سَبْحاً بالحاء المهملة، أى: تصرفا فى حوائجك و إقبالا و إدبارا، و ذهابا و مجيئا، و السبح: الجرى و الدوران، و منه السابح فى الماء لتقلبه ببدنه و رجليه، و فرس سابح: أى: شديد الجرى. و قيل: السبح:

الفراغ، أى: إن لك فراغا بالنهار للحاجات؛ فصّل بالليل. قال ابن قتيبة: أى تصرّفا و إقبالا و إدبارا فى حوائجك و أشغالك. و قال الخليل: إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً أى: نوما، و التسبح: التمدّد. قال الزجاج: المعنى: إن فاتك فى الليل شىء فلك فى النهار فراغ للاستدراك. و قرأ يحيى بن يعمر و أبو وائل و ابن أبى عبلة سبخا بالخاء المعجمة، قيل: و معنى هذه القراءة: الخفة و السّعة و الاستراحة. قال الأصمعى:

يقال: سبّخ اللّه عنك الحمّى، أى: خفّفها، و سبخ الحرّ: فتر و خفّ، و منه قول الشاعر:

فسبّخ عليك الهمّ و اعلم بأنّهإذا قدّر الرّحمن شيئا فكائن

أى: خفف عنك الهمّ. و التسبيخ من القطن ما يسبّخ بعد النّدف. و منه قول الأخطل:

فأرسلوهنّ يذرين التراب كمايذرى سبائخ قطن ندف أوتار

قال ثعلب: السّبخ بالخاء المعجمة: التردّد و الاضطراب، و السّبخ: السكون. و قال أبو عمرو: السّبخ:

النوم و الفراغ وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ أى: ادعه بأسمائه الحسنى، و قيل: اقرأ باسم ربك فى ابتداء صلاتك،

---

(١). التوبة: ٣٧.

فتح القدير، ج‏5، ص: ٣٨١

و قيل: اذكر اسم ربك فى وعده و وعيده؛ لتوفّر على طاعته و تبعد عن معصيته، و قيل المعنى: دم على ذكر ربك ليلا و نهارا و استكثر من ذلك. و قال الكلبى: المعنى صلّ لربك. وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا أى: انقطع إليه انقطاعا بالاشتغال بعبادته، و التبتل: الانقطاع، يقال: بتلت الشى‏ء: أى قطعته و ميزته من غيره، و صدقة بتلة، أى: منقطعة من مال صاحبها، و يقال للراهب: متبتل؛ لانقطاعه عن الناس، و منه قول الشاعر «١»:

تضى‏ء الظّلام بالعشاء كأنّهامنارة ممسى راهب «٢» متبتّل.

و وضع تبتيلا مكان تبتلا لرعاية الفواصل. قال الواحدى: و التبتل: رفض الدنيا و ما فيها، و التماس ما عند اللّه. رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ قرأ حمزة و الكسائى و أبو بكر و ابن عامر بجرّ «ربّ» على النعت «لربك» أو البدل منه، أو البيان له. و قرأ الباقون برفعه على أنه مبتدأ و خبره لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو ربّ المشرق. و قرأ زيد بن علىّ بنصبه على المدح. و قرأ الجمهور: الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ مفردين، و قرأ ابن مسعود و ابن عباس «المشارق و المغارب» على الجمع، و قد قدّمنا تفسير المشرق و المغرب، و المشرقين و المغربين، و المشارق و المغارب فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا أى: إذا عرفت أنه المختصّ بالربوبية فاتخذه وكيلا، أى: قائما بأمورك، و عوّل عليه فى جميعها، و قيل: كفيلا بما وعدك من الجزاء و النصر وَ اصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ من الأذى و السب و الاستهزاء، و لا تجزع من ذلك وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا أى: لا تتعرّض لهم، و لا تشتغل بمكافأتهم، و قيل: الهجر الجميل: الّذى لا جزع فيه، و هذا كان قبل الأمر بالقتال وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أى: دعنى و إيّاهم، و لا تهتم بهم، فإنى أكفيك

أمرهم، و أنتقم لـك منهم. قيـل: نزلت فى المطعمين يوم بـدر، و هم عشرة، و قـد تقـدّم ذكرهم. و قـال يحيى بن سـلّام: هم بنو المغيرة. و قال سعيد بن جبير: أخبرت أنهم اثنا عشر. أُولِي النَّعْمَةِ أى: أرباب الغنى و السعة و الترفّه و اللذة فى الدنيا وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا أى: تمهيلا ـ قليلا ـ على أنه نعت لمصـدر محـذوف، أو زمانـا قليلا ـ على أنه صـفة لزمان محـذوف، و المعنى: أمهلهم إلى انقضاء آجـالهم، و قيـل: إلى نزول عقوبـة الـدنيا بهم كيوم بـدر، و الأول أولى لقوله: إِنَّ لَـدَيْنا أَنْكالًا و ما بعـده، فإنه وعيـد لهم بعـذاب الآخرة، و الأنكال: جمع نكل، و هو القيد، كذا قال الحسن و مجاهد و غيرهما، و قال الكلبى: الأنكال: و الأغلال، و الأوّل أعرف فى اللغة، و منه قول الخنساء:

أتوك فقطّعت أنكالهم «٣»و قد كنّ قبلك لا تقطع

و قـال مقاتل: هى أنواع العـذاب الشديـد. و قال أبو عمران الجونى: هى قيود لا تحلّ وَ جَحِيماً أى: نارا مؤججـة وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ أى: لا يسوغ فى الحلق، بل ينشب فيه، فلا ينزل و لا يخرج.

---

(١). هو امرؤ القيس.

(٢). «ممسى راهب»: أى إمساؤه.

(٣). فى تفسير القرطبى (١٩/ ٤٦): دعاك فقطّعت أنكاله.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٨٢

قـال مجاهـد: هو الزّقّوم. و قـال الزجاج: هو الضـريع كمـا قال: لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَـرِيعٍ «١» قـال: و هو شوك العوسـج. قال عكرمـة: هو شوك يأخذ بالحلق لا يدخل و لا يخرج، و الغصّة: الشّجا فى الحلق، و هو ما ينشب فيه من عظم أو غيره، و جمعها: غصـص وَ عَـذاباً أَلِيماً أى: و نوعـا آخر من العـذاب غير مـا ذكر يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ انتصـاب الظرف إمـا بـذرنى، أو بالاسـتقرار المتعلّق به لـدينا، أو هو صـفة لعـذاب فيتعلق بمحـذوف، أى: عـذابا واقعـا يوم ترجف، أو متعلّق بأليمـا. قرأ الجمهور: تَرْجُفُ بفتح التاء و ضم الجيم مبنيا للفاعل، و قرأ زيد بن علىّ على البناء للمفعول، مأخوذ من أرجفها، و المعنى:

تتحرك و تضطرب بمن عليها، و الرجفة: الزلزلة و الرعدة الشديدة وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا أى:

و تكون الجبال، و إنمـا عبر عنه بالماضـى لتحقق وقوعه، و الكثيب: الرمـل المجتمع، و المهيـل: الّـذى يمرّ تحت الأرجـل. قـال الواحدى: أى رملا سائلا، يقال لكل شىء أرسلته إرسالا من تراب أو طعام: أهلته هيلا.

قال الضحاك و الكلبى: المهيل: الّذى إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها، و إذا أخذت أسفله انهال، و منه قول حسان:

عرفت ديار زينب بالكثيب كخطّ الوحى فى الورق القشيب «٢»

إِنَّا أَرْسَـلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِـداً عَلَيْكُمْ الخطاب لأهل مكة، أو لكفار العرب، أو لجميع الكفار، و الرسول محمد صـلّى اللّه عليه و سلّم، و المعنى: يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا يعنى موسى فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ الّذى أرسلناه إليه، و كـذّبه، و لم يؤمن بما جاء به، و محل الكاف النصب على أنها نعت لمصـدر محذوف، و المعنى: إنا أرسلنا إليكم رسولا فعصيتموه، كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصاه فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلًا أى: شديدا ثقيلا غليظا، و المعنى: عاقبنا فرعون عقوبة شديدة غليظة بالغرق؛ و فيه تخويف لأهل مكة أنه سينزل بهم من العقوبة مثل ما نزل به؛ و إن اختلف نوع العقوبة. قال الزجاج: أى ثقيلا غليظـا، و منه قيـل للمطر: وابـل. و قـال الأخفش: شديـدا، و المعنى متقـارب، و منه طعـام وبيـل؛ إذا كـان لا يسـتمرأ، و منه قول الخنساء:

لقد أكلت بجيلة يوم لاقتفوارس مالك أكلا وبيلا

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ أى: كيف تقون أنفسكم إِنْ كَفَرْتُمْ أى: إن بقيتم على كفركم يَوْماً أى: عذاب يوم يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً لشدّة هوله، أى: يصير الولدان شيوخا، و الشيب: جمع أشيب، و هذا يجوز أن يكون حقيقة، و أنهم يصيرون كذلک، أو تمثيلا؛ لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه، و ضعفت أعضاؤه، و صار كالشيخ فى الضعف و سقوط القوّة، و فى هذا تقريع لهم شديد و توبيخ عظيم. قال الحسن: أى كيف تتقون يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم، و كذا قرأ ابن مسعود و عطية، و «يوما» مفعول به لتتقون. قال ابن الأنبارى: و منهم من نصب اليوم بكفرتم، و هذا قبيح. و الولدان: الصبيان. ثم زاد فى

---

(١). الغاشية: ۶.

(٢). «الوحى»:- هنا- الكتابة. «القشيب»: الجديد.

فتح القدير، ج۵، ص: ٣٨٣

وصف ذلک اليوم بالشدّة فقال: السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ أى: متشققة به بشدّته و عظيم هوله، و الجملة صفة أخرى ليوم، و الباء سببية، و قيل: هى بمعنى فى، أى: منفطر فيه، و قيل: بمعنى اللام، أى: منفطر له، و إنما قال منفطر و لم يقل منفطرة لتنزيل السماء منزلة شىء لكونها قد تغيرت، و لم يبق منها إلا ما يعبّر عنه بالشىء.

و قال أبو عمرو بن العلاء: لم يقل منفطرة؛ لأن مجازها «١» السقف، كما قال الشاعر:

فلو رفع السّماء إليه قومالحقنا بالسّماء و بالسّحاب

فيكون هذا كما فى قوله: وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً و قال الفرّاء: السماء تذكّر و تؤنّث. و قال أبو علىّ الفارسى: هو من باب الجراد المنتشر، و الشجر الأخضر، و أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ «٢» قال أيضا: أى السماء ذات انفطار كقولهم: امرأة مرضع، أى: ذات إرضاع على طريق النسب، و انفطارها لنزول الملائكة، كما قال: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ «٣» و قوله: تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَ «۴» و قيل: منفطر به، أى: بالله، و المراد بأمره، و الأوّل أولى كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا أى:

و كان وعد الله بما وعد به من البعث و الحساب و غير ذلک كائنا لا محالة، و المصدر مضاف إلى فاعله، أو:

و كان وعد اليوم مفعولا، فالمصدر مضاف إلى مفعوله. و قال مقاتل: كان وعده أن يظهر دينه على الدّين كلّه.

و قد أخرج أحمد و مسلم و أبو داود و النسائى، و محمد بن نصر فى كتاب الصلاة، و البيهقى فى سننه، عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة: أنبئينى عن قيام رسول الله صلّى الله عليه و سلّم، قالت: أ لست تقرأ هذه السورة يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ «۵» قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل فى أوّل هذه السورة، فقام رسول الله صلّى الله عليه و سلّم و أصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم، و أمسک الله خاتمتها فى السماء اثنى عشر شهرا، ثم أنزل التخفيف فى آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوّعا من بعد فرضه» و قد روى هذا الحديث عنها من طرق.

و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و محمد بن نصر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس قال: لما نزلت أوّل المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان حتى نزل آخرها، و كان بين أوّلها و آخرها نحو من سنة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن نصر عن أبى عبد الرّحمن السّلمى قال: لما نزلت يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قاموا حولا حتى و رمت أقدامهم و سوقهم حتى نزلت: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ «۶» فاستراح الناس. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن نصر و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: فى المزمل قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا- نِصْفَهُ نسختها الآية التى فيها عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ و ناشئة الليل أوّله.

كانت صلاتهم أوّل الليل. يقول: هذا أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من قيام الليل، و ذلک أن الإنسان

(۱). «مجازها»: معناها.

(۲). القمر: ۲۰.

(۳). الانفطار: ۱.

(۴). الشورى: ۵.

(۵). المزمل: ۱.

(۶). المزمل: ۲۰.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۸۴

إذا نام لم يدر متى يستيقظ. و قوله: أَقْوَمُ قِيلًا هو أجدر أن يفقه قراءة القرآن، و قوله: إِنَّ لَکَ فِی النَّهارِ سَبْحاً طَوِیلًا يقول: فراغا طويلا. و أخرج الحاكم و صحّحه، عنه فى قوله: يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قال: زملت هذا الأمر فقم به. و أخرج ابن المنذر عنه فى الآية أيضا قال: يتزمل «۱» بالثياب. و أخرج الفريابى عن أبى صالح عنه أيضا وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا قال: تقرأ آيتين ثلاثا ثم تقطع لا تهدر. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد، و ابن منيع فى مسنده، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و محمد بن نصر عنه أيضا وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا قال: بيّنه تبيينا. و أخرج العسكرى فى المواعظ، عن علىّ بن أبى طالب مرفوعا نحوه.

و أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن نصر، و الحاكم و صحّحه، عن عائشة «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا أوحى إليه و هو على ناقته وضعت جرانها، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرّى عنه، و تلت: إِنَّا سَنُلْقِی عَلَیْکَ قَوْلًا ثَقِیلًا. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن نصر، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ ناشِئَةَ اللَّیْلِ قال: قيام الليل بلسان الحبشة، إذا قام الرجل قالوا:

نشأ. و أخرج البيهقى عنه قال ناشِئَةَ اللَّیْلِ أوّله. و أخرج ابن المنذر و ابن نصر عنه أيضا قال: الليل كله ناشئة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود قال: ناشِئَةَ اللَّیْلِ بالحبشة قيام الليل. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن نصر، و البيهقى فى سننه، عن أنس بن مالك قال: ناشِئَةَ اللَّیْلِ ما بين المغرب و العشاء. و أخرج عبد بن حميد و ابن نصر و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم فى الكنى، عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ لَکَ فِی النَّهارِ سَبْحاً طَوِیلًا قال: السبح: الفراغ للحاجة و النوم. و أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الدلائل، عن عائشة قالت: لما نزلت وَ ذَرْنِی وَ الْمُکَذِّبِینَ أُولِی النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِیلًا لم يكن إلا يسيرا حتى كانت وقعة بدر. و أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود إِنَّ لَدَیْنا أَنْکالًا قال: قيودا. و أخرج عبد بن حميد، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن ابن عباس وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ قال: شجرة الزقوم. و أخرج الحاكم و صحّحه عنه فى قوله: کَثِیباً مَهِیلًا قال: المهيل الّذى إذا أخذت منه شيئا تبعك آخره. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا کَثِیباً مَهِیلًا قال: الرمل السائل، و فى قوله: أَخْذاً وَبِیلًا قال: شديدا. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه أيضا «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ یَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِیباً قال: ذلك يوم القيامة، و ذلك يوم يقول اللّه لآدم: قم فابعث من ذريتك بعثا إلى النار، قال: من كم يا ربّ؟ قال: من كل ألف تسعمائة و تسعة و تسعين، و ينجو واحد، فاشتدّ ذلك على المسلمين، فقال حين أبصر ذلك فى وجوههم: إن بنى آدم كثير، و إن يأجوج و مأجوج من ولد آدم، إنه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه ألف رجل، ففيهم و فى أشباههم جنّة لكم». و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه بأخصر منه. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن

(۱). فى الدر المنثور (۸/ ۳۱۲): يتدثر.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۸۵

ابن عباس فى قوله: السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ قال: ممتلئة، بلسان الحبشة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: مثقلة موقرة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: يعنى تشقق السماء.

[سورة المزمل (۷۳): الآيات ۱۹ الى ۲۰]

إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (۱۹) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۰)

الإشارة بقوله: إِنَّ هذِهِ إلى ما تقدّم من الآيات. و التذكرة: الموعظة، و الإشارة إلى جميع آيات القرآن، لا إلى ما فى هذه السورة فقط فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا أى: اتخذ بالطاعة التى أهم أنواعها التوحيد إلى ربّه طريقا توصله إلى الجنة إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ معنى أدنى: أقلّ، استعير له الأدنى لأن المسافة بين الشّيئين إذا دنت قلّ ما بينهما وَ نِصْفَهُ معطوف على أدنى وَ ثُلُثَهُ معطوف على نصفه، و المعنى: أن اللّه يعلم أن رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم يقوم أقلّ من ثلثى الليل، و يقوم نصفه، و يقوم ثلثه، و بالنصب قرأ ابن كثير و الكوفيون، و قرأ الجمهور: وَ نِصْفِهِ وَ ثُلُثِهِ بالجرّ، عطفا على ثلثى الليل، و المعنى: أن اللّه يعلم أن رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم يقوم أقلّ من ثلثى الليل، و أقلّ من نصفه، و أقلّ من ثلثه، و اختار قراءة الجمهور أبو عبيد و أبو حاتم لقوله: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فكيف يقومون نصفه و ثلثه و هم لا يحصونه.

و قال الفرّاء: القراءة الأولى أشبه بالصواب؛ لأنه قال: أقلّ من ثلثى الليل، ثم فسر القلة. وَ طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ معطوف على الضمير فى تقوم، أى: و تقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحابك وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ أى: يعلم مقادير الليل و النهار على حقائقها، و يختصّ بذلك دون غيره؛ و أنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة. قال عطاء: يريد لا يفوته علم ما تفعلون، أى: أنه يعلم مقادير الليل و النهار، فيعلم قدر الّذى تقومونه من الليل عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ أن لن تطيقوا علم مقادير الليل و النهار على الحقيقة، و فى «أن» ضمير شأن محذوف، و قيل المعنى: لن تطيقوا قيام الليل. قال القرطبى: و الأوّل أصحّ؛ فإن قيام الليل ما فرض كله قط. قال مقاتل و غيره: لما نزل: قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا- نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا- أَوْ زِدْ عَلَيْهِ شقّ ذلك عليهم، و كان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ، فانتفخت أقدامهم و انتقعت ألوانهم، فرحمهم اللّه، و خفّف عنهم، فقال: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ أى: علم أن لن تحصوه؛ لأنكم إن زدتم ثقل عليكم، و احتجتم إلى تكلّف ما ليس فرضا، و إن نقصتم شقّ ذلك عليكم فَتابَ عَلَيْكُمْ أى: فعاد عليكم بالعفو، و رخص لكم فى ترك القيام. و قيل: فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم، و أصل التوبة: الرجوع، كما تقدّم؛ فالمعنى: رجع بكم من التثقيل إلى التخفيف، و من العسر إلى اليسر فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ أى: فاقرؤوا فى الصلاة بالليل ما خفّ عليكم و تيسّر لكم منه؛

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۸۶

من غير أن ترقبوا وقتا. قال الحسن: هو ما نقرأ فى صلاة المغرب و العشاء. قال السدّى: ما تيسّر منه هو مائة آية. قال الحسن: أيضا

من قرأ مائة آية فى ليلة لم يحاجه القرآن: و قال كعب: من قرأ فى ليلة مائة آية كتب من القانتين، و قال سعيد: خمسون آية، و قيل: معنى فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ فصلوا ما تيسّر لكم من صلاة الليل، و الصلاة تسمّى قرآنا كقوله: وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ «١» قيل: إنّ هذه الآية نسخت قيام الليل و نصفه، و النقصان من النصف، و الزيادة عليه. فيحتمل أن يكون ما تضمّنته هذه الآية فرضا ثابتا، و يحتمل أن يكون منسوخا لقوله: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً «٢».

قال الشافعى: الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين، فوجدنا سنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تدلّ على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس. و قد ذهب قوم إلى أن قيام الليل نسخ فى حقه صلّى اللّه عليه و سلّم و فى حق أمته. و قيل: نسخ التقدير بمقدار، و بقى أصل الوجوب. و قيل: إنه نسخ فى حق الأمة، و بقى فرضا فى حقه صلّى اللّه عليه و سلّم، و الأولى القول بنسخ قيام الليل على العموم فى حقه صلّى اللّه عليه و سلّم و فى حق أمته، و ليس فى قوله: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ ما يدل على بقاء شىء من الوجوب؛ لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن فقد وجدت فى صلاة المغرب و العشاء و ما يتبعهما من النوافل المؤكدة، و إن كان المراد به الصلاة من الليل؛ فقد وجدت صلاة الليل بصلاة المغرب و العشاء و ما يتبعهما من التطوّع. و أيضا الأحاديث الصحيحة المصرّحة بقول السائل لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هل علىّ غيرها؟ يعنى الصلوات الخمس فقال: «لا، إلا أن تطوّع» تدل على عدم وجوب غيرها، فارتفع بهذا وجوب قيام الليل و صلاته على الأمة، كما ارتفع وجوب ذلك على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بقوله:

وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ «٣» قال الواحدى: قال المفسرون فى قوله: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ كان هذا فى صدر الإسلام، ثم نسخ بالصلوات الخمس عن المؤمنين، و ثبت على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة، و ذلك قوله: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ. ثم ذكر سبحانه عذرهم فقال: عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى فلا يطيقون قيام الليل وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أى: يسافرون فيها للتجارة و الأرباح يطلبون من رزق اللّه ما يحتاجون إليه فى معاشهم، فلا يطيقون قيام الليل وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يعنى المجاهدين فلا يطيقون قيام الليل. ذكر سبحانه ها هنا ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص، و رفع وجوب قيام الليل، فرفعه عن جميع الأمة لأجل هذه الأعذار التى تنوب بعضهم. ثم ذكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص فقال: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ و قد سبق تفسيره قريبا، و التكرير للتأكيد وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ يعنى المفروضة، و هى الخمس لوقتها وَ آتُوا الزَّكاةَ يعنى الواجبة فى الأموال. و قال الحارث العكلى: هى صدقة الفطر؛ لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك، و قيل: صدقة التطوّع، و قيل: كل أفعال الخير وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً أى: أنفقوا فى سبيل الخير من أموالكم إنفاقا حسنا. و قد مضى تفسيره فى سورة الحديد.

قال زيد بن أسلم: القرض الحسن: النفقة على الأهل، و قيل: النفقة فى الجهاد، و قيل: هو إخراج الزكاة

---

(١). الإسراء: ٧٨.

(٢). الإسراء: ٧٩.

(٣). الإسراء: ٧٩.

المفترضة على وجه حسن، فيكون تفسيرا لقوله: وَ آتُوا الزَّكاةَ و الأوّل أولى لقوله: وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ فإن ظاهره العموم، أى: أىّ خير كان ممّا ذكر و ممّا لم يذكر هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً مما تؤخّرونه إلى عند الموت، أو توصون به ليخرج بعد موتكم، و انتصاب خيرا على أنه ثانى مفعولى تجدوه، و ضمير هو ضمير فصل، و بالنصب قرأ الجمهور، و قرأ أبو السّمّال و ابن السّميقع بالرفع على أن يكون هو مبتدأ، و خير خبره، و الجملة فى محل نصب على أنها ثانى مفعولى تجدوه، قال

أبو زيد: و هى لغة تميم يرفعون ما بعد ضمير الفصل، و أنشد سيبويه:

تحنّ إلى ليلى و أنت تركتهاو كنت عليها بالملاء أنت أقدر

و قرأ الجمهور أيضا: وَ أَعْظَمَ بالنصب عطفا على خيرا: و قرأ أبو السّمّال و ابن السّميقع بالرفع، كما قرأ برفع خَيْرٍ و انتصاب أَجْراً على التميز وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ أى: اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم؛ فإنكم لا تخلون من ذنوب تقترفونها إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير المغفرة لمن استغفره، كثير الرحمة لمن استرحمه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و الطبرانى عن ابن عباس عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ قال: مائة آية. و أخرج الدار قطنى، و البيهقى فى سننه، و حسّناه، عن قيس بن أبى حازم قال: «صليت خلف ابن عباس، فقرأ فى أوّل ركعة بالحمد للّه ربّ العالمين، و أوّل آية من البقرة ثم ركع، فلما انصرفنا أقبل علينا فقال: إن اللّه يقول: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ قال ابن كثير: و هذا حديث غريب جدّا، لم أره إلّا فى معجم الطبرانى. و أخرج أحمد، و البيهقى فى سننه، عن أبى سعيد قال: «أمرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن نقرأ بفاتحة الكتاب و ما تيسّر». و قد قدّمنا فى البحث الأول من هذه السورة ما روى أن هذه الآيات المذكورة هنا هى الناسخة لوجوب قيام الليل، فارجع إليه.

فتح القدير، ج‏5، ص: 388

سورة المدّثر

اشارة

و هى مكية بلا خلاف و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة المدثر بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، و سيأتى أن أوّل هذه السورة أوّل ما نزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المدثر (74): الآيات 1 الى 30]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ (4)
وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7) فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9)
عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10) ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَ جَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً (12) وَ بَنِينَ شُهُوداً (13) وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14)
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلاَّ إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19)
ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ (23) فَقالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24)
إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ (27) لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29)
عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ (30)

قال الواحدى: قال المفسرون: لما بدئ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالوحى أتاه جبريل، فرآه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على سرير بين السماء و الأرض كالنور المتلألئ، ففزع و وقع مغشيّا عليه، فلما أفاق دخل على خديجة و دعا بماء فصبّه عليه، و

قال: «دثرونى دثرونى» فدثروه بقطيفة، فقال: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ- قُمْ فَأَنْذِرْ و معنى يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ: يا أيها الّذى قد تدثّر بثيابه، أى: تغشّى بها، و أصله المتدثر، فأدغمت التاء فى الدال لتجانسهما. و قد قرأ الجمهور بالإدغام، و قرأ أبىّ «المتدثر» على الأصل، و الدثار: هو ما يلبس فوق الشعار، و الشعار: هو الّذى على الجسد، و قال عكرمة: المعنى يا أيها المدّثّر بالنبوّة و أثقالها. قال ابن العربى: و هذا مجاز بعيد لأنه لم يكن نبيا إذ ذاك. قُمْ فَأَنْذِرْ أى: انهض فخوّف أهل مكة، و حذّرهم العذاب إن لم يسلموا، أو قم من مضجعك، أو قم قيام عزم و تصميم. و قيل: الإنذار هنا هو إعلامهم بنبوّته، و قيل:

إعلامهم بالتوحيد. و قال الفراء: المعنى قم فصلّ و أمر بالصلاة وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ أى: و اختصّ سيدك و مالك و مصلح أمورك بالتكبير، و هو وصفه سبحانه بالكبرياء و العظمة، و أنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقده الكفار، و أعظم من أن يكون له صاحبة، أو ولد. قال ابن العربى: المراد به تكبير التقديس و التنزيه بخلع الأضداد و الأنداد و الأصنام، و لا يتخذ وليا غيره، و لا يعبد سواه، و لا يرى لغيره فعلا إلا له، و لا نعمة إلا منه. قال الزجاج: إن الفاء فى «فكبر» دخلت على معنى الجزاء كما دخلت فى «فأنذر». و قال ابن جنى: هو كقولك زيدا فاضرب، أى: زيدا اضرب، فالفاء زائدة وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ المراد بها الثياب

فتح القدير، ج‏5، ص: 389

الملبوسة على ما هو المعنى اللغوى، أمره اللّه سبحانه بتطهير ثيابه و حفظها عن النجاسات، و إزالة ما وقع فيها منها، و قيل: المراد بالثياب العمل، و قيل: القلب، و قيل: النفس، و قيل: الجسم، و قيل: الأهل، و قيل:

الدين، و قيل: الأخلاق. قال مجاهد و ابن زيد و أبو رزين: أى عملك فأصلح. و قال قتادة: نفسك فطهّر من الذنب، و الثياب عبارة عن النفس. و قال سعيد بن جبير: قلبك فطهر، و من هذا قول امرئ القيس:

فسلّى ثيابى من ثيابك تنسل «1» و قال عكرمة: المعنى البسها على غير غدرة و غير فجرة «2». و قال: أما سمعت قول الشاعر:

فإنّى بحمد اللّه لا ثوب فاجرلبست و لا من غدرة أتقنّع

و الشاعر هو غيلان بن سلمة الثقفى. و من إطلاق الثياب على النفس قول عنترة:

فشككت بالرّمح الطّويل ثيابهليس الكريم على القنا بمحرّم

و قول الآخر «3»:

ثياب بنى عوف طهارى نقيّة «4» و قال الحسن و القرظى: إن المعنى: و أخلاقك فطهر؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه، و منه قول الشاعر:

و يحيى لا يلام بسوء خلقو يحيى طاهر الأثواب حرّ

و قال الزجاج: المعنى و ثيابك فقصر؛ لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات إذا انجرّ على الأرض، و به قال طاوس، و الأوّل أولى لأنه المعنى الحقيقى. و ليس فى استعمال الثياب مجاز عن غيرها لعلاقة مع قرينة ما يدلّ على أنه المراد عند الإطلاق، و ليس فى مثل هذا الأصل، أعنى: الحمل على الحقيقة عند الإطلاق خلاف، و فى الآية دليل على وجوب طهارة الثياب فى الصلاة وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ الرجز معناه فى اللغة:

العذاب، و فيه لغتان كسر الراء و ضمّها، و سمّى الشرك و عبادة الأوثان رجزا لأنها سبب الرجز. قرأ الجمهور: الرجز بكسر الراء. و قرأ الحسن و مجاهد و عكرمة و حفص و ابن محيصن بضمها. و قال مجاهد و عكرمة: الرّجز الأوثان كما فى قوله: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ و به قال ابن زيد. و قال إبراهيم النخعى: الرجز: المأثم، و الهجر: الترك. و قال قتادة: الرجز: إساف و نائلة، و هما صنمان كانا عند البيت. و قال أبو العالية و الربيع و الكسائى: الرجز بالضم الوثن و بالكسر العذاب. و قال السدى: الرّجز بضم الراء الوعيد، و الأوّل أولى وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ قرأ الجمهور لا تَمْنُنْ بفك الإدغام، و قرأ الحسن

(۱). و صدر البيت: و إن كنت قد ساءتک منّى خليقة.

(۲). «الفجرة»: الكذبة العظيمة.

(۳). هو ابن أبى كبشة، و ينسب لامرئ القيس.

(۴). و عجز البيت: و أوجههم بيض المسافر غرّان.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۹۰

و أبو اليمان «۱» و الأشهب العقيلى بالإدغام، و قرأ الجمهور: تَسْتَكْثِرُ بالرفع على أنه حال، أى: و لا تمنن حال كونک مستكثرا، و قيل: على حذف أن، و الأصل: و لا تمنن أن تستكثر، فلما حذفت رفع. قال الكسائى: فإذا حذف أن رفع الفعل. و قرأ يحيى بن وثاب و الأعمش تَسْتَكْثِرُ بالنصب؛ على تقدير أن و بقاء عملها، و يؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود «و لا تمنن أن تستكثر» بزيادة أن. و قرأ الحسن أيضا و ابن أبى عبلة تَسْتَكْثِرُ بالجزم على أنه بدل من تمنن كما فى قوله: يَلْقَ أَثاماً- يُضاعَفْ لَهُ «۲»، و قول الشاعر:

متى تأتنا تلمّم بنا فى ديارناتجد حطبا جزلا و نارا تأجّجا

أو الجزم لإجراء الوصل مجرى الوقف، كما فى قول امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما «۳» من اللّه و لا واغل

بتسكين أشرب. و قد اعترض على هذه القراءة؛ لأن قوله «تستكثر» لا يصح أن يكون بدلا من «تمنن»، لأن المنّ غير الاستكثار، و لا يصح أن يكون جوابا للنهى.

و اختلف السلف فى معنى الآية، فقيل: المعنى: لا تمنن على ربک بما تتحمله من أعباء النبوّة كالذى يستكثر ما يتحمله بسبب الغير، و قيل: لا تعط عطية تلتمس فيها أفضل منها، قاله عكرمة و قتادة. قال الضحاک:

هذا ما حرّمه اللّه على رسوله؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب و أجلّ الأخلاق، و أباحه لأمته. و قال مجاهد:

لا تضعف أن تستكثر من الخير، من قولک: «حبل متين» إذا كان ضعيفا. و قال الربيع بن أنس: لا تعظم عملک فى عينک أن تستكثر من الخير. و قال ابن كيسان: لا تستكثر عملک فتراه من نفسک، إنما عملک منّة من اللّه عليک؛ إذ جعل لک سبيلا إلى عبادته. و قيل: لا تمنن بالنبوّة و القرآن على الناس فتأخذ منهم أجرا تستكثر به. و قال محمد بن كعب: لا تعط مالک مصانعة. و قال زيد بن أسلم: إذا أعطيت عطية فأعطها لربک. وَ لِرَبِّکَ فَاصْبِرْ أى: لوجه ربک فاصبر على طاعته و فرائضه، و المعنى: لأجل ربک و ثوابه.

و قال مقاتل و مجاهد: اصبر على الأذى و التكذيب. و قال ابن زيد: حمّلت أمرا عظيما فحاربتک العرب و العجم؛ فاصبر عليه للّه. و قيل: اصبر تحت موارد القضاء للّه، و قيل: فاصبر على البلوى، و قيل: على الأوامر و النواهى. فَإِذا نُقِرَ فِی النَّاقُورِ الناقور: فاعول من النقر، كأنه من شأنه أن ينقر فيه للتصويت، و النقر فى كلام العرب: الصوت، و منه قول امرئ القيس:

أخفّضه بالنّقر لمّا علوته «۴»

(۱). فى تفسير القرطبى: أبو السّمّال.

(۲). الفرقان: ۶۸- ۶۹.

(۳). «استحقب الإثم»: ارتكبه.

(۴). و عجز البيت: و يرفع طرفا غير خاف غضيض.

فتح القدير، ج‏5، ص: 391
و يقولون: نقّر باسم الرجل إذا دعاه، و المراد هنا النفخ فى الصور، و المراد النفخة الثانية، و قيل: الأولى، و قد تقدّم الكلام فى هذا فى سورة الأنعام و سورة النحل، و الفاء للسببية، كأنه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أمرهم، و العامل فى «إذا» ما دلّ عليه قوله: فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ- عَلَى الْكافِرِينَ فإن معناه عسر الأمر عليهم، و قيل: العامل فيه ما دلّ على فَذلِكَ لأنه إشارة إلى النقر، و «يومئذ» بدل من «إذا»، أو مبتدأ و خبره «يوم عسير»، و الجملة خبر فذلك، و قيل: هو ظرف للخبر؛ لأن التقدير وقوع يوم عسير، و قوله: غَيْرُ يَسِيرٍ تأكيد لعسره عليهم؛ لأن كونه غير يسير قد فهم من قوله: «يوم عسير». ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً أى: دعنى، و هى كلمة تهديد و وعيد، و المعنى:
دعنى و الّذى خلقته حال كونه وحيدا فى بطن أمه لا مال له و لا ولد، هذا على أن «وحيدا» منتصب على الحال من الموصول، أو من الضمير العائد إليه المحذوف، و يجوز أن يكون حالا من الياء فى «ذرنى»، أى:
دعنى وحدى معه، فإنى أكفيك فى الانتقام منه، و الأوّل أولى. قال المفسرون: و هو الوليد بن المغيرة. قال مقاتل: يقول: خلّ بينى و بينه فأنا أنفرد بهلكته، و إنما خصّ بالذكر لمزيد كفره و عظيم جحوده لنعم اللّه عليه، و قيل: أراد بالوحيد الّذى لا يعرف أبوه، و كان يقال فى الوليد بن المغيرة: إنه دعىّ. وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً أى: كثيرا، أو يمدّ بالزيادة و النماء شيئا بعد شى‏ء. قال الزجاج: مالا غير منقطع عنه، و قد كان الوليد بن المغيرة مشهورا بكثرة المال على اختلاف أنواعه، قيل: كان يحصل له من غلّة أمواله ألف ألف دينار، و قيل: أربعة آلاف دينار، و قيل: ألف دينار. وَ بَنِينَ شُهُوداً أى: و جعلت له بنين حضورا بمكة معه لا يسافرون و لا يحتاجون إلى التفرّق فى طلب الرزق؛ لكثرة مال أبيهم. قال الضحاك: كانوا سبعة ولدوا بمكة. و خمسة ولدوا بالطائف. و قال سعيد بن جبير: كانوا ثلاثة عشر ولدا. و قال مقاتل: كانوا سبعة كلهم رجال، أسلم منهم ثلاثة خالد و هشام و الوليد بن الوليد، فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله و ولده حتى هلك. و قيل: معنى شهودا أنه إذا ذكر ذكروا معه، و قيل: كانوا يشهدون معه ما كان يشهده، و يقومون بما كان يباشره. وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً أى: بسطت له فى العيش و طول العمر و الرياسة فى قريش، و التمهيد عند العرب: التوطئة، و منه: مهد الصبىّ. و قال مجاهد: إنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ أى: يطمع بعد هذا كلّه فى الزيادة لكثرة حرصه و شدة طمعه مع كفرانه للنعم و إشراكه باللّه. قال الحسن: ثمّ يطمع أن أدخله الجنة، و كان يقول: إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى. ثم ردعه اللّه سبحانه و زجره فقال: كَلَّا أى: لست أزيده. ثم علّل ذلك بقوله: إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً أى: معاندا لها كافرا بما أنزلناه منها على رسولنا. يقال: عند يعند بالكسر إذا خالف الحق و ردّه، و هو يعرفه، فهو عنيد و عاند، و العاند: البعير الّذى يجور عن الطريق و يعدل عن القصد، و منه قول الحارثىّ:
إذا ركبت فاجعلانى وسطاإنّى كبير لا أطيق العنّدا
قال أبو صالح: «عنيدا» معناه مباعدا. و قال قتادة: جاحدا، و قال مقاتل: معرضا. سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً
فتح القدير، ج‏5، ص: 392
أى: سأكلّفه مشقّة من العذاب، و هو مثل لما يلقاه من العذاب الصعب الّذى لا يطاق، و قيل:
المعنى: إنه يكلف أن يصعد جبلا من نار، و الإرهاق فى كلام العرب: أن يحمل الإنسان الشى‏ء الثقيل.
و جملة: إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ تعليل لما تقدّم من الوعيد، أى: إنه فكر فى شأن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و ما أنزل عليه من القرآن، و قدّر فى نفسه، أى: هيّأ الكلام فى نفسه، و العرب تقول: هيأت الشى‏ء؛ إذا قدّرته، و قدرت الشى‏ء؛ إذا هيأته، و ذلك أنه لما سمع القرآن لم يزل يفكر ماذا يقول فيه، و قدّر فى نفسه ما يقول، فذمّه اللّه و قال: فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ أى: لعن و عذّب كيف قدّر، أى:

على أىّ حال قدر ما قدر من الكلام، كما يقال فى الكلام: لأضربنه كيف صنع، أى: على أىّ حال كانت منه، و قيل: المعنى: قهر و غلب كيف قدّر، و منه قول الشاعر «١»:

و ما ذرفت عيناك إلا لتضربىبسهميك فى أعشار قلب مقتّل

و قال الزهرى: عذّب، و هو من باب الدعاء عليه. و التكرير فى قوله: ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ للمبالغة و التأكيد ثُمَّ نَظَرَ أى: بأىّ شىء يدفع القرآن و يقدح فيه، أو فكّر فى القرآن و تدبّر ما هو ثُمَّ عَبَسَ أى: قطّب وجهه لمّا لم يجد مطعنا يطعن به فى القرآن، و العبس: مصدر عبس مخفّفا يعبس عبسا و عبوسا؛ إذا قطّب، و قيل: عبس فى وجوه المؤمنين، و قيل: عبس فى وجه النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم وَ بَسَرَ أى: كلح وجهه و تغيّر، و منه قول الشاعر «٢»:

صبحنا تميما غداة الجفاربشهباء ململومة بأسره «٣»

و قول الآخر «۴»:

و قد رابنى منها صدود رأيتهو إعراضها عن حاجتى و بسورها

و قيل: إن ظهور العبوس فى الوجه يكون بعد المحاورة، و ظهور البسور فى الوجه قبلها، و العرب تقول:

وجه باسر؛ إذا تغير و اسودّ. و قال الراغب: البسر: استعجال الشرّ قبل أوانه، نحو بسر الرجل حاجته، أى: طلبها فى غير أوانها. قال: و منه قوله: عَبَسَ وَ بَسَرَ أى: أظهر العبوس قبل أوانه و قبل وقته، و أهل اليمن يقولون: بسر المركب و أبسر، أى: وقف لا يتقدّم و لا يتأخر، و قد أبسرنا، أى: صرنا إلى البسور ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ أى: أعرض عن الحقّ، و ذهب إلى أهله، و تعظّم عن أن يؤمن، فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ أى: يأثره عن غيره و يرويه عنه. و السّحر: إظهار الباطل فى صورة الحقّ، أو

---

(١). هو امرؤ القيس.

(٢). هو بشر بن أبى خازم.

(٣). «الجفار»: اسم موضع. «ململومة»: مجتمعة.

(۴). هو توبة بن الحمير.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ٣٩٣

الخديعة؛ على ما تقدّم بيانه فى سورة البقرة، يقال: أثرت الحديث آثره؛ إذا ذكرته عن غيرك، و منه قول الأعشى:

إنّ الّذى فيه تماريتمابيّن للسّامع و الآثر

إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ يعنى أنه كلام الإنس، و ليس بكلام اللّه، و هو تأكيد لما قبله، و سيأتى أن الوليد بن المغيرة إنما قال هذا القول إرضاء لقومه بعد اعترافه أن له حلاوة، و أن عليه طلاوة إلى آخر كلامه.

و لما قال هذا القول الّذى حكاه اللّه عنه قال اللّه عزّ و جلّ: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ أى: سأدخله النار، و سقر من أسماء النار، و من دركات جهنم، و قيل: إن هذه الجملة بدل من قوله: سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ثم بالغ سبحانه فى وصف النار و شدة أمرها فقال: وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ أى: و ما أعلمك أى شىء هى؟ و العرب تقول: و ما أدراك ما كذا؛ إذا أرادوا المبالغة فى أمره و تعظيم شأنه و تهويل خطبه، و «ما» الأولى مبتدأ، و جملة «ما سقر» خبر المبتدأ. ثم فسّر حالها فقال: لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ و الجملة مستأنفة لبيان حال سقر، و الكشف عن وصفها، و قيل: هى فى محل نصب على الحال، و العامل فيها معنى التعظيم، لأن قوله: وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ يدلّ على التعظيم، فكأنه قال: استعظموا سقر فى هذه الحال، و الأوّل أولى، و مفعول الفعلين محذوف. قال السدّى: لا تبقى لهم لحما و لا تذر لهم عظما. و قال عطاء: لا تبقى من فيها حيّا و لا تذره ميتا، و قيل: هما لفظان بمعنى واحد، كرّرا للتأكيد، كقولك: صدّ

عنى، و أعرض عنى. لَوّاحَةٌ لِلْبَشَرِ قرأ الجمهور: لَوّاحَةٌ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، و قيل: على أنه نعت لسقر، و الأوّل أولى و قرأ الحسن و عطية العوفى و نصر بن عاصم و عيسى بن عمر و ابن أبى عبلة و زيد بن علىّ بالنصب على الحال أو الاختصاص للتهويل، لاح يلوح، و المعنى: أنها تظهر للبشر. قال الحسن: تلوح لهم جهنم حتى يرونها عيانا كقوله: وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى «١» و قيل: معنى لَوّاحَةٌ لِلْبَشَرِ أى: مغيرة لهم و مسوّدة. قال مجاهد: و العرب تقول: لاحه الحرّ و البرد و السّقم و الحزن؛ إذا غيره، و هذا أرجح من الأوّل؛ و إليه ذهب جمهور المفسرين، و منه قول الشاعر:

و تعجب هند أن رأتنى شاحباتقول لشىء لوّحته السّمائم «٢»

أى: غيرته. و منه قول رؤبة بن العجّاج:

لوّح منه بعد بدن و سنقتلويحك الضّامر يطوى للسّبق «٣»

---

(١). النازعات: ٣۶.

(٢). «السمائم»: جمع سموم، و هى الريح الحارّة.

(٣). «البدن»: السمن و اكتناز اللحم. «السنق»: الشبع حتى يكون كالتخمة. «الضامر»: الفرس. «يطوى»: يجوع.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ٣٩۴

و قال الأخفش: المعنى أنها معطّشة للبشر، و أنشد:

سقتنى على لوح من الماء شربةسقاها به اللّه الرّهام الغواديا «١»

و المراد بالبشر إما جلدة الإنسان الظاهرة كما قاله الأكثر، أو المراد به أهل النار من الإنس كما قال الأخفش، عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ قال المفسرون: يقول: على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها، و قيل: تسعة عشر صنفا من أصناف الملائكة، و قيل: تسعة عشر صفّا من صفوفهم، و قيل: تسعة عشر نقيبا، مع كل نقيب جماعة من الملائكة، و الأوّل أولى. قال الثعلبى: و لا ينكر هذا، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق. قرأ الجمهور: تِسْعَةَ عَشَرَ بفتح الشين من عشر. و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و طلحة بن سليمان بإسكانها.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن جابر بن عبد اللّه أن أبا سلمة بن عبد الرّحمن قال: إن أوّل ما نزل من القرآن: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ فقال له يحيى بن أبى كثير: يقولون: إن أوّل ما نزل: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ «٢» فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد اللّه عن ذلك، قلت له مثل ما قلت، فقال جابر: لا أحدّثنك إلا ما حدّثنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «جاورت بحراء؛ فلما قضيت جوارى هبطت، فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا، و نظرت عن شمالى فلم أر شيئا، و نظرت خلفى فلم أر شيئا، فرفعت رأسى فإذا الملك الّذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء و الأرض، فجثيت منه رعبا، فرجعت فقلت: دثّرونى فدثّرونى، فنزلت: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ إلى قوله: وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ و سيأتى فى سورة اقرأ ما يدل على أنها أوّل سورة أنزلت، و الجمع ممكن. و أخرج الحاكم و صحّحه؛ عن ابن عباس يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ فقال: دثر هذا الأمر، فقم به. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ فقال: النائم وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ قال: لا تكن ثيابك التى تلبس من مكسب باطل وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ قال: الأصنام وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ قال: لا تعط تلتمس بها أفضل منها. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عنه أيضا وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ قال:

من الإثم. قال: و هى فى كلام العرب نقىّ الثياب. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ قال:

من الغدر، لا تكن غدّارا. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى و ابن مردويه عن عكرمة عنه أيضا أنه سئل عن قوله: وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ قال: لا تلبسها على غدرة، ثم قال: ألا تسمعون قول غيلان بن سلمة:

فإنّى بحمد اللّه لا ثوب فاجرلبست و لا من غدرة أتقنّع

---

(١). «اللوح»: شدة العطش. «الرهام»: جمع رهمة و هى المطرة الضعيفة.

(٢). العلق: ١.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٩٥

و أخرج الطبرانى، و البيهقى فى سننه، عنه أيضا: وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ قال: لا تعط الرجل عطاء رجاء أن يعطيك أكثر منه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عنه أيضا: فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ قال:

الصور يَوْمٌ عَسِيرٌ قال: شديد. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً قال الوليد بن المغيرة. و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الدلائل، عنه أيضا: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عمّ إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له، و أنك كاره له، قال: و ماذا أقول؟ فو اللّه ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى لا برجزه و لا بقصيده و لا بأشعار الجن، و اللّه ما يشبه هذا الّذى يقول شيئا من هذا، و اللّه إن لقوله الّذى يقول لحلاوة، و إن عليه لطلاوة و إنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، و إنه ليعلو و ما يعلى، و إنه ليحطم ما تحته؛ قال: و اللّه لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعنى حتى أفكّر، فلما فكّر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت: ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً. و قد أخرج هذا عبد الرزاق عن عكرمة مرسلا، و كذا أخرجه ابن جرير و ابن إسحاق و ابن المنذر و غير واحد. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن قوله: وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً قال: غلة شهر بشهر. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً قال: ألف دينار. و أخرج هناد عن أبى سعيد الخدرى فى قوله: سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً قال: هو جبل فى النار يكلفون أن يصعدوا فيه، فكلما وضعوا أيديهم عليه ذابت، فإذا رفعوها عادت كما كانت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس عَنِيداً قال: جحودا.

و أخرج أحمد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى سعيد عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الصعود جبل فى النار؛ يصعد فيه الكافر سبعين خريفا، ثم يهوى و هو كذلك فيه أبدا». قال الترمذى بعد إخراجه: غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن درّاج.

قال ابن كثير: و فيه غرابة و نكارة، انتهى. و قد أخرجه جماعة من قول أبى سعيد. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: صَعُوداً صخرة فى جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه. و أخرج ابن المنذر عنه قال:

جبل فى النار. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ قال: لا تبقى منهم شيئا، و إذا بدّلوا خلقا آخر لم تذر أن تعاودهم سبيل العذاب الأوّل. و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ قال: تلوح الجلد فتحرقه و تغيّر لونه، فيصير أسود من الليل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا:

لَوَّاحَةٌ قال: محرقة. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن البراء: أن رهطا من اليهود سألوا بعض أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن خزنة جهنم، فقال: اللّه و رسوله أعلم، فجاء جبريل، فأخبر النبىّ، فنزلت عليه ساعتئذ عَلَيْها تِسْعَةَ

عَشَرَ.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٩٦

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٣١ الى ٣٧]

وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ يَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَ لا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَ ما هِيَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْبَشَرِ (٣١) كَلاَّ وَ الْقَمَرِ (٣٢) وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥)
نَذِيراً لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧)

لما نزل قوله سبحانه: عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ قال أبو جهل: أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر يخوفكم محمد بتسعة عشر و أنتم الدّهم «١»، أ فيعجز كل مائة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم يخرجون من النار؟

فقال أبو الأشدّ، و هو رجل من بني جمح: يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة، فأنا أمشي بين أيديكم، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن و تسعة بمنكبي الأيسر و نمضي ندخل الجنة، فأنزل اللّه: وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً يعني: ما جعلنا المدبّرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة، فمن يطيق الملائكة؟

و من يغلبهم؟ فكيف تتعاطون أيها الكفار مغالبتهم؟ و قيل: جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجنّ و الإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجالس من الرقة و الرأفة، و قيل: لأنهم أقوم خلق اللّه بحقه و الغضب له، و أشدهم بأسا و أقواهم بطشا وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً أي: ضلالة لِلَّذِينَ استقلوا عددهم، و محنة لهم، و المعنى: ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور في القرآن إلا ضلالة و محنة لهم، حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم، و يكثر غضب اللّه عليهم. و قيل: معنى إلا فتنة إلا عذابا؛ كما في قوله: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ «٢» أي: يعذبون، و اللام في قوله: لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ متعلّق بجعلنا، و المراد بأهل الكتاب اليهود و النصارى لموافقة ما نزل من القرآن بأن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم.

قاله قتادة و الضحاك و مجاهد و غيرهم، و المعنى: أن اللّه جعل عدّة الخزنة هذه العدّة ليحصل اليقين لليهود و النصارى بنبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم لموافقة ما في القرآن لما في كتبهم وَ يَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً و قيل: المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد اللّه بن سلام، و قيل: أراد بالذين آمنوا: المؤمنين من أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و المعنى: ليزدادوا يقينا إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم، و جملة: وَ لا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ مقرّرة لما تقدّم من الاستيقان و ازدياد الإيمان، و المعنى: نفي الارتياب عنهم في الدين، أو: في أن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر، و لا ارتياب في الحقيقة من المؤمنين، و لكنه من باب التعريض لغيرهم ممن في قلبه شك وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا المراد بالذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، و السورة و إن كانت مكية و لم يكن إذ ذاك نفاق، فهو إخبار بما سيكون في المدينة، أو المراد بالمرض مجرّد حصول الشكّ و الريب، و هو كائن في الكفار. قال الحسين بن الفضل: السورة مكية و لم يكن بمكة نفاق، فالمرض في هذه الآية الخلاف، و المراد بقوله: وَ الْكافِرُونَ كفار العرب من أهل

---

(١). «الدهم»: العدد الكثير.

(٢). الذاريات: ١٣.

فتح القدير، ج‏5، ص: 397

مكة و غيرهم، و معنى ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا أىّ شىء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل. قال الليث: المثل: الحديث، و منه قوله: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ «1» أى: حديثها و الخبر عنها كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ أى: مثل ذلك الإضلال المتقدّم ذكره، و هو قوله: وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ من عباده، و الكاف نعت مصدر محذوف وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ من عباده، و المعنى: مثل ذلك الإضلال للكافرين و الهداية للمؤمنين يضلّ اللّه من يشاء إضلاله و يهدى من يشاء هدايته. و قيل: المعنى: كذلك يضلّ اللّه عن الجنة من يشاء و يهدى إليها من يشاء وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ أى: ما يعلم عدد خلقه و مقدار جموعه من الملائكة و غيرهم إلا هو وحده لا يقدر على علم ذلك أحد. و قال عطاء: يعنى من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدّتهم إلا اللّه، و المعنى:

أن خزنة النار و إن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان و الجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا اللّه سبحانه. ثم رجع سبحانه إلى ذكر سقر فقال: وَ ما هِيَ إِلَّا ذِكْرى‏ لِلْبَشَرِ أى: و ما سقر و ما ذكر من عدد خزنتها إلا تذكرة و موعظة للعالم، و قيل: وَ ما هِيَ أى: الدلائل و الحجج و القرآن إلا تذكرة للبشر. و قال الزجاج: نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة، و هو بعيد. و قيل: ما هى أى عدّة خزنة جهنم إلا تذكرة للبشر؛ ليعلموا كمال قدرة اللّه و أنه لا يحتاج إلى أعوان و أنصار. و قيل: الضمير فى وَ ما هِيَ يرجع إلى الجنود. ثم ردع سبحانه المكذبين و زجرهم فقال: كَلَّا وَ الْقَمَرِ قال الفراء: كلا صلة للقسم. التقدير: أى و القمر، و قيل: المعنى: حقا و القمر. قال ابن جرير: و المعنى ردّ زعم من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم، أى: ليس الأمر كما يقول، ثم أقسم على ذلك بالقمر و بما بعده، و هذا هو الظاهر من معنى الآية وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ أى ولى. قرأ الجمهور: إذا بزيادة الألف، دبر بزنة ضرب على أنه ظرف لما يستقبل من الزمان، و قرأ نافع و حفص و حمزة: إِذْ بدون ألف، أدبر بزنة أكرم ظرف لما مضى من الزمان، و دبر و أدبر لغتان، كما يقال: أقبل، و قبل الزمان، يقال: دبر الليل و أدبر؛ إذا تولى ذاهبا وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ أى: أضاء و تبين إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ هذا جواب القسم، و الضمير راجع إلى سقر، أى: إنّ سقر لإحدى الدواهى أو البلايا الكبر، و الكبر: جمع كبرى، و قال مقاتل: إن الكبر اسم من أسماء النار، و قيل:

إنها: أى: تكذيبهم لمحمد لإحدى الكبر، و قيل: إن قيام الساعة لإحدى الكبر، و منه قول الشاعر:

يا ابن المعلّى نزلت إحدى الكبرداهية الدّهر و صمّاء الغير

قرأ الجمهور: لَإِحْدَى بالهمزة، و قرأ نصر بن عاصم و ابن محيصن و ابن كثير فى رواية عنه: إنها لحدى بدون همزة. و قال الكلبى: أراد بالكبر دركات جهنم و أبوابها نَذِيراً لِلْبَشَرِ انتصاب نذيرا على الحال من الضمير فى إنها، قاله الزجاج. و روى عنه و عن الكسائى و أبى علىّ الفارسى أنه حال من قوله:

قُمْ فَأَنْذِرْ أى: قم يا محمد فأنذر حال كونك نذيرا للبشر. و قال الفراء: هو مصدر بمعنى الإنذار

---

(1). الرعد: 35.

فتح القدير، ج‏5، ص: 398

منصوب بفعل مقدّر، و قيل: إنه منتصب على التميز لإحدى لتضمنها معنى التعظم؛ كأنه قيل: أعظم الكبر إنذارا، و قيل: إنه مصدر منصوب بأنذر المذكور فى أوّل السورة، و قيل: منصوب بإضمار أعنى، و قيل:

منصوب بتقدير: ادع، و قيل: منصوب بتقدير: ناد أو بلغ، و قيل: إنه مفعول لأجله، و التقدير: و إنها لإحدى الكبر لأجل إنذار البشر. قرأ الجمهور بالنصب، و قرأ أبىّ بن كعب و ابن أبى عبلة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هى نذير، أو هو نذير.

و قد اختلف فى النذير، فقال الحسن: هى النار، و قيل: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و قال أبو رزين: المعنى أنا نذير لكم منها، و قيل: القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد و الوعيد لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ هو بدل من قوله للبشر، أى: نذيرا لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى الطاعة أو يتأخر عنها، و المعنى: أن الإنذار قد حصل لكل من آمن و كفر، و قيل: فاعل المشيئة هو اللّه سبحانه، أى: لمن شاء أن يتقدّم منكم بالإيمان أو يتأخر بالكفر، و الأوّل أولى. و قال السدّى: لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى النار المتقدم ذكرها، أو يتأخر إلى الجنة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما سمع أبو جهل عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ. قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبى كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر و أنتم الدّهم «١»، أ فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟. و أخرج ابن مردويه عنه فى قوله: وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا قال: قال أبو الأشدّ: خلوا بينى و بين خزنة جهنم أنا أكفيكم مؤونتهم، قال: و حدّثت أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم وصف خزّان جهنم فقال: «كأن أعينهم البرق، و كأن أفواههم الصّياصى، يجرّون أشعارهم، لهم مثل قوّة الثقلين، يقبل أحدهم بالأمّة من الناس يسوقهم و على رقبته جبل حتى يرمى بهم فى النار فيرمى بالجبل عليهم». و أخرج الطبرانى فى الأوسط و أبو الشيخ عن أبى سعيد الخدرى: أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حدّثهم عن ليلة أسرى به قال: «فصعدت أنا و جبريل إلى السماء الدنيا، فإذا أنا بملك يقال له إسماعيل و هو صاحب سماء الدنيا و بين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف، و تلا هذه الآية: وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ». و أخرج أحمد عن أبى ذر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أطّت السماء و حقّ لها أن تئط، ما فيها موضع إصبع إلا عليه ملك ساجد». و أخرجه الترمذى و ابن ماجة. قال الترمذى:

حسن غريب، و يروى عن أبى ذرّ موقوفا.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس: إِذْ أَدْبَرَ قال: دبور ظلامه. و أخرج مسدّد فى مسنده و عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: سألت ابن عباس عن قوله: وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ فسكت عنى حتى إذا كان من آخر الليل و سمع الأذان نادانى: يا مجاهد هذا حين دبر الليل. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ قال: من شاء اتبع طاعة اللّه، و من شاء تأخر عنها.

---

(١). «الدهم»: أى العدد الكثير و الشجعان.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٩٩

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٣٨ الى ٥٦]

كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)

قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ (٤٥) وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ (٤٧)

فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (٥٢)

كَلَّا بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَ ما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَ أَهْلُ

الْمَغْفِرَةِ (۵۶)
قوله: كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ أی: مأخوذة بعملها و مرتهنة به، إما خلّصها و إما أوبقها، و الرهينة: اسم بمعنى الرهن، كالشتيمة بمعنى الشتم، و ليست صفة، و لو كانت صفة لقيل: رهين؛ لأن فعيلا يستوى فيه المذكر و المؤنث، و المعنى: كل نفس رهن بكسبها غير مفكوكة إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم.
و اختلف فى تعيينهم، فقيل: هم الملائكة، و قيل: المؤمنون، و قيل: أولاد المسلمين، و قيل: الذين كانوا عن يمين آدم، و قيل: أصحاب الحقّ، و قيل: هم المعتمدون على الفضل دون العمل، و قيل: هم الذين اختارهم اللّه لخدمته، فِي جَنَّاتٍ هو فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، و الجملة استئناف جوابا عن سؤال نشأ مما قبله، و يجوز أن يكون فى جنات حالا من أصحاب اليمين، و أن يكون حالا- من فاعل يتساءلون، و أن يكون ظرفا ليتساءلون، و قوله: يَتَساءَلُونَ يجوز أن يكون على بابه، أی: يسأل بعضهم بعضا، و يجوز أن يكون بمعنى يسألون، أی: يسألون غيرهم، نحو دعيته و تداعيته، فعلى الوجه الأوّل يكون عَنِ الْمُجْرِمِينَ متعلقا بيتساءلون، أی: يسأل بعضهم بعضا عن أحوال المجرمين، و على الوجه الثانى تكون عن زائدة، أی: يسألون المجرمين، و قوله: ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ هو على تقدير القول، أی: يتساءلون عن المجرمين يقولون لهم: ما سلككم فى سقر، أو يسألونهم قائلين لهم: ما سلككم فى سقر، و الجملة على كلا التقديرين فى محل نصب على الحال، و المعنى: ما أدخلكم فى سقر، تقول: سلكت الخيط فى كذا؛ إذا دخلته فيه. قال الكلبى: يسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه، فيقول له: يا فلان ما سلكك فى النار؟ و قيل: إن المؤمنين يسألون الملائكة عن أقربائهم، فتسأل الملائكة المشركين يقولون لهم: ما سلككم فى سقر؟ قال الفراء: فى هذا ما يقوّى أن أصحاب اليمين هم الولدان؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب. ثم ذكر سبحانه ما أجاب به أهل النار عليهم فقال: قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ أی: من المؤمنين الذين يصلون للّه فى الدنيا وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ أی: لم نتصدّق على المساكين، قيل: و هذان محمولان على الصلاة الواجبة و الصدقة الواجبة؛ لأنه لا تعذيب على غير الواجب، و فيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالشرعيات، وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ أی: نخالط أهل الباطل فى باطلهم. قال قتادة: كلما غوى غاو غوينا معه. و قال السدّى: كنا نكذّب مع المكذّبين. و قال ابن زيد: نخوض مع الخائضين فى أمر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و هو قولهم: كاذب، مجنون، ساحر، شاعر وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ أی: بيوم الجزاء و الحساب
فتح القدير، ج‏۵، ص: ۴۰۰
فتح القدير ج‏۵ ۴۴۹
حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ و هو الموت، كما فى قوله: وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ «۱».
فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ أی: شفاعة الملائكة و النبيين كما تنفع الصالحين فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ التذكرة: التذكير بمواعظ القرآن، و الفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن التذكرة على ما قبله من موجبات الإقبال عليها، و انتصاب معرضين على الحال من الضمير فى متعلق الجارّ و المجرور، أی: أیّ شیء حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن الّذى هو مشتمل على التذكرة الكبرى و الموعظة العظمى.
ثم شبّههم فى نفورهم عن القرآن بالحمر فقال: كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ و الجملة حال من الضمير فى معرضين على التداخل، و معنى مستنفرة: نافرة، يقال: نفر و استنفر، مثل عجب و استعجب، و المراد:
الحمر الوحشية. قرأ الجمهور: مُسْتَنْفِرَةٌ بكسر الفاء، أی: نافرة، و قرأ نافع و ابن عامر بفتحها، أی: منفرة مذعورة، و اختار القراءة الثانية أبو حاتم و أبو عبيد. قال فى الكشاف: المستنفرة: الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها فى جمعها له، و حملها عليه فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ أی: من رماة يرمونها، و القسور: الرامى، و جمعه قسورة قاله سعيد بن جبير و عكرمة و مجاهد و قتادة و ابن

كيسان، و قيل: هو الأسد، قاله عطاء و الكلبى. قال ابن عرفة من القسر بمعنى القهر؛ لأنه يقهر السباع، و قيل: القسورة: أصوات الناس، و قيل: القسورة بلسان العرب: الأسد، و بلسان الحبشة: الرماة. و قال ابن الأعرابى: القسورة: أوّل الليل، أى: فرّت من ظلمة الليل، و به قال عكرمة، و الأوّل أولى، و كلّ شديد عند العرب فهو قسورة، و منه قول الشاعر:

يا بنت كونى خيرة لخيّرهأخوالها الجنّ و أهل القسورة

و منه قول لبيد:

إذا ما هتفنا هتفة فى نديّناأتانا الرّجال العابدون القساور

و من إطلاقه على الأسد قول الشاعر:

مضمّر تحذره الأبطالكأنّه القسور الرّهال

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً عطف على مقدر يقتضيه المقام، كأنه قيل: لا يكتفون بتلك التذكرة بل يريد ... قال المفسرون: إن كفار قريش قالوا لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم: ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من اللّه أنك رسول اللّه. و الصحف: الكتب، واحدتها صحيفة، و المنشرة: المنشورة المفتوحة، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ «٢» قرأ الجمهور: مُنَشَّرَةً بالتشديد. و قرأ سعيد بن جبير بالتخفيف. و قرأ الجمهور: أيضا بضم الحاء من صحف. و قرأ سعيد بن جبير بإسكانها. ثم ردعهم اللّه سبحانه عن هذه المقالة و زجرهم فقال: كَلَّا بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ

---

(١). الحجر: ٩٩.

(٢). الإسراء: ٩٣.

يعنى عذاب الآخرة؛ لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات، و قيل: كلّا بمعنى حقا. ثم كرّر الردع و الزجر لهم فقال: كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ يعنى القرآن؛ أو حقا إنه تذكرة، و المعنى: أنه يتذكر به و يتعظ بمواعظه فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ أى: فمن شاء أن يتعظ به اتعظ، ثم ردّ سبحانه المشيئة إلى نفسه فقال:

وَ ما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ قرأ الجمهور: يَذْكُرُونَ بالياء التحتية. و قرأ نافع و يعقوب بالفوقية، و اتفقوا على التخفيف، و قوله: إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال. قال مقاتل: إلا أن يشاء اللّه لهم الهدى هُوَ أَهْلُ التَّقْوى أى: هو الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه و العمل بطاعاته وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ أى: هو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب، و الحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة فيغفر ذنوبهم.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ قال: مأخوذة بعملها.

و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ قال: هم المسلمون. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، عن علىّ بن أبى طالب إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ قال: هم أطفال المسلمين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ قال: الموت. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن أبى موسى الأشعرى فى قوله: فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ قال: هم الرماة رجال القسىّ. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس قال: القسورة: الرجال الرماة رجال القنص.

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى حمزة قال: قلت لابن عباس:

القسورة الأسد؟ فقال: ما أعلمه بلغة أحد من العرب الأسد! هم عصبة الرجال. و أخرج سفيان ابن عيينة و عبد الرزاق و ابن المنذر عن ابن عباس مِنْ قَسْوَرَةٍ قال: هو ركز الناس، يعنى أصواتهم.

و أخرج أحمد و الدارمى، و الترمذى و حسنه، و النسائى و ابن ماجة و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن عدّى و صححه، و ابن مردويه عن أنس «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ هذه الآية: هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ فقال: قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله، فمن اتقانى فلم يجعل معى إلها فأنا أهل أن أغفر له». و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة و ابن عمر و ابن عباس مرفوعا نحوه.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۰۲

سورة القيمة

اشارة

و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة القيامة، و فى لفظ: سورة لا أقسم بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت سورة لا أقسم بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القيامة (۷۵): الآيات ۱ الى ۲۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (۱) وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (۲) أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ (۳) بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (۴) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (۵) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ (۶) فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (۷) وَ خَسَفَ الْقَمَرُ (۸) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ (۹) يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (۱۰) كَلَّا لا وَزَرَ (۱۱) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (۱۲) يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ (۱۳) بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (۱۴)

وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ (۱۵) لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (۱۶) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (۱۷) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (۱۸) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (۱۹)

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (۲۰) وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (۲۱) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (۲۲) إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (۲۳) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (۲۴) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ (۲۵)

قوله: لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ قال أبو عبيدة و جماعة من المفسرين: إنّ لا زائدة، و التقدير: أقسم.

قال السمرقندى: أجمع المفسرون أن معنى لا أقسم: أقسم، و اختلفوا فى تفسير لا، فقال بعضهم: هى زائدة، و زيادتها جارية فى كلام العرب كما فى قوله: ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ «۱» يعنى أن تسجد، و لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ و من هذا قول الشاعر:

تذكّرت ليلى فاعترتنى صبابةفكاد صميم القلب لا يتقطّع

و قال بعضهم: هى ردّ لكلامهم حيث أنكروا البعث؛ كأنه قال: ليس الأمر كما ذكرتم أقسم بيوم القيامة، و هذا قول الفرّاء و كثير من النحويين، كقول القائل: لا، و اللّه، ف: لا: ردّ لكلام قد تقدّمها، و منه قول الشاعر «۲»:

فلا و أبيك ابنة العامرىّ (م) «۳»لا يدّعى القوم أنّى أفرّ

(۱). الأعراف: ۱۲.

(۲). هو امرؤ القيس.

(۳). يشير هذا الحرف إلى أن البيت مدور، يعنى: أن آخر الصدر و أول العجز مشتركان فى الحرف المشدد.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۰۳

و قيل: هى للنفى، لكن لا لنفى الإقسام، بل لنفى ما ينبئ عنه من إعظام المقسم به و تفخيمه، كأن معنى لا أقسم بكذا: لا أعظمه بإقسامى به حقّ إعظامه، فإنه حقيق بأكثر من ذلك و قيل: إنها لنفى الإقسام لوضوح الأمر، و قد تقدّم الكلام على هذا فى تفسير قوله: فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ «۱» و قرأ الحسن و ابن كثير فى رواية عنه و الزهرى و ابن هرمز لأقسم بدون ألف على أن اللام لام الابتداء، و القول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال، و قد اعترض عليه الرازى بما لا يقدح فى قوته و لا يفتّ فى عضد رجحانه، و إقسامه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه و تفخيمه، و للّه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ذهب قوم إلى أنه سبحانه أقسم بالنفس اللوّامة كما أقسم بيوم القيامة، فيكون الكلام فى «لا» هذه كالكلام فى الأولى، و هذا قول الجمهور. و قال الحسن: أقسم بيوم القيامة و لم يقسم بالنفس اللوّامة. قال الثعلبى:

و الصحيح أنه أقسم بهما جميعا، و معنى النفس اللوّامة: النفس التى تلوم صاحبها على تقصيره، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها. قال الحسن: هى و اللّه نفس المؤمن، لا يرى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أردت بكذا؟

ما أردت بكذا؟ و الفاجر لا يعاتب نفسه. قال مجاهد: هى التى تلوم على ما فات و تندم، فتلوم نفسها على الشرّ لم تعمله؟ و على الخير لم لم تستكثر منه؟ قال الفرّاء: ليس من نفس برّة و لا فاجرة إلا و هى تلوم نفسها، إن كانت عملت خيرا قالت: هلا ازددت! و إن كانت عملت سوءا قالت: ليتنى لم أفعل. و على هذا فالكلام خارج مخرج المدح للنفس، فيكون الإقسام بها حسنا سائغا. و قيل: اللوّامة هى الملومة المذمومة، فهى صفة ذمّ، و بهذا احتج من نفى أن يكون قسما، إذ ليس لنفس العاصى خطر يقسم له. قال مقاتل: هى نفس الكافر يلوم نفسه و يتحسر فى الآخرة على ما فرّط فى جنب اللّه، و الأوّل أولى.

أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ المراد بالإنسان الجنس، و قيل: الإنسان الكافر، و الهمزة للإنكار، و أن هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف، و المعنى: أ يحسب الإنسان أن الشأن أن لن نجمع عظامه بعد أن صارت رفاتا، فنعيدها خلقا جديدا، و ذلك حسبان باطل، فإنا نجمعها، و ما يدلّ عليه هذا الكلام هو جواب القسم. قال الزجاج: أقسم بيوم القيامة و بالنفس اللوّامة ليجمعنّ العظام للبعث، فهذا جواب القسم. و قال النحاس: جواب القسم محذوف، أى: ليبعثنّ، و المعنى: أن اللّه سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان، و إنما خصّ العظام لأنها قالب الخلق بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ بلى إيجاب لما بعد النفى المنسحب إليه الاستفهام، و الوقف على هذا اللفظ وقف حسن، ثم يبتدئ الكلام بقوله:

قادِرِينَ و انتصاب قادرين على الحال، أى: بلى نجمعها قادرين، فالحال من ضمير الفعل المقدّر، و قيل:

المعنى: بلى نجمعها نقدر قادرين. قال الفراء: أى نقدر، و نقوى، قادرين على أكثر من ذلك. و قال أيضا:

إنه يصلح نصبه على التكرير، أى: بلى فليحسبنا قادرين، و قيل: التقدير: بلى كنا قادرين. و قرأ ابن أبى عبلة و ابن السّميقع بَلى قادِرِينَ على تقدير مبتدأ، أى: بلى نحن قادرون، و معنى عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ

(۱). الواقعة: ۷۵.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۰۴

على أن نجمع بعضها إلى بعض، فنردّها كما كانت مع لطافتها و صغرها، فكيف بكبار الأعضاء، فنبّه سبحانه بالبنان، و هى الأصابع على بقية الأعضاء، و أن الاقتدار على بعثها و إرجاعها كما كانت أولى فى القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل و الأظافر و العروق اللطاف و العظام الدقاق، فهذا وجه تخصيصها بالذكر، و بهذا قال الزجاج و ابن قتيبة. و قال جمهور المفسرين: إن معنى الآية أن نجعل أصابع يديه و رجليه شيئا واحدا، كخف البعير و حافر الحمار صفيحة واحدة لا شقوق فيها، فلا يقدر على أن ينتفع بها فى الأعمال كالكتابة و الخياطة و نحوهما، و لكنا فرقنا أصابعه لينتفع بها. و قيل: المعنى: بل نقدر على أن نعيد الإنسان فى هيئة البهائم، فكيف فى صورته التى كانت عليها، و الأوّل أولى، و منه قول عنترة:

و أنّ الموت طوع يدى إذا ماوصلت بنانها بالهندوانى

فنبه بالبنان على بقية الأعضاء. بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ هو عطف على أ يحسب، إما على أنه استفهام مثله، و أضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا، أو على أنه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام.

و المعنى: بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات، و ما يستقبله من الزمان، فيقدم الذنب و يؤخّر التوبة. قال ابن الأنبارى: يريد أن يفجر ما امتدّ عمره، و ليس فى نيته أن يرجع عن ذنب يرتكبه.

قال مجاهد و الحسن و عكرمة و السدّى و سعيد بن جبير: يقول سوف أتوب و لا يتوب حتى يأتيه الموت. و هو على أشرّ أحواله. قال الضحاك: هو الأمل، يقول سوف أعيش و أصيب من الدنيا، و لا يذكر الموت.

و الفجور: أصله الميل عن الحقّ، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل، و منه قول الشاعر:

أقسم باللّه أبو حفص عمرما مسّها من نقب و لا دبر

فاغفر له اللّهمّ إن كان فجر و جملة يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ مستأنفة لبيان معنى يفجر، و المعنى: يسأل متى يوم القيامة سؤال استبعاد و استهزاء فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ أى: فزع و تحير، من برق الرجل؛ إذا نظر إلى البرق فدهش بصره.

قرأ الجمهور: بَرِقَ بكسر الراء. قال أبو عمرو بن العلاء و الزجاج و غيرهما: المعنى تحيّر فلم يطرف، و منه قول ذى الرّمّة:

و لو أنّ لقمان الحكيم تعرّضت لعينيه ميّ سافرا كاد يبرق

و قال الخليل و الفراء: برق بالكسر: فزع و بهت و تحيّر، و العرب تقول للإنسان المبهوت: قد برق فهو برق، و أنشد الفرّاء:

فنفسك فانع و لا تنعنى و داو الكلوم و لا تبرق «۱»

أى: لا تفزع من كثرة الكلوم التى بك. و قرأ نافع و أبان عن عاصم بَرَقَ بفتح الراء، أى: لمع

---

(۱). البيت لطرفة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۰۵

بصره من شدة شخوصه للموت. قال مجاهد و غيره: هذا عند الموت، و قيل: برق يبرق: شق عينيه و فتحهما. و قال أبو عبيدة: فتح الراء و كسرها لغتان بمعنى. وَ خَسَفَ الْقَمَرُ قرأ الجمهور: خَسَفَ بفتح الخاء و السين مبنيا للفاعل. و قرأ ابن أبى إسحاق و عيسى و الأعرج و ابن أبى عبلة و أبو حيوة بضم الخاء و كسر السين مبنيا للمفعول، و معنى خسف القمر: ذهب ضوؤه و لا يعود كما يعود إذا خسف فى الدنيا، و يقال: خسف؛ إذا ذهب جميع ضوئه، و كسف: إذا ذهب بعض ضوئه وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ أى: ذهب ضوؤهما جميعا، و لم يقل جمعت لأن التأنيث مجازىّ، قاله المبرد. و قال أبو عبيدة: هو لتغليب المذكر على المؤنث. و قال الكسائى: حمل على معنى جمع النّيران. و قال الزجاج و الفراء: و لم يقل جمعت لأن المعنى جمع بينهما فى ذهاب نورهما، و قيل: جمع بينهما فى طلوعهما من الغرب أسودين مكوّرين مظلمين.

قال عطاء: يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان فى البحر فيكونان نار اللّه الكبرى. و قيل: تجمع الشمس و القمر فلا يكون هناك تعاقب ليل و نهار. و قرأ ابن مسعود: «و جمع بين الشمس و القمر». يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ أى: يقول عند وقوع هذه الأمور أين المفرّ؟ أى: الفرار، و المفرّ: مصدر بمعنى الفرار.

قال الفراء: يجوز أن يكون موضع الفرار، و منه قول الشاعر:

أين المفرّ و الكباش تنتطحو كلّ كبش فرّ منها يفتضح

قال الماوردى: يحتمل وجهين: أحدهما: أين المفرّ من اللّه سبحانه استحياء منه. و الثانى: أين المفرّ من جهنم حذرا منها. قرأ الجمهور: أَيْنَ الْمَفَرُّ بفتح الميم و الفاء مصدرا كما تقدّم. و قرأ ابن عباس و مجاهد و الحسن و قتادة بفتح الميم و كسر الفاء على أنه اسم مكان: أى: أين مكان الفرار؟ و قال الكسائى: هما لغتان مثل مدب و مدب و مصح و مصح، و قرأ الزهرى بكسر الميم و فتح الفاء على أن المراد به الإنسان الجيد الفرار، و منه قول امرئ القيس:

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معاكجلمود صخر حطّه السّيل من عل

أى: جيد الفرّ و الكرّ. كَلَّا لا وَزَرَ أى: لا جبل و لا حصن و لا ملجأ من اللّه. و قال ابن جبير:

لا محيص و لا منعة. و الوزر فى اللغة: ما يلجأ إليه الإنسان من حصن، أو جبل أو غيرهما، و منه قول طرفة:

و لقد تعلم بكر أنّنافاضلو الرّأى و فى الرّوع وزر

و قال آخر:

لعمرى ما للفتى من وزرمن الموت يدركه و الكبر

قال السدّى: كانوا إذا فزعوا فى الدنيا تحصنوا بالجبال، فقال لهم اللّه: و لا وزر يعصمكم منى يومئذ، و كلّا: للردع، أو لنفى ما قبلها، أو بمعنى حقا إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ أى: المرجع و المنتهى و المصير لا إلى غيره، و قيل: إليه الحكم بين العباد لا إلى غيره، و قيل: المستقر: الاستقرار حيث يقرّه اللّه يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ أى: يخبر يوم القيامة بما عمل من خير و شرّ. و قال قتادة: بما عمل من طاعة،

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۰۶

و ما أخّر من طاعة فلم يعمل بها. و قال زيد بن أسلم: بما قدّم من أمواله و ما خلف للورثة. و قال مجاهد:

بأوّل عمله و آخره. و قال الضحاك: بما قدّم من فرض و أخّر من فرض. قال القشيرى: هذا الإنباء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال، و يجوز أن يكون عند الموت. قال القرطبى: و الأوّل أظهر بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ارتفاع بصيرة على أنها خبر الإنسان، «على نفسه» متعلق ببصيرة. قال الأخفش: جعله هو البصيرة كما تقول للرجل: أنت حجة على نفسك، و قيل المعنى: إن جوارحه تشهد عليه بما عمل، كما فى قوله: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ «۱»، و أنشد الفرّاء:

كأنّ على ذى العقل عينا بصيرةبمقعده أو منظر هو ناظره

فيكون المعنى: بل جوارح الإنسان عليه شاهدة. قال أبو عبيدة و القتبى: إن هذه الهاء فى بصيرة هى التى يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة، كما فى قولهم: علامة. و قيل: المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير و شرّ، و التاء على هذا للتأنيث. و قال الحسن: أى بصير بعيوب نفسه وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ أى: و لو اعتذر و جادل عن نفسه لم ينفعه ذلك. يقال: معذرة و معاذير. قال الفرّاء: أى:

و إن اعتذر فعليه من يكذب عذره «۲». و قال الزجاج: المعاذير: الستور، و الواحد معذار، أى: و إن أرخى الستور يريد أن يخفى نفسه فنفسه شاهدة عليه، كذا قال الضحاك و السدّى: و الستر بلغة اليمن يقال له معذار.

كذا قال المبرد. و منه قول الشاعر:

و لكنّها ضنّت بمنزل ساعةعلينا و أطّت يومها بالمعاذر

و الأوّل أولى، و به قال مجاهد و قتادة و سعيد بن جبير و ابن زيد و أبو العالية و مقاتل، و مثله قوله: يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ «٣» و قوله: وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ «۴» و قول الشاعر:

فما حسن أن يعذر المرء نفسهو ليس له من سائر النّاس عاذر

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يحرّك شفتيه و لسانه بالقرآن إذا أنزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحى حرصا على أن يحفظه صلّى اللّه عليه و سلّم، فنزلت هذه الآية، أى: لا تحرّك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحى لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلّت منك، و مثل هذا قوله: وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ «۵» الآية. إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ فى صدرك حتى لا يذهب عليك منه شىء وَ قُرْآنَهُ أى: إثبات قراءته فى لسانك. قال الفرّاء: القراءة و القرآن مصدران. و قال قتادة فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ

---

(١). النور: ٢۴.

(٢). فى القرطبى [١٩/ ١٠٠]: أى و لو اعتذر فقال لم أفعل شيئا لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه.

(٣). غافر: ۵٢.

(۴). المرسلات: ٣۶.

(۵). طه: ١١۴.

أى: شرائعه و أحكامه فَإِذا قَرَأْناهُ أى: أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ أى: قراءته ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ أى: تفسير ما فيه من الحلال و الحرام، و بيان ما أشكل منه. قال الزجاج:

المعنى علينا أن ننزله عليك قرآنا عربيا فيه بيان للناس. و قيل: المعنى: إن علينا أن نبينه بلسانك كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ كلا للردع عن العجلة و الترغيب فى الأناة، و قيل: هى ردع لمن لا يؤمن بالقرآن و بكونه بيّنا من الكفار. قال عطاء: أى: لا يؤمن أبو جهل بالقرآن و بيانه. قرأ أهل المدينة و الكوفيون: بَلْ تُحِبُّونَ وَ تَذَرُونَ بالفوقية فى الفعلين جميعا. و قرأ الباقون بالتحتية فيهما، فعلى القراءة الأولى يكون الخطاب لهم تقريعا و توبيخا، و على القراءة الثانية يكون الكلام عائدا إلى الإنسان لأنه بمعنى الناس، و المعنى:

تحبون الدنيا و تتركون الْآخِرَةَ فلا تعملون لها وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ أى: ناعمة غضّة حسنة، يقال: شجر ناضر و روض ناضر، أى: حسن ناعم، و نضارة العيش: حسنه و بهجته. قال الواحدى و المفسرون: يقولون مضيئة مسفرة مشرقة إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ هذا من النظر، أى: إلى خالقها و مالك أمرها ناظِرَةٌ أى: تنظر إليه، هكذا قال جمهور أهل العلم، و المراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون ربهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر. قال ابن كثير: و هذا بحمد اللّه مجمع عليه بين الصحابة و التابعين و سلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام و هداة الأنام. و قال مجاهد:

أن النظر هنا انتظار ما لهم عند اللّه من الثواب، و روى نحوه عن عكرمة، و قيل: لا يصح هذا إلا عن مجاهد وحده. قال الأزهرى:

و قول مجاهد خطأ لأنه لا يقال: نظر إلى كذا بمعنى الانتظار. و إن قول القائل:

نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، إذا أرادوا الانتظار قالوا: نظرته، كما فى قول الشاعر:

فإنّكما إن تنظرانى ساعةمن الدّهر تنفعنى لدى أمّ جندب

فإذا أرادوا نظر العين قالوا: نظرت إليه، كما قال الشاعر «١»:

نظرت إليها و النّجوم كأنّهامصابيح رهبان تشبّ لقفّال «٢»

و قول الآخر:

إنّى إليك لما وعدت لناظرنظر الفقير إلى الغنىّ الموسر

أى: أنظر إليك نظر ذلّ كما ينظر الفقير إلى الغنىّ. و أشعار العرب و كلماتهم فى هذه كثيرة جدّا.

و «وجوه» مبتدأ، و جاز الابتداء به مع كونه نكرة، لأن المقام مقام تفصيل، و «ناضرة» صفة لوجوه، و «يومئذ» ظرف لناضرة، و لو لم يكن المقام مقام تفصيل لكان وصف النكرة بقوله: ناضِرَةٌ مسوّغا للابتداء بها، و لكن مقام التفصيل بمجرده مسوّغ للابتداء بالنكرة وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ أى: كالحة

---

(١). هو امرؤ القيس.

(٢). «تشب»: توقد. «القفال»: جمع قافل، و هو الراجع من السفر.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٤٠٨

عابسة كئيبة. قال فى الصحاح: بسر الرجل وجهه بسورا، أى: كلح. قال السدىّ: باسِرَةٌ أى:

متغيرة، و قيل: مصفرّة، و المراد بالوجوه هنا وجوه الكفار تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ الفاقرة: الداهية العظيمة، يقال: فقرته الفاقرة، أى: كسرت فقار ظهره. قال قتادة: الفاقرة: الشرّ، و قال السدّى:

الهلاك، و قال ابن زيد: دخول النار. و أصل الفاقرة: الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم، كذا قال الأصمعى، و من هذا قولهم: قد عمل به الفاقرة. قال النابغة:

أبى لى قبر لا يزال مقابلىو ضربة فأس فوق رأسى فاقره

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ قال: يقسم ربك بما شاء من خلقه، قلت: وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ قال: النفس اللؤوم «١»، قلت: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ- بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ قال: لو شاء لجعله خفا أو حافرا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه اللَّوَّامَةِ قال:

المذمومة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا قال: التى تلوم على الخير و الشرّ، تقول: لو فعلت كذا و كذا. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: تندم على ما فات و تلوم عليه. و أخرج ابن جرير عنه أيضا بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ قال: يمضى قدما. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال:

هو الكافر الّذى يكذب بالحساب. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: يعنى الأمل، يقول: أعمل ثم أتوب. و أخرج ابن أبى الدنيا فى ذمّ الأمل، و البيهقى فى الشعب، عنه أيضا فى الآية قال: يقدّم الذنب و يؤخّر التوبة. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عنه أيضا بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ يقول: سوف أتوب يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ قال: يقول متى يوم القيامة، قال: فبين له فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ. و أخرج ابن جرير عنه قال:

فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ يعنى الموت.

و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: لا وَزَرَ قال: لا حصن. و أخرج عبد

بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله:

لا ـ وَزَرَ قال: لا حصن و لا ملجأ، و فى لفظ: لا حرز، و فى لفظ: لا جبل. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله: يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ قال:

بما قدّم من عمل، و أخر من سنّة عمل بها من بعده من خير أو شرّ. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: بما قدّم من المعصية و أخّر من الطاعة فينبأ بذلك.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر من طرق عنه فى قوله: بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ قال:

شهد على نفسه وحده وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ قال: و لو اعتذر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى

---

(١). فى الدر المنثور (٨/ ٣٤٢): الملومة.

حاتم عنه بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ قال: سمعه و بصره و يديه و رجليه و جوارحه وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ قال: و لو تجرّد من ثيابه. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعالج من التنزيل شدّة، فكان يحرّك به لسانه و شفتيه مخافة أن يتفلت منه يريد أن يحفظه، فأنزل اللّه: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ قال: يقول إنّ علينا أن نجمعه فى صدرك ثم تقرأه فَإِذا قَرَأْناهُ يقول: إذا أنزلناه عليك فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ فاستمع له و أنصت ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ أن نبيّه بلسانك، و فى لفظ: علينا أن نقرأه، فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق. و فى لفظ: استمع، فإذا ذهب قرأه كما وعده اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فَإِذا قَرَأْناهُ قال: بيناه فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ يقول:

اعمل به. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، عن ابن مسعود فى قوله: كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ قال: عجلت لهم الدنيا شرّها و خيرها، و غيبت الآخرة.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ قال: ناعمة. و أخرج ابن المنذر، و الآجرى فى الشريعة، و اللالكائى فى السنة، و البيهقى فى الرؤية، عنه وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ قال: يعنى حسنها إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ قال: نظرت إلى الخالق. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ قال:

تنظر إلى وجه ربّها. و أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ- إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ قال: ينظرون إلى ربهم بلا كيفية و لا حدّ محدود و لا صفة معلومة». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال الناس: يا رسول اللّه هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال:

«هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول اللّه، قال: فهل تضارّون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول اللّه، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى هريرة نحوه. و قد قدّمنا أن أحاديث الرؤية متواترة فلا نطيل بذكرها، و هى تأتى فى مصنف مستقلّ، و لم يتمسك من نفاها و استبعدها بشى‌ء يصلح للتمسك به لا من كتاب اللّه و لا من سنّة رسوله.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و الدار قطنى و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه و أزواجه و نعيمه و خدمه و سرره مسيرة ألف سنة، و أكرمهم على اللّه من ينظر إلى وجهه غدوة و عشية، ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ- إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ». و أخرجه أحمد فى المسند من حديثه بلفظ: «إن أفضلهم منزلة لينظر فى وجه اللّه كل يوم مرّتين». و أخرج النسائى، و الدار قطنى و صححه، و أبو نعيم عن أبى هريرة قال: «قلنا: يا رسول اللّه هل نرى ربنا، قال: هل ترون الشمس فى يوم لا غيم فيه، و ترون القمر فى ليلة لا غيم فيها؟ قلنا: نعم، قال: فإنكم سترون ربكم عزّ و جلّ، حتى إن أحدكم

ليحاضره ربّه محاضرة، فيقول: عبدى هل تعرف ذنب كذا و كذا؟ فيقول: أ لم تغفر لى؟ فيقول: بمغفرتى صرت إلى هذا».

[سورة القيامة (٧٥): الآيات ٢٦ الى ٤٠]

كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (٢٦) وَ قِيلَ مَنْ راقٍ (٢٧) وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (٢٨) وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (٣٠) فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّى (٣١) وَ لكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (٣٤) ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (٣٥)

أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (٣٦) أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى (٣٧) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى (٣٩) أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى (٤٠)

قوله: كَلَّا ردع و زجر، أى: بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة، ثم استأنف، فقال: إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ أى: بلغت النفس أو الروح التراقى، و هى جمع ترقوة، و هى عظم بين نقرة النحر و العاتق، و يكنى ببلوغ النفس التراقى عن الإشفاء على الموت، و مثله قوله: فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ «١» و قيل:

معنى كَلَّا حقا، أى: حقا أن المساق إلى اللّه إذا بلغت التراقى، و المقصود تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت. قال دريد بن الصّمّة:

و ربّ كريهة دافعت عنهمو قد بلغت نفوسهم التراقى

وَ قِيلَ مَنْ راقٍ أى: قال من حضر صاحبها: من يرقيه و يشتفى برقيته؟ .. قال قتادة: التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء اللّه شيئا، و به قال أبو قلابة، و منه قول الشاعر:

هل للفتى من بنات الدّهر من واق أم هل له من حمام الموت من راق

و قال أبو الجوزاء: هو من رقى يرقى؛ إذا صعد، و المعنى: من يرقى بروحه إلى السماء أ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ و قيل: إنه يقول ذلك ملك الموت، و ذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ أى: و أيقن الّذى بلغت روحه التراقى أنه الفراق من الدنيا و من الأهل و المال و الولد وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ أى: التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به. و قال جمهور المفسرين: المعنى تتابعت عليه الشدائد. و قال الحسن: هما ساقاه إذا التفتا فى الكفن. و قال زيد بن أسلم: التفت ساق الكفن بساق الميت، و قيل: ماتت رجلاه و يبست ساقاه فلم تحملاه، و قد كان جوّالا عليهما. و قال الضحاك: اجتمع عليه أمران شديدان: الناس يجهزون جسده، و الملائكة يجهزون روحه. و به قال ابن زيد. و العرب لا تذكر الساق إلا فى الشدائد الكبار، و المحن العظام، و منه قولهم: قامت الحرب على ساق. و قيل: الساق الأوّل تعذيب روحه عند خروج نفسه، و الساق الآخر شدّة البعث و ما بعده إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ أى: إلى خالقك يوم القيامة المرجع، و ذلك جمع العباد إلى اللّه يساقون إليه فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّى أى: لم يصدّق بالرسالة

---

(١). الواقعة: ٨٣.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤١١
و لا بالقرآن، و لا صلّى لربه، و الضمير يرجع إلى الإنسان المذكور فى أوّل هذه السورة. قال قتادة: فلا صدّق بكتاب اللّه و لا صلّى للّه، و قيل: فلا آمن بقلبه و لا عمل ببدنه. قال الكسائى لا بمعنى لم، و كذا قال الأخفش:
و العرب تقول: لا ذهب، أى: لم يذهب، و هذا مستفيض فى كلام العرب، و منه:
إن تغفر اللّهمّ تغفر جمّاو أىّ عبد لك لا ألمّا
وَ لكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى أى: كذّب بالرسول و بما جاء به، و تولّى عن الطاعة و الإيمان ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى أى: يتبختر و يختال فى مشيته افتخارا بذلك. و قيل: هو مأخوذ من المطى و هو الظهر، و المعنى: يلوى مطاه. و قيل: أصله يتمطط، و هو التمدّد و التثاقل، أى: يتثاقل و يتكاسل عن الداعى إلى الحق أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى أى: وليك الويل، و أصله أولاك اللّه ما تكرهه، و اللام مزيدة كما فى رَدِفَ لَكُمْ «١» و هذا تهديد شديد، و التكرير للتأكيد، أى: يتكرر عليك ذلك مرة بعد مرة.
قال الواحدى: قال المفسرون: أخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بيد أبى جهل، ثم قال: أَوْلى لَكَ فَأَوْلى فقال أبو جهل: بأىّ شى‏ء تهدّدنى لا تستطيع أنت و لا ربك أن تفعلا بى شيئا، و إنى لأعزّ أهل هذا الوادى، فنزلت هذه الآية. و قيل: معناه: الويل لك، و منه قول الخنساء:
هممت بنفسى كل الهمومفأولى لنفسى أولى لها
و على القول بأنه الويل، قيل: هو من المقلوب كأنه قيل: أويل لك، ثم أخّر الحرف المعتل. قيل: و معنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات، و الويل لك حيا، و الويل لك ميتا، و الويل لك يوم البعث، و الويل لك يوم تدخل النار. و قيل: المعنى: إن الذمّ لك أولى لك من تركه. و قيل: المعنى: أنت أولى و أجدر بهذا العذاب قاله ثعلب. و قال الأصمعى: أولى فى كلام العرب معناه مقاربة الهلاك. قال المبرّد: كأنه يقول: قد وليت الهلاك و قد دانيته، و أصله من الولى، و هو القرب، و أنشد الفراء:
فأولى أن يكون لك الولاء «٢» أى: قارب أن يكون لك، و أنشد أيضا:
أولى لمن هاجت له أن يكمدا أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً أى: هملا، لا يؤمر و لا ينهى، و لا يحاسب و لا يعاقب، و قال السدى: معناه المهمل، و منه إبل سدى، أى: ترعى بلا راع، و قيل: المعنى: أ يحسب أن يترك فى قبره كذلك أبدا لا يبعث. و جملة أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى مستأنفة، أى: ألم يك ذلك الإنسان قطرة من منّى يراق فى الرحم، و سمّى المنىّ منيا لإراقته، و النطفة: الماء القليل، يقال: نطف الماء؛ إذا قطر.

---

(١). النمل: ٧٢.

(٢). فى القرطبى قاله الأصمعى هكذا: و أولى أن يكون له الولاء.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤١٢
قرأ الجمهور أَ لَمْ يَكُ بالتحتية على إرجاع الضمير إلى الإنسان. و قرأ الحسن بالفوقية على الالتفات إليه توبيخا له. و قرأ الجمهور أيضا: تمنى بالفوقية على أن الضمير للنطفة. و قرأ حفص و ابن محيصن و مجاهد و يعقوب بالتحتية على أن الضمير للمنى، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو، و اختارها أبو حاتم ثُمَّ كانَ عَلَقَةً أى: كان بعد النطفة علقة، أى: دما فَخَلَقَ أى: فقدّر بأن جعلها مضغة مخلّقة فَسَوَّى أى: فعدّله و كمل نشأته و نفخ فيه الروح فَجَعَلَ مِنْهُ أى: حصل من الإنسان، و قيل: من المنىّ الزَّوْجَيْنِ أى: الصنفين من نوع الإنسان. ثم بين ذلك فقال: الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى أى: الرجل و المرأة أَ لَيْسَ ذلِكَ أى: أ ليس ذلك الّذى أنشأ هذا

الخلق البديع و قدر عليه بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى أى: يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه فى الدنيا؛ فإن الإعادة أهون من الابتداء، و أيسر مؤنة منه. قرأ الجمهور: بِقادِرٍ و قرأ زيد بن علىّ: يقدر فعلا مضارعا، و قرأ الجمهور: يُحْيِيَ بنصبه بأن. و قرأ طلحة بن سليمان و الفياض بن غزوان بسكونها تخفيفا، أو على إجراء الوصل مجرى الوقف كما مرّ فى مواضع.

و قد أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قِيلَ مَنْ راقٍ قال: تنتزع نفسه حتى إذا كانت فى تراقيه، قيل: من يرقى بروحه؛ ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب؟

وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ قال: التفت عليه الدنيا و الآخرة و ملائكة العذاب أيهم يرقى به. و أخرج عبد ابن حميد عنه وَ قِيلَ مَنْ راقٍ قال: من راق يرقى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ يقول: آخر يوم من أيام الدنيا و أوّل يوم من أيام الآخرة، فتلتقى الشدّة بالشدّة إلا من رحم اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا يَتَمَطَّى قال: يختال.

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: أَوْلى لَكَ فَأَوْلى أ شىء قاله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأبى جهل من قبل نفسه، أم أمره اللّه به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه، ثم أنزله اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَنْ يُتْرَكَ سُدىً قال: هملا. و أخرج عبد بن حميد و ابن الأنبارى عن صالح أبى الخليل قال: «كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إذا قرأ هذه الآية أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى قال: سبحانك اللهم و بلى». و أخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال: لما نزلت هذه الآية أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى قال الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم: «سبحانك ربى و بلى». و أخرج ابن النجار فى تاريخه عن أبى أمامة أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول عند قراءته لهذه الآية: «بلى و أنا على ذلك من الشاهدين». و أخرج أحمد و أبو داود و الترمذى و ابن المنذر، و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ منكم و التين و الزيتون فانتهى إلى آخرها»: أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ «۱» فليقل: بلى و أنا على ذلك من الشاهدين. و من قرأ: لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ فانتهى

---

(۱). التين: ۸.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۱۳

إلى قوله: أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى فليقل: بلى، و من قرأ: وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً فبلغ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ «۱» فليقل: آمنا باللّه» و فى إسناده رجل مجهول. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا قرأت: لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ فبلغت أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى فقل: بلى».

---

(۱). سورة المرسلات بتمامها.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۱۴

سورة الإنسان

اشارة

قال الجمهور: هى مدنية. و قال مقاتل و الكلبى: هى مكية. و أخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. و أخرج ابن مردويه

عن ابن الزبير مثله، و قيل: فيها مكى من قوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا «۱» إلى آخر السورة، و ما قبله مدنىّ. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «سل و استفهم»، فقال:

يا رسول اللّه فضلتم علينا بالألوان و الصور و النبوّة، أ فرأيت إن آمنت بما آمنت به و عملت بما عملت به؛ أنى كائن معك فى الجنة؟ قال: «نعم و الّذى نفسى بيده إنه ليرى بياض الأسود فى الجنة من مسيرة ألف عام، ثم قال: من قال: لا إله إلا اللّه كان له عهد عند اللّه. و من قال: سبحان اللّه و بحمده كتب له مائة ألف حسنة و أربعة و عشرون ألف حسنة» و نزلت هذه السورة: هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ إلى قوله: مُلْكاً كَبِيراً فقال الحبشىّ: و إن عينى لترى ما ترى عيناك فى الجنة؟ قال: «نعم»، فاشتكى حتى فاضت نفسه. قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يدليه فى حفرته بيده.

و أخرج أحمد فى الزهد عن محمد بن مطرف قال: حدّثنى الثقة: أن رجلا أسود كان يسأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن التسبيح و التهليل، فقال له عمر بن الخطاب: أكثرت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال: مه يا عمر. و أنزلت على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ حتى إذا أتى على ذكر الجنة زفر الأسود زفرة خرجت نفسه، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «مات شوقا إلى الجنة».

و أخرج نحوه ابن وهب عن ابن زيد مرفوعا مرسلا. و أخرج أحمد و الترمذى و حسنه و ابن ماجة و ابن منيع، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صححه، و الضّياء عن أبى ذرّ قال: «قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حتى ختمها، ثم قال: إنى أرى ما لا ترون و أسمع ما لا تسمعون، أطت السماء و حقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا و ملك واضع جبهته ساجدا للّه، و اللّه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا و لبكيتم كثيرا، و ما تلذذتم بالنساء على الفرش، و لخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى اللّه عزّ و جلّ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١ الى ١٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً (٢) إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً (٣) إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالاً وَ سَعِيراً (۴)

إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً (۵) عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً (۶) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧) وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً (٨) إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً (٩)

إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (١٠) فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً (١١) وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً (١٢)

---

(١). الإنسان: ٢٣.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۱۵

حكى الواحدى عن المفسرين و أهل المعانى أن هَلْ هنا بمعنى قد، و ليس باستفهام، و قد قال بهذا سيبويه و الكسائى و الفراء و

أبو عبيدة. قال الفراء: «هل» تكون جحدا، و تكون خبرا، فهذا من الخبر، لأنك تقول: هل أعطيتك؟ تقرّره بأنك أعطيته، و الجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا؟ و قيل:

هى و إن كانت بمعنى قد ففيها معنى الاستفهام، و الأصل: أهل أتى، فالمعنى: أقد أتى، و الاستفهام للتقرير و التقريب، و المراد بالإنسان هنا آدم، قاله قتادة و الثورى و عكرمة و السدّى و غيرهم حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ قيل: أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح، و قيل: إنه خلق من طين أربعين سنة، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة، ثم من صلصال أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة و عشرين سنة. و قيل: الحين المذكور هنا لا يعرف مقداره، و قيل: المراد بالإنسان بنو آدم، و الحين مدّة الحمل، و جملة: لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً فى محل نصب على الحال من الإنسان، أو فى محل رفع صفة لحين. قال الفراء و قطرب و ثعلب: المعنى أنه كان جسدا مصوّرا ترابا و طينا لا يذكر و لا يعرف و لا يدرى ما اسمه و لا ما يراد به، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكورا.

و قال يحيى بن سلام: لم يكن شيئا مذكورا فى الخلق و إن كان عند اللّه شيئا مذكورا، و قيل: ليس المراد بالذكر هنا الإخبار، فإن إخبار الربّ عن الكائنات قديم، بل هو الذكر بمعنى الخطر و الشرف، كما فى قوله: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ «۱». قال القشيرى: ما كان مذكورا للخلق و إن كان مذكورا للّه سبحانه. قال الفراء:

كان شيئا و لم يكن مذكورا. فجعل النفى متوجها إلى القيد. و قيل: المعنى: قد مضت أزمنة و ما كان آدم شيئا و لا مخلوقا و لا مذكورا لأحد من الخليقة. و قال مقاتل: فى الكلام تقديم و تأخير، و تقديره: هل أتى حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله، و لم يخلق بعده حيوان إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ المراد بالإنسان هنا ابن آدم. قال القرطبى: من غير خلاف، و النطفة: الماء الّذى يقطر، و هو المنىّ، و كل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة، و جمعها نطف، و أَمْشاجٍ صفة لنطفة، و هى جمع مشج، أو مشيج، و هى الأخلاط، و المراد نطفة الرجل و نطفة المرأة و اختلاطهما. يقال: مشج هذا بهذا فهو ممشوج، أى: خلط هذا بهذا فهو مخلوط. قال المبرد: مشج يمشج إذا اختلط، و هو هنا اختلاط النطفة بالدم. قال رؤبة بن العجاج:

يطرحن كلّ معجل نشّاج لم يكس جلدا فى دم أمشاج

---

(۱). الزخرف: ۴۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۱۶

قال الفراء: أمشاج: اختلاط ماء الرجل و ماء المرأة و الدم و العلقة، و يقال: مشج هذا؛ إذا خلط، و قيل: الأمشاج: الحمرة فى البياض و البياض فى الحمرة. قال القرطبى: و هذا قول يختاره كثير من أهل اللغة.

قال الهذلى:

كأنّ الرّيش و الفوقين منه خلاف النّصل سيط به «۱» مشيج

و ذلك لأن ماء الرجل أبيض غليظ و ماء المرأة أصفر رقيق فيخلق منهما الولد. قال ابن السّكّيت: الأمشاج:

الأخلاط لأنها ممتزجة من أنواع يخلق الإنسان منها ذا طباع مختلفة. و قيل: الأمشاج لفظ مفرد كبرمة أعشار، و يؤيد هذا وقوعه نعتا لنطفة، و جملة: نَبْتَلِيهِ فى محل نصب على الحال من فاعل خلقنا، أى: مريدين ابتلاءه، و يجوز أن يكون حالا من الإنسان، و المعنى: نبتليه بالخير و الشرّ و بالتكاليف. قال الفراء: معناه و اللّه أعلم: فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً لنبتليه و هى مقدّمة معناها التأخير؛ لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة، و على هذا تكون هذه الحال مقدّرة، و قيل: مقارنة. و قيل: معنى الابتلاء: نقله من حال إلى حال على طريقة الاستعارة، و الأوّل أولى. ثم ذكر سبحانه أنه أعطاه ما يصحّ معه الابتلاء فقال: إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً أى: بينّا له، و عرّفناه طريق الهدى و الضّلال و الخير و الشّرّ؛ كما فى قوله:

وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ «٢» قال مجاهد: أى بينا السبيل إلى الشقاء و السعادة. و قال الضحاك و السدّى و أبو صالح: السبيل هنا خروجه من الرحم، و قيل: منافعه و مضارّه التى يهتدى إليها بطبعه و كمال عقله، و انتصاب شاكرا و كفورا على الحال من مفعول هَدَيْناهُ أى: مكناه من سلوك الطريق فى حالتيه جميعا، و قيل:

على الحال من سبيل على المجاز، أى: عرّفناه السبيل إما سبيلا شاكرا و إما سبيلا كفورا. و حكى مكّى عن الكوفيين أن قوله: إما: هى إن شرطية زيدت بعدها ما، أى: بيّنا له الطريق إن شكر و إن كفر. و اختار هذا الفرّاء، و لا يجيزه البصريون لأن إن الشرطية لا تدخل على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل، و لا يصح هنا إضمار الفعل لأنه كان يلزم رفع شاكرا و كفورا. و يمكن أن يضمر فعل ينصب شاكرا و كفورا، و تقديره:

إن خلقناه شاكرا فشكور و إن خلقناه كافرا فكفور، و هذا على قراءة الجمهور: إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً بكسر همزة إما. و قرأ ابن السّمّال و أبو العجاج بفتحها، و هى على الفتح إما العاطفة فى لغة بعض العرب، أو هى التفصيلية و جوابها مقدّر، و قيل: انتصب شاكرا و كفورا بإضمار كان، و التقدير: سواء كان شاكرا أو كان كفورا. ثم بيّن سبحانه ما أعدّ للكافرين فقال: إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالًا وَ سَعِيراً قرأ نافع و الكسائى و أبو بكر عن عاصم و هشام عن ابن عامر سلاسلا بالتنوين، و وقف قنبل و ابن كثير و حمزة بغير ألف، و الباقون وقفوا بالألف. و وجه من قرأ بالتنوين فى سلاسل مع كون فيه صيغة منتهى الجموع أنه قصد بذلك التناسب لأن ما قبله و هو: إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً، و ما بعده و هو أَغْلالًا وَ سَعِيراً

---

(١). «سيط به»: أى خرج شىء من الريش مختلط من الدم و الماء.

(٢). البلد: ١٠.

منوّن؛ أو على لغة من يصرف جميع ما لا ينصرف كما حكاه الكسائى و غيره من الكوفيين عن بعض العرب.

قال الأخفش: سمعنا من العرب من يصرف كل ما لا ينصرف، لأن الأصل فى الأسماء الصرف و ترك الصرف لعارض فيها. قال الفراء: هو على لغة من يجرّ الأسماء كلها إلا قولهم: هو أظرف منك فإنهم لا يجرونه، و أنشد ابن الأنبارى فى ذلك قول عمرو بن كلثوم:

كأنّ سيوفنا فينا و فيهم مخاريق بأيدى لاعبينا

و من ذلك قول الشاعر:

و إذا الرّجال رأوا يزيد رأيتهم خضع الرّقاب نواكس الأبصار

بكسر السين من نواكس، و قول لبيد:

و جزور أستار دعوت لحتفها بمغالق متشابه أعلاقها

و قوله أيضا:

فضلا و ذو كرم يعين على النّدى سمح كسوب رغائب غنّامها

و قيل: إن التنوين لموافقة رسم المصاحف المكية و المدنية و الكوفية فإنها فيها بالألف، و قيل: إن هذا التنوين بدل من حرف الإطلاق، و يجرى الوصل مجرى الوقف، و السلاسل قد تقدّم تفسيرها، و الخلاف فيها هل هى القيود، أو ما يجعل فى الأعناق، كما فى قول الشاعر:

... و لكن أحاطت بالرّقاب السلاسل و الأغلال

جمع غلّ تغل به الأيدى إلى الأعناق، و السعير: الوقود الشديد، و قد تقدّم تفسير السعير.

ثم ذكر سبحانه ما أعدّه للشاكرين فقال: إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ الأبرار: أهل الطاعة و الإخلاص و الصدق، جمع برّ أو: بارّ. قال فى الصحاح: جمع البرّ الأبرار، و جمع البارّ البررة، و فلان يبرّ خالقه و يبرره، أى: يطيعه. و قال الحسن: البرّ الّذى لا يؤذى الذرّ. و قال قتادة: الأبرار الذين يؤدّون حق اللّه و يوفون بالنذر. و الكأس فى اللغة هو الإناء الّذى فيه الشراب، و إذا لم يكن فيه الشراب لم يسمّ كأسا، و لا وجه لتخصيصه بالزجاجة، بل يكون من الزجاج و من الذهب و الفضة و الصينى و غير ذلك، و قد كانت كاسات العرب من أجناس مختلفة، و قد يطلق الكأس على نفس الخمر كما فى قول الشاعر:

و كأس شربت على لذّةو أخرى تداويت منها بها

كانَ مِزاجُها كافُوراً أى: يخالطها و تمزج به، يقال مزجه يمزجه مزجا، أى: خلطه يخلطه خلطا، و منه قول الشاعر «١»:

---

(١). هو حسان.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤١٨ كأنّ سبيئة من بيت رأسكان مزاجها عسل و ماء

و قول عمرو بن كلثوم:

صددت الكأس عنّا أمّ عمروو كان الكأس مجراها اليمينا

معتّقة «١» كأنّ الحصّ «٢» فيهاإذا ما الماء خالطها سخينا

و منه مزاج البدن، و هو ما يمازجه من الأخلاط، و كافُوراً قيل: هو اسم عين فى الجنة يقال لها الكافور تمزج خمر الجنة بماء هذه العين. و قال قتادة و مجاهد: تمزج لهم بالكافور و تختم لهم بالمسك. و قال عكرمة: مزاجها طعمها، و قيل: إنما الكافور فى ريحها لا فى طعمها. و قيل: إنما أراد الكافور فى بياضه و طيب رائحته و برده، لأن الكافور لا يشرب كما فى قوله: حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً «٣» أى ك: نار. و قال ابن كيسان:

طيبها المسك و الكافور و الزنجبيل. و قال مقاتل: ليس هو كافور الدنيا، و إنما سمى اللّه ما عنده بما عندكم حتى تهتدى له القلوب، و الجملة فى محل جرّ صفة لكأس. و قيل: إن كان هنا زائدة، أى: من كأس مزاجها كافورا عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ انتصاب عينا على أنها بدل من كافُوراً، لأن ماءها فى بياض الكافور. و قال مكى: إنها بدل من محل مِنْ كَأْسٍ على حذف مضاف، كأنه قيل: يشربون خمرا خمر عين، و قيل: إنها منتصبة على أنها مفعول يشربون، أى: عينا من كأس، و قيل: هى منتصبة على الاختصاص، قاله الأخفش، و قيل: منتصبة بإضمار فعل يفسره ما بعده، أى: يشربون عينا يشرب بها عباد اللّه، و الأوّل أولى، و تكون و جملة يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ صفة لعينا. و قيل: إن الباء فى يَشْرَبُ بِها زائدة، و قيل: بمعنى من، قاله الزجاج، و يعضده قراءة ابن أبى عبلة «يشربها عباد اللّه». و قيل:

إن يشرب مضمن معنى يلتذّ، و قيل: هى متعلقة بيشرب، و الضمير يعود إلى الكأس. و قال الفراء: يشربها و يشرب بها سواء فى المعنى، و كأنّ يشرب بها يروى بها و ينتفع بها، و أنشد قول الهذلى:

شربن بماء البحر ثمّ ترفّعت «٤» قال: و مثله تكلم بكلام حسن، و تكلم كلاما حسنا يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً أى: يجرونها إلى حيث يريدون و ينتفعون بها كما يشاءون، و يتبعهم ماؤها إلى كل مكان يريدون وصوله إليه، فهم يشقّونها شقّا كما يشقّ النهر و يفجر إلى هنا و هنا. قال مجاهد: يقودونها حيث شاؤوا، و تتبعهم حيث مالوا مالت معهم، و الجملة صفة أخرى لعينا، و جملة يُوفُونَ بِالنَّذْرِ مستأنفة مسوقة لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر. و كذا ما عطف عليها، و معنى النذر فى اللغة الإيجاب، و المعنى: يوفون بما أوجبه اللّه عليهم من الطاعات. قال قتادة و مجاهد: و يوفون بطاعة اللّه

(۱). فی شرح المعلقات السبع: مشعشعهٔ.

(۲). «الحص»: الورس، و هو نبت له نوار أحمر؛ یشبه الزعفران.

(۳). الکهف: ۹۶.

(۴). و عجز البیت: متی لجج خضر لهنّ نئیج. و «نئیج»: أی: مرّ سریع مع صوت.

من الصلاهٔ و الحج و نحوهما. و قال عکرمهٔ: یوفون إذا نذروا فی حق اللّه سبحانه، و النذر فی الشرع: ما أوجبه المکلف علی نفسه، فالمعنی: یوفون بما أوجبوه علی أنفسهم. قال الفراء: فی الکلام إضمار، أی: کانوا یوفون بالنذر فی الدنیا. و قال الکلبی: یُوفُونَ بِالنَّذْرِ أی: یتممون العهد. و الأولی حمل النذر هنا علی ما أوجبه العبد علی نفسه من غیر تخصیص. وَ یَخافُونَ یَوْماً کانَ شَرُّهُ مُسْتَطِیراً المراد یوم القیامهٔ، و معنی استطارهٔ شرّه: فشوّه و انتشاره، یقال: استطار یستطیر استطارهٔ فهو مستطیر، و هو استفعل من الطیران، و منه قول الأعشی:

فبانت و قد أسأرت فی الفؤاد صدعا علی نأیها مستطیرا

و العرب تقول: استطار الصدع فی القارورهٔ و الزجاجهٔ؛ إذا امتدّ، و یقال: استطار الحرق؛ إذا انتشر.

قال الفرّاء: المستطیر: المستطیل. قال قتادهٔ: استطار شرّ ذلک الیوم حتی ملأ السموات و الأرض. قال مقاتل: کان شرّه فاشیا فی السموات فانشقت و تناثرت الکواکب و فزعت الملائکهٔ، و فی الأرض نسفت الجبال و غارت المیاه. وَ یُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلی حُبِّهِ مِسْکِیناً وَ یَتِیماً وَ أَسِیراً أی: یطعمون هؤلاء الثلاثهٔ الأصناف الطعام علی حبّه لدیهم و قلّته عندهم. قال مجاهد: علی قلّته و حبهم إیاه و شهوتهم له؛ فقوله عَلی حُبِّهِ فی محل نصب علی الحال، أی: کائنین علی حبه، و مثله قوله: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّی تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ «۱» و قیل: علی حبّ الإطعام لرغبتهم فی الخیر. قال الفضیل بن عیاض: علی حبّ إطعام الطعام. و قیل: الضمیر فی حبه یرجع إلی اللّه، أی: یطعمون الطعام علی حبّ اللّه، أی: یطعمون إطعاما کائنا علی حبّ اللّه، و یؤید هذا قوله: إِنَّما نُطْعِمُکُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ و المسکین: ذو المسکنهٔ، و هو الفقیر، أو من هو أفقر من الفقیر، و المراد بالیتیم یتامی المسلمین، و الأسیر: الّذی یؤسر فیحبس. قال قتادهٔ و مجاهد: الأسیر: المحبوس. و قال عکرمهٔ: الأسیر: العبد. و قال أبو حمزهٔ الثّمالی: الأسیر: المرأهٔ. قال سعید بن جبیر: نسخ هذا الإطعام آیهٔ الصدقات و آیهٔ السیف فی حق الأسیر الکافر. و قال غیره: بل هی محکمهٔ، و إطعام المسکین و الیتیم علی التطوّع، و إطعام الأسیر لحفظ نفسه إلّا أن یتخیر فیه الإمام، و جملهٔ إِنَّما نُطْعِمُکُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ فی محل نصب علی الحال بتقدیر القول، أی: یقولون إنما نطعمکم، أو قائلین: إنما نطعمکم، یعنی: أنهم لا یتوقعون المکافأهٔ و لا یریدون ثناء الناس علیهم بذلک. قال الواحدی: قال المفسرون: لم یستکملوا بهذا، و لکن علمه اللّه من قلوبهم فأثنی علیهم، و علم من ثنائه أنهم فعلوا ذلک خوفا من اللّه و رجاء ثوابه لا نُرِیدُ مِنْکُمْ جَزاءً وَ لا شُکُوراً أی: لا نطلب منکم المجازاهٔ علی هذا الإطعام و لا نرید منکم الشکر لنا، بل هو خالص لوجه اللّه، و هذه الجملهٔ مقررهٔ لما قبلها، لأن من أطعم لوجه اللّه لا یرید المکافأهٔ و لا یطلب الشکر له ممّن أطعمه إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا یَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِیراً أی: نخاف عذاب یوم متّصف بهاتین الصفتین. و معنی عبوسا:

أنه یوم تعبس فیه الوجوه من هوله و شدته، فالمعنی: أنه ذو عبوس. قال الفراء و أبو عبیدهٔ و المبرد: یوم قمطریر

(۱). آل عمران: ۹۲.

و قماطر؛ إذا كان صعبا شديدا، و أنشد الفراء:

بنى عمّنا هل تذكرون بلاءناعليكم إذا ما كان يوم قماطر

قال الأخفش: القمطرير أشد ما يكون من الأيام و أطوله فى البلاء، و منه قول الشاعر:

ففرّوا إذا ما الحرب ثار غبارهاو لجّ بها اليوم العبوس القماطر

قال الكسائى: اقمطرّ اليوم و ازمهرّ؛ إذا كان صعبا شديدا، و منه قول الشاعر «۱»:

بنو الحرب أرضعنا لهم مقمطرةو من يلق منّا ذلك اليوم يهرب

و قال مجاهد: إن العبوس بالشفتين، و القمطرير بالجبهة و الحاجبين، فجعلهما من صفات المتغيّر فى ذلك اليوم لما يراه من الشدائد، و أنشد ابن الأعرابى:

يغدو على الصّيد يعود منكسرو يقمطرّ ساعة و يكفهر

قال أبو عبيدة: يقال قمطرير، أى: متقبض ما بين العينين و الحاجبين. قال الزجاج: يقال اقمطرّت الناقة؛ إذا رفعت ذنبها و جمعت قطريها و زمّت بأنفها، فاشتقّه من القطر، و جعل الميم مزيدة. فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ أى: دفع عنهم شرّه بسبب خوفهم منه و إطعامهم لوجهه وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً أى:

أعطاهم بدل العبوس فى الكفار نضرة فى الوجوه و سرورا فى القلوب. قال الضحاک: و النضرة: البياض و النقاء فى وجوههم. و قال سعيد بن جبير: الحسن و البهاء، و قيل: النضرة أثر النعمة. وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا أى: بسبب صبرهم على التكاليف، و قيل: على الفقر، و قيل: على الجوع، و قيل: على الصوم. و الأولى حمل الآية على الصبر على كل شىء يكون الصبر عليه طاعة للّه سبحانه، و «ما» مصدرية، و التقدير: بصبرهم جَنَّةً وَ حَرِيراً أى: أدخلهم الجنة و ألبسهم الحرير، و هو لباس أهل الجنة عوضا عن تركه فى الدنيا امتثالا لما ورد فى الشرع من تحريمه، و ظاهر هذه الآيات العموم فى كلّ من خاف من يوم القيامة و أطعم لوجه اللّه و خاف من عذابه، و السبب و إن كان خاصا كما سيأتى فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و يدخل سبب التنزيل تحت عمومها دخولا أوليا.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ قال: كل إنسان. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله: أَمْشاجٍ قال: أمشاجها: عروقها. و أخرج سعيد ابن منصور و ابن أبى حاتم أَمْشاجٍ قال: العروق. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ قال: ماء الرجل و ماء المرأة حين يختلطان. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال:

أَمْشاجٍ ألوان؛ نطفة الرجل بيضاء و حمراء، و نطفة المرأة خضراء و حمراء. و أخرج ابن أبى حاتم عنه

---

(۱). حذيفة بن أنس الهذلى.

أيضا قال: الأمشاج: الّذى يخرج على أثر البول كقطع الأوتار، و منه يكون الولد «۱». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً قال: فاشيا.

و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: وَ أَسِيراً قال: هو المشرک. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: مِسْكِيناً قال: فقيرا وَ يَتِيماً قال:

لا أب له وَ أَسِيراً قال: المملوک و المسجون. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ الآية قال: نزلت هذه

الآيهٔ فی علیّ بن أبی طالب و فاطمهٔ بنت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: يَوْماً عَبُوساً قال: ضيقا قَمْطَرِيراً قال: طويلا- و أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فی قوله: يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً قال: يقبض ما بين الأبصار. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر من طرق عن ابن عباس قال: القمطرير الرجل المنقبض ما بين عينيه و وجهه.

و أخرج ابن المنذر عنه وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً قال: نضرة فی وجوههم و سرورا فی صدورهم.

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١٣ الی ٢٢]

مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً (١٣) وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً (١٤) وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (١٥) قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً (١٦) وَ يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً (١٧) عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (١٨) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (١٩) وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً (٢٠) عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً (٢١) إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (٢٢)

قوله: مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ منصوب على الحال من مفعول جزاهم، و العامل فيها جزی، و لا يعمل فيها صبروا؛ لأنّ الصبر إنما كان فی الدنيا، و جوّز أبو البقاء أن يكون صفة لجنة. قال الفرّاء: و إن شئت جعلت متكئين تابعا، كأنه قال: جزاهم جنة متكئين فيها. و قال الأخفش: يجوز أن يكون منصوبا على المدح، و الضمير من فِيها يعود إلى الجنة، و الأرائک: السرر فی الحجال، و قد تقدّم تفسيرها فی سورة الكهف لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً الجملة فی محل نصب على الحال من مفعول «جزاهم»، فتكون من الحال المترادفة، أو من الضمير فی متكئين، فتكون من الحال المتداخلة، أو صفة أخری للجنة، و الزمهرير: أشدّ البرد، و المعنی: أنهم لا يرون فی الجنة حرّ الشمس و لا برد الزمهرير، و منه قول الأعشی:

منعّمة طفلة كالمهاة لم تر شمسا و لا زمهريرا

و قال ثعلب: الزّمهرير: القمر؛ بلغة طيّئ، و أنشد لشاعرهم:

و ليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها و الزّمهرير ما زهر

---

(١). هذان الأثران لا يستندان إلى دليل شرعی فلا يعتد بهما.

و يروی: ما ظهر، أی: لم يطلع القمر. و قد تقدّم تفسير هذا فی سورة مريم. وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها قرأ الجمهور «دانية» بالنصب عطفا على محل «لا يرون»، أو على «متكئين»، أو صفة لمحذوف، أی:

و جنة دانية، كأنه قال: و جزاهم جنة دانية. و قال الزجاج: هو صفة لجنة المتقدّم ذكرها. و قال الفرّاء:

هو منصوب على المدح. و قرأ أبو حيوة «و دانية» بالرفع على أنه خبر مقدّم، و ظلالها مبتدأ مؤخر، و الجملة فی موضع النصب على الحال. و المعنی: أن ظلال الأشجار قريبة منهم، مظلة عليهم، زيادة فی نعيمهم و إن كان لا شمس هنالك. قال مقاتل: يعنی شجرها قريب منهم. و قرأ ابن مسعود: «و دانيا عليهم».

وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا معطوف على دانية، كأنه قال: و مذللة. و يجوز أن تكون الجملة فی محل نصب على الحال من الضمير فی عليهم، و يجوز أن تكون مستأنفة، و القطوف: الثمار، و المعنی: أنها سخرت ثمارها لمتناوليها تسخيرا كثيرا، بحيث يتناولها القائم

و القاعد و المضطجع، لا يردّ أيديهم عنها بعد و لا شوك. قال النحاس: المذلّل: القريب المتناول، و منه قولهم: حائط ذليل، أى: قصير. قال ابن قتيبة: ذُلِّلَتْ

أدنيت، من قولهم حائط ذليل، أى: كان قصير السّمك. و قيل: ذُلِّلَتْ أى: جعلت منقادة، لا تمتنع على قطّافها كيف شاؤوا وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ أى: يدور عليهم الخدم إذا أرادوا الشراب بآنية الفضة، و الأكواب: جمع كوب، و هو الكوز العظيم الّذى لا أذن له و لا عروة، و منه قول عدىّ:

متّكئا تقرع أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب

و قد مضى تفسيره فى سورة الزخرف كانَتْ قَوارِيرَا- قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ أى: فى صفاء القوارير و فى بياض الفضة، فصفاؤها صفاء الزجاج و لونها لون الفضة. قرأ نافع و الكسائى و أبو بكر قَوارِيرَا- قَوارِيرَا بالتنوين فيهما مع الوصل، و بالوقف عليهما بالألف، و قد تقدم وجه هذه القراءة فى تفسير قوله:

سلاسلا من هذه السورة، و بينا هنالك وجه صرف ما فيه صيغة منتهى الجموع فارجع إليه. و قرأ حمزة بعدم التنوين فيهما و عدم الوقف بالألف، و وجه هذه القراءة ظاهر؛ لأنهما ممتنعان لصيغة منتهى الجموع.

و قرأ هشام بعدم التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالألف، و قرأ ابن كثير بتنوين الأوّل دون الثانى و الوقف على الأوّل بالألف دون الثانى. و قرأ أبو عمرو و حفص و ابن ذكوان بعدم التنوين فيهما، و الوقف على الأوّل بالألف دون الثانى، و الجملة فى محل جرّ صفة لأكواب. قال أبو البقاء: و حسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلها.

قال الواحدى: قال المفسرون: جعل اللّه قوارير أهل الجنة من فضة، فاجتمع لها بياض الفضة و صفاء القوارير.

قال الزجاج: القوارير التى فى الدنيا من الرمل، فأعلم اللّه فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة يرى من خارجها ما فى داخلها، و جملة قَدَّرُوها تَقْدِيراً صفة لقوارير. قرأ الجمهور: «قدّروها» بفتح القاف على البناء للفاعل، أى: قدّرها السّقاة من الخدم الذين يطوفون عليهم على قدر ما يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة من دون زيادة و لا نقصان. قال مجاهد و غيره: أتوا بها على قدر ريّهم بغير زيادة و لا نقصان. قال الكلبى: و ذلك ألذّ و أشهى، و قيل: قدّرها الملائكة، و قيل: قدّرها أهل الجنة الشاربون على مقدار شهواتهم

فتح القدير، ج‌5، ص: 423

و حاجتهم؛ فجاءت كما يريدون فى الشكل لا تزيد و لا تنقص. و قرأ علىّ و ابن عباس و السّلمى و الشّعبى و زيد ابن علىّ و عبيد بن عمير و أبو عمرو، و فى رواية عنه «قدّروها» بضم القاف و كسر الدال مبنيا للمفعول، أى: جعلت لهم على قدر إرادتهم. قال أبو على الفارسى: هو من باب القلب، قال: لأن حقيقة المعنى أن يقال: قدّرت عليهم لا قدّروها، لأنه فى معنى قدروا عليها. و قال أبو حاتم: التقدير: قدّرت الأوانى على قدر ريّهم، فمفعول ما لم يسمّ فاعله محذوف. قال أبو حيان: و الأقرب فى تخريج هذه القراءة الشاذة أن يقال:

قدّر ريهم منها تقديرا، فحذف المضاف فصار: قدّروها. و قال المهدوى: إن القراءة الأخيرة يرجع معناها إلى معنى القراءة الأولى، و كأن الأصل قدّروا عليها فحذف حرف الجرّ، كما أنشد سيبويه:

آليت حبّ العراق الدّهر آكله و الحبّ يأكله فى القرية السّوس

أى: آليت على حبّ العراق وَ يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلًا قد تقدّم أن الكأس هو الإناء فيه الخمر، و إذا كان خاليا عن الخمر فلا يقال له كأس، و المعنى: أن أهل الجنة يسقون فى الجنة كأسا من الخمر، ممزوجة بالزنجبيل. و قد كانت العرب تستلذ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته. و قال مجاهد و قتادة:

الزنجبيل: اسم للعين التى يشرب بها المقرّبون. و قال مقاتل: هو زنجبيل لا يشبه زنجبيل الدنيا عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا انتصاب عينا على أنها بدل من كأسا. و يجوز أن تكون منصوبة بفعل مقدّر، أى: يسقون عينا، و يجوز أن تكون منصوبة بنزع الخافض، أى: من عين، و السلسبيل: الشراب اللذيذ، مأخوذ من السلاسة، تقول العرب: هذا شراب سلس، و سلسال، و سلسبيل، أى: طيب لذيذ. قال الزجاج: السلسبيل فى اللغة: اسم لماء فى غاية السلاسة حديد الجرية يسوغ فى حلوقهم، و منه قول حسان بن ثابت:

يسقون من ورد البريص عليهم كأسا «١» يصفّق بالرّحيق السّلسل «٢»

وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ لما فرغ سبحانه من وصف شرابهم، و وصف آنيتهم، و وصف السّقاة الذين يسقونهم ذلك الشراب. و معنى: مُخَلَّدُونَ باقون على ما هم عليه من الشباب و الطراوة و النضارة، لا يهرمون و لا يتغيرون، و قيل: معنى مُخَلَّدُونَ لا يموتون، و قيل: التخليد: التحلية، أى محلّون إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم و صفاء ألوانهم و نضارة وجوههم لؤلؤا مفرّقا. قال عطاء: يريد فى بياض اللون و حسنه، و اللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوما. قال أهل المعانى: إنما شبّهوا بالمنثور لانتثارهم فى الخدمة، و لو كانوا صفا لشبهوا بالمنظوم، و قيل: إنما شبههم بالمنثور لأنهم سراع فى الخدمة؛ بخلاف الحور العين فإنه شبههنّ باللؤلؤ المكنون لأنهنّ لا يمتهنّ بالخدمة.

---

(١). فى تفسير القرطبى: بردى. و هو نهر بدمشق.

(٢). «البريص»: نهر بدمشق. «يصفق»: يمزج. «الرحيق»: الخمر البيضاء.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٤٢٤

وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً أى: و إذا رميت ببصرك هناك، يعنى فى الجنة رأيت نعيما لا يوصف، و ملكا كبيرا لا يقادر قدره، و «ثم» ظرف مكان، و العامل فيها «رأيت». قال الفرّاء: فى الكلام «ما» مضمرة، أى: و إذا رأيت ما ثم، كقوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ «١» أى: ما بينكم. قال الزجاج معترضا على الفراء: إنه لا يجوز إسقاط الموصول و ترك الصّلة، و لكن «رأيت» يتعدّى فى المعنى إلى «ثم». و المعنى: إذا رأيت ببصرك ثم، و يعنى بثمّ الجنة، قال السدّى: النعيم: ما يتنعم به، و الملك الكبير: استئذان الملائكة عليهم، و كذا قال مقاتل و الكلبى. و قيل: إن «رأيت» ليس له مفعول ملفوظ و لا مقدّر و لا منوىّ، بل معناه: أن بصرك أينما وقع فى الجنة رأيت نعيما و ملكا كبيرا عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ قرأ نافع و حمزة و ابن محيصن «عاليهم» بسكون الياء و كسر الهاء على أنه خبر مقدّم، و ثياب مبتدأ مؤخر، أو على أن عاليهم مبتدأ، و ثياب مرتفع بالفاعلية؛ و إن لم يعتمد الوصف كما هو مذهب الأخفش. و قال الفراء:

هو مرفوع بالابتداء، و خبره: ثياب سندس، و اسم الفاعل مراد به الجمع. و قرأ الباقون بفتح الياء و ضم الهاء على أنه ظرف فى محلّ رفع على أنه خبر مقدّم، و ثياب مبتدأ مؤخر، كأنه قيل: فوقهم ثياب. قال الفرّاء:

إن عاليهم بمعنى فوقهم، و كذا قال ابن عطية. قال أبو حيان: عال و عالية اسم فاعل، فيحتاج فى كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولا من كلام العرب، و قد تقدّمه إلى هذا الزجاج و قال: هذا مما لا نعرفه فى الظروف، و لو كان ظرفا لم يجز إسكان الياء، و لكنه نصب على الحال من شيئين: أحدهما الهاء و الميم فى قوله: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ أى: على الأبرار وِلْدانٌ عاليا الأبرار ثِيابُ سُنْدُسٍ أى: يطوف عليهم فى هذه الحال.

و الثانى أن يكون حالا من الولدان، أى: إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا فى حال علوّ الثياب أبدانهم. و قال أبو علىّ الفارسىّ: العامل فى الحال إما «لقّاهم نضرة و سرورا»، و إما «جزاهم بما صبروا». قال: و يجوز أن يكون ظرفا. و قرأ ابن سيرين و مجاهد و أبو حيوة و ابن أبى عبلة: «عليهم»، و هى قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة. و اختار أبو عبيد القراءة الأولى لقراءة ابن مسعود:

«عاليتهم». و قرأ الجمهور بإضافة ثياب إلى سندس. و قرأ أبو حيوة و ابن أبى عبلة بتنوين ثياب و قطعها عن الإضافة و رفع سندس، و خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ على أن السندس نعت للثياب؛ لأن السندس نوع من الثياب، و على أن خضر نعت لسندس؛ لأنه يكون أخضر و غير أخضر، و على أن إستبرق معطوف على سندس، أى: و ثياب إستبرق، و الجمهور من القرّاء اختلفوا فى خضر و إستبرق مع اتفاقهم على جرّ سندس بإضافة ثياب إليه؛ فقرأ ابن كثير و أبو بكر عن عاصم و ابن محيصن بجرّ خضر نعتا لسندس، و رفع إستبرق عطفا على ثياب، أى: عليهم ثياب سندس و عليهم إستبرق. و قرأ أبو عمرو و ابن عامر برفع خضر نعتا لثياب، و جرّ إستبرق نعت لسندس. و اختار هذه القراءة أبو حاتم و أبو عبيد؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتا للثياب فهى مرفوعة، و الإستبرق من جنس السندس. و قرأ نافع و حفص برفع: «خضر و إستبرق» لأن خضر نعت للثياب، و إستبرق عطف على

---

(١). الأنعام: ٩۴.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۴۲۵

الثياب. و قرأ الأعمش و حمزة و الكسائى بجرّ: «خضر و إستبرق» على أن خضر نعت للسندس، و إستبرق معطوف على سندس. و قرءوا كلهم بصرف إستبرق إلا ابن محيصن فإنه لم يصرفه، قال: لأنه أعجمى، و لا وجه لهذا لأنه نكرة إلا أن يقول إنه علم لهذا الجنس من الثياب. و السندس: ما رقّ من الديباج.

و الإستبرق: ما غلظ منه، و قد تقدّم تفسيرهما فى سورة الكهف وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ عطف على يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ذكر سبحانه هنا أنهم يحلون بأساور الفضة و فى سورة فاطر يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ «١» و فى سورة الحج يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً «٢» و لا تعارض بين هذه الآيات لإمكان الجمع بأن يجعل لهم سوارات من ذهب و فضة و لؤلؤ، أو بأن المراد أنهم يلبسون سوارات الذهب تارة، و سوارات الفضة تارة، و سوارات اللؤلؤ تارة، أو أنه يلبس كل أحد منه ما تميل إليه نفسه من ذلك، و يجوز أن تكون هذه الجملة فى محلّ نصب على الحال من ضمير عاليهم بتقدير قد وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً هذا نوع آخر من الشراب الّذى يمنّ اللّه عليهم به. قال الفرّاء: يقول: هو طهور ليس بنجس كما كان فى الدنيا موصوفا بالنجاسة. و المعنى: أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا. قال مقاتل: هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع اللّه ما كان فى قلبه من غش و غلّ و حسد. قال أبو قلابة و إبراهيم النخعى: يؤتون بالطعام، فإذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور، فيشربون فتضمر بطونهم من ذلك، و يفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً أى: يقال لهم: إن هذا الّذى ذكر من أنواع النعم كان لكم جزاء بأعمالكم، أى: ثوابا لها وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً أى: كان عملكم فى الدنيا بطاعة اللّه مرضيا مقبولا، و شكر اللّه سبحانه لعمل عبده هو قبوله لطاعته.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: الزمهرير هو البرد الشديد. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: ربّ أكل بعضى بعضا، فجعل لها نفسين: نفسا فى الصيف، و نفسا فى الشتاء، فشدّة ما تجدون من البرد من زمهريرها، و شدّة ما تجدون فى الصيف من الحرّ من سمومها».

و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و هناد ابن السرىّ و عبد بن حميد، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن البراء بن عازب فى قوله: وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها قال: قريبة وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا قال: إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياما و قعودا و مضطجعين و على أىّ حال شاؤوا. و فى لفظ قال: ذللت فيتناولون منها كيف شاؤوا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس قال: بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ و صفاؤها كصفاء القوارير قَدَّرُوها تَقْدِيراً قال: قدّرت للكف. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و

البيهقى عنه قال: لو أخذت فضة من فضة

---

(١). فاطر: ٣٣.

(٢). الحج: ٢٣.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤٢٦

الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها، و لكن قوارير الجنة ببياض الفضة فى صفاء القوارير. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: ليس فى الجنة شى‏ء إلا و قد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة. و أخرج الفريابى عنه أيضا فى قوله: قَدَّرُوها تَقْدِيراً قال: أتوا بها على قدر الفم لا يفضّلون شيئا و لا يشتهون بعدها شيئا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا قَدَّرُوها تَقْدِيراً قال: قدّرتها السقاة. و أخرج ابن المبارك و هناد و عبد بن حميد، و البيهقى فى البعث، عن ابن عمرو قال: إن أدنى أهل الجنة منزلا من يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه، و تلا هذه الآية: إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً.

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ٢٣ الى ٣١]

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (٢٤) وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (٢٥) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (٢٧)

نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَ ما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (٣١)

قوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا أى: فرّقناه فى الإنزال و لم ننزله جملة واحدة. و قيل:

المعنى: نزلناه عليك و لم تأت به من عندك كما يدّعيه المشركون فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ أى: لقضائه، و من حكمه و قضائه تأخير نصرك إلى أجل اقتضته حكمته. قيل: و هذا منسوخ بآية السيف وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً أى: لا تطع كل واحد من مرتكب لإثم و غال فى كفر، فنهاه اللّه سبحانه عن ذلك.

قال الزجاج: إن الألف هنا آكد من الواو وحدها لأنك إذا قلت: لا تطع زيدا و عمرا، فأطاع أحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره أن لا يطيع الاثنين، فإذا قال: لا تطع منهم آثما أو كفورا دلّ ذلك على أن كلّ واحد منهما أهل أن يعصى، كما أنك إذا قلت: لا تخالف الحسن أو ابن سيرين، فقد قلت إنهما أهل أن يتبعا، و كل واحد منهما أهل أن يتبع. و قال الفراء: «أو» هنا بمنزلة لا، كأنه قال: و لا كفورا. و قيل: المراد بقوله:

آثِماً عتبة بن ربيعة، و بقوله: أَوْ كَفُوراً الوليد بن المغيرة؛ لأنهما قالا للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: ارجع عن هذا الأمر و نحن نرضيك بالمال و التزويج وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا أى: دم على ذكره فى جميع الأوقات. و قيل: المعنى: صلّ لربك أوّل النهار و آخره، فأوّل النهار صلاة الصبح، و آخره صلاة العصر وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ أى: صلّ المغرب و العشاء. و قيل: المراد الصلاة فى بعضه من غير تعيين، و من:

للتبعيض على كل تقدير وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا أى: نزّهه عما لا يليق به، فيكون المراد الذكر بالتسبيح سواء كان فى الصلاة أو فى غيرها. و قيل: المراد التطوّع فى الليل. قال ابن زيد و غيره: إن هذه الآية منسوخة بالصلوات الخمس. و قيل: الأمر للندب. و قيل: هو مخصوص بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ

فتح القدير، ج‏5، ص: 427
يعنى كفار مكة و من هو موافق لهم. و المعنى: أنهم يحبون الدار العاجلة، و هى دار الدنيا وَ يَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا أى: يتركون و يدعون وراءهم، أى: خلفهم أو بين أيديهم و أمامهم يوما شديدا عسيرا، و هو يوم القيامة، و سمّى ثقيلا لما فيه من الشدائد و الأهوال. و معنى كونه يذرونه وراءهم: أنهم لا يستعدّون له و لا يعبئون به، فهم كمن ينبذ الشى‏ء وراء ظهره تهاونا به و استخفافا بشأنه، و إن كانوا فى الحقيقة مستقبلين له و هو أمامهم نَحْنُ خَلَقْناهُمْ أى: ابتدأنا خلقهم من تراب، ثم من نطفة ثم من علقة، ثم من مضغة إلى أن كمل خلقهم، و لم يكن لغيرنا فى ذلك عمل و لا سعى لا اشتراكا و لا استقلالا وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ الأسر: شدّة الخلق، يقال: شدّ اللّه أسر فلان: أى قوّى خلقه. قال مجاهد و قتادة و مقاتل و غيرهم: شددنا خلقهم. قال الحسن: شددنا أوصالهم بعضا إلى بعض بالعروق و العصب. قال أبو عبيد: يقال فرس شديد الأسر، أى: الخلق. قال لبيد:
ساهم الوجه شديد أسره‏مشرف الحارك محبوك الكتد
و قال الأخطل:
من كلّ مجتنب شديد أسره‏سلس القياد تخاله مختالا
و قال ابن زيد: الأسر القوّة، و اشتقاقه من الإسار، و هو القدّ الّذى تشدّ به الأقتاب. و منه قول ابن أحمر يصف فرسا:
يمشى بأوظفة شداد أسرهاصمّ السّنابك لا تقى بالجدجد «1»
وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلًا أى: لو شئنا لأهلكناهم و جئنا بأطوع للّه منهم. و قيل: المعنى: مسخناهم إلى أسمج صورة و أقبح خلقة إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ يعنى إن هذه السورة تذكير و موعظة فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى‏ رَبِّهِ سَبِيلًا أى: طريقا يتوصّل به إليه، و ذلك بالإيمان و الطاعة، و المراد: إلى ثوابه أو إلى جنّته وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أى: و ما تشاؤون أن تتخذوا إلى اللّه سبيلا إلا أن يشاء اللّه، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم، و الخير و الشرّ بيده، لا مانع لما أعطى، و لا معطى لما منع، فمشيئة العبد مجرّدة لا تأتى بخير و لا تدفع شرّا، و إن كان يثاب على المشيئة الصالحة، و يؤجر على قصد الخير كما فى حديث: «إنّما الأعمال بالنّيّات، و إنما لكل امرئ ما نوى». قال الزجاج: أى لستم تشاؤون إلا بمشيئة اللّه إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً فى أمره و نهيه، أى: بليغ العلم و الحكمة يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ أى: يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها، أو يدخل فى جنته من يشاء من عباده. قال عطاء: من صدقت نيته أدخله جنته وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً انتصاب الظالمين بفعل مقدّر يدل عليه ما قبله، أى: يعذب الظالمين، نصب الظالمين لأن ما قبله منصوب، أى: يدخل من يشاء فى رحمته و يعذب الظالمين، أى: المشركين،

---

(1). «الجدجد»: الأرض الصلبة.

فتح القدير، ج‏5، ص: 428
و يكون «أعدّ لهم» تفسيرا لهذا المضمر، و الاختيار النصب و إن جاز الرفع، و بالنصب قرأ الجمهور. و قرأ أبان بن عثمان بالرفع على الابتداء، و وجهه أنه لم يكن بعده فعل يقع عليه.
و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ قال: خلقهم. و أخرج ابن جرير عن أبى هريرة وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ قال: هى المفاصل.
فتح القدير، ج‏5، ص: 429

سورة المرسلات

اشارة

و هی مكیة فی قول الحسن و عكرمة و عطاء و جابر. قال قتادة: إلا آیة منها و هی قوله: وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا یَرْكَعُونَ «۱» فإنها مدنیة، و روی هذا عن ابن عباس. و أخرج النحاس و ابن مردویه و البیهقی عن ابن عباس قال: نزلت سورة المرسلات بمكة. و أخرج البخاری و مسلم و غیرهما عن ابن مسعود قال:
«بینما نحن مع النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فی غار بمنی إذا نزلت سورة: المرسلات عرفا، فإنه لیتلوها و إنی لأتلقّاها من فیه، و إن فاه لرطب بها، إذ وثبت علینا حیة، فقال النبی صلّی اللّه علیه و سلّم: اقتلوها، فابتدرناها فذهبت؛ فقال النبی صلّی اللّه علیه و سلّم: وقیت شرّكم كما وقیتم شرّها». و أخرج البخاری و مسلم و غیرهما عن ابن عباس أن أمّ الفضل سمعته و هو یقرأ و المرسلات عرفا فقالت: یا بنی لقد ذكرتنی بقراءتك هذه السورة، إنها آخر ما سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یقرأ بها فی المغرب.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة المرسلات (۷۷): الآیات ۱ الی ۲۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (۱) فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً (۲) وَ النَّاشِراتِ نَشْراً (۳) فَالْفارِقاتِ فَرْقاً (۴)
فَالْمُلْقِیاتِ ذِكْراً (۵) عُذْراً أَوْ نُذْراً (۶) إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ (۷) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (۸) وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ (۹)
وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ (۱۰) وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (۱۱) لِأَیِّ یَوْمٍ أُجِّلَتْ (۱۲) لِیَوْمِ الْفَصْلِ (۱۳) وَ ما أَدْراكَ ما یَوْمُ الْفَصْلِ (۱۴)
وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِینَ (۱۵) أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِینَ (۱۶) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِینَ (۱۷) كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِینَ (۱۸) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِینَ (۱۹)
أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِینٍ (۲۰) فَجَعَلْناهُ فِی قَرارٍ مَكِینٍ (۲۱) إِلی قَدَرٍ مَعْلُومٍ (۲۲) فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ (۲۳) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِینَ (۲۴)
أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً (۲۵) أَحْیاءً وَ أَمْواتاً (۲۶) وَ جَعَلْنا فِیها رَواسِیَ شامِخاتٍ وَ أَسْقَیْناكُمْ ماءً فُراتاً (۲۷) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِینَ (۲۸)

قوله: وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً قال جمهور المفسرین: هی الریاح، و قیل: هی الملائكة، و به قال مقاتل و أبو صالح و الكلبی، و قیل: هم الأنبیاء، فعلی الأوّل أقسم سبحانه بالریاح المرسلة لما یأمرها به كما فی قوله:
وَ أَرْسَلْنَا الرِّیاحَ لَواقِحَ «۲» و قوله: یُرْسِلُ الرِّیاحَ* «۳» و غیر ذلك. و علی الثانی أقسم سبحانه بالملائكة المرسلة بوحیه و أمره و نهیه. و علی الثالث أقسم سبحانه برسله المرسلة إلی عباده لتبلیغ شرائعه، و انتصاب عُرْفاً إما علی أنه مفعول لأجله، أی: المرسلات؛ لأجل العرف و هو ضدّ النكر، و منه قول الشاعر:

---

(۱). المرسلات: ۴۸.

(۲). الحجر: ۲۲.

(۳). النمل: ۶۳.

فتح القدير، ج‏5، ص: 430 من يفعل الخير لا يعدم جوازيه‏لا يذهب العرف بين اللّه و النّاس

أو على أنه حال بمعنى متابعة؛ و يتبع بعضها بعضا كعرف الفرس، تقول العرب: سار الناس إلى فلان عرفا واحدا؛ إذا توجهوا إليه، و هم على فلان كعرف الضبع؛ إذا تألبوا عليه، أو على أنه مصدر كأنه قال:

و المرسلات إرسالا، أي: متتابعة، أو على أنه منصوب بنزع الخافض، أي: و المرسلات بالعرف. قرأ الجمهور: «عرفا» بسكون الراء، و قرأ عيسى بن عمر بضمها، و قيل: المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نعمة و نقمة فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً و هي الرياح الشديدة الهبوب. قال القرطبي: بغير اختلاف، يقال:

عصف بالشي‏ء؛ إذا أباده و أهلكه، و ناقة عصوف، أي: تعصف براكبها فتمضي كأنها ريح في السرعة، و يقال: عصفت الحرب بالقوم؛ إذا ذهبت بهم، و قيل: هي الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها، و قيل:

يعصفون بروح الكافر، و قيل: هي الآيات المهلكة كالزلازل و نحوها وَ النَّاشِراتِ نَشْراً يعني الرياح تأتي بالمطر و هي تنشر السحاب نشرا، أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها، أو ينشرون أجنحتهم في الجوّ عند النزول بالوحي، أو هي الأمطار لأنها تنشر النبات. و قال الضحاك: يريد ما ينشر من الكتب و أعمال بني آدم. و قال الربيع: إنه البعث للقيامة بنشر الأرواح، و جاء بالواو هنا لأنه استئناف قسم آخر فَالْفارِقاتِ فَرْقاً يعني الملائكة تأتي بما يفرّق بين الحق و الباطل و الحلال و الحرام. و قال مجاهد: هي الريح تفرق بين السحاب فتبدّده. و روي عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق و الباطل، و قيل: هي الرسل فرقوا ما بين ما أمر اللّه به و نهى عنه، و به قال الحسن، فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً هي الملائكة. قال القرطبي: بإجماع، أي:

تلقي الوحي إلى الأنبياء، و قيل: هو جبريل، و سمّي باسم الجمع تعظيما له، و قيل: هي الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل اللّه عليهم، قاله قطرب. قرأ الجمهور: «فالملقيات» بسكون اللام و تخفيف القاف اسم فاعل، و قرأ ابن عباس بفتح اللام و تشديد القاف من التلقية و هي إيصال الكلام إلى المخاطب، و الراجح أن الثلاثة الأول للرياح، و الرابع و الخامس للملائكة، و هو الّذي اختاره الزجاج و القاضي و غيرهما عُذْراً أَوْ نُذْراً انتصابهما على البدل من ذكرا، أو على المفعولية، و العامل فيهما المصدر المنوّن، كما في قوله: أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ- يَتِيماً «1» أو على المفعول لأجله: أي للإعذار و الإنذار، أو على الحال بالتأويل المعروف، أي: معذرين أو منذرين. قرأ الجمهور بإسكان الذال فيهما. و قرأ زيد بن ثابت و ابنه خارجة ابن زيد و طلحة بضمهما. و قرأ الحرميان و ابن عامر و أبو بكر بسكونها في عُذْراً و ضمها في نُذْراً.

و قرأ الجمهور: «عذرا أو نذرا» على العطف بأو. و قرأ إبراهيم التيمي و قتادة على العطف بالواو بدون ألف، و المعنى: أن الملائكة تلقي الوحي عذرا إلى خلقه و إنذارا من عذابه، كذا قال الفراء: و قيل: عذرا للمحقّين و نذرا للمبطلين. قال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون العذر و النذر بالتثقيل جمع عاذر و ناذر كقوله: هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى «2» فيكون نصبا على الحال من الإلقاء، أي: يلقون الذكر في حال العذر و الإنذار،

---

(1). البلد: 14- 15.

(2). النجم: 56.

فتح القدير، ج‏5، ص: 431

أو مفعولا لذكرا، أي: تذكر عذرا أو نذرا. قال المبرد: هما بالتثقيل جمع، و الواحد عذير و نذير. ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال: إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ أي: إن الّذي توعدونه من مجي‏ء الساعة و البعث كائن لا محالة، ثم بيّن سبحانه متى يقع ذلك فقال: فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ أي محي نورها و ذهب ضوءها، يقال: طمس الشي‏ء؛ إذا درس و ذهب أثره وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ أي: فتحت

و شقت، و مثله قوله: وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً «١» وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ أى قلعت من مكانها بسرعة، يقال نسفت الشيء و أنسفته؛ إذا أخذته بسرعة. و قال الكلبى: سوّيت بالأرض، و العرب تقول:

نسفت الناقة الكلأ؛ إذا رعته، و قيل: جعلت كالحبّ الّذى ينسف بالمنسف، و منه قوله: وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا «٢» و الأوّل أولى. قال المبرد: نسفت: قلعت من مواضعها وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ الهمزة فى أقتت بدل من الواو المضمومة، و كل واو انضمت و كانت ضمتها لازمة يجوز إبدالها بالهمزة، و قد قرأ بالواو أبو عمرو و شيبة و الأعرج و قرأ الباقون بالهمزة، و الوقت: الأجل الّذى يكون عنده الشيء المؤخر إليه، و المعنى:

جعل لها وقت للفصل و القضاء بينهم و بين الأمم كما فى قوله سبحانه: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ «٣» و قيل:

هذا فى الدنيا، أى: جمعت الرسل لميقاتها الّذى ضرب لها فى إنزال العذاب بمن كذبها، و الأوّل أولى. قال أبو علىّ الفارسى: أى جعل يوم الدين و الفصل لها وقتا، و قيل: أقتت: أرسلت لأوقات معلومة على ما علم اللّه به لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ هذا الاستفهام للتعظيم و التعجيب، أى: لأى يوم عظيم يعجب العباد منه لشدّته و مزيد أهواله ضرب لهم الأجل لجمعهم، و الجملة مقول قول مقدر هو جواب لإذا، أو فى محل نصب على الحال من الضمير فى «أقتت». قال الزجاج: المراد بهذا التأقيت تبيين الوقت الّذى يحضرون فيه للشهادة على أممهم، ثم بين هذا اليوم فقال: لِيَوْمِ الْفَصْلِ قال قتادة: يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة و النار، ثم عظم ذلك اليوم فقال: وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ أى: و ما أعلمك بيوم الفصل يعنى أنه أمر بديع هائل لا يقادر قدره، و «ما» مبتدأ و «أدراك» خبره، أو العكس كما اختاره سيبويه. ثم ذكر حال الذين كذّبوا بذلك اليوم فقال: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ أى: ويل لهم فى ذلك اليوم الهائل، و ويل:

أصل مصدر سادّ مسدّ فعله، و عدل به إلى الرفع للدلالة على الثبات، و الويل: الهلاك؛ أو هو: اسم واد فى جهنم، و كرّر هذه الآية فى هذه السورة لأنه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيء عذابا سوى تكذيبه بشيء آخر، و ربّ شيء كذب به هو أعظم جرما من التكذيب بغيره، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب. ثم ذكر سبحانه ما فعل بالكفار من الأمم الخالية فقال: أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ أخبر سبحانه بإهلاك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. قال مقاتل: يعنى بالعذاب فى الدنيا حين كذبوا رسلهم ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ يعنى كفار مكة، و من وافقهم حين كذبوا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. قرأ الجمهور: «نتبعهم» بالرفع على الاستئناف، أى: ثم نحن نتبعهم. قال أبو البقاء ليس بمعطوف؛ لأن العطف

---

(١). النبأ: ١٩.

(٢). الواقعة: ٥.

(٣). المائدة: ٩.

يوجب أن يكون المعنى: أهلكنا الأولين ثم أتبعناهم الآخرين فى الإهلاك. و ليس كذلك؛ لأن إهلاك الآخرين لم يقع بعد. و يدل على الرفع قراءة ابن مسعود «ثم سنتبعهم الآخرين». و قرأ الأعرج و العباس عن أبى عمرو و «نتبعهم» بالجزم عطفا على «نهلك». قال شهاب الدين: على جعل الفعل معطوفا على مجموع الجملة من قوله: «أ لم نهلك». كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ أى: مثل ذلك الفعل الفظيع نفعل بهم، يريد من يهلكه فيما بعد، و الكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف، أى: مثل ذلك الإهلاك نفعل بكل مشرك إما فى الدنيا أو فى الآخرة وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ أى: ويل يوم ذلك الإهلاك للمكذبين

بكتب اللّه و رسله، قيل: الويل الأوّل لعذاب الآخرة، و هذا لعذاب الدنيا أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ أى:
ضعيف حقير، و هو النطفة فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ أى: مكان حريز، و هو الرحم إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ أى: إلى مقدار معلوم، و هو مدّة الحمل، و قيل: إلى أن يصوّر فَقَدَرْنا قرأ الجمهور: «فقدرنا» بالتخفيف. و قرأ نافع و الكسائى بالتشديد من التقدير. قال الكسائى و الفراء: و هما لغتان بمعنى، تقول:
قدّرت كذا، و قدرته فَنِعْمَ الْقادِرُونَ أى: نعم المقدّرون نحن، قيل: المعنى: قدّرناه قصيرا أو طويلا، و قيل: معنى قدّرنا ملكنا وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بقدرتنا على ذلك. ثم بيّن لهم بديع صنعه و عظيم قدرته ليعتبروا، فقال: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً معنى الكفت فى اللغة: الضم و الجمع، يقال: كفت الشى‏ء؛ إذا ضمّه و جمعه، و من هذا يقال للجراب و القدر: كفت، و المعنى: ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها و الأموات فى باطنها تضمهم و تجمعهم. قال الفرّاء: يريد تكفتهم أحياء على ظهرها فى دورهم و منازلهم، و تكفتهم أمواتا فى بطنها، أى: تحوزهم، و هو معنى قوله: أَحْياءً وَ أَمْواتاً و أنشد سيبويه:
كرام حين تنكفت الأفاعى إلى أجحارهنّ من الصّقيع
قال أبو عبيدة: كِفاتاً أوعية، و منه قول الشاعر:
فأنت اليوم فوق الأرض حيّا و أنت غدا تضمّك فى كفات
أى: فى قبر، و قيل: معنى جعلها كفاتا؛ أنه يدفن فيها ما يخرج من الإنسان من الفضلات. قال الأخفش و أبو عبيدة: الأحياء و الأموات وصفان للأرض، أى: الأرض منقسمة إلى حىّ و هو الّذى ينبت، و إلى ميت و هو الّذى لا ينبت. قال الفراء: انتصاب أحياء و أمواتا بوقوع الكفات عليه، أى: ألم نجعل الأرض كفات أحياء و أموات، فإذا نوّن نصب ما بعده، و قيل: نصبا على الحال من الأرض، أى: و منها كذا، و قيل:
هو مصدر نعت به للمبالغة. و قال الأخفش: كفاتا جمع كافتة، و الأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع.
و قال الخليل: التكفيت: تقليب الشى‏ء ظهرا لبطن أو بطنا لظهر، و يقال: انكفت القوم إلى منازلهم، أى:
ذهبوا وَ جَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ أى: جبالا طوالا، و الرواسى: الثوابت، و الشامخات: الطوال، و كل عال فهو شامخ وَ أَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً أى: عذبا، و الفرات: الماء العذب يشرب منه و يسقى به.
قال مقاتل: و هذا كله أعجب من البعث وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بما أنعمنا عليهم من نعمنا التى هذه من جملتها.
فتح القدير، ج ۵، ص: ۴۳۳
و قد أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، عن أبى هريرة وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً قال: هى الملائكة أرسلت بالعرف. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود: وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً قال: الريح فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً قال: الريح وَ النَّاشِراتِ نَشْراً قال: الريح. و أخرج ابن راهويه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب، أنه جاء رجل إلى علىّ بن أبى طالب، فقال: ما العاصفات عصفا؟ قال:
الرياح. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً قال: الريح فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً قال:
الريح فَالْفارِقاتِ فَرْقاً قال: الملائكة فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً قال: الملائكة. و أخرج ابن المنذر عنه وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً قال: الملائكة فَالْفارِقاتِ فَرْقاً قال: الملائكة، فرقت بين الحق و الباطل فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً بالتنزيل. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن ابن مسعود قال: ويل: واد فى جهنم يسيل فيه صديد أهل النار، فجعل للمكذبين. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس مِنْ ماءٍ مَهِينٍ قال: ضعيف. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه كِفاتاً قال: كنا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا رَواسِيَ شامِخاتٍ قال: جبالا مشرفات، و فى قوله: فُراتاً قال: عذبا.

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ٢٩ الى ٥٠]

انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِی ثَلاثِ شُعَبٍ (٣٠) لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِی مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّها تَرْمِی بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (٣٣)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ (٣٨)

فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِی ظِلالٍ وَ عُيُونٍ (٤١) وَ فَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِی الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (٤٨)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)

انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ هو بتقدير القول، أی: يقال لهم توبيخا و تقريعا انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ فی الدنيا، تقول لهم ذلك خزنة جهنم، أی: سيروا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب، و هو عذاب النار انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِی ثَلاثِ شُعَبٍ أی: إلى ظل من دخان جهنم قد سطع، ثم افترق ثلاث فرق تكونون فيه حتى يفرغ الحساب، و هذا شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعّب شعبا. قرأ الجمهور:

«انطلقوا» فی الموضعين على صيغة الأمر على التأكيد. و قرأ رويس عن يعقوب بصيغة الماضی فی الثانی:

أی لما أمروا بالانطلاق امتثلوا ذلك فانطلقوا. و قيل: المراد بالظل هنا هو السرادق، و هو لسان من النار يحيط بهم. ثم يتشعب ثلاث شعب فيظلّهم حتى يفرغ من حسابهم، ثم يصيرون إلى النار. و قيل: هو الظلّ من يحموم كما فی قوله: فِی سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ- وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ «١» على ما تقدّم. ثمّ وصف سبحانه هذا الظلّ

---

(١). الواقعة: ٤٢- ٤٣.

تهكما بهم فقال: لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِی مِنَ اللَّهَبِ أی: لا يظل من الحرّ و لا يغنی من اللهب. قال الكلبی:

لا يردّ حرّ جهنم عنكم. ثم وصف سبحانه النار فقال: إِنَّها تَرْمِی بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ أی: كل شررة من شررها التی ترمی بها كالقصر من القصور فی عظمها، و الشرر: ما تطاير من النار متفرّقا، و القصر: البناء العظيم. و قيل: القصر جمع قصرة ساكنة الصاد، مثل جمر و جمرة، و تمر و تمرة، و هی الواحدة من جزل الحطب الغليظ. قال سعيد بن جبير و الضحاك: و هی أصول الشجر العظام، و قيل: أعناقه. قرأ الجمهور:

«كَالْقَصْرِ» بإسكان الصاد، و هو واحد القصور كما تقدم. و قرأ ابن عباس و مجاهد و حميد و السّلمی بفتح الصاد، أی: أعناق النخل، و القصرة: العنق، جمعه قصر و قصرات. و قال قتادة: أعناق الإبل. و قرأ سعيد ابن جبير بكسر القاف و فتح الصاد، و هی أيضا جمع قصرة مثل بدر و بدرة، و قصع و قصعة. و قرأ الجمهور:

«بِشَرَرٍ» بفتح الشين. و قرأ ابن عباس و ابن مقسم بكسرها مع ألف بين الراءين. و قرأ عيسى كذلك إلا أنه يفتح الشين، و هی لغات، ثم شبّه الشرر باعتبار لونه فقال: كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ و هی جمع جمال، و هی الإبل، أو جمع جمالة. قرأ الجمهور:

«جمالات» بكسر الجيم. و قرأ حمزة و الكسائی و حفص «جمالة» جمع جمل. و قرأ ابن عباس و الحسن و ابن جبير و قتادة و أبو رجاء «جمالات» بضم الجيم، و هی حبال السفن. قال الواحدی: و الصفر معناها السود فی قول المفسرين. قال الفرّاء: الصفر: سواد الإبل، لا يرى أسود من الإبل إلا و هو مشرب صفرة، لذلک سمّت العرب سود الإبل صفرا. قيل: و الشرر إذا تطاير و سقط و فيه بقية من لون النار أشبه بالإبل السود. و منه قول الشاعر:

تلک خيلی منه و تلک رکابیهنّ صفر أولادها کالزّبيب

أی: هنّ سود، قيل: و هذا القول محال فی اللغة أن يکون شیء يشوبه شیء قليل، فينسب کله إلی ذلک الشائب، فالعجب لمن قال بهذا، و قد قال تعالی: جِمالَتٌ صُفْرٌ. و أجيب بأن وجهه: أن النار خلقت من النور فهی مضيئة، فلما خلق اللّه جهنم، و هی موضع النار حشی ذلک الموضع بتلک النار، و بعث إليها سلطانه و غضبه فاسودّت من سلطانه و ازدادت سوادا، و صارت أشدّ سوادا من کل شیء، فيکون شررها أسود لأنه من نار سوداء.

قلت: و هذا الجواب لا يدفع ما قاله القائل؛ لأنّ کلامه باعتبار ما وقع فی الکتاب العزيز هنا من وصفها بکونها صفراء، فلو کان الأمر کما ذکره المجيب من اسوداد النار، و اسوداد شررها، لقال اللّه: کأنها جمالات سود، و لکن إذا کانت العرب تسمی الأسود أصفر لم يبق إشکال، لأن القرآن نزل بلغتهم، و قد نقل الثقات عنهم ذلک، فکان ما فی القرآن هنا واردا علی هذا الاستعمال العربی وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِينَ لرسل اللّه و آياته هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ أی: لا يتکلمون، قال الواحدی: قال المفسرون: فی يوم القيامة مواقف، ففی بعضها يتکلمون، و فی بعضها يختم علی أفواههم فلا يتکلمون، و قد قدّمنا الجمع بهذا فی غير موضع.

و قيل: إن هذا إشارة إلی وقت دخولهم النار و هم عند ذلک لا ينطقون؛ لأن مواقف السؤال و الحساب قد انقضت. و قال الحسن: لا ينطقون بحجة و إن کانوا ينطقون. قرأ الجمهور برفع «يوم» علی أنه خبر لاسم

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۳۵

الإشارة. و قرأ زيد بن علیّ و الأعرج و الأعمش و أبو حيوة و عاصم فی رواية عنه بالفتح علی البناء لإضافته إلی الفعل، و محله الرفع علی الخبرية، و قيل: هو منصوب علی الظرفية، و الإشارة بهذا إلی ما تقدّم من الوعيد کأنه قيل: هذا العقاب المذکور کائن يوم لا ينطقون وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ قرأ الجمهور:

«يؤذن» علی البناء للمفعول، و قرأ زيد بن علیّ: «و لا يأذن» علی البناء للفاعل، أی: لا يأذن اللّه لهم، أی: لا يکون لهم إذن من اللّه فيکون لهم اعتذار من غير أن يجعل الاعتذار مسببا عن الإذن کما لو نصب.

قال الفرّاء: الفاء فی فيعتذرون نسق علی يؤذن و أجيز ذلک لأن أواخر الکلام بالنون، و لو قال فيعتذروا لم يوافق الآيات، و قد قال: لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا «۱» بالنصب، و الکل صواب وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِينَ بما دعتهم إليه الرسل و أنذرتهم عاقبته هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناکُمْ وَ الْأَوَّلِينَ أی: و يقال لهم: هذا يوم الفصل الّذی يفصل فيه بين الخلائق و يتميز فيه الحق من الباطل، و الخطاب فی جمعناکم للکفار فی زمن نبينا محمد صلّی اللّه عليه و سلّم، و المراد بالأوّلين کفار الأمم الماضية فَإِنْ کانَ لَکُمْ کَيْدٌ أی: إن قدرتم علی کيد الآن فَکِيدُونِ و هذا تقريع و توبيخ لهم. قال مقاتل: يقول إن کان لکم حيلة فاحتالوا لأنفسکم، و قيل المعنی: فإن قدرتم علی حرب فحاربون، و قيل: إن هذا من قول النبی صلّی اللّه عليه و سلّم، فيکون کقول هود:

فَکِيدُونِی جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ «۲». وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِينَ لأنه قد ظهر لهم عجزهم و بطلان ما کانوا عليه فی الدنيا. ثم ذکر سبحانه المؤمنين فقال: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِی ظِلالٍ وَ عُيُونٍ أی: فی ظلال الأشجار و ظلال القصور، لا کالظلّ الّذی للکفار من الدخان، أو من النار کما تقدّم. قال مقاتل و الکلبی: المراد بالمتقين الذين يتقون الشرک باللّه؛ لأن السورة من أوّلها إلی آخرها فی تقريع الکفار علی کفرهم. قال الرازی: فيجب أن تکون هذه الآية مذکورة لهذا الغرض و إلا لتفککت السورة فی نظمها و ترتيبها و

إنما يتمّ النظم بأن يكون الوعد للمؤمنين بسبب إيمانهم، فأما جعله سببا للطاعة فلا يليق بالنظم كذا قال. و المراد بالعيون الأنهار، و بالفواكه ما يتفكه به مما تطلبه أنفسهم و تستدعيه شهواتهم كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى:

يقال لهم ذلك، فالجملة مقدّرة بالقول، و هى فى محل نصب على الحال من ضمير المتقين، و الباء للسببية:

أى بسبب ما كنتم تعملونه فى الدنيا من الأعمال الصالحة إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أى: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى المحسنين فى أعمالهم، قرأ الجمهور: «فى ظلال». و قرأ الأعمش و الزهرى و طلحة و الأعرج «فى ظلل» جمع ظلّة وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ حيث صاروا فى شقاء عظيم، و صار المؤمنون فى نعيم مقيم كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ الجملة بتقدير القول فى محل نصب على الحال من المكذبين:

أى الويل ثابت لهم فى حال ما يقال لهم ذلك تذكيرا لهم بحالهم فى الدنيا، أو يقال لهم هذا فى الدنيا، و المجرمون:

المشركون باللّه، و هذا و إن كان فى اللفظ أمرا فهو فى المعنى تهديد و زجر عظيم وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ كرّره لزيادة التوبيخ و التقريع وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ أى: و إذا أمروا بالصلاة لا يصلون.

---

(١). فاطر: ٣٦.

(٢). هود: ٥٥.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤٣٦

قال مقاتل: نزلت فى ثقيف امتنعوا من الصلاة بعد أن أمرهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بها فقالوا: لا ننحنى فإنها مسبة علينا، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا خير فى دين ليس فيه ركوع و لا سجود». و قيل: إنما يقال لهم ذلك فى الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون. و قيل: المعنى بالركوع: الطاعة و الخشوع وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بأوامر اللّه سبحانه و نواهيه فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ أى: فبأىّ حديث بعد القرآن يصدقون إذا لم يؤمنوا به. قرأ الجمهور: «يؤمنون» بالتحتية على الغيبة. و قرأ ابن عامر فى رواية عنه، و يعقوب: بالفوقية على الخطاب.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ قال: كالقصر العظيم، و قوله: جِمالَتٌ صُفْرٌ قال: قطع النحاس. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و هناد و عبد بن حميد و البخارى و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه من طريق عبد الرّحمن بن عباس قال: سمعت ابن عباس يسأل عن قوله: إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ قال: كنا نرفع الخشب بقدر ثلاثة أذرع أو أقلّ، فنرفعه للشتاء فنسميه القصر. قال: و سمعته يسأل عن قوله: جِمالَتٌ صُفْرٌ قال: حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى يكون كأوساط الرجال. و لفظ البخارى: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع و فوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أنه قرأ: «كالقصر» بفتح القاف و الصاد. و قال: قصر النخل: يعنى الأعناق. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: كانت العرب فى الجاهلية تقول: أقصروا لنا الحطب، فيقطع على قدر الذراع و الذراعين. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، عن ابن مسعود فى قوله: تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ قال: إنها ليست كالشجر و الجبال، و لكنها مثل المدائن و الحصون. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: كَالْقَصْرِ قال: هو القصر، و فى قوله: جِمالَتٌ صُفْرٌ قال: الإبل. و أخرج الحاكم و صححه من طريق عكرمة قال: سأل نافع ابن الأزرق ابن عباس عن قوله: هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً «١» وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ* «٢» و هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ «٣» فقال له: ويحك هل سألت عن هذا أحد قبلى؟ قال لا، قال: أما إنك لو كنت سألت هلكت، أليس قال اللّه: وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ «٤» قال: بلى، قال:

فإن لكل مقدار يوم من هذه الأيام لونا من الألوان. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ يقول: يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون للّه فى الدنيا.

---

(۱). طه: ۱۰۸.

(۲). الصافات: ۲۷.

(۳). الحاقة: ۱۹.

(۴). الحج: ۴۷.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۳۷

سورة النّبأ

اشارة

و هى مكية عند الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت عَمَّ يَتَساءَلُونَ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النبإ (۷۸): الآيات ۱ الى ۳۰]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَساءَلُونَ (۱) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (۲) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (۳) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (۴)

ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (۵) أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (۶) وَ الْجِبالَ أَوْتاداً (۷) وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (۸) وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (۹)

وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (۱۰) وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (۱۱) وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (۱۲) وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (۱۳) وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (۱۴)

لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً (۱۵) وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً (۱۶) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً (۱۷) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً (۱۸) وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً (۱۹)

وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً (۲۰) إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً (۲۱) لِلطَّاغِينَ مَآباً (۲۲) لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً (۲۳) لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً (۲۴)

إِلَّا حَمِيماً وَ غَسَّاقاً (۲۵) جَزاءً وِفاقاً (۲۶) إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً (۲۷) وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً (۲۸) وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً (۲۹)

فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً (۳۰)

قوله: عَمَّ يَتَساءَلُونَ أصله عن ما؛ فأدغمت النون فى الميم؛ لأن الميم تشاركها فى الغنة، كذا قال الزجاج، و حذفت الألف ليتميز الخبر عن الاستفهام، و كذلك فيم و ممّ و نحو ذلك، و المعنى: عن أىّ شىء يسأل بعضهم بعضا. قرأ الجمهور: «عمّ» بحذف الألف لما ذكرنا، و قرأ أبىّ و ابن مسعود و عكرمة و عيسى بإثباتها، و منه قول الشاعر:

علام قام يشتمنى لئيم كخنزير تمرّغ فى دمان؟!

و لكنه قليل لا يجوز إلا للضرورة، و قرأ البزى بهاء السكت عوضا عن الألف، و روى ذلك عن ابن كثير.

قال الزجاج: اللفظ لفظ استفهام، و المعنى تفخيم القصة، كما تقول: أىّ شىء تريد؛ إذا عظمت شأنه.

قال الواحدى: قال المفسرون: لما بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أخبرهم بتوحيد اللّه و البعث بعد الموت و تلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون بينهم يقولون: ماذا جاء به محمد و ما الّذى أتى به؟ فأنزل اللّه: عَمَّ يَتَساءَلُونَ قال الفراء: التساؤل هو أن يسأل بعضهم بعضا كالتقابل، و قد يستعمل أيضا فى أن يتحدّثوا به و إن لم يكن

فتح القدير، ج‏5، ص: 438

بينهم سؤال. قال اللّه تعالى: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ- قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ «1» الآية، و هذا يدل على أنه التحدّث، و لفظ «ما» موضوع لطلب حقائق الأشياء، و ذلك يقتضى كون المطلوب مجهولا، فجعل الشىء العظيم الّذى يعجز العقل عن أن يحيط بكنهه كأنه مجهول، و لهذا جاء سبحانه بلفظ ما. ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عن ماذا و بيّنه فقال: عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ فأورده سبحانه أوّلا على طريقة الاستفهام، مبهما لتتوجه إليه أذهانهم، و تلتفت إليه أفهامهم، ثم بينه بما يفيد تعظيمه و تفخيمه كأنه قيل:

عن أىّ شىء يتساءلون هل أخبركم به؟ ثم قيل: بطريق الجواب: «عن النبأ العظيم» على منهاج قوله: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ «2» فالجارّ و المجرور متعلق بالفعل الّذى قبله، أو بما يدلّ عليه. قال ابن عطية: قال أكثر النحاة: عن النبأ العظيم متعلق بيتساءلون الظاهر، كأنه قال: لم يتساءلون عن النبأ العظيم، و قيل: ليس بمتعلق بالفعل المذكور؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون التقدير: أعن النبأ العظيم؟

فلزم أن يتعلق بيتساءلون آخر مقدّر، و إنما كان ذلك النبأ، أى: القرآن، عظيما؛ لأنه ينبئ عن التوحيد و تصديق الرسول و وقوع البعث و النشور. قال الضحاك: يعنى نبأ يوم القيامة، و كذا قال قتادة، و قد استدلّ على أن النبأ العظيم هو القرآن بقوله: الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ فإنهم اختلفوا فى القرآن، فجعله بعضهم سحرا، و بعضهم شعرا، و بعضهم كهانة، و بعضهم قال: هو أساطير الأوّلين. و أما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره. و يمكن أن يقال: إنه قد وقع الاختلاف فى البعث فى الجملة، فصدّق به المؤمنون و كذب به الكافرون، فقد وقع الاختلاف فيه من هذه الحيثية، و إن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على التسليم و التنزل، و مما يدلّ على أنه القرآن قوله سبحانه: قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ- أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ «3» و مما يدلّ على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون و تأباه عقولهم السخفية. و أيضا فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم فى البعث؛ فأثبت النصارى المعاد الروحانى، و أثبتت طائفة من اليهود المعاد الجسمانى، و فى التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ «جنعيذا» بجيم مفتوحة ثم نون ساكنة ثم عين مكسورة مهملة ثم تحتية ساكنة ثم ذال معجمة بعدها ألف. و فى الإنجيل فى مواضع كثيرة التصريح بالمعاد، و أنه يكون فيه النعيم للمطيعين و العذاب للعاصين، و قد كان بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد كما حكى اللّه عنهم بقوله: ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ* «4» و كانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه، بل شاكّة فيه، كما حكى اللّه عنهم بقوله: إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ «5» و ما حكاه عنهم بقوله: وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى «6» فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه الصفة. و قد قيل: إن الضمير فى قوله: يتساءلون يرجع إلى المؤمنين و الكفار لأنهم جميعا كانوا يتساءلون عنه، فأما المسلم فيزداد يقينا و استعدادا و بصيرة فى دينه، و أما

(۱). الصافات: ۵۰- ۵۱.

(۲). غافر: ۱۶.

(۳). ص: ۶۷- ۶۸.

(۴). الجاثیة: ۲۴.

(۵). الجاثیة: ۳۲.

(۶). فصلت: ۵۰.

فتح القدیر، ج‏۵، ص: ۴۳۹

الکافر فاستهزاء و سخریة. قال الرازی: و یحتمل أنهم یسألون الرسول و یقولون: ما هذا الّذی یعدنا به من أمر الآخرة، و الموصول فی محل جرّ صفة للنبأ بعد وصفه بکونه عظیما، فهو متّصف بوقوع الاختلاف فیه کَلَّا سَیَعْلَمُونَ ردع لهم و زجر، و هذا یدل علی أن المختلفین فیه هم الکفار، و به یندفع ما قیل إن الخلاف بینهم و بین المؤمنین، فإنه إنما یتوجه الردع و الوعید إلی الکفار فقط، و قیل: «کلا» بمعنی حقا، ثم کرّر الردع و الزجر فقال: ثُمَّ کَلَّا سَیَعْلَمُونَ للمبالغة فی التأکید و التشدید فی الوعید. قرأ الجمهور بالیاء التحتیة فی الفعلین علی الغیبة. و قرأ الحسن و أبو العالیة و ابن دینار و ابن عامر فی روایة عنه بالفوقیة علی الخطاب.

و قرأ الضحاک الأوّل بالفوقیة و الثانی بالتحتیة. قال الضحاک: أیضا کَلَّا سَیَعْلَمُونَ یعنی الکافرین عاقبة تکذیبهم ثُمَّ کَلَّا سَیَعْلَمُونَ یعنی المؤمنین عاقبة تصدیقهم، و قیل: بالعکس، و قیل: هو وعید بعده وعید، و قیل: المعنی کَلَّا سَیَعْلَمُونَ عند النزع، ثُمَّ کَلَّا سَیَعْلَمُونَ عند البعث. ثم ذکر سبحانه بدیع صنعه و عظیم قدرته لیعرفوا توحیده و یؤمنوا بما جاء به رسوله فقال: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً- وَ الْجِبالَ أَوْتاداً أی: قدرتنا علی هذا الأمور المذکورة أعظم من قدرتنا علی الإعادة بالبعث. و المهاد: الوطاء و الفراش کما فی قوله: الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ فِراشاً «۱» قرأ الجمهور: «مهادا» و قرأ مجاهد و عیسی و بعض الکوفیین «مهدا» و المعنی: أنها کالمهد للصبی و هو ما یمهد له فینوّم علیه. و الأوتاد جمع وتد، أی: جعلنا الجبال أوتادا للأرض لتسکن و لا تتحرک کما ترسی الخیام بالأوتاد، و فی هذا دلیل علی أن التساؤل الکائن بینهم هو عن أمر البعث، لا عن القرآن، و لا عن نبوّة محمد صلّی اللّه علیه و سلّم کما قیل؛ لأن هذا الدلیل إنما یصلح للاستدلال به علی البعث وَ خَلَقْناکُمْ أَزْواجاً معطوف علی المضارع المنفی داخل فی حکمه، فهو فی قوّة: أما خلقناکم، و المراد بالأزواج هنا الأصناف، أی: الذکور و الإناث، و قیل: المراد بالأزواج الألوان، و قیل:

یدخل فی هذا کلّ زوج من المخلوقات من قبیح و حسن و طویل و قصیر وَ جَعَلْنا نَوْمَکُمْ سُباتاً أی: راحة لأبدانکم. قال الزّجّاج: السبات أن ینقطع عن الحرکة و الروح فی بدنه، أی: جعلنا نومکم راحة لکم.

قال ابن الأنباری: جعلنا نومکم قطعا لأعمالکم؛ لأن أصل السبت القطع، و قیل: أصله التمدّد، یقال:

سبتت المرأة شعرها؛ إذا حلّته و أرسلته، و رجل مسبوت الخلق: أی ممدودة، و الرجل إذا أراد أن یستریح تمدّد، فسمّی النوم سباتا، و قیل: المعنی: و جعلنا نومکم موتا، و النوم أحد الموتتین، فالمسبوت یشبه المیت و لکنه لم تفارقه الروح، و منه قول الشاعر «۲»:

و مطویّة الأقراب أمّا نهارهافسبت و أمّا لیلها فذمیل «۳»

---

(۱). البقرة: ۲۲.

(٢). هو حميد بن ثور.

(٣). «السبت»: السير السريع. «الذميل»: السير اللين. استشهد القرطبى بهذا البيت بعد أن قال: سير سبت: أى سهل لين.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ۴۴۰

و من هـذا قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها «١» الآية، و قوله: وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ «٢» وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً أى: نلبسكم ظلمته و نغشيكم بها كما يغشيكم اللباس.

و قال سعيد بن جبير و السدّى: أى سكنا لكم، و قيل: المراد به ما يستره عند النوم من اللحاف و نحوه، و هو بعيد؛ لأن الجعل وقع على الليل، لا على ما يستتر به النائم عند نومه وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً أى:

وقت معاش، و المعاش: العيش، و كلّ شىء يعاش به فهو معاش، و المعنى: أن اللّه جعل لهم النهار مضيئا ليسعوا فيما يقوم به معاشهم و ما قسمه اللّه لهم من الرزق وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً يريد سبع سماوات قوية الخلق محكمة البناء، و لهذا وصفها بالشدّة و غلظ كلّ واحدة منها مسيرة خمسمائة عام، كما ورد ذلك وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً المراد به الشمس، و جعل هنا بمعنى خلق، و هكذا قوله: وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً و ما بعده؛ لأن هذه الأفعال قد تعدّت إلى مفعولين فلا بدّ من تضمينها معنى فعل يتعدّى إليهما كالخلق و التصيير و نحو ذلك. و قيل: إن الجعل بمعنى الإنشاء و الإبداع فى جميع هذه المواضع، و المراد به الإنشاء التكوينى الّذى بمعنى التقدير و التسوية. قال الزجّاج: الوهاج: الوقاد، و هو الّذى وهج، يقال: وهجت النار تهج و هجا و وهجانا. قال مقاتل: جعل فيه نورا و حرّا، و الوهج يجمع النور و الحرارة وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً المعصرات: هى السحاب التى تنعصر بالماء و لم تمطر بعد، كالمرأة المعتصرة التى قد دنا حيضها، كذا قال سفيان و الربيع و أبو العالية و الضحاك. و قال مجاهد و مقاتل و قتادة و الكلبى: هى الرياح، و الرياح تسمى معصرات، يقال: أعصرت الريح تعصر إعصارا؛ إذا أثارت العجاج. قال الأزهرى:

هى الرياح ذوات الأعاصير و ذلك أن الرياح تستدرّ المطر. و قال الفرّاء: المعصرات: السحائب التى يتحلّب منها المطر. قال النحاس: و هذه الأقوال صحاح، يقال للريح التى تأتى بالمطر معصرات، و الرياح تلقح السحاب فيكون المطر. و يجوز أن تكون هذه الأقوال قولا واحدا، و يكون المعنى: و أنزلنا من ذوات المعصرات ماء ثجّاجا. قال فى الصحاح: و المعصرات السحائب تعتصر بالمطر و عصر القوم أى مطروا. قال المبرد: يقال سحاب معصر، أى: ممسك للماء يعتصر منه شىء بعد شىء. و قال أبىّ بن كعب و الحسن و ابن جبير و زيد ابن أسلم و مقاتل بن حيان: المعصرات: السماوات، و الثجاج: المنصبّ بكثرة على جهة التتابع، يقال:

ثجّ الماء، أى: سال بكثرة، و ثجّه، أى: أساله. قال الزجاج: الثجاج: الصّبّاب. قال ابن زيد: ثجاجا:

كثيرا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً أى: لنخرج بذلك الماء حبا يقتات، كالحنطة و الشعير و نحوهما، و النبات:

ما تأكله الدواب من الحشيش و سائر النبات وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً أى: بساتين ملتفّ بعضها ببعض لتشعّب أغصانها، و لا واحد للألفاف، كالأوزاع و الأخياف، و قيل: واحدها لف بكسر اللام و ضمها، ذكره الكسائى. و قال أبو عبيدة: واحدها لفيف؛ كشريف و أشراف، و روى عن الكسائى أنها جمع الجمع يقال جنة لفاء و نبت لف، و الجمع لفّ بضم اللام مثل حمر، ثم يجمع هذا الجمع على ألفاف، و قيل: هو جمع

---

(١). الزمر: ۴۲.

(٢). الأنعام: ۶۰.

ملتفة بحذف الزوائد. قال الفراء: الجنة: ما فيه النخيل، و الفردوس: ما فيه الكرم إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً أي: وقتا و مجمعا و ميعادا للأوّلين و الآخرين يصلون فيه إلى ما وعدوا به من الثواب و العقاب، و سمّى يوم الفصل؛ لأنّ اللّه يفصل فيه بين خلقه، و هذا شروع فى بيان ما يتساءلون عنه من البعث، و قيل: معنى ميقاتا؛ أنه حدّ توقت به الدنيا و تنتهى عنده، و قيل: حدّ للخلائق ينتهون إليه يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً أي: يوم ينفخ فى الصور، و هو القرن الّذى ينفخ فيه إسرافيل، و المراد هنا النفخة الثانية التى تكون للبعث فَتَأْتُونَ أي: إلى موضع العرض أَفْواجاً أي: زمرا زمرا، و جماعات جماعات، و هى جمع فوج، و انتصاب يَوْمَ يُنْفَخُ على أنه بدل من يوم الفصل، أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه و تهويله و إن كان الفصل متأخرا عن النفخ، و يجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى، و انتصاب أفواجا على الحال من فاعل «تأتون»، و الفاء فى «فتأتون» فصيحة تدلّ على محذوف، أي: فتأتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أفواجا وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً معطوف على «ينفخ»، و صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع أى فتحت لنزول الملائكة فَكانَتْ أَبْواباً كما فى قوله: وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا «1» و قيل: معنى فتحت قطعت فصارت قطعا كالأبواب، و قيل: أبوابها: طرقها، و قيل: تنحلّ و تتناثر حتى تصير فيها أبواب، و قيل: إن لكل عبد بابين فى السماء؛ باب لرزقه و باب لعمله، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب، و ظاهر قوله: فَكانَتْ أَبْواباً أنها صارت كلها أبوابا، و ليس المراد ذلك، بل المراد أنها صارت ذات أبواب كثيرة. قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائى «فتحت» مخففا. و قرأ الباقون بالتشديد وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً أي: سيرت عن أماكنها فى الهواء، و قلعت عن مقارّها، فكانت هباء منبثا يظنّ الناظر أنها سراب، و المعنى: أن الجبال صارت كلا شى‏ء؛ كما أن السراب يظنّ الناظر أنه ماء، و ليس بماء، و قيل: معنى سيرت: أنها نسفت من أصولها، و مثل هذا قوله: وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ «2» و قد ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة، و لكن الجمع بينها أن نقول: أوّل أحوالها الاندكاك، و هو قوله: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً «3» و ثانى أحوالها أن تصير كالعهن المنفوش كما فى قوله: وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ «4» و ثالث أحوالها أن تصير كالهباء، و هو قوله: وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا- فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا «5» و رابع أحوالها: أن تنسف و تحملها الرياح كما فى قوله: وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ و خامس أحوالها أن تصير سرابا، أي: لا شى‏ء كما فى هذه الآية.

ثم شرع سبحانه فى تفصيل أحكام الفصل فقال: إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً قال الأزهرى:

المرصاد: المكان الّذى يرصد الراصد فيه العدوّ. قال المبرد: مرصادا يرصدون به، أي: هو معدّ لهم يرصد به خزنتها الكفار. قال الحسن: إن على الباب رصدا لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم، فمن جاء بجواز

---

(1). الفرقان: 25.

(2). النمل: 88.

(3). الحاقة: 14.

(4). القارعة: 5.

(5). الواقعة: 5- 6.

جاز، و من لم يجى‏ء بجواز حبس. و قال مقاتل: محبسا، و قيل: طريقا و ممرّا، قال فى الصحاح: الراصد للشى‏ء الراقب له، يقال: رصده يرصده رصدا، و الترصّد: الترقّب، و المرصد: موضع الرّصد. قال الأصمعي: رصدته أرصده: ترقبته، و معنى الآية: إن

جهنم كانت فى حكم اللّه و قضائه موضع رصد؛ يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها، أو هى فى نفسها متطلعة لمن يأتى إليها من الكفار كما يتطلع الرصد لمن يمرّ به و يأتى إليهم، و المرصاد مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار و المغيار، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار. ثم ذكر من هى مرصد له فقال: لِلطّاغِينَ مَآباً أى: مرجعا يرجعون إليه، و المآب: المرجع، يقال: آب يؤوب؛ إذا رجع، و الطاغى: هو من طغى بالكفر، و «للطاغين» نعت «لمرصادا» متعلق بمحذوف، و «مآبا» بدل من «مرصادا»، و يجوز أن يكون للطاغين فى محل نصب على الحال من «مآبا» قدّمت عليه لكونه نكرة، و انتصاب لابِثِينَ فِيها على الحال المقدّرة من الضمير المستكنّ فى الطاغين.

قرأ الجمهور: لابِثِينَ بالألف. و قرأ حمزة و الكسائى: «لبثين» بدون ألف، و انتصاب أَحْقاباً على الظرفية، أى: ماكثين فى النار ما دامت الأحقاب، و هى لا تنقطع، و كلما مضى حقب جاء حقب، و هى جمع حقب بضمتين، و هو الدهر، و الأحقاب: الدهور، و الحقب بضم الحاء و سكون القاف: قيل:

هو ثمانون سنة، و حكى الواحدى عن المفسرين أنه بضع و ثمانون سنة، السنة ثلاثمائة و ستون يوما، اليوم ألف سنة من أيام الدنيا. و قيل: الأحقاب: وقت لشربهم الحميم و الغساق، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العذاب، و قال السدّى: الحقب سبعون سنة. و قال بشير بن كعب: ثلاثمائة سنة. و قال ابن عمر: أربعون سنة، و قيل: ثلاثون ألف سنة. قال الحسن: الأحقاب لا يدرى أحدكم هى، و لكن ذكروا أنها مائة حقب، و الحقب الواحد منها سبعون ألف سنة، اليوم منها كألف سنة. و قيل: الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار، و الأولى ما ذكرناه أوّلا من أن المقصود بالآية التأبيد لا التقييد. و حكى الواحدى: عن الحسن أنه قال: و اللّه ما هى إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر، ثم كذلك إلى الأبد، و جملة لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً- إِلّا حَمِيماً وَ غَسّاقاً مستأنفة لبيان ما اشتملت عليه من أنهم لا يذوقون فى جهنم أو فى الأحقاب بردا ينفعهم من حرّها و لا شرابا ينفعهم من عطشها إلا حميما، و هو الماء الحارّ، و غساقا و هو صديد أهل النار. و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير الطاغين، أو صفة للأحقاب، و الاستثناء منقطع عند من جعل البرد النوم، و يجوز أن يكون متصلا من قوله: شَراباً و قال مجاهد و السدّى و أبو عبيدة و الكسائى و الفضل بن خالد و أبو معاذ النحوى: البرد المذكور فى هذه الآية هو النوم، و منه قول الكندى:

بردت مراشفها علىّ فصدّنى* عنها و عن تقبيلها البرد أى: النوم. قال الزجاج: أى: لا يذوقون فيها برد ريح و لا ظل و لا نوم، فجعل البرد يشمل هذه الأمور.

و قال الحسن و عطاء و ابن زيد: بردا، أى: روحا و راحة. قرأ الجمهور: غَسّاقاً بالتخفيف. و قرأ حمزة و الكسائى بتشديد السين، و قد تقدّم تفسيره و تفسير الحميم و الخلاف فيهما فى سورة ص جَزاءً وِفاقاً أى: موافقا لأعمالهم، و جزاء منتصب على المصدر، و وفاقا نعت له. قال الفرّاء و الأخفش: جازيناهم جزاء

فتح القدير، ج‌5، ص: 443

وافق أعمالهم، قال الزجاج: جوزوا جزاء وافق أعمالهم. قال الفرّاء: الوفاق: جمع الوفق، و الوفق و الموافق «1» واحد. قال مقاتل: وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك و لا عذاب أعظم من النار.

و قال الحسن و عكرمة: كانت أعمالهم سيئة، فأتاهم اللّه بما يسوءهم إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً أى:

لا يرجون ثواب حساب. قال الزجاج: كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم، و الجملة تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذّاباً أى: كذّبوا بالآيات القرآنية، أو كذّبوا بما هو أعم منها تكذيبا شديدا، و فعال من مصادر التفعل. قال الفرّاء: هى لغة فصيحة يمانية، تقول: كذبت كذابا، و خرقت القميص خراقا. قال فى الصحاح: و كذبوا بآياتنا كذابا هو أحد مصادر

المشدّد؛ لأن مصدره قد يجيء على تفعيل مثل التكليم، و على فعّال مثل كذّاب، و على تفعلة مثل توصية، و على مفعّل مثل وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ قرأ الجمهور: كِذّاباً بالتشديد. و قرأ عليّ بن أبى طالب بالتخفيف. و قال أبو عليّ الفارسى التخفيف و التشديد جميعا مصدر المكاذبة. و قرأ ابن عمر «كذّابا» بضم الكاف و التشديد، جمع كاذب.

قال أبو حاتم و نصبه على الحال. قال الزمخشرى: و قد يكون يعنى على هذه القراءة بمعنى الواحد البليغ فى الكذب، تقول: رجل كذّاب كقولك حسّان و بخّال وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً قرأ الجمهور:

وَ كُلَ بالنصب على الاشتغال، أى: و أحصينا كل شىء أحصيناه. و قرأ أبو السّمّال برفعه على الابتداء، و ما بعده خبره، و هذه الجملة معترضة بين السبب و المسبب، و انتصاب «كتابا» على المصدرية لأحصيناه؛ لأن أحصيناه فى معنى كتبناه، و قيل: هو منتصب على الحال، أى: مكتوبا، قيل: المراد كتبناه فى اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة، و قيل: أراد ما كتبه الحفظة على العباد من أعمالهم، و قيل: المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان، و الأوّل أولى لقوله: وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ «٢» فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً هذه الجملة مسببة عن كفرهم و تكذيبهم بالآيات. قال الرّازى: هذه الفاء للجزاء، فنبه على أن الأمر بالذوق معلل بما تقدّم شرحه من قبائح أفعالهم؛ و من الزيادة فى عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بدّلهم جلودا غيرها. و كلما خبت النار زادهم اللّه سعيرا.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ قال: القرآن: و هذا مروىّ عن جماعة من التابعين، و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً قال: مضيئا وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ قال: السحاب ماءً ثَجَّاجاً قال: منصبّا. و أخرج عبد بن حميد و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا ثَجَّاجاً قال: منصبّا. و أخرج الشافعى و سعيد بن منصور و عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً قال:

يبعث اللّه الريح، فتحمل الماء فيمرّ به السحاب، فتدرّ كما تدرّ اللقحة، و الثجاج ينزل من السماء أمثال

---

(١). فى تفسير القرطبى (١٩/ ١٨١): اللقح.

(٢). يس: ١٢.

العزالى «١» فتصرّفه الرياح فينزل متفرّقا. و أخرج ابن جرير، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن قتادة قال:

فى قراءة ابن عباس وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ بالرياح. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً قال: ملتفة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: يقول: التفّ بعضها ببعض.

و أخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً قال: سراب الشمس: الآل «٢». و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً قال: سنين. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن سالم بن أبى الجعد قال: سأل علىّ بن أبى طالب هلال الهجرى: ما تجدون الحقب فى كتاب اللّه؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة منها اثنا عشر شهرا كل شهر ثلاثون يوما كل يوم ألف سنة. و أخرج سعيد بن منصور، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود فى الآية قال: الحقب الواحد ثمانون سنة. و أخرج البزار عن أبى هريرة رفعه قال: «الحقب ثمانون سنة، و السنة ثلاثمائة و ستون يوما، و اليوم كألف سنة مما تعدّون». و أخرج عبد بن حميد عنه قال: الحقب ثمانون عاما اليوم منها كسدس الدنيا. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه- قال السيوطى: بسند ضعيف- عن أبى أمامة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً قال: الحقب ألف شهر، و الشهر ثلاثون يوما، و السنة اثنا عشر شهرا ثلاثمائة و ستون يوما كل يوم منها ألف سنة مما تعدون،

فالحقب ثلاثون ألف ألف سنة. و أخرج البزار و ابن مردويه و الديلمى عن ابن عمر عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «و اللّه لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقابا، و الحقب بضع و ثمانون سنة، كل سنة ثلاثمائة و ستون يوما، و اليوم ألف سنة مما تعدّون». قال ابن عمر: فلا يتكلنّ أحد أنه يخرج من النار. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن عبد اللّه بن عمرو قال: الحقب الواحد ثمانون سنة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الحقب أربعون سنة». و أخرج ابن جرير عن خالد بن معدان فى قوله: لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً و قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ* إنهما فى أهل التوحيد من أهل القبلة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: زمهرير جهنم يكون لهم من العذاب؛ لأن اللّه يقول: لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم «فى قوله: لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً إِلَّا حَمِيماً قال: قد انتهى حرّه وَ غَسَّاقاً قد انتهى برده، و إن الرجل إذا أدنى الإناء من فيه سقط فروة وجهه، حتى يبقى عظاما تقعقع». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس جَزاءً وِفاقاً قال: وافق أعمالهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن عبد اللّه ابن عمرو قال: ما أنزلت على أهل النار آية قط أشدّ منها فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً فهم فى مزيد من عذاب اللّه أبدا.

---

(۱). العزالى: جمع عزلاء، و هى مصب الماء من الراوية و نحوها.

(۲). فى لسان العرب: الآل: هو الّذى يكون ضحى كالماء بين السماء و الأرض.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۴۵

[سورة النبإ (۷۸): الآيات ۳۱ الى ۴۰]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً (۳۱) حَدائِقَ وَ أَعْناباً (۳۲) وَ كَواعِبَ أَتْراباً (۳۳) وَ كَأْساً دِهاقاً (۳۴) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا كِذَّاباً (۳۵) جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (۳۶) رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً (۳۷) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً (۳۸) ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً (۳۹) إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً (۴۰)

قوله: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً هذا شروع فى بيان حال المؤمنين، و ما أعدّ اللّه لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين و ما أعدّ اللّه لهم من الشرّ، و المفاز مصدر؛ بمعنى الفوز و الظفر بالنعمة و المطلوب و النجاة من النار، و منه قيل: للفلاة مفازة تفاؤلا بالخلاص منها. ثم فسّر سبحانه هذا المفاز فقال: حَدائِقَ وَ أَعْناباً و انتصابهما على أنهما بدل من «مفازا» بدل اشتمال، أو بدل كلّ من كل على طريق المبالغة بجعل نفس هذه الأشياء مفازة، و يجوز أن يكون النصب بإضمار أعنى، و إذا كان مفازا بمعنى الفوز، فيقدر مضاف محذوف، أى: فوز حدائق، و هى جمع حديقة، و هى البستان المحوّط عليه، و الأعناب: جمع عنب، أى: كروم أعناب وَ كَواعِبَ أَتْراباً الكواعب: جمع كاعبة، و هى الناهدة، يقال: كعبت الجارية تكعب تكعيبا و كعوبا، و نهدت تنهد نهودا، و المراد أنهم نساء كواعب تكعبت ثديهن و تفلكت، أى: صارت ثديهنّ كالكعب فى صدورهنّ. قال الضحاك: الكواعب: العذارى. قال قيس بن عاصم:

و كم من حصان قد حوينا كريمةو من كاعب لم تدر ما البؤس معصر

و قال عمر بن أبى ربيعة:

و كان مجنى دون ما كنت أتّقى ثلاث شخوص كاعبان و معصر

و الأتراب: الأقران فی السنّ، و قد تقدّم تحقيقه فی سورة البقرة وَ كَأْساً دِهاقاً أی: ممتلئة. قال الحسن و قتادة و ابن زيد: أی مترعة مملوءة، يقال: أدهقت الكأس، أی: ملأتها، و منه قول الشاعر:

ألا فاسقنی صرفا سقانی السّاقیمن مائها بكأسک الدّهاق

و قال سعيد بن جبير و عكرمة و مجاهد: دِهاقاً متتابعة يتبع بعضها بعضا. و قال زيد بن أسلم:

دِهاقاً صافية، و المراد بالكأس الإناء المعروف، و لا يقال له الكأس إلا إذا كان فيه الشراب لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا كِذَّاباً أی: لا يسمعون فی الجنة لَغْواً و هو الباطل من الكلام، وَ لا كِذَّاباً أی: و لا يكذب بعضهم بعضا. قرأ الجمهور: كِذَّاباً بالتشديد، و قرأ الكسائی هنا بالتخفيف، و وافق الجماعة على التشديد فی قوله: وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً المتقدم فی هذه السورة للتصريح بفعله هناک، و قد قدّمنا الخلاف فی كذابا هل هو من مصادر التفعيل أو من مصادر المفاعلة. جَزاءً مِنْ رَبِّكَ أی: جازاهم بما تقدّم ذكره جزاء. قال الزجاج: المعنى جزاهم جزاء، و كذا عَطاءً أی:

و أعطاهم عطاء حِساباً قال أبو عبيدة: كافيا. و قال ابن قتيبة: كثيرا، يقال: أحسبت فلانا، أی:

فتح القدير، ج‌5، ص: 446

أكثرت له العطاء، و منه قول الشاعر «1»:

و نقفی «2» وليد الحیّ إن كان جائعاو نحسبه إن كان ليس بجائع

قال ابن قتيبة: أی: نعطيه حتى يقول حسبی. قال الزجاج: حِساباً أی: ما يكفيهم. قال الأخفش: يقال: أحسبنی كذا، أی: كفانی. قال الكلبی: حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشرا. و قال مجاهد:

حسابا لما عملوه، فالحساب بمعنى القدر، أی: يقدّر ما وجب له فی وعد الربّ سبحانه، فإنه وعد للحسنة عشرا، و وعد لقوم سبعمائة ضعف، و قد وعد لقوم جزاء لا نهاية له و لا مقدار كقوله: إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ «3» و قرأ أبو هاشم «حسّابا» بفتح الحاء و تشديد السين، أی: كفافا. قال الأصمعی: تقول العرب: حسبت الرجل بالتشديد؛ إذا أكرمته، و منه قول الشاعر:

إذا أتاه ضيفه يحسّبه و قرأ ابن عباس: «حسانا» بالنون. رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ قرأ ابن مسعود و نافع و أبو عمرو و ابن كثير و زيد عن يعقوب و المفضل عن عاصم برفع رب و الرحمن على أن ربّ مبتدأ و الرّحمن خبره، أو على أن ربّ خبر مبتدأ مقدّر: أی: هو ربّ، و الرّحمن صفته، و لا يَمْلِكُونَ خبر ربّ، أو على أن ربّ مبتدأ، و الرّحمن مبتدأ ثان، و لا يملكون خبر المبتدأ الثانی، و الجملة خبر المبتدأ الأوّل. و قرأ يعقوب فی رواية عنه و ابن عامر و عاصم فی رواية عنه بخفضهما على أن ربّ بدل من ربک، و الرّحمن صفة له. و قرأ ابن عباس و حمزة و الكسائی بخفض الأوّل على البدل، و رفع الثانی على أنه خبر مبتدأ محذوف، أی: هو الرّحمن، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و قال هذه القراءة أعدلها، فخفض ربّ لقربه من ربک، فيكون نعتا له و رفع الرّحمن لبعده منه على الاستئناف، و خبره: لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً أی:

لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه. و قال الكسائی: لا يملكون منه خطابا بالشفاعة إلا بإذنه، و قيل:

الخطاب الكلام، أی: لا يملكون أن يخاطبوا الربّ سبحانه إلا بإذنه، دليله: لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ «4». و قيل: أراد الكفار، و أما المؤمنون فيشفعون. و يجوز أن تكون هذه الجملة فی محل نصب على الحال على ما تقدّم بيانه، و يجوز أن تكون مستأنفة مقرّرة لما تفيده الربوبية من العظمة و الكبرياء يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا الظرف منتصب بلا يتكلمون، أو بلا يملكون، و «صفا» منتصب على الحال، أی:

مصطفين، أو على المصدرية، أی: يصفون صفا، و قوله: لا يَتَكَلَّمُونَ فی محل نصب على الحال، أو مستأنف لتقرير ما قبله.

(١). القائل: امرأة من بنى قشير.

(٢). «نقفيه»: أى نؤثره بالتقفية، و هى ما يؤثر به الضيف و الصبى.

(٣). الزمر: ١٠.

(۴). هود: ١٠۵.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۴٧

و اختلف فى الروح؛ فقيل: إنه ملك من الملائكة أعظم من السماوات السبع و من الأرضين السبع و من الجبال، و قيل: هو جبريل، قاله الشعبى و الضحاك و سعيد بن جبير. و قيل: الروح جند من جنود اللّه ليسوا ملائكة، قاله أبو صالح و مجاهد، و قيل: هم أشراف الملائكة، قاله مقاتل بن حيان. و قيل: هم حفظة على الملائكة، قاله ابن أبى نجيح. و قيل: هم بنو آدم، قاله الحسن و قتادة. و قيل: هم أرواح بنى آدم تقوم صفا و تقوم الملائكة صفا، و ذلك بين النفختين قبل أن تردّ إلى الأجسام، قاله عطية العوفى. و قيل: إنه القرآن، قاله زيد بن أسلم. و قوله: إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ يجوز أن يكون بدلا من ضمير يتكلمون، و أن يكون منصوبا على أصل الاستثناء، و المعنى: لا يشفعون لأحد إلا من أذن له الرّحمن بالشفاعة، أو لا يتكلّمون إلا فى حقّ من أذن له الرّحمن وَ كان ذلك الشخص ممّن قالَ صَواباً قال الضحاك و مجاهد:

صَواباً يعنى حقا. و قال أبو صالح: لا إله إلا اللّه. و أصل الصواب السداد من القول و الفعل. قيل:

لا يَتَكَلَّمُونَ يعنى الملائكة و الروح الذين قاموا صفا هيبة و إجلالا إلا من أذن له الرّحمن منهم فى الشفاعة، و هم قد قالوا صوابا. قال الحسن: إن الروح يقول يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة، و لا النار إلا بالعمل. قال الواحدى: فهم لا يَتَكَلَّمُونَ يعنى الخلق كلهم إلا من أذن له الرّحمن و هم المؤمنون و الملائكة، وَ قالَ فى الدنيا صَواباً أى: شهد بالتوحيد، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى يوم قيامهم على تلك الصفة، و هو مبتدأ و خبره الْيَوْمُ الْحَقُ أى الكائن الواقع المتحقق فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً أى: مرجعا يرجع إليه بالعمل الصالح؛ لأنه إذا عمل خيرا قرّبه إلى اللّه، و إذا عمل شرّا باعده منه، و معنى إِلى رَبِّهِ إلى ثواب ربه، قال قتادة: مَآباً: سبيلا. ثم زاد سبحانه فى تخويف الكفار فقال: إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يعنى العذاب فى الآخرة، و كلّ ما هو آت فهو قريب، و مثله قوله:

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها «١» كذا قال الكلبى و غيره. و قال قتادة: هو عذاب الدنيا لأنه أقرب العذابين. قال مقاتل: هو قتل قريش ببدر، و الأوّل أولى لقوله: يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ فإن الظرف إما بدل من عذاب، أو ظرف لمضمر هو صفة له، أى: عذابا كائنا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ أى: يشاهد ما قدّمه من خير أو شرّ، و «ما» موصولة أو استفهامية. قال الحسن: و المرء هنا هو المؤمن، أى: يجد لنفسه عملا، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا فيتمنى أن يكون ترابا، و قيل: المراد به الكافر على العموم، و قيل: أبىّ بن خلف و عقبة بن أبى معيط، و الأوّل أولى لقوله: وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً فإن الكافر واقع فى مقابلة المرء، و المراد جنس الكافر يتمنى أن يكون ترابا لما يشاهده مما قد أعدّه اللّه له من أنواع العذاب، و المعنى: أنه يتمنى أنه كان ترابا فى الدنيا فلم يخلق، أو ترابا يوم القيامة. و قيل:

المراد بالكافر أبو جهل، و قيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى، و قيل: إبليس، و الأوّل أولى اعتبارا بعموم اللفظ، و لا ينافيه خصوص السبب كما تقدّم غير مرّة.

(١). النازعات: ۴۶.

فتح القدير، ج‏5، ص: 448

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً قال: منتزها وَ كَواعِبَ قال: نواهد أَتْراباً قال: مستويات وَ كَأْساً دِهاقاً قال: ممتلئا.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس فى قوله: وَ كَأْساً دِهاقاً قال: هى الممتلئة المترعة المتتابعة، و ربما سمعت العباس يقول: يا غلام اسقنا و ادهق لنا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه: دِهاقاً قال: دراكا.

و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال: إذا كان فيها خمر فهى كأس، و إذا لم يكن فيها خمر فليس بكأس. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه عنه أيضا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الروح جند من جنود اللّه، ليسوا بملائكة، لهم رؤوس و أيد و أرجل» ثم قرأ: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا قال: هؤلاء جند و هؤلاء جند. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ قال: هو ملك من أعظم الملائكة خلقا. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: «الروح فى السماء الرابعة، و هو أعظم من السموات و الجبال و من الملائكة، يسبح كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحة، يخلق اللّه من كل تسبيحة ملكا من الملائكة يجى‏ء يوم القيامة صفا وحده».

و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: «إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدى الجبار ترعد فرائصه فرقا من عذاب اللّه، يقول: سبحانك لا إله إلا أنت ما عبدناك حق عبادتك، ما بين منكبيه كما بين المشرق و المغرب، أما سمعت قول اللّه: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا». و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عنه فى قوله: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ قال: يعنى حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن تردّ الأرواح إلى الأجساد.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عنه أيضا وَ قالَ صَواباً قال:

لا إله إلا اللّه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث و النشور، عن أبى هريرة قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم و الدواب و الطير و كلّ شى‏ء، فيبلغ من عدل اللّه أن يؤخذ للجمّاء «1» من القرناء، ثم يقول: كونى ترابا، فذلك حين يقول الكافر يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً.

---

(1). «الجماء»: التى لا قرون لها.

فتح القدير، ج‏5، ص: 449

سورة النّازعات

اشارة

و تسمى سورة الساهرة، هى خمس و أربعون آية، و قيل: ست و أربعون آية و هى مكية بلا خلاف.

و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة النازعات بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النازعات (79): الآيات 1 الى 26]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً (١) وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً (٢) وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً (٣) فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (۴)
فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (۵) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (۶) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ (٨) أَبْصارُها خاشِعَةٌ (٩)
يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ (١٠) أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (١١) قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ (١٣)
فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١۴)
هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (١۵) إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (١۶) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَ أَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى (١٩)
فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى (٢٠) فَكَذَّبَ وَ عَصى (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى (٢٢) فَحَشَرَ فَنادى (٢٣) فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى (٢۴) فتح القدير ج۵ ۴٧٩
فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى (٢۵) إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى (٢۶)
أقسم سبحانه بهذه الأشياء التى ذكرها، و هى الملائكة التى تنزع أرواح العباد عن أجسادهم؛ كما ينزع النازع فى القوس فيبلغ بها غاية المدّ، و كذا المراد بالناشطات و السابحات و السابقات و المدبرات، يعنى:
الملائكة، و العطف مع اتحاد الكلّ لتنزيل التغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى، كما فى قول الشاعر:
إلى الملك القرم و ابن الهمامو ليث الكتيبة فى المزدحم
و هذا قول الجمهور من الصحابة و التابعين و من بعدهم. و قال السدّى: النَّازِعاتِ هى النفوس حين تغرق فى الصدور. و قال مجاهد: هى الموت ينزع النفس. و قال قتادة: هى النجوم تنزع من أفق إلى أفق، من قولهم: نزع إليهم إذا ذهب، أو من قولهم نزعت بالحبل، أى: إنها تغرب و تغيب و تطلع من أفق آخر. و به قال أبو عبيدة و الأخفش و ابن كيسان. و قال عطاء و عكرمة: النازعات: القسى تنزع بالسهام، و إغراق النازع فى القوس أن يمدّه غاية المدّ حتى ينتهى به إلى النصب. و قال يحيى بن سلام: تنزع من الكلأ و تنفر، و قيل: أراد بالنّازعات: الغزاة الرّماة، و انتصاب غَرْقاً على أنه مصدر بحذف الزوائد، أى:
إغراقا، و الناصب له ما قبله لملاقاته له فى المعنى، أى: إغراقا فى النزع حيث تنزعها من أقاصى الأجسام، أو على الحال، أى: ذوات إغراق، يقال: أغرق فى الشى‌ء يغرق فيه؛ إذا أوغل فيه و بلغ غايته وَ معنى النَّاشِطاتِ أنها تنشط النفوس، أى: تخرجها من الأجساد كما ينشط العقال من يد البعير؛ إذا
فتح القدير، ج۵، ص: ۴۵٠
حلّ عنه، و نشط الرجل الدلو من البئر؛ إذا أخرجها، و النّشط: الجذب بسرعة، و منه الأنشوطة للعقدة التى يسهل حلّها. قال أبو زيد: نشطت الحبل أنشطه عقدته، و أنشطته، أى: حللته، و أنشطت الحبل، أى: مددته. قال الفراء: أنشط العقال، أى: حلّ، و نشط، أى: ربط الحبل فى يديه. قال الأصمعى:
بئر أنشاط، أى: قريبة القعر، تخرج الدلو منها بجذبة واحدة، و بئر نشوط، و هى التى لا يخرج منها الدلو حتى ينشط كثيرا. و قال مجاهد: هى الموت ينشط نفس الإنسان. و قال السدّى: هى النفوس حين تنشط من القدمين. و قال عكرمة و عطاء: هى الأوهاق «١» التى تنشط السهام، و قال قتادة و الحسن و الأخفش:
هى النجوم تنشط من أفق إلى أفق، أى: تذهب. قال فى الصحاح: وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً يعنى النجوم من برج إلى برج؛ كالثور الناشط من بلد إلى بلد. و الهموم تنشط بصاحبها. و قال أبو عبيدة و قتادة: هى الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد. و قيل: الناشطات لأرواح المؤمنين، و النازعات لأرواح الكافرين؛ لأنها تجذب روح المؤمن برفق و تجذب روح الكافر بعنف، و قوله: نَشْطاً

مصدر، و كذا سبحا و سبقا.

وَ السَّابِحاتِ الملائكة تسبح فى الأبدان لإخراج الروح كما يسبح الغوّاص فى البحر لإخراج شيء منه.

و قال مجاهد و أبو صالح: هى الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر اللّه، كما يقال للفرس الجواد سابح؛ إذا أسرع فى جريه.

و قال مجاهد أيضا: السّابحات: الموت يسبح فى نفوس بنى آدم. و قيل: هى الخيل السابحة فى الغزو، و منه قول عنترة:

و الخيل تعلم حين تسبح فى حياض الموت سبحا

و قال قتادة و الحسن: هى النجوم تسبح فى أفلاكها، كما فى قوله: وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ «۲» و قال عطاء: هى السفن تسبح فى الماء، و قيل: هى أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى اللّه فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً هم الملائكة على قول الجمهور كما سلف. قال مسروق و مجاهد: تسبق الملائكة الشياطين بالوحى إلى الأنبياء.

و قال أبو روق: هى الملائكة سبقت ابن آدم بالخير و العمل الصالح، و روى نحوه عن مجاهد. و قال مقاتل:

هى الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. و قال الربيع: هى أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقا إلى اللّه. و قال مجاهد أيضا: هو الموت يسبق الإنسان. و قال قتادة و الحسن و معمر: هى النجوم يسبق بعضها فى السير بعضا. و قال عطاء: هى الخيل التى تسبق إلى الجهاد. و قيل: هى الأرواح التى تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار. قال الجرجانى: عطف السابقات بالفاء؛ لأنها مسببة من التى قبلها، أى: و اللاتى يسبحن فيسبقن، تقول: قام فذهب، فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب، و لو قلت قام و ذهب بالواو لم يكن القيام سببا للذهاب. قال الواحدى: و هذا غير مطرد فى قوله: فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً لأنه يبعد أن يجعل السبق سببا للتدبّر، قال الرازى: و يمكن الجواب عما قاله الواحدى: بأنها لما أمرت سبحت فسبقت

---

(۱). «الأوهاق»: جمع وهق، الحبل تشدّ به الإبل و الخيل لئلا تندّ.

(۲). يس: ۴۰.

فدبرت ما أمرت بتدبيره، فتكون هذه أفعالا يتصل بعضها ببعض، كقوله: قام زيد فذهب. و لما سبقوا فى الطاعات و سارعوا إليها ظهرت أمانتهم ففوّض إليهم التدبير. و يجاب عنه بأن السبق لا يكون سببا للتدبير كسببية السبح للسبق و القيام للذهاب، و مجرد الاتصال لا يوجب السببية و المسببية. و الأولى أن يقال العطف بالفاء فى المدبرات طوبق به ما قبله من عطف السابقات بالفاء، و لا يحتاج إلى نكتة كما احتاج إليها ما قبله لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق لا لمطابقته و موافقته فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً قال القشيرى: أجمعوا على أن المراد هنا الملائكة. و قال الماوردى: فيه قولان: أحدهما: الملائكة و هو قول الجمهور، و الثانى: أنها الكواكب السبع، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل. و فى تدبيرها الأمر و جهان: أحدهما: تدبّر طلوعها و أفولها. الثانى: تدبّر ما قضاه اللّه فيها من الأحوال. و معنى تدبير الملائكة للأمر نزولها بالحلال و الحرام و تفصيلهما و الفاعل للتدبير فى الحقيقة و إن كان هو اللّه عزّ و جلّ، لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به. و قيل:

إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض فى الرياح و الأمطار و غير ذلك قيل لها: مدبرات. قال عبد الرّحمن ابن سابط: تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة: جبريل و ميكائيل و عزرائيل و إسرافيل، فأما جبريل فموكل بالرياح و الجنود، و أما ميكائيل فموكل بالقطر و النبات، و أما عزرائيل فموكل بقبض الأنفس، و أما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم، و جواب القسم بهذه الأمور التى أقسم اللّه بها محذوف، أى: و النازعات، و كذا و كذا لتبعثنّ. قال الفرّاء: و حذف لمعرفة السامعين به، و يدل عليه قوله: أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً «۱» و قيل:

إن جواب القسم قوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى «٢» أى: إن فى يوم القيامة ذكر و موسى و فرعون لعبرة لمن يخشى. قال ابن الأنبارى: و هذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال بينهما، و قيل: جواب القسم هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى «٣» لأن المعنى: قد أتاك، و هذا ضعيف جدا. و قيل: الجواب يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ على تقدير: ليوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة. و قال السجستانى: يجوز أن يكون هذا من التقديم و التأخير، كأنه قال: فإذا هم بالساهرة و النازعات. قال ابن الأنبارى: و هذا خطأ لأن الفاء لا يفتتح بها الكلام، و الأوّل أولى يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدّر للقسم، أو بإضمار: اذكر، و الراجفة: المضطربة، يقال: رجف يرجف؛ إذا اضطرب، و المراد هنا الصيحة العظيمة التى فيها تردّد و اضطراب كالرعد، و هى النفخة الأولى التى يموت بها جميع الخلائق، و الرادفة: النفخة الثانية التى تكون عند البعث، و سميت رادفة لأنها ردفت النفخة الأولى، كذا قال جمهور المفسرين. و قال ابن زيد: الراجفة: الأرض، و الرادفة: الساعة. و قال مجاهد: الرادفة: الزلزلة تتبعها الرادفة الصيحة، و قيل: الراجفة: اضطراب الأرض، و الرادفة: الزلزلة، و أصل الرجفة: الحركة، و ليس المراد التحرك هنا فقط؛ بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم: رجف الرعد يرجف رجفا و رجيفا؛ إذا ظهر صوته، و منه سميت الأراجيف؛ لاضطراب الأصوات بها و ظهور الأصوات فيها، و منه قول الشاعر «۴»:

---

(١). النازعات: ١١.

(٢). النازعات: ٢۶.

(٣). طه: ٩.

(۴). هو منازل بن ربيعة المنقرى.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۵۲ أ بالأراجيف يا ابن اللؤم توعدنىو فى الأراجيف خلت اللؤم و الخورا

و محل تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ النصب على الحال من الراجفة، و المعنى: لتبعثنّ يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ قلوب مبتدأ، و يومئذ منصوب بواجفة، و واجفة صفة قلوب، و جملة أَبْصارُها خاشِعَةٌ خبر قلوب، و الواجفة: المضطربة القلقة لما عاينت من أهوال يوم القيامة. قال جمهور المفسرين: أى خائفة وجلة. و قال السدّى: زائلة عن أماكنها، نظيره إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ «١» و قال المؤرج: قلقة مستوفزة. و قال المبرد: مضطربة، يقال: وجف القلب يجف وجيفا؛ إذا خفق، كما يقال: وجب يجب وجيبا، و الإيجاف: السير السريع، فأصل الوجيف اضطراب القلب، و منه قول قيس بن الخطيم:

إنّ بنى جحجبى و قومهمأكبادنا من ورائهم تجف

أَبْصارُها خاشِعَةٌ أى: أبصار أصحابها، فحذف المضاف، و الخاشعة: الذليلة، و المراد أنها تظهر عليهم الذلة و الخضوع عند معاينة أهوال يوم القيامة؛ كقوله: خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِ «٢» قال عطاء: يريد أبصار من مات على غير الإسلام، و يدلّ على هذا أن السياق فى منكرى البعث يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ هذا حكاية لما يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم إنكم تبعثون، أى: أ نردّ إلى أوّل حالنا و ابتداء أمرنا فنصير أحياء بعد موتنا، يقال: رجع فلان فى حافرته، أى: رجع من حيث جاء، و الحافرة عند العرب اسم لأوّل الشيء و ابتداء الأمر، و منه قولهم: رجع فلان على حافرته، أى: على الطريق الّذى جاء منه، و يقال: اقتتل القوم عند الحافرة، أى: عند أوّل ما التقوا؛ و سمّيت الطريق التى جاء منها حافرة لتأثيره فيها بمشيه فيها فهى حافرة بمعنى محفورة، و من هذا قول الشاعر:

أ حافرة على صلع و شيبمعاذ اللّه من سفه و عار

أى: أ أرجع إلى ما كنت عليه فى شبابى من الغزل بعد الشيب و الصلع. و قيل: الحافرة: العاجلة، و المعنى: إنّا لمردودون إلى

الدنيا، و قيل: الحافرة: الأرض التى تحفر فيها قبورهم، و منه قول الشاعر:

آليت لا أنساكم فاعلمواحتّى يردّ النّاس فى الحافرة

و المعنى: إنا لمردودون فى قبورنا أحياء، كذا قال الخليل و الفراء، و به قال مجاهد. و قال ابن زيد: الحافرة: النار، و استدلّ بقوله: تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ. قرأ الجمهور: فِی الْحافِرَةِ و قرأ أبو حيوة «فى الحفرة». أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً أى: بالية متفتتة. يقال: نخر العظم بالكسر؛ إذا بلى، و هذا تأكيد لإنكار البعث، أى: كيف نردّ أحياء و نبعث إذا كنا عظاما نخرة، و العامل فى «إذا» مضمر يدلّ عليه مردودون، أى: أ إذا كنا عظاما بالية نرد و نبعث مع كونها أبعد شىء من الحياة. قرأ الجمهور: نَخِرَةً

---

(١). غافر: ١٨.

(٢). الشورى: ۴۵.

و قرأ حمزة و الكسائى و أبو بكر «ناخرة» و اختار القراءة الأولى أبو عبيد و أبو حاتم، و اختار القراءة الثانية الفراء و ابن جرير و أبو معاذ النحوى. قال أبو عمرو بن العلاء: الناخرة التى لم تنخر بعد، أى: لم تبل و لا بدّ أن تنخر. و قيل: هما بمعنى، تقول العرب: نخر الشىء فهو ناخر و نخر، و طمع فهو طامع و طمع و نحو ذلك. قال الأخفش: هما جميعا لغتان أيهما قرأت فحسن. قال الشاعر:

يظلّ بها الشيخ الّذى كان بادنايدبّ على عوج له نخرات

يعنى على قوائم عوج، و قيل: الناخرة التى أكلت أطرافها و بقيت أوساطها، و النخرة: التى فسدت كلّها. و قال مجاهد نَخِرَةً أى: مرفوتة، كما فى قوله: رُفاتاً* «١»، و قرئ إِذا كُنَّا و أَ إِذا كُنَّا بالاستفهام و بعدمه. ثم ذكر سبحانه عنهم قولا آخر قالوه فقال: قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ أى: رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من الخسران، و المعنى: أنهم قالوا: إن رددنا بعد الموت لنخسرنّ بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد. و قيل: معنى خاسرة كاذبة، أى: ليست بكائنة، كذا قال الحسن و غيره. و قال الربيع بن أنس: خاسرة على من كذب بها. و قال قتادة و محمد بن كعب: أى لئن رجعنا بعد الموت لنخسرنّ بالنار، و إنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار، و الكرّة: الرجعة، و الجمع كرّات.

و قوله: فَإِنَّما هِیَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ تعليل لما يدل عليه ما تقدّم من استبعادهم لبعث العظام النخرة و إحياء الأموات، و المعنى: لا تستبعدوا ذلك فإنما هى زجرة واحدة، و كان ذلك الإحياء و البعث، و المراد بالزجرة الصيحة و هى النفخة الثانية التى يكون البعث بها. و قيل: إن الضمير فى قوله: فَإِنَّما هِیَ راجع إلى الرادفة المتقدّم ذكرها فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ أى: فإذا الخلائق الذين قد ماتوا و دفنوا أحياء على وجه الأرض، قال الواحدى: المراد بالساهرة وجه الأرض، و ظاهرها فى قول الجميع. قال الفرّاء: سمّيت بهذا الاسم لأن فيها نوم الحيوان و سهرهم، و قيل: لأن يسهر فى فلاتها خوفا منها، فسميت بذلك، و منه قول أبى كبير الهذلىّ:

يرتدن ساهرة كأنّ جميمهاو عميمها أسداف ليل مظلم «٢»

و قول أمية بن أبى الصّلت:

و فيها لحم ساهرة و بحرو ما فاهوا به لهم مقيم

يريد لحم حيوان أرض ساهرة. قال فى الصحاح: الساهرة: وجه الأرض، و منه قوله: فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ. و قال: الساهرة: أرض بيضاء، و قيل: أرض من فضة لم يعص اللّه سبحانه فيها، و قيل:

الساهرة: الأرض السابعة يأتى بها اللّه سبحانه فيحاسب عليها الخلائق. و قال سفيان الثورى: الساهرة: أرض

(١). الإسراء: ۴۹.

(٢). «الجميم»: النبت الّذى قد نبت و ارتفع قليلا و لم يتم كل التمام. «العميم»: المكتمل التام من النبت. «الأسداف»: جمع سدف، و هو ظلمة الليل.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۵۴

الشام. و قال قتادة: هى جهنم، أى: فإذا هؤلاء الكفار فى جهنم، و إنما قيل: لها ساهرة لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم. و جملة هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى مستأنفة مسوقة لتسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن تكذيب قومه، و أنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ممّن هو أقوى منهم، و معنى هَلْ أَتاكَ

قد جاءك و بلغك، هذا على تقدير أن قد سمع من قصص فرعون و موسى ما يعرف به حديثهما، و على تقدير أن هذا ما نزل عليه فى شأنهما؛ فيكون المعنى على الاستفهام، أى: هل أتاك حديثه أنا أخبرك به إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً الظرف متعلق بحديث لا بأتاك لاختلاف وقتيهما، و قد مضى من خبر موسى و فرعون فى غير موضع ما فيه كفاية، و قد تقدّم الاختلاف بين القرّاء فى طوى فى سورة طه. و الواد المقدّس:

المبارك المطهر. قال الفراء: طوى واد بين المدينة و مصر. قال: و هو معدول من طاو، كما عدل عمر من عامر. قال: و الصرف أحبّ إذ لم أجد فى المعدول نظيرا له. و قيل: طوى معناه يا رجل بالعبرانية، فكأنه قيل يا رجل اذهب، و قيل: المعنى: إن الوادى المقدّس بورك فيه مرتين، و الأوّل أولى. و قد مضى تحقيق القول فيه اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى قيل: هو على تقدير القول، و قيل: هو تفسير للنداء، أى:

ناداه نداء هو قوله: اذهب. و قيل: هو على حذف أن المفسرة، و يؤيده قراءة ابن مسعود أن اذهب؛ لأن فى النداء معنى القول، و جملة إِنَّهُ طَغى تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال، أى: جاوز الحدّ فى العصيان و التكبر و الكفر باللّه فَقُلْ له هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى أى: قل له بعد وصولك إليه: هل لك رغبة إلى التزكى؟ و هو التطهر من الشرك، و أصله تتزكى فحذفت إحدى التاءين. قرأ الجمهور: تَزَكَّى بالتخفيف. و قرأ نافع و ابن كثير بتشديد الزاى على إدغام التاء فى الزاى. قال أبو عمرو بن العلاء: معنى قراءة التخفيف تكون زكيا مؤمنا، و معنى قراءة التشديد الصدقة، و فى الكلام مبتدأ مقدّر يتعلق به إلى، و التقدير: هل لك رغبة أو هل بك توجه أو هل لك سبيل إلى التزكى، و مثل هذا قولهم: هل لك فى الخير؟

يريدون: هل لك رغبة فى الخير، و من هذا قول الشاعر «١»:

فهل لكم فيها إلىّ فإنّنى طبيب بما أعيا النطاسىّ حذيما «٢»

وَ أَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى أى: أرشدك إلى عبادته و توحيده فتخشى عقابه، و الفاء لترتيب الخشية على الهداية؛ لأن الخشية لا تكون إلا من مهتد راشد فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى هذه الفاء هى الفصيحة لإفصاحها عن كلام محذوف، يعنى: فذهب فقال له ما قال مما حكاه اللّه فى غير موضع، و أجاب عليه بما أجاب إلى أن قال: إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها «٣» فعند ذلك أراه الآية الكبرى. و اختلف فى الآية الكبرى ما هى؟ فقيل: يده، و قيل: فلق البحر، و قيل: هى جميع ما جاء به من الآيات التسع فَكَذَّبَ وَ عَصى أى: فلما أراه الآية الكبرى كذّب بموسى و بما جاء به، و عصى اللّه عزّ

(١). هو أوس بن أوس.

(٢). أى: ابن حذيم.

(٣). الأعراف: ١٠۶.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۵۵

و جلّ فلم يطعه ثُمَّ أَدْبَرَ أى: تولّى و أعرض عن الإيمان يَسْعى أى: يعمل بالفساد فى الأرض و يجتهد فى معارضة ما جاء به موسى، و قيل: أدبر هاربا من الحية يسعى خوفا منها. و قال الرازى: معنى أَدْبَرَ يَسْعى أقبل يسعى، كما يقال: أقبل يفعل كذا، أى: أنشأ يفعل كذا، فوضع أدبر موضع أقبل لئلا يوصف بالإقبال. فَحَشَرَ أى: فجمع جنوده للقتال و المحاربة، أو جمع السحرة للمعارضة؛ أو جمع الناس للحضور ليشاهدوا ما يقع، أو جمعهم ليمنعوه من الحية فَنادى فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى أى:

قال لهم بصوت عال، أو أمر من ينادى بهذا القول. و معنى أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى أنه لا ربّ فوقى. قال عطاء: كان صنع لهم أصناما صغارا و أمرهم بعبادتها و قال: أنا ربّ أصنامكم، و قيل: أراد بكونه ربهم أنه قائدهم و سائدهم. و الأوّل أولى لقوله فى آية أخرى: ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي «١» فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى النكال نعت مصدر محذوف، أى: أخذه أخذ نكال، أو هو مصدر لفعل محذوف، أى: أخذه اللّه فنكله نكال الآخرة و الأولى، أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة، و المراد بنكال الآخرة عذاب النار و نكال الأولى عذاب الدنيا بالغرق. و قال مجاهد: عذاب أوّل عمره و آخره، و قال قتادة: الآخرة قوله:

أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى و الأولى تكذيبه لموسى. و قيل: الآخرة قوله: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى و الأولى قوله:

ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي و كان بين الكلمتين أربعون سنة، و يجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له، أى: أخذه اللّه لأجل نكال، و يجوز أن ينتصب بنزع الخافض، أى: بنكال. و رجح الزجاج أنه مصدر مؤكد، قال: لأن معنى أخذه اللّه: نكل اللّه به، فأخرج من معناه لا من لفظه. و قال الفرّاء:

أى أخذه اللّه أخذا نكالا: أى: للنكال، و النكال: اسم لما جعل نكالا للغير، أى: عقوبة له، يقال: نكل فلان بفلان: إذا عاقبه، و أصل الكلمة من الامتناع، و منه النكول عن اليمين، و النكل القيد إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى أى: فيما ذكر من قصة فرعون و ما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى اللّه و يتقيه، و يخاف عقوبته و يحاذر غضبه.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً قال:

هى الملائكة تنزع روح الكفار وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً قال: هى الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار و الجلد حتى تخرجها وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً هى الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء و الأرض فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً هى الملائكة يسبق بعضها بعضا بأرواح المؤمنين إلى اللّه فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً هى الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً قال: هى أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق فى النار. و أخرج الحاكم و صححه عنه وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً- وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً قال: الموت.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً قال: الملائكة الذين يلون أنفس الكفار

---

(١). القصص: ٣٨.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۵۶

إلى قوله: وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً قال: الملائكة.

و أخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل قال: قال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تمزّق الناس فتمزقك كلاب النار، قال اللّه: وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً أ تدرى ما هو؟ قلت: يا نبىّ اللّه ما هو؟ قال: كلاب فى النار تنشط اللحم و العظم». و أخرج ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب أن ابن الكواء سأله عن فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً قال: هى الملائكة يدبرون ذكر الرّحمن و أمره. و أخرج ابن أبى

الدنيا فى «ذكر الموت» عن ابن عباس قال: المدبرات أمرا ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم، فمنهم من يعرج بالروح، و منهم من يؤمّن على الدّعاء، و منهم من يستغفر للميت حتى يصلى عليه و يدلى فى حفرته.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ قال: النفخة الأولى تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قال: النفخة الثانية قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ قال: خائفة أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ قال:

الحياة. و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و حسّنه، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبيّ بن كعب قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا ذهب ربع الليل قام فقال: «أيها الناس اذكروا اللّه، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه». و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ترجف الأرض رجفا، و تزلزل بأهلها، و هى التى يقول اللّه:

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ- تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ يقول: مثل السفينة فى البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائه». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ قال: وجلة متحركة. و أخرج عبد ابن حميد عنه أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ قال: خلقا جديدا. و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و ابن الأنبارى فى الوقف و الابتداء، و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا أنه سئل عن قوله: فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ فقال: الساهرة وجه الأرض، و فى لفظ قال: الأرض كلها ساهرة، ألا ترى قول الشاعر:

صيد بحر و صيد ساهرة و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عنه أيضا هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى قال: هل لك أن تقول:

لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ قال: قوله: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى وَ الْأُولى قال: قوله: ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن عبد اللّه ابن عمرو قال: كان بين كلمتيه أربعون سنة.

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ٢٧ الى ٤٦]

أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (٢٧) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (٢٨) وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها (٢٩) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (٣٠) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها (٣١)

وَ الْجِبالَ أَرْساها (٣٢) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (٣٣) فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى (٣٥) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى (٣٦)

فَأَمَّا مَنْ طَغى (٣٧) وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى (٣٩) وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى (٤١)

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها (٤٣) إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها (٤٤) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (٤٦)

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤٥٧

قوله: أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ أى: أخلقكم بعد الموت و بعثكم أشدّ عندكم و فى تقديركم أم خلق السماء، و الخطاب لكفار مكة، و المقصود به التوبيخ لهم و التبكيت؛ لأن من قدر على خلق السماء التى لها هذا الجرم العظيم و فيها من عجائب الصنع و بدائع القدرة ما هو بين للناظرين كيف يعجز عن إعادة الأجسام التى أماتها بعد أن خلقها أوّل مرّة؟ و مثل هذا قوله سبحانه: لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ «١» و قوله: أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ «٢» ثم بين سبحانه كيفية خلق السماء فقال: بَناها- رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها أى: جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض، و رفع سمكها، أى: أعلاه فى الهواء، فقوله: رَفَعَ سَمْكَها بيان للبناء، يقال سمكت الشي‏ء، أى: رفعته فى الهواء، و سمك الشي‏ء سموكا: ارتفع. قال الفرّاء:

كل شـىء حمل شيئا من البناء أو غيره فهو سـمك، و بناء مسموك، و سنام سامك، أى: عال، و المسموكات: السماوات: و منه قول الفرزدق:

إنّ الّذى سمك السّماء بنى لنابيتا دعائمه أعزّ و أطول

قال البغوى: رَفَعَ سَمْكَها أى: سقفها. قال الكسائى و الفراء و الزجاج: تمّ الكلام عند قوله:

أَمِ السَّماءُ بَناها لأنه من صلة السماء، و التقدير: أم السماء التى بناها، فحذف التى، و مثل هذا الحذف جائز. و معنى فَسَوَّاها فجعلها مستوية الخلق معدّلة الشكل لا تفاوت فيها و لا اعوجاج و لا فطور و لا شقوق وَ أَغْطَشَ لَيْلَها الغطش: الظلمة، أى: جعله مظلما، يقال: غطش الليل و أغطشه اللّه، كما يقال: أظلم الليل و أظلمه اللّه، و رجل أغطش و امرأة غطشى لا يهتديان. قال الراغب: و أصله من الأغطش، و هو الّذى فى عينه عمش، و منه فلاة غطشى لا يهتدى فيها «٣»، و التغاطش: التعامى. قال الأعشى:

و يهماء باللّيل غطشى الفلاة يؤنسنى صوت فيادها «۴»

و قوله:

و غامرهم مدلهمّ غطش «۵» يعنى: غمرهم سواد الليل، و أضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب الشمس و الشمس مضافة إلى السماء وَ أَخْرَجَ ضُحاها أى: أبرز نهارها المضىء بإضاءة الشمس، و عبّر عن النهار بالضحى؛ لأنه

---

(١). غافر: ۵٧.

(٢). يس: ٨١.

(٣). فى تفسير القرطبى: لها.

(۴). «الفياد»: ذكر البوم.

(۵). و صدر البيت: عقرت لهم موهنا ناقتى.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۵٨

أشرف أوقاته و أطيبها، و أضافه إلى السماء لأنه يظهر بظهور الشمس، و هى منسوبة إلى السماء وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها أى: بعد خلق السماء، و معنى دحاها: بسطها، و هذا يدلّ على أن خلق الأرض بعد خلق السماء، و لا معارضة بين هذه الآية و بين ما تقدّم فى سورة فصلت من قوله: ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ «١» بل الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أوّلا غير مدحوّة ثم خلق السماء ثم دحا الأرض، و قد قدّمنا الكلام على هذا مستوفى هنالك، و قدّمنا أيضا بحثا فى هذا فى أوّل سورة البقرة عند قوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً «٢» و ذكر بعض أهل العلم أن بعد بمعنى مع كما فى قوله: عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ «٣»؛ و قيل: بعد بمعنى قبل كقوله: وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ «۴» أى: من قبل الذكر.

و الجمع الّذى ذكرناه أولى، و هو قول ابن عباس و غير واحد، و اختاره ابن جرير. يقال: دحوت الشىء أدحوه؛ إذا بسطته، و يقال لعشّ النعامة: أدحى، لأنه مبسوط على الأرض، و أنشد المبرد:

دحاها فلمّا رآها استوتعلى الماء أرسى عليها الجبالا

و قال أمية بن أبى الصّلت:

و بثّ الخلق فيها إذ دحاهافهم قطّانها حتّى التّنادى

و قال زيد بن عمرو بن نفيل:

و أسلمت وجهى لمن أسلمت‌له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلمّا استوت شدّهابأيد و أرسى عليها الجبالا

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال، و قرأ الحسن و عمرو بن ميمون و ابن أبى عبلة و أبو حيوة و أبو السّمّال و عمرو بن عبيد و نصر بن عاصم بالرفع على الابتداء أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها أى: فجّر من الأرض الأنهار و البحار و العيون أَخْرَجَ مِنْها ماءَها- وَ مَرْعاها أى: النبات الّذى يرعى، و مرعاها مصدر ميمىّ، أى: رعيها، و هو فى الأصل موضع الرعى، و الجملة إما بيان و تفسير لدحاها؛ لأنّ السّكنى لا تتأتى بمجرّد البسط بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المأكل و المشرب. و إما فى محل نصب على الحال وَ الْجِبالَ أَرْساها أى: أثبتها فى الأرض و جعلها كالأوتاد للأرض لتثبت و تستقرّ و أن لا تميد بأهلها. قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال. و قرأ الحسن و عمرو بن ميمون و أبو حيوة و أبو السّمّال و عمرو بن عبيد و نصر ابن عاصم بالرفع على الابتداء، قيل: و لعل وجه تقديم ذكر إخراج الماء و المرعى على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه للاهتمام بأمر المأكل و المشرب مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ أى: منفعة لكم و لأنعامكم من البقر و الإبل و الغنم، و انتصاب «متاعا» على المصدرية، أى: متعكم بذلك متاعا، أو هو مصدر من غير لفظه، لأن قوله: أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها بمعنى متع بذلك، أو على أنه مفعول له، أى: فعل ذلك لأجل

---

(۱). فصلت: ۱۱.

(۲). البقرة: ۲۹.

(۳). القلم: ۱۳.

(۴). الأنبياء: ۱۰۵.

التمتيع، و إنما قال: لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ لأن فائدة ما ذكر من الدحوّ و إخراج الماء و المرعى كائنة لهم و لأنعامهم، و المرعى: يعمّ ما يأكله الناس و الدواب فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى أى: الداهية العظمى التى تطمّ على سائر الطامات. قال الحسن و غيره: و هى النفخة الثانية. و قال الضحاك و غيره: هى القيامة سميت بذلك لأنها تطمّ على كل شى‌ء لعظم هولها. قال المبرد: الطامة عند العرب: الداهية التى لا- تستطاع، و إنما أخذت فيما أحسب من قولهم: طمّ الفرس طميما؛ إذا استفرغ جهده فى الجرى، و طمّ الماء؛ إذا ملأ النهر كله. و قال غيره: هو من طمّ السّيل الرّكية «۱»، أى: دفنها، و الطمّ: الدفن. قال مجاهد و غيره:

الطامة الكبرى هى التى تسلم أهل الجنة إلى الجنة و أهل النار إلى النار، و الفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها، و جواب «إذا» قيل هو قوله: فَأَمَّا مَنْ طَغى و قيل: محذوف، أى: فإن الأمر كذلك، أو عاينوا، أو علموا، أو أدخل أهل النار النار و أهل الجنة الجنة. و قال أبو البقاء: العامل فيها جوابها، و هو معنى يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ فإنه منصوب بفعل مضمر، أى: أعنى يوم يتذكر، أو يوم يتذكر يكون كيت و كيت. و قيل: إن الظرف بدل من إذا، و قيل: هو بدل من الطامة الكبرى؛ و معنى يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى أنه يتذكر ما عمله من خير أو شر؛ لأنه يشاهده مدوّنا فى صحائف عمله، و «ما» مصدرية، أو موصولة وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى معطوف على جاءت، و معنى برزت: أظهرت إظهارا لا يخفى على أحد. قال مقاتل: يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق، و قيل: لِمَنْ يَرى من الكفار، لا من المؤمنين؛ و الظاهر أن تبرز لكلّ راء، فأما المؤمن فيعرف برؤيتها قدر نعمة اللّه عليه بالسلامة منها، و أما الكافر فيزداد غمّا إلى غمّه، و حسرة إلى حسرته. قرأ الجمهور: لِمَنْ يَرى بالتحتية، و قرأت عائشة و مالك ابن دينار و عكرمة و زيد بن علىّ بالفوقية، أو: لمن تراه الجحيم، أو لمن تراه أنت يا محمد. و قرأ ابن مسعود:

«لمن رأى» على صيغة الفعل الماضى فَأَمَّا مَنْ طَغى أى: جاوز الحد فى الكفر و المعاصى وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا أى: قدّمها عن الآخرة و لم يستعدّ لها و لا عمل عملها فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى أى:

مأواه، و الألف و اللام عوض عن المضاف إليه، و المعنى: أنها منزله الّذى ينزله، و مأواه الّذى يأوى إليه؛ لا غيرها. ثم ذكر القسم الثانى من القسمين فقال: وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ أى: حذر مقامه بين يدى ربه يوم القيامة. قال الربيع: مقامه يوم الحساب. قال قتادة: يقول: إن اللّه عزّ و جلّ مقاما قد خافه المؤمنون. و قال مجاهد: هو خوفه فى الدنيا من اللّه عزّ و جلّ عند مواقعة الذنب فيقلع عنه، نظيره قوله: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ «٢» و الأوّل أولى وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى أى: زجرها عن الميل إلى المعاصى و المحارم التى تشتهيها. قال مقاتل: هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى أى: المنزل الّذى ينزله و المكان الّذى يأوى إليه لا غيرها يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها أى: متى وقوعها و قيامها؟ قال الفراء: أى: منتهى قيامها كرسوّ السفينة. قال أبو عبيدة: و مرسى السفينة

---

(١). أى البئر؛ أى جرى سيل الوادى.

(٢). الرّحمن: ٥٦.

حين تنتهى، و المعنى: يسألونك عن الساعة متى يقيمها اللّه، و قد مضى بيان هذا فى سورة الأعراف فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها أى: فى أىّ شى‏ء أنت يا محمد من ذكر القيامة و السؤال عنها، و المعنى: لست فى شى‏ء من علمها و ذكراها إنما يعلمها اللّه سبحانه، و هو إنكار و ردّ لسؤال المشركين عنها، أى: فيم أنت من ذلك حتى يسألونك عنه و لست تعلمه إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها أى: منتهى علمها، فلا يوجد علمها عند غيره، و هذا كقوله: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي «١» و قوله: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ «٢» فكيف يسألونك عنها و يطلبون منك بيان وقت قيامها إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها أى: مخوّف لمن يخشى قيام الساعة، و ذلك وظيفتك ليس عليك غيره من الإخبار بوقت قيام الساعة و نحوه مما استأثر اللّه بعلمه، و خصّ الإنذار بمن يخشى؛ لأنهم المنتفعون بالإنذار و إن كان منذرا لكلّ مكلّف من مسلم و كافر. قرأ الجمهور بإضافة مُنْذِرُ إلى ما بعده. و قرأ عمر بن عبد العزيز و أبو جعفر و طلحة و ابن محيصن و شيبة و الأعرج و حميد بالتنوين، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو. قال الفراء: و التنوين و تركه فى منذر صواب، كقوله: بالِغُ أَمْرِهِ «٣» و مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ «٤». قال أبو علىّ الفارسى: يجوز أن تكون الإضافة للماضى، نحو ضارب زيد أمس كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها أى: إلا قدر آخر نهار أو أوّله، أو قدر الضحى الّذى يلى تلك العشية، و المراد تقليل مدّة الدنيا، كما قال: لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ «٥» و قيل: لم يلبثوا فى قبورهم إلا عشية أو ضحاها. قال الفراء و الزّجّاج: المراد بإضافة الضحى إلى العشية إضافته إلى يوم العشية على عادة العرب، يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها، و آتيك العشية أو غداتها فتكون العشية فى معنى آخر النهار، و الغداة فى معنى أوّل النهار. و منه قول الشاعر:

نحن صبحنا عامرا فى دارها جردا تعادى طرفى نهارها

عشية الهلال أو سرارها و الجملة تقرير لما يدل عليه الإنذار من سرعة مجى‏ء المنذر به.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: رَفَعَ سَمْكَها قال: بناها وَ أَغْطَشَ لَيْلَها قال: أظلم ليلها. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه وَ أَغْطَشَ لَيْلَها قال:

و أظلم ليلها وَ أَخْرَجَ ضُحاها قال: أخرج نهارها. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها قال: مع ذلك. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا أن رجلا قال له: آيتان فى كتاب اللّه تخالف إحداهما الأخرى، فقال: إنما أتيت

من قبل رأيك، قال: اقرأ: قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ حتى بلغ: ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ «۶» و قوله: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها

---

(۱). الأعراف: ۱۸۷.

(۲). لقمان: ۳۴.

(۳). الطلاق: ۳.

(۴). الأنفال: ۱۸.

(۵). الأحقاف: ۳۵.

(۶). فصلت: ۹- ۱۱.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۴۶۱

قال: خلق اللّه الأرض قبل أن يخلق السماء، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض بعد ما خلق السماء، و إنما قوله: دَحاها: بسطها. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: دَحاها أن أخرج منها الماء و المرعى و شقق فيها الأنهار و جعل فيها الجبال و الرمال و السبل و الآكام و ما بينهما فى يومين. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الطامة من أسماء يوم القيامة. و أخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبى طالب: «كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يسأل عن الساعة فنزلت: فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها». و أخرج البزار و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن عائشة قالت: «ما زال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يسأل عن الساعة حتى أنزل اللّه فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها فانتهى فلم يسأل عنها». و أخرج عبد بن حميد و النسائى و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه عن طارق بن شهاب قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يكثر ذكر الساعة حتى نزلت: فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها فكفّ عنها. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس- قال السيوطى: بسند ضعيف- أن مشركى مكة سألوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: متى الساعة؟ استهزاء منهم. فأنزل اللّه: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها يعنى مجيئها فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها يعنى ما أنت من علمها يا محمد إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها يعنى منتهى علمها. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت:

«كانت الأعراب إذا قدموا على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سألوه عن الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول: إن يعش هذا قرنا قامت عليكم ساعتكم» «۱».

---

(۱). انظر رأى الإمام النووى و الحافظ ابن حجر حول هذا الحديث فى فتح البارى (۱۰/ ۵۵۷)

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۴۶۲

سورة عبس

اشارة

و تسمى سورة السفرة، و هى إحدى و أربعون، أو اثنتان و أربعون آية و هى مكية فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة عبس بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة عبس (۸۰): الآيات ۱ الى ۴۲]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَ تَوَلَّى (۱) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى (۲) وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (۳) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى (۴)

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى (۵) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (۶) وَ ما عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (۷) وَ أَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى (۸) وَ هُوَ يَخْشى (۹)

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (۱۰) كَلاَّ إِنَّها تَذْكِرَةٌ (۱۱) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (۱۲) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (۱۳) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (۱۴)

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (۱۵) كِرامٍ بَرَرَةٍ (۱۶) قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (۱۷) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (۱۸) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (۱۹)

ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (۲۰) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (۲۱) ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (۲۲) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ (۲۳) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (۲۴)

أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (۲۵) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (۲۶) فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (۲۷) وَ عِنَباً وَ قَضْباً (۲۸) وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلاً (۲۹)

وَ حَدائِقَ غُلْباً (۳۰) وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا (۳۱) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (۳۲) فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (۳۳) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (۳۴)

وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (۳۵) وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ (۳۶) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (۳۷) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (۳۸) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (۳۹)

وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (۴۰) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (۴۱) أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (۴۲)

قوله: عَبَسَ وَ تَوَلَّى أی: كلح بوجهه و أعرض. و قرئ «عبّس» بالتشديد أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى مفعول لأجله، أی: لأن جاءه الأعمى، و العامل فيه إما عبس أو تولى على الاختلاف بين البصريين و الكوفيين فی التنازع هل المختار إعمال الأوّل أو الثانی؟.

و قد أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية: أن قوما من أشراف قريش كانوا عند النبی صلّى اللّه عليه و سلّم، و قد طمع فی إسلامهم، فأقبل عبد اللّه بن أمّ مكتوم، فكره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقطع عليه ابن أمّ مكتوم كلامه، فأعرض عنه فنزلت، و سيأتی فی آخر البحث بيان هذا إن شاء اللّه، وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى التفت سبحانه إلى خطاب نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم، لأن المشافهة أدخل فی العتاب، أی: أیّ شیء يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه، و جملة لَعَلَّهُ يَزَّكَّى مستأنفة لبيان أن له شأنا ينافی الإعراض عنه، أی: لعله يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك، فالضمير فی «لعله» راجع إلى «الأعمى»، و قيل: هو راجع إلى الكافر، أی: و ما يدريك أن ما طعمت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى أو يذكر، و الأوّل أولى. و كلمة الترجی باعتبار من وجه إليه الخطاب للتنبيه على أن الإعراض عنه مع كونه مرجوّ التزكی مما

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۶۳

لا يجوز. قرأ الجمهور: أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى على الخبر بدون استفهام، و وجهه ما تقدّم. و قرأ الحسن:

«آن جاءه» بالمدّ على الاستفهام، فهو على هذه القراءة متعلق بفعل محذوف دلّ عليه عَبَسَ وَ تَوَلَّى و التقدير: آن جاءه الأعمى تولّى و أعرض، و مثل هذه الآية قوله فی سورة الأنعام: وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ «۱» و كذلك قوله فی سورة الكهف: وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا «۲» و قوله: أَوْ يَذَّكَّرُ عطف على يزكى داخل معه فی حكم الترجی، أی: أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى أی: الموعظة. قرأ الجمهور: «فتنفعه» بالرفع، و قرأ عاصم ابن أبی إسحاق و عيسى و السّلمی و زرّ بن حبيش بالنصب على جواب الترجی أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى أی كان ذا ثروة و غنى، أو استغنى عن الإيمان و عما عندك من العلم فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى أی: تصغی لكلامه، و التصدی: الإصغاء. قرأ الجمهور: «تصدى» بالتخفيف على طرح إحدى التاءين تخفيفا، و قرأ نافع و ابن محيصن بالتشديد على الإدغام، و فی هذا مزيد تنفير له صلّى اللّه عليه و سلّم عن الإقبال عليهم و الإصغاء إلى كلامهم وَ ما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى أی: أیّ شیء عليك فی أن لا يسلم و لا يهتدی، فإنه ليس عليك إلا

البلاغ، فلا تهتم بأمر من كان هكـذا من الكفار، و يجوز أن تكون «ما» نافيـة، أى: ليس عليك بأس فى أن لا يتزكى من تصدّيت له و أقبلت عليه، و تكون الجملة فى محل نصب على الحال من ضـمير تصدّى. ثم زاد سـبحانه فى معاتبة رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: وَ أَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى أى: وصل إليك حال كونه مسرعا فى المجىء إليك؛ طالبا منك أن ترشده إلى الخير و تعظه بمواعـظ اللّه، و جملـة وَ هُوَ يَخْشى حـال من فاعـل يسـعى على التـداخل، أو من فاعل جاءك على الترادف فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى أى: تتشاغل عنه، و تعرض عن الإقبال عليه، و التلهى:

التشاغـل و التغافـل، يقال: لهيت عن الأمر ألهى، أى: تشاغلت عنه، و كـذا تلهيت. و قوله: كَلَّا ردع له صـلّى اللّه عليه و سـلّم عما عوتب عليه، أى: لا تفعل بعـد هـذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير، و التصـدى للغنى و التشاغل به، مع كونه ليس ممن يتزكى عن إرشاد من جاءك من أهل التزكى و القبول للموعظة، و هذا الواقع من النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم هو من باب ترك الأولى، فأرشـده اللّه سبحانه إلى ما هو الأولى به إِنَّها تَذْكِرَةٌ أى: إن هذه الآيات أو السورة موعظة، حقّها أن تتعظ بها و تقبلها و تعمـل بموجبها و يعمـل بهـا كل أمتك فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ أى: فمن رغب فيها اتّعظ بها و حفظها و عمل بموجبها، و من رغب عنها كما فعله من اسـتغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره. قيل: الضميران فى «إنها»، و فى «ذكره» للقرآن، و تأنيث الأوّل لتأنيث خبره. و قيل: الأوّل للسورة، أو للآيات السابقة، و الثانى للتذكرة لأنها فى معنى الذكر، و قيل: إن معنى فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ فمن شاء اللّه ألهمه و فهمه القرآن حتى يذكره و يتعظ به، و الأوّل أولى. ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة و جلالتها فقال: فِي صُحُفٍ أى: إنها تـذكرة كائنـة فى صـحف، فالجار و المجرور صـفة لتذكرة، و ما بينهما اعتراض، و الصّـحف: جمع صـحيفة، و معنى مُكَرَّمَةٍ أنها مكرمة عند اللّه

---

(١). الأنعام: ٥٢.

(٢). الكهف: ٢٨.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ۴۶۴

لما فيها من العلم و الحكمـة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ، و قيل: المراد بالصـحف كتب الأنبياء، كما فى قوله: إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى «١». و معنى مَرْفُوعَةٍ أنها رفيعـة القدر عند اللّه، و قيل: مرفوعة فى السـماء السابعة. قال الواحدى: قال المفسرون: مكرّمة يعنى اللوح المحفوظ مَرْفُوعَةٍ يعنى فى السـماء السابعة. قال ابن جرير: مرفوعة القدر و الذكر، و قيل: مرفوعة عن الشبه و التناقض مُطَهَّرَةٍ أى: منزّهة لا يمسها إلا المطهرون. قال الحسن: مطهرة من كل دنس. قال السدى:

مصانـة عن الكفار لا ينالونها بِأَيْدِي سَفَرَةٍ السفرة: جمع سافر ككتبة و كاتب، و المعنى: أنها بأيدى كتبة من الملائكة ينسـخون الكتب من اللوح المحفوظ. قال الفراء: السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحى بين اللّه و رسوله، من السفارة و هو السعى بين القوم، و أنشد:

فما أدع السّفارة بين قومى و لا أمشى بغشّ إن مشيت «٢»

قال الزجاج: و إنما قيل للكتاب سـفر بكسـر السـين، و الكاتب سافر، لأن معناه أنه يبيّن، يقال أسـفر الصـبح؛ إذا أضاء، و أسفرت المرأة؛ إذا كشـفت النقاب عن وجهها، و منه سفرت بين القوم أسفر سفارة، أى: أصلحت بينهم. قال مجاهد: هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد. و قال قتادة: السفرة هنا هم القراء لأنهم يقرءون الأسفار. و قال وهب بن منبه: هم أصحاب النبى صلّى اللّه عليـه و سـلّم. ثـم أثنى سـبحانه على السـفرة فقـال: كِرامٍ بَرَرَةٍ أى: كرام على ربهـم، كـذا قـال الكلبى. و قـال الحسـن: كرام عن المعاصى، فهم يرفعون أنفسهم عنها. و قيل: يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته، أو قضى حاجته. و قيل:

يؤثرون منافع غيرهم على منافع. و قيل: يتكرّمون على المؤمنين بالاستغفار لهم. و البررة: جمع بارّ، مثل كفرة و كافر، أى: أتقياء مطيعون لربهم صادقون فى إيمانهم، و قد تقدّم تفسيره.

قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ أى: لعن الإنسان الكافر ما أشدّ كفره! و قيل: عذّب، قيل: و المراد به عتبة بن أبى لهب، و معنى ما أَكْفَرَهُ التعجب من إفراط كفره. قال الزجاج: معناه اعجبوا أنتم من كفره، و قيل: المراد بالإنسان من تقدم ذكره فى قوله: أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى و قيل: المراد به الجنس، و هذا هو الأولى، فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر، و يدخل تحته من كان سببا لنزول الآية دخولا أوّليا.

ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغى لهذا الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره و يكفّ عن طغيانه فقال:

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ أى: من أىّ شىء خلق اللّه هذا الكافر، و الاستفهام للتقرير. ثم فسّر ذلك فقال:

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ أىّ من ماء مهين، و هذا تحقير له. قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرّتين، و معنى فَقَدَّرَهُ أى: فسوّاه و هيّأه لمصالح نفسه، و خلق له اليدين و الرجلين و العينين و سائر الآلات و الحواسّ، و قيل: قدّره أطوارا من حال إلى حال، نطفة ثم علقة إلى أن تمّ خلقه ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ

---

(١). الأعلى: ١٨- ١٩.

(٢). فى المطبوع: و لا أمشى بغير أب نسيب.

أى: يسرّ له الطريق إلى الخير و الشرّ. و قال السدى و مقاتل و عطاء و قتادة: يسّره للخروج من بطن أمه، و الأوّل أولى. و مثله قوله: وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ «١» و انتصاب السبيل بمضمر يدل عليه الفعل المذكور، أى: يسّر السبيل يسّره ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ أى: جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراما له، و لم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله السباع و الطير، كذا قال الفراء: و قال أبو عبيدة: جعل له قبرا و أمر أن يقبر فيه. و قال أقبره، و لم يقل قبره، لأن القابر هو الدافن بيده، و منه قول الأعشى:

لو أسندت ميتا إلى صدرها «٢»عاش و لم ينقل إلى قابر

ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ أى: ثم إذا شاء إنشاره أنشره، أى: أحياه بعد موته، و علق الإنشار بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين، بل هو تابع للمشيئة. قرأ الجمهور: «أَنْشَرَهُ» بالألف، و روى أبو حيوة عن نافع و شعيب بن أبى حمزة «نشره» بغير ألف، و هما لغتان فصيحتان كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ كلا:

ردع و زجر للإنسان الكافر، أى: ليس الأمر كما يقول. و معنى: «لما يقض ما أمره»: لم يقض ما أمره اللّه به من العمل بطاعته و اجتناب معاصيه، و قيل: المراد الإنسان على العموم، و أنه لم يفعل ما أمره اللّه به مع طول المدّة لأنه لا يخلو من تقصير. قال الحسن: أى حقا لم يعمل ما أمر به. و قال ابن فورك: أى كلّا لما يقض اللّه لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان، بل أمره بما لم يقض له. قال ابن الأنبارى: الوقف على كلا قبيح و الوقف على أمره جيد، و كلّا على هذا بمعنى حقا. و قيل: المعنى: لما يقض جميع أفراد الإنسان ما أمره، بل أخلّ به؛ بعضها بالكفر، و بعضها بالعصيان، و ما قضى ما أمره اللّه إلا القليل.

ثم شرع سبحانه فى تعداد نعمه على عباده ليشكروها، و ينزجروا عن كفرانها بعد ذكر النعم المتعلقة بحدوثه فقال: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى‏ طَعامِهِ أى: ينظر كيف خلق اللّه طعامه الّذى جعله سببا لحياته؟ و كيف هيأ له أسباب المعاش يستعدّ بها للسعادة الأخروية؟ قال مجاهد: معناه فلينظر الإنسان إلى طعامه، أى: إلى مدخله و مخرجه، و الأوّل أولى. ثم بيّن ذلك سبحانه فقال: أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا قرأ الجمهور: «إنا» بالكسر على الاستئناف. و قرأ الكوفيون و رويس عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من طعامه بدل اشتمال؛

لكون نزول المطر سببا لحصول الطعام، فهو كالمشتمل عليه، أو بتقدير لام العلّة. قال الزجاج: الكسر على الابتداء و الاستئناف، و الفتح على معنى البدل من الطعام. المعنى: فلينظر الإنسان إلى أنا صببنا الماء صبّا، و أراد بصبّ الماء المطر. و قرأ الحسن بن عليّ بالفتح و الإمالة ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا أى: شققناها بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر شقا بديعا لائقا بما يخرج منه فى الصغر و الكبر و الشكل و الهيئة. ثم بيّن سبب هذا الشقّ و ما وقع لأجله فقال: فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا يعنى الحبوب الّذى يتغذى بها، و المعنى: أن النبات لا يزال ينمو و يتزايد إلى أن يصير حبا، و قوله: وَ عِنَباً معطوف على «حبا»، أى: و أنبتنا فيها عنبا، قيل: و ليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه، فلا ضير فى خلوّ إنبات العنب عن شقّ

---

(١). البلد: ١٠.

(٢). فى تفسير القرطبى (١٩/ ٢١٩): نحرها.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤٦٦

الأرض، و القضب: هو القتّ الرطب الّذى يقضب مرّة بعد أخرى تعلف به الدواب، و لهذا سمّى قضبا على مصدر قضبه، أى: قطعه؛ كأنه لتكرّر قطعها نفس القطع. قال الخليل: القضب: الفصفصة الرطبة، فإذا يبست فهى القتّ. قال فى الصحاح: و القضبة و القضب الرّطبة، قال: و الموضع الّذى ينبت فيه مقضبة.

قال القتبىّ و ثعلب: و أهل مكة يسمون القتّ القضب. و الزيتون: هو ما يعصر منه الزيت، و هو شجرة الزيتون المعروفة، و النخل هو جمع نخلة وَ حَدائِقَ غُلْباً جمع حديقة، و هى البستان، و الغلب: العظام الغلاظ الرقاب. و قال مجاهد و مقاتل: الغلب: الملتف بعضها ببعض، يقال: رجل أغلب؛ إذا كان عظيم الرقبة، و يقال للأسد أغلب؛ لأنه مصمت العنق؛ لا يلتفت إلا جميعا. قال العجّاج:

ما زلت يوم البين ألوى صلبىو الرّأس حتّى صرت مثل الأغلب

و جمع أغلب و غلباء غلب، كما جمع أحمر و حمراء على حمر. و قال قتادة و ابن زيد: الغلب: النخل الكرام.

و عن ابن زيد أيضا و عكرمة: هى غلاظ الأوساط و الجذوع. و الفاكهة: ما يأكله الإنسان من ثمار الأشجار كالعنب و التين و الخوخ و نحوها. و الأبّ: كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس و لا يزرعونه من الكلأ و سائر أنواع المرعى، و منه قول الشاعر:

جذمنا قيس و نجد دارناو لنا الأبّ به و المكرع «١»

قال الضحاك: الأبّ كل شيء ينبت على وجه الأرض. و قال ابن أبى طلحة: هو الثمار الرطبة. و روى عن الضحاك أيضا أنه قال: هو التين خاصة، و الأوّل أولى. ثم شرع سبحانه فى بيان أحوال المعاد فقال:

فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ يعنى صيحة يوم القيامة، و سمّيت صاخة لشدّة صوتها لأنها تصخ الآذان، أى:

تصمها فلا تسمع، و قيل: سميت صاخة لأنها يصيخ لها الأسماع، من قولك أصاخ إلى كذا، أى: استمع إليه، و الأوّل أصح. قال الخليل: الصاخّة: صيحة تصخ الآذان حتى تصمّها بشدّة وقعها، و أصل الكلمة فى اللغة مأخوذة من الصك الشديد، يقال: صخّه بالحجر؛ إذا صكّه بها، و جواب إذا محذوف يدل عليه قوله: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ أى: فإذا جاءت الصّاخّة اشتغل كل أحد بنفسه، و الظرف فى قوله: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ- وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ- وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ إما بدل من «إذا جاءت»، أو منصوب بمقدّر، أى: أعنى و يكون تفسيرا للصاخة، أو بدلا منها مبنىّ على الفتح، و خصّ هؤلاء بالذكر لأنهم أخصّ القرابة، و أولاهم بالحنوّ و الرأفة، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم، و خطب فظيع لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ أى: لكل إنسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء و يصرفه عنهم. و قيل: إنما يفرّ عنهم حذرا من مطالبتهم إياه بما بينهم، و قيل: يفرّ عنهم لئلا يروا ما هو فيه من الشدّة، و قيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه و لا يغنون عنه شيئا كما قال تعالى: يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً «٢» و

الجملة مستأنفة

---

(١). «الجذم»: الأصل. «المكرع»: مفعل من الكرع، أراد به الماء الصالح للشرب.

(٢). الدخان: ۴١.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۶۷

مسوقة لبيان سبب الفرار. قال ابن قتيبة: يُغْنِيهِ أى: يصرفه عن قرابته، و منه يقال: أغن عنى وجهك، أى: اصرفه. قرأ الجمهور: «يغنيه» بالغين المعجمة. و قرأ ابن محيصن بالعين المهملة مع فتح الياء، أى:

يهمه، من عناه الأمر إذا أهمه وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ وجوه مبتدأ و إن كان نكرة؛ لأنه فى مقام التفصيل، و هو من مسوّغات الابتداء بالنكرة، و «يومئذ» متعلق به، و «مسفرة» خبره، و معنى مسفرة: مشرقة مضيئة، و هى وجوه المؤمنين لأنهم قد علموا إذ ذاك ما لهم من النعيم و الكرامة، يقال: أسفر الصبح؛ إذا أضاء. قال الضحاك: مسفرة من آثار الوضوء، و قيل: من قيام الليل ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ أى: فرحة بما نالته من الثواب الجزيل. ثم لما فرغ من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال: وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ أى: غبار و كدورة لما تراه مما أعدّه اللّه لها من العذاب تَرْهَقُها قَتَرَةٌ أى: يغشاها و يعلوها سواد و كسوف، و قيل: ذلّة، و قيل: شدّة، و القتر فى كلام العرب: الغبار، كذا قال أبو عبيدة، و أنشد قول الفرزدق:

متوّج برداء الملك يتبعه‌موج ترى فوقه الرايات و القترا

و يدفع ما قاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة فإنها واحدة الغبار. و قال زيد بن أسلم: القترة ما ارتفعت إلى السماء، و الغبرة ما انحطت إلى الأرض أُولئِكَ يعنى أصحاب الوجوه هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ أى:

الجامعون بين الكفر باللّه و الفجور، يقال: فجر؛ أى فسق، و فجر، أى: كذب، و أصله الميل، و الفاجر:

المائل عن الحق.

و قد أخرج الترمذى و حسّنه، و ابن المنذر و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن عائشة قالت:

«أنزلت عبس و تولى فى ابن أمّ مكتوم الأعمى، أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فجعل يقول: يا رسول اللّه أرشدنى و عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعرض عنه و يقبل على الآخر و يقول:

«أ ترى بما أقول بأسا؟» فيقول: لا، ففى هذا أنزلت». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و أبو يعلى عن أنس قال: «جاء بن أمّ مكتوم، و هو يكلم أبىّ بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل اللّه عَبَسَ وَ تَوَلَّى- أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى فكان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد ذلك يكرمه». و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

«بينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يناجى عتبة بن ربيعة و العباس بن عبد المطلب و أبا جهل بن هشام، و كان يتصدى لهم كثيرا، و يحرص عليهم أن يؤمنوا، فأقبل عليهم رجل أعمى يقال له عبد اللّه بن أمّ مكتوم يمشى، و هو يناجيهم، فجعل عبد اللّه يستقرئ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم آية من القرآن قال: يا رسول اللّه علمنى مما علمك اللّه، فأعرض عنه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و عبس فى وجهه و تولى، و كره كلامه، و أقبل على الآخرين، فلما قضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نجواه، و أخذ ينقلب إلى أهله أمسك اللّه ببعض بصره، ثم خفق برأسه، ثم أنزل اللّه: عَبَسَ وَ تَوَلَّى الآية، فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و كلمه و قال له: «ما حاجتك؟ هل تريد منى شى‌ء»؟

و إذا ذهب من عنده قال: «هل لك حاجة فى شى‌ء»؟ قال ابن كثير: فيه غرابة، و قد تكلم فى إسناده.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس بِأَيْدِی سَفَرَةٍ قال: كتبة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی

فتح القدير، ج‏5، ص: 468

حاتم عنه بِأَيْدِی سَفَرَةٍ قال: هم بالنبطية القراء. و أخرج ابن جرير عنه أيضا كِرامٍ بَرَرَةٍ قال:
الملائكة. و أخرج البخاری و مسلم و غيرهما عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الّذی يقرأ القرآن و هو ماهر به مع السّفرة الكرام البررة، و الّذی يقرؤه و هو عليه شاقّ له أجران».
و أخرج ابن جرير عن ابن عباس ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ قال: يعنی بذلك خروجه من بطن أمه يسره له. و أخرج ابن المنذر عن عبد اللّه بن الزبير فی قوله: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى‏ طَعامِهِ قال: إلى مدخله و مخرجه. و أخرج ابن أبی الدنيا عن ابن عباس فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى‏ طَعامِهِ قال: إلى خرئه. و أخرج ابن المنذر عنه أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا قال: المطر ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا قال: عن النبات. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أيضا فی قوله: وَ قَضْباً قال: الفصفصة، يعنی القتّ، وَ حَدائِقَ غُلْباً قال: طوالا وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا قال: الثمار الرطبة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أيضا قال: الحدائق: كل ملتفّ، و الغلب: ما غلظ، و الأبّ: ما أنبتت الأرض مما تأكله الدوابّ و لا يأكله الناس. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا وَ حَدائِقَ غُلْباً قال: شجر فی الجنة يستظل به لا يحمل شيئا. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الأبّ: الكلأ و المرعى. و أخرج أبو عبيد فی فضائله، و عبد بن حميد عن إبراهيم التيمی قال: سئل أبو بكر الصديق عن الأبّ ما هو؟ فقال: أیّ سماء تظلنی و أیّ أرض تقلنی إذا قلت فی كتاب اللّه ما لا أعلم؟. و أخرج عبد بن حميد عن عبد اللّه بن يزيد: أن رجلا سأل عمر عن قوله: وَ أَبًّا فلما رآهم يقولون أقبل عليهم بالدرّة. و أخرج ابن سعد و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقی فی الشعب، و الخطيب عن أنس أن عمر قرأ على المنبر: فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا وَ عِنَباً إلى قوله: وَ أَبًّا قال: كل هذا قد عرفناه، فما الأبّ؟ ثم رفض «1» عصا كانت فی يده فقال: هذا لعمر اللّه هو التكلف، فما عليك أن لا تدری ما الأبّ، اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب فاعملوا عليه، و ما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: الصاخة من أسماء يوم القيامة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله:
مُسْفِرَةٌ قال: مشرقة، و فی قوله: تَرْهَقُها قَتَرَةٌ قال: تغشاها شدّة و ذلّة. و أخرج ابن أبی حاتم عنه قَتَرَةٌ قال: سواد الوجه.

---

(1). فی اللسان: رفض الشی‏ء: تركه.

فتح القدير، ج‏5، ص: 469

سورة التّكوير

اشارة

و هی مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقی عن ابن عباس قال: نزلت سورة إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عائشة و ابن الزبير مثله. و أخرج أحمد و الترمذی و حسنه و ابن المنذر و الطبرانی، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأی عين فليقرأ: إذا الشمس كورت، و إذا السماء انفطرت، و إذا السماء انشقت».
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التكوير (٨١): الآيات ١ الى ٢٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (٣) وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ (۴)
وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (۵) وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (۶) وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)
وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ (١١) وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ (١۴)
فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١۵) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (١۶) وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (١٧) وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩)
ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢۴)
وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (٢۵) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢۶) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَ ما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٢٩)

قوله: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ارتفاع الشمس بفعل محذوف يفسره ما بعده على الاشتغال، و هذا عند البصريين، و أما عند الكوفيين و الأخفش فهو مرتفع على الابتداء. و التكوير: الجمع، و هو مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها. قال الزجاج: لفت كما تلف العمامة، يقال: كورت العمامة على رأسي أكورها كورا، و كوّرتها تكويرا؛ إذا لففتها. قال أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة تلف فتجمع. قال الربيع ابن خثيم: كُوِّرَتْ أي رمى بها، و منه كوّرته فتكوّر، أي: سقط. و قال مقاتل و قتادة و الكلبي: ذهب ضوءها. و قال مجاهد: اضمحلت. قال الواحدي: قال المفسرون: تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف فيرمى بها. فالحاصل أن التكوير إما بمعنى لفّ جرمها، أو لفّ ضوئها، أو الرمي بها وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ أي: تهافتت و انقضّت و تناثرت، يقال: انكدر الطائر من الهواء؛ إذا انقضّ، و الأصل في الانكدار الانصباب. قال الخليل: يقال انكدر عليهم القوم؛ إذا جاءوا أرسالا فانصبوا عليهم. قال أبو عبيدة:

انصبت كما ينصب العقاب. قال الكلبي و عطاء: تمطر السماء يومئذ نجوما، فلا يبقى نجم في السماء إلا وقع

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴٧٠

على الأرض، و قيل: انكدارها: طمس نورها وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ أي: قلعت عن الأرض، و سيرت في الهواء، و منه قوله: وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً «١». وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ العشار: النوق الحوامل التي في بطونها أولادها، الواحدة عشراء، و هي التي قد أتى عليها في الحمل عشرة أشهر ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع. و خصّ العشار لأنها أنفس مال عند العرب، و أعزّه عندهم، و معنى «عطّلت»: تركت هملا بلا راع؛ و ذلك لما شاهدوا من الهول العظيم، قيل: و هذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عشراء، بل المراد أنه لو كان للرجل ناقة عشراء في ذلك اليوم أو نوق عشار لتركها و لم يلتفت إليها؛ اشتغالا بما هو فيه من هول يوم القيامة، و سيأتي آخر البحث إن شاء اللّه ما يفيد أن هذا في الدنيا. و قيل: العشار: السحاب، فإن العرب تشبهها بالحامل، و منه قوله: فَالْحامِلاتِ وِقْراً «٢» و تعطيلها عدم إمطارها. قرأ الجمهور: «عطلت» بالتشديد، و قرأ ابن كثير في رواية عنه بالتخفيف. و قيل:

المراد أن الديار تعطّل فلا تسكن، و قيل: الأرض التي يعشّر زرعها تعطّل فلا تزرع وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ الوحوش: ما توحّش من دوابّ البرّ، و معنى حشرت: بعثت حتى يقتصّ بعضها من بعض، فيقتصّ للجماء من القرناء. و قيل: حشرها: موتها، و قيل: إنها

مع نفرتها اليوم من الناس و تبدّدها فى الصحارى تضم ذلك اليوم إليهم. قرأ الجمهور: «حشرت» بالتخفيف، و قرأ الحسن و عمرو بن ميمون بالتشديد وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ أى: أو قدت فصارت نارا تضطرم. و قال الفراء: ملئت بأن صارت بحرا واحدا و كثر ماؤها، و به قال الربيع بن خثيم و الكلبى و مقاتل و الحسن و الضحاك. و قيل: أرسل عذبها على مالحها و مالحها على عذبها حتى امتلأت، و قيل: فجرت فصارت بحرا واحدا. و روى عن قتادة و ابن حبان أن معنى الآية: يبست و لا يبقى فيها قطرة، يقال: سجرت الحوض أسجره سجرا؛ إذا ملأته. و قال القشيرى: هو من سجرت التنوّر أسجره سجرا؛ إذا أحميته. قال ابن زيد و عطية و سفيان و وهب و غيرهم:

أوقدت فصارت نارا، و قيل: معنى سجرت أنها صارت حمراء كالدم، من قولهم عين سجراء، أى: حمراء.

قرأ الجمهور: «سجرت» بتشديد الجيم، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بتخفيفها، وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ أى: قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة، و قرن بين رجل السوء مع رجل السوء فى النار.

و قال عطاء: زوّجت نفوس المؤمنين بالحور العين، و قرنت نفوس الكافرين بالشياطين. و قيل: قرن كل شكل إلى شكله فى العمل، و هو راجع إلى القول الأوّل. و قيل: قرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان، كما فى قوله: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ «٣» و قال عكرمة وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ يعنى قرنت الأرواح بالأجساد. و قال الحسن: ألحق كل امرئ بشيعته؛ اليهود باليهود، و النصارى بالنصارى، و المجوس بالمجوس، و كل من كان يعبد شيئا من دون اللّه يلحق بعضهم ببعض و المنافقون بالمنافقين، و المؤمنون بالمؤمنين. و قيل: يقرن الغاوى بمن أغواه من شيطان أو إنسان، و يقرن المطيع بمن دعاه

---

(١). الكهف: ٤٧.

(٢). الذاريات: ٢.

(٣). الصافات: ٢٢.

إلى الطاعة من الأنبياء و المؤمنين. و قيل: قرنت النفوس بأعمالها وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ أى: المدفونة حية، و قد كان العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية مخافة العار أو الحاجة، يقال: وأد يئد وأدا فهو وائد، و المفعول به موءود، و أصله مأخوذ من الثقل لأنها تدفن، فيطرح عليها التراب فيثقلها فتموت، و منه:

وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما «١» أى: لا يثقله، و منه قول متمّم بن نويرة:

و موءودة مقبورة فى مفازة «٢» و منه قول الراجز:

سمّيتها إذ ولدت تموتو القبر صهر ضامن رميت

قرأ الجمهور: «الموءودة» بهمزة بين واوين ساكنين كالموعودة. و قرأ البزى فى رواية عنه بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة. و قرأ الأعمش: «المودة» بزنة الموزة. و قرأ الجمهور: «سئلت» مبنيا للمفعول، و قرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل. و قرأ الجمهور: «قتلت» بالتخفيف مبنيا للمفعول، و قرأ أبو جعفر بالتشديد على التكثير. و قرأ علىّ و ابن مسعود و ابن عباس سألت مبنيا للفاعل «قتلت» بضم التاء الأخيرة.

و معنى «سئلت» على قراءة الجمهور: أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كان لا يستحق أن يخاطب و يسأل عن ذلك، و فيه تبكيت لقاتلها و توبيخ له شديد. قال الحسن: أراد اللّه أن يوبّخ قاتلها لأنها قتلت بغير ذنب، و فى مصحف أبىّ «و إذا الموءودة سألت بأىّ ذنب قتلتنى». وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ يعنى صحائف الأعمال نشرت للحساب، لأنها تطوى عند

الموت و تنشر عند الحساب، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها، فيقول: ما لِهٰذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها «٣» قرأ نافع و عاصم و ابن عامر و أبو عمرو: «نشرت» بالتخفيف. و قرأ الباقون بالتشديد على التكثير. وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ الكشط: قلع عن شدّة التزاق، [فالسماء تكشط كما] «۴» يكشط الجلد عن الكبش، و القشط بالقاف لغة فى الكشط، قال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف. و قال الفراء:

نزعت فطويت. و قال مقاتل: كشفت عما فيها. قال الواحدى: و معنى الكشط رفعك شيئا عن شيء قد غطاه وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ أى: أوقدت لأعداء اللّه إيقادا شديدا. قرأ الجمهور: «سعرت» بالتخفيف، و قرأ نافع و ابن ذكوان و حفص بالتشديد لأنها أوقدت مرّة بعد مرّة. قال قتادة: سعّرها غضب اللّه و خطايا بنى آدم وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ أى: قرّبت إلى المتقين و أدنيت منهم. قال الحسن: إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها. و قال ابن زيد: معنى أزلفت تزيّنت. و الأوّل أولى لأن الزلفى فى كلام العرب القرب. قيل: هذه الأمور الاثنا عشر؛ ستّ منها فى الدنيا، و هى من أوّل السورة إلى قوله: وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ

---

(۱). البقرة: ۲۵۵.

(۲). و عجز البيت: بآمتها موسودة لم يمهّد.

(۳). الكهف: ۴۹.

(۴). من تفسير القرطبى (۱۹/ ۲۳۵)

، و ستّ فى الآخرة و هى: وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ إلى هنا، و جواب الجميع قوله: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ على أن المراد الزمان الممتدّ من الدنيا إلى الآخرة، لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم فى كلّ جزء من أجزاء هذا الوقت الممتدّ، بل المراد علمت ما أحضرته عند نشر الصحف، يعنى ما عملت من خير أو شرّ، و معنى ما أَحْضَرَتْ ما أحضرت من أعمالها، و المراد حضور صحائف الأعمال، أو حضور الأعمال نفسها، كما ورد أن الأعمال تصوّر بصور تدلّ عليها و تعرف بها، و تنكير «نفس» المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس، أو لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور و الوضوح بحيث لا يخفى على أحد، و يدلّ على هذا قوله: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً «۱» و قيل: يجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كلّ نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هى تلك التى علمت ما أحضرت، فكيف و كلّ نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه: لعلك ستندم على ما فعلت، و ربما ندم الإنسان على فعله فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ «لا» زائدة كما تقدّم تحقيقه و تحقيق ما فيه من الأقوال فى أوّل سورة القيامة، أى: فأقسم بالخنس، و هى الكواكب؛ و سميت الخنس من خنس؛ إذا تأخر؛ لأنها تخنس بالنهار فتخفى و لا ترى، و هى زحل و المشترى و المريخ و الزهرة و عطارد كما ذكره أهل التفسير. و وجه تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم أنها تستقبل الشمس و تقطع المجرة. و قال فى الصحاح:

الخنس: الكواكب كلها؛ لأنها تخنس فى المغيب، أو لأنها تخفى نهارا، أو يقال هى الكواكب السيارة منها دون الثابتة. قال الفراء: إنها الكواكب الخمسة المذكورة، لأنها تخنس فى مجراها، و تكنس، أى: تستر كما تكنس الظباء فى المغار، و يقال: سمّيت خنسا لتأخّرها؛ لأنها الكواكب المتحيزة التى ترجع و تستقيم. يقال:

خنس عنه يخنس خنوسا؛ إذا تأخر، و أخنسه غيره؛ إذا خلفه و مضى عنه، و الخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة، و معنى الْجَوارِ أنها تجرى مع الشمس و القمر، و معنى الْكُنَّسِ أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس؛ فخنوسها

رجوعها، و كنوسها اختفاؤها تحت ضوئها، و قيل:

خنوسها: خفاؤها بالنهار، و كنوسها: غروبها. قال الحسن و قتادة: هى النجوم التى تخنس بالنهار و إذا غربت، و المعنى متقارب لأنها تتأخر فى النهار عن البصر لخفائها فلا ترى، و تظهر بالليل و تكنس فى وقت غروبها. و قيل: المراد بها بقر الوحش لأنها تتصف بالخنس و بالجوار و بالكنس. و قال عكرمة: الخنس: البقر و الكنس الظباء، فهى تخنس إذا رأت الإنسان و تنقبض و تتأخر و تدخل كناسها. و قيل: هى الملائكة. و الأوّل أولى لذكر الليل و الصبح بعد هذا، و الكنس مأخوذ من الكناس الّذى يختفى فيه الوحش، و الخنس: جمع خانس و خانسة، و الكنس: جمع كانس و كانسة وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ قال أهل اللغة: هو من الأضداد، يقال: عسعس الليل؛ إذا أقبل، و عسعس؛ إذا أدبر، و يدل على أن المراد هنا أدبر قوله: وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ قال الفراء: أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر، كذا حكاه عنه الجوهرى، و قال الحسن:

---

(۱). آل عمران: ۳۰.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۷۳

أقبل بظلامه. قال الفراء: العرب تقول عسعس الليل؛ إذا أقبل، و عسعس الليل؛ إذا أدبر، و هذا لا ينافى ما تقدّم عنه، لأنه حكى عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه فى هذه الآية على أدبر، و إن كان فى الأصل مشتركا بين الإقبال و الإدبار. قال المبرد: هو من الأضداد. قال: و المعنيان يرجعان إلى شىء واحد، و هو ابتداء الظلام أوّله و إدباره فى آخره. قال رؤبة بن العجاج:

يا هند ما أسرع ما تعسعسامن بعد ما كان فتى ترعرعا «۱»

و قال امرؤ القيس:

عسعس حتّى لو يشاء إدّناكان لنا من ناره مقبس

و قوله:

ألمّا على الرّبع القديم بعسعسا «۲» وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ التنفس الأصل: خروج النسيم من الجوف، و تنفس الصبح: إقباله؛ لأنه يقبل بروح و نسيم، فجعل ذلك تنفسا له مجازا. قال الواحدى: تَنَفَّسَ أى امتدّ ضوءه حتى يصير نهارا، و منه يقال للنهار إذا زاد: تنفس. و قيل: إِذا تَنَفَّسَ إذا انشقّ و انفلق، و منه تنفست القوس، أى:

تصدّعت. ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ يعنى جبريل؛ لكونه نزل به من جهة اللّه سبحانه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و أضاف القول إلى جبريل لكونه مرسلا به، و قيل: المراد بالرسول فى الآية محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و الأوّل أولى. ثم وصف الرسول المذكور بأوصاف محمودة فقال: ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ أى: ذى قوّة شديدة فى القيام بما كلّف به، كما فى قوله: شَدِيدُ الْقُوى «۳»، و معنى عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ أنه ذو رفعة عالية و مكانة مكينة عند اللّه سبحانه، و هو فى محل نصب على حال من «مكين»، و أصله الوصف فلما قدّم صار حالا، و يجوز أن يكون نعتا لرسول، يقال: مكن فلان عند فلان مكانة، أى: صار ذا منزلة عنده و مكانة. قال أبو صالح: من مكانته عند ذى العرش أنه يدخل سبعين سرادقا بغير إذن، و معنى مُطاعٍ أنه مطاع بين الملائكة يرجعون إليه و يطيعونه ثَمَّ أَمِينٍ قرأ الجمهور بفتح «ثمّ» على أنها ظرف مكان للبعيد، و العامل فيه «مطاع» أو ما بعده، و المعنى: أنه مطاع فى السّماوات أو أمين فيها، أى: مؤتمن على الوحى و غيره، و قرأ هشيم و أبو جعفر و أبو حيوة بضمها على أنها عاطفة، و كان العطف بها للتراخى فى الرتبة؛ لأن ما بعدها أعظم مما قبلها، و من قال: إن المراد بالرسول محمد

(۱). فى لسان العرب: تسعسع بدل تعسعس و سرعرع بدل ترعرع و معنى «تسعسع»: أدبر و فنى. و «السرعرع»: الشاب الناعم.

(۲). و عجز البيت: كأنى أنادى أو أكلم أخرسا.

(۳). النجم: ۵.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۷۴

صلّى اللّه عليه و سلّم فالمعنى: أنه ذو قوّة على تبليغ الرسالة إلى الأمة «مطاع» يطيعه من أطاع اللّه «أمين» على الوحى وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ الخطاب لأهل مكة، و المراد بصاحبهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و المعنى: و ما محمد يا أهل مكة بمجنون، و ذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، و أنه ليس ممّا يرمونه به من الجنون و غيره فى شى‌ء، و أنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس و أكملهم، و هذه الجملة داخلة فى جواب القسم، فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل، و أن محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم ليس كما يقولون من أنه مجنون، و أنه يأتى بالقرآن من جهة نفسه وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ اللام واقعة جواب قسم محذوف، أى: و تاللّه لقد رأى محمد جبريل بالأفق المبين، أى: بمطلع الشمس من قبل المشرق؛ لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين؛ لأن من جهته ترى الأشياء. و قيل: بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ أقطار السماء و نواحيها، و منه قول الشاعر:

أخذنا بآفاق السّماء عليكم	لنا قمراها و النّجوم الطّوالع

و إنما قال سبحانه: وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ مع أنه قد رآه غير مرّة؛ لأنه رآه هذه المرّة فى صورته له ستّمائة جناح، قال سفيان: إنه رآه فى أفق السماء الشرقى. و قال ابن بحر: فى أفق السماء الغربى. و قال مجاهد: رآه نحو أجياد، و هو مشرق مكة، و «المبين» صفة للأفق، قاله الربيع. و قيل: صفة لمن رآه قاله مجاهد، و قيل: معنى الآية: و لقد رأى محمد ربه عزّ و جلّ، و قد تقدّم القول فى هذا فى سورة النجم وَ ما هُوَ أى: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم عَلَى الْغَيْبِ يعنى خبر السماء و ما اطلع عليه ممّا كان غائبا علمه عن أهل مكة بِضَنِينٍ بمتهم، أى: هو ثقة فيما يؤدى عن اللّه سبحانه. و قيل: «بضنين»: ببخيل، أى: لا يبخل بالوحى، و لا يقصر فى التبليغ، و سبب هذا الاختلاف اختلاف القراء؛ فقرأ ابن كثير و أبو عمرو و الكسائى «بظنين» بالظاء المشالة، أى: بمتهم، و الظنة: التهمة، و اختار هذه القراءة أبو عبيد قال: لأنهم لم يبخّلوه و لكن كذبوه. و قرأ الباقون بضنين بالضاد، أى: ببخل، من ضننت بالشى‌ء أضنّ ضنا؛ إذا بخلت. قال مجاهد: أى لا يضنّ عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام اللّه و أحكامه. و قيل: المراد جبريل إنه ليس على الغيب بضنين، و الأوّل أولى وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ أى: و ما القرآن بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب. قال الكلبى: يقول إن القرآن ليس بشعر و لا كهانة كما قالت قريش. قال عطاء:

يريد بالشيطان: الشيطان الأبيض الّذى كان يأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى صورة جبريل يريد أن يفتنه. ثم بكّتهم سبحانه و وبّخهم فقال: فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ أى: أين تعدلون عن هذا القرآن و عن طاعته، كذا قاله قتادة. و قال الزجاج: معناه أىّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التى قد بينت لكم، يقال: أين تذهب؟ و إلى أين تذهب؟ و حكى الفراء عن العرب: ذهبت الشام، و خرجت العراق، و انطلقت السوق، أى: إليها. قال:

سمعناه فى هذه الأحرف الثلاثة، و أنشد لبعض بنى عقيل:

تصيح بنا حنيفة إذ رأتنا- و أىّ الأرض تذهب بالصّياح

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۷۵

ترید إلى أیّ الأرض تذهب، فحذف إلى إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِینَ أی: ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعین، و تذكیر لهم، و قوله: لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ یَسْتَقِیمَ بدل من العالمین بإعادة الجار و مفعول المشیئة «أن یستقیم» أی: لمن شاء منكم الاستقامة على الحقّ و الإیمان و الطاعة وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ یَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ أی: و ما تشاؤون الاستقامة إلا أن یشاء اللّه تلك المشیئة، فأعلمهم سبحانه أن المشیئة فی التوفیق إلیه، و أنهم لا یقدرون على ذلك إلا بمشیئة اللّه و توفیقه، و مثل هذا قوله سبحانه: وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ «١» و قوله: وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَیْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَیْهِمْ كُلَّ شَیْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِیُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ یَشاءَ اللَّهُ «٢» و قوله: إِنَّكَ لا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ «٣» و الآیات القرآنیة فی هذا المعنى كثیرة.

و قد أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و البیهقی فی الشعب، عن ابن عباس فی قوله: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ قال: أظلمت وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ قال: تغیرت. و أخرج ابن أبی حاتم و الدیلمی عن أبی مریم أن النبی صلّى اللّه علیه و سلّم قال فی قوله: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ قال: كوّرت فی جهنم وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ قال: انكدرت فی جهنم، فكلّ من عبد من دون اللّه فهو فی جهنم، إلا ما كان من عیسى و أمه، و لو رضیا أن یعبدا لدخلاها. و أخرج عبد بن حمید و ابن المنذر عن أبی العالیة قال: ست آیات من هذه السورة فی الدنیا، و الناس ینظرون إلیها، و ست فی الآخرة إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ إلى وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ هذه فی الدنیا و الناس ینظرون إلیها وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ إلى وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ هذه فی الآخرة.

و أخرج ابن أبی الدنیا فی الأهوال، و ابن جریر و ابن أبی حاتم عن أبیّ بن كعب قال: ست آیات قبل یوم القیامة بینما الناس فی أسواقهم؛ إذ ذهب ضوء الشمس، فبینما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت و اضطربت و اختلطت، ففزعت الجنّ إلى الإنس و الإنس إلى الجنّ، و اختلطت الدوابّ و الطیر و الوحش فماجوا بعضهم فی بعض وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ قال: اختلطت وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ قال: أهملها أهلها وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ قال: قالت الجن للإنس: نحن نأتیكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجّج، فبینما هم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة و إلى السماء السابعة، فبینما هم كذلك إذ جاءتهم ریح فأماتتهم. و أخرج الفریابی و سعید بن منصور و عبد بن حمید و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردویه عن ابن عباس فی قوله: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ قال: حشر البهائم: موتها، و حشر كلّ شیء الموت غیر الجنّ و الإنس فإنهما یوافیان یوم القیامة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و الخطیب فی المتفق و المفترق، عنه فی قوله: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ قال: یحشر كل شیء یوم القیامة حتى أن الدوابّ لتحشر. و أخرج البیهقی فی البعث عنه أیضا فی قوله: وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ قال: تسجر حتى تصیر نارا. و أخرج الطبرانی عنه سُجِّرَتْ قال: اختلط ماؤها بماء الأرض. و أخرج عبد الرزاق و الفریابی

---

(١). یونس: ١٠٠.

(٢). الأنعام: ١١١.

(٣). القصص: ٥٦.

و سعید بن منصور و ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردویه، و أبو نعیم فی الحلیة، و البیهقی فی البعث، عن النعمان بن بشیر عن عمر بن الخطاب فی قوله:

وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ قال: یقرن بین الرجل الصالح مع الصالح فی الجنة و یقرن بین الرجل السوء مع الرجل السوء فی النار، كذلك تزویج الأنفس: و فی روایة: ثم قرأ: احْشُرُوا الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ «١» و أخرج نحوه ابن مردویه عن النعمان بن بشیر

مرفوعا. و أخرج البزار، و الحاكم فى الكنى، و البيهقى فى سننه، عن عمر بن الخطاب قال: جاء قيس بن عاصم التميمى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إنى و أدت ثمان بنات لى فى الجاهلية، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أعتق عن كل واحدة رقبة»، قال: إنى صاحب إبل، قال: «فأهد عن كل واحدة بدنة». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ قال: قربت. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، من طرق عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ قال: خمسة أنجم؛ زحل و عطارد و المشترى و بهرام و الزهرة، ليس شىء يقطع المجرّة غيرها. و أخرج ابن مردويه، و الخطيب فى كتاب النجوم، عن ابن عباس فى الآية قال: هى النجوم السبعة: زحل و بهرام و عطارد و المشترى و الزهرة و الشمس و القمر، خنوسها: رجوعها، و كنوسها: تغيبها بالنهار. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن سعد و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، من طرق عن ابن مسعود فى قوله: بِالْخُنَّسِ الْجَوارِ الْكُنَّسِ قال: هى بقر الوحش. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: هى البقر تكنس إلى الظلّ. و أخرج ابن المنذر عنه قال: تكنس لأنفسها فى أصول الشجر و تتوارى فيه.

و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: هى الظباء. و أخرج ابن راهويه و عبد بن حميد، و البيهقى فى الشعب، عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: الْجَوارِ الْكُنَّسِ قال: هى الكواكب. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس الخنس البقر الْجَوارِ الْكُنَّسِ الظباء، أ لم ترها إذا كانت فى الظلّ كيف تكنس بأعناقها و مدّت نظرها. و أخرج أبو أحمد الحاكم فى الكنى، عن أبى العديس قال: كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين ما الْجَوارِ الْكُنَّسِ فطعن عمر بمحضرة معه فى عمامة الرجل فألقاها عن رأسه، فقال عمر: أ حرورىّ؟ و الّذى نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتك محلوقا لأنحيت القمل عن رأسك.

و هذا منكر، فالحرورية لم يكونوا فى زمن عمر و لا كان لهم فى ذلك الوقت ذكر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ قال: إذا أدبر وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ قال: إذا بدا النهار حين طلوع الفجر. و أخرج الطبرانى عنه إِذا عَسْعَسَ قال: إقبال سواده. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ قال: جبريل. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم فى الدلائل عن ابن مسعود وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ قال: رأى جبريل له ستّمائة جناح قد سدّ الأفق.

---

(١). الصافات: ٢٢.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤٧٧

و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: إنما عنى جبريل و أن محمدا رآه فى صورته عند سدرة المنتهى. و أخرج ابن مردويه عنه بالأفق المبين، قال: السماء السابعة. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ: بِضَنِينٍ بالضاد، و قال: ببخيل.

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ: «و ما هو على الغيب بظنين» بالظاء قال: ليس بمتّهم. و أخرج الدار قطنى فى الأفراد، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و الخطيب فى تاريخه، عن عائشة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرؤه «بظنين» بالظاء. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: لما نزلت لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ قالوا: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا و إن شئنا لم نستقم، فهبط جبريل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: كذبوا يا محمد وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤٧٨

سورة الانفطار

اشارة

و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج النسائى عن جابر قال: «قام معاذ فصلّى العشاء فطوّل، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: أ فتّان أنت يا معاذ؟ أين أنت عن: سبّح اسم ربك الأعلى، و الضحى، و إذا السماء انفطرت» و أصل الحديث فى الصحيحين، و لكن بدون ذكر إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ و قد تفرّد بها النسائى، و قد تقدّم فى سورة التكوير حديث: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة رأى عين فليقرأ إذا الشمس كوّرت، و إذا السماء انفطرت، و إذا السماء انشقت».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الانفطار (۸۲): الآيات ۱ الى ۱۹]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (۱) وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ (۲) وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (۳) وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (۴)

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ (۵) يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (۶) الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (۷) فِى أَىِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ (۸) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (۹)

وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ (۱۰) كِراماً كاتِبِينَ (۱۱) يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ (۱۲) إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِى نَعِيمٍ (۱۳) وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (۱۴) يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ (۱۵) وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ (۱۶) وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (۱۷) ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (۱۸) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (۱۹)

قوله: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ قال الواحدى: قال المفسرون: انفطارها: انشقاقها، كقوله:

وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا «۱» و الفطر: الشق، يقال: فطرته فانفطر، و منه فطر ناب البعير؛ إذا طلع، قيل: و المراد أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها، و قيل: انفطرت لهيبة اللّه، وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ أى: تساقطت متفرقة، يقال: نثرت الشىء أنثره نثرا. وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ أى: بعضها فى بعض فصارت بحرا واحدا، و اختلط العذب منها بالمالح. و قال الحسن: معنى فجرت: ذهب ماؤها و يبست، و هذه الأشياء بين يدى الساعة كما تقدّم فى السورة التى قبل هذه، وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ أى: قلب ترابها و أخرج الموتى الذين هم فيها، يقال: بعثر يبعثر بعثرة؛ إذا قلب التراب، و يقال: بعثر المتاع:

قلبه ظهرا لبطن، و بعثرت الحوض و بحثرته؛ إذا هدمته و جعلت أعلاه أسفله. قال الفراء: بعثرت: أخرجت ما فى بطنها من الذهب و الفضة، و ذلك من أشراط الساعة أن تخرج الأرض ذهبا و فضتها. ثم ذكر سبحانه

---

(۱). الفرقان: ۲۵.

الجواب عما تقدّم فقال: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ و المعنى: أنها علمته عند نشر الصحف لا عند البعث؛ لأنه وقت واحد من عند البعث إلى عند مصير أهل الجنة إلى الجنة و أهل النار إلى النار، و الكلام فى إفراد نفس هنا كما تقدّم فى السورة الأولى فى قوله: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ «۱». و معنى ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ ما قدّمت من عمل خير أو شرّ، و ما أخرت من سنّة

حسنة أو سيئة؛ لأن لها أجر ما سنّته من السنن الحسنة و أجر من عمل بها، و عليها وزر ما سنّته من السنن السيئة و وزر من عمل بها. و قال قتادة:

ما قدّمت من معصية و أخّرت من طاعة، و قيل: ما قدّم من فرض و أخّر من فرض، و قيل: أوّل عمله و آخره، و قيل: إن النفس تعلم عند البعث بما قدّمت و أخّرت علما إجماليا؛ لأن المطيع يرى آثار السعادة، و العاصي يرى آثار الشقاوة، و أما العلم التفصيلى فإنما يحصل عند نشر الصحف يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ هذا خطاب للكافر، أى: ما الّذى غرّك و خدعك حتى كفرت بربك الكريم الّذى تفضّل عليك فى الدنيا بإكمال خلقك و حواسّك، و جعلك عاقلا فاهما، و رزقك و أنعم عليك بنعمه التى لا تقدر على جحد شىء منها. قال قتادة: غرّه شيطانه المسلّط عليه. و قال الحسن: غرّه شيطانه الخبيث، و قيل: حمقه و جهله، و قيل: غرّه عفو اللّه إذ لم يعاجله بالعقوبة أوّل مرّة. كذا قال مقاتل، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ أى: خلقك من نطفة و لم تك شيئا، فسوّاك رجلا تسمع و تبصر و تعقل، فعدلك: جعلك معتدلا. قال عطاء: جعلك قائما معتدلا حسن الصورة. و قال مقاتل: عدّل خلقك فى العينين و الأذنين و اليدين و الرجلين، و المعنى: عدل بين ما خلق لك من الأعضاء. قرأ الجمهور: فَعَدَلَكَ مشدّدا، و قرأ عاصم و حمزة و الكسائى بالتخفيف، و اختار أبو حاتم و أبو عبيد القراءة الأولى. قال الفراء و أبو عبيد: يدلّ عليها قوله:

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ «٢» و معنى القراءة الأولى: أنه سبحانه جعل أعضاءه متعادلة لا تفاوت فيها؛ و معنى القراءة الثانية: أنه صرفه و أماله إلى أىّ صورة شاء، إما حسنا و إما قبيحا، و إما طويلا و إما قصيرا، فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ فى أىّ صورة متعلق بركبك، و ما مزيدة، و شاء صفة لصورة، أى: ركبك فى أىّ صورة شاءها من الصور المختلفة، و تكون هذه الجملة كالبيان لقوله: فَعَدَلَكَ و التقدير: فعدلك: ركبك فى أىّ صورة شاءها، و يجوز أن يتعلّق بمحذوف على أنه حال، أى: ركبك حاصلا فى أىّ صورة. و نقل أبو حيان عن بعض المفسرين أنه متعلق بعدّلك. و اعترض عليه بأن أىّ لها صدر الكلام فلا يعمل فيها ما قبلها. قال مقاتل و الكلبى و مجاهد: فى أىّ شبه من أب أو أمّ أو خال أو عمّ. و قال مكحول: إن شاء ذكرا و إن شاء أنثى، و قوله: كَلَّا للردع و الزجر عن الاغترار بكرم اللّه و جعله ذريعة إلى الكفر به و المعاصى له، و يجوز أن يكون بمعنى حقا. و قوله: بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ إضراب عن جملة مقدّرة ينساق إليها الكلام، كأنه قيل: بعد الردع و أنتم لا ترتدعون عن ذلك بل تجاوزونه إلى ما هو أعظم منه من التكذيب بالدين و هو الجزاء، أو بدين الإسلام. قال ابن الأنبارى: الوقف الجيد على «الدين» و على

---

(١). التكوير: ١۴.

(٢). التين: ۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۸۰

فتح القدير ج۵ ۴۹۹

«ركبك»، و على «كلا» قبيح، و المعنى: بل تكذبون يا أهل مكة بالدين، أى: بالحساب، و بل لنفى شىء تقدّم و تحقيق غيره، و إنكار البعث قد كان معلوما عندهم و إن لم يجر له ذكر. قال الفراء: كلا ليس الأمر كما غررت به. قرأ الجمهور: «تكذبون» بالفوقية على الخطاب. و قرأ الحسن و أبو جعفر و شيبة بالتحتية على الغيبة، و جملة وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ فى محل نصب على الحال من فاعل تكذبون، أى: تكذبون، و الحال أن عليكم من يدفع تكذيبكم، و يجوز أن تكون مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذيبهم، و الحافظين الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم و يكتبونها فى الصحف. و وصفهم سبحانه بأنهم

كرام لديه يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد، و جملة يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ فى محل نصب على الحال من ضمير كاتبين، أو على النعت، أو مستأنفة. قال الرازى: و المعنى التعجيب من حالهم، كأنه قال: إنكم تكذبون بيوم الدين، و ملائكة اللّه موكّلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة، و نظيره قوله تعالى: عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ- ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ «١». ثم بيّن سبحانه حال الفريقين فقال: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ- وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ و الجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى الّذى سيقت له، و هى كقوله سبحانه: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ «٢» و قوله: يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ صفة لجحيم؛ و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من الضمير فى متعلق الجارّ و المجرور، أو مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ما حالهم؟ فقيل يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ أى يوم الجزاء الّذى كانوا يكذبون به، و معنى يصلونها: أنهم يلزمونها مقاسين لوهجها و حرّها يومئذ. قرأ الجمهور: «يصلونها» مخففا مبنيا للفاعل، و قرئ بالتشديد مبنيا للمفعول وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ أى: لا يفارقونها أبدا و لا يغيبون عنها، بل هم فيها، و قيل المعنى: و ما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون حرّها فى قبورهم.

ثم عظّم سبحانه ذلك اليوم فقال: وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ أى: يوم الجزاء و الحساب، و كرّره تعظيما لقدره و تفخيما لشأنه، و تهويلا لأمره كما فى قوله: الْقارِعَةُ- مَا الْقارِعَةُ- وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ «٣» و الْحَاقَّةُ- مَا الْحَاقَّةُ- وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ «٤» و المعنى: أىّ شىء جعلك داريا ما يوم الدين. قال الكلبى: الخطاب للإنسان الكافر. ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال: يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ قرأ ابن كثير و أبو عمرو برفع «يوم» على أنه بدل من يوم الدين، أو خبر مبتدأ محذوف. و قرأ أبو عمرو فى رواية: «يوم» بالتنوين، و القطع عن الإضافة. و قرأ الباقون بفتحه على أنها فتحة إعراب بتقدير أعنى أو اذكر، فيكون مفعولا به، أو على أنها فتحة بناء لإضافته إلى الجملة على رأى الكوفيين، و هو فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو على أنه بدل من يوم الدين. قال الزجاج:

يجوز أن يكون فى موضع رفع إلا أنه مبنى على الفتح لإضافته إلى قوله: لا تَمْلِكُ و ما أضيف إلى غير المتمكن فقد يبنى على الفتح، و إن كان فى موضع رفع، و هذا الّذى ذكره إنما تجوز عند الخليل و سيبويه إذا

---

(١). ق: ١٧- ١٨.

(٢). الشورى: ١٧.

(٣). القارعة: ١- ٣.

(٤). الحاقة: ١- ٣.

كانت الإضافة إلى الفعل الماضى، و أما إلى الفعل المستقبل فلا يجوز عندهما، و قد وافق الزجاج على ذلك أبو على الفارسى و الفراء و غيرهما، و المعنى: أنها لا تملك نفس من النفوس لنفس أخرى شيئا من النفع أو الضرّ وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ وحده لا يملك شيئا من الأمر غيره كائنا ما كان. قال مقاتل: يعنى لنفس كافرة شيئا من المنفعة. قال قتادة: ليس ثم أحد يقضى شيئا، أو يصنع شيئا إلا اللّه ربّ العالمين، و المعنى: أن اللّه لا يملك أحدا فى ذلك اليوم شيئا من الأمور كما ملكهم فى الدنيا، و مثل هذا قوله: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ «١».

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ قال: بعضها فى بعض، و فى قوله: وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ قال: بحثت. و أخرج ابن المبارك فى الزهد و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ قال:

ما قـدّمت من خير و ما أخرت من سـنّة صالحة يعمل بها [بعده، فإن له مثل أجر من عمل بها] «۲» من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، أو سنّة سيئة تعمل بعده، فإن عليه مثل وزر من عمل بها و لا ينقص من أوزارهم شيئا. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس نحوه. و أخرج الحاكم و صححه، عن حذيفة قال: قال النبی صلّى اللّه عليه و سلّم:

«من استنّ خيرا فاستنّ به فله أجره و مثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم، و من استنّ شرّا فاستنّ به فعليه وزره و مثل أوزار من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم، و تلا حذيفة عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ . و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية: ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ قال: غرّه و اللّه جهله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: جعل اللّه على ابن آدم حافظين فی الليل و حافظين فی النهار يحفظان عمله و يكتبان أثره.

---

(۱). غافر: ۱۶.

(۲). ما بين حاصرتين سقط من الأصل و استدركناه من الدر المنثور (۸/ ۴۳۸)

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۸۲

سورة المطفّفين

اشارة

قال القرطبی: و هی مكية فی قول ابن مسعود و الضحاك و مقاتل، و مدنية فی قول الحسن و عكرمة. و قال مقاتل أيضا: هی أوّل سورة نزلت بالمدينة. و قال ابن عباس و قتادة: هی مدنية إلا ثمان آيات من قوله: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا إلى آخرها. و قال الكلبی و جابر بن زيد: نزلت بين مكة و المدينة. و أخرج النحاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة المطففين بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: آخر ما نزل بمكة سورة المطففين. و أخرج ابن مردويه، و البيهقی فی الشعب: قال السيوطی بسند صحيح: عن ابن عباس قال: لما قدم النبی صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل اللّه: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المطففين (۸۳): الآيات ۱ الى ۱۷]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (۱) الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (۲) وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (۳) أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (۴)

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (۵) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (۶) كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِی سِجِّينٍ (۷) وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ (۸) كِتابٌ مَرْقُومٌ (۹)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۰) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (۱۱) وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (۱۲) إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۱۳) كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۴)

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (۱۵) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ (۱۶) ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِی كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۱۷)

قوله: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ «ويل» مبتدأ، و سوّغ الابتداء به كونه دعاء، و لو نصب لجاز. قال مكى و المختار فى ويل و شبهه: إذا كان غير مضاف الرفع، و يجوز النصب، فإن كان مضافا أو معرّفا كان الاختيار فيه النصب؛ نحو قوله: وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا «١» و للمطففين خبره، و المطفّف: المنقص، و حقيقته:

الأخذ فى الكيل أو الوزن شيئا طفيفا، أى: نزرا حقيرا. قال أهل اللغة: المطفّف مأخوذ من الطّفيف، و هو القليل، فالمطفّف هو المقلّل حق صاحبه بنقصانه عن الحق فى كيل أو وزن. قال الزجاج: إنما قيل للذى ينقص المكيال و الميزان مطفف لأنه لا يكاد يسرق فى المكيال و الميزان إلا الشيء اليسير الطفيف. قال أبو عبيدة و المبرد:

المطفف الّذى يبخس فى الكيل و الوزن. و المراد بالويل هنا شدّة العذاب، أو نفس العذاب، أو الشرّ الشديد، أو هو واد فى جهنم. قال الكلبى: قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة و هم يسيئون كيلهم و وزنهم لغيرهم، و يستوفون لأنفسهم، فنزلت هذه الآية. و قال السدى: قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة، و كان بها رجل يقال له أبو جهينة،

---

(١). طه: ٦١.

و معه صاعان يكيل بأحدهما و يكتال بالآخر، فأنزل اللّه هذه الآية. قال الفراء: هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلا إلى يومهم هذا. ثم بيّن سبحانه المطففين من هم، فقال: الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ أى: يستوفون الاكتيال و الأخذ بالكيل. قال الفراء: يريد اكتالوا من الناس، و «على» و «من» فى هذا الموضع يعتقبان، يقال: اكتلت منك، أى: استوفيت منك، و تقول: اكتلت عليك، أى: أخذت ما عليك. قال الزجاج: إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل، و لم يذكر اتزنوا لأن الكيل و الوزن بهما الشراء و البيع، فأحدهما يدل على الآخر. قال الواحدى: قال المفسرون: يعنى الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا فى الكيل و الوزن، و إذا باعوا و وزنوا لغيرهم نقصوا، و هو معنى قوله: وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أى: كالوا لهم أو وزنوا لهم، فحذفت اللام فتعدى الفعل إلى المفعول، فهو من باب الحذف و الإيصال، و مثله: نصحتك و نصحت لك، كذا قال الأخفش و الكسائى و الفراء. قال الفراء:

و سمعت أعرابية تقول: إذا صدر الناس أتينا التاجر فيكيلنا المدّ و المدّين إلى الموسم المقبل. قال: و هو من كلام أهل الحجاز و من جاورهم من قيس. قال الزجاج: لا يجوز الوقف على «كالوا» حتى يوصل بالضمير، و من الناس من يجعله توكيدا، أى توكيدا للضمير المستكنّ فى الفعل، فيجيز الوقف على كالوا أو وزنوا.

قال أبو عبيدة: و كان عيسى بن عمر يجعلها حرفين، و يقف على كالوا أو وزنوا، ثم يقول: هم يخسرون.

قال: و أحسب قراءة حمزة كذلك. قال أبو عبيد: و الاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين: إحداهما الخط، و لذلك كتبوهما بغير ألف، و لو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا أو وزنوا بالألف. و الأخرى أنه يقال:

كلتك و وزنتك بمعنى: كلت لك و وزنت لك، و هو كلام عربىّ؛ كما يقال: صدتك و صدت لك، و كسبتك و كسبت لك، و شكرتك و شكرت لك و نحو ذلك. و قيل: هو على حذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه، و المضاف المكيل و الموزون، أى: و إذا كالوا مكيلهم، أو وزنوا موزونهم، و معنى يخسرون:

ينقصون، كقوله: وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ «١» و العرب تقول: خسرت الميزان و أخسرته. ثم خوّفهم سبحانه فقال: أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ و الجملة مستأنفة مسوقة لتهويل ما فعلوه من التطفيف و تفظيعه و للتعجيب من حالهم فى الاجتراء عليه، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المطففين، و المعنى: أنهم لا يخطرون ببالهم أنهم مبعوثون فمسؤولون عما يفعلون. قيل: و الظنّ هنا بمعنى

اليقين، أى: لا يوقن أولئك، و لو أيقنوا ما نقصوا الكيل و الوزن، و قيل: الظن على بابه، و المعنى: إن كانوا لا يستيقنون البعث، فهلّا ظنّوه حتى يتدبروا فيه و يبحثوا عنه و يتركوا ما يخشون من عاقبته. و اليوم العظيم هو يوم القيامة، و وصفه بالعظم لكونه زمانا لتلك الأمور العظام من البعث و الحساب و العقاب، و دخول أهل الجنة الجنة، و أهل النار النار. ثم أخبر عن ذلك اليوم فقال: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ انتصاب الظرف بمبعوثون المذكور قبله، أو بفعل مقدّر يدل عليه مبعوثون، أى: يبعثون يوم يقوم الناس، أو على البدل من محل ليوم، أو بإضمار

---

(١). الرّحمن: ٩.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ۴٨۴

أعنى، أو هو فى محلّ رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو فى محلّ جرّ على البدل من لفظ ليوم، و إنما بنى على الفتح فى هذين الوجهين لإضافته إلى الفعل. قال الزجاج: «يوم» منصوب بقوله «مبعوثون»، المعنى:

ألا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة، و معنى يوم يقوم الناس: يوم يقومون من قبورهم لأمر ربّ العالمين، أو لجزائه، أو لحسابه، أو لحكمه و قضائه. و فى وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس للّه خاضعين فيه و وصفه سبحانه بكونه ربّ العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف، و مزيد إثمه و فظاعة عقابه. و قيل: المراد بقوله: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ قيامهم فى رشحهم إلى أنصاف آذانهم، و قيل: المراد قيامهم بما عليهم من حقوق العباد، و قيل:

المراد قيام الرسل بين يدى اللّه للقضاء، و الأوّل أولى. قوله: كَلَّا هى للردع و الزجر للمطففين الغافلين عن البعث و ما بعده. ثم استأنف فقال: إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ أن كلا بمعنى حقا متصلة بما بعدها على معنى: حقا إن كتاب الفجار لفى سجين، و سجين هو ما فسره به سبحانه من قوله: وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ- كِتابٌ مَرْقُومٌ فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم، أى: مسطور، قيل: هو كتاب جامع لأعمال الشرّ الصادر من الشياطين و الكفرة و الفسقة، و لفظ سجين علم له. و قال قتادة و سعيد بن جبير و مقاتل و كعب: إنه صخرة تحت الأرض السابعة تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها، و به قال مجاهد، فيكون فى الكلام على هذا القول مضاف محذوف، و التقدير: محل كتاب مرقوم. و قال أبو عبيدة و الأخفش و المبرد و الزجاج لَفِي سِجِّينٍ لفى حبس و ضيق شديد، و المعنى: كأنهم فى حبس، جعل ذلك دليلا على خساسة منزلتهم و هوانها. قال الواحدى: ذكر قوم أن قوله: كِتابٌ مَرْقُومٌ تفسير لسجين، و هو بعيد لأنه ليس السجين من الكتاب فى شى‌ء على ما حكيناه عن المفسرين، و الوجه أن يجعل بيانا لكتاب المذكور فى قوله: إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ على تقدير هو كتاب مرقوم، أى: مكتوب قد بينت حروفه. انتهى. و الأولى ما ذكرناه، و يكون المعنى: إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون، أى: ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لفى ذلك الكتاب المدوّن للقبائح المختصّ بالشر، و هو سجين. ثم ذكر ما يدل على تهويله و تعظيمه، فقال: وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ ثم بينه بقوله: كِتابٌ مَرْقُومٌ قال الزجاج: معنى قوله: وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت و لا قومك. قال قتادة: و معنى مرقوم: رقم لهم بشرّ، كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه كافر. و كذا قال مقاتل. و قد اختلفوا فى نون سجين، فقيل: هى أصلية و اشتقاقه من السجن، و هو الحبس، و هو بناء مبالغة كخمير و سكير و فسيق، من الخمر و السكر و الفسق. و كذا قال أبو عبيدة و المبرد و الزجاج. قال الواحدى: و هذا ضعيف لأن العرب ما كانت تعرف سجينا. و يجاب عنه بأن رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة، و تدل على أنه من لغة العرب، و منه قول ابن مقبل:

و رفقة يضربون البيض ضاحيةضربا تواصت به الأبطال سجّينا

و قيل: النون بدل من اللام، و الأصل: سجيل؛ مشتقا من السجل، و هو الكتاب. قال ابن عطية:

من قـال إن سـجينا موضع فكتـاب مرفوع على أنه خبر إن، و الظرف و هو قوله: لَفِي سِجِّينٍ ملغى، و من جعله عبارة عن الكتاب، فكتاب خبر مبتدأ محذوف، التقدير: هو كتاب، و يكون هذا الكلام مفسرا

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۸۵

لسجين ما هو؟ كذا قال. قال الضحاك: مرقوم: مختوم بلغة حمير، و أصل الرقم الكتابة. قال الشاعر:

سأرقم بالماء القراح «۱» إليكم‌على بعد كم إن كان للماء راقم

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ هـذا متصل بقوله: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ و ما بينهما اعتراض، و المعنى: ويل يوم القيامـة لمن وقع منه التكـذيب بالبعث و بما جاءت به الرسل. ثم بيّن سبحانه هؤلاء المكـذبين فقال: الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ و الموصول صـفة للمكذبين، أو بدل منه وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ أى: فاجر جائر، متجاوز فى الإثم، منهمك فى أسبابه إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا المنزّلـة على محمـد صلّى اللّه عليه و سلّم قـالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى: أحاديثهم و أباطيلهم التى زخرفوها. قرأ الجمهور إذا «تتلى» بفوقيتين.

و قرأ أبو حيوة و أبو السمّال و الأشهب العقيلى و السلمى بالتحتيـة، و قوله: كَلَّا للردع و الزجر للمعتـدى الأثيم عن ذلك القول الباطـل و تكـذيب له، و قوله: بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ مـا كـانُوا يَكْسِبُونَ بيـان للسبب الّذى حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأوّلين. قال أبو عبيـدة: ران على قلوبهم: غلب عليها رينا و ريونا، و كل ما غلبك و علاك فقـد ران بك عليك. قال الفراء: هو أنها كثرت منهم المعاصى و الذنوب فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها. قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب. قـال مجاهـد: القلب مثـل الكف، و رفع كفه، فـإذا أذنب انقبض، و ضمّ إصـبعه، فإذا أذنب ذنبا آخر انقبض، و ضم أخرى؛ حتى ضم أصابعه كلها، حتى يطبع على قلبه. قال: و كانوا يرون أن ذلك هو الرين. ثم قرأ هذه الآية.

قـال أبو زيـد: يقـال: قـد رين بالرجـل رينـا؛ إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه و لا قبل له به. و قال أبو معاذ النحوىّ: الرين: أن يسودّ القلب من الـذنوب، و الطّبع: أن يطبع على القلب، و هو أشـدّ من الرين، و الإقفـال: أشـدّ من الطّبع. قـال الزجـاج: الرين هو كالصـدإ يغشى القلب كـالغيم الرقيق، و مثله الغين. ثم كرّر سبحانه الردع و الزجر فقال: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ و قيـل: كلا بمعنى حقـا، أى: حقـا إنهم، يعنى الكفـار، عن ربهم يوم القيامـة لا يرونه أبـدا. قـال مقاتل: يعنى أنهم بعـد العرض و الحسـاب لا ينظرون إليه نظر المؤمنين إلى ربهم. قال الحسين بن الفضل: كما حجبهم فى الـدنيا عن توحيـده حجبهم فى الآخرة عن رؤيته. قال الزجاج: فى هذه الآية دليل على أن اللّه عزّ و جلّ يرى فى القيامة، و لو لا ذلك ما كان فى هذه الآية فائدة. و قال جلّ ثناؤه: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ- إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ «۲» فأعلم جلّ ثناؤه أن المؤمنين ينظرون، و أعلم أن الكفار محجوبون عنه. و قيل: هو تمثيل لإهانتهم بإهانـة من يحجب عن الـدخول على الملوك. و قال قتادة و ابن أبى مليكـة: هو أن لا ينظر إليهم برحمته و لا يزكيهم. و قال مجاهد:

محجوبون عن كرامته، و كـذا قـال ابن كيسـان ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ أى: داخلو النـار و ملازموهـا غير خـارجين منهـا، و «ثم» لتراخى الرتبة؛ لأن صلى الجحيم أشدّ من الإهانة و حرمان الكرامة

---

(۱). «القراح»: الماء الّذى لا ثقل فيه.

(۲). القيامة: ۲۲- ۲۳.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۸۶

ثُمَّ يُقالُ هـذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ أى: تقول لهم خزنـة جهنم تبكيتا و توبيخا: هذا الّذى كنتم به تكذبون فى الدنيا، فانظروه و

ذوقوه.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما نقض قوم العهد إلا سلط اللّه عليهم عدوّهم، و لا طففوا الكيل إلا منعوا النبات و أخذوا بالسنين». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عمر «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه». و أخرج الطبرانى و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى هذه الآية: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ قال: فكيف إذا جمعكم اللّه كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم». و أخرج أبو يعلى و ابن حبان و ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ بمقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة، فيهون ذلك على المؤمن كتدلّى الشّمس إلى الغروب إلى أن تغرب». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: إذا حشر الناس قاموا أربعين عاما. و أخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعا. و أخرج الطبرانى عن ابن عمر أنه قال: يا رسول اللّه كم مقام الناس بين يدى ربّ العالمين يوم القيامة؟ قال: «ألف سنة لا يؤذن لهم». و أخرج ابن المبارك فى الزهد، و عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله: كَلَّا إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ قال: إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها، فيهبط بها إلى الأرض فتأبى أن تقبلها، فيدخل بها تحت سبع أرضين حتى ينتهى بها إلى سجين، و هو خدّ إبليس، فيخرج لها من تحت خد إبليس كتابا فيختم و يوضع تحت خد إبليس. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: سِجِّينٍ أسفل الأرضين.

و أخرج ابن جرير عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الفلق جب فى جهنم مغطى، و أما سجين فمفتوح». قال ابن كثير: هو حديث غريب منكر لا يصحّ. و أخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: سِجِّينٍ الأرض السابعة السفلى. و أخرج ابن مردويه عن جابر نحوه مرفوعا. و أخرج عبد بن حميد و ابن ماجة و الطبرانى، و البيهقى فى البعث، عن عبد اللّه بن كعب بن مالك قال: لما حضرت كعبا الوفاة أتته أمّ بشر بنت البراء فقالت: إن لقيت ابنى فأقرئه منى السلام، فقال: غفر اللّه لك يا أمّ براء نحن أشغل من ذلك، فقالت: أما سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت، و إن نسمة الكافر فى سجين»؟ قال: بلى، قالت: فهو ذلك. و أخرج ابن المبارك نحوه عن سلمان. و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و صححه، و النسائى و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت فى قلبه نكتة سوداء، فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه، و إن عاد زادت حتى تغلف قلبه، فذلك الران الّذى ذكره اللّه سبحانه فى القرآن كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ .

فتح القدير، ج‏5، ص: 487

[سورة المطففين (83): الآيات 18 الى 36]

كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ (19) كِتابٌ مَرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21) إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (22)

عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (26) وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27)

عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ (30) وَ إِذَا انْقَلَبُوا

إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَ إِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ (٣٢)
وَ ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)

قوله: كَلَّا للردع و الزجر عما كانوا عليه، و التكرير للتأكيد، و جملة إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ مستأنفة لبيان ما تضمنته، و يجوز أن يكون «كلا» بمعنى حقا، و الأبرار: هم المطيعون، و كتابهم:

صحائف حسناتهم. قال الفراء: «عليين» ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له، و وجه هذا أنه منقول من جمع عليّ من العلوّ. قال الزجاج: هو أعلى الأمكنة. قال الفراء و الزجاج: فأعرب كإعراب الجمع لأنه على لفظ الجمع و لا واحد له من لفظه نحو ثلاثين و عشرين و قنّسرين، قيل: هو علم لديوان الخير الّذى دوّن فيه ما عمله الصالحون. و حكى الواحدى عن المفسرين أنه السماء السابعة. قال الضحاك و مجاهد و قتادة: يعنى السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. و قال الضحاك: هو سدرة المنتهى ينتهى إليه كل شىء من أمر اللّه لا يعدوها، و قيل: هو الجنة. و قال قتادة أيضا: هو فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى، و قيل: إن عليين صفة للملائكة فإنهم فى الملأ الأعلى، كما يقال: فلان فى بنى فلان، أى: فى جملتهم وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ- كِتابٌ مَرْقُومٌ أى: و ما أعلمك يا محمد أىّ شىء عليون؟ على جهة التفخيم و التعظيم لعليين، ثم فسره فقال:

كِتابٌ مَرْقُومٌ أى: مسطور، و الكلام فى هذا كالكلام المتقدم فى قوله: وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ- كِتابٌ مَرْقُومٌ و جملة يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ صفة أخرى لكتاب، و المعنى: أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم، و قيل: يشهدون بما فيه يوم القيامة. قال وهب و ابن إسحاق: المقرّبون هنا إسرافيل، فإذا عمل المؤمن عمل البرّ صعدت الملائكة بالصحيفة و لها نور يتلألأ فى السماوات كنور الشمس فى الأرض حتى تنتهى بها إلى إسرافيل فيختم عليها. ثم ذكر سبحانه حالهم فى الجنة بعد ذكر كتابهم فقال: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ أى: إن أهل الطاعة لفى تنعّم عظيم لا يقادر قدره عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ الأرائك: الأسرّة التى فى الحجال «١»، و قد تقدّم أنها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان فى حجلة. قال الحسن: ما كنا ندرى ما الأرائك حتى قدم علينا رجل من اليمن، فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير. و معنى يَنْظُرُونَ أنهم ينظرون إلى ما أعدّ اللّه لهم من الكرامات، كذا قال عكرمة و مجاهد و غيرهما. و قال مقاتل:

ينظرون إلى أهل النار، و قيل: ينظرون إلى وجهه و جلاله تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ أى: إذا

---

(١). الحجال: جمع الحجلة، و هى ساتر كالقبّة يتّخذ للعروس، يزيّن بالثياب و السّتور و الأسرّة.

رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة لما تراه فى وجوههم من النور و الحسن و البياض و البهجة و الرونق، و الخطاب لكلّ راء يصلح لذلك، يقال: أنضر النبات؛ إذا أزهر و نوّر. قال عطاء: و ذلك أن اللّه زاد فى جمالهم و فى ألوانهم ما لا يصفه واصف. قرأ الجمهور: «تعرف» بفتح الفوقية و كسر الراء، و نصب نضرة، و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و يعقوب و شيبة و طلحة و ابن أبى إسحاق بضم الفوقية و فتح الراء على البناء للمفعول، و رفع «نضرة» بالنيابة يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ قال أبو عبيدة و الأخفش و المبرد و الزجاج: الرحيق من الخمر ما لا غشّ فيه و لا شىء يفسده، و المختوم: الّذى له ختام. و قال الخليل: الرحيق أجود الخمر. و فى الصحاح:

الرحيق: صفرة الخمر. و قال مجاهد: هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية، و منه قول حسان:

يسقون من ورد البريص عليهمبردى يصفّق بالرّحيق السّلسل

قال مجاهد مَخْتُومٍ مطين كأنه ذهب إلى معنى الختم بالطين، و يكون المعنى: أنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للأبرار. قال سعيد بن جبير و إبراهيم النخعي: ختامه: آخر طعمه، و هو معنى قوله:

خِتامُهُ مِسْكٌ أى: آخر طعمه ريح المسك إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك.

و قيل: مختوم أوانيه من الأكواب و الأباريق بمسك مكان الطين، و كأنه تمثيل لكمال نفاسته و طيب رائحته.

و الحاصل أن المختوم و الختام إما أن يكون من ختام الشيء و هو آخره، أو من ختم الشيء و هو جعل الخاتم عليه كما تختم الأشياء بالطين و نحوه. قرأ الجمهور: «ختامه» و قرأ عليّ و علقمة و شقيق و الضحاك و طاوس و الكسائى «خاتمه» بفتح الخاء و التاء و ألف بينهما. قال علقمة: أما رأيت المرأة تقول للعطار: اجعل خاتمه مسكا، أى: آخره، و الخاتم و الختام يتقاربان فى المعنى، إلا أن الخاتم الاسم و الختام المصدر، كذا قال الفراء قال فى الصحاح: و الختام الطين الّذى يختم به، و كذا قال ابن زيد. قال الفرزدق:

و بتن بجانبى مصرّعات- و بت أفضّ أغلاق الختام وَ فِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ أى: فليرغب الراغبون، و الإشارة بقوله: «ذلك» إلى الرحيق الموصوف بتلك الصفة، و قيل: إن «فى» بمعنى إلى: أى و إلى ذلك فليتبادر المتبادرون فى العمل كما فى قوله:

لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ «۱» و أصل التنافس: التشاجر على الشيء و التنازع فيه؛ بأن يحبّ كل واحد أن يتفرّد به دون صاحبه، يقال: نفست الشيء عليه أنفسه نفاسة: أى ظننت به و لم أحبّ أن يصير إليه.

قال البغوى: أصله من الشيء النفيس الّذى تحرص عليه نفوس الناس فيريده كل واحد لنفسه، و ينفس به على غيره، أى: يضن به. قال عطاء: المعنى فليستبق المستبقون. و قال مقاتل بن سليمان: فليتنازع المتنازعون، و قوله: وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ معطوف على خِتامُهُ مِسْكٌ صفة أخرى لرحيق، أى:

و مزاج ذلك الرحيق من تسنيم، و هو شراب ينصبّ عليهم من علو، و هو أشرف شراب الجنة، و أصل التسنيم فى اللغة: الارتفاع، فهى عين ماء تجرى من علوّ إلى أسفل، و منه سنام البعير لعلوّه من بدنه، و منه تسنيم

---

(۱). الصافات: ۶۱.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۸۹

القبور، ثم بين ذلك فقال: عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ و انتصاب عينا على المدح. و قال الزجاج: على الحال، و إنما جاز أن تكون عينا حالا مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله: يَشْرَبُ بِهَا و قال الأخفش: إنها منصوبة بيسقون، أى: يسقون عينا، أو من عين. و قال الفراء: إنها منصوبة بتسنيم على أنه مصدر مشتق من السنام كما فى قوله: أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ- يَتِيماً «۱» و الأوّل أولى، و به قال المبرد. قيل و الباء فى بها زائدة، أى: يشربها، أو بمعنى من، أى: يشرب منها. قال ابن زيد: بلغنا أنها عين تجرى من تحت العرش، قيل: يشرب المقربون صرفا، و يمزج بها كأس أصحاب اليمين.

ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين فقال: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا و هم كفار قريش و من وافقهم على الكفر كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ أى: كانوا فى الدنيا يستهزئون بالمؤمنين، و يسخرون منهم وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ أى: مرّ المؤمنون بالكفار و هم فى مجالسهم يَتَغامَزُونَ من الغمز، و هو الإشارة بالجفون و الحواجب، أى: يغمز بعضهم بعضا، و يشيرون بأعينهم و حواجبهم، و قيل: يعيرونهم بالإسلام و يعيبونهم به وَ إِذَا انْقَلَبُوا أى: الكفار إِلى أَهْلِهِمُ من مجالسهم انْقَلَبُوا فَكِهِينَ أى: معجبين بما هم فيه متلذّذين به، يتفكهون بذكر المؤمنين و الطعن فيهم و الاستهزاء بهم و السخرية منهم. و الانقلاب:

الانصراف. قرأ الجمهور: «فاكهين» و قرأ حفص و ابن القعقاع و الأعرج و السلمى «فكهين» بغير ألف.
قال الفراء: هما لغتان، مثل طمع و طامع، و حذر و حاذر. و قد تقدّم بيانه فى سورة الدخان أن الفكه: الأشر البطر، و الفاكه: الناعم المتنعم وَ إِذا رَأَوْهُمْ أى: إذا رأى الكفار المسلمين فى أى مكان قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ فى اتباعهم محمدا، و تمسّكهم بما جاء به، و تركهم التنعم الحاضر، و يجوز أن يكون المعنى:
و إذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول، و الأوّل أولى، و جملة وَ ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ فى محل نصب على الحال من فاعل قالوا، أى: قالوا ذلك أنهم لم يرسلوا على المسلمين من جهة اللّه موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم و أعمالهم فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا المراد باليوم: اليوم الآخر مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ و المعنى: أن المؤمنين فى ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب، كما ضحك الكفار منهم فى الدنيا، و جملة عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ فى محل نصب على الحال من فاعل يضحكون، أى: يضحكون منهم ناظرين إليهم و إلى ما هم فيه من الحال الفظيع، و قد تقدّم تفسير الأرائك قريبا. قال الواحدى: قال المفسرون: إن أهل الجنة إذا أرادوا نظروا من منازلهم إلى أعداء اللّه و هم يعذبون فى النار، فضحكوا منهم كما ضحكوا منهم فى الدنيا. و قال أبو صالح: يقال لأهل النار اخرجوا و يفتح لهم أبوابها، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج و المؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم، فذلك قوله: فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ الجملة مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم فى الدنيا من الضحك

---

(١). البلد: ١٤- ١٥.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤٩٠

من المؤمنين و الاستهزاء بهم، و الاستفهام للتقرير، و ثوّب بمعنى أثيب، و المعنى: هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين؟ و قيل: الجملة فى محل نصب بينظرون، و قيل هى على إضمار القول، أى: يقول بعض المؤمنين لبعض هل ثوّبت الكفار، و الثواب ما يرجع على العبد فى مقابلة عمله و يطلق على الخير و الشرّ.
و قد أخرج ابن المبارك فى الزهد و عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله: إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ قال: روح المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى السماء، ففتح لها أبواب السماء و تلقاها الملائكة بالبشرى حتى تنتهى بها إلى العرش و تعرج الملائكة، فيخرج لها من تحت العرش رقّ فيرقم و يختم و يوضع تحت العرش لمعرفة النجاة لحساب يوم الدين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس لَفِي عِلِّيِّينَ قال: الجنة، و فى قوله: يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ قال: أهل السماء.
و أخرج أحمد و أبو داود و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب فى عليين». و أخرج ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: نَضْرَةَ النَّعِيمِ قال: عين فى الجنة يتوضّؤون منها و يغتسلون فتجرى عليهم نضرة النعيم. و أخرج عبد بن حميد و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و هناد و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، عن ابن مسعود فى قوله: يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ قال: الرحيق: الخمر، و المختوم: يجدون عاقبتها طعم المسك. و أخرج ابن أبى شيبة و هناد و ابن المنذر عنه فى قوله: مَخْتُومٍ قال: ممزوج خِتامُهُ مِسْكٌ قال: طعمه و ريحه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس فى قوله: مِنْ رَحِيقٍ قال: خمر، و قوله:
مَخْتُومٍ قال: ختم بالمسك. و أخرج الفريابى و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن ابن مسعود فى قوله: خِتامُهُ مِسْكٌ

قال: ليس بخاتم يختم به، و لكن خلطه مسك، ألم تر إلى المرأة من نسائكم تقول:

خلطه من الطيب كذا و كذا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى عن أبى الدرداء خِتامُهُ مِسْكٌ قال:

هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم، و لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل إصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريحها. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: تَسْنِيمٍ أشرف شراب أهل الجنة، و هو صرف للمتقين، و يمزج لأصحاب اليمين. و أخرج ابن المبارك و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و هناد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ قال: عين فى الجنة تمزج لأصحاب اليمين و يشربها المقرّبون صرفا.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ قال: هذا مما قال اللّه: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ «۱».

---

(۱). السجدة: ۱۷.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۴۹۱

سورة الانشقاق

اشارة

و هى ثلاث و عشرون آية، و قيل خمس و عشرون آية و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الانشقاق بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى رافع قال: «صليت مع أبى هريرة العتمة فقرأ: إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ فسجد، فقلت له، فقال: سجدت خلف أبى القاسم صلّى اللّه عليه و سلّم فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه». و أخرج مسلم و أهل السنن و غيرهم عن أبى هريرة قال: «سجدنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ و اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ . و أخرج ابن خزيمة، و الرويانى فى مسنده، و الضياء المقدسى فى المختارة، عن بريدة «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ فى الظهر إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ و نحوها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الانشقاق (۸۴): الآيات ۱ الى ۲۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (۱) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (۲) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (۳) وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ (۴)

وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (۵) يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (۶) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ (۷) فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً (۸) وَ يَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۹)

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ (۱۰) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً (۱۱) وَ يَصْلى سَعِيراً (۱۲) إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۱۳) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (۱۴)

بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً (۱۵) فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (۱۶) وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ (۱۷) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (۱۸) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (۱۹)

فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٢٤)

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)

قوله: إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ هو كقوله: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ «١» فى إضمار الفعل و عدمه.

قال الواحدى: قال المفسرون: انشقاقها من علامات القيامة، و معنى انشقاقها: انفطارها بالغمام الأبيض كما فى قوله: وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ «٢» و قيل: تنشقّ من المجرّة، و المجرّة باب السماء.

و اختلف فى جواب إذا، فقال الفراء: إنه أذنت، و الواو زائدة، و كذلك ألقت. قال ابن الأنبارى:

هذا غلط، لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع حتى إذا كقوله: حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها «٣» و مع لما كقوله: فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ- وَ نادَيْناهُ «۴» و لا تقحم مع غير هذين. و قيل: إن الجواب

---

(١). التكوير: ١.

(٢). الفرقان: ٢۵.

(٣). الزمر: ٧٣.

(۴). الصافات: ١٠٣- ١٠۴.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۹۲

قوله: فَمُلاقِيهِ أى: فأنت ملاقيه، و به قال الأخفش. و قال المبرد: إن فى الكلام تقديما و تأخيرا، أى: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه إذا السماء انشقت. و قال المبرد أيضا: إن الجواب قوله: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ و به قال الكسائى، و التقدير: إذا السماء انشقت فمن أوتى كتابه بيمينه فحكمه كذا، و قيل: هو يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ على إضمار الفاء، و قيل: إنه يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ على إضمار القول، أى: يقال له يا أيها الإنسان، و قيل: الجواب محذوف تقديره بعثتم، أو لاقى كلّ إنسان عمله، و قيل: هو ما صرّح به فى سورة التكوير، أى: علمت نفس هذا، على تقدير أن إذا شرطية، و قيل:

ليست بشرطية و هى منصوبة بفعل محذوف، أى: اذكر، أو هى مبتدأ و خبرها إذا الثانية و الواو مزيدة، و تقديره: وقت انشقاق السماء وقت مدّ الأرض، و معنى وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها أنها أطاعته فى الانشقاق، من الإذن، و هو: الاستماع للشى‌ء و الإصغاء إليه وَ حُقَّتْ أى: و حقّ لها أن تطيع و تنقاد و تسمع، و من استعمال الإذن فى الاستماع قول الشاعر:

صمّ إذا سمعوا خيرا ذكرت به‌و إن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

و قول الآخر:

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحامنّى و ما أذنوا من صالح دفنوا

و قيل: المعنى: و حقق اللّه عليها الاستماع لأمره بالانشقاق، أى: جعلها حقيقة بذلك. قال الضحاك:

حقّت: أطاعت، و حقّ لها أن تطيع ربها لأنه خلقها، يقال: فلان محقوق بكذا، و معنى طاعتها: أنها لا تمتنع ممّا أراده اللّه بها. قال قتادة: حق لها أن تفعل ذلك، و من هذا قول كثير:

فإن تكن العتبى فأهلا و مرحباو حقّت لها العتبى لدينا و قلّت

وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ أى: بسطت كما تبسط الأدم؛ و دكت جبالها حتى صارت قاعا صفصفا، لا ترى فيها عوجا و لا أمتا. قال مقاتل: سوّيت كمدّ الأديم فلا يبقى عليها بناء و لا جبل إلا دخل فيها، و قيل:

مدّت: زید فی سعتها، من المدد، و هو الزیادة وَ أَلْقَتْ ما فِیها أی: أخرجت ما فیها من الأموات و الکنوز و طرحتهم إلی ظهرها وَ تَخَلَّتْ من ذلک. قال سعید بن جبیر: ألقت ما فی بطنها من الموتی و تخلت ممّن علی ظهرها من الأحیاء، و مثل هذا قوله: وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها «۱» وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها أی:
سمعت و أطاعت لما أمرها به من الإلقاء و التخلی وَ حُقَّتْ أی: و جعلت حقیقة بالاستماع لذلک و الانقیاد له، و قد تقدّم بیان معنی الفعلین قبل هذا یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ المراد جنس الإنسان فیشمل المؤمن و الکافر، و قیل: هو الإنسان الکافر، و الأوّل أولی لما سیأتی من التفصیل إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ کَدْحاً الکدح فی کلام العرب: السعی فی الشیء بجهد من غیر فرق بین أن یکون ذلک الشیء خیرا أو شرّا، و المعنی:

---

(۱). الزلزلة: ۲.

أنک ساع إلی ربک فی عملک، أو إلی لقاء ربک، مأخوذ من کدح جلده؛ إذا خدشه قال ابن مقبل:
و ما الدّهر إلا تارتان فمنهماأموت و أخری أبتغی العیش أکدح
قال قتادة و الضحاک و الکلبی: عامل لربک عملا فَمُلاقِیهِ أی: فملاق عملک، و المعنی: أنه لا محالة ملاق لجزاء عمله و ما یترتب علیه من الثواب و العقاب. قال القتبی: معنی الآیة: إنک کادح، أی:
عامل ناصب فی معیشتک إلی لقاء ربک، و الملاقاة بمعنی اللقاء، أی: تلقی ربک بعملک، و قیل: فملاق کتاب عملک، لأن العمل قد انقضی فَأَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ و هم المؤمنون فَسَوْفَ یُحاسَبُ حِساباً یَسِیراً لا مناقشة فیه. قال مقاتل: لأنها تغفر ذنوبه و لا یحاسب بها. و قال المفسرون: هو أن تعرض علیه سیئاته ثم یغفرها اللّه، فهو الحساب الیسیر وَ یَنْقَلِبُ إِلی أَهْلِهِ مَسْرُوراً أی: و ینصرف بعد الحساب الیسیر إلی أهله الذین هم فی الجنة من عشیرته، أو إلی أهله الذین کانوا له فی الدنیا من الزوجات و الأولاد و قد سبقوه إلی الجنة، أو إلی من أعدّه اللّه له فی الجنة من الحور العین و الولدان المخلدین، أو إلی جمیع هؤلاء مسرورا مبتهجا بما أوتی من الخیر و الکرامة وَ أَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ قال الکلبی: لأن یمینه مغلولة إلی عنقه، و تکون یده الیسری خلفه. و قال قتادة و مقاتل: تفکّ ألواح صدره و عظامه، ثم تدخل یده و تخرج من ظهره فیأخذ کتابه کذلک فَسَوْفَ یَدْعُوا ثُبُوراً أی: إذا قرأ کتابه قال: یا ویلاه! یا ثبوراه! و الثبور:
الهلاک وَ یَصْلی سَعِیراً أی: یدخلها و یقاسی حرّ نارها و شدّتها. قرأ أبو عمرو و حمزة و عاصم بفتح الیاء و سکون الصاد و تخفیف اللام. و قرأ الباقون بضم الیاء و فتح اللام و تشدیدها، و روی إسماعیل المکی عن ابن کثیر و کذلک خارجة عن نافع و کذلک روی إسماعیل المکی عن ابن کثیر أنهم قرءوا بضم الیاء و إسکان الصاد من أصلی یصلی إِنَّهُ کانَ فِی أَهْلِهِ مَسْرُوراً أی کان بین أهله فی الدنیا مسرورا باتباع هواه و رکوب شهوته بطرا أشرا لعدم حضور الآخرة بباله، و الجملة تعلیل لما قبلها، و جملة إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ یَحُورَ تعلیل لکونه کان فی الدنیا فی أهله مسرورا، و المعنی: أن سبب ذلک السرور ظنه بأنه لا یرجع إلی اللّه و لا یبعث للحساب و العقاب لتکذیبه بالبعث و جحده للدار الآخرة، و أن فی قوله: أَنْ لَنْ یَحُورَ هی المخففة من الثقیلة سادّة مع ما فی حیزها مسدّ مفعولی ظنّ، و الحور فی اللغة: الرجوع، یقال: حار یحور؛ إذا رجع، و قال الراغب:
الحور: التردّد فی الأمر، و منه: نعوذ باللّه من الحور بعد الکور، أی: من التردّد فی الأمر بعد المضیّ فیه، و محاورة الکلام مراجعته، و المحار: المرجع و المصیر. قال عکرمة و داود بن أبی هند: یحور کلمة بالحبشیة و معناها یرجع. قال القرطبی: الحور فی کلام العرب: الرجوع، و منه قوله صلّی اللّه علیه و سلّم: «اللهم إنی أعوذ بک من الحور بعد الکور» یعنی من الرجوع إلی

النقصان بعد الزيادة، و كذلك الحور بالضم، و فى المثل: «حور فى محارة» أى: نقصان فى نقصان، و منه قول الشاعر «۱»:
و الذّمّ يبقى و زاد القوم فى حور «۲»

(۱). هو سبيع بن الخطيم.

(۲). و صدر البيت: و استعجلوا عن خفيف المضغ فازدردوا.

و الحور أيضا الهلكة، و منه قول الراجز «۱»:

فى بئر لا حور سرى و ما شعر قال أبو عبيدة: أى فى بئر حور، و لا زائدة بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً «بلى» إيجاب للمنفىّ بلن، أى: بلى ليحورنّ و ليبعثنّ. ثم علّل ذلك بقوله: إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً أى: كان به و بأعماله عالما لا يخفى عليه منها خافية. قال الزجاج: كان به بصيرا قبل أن يخلقه عالما بأن مرجعه إليه فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ «لا» زائدة كما تقدّم فى أمثال هذه العبارة، و قد قدّمنا الاختلاف فيها فى سورة القيامة فارجع إليه، و الشفق:

الحمرة التى تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة. قال الواحدى: هذا قول المفسرين و أهل اللغة جميعا. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق؛ و كان أحمر، و حكاه القرطبى عن أكثر الصحابة و التابعين و الفقهاء. و قال أسد بن عمرو و أبو حنيفة؛ فى إحدى الروايتين عنه: إنه البياض، و لا وجه لهذا القول و لا متمسك له لا من لغة العرب و لا من الشرع. قال الخليل: الشفق:

الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة. قال فى الصحاح: الشفق: بقية ضوء الشمس و حمرتها فى أوّل الليل إلى قريب العتمة، و كتب اللغة و الشرع مطبقة على هذا، و منه قول الشاعر:

قم يا غلام أعنى غير مرتبك‌على الزّمان بكأس حشوها شفق

و قال آخر:

و أحمر اللّون كمحمرّ الشّفق و قال مجاهد: الشفق: النهار كله، ألا تراه قال: وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ و قال عكرمة: هو ما بقى من النهار، و إنما قالا هذا لقوله بعده: وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ فكأنه تعالى أقسم بالضياء و الظلام، و لا وجه لهذا، على أنه قد روى عن عكرمة أنه قال: الشفق: الّذى يكون بين المغرب و العشاء، و روى عن أسد بن عمرو الرجوع وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ الوسق عند أهل اللغة: ضمّ الشى‌ء بعضه إلى بعض، يقال: استوسقت الإبل؛ إذا اجتمعت و انضمّت، و الراعى يسقها، أى: يجمعها. قال الواحدى: المفسرون يقولون: و ما جمع و ضمّ و حوى و لف، و المعنى: أنه جمع و ضمّ ما كان منتشرا بالنهار فى تصرّفه، و ذلك أن الليل إذا أقبل آوى كل شى‌ء إلى مأواه، و منه قول ضابئ بن الحارث البرجمىّ:

فإنّى و إيّاكم و شوقا إليكم‌كقابض شيئا لم تنله أنامله «۲»

و قال عكرمة: وَ ما وَسَقَ أى: و ما ساق من شى‌ء إلى حيث يأوى، فجعله من السوق لا من الجمع، و قيل: وَ ما وَسَقَ أى: و ما جنّ و ستر، و قيل: «و ما وسق» أى: و ما حمل، و كل شى‌ء حملته فقد

---

(۱). هو العجاج.

(۲). فى تفسير القرطبى: كقابض ماء لم تسقه أنامله.

و سقته، و العرب تقول: لا أحمله ما وسقت عينى الماء، أى: حملته، و وسقت الناقة تسق وسقا، أى:

حملت. قال قتادة و الضحاك و مقاتل بن سليمان: وَ ما وَسَقَ و ما حمل من الظلمة، أو حمل من الكواكب. قال القشيرى: و معنى حمل: ضمّ و جمع، و الليل يحمل بظلمته كل شىء. و قال سعيد بن جبير:
وَ ما وَسَقَ أى: و ما عمل فيه من التهجد و الاستغفار بالأسحار، و الأوّل أولى وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ أى: اجتمع و تكامل. و قال الفراء: اتساقه امتلاؤه و اجتماعه و استواؤه ليلة ثالث عشر و رابع عشر إلى ست عشرة، و قد افتعل من الوسق الّذى هو الجمع. قال الحسن: اتسق: امتلأ و اجتمع. و قال قتادة: استدار، يقال: و سقته فاتّسق، كما يقال: وصلته فاتصل، و يقال: أمر فلان متّسق، أى: مجتمع منتظم، و يقال:
اتسق الشىء؛ إذا تتابع لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ هذا جواب القسم. قرأ حمزة و الكسائى و ابن كثير و أبو عمرو لَتَرْكَبَنَ بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد، و هو النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكل من يصلح له، و هى قراءة ابن مسعود و ابن عباس و أبى العالية و مسروق و أبى وائل و مجاهد و النخعى و الشعبى و سعيد بن جبير و قرأ الباقون بضم الموحدة خطابا للجمع و هم الناس. قال الشعبى و مجاهد: لتركبنّ يا محمد سماء بعد سماء. قال الكلبى: يعنى تصعد فيها، و هذا على القراءة الأولى، و قيل: درجة بعد درجة، و رتبة بعد رتبة، فى القرب من اللّه و رفعة المنزلة، و قيل: المعنى: لتركبنّ حالا بعد حال كل حالة منها مطابقة لأختها فى الشدّة، و قيل المعنى: لتركبنّ أيها الإنسان حالا بعد حال من كونك نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم حيا و ميتا و غنيا و فقيرا، فالخطاب للإنسان المذكور فى قوله: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً و اختار أبو عبيد و أبو حاتم القراءة الثانية قالا: لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و قرأ عمر «ليركبنّ» بالتحتية و ضم الموحدة على الإخبار، و روى عنه و عن ابن عباس أنهما قرأ بالغيبة و فتح الموحدة، أى: ليركبنّ الإنسان، و روى عن ابن مسعود و ابن عباس أنهما قرأ بكسر حرف المضارعة و هى لغة، و قرئ بفتح حرف المضارعة و كسر الموحدة على أنه خطاب للنفس. و قيل: إن معنى الآية: ليركبنّ القمر أحوالا- من سرار و استهلال، و هو بعيد. قال مقاتل: طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ يعنى الموت و الحياة. و قال عكرمة: رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شابّ ثم شيخ.
و محل عن طبق النصب على أنه صفة لطبقا أى طبقا مجاوزا لطبق، أو على الحال من ضمير لتركبنّ، أى:
مجاوزين، أو مجاوزا فَما لَهُمْ لا- يُؤْمِنُونَ الاستفهام للإنكار، و الفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار و التعجيب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة أو من غيرها على الاختلاف السابق، و المعنى: أىّ شىء للكفار لا يؤمنون بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و بما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ هذه الجملة الشرطية و جوابها فى محل نصب على الحال، أى: أى مانع لهم حال عدم سجودهم و خضوعهم عند قراءة القرآن؟ قال الحسن و عطاء و الكلبى و مقاتل: ما لهم لا يصلون؟ و قال أبو مسلم:
المراد الخضوع و الاستكانة. و قيل: المراد نفس السجود المعروف بسجود التلاوة. و قد وقع الخلاف هل هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا؟ و قد تقدّم فى فاتحة هذه السورة الدليل على السجود بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ أى: يكذبون بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و بما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد و البعث

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۹۶

و الثواب و العقاب وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ أى: بما يضمرونه فى أنفسهم من التكذيب، و قال مقاتل:
يكتمون من أفعالهم. و قال ابن زيد: يجمعون من الأعمال الصالحة و السيئة، مأخوذ من الوعاء الّذى يجمع ما فيه، و منه قول الشاعر:
الخير أبقى و إن طال الزمان بهو الشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

و يقـال: وعاه: حفظه، و وعيت الحـديث أعيه وعيا، و منه: أُذُنٌ واعِيَةٌ. فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ أى: اجعل ذلک بمنزلـة البشارة لهم؛ لأن علمه سبحانه بـذلک على الوجه المـذكور موجب لتعذيبهم، و الأليم: المؤلم الموجع، و الكلام خارج مخرج التهكّم بهم إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ هـذا الاسـتثناء منقطـع، أى: لكن الـذين جمعوا بين الإيمـان بـالله و العمل الصالح لهم أجر عند الله غير ممنون، أى: غير مقطوع، يقال: مننت الحبل؛ إذا قطعته، و منه قول الشاعر:

فترى خلفهنّ من سرعة الرّجع منينا كأنّه أهباء

قال المبرد: المنين: الغبار؛ لأنها تقطعه وراءها، و كل ضعيف منين و ممنون. و قيل: معنى غير ممنون أنه لا يمنّ عليهم به، و يجوز أن يكون الاستثناء متصلا إن أريد من آمن منهم.

و قـد أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ قال: تنشقّ السـماء من المجرّة. و أخرج ابن المنذر عن ابن عبـاس وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهـا وَ حُقَّتْ قـال: سـمعت حين كلمها. و أخرج ابن أبى حاتم عنه وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ قال: أطاعت و حقّت بالطّاعـة. و أخرج الحـاكم عنه و صـحّحه قـال: سـمعت و أطاعت وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ قال: يوم القيامـة وَ أَلْقَتْ ما فِيها قال: أخرجت ما فيها من الموتى وَ تَخَلَّتْ عنهم. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا وَ أَلْقَتْ ما فِيها قال: سوارى الذهب.

و أخرج الحاكم- قال السيوطى: بسند جيد- عن جابر قال: قال النبى صلّى الله عليه و سلّم: «تمدّ الأرض يوم القيامة مدّ الأديم، ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه».

و أخرج ابن جرير عن ابن عبـاس إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً قال: عامل عملا فَمُلاقِيهِ قال: فملاق عملك. و أخرج البخارى و مسـلم و غيرهما عن عائشة قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: «ليس أحد يحاسب إلا هلك، فقلت: أليس يقول الله: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً؟ قـال: ليس ذلـک بالحسـاب و لكن ذلـک العرض، و من نوقش الحسـاب هلك». و أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن عائشة قالت: سمعت رسول الله صلّى الله عليه و سلّم يقول فى بعض صلاته: «اللهم حاسبنى حسابا يسيرا، فلما انصرف قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟

قـال: أن ينظر فى كتـابه فيتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب هلك» و فى بعض ألفاظ الحـديث الأوّل و هـذا الحـديث الآخر: «من نوقش الحساب عذّب». و أخرج البزار، و الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى و الحاكم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: «ثلاث من كنّ فيه يحاسبه الله حسابا يسيرا و يدخله الجنة

فتح القدير، ج‏5، ص: 497

برحمته: تعطى من حرمـک، و تعفو عمن ظلمک، و تصل من قطعک». و أخرج ابن المنـذر عن ابن عباس فى قوله: يَدْعُوا ثُبُوراً قال: الويل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه: إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ قال: يبعث. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا أَنْ لَنْ يَحُورَ قـال: أن لن يرجع. و أخرج سـمويه فى فوائـده عن عمر بن الخطاب قال: الشـفق الحمرة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس مثله.

و أخرج عبـد الرزاق و ابن أبى حـاتم عن أبى هريرة قـال: الشـفق النهـار كله. و أخرج سـعيد بن منصور و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ قال: و ما دخل فيه. و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عنه وَ ما وَسَقَ قال: و ما جمع. و أخرج عبـد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ قال: إذا اسـتوى. و أخرج عبـد بن حميـد و ابن الأنبـارى من طرق عن ابن عبـاس أنه سـئل عن قوله: وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ قال: و ما جمع، أما سـمعت قوله:

إنّ لنا قلائصا نقانقامستوسقات لو يجدن سائقا

و أخرج عبد بن حميد عنه وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ قال: ليلة ثلاثة عشر. و أخرج عبد بن حميد عن عمر ابن الخطاب لَتَرْكَبُنَ قال: حالا بعد حال. و أخرج البخارى عن ابن عباس لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ حالا بعد حال، قال: هذا نبيكم صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج أبو عبيد فى القراءات و سعيد بن منصور و ابن منيع و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ يعنى بفتح الباء من تركبنّ. و قال: يعنى نبيكم صلّى اللّه عليه و سلّم حالا بعد حال. و أخرج الطيالسى و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و الطبرانى عنه قال: لَتَرْكَبُنَ يا محمد السماء طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم فى الكنى، و الطبرانى و ابن مندة و ابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ: لَتَرْكَبُنَ يعنى بفتح الباء. و قال: لتركبنّ يا محمد سماء بعد سماء. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عنه لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ قال: يعنى السماء تنفطر، ثم تنشق، ثم تحمرّ. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و البيهقى عنه أيضا فى الآية قال: السماء تكون كالمهل، و تكون وردة كالدّهان، و تكون واهية، و تشقق فتكون حالا بعد حال. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ قال: يسرّون.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۹۸

سورة البروج

اشارة

هى اثنتان و عشرون آية، و هى مكية بلا خلاف، و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ بمكة. و أخرج أحمد قال: حدّثنا عبد الصمد، حدّثنا رزيق بن أبى سلمى، حدّثنا أبو المهزّم، عن أبى هريرة: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ فى العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، و السماء و الطارق. و أخرج الطيالسى، و ابن أبى شيبة فى المصنف، و أحمد و الدارمى و أبو داود، و الترمذى و حسنه، و النسائى و ابن حبان و الطبرانى، و البيهقى فى سننه، عن جابر بن سمرة: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ فى الظهر و العصر بالسماء و الطارق، و السماء ذات البروج.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة البروج (۸۵): الآيات ۱ الى ۲۲]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ (۱) وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (۲) وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ (۳) قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ (۴)
النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ (۵) إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ (۶) وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (۷) وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۸) الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۹)
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ (۱۰) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (۱۱) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (۱۲) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ (۱۳) وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (۱۴)

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (۱۵) فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (۱۶) هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (۱۷) فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ (۱۸) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (۱۹)

وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ (۲۰) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (۲۱) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (۲۲)

قوله: وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ قد تقدّم الكلام فى البروج عند تفسير قوله: جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً «۱» قال الحسن و مجاهد و قتادة و الضحاك: هى النجوم، و المعنى: و السماء ذات النجوم. و قال عكرمة و مجاهد أيضا: هى قصور فى السماء. و قال المنهال بن عمرو: ذات الخلق الحسن. و قال أبو عبيدة و يحيى بن سلام و غيرهما: هى المنازل للكواكب، و هى اثنا عشر برجا لاثنى عشر كوكبا، و هى الحمل، و الثّور، و الجوزاء، و السّرطان، و الأسد، و السّنبلة، و الميزان، و العقرب، و القوس، و الجدى، و الدلو، و الحوت. و البروج فى كلام العرب: القصور: و منه قوله: وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ «۲» شبهت منازل هذه النجوم بالقصور لكونها تنزل فيها، و قيل: هى أبواب السماء، و قيل: هى منازل القمر، و أصل

---

(۱). الفرقان: ۶۱.

(۲). النساء: ۷۸.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۹۹

البرج: الظهور، سمّيت بذلك لظهورها وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ أى: الموعود به، و هو يوم القيامة. قال الواحدى: فى قول جميع المفسرين وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ المراد بالشاهد من يشهد فى ذلك اليوم من الخلائق، أى: يحضر فيه، و المراد بالمشهود ما يشاهد فى ذلك اليوم من العجائب و ذهب جماعة من الصحابة و التابعين إلى أن الشاهد يوم الجمعة، و أنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه، و المشهود: يوم عرفة؛ لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج، و تحضره الملائكة. قال الواحدى: و هذا قول الأكثر. و حكى القشيرى عن ابن عمر و ابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى. و قال سعيد بن المسيب: الشاهد: يوم التروية، و المشهود: يوم عرفة.

و قال النخعي: الشاهد: يوم عرفة، و المشهود: يوم النحر، و قيل: الشاهد: هو اللّه سبحانه. و به قال الحسن و سعيد بن جبير، لقوله: وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً* و قوله: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ «۱» و قيل: الشاهد: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم لقوله: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً «۲» و قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً «۳» و قوله: وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً «۴» و قيل: الشاهد: جميع الأنبياء لقوله: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ «۵» و قيل: هو عيسى ابن مريم لقوله: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ «۶» و المشهود على هذه الأقوال الثلاثة إما: أمة محمد، أو: أمم الأنبياء، أو: أمة عيسى. و قيل: الشاهد آدم. و المشهود ذريته.

و قال محمد بن كعب: الشاهد: الإنسان لقوله: كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً «۷» و قال مقاتل:

أعضاؤه لقوله: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ «۸» و قال الحسين بن الفضل: الشاهد: هذه الأمة، و المشهود: سائر الأمم لقوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ «۹» و قيل: الشاهد: الحفظة، و المشهود: بنو آدم، و قيل: الأيام و الليالى. و قيل: الشاهد:

الخلق يشهدون للّه عزّ و جلّ بالوحدانية، و المشهود له بالوحدانية: هو اللّه سبحانه، و سيأتى بيان ما ورد فى تفسير الشاهد و المشهود، و بيان ما هو الحقّ إن شاء اللّه قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ هذا جواب القسم، و اللام فيه مضمرة، و هو الظاهر، و به قال الفراء و غيره، و قيل تقديره: لقد قتل، فحذفت اللام و قد، و على هذا تكون الجملة خبرية، و الظاهر أنها دعائية؛ لأن معنى قتل لعن. قال الواحدى: فى قول الجميع، و الدعائية لا تكون جوابا للقسم، فقيل: الجواب قوله: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ و قيل: قوله:

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ و به قال المبرد، و اعترض عليه بطول الفصل، و قيل: هو مقدّر يدلّ عليه قوله: قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ كأنه قال: أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود، و قيل: تقدير الجواب: لتبعثنّ، و اختاره ابن الأنبارى. و قال أبو حاتم السجستانى و ابن الأنبارى أيضا: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: قتل أصحاب الأخدود و السماء ذات البروج، و اعترض عليه بأنه لا يجوز أن

---

(۱). الأنعام: ۱۹.

(۲). النساء: ۴۱.

(۳). الأحزاب: ۴۵.

(۴). البقرة: ۱۴۳.

(۵). النساء: ۴۱.

(۶). المائدة: ۱۱۷.

(۷). الإسراء: ۱۴.

(۸). النور: ۲۴.

(۹). البقرة: ۱۴۳.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۵۰۰

فتح القدير ج‏۵ ۵۴۹

يقال: و اللّه قام زيد، و الأخدود: الشقّ العظيم المستطيل فى الأرض كالخندق، و جمعه أخاديد، و منه الخدّ لمجارى الدموع، و المخدة لأن الخد يوضع عليها، و يقال: تخدّد وجه الرجل؛ إذا صارت فيه أخاديد من خراج، و منه قول طرفة:

و وجه كأنّ الشمس ألقت رداءهاعليه نقىّ اللون لم يتخدّد

و سيأتى بيان حديث أصحاب الأخدود إن شاء اللّه. قرأ الجمهور: النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ بجر النار على أنها بدل اشتمال من الأخدود؛ لأن الأخدود مشتمل عليها، و ذات الوقود وصف لها بأنها نار عظيمة، و الوقود: الحطب الّذى توقد به، و قيل: هو بدل كل من كل، لا بدل اشتمال. و قيل: إن النار مخفوضة على الجوار، كذا حكى مكى عن الكوفيين. و قرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود، و قرأ قتادة و أبو رجاء و نصر ابن عاصم بضمها. و قرأ أشهب العقيلى و أبو حيوة و أبو السّمّال العدوى و ابن السّميقع و عيسى برفع النار على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: هى النار، أو على أنها فاعل فعل محذوف، أى: أحرقتهم النار إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ العامل فى الظرف «قتل» أى: لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين على ما يدنو منها، و يقرب إليها.

قال مقاتل: يعنى عند النار قعود يعرضونهم على الكفر. و قال مجاهد: كانوا قعودا على الكراسى عند الأخدود وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ أى: الذين خدّوا الأخدود، و هم الملك و أصحابه، على ما يفعلون بالمؤمنين من عرضهم على النار ليرجعوا إلى دينهم شهود، أى: حضور، أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به. و قيل: يشهدون بما فعلوا يوم القيامة، ثم تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم.

و قيل: على بمعنى مع، و التقدير: و هم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود. قال الزجاج: أعلم اللّه قصة قوم بلغت بصيرتهم و حقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار فى اللّه وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ أى: ما أنكروا عليهم و لا عابوا منهم إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ أى: إلا أن صدّقوا باللّه الغالب المحمود فى كل حال.

قال الزجاج: ما أنكروا عليهم ذنبا إلا إيمانهم، و هـذا كقوله: هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ «۱» و هذا من تأكيد المدح بما يشبه الذّمّ، كما فى قوله:

لا عيب فيهم سوى أنّ النزيل بهميسلو عن الأهل و الأوطان و الحشم

و قول الآخر:

و لا عيب فيها غير شكلة عينهاكذاك عتاق الطّير شكل عيونها

قرأ الجمهور: نَقَمُوا بفتح النون، و قرأ أبو حيوة بكسرها، و الفصيح الفتح. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدلّ على العظم و الفخامة فقال: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و من كان هـذا شأنه، فهو حقيق بأن يؤمن به و يوحد وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ من فعلهم بالمؤمنين لا يخفى عليه منهم خافية،

---

(۱). المائدة: ۵۹.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۰۱

و فى هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود، و وعد خير لمن عذّبوه على دينه من أولئك المؤمنين. ثم بيّن سبحانه ما أعدّ لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق فقال: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ أى: حرقوهم بالنار، و العرب تقول: فتنت الشي‌ء، أى:

أحرقته، و فتنت الدرهم و الدينار؛ إذا أدخلته النار لتنظر جودته. و يقال: دينار مفتون، و يسمّى الصائغ:

الفتان، و منه قوله: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ «۱» أى: يحرقون، و قيل: معنى فتنوا المؤمنين: محنوهم فى دينهم ليرجعوا عنه، ثم لم يتوبوا من قبيح صنعهم و يرجعوا عن كفرهم و فتنتهم، فلهم عذاب جهنم، أى:

لهم فى الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم، و الجملة فى محل رفع على أنها خبر إن؛ أو الخبر: لهم، و عذاب جهنم مرتفع به على الفاعلية، و الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، و لا يضرّ نسخه بأنّ، خلافا للأخفش، وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ ى: و لهم عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم، و هو عذاب الحريق الّذى وقع منهم للمؤمنين، و قيل: إن الحريق اسم من أسماء النار ك السعير، و قيل: إنهم يعذبون فى جهنم بالزمهرير ثم يعذبون بعذاب الحريق؛ فالأوّل: عذاب ببردها، و الثانى: عذاب بحرّها. و قال الربيع بن أنس: إن عذاب الحريق أصيبوا به فى الدنيا، و ذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك و أصحابه فأحرقتهم، و به قال الكلبى. ثم ذكر سبحانه ما أعدّ للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ و ظاهر الآية العموم، فيدخل فى ذلك المحرقون فى الأخدود بسبب إيمانهم دخولا أوّليا، و المعنى: أن الجامعين بين الإيمان و عمل الصالحات لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أى: لهم بسبب الإيمان و العمل الصالح جنات متصفة بهذه الصفة. و قد تقدّم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات فى غير موضع، و أوضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار فجرى الأنهار من تحتها واضح، و إن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر و هو الشجر لأنها ساترة لساحتها، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره مما أعدّه اللّه لهم، أى: ذلك المذكور الْفَوْزُ الْكَبِيرُ الّذى: لا يعدله فوز و لا يقاربه و لا يدانيه، و الفوز: الظفر بالمطلوب، و جملة إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ مستأنفة لخطاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم مبينة لما عند اللّه سبحانه من الجزاء لمن عصاه، و المغفرة لمن أطاعه، أى: أخذه للجبابرة و الظلمة شديد، و البطش: الأخذ بعنف، و وصفه بالشدّة يدل على أنه قد تضاعف و تفاقم، و مثل هذه قوله: إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ «۲» إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ أى: يخلق الخلق أوّلا فى الدنيا و يعيدهم أحياء بعد الموت. كذا قال الجمهور، و قيل: يبدئ للكفار عذاب الحريق فى الدنيا ثم يعيده لهم فى الآخرة، و اختار هذا ابن جرير، و الأوّل أولى وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ

أی: بالغ المغفرة لـذنوب عباده المؤمنين لا يفضـحهم بها، بالغ المحبـة للمطيعين من أوليائه. قال مجاهـد: الوادّ لأوليائه، فهو فعول بمعنى فاعل. و قال ابن زيد: معنى الودود الرّحيم. و حكى المبرد عن إسماعيل القاضى أن الودود هو الّذى لا ولد له، و أنشد:

---

(١). الذاريات: ١٣.

(٢). هود: ١٠٢.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٠٢
و أركب فى الرّوع عريانةذلول الجناح لقاحا ودودا

أی: لا ولـد لها تحنّ إليه. و قيل: الودود بمعنى المودود، أی: يودّه عباده الصالحون و يحبونه، كذا قال الأزهرى. قال: و يجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل، أی: يكون محبا لهم. قال: و كلتا الصفتين مدح، لأنه جلّ ذكره إن أحبّ عباده المطيعين فهو فضل منه، و إن أحبه عباده العارفون فلما تقرّر عنـدهم من كريم إحسانه. قرأ الجمهور ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ برفع المجيـد على أنه نعت لذو، و اختار هـذه القراءة أبو عبيـد و أبو حاتم قالا: لأن المجـد هو النهايـة فى الكرم و الفضل، و اللّه سـبحانه هو المنعوت بذلک. و قرأ الكوفيون إلا عاصما بالجر على أنه نعت للعرش. و قد وصف سبحانه عرشه بالكرم كما فى آخر سورة المؤمنون. و قيل:

هو نعت لربک، و لا يضرّ الفصل بينهما لأنها صفات للّه سبحانه. و قال مكى: هو خبر بعد خبر، و الأوّل أولى. و معنى ذو العرش: ذو الملک و السلطان كما يقال: فلان على سرير ملكه، و منه قول الشاعر:

رأوا عرشى تثلّم جانباهفلمّا أن تثلّم أفردونى

و قول الآخر:

إن يقتلوک فقد ثللت عروشهمبعتيبة بن الحارث بن شهاب

و قيل: المراد خالق العرش فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ أی: من الإبداء و الإعادة. قال عطاء: لا يعجز عن شـىء يريده و لا يمتنع منه شـىء طلبه، و ارتفاع «فعال» على أنه خبر مبتـدأ محـذوف. قال الفراء: هو رفع على التكرير و الاستئناف، لأنه نكرة محضة، قال ابن جرير: رفع «فعال»، و هو نكرة محضـة على وجه الإتباع لإعراب الغفور الودود، و إنما قال: فعال لأن ما يريد و يفعل فى غاية الكثرة. ثم ذكر سبحـانه خبر الجموع الكـافرة فقال: هَلْ أَتاکَ حَدِيثُ الْجُنُودِ و الجملـة مسـتأنفة مقرّرة لما تقـدّم بطشه سـبحانه و كونه فعالا لما يريـده، و فيه تسليـة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أی: هل أتاک يا محمـد خبر الجموع الكافرة المكذبـة لأنبيائهم المتجندة عليها.

ثم بينهم فقـال: فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ و هـو بـدل من الجنـود، و المراد بفرعـون هـو و قـومه، و المراد بثمود القوم المعروفون، و المراد بحديثهم ما وقع منهم من الكفر و العناد و ما وقع عليهم من العذاب، و قصتهم مشهورة قد تكرّر فى الكتاب العزيز ذكرها فى غير موضع، و اقتصر على الطائفتين لاشـتهار أمرهما عند أهل الكتاب و عند مشـركى العرب و دلّ بهما على أمثالهما. ثم أضرب عن مماثلـة هؤلاء الكفار الموجودين فى عصره صلّى اللّه عليه و سلّم لمن تقـدّم ذكره، و بين أنهم أشدّ منهم فى الكفر و التكذيب فقال: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِی تَكْذِيبٍ أی بل هؤلاء المشـركون من العرب فى تكذيب شديد لک، و لما جئت به، و لم يعتبروا بمن كـان قبلهم من الكفـار وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ أی: يقـدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئک، و الإحاطـة بالشـىء: الحصـر له من جميع جوانبه، فهو تمثيل لعـدم نجـاتهم بعـدم فوت المحاط به على المحيط. ثم ردّ سـبحانه تكـذيبهم بالقرآن فقال بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ أی: متناه فى الشـرف و الكرم و البركـة لكونه بيانا لما شـرعه اللّه لعباده من أحكام الدّين و الدنيا، و ليس هو كما يقولون إنه شعر و كهانة و سحر فِی لَوْحٍ مَحْفُوظٍ أی: مكتوب فى لوح، و هو أمّ الكتاب

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٠٣

محفوظ عند اللّه من وصول الشياطين إليه. قرأ الجمهور محفوظ بالجرّ على أنه نعت للوح و قرأ نافع برفعه على أنه نعت للقرآن، أى: بل هو قرآن مجيد محفوظ فى لوح. و اتفق القراء على فتح اللام من لوح إلا يحيى بن يعمر و ابن السّميقع فإنهما قرءا بضمها. قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. قيل: و المراد باللوح بضم اللام: الهواء الّذى فوق السماء السابعة. قال أبو الفضل: اللوح بضم اللام: الهواء، و كذا قال ابن خالويه. قال فى الصحاح: اللوح بالضم: الهواء بين السماء و الأرض.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الْبُرُوجِ قصور فى السماء. و أخرج ابن مردويه عن جابر ابن عبد اللّه أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم سئل عن السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ فقال: الكواكب، و سئل عن قوله: الَّذِى جَعَلَ فِى السَّماءِ بُرُوجاً «١» قال: الكواكب، و عن قوله: فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ «٢» قال: القصور.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ- وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ قال: اليوم الموعود:

يوم القيامة، و الشاهد: يوم الجمعة، و المشهود: يوم عرفة، و هو الحج الأكبر، فيوم الجمعة جعله اللّه عيدا لمحمد و أمته، و فضّله بها على الخلق أجمعين، و هو سيد الأيام عند اللّه، و أحبّ الأعمال فيه إلى اللّه، و فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلى يسأل اللّه فيها خيرا إلا أعطاه إياه. و أخرج عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن أبى هريرة. قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«اليوم الموعود يوم القيامة، و اليوم المشهود يوم عرفة، و الشاهد يوم الجمعة، و ما طلعت الشمس و لا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو اللّه بخير إلا استجاب اللّه له، و لا يستعيذ من شىء إلا أعاذه منه». و أخرج الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرة رفعه: وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ قال: «الشاهد يوم عرفة و يوم الجمعة، و المشهود هو الموعود يوم القيامة». و أخرج عبد ابن حميد و ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال: اليوم الموعود: يوم القيامة، و المشهود: يوم النحر، و الشاهد: يوم الجمعة. و أخرج ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه من طريق شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «اليوم الموعود: يوم القيامة، و الشاهد: يوم الجمعة، و المشهود:

يوم عرفة». و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر عن جبير بن مطعم قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية:

«الشاهد: يوم الجمعة، و المشهود: يوم عرفة». و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس و أبى هريرة مثله موقوفا. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن سيد الأيام يوم الجمعة و هو الشاهد، و المشهود: يوم عرفة» و هذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب. و أخرج ابن ماجة و الطبرانى و ابن جرير عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«أكثروا من الصلاة علىّ يوم الجمعة؛ فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة». و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب فى الآية قال: الشاهد: يوم الجمعة، و المشهود:

---

(١). الفرقان: ٦١.

(٢). النساء: ٧٨.

يوم عرفة. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن الحسن بن علىّ أن رجلا سأله عن قوله: وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ قال: هل سألت أحدا قبلى؟ قال: نعم سألت ابن عمرو و ابن الزبير فقالا: يوم الذبح و يوم الجمعة. قال:

لا، و لكن الشاهد محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم قرأ: وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً «١» و المشهود: يوم القيامة، ثم قرأ: ذلِكَ

يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ «۲». و أخرج عبد بن حميد، و الطبرانى فى الأوسط و الصغير، و ابن مردويه عن الحسين بن علىّ فى الآية قال: الشاهد: جدّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و المشهود:

يوم القيامة، ثم تلا: إِنّٰا أَرْسَلْنٰاكَ شٰاهِداً* «۳» وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ «۴». و أخرج عبد بن حميد و النسائى و ابن أبى الدنيا و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و ابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال:

اليوم الموعود: يوم القيامة، و الشاهد: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و المشهود: يوم القيامة، ثم تلا: ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ. و أخرج ابن جرير عنه قال: الشاهد: اللّه، و المشهود: يوم القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الشاهد: اللّه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال:

الشاهد: اللّه، و المشهود: يوم القيامة.

قلت: و هذه التفاسير عن الصحابة رضى اللّه عنهم قد اختلفت كما ترى، و كذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم، و استدلّ من استدلّ منهم بآيات ذكر اللّه فيها أن ذلك الشىء شاهد أو مشهود، فجعله دليلا على أنه المراد بالشاهد و المشهود فى هذه الآية المطلقة، و ليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد و المشهود المذكورين فى هذا المقام هو ذلك الشاهد و المشهود الّذى ذكر فى آية أخرى، و إلّا لزم أن يكون قوله هنا:

وَ شٰاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ هو جميع ما أطلق عليه فى الكتاب العزيز أو السنة المطهرة أنه يشهد أو أنه مشهود، و ليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض، و لم يقل قائل بذلك. فإن قلت: هل فى المرفوع الّذى ذكرته من حديثى أبى هريرة، و حديث أبى مالك، و حديث جبير بن مطعم و مرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود، و الشاهد و المشهود؟ قلت: أما اليوم الموعود فلم تختلف هذه الروايات التى ذكر فيها، بل اتفقت على أنه يوم القيامة، و أما الشاهد ففى حديث أبى هريرة الأوّل أنه يوم الجمعة، و فى حديثه الثانى أنه يوم عرفة و يوم الجمعة، و فى حديث أبى مالك أنه يوم الجمعة، و فى حديث جبير أنه يوم الجمعة، و فى مرسل سعيد أنه يوم الجمعة، فاتفقت هذه الأحاديث عليه، و لا تضرّ زيادة يوم عرفة فى حديث أبى هريرة الثانى؛ و أما المشهود ففى حديث أبى هريرة الأوّل أنه يوم عرفة، و فى حديثه الثانى أنه يوم القيامة، و فى حديث أبى مالك أنه يوم عرفة، و فى حديث جبير بن مطعم أنه يوم عرفة، و كذا فى حديث سعيد فقد تعين فى هذه الروايات أنه يوم عرفة، و هى أرجح من تلك الرواية التى صرح فيها بأنه يوم القيامة، فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة و التابعين و من بعدهم أن الشاهد يوم الجمعة و المشهود يوم عرفة، و أما اليوم الموعود فقد قدّمنا أنه وقع الإجماع على أنه يوم القيامة.

---

(۱). النساء: ۴۱.

(۲). هود: ۱۰۳.

(۳). الأحزاب: ۴۵.

(۴). هود: ۱۰۳.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۰۵

و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و مسلم و الترمذى و النسائى و الطبرانى عن صهيب أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم، و كان لذلك الملك كاهن يكهن له فقال له ذلك الكاهن: انظروا لى غلاما فهما، أو قال فطنا لقنا فأعلمه علمى، فإنى أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم و لا يكون فيكم من يعلمه، قال: فنظروا له على ما وصف، فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن و أن يختلف إليه، فجعل الغلام يختلف إليه، و كان على

طريق الغلام راهب فى صومعة، فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مرّ به، فلم يزل به حتى أخبره فقال: إنما أعبد اللّه، فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب و يبطئ على الكاهن، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرنى، فأخبر الغلام الراهب بذلك، فقال له الراهب: إذا قال لك أين كنت؟ فقل عند أهلى، و إذا قال لك أهلك أين كنت؟ فأخبرهم أنى كنت عند الكاهن، فبينما الغلام على ذلك إذ مرّ بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة، يقال: إنها كانت أسدا، فأخذ الغلام حجرا فقال: اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقا فأسألك أن أقتل هذه الدابة، و إن كان ما يقول الكاهن حقا فأسألك أن لا أقتلها، ثم رمى فقتل الدابة، فقال الناس: من قتلها؟ فقالوا: الغلام، ففزع الناس و قالوا: قد علم هذا الغلام علما لم يعلمه أحد، فسمع أعمى فجاءه فقال له: إن أنت رددت علىّ بصرى فلك كذا و كذا، فقال الغلام: لا أريد منك هذا، و لكن أ رأيت إن رجع عليك بصرك أ تؤمن بالذى ردّه عليك؟ قال: نعم، فدعا اللّه فردّ عليه بصره فآمن الأعمى، فبلغ الملك أمرهم فبعث إليه فأتى بهم فقال: لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه، فأمر بالراهب و الرجل الّذى كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله، و قتل الآخر بقتلة أخرى، ثم أمر بالغلام فقال: انطلقوا به إلى جبل كذا و كذا فألقوه من رأسه، فانطلقوا به إلى ذلك الجبل، فلما انتهوا إلى ذلك المكان الّذى أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل و يترددون حتى لم يبق منهم إلا الغلام، ثم رجع الغلام فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه، فانطلقوا به إلى البحر، فغرّق اللّه الذين كانوا معه و أنجاه، فقال الغلام للملك: إنك لن تقتلنى حتى تصلبنى و ترمينى و تقول إذا رميتنى: بسم اللّه رب الغلام، فأمر به فصلب ثم رماه و قال: بسم اللّه رب الغلام، فوقع السهم فى صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ثم مات، فقال الناس: لقد علم هذا الغلام علما ما علمه أحد، فإنا نؤمن بربّ هذا الغلام، فقيل للملك: أ جزعت أن خالفك ثلاثة؟ فهذا العالم كلهم قد خالفوك، قال: فخدّ أخدودا ثم ألقى فيه الحطب و النار، ثم جمع الناس فقال: من رجع عن دينه تركناه، و من لم يرجع ألقيناه فى هذه النار، فجعل يلقيهم فى تلك الأخدود: فقال: يقول اللّه: قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ- النّارِ ذاتِ الْوَقُودِ حتى بلغ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».

فأما الغلام فإنه دفن، ثم أخرج، فيذكر أنه أخرج فى زمن عمر بن الخطاب و إصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل. و لهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف. و قد رواها مسلم فى أواخر الصحيح عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرّحمن بن أبى ليلى عن صهيب. و أخرجها أحمد من طريق عفان عن

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۰۶

حماد به. و أخرجها النسائى عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به. و أخرجها الترمذى عن محمود بن غيلان و عبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: أَصْحابُ الْأُخْدُودِ قال: هم الحبشة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: هم ناس من بنى إسرائيل خدّوا أخدودا فى الأرض أوقدوا فيها نارا، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالا و نساء، فعرضوا عليها. و أخرج ابن المنذر و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ إلى قوله: وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ قال: هذا قسم على إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إلى آخرها. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ قال: يبدئ العذاب و يعيده. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: الْوَدُودُ قال: الحبيب، و فى قوله: ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ قال: الكريم. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ قال: أخبرت أنه لوح الذكر لوح واحد فيه الذكر. و إن ذلك اللوح من نور، و إنه مسيرة ثلاثمائة سنة. و أخرج ابن جرير عن أنس قال: إن اللوح المحفوظ الّذى ذكره اللّه فى قوله:

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ- فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ فى جبهة إسرافيل. و أخرج أبو الشيخ- قال السيوطى: بسند جيد- عن ابن عباس قال: خلق

اللّه اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق:

اكتب علمى فى خلقى، فجرى ما هو كائن إلى يوم القيامة. ا ه.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۰۷

سورة الطّارق

اشارة

هى سبع عشرة آية، و هى مكية بلا خلاف، و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت و السماء و الطارق بمكة، و أخرج أحمد، و البخارى فى تاريخه، و الطبرانى و ابن مردويه عن خالد العدوانى: «أنه أبصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى سوق ثقيف و هو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغى النصر عندهم، فسمعه يقرأ: وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ حتى ختمها، قال: فوعيتها فى الجاهلية، ثم قرأتها فى الإسلام، قال: فدعتنى ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل، فقرأتها، فقال من معهم من قريش:

نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الطارق (۸۶): الآيات ۱ الى ۱۷]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ (۱) وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ (۲) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (۳) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (۴)

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (۵) خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ (۶) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ (۷) إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ (۸) يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ (۹)

فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ (۱۰) وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ (۱۱) وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ (۱۲) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (۱۳) وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ (۱۴)

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (۱۵) وَ أَكِيدُ كَيْداً (۱۶) فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (۱۷)

أقسم سبحانه بالسماء و الطارق، و هو النجم الثاقب كما صرح به التنزيل قال الواحدى: قال المفسرون:

أقسم اللّه بالسماء و الطارق، يعنى الكواكب تطرق بالليل و تخفى بالنهار. قال الفرّاء: الطارق: النجم لأنه يطلع بالليل، و ما أتاك ليلا فهو طارق. و كذا قال الزجاج و المبرد: و منه قول امرئ القيس:

و مثلك حبلى قد طرقت و مرضعافألهيتها عن ذى تمائم محول «۱»

و قوله أيضا:

ألم تريانى كلّما جئت طارقاوجدت بها طيبا و إن لم تطيّب

و قد اختلف فى الطارق هل هو نجم معين أو جنس النجم؟ فقيل: هو زحل، و قيل: الثريا، و قيل:

هو الّذى ترمى به الشياطين. و قيل: هو جنس النجم. قال فى الصحاح: و الطارق: النجم الّذى يقال له كوكب الصبح، و منه قول هند بنت عتبة:

نحن بنات طارقنمشى على النّمارق

(۱). «التمائم»: التعاويذ التى تعلق فى عنق الصبى. و ذو التمائم: هو الصبى. «المحول»: الّذى أتى عليه الحول.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۰۸

أى: إن أبانا فى الشرف كالنجم المضىء، و أصل الطروق: الدقّ، فسمّى قاصد الليل طارقا لاحتياجه فى الوصول إلى الدق. و قال قوم: إن الطروق قد يكون نهارا، و العرب تقول: أتيتك اليوم طرقتين، أى:

مرتين، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «أعوذ بك من شرّ طوارق الليل و النهار إلا طارقا يطرق بخير». ثم بيّن سبحانه ما هو الطارق، تفخيما لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال: وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ- النَّجْمُ الثَّاقِبُ الثاقب: المضىء، و منه يقال: ثقب النجم ثقوبا و ثقابة؛ إذا أضاء، و ثقوبه: ضوءه، و منه قول الشاعر:

أذاع به فى النّاس حتّى كأنّهبعلياء نار أوقدت بثقوب

قال الواحدى: الطارق يقع على كل ما طرق ليلا، و لم يكن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يدرى ما المراد به لو لم يبينه بقوله: النَّجْمُ الثَّاقِبُ قال مجاهد: الثاقب: المتوهّج. قال سفيان: كل ما فى القرآن وَ ما أَدْراكَ* فقد أخبره [به «۱»، و كل شىء قال: وَ ما يُدْرِيكَ* لم يخبره به، و ارتفاع قوله: النَّجْمُ الثَّاقِبُ على أنه خبر مبتدأ محذوف، و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر نشأ مما قبله، كأنه قيل: ما هو؟ فقيل: هو النجم الثاقب إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ هذا جواب القسم، و ما بينهما اعتراض، و قد تقدّم فى سورة هود اختلاف القرّاء فى لَمَّا فمن قرأ بتخفيفها كانت إن هنا هى المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدّر، و هو اسمها، و اللام هى الفارقة، و «ما» مزيدة، أى: إن الشأن كل نفس لعليها حافظ، و من قرأ بالتشديد فإن نافية، و لما بمعنى إلا، أى: ما كل نفس إلا عليها حافظ، و قد قرأ هنا بالتشديد ابن عامر و عاصم و حمزة. و قرأ الباقون بالتخفيف. قيل: و الحافظ: هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها و قولها و فعلها، و يحصون ما تكسب من خير و شرّ، و قيل: الحافظ هو اللّه عزّ و جلّ، و قيل: هو العقل يرشدهم إلى المصالح، و يكفّهم عن المفاسد. و الأوّل أولى لقوله: وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ «۲» و قوله: وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً «۳» و قوله: لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ «۴» و الحافظ على الحقيقة هو اللّه عزّ و جلّ كما فى قوله: فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً «۵» و حفظ الملائكة من حفظه لأنهم بأمره فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ الفاء للدلالة على أن كون على كل نفس حافظ يوجب على الإنسان أن يتفكر فى مبتدأ خلقه؛ ليعلم قدرة اللّه على ما هو دون ذلك من البعث. قال مقاتل: يعنى المكذّب بالبعث مِمَّ خُلِقَ من أى شىء خلقه اللّه، و المعنى: فلينظر نظر التفكر و الاستدلال حتى يعرف أن الّذى ابتدأه من نطفة قادر على إعادته.

ثم بين سبحانه ذلك فقال: خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و الماء: هو المنى، و الدفق: الصبّ، يقال: دفقت الماء، أى: صببته، يقال: ماء دافق، أى: مدفوق، مثل: عِيشَةٍ راضِيَةٍ* «۶» أى: مرضية. قال الفرّاء و الأخفش: ماء دافق. أى مصبوب فى الرحم. قال الفرّاء: و أهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول فى كثير من كلامهم، كقولهم: سرّ كاتم، أى: مكتوم، و همّ ناصب،

(۱). من تفسير القرطبى (۲۰/ ۳)

(۲). الانفطار: ۱۰.

(۳). الأنعام: ۶۱.

(۴). الرعد: ۱۱.

(۵). يوسف: ۶۴.

(۶). القارعة: ۷.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۰۹

أى: منصوب، و ليل نائم و نحو ذلك. قال الزجاج: من ماء ذى اندفاق، يقال: دارع و قايس و نابل، أى:
ذو درع و قوس و نبل، و أراد سبحانه ماء الرجل و المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماء واحدا لامتزاجهما، ثم وصف هذا الماء فقال: يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ أى: صلب الرجل، و ترائب المرأة، و الترائب: جمع تريبة، و هى موضع القلادة من الصدر، و الولد لا يكون إلا من الماءين. قرأ الجمهور:
يَخْرُجُ مبنيا للفاعل. و قرأ ابن أبى عبلة و ابن مقسم مبنيا للمفعول. و فى الصلب، و هو الظهر، لغات.
قرأ الجمهور بضم الصاد و سكون اللام، و قرأ أهل مكة بضم الصاد و اللام. و قرأ اليمانى بفتحهما، و يقال:
صالب على وزن قالب. و منه قول العباس بن عبد المطلب:
تنقل من صالب إلى رحم «۱» فى أبياته المشهورة فى مدح النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و قد تقدّم كلام فى هذا عند تفسير قوله:
الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ «۲» و قيل: الترائب: ما بين الثديين. و قال الضحاك: ترائب المرأة: اليدين و الرجلين و العينين.
و قال سعيد بن جبير: هى الجيد. و قال مجاهد: هى ما بين المنكبين و الصدر. و روى عنه أيضا أنه قال:
هى الصدر، و روى عنه أيضا أنه قال: هى التراقى. و حكى الزجاج: أن الترائب عصارة القلب، و منه يكون الولد، و المشهور فى اللغة أنها عظام الصّدر و النّحر، و منه قول دريد بن الصّمة:

فإن تدبروا نأخذكم فى ظهوركمو إن تقبلوا نأخذكم فى التّرائب

قال عكرمة: الترائب: الصدر، و أنشد:
نظام درّ على ترائبها قال فى الصّحاح: التريبة: واحدة الترائب، و هى عظام الصدر. قال أبو عبيدة: جمع التريبة تريب، و منه قول المثقّب العبدى:

و من ذهب يلوح على تريب كلون العاج ليس بذى غضون

و قول امرئ القيس:
ترائبها مصقولة كالسّجنجل «۳» و محكى الزجاج: أن الترائب أربع أضلاع من يمنة الصدر، و أربع أضلاع من يسرة الصدر. قال قتادة و الحسن: المعنى و يخرج من صلب الرجل و ترائب المرأة. و حكى الفرّاء أن مثل هذا يأتى عن العرب يكون

---

(۱). و تمام البيت: إذا مضى عالم بدا طبق.

(۲). النساء: ۲۳.

(۳). و صدر البيت: مهفهفة بيضاء غير مفاضة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۱۰

معنى من بين الصلب، و من الصلب، و قيل: إن ماء الرجل ينزل من الدماغ، و لا يخالف هذا ما فى الآية لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من بين الصلب و الترائب، و قيل: إن المعنى: يخرج من جميع أجزاء البدن، و لا يخالف هذا ما فى الآية، لأن نسبة خروجه إلى بين الصلب و الترائب باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هى الصلب و الترائب و ما يجاورها و ما فوقها مما يكون تنزله منها إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ الضمير فى إنه يرجع إلى اللّه سبحانه لدلالة قوله: خُلِقَ عليه، فإن الّذى خلقه هو اللّه سبحانه، و الضمير فى رجعه

عائد إلى الإنسان، و المعنى: أن اللّه سبحانه قادر على رجع الإنسان، أى: إعادته بالبعث بعد الموت لَقادِرٌ هكذا قال جماعة من المفسرين. و قال مجاهد: على أن يردّ الماء فى الإحليل. و قال عكرمة و الضحاك: على أن يردّ الماء فى الصلب.

و قال مقاتل بن حيان يقول: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، و من الشباب إلى الصبا، و من الصبا إلى النطفة. و قال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر، و الأوّل أظهر، و رجحه ابن جرير و الثعلبى و القرطبى يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ العامل فى الظرف على التفسير الأوّل، هو «رجعه»، و قيل:

«لقادر». و اعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم، و قيل: العامل فيه مقدّر، أى: يرجعه يوم تبلى السرائر، و قيل: العامل فيه مقدّر، و هو اذكر، فيكون مفعولا به؛ و أما على قول من قال: إن المراد رجع الماء، فالعامل فى الظرف مقدّر، و هو اذكر، و معنى تبلى السرائر: تختبر و تعرف، و منه قول الراجز:

قد كنت قبل اليوم تزدرينىفاليوم أبلوك و تبتلينى

أى: أختبرك و تختبرنى، و أمتحنك و تمتحننى، و السرائر: ما يسر فى القلوب من العقائد و النيات و غيرها، و المراد هنا عرض الأعمال و نشر الصحف، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح، و الغثّ من السمين فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ أى: فما للإنسان من قوّة فى نفسه يمتنع بها عن عذاب اللّه، و لا ناصر ينصره ممّا نزل به. قال عكرمة: هؤلاء الملوك ما لهم يوم القيامة من قوّة و لا ناصر. قال سفيان: القوة: العشيرة، و الناصر: الحليف، و الأوّل أولى وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ الرجع: المطر. قال الزجاج: الرجع: المطر؛ لأنه يجيء و يرجع و يتكرر. قال الخليل: الرجع: المطر نفسه، و الرجع: نبات الربيع. قال أهل اللغة:

الرجع: المطر. قال المتنخّل يصف سيفا له:

أبيض كالرّجع رسوب إذاما ثاخ فى محتفل يختلى «١»

قال الواحدى: الرجع: المطر فى قول جميع المفسرين، و فى هذا الّذى حكاه عن جميع المفسرين نظر، فإن ابن زيد قال: الرجع الشمس و القمر و النجوم يرجعن فى السماء من ناحية و تغيب فى أخرى. و قال بعض المفسرين: ذات الرجع ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد. و قال بعضهم: معنى «ذات الرجع»:

ذات النفع، و وجه تسمية المطر رجعا ما قاله القفّال إنه مأخوذ من ترجيع الصوت و هو إعادته، و كذا المطر لكونه يعود مرّة بعد أخرى سمّى رجعا. و قيل: إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار

---

(١). «ثاخ» خاض. «المحتفل»: أعظم موضع فى الجسد. «يختلى»: يقطع.

الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض، و قيل: سمّته العرب رجعا لأجل التفاؤل ليرجع عليهم، و قيل: لأن اللّه يرجعه وقتا بعد وقت وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات و الثمار و الشجر، و الصدع: الشقّ؛ لأنه يصدع الأرض فتنصدع له. قال أبو عبيدة و الفرّاء: تتصدّع بالنبات. قال مجاهد:

و الأرض ذات الطّرق التى تصدعها المياه، و قيل: ذات الحرث لأنه يصدعها، و قيل: ذات الأموات لانصداعها عنهم عند البعث.

و الحاصل أن الصدع إن كان اسما للنبات فكأنه قال: و الأرض ذات النبات؛ و إن كان المراد به الشق فكأنه قال: و الأرض ذات الشق الّذى يخرج منه النبات و نحوه، و جواب القسم قوله: إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ أى:

إن القرآن لقول يفصل بين الحق و الباطل بالبيان عن كل واحد منهما وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ أى: لم ينزل باللعب، فهو جدّ ليس بالهزل، و الهزل ضد الجدّ. قال الكميت:

يجدّ بنا فى كلّ يوم و نهزل «١» إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً أى: يمكرون فى إبطال ما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الدّين الحقّ. قال الزّجّاج: يخاتلون النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و يظهرون ما هم على خلافه وَ أَكِيدُ كَيْداً أى: أستدرجهم من حيث لا يعلمون، و أجازيهم جزاء كيدهم، قيل: هو ما أوقع اللّه بهم يوم بدر من القتل و الأسر فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أى: أخّرهم، و لا تسأل اللّه سبحانه تعجيل هلاكهم، و ارض بما يدبّره لك فى أمورهم، و قوله:

أَمْهِلْهُمْ بدل من مهّل. و مهّل و أمهل بمعنى، مثل: نزّل و أنزل، و الإمهال: الإنظار، و تمهّل فى الأمر اتّأد، و انتصاب رُوَيْداً على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور أو نعت لمصدر محذوف، أى: أمهلهم إمهالا رويدا، أى: قريبا أو قليلا. قال أبو عبيدة: و الرّويد فى كلام العرب تصغير الرّود، و أنشد:

كأنّها ثمل يمشى على رود «٢» أى: على مهل، و قيل: تصغير إرواد مصدر أرود تصغير الترخيم، و يأتى اسم فعل نحو: رويد زيدا، أى: أمهله، و يأتى حالا نحو سار القوم رويدا، أى: متمهلين، ذكر معنى هذا الجوهرى، و البحث مستوفى فى علم النحو.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ قال: أقسم ربك بالطارق، و كل شىء طرقك بالليل فهو طارق. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ قال: كل نفس عليها حفظة من الملائكة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عباس فى قوله: النَّجْمُ الثَّاقِبُ قال: النّجم المضىء إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ

---

(١). و صدر البيت: أرانا على حب الحياة و طولها.

(٢). و صدر البيت: تكاد لا تثلم البطحاء وطأتها.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥١٢

قال: إلا عليها حافظ. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه: يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ قال: ما بين الجيد و النحر. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: تريبة المرأة، و هى موضع القلادة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا قال: الترائب: بين ثديى المرأة. و أخرج الحاكم و صحّحه عنه أيضا قال: الترائب أربعة أضلاع من كلّ جانب من أسفل الأضلاع. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا: إِنَّهُ عَلى‏ رَجْعِهِ لَقادِرٌ قال: على أن يجعل الشيخ شابا و الشابّ شيخا. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد، و البخارى فى تاريخه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ قال: المطر بعد المطر وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ قال: صدعها عن النبات. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ تصدّع الأودية. و أخرج ابن مندة و الديلمى عن معاذ بن أنس مرفوعا وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ قال:

«تصدع بإذن اللّه عن الأموال و النبات». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ قال: حقّ وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ قال: بالباطل، و فى قوله: أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً قال: قريبا.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥١٣

سورة الأعلى

اشارة

و يقال: سورة سبّح، و هى تسع عشرة آية و هى مكيّة فى قول الجمهور. و قال الضحاك: هى مدنيّة.

و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير و عائشة مثله. و أخرج البخارى و غيره عن البراء بن عازب قال: «أوّل من قدم علينا من أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم مصعب بن عمير و ابن أمّ مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار و بلال و سعد، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين، ثم جاء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به حتى رأيت الولائد و الصبيان يقولون: هذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد جاء، فما جاء حتى قرأت: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى فى سور مثلها». و أخرج أحمد و البزار و ابن مردويه عن علىّ قال:

«كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يحبّ هذه السورة: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى و أخرجه أحمد عن وكيع عن إسرائيل عن ثوير بن أبى فاختة عن أبيه عن علىّ. و أخرج أحمد و مسلم و أهل السنن عن النعمان بن بشير:

أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ فى العيدين و فى الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى، و هل أتاك حديث الغاشية، و إن وافق يوم جمعة قرأهما جميعا» و فى لفظ «و ربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما» و فى الباب أحاديث.

و أخرج مسلم و غيره عن جابر بن سمرة أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم «كان يقرأ فى الظهر بسبح اسم ربك الأعلى».

و أخرج أبو داود و النسائى و ابن ماجة و الدار قطنى و الحاكم و البيهقى عن أبىّ بن كعب قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوتر بسبح اسم ربك الأعلى، و قل يا أيها الكافرون، و قل هو اللّه أحد». و أخرج أبو داود و الترمذى و النسائى و ابن ماجة، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن عائشة قالت: «كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى الوتر فى الركعة الأولى بسبح، و فى الثانية قل يا أيها الكافرون، و فى الثالثة قل هو اللّه أحد و المعوّذتين».

و فى الصحيحين أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال لمعاذ: «هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، و الشمس و ضحاها، و الليل إذا يغشى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأعلى (٨٧): الآيات ١ الى ١٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَ الَّذِى قَدَّرَ فَهَدى (٣) وَ الَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعى (٤)

فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى (٦) إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى (٧) وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى (٩)

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى (١٠) وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى (١٢) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤)

وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا (١٦) وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى (١٧) إِنَّ هذا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولى (١٨) صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى (١٩)

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥١٤

قوله: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى أى: نزّهه عن كلّ ما لا يليق به. قال السدى: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى أى: عظمه، قيل: و الاسم هنا مقحم لقصد التعظيم، كما فى قول لبيد:

إلى الحول ثمّ اسم السّلام عليكماو من يبك حولا كاملا فقد اعتذر

و المعنى: سبح ربك الأعلى. قال ابن جرير: المعنى نزّه اسم ربك أن يسمّى به أحد سواه، فلا تكون على هذا مقحمة. و قيل: المعنى: نزّه تسمية ربك و ذكرك إياه أن تذكره إلا و أنت خاشع معظّم، و لذكره محترم. و قال الحسن: معنى سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى صلّ له. و قيل: المعنى: صلّ بأسماء اللّه لا كما يصلى المشركون بالمكاء و التصدية. و قيل المعنى: ارفع صوتك بذكر ربك، و منه قول جرير:

قبّح الإله وجوه تغلب كلّماسبّح الحجيج و كبّروا تكبيرا

و الأعلى صفة للربّ، و قيل: للاسم، و الأوّل أولى، و قوله: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى صفة أخرى للربّ. قال الزجاج: خلق الإنسان مستويا، و معنى سوّى: عدّل قامته. قال الضحاك: خلقه فسوّى خلقه، و قيل: خلق الأجساد فسوّى الأفهام، و قيل: خلق الإنسان و هيأه للتكليف وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى صفة أخرى للربّ، أو معطوف على الموصول الّذى قبله. قرأ عليّ بن أبى طالب و الكسائى و السلمى قَدَّرَ مخففا، و قرأ الباقون بالتشديد. قال الواحدى: قال المفسرون: قَدَّرَ: خلق الذكر و الأنثى من الدواب فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها. و قال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير و الشرّ، و السعادة و الشقاوة.

و روى عنه أيضا أنه قال فى معنى الآية: قدّر السعادة و الشقاوة، و هدى للرشد و الضلالة، و هدى الأنعام لمراعيها. و قيل: قدّر أرزاقهم و أقواتهم، و هداهم لمعايشهم إن كانوا إنسا، و لمراعيهم إن كانوا وحشا. و قال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها و هداها له. و قيل: خلق المنافع فى الأشياء، و هدى الإنسان لوجه استخراجها منها. و قال السدىّ: قدّر مدّة الجنين فى الرحم تسعة أشهر و أقلّ و أكثر، ثم هداه للخروج من الرحم. قال الفراء: أى: قدّر فهدى و أضلّ، فاكتفى بأحدهما، و فى تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا. و الأولى عدم تعيين فرد أو أفراد مما يصدق عليه قدّر و هدى إلا بدليل يدلّ عليه، و مع عدم الدليل يحمل على ما يصدق عليه معنى الفعلين، إما على البدل أو على الشمول، و المعنى: قدّر أجناس الأشياء و أنواعها و صفاتها و أفعالها و أقوالها و آجالها، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه و ينبغى له، و يسّره لما خلق له، و ألهمه إلى أمور دينه و دنياه. وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى صفة أخرى للربّ، أى: أنبت العشب و ما ترعاه النعم من النبات الأخضر فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى أى: فجعله بعد أن كان أخضر غثاء، أى: هشيما جافا كالغثاء الّذى يكون فوق السيل، أحوى: أى: أسود بعد اخضراره، و ذلك أن الكلأ إذا يبس اسودّ. قال قتادة: الغثاء:

الشيء اليابس، و يقال للبقل و الحشيش إذا انحطم و يبس: غثاء و هشيم. قال امرؤ القيس:

كأنّ ذرا رأس المجيمر غدوةمن السّيل و الأغثاء فلكة مغزل «۱»

(۱). «المجيمر»: أرض لبنى فزارة.

و انتصاب غثاء على أنه المفعول الثانى، أو على الحال، و أحوى صفة له. و قال الكسائى: هو حال من المرعى، أى: أخرجه أحوى من شدّة الخضرة و الرىّ فَجَعَلَهُ غُثاءً بعد ذلك، و الأحوى مأخوذ من الحوّة، و هى سواد يضرب إلى الخضرة. قال فى الصحاح: و الحوّة: سمرة الشفة، و منه قول ذى الرّمّة:

لمياء فى شفتيها حوّة لعسو فى اللّثات و فى أنيابها شنب «۱»

سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى أى: سنجعلك قارئا بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ما تقرؤه، و الجملة مستأنفة لبيان هدايته صلّى اللّه عليه و سلّم الخاصة به بعد بيان الهداية العامة، و هى هدايته صلّى اللّه عليه و سلّم لحفظ القرآن. قال مجاهد و الكلبى:

كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إذا نزل عليه جبريل بالوحى لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلّم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بأوّلها مخافة أن ينساها، فنزلت: سَنُقْرِئُكَ فَلاٰ تَنْسىٰ و قوله: إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ استثناء مفرغ من أعمّ المفاعيل، أى: لا تنسى مما تقرؤه شيئا من الأشياء إلا ما شاء اللّه أن تنساه. قال الفرّاء: و هو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم شيئا كقوله: خٰالِدِينَ فِيهٰا مٰا دٰامَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّكَ «٢» و قيل: إلا ما شاء اللّه أن تنسى ثم تذكر بعد ذلك، فإذن قد نسى و لكنه يتذكر و لا ينسى شيئا نسيانا كليا. و قيل بمعنى النسخ: أى إلّا ما شاء اللّه أن ينسخه مما نسخ تلاوته. و قيل: معنى فلا تنسى: فلا تترك العمل إلا ما شاء اللّه أن تتركه لنسخه و رفع حكمه. و قيل: المعنى: إلا ما شاء اللّه أن يؤخّر إنزاله. و قيل: «لا» فى قوله:

فَلاٰ تَنْسىٰ للنهى. و الألف مزيدة لرعاية الفاصلة، كما فى قوله: فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ «٣» يعنى فلا تغفل قراءته و تذكره إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ مٰا يَخْفىٰ الجملة تعليل لما قبلها، أى: يعلم ما ظهر و ما بطن و الإعلان و الإسرار، و ظاهره العموم فيندرج تحته ما قيل إن الجهر ما حفظه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من القرآن، و ما يخفى هو ما نسخ من صدره، و يدخل تحته أيضا ما قيل من أن الجهر: هو إعلان الصدقة، و ما يخفى، هو إخفاؤها، و يدخل تحته أيضا ما قيل: إن الجهر جهره صلّى اللّه عليه و سلّم بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يتفلت عليه، و ما يخفى ما فى نفسه مما يدعوه إلى الجهر وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرىٰ معطوف على «سنقرئك»، و ما بينهما اعتراض.

قال مقاتل: أى نهوّن عليك عمل الجنة، و قيل: نوفّقك للطريقة التى هى أيسر و أسهل، و قيل: للشريعة اليسرى، و هى الحنيفية السهلة، و قيل: نهوّن عليك الوحى حتى تحفظه و تعمل له، و الأولى حمل الآية على العموم، أى: نوفقك للطريقة اليسرى فى الدين و الدنيا فى كلّ أمر من أمورهما التى تتوجه إليك فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرىٰ أى: عظ يا محمد الناس بما أوحينا إليك و أرشدهم إلى سبل الخير و اهدهم إلى شرائع الدين. قال الحسن: تذكرة للمؤمن و حجّة على الكافر. قال الواحدى: إن نفعت أو لم تنفع، لأن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بعث مبلّغا للإعذار و الإنذار، فعليه التذكير فى كل حال نفع أو لم ينفع، و لم يذكر الحالة الثانية كقوله:

سَرٰابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ «٤» الآية. قال الجرجانى: التذكير واجب و إن لم ينفع، فالمعنى: إن نفعت

---

(١). «اللمياء»: الشفة اللطيفة القليلة الدم. «اللعس»: لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا و ذلك يستملح. «الشنب»: برودة و عذوبة فى الفم، و رقّه فى الأسنان.

(٢). هود: ١٠٧.

(٣). الأحزاب: ٦٧.

(٤). النحل: ٨١.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥١٦

الذكرى أو لم تنفع. و قيل: إنه مخصوص فى قوم بأعيانهم، و قيل: إن بمعنى «ما»، أى: فذكر ما نفعت الذكرى؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال، و قيل: إنها بمعنى قد، و قيل: إنها بمعنى إذ. و ما قاله الواحدى و الجرجانى أولى، و قد سبقهما إلى القول به الفراء و النحاس. قال الرازى: إنّ قوله: إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرىٰ للتنبيه على أشرف الحالين و هو وجود النفع الّذى لأجله شرعت الذكرى، و المعلق بإن على الشى‌ء لا يلزم أن يكون عدما عند عدم ذلك الشى‌ء، و يدل عليه آيات: منها هذه الآية، و منه قوله تعالى: وَ اشْكُرُوا لِلّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيّٰاهُ تَعْبُدُونَ «١» و منها قوله: فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاٰةِ إِنْ خِفْتُمْ «٢» فإن القصر

جائز عند الخوف و عدمه، و منها قوله: فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ «٣» و المراجعة جائزة بدون هذا الظنّ، فهذا الشرط فيه فوائد: منها ما تقدّم، و منها البعث على الانتفاع بالذكرى، كما يقول الرجل لمن يرشده: قد أوضحت لك إن كنت تعقل، و هو تنبيه للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم على أنها لا تنفعهم الذكرى، أو يكون هذا فى تكرير الدعوة، فأما الدعاء الأوّل فعامّ انتهى.

ثم بيّن سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى و من لا تنفعه فقال: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى أى: سيتّعظ بوعظك من يخشى اللّه فيزداد بالتّذكير خشية و صلاحا وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى أى: و يتجنّب الذكرى و يبعد عنها الأشقى من الكفار؛ لإصراره على الكفر باللّه و انهماكه فى معاصيه. ثم وصف الأشقى فقال: الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى أى: العظيمة الفظيعة؛ لأنها أشدّ حرّا من غيرها. قال الحسن: النار الكبرى: نار جهنم، و النار الصغرى: نار الدنيا. و قال الزجاج: هى السفلى من أطباق النار. ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى أى: لا يموت فيها فيستريح مما هو فيه من العذاب، و لا يحيا حياة ينتفع بها، و منه قول الشاعر:

ألا ما لنفس لا تموت فينقضىعناها و لا تحيا حياة لها طعم

و «ثم» للتراخى فى مراتب الشدّة؛ لأن التردّد بين الموت و الحياة أفظع من صلى النار الكبرى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى أى: من تطهّر من الشرك فآمن باللّه و وحده و عمل بشرائعه. قال عطاء و الربيع: من كان عمله زاكيا ناميا. و قال قتادة: تزكّى بعمل صالح. قال قتادة و عطاء و أبو العالية: نزلت فى صدقة الفطر. قال عكرمة: كان الرجل يقول: أقدّم زكاتى بين يدى صلاتى. و أصل الزكاة فى اللغة: النماء. و قيل: المراد بالآية زكاة الأموال كلها، و قيل: المراد بها زكاة الأعمال لا زكاة الأموال، لأن الأكثر أن يقال فى الأموال زكى لا تزكى وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى قيل: المعنى: ذكر اسم ربّه بالخوف فعبده و صلّى له، و قيل: ذكر اسم ربه بلسانه فصلى، أى: فأقام الصلوات الخمس، و قيل: ذكر موقفه و معاده فعبده، و هو كالقول الأوّل.

و قيل: ذكر اسم ربه بالتكبير فى أوّل الصلاة لأنها لا تنعقد إلا بذكره، و هو قوله: اللّه أكبر. و قيل: ذكر اسم ربه فى طريق المصلى فصلى، و قيل: هو أن يتطوّع بصلاة بعد زكاة، و قيل: المراد بالصلاة هنا صلاة العيد، كما أن المراد بالتزكى فى الآية زكاة الفطر، و لا يخفى بعد هذا القول لأن السورة مكية، و لم

---

(١). البقرة: ١٧٢.

(٢). النساء: ١٠١.

(٣). البقرة: ٢٣٠.

تفرض زكاة الفطر و صلاة العيد إلا بالمدينة بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا هذا إضراب عن كلام مقدّر يدل عليه السياق، أى: لا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات الفانية فى الدنيا، قرأ الجمهور تُؤْثِرُونَ بالفوقية على الخطاب، و يؤيدها قراءة أبيّ «بل أنتم تؤثرون»، و قرأ أبو عمرو بالتحتية على الغيبة. قيل: و المراد بالآية الكفرة، و المراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا بها و الاطمئنان إليها و الإعراض عن الآخرة بالكلية، و قيل: المراد بها جميع الناس من مؤمن و كافر، و المراد بإيثارها ما هو أعمّ من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة، و التوجّه إلى تحصيل منافعها و الاهتمام بها اهتماما زائدا على اهتمامه بالطاعات. و جملة وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى فى محل نصب على الحال من فاعل تؤثرون، أى: و الحال أن الدار الآخرة التى هى الجنة أفضل و أدوم من الدنيا. قال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، و الآخرة من خزف يبقى؛ لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى، فكيف و الآخرة من ذهب يبقى، و الدنيا من خزف يفنى؟. و الإشارة بقوله: إِنَّ هذا إلى ما

تقدّم من فلاح من تزكى و ما بعده، و قيل إنه إشارة إلى جميع السورة، و معنى لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى أى: ثابت فيها، و قوله: صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى بدل من الصحف الأولى. قال قتادة و ابن زيد: يريد بقوله: إِنَّ هذا: و الآخرة خير و أبقى. و قالا: تتابعت كتب اللّه عزّ و جلّ أنّ الآخرة خير و أبقى من الدنيا. و قال الحسن: تتابعت كتب اللّه جلّ ثناؤه إن هذا لفى الصحف الأولى، و هو قوله: قَدْ أَفْلَحَ إلى آخر السورة. قرأ الجمهور: لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ بضم الحاء فى الموضعين، و قرأ الأعمش و هارون و أبو عمرو فى رواية عنه بسكونها فيهما، و قرأ الجمهور: إِبْراهِيمَ بالألف بعد الراء و بالياء بعد الهاء. و قرأ أبو رجاء بحذفهما و فتح الهاء، و قرأ أبو موسى و ابن الزبير «إبراهام» بألفين.

و قد أخرج أحمد و أبو داود و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه عن عقبة بن عامر الجهنى قال: «لما نزلت فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ* قال لنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: اجعلوها فى ركوعكم، فلما نزلت سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى قال: اجعلوها فى سجودكم» و لا مطعن فى إسناده. و أخرج أحمد و أبو داود و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال: سبحان ربى الأعلى»: قال أبو داود: خولف فيه وكيع، فرواه شعبة عن أبى إسحاق عن سعيد عن ابن عباس موقوفا. و أخرجه موقوفا أيضا عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال: سبحان ربى الأعلى و فى لفظ لعبد بن حميد عنه قال: «إذا قرأت سبح اسم ربك الأعلى فقل: سبحان ربى الأعلى». و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن الأنبارى فى «المصاحف» عن علىّ بن أبى طالب أنه قرأ: سبح اسم ربك الأعلى، فقال: سبحان ربى الأعلى و هو فى الصلاة، فقيل له: أ تزيد فى القرآن؟ قال: لا، إنما أمرنا بشىء فقلته. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن أبى موسى الأشعرى أنه قرأ فى الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى فقال: سبحان ربى الأعلى. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم

فتح القدير، ج‏5، ص: 518

و صحّحه، عن سعيد بن جبير قال: سمعت ابن عمر يقرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال: سبحان ربى الأعلى، و كذلك هى فى قراءة أبىّ بن كعب. و أخرج ابن أبى شيبة عن عمر أنه قال: إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال: سبحان ربى الأعلى. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد عن عبد اللّه بن الزبير أنه قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال: سبحان ربى الأعلى، و هو فى الصلاة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

فَجَعَلَهُ غُثاءً قال: هشيما أَحْوى قال: متغيرا. و أخرج ابن مردويه عنه قال: «كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يستذكر القرآن مخافة أن ينسى، فقيل له: قد كفيناك ذلك، و نزلت: سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى . و أخرج الحاكم عن سعد بن أبى وقاص نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ يقول: إلا ما شئت أنا فأنسيك. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى قال: للخير. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى قال: الجنة.

و أخرج البزار و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال:

«من شهد أن لا إله إلا اللّه، و خلع الأنداد، و شهد أنى رسول اللّه وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى قال:

هى الصلوات الخمس، و المحافظة عليها و الاهتمام بمواقيتها». قال البزار: لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال:

من الشرك وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ قال: وحّد اللّه فَصَلَّى قال: الصلوات الخمس. و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال: من قال لا إله إلا اللّه. و أخرج البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم فى الكنى، و ابن مردويه، و

البيهقى فى سننه، عن كثير بن عبد اللّه بن عمرو ابن عوف عن أبيه عن جدّه عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلى صلاة العيد، و يتلو هذه الآية قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى- وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . و فى لفظ قال: «سئل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن زكاة الفطر، فقال: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال: هى زكاة الفطر» و كثير بن عبد اللّه ضعيف جدّا، قال فيه أبو داود: هو ركن من أركان الكذب، و قد صحّح الترمذى حديثا من طريقه، و خطىء فى ذلك، و لكنه يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى- وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر» و ليس فى هذين الحديثين ما يدل على أن ذلك سبب النزول، بل فيهما أنه صلّى اللّه عليه و سلّم تلا الآية. و قوله: هى زكاة الفطر، يمكن أن يراد به أنها مما يصدق عليه التزكى، و قد قدّمنا أن السورة مكية، و لم تكن فى مكة صلاة عيد و لا فطرة.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن أبى سعيد الخدرى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال: أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى قال: خرج إلى العيد و صلى. و أخرج ابن مردويه و البيهقى عن ابن عمر قال: «إنما أنزلت هذه الآية فى إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى- وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال: قلت لابن عباس: أ رأيت قوله:

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى للفطر؟ قال: لم أسمع بذلك، و لكن للزكاة كلها. ثم عاودته فقال لى: و الصدقات

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۱۹

كلها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن عرفجة الثقفى قال: استقرأت ابن مسعود: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى فلما بلغ: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا ترك القراءة، و أقبل على أصحابه فقال: آثرنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها و نساءها و طعامها و شرابها، و زويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل و تركنا الآجل، و قال: بل يؤثرون الحياة الدّنيا بالياء. و أخرج البزار و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هى كلها فى صحف إبراهيم و موسى».

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى الآية قال:

نسخت هذا السورة من صحف إبراهيم و موسى، و فى لفظ: هذه السورة فى صحف إبراهيم و موسى. و أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى ذرّ قال: «قلت: يا رسول اللّه كم أنزل اللّه من كتاب؟ قال:

مائة كتاب و أربعة كتب» الحديث.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۲۰

سورة الغاشية

اشارة

هى ست و عشرون آية، و هى مكية بلا خلاف، أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الغاشية بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، و قد تقدّم حديث النعمان بن بشير أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «كان يقرأ سبح اسم ربك الأعلى، و الغاشية فى صلاة العيد، و يوم الجمعة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الغاشية (٨٨): الآيات ١ الى ٢٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ (٢) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (٣) تَصْلى ناراً حامِيَةً (٤)
تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (٩)
فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (١٠) لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً (١١) فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ (١٢) فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤)
وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩)
وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ (٢٤)
إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (٢٦)

قوله: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ قال جماعة من المفسرين: هل هنا بمعنى قد، و به قال قطرب، أى: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، و هى القيامة لأنها تغشى الخلائق بأهوالها. و قيل: إن بقاء هل هنا على معناها الاستفهامى المتضمّن للتعجب مما فى خبره، و التشويق إلى استماعه أولى. و قد ذهب إلى أن المراد بالغاشية هنا القيامة أكثر المفسرين. و قال سعيد بن جبير و محمد بن كعب: الغاشية: النار تغشى وجوه الكفار كما فى قوله: وَ تَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ «١». و قيل: الغاشية أهل النار لأنهم يغشونها و يقتحمونها و الأوّل أولى. قال الكلبى: المعنى إن لم يكن أتاك حديث الغاشية، فقد أتاك، وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ما هو؟ أو مستأنفة استئنافا نحويّا لبيان ما تضمنته من كون ثم وجوه فى ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة، و وجوه مرتفع على الابتداء و إن كانت نكرة لوقوعه فى مقام التفصيل، و قد تقدّم مثل هذا فى سورة القيامة، و فى سورة النازعات. و التنوين فى يومئذ عوض عن المضاف إليه، أى: يوم غشيان الغاشية، و الخاشعة: الذليلة الخاضعة، و كل متضائل ساكن يقال له خاشع، يقال: خشع الصوت؛ إذا خفى، و خشع فى صلاته؛ إذا تذلل و نكس رأسه. و المراد بالوجوه هنا أصحابها.

---

(١). إبراهيم: ٥٠.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٢١

قال مقاتل: يعنى الكفار لأنهم تكبروا عن عبادة اللّه. قال قتادة و ابن زيد: خاشعة فى النار، و قيل: أراد وجوه اليهود و النصارى على الخصوص، و الأوّل أولى. قوله: عامِلَةٌ ناصِبَةٌ معنى عاملة أنها تعمل عملا شاقا. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب فى سيره: عمل يعمل عملا، و يقال للسحاب إذا دام برقه:
قد عمل يعمل عملا. قيل: و هذا العمل هو جرّ السلاسل و الأغلال و الخوض فى النار. ناصِبَةٌ أى:
تعبة، يقال: نصب بالكسر ينصب نصبا؛ إذا تعب، و المعنى: أنها فى الآخرة تعبة لما تلاقيه من عذاب اللّه.
و قيل: إن قوله: عامِلَةٌ فى الدنيا إذ لا عمل فى الآخرة، أى: تعمل فى الدنيا بالكفر و المعاصى، و تنصب فى ذلك. و قيل: إنها عاملة فى الدنيا ناصبة فى الآخرة، و الأوّل أولى. قال قتادة: عامِلَةٌ ناصِبَةٌ تكبرت فى الدنيا عن طاعة اللّه؛ فأعملها اللّه، و أنصبها فى

النار بجرّ السلاسل الثقال و حمل الأغلال و الوقوف حفاة عراة فى العرصات فِى يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ «١» قال الحسن و سعيد بن جبير: لم تعمل للّه فى الدنيا و لم تنصب فأعملها و أنصبها فى جهنم. قال الكلبى: يجرّون على وجوههم فى النار. و قال أيضا:

يكلّفون ارتقاء جبل من حديد فى جهنم، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل و الأغلال و الخوض فى النار كما تخوض فى الوحل. قرأ الجمهور: عامِلَةٌ ناصِبَةٌ بالرفع فيهما على أنهما خبران آخران للمبتدأ، أو على تقدير مبتدأ، و هما خبران له، و قرأ ابن محيصن و عيسى و حميد و ابن كثير فى رواية عنه بنصبهما على الحال أو على الذم. و قوله: تَصْلى ناراً حامِيَةً خبر آخر للمبتدأ، أى: تدخل نارا متناهية فى الحرّ، يقال: حمى النهار و حمى التنور، أى: اشتدّ حرّهما. قال الكسائى: يقال: اشتدّ حمى النهار و حموه بمعنى.

قرأ الجمهور: «تصلى» بفتح التاء مبنيا للفاعل. و قرأ أبو عمرة و يعقوب و أبو بكر بضمها مبنيا للمفعول.

و قرأ أبو رجاء بضم التاء و فتح الصاد و تشديد اللام، و الضمير راجع إلى الوجوه على جميع هذه القراءات، و المراد أصحابها كما تقدّم، و هكذا الضمير تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ و المراد بالعين الآنية: المتناهية فى الحرّ، و الآنى: الّذى قد انتهى حره، من الإيناء «٢» بمعنى التأخر، يقال: آناه يؤنيه إيناء، أى: أخّره و حبسه كما فى قوله: يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ «٣» قال الواحدى: قال المفسرون: لو وقعت منها نقطة على جبال الدنيا لذابت. و لما ذكر سبحانه شرابهم عقبه بذكر طعامهم فقال: لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ هو نوع من الشوك يقال له الشّبرق فى لسان قريش إذا كان رطبا، فإذا يبس فهو الضريع. كذا قال مجاهد و قتادة و غيرهما من المفسرين. قيل: و هو سمّ قاتل، و إذا يبس لا تقربه دابة و لا ترعاه، و قيل: هو شىء يرمى به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس، فإذا رعت منه الإبل لم تشبع و هلكت هزالا.

قال الخليل: الضريع نبات أخضر منتن الريح يرمى به البحر. و جمهور أهل اللغة و التفسير قالوا: بالأوّل،

---

(١). المعارج: ۴.

(٢). الصواب أن يقول: من: أنى يأنى، كرمى يرمى. و ليس من الإيناء مصدر آنى بمعنى آخر.

(٣). الرّحمن: ۴۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۲۲

و منه قول أبى ذؤيب:

رعى الشّبرق الرّيّان حتّى إذا ذوىو عاد ضريعا بان عنه النّحائص «١»

و قال الهذلى يذكر إبلاء و سوء مرعاها:

و حبسن فى هزم الضّريع فكلّهاحدباء دامية اليدين حرود «٢»

و قال سعيد بن جبير: الضريع: الحجارة، و قيل: هو شجرة فى نار جهنم. و قال الحسن: هو بعض ما أخفاه اللّه من العذاب. و قال ابن كيسان: هو طعام يضرعون عنده و يذلون و يتضرّعون إلى اللّه بالخلاص منه، فسمّى بذلك؛ لأن آكله يتضرّع إلى اللّه فى أن يعفى عنه لكراهته و خشونته. قال النحاس: قد يكون مشتقا من الضارع و هو الذليل، أى: من شربه يلحقه ضراعة و ذلة. و قال الحسن أيضا: هو الزقوم، و قيل:

هو واد فى جهنم، و قد تقدّم فى سورة الحاقة فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ- وَ لا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ «٣» و الغسلين غير الضريع كما تقدّم، و جمع بين الآيتين بأن النار دركات، فمنهم من طعامه الضريع، و منهم من طعامه الغسلين. ثم وصف سبحانه الضريع فقال:

لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ أي: لا يسمن الضريع آكله و لا يدفع عنه ما به من الجوع. قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية. قال المشركون: إن إبلنا تسمن من الضريع، فنزلت: لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ و كذبوا فى قولهم هذا، فإن الإبل لا تأكل الضريع و لا تقربه. و قيل: اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبات النافع. ثم شرع سبحانه فى بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال أهل النار فقال: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ أي: ذات نعمة و بهجة، و هى وجوه المؤمنين صارت وجوههم ناعمة لما شاهدوا من عاقبة أمرهم و ما أعدّه اللّه لهم من الخير الّذى يفوق الوصف، و مثله قوله: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ «۴» ثم قال: لِسَعْيِها راضِيَةٌ أى: لعملها الّذى عملته فى الدنيا راضية؛ لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها و قرّت به عيونها، و المراد بالوجوه هنا أصحابها كما تقدّم فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ أى عالية المكان مرتفعة على غيرها من الأمكنة، أو عالية لأن فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذّ الأعين لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً قرأ الجمهور: لا تَسْمَعُ بفتح الفوقية و نصب لاغية، أى: لا تسمع أنت أيها المخاطب، أو لا تسمع تلك الوجوه. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بالتحتية مضمومة مبنيا للمفعول و رفع لاغية. و قرأ نافع بالفوقية مضمومة مبنيا للمفعول و رفع لاغية. و قرأ الفضل و الجحدرى بفتح التحتية مبنيا للفاعل و نصب لاغية، و اللغو: الكلام الساقط. قال الفرّاء و الأخفش: أى لا تسمع فيها كلمة لغو.

---

(۱). «النحائص»: جمع نحوص، و هى الأتان الوحشية التى فى بطنها ولد.

(۲). «هزيم الضريع»: ما تكسر منه. «الحدباء»: الناقة التى بدت حراقفها و عظم ظهرها. «الحرود»: التى لا تكاد تدرّ.

(۳). الحاقة: ۳۵- ۳۶.

(۴). المطففين: ۲۴.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۵۲۳

قيل: المراد بذلك الكذب و البهتان و الكفر قاله قتادة، و قال مجاهد: أى الشتم. و قال الفرّاء: لا تسمع فيها حالفا يحلف بكذب. و قال الكلبى: لا تسمع فى الجنة حالفا بيمين برّة و لا فاجرة. و قال الفرّاء أيضا: لا تسمع فى كلام أهل الجنة كلمة تلغى؛ لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة و حمد اللّه تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم، و هذا أرجح الأقوال لأن النكرة فى سياق النفى من صيغ العموم، و لا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصّص يصلح للتخصيص، و لاغية: إما صفة موصوف محذوف، أى: كلمة لاغية، أو نفس لاغية، أو مصدر، أى: لا تسمع فيها لغوا فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ قد تقدّم فى سورة الإنسان أن فيها عيونا، و العين هنا بمعنى: العيون؛ كما فى قوله: عَلِمَتْ نَفْسٌ* «۱» و معنى جارية أنها تجرى مياهها و تتدفق بأنواع الأشربة المستلذة. قال الكلبى: لا أدرى بماء أو بغيره فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ أى: عالية مرتفعة السمك، أو عالية القدر وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ قد تقدّم أن الأكواب جمع كوب، و أنه القدح الّذى لا عروة له، و معنى موضوعة: أنها موضوعة بين أيديهم يشربون منها وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ النمارق: الوسائد. قال الواحدى: فى قول الجميع، واحدتها نمرقة بضم النون، و زاد الفرّاء سماعا عن العرب نمرقة بكسرها. قال الكلبى: وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض، و منه قول الشاعر:

و إنّا لنجرى الكأس بين شروبناو بين أبى قابوس فوق النّمارق

و قال الآخر:

كهول و شبّان حسان وجوههمعلى سرر مصفوفة و نمارق

قال فى الصحاح: النّمرق و النّمرقة: و سادة صغيرة، و كذلك النّمرقة بالكسر لغة حكاها يعقوب وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ يعنى البسط، واحدها: زربيّة. قال أبو عبيدة و الفرّاء: الزرابىّ: الطنافس التى لها خمل رقيق، واحدها زربيّة، و المبثوثة: المبسوطة، قاله قتادة. و

قال عكرمة: بعضها فوق بعض. قال الواحدى: و يجوز أن يكون المعنى: أنها مفرقة فى المجالس. و به قال القتبىّ. و قال الفرّاء: معنى مبثوثة:

كثيرة، و الظاهر أن معنى البث: التفرّق مع كثرة، و منه وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ «٢». أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و الفاء للعطف على مقدّر كما فى نظائره مما مرّ غير مرّة، و الجملة مسوقة لتقرير أمر البعث و الاستدلال عليه، و كذا ما بعدها، و كيف منصوبة بما بعدها، و الجملة فى محل جر على أنها بدل اشتمال من الإبل، و المعنى: أ ينكرون أمر البعث و يستبعدون وقوعه، أفلا ينظرون إلى الإبل التى هى غالب مواشيهم و أكبر ما يشاهدونه من المخلوقات كَيْفَ خُلِقَتْ على ما هى عليه من الخلق البديع من عظم جثّتها و مزيد قوّتها و بديع أوصافها. قال أبو عمرو بن العلاء: إنما خصّ الإبل لأنها من ذوات الأربع تبرك فتحمل عليها الحمولة، و غيرها من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا و هو قائم: قال الزّجّاج:

---

(١). التكوير: ١۴.

(٢). البقرة: ١۶۴.

نبّههم على عظيم من خلقه قد ذلّه اللّه للصغير يقوده و ينيخه و ينهضه و يحمل عليه الثقيل من الحمل و هو بارك، فينهض بثقل حمله، و ليس ذلك فى شىء من الحوامل غيره، فأراهم عظيما من خلقه ليدلّ بذلك على توحيده.

و سئل الحسن عن هذه الآية، و قيل له: الفيل أعظم فى الأعجوبة، فقال: أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به، ثم هو خنزير لا يركب ظهره و لا يؤكل لحمه و لا يحلب درّه، و الإبل من أعزّ مال العرب و أنفسه، تأكل النّوى و القتّ، و تخرج اللبن، و يأخذ الصبىّ بزمامها فيذهب بها حيث شاء مع عظمها فى نفسها. و قال المبرد:

الإبل هنا هى القطع العظيمة من السحاب، و هو خلاف ما ذكره أهل التفسير و اللغة. و روى عن الأصمعى أنه قال: من قرأ خُلِقَتْ بالتخفيف عنى به البعير، و من قرأ بالتشديد عنى به السحاب. وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ أى: رفعت فوق الأرض بلا عمد على وجه لا يناله الفهم و لا يدركه العقل، و قيل: رفعت فلا ينالها شىء وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ على الأرض مرساة راسخة لا تميد و لا تزول وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ أى: بسطت، و السطح: بسط الشىء، يقال: لظهر البيت إذا كان مستويا: سطح.

قرأ الجمهور: سُطِحَتْ مبنيا للمفعول مخففا. و قرأ الحسن: بالتشديد. و قرأ علىّ بن أبى طالب و ابن السّميقع و أبو العالية: خلقت و رفعت و نصبت و سطحت على البناء للفاعل، و ضم التاء فيها كلها. ثم أمر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بالتذكير فقال: فَذَكِّرْ و الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى: فعظهم يا محمد و خوّفهم، ثم علل الأمر بالتذكير فقال: إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ أى: ليس عليك إلا ذلك، و لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ المصيطر و المسيطر بالسين و الصاد: المسلط على الشىء ليشرف عليه و يتعهد أحواله كذا فى الصحاح، أى: لست عليهم بمصيطر حتى تكرههم على الإيمان، و هذا منسوخ بآية السيف. قرأ الجمهور:

بِمُصَيْطِرٍ بالصاد، و قرأ هشام و قنبل فى رواية بالسين. و قرأ خلف بإشمام الصاد زايا. و قرأ هارون الأعور بفتح الطاء اسم مفعول إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ هذا استثناء منقطع، أى: لكن من تولى عن الوعظ و التذكير فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ و هو عذاب جهنم الدائم، و قيل: هو استثناء متصل من قوله: فَذَكِّرْ أى: فذكر كلّ أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه و تولّى فاستحق العذاب الأكبر، و الأوّل أولى. و إنما قال:

الْأَكْبَرَ لأنهم قد عذّبوا فى الدّنيا بالجوع و القحط و القتل و الأسر. و قرأ ابن مسعود: «فإنه يعذّبه اللّه» و قرأ ابن عباس و قتادة: «ألا من تولى» على أنها ألا التى للتنبيه و الاستفتاح إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ أى: رجوعهم بعد الموت، يقال آب يؤوب: إذا رجع، و منه قول

عبيد بن الأبرص:

و كلّ ذى غيبة يؤوب‌و غائب الموت لا يؤوب

قرأ الجمهور: إِيابَهُمْ بالتخفيف، و قرأ أبو جعفر و شيبة بالتشديد. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد و لو جاز لجاز مثله فى الصيام و القيام، و قيل: هما لغتان بمعنى. قال الواحدى: و أما إِيابَهُمْ بتشديد الياء فإنه شاذ لم يجزه أحد غير الزجاج ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ يعنى جزاءهم بعد رجوعهم إلى اللّه بالبعث، و «ثم» للتراخى فى الرتبة؛ لبعد منزلة الحساب فى الشدّة عن منزلة الإياب.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٢٥

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الغاشية من أسماء القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ قال: الساعة وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ- عامِلَةٌ ناصِبَةٌ قال: تعمل و تنصب فى النار تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ قال: هى التى قد طال أنيها لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ قال: الشبرق. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ- عامِلَةٌ ناصِبَةٌ قال:

يعنى اليهود و النصارى تخشع و لا ينفعها عملها تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ قال: قد أنى غليانها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: تَصْلى ناراً حامِيَةً قال: حارّة، تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ قال: انتهى حرّها لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ يقول: من شجر من نار. و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ قال: الشبرق اليابس. و أخرج ابن جرير عنه أيضا لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً يقول: لا تسمع أذى و لا باطل و فى قوله: فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ قال: بعضها فوق بعض وَ نَمارِقُ قال: مجالس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا وَ نَمارِقُ قال: المرافق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ قال: جبار إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ قال:

حسابه على اللّه. و أخرج أبو داود فى ناسخه عنه أيضا لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ثم نسخ ذلك فقال: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «١». و أخرج ابن المنذر عنه أيضا إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ قال: مرجعهم

---

(١). التوبة: ٥.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٢٦

سورة الفجر

اشارة

هى ثلاثون آية، و قيل: تسع و عشرون آية و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس، و النحاس فى ناسخه، و ابن مردويه و البيهقى من طرق عن ابن عباس قال: نزلت وَ الْفَجْرِ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير و عائشة مثله. و أخرج النسائى عن جابر قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه فطوّل، فصلى فى ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذا فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه جئت أصلى فطوّل علىّ، فانصرفت فصليت فى ناحية المسجد فعلفت ناضحى؛ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أ فتان أنت يا معاذ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى، و الشمس و ضحاها، و الفجر، و الليل إذا يغشى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفجر (٨٩): الآيات ١ الى ١٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَ الْفَجْرِ (١) وَ لَيالٍ عَشْرٍ (٢) وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ (٣) وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (۴)
هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (۵) أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ (۶) إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (٨) وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ (٩)
وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ (١۴)

أقسم سبحانه بهذه الأشياء كما أقسم بغيرها من مخلوقاته. و اختلف فى الفجر الّذى أقسم اللّه به هنا؛ فقيل: هو الوقت المعروف، و سمّى فجرا لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم. و قال قتادة: إنه فجر أوّل يوم من شهر محرّم؛ لأن منه تتفجر السنة. و قال مجاهد: يريد يوم النحر. و قال الضحاك: فجر ذى الحجّة؛ لأن اللّه قرن الأيام به فقال: وَ لَيالٍ عَشْرٍ أى: ليال من ذى الحجّة، و به قال السدّى و الكلبى.

و قيل المعنى: و صلاة الفجر أو ربّ الفجر. و الأوّل أولى. و جواب هذا القسم و ما بعده هو قوله: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ كذا قال ابن الأنبارى، و قيل: محذوف لدلالة السياق عليه، أى: ليجازينّ كل أحد بما عمل، أو ليعذبن، و قدّره أبو حيان بما دلت عليه خاتمة السورة التى قبله، أى: و الفجر إلخ ... لإيابهم إلينا و حسابهم علينا، و هذا ضعيف جدّا. و أضعف منه قول من قال: إن الجواب من قوله: هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ و أن هل بمعنى قد؛ لأن هذا لا يصح أن يكون مقسما عليه أبدا وَ لَيالٍ عَشْرٍ هى عشر ذى الحجة فى قول جمهور المفسرين. و قال الضحاك: إنها الأواخر من رمضان، و قيل: العشر الأوّل من المحرّم إلى عاشرها يوم عاشوراء. قرأ الجمهور: لَيالٍ بالتنوين، و «عشر» صفة لها. و قرأ ابن عباس: و ليالى عشر بالإضافة، قيل: و المراد ليالى أيام عشر، و كان حقه على هذا أن يقال عشرة،

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۵٢٧

لأن المعدود مذكر. و أجيب عنه بأنه إذا حذف المعدود جاز الوجهان. وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ الشفع و الوتر يعمّان كلّ الأشياء شفعها و وترها، و قيل: شفع الليالى و وترها. و قال قتادة: الشفع و الوتر شفع الصلاة و وترها، منها شفع و منها وتر. و قيل: الشفع يوم عرفة و يوم النحر، و الوتر: ليلة يوم النحر. و قال مجاهد و عطية العوفى: الشفع: الخلق، و الوتر: اللّه الواحد الصمد، و به قال محمد بن سيرين و مسروق و أبو صالح و قتادة. و قال الربيع بن أنس و أبو العالية: هى صلاة المغرب فيها ركعتان و الوتر الركعة. و قال الضحاك:

الشفع: عشر ذى الحجة، و الوتر: أيام منى الثلاثة، و به قال عطاء. و قيل: هما آدم و حواء، لأن آدم كان وترا فشفع بحوّاء. و قيل: الشفع: درجات الجنة و هى ثمان، و الوتر: دركات النار و هى سبع، و به قال الحسين بن الفضل. و قيل: الشفع الصفا و المروة، و الوتر: الكعبة. و قال مقاتل: الشفع: الأيام و الليالى، و الوتر: اليوم الّذى لا ليلة بعده، و هو يوم القيامة. و قال سفيان بن عيينة: الوتر: هو اللّه سبحانه، و هو الشفع أيضا لقوله: ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ «١» الآية. و قال الحسن: المراد بالشفع و الوتر: العدد كله؛ لأن العدد لا يخلو عنهما. و قيل: الشفع: مسجد مكة و المدنية، و الوتر: مسجد بيت المقدس. و قيل: الشفع حج القران، و الوتر: الإفراد. و قيل: الشفع: الحيوان لأنه ذكر و أنثى، و الوتر:

الجماد. و قيل: الشفع: ما سمّى، و الوتر: ما لا يسمّى. و لا يخفاك ما فى غالب هذه الأقوال من السقوط البين و الضعف الظاهر،

و الإنكار فى التعيين على مجرّد الرأى الزائف، و الخاطر الخاطئ.
و الّذى ينبغى التعويل عليه و يتعين المصير إليه ما يدل عليه معنى الشفع و الوتر فى كلام العرب، و هما معروفان واضحان، فالشفع عند العرب: الزوج، و الوتر: الفرد. فالمراد بالآية إما نفس العدد أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر. و إذا قام دليل على تعيين شىء من المعدودات فى تفسير هذه الآية، فإن كان الدليل يدلّ على أنه المراد نفسه دون غيره فذاك، و إن كان الدليل يدلّ على أنه مما تناولته هذه الآية لم يكن ذلك مانعا من تناولها لغيره. قرأ الجمهور «و الوتر» بفتح الواو. و قرأ حمزة و الكسائى و خلف بكسرها، و هى قراءة ابن مسعود و أصحابه و هما لغتان، و الفتح لغة قريش و أهل الحجاز، و الكسر لغة تميم، قال الأصمعى: كلّ فرد وتر، و أهل الحجاز يفتحون فيقولون وتر فى الفرد. و حكى يونس عن ابن كثير أنه قرأ بفتح الواو و كسر التاء، فيحتمل أن تكون لغة ثالثة، و يحتمل أنه نقل كسرة الراء إلى التاء إجراء للوصل مجرى الوقف وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ قرأ الجمهور يَسْرِ بحذف الياء وصلا و وقفا اتباعا لرسم المصحف. و قرأ نافع و أبو عمرو بحذفها فى الوقف و إثباتها فى الوصل. و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و يعقوب بإثباتها فى الوصل و الوقف. قال الخليل: تسقط الياء موافقة لرؤوس الآى. قال الزجاج: و الحذف أحب إلىّ لأنها فاصلة و الفواصل تحذف منها الياءات. قال الفرّاء: قد تحذف العرب الياء و تكتفى بكسر ما قبلها، و أنشد بعضهم:
كفّاك كفّ ما تليق درهماجودا و أخرى تعط بالسّيف الدّما

---

(١). المجادلة: ٧.

فتح القدير، ج٥، ص: ٥٢٨
ما تليق؛ أى: ما تمسك. قال المؤرّج: سألت الأخفش عن العلّة فى إسقاط الياء من يسر فقال: لا أجيبك حتى تبيت على باب دارى سنة، فبتّ على باب داره سنة فقال: الليل لا يسرى، و إنما يسرى فيه، فهو مصروف عن جهته، و كلّ ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه، أ لا ترى إلى قوله: وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا «١» و لم يقل بغية؛ لأنه صرفها من باغية.
و فى كلام الأخفش هذا نظر، فإن صرف الشىء عن معناه لسبب من الأسباب لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه، و لو صحّ ذلك للزم فى كلّ المجازات العقلية و اللفظية، و اللازم باطل فالملزوم مثله، و الأصل ها هنا إثبات الياء؛ لأنها لام الفعل المضارع المرفوع، و لم تحذف لعلة من العلل إلا لاتباع رسم المصحف و موافقة رؤوس الآى إجراء للفواصل مجرى القوافى، و معنى وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ إذا يمضى، كقوله:
وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ «٢». وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ «٣» و قيل: معنى يسر: يسار فيه، كما يقال: ليل نائم و نهار صائم، كما فى قول الشاعر «٤»:
لقد لمتنا يا أمّ غيلان فى السّرىو نمت و ما ليل المطىّ بنائم
و بهذا قال الأخفش و القتبى و غيرهما من أهل المعانى، و بالأوّل قال جمهور المفسرين. و قال قتادة و أبو العالية: وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ أى جاء و أقبل. و قال النخعى: أى استوى. قال عكرمة و قتادة و الكلبى و محمد ابن كعب: هى ليلة المزدلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة اللّه سبحانه، و قيل: ليلة القدر لسراية الرحمة فيها. و الراجح عدم تخصيص ليلة من الليالى دون أخرى هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم سبحانه به و تفخيمه من هذه الأمور المذكورة، و الإشارة بقوله:
ذلِكَ إلى تلك الأمور، و التذكير بتأويل المذكور، أى: هل فى ذلك المذكور، من الأمور التى أقسمنا بها قسم، أى مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار لِذِي حِجْرٍ أى: عقل و لبّ، فمن كان ذا عقل و لبّ علم أن ما أقسم اللّه به من هذه الأشياء حقيق بأن

يقسم به، و مثل هذا قوله: وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ «۵». قال الحسن: لِذِی حِجْرٍ أی: لذی حلم. و قال أبو مالک: لذی ستر من الناس. و قال الجمهور: الحجر: العقل. قال الفرّاء: الکل یرجع إلی معنی واحد، لذی عقل و لذی حلم و لذی ستر، الکلّ بمعنی العقل. و أصل الحجر: المنع، یقال لمن ملک نفسه و منعها: إنه لذو حجر، و منه سمی الحجر لامتناعه بصلابته، و منه حجر الحاکم علی فلان، أی: منعه. قال و العرب تقول: إنه لذو حجر؛ إذا کان قاهرا لنفسه ضابطا لها. ثم ذکر سبحانه علی طریقة الاستشهاد ما وقع من عذابه علی بعض طوائف الکفار بسبب کفرهم و عنادهم و تکذیبهم للرسل تحذیرا للکفار فی عصر نبینا صلّی اللّه علیه و سلّم و تخویفا لهم أن یصیبهم ما أصابهم

---

(۱). مریم: ۲۸.

(۲). المدثر: ۳۳.

(۳). التکویر: ۱۷.

(۴). هو جریر.

(۵). الواقعة: ۷۶.

فتح القدیر، ج‌۵، ص: ۵۲۹

فقال: أَ لَمْ تَرَ کَیْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِعادٍ- إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ قرأ الجمهور بتنوین: عاد علی أن یکون إرم عطف بیان لعاد، و المراد بعاد اسم أبیهم، و إرم: اسم القبیلة أو بدلا منه، و امتناع صرف إرم للتعریف و التأنیث. و قیل: المراد بعاد أولاد عاد، و هم عاد الأولی، و یقال لمن بعدهم عاد الأخری، فیکون ذکر إرم علی طریقة عطف البیان أو البدل؛ للدلالة علی أنهم عاد الأولی لا عاد الأخری، و لا بدّ من تقدیر مضاف علی کلا القولین: أی أهل إرم، أو سبط إرم؟ فإن إرم هو جدّ عاد، لأنه عاد بن إرم بن عوص بن سام ابن نوح. و قرأ الحسن و أبو العالیة بإضافة عاد إلی إرم. و قرأ الجمهور: إِرَمَ بکسر الهمزة. و فتح الراء و المیم. و قرأ الحسن و مجاهد و قتادة و الضحاک إَرَمَ بفتح الهمزة و الراء، و قرأ معاذ بسکون الراء تخفیفا، و قرئ بإضافة إرم إلی ذات العماد. قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالإرم التی هی الأعلام واحدها أرم، و فی الکلام تقدیم و تأخیر، أی: و الفجر کذا و کذا إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ أَ لَمْ تَرَ، أی: ألم ینته علمک إلی ما فعل ربک بعاد، و هذه الرؤیة رؤیة القلب، و الخطاب للنبیّ، أو لکلّ من یصلح له، و قد کان أمر عاد و ثمود مشهورا عند العرب؛ لأن دیارهم متصلة بدیار العرب، و کانوا یسمعون من أهل الکتاب أمر فرعون. و قال مجاهد أیضا: إرم: أمة من الأمم، و قال قتادة: هی قبیلة من عاد، و قیل: هما عادان، فالأولی هی إرم، و منه قول قیس بن الرّقیّات:

مجدا تلیدا بناه أوّلهم أدرک عادا و قبله إرما

قال معمر: إرم إلیه مجتمع عاد و ثمود، و کان یقال: عاد إرم و عاد و ثمود، و کانت القبیلتان تنسب إلی إرم. قال أبو عبیدة: هما عادان، فالأولی إرم. و معنی ذات العماد: ذات القوّة و الشدّة، مأخوذ من قوة الأعمدة، کذا قال الضحاک: و قال قتادة و مجاهد: إنهم کانوا أهل عمد سیارة فی الربیع، فإذا هاج النبت رجعوا إلی منازلهم. و قال مقاتل: ذات العماد یعنی طولهم، کان طول الرجل منهم اثنی عشرة ذراعا، و یقال رجل طویل العماد: أی القامة. قال أبو عبیدة: ذات العماد ذات الطول، یقال رجل معمد: إذا کان طویلا.

و قال مجاهد و قتادة: أیضا کان عمادا لقومهم، یقال: فلان عمید القوم و عمودهم، أی: سیدهم. و قال ابن زید: ذات العماد یعنی إحکام البنیان بالعمد. قال فی الصحاح: و العماد: الأبنیة الرفیعة، تذکر و تؤنث، قال عمرو بن کلثوم:

و نحن إذا عماد الحىّ خرّت‌على الأخفاض نمنع من يلينا

و قال عكرمة و سعيد المقبرى: هى دمشق، و رواه ابن وهب و أشهب عن مالك. و قال محمد بن كعب:

هى الإسكندرية. الَّتِی لَمْ یُخْلَقْ مِثْلُها فِی الْبِلادِ هذه صفة لعاد، أى: لم يخلق مثل تلك القبيلة فى الطول و الشدّة و القوّة، و هم الذين قالوا: مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوَّةً «١» أو صفة للقرية على قول من قال: إن إرم اسم

---

(١). فصلت: ١٥.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٣٠

لقريتهم أو للأرض التى كانوا فيها. و الأولى أولى. و يدل عليه قراءة أبىّ التى لم يخلق مثلهم فى البلاد و قيل: الإرم: الهلاك. قال الضحاك إرم ذات العماد: أى أهلكهم فجعلهم رميما، و به قال شهر بن حوشب. و قد ذكر جماعة من المفسرين أن إرم ذات العماد اسم مدينة مبنية بالذهب و الفضة قصورها و دورها و بساتينها، و إن حصباءها جواهر و ترابها مسك، و ليس بها أنيس و لا فيها ساكن من بنى آدم، و إنها لا تزال تنتقل من موضع إلى موضع، فتارة تكون باليمن، و تارة تكون بالشام، و تارة تكون بالعراق، و تارة تكون بسائر البلاد، و هذا كذب بحت لا ينفق على من له أدنى تمييز. و زاد الثعلبى فى تفسيره فقال: إن عبد اللّه ابن قلابة فى زمان معاوية دخل هذه المدينة، و هذا كذب على كذب و افتراء على افتراء، و قد أصيب الإسلام و أهله بداهية دهياء و فاقرة عظمى و رزية كبرى من أمثال هؤلاء الكذابين الدجالين الذين يجترءون على الكذب، تارة على بنى إسرائيل، و تارة على الأنبياء، و تارة على الصالحين، و تارة على ربّ العالمين، و تضاعف هذا الشرّ و زاد كثرة بتصدّر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها من موضوعها للتصنيف و التفسير للكتاب العزيز، فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة و الأقاصيص المنحولة و الأساطير المفتعلة فى تفسير كتاب اللّه سبحانه، فحرّفوا و غيروا و بدّلوا. و من أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا فلينظر فى كتابى الّذى سمّيته:

«الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة».

ثم عطف سبحانه القبيلة الآخرة، و هى ثمود على قبيلة عاد فقال: وَ ثَمُودَ الَّذِینَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ و هم قوم صالح سموا باسم جدّهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، و معنى جابوا الصخر: قطعوه، و الجوب القطع، و منه جاب البلاد: إذا قطعها، و منه سمّى جيب القميص لأنه جيب، أى: قطع. قال المفسرون: أوّل من نحت الجبال و الصخور ثمود، فبنوا من المدائن ألفا و سبعمائة مدينة كلها من الحجارة، و منه قوله سبحانه: وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُیُوتاً «١» و كانوا ينحتون الجبال و ينقبونها و يجعلون تلك الأنقاب بيوتا يسكنون فيها، و قوله: بِالْوادِ متعلق بجابوا، أو بمحذوف على أنه حال من الصخر، و هو وادى القرى. قرأ الجمهور: ثَمُودَ بمنع الصرف على أنه اسم للقبيلة، ففيه التأنيث و التعريف.

و قرأ يحيى بن وثّاب بالصرف على أنه اسم لأبيها. و قرأ الجمهور أيضا بالواد بحذف الياء وصلا و وقفا اتباعا لرسم المصحف. و قرأ ابن كثير بإثباتها فيهما. و قرأ قنبل فى رواية عنه بإثباتها فى الوصل دون الوقف وَ فِرْعَوْنَ ذِی الْأَوْتادِ أى: ذو الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدّونها بالأوتاد، أو جعل الجنود أنفسهم أوتادا لأنهم يشدّون الملك كما تشد الأوتاد الخيام، و قيل: كان له أوتاد يعذّب الناس بها و يشدّهم إليها. و قد تقدم بيان هذا فى سورة ص الَّذِینَ طَغَوْا فِی الْبِلادِ الموصول صفة لعاد و ثمود و فرعون، أى: طغت كل طائفة منهم فى بلادهم و تمرّدت و عتت، و الطغيان: مجاوزة الحدّ فَأَكْثَرُوا فِیهَا الْفَسادَ بالكفر و معاصى اللّه و الجور على عباده، و يجوز أن يكون الموصول فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هم الذين طغوا،

(۱). الشعراء: ۱۴۹.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۳۱

أو فی محل نصب علی الـذمّ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَـذابٍ أی: أفرغ علیهم و ألقی علی تلک الطوائف سوط عذاب، و هو ما عذّبهم به. قال الزجاج: جعل سوطه الّذی ضربهم به العذاب، یقال: صبّ علی فلان خلعة، أی: ألقاها علیه، و منه قول النابغة:

فصبّ علیه اللّه أحسن صنعهو کان له بین البریّة ناصرا

و منه قول الآخر:

ألم تر أنّ اللّه أظهر دینهو صبّ علی الکفّار سوط عذاب

و معنی سوط عـذاب: نصیب عـذاب، و ذکر السوط إشـارة إلی أن ما أحله بهم فی الـدنیا من العـذاب العظیم هو بالنسـبة إلی ما أعـدّه لهم فی الآـخرة کالسوط إذا قیس إلی سائر ما یعـذب به. و قیل: ذکر السوط للدلالـة علی شـدة ما نزل بهم، و کان السوط عندهم هو نهایة ما یعذّب به. قال الفرّاء: هی کلمة تقولها العرب لکل نوع من أنواع العذاب، و أصل ذلک أن السوط هو عذابهم الّـذی یعـذبون به، فجری لکـل عـذاب إذا کـان فیه عنـدهم غایـة العـذاب. و قیل معناه: عـذاب یخالط اللحم و الـدم، من قولهم: یسوطه سوطا، أی: خلطه، فالسوط: خلط الشیء بعضه ببعض، و منه قول کعب بن زهیر:

لکنّها خلّة قد سیط من دمهافجع و ولع «۱» و إخلاف و تبدیل

و قال الآخر:

أ حارث إنّا لو تساط دماؤناتزایلن حتّی لا یمسّ دم دما

و قال آخر:

فسطها ذمیم الرّأی غیر موفّقفلست علی تسویطها بمعان

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ قـد قـدّمنا قول من قال إن هذا جواب القسم. و الأولی أن الجواب محذوف، و هذه الجملة تعلیل لما قبلها، و فیها إرشاد إلی أن کفار قومه صـلّی اللّه علیه و سـلّم سیصـیبهم ما أصاب أولئک الکفار، و معنی بالمرصاد: أنه یرصـد عمل کل إنسان حتی یجازیه علیه بالخیر خیرا و بالشرّ شـرّا. قال الحسن و عکرمة: أی علیه طریق العباد لا یفوته أحد، و الرصد و المرصاد: الطریق. و قد تقدّم بیانه فی سورة براءة، و تقدّم أیضا عند قوله: إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً «۲».

و قـد أخرج الفریـابی و ابن جریر و ابن أبی حـاتم، و الحاکم و صـححه، و البیهقی فی الشـعب، عن ابن عباس فی قوله: وَ الْفَجْرِ قال: فجر النهار. و أخرج ابن جریر عنه قال: یعنی صلاة الفجر. و أخرج سعید

---

(۱). «فجع»: إصابة بمکروه. «ولع»: کذب.

(۲). النبأ: ۲۱.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۳۲

ابن منصور و البیهقی فی الشـعب و ابن عسـاکر عنه أیضا فی قوله: وَ الْفَجْرِ قال: هو المحرّم فجر السـنة، و قـد ورد فی فضل صوم شهر محرّم أحادیث صـحیحة، و لکنها لا تـدلّ علی أنه المراد بالآیة لا مطابقة و لا تضـمنا و لا التزاما. و أخرج أحمد و النسائی و البزار و ابن جریر و ابن المنـذر، و الحـاکم و صـحّحه، و ابن مردویه، و البیهقی فی الشـعب، عن جابر «أن النبیّ صـلّی اللّه علیه و سلّم قال: وَ الْفَجْرِ- وَ لَيالٍ عَشْرٍ- وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ قال: إن العشر عشر الأضحی، و الوتر: یوم عرفة، و الشفع: یوم النحر. و فی لفظ: هی لیالی من ذی الحجة».

و أخرج عبد بن حميد عن طلحة بن عبد اللّه أنه دخل على ابن عمر هو و أبو سلمة بن عبد الرّحمن فدعاهم ابن عمر إلى الغداء يوم عرفة، فقال أبو سلمة: أ ليس هذه الليالى العشر التى ذكرها اللّه فى القرآن؟ فقال ابن عمر:

و ما يدريك؟ قال: ما أشك، قال: بلى فشكّ. و قد ورد فى فضل هذه العشر أحاديث. و ليس فيها ما يدل على أنها المرادة بما فى القرآن هنا بوجه من الوجوه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

وَ لَيالٍ عَشْرٍ قال: هى العشر الأواخر من رمضان. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و صححه عن عمران بن حصين «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم سئل عن الشفع و الوتر، فقال:

هى الصلاة بعضها شفع و بعضها وتر». و فى إسناده رجل مجهول، و هو الراوى له عن عمران بن حصين.

و قد روى عن عمران بن عصام عن عمران بن حصين بإسقاط الرجل المجهول. و قال الترمذى بعد إخراجه بالإسناد الّذى فيه الرجل المجهول: هو حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة. قال ابن كثير: و عندى أن وقفه على عمران بن حصين أشبه، و اللّه أعلم. قال: و لم يجزم ابن جرير بشىء من هذه الأقوال فى الشفع و الوتر. و قد أخرج هذا الحديث موقوفا على عمران بن حصين عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير، فهذا يقوّى ما قاله ابن كثير. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله: وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ فقال: كل شىء شفع فهو اثنان، و الوتر واحد. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه- قال السيوطى: بسند ضعيف- عن أبى أيوب عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «أنه سئل عن الشفع و الوتر فقال: يومان و ليلة، يوم عرفة، و يوم النحر، و الوتر ليلة النحر ليلة جمع». و أخرج ابن جرير عن جابر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الشفع اليومان، و الوتر اليوم الثالث». و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن سعد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عبد اللّه بن الزبير أنه سئل عن الشفع و الوتر فقال: الشفع: قول اللّه فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ «1» و الوتر: اليوم الثالث. و فى لفظ: الوتر أوسط أيام التشريق. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، من طرق عن ابن عباس قال: الشفع:

يوم النحر، و الوتر: يوم عرفة. و أخرج ابن جرير عنه وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ قال: إذا ذهب. و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ وَ الْفَجْرِ إلى قوله: إِذا يَسْرِ قال: هذا قسم على إن ربك بالمرصاد.

و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب،

---

(1). البقرة: 203.

من طرق عن ابن عباس فى قوله: قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ قال: لذى حجى و عقل و نهى. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: بِعادٍ- إِرَمَ قال: يعنى بالإرم: الهالك، ألا ترى أنك تقول: أرم بنو فلان، ذاتِ الْعِمادِ يعنى طولهم مثل العماد. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن المقدام بن معدى كرب عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه ذكر إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ فقال: «كان الرجل منهم يأتى إلى الصخرة فيحملها على كاهله فيلقيها على أىّ حىّ» أراد فيهلكهم. و فى إسناده رجل مجهول؛ لأن معاوية بن صالح رواه عمن حدّثه عن المقدام. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ قال: و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: كانوا ينحتون من الجبال بيوتا وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ قال: الأوتاد: الجنود الذين يشدّون أمره. و أخرج الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود فى قوله: ذِي الْأَوْتادِ قال: وتد فرعون لامرأته أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ قال: يسمع و

يرى. و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن مسعود فى قوله: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ قال: من وراء الصراط جسور: جسر عليه الأمانة، و جسر عليه الرحم، و جسر عليه الربّ عزّ و جلّ.

[سورة الفجر (٨٩): الآيات ١٥ الى ٣٠]

فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ (١٥) وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَ لا تَحاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَ تَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لَمًّا (١٩)

وَ تُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَ جاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى (٢٣) يَقُولُ يا لَيْتَنِی قَدَّمْتُ لِحَياتِی (٢٤)

فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَ لا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِی إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِی فِی عِبادِی (٢٩)

وَ ادْخُلِی جَنَّتِی (٣٠)

لما ذكر سبحانه أنه بالمرصاد ذكر ما يدلّ على اختلاف أحوال عباده عند إصابة الخير و عند إصابة الشرّ، و أن مطمح أنظارهم و معظم مقاصدهم هو الدنيا فقال: فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ أى: امتحنه و اختبره بالنعم فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ أى: أكرمه بالمال و وسّع عليه رزقه فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ فرحا بما نال و سرورا بما أعطى، غير شاكر للّه على ذلك و لا خاطر بباله أن ذلك امتحان له من ربه و اختبار لحاله و كشف لما يشتمل عليه من الصبر و الجزع و الشكر للنعمة و كفرانها، و «ما» فى قوله: فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ تفسير للابتلاء. و معنى أَكْرَمَنِ أى: فضلنى بما أعطانى من المال و أسبغه علىّ من النعم لمزيد استحقاقى لذلك و كونى موضعا له، و الإنسان مبتدأ، و خبره «فيقول ربى أكرمن» و دخلت الفاء فيه لتضمن أما معنى الشرط، و الظرف المتوسط بين المبتدأ و الخبر و إن تقدّم لفظا فهو مؤخر فى المعنى، أى: فأما الإنسان فيقول ربى أكرمنى وقت ابتلائه بالإنعام. قال الكلبى: الإنسان هو الكافر أبىّ بن خلف. و قال مقاتل: نزلت فى أمية بن خلف،

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٣٤

و قيل: نزلت فى عتبة بن ربيعة و أبى حذيفة بن المغيرة وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ أى: اختبره و عامله معاملة من يختبره فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ أى: ضيّقه و لم يوسعه له، و لا بسط له فيه فَيَقُولُ رَبِّى أَهانَنِ أى:

أولانى هوانا. و هذه صفة الكافر الّذى لا يؤمن بالبعث، لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا فى متاعها، و لا إهانة عنده إلا فوتها و عدم وصوله إلى ما يريد من زينتها، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه اللّه بطاعته و يوفّقه لعمل الآخرة، و يحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعدم تيقّظه أن ما صار إليه من الخير و ما أصيب به من الشرّ فى الدنيا ليس إلا للاختبار و الامتحان، و أن الدنيا بأسرها لا تعدل عند اللّه جناح بعوضة، و لو كانت تعدل جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء. قرأ نافع بإثبات الياء فى «أكرمن و أهانن» وصلا و حذفهما وقفا، و قرأ ابن كثير فى رواية البزى عنه و ابن محيصن و يعقوب بإثباتهما وصلا و وقفا، و قرأ الباقون بحذفهما فى الوصل و الوقف اتباعا لرسم المصحف و لموافقة رؤوس الآى، و الأصل إثباتها لأنها اسم، و من الحذف قول الشاعر:

و من كاشح ظاهر غمرهإذا ما انتصبت له أنكرن

أى: أنكرنى. و قرأ الجمهور «فقدر» بالتخفيف، و قرأ ابن عامر بالتشديد، و هما لغتان. و قرأ الحرميان و أبو عمرو «ربى» بفتح الياء فى الموضعين و أسكنها الباقون. و قوله: كَلَّا ردع للإنسان القائل فى الحالتين ما قال: و زجر له، فإن اللّه سبحانه قد يوسع الرزق و

يبسط النعم للإنسان لا لكرامته، و يضيقه عليه لا لإهانته، بل للاختبار و الامتحان كما تقدّم. قال الفراء: كلّا فى هذا الموضع بمعنى أنه لم يكن ينبغى للعبد أن يكون هكذا، و لكن يحمد اللّه على الغنى و الفقر. ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أقوال الإنسان إلى بيان سوء أفعاله فقال: بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ و الالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ و التقريع على قراءة الجمهور بالفوقية. و قرأ أبو عمرو و يعقوب بالتحتية على الخبر، و هكذا اختلفوا فيما بعد هذا من الأفعال، فقرأ الجمهور «تحضون، و تأكلون، و تحبون» بالفوقية على الخطاب فيها. و قرأ أبو عمرو و يعقوب بالتحتية فيها، و الجمع فى هذه الأفعال باعتبار معنى الإنسان، لأن المراد به الجنس، أى: بل لكم أفعال هى أقبح مما ذكر، و هى أنكم تتركون إكرام اليتيم فتأكلون ماله و تمنعونه من فضل أموالكم. قال مقاتل: نزلت فى قدامة بن مظعون و كان يتيما فى حجر أمية بن خلف. وَ لا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ قرأ الجمهور «تحضون» من حضّه على كذا، أى: أغراه به، و مفعوله محذوف، أى: لا تحضون أنفسكم، أو لا يحضّ بعضكم بعضا على ذلك و لا يأمر به و لا يرشد إليه، و قرأ الكوفيون «تحاضون» بفتح التاء و الحاء بعدها ألف، و أصله تتحاضون، فحذف إحدى التاءين، أى: لا يحضّ بعضكم بعضا. و قرأ الكسائى فى رواية عنه و السلمى «تحاضون» بضم التاء من الحضّ، و هو الحث. و قوله: عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ متعلّق بتحضون، و هو إما اسم مصدر، أى: على إطعام المسكين، أو اسم للمطعوم، و يكون على حذف مضاف، أى: على بذل طعام المسكين، أو على إعطاء طعام المسكين وَ تَأْكُلُونَ التُّراثَ أصله الوراث، فأبدلت التاء من الواو المضمومة، كما فى تجاه و وجاه، و المراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم، و كذلك أموال النساء،

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۳۵

و ذلك أنهم كانوا لا يورّثون النساء و الصبيان و يأكلون أموالهم أَكْلًا لَمًّا أى: أكلا شديدا، و قيل معنى لمّا: جمعا، من قولهم: لممت الطعام؛ إذا أكلته جميعا. قال الحسن: يأكل نصيبه و نصيب اليتيم، و كذا قال أبو عبيدة: و أصل اللمّ فى كلام العرب: الجمع، يقال: لممت الشىء ألمه لما: جمعته، و منه قولهم:

لمّ اللّه شعثه: أى جمع ما تفرّق من أموره، و منه قول النابغة:

و لست بمستبق أخا لا تلمّهعلى شعث أىّ الرّجال المهذّب

قال الليث: اللمّ: الجمع الشديد، و منه حجر ملموم، و كتيبة ملمومة، و للآكل: يلمّ الثريد فيجمعه ثم يأكله. و قال مجاهد: يسفّه سفّا. و قال ابن زيد: هو إذا أكل ماله ألمّ بمال غيره فأكله و لا يفكر فيما أكل من خبيث و طيب وَ تُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا أى: حبّا كثيرا، و الجمّ: الكثير، يقال: جمّ الماء فى الحوض؛ إذا كثر و اجتمع، و الجملة: المكان الّذى يجتمع فيه الماء. ثم كرّر سبحانه الردع لهم و الزجر فقال كَلَّا أى: ما هكذا ينبغى أن يكون عملكم. ثم استأنف سبحانه فقال إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا و فيه وعيد لهم بعد الردع و الزجر، و الدكّ: الكسر و الدق، و المعنى هنا: أنها زلزلت و حركت تحريكا بعد تحريك. قال ابن قتيبة: دكّت جبالها حتى استوت. قال الزّجّاج: أى: تزلزلت فدكّ بعضها بعضا. قال المبرّد: أى: بسطت و ذهب ارتفاعها. قال: و الدكّ: حطّ المرتفع بالبسط، و قد تقدّم الكلام على الدكّ فى سورة الأعراف، و فى سورة الحاقة. و المعنى: أنها دكت مرة بعد أخرى، و انتصاب «دكا» الأوّل على أنه مصدر مؤكد للفعل، و «دكا» الثانى تأكيد للأوّل، كذا قال ابن عصفور. و يجوز أن يكون النصب على الحال، أى: حال كونها مدكوكة مرة بعد مرة، كما يقال: علّمته الحساب بابا بابا، و علّمته الخطّ حرفا حرفا، و المعنى: أنه كرّر الدك عليها حتى صارت هباء منبثا. وَ جاءَ رَبُّكَ أى: جاء أمره و قضاؤه و ظهرت آياته، و قيل: المعنى: أنها زالت الشبه فى ذلك اليوم، و ظهرت المعارف، و صارت ضرورية، كما يزول الشكّ عن مجىء الشىء الّذى كان يشكّ فيه، و قيل: جاء قهر ربّك و سلطانه و انفراده و التدبير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئا من ذلك وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا انتصاب «صفا صفا» على الحال، أى:

مصطفين، أو ذوى صفوف. قال عطاء: يريد صفوف الملائكة، و أهل كلّ سماء صفّ كلّ على حدة.
قال الضحاك: أهل كلّ سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفا محيطين بالأرض و من فيها، فيكونون سبعة صفوف وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ «يومئذ» منصوب بجىء، و القائم مقام الفاعل بجهنم، و جوّز مكّى أن يكون يومئذ هو القائم مقام الفاعل، و ليس بذاك.
قال الواحدى: قال جماعة من المفسرين: جىء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف زمام، مع كلّ زمام سبعون ألف ملك يجرّونها حتى تنصب عن يسار العرش، فلا يبقى ملك مقرّب و لا نبى مرسل إلا جثا لركبتيه يقول: يا ربّ نفسى نفسى. و سيأتى الّذى نقله هذا عن جماعة المفسرين مرفوعا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إن شاء اللّه. يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ «يومئذ» هذا بدل من يومئذ الّذى قبله، أى: يوم جىء بجهنم يتذكر الإنسان، أى: يتّعظ و يذكر ما فرط منه و يندم على ما قدّمه فى الدنيا من الكفر و المعاصى. و قيل: إن قوله «يومئذ» الثانى بدل من قوله «إذا دكت» و العامل فيهما هو قوله:
فتح القدير، ج‏5، ص: 536
يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى أى: و من أين له التّذكّر و الاتّعاظ، و قيل: هو على حذف مضاف، أى: و من أين له منفعة الذكرى. قال الزّجّاج: يظهر التوبة و من أين له التوبة؟ يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ماذا يقول الإنسان، و يجوز أن تكون بدل اشتمال من قوله: يتذكر، و المعنى: يتمنى أنه قدّم الخير و العمل الصالح، و اللام فى لحياتى بمعنى لأجل حياتى، و المراد حياة الآخرة، فإنها الحياة بالحقيقة؛ لأنها دائمة غير منقطعة. و قيل: إن اللام بمعنى فى، و المراد حياة الدنيا، أى: يا ليتنى قدّمت الأعمال الصالحة فى وقت حياتى فى الدنيا أنتفع بها هذا اليوم، و الأوّل أولى.
قال الحسن: علم و اللّه أنه صادف حياة طويلة لا موت فيها فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ أى: يوم يكون زمان ما ذكر من الأحوال لا يعذب كعذاب اللّه أحد وَ لا يُوثِقُ ك وَثاقَهُ أَحَدٌ أو لا يتولى عذاب اللّه و وثاقه أحد سواه إذ الأمر كله له، و الضميران على التقديرين فى عذابه و وثاقه للّه عزّ و جلّ، و هذا على قراءة الجمهور يعذب و يوثق مبنيين للفاعل. و قرأ الكسائى على البناء للمفعول فيهما، فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان، أى: لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد و لا يوثق كوثاقه أحد، و المراد بالإنسان الكافر، أى: لا يعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر، و قيل: إبليس، و قيل: المراد به أبيّ بن خلف.
قال الفرّاء: المعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، و لا يوثق بالسلاسل و الأغلال كوثاقه أحد لتناهيه فى الكفر و العناد. و قيل: المعنى: أنه لا يعذب مكانه أحد و لا يوثق مكانه أحد، و لا تؤخذ منه فدية، و هو كقوله: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى «1» و العذاب بمعنى التعذيب، و الوثاق بمعنى التوثيق، و اختار أبو عبيد و أبو حاتم قراءة الكسائى، قال: و تكون الهاء فى الموضعين ضمير الكافر؛ لأنه معروف أنه لا يعذب أحد كعذاب اللّه. قال أبو علىّ الفارسى: يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة، أى: لا يعذب أحد أحدا مثل تعذيب هذا الكافر.
و لما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء ذكر بعض أحوال السعداء فقال يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ المطمئنة: هى الساكنة الموقنة بالإيمان و توحيد اللّه، الواصلة إلى ثلج اليقين؛ بحيث لا يخالطها شكّ و لا يعتريها ريب. قال الحسن: هى المؤمنة الموقنة. و قال مجاهد: الراضية بقضاء اللّه التى علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، و أن ما أصابها لم يكن ليخطئها. و قال مقاتل، هى الآمنة المطمئنة. و قال ابن كيسان: المطمئنة بذكر اللّه، و قيل: المخلصة. قال ابن زيد: المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت و عند البعث ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ أى: ارجعى إلى اللّه راضِيَةً بالثواب الّذى أعطاك مَرْضِيَّةً عنده، و قيل: ارجعى إلى موعده، و قيل: إلى أمره. و قال عكرمة و عطاء: معنى ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ إلى جسدك الّذى كنت فيه، و اختاره ابن جرير، و يدل على هذا قراءة ابن عباس «فادخلى فى عبدى» بالإفراد، و الأوّل أولى فَادْخُلِي فِي عِبادِي أى: فى زمرة عبادى الصالحين، و كونى من جملتهم، و انتظمى فى سلكهم

(١). الأنعام: ١۶۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۳۷

وَ ادْخُلِي جَنَّتِي معهم، قيل: إنه يقال لها ارجعى إلى ربك عند خروجها من الدنيا، و يقال لها: ادخلى فى عبادى و ادخلى جنتى يوم القيامة، و المراد بالآية كل نفس مطمئنة على العموم، و لا ينافى ذلك نزولها فى نفس معينة، فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَكْلًا لَمًّا قال: سفا، و فى قوله: حُبًّا جَمًّا قال: شديدا، و أخرج ابن جرير عنه أَكْلًا لَمًّا قال: شديدا.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا قال: تحريكها. و أخرج مسلم و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى يقول: و كيف له؟ و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ الآية قال: لا يعذب بعذاب اللّه أحد و لا يوثق بوثاق اللّه أحد. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عنه أيضا فى قوله: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ قال: المؤمنة ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ يقول: إلى جسدك. قال: «نزلت هذه الآية و أبو بكر جالس، فقال: يا رسول اللّه ما أحسن هذا، فقال: أما إنه سيقال لك هذا». و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، عن سعيد بن جبير نحوه مرسلا. و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول نحوه عن أبى بكر الصديق و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ قال: هو النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ المصدّقة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: تردّ الأرواح يوم القيامة فى الأجساد. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً قال: بما أعطيت من الثواب مَرْضِيَّةً عنها بعملها فَادْخُلِي فِي عِبادِي المؤمنين. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى عن سعيد بن جبير قال: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طير لم ير على خلقته فدخل نعشه، ثم لم ير خارجا منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا ندرى من تلاها يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ- ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً- فَادْخُلِي فِي عِبادِي- وَ ادْخُلِي جَنَّتِي و أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن عكرمة مثله.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۳۸

سورة البلد

اشارة

و يقال سورة: لا أقسم، هى عشرون آية و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة لا أقسم بهذا البلد بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة البلد (٩٠): الآيات ١ الى ٢٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (١) وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ (٢) وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ (۴)
أَ يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (۵) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً (۶) أَ يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَ لِساناً وَ شَفَتَيْنِ (٩)
وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١۴)
يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ (١۵) أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ (١۶) ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩)
عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠)
قوله: لا أُقْسِمُ لا زائدة، و المعنى أقسم بِهذَا الْبَلَدِ و قد تقدّم الكلام على هذا فى تفسير لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ «١»، و من زيادة «لا» فى الكلام فى غير القسم قول الشاعر:
تذكّرت ليلى فاعترتنى صبابةو كاد صميم القلب لا يتصدّع «٢»
أى: يتصدّع، و من ذلك قوله: ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ «٣» أى: أن تسجد. قال الواحدى:
أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام و هو مكة. قرأ الجمهور «لا أقسم» و قرأ الحسن و الأعمش «لأقسم» من غير ألف، و قيل: هو نفى للقسم، و المعنى: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه. و قال مجاهد: إن «لا» ردّ على من أنكر البعث، ثم ابتدأ فقال أقسم، و المعنى: ليس الأمر كما تحسبون، و الأوّل أولى. و المعنى: أقسم بالبلد الحرام الّذى أنت حلّ فيه. و قال الواسطى: إن المراد بالبلد المدينة، و هو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضا مدفوع لكون السورة مكية لا مدنية، و جملة قوله: وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ معترضة، و المعنى: أقسم بهذا البلد وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ- لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ و اعترض بينهما بهذه الجملة، و المعنى: و من المكابد أن مثلك على عظيم حرمته يستحل بهذا البلد كما يستحلّ الصيد فى غير الحرم. و قال الواحدى: الحلّ و الحلال و المحل واحد، و هو ضدّ المحرّم، أحلّ اللّه لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم مكة يوم

---

(١). القيامة: ١.
(٢). فى تفسير القرطبى: لا يتقطع.
(٣). الأعراف: ١٢.

الفتح حتى قاتل، و قد قال صلّى اللّه عليه و سلّم: «لم تحلّ لأحد قبلى، و لا تحلّ لأحد بعدى، و لم تحلّ لى إلا ساعة من نهار». قال: و المعنى أن اللّه لما ذكر القسم بمكة دلّ ذلك على عظم قدرها مع كونها حراما، فوعد نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يحلّها له حتى يقاتل فيها و يفتحها على يده، فهذا وعد من اللّه تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلا، انتهى. فالمعنى: و أنت حلّ بهذا البلد فى المستقبل، كما فى قوله: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ «١» قال مجاهد: المعنى ما صنعت فيه من شىء فأنت حلّ. قال قتادة: أنت حلّ له لست بآثم، يعنى: أنك غير مرتكب فى هذه البلد ما يحرم عليك ارتكابه، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر و المعاصى. و قيل: المعنى: لا أقسم بهذا البلد و أنت حالّ به و مقيم فيه و هو محلك، فعلى القول بأن لا نافية غير زائدة يكون المعنى: لا أقسم به و أنت حالّ به، فأنت أحقّ بالإقسام بك، و على القول بأنها زائدة يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الّذى أنت مقيم به تشريفا لك و تعظيما لقدرك؛ لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيما شريفا، و زاد على ما كان عليه من الشرف و العظم، و

لكن هـذا إذا تقرّر فى لغة العرب أن لفظ حلّ يجىء بمعنى حلّ، و كما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ عطف على البلـد. قال قتادة و مجاهد و الضحاك و الحسن و أبو صالح وَ والِدٍ أى: آدم وَ ما وَلَدَ أى: و ما تناسل من ولـده أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق اللّه على وجه الأرض لما فيهم من البيان و العقل و التدبير، و فيهم الأنبياء و العلماء و الصالحون. و قال أبو عمران الجونى: الوالد: إبراهيم و ما ولد: ذريته. قال الفرّاء: إن «ما» عبارة عن الناس كقوله: ما طابَ لَكُمْ «٢» و قيل: الوالد: إبراهيم، و الولد: إسماعيل و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و قال عكرمة و سعيد بن جبير: وَ والِدٍ يعنى الّذى يولد له وَ ما وَلَدَ يعنى العاقر الّذى لا يولد له، و كأنهما جعلا «ما» نافية، و هو بعيد، و لا يصحّ ذلك إلا بإضمار الموصول: أى: و والد و الّذى ما ولد، و لا يجوز إضمار الموصول عند البصريين، و قال عطية العوفى: هو عام فى كل والد و مولود من جميع الحيوانات، و اختار هذا ابن جرير لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ هذا جواب القسم، و الإنسان هو هذا النوع الإنسانى، و الكبد: الشدّة و المشقة، يقال: كابدت الأمر: قاسيت شدّته، و الإنسان لا يزال فى مكابدة الدنيا و مقاساة شدائدها حتى يموت، و أصل الكبد: الشدّة، و منه تكبّد اللبن: إذا غلظ و اشتدّ، و يقال: كبد الرجل؛ إذا وجعت كبده، ثم استعمل فى كل شدّة و مشقة، و منه قول أبى الأصبغ:

لى ابن عمّ لو أن النّاس فى كبدلظلّ محتجرا بالنّبل يرمينى

قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا و شدائد الآخرة. و قال أيضا: يكابد الشكر على السرّاء، و يكابد الصبر على الضرّاء، لا يخلو عن أحدهما. قال الكلبى: نزلت هذه الآية فى رجل من بنى جمح يقال له أبو الأشدين «٣»، و كان يأخذ الأديم العكاظىّ و يجعله تحت رجليه، و يقول: من أزالنى عنه فله كذا، فيجذبه

---

(١). الزمر: ٣٠.

(٢). النساء: ٣.

(٣). فى الكشاف: أبو الأشدّ.

عشرة حتى يتمزّق و لا تزول قدماه، و كان من أعداء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و فيه نزل: أَ يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يعنى لقوّته، و يكون معنى فِي كَبَدٍ على هذا: فى شدّة خلق، و قيل: معنى فِي كَبَدٍ أنه جرىء القلب غليظ الكبد أَ يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ أى: يظنّ ابن آدم أن لن يقدر عليه و لا ينتقم منه أحد، أو يظنّ أبو الأشدّين أن لن يقدر عليه أحد، و أن هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن مقدّر. ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال: يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً أى: كثيرا مجتمعا بعضه على بعض. قال الليث: مال لبد لا يخاف فناؤه من كثرته. قال الكلبى و مقاتل: يقول أهلكت فى عداوة محمد مالا كثيرا. و قال مقاتل: نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل؛ أذنب فاستفتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فأمره أن يكفّر، فقال: لقد ذهب مالى فى الكفّارات و النفقات منذ دخلت فى دين محمد. قرأ الجمهور «لبدا» بضم اللام و فتح الباء مخفّفا، و قرأ مجاهد و حميد بضم اللام و الباء مخففا. و قرأ أبو جعفر بضم اللام و فتح الباء مشدّدا. قال أبو عبيدة: لبد: فعل من التلبيد، و هو المال الكثير بعضه على بعض. قال الزجاج: فعل للكثرة، يقال رجل حطم: إذا كان كثير الحطم. قال الفرّاء: واحدته لبدة و الجمع لبد. و قد تقدّم بيان هذا فى سورة الجنّ أَ يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ أى: أ يظنّ أنه لم يعاينه أحد، قال قتادة: أ يظنّ أن اللّه سبحانه لم يره و لا يسأله عن ماله من أين كسبه، و أين أنفقه؟ و قال الكلبى: كان كاذبا لم ينفق ما قال، فقال اللّه: أ يظنّ أن اللّه لم ير ذلك منه، فعل أو لم يفعل، أنفق أو لم ينفق.

ثم ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم ليعتبروا فقال: أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ يبصر لهما وَ لِساناً ينطق به وَ شَفَتَيْنِ يستر بهما ثغره. قال الزجاج: المعنى ألم نفعل به ما يدلّ على أن اللّه قادر على أن يبعثه، و الشفة محذوفة الهاء، و أصلها شفهة بدليل تصغيرها على شفيهة وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ النجد: الطريق فى ارتفاع. قال المفسرون: بيّنّا له طريق الخير و طريق الشرّ. قال الزجاج: المعنى أ لم نعرفه طريق الخير و طريق الشرّ، مبينتين كتبيّن الطريقين العاليتين. و قال عكرمة و سعيد بن المسيب و الضحاك: النجدان: الثديان لأنهما كالطريقين لحياة الولد و رزقه، و الأوّل أولى. و أصل النجد المكان المرتفع، و جمعه نجود، و منه سمّيت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة، فالنجدان: الطريقان العاليان، و منه قول امرئ القيس:

فريقان منهم قاطع بطن نخلةو آخر منهم قاطع نجد كبكب

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ الاقتحام: الرمى بالنفس فى شىء من غير روية، يقال منه: قحم فى الأمر قحوما، أى: رمى بنفسه فيه من غير روية، و تقحيم النفس فى الشىء: إدخالها فيه من غير رويّة، و القحمة بالضم:

المهلكة. و العقبة فى الأصل: الطريق التى فى الجبل؛ سمّيت بذلك لصعوبة سلوكها، و هو مثل ضربه سبحانه لمجاهدة النفس و الهوى و الشيطان فى أعمال البر، فجعله كالذى يتكلّف صعود العقبة. قال الفرّاء و الزجاج:

ذكر سبحانه هنا «لا» مرة واحدة، و العرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضى فى مثل هذا الموضع حتى يعيدوها

فتح القدير، ج‏5، ص: 541

فى كلام آخر كقوله: فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّى «1» و إنما أفردها هنا لدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله: ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا قائما مقام التكرير، كأنه قال: فلا اقتحم العقبة، و لا آمن.

قال المبرد و أبو على الفارسى: إن «لا» هنا بمعنى لم، أى: فلم يقتحم العقبة، و روى نحو ذلك عن مجاهد، فلهذا لم يحتج إلى التكرير، و منه قول زهير:

و كان طوى كشحا على مستكنّةفلا هو أبداها و لم يتقدّم

أى: فلم يبدها و لم يتقدم، و قيل: هو جار مجرى الدعاء كقولهم: لا نجا. قال أبو زيد و جماعة من المفسرين: معنى الكلام هنا الاستفهام الّذى بمعنى الإنكار، تقديره: أفلا اقتحم العقبة، أو هلا اقتحم العقبة.

ثم بيّن سبحانه العقبة فقال وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ أى: أىّ شىء أعلمك ما اقتحامها فَكُّ رَقَبَةٍ أى هى إعتاق رقبة و تخليصها من أسار الرّق، و كل شىء أطلقته فقد فككته، و منه: فك الرهن، و فك الكتاب، فقد بيّن سبحانه أن العقبة هى هذه القرب المذكورة التى تكون بها النجاة من النار. قال الحسن و قتادة: هى عقبة شديدة فى النار دون الجسر، فاقتحموها بطاعة اللّه. و قال مجاهد و الضحاك و الكلبى: هى الصراط الّذى يضرب على جهنم كحدّ السيف. و قال كعب: هى نار دون الجسر. قيل: و فى الكلام حذف، أى: و ما أدراك ما اقتحام العقبة؟ قرأ أبو عمرو و ابن كثير و الكسائى «فكّ رقبة» على أنه فعل ماض و نصب رقبة على المفعولية، و هكذا قرءوا أو أطعم: على أنه فعل ماض. و قرأ الباقون فكّ أو إطعام على أنهما مصدران و جرّ رقبة بإضافة المصدر إليها، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلا من اقتحم أو بيانا له كأنه قيل: فلا فك و لا أطعم، و الفكّ فى الأصل: حلّ القيد، سمّى العتق فكّا لأن الرق كالقيد، و سمى المرقوق رقبة لأنه بالرق كالأسير المربوط فى رقبته أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ المسغبة: المجاعة، و السّغب: الجوع، و الساغب: الجائع. قال الراغب: يقال منه: سغب الرجل سغبا و سغوبا فهو ساغب و سغبان، و المسغبة مفعلة منه، و أنشد أبو عبيدة:

فلو كنت حرّا يا ابن قيس بن عاصملما بتّ شبعانا و جارك ساغبا

قال النخعى فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ أى: عزيز فيه الطعام يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ أى: قرابة، يقال:

فلان ذو قرابتى و ذو مقربتى، و اليتيم فى الأصل: الضعيف، يقال: يتم الرجل: إذا ضعف، و اليتيم عند أهل اللغة: من لا أب له، و قيل: هو من لا أب له و لا أمّ، و منه قول قيس بن الملوّح:

إلى اللّه أشكو فقد ليلى كما شكاإلى اللّه فقد الوالدين يتيم

أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ أى: لا شىء؛ له كأنه لصق بالتراب لفقره، و ليس له مأوى إلا التراب، يقال: ترب الرجل يترب تربا و متربة: إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضرّا. قال مجاهد: هو الّذى لا يقيه

---

(۱). القيامة: ۳۱.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۴۲

من التراب لباس و لا غيره. و قال قتادة: هو ذو العيال. و قال عكرمة: هو المديون. و قال أبو سنان: هو ذو الزّمانة. و قال ابن جبير: هو الّذى ليس له أحد. و قال عكرمة: هو البعيد التربة الغريب عن وطنه، و الأوّل أولى، و منه قول الهذلىّ:

و كنّا إذا ما الضّيف حلّ بأرضناسفكنا دماء البدن فى تربة الحال

قرأ الجمهور «ذى مسغبة» على أنه صفة ليوم، و يتيما هو مفعول إطعام. و قرأ الحسن «ذا مسغبة» بالنصب على أنه مفعول إطعام، أى: يطعمون ذا مسغبة، و يتيما بدل منه ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا عطف على المنفىّ بلا، و جاء بثم للدلالة على تراخى رتبة الإيمان و رفعة محلّه. و فيه دليل على أن هذه القرب إنما نفع مع الإيمان، و قيل: المعنى: ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم. و قيل المعنى: أنه أتى بهذه القرب لوجه اللّه وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ معطوف على آمنوا، أى: أوصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة اللّه، و عن معاصيه، و على ما أصابهم من البلايا و المصائب وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أى: بالرحمة على عباد اللّه فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم و المسكين، و استكثروا من فعل الخير بالصدقة و نحوها، و الإشارة بقوله:

أُولئِكَ* إلى الموصول باعتبار اتّصافه بالصفات المذكورة هم أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ أى: أصحاب جهة اليمين، أو أصحاب اليمن، أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم، و قيل غير ذلك مما قد قدّمنا ذكره فى سورة الواقعة وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا أى: بالقرآن، أو بما هو أعمّ منه، فتدخل الآيات التنزيلية و الآيات التكوينية التى تدلّ على الصانع سبحانه هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ أى: أصحاب الشمال، أو أصحاب الشؤم، أو الذين يعطون كتبهم بشمالهم، أو غير ذلك مما تقدّم عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ أى: مطبقة مغلقة، يقال:

آصدت الباب و أوصدته؛ إذا أغلقته و أطبقته، و منه قول الشاعر:

تحنّ إلى أجبال مكّة ناقتىو من دونها أبواب صنعاء مؤصده

قرأ الجمهور «موصدة» بالواو. و قرأ أبو عمرو و حمزة و حفص بالهمزة مكان الواو، و هما لغتان، و المعنى واحد.

و قد أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ قال: مكة وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ يعنى بذلك النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، أحلّ اللّه له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء و يستحيى من شاء، فقتل له يومئذ ابن خطل صبرا، و هو آخذ بأستار الكعبة، فلم يحلّ لأحد من الناس بعد النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أن يفعل فيها حراما حرّمه اللّه، فأحلّ اللّه له ما صنع بأهل مكة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله: لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ قال مكة وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ قال: أنت يا محمد يحلّ لك أن تقاتل فيه، و أما غيرك فلا. و أخرج ابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى قال: نزلت هذه الآية لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ- وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ فىّ، خرجت فوجدت عبد اللّه بن خطل و هو متعلّق بأستار الكعبة، فضربت عنقه بين الركن و المقام.

و أخرج الحاكم و صحّحه عن ابن عباس لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ- وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۴۳

الْبَلَدِ قال: أحلّ له أن يصنع فيه ما شاء وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ قال: يعنى بالوالد: آدم، و ما ولد: ولده. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية. قال:

الوالد: الّذى يلد، و ما ولد: العاقر لا يلد من الرجال و النساء. و أخرج ابن جرير و الطبرانى عنه أيضا [فى قوله: لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ قال: مكة وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ قال: مكة وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ قال: آدم «۱» لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ قال: اعتدال و انتصاب. و أخرج ابن جرير عنه أيضا لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ قال: فى نصب. و أخرج ابن جرير عنه أيضا لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ قال: فى شدّة. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ قال: فى شدّة خلق ولادته و نبت أسنانه و معيشته و ختانه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ قال: خلق اللّه كل شىء يمشى على أربع إلا الإنسان فإنه خلق منتصبا. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عنه أيضا لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ قال: منتصبا فى بطن أمه أنه قد و كل له ملك إذا نامت الأمّ أو اضطجعت رفع رأسه، و لو لا ذلك لغرق فى الدم. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: مالًا لُبَداً قال: كثيرا. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صححه، عن ابن مسعود فى قوله: وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ قال: سبيل الخير و الشرّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ قال: الهدى و الضلالة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عنه قال: سبيل الخير و الشرّ. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق سنان بن سعد عن أنس قال: قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «هما نجدان، فما جعل نجد الشرّ أحب إليكم من نجد الخير».

تفرّد به سنان بن سعد، و يقال: سعد بن سنان. و قد وثّقه يحيى بن معين. و قال الإمام أحمد و النسائى و الجوزجانى: منكر الحديث. و قال أحمد: تركت حديثه لاضطرابه، قد روى خمسة عشر حديثا منكرة كلها، ما أعرف منها حديثا واحدا، يشبه حديثه حديث الحسن البصرى، لا يشبه حديث أنس. و أخرجه عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه من طرق عن الحسن قال: ذكر لنا أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقول، فذكره. و هذا مرسل، و كذا رواه قتادة مرسلا. أخرجه عنه ابن جرير و يشهد له ما أخرج الطبرانى عن أبى أمامة أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يا أيها الناس إنهما نجدان: نجد خير، و نجد شرّ، فما جعل نجد الشرّ أحب إليكم من نجد الخير»، و يشهد له أيضا ما أخرجه ابن مردويه عن أبى هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«إنما هما نجدان: نجد الخير، و نجد الشرّ، فلا يكن نجد الشرّ أحب إليكم من نجد الخير». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ قال: الثّديين.

---

(۱). ما بين حاصرتين سقط من الأصل و استدرک من الدر المنثور (۸/ ۵۱۹)

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۴۴

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ قال: جبل زلال فى جهنم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: العقبة النار. و أخرج عبد بن حميد عنه قال: عقبة بين الجنة و النار. و أخرج الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن عائشة قالت: لما نزل فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ قيل: يا رسول اللّه ما عند أحدنا ما يعتق إلا أنّ عند أحدنا الجارية السوداء تخدمه، فلو أمرناهنّ بالزنا فجئن بالأولاد فأعتقناهم، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لأن أمتع بسوط فى سبيل اللّه أحبّ إلىّ من أن آمر بالزنا ثم أعتق الولد». و أخرجه ابن جرير عنها بلفظ: «لعلاقة سوط فى سبيل اللّه أعظم أجرا من هذا».

و قد ثبت الترغيب فى عتق الرقاب بأحاديث كثيرة: منها فى الصحيحين و غيرهما عن أبى هريرة قال:
قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق اللّه بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى الفرج بالفرج». و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ قال: مجاعة.
و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ قال: جوع. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ قال: ذا قرابة، و فى قوله: ذا مَتْرَبَةٍ قال: بعيد التربة، أى: غريبا عن وطنه. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عنه أيضا أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ قال: هو المطروح الّذى ليس له بيت. و فى لفظ للحاكم: هو الّذى لا يقيه من التراب شىء. و فى لفظ: هو اللازق بالتراب من شدّة الفقر.
و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ قال: «الّذى مأواه المزابل». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ يعنى بذلك رحمة الناس كلهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه مُؤْصَدَةٌ قال: مغلقة الأبواب. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة مُؤْصَدَةٌ قال: مطبقة.
فتح القدير، ج۵، ص: ۵۴۵

سورة الشمس

اشارة

و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت «و الشمس و ضحاها» بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج أحمد، و الترمذى و حسّنه، و النسائى عن بريدة: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ فى صلاة العشاء و الشمس و ضحاها و أشباهها من السور». و قد تقدّم حديث جابر فى الصحيح: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال لمعاذ: «هلّا صليت بسبّح اسم ربك الأعلى، و الشمس و ضحاها، و الليل إذا يغشى». و أخرج الطبرانى عن ابن عباس: أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أمره أن يقرأ فى صلاة الصبح بالليل إذا يغشى و الشمس و ضحاها». و أخرج البيهقى فى الشعب عن عقبة ابن عامر قال: «أمرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن نصلّى ركعتى الضحى بسورتيهما بالشمس و ضحاها و الضّحى».
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الشمس (۹۱): الآيات ۱ الى ۱۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها (۱) وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها (۲) وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها (۳) وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها (۴)
وَ السَّماءِ وَ ما بَناها (۵) وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها (۶) وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها (۷) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها (۸) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (۹)
وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (۱۰) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها (۱۱) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها (۱۲) فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها (۱۳) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها (۱۴)

وَ لا يَخافُ عُقْباها (۱۵)

أقسم سبحانه بهذه الأمور، و له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، و قال قوم: إن القسم بهذه الأمور و نحوها مما تقدّم، و مما سيأتى هو على حذف مضاف، أى: و ربّ الشَّمْسِ و ربّ القمر، و هكذا سائرها، و لا ملجئ إلى هذا و لا موجب له، و قوله: وَ ضُحاها هو قسم ثان، قال مجاهد: وَ ضُحاها أى: ضوؤها و إشراقها، و أضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون عند ارتفاعها، و كذا قال الكلبى. و قال قتادة: ضُحاها: نهارها كله. قال الفراء: الضحى: هو النهار. و قال المبرد: أصل الضحى، الصبح، و هو نور الشمس. قال أبو الهيثم: الضحى: نقيض الظلّ، و هو نور الشمس على وجه الأرض، و أصله:

الضحى فاستثقلوا الياء فقلبوها ألفا. قيل: و المعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس و بعيد ذلك قليلا، فإذا زاد فهو الضّحاء بالمد. قال المبرد: الضحى و الضحوة مشتقان من الضّحّ و هو النور، فأبدلت الألف و الواو من الحاء.

و اختلف فى جواب القسم ماذا هو؟ فقيل: هو قوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها قاله الزجاج و غيره.

قال الزجاج: و حذفت اللام؛ لأن الكلام قد طال، فصار طوله عوضا منها، و قيل: الجواب محذوف، أى:

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۴۶

و الشمس، و كذا: لتبعثنّ، و قيل: تقديره: ليدمدمنّ اللّه على أهل مكة لتكذيبهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما دمدم على ثمود لأنهم كذّبوا صالحا، و أما قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها فكلام تابع لقوله: فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها على سبيل الاستطراد، و ليس من جواب القسم فى شىء، و قيل: هو على التقديم و التأخير بغير حذف، و المعنى: قد أفلح من زكّاها و قد خاب من دسّاها و الشمس و ضحاها، و الأوّل أولى. وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها أى: تبعها، و ذلك بأن طلع بعد غروبها، يقال: تلا يتلو تلوا؛ إذا تبع. قال المفسّرون: و ذلك فى النصف الأوّل من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر فى الإضاءة و خلفها فى النور. قال الزجاج: تلاها حين استدار، فكان يتلو الشمس فى الضياء و النور، يعنى إذا كمل ضوءه فصار تابعا للشمس فى الإنارة، ليلة الهلال إذا سقطت رؤى الهلال. قال ابن زيد: إذا غربت الشمس فى النصف الأوّل من الشهر تلاها القمر بالطلوع، و فى آخر الشهر يتلوها بالغروب، و قال الفراء: تلاها: أخذ منها، يعنى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها أى: جلّى الشمس، و ذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلى تمام الانجلاء، فكأنه جلاها مع أنها التى تبسطه. و قيل: الضمير عائد إلى الظلمة، أى: جلّى الظلمة، و إن لم يجر للظلمة ذكر، لأن المعنى معروف. قال الفراء: كما تقول أصبحت باردة، أى: أصبحت غداتنا باردة، و الأوّل أولى.

و منه قول قيس بن الخطيم:

تجلّت لنا كالشّمس تحت غمامةبدا حاجب منها و ضنّت بحاجب

و قيل: المعنى: جلّى ما فى الأرض من الحيوانات و غيرها بعد أن كانت مستترة فى الليل، و قيل: جلّى الدّنيا، و قيل: جلّى الأرض وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها أى: يغشى الشمس فيذهب بضوئها فتغيب و تظلم الآفاق، و قيل: يغشى الآفاق، و قيل: الأرض، و إن لم يجر لهما ذكر لأن ذلك معروف، و الأوّل أولى وَ السَّماءِ وَ ما بَناها يجوز أن تكون ما مصدرية، أى: و السماء و بنيانها. و يجوز أن تكون موصولة، أى: و الّذى بناها، و إيثار «ما» على من لإدارة الوصفية لقصد التفخيم؛ كأنه قال: و القادر العظيم الشأن الّذى بناها. و رجح الأوّل الفراء و الزجاج، و لا وجه لقول من قال: إن جعلها مصدرية مخلّ بالنّظم. و رجّح الثانى ابن جرير وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها الكلام فى «ما» هذه كالكلام فى التى قبلها، و معنى طحاها:

بسطها، كذا قال عامة المفسرين، كما فى قوله: دَحاها «۱» قالوا: طحاها و دحاها واحد، أى:

بسطها من كل جانب، و الطّحو: البسط، و قيل: معنى طحاها قسمها، و قيل: خلقها، و منه قول الشاعر:

و ما تدرى جذيمة من طحاهاو لا من ساكن العرش الرّفيع

و الأوّل أولى. و الطّحو أيضا: الذهاب. قال أبو عمرو بن العلاء: طحا الرجل؛ إذا ذهب فى الأرض،

---

(١). النازعات: ٣٠.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٤٧

يقال: ما أدرى أين طحا! و يقال: طحا به قلبه، و منه قول الشاعر «١»:

طحا بك قلب فى الحسان طروب بعيد الشّباب عصر حان مشيب

وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها الكلام فى «ما» هذه كما تقدّم، و معنى سوّاها: خلقها و أنشأها و سوّى أعضاءها. قال عطاء: يريد جميع ما خلق من الجنّ و الإنس، و التنكير للتفخيم، و قيل: المراد نفس آدم فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها أى: عرّفها و أفهمها حالهما و ما فيهما من الحسن و القبح. قال مجاهد: عرّفها طريق الفجور و التّقوى و الطّاعة و المعصية. قال الفراء: فألهمها: عرّفها طريق الخير و طريق الشرّ، كما قال:

وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ «٢». قال محمد بن كعب: إذا أراد اللّه بعبده خيرا ألهمه الخير فعمل به، و إذا أراد به الشرّ ألهمه الشرّ فعمل به. قال ابن زيد: جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى، و خذلانه إياها للفجور، و اختار هذا الزجاج، و حمل الإلهام على التوفيق و الخذلان. قال الواحدى: و هذا هو الوجه لتفسير الإلهام؛ فإن التبيين و التعليم و التعريف دون الإلهام، و الإلهام: أن يوقع فى قلبه و يجعل فيه، و إذا أوقع اللّه فى قلب عبده شيئا ألزمه ذلك الشى‏ء. قال: و هذا صريح فى أن اللّه خلق فى المؤمن تقواه، و فى الكافر فجوره قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها أى: قد فاز من زكّى نفسه و أنماها و أعلاها بالتقوى بكل مطلوب و ظفر بكلّ محبوب، و قد قدّمنا أن هذا جواب القسم على الرّاجح، و أصل الزكاة: النموّ و الزيادة، و منه زكا الزرع؛ إذا كثر وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها أى: خسر من أضلّها و أغواها. قال أهل اللغة: دسّاها أصله دسّسها، من التّدسيس، و هو إخفاء الشى‏ء فى الشى‏ء، فمعنى دسّاها فى الآية: أخفاها و أهملها و لم يشهرها بالطاعة و العمل الصالح، و كانت أجواد العرب تنزل الأمكنة المرتفعة ليشتهر مكانها فيقصدها الضيوف، و كانت لئام العرب تنزل الهضاب و الأمكنة المنخفضة ليخفى مكانها عن الوافدين. و قيل: معنى دساها: أغواها، و منه قول الشاعر:

و أنت الّذى دسّيت عمرا فأصبحت حلائله منه أرامل ضيّعا

و قال ابن الأعرابى وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها أى: دسّ نفسه فى جملة الصالحين و ليس منهم كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها الطّغوى: اسم من الطغيان؛ كالدعوى من الدعاء. قال الواحدى: قال المفسرون: كذبت ثمود بطغيانها، أى: الطغيان حملهم على التكذيب، و الطغيان: مجاوزة الحدّ فى المعاصى، و الباء للسببية.

و قيل: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها أى: بعذابها الّذى وعدت به، و سمّى العذاب طغوى؛ لأنه طغى عليهم، فتكون الباء على هذا للتعدية.

و قال محمد بن كعب: بِطَغْواها أى: بأجمعها. قرأ الجمهور:

بِطَغْواها بفتح الطاء. و قرأ الحسن و الجحدرى و محمد بن كعب و حماد بن سلمة بضم الطاء، فعلى القراءة الأولى هو مصدر بمعنى الطغيان، و إنما قلبت الياء و الواو للفرق بين الاسم و الصفة؛ لأنهم يقلبون الياء فى الأسماء كثيرا نحو تقوى و سروى، و على القراءة الثانية هو مصدر كالرّجعى و الحسنى و نحوهما، و قيل: هما لغتان.

إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها العامل فى الظرف كذبت، أو بطغواها، أى: حين قام أشقى ثمود، و هو قدار بن

---

(١). هو علقمة.

(۲). البلد: ۱۰.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۵۴۸

سالف فعقر الناقة، و معنى انبعث: انتدب لذلك و قام به، يقال: بعثته على الأمر فانبعث له، و قد تقدّم بيان هذا فى الأعراف فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ يعنى صالحا ناقَةَ اللَّهِ قال الزجاج: ناقة اللّه منصوبة على معنى: ذروا ناقة اللّه. قال الفراء: حذّرهم إياها، و كل تحذير فهو نصب وَ سُقْياها معطوف على ناقة، و هو شربها من الماء. قال الكلبى و مقاتل: قال لهم صالح: ذروا ناقة اللّه فلا تعقروها و ذروا سقياها، و هو شربها من النهر فلا تعرّضوا له يوم شربها، فكذبوا بتحذيره إياهم فَعَقَرُوها أى: عقرها الأشقى، و إنما أسند العقر إلى الجميع لأنهم رضوا بما فعله. قال قتادة: إنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم و كبيرهم و ذكرهم و أنثاهم. قال الفراء: عقرها اثنان، و العرب تقول: هذان أفضل الناس، و هذان خير الناس، فلهذا لم يقل أشقياها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها أى: أهلكهم و أطبق عليهم العذاب، و حقيقة الدمدمة:

تضعيف العذاب و ترديده، يقال: دمدمت على الشى‏ء، أى: أطبقت عليه، و دمدم عليه القبر، أى: أطبقه، و ناقة مدمومة؛ إذا لبسها الشحم، و الدمدمة: إهلاك باستئصال، كذا قال المؤرّج. قال فى الصحاح:

دمدمت الشى‏ء: إذا ألزقته بالأرض و طحطحته، و دمدم اللّه عليهم، أى: أهلكهم. و قال ابن الأعرابى:

دمدم: إذا عذّب عذابا تاما. و الضمير فى «فسوّاها» يعود إلى الدمدمة، أى: فسوّى الدمدمة عليهم و عمّهم بها فاستوت على صغيرهم و كبيرهم، و قيل: يعود إلى الأرض، أى: فسوّى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب، و قيل: يعود إلى الأمة، أى: ثمود. قال الفراء: سوّى الأمة: أنزل العذاب بصغيرها و كبيرها بمعنى سوّى بينهم. قرأ الجمهور: فَدَمْدَمَ بميم بين الدالين، و قرأ ابن الزبير: «فدهدم» بهاء بين الدالين.

قال القرطبى: و هما لغتان كما يقال: امتقع لونه، و اهتقع لونه وَ لا يَخافُ عُقْباها أى: فعل اللّه ذلك بهم غير خائف من عاقبة و لا تبعة، و الضمير فى عقباها يرجع إلى الفعلة، أو إلى الدمدمة المدلول عليها بدمدم.

و قال السدّى و الضحاك و الكلبى: إن الكلام يرجع إلى العاقر لا إلى اللّه سبحانه، أى: لم يخف الّذى عقرها عقبى ما صنع. و قيل: لا يخاف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عاقبة إهلاك قومه و لا يخشى ضررا يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور: وَ لا يَخافُ بالواو، و قرأ نافع و ابن عامر بالفاء.

و قد أخرج الحاكم و صحّحه عن ابن عباس وَ ضُحاها قال: ضوءها وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها قال:

تبعها وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها قال: أضاءها وَ السَّماءِ وَ ما بَناها قال: اللّه بنى السماء وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها قال: دحاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها قال: علّمها الطاعة و المعصية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها يقول: قسمها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها قال: من الخير و الشرّ. و أخرج الحاكم و صحّحه عنه أيضا فَأَلْهَمَها قال: ألزمها فجورها و تقواها.

و أخرج أحمد و عبد بن حميد و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عمران بن حصين «أن رجلا قال: يا رسول اللّه أ رأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه، شى‏ء قد قضى عليهم، و مضى فى قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون ممّا أتاهم نبيهم و اتّخذت عليهم به الحجّة، قال: بل شى‏ء قد قضى عليهم، قال: فلم يعملون إذن؟ قال: من كان اللّه خلقه لواحدة من المنزلتين يهيّئه لعملها و تصديق ذلك فى كتاب

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۵۴۹

اللّه: وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها- فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها و سيأتى فى السورة التى بعد هذه نحو هذا الحديث.

و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و النسائى عن زيد بن أرقم قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «اللهم آت نفسى

تقواها، و زكّها أنت خير من زكاها، أنت وليّها و مولاها». و أخرجه ابن المنذر و الطبراني و ابن مردويه من حديث ابن عباس، و زاد: «كان إذا تلا هذه الآية وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها- فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها قال: فذكره» و زاد أيضا: «و هو في الصلاة». و أخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضا. و أخرج نحوه أحمد من حديث عائشة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها يقول: قد أفلح من زكّى اللّه نفسه وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها يقول: قد خاب من دسّ اللّه نفسه فأضله وَ لا يَخافُ عُقْباها قال: قال: لا يخاف من أحد تبعة. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عنه وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها يعني مكر بها. و أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: «سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول في قوله قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها الآية: أفلحت نفس زكّاها اللّه، و خابت نفس خيّبها اللّه من كلّ خير و جويبر ضعيف. و أخرج ابن جرير عنه أيضا بِطَغْواها قال: اسم العذاب الّذي جاءها الطّغوى، فقال: كذّبت ثمود بعذابها. و أخرج البخاري و مسلم و غيرهما عن عبد اللّه بن زمعة قال: «خطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فذكر الناقة و ذكر الّذي عقرها، فقال إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها قال: «انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة». و أخرج أحمد و ابن أبي حاتم و البغوي و الطبراني و ابن مردويه و الحاكم، و أبو نعيم في الدلائل، عن عمار بن ياسر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعلي: «ألا أحدّثك بأشقى الناس؟ قال: بلى. قال: رجلان:

أحيمر ثمود الّذي عقر الناقة، و الّذي يضربك على هذا» يعني قرنه «حتى تبتلّ منه هذه» يعني لحيته.

فتح القدير، ج‏5، ص: 550

سورة الليل

اشارة

فتح القدير ج‏5 599

و هي مكية عند الجمهور، و قيل: مدنية. و أخرج ابن الضريس و النحاس و البيهقي عن ابن عباس قال:

نزلت سورة وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى مكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البيهقي في سننه عن جابر بن سمرة قال: «كان النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ في الظهر و العصر وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى و نحوها». و أخرج الطبراني في الأوسط عن أنس: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صلّى بهم الهاجرة فرفع صوته، فقرأ وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى فقال له أبي بن كعب: يا رسول اللّه أمرت في هذه الصلاة بشي‏ء؟

قال: لا، و لكن أردت أن أوقت لكم»، و قد تقدّم حديث: «فهلا صلّيت بسبّح اسم ربك الأعلى، و الشمس و ضحاها، و الليل إذا يغشى؟». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إني لأقول إن هذه السورة نزلت في السماحة و البخل وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الليل (92): الآيات 1 الى 21]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى (1) وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّى (2) وَ ما خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4)

فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى (5) وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى (7) وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى (8) وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى (9)

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى (١٠) وَ ما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى (١٢) وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (١٤)
لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (١٦) وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى (١٩)
إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى (٢٠) وَ لَسَوْفَ يَرْضى (٢١)

و قوله: وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى أى: يغطى بظلمته ما كان مضيئا. قال الزجاج: يغشى الليل الأفق و جميع ما بين السماء و الأرض فيذهب ضوء النهار، و قيل: يغشى النهار، و قيل: يغشى الأرض، و الأوّل أولى وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّى أى: ظهر و انكشف و وضح لزوال الظلمة التى كانت فى الليل، و ذلك بطلوع الشمس وَ ما خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى «ما» هنا هى الموصولة، أى: و الّذى خلق الذكر و الأنثى، و عبّر عن من بما للدلالة على الوصفية و لقصد التفخيم، أى: و القادر العظيم الّذى خلق الذكر و الأنثى. قال الحسن و الكلبى: معناه و الّذى خلق الذكر و الأنثى، فيكون قد أقسم بنفسه. قال أبو عبيدة: وَ ما خَلَقَ أى:
و من خلق. و قال مقاتل: يعنى و خلق الذكر و الأنثى، فتكون «ما» على هذا مصدرية. قال الكلبى و مقاتل:
يعنى آدم و حواء، و الظاهر العموم. قرأ الجمهور: وَ ما خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى و قرأ ابن مسعود:
«و الذكر و الأنثى» بدون ما خلق إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى هذا جواب القسم، أى: إن عملكم لمختلف؛ فمنه عمل للجنة، و منه عمل للنار. قال جمهور المفسرين: السعى: العمل، فساع فى فكاك نفسه، و ساع

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٥١

فى عطبها، و شتّى: جمع شتيت، كمرضى و مريض، و قيل للمختلف: شتّى؛ لتباعد ما بين بعضه و بعض فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى أى: بذل ماله فى وجوه الخير و اتّقى محارم اللّه التى نهى عنها وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى أى: بالخلف من اللّه. قال المفسرون: فأما من أعطى المعسرين. و قال قتادة: أعطى حقّ اللّه الّذى عليه.
و قال الحسن: أعطى الصدق من قبله و صدّق بالحسنى، أى: بلا إله إلا اللّه، و به قال الضّحّاك و السّلمى.
و قال مجاهد: بالحسنى: بالجنة. و قال زيد بن أسلم: بالصلاة و الزكاة و الصوم، و الأوّل أولى. قال قتادة:
بِالْحُسْنى أى بموعود اللّه الّذى وعده أن يثيبه. قال الحسن: بالخلف من عطائه، و اختار هذا ابن جرير فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى أى: فسنهيّئه للخصلة الحسنى، و هى عمل الخير، و المعنى: فسنيسّر له الإنفاق فى سبيل الخير و العمل بالطاعة للّه. قال الواحدى: قال المفسرون: نزلت هذه الآيات فى أبى بكر الصديق اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا فى أيدى أهل مكة يعذّبونهم فى اللّه وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى أى: بخل بماله فلم يبذله فى سبل الخير وَ اسْتَغْنى أى: زهد فى الأجر و الثواب، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى أى: بالخلف من اللّه عزّ و جلّ، و قال مجاهد: بالجنة؛ و روى عنه أيضا أنه قال: بلا إله إلا اللّه فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى أى: فسنهيئه للخصلة العسرى و نسهّلها له حتى تتعسر عليه أسباب الخير و الصلاح و يضعف عن فعلها فيؤديه ذلك إلى النار. قال مقاتل: يعسر عليه أن يعطى خيرا.
قيل: العسرى: الشر؛ و ذلك أن الشرّ يؤدى إلى العذاب، و العسرة فى العذاب، و المعنى: سنهيئه للشرّ بأن نجريه على يديه. قال الفراء: سنيسّره: سنهيّئه، و العرب تقول: قد يسّرت الغنم؛ إذا ولدت أو تهيأت للولادة. قال الشاعر «١»:
همّا سيّدانا يزعمان و إنّمايسودانا إن يسّرت غنماهما
وَ ما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى أى: لا يغنى عنه شيئا ماله الّذى بخل به، أو: أىّ شىء يغنى عنه إذا تردّى، أى: هلك، يقال: ردى الرجل يردى ردى، و تردّى يتردّى؛ إذا هلك. و قال قتادة: و أبو صالح و زيد بن أسلم: إِذا تَرَدَّى إذا سقط فى جهنم، يقال: ردى

فى البئر و تردّى: إذا سقط فيها، و يقال: ما أدرى أين ردى، أى: أين ذهب؟ إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى هذه الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها، أى: إنّ علينا البيان. قال الزجاج: علينا أن نبيّن طريق الهدى من طريق الضلال. قال قتادة: على اللّه البيان؛ بيان حرامه و طاعته و معصيته. قال الفراء: من سلك الهدى فعلى اللّه سبيله، لقوله: وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ «٢» يقول: من أراد اللّه فو على السبيل القاصد. قال الفراء أيضا: المعنى إن علينا للهدى و الإضلال، فحذف الإضلال كقوله: سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ «٣» و قيل المعنى: إن علينا ثواب هداه الّذى هديناه وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولى أى: لنا كلّ ما فى الآخرة، و كلّ ما فى الدنيا نتصرّف به كيف نشاء، فمن أرادهما أو إحداهما فليطلب ذلك منّا، و قيل: المعنى: إن لنا ثواب الآخرة و ثواب الدنيا فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظّى

---

(١). هو أبو أسيدة الدبيرى.

(٢). النحل: ٩.

(٣). النحل: ٨١.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٥٢

أى: حذّرتكم و خوّفتكم نارا تتوقد و تتوهج، و أصله تتلظّى فحذفت إحدى التاءين تخفيفا.

و قرأ على الأصل عبيد بن عمير و يحيى بن يعمر و طلحة بن مصرّف لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى أى: يصلاها صليا لازما على جهة الخلود إلا الأشقى و هو الكافر، و إن صليها غيره من العصاة فليس صليه كصليه، و المراد بقوله: يَصْلاها: يدخلها أو يجد صلاها، و هو حرّها. ثم وصف الأشقى فقال: الَّذِى كَذَّبَ وَ تَوَلَّى أى: كذّب بالحق الّذى جاءت به الرسل و أعرض عن الطاعة و الإيمان. قال الفراء إِلَّا الْأَشْقَى إلا من كان شقيا فى علم اللّه جلّ ثناؤه. قال أيضا: لم يكن كذب بردّ ظاهر، و لكن قصّر عمّا أمر به من الطاعة فجعل تكذيبا، كما تقول: لقى فلان العدوّ فكذب؛ إذا نكل و رجع عن اتباعه. قال الزجاج: هذه الآية هى التى من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ و لأهل النار منازل، فمنها أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار. و اللّه سبحانه كلّ ما وعد عليه بجنس من العذاب؛ فجدير أن يعذّب به، و قد قال: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* «١» فلو كان كلّ من لم يشرك لم يعذب لم يكن فى قوله: وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* فائدة. و قال فى الكشاف: الآية واردة فى الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين و عظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ فى صفتيهما المتناقضتين، فقيل: الأشقى، و جعل مختصّا بالصّلى؛ كأن النار لم تخلق إلّا له، و قيل: الأتقى، و جعل مختصّا بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له، و قيل: المراد بالأشقى أبو جهل أو أمية بن خلف، و بالأتقى أبو بكر الصدّيق، و معنى سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى سيباعد عنها المتقى للكفر اتقاء بالغا. قال الواحدى: الأتقى أبو بكر الصدّيق فى قول جميع المفسرين، انتهى. و الأولى حمل الأشقى و الأتقى على كل متّصف بالصفتين المذكورتين، و يكون المعنى أنه لا يصلاها صليا تاما لازما إلا الكامل فى الشقاء و هو الكافر، و لا يجنّبها و يبعد عنها تبعيدا كاملا بحيث لا يحوم حولها فضلا عن أن يدخلها إلا الكامل فى التقوى، فلا ينافى هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولا غير لازم، و لا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيدا غير بالغ مبلغ تبعيد الكامل فى التقوى عنها. و الحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله: لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى زاعما أن الأشقى الكافر، لأنّه الّذى كذّب و تولّى، و لم يقع التكذيب من عصاة المسلمين، فيقال له: فما تقول فى قوله:

وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى فإنه يدلّ على أنه لا يجنب النار إلا الكامل فى التقوى، فمن لم يكن كاملا فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنب النار، فإن أوّلت الأتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله فى الأشقى فخذ إليك هذه مع تلك، و كن كما قال الشاعر:

على أنّنى راض بأن أحمل الهوىو أخرج منه لا علىّ و لا ليه

و قيل: أراد بالأشقى و الأتقى الشقى و التقى، كما قال طرفة بن العبد:
تمنّى رجال أن أموت و إن أمت‌فتلك سبيل لست فيها بأوحد

---

(۱). النساء: ۴۸.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۵۳

أى: بواحد. و لا يخفاك أنه ينافى هذا وصف الأشقى بالتكذيب، فإن ذلك لا يكون إلا من الكافر فلا يتمّ ما أراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين.

ثم ذكر سبحانه صفة الأتقى فقال: الَّذِى يُؤْتِى مالَهُ أى: يعطيه و يصرفه فى وجوه الخير، و قوله:

يَتَزَكَّى فى محل نصب على الحال من فاعل يؤتى، أى: حال كونه يطلب أن يكون عند اللّه زكيا لا يطلب رياء و لا سمعة، و يجوز أن يكون بدلا من يؤتى داخلا معه فى حكم الصلة. قرأ الجمهور: يَتَزَكَّى مضارع تزكى. و قرأ علىّ بن الحسين بن على تزكى بإدغام التاء فى الزاى وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من كون التزكّى على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافى الخلوص، أى: ليس ممن يتصدّق بماله ليجازى بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده و يكافئه عليها، و إنما يبتغى بصدقته وجه اللّه تعالى. و معنى الآية: أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها أن يجازى عليها حتى يقصد بإيتاء ما يؤتى من ماله مجازاتها، و إنما قال «نجزى» مضارعا مبنيا للمفعول لأجل الفواصل، و الأصل يجزيها إياه، أو يجزيه إياها إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى قرأ الجمهور: إِلَّا ابْتِغاءَ بالنصب على الاستثناء المنقطع لعدم اندراجه تحت جنس النعمة، أى: لكن ابتغاء وجه ربّه الأعلى، و يجوز أن يكون منصوبا على أنه مفعول له على المعنى، أى: لا يؤتى إلا لابتغاء وجه ربّه لا لمكافأة نعمة. قال الفراء: هو منصوب على التأويل، أى: ما أعطيتك ابتغاء جزائك بل ابتغاء وجه اللّه، و قرأ يحيى بن وثّاب بالرفع على البدل من محل نعمة، لأن محلها الرفع إما على الفاعلية و إما على الابتداء و من مزيدة، و الرفع لغة تميم، لأنهم يجوّزون البدل فى المنقطع و يجرونه مجرى المتصل. قال مكى: و أجاز الفراء الرفع فى ابْتِغاءَ على البدل من موضع نعمة، و هو بعيد.

قال شهاب الدين: كأنه لم يطلع عليها قراءة، و استبعاده هو البعيد فإنها لغة فاشية، و قرأ الجمهور أيضا ابْتِغاءَ بالمدّ، و قرأ ابن أبى عبلة بالقصر، و الأعلى نعت للربّ وَ لَسَوْفَ يَرْضى اللام هى الموطئة للقسم، أى: و تاللّه لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة و الجزاء العظيم. قرأ الجمهور: يَرْضى مبنيا للفاعل، و قرئ مبنيا للمفعول.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى قال: إذا أظلم. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن عساكر عن ابن مسعود قال: إن أبا بكر الصدّيق اشترى بلالا من أمية بن خلف و أبىّ بن خلف ببردة و عشر أواق فأعتقه للّه، فأنزل اللّه: وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى إلى قوله: إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى سعى أبى بكر و أمية و أبىّ إلى قوله: وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى قال: لا إله إلا اللّه إلى قوله: فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى قال: النار. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى من الفضل وَ اتَّقى قال: اتقى ربه وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى قال: صدّق بالخلف من اللّه فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى قال: للخير من اللّه وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى قال: بخل بماله و استغنى عن ربه وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى قال: بالخلف من اللّه فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى قال: للشرّ من اللّه. و أخرج ابن جرير عنه وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى قال: أيقن بالخلف. و أخرج

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۵۴

ابن جرير عنه أيضا وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى يقول: صدّق بلا إله إلا اللّه وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى يقول:

من أغناه اللّه فبخل بالزكاة. و أخرج ابن جرير و ابن عساكر عن عامر بن عبد اللّه بن الزبير قال: كان أبو بكر يعتق على الإسلام

بمكة، و كان يعتق عجائز و نساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أى بنىّ أراك تعتق أناسا ضعفا، فلو أنك تعتق رجالا جلدا يقومون معك و يمنعونك و يدفعون عنك. قال: أى أبت إنما أريد ما عند اللّه، قال: فحدّثنى بعض أهل بيتى أن هذه الآية نزلت فيه فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى و أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى قال: أبو بكر الصدّيق وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى قال: أبو سفيان بن حرب. و أخرج البخارى و مسلم و أهل السنن و غيرهم عن علىّ بن أبى طالب قال: كنا مع النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا و قد كتب مقعده من الجنة و مقعده من النار، فقالوا: يا رسول اللّه أ فلا نتّكل؟ قال: اعملوا فكل ميسّر لما خلق له؛ أما من كان من أهل السعادة فييسّر لعمل أهل السعادة، و أما من كان من أهل الشقاء فييسّر لعمل أهل الشقاء، ثم قرأ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى إلى قوله لِلْعُسْرى . و أخرج أحمد و مسلم و غيرهما عن جابر بن عبد اللّه «أن سراقة بن مالك قال: يا رسول اللّه فى أىّ شىء نعمل؟ أ فى شىء ثبتت فيه المقادير و جرت به الأقلام، أم فى شىء يستقبل فيه العمل؟ قال: بل فى شىء ثبتت فيه المقادير و جرت فيه الأقلام، قال سراقة: ففيم العمل إذن يا رسول اللّه؟ قال: اعملوا فكلّ ميسر لما خلق له، و قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى إلى قوله: فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى . و قد تقدّم حديث عمران بن حصين فى السورة التى قبل هذه. و فى الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة.

و أخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال: «لتدخلن الجنة إلا من يأبى، قالوا: و من يأبى أن يدخل الجنة؟

فقرأ الَّذِى كَذَّبَ وَ تَوَلَّى . و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى أمامة قال: لا يبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله اللّه الجنة، إلا من شرد على اللّه كما يشرد البعير السّوء على أهله، فمن لم يصدّقنى فإن اللّه يقول: لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى- الَّذِى كَذَّبَ وَ تَوَلَّى و كذّب بما جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و تولى عنه. و أخرج أحمد و الحاكم و الضياء عن أبى أمامة الباهلى أنه سئل عن ألين كلمة سمعها من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «ألا كلّكم يدخل اللّه الجنة إلا من شرد على اللّه شراد البعير على أهله». و أخرج أحمد و ابن ماجة و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«لا يدخل النار إلا شقّى. قيل: و من الشقىّ؟ قال: الّذى لا يعمل للّه بطاعة و لا يترك للّه معصية».

و أخرج أحمد و البخارى عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «كلّ أمتى تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى، قالوا: و من يأبى يا رسول اللّه؟ قال: من أطاعنى دخل الجنة، و من عصانى فقد أبى».

و أخرج ابن أبى حاتم عن عروة أنّ أبا بكر الصدّيق أعتق سبعة كلّهم يعذّب فى اللّه: بلال، و عامر بن فهيرة، و النهدية و ابنتها، و زنيرة، و أمّ عيسى، و أمة بنى المؤمل، و فيه نزلت: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى إلى

فتح القدير، ج‏5، ص: 555

آخر السورة. و أخرج الحاكم و صحّحه عن عامر بن عبد اللّه ابن الزبير ما قدّمنا عنه، و زاد فيه: فنزلت فيه هذه الآية: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى إلى قوله: وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى وَ لَسَوْفَ يَرْضى و أخرج البزار و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه و ابن عساكر عنه نحو هذا من وجه آخر. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى قال: هو أبو بكر الصدّيق.

فتح القدير، ج‏5، ص: 556

سورة الضّحى

اشارة

و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس: نزلت وَ الضُّحى بمكة. و أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، من طريق أبى الحسن المقرى قال: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: «قرأت على إسماعيل بن قسطنطين، فلما بلغت و الضحى قال: كبّر حتى تختم، و أخبره عبد اللّه بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك. و أخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك. و أخبره ابن عباس أن أبىّ بن كعب أمره بذلك. و أخبره أبىّ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أمره بذلك».

و أبو الحسن المقرى المذكور هو أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن أبى بزة المقرى. قال ابن كثير: فهذه سنة تفرّد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد اللّه البزى من ولد القاسم بن أبى بزة، و كان إماما فى القراءات. و أما فى الحديث فقد ضعّفه أبو حاتم الرازى و قال: لا أخذت عنه، و كذلك أبو جعفر العقيلى قال: هو منكر الحديث. قال ابن كثير: ثم اختلف القرّاء فى موضع هذا التكبير و كيفيته، فقال بعضهم: يكبر من آخر الليل إذا يغشى، و قال آخرون: من آخر الضحى. و كيفية التكبير عند بعضهم أن يقول: اللّه أكبر، و يقتصر، و منهم من يقول: اللّه أكبر، لا- إله إلا اللّه، اللّه أكبر. و ذكروا فى مناسبة التكبير من أول الضحى أنه لما تأخر الوحى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و فتر تلك المدّة، ثم جاء الملك، فأوحى إليه: وَ الضُّحى وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى السورة كبّر فرحا و سرورا، و لم يرووا ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة و لا- ضعف. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن جندب البجلى قال: اشتكى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا، فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك لم يقربك ليلتين أو ثلاثا، فأنزل اللّه: وَ الضُّحى وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى . و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و سعيد بن منصور و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه عن جندب قال: أبطأ جبريل عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال المشركون: قد ودّع محمد، فنزلت: ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى و أخرج الطبرانى عن جندب قال: احتبس جبريل عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقالت بعض بنات عمه: ما أرى صاحبك إلا قد قلاك، فنزلت: و الضحى. و أخرجه الترمذى و صححه و ابن أبى حاتم عن جندب، و فيه: فقالت له امرأة: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت: و الضحى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الضحى (٩٣): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الضُّحى (١) وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى (٢) ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى (٣) وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى (۴)

وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى (۵) أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى (۶) وَ وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدى (٧) وَ وَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩)

وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۵۷

و المراد بالضحى هنا النهار كله، لقوله: وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى فلما قابل الضحى بالليل دلّ على أن المراد به النهار كله لا بعضه. و هو فى الأصل اسم لوقت ارتفاع الشمس كما تقدّم فى قوله: وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها «١» و الظاهر أن المراد به الضحى من غير تعيين. و قال قتادة و مقاتل و جعفر الصادق: إن المراد الضحى الّذى كلم اللّه فيه موسى، و المراد بقوله: وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى ليلة المعراج، و

قيل: المراد بالضحى هو الساعة التى خرّ فيها السحرة سجدا، كما فى قوله: وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى «۲» و قيل: المقسم به مضاف مقدّر كما تقدّم فى نظائره، أى: و ربّ الضحى، و قيل: تقديره: و ضحاوة الضحى، و لا وجه لهذا، فللّه سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه، و قيل: الضحى: نور الجنة، و الليل: ظلمة النار، و قيل: الضحى:

نور قلوب العارفين، و الليل: سواد قلوب الكافرين، وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى أى: سكن، كذا قال قتادة و مجاهد و ابن زيد و عكرمة و غيرهم. يقال: ليلة ساجية: أى ساكنة، و يقال للعين إذا سكن طرفها: ساجية، يقال: سجا الشى‌ء يسجو سجوا؛ إذا سكن. قال عطاء: سجا: إذا غطّى بالظلمة. و روى ثعلب عن ابن الأعرابى: سجا: امتدّ ظلامه. و قال الأصمعى: سجو الليل: تغطيته النهار، مثل ما يسجى الرجل بالثوب.

و قال الحسن: غشى بظلامه. و قال سعيد بن جبير: أقبل. و قال مجاهد أيضا: استوى، و الأوّل أولى، و عليه جمهور المفسرين و أهل اللغة. و معنى سكونه: استقرار ظلامه و استواؤه، فلا يزاد بعد ذلك. ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ هذا جواب القسم، أى: ما قطعك قطع المودّع. قرأ الجمهور: «ما ودّعك» بتشديد الدال من التوديع، و هو توديع المفارق، و قرأ ابن عباس و عروة بن الزبير و ابنه هاشم و ابن أبى عبلة و أبو حيوة بتخفيفها، من قولهم ودعه، أى: تركه، و منه قول الشاعر:

سل أميرى ما الّذى غيّره‌عن وصالى اليوم حتّى ودعه

و التوديع أبلغ فى الوداع؛ لأنّ من ودّعك مفارقا فقد بالغ فى تركك. قال المبرد: لا يكادون يقولون ودع و لا وذر، لضعف الواو إذا قدّمت، و استغنوا عنها بترك. قال أبو عبيدة: ودّعك: من التوديع كما يودّع المفارق. و قال الزجاج: لم يقطع الوحى، و قد قدّمنا سبب نزول هذه الآية فى فاتحة هذه السورة وَ ما قَلى القلى: البغض، يقال: قلاه يقليه قلاء. قال الزجاج: و ما أبغضك، و قال: و ما قلى، و لم يقل و ما قلاك؛ لموافقة رؤوس الآى، و المعنى: و ما أبغضك، و منه قول امرئ القيس:

و لست بمقليّ الخلال و لا قال «۳» وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى اللام جواب قسم محذوف، أى: الجنة خير لك من الدنيا، مع أنه صلّى اللّه عليه و سلّم قد أوتى فى الدنيا من شرف النبوّة ما يصغر عنده كلّ شرف، و يتضاءل بالنسبة إليه كلّ مكرمة فى الدنيا، و لكنها لمّا كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار، منغّصة بالعوارض البشرية، و كانت الحياة فيها

---

(۱). الشمس: ۱.

(۲). طه: ۵۹.

(۳). و صدر البيت: صرفت الهوى عنهن من خشية الردى.

كأحلام نائم، أو كظل زائل، لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئا؛ و لما كانت طريقا إلى الآخرة و سببا لنيل ما أعدّه اللّه لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة؛ كان فيها خير فى الجملة من هذه الحيثية. وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى هذه اللام قيل: هى لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة، و المبتدأ محذوف تقديره: و لأنت سوف يعطيك إلخ، و ليست للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكّدة، و قيل: هى للقسم. قال أبو علىّ الفارسى: ليست هذه اللام هى التى فى قولك: إن زيدا لقائم، بل هى التى فى قولك: لأقومنّ، و نابت سوف عن إحدى نونى التأكيد، فكأنه قال: و ليعطينك. قيل: المعنى: و لسوف يعطيك ربك الفتح فى الدنيا و الثواب فى الآخرة فترضى.

و قيل: الحوض و الشفاعة، و قيل: ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك، و قيل: غير ذلك. و الظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيرى الدنيا و الآخرة، و من أهمّ ذلك عنده و أقدمه لديه قبول شفاعته لأمته.

أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى هذا شروع فى تعداد ما أفاضه اللّه سبحانه عليه من النعم، أى: وجدك يتيما لا أب لك فآوى، أى: جعل لك مأوى تأوى إليه، قرأ الجمهور: «فآوى» بألف بعد الهمزة رباعيا، من آواه يؤويه، و قرأ أبو الأشهب: «فأوى» ثلاثيا، و هو إما بمعنى الرباعى، أو هو من أوى له إذا رحمه.

و عن مجاهد معنى الآية: ألم يجدك واحدا فى شرفك لا نظير لك فآواك اللّه بأصحاب يحفظونك و يحوطونك، فجعل يتيما من قولهم: درّة يتيمة، و هو بعيد جدا، و الهمزة لإنكار النفى و تقرير المنفىّ على أبلغ وجه، فكأنه قال: قد وجدك يتيما فآوى، و الوجود بمعنى العلم، و يتيما مفعوله الثانى، و قيل: بمعنى المصادفة، و يتيما حال من مفعوله وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى معطوف على المضارع المنفىّ، و قيل: هو معطوف على ما يقتضيه الكلام الّذى قبله كما ذكرنا، أى: قد وجدك يتيما فآوى و وجدك ضالًّا فهدى، و الضلال هنا بمعنى الغفلة، كما فى قوله: لا يَضِلُّ رَبِّى وَ لا يَنْسى «۱» و كما فى قوله: وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ «۲» و المعنى: أنه وجدك غافلا عما يراد بك من أمر النبوّة، و اختار هذا الزجاج. و قيل: معنى ضالا: لم تكن تدرى القرآن و لا الشرائع فهداك لذلك. و قال الكلبى و السدّى و الفراء: وجدك فى قوم ضلال فهداهم اللّه لك. و قيل: وجدك طالبا للقبلة فهداك إليها كما فى قوله: قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها «۳» و يكون الضلال بمعنى الطلب. و قيل: وجدك ضائعا فى قومك فهداك إليه، و يكون الضلال بمعنى الضياع. و قيل: وجدك محبا للهداية فهداك إليها، و يكون الضلال بمعنى المحبة، و منه قول الشاعر:

عجبا لعزّة فى اختيار قطيعتىبعد الضّلال فحبلها قد أخلقا

و قيل: وجدك ضالا فى شعاب مكة فهداك، أى: ردّك إلى جدّك عبد المطلب وَ وَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى

---

(۱). طه: ۵۲.

(۲). يوسف: ۳.

(۳). البقرة: ۱۴۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۵۹

أى: وجدك فقيرا لا مال لك فأغناك، يقال: عال الرجل يعيل عيلة؛ إذا افتقر، و منه قول أحيحة بن الجلاح:

فما يدرى الفقير متى غناهو ما يدرى الغنىّ متى يعيل

أى: يفتقر. قال الكلبى: فَأَغْنى أى: رضّاك بما أعطاك من الرزق، و اختار هذا الفراء، قال:

لأنه لم يكن غنيا من كثرة، و لكن اللّه سبحانه رضّاه بما آتاه، و ذلك حقيقة الغنى. و قال الأخفش:

عائِلًا ذا عيال، و منه قول جرير:

اللّه أنزل فى الكتاب فريضةلابن السّبيل و للفقير العائل

و قيل: فأغنى بما فتح لك من الفتوح، و فيه نظر؛ لأن السورة مكية، و قيل: بمال خديجة بنت خويلد، و قيل: وجدك فقيرا من الحجج و البراهين فأغناك بها. قرأ الجمهور: «عائلا» و قرأ محمد بن السّميقع و اليمانى «عيّلا» بكسر الياء المشدّدة كسيد.

ثم أوصاه سبحانه باليتامى و الفقراء فقال: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ أى: لا تقهره بوجه من وجوه القهر كائنا ما كان. قال مجاهد: لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيما. قال الأخفش: لا تسلط عليه بالظلم، ادفع إليه حقّه، و اذكر يتمك. قال الفرّاء و الزّجّاج: لا تقهره على ماله فتذهب بحقّه لضعفه، و كذا كانت العرب تفعل فى حقّ اليتامى تأخذ أموالهم و تظلمهم حقوقهم، و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يحسن إلى اليتيم و يبرّه و يوصى باليتامى. قرأ الجمهور: «فلا تقهر» بالقاف، و قرأ ابن مسعود و النّخعى و الشعبىّ

و الأشهب العقيلى:

«تكهر» بالكاف، و العرب تعاقب بين القاف و الكاف. قال النحاس: إنما يقال كهره؛ إذا اشتدّ عليه و غلظ. و قيل: القهر: الغلبة، و الكهر: الزجر. قال أبو حيان: هى لغة، يعنى قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور، و اليتيم منصوب بتقهر. وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ يقال: نهره و انتهره؛ إذا استقبله بكلام يزجره، فهو نهى عن زجر السائل و الإغلاظ له، و لكن يبذل اليسير أو يردّه بالجميل. قال الواحدى: قال المفسرون:

يريد السائل على الباب، يقول: لا تنهره إذا سألك فقد كنت فقيرا، فإما أن تطعمه، و إما أن تردّه ردّا لينا.

قال قتادة: معناه ردّ السائل برحمة ولين. و قيل: المراد بالسائل الّذى يسأل عن الدين، فلا تنهره بالغلظة و الجفوة، و أجبه برفق ولين، كذا قال سفيان، و السائل منصوب بتنهر، و التقدير: مهما يكن من شىء فلا تقهر اليتيم و لا تنهر السائل وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ أمره سبحانه بالتحدّث بنعم اللّه عليه و إظهارها للناس و إشهارها بينهم، و الظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها أو نوع من أنواعها. و قال مجاهد و الكلبى: المراد بالنعمة هنا القرآن. قال الكلبى: و كان القرآن أعظم ما أنعم اللّه بن عليه فأمره أن يقرأه.

قال الفراء: و كان يقرؤه و يحدّث به. و قال مجاهد أيضا: المراد بالنعمة النبوّة التى أعطاه اللّه، و اختار هذا الزجاج فقال: أى بلغ ما أرسلت به و حدّث بالنبوّة التى آتاك اللّه، و هى أجلّ النعم. و قال مقاتل: يعنى اشكر ما ذكر من النعمة عليك فى هذه السورة من الهدى بعد الضلالة و جبر اليتم، و الإغناء بعد العيلة فاشكر هذه النعم. و التحدث بنعمة اللّه شكر، و الجارّ و المجرور متعلق بحدّث، و الفاء غير مانعة من تعلقه به، و هذه

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۶۰

النواهى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هى نواه له و لأمته لأنهم أسوته، فكلّ فرد من أفراد هذه الأمة منهىّ بكلّ فرد من أفراد هذه النواهى.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى قال: إذا أقبل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه إِذا سَجى قال: إذا ذهب ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ قال: ما تركك وَ ما قَلى قال: ما أبغضك. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى فى الدلائل، عنه أيضا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «عرض علىّ ما هو مفتوح لأمتى بعدى، فأنزل اللّه وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى .

و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى و أبو نعيم عنه أيضا قال: «عرض على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما هو مفتوح على أمته من بعده فسّر بذلك، فأنزل اللّه: وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى فأعطاه فى الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج و الخدم». و أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى قال: رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: من رضا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار. و أخرج الخطيب فى التلخيص من وجه آخر عنه أيضا فى الآية قال:

لا يرضى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و أحد من أمته فى النار، و يدلّ على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمرو «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم تلا- قول اللّه فى إبراهيم: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي «۱» و قول عيسى إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ «۲» الآية، فرفع يديه و قال: اللهم أمتى أمتى، و بكى، فقال اللّه: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك فى أمتك و لا نسوءك». و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، من طريق حرب بن شريح قال: قلت لأبى جعفر محمد بن على بن الحسين: أ رأيت

هذه الشفاعة التى يتحدّث بها أهل العراق أحقّ هى؟

قال: إى و اللّه، حدثنى محمد بن الحنفية عن علىّ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أشفع لأمتى حتى ينادينى ربى: أرضيت يا محمد؟ فأقول: نعم يا رب رضيت، ثم أقبل علىّ فقال: إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرجى آية فى كتاب اللّه: يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً «۳» قلت إنا لنقول ذلک، قال: فكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية فى كتاب اللّه وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى و هى الشفاعة». و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنا أهل البيت اختار اللّه لنا الآخرة على الدنيا، و لسوف يعطيك ربك فترضى». و أخرج العسكرى فى المواعظ، و ابن مردويه و ابن النجار عن جابر بن عبد اللّه قال: «دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على فاطمة و هى تطحن بالرّحى، و عليها كساء من جلد الإبل، فلما نظر إليها قال: يا فاطمة تعجّلى مرارة الدنيا بنعيم الآخرة، فأنزل اللّه وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى . و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقى و أبو نعيم و ابن عساكر عن ابن عباس أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «سألت

---

(۱). إبراهيم: ۳۶.

(۲). المائدة: ۱۱۸.

(۳). الزمر: ۵۳.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۶۱

ربى مسألة وددت أنى لم أكن سألته، قلت: قد كانت قبلى أنبياء منهم من سخرت له الريح، و منهم من كان يحيى الموتى، فقال تعالى: يا محمد ألم أجدك يتيما فآويتك؟ ألم أجدك ضالًّا فهديتك؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أضع عنك وزرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا ربّ».

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت وَ الضُّحى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«يمنّ علىّ ربى، و أهل أن يمنّ ربى». و أخرج ابن مردويه عنه فى قوله: وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى قال:

وجدك بين الضالّين فاستنقذك من ضلالتهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن علىّ فى قوله: وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ قال: ما علمت من الخير. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: إذا أصبت خيرا فحدّث إخوانك. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و البيهقى فى الشعب، و الخطيب فى المتفق- قال السيوطى: بسند ضعيف- عن النعمان بن بشير قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على المنبر: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، و من لم يشكر الناس لم يشكر اللّه، و التحدّث بنعمة اللّه شكر، و تركها كفر، و الجماعة رحمة». و أخرج أبو داود، و الترمذى و حسّنه، و أبو يعلى و ابن حبان و البيهقى و الضياء عن جابر ابن عبد اللّه عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من أبلى بلاء فذكره فقد شكره، و إن كتمه فقد كفره». و أخرج البخارى فى الأدب، و أبو داود و الضياء عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من أعطى عطاء فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليثن به، فمن أثنى به فقد شكره، و من كتمه فقد كفره، و من تحلّى بما لم يعط فإنه كلابس ثوبى زور». و أخرج أحمد، و الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من أولى معروفا فليكافئ به، فإن لم يستطع فليذكره، فإن من ذكره فقد شكره».

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۶۲

سورة الشرح

اشارة

و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت ألم نشرح بمكة، و زاد: بعد الضحى. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة ألم نشرح بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الشرح (٩٤): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ (١) وَ وَضَعْنا عَنْکَ وِزْرَکَ (٢) الَّذِی أَنْقَضَ ظَهْرَکَ (٣) وَ رَفَعْنا لَکَ ذِکْرَکَ (۴)

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (۵) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (۶) فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَ إِلی رَبِّکَ فَارْغَبْ (٨)

معنى شرح الصدر: فتحه بإذهاب ما يصدّ عن الإدراک، و الاستفهام إذا دخل على النفى قرّره، فصار المعنى: قد شرحنا لک صدرک، و إنما خصّ الصدر لأنه محل أحوال النفس من العلوم و الإدراكات، و المراد الامتنان عليه صلّى اللّه عليه و سلّم بفتح صدره و توسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة، و قدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوّة و حفظ الوحى، و قد مضى القول فى هذا عند تفسير قوله: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ «١». وَ وَضَعْنا عَنْکَ وِزْرَکَ معطوف على معنى ما تقدّم، لا على لفظه: أى قد شرحنا لک صدرک و وضعنا إلخ، و منه قول جرير يمدح عبد الملک بن مروان:

ألستم خير من ركب المطاياو أندى العالمين بطون راح

أى: أنتم خير من ركب المطايا، و أندى إلخ. قرأ الجمهور: نَشْرَحْ بسكون الحاء بالجزم، و قرأ أبو جعفر المنصور العباسى بفتحها. قال الزمخشرى: قالوا: لعله بيّن الحاء و أشبعها فى مخرجها، فظنّ السامع أنه فتحها. و قال ابن عطية: إن الأصل ألم نشرحن بالنون الخفيفة، ثم إبدالها ألفا، ثم حذفها تخفيفا كما أنشد أبو زيد:

من أىّ يومىّ من الموت أفرّأيوم لم يقدّر أم يوم قدر

بفتح الراء من لم يقدر، و مثله قوله:

اضرب عنک الهموم طارقهاضربک بالسّيف قونس الفرس

بفتح الباء من اضرب، و هذا مبنى على جواز توكيد المجزوم بلم، و هو قليل جدا كقوله:

يحسبه الجاهل ما لم يعلماشيخا على كرسيّه معمّما

---

(١). الزمر: ٢٢.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۶٣

فقد تركبت هذه القراءة من ثلاثة أصول كلها ضعيفة، الأول: توكيد المجزوم بلم، و هو ضعيف. الثانى: إبدالها ألفا، و هو خاص بالوقف، فإجراء الوصل مجرى الوقف ضعيف. و الثالث: حذف الألف، و هو ضعيف أيضا لأنه خلاف الأصل، و خرّجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون بلم و يجزمون بلن، و منه قول الشاعر:

فى كلّ ما همّ أمضى رأيه قدماو لم يشاور فى إقدامه أحدا

بنصب الراء من يشاور، و هذه اللغة لبعض العرب ما أظنها تصح، و إن صحت فليست من اللغات المعتبرة فإنها جاءت بعكس ما عليه لغة العرب بأسرها. و على كل حال فقراءة هذا الرجل مع شدّة جوره و مزيد ظلمه و كثرة جبروته و قلة علمه ليست بحقيقة بالاشتغال بها. و الوزر: الذنب، أي: وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية. قال الحسن و قتادة و الضحاك و مقاتل: المعنى حططنا عنك الّذى سلف منك فى الجاهلية، و هذا كقوله: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ «۱» ثم وصف هذا الوزر فقال: الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ قال المفسرون: أى أثقل ظهرك. قال الزجاج: أثقله حتى سمع له نقيض، أى: صوت، و هذا مثل معناه: أنه لو كان حملا يحمل لسمع نقيض ظهره، و أهل اللغة يقولون: أنقض الحمل ظهر الناقة؛ إذا سمع له صرير، و منه قول جميل:

و حتّى تداعت بالنّقيض حبالهو همّت بوانى زوره «۲» أن تحطّما

و قول العباس بن مرداس:

و أنقض ظهرى ما تطويت منهمو كنت عليهم مشفقا متحنّنا

قال قتادة: كان للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم ذنوب قد أثقلته فغفرها اللّه له، و قوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوّة التى تثقل الظهر من القيام بأمرها سهل اللّه ذلك عليه حتى تيسرت له، و كذا قال أبو عبيدة و غيره و قرأ ابن مسعود: «و حللنا عنك و وقرك».

ثم ذكر سبحانه منّته عليه و كرامته فقال: وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ قال الحسن: و ذلك أن اللّه لا يذكر فى موضع إلا ذكر معه صلّى اللّه عليه و سلّم. قال قتادة: رفع اللّه ذكره فى الدنيا و الآخرة، فليس خطيب و لا متشهد و لا صاحب صلاة إلا ينادى فيقول: أشهد أن لا إله إلا اللّه أشهد أن محمدا رسول اللّه. قال مجاهد: وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ يعنى بالتأذين. و قيل المعنى: ذكرناك فى الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك، و أمرناهم بالبشارة بك، و قيل: رفعنا ذكرك عند الملائكة فى السماء و عند المؤمنين فى الأرض. و الظاهر أن هذا الرفع لذكره

---

(۱). الفتح: ۲.

(۲). «بوانى زوره»: أى أصول صدره.

الّذى امتنّ اللّه به عليه يتناول جميع هذه الأمور، فكل واحد منها من أسباب رفع الذكر، و كذلك أمره بالصلاة و السلام عليه، و إخباره صلّى اللّه عليه و سلّم عن اللّه عزّ و جلّ أن من صلّى عليه واحدة صلّى عليه بها عشرا، و أمر اللّه بطاعته كقوله: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ* «۱» و قوله: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «۲» و قوله: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ «۳» و غير ذلك. و بالجملة فقد ملأ ذكره الجليل السّماوات و الأرضين، و جعل اللّه له من لسان الصدق و الذكر الحسن و الثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من عباده ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ* «۴» اللهمّ صلّ و سلّم عليه و على آله عدد ما صلّى عليه المصلّون بكل لسان فى كل زمان، و ما أحسن قول حسان:

أغرّ عليه للنبوّة خاتممن اللّه مشهود يلوح و يشهد

و ضمّ الإله اسم النبىّ مع اسمهإذا قال فى الخمس المؤذّن أشهد

و شقّ له من اسمه ليجلّهفذو العرش محمود و هذا محمّد

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً أى: إن مع الضيقة سعة، و مع الشدّة رخاء، و مع الكرب فرج. و فى هذا وعد منه سبحانه بأن كل عسر يتيسر،

و كل شديد يهون، و كل صعب يلين. ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريرا و تأكيدا، فقال مكرّرا له بلفظ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً أى: إن مع ذلك العسر المذكور سابقا يسرا آخر لما تقرّر من أنه إذا أعيد المعرّف يكون الثانى عين الأوّل؛ سواء كان المراد به الجنس أو العهد، بخلاف المنكّر إذا أعيد فإنه يراد بالثانى فرد مغاير لما أريد بالفرد الأوّل فى الغالب، و لهذا قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى معنى هذه الآية:

«لن يغلب عسر يسرين» قال الواحدى: و هذا قول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و الصحابة و المفسرين على أن العسر واحد و اليسر اثنان. قال الزجاج: ذكر العسر مع الألف و اللام ثم ثنى ذكره، فصار المعنى: إن مع العسر يسرين.

قيل: و التنكير فى اليسر للتفخيم و التعظيم، و هو فى مصحف ابن مسعود غير مكرّر. قرأ الجمهور بسكون السين فى العسر و اليسر فى الموضعين. و قرأ يحيى بن وثاب و أبو جعفر و عيسى بضمها فى الجميع فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ أى: إذا فرغت من صلاتك، أو من التبليغ، أو من الغزو فانصب، أى: فاجتهد فى الدعاء و اطلب من اللّه حاجتك، أو فانصب فى العبادة، و النصب: التعب، يقال: نصب ينصب نصبا، أى: تعب.

قال قتادة و الضحاك و مقاتل و الكلبى: إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك فى الدعاء، و ارغب إليه فى المسألة يعطك، و كذا قال مجاهد. قال الشعبى: إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك و آخرتك، و كذا قال الزهرى. و قال الكلبى أيضا: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب: أى استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات. و قال الحسن و قتادة: إذا فرغت من جهاد عدوّك فانصب لعبادة ربك. و قال مجاهد أيضا: إذا فرغت من دنياك فانصب فى صلاتك، وَ إِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ قال الزجاج: أى اجعل رغبتك إلى اللّه وحده. قال عطاء: يريد أن يضرع إليه راهبا من النار، راغبا فى الجنة، و المعنى: أنه يرغب إليه سبحانه

---

(١). النور: ۵۴.

(٢). الحشر: ٧.

(٣). آل عمران: ٢١.

(۴). الحديد: ٢١.

لا إلى غيره كائنا من كان، فلا يطلب حاجاته إلا منه، و لا يعول فى جميع أموره إلا عليه. قرأ الجمهور:

فَارْغَبْ و قرأ زيد بن علىّ و ابن أبى عبلة «فرغب» بتشديد الغين، أى: فرغب الناس إلى اللّه و شوّقهم إلى ما عنده من الخير.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ قال: شرح اللّه صدره للإسلام. و أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، عن أبى سعيد الخدرى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أتانى جبريل فقال: إن ربك يقول:

تدرى كيف رفعت ذكرك؟ قلت: اللّه و رسوله أعلم، قال: إذا ذكرت ذكرت معى» و إسناد ابن جرير هكذا: حدّثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد. و أخرجه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج. و أخرجه ابن أبى حاتم من طريق يونس بن عبد الأعلى به. و أخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله: وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ الآية قال: لا يذكر اللّه إلا ذكر معه. و أخرج البزار و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أنس قال: «كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم جالسا و حياله جحر، فقال: «لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاءه اليسر فدخل عليه فأخرجه، فأنزل اللّه: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً- إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً». و أخرج ابن

النجار عنه مرفوعا نحوه. و أخرج الطبرانی و ابن مردویه عنه أیضا مرفوعا نحوه- قال السیوطی: و سنده ضعیف- و أخرج عبد الرزاق و سعید بن منصور و عبد بن حمید و ابن أبی الدنیا فی الصبر و ابن المنذر و البیهقی فی الشعب عن ابن مسعود مرفوعا: «لو کان العسر فی جحر لتبعه الیسر حتى یدخل فیه فیخرجه، و لن یغلب عسر یسرین إن اللّه یقول: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً- إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شریح. قال فیه أبو حاتم الرازی: فی حدیثه ضعف، و لکن رواه شعبة عن معاویة بن قرّة عن رجل عن عبد اللّه بن مسعود. و أخرج عبد الرزاق و ابن جریر و الحاکم و البیهقی عن الحسن قال: خرج رسول اللّه صلّى اللّه علیه و سلّم یوما فرحا مسرورا و هو یضحک و یقول: «لن یغلب عسر یسرین، إن مع العسر یسرا إن مع العسر یسرا» و هذا مرسل. و روى نحوه مرفوعا مرسلا عن قتادة.

و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه من طرق عن ابن عباس فی قوله:

فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ الآیة، قال: إذا فرغت من الصلاة فانصب فی الدعاء و اسأل اللّه و ارغب إلیه.

و أخرج ابن مردویه عنه قال: قال اللّه لرسوله: إذا فرغت من الصلاة و تشهدت فانصب إلى ربک و اسأله حاجتک. و أخرج ابن أبی الدنیا فی الذکر عن ابن مسعود: فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ إلى الدعاء وَ إِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ فی المسألة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه: فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ قال: إذا فرغت من الفرائض فانصب فی قیام اللیل.

فتح القدیر، ج۵، ص: ۵۶۶

سورة التّين

اشارة

و هی مکیة فی قول الجمهور، و روى القرطبی عن ابن عباس أنها مدنیة، و یخالف هذه الروایة ما أخرجه ابن الضریس و النحاس و ابن مردویه و البیهقی عن ابن عباس قال: أنزلت سورة التین بمکة. و أخرج ابن مردویه عن ابن الزبیر مثله. و أخرج البخاری و مسلم و أهل السنن و غیرهم عن البراء بن عازب قال: «کان النبی صلّى اللّه علیه و سلّم فی سفر، فصلى العشاء، فقرأ فی إحدى الرکعتین بالتین و الزیتون، فما سمعت أحدا أحسن صوتا و لا قراءة منه». و أخرج الخطیب عنه قال: «صلیت مع رسول اللّه صلّى اللّه علیه و سلّم المغرب، فقرأ بالتین و الزیتون». و أخرج ابن أبی شیبة فی المصنف، و عبد بن حمید فی مسنده، و الطبرانی عن عبد اللّه بن یزید «أن النبیّ صلّى اللّه علیه و سلّم قرأ فی المغرب و التین و الزیتون». و أخرج ابن قانع و ابن السکن، و الشیرازی فی الألقاب، عن زرعة بن خلیفة قال: «أتیت النبیّ صلّى اللّه علیه و سلّم من الیمامة، فعرض علینا الإسلام فأسلمنا، فلما صلّینا الغداة قرأ بالتین و الزیتون، و إنا أنزلناه فی لیلة القدر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التين (۹۵): الآيات ۱ الى ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ (۱) وَ طُورِ سِينِينَ (۲) وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (۴)
ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (۵) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۶) فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (۷) أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ (۸)

قال أكثر المفسرين: هو التين الّذى يأكله الناس وَ الزَّيْتُونِ الّذى يعصرون منه الزيت، و إنما أقسم بالتين؛ لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص، و فيها أعظم عبرة لدلالتها على من هيّأها لذلك، و جعلها على مقدار اللقمة. قال كثير من أهل الطب: إن التين أنفع الفواكه و أكثرها غذاء، و ذكروا له فوائد كما فى كتب المفردات و المركبات، و أما الزيتون فإنه يعصر منه الزيت الّذى هو إدام غالب البلدان و دهنهم، و يدخل فى كثير من الأدوية. و قال الضحاک: التين: المسجد الحرام، و الزيتون: المسجد الأقصى. و قال ابن زيد:

التين: مسجد دمشق، و الزيتون: مسجد بيت المقدس. و قال قتادة: التين: الجبل الّذى عليه دمشق، و الزيتون: الجبل الّذى عليه بيت المقدس. و قال عكرمة و كعب الأحبار: التين: دمشق، و الزيتون: بيت المقدس.

و ليت شعرى ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقى فى اللغة العربية، و العدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى؛ المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل و لا نقل. و أعجب من هذا اختيار ابن

فتح القدير، ج‏5، ص: 567

جرير للآخر منها مع طول باعه فى علم الرواية و الدراية. قال الفراء: سمعت رجلا يقول: التين: جبال حلوان إلى همدان، و الزيتون: جبال الشام. هب أنک سمعت هذا الرجل، فكان ماذا؟ فليس بمثل هذا تثبت اللغة، و لا هو نقل عن الشارع. و قال محمد بن كعب: التين: مسجد أصحاب الكهف، و الزيتون: مسجد إيلياء، و قيل: إنه على حذف مضاف، أى: و منابت التين و الزيتون. قال النحّاس: لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل، و لا من قول من لا يجوّز خلافه. وَ طُورِ سِينِينَ هو الجبل الّذى كلّم اللّه عليه موسى اسمه الطور، و معنى سينين: المبارک الحسن بلغة الحبشة، قاله قتادة. و قال مجاهد: هو المبارک بالسريانية. و قال مجاهد و الكلبى: سينين: كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين و سيناء بلغة النّبط. قال الأخفش: طور: جبل، و سينين: شجر، واحدته سينينة. قال أبو على الفارسى: سينين فعليل، فكرّرت اللام التى هى نون فيه، و لم ينصرف سينين كما لم ينصرف سيناء لأنه جعل اسما للبقعة، و إنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام، و هى الأرض المقدسة كما فى قوله: إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ «1» و أعظم بركة حلّت به و وقعت عليه تكليم اللّه لموسى عليه. قرأ الجمهور: سِينِينَ بكسر السين، و قرأ ابن إسحاق و عمرو بن ميمون و أبو رجاء بفتحها، و هى لغة بكر و تميم. و قرأ عمر بن الخطاب و ابن مسعود و الحسن و طلحة سَيْناءَ بالكسر و المدّ. وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ يعنى مكة، سمّاه أمينا لأنه آمن كما قال: أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً «2» يقال أمن الرجل أمانة فهو أمين. قال الفراء و غيره: الأمين بمعنى الآمن، و يجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول من أمنه؛ لأنه مأمون الغوائل لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ هذا جواب القسم، أى: خلقنا جنس الإنسان كائنا فى أحسن تقويم و تعديل. قال الواحدى: قال المفسرون: إن اللّه خلق كل ذى روح مكبّا على وجهه إلا الإنسان، خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده، و معنى التقويم: التعديل، يقال: قوّمته فاستقام.

قال القرطبى: هو اعتداله و استواء شأنه، كذا قال عامة المفسرين. قال ابن العربى: ليس للّه تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن اللّه خلقه حيا عالما قادرا مريدا متكلّما سميعا بصيرا مدبّرا حكيما، و هذه صفات الرب سبحانه، و عليها جعل بعض العلماء قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه خلق آدم على صورته» يعنى على صفاته التى تقدم ذكرها. قلت: و ينبغى أن يضمّ إلى كلامه هذا قوله سبحانه: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ «3» و قوله: وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً «4» و من أراد أن يقف على حقيقة ما اشتمل عليه الإنسان من بديع الخلق و عجيب الصنع فلينظر فى كتاب «العبر و الاعتبار» للجاحظ، و فى الكتاب الّذى عقده النيسابورى على قوله: وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ «5» و هو فى مجلدين ضخمين. ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ أى: رددناه إلى أرذل العمر، و هو الهرم و الضعف بعد الشباب و القوّة حتى يصير كالصبىّ فيخرف و ينقص عقله، كذا قال جماعة من المفسرين. قال الواحدى: و السافلون: هم الضعفاء و الزمناء و الأطفال، و الشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعا.

(۱). الإسراء: ۱.

(۲). العنكبوت: ۶۷.

(۳). الشورى: ۱۱.

(۴). طه: ۱۱۰.

(۵). الذاريات: ۲۱.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۶۸

و قال مجاهد و أبو العالية و الحسن: المعنى: ثم رددنا الكافر إلى النار، و ذلك أن النار درجات بعضها أسفل من بعض، فالكافر يردّ إلى أسفل الدرجات السافلة، و لا ينافى هذا قوله تعالى: إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ «۱» فلا مانع من كون الكفار و المنافقين مجتمعين فى ذلك الدرك الأسفل، و قوله: أَسْفَلَ سافِلِينَ إما حال من المفعول، أى: رددناه حال كونه أسفل سافلين، أو صفة لمقدر محذوف، أى: مكانا أسفل سافلين إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ هذا الاستثناء على القول الأوّل منقطع، أى: لكن الذين آمنوا ... إلخ، و وجهه أن الهرم و الردّ إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن كما يصاب به الكافر، فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى. و على القول الثانى يكون الاستثناء متصلا من ضمير «رددناه»، فإنه فى معنى الجمع، أى: رددنا الإنسان أسفل سافلين من النار إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ أى: غير مقطوع، أى: فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعاتهم؛ فهذه الجملة على القول الأوّل مبنية لكيفية حال المؤمنين، و على القول الثانى مقرّرة لما يفيده الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الردّ، و قال: أسفل سافلين على الجمع؛ لأن الإنسان فى معنى الجمع، و لو قال أسفل سافل لجاز؛ لأن الإنسان باعتبار اللفظ واحد. و قيل: معنى «رددناه أسفل سافلين»: رددناه إلى الضلال، كما قال: إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ- إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ «۲» أى: إلا هؤلاء؛ فلا يردّون إلى ذلك فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ الخطاب للإنسان الكافر، و الاستفهام للتقريع و التوبيخ و إلزام الحجة، أى: إذا عرفت أيها الإنسان أن اللّه خلقك فى أحسن تقويم، و أنه يردّك أسفل سافلين، فما يحملك على أن تكذب بالبعث و الجزاء؟ و قيل:

الخطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: أىّ شىء يكذبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة، فاستيقن مع ما جاءك من اللّه أنه أحكم الحاكمين. قال الفراء و الأخفش: المعنى: فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين، كأنه قال: من يقدر على ذلك؟ أى: على تكذيبك بالثواب و العقاب بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان ما ظهر، و اختار هذا ابن جرير. و الدين: الجزاء، و منه قول الشاعر:

دنّا تميما كما كانت أوائلنادانت أوائلهم من سالف الزّمن

و قال الآخر:

و لمّا صرّح الشرّفأمسى و هو عريان

و لم يبق سوى العدوان دنّاهم كما دانوا

أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ أى: أليس الّذى فعل ما فعل مما ذكرنا بأحكم الحاكمين صنعا و تدبيرا؟

حتى تتوهّم عدم الإعادة و الجزاء، و فيه وعيد شديد للكفار، و معنى أحكم الحاكمين: أتقن الحاكمين فى كل ما يخلق، و قيل: أحكم الحاكمين قضاء و عدلا. و الاستفهام إذا دخل على النفى صار الكلام إيجابا كما تقدّم تفسير قوله: أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ «۳».

(۱). النساء: ۱۴۵.

(۲). العصر: ۲- ۳.

(۳). الشرح: ۱.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۶۹

و قد أخرج الخطيب و ابن عساكر- قال السيوطى: بسند فيه مجهول- عن الزهرى عن أنس قال: لما أنزلت سورة التين و الزيتون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فرح فرحا شديدا؛ حتى تبين لنا شدّة فرحه، فسألنا ابن عباس عن تفسيرها فقال: التين: بلاد الشام، و الزيتون: بلاد فلسطين، و طور سيناء: الّذى كلّم اللّه عليه موسى، و هذا البلد الأمين: مكة لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِیمٍ محمدا ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِینَ عبدة اللات و العزى إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَیْرُ مَمْنُونٍ أبو بكر و عمر و عثمان و علىّ فَما یُکَذِّبُکَ بَعْدُ بِالدِّینِ- أَ لَیْسَ اللَّهُ بِأَحْکَمِ الْحاکِمِینَ إذ بعثك فيهم نبيا و جمعك على التقوى يا محمد، و مثل هذا التفسير من ابن عباس لا تقوم به حجة لما تقدّم من كون فى إسناده ذلك المجهول. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ التِّینِ وَ الزَّیْتُونِ قال: مسجد نوح الّذى بنى على الجودىّ، و الزيتون قال: بيت المقدس وَ طُورِ سِینِینَ قال: مسجد الطور وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِینِ قال: مكة لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِیمٍ- ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِینَ يقول: يردّ إلى أرذل العمر كبر حتى ذهب عقله، هم نفر كانوا على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فسئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حين سفهت عقولهم، فأنزل اللّه عذرهم أن لهم أجرهم الّذى عملوا قبل أن تذهب عقولهم فَما یُکَذِّبُکَ بَعْدُ بِالدِّینِ يقول: بحكم اللّه. و أخرج ابن مردويه عنه نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عنه أيضا وَ التِّینِ وَ الزَّیْتُونِ قال: الفاكهة التى يأكلها الناس وَ طُورِ سِینِینَ قال: الطور: الجبل، و السينين:

المبارك. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: سينين: هو الحسن. و أخرج سعيد ابن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِیمٍ قال: فى أعدل خلق ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِینَ يقول: إلى أرذل العمر إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَیْرُ مَمْنُونٍ يعنى: غير منقوص، يقول: فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر و كان يعمل فى شبابه عملا صالحا كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل فى صحته و شبابه و لم يضرّه ما عمل فى كبره، و لم تكتب عليه الخطايا التى يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر. و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر، و ذلك قوله: ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِینَ- إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ قال: لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِینَ يقول: إلى الكبر و ضعفه، فإذا كبر و ضعف عن العمل كتب له مثل أجر ما كان يعمل فى شبيبته. و أخرج أحمد و البخارى و غيرهما عن أبى موسى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«إذا مرض العبد أو سافر كتب اللّه له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحا مقيما». و أخرج الترمذى و ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا: «من قرأ التين و الزيتون، فقرأ: أَ لَیْسَ اللَّهُ بِأَحْکَمِ الْحاکِمِینَ فليقل: بلى و أنا على ذلك من الشاهدين». و أخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا: «إذا قرأت التين و الزيتون فقرأت أَ لَیْسَ اللَّهُ بِأَحْکَمِ الْحاکِمِینَ فقل: بلى». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ: أَ لَیْسَ اللَّهُ بِأَحْکَمِ الْحاکِمِینَ قال: سبحانك اللهمّ فبلى.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۷۰

سورة العلق

اشارة

و يقال سورة العلق، و هى تسع عشرة آية، و قيل: عشرون آية و هى مكية بلا خلاف، و هى أوّل ما نزل من القرآن. و أخرج ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: أوّل ما نزل من القرآن اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ و أخرج ابن أبى شيبة و ابن الضريس و ابن الأنبارى و الطبرانى و الحاكم و صححه و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحلية عن أبى موسى الأشعرى قال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ أوّل سورة أنزلت على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى و صحّحه، عن عائشة قالت: إن أوّل ما نزل من القرآن: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ و يدل على أن هذه السورة أول ما نزل: الحديث الطويل الثابت فى البخارى و مسلم و غيرهما من حديث عائشة، و فيه: «فجاءه الحق و هو فى غار حراء، فقال له: اقرأ» الحديث، و فى الباب أحاديث و آثار عن جماعة من الصحابة. و قد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أوّل ما نزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة العلق (٩٦): الآيات ١ الى ١٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (۴)
عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ (۵) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى (۶) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى (٧) إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى (٨) أَ رَأَيْتَ الَّذِى يَنْهى (٩)
عَبْداً إِذا صَلَّى (١٠) أَ رَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى (١٢) أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (١٣) أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى (١۴)
كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (١۵) ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ (١۶) فَلْيَدْعُ نادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ (١٨) كَلَّا لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ (١٩)

قرأ الجمهور: اقْرَأْ بسكون الهمزة أمرا من القراءة. و قرأ عاصم فى رواية عنه بفتح الراء، و كأنه قلب الهمزة ألفا ثم حذفها للأمر، و الأمر بالقراءة يقتضى مقروءا، فالتقدير: اقرأ ما يوحى إليك، أو ما نزل عليك، أو ما أمرت بقراءته، و قوله: بِاسْمِ رَبِّكَ متعلق بمحذوف هو حال: أى: اقرأ متلبسا باسم ربك أو مبتدئا باسم ربك أو مفتتحا، و يجوز أن تكون الباء زائدة، و التقدير: اقرأ اسم ربك، كقول الشاعر «١»:

سود المحاجر لا يقرأن بالسّور «٢» ________________________________

(١). هو الراعى.

(٢). و صدر البيت: هنّ الحرائر لا ربّات أحمرة.

قاله أبو عبيدة. و قال أيضا: الاسم صلة، أى: اذكر ربك. و قيل: الباء بمعنى على، أى: اقرأ على اسم ربك، يقال: افعل كذا بسم اللّه، و على اسم اللّه، قاله الأخفش. و قيل: الباء للاستعانة، أى: مستعينا باسم ربك، و وصف الربّ بقوله: الَّذِى خَلَقَ لتذكير النعمة؛ لأنّ الخلق هو أعظم النعم، و عليه يترتّب سائر النعم. قال الكلبى: يعنى الخلائق خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ يعنى بنى آدم، و العلقة: الدم الجامد، و إذا جرى فهو المسفوح. و قال: «من علق» بجمع علق لأن المراد بالإنسان الجنس، و المعنى: خلق جنس

الإنسان من جنس العلق، و إذا كان المراد بقوله: «الّذى خلق» كلّ المخلوقات، فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفا له لما فيه من بديع الخلق و عجيب الصنع، و إذا كان المراد بالذى خلق الّذى خلق الإنسان فيكون الثانى تفسيرا للأول. و النكتة ما فى الإبهام، ثم التفسير من التفات الذهن و تطلعه إلى معرفة ما أبهم أوّلا ثم فسّر ثانيا. ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد و التقرير فقال: اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ أى: افعل ما أمرت به من القراءة، و جملة وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به صلّى اللّه عليه و سلّم من قوله: «ما أنا بقارئ»، يريد أن القراءة شأن من يكتب و يقرأ و هو أميّ، فقيل له: اقرأ، و ربك الّذى أمرك بالقراءة هو الأكرم.

قال الكلبى: يعنى الحليم عن جهل العباد فلم يعجل بعقوبتهم، و قيل: إنه أمره بالقراءة أوّلا لنفسه، ثم أمره بالقراءة ثانيا للتبليغ، فلا يكون من باب التأكيد، و الأوّل أولى الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ أى: علّم الإنسان الخط بالقلم، فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب، قال الزجاج: علم الإنسان الكتابة بالقلم.

قال قتادة: القلم نعمة من اللّه عزّ و جلّ عظيمة، لو لا ذلك لم يقم دين و لم يصلح عيش، فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا و نقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، و نبّه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو، و ما دوّنت العلوم و لا قيدت الحكم و لا ضبطت أخبار الأوّلين و مقالاتهم و لا كتب اللّه المنزلة إلا بالكتابة، و لو لا هى ما استقامت أمور الدين و لا أمور الدنيا، و سمّى قلما لأنه يقلم، أى: يقطع، عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ هذه الجملة بدل اشتمال من التى قبلها، أى: علمه بالقلم من الأمور الكلية و الجزئية ما لم يعلم به منها، قيل: المراد بالإنسان هنا آدم كما فى قوله: وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها «١» و قيل: الإنسان هنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و الأولى حمل الإنسان على العموم، و المعنى: أن من علمه اللّه سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم فقد علمه ما لم يعلم، و قوله: كَلَّا ردع و زجر لمن كفر نعم اللّه عليه بسبب طغيانه، و إن لم يتقدم له ذكر، و معنى إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أنه يجاوز الحد و يستكبر على ربه. و قيل: المراد بالإنسان هنا أبو جهل، و هو المراد بهذا و ما بعده إلى آخر السورة، و أنه تأخّر نزول هذا و ما بعده عن الخمس الآيات المذكورة فى أوّل هذه السورة. و قيل «كلا» هنا بمعنى حقا، قاله الجرجانى، و علّل ذلك بأنه ليس قبله و لا بعده شىء يكون كلا ردّا له، و قوله: أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى علّة ليطغى، أى:

ليطغى أن رأى نفسه مستغنيا، أو لأن رأى نفسه مستغنيا، و الرؤية هنا بمعنى العلم، و لو كانت البصرية لامتنع

---

(١). البقرة: ٣١.

الجمع بين الضميرين فى فعلها لشىء واحد لأن ذلك من خواص باب علم، و نحوه. قال الفراء: لم يقل رأى نفسه، كما قيل: قتل نفسه؛ لأن رأى من الأفعال التى تريد اسما و خبرا نحو الظنّ و الحسبان؛ فلا يقتصر فيه على مفعول واحد، و العرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول: رأيتنى و حسبتنى، و متى تراك خارجا، و متى تظنك خارجا، قيل: و المراد هنا أنه استغنى بالعشيرة و الأنصار و الأموال. قرأ الجمهور: «أن رآه» بمد الهمزة. و قرأ قنبل عن ابن كثير بقصرها. قال مقاتل: كان أبو جهل إذا أصاب مالا زاد فى ثيابه و مركبه و طعامه و شرابه؛ فذلك طغيانه، و كذا قال الكلبى. ثم هدّد سبحانه و خوّف، فقال: إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى أى: المرجع، و الرجعى و المرجع و الرجوع: مصادر، يقال: رجع إليه مرجعا و رجوعا و رجعى، و تقدّم الجار و المجرور للقصر، أى: الرجعى إليه سبحانه لا إلى غيره أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى قال المفسرون: الّذى ينهى أبو جهل، و المراد بالعبد محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و فيه تقبيح لصنعه و تشنيع لفعله؛ حتى كأنه بحيث يراه كلّ من تتأتى منه الرؤية أَ رَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى يعنى العبد المنهيّ إذا صلّى، و هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى أى: بالإخلاص و التوحيد و العمل

الصالح الّذى تتّقى به النار أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى يعنى أبا جهل، كذّب بما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و تولّى عن الإيمان، و قوله:

أَ رَأَيْتَ فى الثلاثة المواضع بمعنى: أخبرنى؛ لأن الرؤية لما كانت سببا للإخبار عن المرئى أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلّقها، و الخطاب لكل من يصلح له. و قد ذكر هنا أ رأيت ثلاث مرات، و صرح بعد الثالثة منها بجملة استفهامية فتكون فى موضع المفعول الثانى لها، و مفعولها الأوّل محذوف، و هو ضمير يعود على الّذى ينهى الواقع مفعولا أوّل لأرأيت الأولى، و مفعول أ رأيت الأولى الثانى محذوف، و هو جملة استفهامية كالجملة الواقعة بعد أ رأيت الثانية، و أما أ رأيت الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أوّل و لا ثان، حذف الأوّل لدلالة مفعول أ رأيت الثالثة عليه فقد حذف الثانى من الأولى، و الأول من الثالثة، و الاثنان من الثانية، و ليس طلب كل من رأيت للجملة الاستفهامية على سبيل التنازع لأنه يستدعى إضمارا، و الجمل لا تضمر، إنما تضمر المفردات، و إنما ذلك من باب الحذف للدلالة، و أما جواب الشرط المذكورة مع أ رأيت فى الموضعين الآخرين. فهو محذوف تقديره: إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى و إنما حذف لدلالة ذكره فى جواب الشرط الثانى، و معنى أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى أى: يطلع على أحواله، فيجازيه بها، فكيف اجترأ على ما اجترأ عليه؟ و الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و قيل: أ رأيت الأولى مفعولها الأوّل الموصول، و مفعولها الثانى الشرطية الأولى بجوابها المحذوف المدلول عليه بالمذكور، و أ رأيت فى الموضعين تكرير للتأكيد، و قيل: كل واحدة من أ رأيت بدل من الأولى، و أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى الخبر. قوله:

كَلَّا ردع للناهى، و اللام فى قوله: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ هى الموطئة للقسم، أى، و اللّه لئن لم ينته عما هو عليه و لم ينزجر لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ السفع: الجذب الشديد، و المعنى: لنأخذنّ بناصيته و لنجرّنه إلى النار، و هذا كقوله: فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ «١» و يقال: سفعت الشىء؛ إذا قبضته و جذبته،

---

(١). الرّحمن: ٤١.

و يقال: سفع بناصية فرسه. قال الراغب: السفع: الأخذ بسفعة الفرس، أى: بسواد ناصيته، و باعتبار السواد قيل: به سفعة غضب؛ اعتبارا بما يعلو من اللون الدخانى وجه من اشتدّ به الغضب، و قيل للصقر:

أسفع لما فيه من لمع السواد، و امرأة سفعاء اللون. انتهى، و قيل: هو مأخوذ من سفع النار و الشمس؛ إذا غيرت وجهه إلى سواد، و منه قول الشاعر «١»:

أثافىّ سفعا فى معرّس مرجل «٢» . و قوله: ناصِيَةٍ بدل من الناصية، و إنما أبدل النكرة من المعرفة لوصفها بقوله: كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ و هذا على مذهب الكوفيين فإنهم لا يجيزون إبدال النكرة من المعرفة إلا بشرط وصفها. و أما على مذهب البصريين، فيجوز إبدال النكرة من المعرفة بلا شرط، و أنشدوا:

فلا و أبيك خير منك إنّى ليؤذينى التّحمحم و الصّهيل

قرأ الجمهور بجرّ «ناصية كاذبة خاطئة» و الوجه ما ذكرنا. و قرأ الكسائى فى رواية عنه برفعها على إضمار مبتدأ، أى: هى ناصية، و قرأ أبو حيوة و ابن أبى عبلة و زيد بن علىّ بنصبها على الذمّ. قال مقاتل: أخبر عنه بأنه فاجر خاطئ، فقال: «ناصية كاذبة خاطئة»، و تأويلها: صاحبها كاذب خاطئ فَلْيَدْعُ نادِيَهُ أى: أهل ناديه، و النادى: المجلس الّذى يجلس فيه القوم و يجتمعون فيه من الأهل و العشيرة؛ و المعنى:

ليدع عشيرته و أهله ليعينوه و ينصروه، و منه قول الشاعر «۳»:

و استبّ بعدك يا كليب المجلس «۴» أى: أهله. قيل: إن أبا جهل قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أ تهددنى و أنا أكثر الوادى ناديا؟ فنزلت: فَلْيَدْعُ نادِيَهُ- سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ أى: الملائكة الغلاظ الشداد، كذا قال الزجاج. قال الكسائى و الأخفش و عيسى ابن عمر: واحدهم زابن، و قال أبو عبيدة: زبنية، و قيل: زبانىّ، و قيل: هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعباديد و أبابيل. و قال قتادة: هم الشّرط فى كلام العرب، و أصل الزّبن الدّفع، و منه قول الشاعر:

و مستعجب ممّا يرى من أناتناو لو زبّنته الحرب لم يترمرم

و العرب تطلق هذا الاسم على من اشتدّ بطشه، و منه قول الشاعر:

مطاعيم فى القصوى مطاعين فى الوغىزبانية غلب «۵» عظام حلومها

قرأ الجمهور: «سندع» بالنون، و لم ترسم الواو كما فى قوله: يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ «۶» و قرأ ابن أبى

---

(۱). هو زهير بن أبى سلمى.

(۲). و عجز البيت: و نؤيا كجذم الحوض لم يتثلّم.

(۳). هو المهلهل.

(۴). و صدر البيت: نبئت أنّ النار بعدك أوقدت.

(۵). «غلب»: جمع أغلب، و هو الغليظ الرقبة.

(۶). القمر: ۶.

عبلة: «سيدعى» على البناء للمفعول و رفع الزبانية على النيابة. ثم كرّر الردع و الزجر فقال: كَلَّا لا تُطِعْهُ أى: لا تطعه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة وَ اسْجُدْ أى: صلّ للّه غير مكترث به، و لا مبال بنهيه وَ اقْتَرِبْ أى: تقرّب إليه سبحانه بالطاعة و العبادة. و قيل: المعنى: إذا سجدت اقترب من اللّه بالدعاء. و قال زيد بن أسلم: و اسجد أنت يا محمد، و اقترب أنت يا أبا جهل من النار، و الأوّل أولى.

و السجود هذا الظاهر أن المراد به الصلاة، و قيل: سجود التلاوة، و يدلّ على هذا ما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم من السجود عند تلاوة هذه الآية، كما سيأتى إن شاء اللّه.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير، و أبو نعيم فى الدلائل، عن عبد اللّه بن شداد قال: «أتى جبريل محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا محمد اقرأ، فقال: و ما أقرأ؟ فضمه ثم قال: يا محمد اقرأ، قال: و ما أقرأ؟ قال اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِی خَلَقَ حتى بلغ ما لَمْ يَعْلَمْ . و فى الصحيحين و غيرهما من حديث عائشة: «فجاءه الملك، فقال: اقرأ، فقال: قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد فقال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِی خَلَقَ- خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ- اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ- الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ الآية. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و البخارى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا يصلّى عند الكعبة لأطأنّ عنقه، فبلغ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عيانا». و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد، و الترمذى و صحّحه، و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عنه قال:

«كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ إنك لتعلم أن ما بها رجل أكثر ناديا منى، فأنزل اللّه: فَلْيَدْعُ نادِيَهُ- سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ فجاء النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يصلّى، فقيل: ما يمنعك؟ فقال: قد اسودّ ما بينى و بينه». قال ابن عباس: و اللّه لو تحرك لأخذته الملائكة و الناس ينظرون إليه. و أخرج أحمد و مسلم و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا نعم، قال: و اللات و العزّى لئن رأيته يصلى كذلك لأطأنّ على رقبته و لأعفرن وجهه فى التراب، فأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو يصلى ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا و هو ينكص على عقبيه و يتّقى بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بينى و بينه خندقا من نار و هولا و أجنحة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا» قال: و أنزل اللّه: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى إلى آخر السورة، يعنى أبا جهل فَلْيَدْعُ نادِيَهُ يعنى قومه: سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ يعنى الملائكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى قال:
أبو جهل بن هشام حين رمى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالسّلى على ظهره و هو ساجد للّه عزّ و جلّ. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: لَنَسْفَعاً قال: لنأخذن. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فَلْيَدْعُ نادِيَهُ قال: ناصره، و قد قدّمنا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يسجد فى إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ و فى اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ
فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٧٥

سورة القدر

اشارة

و هى مكية عند أكثر المفسرين. كذا قال الماوردى. و قال الثعلبى: هى مدنية فى قول أكثر المفسرين، و ذكر الواقدى أنها أوّل سورة نزلت بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير و عائشة أنها نزلت بمكة.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القدر (٩٧): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤)
سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)
الضمير فى أنزلناه للقرآن، و إن لم يتقدّم له ذكر، أنزل جملة واحدة فى ليلة القدر إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ، و كان ينزل على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم نجوما على حسب الحاجة، و كان بين نزول أوّله و آخره على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثلاث و عشرون سنة، و فى آية أخرى: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ «١» و هى ليلة القدر، و فى آية أخرى شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ «٢» و ليلة القدر فى شهر رمضان. قال مجاهد: فى ليلة القدر ليلة الحكم وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ ليلة الحكم، قيل: سمّيت ليلة القدر لأن اللّه سبحانه يقدّر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة. و قيل: إنها سمّيت بذلك لعظيم قدرها و شرفها، من قولهم: لفلان قدر، أى:

شرف و منزلة، كذا قال الزهرى. و قيل: سمّيت بذلک؛ لأن للطاعات فيها قدرا عظيما و ثوابا جزيلا.

و قال الخليل: سمّيت ليلة القدر؛ لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة، كقوله: وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ «٣» أى: ضيق.

و قد اختلف فى تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولا، قد ذكرناها بأدلتها و بيّنا الراجح منها فى شرحنا للمنتقى وَ ما أَدْراکَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ هذا الاستفهام فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق لا يدريها إلا اللّه سبحانه. قال سفيان: كلّ ما فى القرآن من قوله: و ما أدراک؛ فقد أدراه، و كلّ ما فيه: و ما يدريک؛ فلم يدره، و كذا قال الفراء. و المعنى: أىّ شىء تجعله داريا بها؟ و قد قدّمنا الكلام فى إعراب هذه الجملة فى قوله: وَ ما أَدْراکَ مَا الْحَاقَّةُ «۴» ثم قال: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ قال كثير من المفسرين: أى العمل فيها خير من العمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، و اختار هذا الفراء و الزجاج، و ذلک أن الأوقات إنّما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير و النفع، فلما جعل اللّه الخير الكثير فى

---

(١). الدخان: ٣.

(٢). البقرة: ١٨٥.

(٣). الطلاق: ٧.

(۴). الحاقة: ٣.

ليلة كانت خيرا من ألف شهر لا يكون فيها من الخير و البركة ما فى هذه الليلة. و قيل: أراد بقوله: ألف شهر جميع الدهر؛ لأن العرب تذكر الألف فى كثير من الأشياء على طريق المبالغة. و قيل: وجه ذكر الألف الشهر:

أن العابد كان فيما مضى لا يسمّى عابدا حتى يعبد اللّه ألف شهر، و ذلک ثلاث و ثمانون سنة و أربعة أشهر، فجعل اللّه سبحانه لأمة محمد عبادة ليلة خيرا من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها. و قيل: إن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم رأى أعمار أمته قصيرة، فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم فى طول العمر، فأعطاه اللّه ليلة القدر و جعلها خيرا من ألف شهر لسائر الأمم، و قيل غير ذلک مما لا طائل تحته، و جملة تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مستأنفة مبينة لوجه فضلها، موضّحة للعلّة التى صارت بها خيرا من ألف شهر، و قوله:

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يتعلّق بتنزل أو بمحذوف هو حال، أى: متلبسين بإذن ربهم، و الإذن: الأمر، و معنى «تنزل»: تهبط من السماوات إلى الأرض. و الروح: هو جبريل عند جمهور المفسرين، أى: تنزل الملائكة و معهم جبريل. و وجه ذكره بعد دخوله فى الملائكة التعظيم له و التشريف لشأنه. و قيل: الرّوح صنف من الملائكة هم أشرافهم، و قيل: هم جند من جنود اللّه من غير الملائكة، و قيل: الروح: الرحمة، و قد تقدّم الخلاف فى الروح عند قوله: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا «١» قرأ الجمهور: «تنزل» بفتح التاء، و قرأ طلحة بن مصرّف و ابن السّميقع بضمّها على البناء للمفعول، و قوله: مِنْ كُلِّ أَمْرٍ أى: من أجل كلّ أمر من الأمور التى قضى اللّه بها فى تلک السنة، و قيل: إن «من» بمعنى اللام، أى: لكلّ أمر، و قيل:

هى بمعنى الباء، أى: بكلّ أمر، قرأ الجمهور: «أمر» و هو واحد الأمور، و قرأ علىّ و ابن عباس و عكرمة و الكلبى «امرئ» مذكر امرأة، أى: من أجل كلّ إنسان، و تأوّلها الكلبى على أن جبريل ينزل مع الملائكة فيسلّمون على كلّ إنسان، فمن على هذا بمعنى على، و الأوّل أولى. و قد تمّ الكلام عند قوله: من كلّ أمر، ثم ابتدأ فقال: سَلامٌ هِيَ أى: ما هى إلا سلامة و خير كلها لا شرّ فيها، و قيل: هى ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان من مؤمن أو مؤمنة. قال مجاهد: هى ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا و لا أذى. و قال الشعبى: هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر يمرّون على كلّ

مؤمن و يقولون: السلام عليك أيها المؤمن، و قيل: يعنى سلام الملائكة بعضهم على بعض.

قال عطاء: يريد سلام على أولياء اللّه و أهل طاعته حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ أى حتى وقت طلوعه. قرأ الجمهور: «مطلع» بفتح اللام. و قرأ الكسائى و ابن محيصن بكسرها، فقيل: هما لغتان فى المصدر، و الفتح أكثر؛ نحو: المخرج و المقتل، و قيل: بالفتح اسم مكان، و بالكسر المصدر، و قيل: العكس، و «حتى» متعلّقة بتنزل؛ على أنها غاية لحكم التنزل، أى: لمكثهم فى محل تنزلهم؛ بأن لا ينقطع تنزلهم فوجا بعد فوج إلى طلوع الفجر، و قيل: متعلقة بسلام بناء على أن الفصل بين المصدر و معموله بالمبتدأ مغتفر.

و قد أخرج ابن الضريس و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى

---

(۱). النبأ: ۳۸.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۷۷

فى الدلائل، عن ابن عباس فى قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ قال: أنزل القرآن فى ليلة القدر حتى وضع فى بيت العزّة فى السماء الدنيا، ثم جعل جبريل ينزل على محمد بجواب كلام العباد و أعمالهم. و أخرج عبد بن حميد عن أنس قال: العمل فى ليلة القدر و الصدقة و الصلاة و الزكاة أفضل من ألف شهر. و أخرج الترمذى و ضعّفه، و ابن جرير و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن الحسن بن علىّ بن أبى طالب أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أرى بنى أمية على منبره فساءه ذلك، فنزلت: إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ «۱» يا محمد يعنى: نهرا فى الجنة، و نزلت: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ- وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ- لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ يملكها بعدك بنو أمية. قال القاسم: فعددنا فإذا هى ألف شهر لا تزيد يوما و لا تنقص يوما، و المراد بالقاسم هو القاسم بن الفضل المذكور فى إسناده. قال الترمذى: إن يوسف هذا مجهول، يعنى:

يوسف بن سعد الّذى رواه عن الحسن بن علىّ. قال ابن كثير: فيه نظر، فإنه قد روى عنه جماعة: منهم حماد بن سلمة و خالد الحذاء و يونس بن عبيد. و قال فيه يحيى بن معين: هو مشهور. و فى رواية عن ابن معين قال: هو ثقة، و رواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن. قال ابن كثير: ثمّ هذا الحديث على كلّ تقدير منكر جدا. قال المزى: هو حديث منكر، و قول القاسم بن الفضل إنه حسب مدة بنى أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد و لا تنقص ليس بصحيح، فإن جملة مدّتهم من عند أن استقل بالملك معاوية و هى سنة أربعين إلى أن سلبهم الملك بنو العباس، و هى سنة اثنين و ثلاثين و مائة مجموعها اثنتان و تسعون سنة.

و أخرج الخطيب فى تاريخه؛ عن ابن عباس نحو ما روى عن الحسن بن علىّ. و أخرج الخطيب عن سعيد بن المسيب مرفوعا مرسلا نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: سَلامٌ قال: فى تلك الليلة تصفد مردة الشياطين، و تغلّ عفاريت الجنّ، و تفتح فيها أبوابها السماء كلها، و يقبل اللّه فيها التوبة لكلّ تائب، فلذا قال: سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ قال: و ذلك من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر. و الأحاديث فى فضل ليلة القدر كثيرة، و ليس هذا موضع بسطها، و كذلك الأحاديث فى تعيينها و الاختلاف فى ذلك.

---

(۱). الكوثر: ۱.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۷۸

سورة البيّنة

اشارة

و هى مدنية فى قول الجمهور، و قيل: مكية. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة لم يكن بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة لم يكن بمكة. و أخرج أبو نعيم فى المعرفة عن إسماعيل بن أبى حكيم المزنى، حدّثنى فضل: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن اللّه يستمع قراءة لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا فيقول: أبشر عبدى و عزتى و جلالى لأمكننّ لك فى الجنة حتى ترضى» قال ابن كثير:

حديث غريب جدّا. و أخرجه أبو موسى المدينى عن مطر المزنى، أو المدنى بنحوه. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأبىّ بن كعب: «إن اللّه أمرنى أن أقرأ عليك لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا قال: و سمّانى لك؟ قال: نعم، فبكى». و أخرج أحمد، و ابن قانع فى معجم الصحابة، و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى حية البدرى قال: «لما نزلت لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إلى آخرها قال جبريل: يا رسول اللّه إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيّا، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأبىّ: إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة، فقال أبىّ: و قد ذكرت ثم يا رسول اللّه؟ قال: نعم، فبكى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة البينة (٩٨): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (٢) فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤)

وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)

المراد ب الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ اليهود و النصارى، وَ المراد ب الْمُشْرِكِينَ مشركو العرب، هم عبدة الأوثان، و مُنْفَكِّينَ خبر كان، يقال: فككت الشيء فانفك، أى:

انفصل، و المعنى: أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم و لا منتهين عنه حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ و قيل: الانفكاك بمعنى الانتهاء و بلوغ الغاية، أى: لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة، و قيل: منفكين:

زائلين، أى: لم تكن مدّتهم لتزول حتى تأتيهم البينة، يقال: ما انفك فلان قائما، أى: ما زال قائما، و أصل الفكّ: الفتح، و منه فكّ الخلخال. و قيل: منفكين: بارحين، أى: لم يكونوا ليبرحوا أو يفارقوا

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٧٩

الدنيا حتى تأتيهم البينة. و قال ابن كيسان: المعنى لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم حتى بعث، فلما بعث حسدوه و جحدوه، و هو كقوله: فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ «١» و على هذا فيكون قوله: وَ الْمُشْرِكِينَ أنهم ما كانوا يسيئون القول فى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم حتى بعث، فإنهم كانوا يسمّونه الأمين، فلما بعث عادوه و أساؤوا القول فيه. و قيل: مُنْفَكِّينَ هالكين، من قولهم: انفكّ صلبه، أى: انفصل فلم يلتئم فيهلك، و المعنى: لم يكونوا معذبين و لا هالكين إلا بعد قيام

الحجّة عليهم. و قيل: إن المشركين هم أهل الكتاب، فيكون وصفا لهم لأنهم قالوا: المسيح ابن اللّه و عزير ابن اللّه. قال الواحدى: و معنى الآية إخبار اللّه تعالى عن الكفار أنهم لن ينتهوا عن كفرهم و شركهم باللّه حتى أتاهم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بالقرآن، فبين لهم ضلالتهم و جهالتهم و دعاهم إلى الإيمان، و هذا بيان عن النعمة و الانقياد به من الجهل و الضلالة و الآية فيمن آمن من الفريقين. قال: و هذه الآية من أصعب ما فى القرآن نظما و تفسيرا، و قد تخبّط فيها الكبار من العلماء، و سلكوا فى تفسيرها طرقا لا تفضى بهم إلى الصواب. و الوجه ما أخبرتك، فاحمد اللّه إذ أتاك بيانها من غير لبس و لا إشكال. قال: و يدلّ على أن البينة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أنه فسرها و أبدل منها فقال: رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً يعنى ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها، و هو القرآن، و يدلّ على ذلك أنه كان يتلو على ظهر قلبه، لا عن كتاب. انتهى كلامه. و قيل: إن الآية حكاية لما كان يقوله أهل الكتاب و المشركون إنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبى الموعود به، فلما بعث تفرّقوا كما حكاه اللّه عنهم فى هذه السورة. و البينة على ما قاله الجمهور هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم؛ لأنه فى نفسه بينة و حجة و لذلك سمّاه سراجا منيرا، و قد فسر اللّه سبحانه هذه البينة المجملة بقوله: رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ فاتّضح الأمر و تبين أنه المراد بالبينة. و قال قتادة و ابن زيد: البينة هى القرآن كقوله: أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى «٢» و قال أبو مسلم: المراد بالبينة مطلق الرسل، و المعنى: حتى تأتيهم رسل من اللّه، و هم الملائكة يتلون عليهم صحفا مطهرة، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور: «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين» و قرأ ابن مسعود: «لم يكن المشركون و أهل الكتاب» قال ابن العربى: و هى قراءة فى معرض البيان، لا فى معرض التلاوة، و قرأ الأعمش و النخعى:

و المشركون بالرفع عطفا على الموصول. و قرأ أبىّ «فلما كان الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركون» قرأ الجمهور: رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ برفع رسول على أنه بدل كل من كلّ مبالغة، أو بدل اشتمال. قال الزجاج:

رسول رفع على البدل من البينة. و قال الفراء: رفع على أنه خبر مبتدأ مضمر، أى: هى رسول أو هو رسول.

و قرأ أبىّ و ابن مسعود «رسولا» بالنصب على القطع، و قوله: مِنَ اللَّهِ متعلق بمحذوف هو صفة لرسول، أى: كائن من اللّه، و يجوز تعلّقه بنفس رسول، و جوّز أبو البقاء أن يكون حالا من صحف، و التقدير: يتلو صحفا مطهرة منزلة من اللّه، و قوله: يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً يجوز أن تكون صفة أخرى لرسول، أن حالا من متعلق الجار و المجرور قبله. و معنى يتلو: يقرأ، يقال: تلا يتلو تلاوة، و الصحف:

---

(١). البقرة: ٨٩.

(٢). طه: ١٣٣.

جمع صحيفة، و هى ظرف المكتوب، و معنى مطهرة: أنها منزهة من الزور و الضلال. قال قتادة: مطهرة من الباطل، و قيل: مطهرة من الكذب و الشبهات و الكفر، و المعنى واحد؛ و المعنى: أنه يقرأ ما تتضمّنه الصحف من المكتوب فيها لأنه كان صلّى اللّه عليه و سلّم يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب كما تقدّم، و قوله: فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ صفة لصحفا، أو حال من ضميرها، و المراد الآيات و الأحكام المكتوبة فيها، و القيمة: المستقيمة المستوية المحكمة، من قول العرب: قام الشى‏ء؛ إذا استوى و صحّ. و قال صاحب النظم: الكتب بمعنى الحكم كقوله: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي «١» أى: حكم، و قوله صلّى اللّه عليه و سلّم فى قصة العسيف «لأقضينّ بينكما بكتاب اللّه» ثم قضى بالرجم، و ليس الرجم فى كتاب اللّه، فالمعنى: لأقضين بينكما بحكم اللّه، و بهذا يندفع ما قيل إن الصحف هى الكتب، فكيف قال صُحُفاً مُطَهَّرَةً- فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ و قال الحسن: يعنى بالصحف المطهرة: التى فى السماء،

يعنى فى اللوح المحفوظ كما فى قوله: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ- فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ «٢». وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ هذه الجملة مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب و تقريعهم، و بيان أن ما نسب إليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر، بل كان بعد وضوح الحق و ظهور الصواب.

قال المفسرون: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث اللّه محمدا، فلما بعث تفرقوا فى أمره و اختلفوا، فآمن به بعضهم و كفر آخرون. و خصّ أهل الكتاب، و إن كان غيرهم مثلهم فى التفرّق بعد مجىء البينة لأنهم كانوا أهل علم، فإذا تفرّقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف، و الاستثناء فى قوله: إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ مفرّغ من أعم الأوقات، أى: و ما تفرّقوا فى وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجّة الواضحة، و هى بعثة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالشريعة الغرّاء و المحجّة البيضاء. و قيل: البينة: البيان الّذى فى كتبهم أنه نبىّ مرسل، كقوله: وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ «٣» قال القرطبى: قال العلماء: من أوّل السورة إلى قوله: كُتُبٌ قَيِّمَةٌ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب و المشركين، و قوله: وَ ما تَفَرَّقَ إلخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب و المشركين بعد قيام الحجج، و جملة وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ فى محل نصب على الحال مفيدة لتقريعهم و توبيخهم بما فعلوا من التفرّق بعد مجىء البينة، أى: و الحال أنهم ما أمروا فى كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا اللّه و يوحّدوه حال كونهم مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى: جاعلين دينهم خالصا له سبحانه أو جاعلين أنفسهم خالصة له فى الدين، و قيل:

إن اللام فى ليعبدوا بمعنى أن، أى: ما أمروا إلا بأن يعبدوا كقوله: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ «٤» أى: أن يبين، و يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ «٥» أى: أن يطفئوا. قرأ الجمهور: «مخلصين» بكسر اللام، و قرأ الحسن بفتحها. و هذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية فى العبادات لأن الإخلاص من عمل القلب،

---

(١). المجادلة: ٢١.

(٢). البروج: ٢١- ٢٢.

(٣). آل عمران: ١٩.

(٤). النساء: ٢٦.

(٥). الصف: ٨.

و انتصاب حُنَفاءَ على الحال من ضمير مخلصين، فتكون من باب التداخل، و يجوز أن تكون من فاعل يعبدوا، و المعنى: مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام. قال أهل اللغة: أصله أن يحنف إلى دين الإسلام، أى: يميل إليه وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ أى: يفعلوا الصلوات فى أوقاتها، و يعطوا الزكاة عند محلّها، و خصّ الصلاة و الزكاة لأنهما من أعظم أركان الدين. قيل: إن أريد بالصلاة و الزكاة ما فى شريعة أهل الكتاب من الصلاة و الزكاة فالأمر ظاهر، و إن أريد ما فى شريعتنا فمعنى أمرهم بهما فى الكتابين أمرهم باتباع شريعتنا، و هما من جملة ما وقع الأمر به فيها وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ أى: و ذلك المذكور من عبادة اللّه و إخلاصها و إقامة الصلاة و الزكاة دِينُ الْقَيِّمَةِ أى دين الملة المستقيمة. قال الزجاج: أى ذلك دين الملة المستقيمة، فالقيمة صفة لموصوف محذوف. قال الخليل: القيمة جمع القيم، و القيم: القائم. قال الفراء:

أضاف الدّين إلى القيمة، و هو نعته لاختلاف اللفظين. و قال أيضا: هو من إضافة الشى‏ء إلى نفسه، و دخلت الهاء للمدح و المبالغة.

ثم بيّن سبحانه حال الفريقين فى الآخرة بعد بيان حالهم فى الدنيا فقال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ الموصول اسم إنّ، و المشركين معطوف عليه، و خبرها: فى نار جهنم، و خالِدِينَ فِيها حال من المستكنّ فى الخبر، و يجوز أن يكون قوله و المشركين مجرورا عطفا على أهل الكتاب و معنى كونهم فى نار جهنم أنهم يصيرون إليها يوم القيامة، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى من تقدّم ذكرهم من أهل الكتاب و المشركين المتّصفين بالكون فى نار جهنم و الخلود فيها هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ أى: الخليقة، يقال برأ، أى: خلق، و البارئ: الخالق، و البرية: الخليقة. قرأ الجمهور: «البرية» بغير همز فى الموضعين و قرأ نافع و ابن ذكوان فيهما بالهمز. قال الفراء: إن أخذت البرية من البراء و هو التراب لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ، و إن أخذتها من بريت القلم، أى: قدّرته دخلت. و قيل: إن الهمز هو الأصل؛ لأنه يقال:

برأ اللّه الخلق بالهمز، أى: ابتدعه و اخترعه، و منه قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها «١» و لكنها خففت الهمزة، و التزم تخفيفها عند عامة العرب. ثم بيّن حال الفريق الآخر فقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أى: جمعوا بين الإيمان و العمل الصالح أُولئِكَ المنعوتون بهذا هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ قال: و المراد أن أولئك شرّ البرية فى عصره صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا يبعد أن يكون فى كفار الأمم من هو شرّ منهم، و هؤلاء خير البرية فى عصره صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا يبعد أن يكون فى مؤمنى الأمم السابقة من هو خير منهم جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ أى: ثوابهم عند خالقهم بمقابلة ما وقع منهم من الإيمان و العمل الصالح جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ و المراد بجنات عدن هى أوسط الجنات و أفضلها، يقال: عدن بالمكان يعدن عدنا، أى: أقام، و معدن الشيء: مركزه و مستقرّه، و منه قول الأعشى:

و إن يستضافوا إلى حكمه يضافوا إلى راجح قد عدن

---

(١). الحديد: ٢٢.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٨٢

و قد قدّمنا فى غير موضع أنه إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر، و إن أريد مجموع قرار الأرض و الشجر، فجرى الأنهار من تحتها باعتبار جزئها الظاهر، و هو الشجر خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يخرجون منها و لا يظعنون عنها، بل هم دائمون فى نعيمها مستمرون فى لذاتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ الجملة مستأنفة لبيان ما تفضل اللّه به عليهم من الزيادة على مجرّد الجزاء، و هو رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره و قبلوا شرائعه، و رضاهم عنه حيث بلغوا من المطالب ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر. و يجوز أن تكون الجملة خبرا ثانيا، و أن تكون فى محل نصب على الحال بإضمار قد ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ أى: ذلك الجزاء و الرضوان لمن وقعت منه الخشية للّه سبحانه فى الدنيا و انتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التى وقعت له لا مجرّد الخشية مع الانهماك فى معاصى اللّه سبحانه فإنها ليست بخشية على الحقيقة.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: مُنْفَكِّينَ قال: برحين. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: أ تعجبون من منزلة الملائكة من اللّه، و الّذى نفسى بيده لمنزلة العبد المؤمن عند اللّه يوم القيامة أعظم من منزلة ملك، و اقرءوا إن شئتم: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ.

و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: «قلت: يا رسول اللّه من أكرم الخلق على اللّه؟ قال: يا عائشة أما تقرئين: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ». و أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد اللّه قال: «كنا عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأقبل علىّ، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: و الّذى نفسى بيده إن هذا و شيعته لهم الفائزون يوم القيامة، و نزلت: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ فكان أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم إذا أقبل قالوا: قد جاء خير البرية». و

أخرج ابن عدى و ابن عساكر عن أبى سعيد مرفوعا: «علىّ خير البريـة». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت هـذه الآيهٔ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعلىّ: «هو أنت و شيعتك يوم القيامهٔ راضين مرضيين». و أخرج ابن مردويه عن علىّ مرفوعا نحوه. و أخرج أحمد عن أبى هريرهٔ قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ألا أخبركم بخير البريهٔ؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه. قال: رجل أخذ بعنان فرسه فى سبيل اللّه كلما كانت هيعهٔ «۱» استوى عليه، ألاـ أخبركم بشرّ البريـهٔ؟ قالوا: بلى: قال: الّذى يسأل باللّه و لا يعطى به». قال أحمد: حدّثنا إسحاق بن عيسى، حدّثنا أبو معشر عن أبى وهب مولى أبى هريرهٔ عن أبى هريرهٔ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فذكره.

---

(۱). الهيعهٔ: الصوت الّذى تفزع منه و تخافه من عدو.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۸۳

سورهٔ الزّلزلهٔ

اشارهٔ

و هى مدنيهٔ فى قول ابن عباس و قتادهٔ، و مكيهٔ فى قول ابن مسعود و عطاء و جابر. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت إِذا زُلْزِلَتِ بالمدينهٔ. و أخرج أحمد و أبو داود و النسائى و محمد بن نصر، و الحاكم و صححه، و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن عبد اللّه بن عمرو قال: «أتى رجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أقرئنى يا رسول اللّه، قال: اقرأ ثلاثا من ذوات الرّاء، فقال الرجل: كبر سنى، و اشتدّ قلبى، و غلظ لسانى، قال: اقرأ ثلاثا من ذوات حم، فقال مثل مقالته الأولى، فقال: اقرأ ثلاثا من المسبحات، فقال مثل مقالته الأولى، و قال: و لكن أقرئنى يا رسول اللّه سورهٔ جامعهٔ، فأقرأه: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها حتى فرغ منها، قال الرجل: و الّذى بعثك بالحق لا أزيد عليها، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أفلح الرويجل، أفلح الرويجل». و أخرج الترمذى و ابن مردويه و البيهقى عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ إذا زلزلت الأرض عدلت له بنصف القرآن، و من قرأ: قل هو اللّه أحد عدلت له بثلث القرآن، و من قرأ: قل يا أيها الكافرون عدلت له بربع القرآن». و أخرج الترمذى و ابن الضريس و محمد بن نصر، و الحاكم و صححه، و البيهقى عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، و قل هو اللّه أحد تعدل ثلث القرآن، و قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن». قال الترمذى: غريب لا نعرفه إلّا من حديث يمان بن المغيرهٔ. و أخرج الترمذى عن أنس: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال لرجل من أصحابه: هل تزوّجت يا فلان؟ قال: لا و اللّه يا رسول اللّه، و لا عندى ما أتزوّج به، قال: أليس معك قل هو اللّه أحد؟ قال: بلى، قال: ثلث القرآن، قال: أ ليس معك إذا جاء نصر اللّه و الفتح؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أ ليس معك قل يا أيها الكافرون؟ قال: بلى، قال:

ربع القرآن، قال: أليس معك إذا زلزلت الأرض؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، تزوّج». قال الترمذى: هذا حديث حسن. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرهٔ: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «من قرأ فى ليلهٔ إذا زلزلت كان له عدل نصف القرآن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الزلزلة (٩٩): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها (١) وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها (٢) وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

قوله: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها أى: إذا حركت حركة شديدة، و جواب الشرط: تحدث،

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٨٤

و المراد تحركها عند قيام الساعة فإنها تضطرب حتى يتكسر كلّ شى‏ء عليها. قال مجاهد: و هى النفخة الأولى لقوله تعالى: يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ- تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ «١» و ذكر المصدر للتأكيد ثم أضافه إلى الأرض فهو مصدر مضاف إلى فاعله، و المعنى: زلزالها المخصوص الّذى يستحقه و يقتضيه جرمها و عظمها. قرأ الجمهور: «زلزالها» بكسر الزاى، و قرأ الجحدرى و عيسى بفتحها، و هما مصدران بمعنى، و قيل: المكسور مصدر و المفتوح اسم. قال القرطبى: و الزلزال بالفتح مصدر كالوسواس و القلقال «٢» وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها أى: ما فى جوفها من الأموات و الدفائن، و الأثقال: جمع ثقل، قال أبو عبيدة و الأخفش: إذا كان الميت فى بطن الأرض فهو ثقل لها، و إذا كان فوقها فهو ثقل عليها. قال مجاهد: أثقالها موتاها تخرجهم فى النفخة الثانية، و قد قيل للإنس و الجنّ الثقلان، و إظهار الأرض فى موضع الإضمار لزيادة التقرير وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها أى: قال كل فرد من أفراد الإنسان ما لها زلزلت؟ لما يدهمه من أمرها و يبهره من خطبها، و قيل: المراد بالإنسان الكافر، و قوله: مالها مبتدأ و خبر، و فيه معنى التعجيب، أى: أىّ شى‏ء لها، أو لأىّ شى‏ء زلزلت و أخرجت أثقالها؟ و قوله: يَوْمَئِذٍ بدل من إذا، و العامل فيهما قوله: تُحَدِّثُ أَخْبارَها و يجوز أن يكون العامل فى إذا محذوفا و العامل فى يومئذ تحدّث، و المعنى: يوم إذا زلزلت و أخرجت تخبر بأخبارها و تحدّثهم بما عمل عليها من خير و شرّ، و ذلك إما بلسان الحال حيث يدلّ على ذلك دلالة ظاهرة، أو بلسان المقال، بأن ينطقها اللّه سبحانه. و قيل: هذا متصل بقوله: وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها أى: قال مالها تُحَدِّثُ أَخْبارَها متعجبا من ذلك، و قال يحيى بن سلام: تحدّث أخبارها بما أخرجت من أثقالها، و قيل: تحدث بقيام الساعة، و أنها قد أتت و أن الدنيا قد انقضت. قال ابن جرير: تبين أخبارها بالرجفة و الزلزلة و إخراج الموتى، و مفعول تحدّث الأوّل محذوف و الثانى هو أخبارها، أى: تحدّث الخلق أخبارها بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها متعلّق بتحدّث، و يجوز أن يتعلق بنفس أخبارها، و قيل: الباء زائدة، و أنّ و ما فى حيزها بدل من أخبارها، و قيل: الباء سببية، أى: بسبب إيحاء اللّه إليها. قال الفراء: تحدّث أخبارها بوحى اللّه و إذنه لها، و اللام فى أوحى لها بمعنى إلى و إنما أثرت على إلى لموافقة الفواصل، و العرب تضع لام الصفة موضع إلى، كذا قال أبو عبيدة. و قيل: إن أوحى يتعدّى باللام تارة، و بإلى أخرى، و قيل: إن اللام على بابها من كونها للعلة، و الموحى إليه محذوف، و هو الملائكة، و التقدير: أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض: أى لأجل ما يفعلون فيها، و الأوّل أولى يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً الظرف إما بدل من يومئذ الّذى قبله، و إما منصوب بمقدّر هو اذكر، و إما منصوب بما بعده، و المعنى: يوم إذ يقع ما ذكر يصدر الناس من قبورهم إلى موقف الحساب أشتاتا، أى: متفرّقين، و المصدر: الرجوع و هو ضدّ الورود، و قيل: يصدرون من موضع الحساب إلى الجنة أو النار، و انتصاب أشتاتا على الحال، و المعنى: أن بعضهم آمن و بعضهم خائف، و بعضهم بلون أهل الجنة و هو البياض، و بعضهم بلون أهل النار و هو السواد، و بعضهم ينصرف إلى جهة

(۱). النازعات: ۶- ۷.

(۲). «القلقال»: من قلقل الشیء إذا حرّکه.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۸۵

اليمين و بعضهم إلى جهة الشمال، مع تفرّقهم فى الأديان و اختلافهم فى الأعمال لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ متعلّق بيصدر، و قيل: فيه تقديم و تأخير، أى: تحدّث أخبارها بأن ربك أوحى لها ليروا أعمالهم يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً. قرأ الجمهور: «ليروا» مبنيا للمفعول، و هو من رؤية البصر، أى: ليريهم اللّه أعمالهم.

و قرأ الحسن و الأعرج و قتادة و حماد بن سلمة و نصر بن عاصم و طلحة بن مصرّف على البناء للفاعل، و رويت هذه القراءة عن نافع، و المعنى: ليروا جزاء أعمالهم فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ أى: وزن نملة، و هى أصغر ما يكون من النمل. قال مقاتل: فمن يعمل فى الدنيا مثقال ذرّة خيرا يره يوم القيامة فى كتابه فيفرح به، وَ كذلك مَنْ يَعْمَلْ فى الدنيا مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ يوم القيامة فيسوؤه، و مثل هذه الآية قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ «۱». و قال بعض أهل اللغة: إن الذرّة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما علق من التراب فهو الذرّة، و قيل: الذرّ ما يرى فى شعاع الشمس من الهباء، و الأوّل أولى، و منه قول امرئ القيس:

من القاصرات الطّرف لو دبّ محول‌من الذرّ فوق الأتب منها لأثّرا

و «من» الأولى عبارة عن السعداء، و «من» الثانية عبارة عن الأشقياء. و قال محمد بن كعب: فمن يعمل مثقال ذرّة من خير من كافر يرى ثوابه فى الدنيا و فى نفسه و ماله و أهله و ولده حتى يخرج من الدنيا، و ليس له عند اللّه خير، و من يعمل مثقال ذرّة من شرّ من مؤمن يرى عقوبته فى الدنيا فى ماله و نفسه و أهله و ولده حتى يخرج من الدنيا، و ليس له عند اللّه شرّ، و الأوّل أولى. قال مقاتل: نزلت فى رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة و الكسرة، و كان الآخر يتهاون بالذنب اليسير و يقول: إنما أوعد اللّه النار على الكافرين. قرأ الجمهور «يره» فى الموضعين بضم الهاء وصلا و سكونها وقفا، و قرأ هشام بسكونها وصلا و وقفا، و نقل أبو حيان عن هشام و أبى بكر سكونها، و عن أبى عمرو ضمها مشبعة، و باقى السبعة بإشباع الأولى و سكون الثانية، و فى هذا النقل نظر، و الصواب ما ذكرنا. و قرأ الجمهور: «يره» مبنيا للفاعل فى الموضعين. و قرأ ابن عباس و ابن عمر و الحسن و الحسين ابنا علىّ و زيد بن علىّ و أبو حيوة و عاصم و الكسائى فى رواية عنهما و الجحدرى و السلمى و عيسى على البناء للمفعول فيهما، أى: يريه اللّه إياه. و قرأ عكرمة «يراه» على توهم أن من موصولة، أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدّرة فى الفعل.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها قال: تحركت من أسفلها وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها قال: الموتى وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها قال: الكافر يقول: ما لها يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها قال: قال لها ربك قولى فقالت. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‌ لَها قال: أوحى إليها يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً قال: من كل من هاهنا و هاهنا. و أخرج ابن المنذر عنه وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها قال: الكنوز و الموتى. و أخرج مسلم و الترمذى عن أبى هريرة قال:

(۱). النساء: ۴۰.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۸۶

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «تقىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب و الفضة، فيجىء القاتل فيقول: فى هذا قتلت، و يجىء القاطع فيقول: فى هذا قطعت رحمى، و يجىء السارق فيقول: فى هذا قطعت يدى، ثم يدعونه فلا يأخذون

منه شيئا». و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة قال:

«قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها فقال: أ تدرون ما أخبارها؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد و أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا و كذا، فهذا أخبارها». و أخرج ابن مردويه و البيهقى عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ الأرض لتجىء يوم القيامة بكل عمل على ظهرها، و قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها حتى بلغ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها». و أخرج الطبرانى عن ربيعة الحرشى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «تحفظوا من الأرض فإنها أمّكم، و إنه ليس من أحد عامل عليها خيرا أو شرّا إلا و هى مخبرة». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و الحاكم فى تاريخه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أنس قال: «بينما أبو بكر الصديق يأكل مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إذ نزلت عليه: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ- وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ فرفع أبو بكر يده و قال: يا رسول اللّه إنى لراء ما عملت من مثقال ذرّة من شرّ، فقال: يا أبا بكر أ رأيت ما ترى فى الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذرّ الشرّ و يدخر لك مثاقيل ذرّ الخير حتى توفاه يوم القيامة». و أخرج إسحاق بن راهويه و عبد بن حميد و الحاكم و ابن مردويه عن أبى أسماء قال: «بينما أبو بكر يتغدّى مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذ نزلت هذه الآية: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ- وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ فأمسك أبو بكر و قال: يا رسول اللّه ما عملنا من شرّ رأيناه، فقال:

ما ترون مما تكرهون فذاك مما تجزون و يؤخر الخير لأهله فى الآخرة». و أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن عبد اللّه بن عمر بن العاص قال: «أنزلت إذا زلزلت الأرض زلزالها و أبو بكر الصديق قاعد فبكى، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال: يبكينى هذه السورة، فقال: لو لا أنكم تخطئون و تذنبون فيغفر لكم خلق اللّه قوما يخطئون و يذنبون فيغفر لهم».

و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، و لرجل ستر، و على رجل وزر» الحديث. و قال: «و سئل عن الحمر فقال: ما أنزل علىّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ- وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۸۷

سورة العاديات

اشارة

و هى مكية فى قول ابن مسعود و جابر و الحسن و عكرمة و عطاء، و مدنية فى قول ابن عباس و أنس بن مالك و قتادة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة وَ الْعادِياتِ بمكة. و أخرج أبو عبيد فى فضائله عن الحسن قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، و العاديات تعدل نصف القرآن»، و هو مرسل. و أخرج محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس مرفوعا مثله، و زاد: «و قل هو اللّه أحد تعدل ثلث القرآن، و قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة العاديات (١٠٠): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً (١) فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (٢) فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (٤)
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (٥) إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَ إِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ (٩)
وَ حُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)

الْعادِياتِ جمع عادية، و هى الجارية بسرعة، من العدو: و هو المشى بسرعة، فأبدلت الواو ياء لكسر ما قبلها كالغازيات من الغزو، و المراد بها الخيل العادية فى الغزو نحو العدوّ، و قوله: ضَبْحاً مصدر مؤكد لاسم الفاعل، فإن الضبح نوع من السير و نوع من العدو، يقال: ضبح الفرس؛ إذا عدا بشدّة، مأخوذ من الضبح، و هو الدفع، و كأن الحاء بدل من العين. قال أبو عبيدة و المبرّد: الضبح من أضباعها فى السير، و منه قول عنترة:

و الخيل تعلم حين تضبح فى حياض الموت ضبحا

و يجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال، أى: ضابحات، أو ذوات ضبح، و يجوز أن يكون مصدرا لفعل محذوف، أى: تضبح ضبحا، و قيل: الضبح: صوت حوافرها إذا عدت، و قال الفراء: الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت. قيل: كانت تكعم «١» لئلا تصهل فيعلم العدوّ بهم، فكانت تتنفس فى هذه الحالة بقوّة، و قيل: الضبح: صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو ليس بصهيل. و قد ذهب الجمهور إلى ما ذكرنا من أن «العاديات ضبحا» هى الخيل. و قال عبيد بن عمير و محمد بن كعب و السدّى: هى الإبل، و منه قول صفية بنت عبد المطلب:

---

(١). «تكعم»: الكعام: شىء يجعل على فم البعير.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٨٨ فلا و العاديات غداة جمع بأيديها إذا سطع الغبار

و نقل أهل اللغة أن أصل الضبح للثعلب فاستعير للخيل، و منه قول الشاعر:

تضبح فى الكفّ ضباح الثّعلب فَالْمُورِياتِ قَدْحاً هى الخيل حين تورى النار بسنابكها، و الإيراء: إخراج النار، و القدح: الصك، فجعل ضرب الخيل بحوافرها كالقدح بالزناد. قال الزجاج: إذا عدت الخيل بالليل و أصاب حوافرها الحجارة انقدح منها النيران، و الكلام فى انتصاب قدحا كالكلام فى انتصاب ضبحا، و الخلاف فى كونها الخيل أو الإبل كالخلاف الّذى تقدّم فى العاديات، و الراجح أنها الخيل كما ذهب إليه الجمهور، و كما هو الظاهر فى هذه الأوصاف المذكورة فى هذه السورة ما تقدّم منها و ما سيأتى، فإنها فى الخيل أوضح منها فى الإبل، و سيأتى ما فى ذلك من الخلاف بين الصحابة فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً أى: التى تغير على العدوّ وقت الصباح، يقال: أغار يغير إغارة: إذا باغت عدوّه بقتل أو أسر أو نهب و أسند الإغارة إليها و هى لأهلها للإشعار بأنها عمدتهم فى إغارتهم، و انتصاب صبحا على الظرفية فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً معطوف على الفعل الّذى دلّ عليه اسم الفاعل، إذ المعنى: و اللاتى عدون فأثرن، أو على اسم الفاعل نفسه لكونه فى تأويل الفعل لوقوعه صلة للموصول، فإن الألف و اللام فى الصفات أسماء موصولة، فالكلام فى قوّة: و اللاتى عدون فأغرن فأثرن، و النقع: الغبار الّذى أثرنه فى وجه العدو عند الغزو، و تخصيص إثارته بالصبح لأنه وقت الإغارة، و لكونه لا يظهر أثر النقع فى الليل الذى اتصل به الصبح. و قيل: المعنى: فأثرن بمكان عدوهنّ نقعا، يقال ثار النقع و أثرته: أى هاج أو هيجته.

قرأ الجمهور: فَأَثَرْنَ بتخفيف المثلثة. و قرأ أبو حيوة و ابن أبى عبلة بالتشديد، أى: فأظهرن به غبارا.

و قال أبو عبيدة: النقع: رفع الصوت، و أنشد قول لبيد:

فمتى ينقع صراخ صادقيحلبوها ذات جرس و زجل

يقول حين سمعوا صراخا: أحلبوا الحرب، أى: جمعوا لها. قال أبو عبيدة: و على هذا رأيت قول أكثر أهل العلم انتهى، و المعروف عند جمهور أهل اللغة و المفسرين أن النقع الغبار، و منه قول الشاعر:

يخرجن من مستطار النّقع داميةكأنّ أذنابها أطراف أقلام

و قول عبد اللّه بن رواحة:

عدمنا خيلنا إن لم تروهاتثير النّقع من كنفى كداء

و قول الآخر:

كأنّ مثار النّقّع فوق رؤوسناو أسيافنا ليل تهاوى كواكبه

و هذا هو المناسب لمعنى الآية، و ليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى، فإن قولك أغارت الخيل على بنى فلان صبحا فأثرن به صوتا، قليل الجدوى مغسول المعنى بعيد من بلاغة القرآن المعجزة. و قيل:

فتح القدير، ج‏5، ص: 589

النقع: شقّ الجيوب، و قال محمد بن كعب: النقع ما بين مزدلفة إلى منى، و قيل: إنه طريق الوادى. قال فى الصّحاح: النقع: الغبار، و الجمع: أنقاع، و النقع: محبس الماء، و كذلك ما اجتمع فى البئر منه، و النقع:

الأرض الحرّة الطين يستنقع فيها الماء فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً أى: توسطن بذلك الوقت، أو توسطن متلبسات بالنقع جمعا من جموع الأعداء، أو صرن بعدوهن وسط جمع الأعداء، و الباء إما للتعدية، أو للحالية، أو زائدة؛ يقال: وسطت المكان، أى: صرت فى وسطه، و انتصاب «جمعا» على أنه مفعول له، و الفاءات فى المواضع الأربعة للدلالة على ترتب ما بعد كل واحد منها على ما قبلها. قرأ الجمهور: فَوَسَطْنَ بتخفيف السين، و قرئ بالتشديد إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ هذا جواب القسم، و المراد بالإنسان بعض أفراده، و هو الكافر، و الكنود: الكفور للنعمة، و قوله: لِرَبِّهِ متعلّق بكنود، قدّم لرعاية الفواصل، و منه قول الشاعر:

كنود لنعماء الرّجال و من يكن كنودا لنعماء الرّجال يبعّد

أى: كفور لنعماء الرجال، و قيل: هو الجاحد للحقّ، قيل: إنها إنما سميت كندة لأنها جحدت أباها.

و قيل: الكنود مأخوذ من الكند، و هو القطع، كأنه قطع ما ينبغى أن يواصله من الشكر. يقال كند الحبل:

إذا قطعه، و منه قول الأعشى:

وصول حبال و كنّادها «1» و قيل: الكنود: البخيل، و أنشد أبو زيد:

إنّ نفسى لم تطب منك نفساغير أنّى أمسى بدين كنود

و قيل: الكنود: الحسود، و قيل: الجهول لقدره، و تفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام، و الجاحد للنعمة كافر لها، و لا يناسب المقام سائر ما قيل، وَ إِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ أى: و إن الإنسان على كنوده لشهيد يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه؛ و قيل المعنى: و إن اللّه جلّ ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد، و به قال الجمهور. و قال بالأوّل الحسن و قتادة و محمد بن كعب، و هو أرجح من قول الجمهور لقوله: وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ فإن الضمير راجع إلى الإنسان، و المعنى: إنه لحبّ المال قويّ مجدّ فى طلبه و تحصيله متهالك عليه، يقال: هو شديد لهذا الأمر و قويّ له؛ إذا كان مطيقا له، و منه قوله تعالى: إِنْ تَرَكَ خَيْراً «2» و منه قول عديّ بن حاتم:

ماذا ترجّى النفوس من طلب الخير و حبّ الحياة كاربها «٣»

---

(١). و صدر البيت: أميطى تميطى بصلب الفؤاد.

(٢). البقرة: ١٨٠.

(٣). أى غامّها، من كربه الأمر: أى اشتدّ عليه.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٩٠

و قيل: المعنى: و إن الإنسان من أجل حب المال لبخيل، و الأوّل أولى. و اللام فى لِحُبِ متعلقة بشديد. قال ابن زيد: سمّى اللّه المال خيرا، و عسى أن يكون شرّا، و لكن الناس يجدونه خيرا، فسمّاه خيرا. قال الفراء: أصل نظم الآية أن يقال: و إنه لشديد الحبّ للخير، فلما قدّم الحبّ قال: لشديد، و حذف من آخره ذكر الحبّ، لأنه قد جرى ذكره، و لرؤوس الآى كقوله: فِي يَوْمٍ عاصِفٍ «١» و العصوف للريح لا لليوم، كأنه قال: فى يوم عاصف الريح أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ الاستفهام للإنكار، و الفاء للعطف على مقدّر يقتضيه المقام، أى: يفعل ما يفعل من القبائح فلا يعلم، و بعثر معناه: نثر و بحث، أى: نثر ما فى القبور من الموتى و بحث عنهم و أخرجوا. قال أبو عبيدة: بعثرت المتاع: جعلت أسفله أعلاه. قال الفرّاء: سمعت بعض العرب من بنى أسد يقول: بحثر بالحاء مكان العين، و قد تقدّم الكلام على هذا فى قوله: وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ «٢» وَ حُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ أى: ميز و بيّن ما فيها من الخير و الشرّ، و التحصيل: التمييز، كذا قال المفسرون، و قيل: حصل: أبرز. قرأ الجمهور: حُصِّلَ بضم الحاء و تشديد الصاد مكسورا مبنيا للمفعول، و قرأ عبيد بن عمير و سعيد بن جبير و يحيى بن يعمر و نصر بن عاصم «حصل» بفتح الحاء و الصاد و تخفيفها مبنيا للفاعل، أى: ظهر إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ أى:

إن ربّ المبعوثين بهم لخبير، لا تخفى عليه منهم خافية؛ فيجازيهم بالخير خيرا، و بالشرّ شرّا. قال الزجاج:

اللّه خبير بهم فى ذلك اليوم و فى غيره، و لكن المعنى: إن اللّه يجازيهم على كفرهم فى ذلك اليوم، و مثله قوله تعالى: أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ «٣» معناه: أولئك الذين لا يترك اللّه مجازاتهم. قرأ الجمهور إِنَّ رَبَّهُمْ بكسر الهمزة و باللام فى «لخبير»، و قرأ أبو السمّال بفتح الهمزة و إسقاط اللام من «الخبير».

و قد أخرج البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الدار قطنى فى الأفراد، و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

«بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خيلا فاستمرت شهرا لا يأتيه منها خبر، فنزلت: وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً ضبحت بأرجلها» و لفظ ابن مردويه: ضبحت بمناخرها فَالْمُورِياتِ قَدْحاً قدحت بحوافرها الحجارة فأورت نارا فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً صبحت القوم بغارة فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً أثارت بحوافرها التراب فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً صبحت القوم جميعا. و أخرج ابن مردويه من وجه آخر عنه قال: بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سرية إلى العدوّ فأبطأ خبرها، فشقّ ذلك عليه، فأخبره اللّه خبرهم و ما كان من أمرهم، فقال: وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً قال: «هى الخيل». و الضبح: نخير الخيل حين تنخر، فَالْمُورِياتِ قَدْحاً قال: حين تجرى الخيل تورى نارا أصابت سنابكها الحجارة فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً قال: هى الخيل أغارت فصبحت العدوّ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً قال: هى الخيل أثرن بحوافرها، يقول: بعدو الخيل، و النقع: الغبار، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً قال: الجمع: العدو. و أخرج عبد بن حميد عن أبى صالح قال: تقاولت أنا و عكرمة فى شأن العاديات، فقال: قال ابن عباس: هى الخيل فى القتال، و ضبحها حين ترخى مشافرها إذا عدت فَالْمُورِياتِ قَدْحاً

---

(١). إبراهيم: ١٨.

(٢). الانفطار: ٤.

(٣). النساء: ٦٣.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٩١

أرت المشركين مكرهم فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً قال: إذا أصبحت العدو فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً قال: إذا توسطت العدو. و قال أبو صالح: فقلت: قال عليّ: هى الإبل فى الحج، و مولاى كان أعلم من مولاك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى كتاب الأضداد، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: بينما أنا فى الحجر جالس إذ أتانى رجل يسأل عن «العاديات ضبحا» فقلت: الخيل حين تغير فى سبيل اللّه، ثم تأوى إلى الليل؛ فيصنعون طعامهم و يورون نارهم، فانفتل عنى فذهب إلى على بن أبى طالب و هو جالس تحت سقاية زمزم، فسأله عن العاديات ضبحا، فقال: سألت عنها أحدا قبلى؟ قال:

نعم سألت عنها ابن عباس، فقال: هى الخيل حين تغير فى سبيل اللّه، فقال: اذهب فادعه لى، فلما وقفت على رأسه قال: تفتى الناس بما لا علم لك، و اللّه إن كانت لأوّل غزوة فى الإسلام لبدر، و ما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير و فرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون الْعادِياتِ ضَبْحاً إنما العاديات ضبحا من عرفة إلى المزدلفة، فإذا أووا إلى المزدلفة أوقدوا النيران، فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً من المزدلفة إلى منى، فذلك جمع، و أما قوله: فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فهى نقع الأرض تطؤه بأخفافها و حوافرها. قال ابن عباس: فنزعت عن قولى، و رجعت إلى الّذى قال علىّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً قال: الإبل، أخرجوه عنه من طريق الأعمش عن إبراهيم النخعى. قال إبراهيم:

و قال علىّ بن أبى طالب: هى الإبل. و قال ابن عباس: هى الخيل، فبلغ عليا قول ابن عباس: فقال: ما كانت لنا خيل يوم بدر. قال ابن عباس: إنما كانت تلك فى سرية بعثت. و أخرج عبد بن حميد عن عامر الشعبى قال: تمارى علىّ و ابن عباس فى العاديات ضبحا، فقال ابن عباس: هى الخيل؛ و قال علىّ: كذبت يا ابن فلانة، و اللّه ما كان معنا يوم بدر فارس إلّا المقداد كان على فرس أبلق قال: و كان يقول هى الإبل، فقال ابن عباس: ألا ترى أنها تثير نقعا فما شى‏ء تثير إلا بحوافرها. و أخرج عبد بن حميد، و الحاكم و صحّحه، من طريق مجاهد عن ابن عباس وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً قال: الخيل فَالْمُورِياتِ قَدْحاً قال: الرجل إذا أورى زنده فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً قال: الخيل تصبح العدوّ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً قال: التراب فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً قال: العدوّ. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً قال: قال ابن عباس:

القتال. و قال ابن مسعود: الحج. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق عمرو بن دينار عن ابن عباس وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً قال: ليس شى‏ء من الدواب يضبح إلا الكلب أو الفرس فَالْمُورِياتِ قَدْحاً قال: هو مكر الرجل قدح فأورى فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً قال:

غارة الخيل صبحا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً قال: غبار وقع سنابك الخيل فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً قال: جمع العدوّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً قال: الخيل ضبحها زحيرها، أ لم تر أن الفرس إذا عدا قال: أح أح، فذلك ضبحها. و أخرج ابن المنذر عن علىّ قال: الضبح من الخيل الحمحمة، و من الإبل النفس. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً قال: هى الإبل فى الحج فَالْمُورِياتِ قَدْحاً إذا سفت الحصى بمناسمها فضرب الحصى بعضه بعضا فيخرج منه النار

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٩٢

فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً حين يفيضون من جمع فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً قال: إذا سرن يثرن التراب.

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: الكنود بلساننا أهل البلد الكفور. و أخرج ابن عساكر عن أبى أمامة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ قال لكفور. و أخرج عبد بن حميد، و البخارى فى الأدب، و الحكيم الترمذى و ابن مردويه عن أبى أمامة قال: الكنود

الّذی یمنع رفده، و ینزل وحده، و یضرب عبده. و رواه عنه ابن جریر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردویه و الدیلمی و ابن عساکر مرفوعا- و ضعّف إسناده السیوطی- و فی إسناده جعفر بن الزبیر و هو متروک، و الموقوف أصحّ لأنه لمن یکن من طریقه. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ إِنَّهُ عَلی ذلِکَ لَشَهِیدٌ قال: الإنسان وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَیْرِ قال: المال. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر عنه إِذا بُعْثِرَ ما فِی الْقُبُورِ قال: بحث وَ حُصِّلَ ما فِی الصُّدُورِ قال: أبرز.

فتح القدیر، ج ۵، ص: ۵۹۳

سورة القارعة

اشارة

هی إحدی عشرة آیة، و قیل: عشر آیات و هی مکیة بلا خلاف. و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس قال: نزلت سورة القارعة بمکة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة القارعة (۱۰۱): الآیات ۱ الی ۱۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الْقارِعَةُ (۱) مَا الْقارِعَةُ (۲) وَ ما أَدْراکَ مَا الْقارِعَةُ (۳) یَوْمَ یَکُونُ النَّاسُ کَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ (۴)

وَ تَکُونُ الْجِبالُ کَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (۵) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِینُهُ (۶) فَهُوَ فِی عِیشَةٍ راضِیَةٍ (۷) وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِینُهُ (۸) فَأُمُّهُ هاوِیَةٌ (۹)

وَ ما أَدْراکَ ما هِیَهْ (۱۰) نارٌ حامِیَةٌ (۱۱)

الْقارِعَةُ من أسماء القیامة؛ لأنها تقرع القلوب بالفزع، و تقرع أعداء اللّه بالعذاب، و العرب تقول:

قرعتهم القارعة؛ إذا وقع بهم أمر فظیع. قال ابن أحمر:

و قارعة من الأیّام لولاسبیلهم لراحت عنک حینا

و قال آخر:

متی تقرع بمروتکم «۱» نسؤکمو لم توقد لنا فی القدر نار

و القارعة مبتدأ و خبرها قوله: مَا الْقارِعَةُ و بالرفع قرأ الجمهور، و قرأ عیسی بنصبها علی تقدیر:

احذروا القارعة، و الاستفهام للتعظیم و التفخیم لشأنها، کما تقدّم بیانه فی قوله: الْحَاقَّةُ- مَا الْحَاقَّةُ- وَ ما أَدْراکَ مَا الْحَاقَّةُ «۲» و قیل: معنی الکلام علی التحذیر. قال الزجاج: و العرب تحذر و تغری بالرفع کالنصب، و أنشد قول الشاعر:

لجدیرون بالوفاء إذا قال أخو النّجدة السّلاح السّلاح

و الحمل علی معنی التفخیم و التعظیم أولی، و یؤیده وضع الظاهر موضع الضمیر، فإنه أدلّ علی هذا المعنی، و یؤیده أیضا قوله: وَ ما أَدْراکَ مَا الْقارِعَةُ فإنه تأکید لشدّة هولها و مزید فظاعتها؛ حتی کأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق بحیث لا تنالها درایة أحد منهم، و ما الاستفهامیة مبتدأ، و أدراک خبرها و ما القارعة مبتدأ

(۱). «المروة»: حجر يقدح منه النار.

(۲). الحاقة: ۱- ۳.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۹۴

و خبر، و الجملة فی محل نصب علی أنها المفعول الثانی؛ و المعنی: و أیّ شی‌ء أعلمک ما شأن القارعة؟ ثم بیّن سبحانه متی تکون القارعة فقال: یَوْمَ یَکُونُ النَّاسُ کَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ و انتصاب الظرف بفعل محذوف تدلّ علیه القارعة، أی: تقرعهم یوم یکون الناس ... إلخ، و یجوز أن یکون منصوبا بتقدیر اذکر. و قال ابن عطیة و مکی و أبو البقاء: هو منصوب بنفس القارعة، و قیل: هو خبر مبتدأ محذوف، و إنما نصب لإضافته إلی الفعل، فالفتحة فتحة بناء لا فتحة إعراب، أی: هی یوم یکون ... إلخ، و قیل التقدیر: ستأتیکم القارعة یوم یکون. و قرأ زید بن علیّ برفع یوم علی الخبریة للمبتدأ المقدّر. و الفراش: الطیر الّذی تراه یتساقط فی النار و السراج، و الواحدة: فراشة، کذا قال أبو عبیدة و غیره. قال الفراء: الفراش: هو الطائر من بعوض و غیره. و منه الجراد. قال: و به یضرب المثل فی الطیش و الهوج، یقال: أطیش من فراشة، و أنشد:

فراشة الحلم فرعون العذاب و إن یطلب نداه فکلب دونه کلب

و قول آخر:

و قد کان أقوام رددت حلومهم علیهم و کانوا کالفراش من الجهل

و المراد بالمبثوث المتفرّق المنتشر، یقال بثه: إذا فرّقه، و مثل هذا قوله سبحانه فی آیة أخری: کَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ «۱» و قال المبثوث و لم یقل المبثوثة، لأنّ الکل جائز؛ کما فی قوله: أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ «۲» و أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِیَةٍ «۳» و قد تقدّم بیان وجه ذلک وَ تَکُونُ الْجِبالُ کَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ أی:

کالصوف الملوّن بالألوان المختلفة الّذی نفش بالندف، و العهن عند أهل اللغة: الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة، و قد تقدّم بیان هذا فی سورة سأل سائل، و قد ورد فی الکتاب العزیز أوصاف للجبال یوم القیامة، و قد قدّمنا بیان الجمع بینها. ثم ذکر سبحانه أحوال الناس و تفرّقهم فریقین علی جهة الإجمال فقال: فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِینُهُ- فَهُوَ فِی عِیشَةٍ راضِیَةٍ قد تقدّم القول فی المیزان فی سورة الأعراف و سورة الکهف و سورة الأنبیاء.

و قد اختلف فیها هنا، فقیل: هی جمع موزون، و هو العمل الّذی له وزن و خطر عند اللّه، و به قال الفرّاء و غیره، و قیل: هی جمع میزان، و هو الآلة التی توضع فیها صحائف الأعمال، و عبر عنه بلفظ الجمع، کما یقال لکلّ حادثة میزان، و قیل: المراد بالموازین الحجج و الدلائل، کما فی قول الشاعر:

قد کنت قبل لقائکم ذا مرّة عندی لکلّ مخاصم میزانه

و معنی عیشة راضیة: مرضیة یرضاها صاحبها. قال الزجاج: أی ذات رضی یرضاها صاحبها، و قیل:

«عیشة راضیة» أی: فاعلة للرضی، و هو اللین، و الانقیاد لأهلها. و العیشة: کلمة تجمع النعم التی فی الجنة وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِینُهُ أی: رجحت سیئاته علی حسناته أو لم تکن له حسنات یعتدّ بها فَأُمُّهُ هاوِیَةٌ

---

(۱). القمر: ۷.

(۲). القمر: ۲۰.

(۳). الحاقة: ۷.

فتح القدیر، ج‌۵، ص: ۵۹۵

أى: فمسكنه جهنم، و سمّاها أمه؛ لأنه يأوى إليها كما يأوى إلى أمه، و الهاوية من أسماء جهنم، و سميت هاوية؛ لأنه يهوى فيها مع بعد قعرها، و منه قول أمية بن أبى الصّلت:

فالأرض معقلنا و كانت أمّنافيها مقابرنا و فيها نولد

و قول الآخر:

يا عمرو لو نالتك أرماحناكنت كمن تهوى به الهاوية

و المهوى و المهواة: ما بين الجبلين، و تهاوى القوم فى المهواة؛ إذا سقط بعضهم فى إثر بعض. قال قتادة: معنى فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ فمصيره إلى النار. قال عكرمة: لأنه يهوى فيها على أمّ رأسه. قال الأخفش: أمه مستقرّة وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ هذا الاستفهام للتهويل و التفظيع؛ ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر و لا تدرى كنهها. ثم بيّنها سبحانه فقال: نارٌ حامِيَةٌ أى: قد انتهى حرّها و بلغ فى الشدّة إلى الغاية و ارتفاع نار على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: هى نار حامية.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال: الْقارِعَةُ من أسماء يوم القيامة. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ قال: كقوله هوت أمه. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ قال: أمّ رأسه هاوية فى جهنم. و أخرج ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه: ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ فإذا كان مات و لم يأتهم قالوا خولف به إلى أمه الهاوية، فبئست الأمّ و بئست المربية». و أخرج ابن مردويه من حديث أبى أيوب الأنصارى و نحوه. و أخرج ابن المبارك من حديث أبى أيوب نحوه أيضا.

فتح القدير، ج‏5، ص: 596

سورة التّكاثر

اشارة

و هى مكية عند الجميع. و روى البخارى أنها مدنية. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزل بمكة أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ. و أخرج الحاكم، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية فى كل يوم؟ قالوا: و من يستطيع أن يقرأ ألف آية فى كل يوم؟ قال:

أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر؟!». و أخرج الخطيب فى المتفق و المفترق، و الديلمى عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ فى ليلة ألف آية لقى اللّه و هو ضاحك فى وجهه، قيل:

يا رسول اللّه و من يقوى على ألف آية؟ فقرأ بسم اللّه الرّحمن الرّحيم ألهاكم التكاثر إلى آخرها، ثم قال:

و الّذى نفسى بيده إنها لتعدل ألف آية». و أخرج مسلم و الترمذى و النسائى و غيرهم عن عبد اللّه بن الشخير قال: «انتهيت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو يقرأ ألهاكم التكاثر، و فى لفظ: و قد أنزلت عليه ألهاكم التكاثر، و هو يقول: «يقول ابن آدم: مالى مالى، و هل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت؟». و أخرجه مسلم و غيره من حديث أبى هريرة و لم يذكر فيه قراءة هذه السورة و لا نزولها بلفظ: «يقول العبد: مالى مالى، و إنّما له من ماله ثلاثة: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدّق فأقنى، و ما سوى ذلك فهو ذاهب و تاركه للناس».

و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و البيهقى فى الشعب، و ضعّفه، عن جرير بن عبد اللّه قال:

قال لنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنى قارئ عليكم سورة ألهاكم التكاثر، فمن بكى فله الجنة، فقرأها فمنّا من بكى و منّا

من لم يبك، فقال الذين لم يبكوا: قد جهدنا يا رسول اللّه أن نبكى فلم نقدر عليه، فقال: إنى قارئها عليكم الثانية فمن بكى فله الجنّة، و من لم يقدر أن يبكى فليتباكى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التكاثر (١٠٢): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

قوله: أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ أى: شغلكم التكاثر بالأموال و الأولاد و التفاخر بكثرتها و التغالب فيها.

يقال: ألهاه عن كذا و ألهاه؛ إذا شغله، و منه قول امرئ القيس:

فألهيتها عن ذى تمائم محول «١»

---

(١). و صدر البيت: فمثلك حبلى قد طرقت و مرضع.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٩٧

و قال الحسن: معنى ألهاكم: أنساكم حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ أى: حتى أدرككم الموت و أنتم على تلك الحال. و قال قتادة: إن التكاثر: التفاخر بالقبائل و العشائر. و قال الضحاك: ألهاكم التشاغل بالمعاش. و قال مقاتل و قتادة أيضا و غيرهما: نزلت فى اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بنى فلان، و بنو فلان أكثر من بنى فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا. و قال الكلبى: نزلت فى حيّين من قريش: بنى عبد مناف، و بنى سهم، تعادّوا و تكاثروا بالسيادة و الأشراف فى الإسلام، فقال كل حيّ منهم: نحن أكثر سيدا، و أعزّ عزيزا، و أعظم نفرا، و أكثر قائدا، فكثر بنو عبد مناف بنى سهم، ثم تكاثروا بالأموات فكثرتهم سهم، فنزلت: أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ فلم ترضوا حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ مفتخرين بالأموات. و قيل: نزلت فى حيّين من الأنصار.

و المقابر: جمع مقبرة بفتح الباء و ضمها. و فى الآية دليل على أن الاشتغال بالدنيا و المكاثرة بها و المفاخرة من الخصال المذمومة. و قال سبحانه أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ و لم يقل عن كذا، بل أطلقه لأن الإطلاق أبلغ فى الذمّ، لأنه يذهب الوهم فيه كلّ مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، و لأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم، كما تقرّر فى علم البيان؛ و المعنى أنه شغلكم التكاثر عن كلّ شى‏ء يجب عليكم الاشتغال به من طاعة اللّه و العمل للآخرة، و عبر عن موتهم بزيارة المقابر لأن الميت قد صار إلى قبره كما يصير الزائر إلى الموضع الّذى يزوره هذا على قول من قال: إن معنى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ متم، و أما على قول من قال: إن معنى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ ذكرتم الموتى و عدّدتموهم للمفاخرة و المكاثرة، فيكون ذلك على طريق التهكم بهم، و قيل: إنهم كانوا يزورون المقابر، فيقولون هذا قبر فلان، و هذا قبر فلان يفتخرون بذلك كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ردع و زجر لهم عن التكاثر و تنبيه على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة و فيه وعيد شديد. قال الفرّاء: أى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر و التفاخر، ثم كرّر الردع و الزجر و الوعيد فقال: ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ و ثم للدلالة على أن الثانى أبلغ من الأوّل، و قيل: الأوّل عند الموت أو فى القبر، و الثانى يوم القيامة. قال الفرّاء:

هذا التكرار على وجه التغليظ و التأكيد. قال مجاهد: هو وعيد بعد وعيد. و كذا قال الحسن و مجاهد كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ أى: لو تعلمون الأمر الّذى أنتم صائرون إليه علما يقينا كعلمكم ما هو متيقن عندكم فى الدنيا، و جواب لو محذوف، أى: لشغلكم ذلك عن التكاثر و التفاخر، أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير و تركتم ما لا ينفعكم مما أنتم فيه، و كلا فى هذا الموضع

الثالث للزجر و الرّدع كالموضعين الأوّلين. و قال الفرّاء:
هى بمعنى حقا، و قيل: هى فى المواضع الثلاثة بمعنى ألا. قال قتادة: اليقين هنا الموت، و روى عنه أيضا أنه قال: هو البعث. قال الأخفش: التقدير لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم، و قوله: لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ جواب قسم محذوف، و فيه زيادة وعيد و تهديد، أى: و اللّه لترون الجحيم فى الآخرة. قال الرازى: و ليس هذا جواب لو؛ لأن جواب لو يكون منفيا، و هذا مثبت و لأنه عطف عليه ثُمَّ لَتُسْئَلُنَ و هو مستقبل لا بدّ من وقوعه، قال: و حذف جواب «لو» كثير، و الخطاب للكفار، و قيل: عام كقوله: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها «١» قرأ الجمهور: لَتَرَوُنَ بفتح التاء مبنيا للفاعل، و قرأ الكسائى و ابن عامر بضمها مبنيا

---

(١). مريم: ٧١.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٩٨

للمفعول، ثم كرّر الوعيد و التهديد للتأكيد فقال: ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ أى: ثم لترونّ الجحيم الرؤية التى هى نفس اليقين، و هى المشاهدة و المعاينة، و قيل: المعنى: لترونّ الجحيم بأبصاركم على البعد منكم، ثم لترونها مشاهدة على القرب. و قيل: المراد بالأوّل رؤيتها قبل دخولها، و الثانى رؤيتها حال دخولها، و قيل:
هو إخبار عن دوام بقائهم فى النار، أى: هى رؤية دائمة متّصلة. و قيل المعنى: لو تعلمون اليوم علم اليقين و أنتم فى الدنيا لترونّ الجحيم بعيون قلوبكم، و هو أن تتصوّروا أمر القيامة و أهوالها ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ أى عن نعيم الدنيا الّذى ألهاكم عن العمل للآخرة. قال قتادة: يعنى كفار مكة كانوا فى الدنيا فى الخير و النعمة، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه، و لم يشكروا ربّ النعم حيث عبدوا غيره و أشركوا به. قال الحسن: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار. و قال قتادة: إن اللّه سبحانه سائل كل ذى نعمة عما أنعم عليه، و هذا هو الظاهر، و لا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد، أو نوع من الأنواع؛ لأن تعريفه للجنس أو الاستغراق، و مجرّد السؤال لا يستلزم تعذيب المسؤول على النعمة التى يسأل عنها، فقد يسأل اللّه المؤمن عن النعم التى أنعم بها عليه فيم صرفها، و بم عمل فيها؟ ليعرف تقصيره و عدم قيامه بما يجب عليه من الشكر، و قيل: السؤال عن الأمن و الصحة، و قيل: عن الصحة و الفراغ، و قيل: عن الإدراك بالحواسّ، و قيل:
عن ملاذّ المأكول و المشروب، و قيل: عن الغداء و العشاء، و قيل: عن بارد الشراب و ظلال المساكن، و قيل:
عن اعتدال الخلق، و قيل: عن لذة النوم، و الأولى العموم كما ذكرنا.
و قد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بردة فى قوله: أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ قال: نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار فى بنى حارثة و بنى الحارث تفاخروا و تكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان و فلان، و قال الآخرون مثل ذلك. تفاخروا بالأحياء. ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول:
فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبر، و مثل فلان، و فعل الآخرون كذلك، فأنزل اللّه: أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ- حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ لقد كان لكم فيما زرتم عبرة و شغل. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله:
أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ قال: فى الأموال و الأولاد. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ يعنى عن الطاعة حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ يقول: حتى يأتيكم الموت كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ يعنى لو دخلتم قبوركم ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ يقول: لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ قال: لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدى ربكم لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ و ذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم، فناج مسلم، و مخدوش مسلم، و مكدوش فى نار جهنم ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ يعنى شبع البطون، و بارد الشرب، و ظلال المساكن، و اعتدال الخلق، و لذّة النوم. و

أخرج ابن مردويه عن عياض بن غنم مرفوعا نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ قال:

صحة الأبدان و الأسماع و الأبصار، و هو أعلم بذلك منهم، و هو قوله: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُ

فتح القدير، ج٥، ص: ٥٩٩

أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا «١». و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ قال: «الأمن و الصحة». و أخرج البيهقى عن علىّ بن أبى طالب قال: النعيم: العافية. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال:

من أكل خبز البرّ، و شرب ماء الفرات مبردا، و كان له منزل يسكنه، فذلك من النعيم الّذى يسأل عنه.

و أخرج ابن مردويه عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية: «أكل خبز البرّ، و النوم فى الظل، و شرب ماء الفرات مبردا». و لعل رفع هذا لا يصح، فربما كان من قول أبى الدرداء. و أخرج أحمد فى الزهد، و ابن مردويه عن أبى قلابة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية قال: «ناس من أمتى يعقدون السمن و العسل بالنّقى فيأكلونه» و هذا مرسل. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية.

قال الصحابة: يا رسول اللّه أىّ نعيم نحن فيه؟ و إنما نأكل فى أنصاف بطوننا خبز الشعير، فأوحى اللّه إلى نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن قل لهم: «أليس تحتذون النعال، و تشربون الماء البارد، فهذا من النعيم». و أخرج ابن أبى شيبة و هناد و أحمد و ابن جرير و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن محمود بن لبيد قال: لما نزلت أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ فقرأ حتى بلغ: ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ قالوا: يا رسول اللّه أىّ نعيم نسأل عنه؟ و إنما هما الأسودان: الماء و التمر، و سيوفنا على رقابنا، و العدوّ حاضر، فعن أىّ نعيم نسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون». و أخرجه عبد بن حميد و الترمذى و ابن مردويه من حديث أبى هريرة. و أخرجه أحمد، و الترمذى و حسّنه، و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه من حديث الزبير بن العوّام. و أخرج أحمد فى الزهد، و عبد ابن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن حبان و ابن مردويه و الحاكم، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن أوّل ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصحّ لك جسدك و نروك من الماء البارد؟». و أخرج أحمد و عبد بن حميد و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن جابر بن عبد اللّه قال: «جاءنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أبو بكر و عمر فأطعمناهم رطبا و سقيناهم ماء، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هذا من النعيم الّذى تسألون عنه». و أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه و البيهقى من حديث جابر بن عبد اللّه نحوه. و أخرج مسلم و أهل السنن و غيرهم عن أبى هريرة قالا:

«خرج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فإذا هو بأبى بكر و عمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول اللّه، قال: و الّذى نفسى بيده لأخرجنى الّذى أخرجكما فقوما، فقاما معه، فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبا، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: أين فلان؟ قالت: انطلق يستعذب لنا الماء؛ إذ جاء الأنصارىّ، فنظر إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و صاحبيه فقال: الحمد للّه ما أحد اليوم أكرم أضيافا منى، فانطلق فجاء بعذق فيه بسر و تمر. فقال: كلوا من هذا و أخذ المدية، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إياك و الحلوب، فذبح لهم فأكلوا من الشاة، و من ذلك العذق و شربوا، فلما شبعوا و رووا قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأبى بكر و عمر: و الّذى نفسى بيده لنسألن عن هذا النعيم يوم القيامة» و فى الباب أحاديث.

---

(١). الإسراء: ٣۶.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶٠٠

سورة العصر

اشارة

فتح القدير ج۵ ۶۵٠

و هى مكية عند الجمهور. و قال قتادة: هى مدنية. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة العصر بمكة. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مزينة الدارمى، و كانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر.

ثم يسلّم أحدهما على الآخر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

[سورة العصر (١٠٣): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

وَ الْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)

أقسم سبحانه بالعصر و هو الدهر، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل و النهار على تقدير الأدوار و تعاقب الظلام و الضياء، فإن فى ذلك دلالة بينة على الصانع عزّ و جلّ و على توحيده، و يقال لليل: عصر و للنهار:

عصر، و منه قول حميد بن ثور:

و لم يلبث العصران يوم و ليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمّما

و يقال للغداة و العشىّ: عصران، و منه قول الشاعر:

و أمطله العصرين حتّى يملّنى و يرضى بنصف الدّين و الأنف راغم

و قال قتادة و الحسن: المراد به فى الآية العشىّ، و هو ما بين زوال الشمس و غروبها، و منه قول الشاعر:

تروّح بنا يا عمرو و قد قصر العصرو فى الرّوحة الأولى الغنيمة و الأجر

و روى عن قتادة أيضا أنه: آخر ساعة من ساعات النهار، و قال مقاتل: إن المراد به صلاة العصر و هى الصلاة الوسطى التى أمر اللّه سبحانه بالمحافظة عليها، و قيل: هو قسم بعصر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. قال الزجاج: قال بعضهم؛ معناه و رب العصر، و الأوّل أولى إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ هذا جواب القسم. الخسر و الخسران: النقصان و ذهاب رأس المال، و المعنى: أن كل إنسان فى المتاجر و المساعى و صرف الأعمار فى أعمال الدنيا لفى نقص و ضلال عن الحقّ حتى يموت. و قيل: المراد بالإنسان الكافر، و قيل: جماعة من الكفار، و هم الوليد بن المغيرة، و العاص بن وائل، و الأسود بن عبد المطلب بن أسد، و الأوّل أولى لما فى لفظ الإنسان من العموم و لدلالة الاستثناء عليه. قال الأخفش: لَفِي خُسْرٍ فى هلكة. و قال الفراء:

فتح القدير، ج۵، ص: ۶٠١

عقوبة، و قال ابن زيد: لفى شرّ. قرأ الجمهور: «و العصر» بسكون الصاد. و قرءوا أيضا: خُسْرٍ بضم الخاء و سكون السين. و قرأ

يحيى بن سلام وَ الْعَصْرِ بكسر الصاد. و قرأ الأعرج و طلحة و عيسى:
خُسْرٍ بضم الخاء و السين، و رويت هذه القراءة عن عاصم إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أى: جمعوا بين الإيمان باللّه و العمل الصالح، فإنهم فى ربح لا فى خسر؛ لأنهم عملوا للآخرة و لم تشغلهم أعمال الدنيا عنها، و الاستثناء متصل، و من قال: إن المراد بالإنسان الكافر فقط؛ فيكون منقطعا، و يدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن و مؤمنة، و لا وجه لما قيل من أن المراد الصحابة أو بعضهم، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتّصف بالإيمان و العمل الصالح وَ تَواصَوْا بِالْحَقِ أى: وصّى بعضهم بعضا بالحق الّذى يحقّ القيام به، و هو الإيمان باللّه و التوحيد، و القيام بما شرعه اللّه، و اجتناب ما نهى عنه. قال قتادة:
«بالحق» أى: بالقرآن، و قيل: بالتوحيد، و الحمل على العموم أولى وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ أى: بالصبر عن معاصى اللّه سبحانه، و الصبر على فرائضه. و فى جعل التواصى بالصبر قرينا للتواصى بالحق دليل على عظيم قدره و فخامة شرفه، و مزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ* «١» و أيضا التواصى بالصبر مما يندرج تحت التواصى بالحق، فإفراده بالذكر و تخصيصه بالنصّ عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق، و مزيد شرفه عليها، و ارتفاع طبقته عنها.
و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ الْعَصْرِ قال: الدهر. و أخرج ابن جرير عنه قال:
هو ساعة من ساعات النهار. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: هو ما قبل مغيب الشمس من العشيّ. و أخرج الفريابى، و أبو عبيد فى فضائله، و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن علىّ بن أبى طالب أنه كان يقرأ: «و العصر، و نوائب الدهر، إن الإنسان لفى خسر، و إنه فيه إلى آخر الدهر». و أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «و العصر، إن الإنسان لفى خسر، و إنه لفيه إلى آخر الدهر».

---

(١). البقرة: ١٥٣.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٦٠٢

سورة الهمزة

اشارة

هى تسع آيات، و هى مكية بلا خلاف و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ بمكة.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الهمزة (١٠٤): الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مالاً وَ عَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤)
وَ ما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)
الويل: هو مرتفع على الابتداء، و سوّغ الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم، و خبره لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ و المعنى: خزى، أو عذاب، أو هلكة، أو واد فى جهنم لكل همزة لمزة. قال أبو عبيدة و الزجاج: الهمزة اللمزة الّذى يغتاب الناس، و على هذا هما بمعنى. و قال أبو العالية و الحسن و مجاهد و عطاء ابن أبى رباح: الهمزة: الّذى يغتاب الرجل فى وجهه، و اللمزة: الّذى يغتابه من

خلفه. و قال قتادة عكس هذا. و روى عن قتادة و مجاهد أيضا أن الهمزة: الّذى يغتاب الناس فى أنسابهم. و روى عن مجاهد أيضا أن الهمزة: الّذى يهمز الناس بيده، و اللمزة: الّذى يلمزهم بلسانه. و قال سفيان الثورى: يهمزهم بلسانه و يلمزهم بعينه. و قال ابن كيسان: الهمزة: الّذى يؤذى جلساءه بسوء اللفظ، و اللمزة: الّذى يكسر عنه على جليسه و يشير بيده و برأسه و بحاجبه، و الأوّل أولى، و منه قول زياد الأعجم:

تدلى بودّى إذا لاقيتنى كذباو إن أغيّب فأنت الهامز اللّمزه

و قول الآخر:

إذا لقيتك عن سخط تكاشرنىو إن تغيّبت كنت الهامز اللّمزه

و أصل الهمز الكسر، يقال: همز رأسه كسره، و منه قول العجاج:

و من همزنا رأسه تهشّما و قيل: أصل الهمز و اللمز: الضرب و الدفع، يقال: همزه يهمزه همزا، و لمزه يلمزه لمزا: إذا دفعه و ضربه، و منه قول الشاعر:

و من همزنا عزّه تبركعاعلى استه زوبعة أو زوبعا

فتح القدير، ج‏5، ص: 603

البركعة: القيام على أربع، يقال: بركعه فتبركع، أى: صرعه فوقع على استه، كذا فى الصحاح.

و بناء فعلة يدلّ على الكثرة، ففيه دلالة على أن يفعل ذلك كثيرا، و أنه قد صار ذلك عادة له، و مثله ضحكة و لعنة. قرأ الجمهور هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ بضم أوّلهما و فتح الميم فيهما. و قرأ الباقر و الأعرج بسكون الميم فيهما.

و قرأ أبو وائل و النّخعى و الأعمش «ويل للهمزة اللمزة»، و الآية تعمّ كلّ من كان متّصفا بذلك، و لا ينافيه نزولها على سبب خاص، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الَّذِي جَمَعَ مالًا وَ عَدَّدَهُ الموصول بدل من كلّ، أو فى محل نصب على الذمّ، و هذا أرجح؛ لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه فى حكم الطرح، و إنما وصفه سبحانه بهذا الوصف لأنه يجرى مجرى السبب، و العلّة فى الهمز و اللمز، و هو إعجابه بما جمع من المال و ظنه أنه الفضل، فلأجل ذلك يستقصر غيره. قرأ الجمهور: جَمَعَ مخففا. و قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائى بالتشديد. و قرأ الجمهور: وَ عَدَّدَهُ بالتشديد، و قرأ الحسن الكلبى و نصر بن عاصم و أبو العالية بالتخفيف، و التشديد فى الكلمتين يدلّ على التكثير، و هو جمع الشى‏ء بعد الشى‏ء، و تعديده مرّة بعد أخرى. قال الفراء: معنى عدّده: أحصاه. و قال الزجاج: و عدّده لنوائب الدّهور. يقال أعددت الشى‏ء و عددته: إذا أمسكته. قال السدّى: أحصى عدده. و قال الضحاك: أعدّ ماله لمن يرثه. و قيل المعنى:

فاخر بكثرته و عدده، و المقصود ذمه على جمع المال، و إمساكه و عدم إنفاقه فى سبيل الخير. و قيل: المعنى على قراءة التخفيف فى عدّده؛ أنه جمع عشيرته و أقاربه. قال المهدوى: من خفّف «و عدّده» فهو معطوف على المال، أى: و جمع عدده، و جملة يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ مستأنفة لتقرير ما قبلها، و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال، أى: يعمل عمل من يظنّ أن ماله يتركه حيا مخلدا لا يموت. و قال عكرمة: يحسب أن ماله يزيد فى عمره، و الإظهار فى موضع الإضمار للتقريع و التوبيخ. و قيل: هو تعريض بالعمل الصالح، و أنه الّذى يخلد صاحبه فى الحياة الأبدية، لا المال. و قوله: كَلَّا ردع له عن ذلك الحسبان، أى: ليس الأمر على ما يحسبه هذا الّذى جمع المال و عدده، و اللام فى لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ جواب قسم محذوف، أى: ليطرحنّ فى النّار و ليلقينّ فيها. قرأ الجمهور: لَيُنْبَذَنَ و قرأ علىّ و الحسن و محمد بن كعب و نصر ابن عاصم و مجاهد و حميد و ابن محيصن: «لينبذانّ» بالتثنية، أى: لينبذ هو و ماله فى النار. و قرأ الحسن أيضا:

«لينبذنّ» أى: لينبذنّ ماله فى النار وَ ما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ هذا الاستفهام للتهويل و التفظيع؛ حتى كأنها ليست مما تدركه العقول

و تبلغه الأفهام. ثم بيّنها سبحانه فقال: نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ أى: هى نار اللّه الموقدة بأمر اللّه سبحانه، و فى إضافتها إلى الاسم الشريف تعظيم لها و تفخيم، و كذلك فى وصفها بالإيقاد، و سمّيت حطمة لأنها تحطم كل ما يلقى فيها و تهشمه، و منه:

إنّا حطمنا بالقضيب مصعبايوم كسرنا أنفه ليغضبا

قيل: هى الطبقة السادسة من طبقات جهنم، و قيل: الطبقة الثانية منها، و قيل: الطبقة الرابعة الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ أى: يخلص حرّها إلى القلوب فيعلوها و يغشاها، و خصّ الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم؛ لأنها محلّ العقائد الزائغة، أو لكون الألم إذا وصل إليها مات صاحبها، أى: إنهم فى حال من يموت

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۶۰۴

و هم لا يموتون. و قيل: معنى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ أنها تعلم بمقدار ما يستحقّه كل واحد منهم من العذاب، و ذلك بأمارات عرّفها اللّه بها إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ أى: مطبقة مغلقة؛ كما تقدّم بيانه فى سورة البلد، يقال: آصدت الباب؛ إذا أغلقته، و منه قول ابن قيس الرقيات:

إنّ فى القصر لو دخلنا غزالامصفقا «۱» موصدا عليه الحجاب

فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ فى محل نصب على الحال من الضمير فى عليهم، أى: كائنين فى عمد ممدّدة موثقين فيها، أو فى محلّ رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف: أى هم فى عمد، أو صفة لمؤصدة، أى: مؤصدة بعمد ممدّدة. قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم؛ ثم شدّت بأوتاد من حديد، فلا يفتح عليهم باب، و لا يدخل عليهم روح. و معنى كون العمد ممدّدة: أنها مطوّلة، و هى أرسخ من القصيرة. و قيل: العمد أغلال فى جهنم، و قيل: القيود. قال قتادة: المعنى هم فى عمد يعذبون بها، و اختار هذا ابن جرير: قرأ الجمهور فِي عَمَدٍ بفتح العين و الميم. قيل: هو اسم جمع لعمود. و قيل: جمع له. قال الفرّاء: هى جمع لعمود كأديم و أدم. و قال أبو عبيدة: هى جمع عماد. و قرأ حمزة و الكسائى و أبو بكر بضم العين و الميم، جمع عمود.

قال الفرّاء: هما جمعان صحيحان لعمود. و اختار أبو عبيد و أبو حاتم قراءة الجمهور. قال الجوهرى: العمود:

عمود البيت، و جمع القلة: أعمدة، و جمع الكثرة: عمد و عمد، و قرئ بهما. قال أبو عبيدة: العمود:

كلّ مستطيل من خشب أو حديد.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ قال: هو المشّاء بالنميمة، المفرّق بين الجمع، المغرى بين الإخوان. و أخرج ابن جرير عنه وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ قال: طعان لُمَزَةٍ قال: مغتاب.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ قال: مطبقة فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ قال: عمد من نار. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: هى الأدهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الأبواب هى الممدّدة. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: أدخلهم فى عمد فمدّت عليهم فى أعناقهم فشدّت بها الأبواب.

---

(۱). «صفق الباب و أصفقه»: أغلقه.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۶۰۵

سورة الفيل

اشارة

هی خمس آیات، و هی مکیة بلا خلاف و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس قال: أنزلت بمکة أَ لَمْ تَرَ کَیْفَ فَعَلَ رَبُّکَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة الفیل (۱۰۵): الآیات ۱ الی ۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

أَ لَمْ تَرَ کَیْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِأَصْحابِ الْفِیلِ (۱) أَ لَمْ یَجْعَلْ کَیْدَهُمْ فِی تَضْلِیلٍ (۲) وَ أَرْسَلَ عَلَیْهِمْ طَیْراً أَبابِیلَ (۳) تَرْمِیهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّیلٍ (۴)

فَجَعَلَهُمْ کَعَصْفٍ مَأْکُولٍ (۵)

الاستفهام فی قوله: أَ لَمْ تَرَ لتقریر رؤیته صلّی اللّه علیه و سلّم بإنکار عدمها. قال الفرّاء: المعنی ألم تخبر. و قال الزجاج: ألم تعلم، و هو تعجیب له صلّی اللّه علیه و سلّم بما فعله اللّه بِأَصْحابِ الْفِیلِ الذین قصدوا تخریب الکعبة من الحبشة، و «کیف» منصوبة بالفعل الّذی بعدها، و معلقة لفعل الرؤیة، و الخطاب لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و یجوز أن یکون لکلّ من یصلح له. و المعنی: قد علمت یا محمد، أو علم الناس الموجودون فی عصرک و من بعدهم بما بلغکم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفیل و ما فعل اللّه بهم، فما لکم لا تؤمنون؟ و الفیل هو الحیوان المعروف، و جمعه أفیال، و فیول، و فیلة. قال ابن السکیت: و لا تقل أفیلة، و صاحبه فیّال، و سیأتی ذکر قصة أصحاب الفیل إن شاء اللّه أَ لَمْ یَجْعَلْ کَیْدَهُمْ فِی تَضْلِیلٍ أی: ألم یجعل مکرهم و سعیهم فی تخریب الکعبة و استباحة أهلها فی تضلیل عما قصدوا إلیه؛ حتی لم یصلوا إلی البیت، و لا إلی ما أرادوه بکیدهم، و الهمزة للتقریر، کأنه قیل: قد جعل کیدهم فی تضلیل، و الکید: هو إرادة المضرّة بالغیر؛ لأنهم أرادوا أن یکیدوا قریشا بالقتل و السبی، و یکیدوا البیت الحرام بالتخریب و الهدم وَ أَرْسَلَ عَلَیْهِمْ طَیْراً أَبابِیلَ أی: أقاطیع یتبع بعضها بعضا کالإبل المؤبلة. قال أبو عبیدة: أبابیل: جماعات فی تفرقة، یقال: جاءت الخیل أبابیل، أی: جماعات من هاهنا و هاهنا. قال النحاس: و حقیقته أنها جماعات عظام، یقال: فلان توبل علی فلان، أی: تعظم علیه و تکبر، و هو مشتق من الإبل، و هو من الجمع الّذی لا واحد له. و قال بعضهم:

واحده إبّول مثل عجّول. و قال بعضهم: إبّیل. قال الواحدی: و لم نر أحدا یجعل لها واحدا. قال الفراء:

لا واحد له من لفظه. و زعم الرؤاسی، و کان ثقة، أنه سمع فی واحدها: إبّال مشدّدا. و حکی الفرّاء أیضا:

إبال بالتخفیف. قال سعید بن جبیر: کانت طیرا من السماء لم یر قبلها و لا بعدها. قال قتادة: هی طیر سود جاءت من قبل البحر فوجا فوجا مع کل طائر ثلاثة أحجار؛ حجران فی رجلیه، و حجر فی منقاره، لا یصیب شیئا إلا هشمه. و قیل: کانت طیرا خضرا خرجت من البحر لها رؤوس کرؤوس السباع. و قیل:

کان لها خراطیم کخراطیم الطیر و أکفّ کأکف الکلاب. و قیل فی صفتها غیر ذلک، و العرب تستعمل الأبابیل فی الطیر، کما فی قول الشاعر:

تراهم إلی الدّاعی سراعا کأنّهم أبابیل طیر تحت دجن مسخّن «۱»

و تستعملها فی غیر الطیر، کقول الآخر:

کادت تهدّ من الأصوات راحلتی إذ سالت الأرض بالجرد «۲» الأبابیل

تَرْمِیهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّیلٍ الجملة فی محلّ نصب صفة لطیر. قرأ الجمهور: تَرْمِیهِمْ بالفوقیة.

و قرأ أبو حنيفة و أبو معمر و عيسى و طلحة بالتحتية، و اسم الجمع يذكر و يؤنث. و قيل: الضمير فى القراءة الثانية للّه عزّ و جلّ. قال الزجاج مِنْ سِجِّيلٍ أى: ممّا كتب عليهم العذاب به، مشتقا من السجل.

قال فى الصحاح: قالوا: هى حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم. قال عبد الرّحمن ابن أبزى: مِنْ سِجِّيلٍ من السماء، و هى الحجارة التى نزلت على قوم لوط، و قيل: من الجحيم التى هى سجين، ثم أبدلت النون لاما، و منه قول ابن مقبل:

ضربا تواصت به الأبطال سجّيلا «٣» و إنما هو سجّينا. قال عكرمة: كان ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى، و كان الحجر كالحمّصة و فوق العدسة، و قد قدّمنا الكلام فى سجيل فى سورة هود فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ أى: جعل اللّه أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب فرمت به من أسفل، شبّه تقطع أوصالهم بتفرّق أجزائه. و قيل: المعنى: أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه الدّوابّ و بقى منه بقايا، أو أكلت حبة فبقى بدون حبة. و العصف جمع عصفة و عصافة و عصيفة، و قد قدّمنا الكلام فى العصف فى سورة الرّحمن فارجع إليه.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس قال: جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح فأتاهم عبد المطلب فقال: إن هذا بيت اللّه لم يسلّط عليه أحدا، قالوا: لا نرجع حتى نهدمه و كانوا لا يقدّمون فيلهم إلا تأخر، فدعا اللّه الطير الأبابيل، فأعطاها حجارة سودا عليها الطين، فلما حاذتهم رمتهم فما بقى منهم أحد إلا أخذته الحكة، فكان لا يحكّ الإنسان منهم جلده إلا تساقط لحمه.

و أخرج ابن المنذر و الحاكم و أبو نعيم و البيهقى عنه قال: أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب، فقال لملكهم. ما جاء بك إلينا؟ ألا بعثت فنأتيك بكل شىء؟ فقال: أخبرت بهذا البيت الّذى

---

(١). قال فى حاشية القرطبى: لعل صوابه: مسخر.

(٢). «الجرد»: الخيل لا رجالة فيها.

(٣). و صدر البيت: و رجلة يضربون البيض عن عرض.

لا يدخله أحد إلا أمن، فجئت أخيف أهله، فقال: إنا نأتيك بكل شىء تريد فارجع، فأبى إلا أن يدخله، و انطلق يسير نحوه، و تخلف عبد المطلب، فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت و أهله، فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلتهم طير أبابيل التى قال اللّه: تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فجعل الفيل يعجّ عجا فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ و قصة أصحاب الفيل مبسوطة مطوّلة فى كتب التاريخ و السير فلا نطوّل بذكرها. و أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ قال: حجارة مثل البندق و بها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة حجار. حجران فى رجليه، و حجر فى منقاره حلقت عليه من السماء ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة فلم تعد عسكرهم. و أخرج أبو نعيم من طريق عطاء و الضحاك عنه: أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة. فأرسل اللّه عليهم طيرا أبابيل يريد مجتمعة، لها خراطيم تحمل حصاة فى منقارها و حصاتين فى رجليها. ترسل واحدة على رأس الرجل فيسيل لحمه و دمه و يبقى عظاما خاوية لا لحم عليها و لا جلد و لا دم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى فى الدلائل عنه أيضا: فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ يقول: كالتبن. و أخرج ابن إسحاق فى السيرة، و الواقدى و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل و سائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان.

و أخرج الواقدى نحوه عن أسماء بنت أبى بكر. و أخرج أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس قال: ولد النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عام الفيل. و أخرج ابن إسحاق و أبو نعيم و البيهقى عن قيس بن مخرمة قال: ولدت أنا و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عام الفيل.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۶۰۸

سورة قريش

اشارة

و يقال: سورة لإيلاف، و هى أربع آيات و هى مكية عند الجمهور. و قال الضحاك و الكلبى: هى مدنية.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة لِإِيلافِ بمكة. و أخرج البخارى فى تاريخه، و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقى عن أم هانئ بنت أبى طالب، أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«فضّل اللّه قريشا بسبع خصال لم يعطها أحدا قبلهم و لا يعطيها أحدا بعدهم: أنى فيهم. و فى لفظ: النبوّة فيهم، و الخلافة فيهم، و الحجابة فيهم، و السقاية فيهم، و نصروا على الفيل، و عبدوا اللّه سبع سنين. و فى لفظ: عشر سنين لم يعبده أحد غيرهم، و نزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم لِإِيلافِ قُرَيْشٍ قال ابن كثير: هو حديث غريب، و يشهد له ما أخرجه الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه و ابن عساكر عن الزبير بن العوّام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «فضّل اللّه قريشا بسبع خصال: فضّلهم بأنهم عبدوا اللّه عشر سنين لا يعبده إلا قريش، و فضّلهم بأنه نصرهم يوم الفيل و هم مشركون، و فضّلهم بأنها نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم، و هى لإيلاف قريش، و فضّلهم بأن فيهم النبوّة، و الخلافة، و السقاية». و أخرج الخطيب فى تاريخه، عن سعيد بن المسيب مرفوعا نحوه، و هو مرسل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة قريش (۱۰۶): الآيات ۱ الى ۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (۱) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ (۲) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ (۳) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (۴)

اللام فى قوله: لِإِيلافِ قيل: هى متعلقة بآخر السورة التى قبلها، كأنه قال سبحانه: أهلكت أصحاب الفيل لأجل تألف قريش. قال الفرّاء: هذه السورة متّصلة بالسورة الأولى؛ لأنه ذكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة، ثم قال: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ أى: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش، و ذلك أن قريشا كانت تخرج فى تجارتها فلا يغار عليها فى الجاهلية، يقولون: هم أهل بيت اللّه عزّ و جلّ، حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة و يأخذ حجارتها فيبنى بها بيتا فى اليمن يحجّ الناس إليه، فأهلكهم اللّه عزّ و جلّ، فذكّرهم نعمته، أى: فعل ذلك لإيلاف قريش، أى: ليألفوا الخروج و لا يجترأ عليهم، و ذكر نحو هذا ابن قتيبة. قال الزجاج: و المعنى: فجعلهم كعصف مأكول لِإِيلافِ قُرَيْشٍ أى: أهلك اللّه أصحاب الفيل لتبقى قريش و ما قد ألفوا من رحلة الشتاء و الصيف. و قال فى الكشاف: إن اللام متعلق بقوله: فَلْيَعْبُدُوا أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين، و دخلت الفاء لما فى الكلام

فتح القدير، ج‏5، ص: 609

من معنى الشرط؛ لأن المعنى: أما لا فليعبدوه. و قد تقدّم صاحب الكشاف إلى هذا القول الخليل بن أحمد، و المعنى: إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة. و قال الكسائى و الأخفش: اللام لام التعجب، أى: اعجبوا لإيلاف قريش. و قيل: هى بمعنى إلى. قرأ الجمهور: لِإِيلافِ بالياء مهموزا من ألفت أولف إيلافا. يقال: ألفت الشى‏ء إلافا و إلفا، و ألفته إيلافا بمعنى، و منه قول الشاعر:

المنعمين إذا النّجوم تغيّرت و الظّاعنين لرحلة الإيلاف

و قرأ ابن عامر: «لإلاف» بدون الياء، و قرأ أبو جعفر: «لإلف» و قد جمع بين هاتين القراءتين الشاعر، فقال:

زعمتم أنّ إخوتكم قريش لهم إلف و ليس لكم إلاف

و قرأ عكرمة: «ليألف قريش» بفتح اللام على أنها لام الأمر، و كذلك هو فى مصحف ابن مسعود، و فتح لام الأمر لغة معروفة. و قرأ بعض أهل مكة: «إلاف قريش»، و استشهد بقول أبى طالب:

تذود الورى «1» عن عصبة هاشمية إلافهم فى النّاس خير إلاف

و قريش هم: بن و النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى، و من لم يلده النضر فليس بقرشى، و قريش يأتى منصرفا إن أريد به الحيّ، و غير منصرف إن أريد به القبيلة، و منه قول الشاعر «2»:

و كفى قريش المعضلات و سادها «3» و قيل: إنّ قريشا بنو فهر بن مالك بن النضر، و الأوّل أصح، و قوله: إِيلافِهِمْ بدل من إيلاف قريش، و رِحْلَةَ مفعول به لإيلافهم و أفردها، و لم يقل رحلتى الشتاء و الصيف لأمن الإلباس، و قيل:

إن إيلافهم تأكيد للأوّل لا بدل، و الأوّل أولى. و رجحه أبو البقاء، و قيل: إن رحلة منصوبة بمصدر مقدّر، أى: ارتحالهم رحلة الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ و قيل: هى منصوبة على الظرفية، و الرحلة: الارتحال، و كانت إحدى الرحلتين إلى اليمن فى الشتاء لأنها بلاد حارّة، و الرحلة الأخرى إلى الشام فى الصيف لأنها بلاد باردة.

و روى أنهم كانوا يشتون بمكة، و يصيفون بالطائف. و الأوّل أولى، فإن ارتحال قريش للتجارة معلوم معروف فى الجاهلية و الإسلام. قال ابن قتيبة: إنما كانت تعيش قريش بالتجارة و كانت لهم رحلتان فى كل سنة؛ رحلة فى الشتاء إلى اليمن، و رحلة فى الصيف إلى الشام، و لو لا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام، و لو لا الأمن بجوارهم البيت لم يقدروا على التصرّف فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن ذكر لهم ما أنعم

---

(1). فى تفسير القرطبى (20/ 202): العدا.

(2). هو عدى بن الرقاع.

(3). و صدر البيت: غلب المساميح الوليد سماحة.

فتح القدير، ج‏5، ص: 610

به عليهم، أى: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المذكورة، و البيت: الكعبة. و عرّفهم سبحانه بأنه ربّ هذا البيت؛ لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها، فميّز نفسه عنها. و قيل: لأنهم بالبيت تشرفوا على سائر العرب، فذكر لهم ذلك تذكيرا لنعمته الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ أى: أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، و قيل: إن هذا الإطعام هو أنهم لما كذّبوا النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم دعا عليهم، فقال: اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف، فاشتد القحط، فقالوا: يا محمد ادع اللّه لنا فإنا مؤمنون، فدعا؛ فأخصبوا، و زال عنهم الجوع، و ارتفع القحط وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ أى: من خوف شديد

كانوا فيه. قال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض، و يسبى بعضها بعضا، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم. و قال الضحاك و الربيع و شريك و سفيان: آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل.

و قد أخرج أحمد و ابن أبى حاتم عن أسماء بنت يزيد قالت: «سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ و يحكم يا قريش، اعبدوا ربّ هذا البيت الّذى أطعمكم من جوع و آمنكم من خوف». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ قال: نعمتى على قريش إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ كانوا يشتون بمكة، و يصيفون بالطائف فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ قال: الكعبة الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ قال:

الجذام. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ قال:

لزومهم الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ يعنى قريشا أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال: وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ «١»، وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ حيث قال إبراهيم رَبِّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ آمِناً «٢». و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ الآية، قال: نهاهم عن الرحلة و أمرهم أن يعبدوا ربّ هذا البيت، و كفاهم المؤنة، و كانت رحلتهم فى الشتاء و الصيف و لم يكن لهم راحة فى شتاء و لا صيف، فأطعمهم اللّه بعد ذلك من جوع، و آمنهم من خوف فألفوا الرحلة و كان ذلك من نعمة اللّه عليهم.

و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: أمروا أن يألفوا عبادة ربّ هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء و الصيف، و قد وردت أحاديث فى فضل قريش و إن الناس تبع لهم فى الخير و الشرّ، و إن هذا الأمر يعنى الخلافة لا تزال فيهم ما بقى اثنان، و هى فى دواوين الإسلام.

---

(١). البقرة: ١٢٦.

(٢). إبراهيم: ٣٥.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٦١١

سورة الماعون

اشارة

و يقال: سورة الدين، و يقال: سورة الماعون، و يقال: سورة اليتيم، و هى سبع آيات و هى مكية فى قول عطاء و جابر، و أحد قولى ابن عباس، و مدنية فى قول قتادة و آخرين. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت أَ رَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الماعون (١٠٧): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَ رَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤)

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ (٦) وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ (٧)

الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أو لكل من يصلح له، و الاستفهام لقصد التعجيب من حال من يكذب بالدين.
و الرؤية: بمعنى المعرفة؛ و الدين: الجزاء و الحساب فى الآخرة. قيل: و فى الكلام حذف، و المعنى: أ رأيت الّذى يكذب بالدين أ مصيب هو أم مخطئ. قال مقاتل و الكلبى: نزلت فى العاص بن وائل السهمى. و قال السدّى: فى الوليد بن المغيرة. و قال الضحّاك: فى عمرة بن عائذ. و قال ابن جرير فى أبى سفيان، و قيل:
فى رجل من المنافقين. قرأ الجمهور أَ رَأَيْتَ بإثبات الهمزة الثانية. و قرأ الكسائى بإسقاطها. قال الزجاج: لا يقال فى رأيت ريت، و لكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفا. و قيل: الرؤية: هى البصرية، فيتعدّى إلى مفعول واحد، و هو الموصول، أى: أ أبصرت المكذب. و قيل: إنها بمعنى أخبرنى؛ فيتعدى إلى اثنين. الثانى محذوف، أى: من هو فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ الفاء جواب شرط مقدّر، أى إن تأملته أو طلبته فذلك الّذى يدعّ اليتيم، و يجوز أن تكون عاطفة على الّذى يكذب، إما عطف ذات على ذات، أو صفة على صفة. فعلى الأوّل يكون اسم الإشارة مبتدأ و خبره الموصول بعده، أو خبر لمبتدأ محذوف، أى:
فهو ذلك، و الموصول صفته. و على الثانى يكون فى محل نصب لعطفه على الموصول الّذى هو فى محل نصب.
و معنى يدعّ: يدفع دفعا بعنف و جفوة، أى: يدفع اليتيم عن حقّه دفعا شديدا، و منه قوله سبحانه: يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا «١» و قد قدّمنا أنهم كانوا لا يورّثون النساء و الصبيان وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ أى: لا يحضّ نفسه و لا أهله و لا غيرهم على ذلك؛ بخلا بالمال، أو تكذيبا بالجزاء، و هو مثل قوله فى سورة الحاقة وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ «٢» فَوَيْلٌ يومئذ لِلْمُصَلِّينَ الفاء جواب

---

(١). الطور: ١٣.

(٢). الحاقة: ٣٤.

لشرط محذوف، كأنه قيل: إذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم و المسكين فويل للمصلين الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ أى: عذاب لهم، أو هلاك، أو واد فى جهنم لهم كما سبق الخلاف فى معنى الويل، و معنى ساهون: غافلون غير مبالين بها، و يجوز أن تكون الفاء لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذكر من قبائحهم، و وضع المصلّين موضع ضمير هم للتوصل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح أخرى غير ما ذكر. قال الواحدى: نزلت فى المنافقين الّذين لا يرجون بصلاتهم ثوابا إن صلوا، و لا يخافون عليها عقابا إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، و إذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء، و إذا لم يكونوا معهم لم يصلوا، و هو معنى قوله: الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ أى: يراءون الناس بصلاتهم إن صلوا، أو يراءون الناس بكل ما علموه من أعمال البرّ ليثنوا عليهم.
قال النخعى: الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ هو الّذى إذا سجد قال برأسه هكذا و هكذا ملتفتا. و قال قطرب: هو الّذى لا يقرأ و لا يذكر اللّه. و قرأ ابن مسعود: الذين هم عن صلاتهم لاهون وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ قال أكثر المفسرين: الماعون: اسم لما يتعاوره الناس بينهم: من الدلو و الفأس و القدر، و ما لا يمنع كالماء و الملح. و قيل: هو الزكاة، أى: يمنعون زكاة أموالهم. و قال الزجاج و أبو عبيد و المبرّد: الماعون فى الجاهلية: كل ما فيه منفعة حتى الفأس و الدلو و القدر و القدّاحة، و كل ما فيه منفعة من قليل و كثير، و أنشدوا قول الأعشى:
بأجود منه بماعونه إذا ما سماؤهم لم تغم
قال الزجاج و أبو عبيد و المبرّد أيضا: و الماعون فى الإسلام: الطاعة و الزكاة، و أنشدوا قول الراعى:
أ خليفة الرّحمن إنّا معشر حنفاء نسجد بكرة و أصيلا

عرب نرى للّه من أموالناحقّ الزّكاة منزّلا تنزيلا

قوم على الإسلام لمّا يمنعواماعونهم و يضيّعوا التّهليلا

و قيل: الماعون: الماء. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: الماعون: الماء، و أنشدنى:

يمجّ صبيره الماعون صبّا و الصبير: السحاب، و قيل: الماعون: هو الحق على العبد على العموم، و قيل: هو المستغلّ من منافع الأموال، مأخوذ من المعن، و هو القليل. قال قطرب: أصل الماعون من القلة، و المعن: الشيء القليل، فسمّى اللّه الصدقة و الزكاة و نحو ذلك من المعروف ماعونا؛ لأنه قليل من كثير، و قيل: هو ما لا يبخل به كالماء و الملح و النار.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ قال: يكذب بحكم اللّه فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ قال: يدفعه عن حقّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عنه فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ- الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ قال: هم المنافقون يراءون الناس بصلاتهم إذا حضروا و يتركونها إذا غابوا، و يمنعونهم العارية بغضا لهم، و هى الماعون. و أخرج

فتح القدير، ج‏5، ص: 613

ابن جرير و ابن مردويه عنه أيضا الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ قال: هم المنافقون يتركون الصلاة فى السرّ، و يصلون فى العلانية. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن مصعب بن سعد قال: قلت لأبىّ: أ رأيت قول اللّه: الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ أيّنا لا يسهو؟ أيّنا لا يحدّث نفسه؟ قال: إنه ليس ذلك، إنه إضاعة الوقت.

و أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن سعد بن أبى وقاص قال: سألت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن قوله: الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ قال: هم الذين يؤخّرون الصلاة عن وقتها. و قال الحاكم و البيهقى: الموقوف أصح. قال ابن كثير: و هذا يعنى الموقوف أصح إسنادا. قال: و قد ضعّف البيهقى رفعه و صحّح وقفه، و كذلك الحاكم. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه- قال السيوطى: بسند ضعيف- عن أبى برزة الأسلمى قال: «لما نزلت هذه الآية الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: اللّه أكبر، هذه الآية خير لكم من أن يعطى كل رجل منكم جميع الدنيا، هو الّذى إن صلّى لم يرج خير صلاته، و إن تركها لم يخف ربّه». و فى إسناده جابر الجعفى، و هو ضعيف، و شيخه مبهم لم يسمّ. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: هم الذين يؤخّرونها عن وقتها. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و أبو داود و النسائى و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، من طرق عن ابن مسعود قال:

كنا نعدّ الماعون على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عارية الدلو و القدر و الفأس و الميزان و ما تتعاطون بينكم. و أخرج ابن مردويه عنه قال: كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر و الفأس و شبهه فيمنعونهم، فأنزل اللّه:

وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ و أخرج أبو نعيم و الديلمى و ابن عساكر عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية قال:

ما تعاون الناس بينهم الفأس و القدر و الدلو و أشباهه. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن قرّة بن دعموص النميرى: «أنهم وفدوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقالوا: يا رسول اللّه ما تعهد إلينا؟ قال: لا تمنعوا الماعون، قالوا: و ما الماعون؟ قال: فى الحجر و الحديدة و فى الماء، قالوا: فأىّ الحديدة؟ قال: قدوركم النحاس و حديد الفأس الّذى تمتهنون به، قالوا: و ما الحجر؟ قال: قدوركم الحجارة». قال ابن كثير: غريب جدا، و رفعه منكر، و فى إسناده من لا يعرف. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير عن سعيد بن عياض عن أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: الماعون: الفأس و القدر و الدلو. و أخرج سعيد بن منصور و ابن

أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و البيهقى، و الضياء فى المختارة، من طرق عن ابن عباس فى الآية قال: عارية متاع البيت. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم، و البيهقى فى سننه، عن علىّ بن أبى طالب قال: الماعون: الزكاة المفروضة يُراؤُنَ بصلاتهم وَ يَمْنَعُونَ زكاتهم.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۶۱۴

سورة الكوثر

اشارة

و هى مكية فى قول ابن عباس و الكلبى و مقاتل، و مدنية فى قول الحسن و عكرمة و مجاهد و قتادة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير و عائشة أنها نزلت سورة الكوثر بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الكوثر (۱۰۸): الآيات ۱ الى ۳]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ (۱) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ (۲) إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (۳)

قرأ الجمهور: إِنَّا أَعْطَيْناكَ و قرأ الحسن و ابن محيصن و طلحة و الزعفرانى «أنطيناك» بالنون.

قيل: هى لغة العرب العاربة. قال الأعشى:

حباؤك خير حبا الملوك يصان الحلال و تنطى الحلولا

و الْكَوْثَرَ فوعل من الكثرة، وصف به للمبالغة فى الكثرة، مثل النوفل من النفل، و الجوهر من الجهر، و العرب تسمى كلّ شى‌ء كثير فى العدد أو القدر أو الخطر كوثرا، و منه قول الشاعر «۱»:

و قد ثار نقع الموت حتّى تكوثرا «۲» فالمعنى على هذا: إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ فى الكثرة إلى الغاية. و ذهب أكثر المفسرين كما حكاه الواحدى إلى أن الكوثر نهر فى الجنة، و قيل: هو حوض النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الموقف، قاله عطاء. و قال عكرمة: الكوثر: النبوّة. و قال الحسن: هو القرآن. و قال الحسن بن الفضل: هو تفسير القرآن و تخفيف الشرائع. و قال أبو بكر بن عياش: هو كثرة الأصحاب و الأمة. و قال ابن كيسان: هو الإيثار. و قيل:

هو الإسلام، و قيل: رفعة الذكر، و قيل: نور القلب، و قيل: الشفاعة، و قيل: المعجزات، و قيل: إجابة الدعوة، و قيل: لا إله إلا اللّه، و قيل: الفقه فى الدين، و قيل: الصلوات الخمس، و سيأتى بيان ما هو الحق.

فَصَلِّ لِرَبِّكَ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و المراد الأمر له صلّى اللّه عليه و سلّم بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة وَ انْحَرْ البدن التى هى خيار أموال العرب. قال محمد بن كعب: إن ناسا كانوا يصلّون لغير اللّه، و ينحرون لغير اللّه، فأمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن تكون صلاته و نحره له. و قال قتادة و عطاء و عكرمة: المراد صلاة العيد، و نحر الأضحية. و قال سعيد بن جبير: صلّ لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع، و انحر البدن

---

(۱). هو حسان بن نشبة.

(٢). و صدر البيت: أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۱۵

فى منى: و قيل: النحر: وضع اليمنى على اليسرى فى الصلاة حذاء النحر، قاله محمد بن كعب. و قيل: هو أن يرفع يديه فى الصلاة عند التكبيرة إلى حذاء نحره. و قيل: هو أن يستقبل القبلة بنحره، قاله الفراء و الكلبى و أبو الأحوص. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: نتناحر، أى: نتقابل؛ نحر هذا إلى نحر هذا، أى:

قبالته، و منه قول الشاعر:

أبا حكم ما أنت عمّ مجالدو سيّد أهل الأبطح المتناحر

أى: المتقابل. و قال ابن الأعرابى: هو انتصاب الرجل فى الصلاة بإزاء المحراب، من قولهم: منازلهم تتناحر، أى: تتقابل. و روى عن عطاء أنه قال: أمره أن يستوى بين السجدتين جالسا حتى يبدو نحره.

و قال سليمان التيمى: المعنى: و ارتفع يديك بالدعاء إلى نحرك، و ظاهر الآية الأمر له صلّى اللّه عليه و سلّم بمطلق الصلاة و مطلق النحر، و أن يجعلهما للّه عزّ و جلّ لا لغيره، و ما ورد فى السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص فهو فى حكم التقييد له، و سيأتى إن شاء اللّه. إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ أى: إن مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم، فيعمّ خيرى الدنيا و الآخرة، أو الّذى لا عقب له، أو الّذى لا يبقى ذكره بعد موته. و ظاهر الآية العموم، و أن هذا شأن كل من يبغض النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا ينافى ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما مرّ غير مرّة. قيل: كان أهل الجاهلية إذا مات الذكور من أولاد الرجل قالوا: قد بتر فلان، فلما مات ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إبراهيم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بتر محمد، فنزلت الآية. و قيل: القائل بذلك عقبة بن أبى معيط. قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال؛ الّذى لا ولد له، و من الدوابّ؛ الّذى لا ذنب له، و كل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر، و أصل البتر: القطع، يقال: بترت الشىء بترا؛ قطعته.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن أنس قال: «أغفى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إغفاءة، فرفع رأسه مبتسما فقال: إنه أنزل علىّ آنفا سورة، فقرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ- إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ حتى ختمها قال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا:

اللّه و رسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربى فى الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتى يوم القيامة، آنيته كعدد الكواكب يختلج «۱» العبد منهم فأقول: يا ربّ إنه من أمتى، فيقال: إنك لا تدرى ما أحدث بعدك». و أخرجه أيضا مسلم فى صحيحه، و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدى إلى ما يجرى فيه الماء فإذا مسك أذفر، قلت: ما هذا يا جبريل، قال: هذا الكوثر الّذى أعطاكه اللّه» و قد روى عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الّذى فى الجنة. و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى و ابن جرير و ابن مردويه عن عائشة أنها سئلت عن قوله: إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ قالت: هو نهر أعطيه نبيكم صلّى اللّه عليه و سلّم فى بطنان الجنة.

---

(١). أى ينتزع و يقتطع.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۱۶

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه نهر فى الجنة. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، عن حذيفة فى قوله: إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ قال: نهر فى الجنة، و حسّن السيوطى إسناده. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن أسامة ابن زيد مرفوعا «أنه قيل لرسول اللّه

صلّى اللّه عليه و سلّم: إنک أعطيت نهرا فى الجنة يدعى الكوثر، فقال: أجل، و أرضه ياقوت و مرجان و زبرجد و لؤلؤ». و أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه:

«أن رجلا قال: يا رسول اللّه ما الكوثر؟ قال: هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه اللّه».

فهذه الأحاديث تدلّ على أن الكوثر هو النهر الّذى فى الجنة، فيتعين المصير إليها، و عدم التعويل على غيرها، و إن كان معنى الكوثر: هو الخير الكثير فى لغة العرب، فمن فسّره بما هو أعمّ مما ثبت عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغوىّ. كما أخرج ابن أبى شيبة و أحمد، و الترمذى و صحّحه، و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عطاء بن السائب قال: قال محارب بن دثار: قال سعيد بن جبير فى الكوثر:

قلت: حدّثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير فقال: صدق إنه للخير الكثير. و لكن حدّثنا ابن عمر قال: نزلت إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الكوثر نهر فى الجنة، حافتاه من ذهب يجرى على الدرّ و الياقوت، تربته أطيب من المسک، و ماؤه أشد بياضا من اللبن و أحلى من العسل». و أخرج البخارى و ابن جرير و الحاكم من طريق أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: فى الكوثر هو الخير الّذى أعطاه اللّه إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير فإن ناسا يزعمون أنه نهر فى الجنة، قال: النهر الّذى فى الجنة من الخير الّذى أعطاه اللّه إياه. و هذا التفسير من حبر الأمة ابن عباس رضى اللّه عنه ناظر إلى المعنى اللغوىّ كما عرّفناک، و لكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد فسّره فيما صحّ عنه أنه النهر الّذى فى الجنة، و إذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن علىّ بن أبى طالب قال: «لما نزلت هذه السورة على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: لجبريل: ما هذه النحيرة التى أمرنى بها ربى؟ فقال: إنها ليست بنحيرة، و لكن يأمرک إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديک إذا كبرت، و إذا ركعت، و إذا رفعت رأسک من الركوع، فإنها صلاتنا و صلاة الملائكة الذين هم فى السماوات السبع، و إن لكل شىء زينة، و زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة، قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: رفع اليدين من الاستكانة التى قال اللّه: فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ و هو من طريق مقاتل بن حيان، عن الأصبغ بن نباتة، عن علىّ. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: «إن اللّه أوحى إلى رسوله أن ارفع يديک حذاء نحرک إذا كبرت للصلاة، فذاک النحر». و أخرج ابن أبى شيبة، و البخارى فى تاريخه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الدار قطنى فى الأفراد، و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ قال: وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى، ثم وضعهما على صدره فى الصلاة. و أخرج أبو الشيخ، و البيهقى فى سننه، عن أنس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مثله. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن شاهين فى سننه، و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ قال: إذا صليت فرفعت رأسک من الركوع فاستو قائما. و أخرج ابن جرير و ابن

فتح القدير، ج‌5، ص: 617

المنذر عن ابن عباس فى الآية قال: الصلاة المكتوبة، و الذبح يوم الأضحى. و أخرج البيهقى فى سننه؛ عنه وَ انْحَرْ قال: يقول: و اذبح يوم النحر. و أخرج البزار و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة. فقالت له قريش: أنت خير أهل المدينة و سيّدهم، ألا ترى إلى هذا الصّابئ المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، و نحن أهل الحجيج و أهل السقاية و أهل السدانة؟! قال: أنتم خير منه، فنزلت: إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ و نزلت: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ إلى قوله: فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً «1» قال ابن كثير: و إسناده صحيح. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن أبى أيوب قال: لما مات إبراهيم بن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا: إن هذا الصابئ قد بتر الليلة فأنزل اللّه: إِنَّا

أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ إلى آخر السورة. و أخرج ابن سعد و ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: كان أكبر ولد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم القاسم، ثم زينب، ثم عبد اللّه، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، فمات القاسم و هو أوّل ميت من أهله، و ولده بمكة، ثم مات عبد اللّه، فقال العاص بن وائل السهمى: قد انقطع نسله؛ فهو أبتر، فأنزل اللّه إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ و فى إسناده الكلبى. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ قال: أبو جهل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه إِنَّ شانِئَكَ يقول: عدوّك.

---

(۱). النساء: ۴۴- ۵۲.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۱۸

سورة الكافرون

اشارة

و هى مكية فى قول ابن مسعود و الحسن و عكرمة. و مدنية فى أحد قولى ابن عباس و قتادة و الضحاك.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت سورة يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه ابن الزبير قال: أنزلت يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ بالمدينة. و قد ثبت فى صحيح مسلم من حديث جابر:

«أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ بهذه السورة، و بقل هو اللّه، فى ركعتى الطواف». و فى صحيح مسلم أيضا من حديث أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ بهما فى ركعتى الفجر. و أخرج أحمد، و الترمذى و حسّنه، و النسائى و ابن ماجة و ابن حبان و ابن مردويه عن ابن عمر: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ فى الركعتين قبل الفجر و الركعتين بعد المغرب بضعا و عشرين مرة، أو بضع عشرة مرة قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ و قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ». و أخرج الحاكم و صحّحه، عن أبىّ قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوتر بسبّح، و قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ و قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. و أخرج محمد بن نصر، و الطبرانى فى الأوسط، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «قل هو اللّه أحد تعدل ثلث القرآن، و قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ تعدل ربع القرآن، و كان يقرأ بهما فى ركعتى الفجر». و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «من قرأ يا أيها الكافرون كانت له عدل ربع القرآن». و أخرج الطبرانى فى الصغير، و البيهقى فى الشعب، عن سعد بن أبى وقاص قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ فكأنما قرأ ربع القرآن، و من قرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فكأنما قرأ ثلث القرآن». و أخرج أحمد و ابن الضريس و البغوى، و حميد بن زنجويه فى ترغيبه، عن شيخ أدرك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «خرجت مع النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى سفر فمرّ برجل يقرأ: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ فقال: أما هذا فقد برىء من الشرك، و إذا آخر يقرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: بها وجبت له الجنة»، و فى رواية: «أما هذا فقد غفر له». و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و أبو داود و الترمذى و النسائى، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعى عن أبيه أنه قال: يا رسول اللّه علّمنى ما أقول إذا أويت إلى فراشى قال: «اقرأ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك». و أخرجه سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن مردويه عن عبد الرّحمن بن نوفل الأشجعى عن أبيه مرفوعا مثله. و أخرج ابن مردويه عن البراء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لنوفل بن معاوية الأشجعى: «إذا أتيت مضجعك للنوم فاقرأ: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ فإنك إذا قلتها فقد برئت

من الشرك». و أخرج أحمد، و الطبرانى فى الأوسط، عن الحارث بن جبلة، و قال الطبرانى: عن جبلة بن حارثة، و هو أخو زيد ابن حارثة قال: «قلت: يا رسول اللّه علمنى شيئا أقوله عند منامى قال: إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ حتى تمرّ بآخرها فإنها براءة من الشرك». و أخرج البيهقى فى الشعب،

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۱۹

عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لمعاذ: «اقرأ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ عند منامك فإنها براءة من الشرك». و أخرج أبو يعلى و الطبرانى عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ألا أدلّكم على كلمة تنجيكم من الإشراك باللّه؟ تقرؤون قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ عند منامكم». و أخرج البزار و الطبرانى و ابن مردويه عن خباب أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إذا أخذت مضجعك فاقرأ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ و إن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم لم يأت فراشه قطّ إلا قرأ: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ حتى يختم». و أخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من لقى اللّه بسورتين فلا حساب عليه قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ و قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ». و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و ابن الضريس عن أبى مسعود الأنصارى قال: من قرأ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ و قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فى ليلة فقد أكثر و أطاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الكافرون (۱۰۹): الآيات ۱ الى ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (۱) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (۲) وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (۳) وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ (۴)

وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (۵) لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ (۶)

الألف و اللام فى يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ للجنس، و لكنها لما كانت الآية خطابا لمن سبق فى علم اللّه أنه يموت على كفره؛ كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك؛ لأنّ من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم و عبد اللّه سبحانه. و سبب نزول هذه السورة أن الكفّار سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يعبد آلهتهم سنة و يعبدوا إلهه سنة، فأمره اللّه سبحانه أن يقول لهم: لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ أى: لا أفعل ما تطلبون منى من عبادة ما تعبدون من الأصنام، و قيل: و المراد فيما يستقبل من الزمان لأن لا النافية لا تدخل فى الغالب إلا على المضارع الّذى فى معنى الاستقبال، كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الحال وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ أى: و لا أنتم فاعلون فى المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهى وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ أى: و لا أنا قطّ فيما سلف عابد ما عبدتم فيه، و المعنى: أنه لم يعهد منى ذلك وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ أى: و ما عبدتم فى وقت من الأوقات ما أنا على عبادته، كذا قيل، و هذا على قول من قال: إنه لا تكرار فى هذه الآيات؛ لأن الجملة الأولى لنفى العبادة فى المستقبل لما قدّمنا من أن «لا» لا تدخل إلّا على مضارع فى معنى الاستقبال، و الدليل على ذلك أن لن تأكيد لما تنفيه لا. قال الخليل فى لن: إن أصله لا، فالمعنى:

لا أعبد ما تعبدون فى المستقبل، و لا أنتم عابدون فى المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهى. ثم قال: وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ أى: و لست فى الحال بعباد معبودكم، و لا أنتم فى الحال بعابدين معبودى. و قيل: بعكس هذا، و هو أن الجملتين الأوليين للحال، و الجملتين الأخريين للاستقبال بدليل قوله: وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ كما لو قال القائل: أنا ضارب زيدا، و أنا قاتل عمرا، فإنه لا يفهم منه إلا الاستقبال. قال الأخفش و الفرّاء: المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون، و لا أنتم عابدون الساعة ما أعبد، و لا أنا عابد فى المستقبل ما عبدتم،

فتح القدير، ج‌5، ص: 620
و لا أنتم عابدون فى المستقبل ما أعبد. قال الزجاج: نفى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه فى الحال و فيما يستقبل، و نفى عنهم عبادة اللّه فى الحال و فيما يستقبل. و قيل: إن كل واحد منهما يصلح للحال و الاستقبال، و لكنّا نخصّ أحدهما بالحال، و الثانى بالاستقبال دفعا للتكرار. و كل هذا فيه من التكلف و التعسف ما لا يخفى على منصف، فإن جعل قوله: و لا أعبد ما تعبدون للاستقبال. و إن كان صحيحا على مقتضى اللغة العربية، و لكنه لا يتمّ جعل قوله: وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ للاستقبال؛ لأن الجملة اسمية تفيد الدوام و الثبات فى كل الأوقات فدخول النفى عليها يرفع ما دلت عليه من الدوام، و الثبات فى كل الأوقات، و لو كان حملها على الاستقبال صحيحا للزم مثله فى قوله: وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ و فى قوله: وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ فلا يتمّم ما قيل من حمل الجملتين الأخريين على الحال، و كما يندفع هذا يندفع ما قيل من العكس؛ لأن الجملة الثانية و الثالثة و الرابعة كلها جمل اسمية، مصدّرة بالضمائر التى هى المبتدأ فى كل واحد منها، مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيما بعده منفية كلها بحرف واحد، و هو لفظ لا فى كل واحد منها، فكيف يصحّ القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها فى الحال و الاستقبال مختلفة. و أما قول من قال: إن كل واحد منها يصلح للحال و الاستقبال، فهو إقرار منه بالتكرار؛ لأن حمل هذا على معنى و حمل هذا على معنى مع الاتحاد يكون من باب التحكم الّذى لا يدلّ عليه دليل. و إذا تقرّر لك هذا فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب، و من مذاهبهم التى لا تجحد، و استعمالاتهم التى لا تنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كرّروا، كما أن من مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب، و هذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه لأنه إنما يستدل على ما فيه خفاء و يبرهن على ما هو متنازع فيه. و أما ما كان من الوضوح و الظهور و الجلاء بحيث لا يشكّ فيه شاكّ، و لا يرتاب فيه مرتاب، فهو مستغن عن التطويل، غير محتاج إلى تكثير القال و القيل.

و قد وقع فى القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن، و ربما يكثر فى بعض السور كما فى سورة الرّحمن و سورة المرسلات و فى أشعار العرب من هذا ما لا يتأتى عليه الحصر، و من ذلك قول الشاعر «1»:

يا لبكر أنشروا لى كليبايا لبكر أين أين الفرار؟

و قول الآخر:

هلّا سألت جموع كندةيوم ولّوا أين أينا

و قول الآخر:

يا علقمه يا علقمه يا علقمةخير تميم كلّها و أكرمه

و قول الآخر:

ألا يا اسلمى ثمّ اسلمى ثمّت اسلمىثلاث تحيّات و إن لم تكلّم

____

(1). هو المهلهل بن ربيعة.

فتح القدير، ج‌5، ص: 621

و قول الآخر:

يا جعفر يا جعفر يا جعفرإن أك دحداحا فأنت أقصر

و قول الآخر:

أتاك أتاك اللّاحقون احبس احبس «1» و قد ثبت عن الصادق المصدوق، و هو أفصح من نطق بلغة العرب، أنه كان إذا تكلم

بالكلمة أعادها ثلاث مرات، و إذا عرفت هذا ففائدة ما وقع فى السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم، و إنما عبر سبحانه بما التى لغير العقلاء فى المواضع الأربعة لأنه يجوز ذلك، كما فى قولهم: سبحان ما سخر كنّ لنا، و نحوه، و النكتة فى ذلك أن يجرى الكلام على نمط واحد و لا يختلف. و قيل: إنه أراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل و لا تعبدون الحق. و قيل: إن «ما» فى المواضع الأربعة هى المصدرية لا الموصولة، أى: لا أعبد عبادتكم و لا أنتم عابدون عبادتى ... إلخ، و جملة لَكُمْ دِينُكُمْ مستأنفة لتقرير قوله: لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ و قوله: وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ كما أن قوله: وَ لِيَ دِينِ تقرير لقوله: وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ فى الموضعين، أى: إن رضيتم بدينكم فقد رضيت بدينى، كما فى قوله: لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ* «٢» و المعنى: أن دينكم الّذى هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول لى كما تطمعون، و دينى الّذى هو التوحيد مقصور على الحصول لى لا يتجاوزه إلى الحصول لكم. و قيل المعنى: لكم جزاؤكم ولى جزائى؛ لأن الدين الجزاء. قيل: و هذه الآية منسوخة بآية السيف، و قيل: ليست بمنسوخة؛ لأنها أخبار، و الأخبار لا يدخلها النسخ. قرأ الجمهور بإسكان الياء من قوله: «ولى» قرأ نافع و هشام و حفص و البزى بفتحها. و قرأ الجمهور أيضا بحذف الياء من دينى وقفا و وصلا، و أثبتها نصر بن عاصم و سلام و يعقوب وصلا و وقفا. قالوا لأنها اسم فلا تحذف. و يجاب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ و إن كانت اسما.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن ابن عباس: «أن قريشا دعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة، و يزوّجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد و كفّ عن شتم آلهتنا، و لا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإنّا نعرض عليك خصلة واحدة و لك فيها صلاح، قال: ما هى؟

قالوا: تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهك سنة، قال: حتى أنظر ما يأتينى من ربى، فجاء الوحى من عند اللّه قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ- لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ إلى آخر السورة، و أنزل اللّه: قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّی أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ إلى قوله: بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ «٣». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم،

---

(١). و صدره: فأين إلى أين النّجاة ببغلتى.

(٢). البقرة: ١٣٩.

(٣). الزمر: ٦٤- ٦٦.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٦٢٢

و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن سعيد بن مينا مولى البخترى قال: «لقى الوليد بن المغيرة و العاص بن وائل و الأسود بن المطلب و أمية بن خلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قالوا: يا محمد هلمّ فلنعبد ما تعبد و تعبد ما نعبد، و نشترك نحن و أنت فى أمرنا كله، فإن كان الّذى نحن عليه أصحّ من الّذى أنت عليه كنت قد أخذت منه حظا، و إن كان الّذى أنت عليه أصحّ من الّذى نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظا، فأنزل اللّه: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ إلى آخر السورة». و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس أن قريشا قالت:

لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك، فأنزل اللّه: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ السورة كلها.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٦٢٣

سورة النّصر

اشارة

و تسمّى سورة التوديع، هى ثلاث آيات و هى مدنية بلا خلاف. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزل بالمدينة إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و البزار و أبو يعلى و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عمر قال: هذه السورة نزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أوسط أيام التشريق بمنى، و هو فى حجّة الوداع إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ حتى ختمها فعرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنها الوداع. و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: نعيت إلىّ نفسى». و أخرج ابن مردويه عنه قال: «لما نزلت إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: نعيت إلىّ نفسى، و قرب إلىّ أجلى». و أخرج النسائى، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عنه أيضا قال: لما نزلت إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ نعيت لرسول اللّه نفسه حين أنزلت، فأخذ فى أشدّ ما كان قط اجتهادا فى أمر الآخرة. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أمّ حبيبة قالت: «لما أنزل إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إن اللّه لم يبعث نبيا إلا عمر فى أمته شطر ما عمر النبىّ الماضى قبله، فإن عيسى ابن مريم كان أربعين سنة فى بنى إسرائيل، و هذه لى عشرون سنة، و أنا ميت فى هذه السنة، فبكت فاطمة، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: أنت أوّل أهلى بى لحوقا، فتبسمت». و أخرج البيهقى عن ابن عباس قال «لما نزلت إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فاطمة و قال: إنه قد نعيت إلىّ نفسى، فبكت ثم ضحكت، و قالت: أخبرنى أنه نعيت إليه نفسه فبكيت؟ فقال: اصبرى فإنك أوّل أهلى لحاقا بى فضحكت» و قد تقدّم فى تفسير سورة الزلزلة أن هذه السورة تعدل ربع القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النصر (١١٠): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (١) وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً (٣)

النصر: العون: مأخوذ من قولهم: قد نصر الغيث الأرض: إذا أعان على نباتها و منع من قحطها، و منه قول الشاعر «١»:

إذا انصرف الشّهر الحرام فودّعى بلاد تميم و انصرى أرض عامر

---

(١). هو الراعى.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦٢٤

يقال: نصره على عدوّه ينصره نصرا؛ إذا أعانه، و الاسم: النصرة، و استنصره على عدوّه؛ إذا سأله أن ينصره عليه، قال الواحدى: قال المفسرون: إِذا جاءَ ك يا محمد نَصْرُ اللَّهِ على من عاداك، و هم قريش وَ الْفَتْحُ فتح مكة، و قيل: المراد نصره صلّى اللّه عليه و سلّم على قريش من غير تعيين، و قيل: نصره على من قاتله من الكفار، و قيل: هو فتح سائر البلاد، و قيل: هو ما فتحه اللّه عليه من العلوم، و عبّر عن حصول النصر و الفتح بالمجىء للإيذان بأنهما متوجّهان إليه صلّى اللّه عليه و سلّم. و قيل: إذا: بمعنى: قد، و قيل: بمعنى إذ. قال الرازى: الفرق بين النصر و الفتح؛ أن الفتح هو تحصيل المطلوب الّذى كان منغلقا؛ كالسبب للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر و عطف عليه الفتح؛ أو يقال النصر كمال الدين، و الفتح: إقبال الدنيا الّذى هو تمام النعمة؛ أو يقال: النصر: الظفر، و

الفتح: الجنة، هذا معنى كلامه. و يقال: الأمر أوضح من هذا و أظهر؛ فإن النصر: هو التأييد الّذى يكون به قهر الأعداء و غلبهم و الاستعلاء عليهم، و الفتح: هو فتح مساكن الأعداء و دخول منازلهم وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً أى: أبصرت الناس من العرب و غيرهم يدخلون فى دين اللّه الّذى بعثك به جماعات فوجا بعد فوج. قال الحسن: لما فتح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مكة قال العرب: أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم، و قد أجارهم اللّه من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون فى دين اللّه أفواجا، أى: جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحدا واحدا، و اثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها فى الإسلام. قال عكرمة و مقاتل: أراد بالناس: أهل اليمن، و ذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين. و انتصاب أفواجا على الحال من فاعل يدخلون، و محل قوله «يدخلون فى دين اللّه» النصب على الحال إن كانت الرؤية بصرية، و إن كانت بمعنى العلم فهو فى محل نصب على أنه المفعول الثانى. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ هذا جواب الشرط، و هو العامل فيه، و التقدير: فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر اللّه. و قال مكى: العامل فى إذا هو جاء، و رجّحه أبو حيان و ضعف الأوّل بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها، و قوله: بِحَمْدِ رَبِّكَ فى محل نصب على الحال، أى: فقل سبحان اللّه متلبسا بحمده، أو حامدا له. و فيه الجمع بين تسبيح اللّه المؤذن بالتعجب مما يسره اللّه له مما لم يكن يخطر بباله و لا بال أحد من الناس، و بين الحمد له على جميل صنعه له و عظيم منته عليه بهذه النعمة التى هى النصر و الفتح لأمّ القرى التى كان أهلها قد بلغوا فى عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة، و الأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم: هو مجنون، هو ساحر، هو شاعر، هو كاهن، و نحو ذلك. ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بالاستغفار: أى اطلب منه المغفرة لذنبك هضما لنفسك و استقصارا لعملك، و استدراكا لما فرط منك من ترك ما هو الأولى، و قد كان صلّى اللّه عليه و سلّم يرى قصوره عن القيام بحق اللّه و يكثر من الاستغفار و التضرّع و إن كان قد غفر اللّه له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخر. و قيل: إن الاستغفار منه صلّى اللّه عليه و سلّم و من سائر الأنبياء هو تعبد تعبدهم اللّه به، لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم. و قيل: إنما أمره اللّه سبحانه بالاستغفار تنبيها لأمته و تعريضا بهم، فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار. و قيل: إن اللّه سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه. و قيل: المراد بالتسبيح هنا: الصلاة. و الأولى حمله على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سرورا بالنعمة،

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦٢٥

و فرحا بما هيأه اللّه من نصر الدين، و كبت أعدائه و نزول الذلة بهم و حصول القهر لهم. قال الحسن: أعلم اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قد اقترب أجله؛ فأمر بالتسبيح و التوبة ليختم له فى آخر عمره بالزيادة فى العمل الصالح، فكان يكثر أن يقول: «سبحانك اللهم و بحمدك اغفر لى إنك أنت التواب». قال قتادة و مقاتل: و عاش صلّى اللّه عليه و سلّم بعد نزول هذه السورة سنتين، و جملة إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً تعليل لأمره صلّى اللّه عليه و سلّم بالاستغفار، أى: من شأنه التوبة على المستغفرين له يتوب عليهم و يرحمهم بقبول توبتهم، و توّاب من صيغ المبالغة، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ فى قبول توبة التائبين. و قد حكى الرازى فى تفسيره اتفاق الصحابة على أن هذه السورة دلّت على نعى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن عمر سألهم عن قول اللّه: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فقالوا:

فتح المدائن و القصور، قال: فأنت يا ابن عباس ما تقول؟ قال: قلت مثل ضرب لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم نعيت له نفسه.

و أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال: لم يدخل هذا معنا و لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلّا ليريهم، فقال: ما تقولون فى قول اللّه عزّ و جلّ: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد اللّه و نستغفره إذا نصرنا و فتح

علينا، و سكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لی: أ كذاک تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أعلمه اللّه له، قال: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فذلک علامة أجلک فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً فقال عمر: لا أعلم منها إلّا ما تقول. و أخرج ابن النجار عن سهل بن سعد عن أبی بكر أن سورة إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ حين أنزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن نفسه نعيت إليه. و أخرج ابن أبی شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عائشة قالت: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يكثر من قول: سبحان اللّه و بحمده، و أستغفره و أتوب إليه، فقلت: يا رسول اللّه أراک تكثر من قول سبحان اللّه و بحمده و أستغفر اللّه و أتوب إليه، فقال: خبرنی ربی أنی سأرى علامة من أمتی، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان اللّه و بحمده، و أستغفر اللّه و أتوب إليه، فقد رأيتها إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فتح مكة وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِی دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً- فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً».

و أخرج البخاری و مسلم و أبو داود و النسائی و ابن ماجة و غيرهم عن عائشة قالت: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يكثر أن يقول فی ركوعه و سجوده: سبحانک اللهمّ و بحمدک اللهمّ اغفر لی، يتأوّل القرآن» يعنی إذا جاء نصر اللّه و الفتح، و فی الباب أحاديث. و أخرج ابن مردويه عن أبی هريرة قال: «لما نزلت إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «جاء أهل اليمن هم أرقّ قلوبا، الإيمان يمان، و الفقه يمان، و الحكمة يمانية». و أخرج الطبرانی و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «بينما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فی المدينة إذ قال: اللّه أكبر قد جاء نصر اللّه و الفتح، و جاء أهل اليمن، قوم رقيقة قلوبهم، لينة طاعتهم، الإيمان يمان، و الفقه

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦٢٦

يمان، و الحكمة يمانية». و أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن الناس دخلوا فی دين اللّه أفواجا و سيخرجون منه أفواجا». و أخرج الحاكم و صحّحه، عن أبی هريرة قال: «تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِی دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً قال: ليخرجنّ منه أفواجا كما دخلوا فيه أفواجا».

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦٢٧

سورة المسد

اشارة

و هی مكية بلا خلاف. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير و عائشة قالوا: نزلت تَبَّتْ يَدا أَبِی لَهَبٍ بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المسد (١١١): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدا أَبِی لَهَبٍ وَ تَبَّ (١) ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ (٢) سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ (٣) وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِی جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥)

معنى تَبَّتْ هلكت. و قال مقاتل: خسرت، و قيل: خابت. و قال عطاء: ضلّت. و قيل: صفرت من كل خير، و خصّ اليدين بالتباب؛ لأن أكثر العمل يكون بهما. و قيل: المراد باليدين نفسه، و قد يعبّر باليد عن النفس،

كما فى قوله: بِما قَدَّمَتْ يَداكَ «١» أى: نفسك، و العرب تعبّر كثيرا ببعض الشىء عن كله، كقولهم: أصابته يد الدهر، و أصابته يد المنايا، كما فى قول الشاعر:

لمّا أكبّت يد الرّزاياعليه نادى ألا مجير

و أبو لهب اسمه: عبد العزّى بن عبد المطلب بن هاشم، و قوله: وَ تَبَ أى: هلك. قال الفراء:

الأوّل دعاء عليه، و الثانى خبر، كما تقول: أهلكه اللّه، و قد هلك. و المعنى: أنه قد وقع ما دعا به عليه. و يؤيده قراءة ابن مسعود: «و قد تبّ». و قيل: كلاهما إخبار، أراد بالأوّل هلاك عمله، و بالثانى هلاك نفسه.

و قيل: كلاهما دعاء عليه، و يكون فى هذا شبه من مجىء العامّ بعد الخاص، و إن كان حقيقة اليدين غير مرادة، و ذكره سبحانه بكنيته لاشتهاره بها، و لكون اسمه كما تقدّم عبد العزى، و العزى: اسم صنم، و لكون فى هذه الكنية ما يدلّ على أنه ملابس للنار؛ لأن اللهب هو لهب النار، و إن كان إطلاق ذلك عليه فى الأصل لكونه كان جميلا، و أن وجهه يتلهب لمزيد حسنه كما تتلهب النار. قرأ الجمهور: «لهب» بفتح اللام و الهاء. و قرأ مجاهد و حميد و ابن كثير و ابن محيصن بإسكان الهاء، و اتفقوا على فتح الهاء فى قوله: ذاتَ لَهَبٍ و روى صاحب الكشاف أنه قرئ «تبت يدا أبو لهب»، و ذكر وجه ذلك ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ أى: ما دفع عنه ما حلّ به من التباب و ما نزل به من عذاب اللّه ما جمع من المال و لا ما كسب من الأرباح و الجاه؛ أو المراد بقوله: ماله: ما ورثه من أبيه، و بقوله: وَ ما كَسَبَ الّذى كسبه بنفسه. قال مجاهد:

---

(١). الحج: ١٠.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦٢٨

و ما كسب من ولد، و ولد الرجل من كسبه، و يجوز أن تكون «ما» فى قوله: ما أَغْنى استفهامية، أى: أىّ شىء أغنى عنه؟ و كذا يجوز فى قوله: وَ ما كَسَبَ أن تكون استفهامية، أى: و أىّ شىء كسب؟ و يجوز أن تكون مصدرية، أى: و كسبه. و الظاهر أن ما الأولى نافية، و الثانية موصولة. ثم أوعده سبحانه بالنار فقال: سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ قرأ الجمهور: «سيصلى» بفتح الياء و إسكان الصاد و تخفيف اللام، أى: سيصلى هو بنفسه، و قرأ أبو رجاء و أبو حيوة و ابن مقسم و الأشهب العقيلى و أبو السّمّال و الأعمش و محمد بن السّميقع بضم الياء و فتح الصاد و تشديد اللام، و رويت هذه القراءة عن ابن كثير، و المعنى سيصليه اللّه، و معنى ذاتَ لَهَبٍ ذات اشتعال و توقد، و هى نار جهنم وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ معطوف على الضمير فى يصلى، و جاز ذلك للفصل، أى: و تصلى امرأته نارا ذات لهب، و هى أمّ جميل بنت حرب أخت أبى سفيان، و كانت تحمل الغضى و الشوك، فتطرحه بالليل على طريق النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، كذا قال ابن زيد و الضحاك و الربيع بن أنس و مرّة الهمدانى. و قال مجاهد و قتادة و السدى: إنها كانت تمشى بالنميمة بين الناس. و العرب تقول: فلان يحطب على فلان؛ إذا نمّ به، و منه قول الشاعر:

إنّ بنى الأدرم حمّالو الحطبهم الوشاة فى الرّضا و فى الغضب

عليهم اللّعنة تترى و الحرب و قال آخر:

من البيض لم تصطد على ظهر لأمةو لم تمش بين النّاس بالحطب الرّطب

و جعل الحطب فى هذا البيت رطبا؛ لما فيه من التدخين الّذى هو زيادة فى الشر، و من الموافقة للمشى بالنميمة، و قال سعيد بن جبير: معنى حمالة الحطب أنها حمالة الخطايا و الذنوب، من قولهم: فلان يحتطب على ظهره، كما فى قوله: وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ «١» و قيل: المعنى: حمالة الحطب فى النار. قرأ الجمهور: «حمالة» بالرفع على الخبرية على أنها جملة مسوقة للإخبار بأن امرأة أبى لهب حمالة الحطب، و أما على ما قدّمنا من عطف و امرأته على الضمير فى تصلى، فيكون رفع

حمالة على النعت لامرأته، و الإضافة حقيقية لأنها بمعنى المضىّ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف: أى هى حمالة. و قرأ عاصم بنصب «حمالة» على الذمّ، أو على أنه حال من امرأته. و قرأ أبو قلابة: «حاملة الحطب» فِی جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ الجملة فى محل نصب على الحال من امرأته، و الجيد: العنق، و المسد: الليف الّذى تفتل منه الحبال، و منه قول النابغة:

مقذوفة بدخيس النّحض بازلهاله صريف صريف القعو بالمسد «٢»

---

(١). الأنعام: ٣١.

(٢). «مقذوفة»: مرمية باللحم. «الدخيس»: الّذى قد دخل بعضه فى بعض من كثرته. «النحض»: اللحم.

«البازل»: الكبير. «الصريف»: الصيح. «القعو»: ما يضم البكرة إذا كان خشبا.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٦٢٩

و قول الآخر:

يا مسد الخوص تعوّذ منّى‏إن كنت لدنا لیّنا فإنّى

و قال أبو عبيدة: المسد: هو الحبل يكون من صوف. و قال الحسن: هى حبال تكون من شجر ينبت باليمن تسمى بالمسد. و قد تكون الحبال من جلود الإبل أو من أوبارها. قال الضحاك و غيره: هذا فى الدنيا، كانت تعير النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالفقر، و هى تحتطب فى حبل تجعله فى عنقها، فخنقها اللّه به فأهلكها، و هو فى الآخرة حبل من نار. و قال مجاهد و عروة بن الزبير: هو سلسلة من نار تدخل فى فيها و تخرج من أسفلها. و قال قتادة:

هو قلادة من ودع كانت لها. قال الحسن: إنما كان خرزا فى عنقها. و قال سعيد بن المسيب: كان لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: و اللات و العزّى لأنفقنها فى عداوة محمد، فيكون ذلك عذابا فى جسدها يوم القيامة. و المسد: الفتل، يقال: مسد حبله يمسده مسدا؛ أجاد فتله.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عباس قال: «لما نزلت: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ «١» خرج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه، فاجتمعوا إليه، فقال: أ رأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أ كنتم مصدّقى؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد؛ فقال أبو لهب: تبا لك إنما جمعتنا لهذا؟ ثم قام فنزلت هذه السورة تَبَّتْ يَدا أَبِی لَهَبٍ وَ تَبَّ. قال: خسرت. و أخرج ابن أبى حاتم عن عائشة قالت: إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، و إن ابنه من كسبه، ثم قرأت: ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ قالت: و ما كسب ولده.

و أخرج عبد الرزاق و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ ما كَسَبَ قال: كسبه ولده. و أخرج ابن جرير، و البيهقى فى الدلائل، و ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ قال:

كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليعقره و أصحابه، و قال: حَمَّالَةَ الْحَطَبِ نقالة الحديث حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ قال: هى حبال تكون بمكة. و يقال: المسد: العصا التى تكون فى البكرة.

و يقال المسد: قلادة من ودع. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو زرعة عن أسماء بنت أبى بكر قالت «لما نزلت تَبَّتْ يَدا أَبِی لَهَبٍ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب و لها ولولة، و فى يدها فهر «٢»، و هى تقول:

مذمّما أبيناو دينه قلينا

و أمره عصينا و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جالس فى المسجد و معه أبو بكر، فلما رآه أبو بكر قال: يا رسول اللّه قد أقبلت، و أنا أخاف أن تراك، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إنها لن ترانى و قرأ قرآنا، اعتصم به، كما قال تعالى: وَ إِذا قَرَأْتَ

الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً «۳» فأقبلت حتى وقفت على أبى

---

(۱). الشعراء: ۲۱۴.

(۲). «الفهر»: الحجر.

(۳). الإسراء: ۴۵.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۳۰

بكر و لم تر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقالت: يا أبا بكر إنى أخبرت أن صاحبك هجانى، قال: لا و ربّ البيت ما هجاك، فولّت و هى تقول: قد علمت قريش أنى ابنة سيدها» و أخرجه البزار بمعناه، و قال: لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۳۱

سورة الإخلاص

اشارة

و هى مكية فى قول ابن مسعود و الحسن و عطاء و عكرمة و جابر، و مدنية فى أحد قولى ابن عباس و قتادة و الضّحّاك و السدى. و أخرج أحمد، و البخارى فى تاريخه، و الترمذى و ابن جرير و ابن خزيمة، و ابن أبى عاصم فى السنة، و البغوى فى معجمه، و ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن أبيّ بن كعب: أن المشركين قالوا للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل اللّه: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ- اللَّهُ الصَّمَدُ- لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ. ليس شيء يولد إلا سيموت، و ليس شيء يموت إلا سيورث، و إن اللّه لا يموت و لا يورث وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ قال: لم يكن له شبيه و لا عدل، و ليس كمثله شيء» و رواه الترمذى من طريق أخرى عن أبى العالية مرسلا و لم يذكر أبيّا، ثم قال: و هذا أصحّ. و أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر، و الطبرانى فى الأوسط، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى عن جابر قال: جاء أعرابيّ إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: انسب لنا ربك، فأنزل اللّه: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ إلى آخر السورة» و حسّن السيوطى إسناده. و أخرج الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن مسعود قال: قالت قريش لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: انسب لنا ربك. فنزلت هذه السورة: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ». و أخرج ابن أبى حاتم و ابن عديّ، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس: أن اليهود جاءت إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم، منهم كعب بن الأشرف و حيى بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الّذى بعثك، فأنزل اللّه: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ- اللَّهُ الصَّمَدُ- لَمْ يَلِدْ فيخرج منه الولد وَ لَمْ يُولَدْ فيخرج من شيء». و أخرج أبو عبيدة فى فضائله، و أحمد، و النسائى فى اليوم و الليلة، و ابن منيع و محمد بن نصر و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عن أبيّ بن كعب، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ قل هو اللّه أحد فكأنّما قرأ ثلث القرآن». و أخرج ابن الضريس و البزار، و البيهقى فى الشعب، عن أنس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ قل هو اللّه أحد مائتى مرة غفر له ذنب مائتى سنة».

قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا الحسن بن أبى جعفر و الأغلب بن تميم، و هما يتقاربان فى سوء الحفظ.

و أخرج أحمد و الترمذى و ابن الضريس، و البيهقى فى سننه، عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إنى أحبّ هذه السورة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «حبّك إيّاها أدخلك الجنة».

و أخرج ابن الضريس و أبو يعلى، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن أنس قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «أما يستطيع أحدكم أن يقرأ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثلاث مرّات فى ليلة؟ فإنها تعدل ثلث القرآن» و إسناده ضعيف. و أخرج محمد بن نصر و أبو يعلى عن أنس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من قرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ خمسين مرّة غفر له ذنوب خمسين سنة» و إسناده ضعيف. و أخرج الترمذى و ابن عدىّ، و البيهقى فى الشعب، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مائتى مرة، كتب اللّه له ألفا و خمسمائة حسنة، و محا عنه ذنوب خمسين سنة، إلا أن يكون عليه دين» و فى إسناده حاتم بن ميمون ضعّفه البخارى

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۳۲

و غيره، و لفظ الترمذى: «من قرأ فى يوم مائتى مرة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، محى عنه ذنوب خمسين سنة، إلا أن يكون عليه دين»، و فى إسناده حاتم بن ميمون المذكور. و أخرج الترمذى و محمد بن نصر و أبو يعلى و ابن عدى و البيهقى عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من أراد أن ينام على فراشه من الليل فنام على يمينه، ثم قرأ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مائة مرة، فإذا كان يوم القيامة يقول له الربّ: يا عبدى ادخل على يمينك الجنة» و فى إسناده أيضا حاتم بن ميمون المذكور. قال الترمذى بعد إخراجه: غريب من حديث ثابت. و قد روى من غير هذا الوجه عنه. و أخرج ابن سعد و ابن الضريس و أبو يعلى، و البيهقى فى الدلائل، عن أنس قال: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالشام،- و فى لفظ: بتبوك- فهبط جبريل فقال: «يا محمد إن معاوية ابن معاوية المزنى هلك، أ فتحبّ أن تصلّى عليه؟ قال: نعم، فضرب بجناحه الأرض فتضعضع له كل شىء و لزق بالأرض و رفع سريره فصلّى عليه، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: من أىّ شىء أوتى معاوية هذا الفضل، صلى عليه صفان من الملائكة فى كل صف ستة آلاف ملك؟ قال: بقراءة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ كان يقرؤها قائما و قاعدا و جائيا و ذاهبا و نائما»، و فى إسناده العلاء بن محمد الثقفى، و هو متهم بالوضع. و روى عنه من وجه آخر بأطول من هذا، و فى إسناده هذا المتهم. و فى الباب أحاديث فى هذا المعنى و غيره.

و قد روى من غير هذا الوجه أنها تعدل ثلث القرآن، و فيها ما هو صحيح و فيها ما هو حسن؛ فمن ذلك ما أخرجه مسلم، و الترمذى و صححه، و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «احشدوا فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقرأ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ثم خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا و إنها تعدل ثلث القرآن». و أخرج أحمد و البخارى و غيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «و الّذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» يعنى قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. و أخرج أحمد و البخارى و غيرهما من حديث أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأصحابه: «أ يعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة؟ فشقّ ذلك عليهم و قالوا: أينا يطيق ذلك؟ فقال:

اللّه الواحد الصمد ثلث القرآن». و أخرج مسلم و غيره من حديث أبى الدرداء نحوه. و قد روى نحو هذا بإسناد صحيح من حديث أبى هريرة و حديث ابن مسعود، و حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، و روى نحو هذا عن غير هؤلاء بأسانيد بعضها حسن و بعضها ضعيف، و لو لم يرد فى فضل هذه السورة إلا حديث عائشة عند البخارى و مسلم و غيرهما: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعث رجلا فى سرية، فكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بقل هو اللّه أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال: «سلوه لأىّ شىء يصنع ذلك»؟

فسألوه فقال: لأنها صفة الرّحمن و أنا أحبّ أن أقرأ بها، فقال: «أخبروه أن اللّه تعالى يحبه» هذا لفظ البخارى فى كتاب التوحيد.

و أخرج البخارى أيضا فى كتاب الصلاة من حديث أنس قال: «كان رجل من الأنصار يؤمّهم فى مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة فقرأ بها لهم فى الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو اللّه أحد حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، و كان يصنع ذلك فى كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح

فتح القدير، ج‏5، ص: 633

بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها و إما أن تدعها و تقرأ بأخرى، قال: ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمّكم بذلك فعلت، و إن كرهتم تركتكم، و كانوا يرون أنه من أفضلهم فكرهوا أن يؤمّهم غيره، فلما أتاهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك و ما حملك على لزوم هذه السورة فى كل ركعة»؟ فقال: إنى أحبّها، قال: «حبك إياها أدخلك الجنة» و قد روى بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخارى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الإخلاص (112): الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ (3) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)

قوله: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ الضمير يجوز أن يكون عائدا إلى ما يفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول، و أن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فيكون مبتدأ، و اللّه مبتدأ ثان، و أحد خبر المبتدأ الثانى، و الجملة خبر المبتدأ الأوّل، و يجوز أن يكون اللّه بدلا من هو، و الخبر أحد. و يجوز أن يكون اللّه خبرا أوّل، و أحد خبرا ثانيا، و يجوز أن يكون أحد خبرا لمبتدأ محذوف، أى: هو أحد. و يجوز أن يكون هو ضمير شأن لأنه موضع تعظيم، و الجملة بعده مفسرة له و خبر عنه، و الأوّل أولى. قال الزجاج: هو كناية عن ذكر اللّه، و المعنى: إن سألتم تبيين نسبته هو اللّه أحد، قيل: و همزة أحد بدل من الواو و أصله واحد. و قال أبو البقاء: همزة أحد أصل بنفسها غير مقلوبة، و ذكر أن أحد يفيد العموم دون واحد، و ممّا يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهرى: أنه لا يوصف بالأحدية غير اللّه تعالى، لا يقال: رجل أحد، و لا درهم أحد؛ كما يقال:

رجل واحد و درهم واحد، قيل: و الواحد يدخل فى الأحد و الأحد لا يدخل فيه، فإذا قلت: لا يقاومه واحد؛ جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد. و فرّق ثعلب بين واحد و بين أحد بأن الواحد يدخل فى العدد، و أحد لا يدخل فيه. و ردّ عليه أبو حيان بأنه يقال: أحد و عشرون و نحوه فقد دخله العدد، و هذا كما ترى. و من جملة القائلين بالقلب الخليل. قرأ الجمهور: «قل هو اللّه أحد» بإثبات قل.

و قرأ عبد اللّه بن مسعود و أبىّ: «اللّه أحد» بدون قل. و قرأ الأعمش «قل هو اللّه الواحد»، و قرأ الجمهور بتنوين أحد، و هو الأصل. و قرأ زيد بن علىّ و أبان بن عثمان و ابن أبى إسحاق و الحسن و أبو السّمّال و أبو عمرو فى رواية عنه بحذف التنوين للخفة؛ كما فى قول الشاعر:

عمرو الّذى هشم الثّريد لقومهو رجال مكّة مسنتون عجاف

و قيل: إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف، فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين. و يجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأوّل منهما بالكسر اللَّهُ الصَّمَدُ الاسم الشريف مبتدأ، و الصمد خبره، و الصمد: هو الّذى يصمد إليه فى الحاجات، أى: يقصد؛ لكونه قادرا على قضائها، فهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض؛ لأنه مصمود

إليه، أى: مقصود إليه، قال

فتح القدير، ج‏5، ص: 634

الزجاج: الصّمد: السّند الّذى انتهى إليه السؤدد، فلا سيد فوقه. قال الشاعر:

ألا بكّر النّاعى بخير بنى أسدبعمرو بن مسعود و بالسّيّد الصّمد

و قيل: معنى الصمد: الدائم الباقى الّذى لم يزل و لا يزول. و قيل: معنى الصمد ما ذكره بعده من أنه الّذى لم يلد و لم يولد. و قيل: هو المستغنى عن كل أحد، و المحتاج إليه كل أحد. و قيل: هو المقصود فى الرغائب، و المستعان به فى المصائب، و هذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأوّل. و قيل: هو الّذى يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد. و قيل: هو الكامل الّذى لا عيب فيه. و قال الحسن و عكرمة و الضحاك و سعيد بن جبير و سعيد بن المسيب و مجاهد و عبد اللّه بن بريدة و عطاء و عطية العوفى و السدى: الصمد: هو المصمت الّذى لا جوف له، و منه قول الشاعر:

شهاب حروب لا تزال جياده‌عوابس يعلكن الشّكيم المصمّدا «1»

و هذا لا ينافى القول الأوّل لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد، ثم استعمل فى السيد المصمود إليه فى الحوائج، و لهذا أطبق على القول الأوّل أهل اللغة و جمهور أهل التفسير، و منه قول الشاعر:

علوته بحسام ثمّ قلت له‌خذها حذيف فأنت السّيّد الصّمد

و قال الزبرقان بن بدر:

سيروا جميعا بنصف اللّيل و اعتمدواو لا رهينة إلا سيّد صمد

و تكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية، و حذف العاطف من هذه الجملة لأنها كالنتيجة للجملة الأولى، و قيل: إن الصمد صفة للاسم الشريف و الخبر هو ما بعده، و الأوّل أولى؛ لأن السياق يقتضى استقلال كل جملة لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ أى: لم يصدر عنه ولد، و لم يصدر هو عن شى‏ء؛ لأنه لا يجانسه شى‏ء، و لاستحالة نسبة العدم إليه سابقا و لا حقا. قال قتادة: إن مشركى العرب قالوا: الملائكة بنات اللّه. و قالت اليهود: عزير ابن اللّه. و قالت النصارى: المسيح ابن اللّه، فأكذبهم اللّه فقال: لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ قال الرازى: قدّم ذكر نفى الولد، مع أن الولد مقدّم للاهتمام، لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين: إن الملائكة بنات اللّه، و اليهود: عزير ابن اللّه، و النصارى: المسيح ابن اللّه، و لم يدّع أحد أن له والدا، فلهذا السبب بدأ بالأهمّ فقال: لَمْ يَلِدْ ثم أشار إلى الحجّة فقال: وَ لَمْ يُولَدْ كأنه قيل: الدليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولدا لغيره، و إنما عبّر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد و لم يولد فى الماضى و لم يذكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك فى المستقبل لأنه ورد جوابا عن قولهم:

ولد اللّه كما حكى اللّه عنهم بقوله: أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ- وَلَدَ اللَّهُ «2» فلما كان المقصود من

---

(1). «علكت الدابة اللجام»: لاكته و حرّكته. «الشكيم»: الحديد المعترضة فى فم الدابة.

(2). الصافات: 151- 152.

فتح القدير، ج‏5، ص: 635

هذه الآية تكذيب قولهم، و هم إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد النفى فيما مضى، وردت الآية لدفع قولهم هذا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها؛ لأنه سبحانه إذا كان متّصفا بالصفات المتقدمة كان متّصفا بكونه لم يكافئه أحد، و لا يماثله، و لا يشاركه فى شى‏ء، و أخّر اسم كان لرعاية الفواصل، و قوله:

«له» متعلق بقوله: «كفوا» قدم عليه لرعاية الاهتمام؛ لأن المقصود نفى المكافأة عن ذاته. و قيل: إنه فى محل نصب على الحال، و الأوّل أولى. و قد ردّ المبرد على سيبويه بهذه الآية لأن سيبويه قال: إنه إذا تقدّم الظرف كان هو الخبر، و هاهنا لم يجعل خبرا مع تقدّمه، و قد ردّ على المبرد بوجهين: أحدهما: أن سيبويه لم يجعل ذلك حتما بل جوّزه. و الثانى: أنا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر، بل يجوز أن يكون خبرا و يكون كفوا منتصبا على الحال. و حكى فى الكشاف عن سيبويه على أن الكلام العربىّ الفصيح أن يؤخر الظرف الّذى هو لغو غير مستقرّ، و اقتصر فى هذه الحكاية على نقل أوّل كلام سيبويه و لم ينظر إلى آخره، فإنه قال فى آخر كلامه: و التقديم و التأخير و الإلغاء و الاستقرار عربىّ جيد كثير، انتهى. قرأ الجمهور:

«كفوا» بضم الكاف و الفاء و تسهيل الهمزة، و قرأ الأعرج و سيبويه و نافع فى رواية عنه بإسكان الفاء، و روى ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة واوا وصلا و وقفا، و قرأ نافع فى رواية عنه «كفأ» بكسر الكاف و فتح الفاء من غير مدّ، و قرأ سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن العباس كذلك مع المدّ، و أنشد قول النابغة:

لا تقذفنّى بركن لا كفاء له و الكفء فى لغة العرب النظير، يقول: هذا كفؤك، أى: نظيرك، و الاسم الكفاءة بالفتح.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و المحاملى فى أماليه، و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، عن بريدة، لا أعلمه إلا رفعه. قال: الصَّمَدُ: الّذى لا جوف له، و لا يصحّ رفع هذا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: الصَّمَدُ: الّذى لا جوف له، و فى لفظ: ليس له أحشاء.

و أخرج ابن أبى عاصم و ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن المنذر عنه قال: الصَّمَدُ: الّذى لا يطعم، و هو المصمت. و قال: أو ما سمعت النائحة و هى تقول:

لقد بكّر النّاعى بخير بنى أسدبعمرو بن مسعود و بالسّيّد الصّمد

و كان لا يطعم عند القتال، و قد روى عنه أن الّذى يصمد إليه فى الحوائج، و أنه أنشد البيت، و استدلّ به على هذا المعنى، و هو أظهر فى المدح و أدخل فى الشرف، و ليس لوصفه بأنه لا يطعم عند القتال كثير معنى.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: الصَّمَدُ: السيد الّذى قد كمل فى سؤدده، و الشريف الّذى قد كمل فى شرفه، و العظيم الّذى قد كمل فى عظمته، و الحليم الّذى قد كمل فى حلمه، و الغنىّ الّذى قد كمل فى غناه، و الجبار الّذى قد كمل فى جبروته، و العالم الّذى قد كمل فى علمه، و الحكيم الّذى قد كمل فى حكمته، و هو الّذى قد كمل فى أنواع الشرف و السؤدد، و هو اللّه سبحانه هذه صفة لا تنبغى إلا

فتح القدير، ج‏5، ص: 636

له ليس له كفو و ليس كمثله شي‏ء. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى عن ابن مسعود قال: الصَّمَدُ: هو السيد الّذى قد انتهى سؤدده فلا شي‏ء أسود منه. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عباس قال: الصَّمَدُ: الّذى تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء. و أخرج ابن جرير من طرق عنه فى قوله: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ قال: ليس له كفو و لا مثل.

فتح القدير، ج‏5، ص: 637

سورة الفلق

اشارة

و هی مکیة فی قول الحسن و عکرمة و عطاء و جابر، و مدنیة فی أحد قولی ابن عباس و قتادة، و أخرج أحمد و البزار و الطبرانی و ابن مردویه من طرق- قال السیوطی: صحیح- عن ابن مسعود أنه کان یحکّ المعوّذتین فی المصحف یقول: لا تخلطوا القرآن بما لیس منه، إنهما لیستا من کتاب اللّه، إنما أمر النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم أن یتعوّذ بهما، و کان ابن مسعود لا یقرأ بهما. قال البزار: لم یتابع ابن مسعود أحد من الصحابة. و قد صحّ عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم أنه قرأ بهما فی الصلاة و أثبتتا فی المصحف. و أخرج أحمد و البخاری و النسائی و غیرهم عن زرّ بن حبیش قال: «أتیت المدینة فلقیت أبیّ بن کعب، فقلت له: أبا المنذر إنی رأیت ابن مسعود لا یکتب المعوّذتین فی مصحفه، فقال: أما و الّذی بعث محمدا بالحقّ لقد سألت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم عنهما و ما سألنی عنهما أحد منذ سألته غیرک، قال: «قیل لی: قل، فقلت: فقولوا» فنحن نقول کما قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم». و أخرج الطبرانی عن ابن مسعود «أن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم سئل عن هاتین السورتین، فقال: «قیل لی، فقلت فقولوا کما قلت».

و أخرج مسلم و الترمذی و النسائی و غیرهم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «أنزلت علیّ اللیلة آیات لم أر مثلهنّ قطّ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . و أخرج ابن الضریس و ابن الأنباری، و الحاکم و صححه، و ابن مردویه، و البیهقی فی الشعب عن عقبة بن عامر قال: قلت یا رسول اللّه:

أقرئنی سورة یوسف و سورة هود، قال: «یا عقبة اقرأ بقل أعوذ برب الفلق، فإنک لن تقرأ سورة أحبّ إلی اللّه و أبلغ منها، فإذا استطعت أن لا تفوتک فافعل». و أخرج ابن سعد و النسائی و البغوی و البیهقی عن أبی حابس الجهنی أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «یا أبا حابس أخبرک بأفضل ما تعوّذ به المتعوّذون؟ قال بلی یا رسول اللّه، قال: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ هما المعوّذتان».

و أخرج الترمذی و حسّنه، و ابن مردویه و البیهقی عن أبی سعید الخدری قال: «کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یتعوّذ من عین الجانّ و من عین الإنس، فلما نزلت سورة المعوّذتین أخذ بهما و ترک ما سوی ذلک». و أخرج أبو داود و النسائی، و الحاکم و صححه، عن ابن مسعود: «أن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم کان یکره عشر خصال، و منها أنه کان یکره الرقی إلا بالمعوّذتین». و أخرج ابن مردویه عن أمّ سلمة قالت: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «من أحب السور إلی اللّه قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . و أخرج النسائی و ابن الضریس، و ابن حبان فی صحیحه، و ابن الأنباری و ابن مردویه عن جابر بن عبد اللّه قال: «أخذ بمنکبی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم ثم قال: اقرأ، قلت: ما أقرأ بأبی أنت و أمی؟ قال: قل أعوذ بربّ الفلق، ثم قال اقرأ، قلت: بأبی أنت و أمی ما أقرأ؟ قال: قل أعوذ بربّ الناس، و لم تقرأ بمثلهما». و أخرج مالک فی الموطأ، عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة: «أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم کان إذا اشتکی یقرأ علی نفسه بالمعوّذتین و ینفث، فلما اشتد وجعه کنت أقرأ علیه و أمسح بیده علیه رجاء برکتهما». و أخرجه البخاری و مسلم فی

فتح القدیر، ج‏5، ص: 638

صحیحیهما، من طریق مالک بالإسناد المذکور. و أخرج عبد بن حمید فی مسنده، عن زید بن أرقم قال:

«سحر النبیّ رجل من الیهود، فاشتکی، فأتاه جبریل، فنزل علیه بالمعوّذتین، و قال: إن رجلا من الیهود سحرک، و السحر فی بئر فلان، فأرسل علیا، فجاء به، فأمره أن یحلّ العقد، و یقرأ آیة و یحلّ، حتی قام النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم کأنما نشط من عقال». و أخرجه ابن مردویه و البیهقی من حدیث عائشة مطوّلا، و کذلک أخرجه من حدیث ابن عباس.

و قد ورد فی فضل المعوّذتین، و فی قراءة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم لهما فی الصلاة و غیرهما أحادیث، و فیما ذکرناه کفایة. و أخرج الطبرانی فی الصغیر، عن علیّ بن أبی طالب قال: «لدغت النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم عقرب و هو یصلی، فلما فرغ

قال: لعن اللّه العقرب لا تدع مصلّيا و لا غيره، ثم دعا بماء و ملح و جعل يمسح عليها و يقرأ:
قل يا أيها الكافرون، و قل هو اللّه أحد، و قل أعوذ بربّ الفلق، و قل أعوذ برب الناس».
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (٢) وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (٣) وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)
وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (٥)

الْفَلَقِ الصبح، يقال: هو أبين من فلق الصبح، و سمّى فلقا لأنه يفلق عنه الليل، و هو فعل بمعنى مفعول، قال الزجاج: لأن الليل ينفلق عنه الصبح، و يكون بمعنى مفعول، يقال: هو أبين من فلق الصبح، و من فرق الصبح، و هذا قول جمهور المفسرين، و منه قول ذى الرّمة:

حتّى إذا ما انجلى عن وجهه فلقهاديه «١» فى أخريات الّليل منتصب

و قول الآخر:

يا ليلة لم أنمها بتّ مرتفقا «٢»أرعى النّجوم إلى أن نوّر الفلق

و قيل: هو سجن فى جهنم، و قيل: هو اسم من أسماء جهنم، و قيل: شجرة فى النار، و قيل: هو الجبال و الصخور، لأنها تفلق بالمياه، أى: تشقق، و قيل: هو التفليق بين الجبال؛ لأنها تنشقّ من خوف اللّه. قال النحاس: يقال لكل ما اطمأنّ من الأرض فلق، و منه قول زهير:

ما زلت أرمقهم حتّى إذا هبطتأيدى الرّكاب بهم من راكس فلقا

و الركس: بطن الوادى، و مثله قول النابغة:

---

(١). «هاديه»: أى أوله.

(٢). «مرتفقا»: أى متكئا على مرفق يده.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦٣٩
أتانى و دونى راكس فالضّواجع «١» و قيل: هو الرحم تنفلق بالحيوان، و قيل: هو كلّ ما انفلق عن جميع ما خلق اللّه من الحيوان و الصبح و الحبّ و النوى، و كلّ شىء من نبات و غيره، قاله الحسن و الضحاك. قال القرطبى: هذا القول يشهد له الانشقاق، فإن الفلق: الشقّ، فلقت الشىء فلقا: شققته، و التفليق مثله، يقال: فلقته فانفلق و تفلق، فكلّ ما انفلق عن شىء من حيوان و صبح و حبّ و نوى و ماء فهو فلق. قال اللّه سبحانه: فالِقُ الْإِصْباحِ «٢» و قال: فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى «٣» انتهى. و القول الأوّل أولى لأن المعنى و إن كان أعمّ منه و أوسع مما تضمّنه لكنه المتبادر عند الإطلاق. و قد قيل فى وجه تخصيص الفلق: الإيماء إلى أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كلّ هذا العالم يقدر أيضا أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه و يخشاه، و قيل: طلوع الصبح كالمثال لمجىء الفرح؛ فكما أن الإنسان فى الليل يكون منتظرا لطلوع الصباح، كذلك الخائف يكون مترقبا لطلوع صباح النجاح، و قيل: غير هذا مما هو مجرّد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ متعلق بأعوذ، أى: من شرّ كلّ ما خلقه سبحانه من جميع مخلوقاته فيعمّ جميع الشرور، و قيل: هو إبليس و ذريّته، و قيل: جهنم، و لا وجه لهذا التخصيص، كما أنه لا وجه لتخصيص من خصّص هذا العموم بالمضارّ البدنية. و قد حرّف بعض المتعصّبين هذه

الآیة مدافعة عن مذهبه و تقویما لباطله، فقرؤوا بتنوین شرّ على أن «ما» نافیة، و المعنى: من شرّ لم یخلقه، و منهم عمرو بن عبید و عمرو بن عائذ وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ الغاسق: اللیل، و الغسق: الظلمة، یقال: غسق اللیل یغسق؛ إذا أظلم. قال الفراء:

یقال: غسق اللیل و أغسق؛ إذا أظلم، و منه قول قیس بن الرقیات:

إنّ هذا اللّیل قد غسقاو اشتکیت الهمّ و الأرقا

و قال الزجاج: قیل للیل: غاسق؛ لأنه أبرد من النهار، و الغاسق، البارد، و الغسق: البرد، و لأن فی اللیل تخرج السباع من آجامها، و الهوامّ من أماکنها، و ینبعث أهل الشرّ على العیث و الفساد، کذا قال، و هو قول بارد، فإن أهل اللغة على خلافه، و کذا جمهور المفسرین. و وقبه: دخول ظلامه، و منه قول الشاعر:

وقب العذاب علیهم فکأنّهملحقتهم نار السّموم فأحصدوا

أی: دخل العذاب علیهم، و یقال: وقبت الشمس؛ إذا غابت، و قیل: الغاسق: الثریا، و ذلک أنها إذا سقطت کثرت الأسقام و الطواعین، و إذا طلعت ارتفع ذلک، و به قال ابن زید. و هذا محتاج إلى نقل عن العرب أنهم یصفون الثریا بالغسوق. و قال الزهری: هو الشمس إذا غربت، و کأنه لاحظ معنى الوقوب و لم یلاحظ معنى الغسوق، و قیل: هو القمر إذا خسف، و قیل: إذا غاب. و بهذا قال قتادة و غیره، و استدلوا بحدیث أخرجه أحمد و الترمذی و ابن جریر و ابن المنذر، و أبو الشیخ فی العظمة، و الحاکم و صحّحه، و ابن

---

(۱). و صدر البیت: وعید أبی قابوس فی غیر کنهه.

(۲). الأنعام: ۹۶.

(۳). الأنعام: ۹۵.

مردویه عن عائشة قالت: «نظر رسول اللّه صلّى اللّه علیه و سلّم یوما إلى القمر لما طلع فقال: یا عائشة استعیذی باللّه من شرّ هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب». قال الترمذی: بعد إخراجه حسن صحیح، و هذا لا ینافی قول الجمهور، لأن القمر آیة اللیل و لا یوجد له سلطان إلا فیه، و هکذا یقال فی جواب من قال: إنه الثریا.

قال ابن الأعرابی: فی تأویل هذا الحدیث: و ذلک أن أهل الریب یتحینون و جبة القمر. و قیل: الغاسق: الحیة إذا لدغت. و قیل الغاسق: کلّ هاجم یضرّ کائنا من کان، من قولهم غسقت القرحة؛ إذا جرى صدیدها.

و قیل: الغاسق: هو السائل، و قد عرّفناک أن الراجح فی تفسیر هذه الآیة هو ما قاله أهل القول الأوّل، و وجه تخصیصه أن الشرّ فیه أکثر، و التحرز من الشرور فیه أصعب، و منه قولهم: اللیل أخفى للویل وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِی الْعُقَدِ النفاثات: هنّ السواحر، أی: و من شر النفوس النفاثات، أو النساء النفاثات، و النفث: النفخ کما یفعل ذلک من یرقی و یسحر، قیل: مع ریق، و قیل: بدون ریق، و العقد: جمع عقدة، و ذلک أنهنّ کن ینفثن فی عقد الخیوط حین یسحرن بها، و منه قول عنترة:

فإن یبرأ فلم أنفث علیهو إن یفقد فحقّ له الفقود

و قول متمّم بن نویرة:

نفثت فی الخیط شبیه الرّقىمن خشیة الجنّة و الحاسد

قال أبو عبیدة: النفاثات هنّ بنات لبید الأعصم الیهودی، سحرن النبیّ صلّى اللّه علیه و سلّم. قرأ الجمهور:

النَّفَّاثاتِ جمع: نفاثة؛ على المبالغة. و قرأ یعقوب و عبد الرّحمن بن سابط و عیسى بن عمر النَّفَّاثاتِ جمع: نافثة. و قرأ الحسن

النَّفَّاثاتِ بضم النون. و قرأ أبو الربيع النفثات بـدون ألف. وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ الحسد: تمنى زوال النعمة التى أنعم اللّه بها على إيقاع الشرّ بالمحسود.

قال عمر بن عبد العزيز: لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد. و قد نظم الشاعر هذا المعنى فقال:

قل للحسود إذا تنفّس طعنةًيا ظالما و كأنّه مظلوم

ذكر اللّه سبحانه فى هذه السورة إرشاد رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الاستعاذة من شرّ كل مخلوقاته على العموم، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجه تحت العموم لزيادة شرّه و مزيد ضرّه، و هو الغاسق و النفاثات و الحاسد، فكأن هؤلاء لما فيهم من مزيد الشرّ حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر.

و قد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن عبسة قال: «صلى بنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقرأ: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ فقال: يا ابن عبسة أ تدرى ما الفلق؟ قلت: اللّه و رسوله أعلم، قال: بئر فى جهنم». و أخرجه ابن أبى حاتم من قول عمرو بن عبسة غير مرفوع. و أخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال: قال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «اقرأ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ هل تدرى ما الفلق؟ باب فى النار إذا فتح سعرت جهنم».

و أخرج ابن مردويه و الديلمى عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قول اللّه

فتح القدير، ج‏5، ص: 641

عزّ و جلّ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ فقال: هو سجن فى جهنم، يحبس فيه الجبارون و المتكبرون، و إن جهنّم لتتعوّذ باللّه منه». و أخرج ابن جرير عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الفلق جبّ فى جهنم».

و هذه الأحاديث لو كانت صحيحة ثابتة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لكان المصير إليها واجبا، و القول بها متعينا.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الفلق سجن فى جهنم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: الفلق: الصبح. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: الفلق: الخلق. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ قال: النجم: هو الغاسق، و هو الثريا. و أخرجه ابن جرير و ابن أبى حاتم، و من وجه آخر عنه غير مرفوع. و قد قدّمنا تأويل هذا، و تأويل ما ورد أن الغاسق القمر. و أخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا ارتفعت النجوم رفعت كلّ عاهة عن كلّ بلد». و هذا لو صحّ لم يكن فيه دليل على أن الغاسق هو النجم أو النجوم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ قال: الليل إذا أقبل. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ قال: الساحرات. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: هو ما خالط السحر من الرقى. و أخرج النسائى و ابن مردويه عن أبى هريرة أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، و من سحر فقد أشرك، و من تعلّق شيئا و كل إليه». و أخرج ابن سعد و ابن ماجة و الحاكم و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: «جاء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يعودنى فقال: ألا أرقيك برقية رقانى بها جبريل؟ فقلت:

بلى بأبى أنت و أمى، قال: بسم اللّه أرقيك و اللّه يشفيك من كل داء فيك» مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ- وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ فرقى بها ثلاث مرات». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ قال: نفس ابن آدم و عينه.

فتح القدير، ج‏5، ص: 642

سورة النّاس

اشارة

و الخلاف فى كونها مكية أو مدنية كالخلاف الّذى تقدّم فى سورة الفلق. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزل بمكة قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزل بالمدينة قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ و قد قدّمنا فى سورة الفلق ما ورد فى سبب نزول هذه السورة، و ما ورد فى فضلها، فارجع إليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الناس (١١٤): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ (٤)

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ (٦)

قرأ الجمهور: قُلْ أَعُوذُ بالهمزة. و قرئ بحذفها و نقل حركتها إلى اللام، و قرأ الجمهور بترك الإمالة فى الناس، و قرأ الكسائى بالإمالة. و معنى ربّ الناس: مالك أمرهم و مصلح أحوالهم، و إنما قال ربّ الناس مع أنه ربّ جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم، و لكون الاستعاذة وقعت من شرّ ما يوسوس فى صدورهم، و قوله: مَلِكِ النَّاسِ عطف بيان جىء به لبيان أن ربيته سبحانه ليست كربية سائر الملاك لما تحت أيديهم ممن مماليكهم، بل بطريق الملك الكامل، و السلطان القاهر إِلهِ النَّاسِ هو أيضا عطف بيان كالذى قبله؛ لبيان أن ربوبيته و ملكه قد انضمّ إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية، المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلى بالاتحاد و الإعدام، و أيضا الربّ قد يكون ملكا، و قد لا يكون ملكا، كما يقال ربّ الدار و ربّ المتاع، و منه قوله: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ «١» فبين أنه ملك الناس. ثم الملك قد يكون إلها، و قد لا يكون، فبين أنه إله؛ لأن اسم الإله خاصّ به لا يشاركه فيه أحد، و أيضا بدأ باسم الربّ و هو اسم لمن قام بتدبيره و إصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلا كاملا، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك فذكر أنه ملك الناس. ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه، و أنه عبد مخلوق و أن خالقه إله معبود بين سبحانه أنه إله الناس، و كرّر لفظ الناس فى الثلاثة المواضع لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار، و لأن التكرير يقتضى مزيد شرف الناس مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ قال الفرّاء: هو بفتح الواو بمعنى الاسم، أى: الموسوس، و بكسرها المصدر، أى: الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة، و قيل: هو بالفتح اسم بمعنى

---

(١). التوبة: ٣١.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦٤٣

الوسوسة، و الوسوسة: هى حديث النفس: يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة، أى: حدّثته حديثا، و أصلها، الصوت الخفىّ، و منه قيل: لأصوات الحلى وسواس، و منه قول الأعشى:

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت «١» قال الزجّاج: الوسواس هو الشيطان، أى: ذى الوسواس، و يقال: إن الوسواس ابن لإبليس، و قد سبق تحقيق معنى الوسوسة فى تفسير قوله: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ «٢» و معنى الْخَنَّاسِ كثير الخنس، و هو التأخر، يقال: خنس يخنس؛ إذا تأخر، و منه قول أبى العلاء الحضرمىّ يمدح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

فإن دحسوا بالشّرّ فاعف تكرّماو إن خنسوا عند الحديث فلا تسل

قال مجاهد: إذا ذكر اللّه خنس و انقبض، و إذا لم يذكر انبسط على القلب. و وصف بالخناس لأنه كثير الاختفاء، و منه قوله تعالى: فَلاٰ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ «٣» يعنى النجوم لاختفائها بعد ظهورها كما تقدّم، و قيل: الخناس اسم لابن إبليس كما تقدّم فى الوسواس الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النّٰاسِ الموصول يجوز أن يكون فى محل جرّ نعتا للوسواس، و يجوز أن يكون منصوبا على الذم، و يجوز أن يكون مرفوعا على تقدير مبتدأ. و قد تقدّم معنى الوسوسة. قال قتادة: إن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب فى صدر الإنسان، فإذا غفل ابن آدم عن ذكر اللّه وسوس له، و إذا ذكر العبد ربّه خنس. قال مقاتل: إن الشيطان فى صورة خنزير يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى عروقه، سلّطه اللّه على ذلك، و وسوسته: هى الدعاء إلى طاعته بكلام خفىّ يصل إلى القلب من غير سماع صوت.

ثم بيّن سبحانه الّذى يوسوس بأنه ضربان: جنى و إنسى، فقال: مِنَ الْجِنَّةِ وَ النّٰاسِ أما شيطان الجنّ فيوسوس فى صدور الناس، و أما شيطان الإنس فوسوسته فى صدور الناس: أنه يرى نفسه كالناصح المشفق فيوقع فى الصدر من كلامه الّذى أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته كما قال سبحانه:

شَيٰاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ «۴» و يجوز أن يكون متعلقا ب «يوسوس» أى يوسوس فى صدورهم من جهة الجنة و من جهة الناس، و يجوز أن يكون بيانا للناس. قال الرازى و قال قوم: من الجنة و الناس قسمان مندرجان تحت قوله: فِي صُدُورِ النّٰاسِ لأن القدر المشترك بين الجنّ و الإنس يسمّى إنسانا، و الإنسان أيضا يسمّى إنسانا، فيكون لفظ الإنسان واقعا على الجنس و النوع بالاشتراك. و الدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس و الجنّ ما روى أنه جاء نفر من الجنّ، فقيل لهم: من أنتم؟ قالوا: ناس من الجنّ. و أيضا قد سمّاهم اللّه رجالا فى قوله: وَ أَنَّهُ كٰانَ رِجٰالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجٰالٍ مِنَ الْجِنِّ «۵» و قيل: يجوز أن يكون المراد أعوذ بربّ الناس من الوسواس الخناس؛ الّذى يوسوس فى صدور الناس، و من الجنة و الناس،

---

(۱). و عجز البيت: كما استعان بريح عشرق زجل. و العشرق: نبت له ورق فإذا يبس طار. و نبت زجل: صوّتت فيه الريح.

(۲). الأعراف: ۲۰.

(۳). التكوير: ۱۵.

(۴). الأنعام: ۱۱۲.

(۵). الجن: ۶.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۶۴۴

كأنه استعاذ ربه من ذلك الشيطان الواحد، ثم استعاذ بربه من جميع الجنة و الناس، و قيل: المراد بالناس الناسى و سقطت الياء كسقوطها فى قوله: يَوْمَ يَدْعُ الدّٰاعِ «۱» ثم بيّن بالجنة و الناس؛ لأن كل فرد من أفراد الفريقين فى الغالب مبتلى بالنسيان، و أحسن من هذا أن يكون قوله: وَ النّٰاسِ معطوفا على الوسواس، أى: من شرّ الوسواس و من شرّ الناس؛ كأنه أمر أن يستعيذ من شرّ الجنّ و الإنس. قال الحسن: أما شيطان الجنّ فيوسوس فى صدور الناس، و أما شيطان الإنس فيأتى علانية. و قال قتادة: إن من الجنّ شياطين، و إن من الإنس شياطين، فنعوذ باللّه من شياطين الجنّ و الإنس، و قيل: إن إبليس يوسوس فى صدور الجنّ كما يوسوس فى صدور الإنس، و واحد الجنة: جنّى، كما أن واحد الإنس إنسىّ. و القول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال، و إن كان وسوسة الإنس فى صدور الناس لا تكون إلا بالمعنى الّذى قدّمنا، و يكون هذا البيان تذكير الثقلين للإرشاد إلى أن من استعاذ باللّه منهما ارتفعت عنه محن الدنيا و الآخرة.

و قد أخرج ابن أبى داود عن ابن عباس فى قوله: الْوَسْوٰاسِ الْخَنّٰاسِ قال: مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فمه على فم القلب

فیوسوس إلیه، فإن ذکر اللّه خنس، و إن سکت عاد إلیه، فهو الوسواس الخناس.

و أخرج ابن أبی الدنیا فی مکائد الشیطان، و أبو یعلی و ابن شاهین، و البیهقی فی الشعب، عن أنس عن النبیّ صلّى اللّه علیه و سلّم قال: «إن الشیطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذکر اللّه خنس، و إن نسیه التقم قلبه، فذلک الوسواس الخناس». و أخرج ابن أبی شیبة و ابن جریر و ابن مردویه عن ابن عباس فی قوله: الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ قال: الشیطان جاث على قلب ابن آدم، فإذا سها و غفل وسوس، و إذا ذکر اللّه خنس. و أخرج ابن أبی الدنیا و ابن جریر و ابن المنذر، و الحاکم و صححه، و ابن مردویه، و الضیاء فی المختارة، و البیهقی عنه قال: ما من مولود یولد إلا على قلبه الوسواس، فإذا ذکر اللّه خنس، و إذا غفل وسوس، فذلک قوله:

الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ و قد ورد فی معنى هذا غیره، و ظاهره أن مطلق ذکر اللّه یطرد الشیطان، و إن لم یکن على طریق الاستعاذة، و لذکر اللّه سبحانه فوائد جلیلة؛ حاصلها: الفوز بخیری الدنیا و الآخرة.

و إلى هنا انتهى هذا التفسیر المبارک بقلم مؤلفه محمد بن علی بن محمد الشوکانی، غفر اللّه له ذنوبه، و کان الفراغ منه فی ضحوة یوم السبت؛ لعله الثامن و العشرون من شهر رجب، أحد شهور سنة تسع و عشرین بعد مائتین و ألف سنة من الهجرة النبویة.

اللهمّ کما مننت علیّ بإکمال هذا التفسیر، و أعنتنی على تحصیله، و تفضّلت علیّ بالفراغ منه، فامنن علیّ بقبوله، و اجعله لی ذخیرة عندک، و أجزل لی المثوبة بما لاقیته من التعب و النصب فی تحریره و تقریره، و انفع به من شئت من عبادک لیدوم لی الانتفاع به بعد موتی، فإن هذا هو المقصد الجلیل من التصنیف، و اجعله

---

(۱). القمر: ۶.

فتح القدیر، ج‏۵، ص: ۶۴۵

خالصا لک، و تجاوز عنی إذا خطر لی من خواطر السوء ما فیه شائبة تخالف الإخلاص، و اغفر لی ما لا یطابق مرادک، فإنی لم أقصد فی جمیع أبحاثی فیه إلا إصابة الحق و موافقة ما ترضاه، فإن أخطأت فأنت غافر الخطیئات، و مسبل ذیل الستر على الهفوات، یا بارئ البریات، و أحمدک لا أحصی حمدا لک، و أشکرک لا أحصی شکرک، أنت کما أثنیت على نفسک، و أصلی و أسلم على رسولک.

تمّ سماعا على مؤلفه، حفظ اللّه عزّته یوم الاثنین؛ صبح الیوم الخامس من شهر ربیع الأوّل سنة (۱۲۴۱) ه.

کتبه یحیى بن علی الشوکانی غفر اللّه لهما

فتح القدیر، ج‏۵، ص: ۶۴۷

فهرس الموضوعات

الآیات الصفحة الآیات الصفحة سورة الجاثیة (۴۵) تفسیر الآیات (۱- ۱۵) ۵ تفسیر الآیات (۱۶- ۲۶) ۹ تفسیر الآیات (۲۷- ۳۷) ۱۲ سورة الأحقاف (۴۶) تفسیر الآیات (۱- ۹) ۱۶ تفسیر الآیات (۱۰- ۳۶) ۱۹ تفسیر الآیات (۱۷- ۲۰) ۲۴ تفسیر الآیات (۲۱- ۲۸) ۲۷ تفسیر الآیات (۲۹- ۳۵) ۳۰ سورة محمد (۴۷) تفسیر الآیات (۱- ۱۲) ۳۵ تفسیر الآیات (۱۳- ۱۹) ۴۰ تفسیر الآیات (۲۰- ۳۱) ۴۵ تفسیر الآیات (۳۲- ۳۸) ۴۹ سورة الفتح (۴۸) تفسیر الآیات (۱- ۷) ۵۲ تفسیر الآیات (۸- ۱۵) ۵۶ تفسیر الآیات (۱۶- ۲۴) ۵۹ تفسیر الآیات (۲۵- ۲۹) ۶۳ سورة الحجرات (۴۹) تفسیر الآیات (۱- ۸) ۶۹ تفسیر الآیات (۹- ۱۲) ۷۳ تفسیر

الآيات (١٣- ١٨) ٧٨ سورة ق (٥٠) تفسير الآيات (١- ١٥) ٨٣ تفسير الآيات (١٦- ٣٥) ٨٨ تفسير الآيات (٣٦- ٤٥) ٩٤ سورة الذاريات (٥١) تفسير الآيات (١- ٢٣) ٩٨ تفسير الآيات (٢٤- ٣٧) ١٠٥ تفسير الآيات (٣٨- ٦٠) ١٠٧ سورة الطور (٥٢) تفسير الآيات (١- ٢٠) ١١٣ تفسير الآيات (٢١- ٣٤) ١١٧ تفسير الآيات (٣٥- ٤٩) ١٢١ سورة النجم (٥٣) تفسير الآيات (١- ٢٦) ١٢٥ تفسير الآيات (٢٧- ٤٢) ١٣٤ تفسير الآيات (٤٣- ٦٢) ١٣٩ سورة القمر (٥٤) تفسير الآيات (١- ١٧) ١٤٤ تفسير الآيات (١٨- ٤٠) ١٥٠ تفسير الآيات (٤١- ٥٥) ١٥٤ سورة الرّحمن (٥٥) تفسير الآيات (١- ٢٥) ١٥٧ تفسير الآيات (٢٦- ٤٥) ١٦٣ تفسير الآيات (٤٦- ٧٨) ١٦٧

فتح القدير، ج٥، ص: ٦٤٨

سورة الواقعة (٥٦) تفسير الآيات (١- ٢٦) ١٧٦ تفسير الآيات (٢٧- ٥٦) ١٨٢ تفسير الآيات (٥٧- ٧٤) ١٨٨ تفسير الآيات (٧٥- ٩٦) ١٩١ سورة الحديد (٥٧) تفسير الآيات (١- ٦) ١٩٨ تفسير الآيات (٧- ١١) ١٩٩ تفسير الآيات (١٢- ١٥) ٢٠٢ تفسير الآيات (١٦- ١٩) ٢٠٦ تفسير الآيات (٢٠- ٢٤) ٢٠٩ تفسير الآيات (٢٥- ٢٩) ٢١٢ سورة المجادلة (٥٨) تفسير الآيات (١- ٤) ٢١٧ تفسير الآيات (٥- ١٠) ٢٢٢ تفسير الآيات (١١- ١٣) ٢٢٥ تفسير الآيات (١٤- ٢٢) ٢٢٩ سورة الحشر (٥٩) تفسير الآيات (١- ٧) ٢٣٢ تفسير الآيات (٨- ١٠) ٢٣٨ تفسير الآيات (١١- ٢٠) ٢٤٢ تفسير الآيات (٢١- ٢٤) ٢٤٦ سورة الممتحنة (٦٠) تفسير الآيات (١- ٣) ٢٥٠ تفسير الآيات (٤- ٩) ٢٥٢ تفسير الآيات (١٠- ١٣) ٢٥٥ سورة الصف (٦١) تفسير الآيات (١- ٩) ٢٦١ تفسير الآيات (١٠- ١٤) ٢٦٤ سورة الجمعة (٦٢) تفسير الآيات (١- ٨) ٢٦٧ تفسير الآيات (٩- ١١) ٢٢٧٠ سورة المنافقون (٦٣) تفسير الآيات (١- ٨) ٢٧٤ تفسير الآيات (٩- ١١) ٢٧٨ سورة الطلاق (٦٥) تفسير الآيات (١- ٥) ٢٨٧ تفسير الآيتين (٦- ٧) ٢٩٢ تفسير الآيات (٨- ١٢) ٢٩٤ سورة التحريم (٦٦) تفسير الآيات (١- ٥) ٢٩٧ تفسير الآيات (٦- ٨) ٣٠١ تفسير الآيات (٩- ١٢) ٣٠٤ سورة الملك (٦٧) تفسير الآيات (١- ١١) ٣٠٧ تفسير الآيات (١٢- ٢١) ٣١٢ تفسير الآيات (٢٢- ٣٠) ٣١٤ سورة ن (٦٨) تفسير الآيات (١- ١٦) ٣١٨ تفسير الآيات (١٧- ٣٣) ٣٢٣ تفسير الآيات (٣٤- ٥٢) ٣٢٦ سورة التغابن (٦٤) تفسير الآيات (١- ٦) ٢٨٠ تفسير الآيات (٧- ١٣) ٢٨٢ تفسير الآيات (١٤- ١٨) ٢٨٤ سورة الحاقة (٦٩) تفسير الآيات (١- ١٨) ٣٣٣ تفسير الآيات (١٩- ٥٢) ٣٣٨ سورة سأل سائل (٧٠) تفسير الآيات (١- ١٨) ٣٤٤ تفسير الآيات (١٩- ٣٩) ٣٤٩ تفسير الآيات (٤٠- ٤٤) ٣٥٢

فتح القدير، ج٥، ص: ٦٤٩

سورة نوح (٧١) تفسير الآيات (١- ٢٠) ٣٥٥ تفسير الآيات (٢١- ٢٨) ٣٥٩ سورة الجن (٧٢) تفسير الآيات (١- ١٣) ٣٦٣ تفسير الآيات (١٤- ٢٨) ٣٦٩ سورة المزمل (٧٣) تفسير الآيات (١- ١٨) ٣٧٧ تفسير الآيات (١٩- ٢٠) ٣٨٥ سورة المدثر (٧٤) تفسير الآيات (١- ٣٠) ٣٨٨ تفسير الآيات (٣١- ٣٧) ٣٩٦ تفسير الآيات (٣٨- ٥٦) ٣٩٩ سورة القيامة (٧٥) تفسير الآيات (١- ٢٥) ٤٠٢ تفسير الآيات (٢٦- ٤٠) ٤١٠ سورة الإنسان (٧٦) تفسير الآيات (١- ١٢) ٤١٤ تفسير الآيات (١٣- ٢٢) ٤٢١ تفسير الآيات (٢٣- ٣١) ٤٢٦ سورة المرسلات (٧٧) تفسير الآيات (١- ٢٨) ٤٢٩ تفسير الآيات (٢٩- ٥٠) ٤٣٣ سورة عمّ (٧٨) تفسير الآيات (١- ٣٠) ٤٣٧ تفسير الآيات (٣١- ٤٠) ٤٤٥ سورة النازعات (٧٩) تفسير الآيات (١- ٢٦) ٤٤٩ تفسير الآيات (٢٧- ٤٦) ٤٥٦ سورة عبس (٨٠) تفسير الآيات (١- ٤٢) ٢٤٦٢ سورة التكوير (٨١) تفسير الآيات (١- ٢٩) ٤٦٩ سورة الانفطار (٨٢) تفسير الآيات (١- ١٩) ٤٧٨ سورة المطففين (٨٣) تفسير الآيات (١- ١٧) ٤٨٢ تفسير الآيات (١٨- ٣٦) ٤٨٧ سورة الانشقاق (٨٤) تفسير الآيات (١- ٢٥) ٤٩١ سورة البروج (٨٥) تفسير الآيات (١- ٢٢) ٤٩٨ سورة الطارق (٨٦) تفسير الآيات (١- ١٧) ٥٠٧ سورة الأعلى (٨٧) تفسير الآيات (١- ١٩) ٥١٣ سورة الغاشية (٨٨) تفسير الآيات (١- ٢٦) ٥٢٠ سورة الفجر (٨٩) تفسير الآيات (١- ١٤) ٥٢٦ تفسير الآيات (١٥- ٣٠) ٥٣٣ سورة البلد (٩٠) تفسير الآيات (١- ٢٠) ٥٣٨ سورة الشمس (٩١) تفسير الآيات (١- ١٥) ٥٤٥ سورة الليل

(۹۲) تفسير الآيات (۱– ۲۱) ۵۵۰ سورة الضحى (۹۳) تفسير الآيات (۱– ۱۱) ۵۵۶ سورة ألم نشرح (۹۴) تفسير الآيات (۱– ۸) ۵۶۲

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۵۰

سورة التين (۹۵) تفسير الآيات (۱– ۸) ۵۶۶ سورة اقرأ (۹۶) تفسير الآيات (۱– ۱۹) ۵۷۰ سورة القدر (۹۷) تفسير الآيات (۱– ۵) ۵۷۵ سورة لم يكن (۹۸) تفسير الآيات (۱– ۸) ۵۷۸ سورة الزلزلة (۹۹) تفسير الآيات (۱– ۸) ۵۸۳ سورة العاديات (۱۰۰) تفسير الآيات (۱– ۱۱) ۵۸۷ سورة القارعة (۱۰۱) تفسير الآيات (۱– ۱۱) ۵۹۳ سورة التكاثر (۱۰۲) تفسير الآيات (۱– ۸) ۵۹۶ سورة العصر (۱۰۳) تفسير الآيات (۱– ۳) ۶۰۰ سورة الهمزة (۱۰۴) تفسير الآيات (۱– ۹) ۲۶۰۲ سورة الفيل (۱۰۵) تفسير الآيات (۱– ۵) ۶۰۵ سورة قريش (۱۰۶) تفسير الآيات (۱– ۴) ۶۰۸ سورة أ رأيت (۱۰۷) تفسير الآيات (۱– ۷) ۶۱۱ سورة الكوثر (۱۰۸) تفسير الآيات (۱– ۳) ۶۱۴ سورة الكافرون (۱۰۹) تفسير الآيات (۱– ۶) ۶۱۹ سورة النصر (۱۱۰) تفسير الآيات (۱– ۳) ۶۲۳ سورة تبت (۱۱۱) تفسير الآيات (۱– ۵) ۶۲۷ سورة الإخلاص (۱۱۲) تفسير الآيات (۱– ۴) ۶۳۳ سورة الفلق (۱۱۳) تفسير الآيات (۱– ۵) ۶۳۸ سورة الناس (۱۱۴) تفسير الآيات (۱– ۶) ۶۴۲ فهرس الموضوعات ۶۴۷

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابِذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بِساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسة و طريقة لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ مِن خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافة الثّقلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النافعة – مكانَ البلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِقِ و التسهيلاتِ – فی آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم - مِن جِهةٍ أُخرَى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلةَ السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد"/ ما بينَ شارع"پنج رَمَضان" ومُفترَق"وفائى"/بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنَّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجّلَ اللهُ تعالى فَرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التمكن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مركز القائمية اصبهان للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩